

جيرتروود بيل

من أوراقها الشخصية

1914 - 1926

تأليف: إليزابيث بيرغوين

ترجمة وتحرير وتعليق

نمير عباس مظفر

تقديم : عبد الرحمن منيف

جيرتروود بيل : من أوراقها الشخصيّة / سياسة ـ مذكّرات
إليزابيث بيرغوين / مؤلّفة من بريطانية
تقديم : عبد الرحمن منيف
ترجمة : نمير عبّاس مظفّر / مترجم من العراق
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت، تلة الخيّاط، بناية زين العابدين شهاب،
ص. ب: ٥٤٦٠ ـ ١١، العنوان البرقي: موكيّالي،
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
الإشراف الفني :
تصميم الغلاف :
رافع الناصري / العراق
الصف الضوئي :
مطبعة الجامعة الأردنيّة ، عمّان

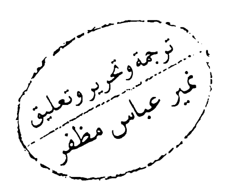
جيرتروود بيل

من أوراقها الشخصية

1914 - 1926

تأليف: إليزابيث بيرغوين

تقديم : عبد الرحمن منيف





الإهداء

إلى ذكرى والدي، المرحوم عباس مظفر ...
الذي له يعود الفضل أساساً في توجيه خطواتي الفتية
على طريق حب القراءة والاستقراء.

الفهرس

المرأة التي انشأت دولة ونصبّت ملكاً

تقديم : عبد الرحمن منيف

مع مطلع القرن العشرين ، أصبح واضحاً أن الامبراطورية العثمانية لم تعد قادرة على البقاء طويلاً ، فقد انهكها الضعف ، وعم فيها الفساد ، وتفجرت داخلها المشاكل التي طالما حاولت ابعادها أو تأجيلها ، وازداد تربص الطامعين والخصوم بها ، يطوقونها من كل جانب ويحكمون عليها الحصار ، لكي يرثوها ويتقاسموا تركتها ، خاصة بعد أن تم الاتفاق بين هؤلاء على المناطق والنسب .

الأقاليم العربية ، والتي هي جزء من الامبراطورية العثمانية ، كانت أيضاً في حالة مخاض أقرب إلى الغليان ، فهي تحاول انتزاع استقلالها وحريتها من الامبراطورية العجوز ، وتحاول في نفس الوقت أن لا تستقر ، أو بالأحرى أن تكسب تأييد الدول الاوروبية ، لكن هذه الدول التي تتظاهر بالدعم والتأييد كانت لها نوايا مختلفة ، إذ بالاضافة إلى كونها دولاً استعمارية لا تخفى ، لذلك لم تهمل الاقطار العربية ولم تتركها . كانت لها بالمرصاد ، وتنتظر اللحظة المناسبة للانقضاض عليها ، ومن أجل ذلك استعدت مبكراً واتفقت فيما بينها على كيفية تقاسم تركة الامبراطورية ، وقد اوفدت لهذه الغاية اعداداً كبيرة من رجالها وعيونها تحت تسميات متعددة إلى اقاليم الامبرطورية ، خاصة الاقطار العربية ، تجوسها وتدرس أوضاعها تمهيداً لاختيار أفضل الطرق والوسائل من اجل وضع اليد عليها ، والسيطرة على خيراتها ، واخضاع شعوبها .

من جملة الذين أُوفدوا لهذه الغاية ومنذ وقت مبكر : المبشرون والباحثون عن الآثار ، والدارسون للغات الشرقية ، والمهتمون بالقبائل والعشائر والعلاقات الاجتماعية والأقليات . وكان عدد غير قليل من

هؤلاء الموفدين مرتبطين بدوائر المخابرات ويعملون بتوجيهها .

ضمن الذين أُوفدوا للمنطقة العربية في بداية القرن العشرين ، وكلفوا بمهمات ونشاطات تركت بصمات واضحة استمرت آثارها لفترة طويلة : لورنس وفيلبي والمس بيل .

واذا كان لورنس قد نال الشهرة الاوسع بين الثلاثة ، ونسبت اليه الاهمية الأكبر ، وكتب الكثير عن شخصه ودوره ، بما في ذلك نشاطه العسكري في اقتحام المواقع ونسف الجسور والسكك الحديد اثناء الحرب العالمية الاولى ، مما عجل في سرعة انحسار نفوذ الامبراطورية العثمانية عن بلدان المشرق العربي ، خاصة وان الاعمال ترافقت مع وعود وعهود قدمها لورنس باسم الامبراطورية البريطانية باستقلال البلدان العربية ووحدة اراضيها حالما تنتهي الحرب بانتصار الحلفاء ، فان ما عزز صورة لورنس اكثر : الحياة الرومانسية التي عاشها ، وما تخللها من مغامرات واعتقال وهروب ، ثم تلك العزلة التي لجأ اليها في أعقاب الحرب ، بما في ذلك تغيير اسمه وشخصيته ، واخيراً النهاية الفاجعة التي انتهى اليها . لقد صور كل ذلك في مجموعة من الافلام والكتب صدرت عنه ، وجعلت منه الاكثر شهرة ، بحيث تركزت عليه وحدة الاضواء ، وعزيت اليه المآثر والخوارق في الوقت الذي غُيِّبت أو اختصرت أدوار الآخرين .

صحيح ان فيلبي لا يعتبر مغبوناً من حيث المعرفة والشهرة قياساً للورنس ، إذ عاش فترة طويلة ، وكتب في حقول شتى ، كما لعب ادواراً بالغة الاهمية ، وان ظل اكثرها طي الخفاء ، خاصة في بلدان الجزيرة العربية ، ومع ذلك بقي اقل بريقاً من لورنس ، واقتصرت المعرفة به على اوساط دون غيرها .

الاقل شهرة بين الثلاثة ، ولا تكاد تعرف خارج العراق ، وفقط ضمن اوساط محدودة وضيقة ، هي جيرتروود بيل ، او مس بيل ، حسب

التسمية الأكثر تداولاً ، او الخاتون كما كان يطلق عليها عامة الناس .

تعتبر المس بيل شخصية فذة ودورها بالغ الاهمية ، ان لم يكن حاسماً ، في الصيغة التي اخذتها المنطقة في اعقاب الحرب العالمية الأولى من حيث العلاقة مع بريطانيا ، ومن حيث نوعية الحكم الذي قام في العراق .

بدأت علاقة المس بيل بالمنطقة مع بداية القرن العشرين تقريباً ، وقد تزاملت ولورنس في البحث عن الآثار ، وكانت البداية في كركميش ، عند مدخل نهر الفرات إلى سورية ، وظل الاثنان معاً فترة من الزمن ، ثم افترقا كل إلى مكان وكل لمهمة ، إذ اخذت المس بيل تجوب المنطقة من اقصاها إلى اقصاها بحجة البحث عن الآثار مرة ، وبحجة دراسة لهجات البدو مرة ، وبحجة الالمام باصول القبائل وبأنسابها ثالثة ، إلى ان وصلت إلى اعماق الجزيرة العربية في محاولة لاستمالة عدد من شيوخ البدو إلى جانب الحكومة البريطانية وتعبئة عواطف العرب ضد الاتراك ، الامر الذي ادى إلى احتجازها في حائل من قبل ابن رشيد الذي كان موالياً للاتراك ، إلى ان تم الافراج عنها وترحيلها من الجزيرة العربية . أما لورنس فقد اختص بالهاشميين ووثق العلاقة معهم حتى نهاية الحرب .

مغامرات خطرة ومتعددة اندفعت اليها مس بيل ، وقد دفعت ثمناً لقاء ذلك ، فهي لم تهدأ ولم تتوقف عن التجوال والاقامة لفترات غير قصيرة في بلدان المنطقة ، مما ساعدها اكثر من قبل على اتقان العربية ، وإلى التعرف على كثيرين ممن يعملون في الحقل العام ، اضافة إلى الالمام اكثر بتفاصيل المنطقة ومشاكلها ، إلى ان إنتدبت للعمل في العراق اثناء الحرب العالمية الأولى ، وكان من حسن حظها ان تعمل مع واحد من ابرز صانعي خرائط المنطقة : السير بيرسي كوكس .

من خلال وصولها إلى العراق ، وبحكم ما تملك من معرفة

وامكانيات ومواهب، ونظراً للموقع الذي احتلته، بدأت رحلتها الكبرى، وبدأت في صناعة الممالك وتنصيب الملوك واختيار الوزراء وتقسيم النفوذ والارزاق، بحيث لم تمر فترة إلا واصبحت الخاتون التي تضفي على الاشخاص والاشياء شكلها واهميتها، واصبح التقرب اليها وكسب ثقتها ورضاها هدفاً لكثيرين من الساسة والمتطلعين إلى المناصب والنفوذ، أما من يعاديها أو يختلف معها، حتى لو كان من ابناء جلدتها والعاملين معها في الإدارة، فان مصيره النفي أو النقل، ان لم يكن اكثر من ذلك!

من جملة الذين تعرضوا لانتقامها، بعد ان وقفوا في وجهها: طالب النقيب ثم فيلبي. فالسيد طالب، زعيم البصرة غير المنازع، والذي كان طامحاً لاحتلال عرش العراق، باعتباره واحداً من أبناء البلاد، وكان حظه في الوصول الى العرش لا يقل عن فيصل بن الحسين، لما يتمتع به من قوة وعلاقات تأييد، اضافة إلى دعم بعض رجال الادارة الانكليزية من العاملين في ادارة الانتداب، لم يلبث هذا السياسي الطموح، بعد ان عبّر عن نواياه وهيأ نفسه بحكم الاتصالات التي كان يجريها بهدف تسلم العرش، ان تعرض لغضب المس بيل، خاصة وان الاخيرة اخذت تميل الى تزكية فيصل، وتحاول ابعاد او اضعاف المرشحين الآخرين. ورغم ان طالب النقيب كان يشغل مركزاً حكومياً رفيعاً في الحكومة الانتقالية التي كان يرأسها عبدالرحمن النقيب، إلا ان غضب الخاتون عليه ادى إلى تجريده من منصبه أولاً، ثم إلى نفيه بعد ذلك للهند، وظل في المنفى بضع سنين، جرى خلالها تنصيب فيصل ملكاً على العراق، واقامة صيغة جديدة للحكم، بحيث اصبحت الدنيا حين عاد طالب من المنفى، بعد ان سمح له بذلك، مختلفة تماماً عما تركها، وهكذا طواه النسيان وانتهى دون ان يخلف اثراً. لقد حصل كل ذلك لان المس بيل ارادت له هذا المصير!

اما المستر فيلبي الذي كان احد صانعي السياسة البريطانية في المنطقة العربية ، خاصة في العراق ، وقد شغل مناصب عديدة في ادارة الانتداب ، بما فيها مستشار وزارة الداخلية ، وكان بمثابة الوزير الفعلي ، وكانت له خطوط كبيرة في الارتقاء واشتغال مناصب اكبر ، إلا ان خلافه مع المس بيل ، خاصة فيمن يجب ان يشغل عرش العراق ، إذ كان فيلبي ميالاً إلى طالب النقيب وغير مقتنع بفيصل الاول ، ادى هذا الاجتهاد ثم الخلاف بين الاثنين ، إلى ان تتبنى الادارة ، المندوب السامي في العراق اولاً ، ثم مؤتمر القاهرة الذي انعقد لدراسة هذه القضية وقضايا المنطقة الاخرى ، واخيراً موقف لندن ، ادى ذلك إقرار موقف المس بيل ، في ان يكون فيصل ملكاً ، مما اغضب فيلبي ثم إلى اعتكافه ، الامر الذي حمل الادارة على نقله إلى مكان آخر وتكليفه بمهمات اخرى .

وبريطانيا التي كانت تتطلع منذ وقت مبكر لان تضع يدها على العراق ، نظراً لاهميته ، ولانه محطة رئيسية في الطريق إلى الهند ، ما كادت تنتصر في الحرب ، وتفرد سيطرتها على هذا البلد حتى واجهتها مجموعة من المشاكل والثورات ، جعلت موقفها دقيقاً وصعباً ، إذ لم يهدأ الداخل ، ولم يقر لها منافسوها بما كانت تطالب به او تريده ، وهكذا اندلعت الثورات الواحدة بعد الاخرى ، فما كانت ثورة النجف تنتهي حتى انفجرت ثورة العشرين ، وما كادت ثورات العشائر العربية تهدأ او تتوقف في وسط العراق وجنوبه حتى هبت حركات التمرد والعصيان في الشمال . وما ان توصلت إلى صيغة اولية لنظام الانتداب ، وتشرع في اقامة الادارة ، حتى قوبلت برفض واسع ، الامر الذي اضطرها لاعادة النظر والتفكير بصيغة اكثر قبولاً وثباتاً ، وكان ان توصلت إلى اعتبار النظام الملكي هو الصيغة الملائمة ، لانها تساعد على الاستقرار!

توصلت بريطانيا إلى هذه القناعة في الوقت الذي عزلت فرنسا

فيصل بن الشريف حسين عن عرش سورية واضطرته إلى المغادرة ، مستغلة بقاء لواء الموصل موضوعاً للمساومة ، لان هذا اللواء بقي بين تركيا التي تطالب به ، وبين بريطانيا التي تريد اتباعه للعراق كي تتمكن من السيطرة على ثروته النفطية ، وبين فرنسا التي تعتبره جزءاً من سورية اعتماداً على اتفاقيات سايكس بيكو التي عقدت خلال الحرب .

في ظل اجواء بهذا التعقيد والتداخل قدر لاثنين ان يلعبا دوراً حاسماً في تقرير مصير العراق ، من حيث ضبط اوضاعه ورسم حدوده وتحديد نوعية وشكل الحكم الذي يجب ان يقوم فيه . كان هذان الاثنان هما السير بيرسي كوكس وجيرتروود بيل .

صحيح ان الحاكم الفعلي ، هو المندوب السامي بيرسي كوكس ، صاحب التجربة الطويلة في المنطقة ، والذي يتمتع بصفات مميزة ادارياً وسياسياً ، إلا ان وجود الخاتون ، المس بيل إلى جانبه كان ضرورياً ، واليها يعود الفضل الكبير في ترتيب الكثير من الامور ، إذ بالاضافة إلى معرفتها بالعربية وبأنساب القبائل وطبيعة العلاقات التي تربط أو تباعد بين الشيوخ والمناطق ، فقد كانت تملك قدرة فائقة على العمل ، وعلى اقامة العلاقات ، وحل المشاكل والمنازعات ، وترتيب الامور التي يصعب على غيرها القيام بها .

ومن المفيد ان نتوقف هنا عند موضوع تنصيب فيصل بن الحسين ملكاً على العراق ، نظراً لاهمية الموضوع اولاً ، ولانه يمثل نموذجاً لقابليات هذه المرأة ، ثانياً .

حين بدا واضحاً ان الميل هو اختيار النظام الملكي للعراق ، كان هناك عدد كبير من المرشحين لتسنم العرش ، وكان لكل واحد من هؤلاء المرشحين منطقته ومؤيدوه والمتحمسون له ، وكان له أيضاً من يؤيده ، أو يتظاهر بذلك ، من رجال الانتداب ، وكأن المسألة مسابقة لإشغال

منصب يعتقد كل من المرشحين أنه أهل لذلك!

من هؤلاء المرشحين : عبد الرحمن النقيب ، أبرز رجال بغداد ونقيب أشرافها ، وقد اعتمد عليه الانتداب في تشكيل أول حكومة بعد الحرب ، وكان موضع ثقة المندوب السامي والإدارة البريطانية . ولولا تقدمه في العمر وثقل حركته ومرضه لكان حظه في الوصول إلى العرش كبيراً .

أما طالب النقيب فكان أبرز زعماء البصرة وأكثرهم نفوذاً وحركة ، ولولا تسلطه وغروره ، وميله إلى الفرض والعناد ، لاستطاع أن يقيم علاقات ودية مع إدارة الانتداب ، لكن هذه العلاقات كانت دوماً عرضةً للتأرجح والخطر ، مما أدى إلى عدم الثقة به وإلى استمرار الخشية منه .

وكان ضمن المرشحين للعرش أيضاً : هادي باشا العمري ، أحد زعماء مدينة الموصل ، ثم حاكم إمارة المحمرة ، الشيخ خزعل . وحاكم نجد عبد العزيز ابن سعود ، ووالي بشت كومه الايراني ، كما رشح أيضاً الآغا خان لعرش العراق ، وأضيف إلى المرشحين فيصل بن الحسين الذي عزل عن عرش سورية وأخذ يبحث عن عرش بديل ، وكان المستر تشيرشل يميل إلى فيصل أكثر من أي مرشح آخر لأن «تنصيب فيصل على عرش العراق سيزيد من سيطرة الحكومة البريطانية عليه وعلى أبيه شريف مكة»(*)

وهكذا ، وما أن انعقد مؤتمر القاهرة ، والذي تقرر فيه تبني فيصل كي يكون ملكاً ، حتى اندفعت المس بيل إلى تنفيذ هذا القرار الذي لاقى هوى كبيراً في نفسها ، باعتبارها أكثر المتحمسين لفيصل ، وأول مرشح لهذه المهمة .

وكما أشرنا تواً ، كان المتحمسون والمرشحون للعرش كثيرين ، وكانت

(*) عبدالرحمن البزاز ، العراق من الاحتلال إلى الاستقلال بغداد ، 1967 .

الفروق بين واحد وآخر قليلة ، وهنا ظهرت قوة المس بيل ومكرها ، في إسقاط المرشحين المنافسين لفيصل الواحد بعد الآخر . لجأت إلى المداهنة والإقناع بما حمل أكثر المرشحين حظاً ، عبد الرحمن النقيب ، على الانسحاب . ولجأت إلى القوة والحزم في إبعاد ثم نفي طالب النقيب ، الذي يشكل خطورة حقيقية على فيصل سواء انتخب ملكاً أو بقي في العراق ، لما له من تأثير وعلاقات . كما لجأت المس بيل إلى شيوخ العشائر وإلى رجال الدين ، واستعانت بزعماء المدن والأحياء من أجل تنظيم حملة تطالب بتنصيب فيصل ملكاً للعراق ، وهكذا استطاعت بكثير من الحركة والجهد والتنظيم أن تجعل فيصلاً الأوفر حظاً في تولي العرش ، مستغلة البيت الذي ينتسب إليه ، والصفة التي كانت له ، والتأييد الذي حصل عليه نتيجة التحريض والتعبئة ، بما في ذلك الصحافة التي انشئت من أجل الدعاية له وإقناع الرأي العام بجدارته .

إن الجهد الذي بذلته المس بيل ، والذي تناول أدق التفاصيل ، منذ لحظة وصول فيصل إلى البصرة ، ثم مروره أو توقفه في بعض المحطات ، وزياراته للأماكن المقدسة ، وفي أوقات معينة ، وأيضاً ما يجب أن يقوله للناس وما يقدمه من وعود ، وحتى الملابس التي يحسن ارتداؤها ، واختيار الأشخاص الذين يفترض أن يرافقوه ويحيطوا به ، والآخرين الذين يفترض أن يتعاون معهم في إدارة البلاد ، وكان في مقدمتهم جعفر العسكري ونوري السعيد . . . إن هذه التفاصيل التي أشرفت عليها المس بيل بنفسها ، والقوى التي حشدتها من أجل ذلك ، جعلت اختيار فيصل ملكاً تحصيل حاصل ، كما يقال ، إذ أصبح في نهاية المطاف المرشح الوحيد للعرش ، بعد أن نسق الآخرون بأشكال شتى ،وأصبح الاستفتاء الذي تمت الدعوة إليه إقراراً بالأمر الواقع ، وتثبيتاً لحقيقة أمست لا تحتاج سوى بعض الشكليات كي تكتمل .

هناك مقدار كبير من «الحقائق» الصغيرة التي تشير إليها المس بيل من أجل إنجاز هذه المهمة ، مهمة اختيار النظام الملكي للعراق ، وفي فترة مليئة بالاضطرابات والصراع ، وكان من الممكن أن تطيح بها أو تغيرها ، لولا قوة هذه المرأة وإصرارها ، وأيضاً قدرتها على تكييف الأمور لتحقيق هذه الغاية ، والمرونة التي كانت تتمتع بها من أجل تطويع أقوى الرجال وأكثرهم عناداً وصلابة .

إن اختيار رجل مثل فيصل لعرش العراق أمر بالغ الصعوبة ، إن لم يكن مستحيلاً ، لولا المس بيل . فهذا الرجل الذي لم تمض سوى شهور على هزيمته في سورية من قبل الفرنسيين ، والذي يتصف بروح رومانسية من حيث النظرة والعلاقات ، والتصرفات أيضاً ، وكان موضع منافسة من بعض أفراد أسرته وخصومه ، وكان غريباً عن هذا البلد ، إذ لم يره من قبل ، ولا يعرف إلا القليلين من رجاله ، فقط أولئك الذين التحقوا بالثورة العربية حين أعلنها والده الشريف حسين عام 1916 ، ورافق بعضهم فيصلاً في مسيرته نحو دمشق ، وأصبحوا جزءاً من العناصر التي يعتمد عليها في إدارة السياسة والحرب حين تولى حكم سورية ، ثم حين واجه الفرنسيين ، ولما هزم عاد أغلب هؤلاء إلى الأماكن التي انطلقوا منها ، أو هاموا على وجوههم باحثين عن مكان أو صيغة حياة جديدة .

إن أوضاعاً مثل هذه ورجالاً كهؤلاء كانوا بحاجة إلى قوة استثنائية لكي تعيد تنظيم أوضاعهم وأدوارهم ، وما كان هذا الشيء ليحصل ، ووفق هذا النسق لولا المس بيل .

لم يقتصر الأمر على ذلك ، إذ ما كادت تبرز المصاعب والتحديات ، من حيث إقامة المؤسسات واختيار الرجال لإدارتها ، وما كاد ينشأ الجيش وما يقتضيه من رجال وأسلحة وأموال ، وما أن ظهر عجز الموازنة وتزايد هذا العجز سنة بعد اخرى ، وما أن بدأت التمردات ، خاصة في

الشمال ، وإعلان عدد من المتنفذين عصيانهم على الحكومة المركزية ، حتى بدأ يظهر ضعف فيصل وتردده ، بل وظهر ميله إلى اعتزال السلطة والتخلي عن هذه المهمة الصعبة ، لولا المس بيل وعدد من الرجال الذين اندفعوا للمساعدة وتحمل الجزء الأكبر من الأعباء ، مما أدى إلى تماسك فيصل من جديد ومتابعة المسيرة .

ومن أجل إسناده والوقوف بقوة إلى جانبه ، أخذت المس بيل تتولى الكثير من الأمور اليومية والخاصة ، بما في ذلك العناية بالصحة والأسرة والإشراف على الزوجة والأولاد في اختيار المربيات والملابس ، وفي تعليم اللغات ، وغير ذلك الكثير من الشؤون ، بحيث لم يعد من الممكن الاستغناء عنها أو الاعتماد على غيرها . وكان فيصل الأول يلجأ إليها في الصغيرة والكبيرة ، إلى أن وصل الأمر إلى حد الالتباس في العلاقة ، وتشير المس بيل ذاتها إلى عدد من الحالات حين كان فيصل الأول يستدعيها إلى مزرعته الخاصة في خانقين ليناقش معها بعض الأمور ، أو لكي يفضي إليها بمكنونات عقله وقلبه!

أما الرجال الأساسيين في بناء الدولة وإدارتها ، فكانت علاقة المس بيل بأغلبهم وثيقة ، وكانوا يسترشدون برأيها ويتشاورون معها في معظم القضايا ، أما اولئك الذين اختلفوا معها أو لم يمتثلوا لتوجيهاتها فقد انتهى بهم الأمر إلى المقاطعة والأبعاد ، وإن حاول فيصل الأول ، بعد أن تمرس بالحكم ، أن يبقيهم في الظل فترة من الزمن ثم يستعيدهم مرة أخرى!

وما يقال عن انشاء الدولة العراقية واختيار نظام الحكم ، يمكن ان يقال اكثر منه عن انشاء المؤسسات والادارات ، وقد ساهمت المس بيل ، مع رجالها الاقربين ، في اقامة الكثير منها ، وارتبط بعضها باسمها حتى بعد ان لم تعد موجودة ، ولعل انشاء المتحف العراقي وزيادة عمليات التنقيب عن الآثار ، من جملة ما اولته عناية خاصة ، وربما بدافع الحنين

إلى العمل الأول الذي بدأت به علاقتها بالمنطقة!

حتى الطقس القاسي في العراق خلال فصل الصيف ، والذي يضيق به ساكنوه من ابنائه ، ويهرب منه الاجانب استطاعت المس بيل احتماله والتكيف معه ، وقد صدف ان مرت اصياف عديدة غادر خلالها معظم الاجانب ، خاصة من الانكليز ، البلاد في الوقت الذي بقيت راضية وليست مرغمة ، وتعودت ثم الفت هذا الجو ، بحيث اعتبرت العراق موطناً ثانياً لها .

حتى فيصل الذي كان يقضي اجازاته الصيفية في شمال البلاد او يسافر إلى اوروبا ، هرباً من الحرارة الشديدة في بغداد ، اعتبرت المس بيل الحصول على مراوح كهربائية هبة لا تقدر لمواجهة هذا الجو ، ولا تفضل مكاناً آخر على بغداد ، وإذا حاولت ان تمنح نفسها بعض الامتيازات تتبرد في مياه دجلة أو تذهب باجازة قصيرة إلى ايران ، وخلال الاجازة تشتغل في جمع المعلومات واكتشاف بعض المناطق! وتمارس هواية صيد الطيور والحيوانات ، وحين تتعب من كل ذلك تعود لممارسة هوايتها الاولى : البحث عن الآثار .

هكذا كانت المس بيل خلال اقامتها في العراق ، أما في أوقات الفراغ فكانت تزور مناطق العراق المختلفة ، وتدون المعلومات والملاحظات ، وتقيم الصلات مع المتنفذين ووجوه المناطق ، وتبعث اليهم بعد فترة بالاعطيات والهدايا لتأكيد روابط الصداقة وتمتينها ، ولكي تطلب منهم المساعدة أو اداء بعض الخدمات في وقت لاحق .

ربما لم تتناول عشاءها بمفردها إلا مرات نادرة ، فقد كانت دائماً داعية أو مدعوة ، ومع عدد مختار ومحدود من الاصدقاء ، وفي مثل هذه الليالي كان يجري الكثير من البوح وكشف الاسرار واستعمال لغة خاصة في الخطاب ، ومن جملة ما تشير إليه في احدى رسائلها ان نوري السعيد ،

الذي كان يزورها كثيراً ، كان يحب شرب الخمر وان تكون له علاقات نسائية واسعة!

هذا غيض من فيض ، كما يقال ، عن عالم المس بيل ، فالذي اشير اليه هو جزء مما دونته في رسائلها إلى ابيها وإلى زوجة ابيها ، ثم إلى بعض الاصدقاء ، وهذا ما يستدعي التوقف طويلاً عند السفر الكبير والهام ، والذي يضم قسماً غير قليل من الرسائل التي بعثت بها إلى ابيها ، وكانت بمثابة مرآة لحياتها ولادق التفاصيل المتعلقة بقيام هذه الدولة ، وما رافق قيامها من صراع وملابسات وادوار .

قبل الاشارة إلى ما بذله الاستاذ نمير مظفر من جهد ممتاز ليس فقط في ترجمة هذا النص الذي يجب ان يكون موجوداً كمرجع في العربية ، وانما في الحواشي والمعلومات الاضافية التي استخرج الكثير منها من بطون الكتب او استقاها من اقرباء واصدقاء الذين مر ذكرهم في الرسائل ثم في الكتاب .

قبل الإشارة لا بد من التوقف وتأمل الطريقة التي اعتمدتها المس بيل في التعبير عما تريد قوله ، إذ رغم مقدرتها التحليلية في الكتابة ، وقد اثبتت ذلك في غير هذا السفر ، حين كتبت عن القبائل وعن الآثار ، وفي التقارير العديدة المنسوبة اليها ، إلا ان اعتماد الرسائل هنا كوسيلة للتعبير يضفي عليها صفة حميمية ،ويجعلها اقرب إلى النفس ، كما ان لها صفة الخصوصية التي تجعلها بوحاً او اقرب إلى البوح والاسرار ، خاصة وانها موجهة إلى اقرب الناس اليها ، وهم موضع اسرارها والذين يمكن ان يؤتمنوا على ادق القضايا واكثرها خفاء ، وربما خطورة ، مما يحولها ، في النهاية ، إلى وثائق بالغة الاهمية .

لم تلجأ المس بيل في هذه الرسائل إلى الكتابة التاريخية ، اي إلى التحليل وايراد المستندات والوثائق ، كما لم تلجأ إلى كتابة الذكريات في

وقت متأخر ، أي بعد انقضاء الاحداث وظهور النتائج ، ولم تلجأ ايضاً إلى استعادة ما وقع لكي تظهر مقدار ما تتمتع به من الحكمة وبعد النظر .

لقد لجأت إلى كتابة الرسائل إلى ذويها ، وإلى اصدقاء تعرف مدى اطلاعهم وتدقيقهم ، وتالياً امكانية تساؤلهم ومحاسبتهم ، مما يجعلها موضوعية وذاتية في آن واحد ، فهي تورد المعلومات والوقائع اولاً ثم تعلق عليها ، وكلا الامرين يحتاج إلى دقة من ناحية ، وإلى جرأة من ناحية ثانية ، أي انها لا تخشى من ايراد الوقائق ، ولا تخشى من ابداء الرأي فيها ، كل ذلك في وقته وبكل ما يحيط به من ملابسات .

هذا النوع من الكتابة شديدة الخصوصية ، ولا يخلو من مكر ايضاً ، فالكاتب يتناول قضايا عامة بالغة الحساسية ، ويعرف ان لهذه القضايا انعكاسات كثيرة مباشرة وتاريخية ، لكن باعتبار انها لن تنشر سريعاً ، اغلب الاحيان ، ولانها وصلت إلى ايد يفترض تقديرها لمدى الدقة والاهمية فلا بد ان يتاح لها رؤية النور ذات يوم ، وان تعيد رسم المشاهد والوقائق بحيث تبرز الحقيقة ، وينال كل انسان ما يستحقه ، من وجهة صاحب العلاقة .

ان هذا السفر يحوي قسماً غير قليل من الاوراق الشخصية لجيرتروود بيل ، ويتناول الفترة من 1914 ، تاريخ وصولها الى العراق ، وإلى 1926 تاريخ وفاتها في بغداد ، وإذا كانت اليزابيت بورغوين قد تكلفت من الجهد في ترتيب هذه الاوراق ووضعها في اطار يساعد القارئ الاجنبي ، الانكليزي بشكل خاص على التعامل معها واستعادة وجهاً من ابرز وجوه الاستعمار البريطاني ، فان من حق القارئ العربي ان يتعامل مع هذ الاوراق بطريقة مختلفة ، وان يعيد ترتيبها ضمن رؤية تاريخية مغايرة ، لان كثيرين من بقايا العاملين في الحقل العام عاصروا أو عاشوا بعد المس

بيل ، ثم الاجيال التي تلتهم ، يتذكرون ، ربما بشكل مشوش ، الكثير من الوثائق والاسماء ، بحيث ان القراءة المدققة تستطيع ان تعيد المشاهد والوقائق لا وفقاً لما تشتهي أو ترغب ، وليس امتثالاً لارادة المس بيل أو الزاوية التي رأت بها الاحداث ، وانما اعتماداً على المقارنة والوقائع والحقائق التي اتيحت من مصادر اخرى متعددة .

ولا بد من كلمة اخيرة : ان كم المعلومات المتوفرة عن المس بيل ، أو الخاتون ، وفي هذا المصدر أو مصادر أخرى ، تحرض العاملين في السينما والمسرح والتلفزيون على التعامل مع هذه الشخصية ، ويمكن من خلال اعادة «قراءتها» ان تستعيد مرحلة تاريخية كاملة ، وان ندرك بوضوح أكبر كيف تنشأ الدول وكيف تقام الممالك ، وكيف ينصب الملوك . . . وأخيراً كيف يعزلون .

ومرة أخرى شكراً لنمير مظفر الذي أتاح لنا هذه الفسحة من المتعة والرؤية والفائدة .

عبد الرحمن منيف

دمشق – تشرين الثاني 2001

توطئة

تنسدل ستر الزمن لتطوي بين ثناياها مشاهد الشرق الأوسط وشخوصه أبان فترة الحرب العالمية الأولى : رجال مثل لورنس العرب T.E.Lawrence و رونالد ستورز Ronald Storrs ومارك سايكس Mark Sykes وستانلي مود Stanly Maude وإدموند أللنبي Edmond Allen-by ، وامرأة واحدة هي جيرتروود بيل .

على مدى عدة سنوات من الزمن راحت الآنسة بيل تتهيأ ، بشكل غير متعمد للاضطلاع بأعباء الدور البارز الذي شاءت الأقدار لها أن تلعبه على مسرح الأحداث . وإن ومن هذا المنعطف الهام في حياتها يبدأ المجلد الثاني هذا من كتاب السيرة الذي خطه قلم الكاتبة إليزابيث برغوين Elizabeth Burgoyne . فبحلول عام ١٩١٤ كانت الآنسة بيل قد أكملت رحلة عبر الصحراء العربية انطلقت من خلالها إلى مدينة حايل ومن ثم إلى بغداد لتستحق بجدارة نتيجة ذلك نيل المدالية الذهبية التي منحتها لها الجمعية الجغرافية الملكية . The Royal Geographic Society

عندما اندلع لهيب الحرب العالمية الأولى ، وجدت الآنسة بيل نفسها منهمكة بالإحصائيات المتعلقة بالمفقودين من أبناء القوات المسلحة في المعارك التي كانت تدور رحاها على أرض فرنسا . وظلت الآنسة بيل تواصل اداء المهام والواجبات المترتبة على هذا النشاط إلى الوقت الذي تم لها فيه رفع التقرير الشرقي The Eastern Report الذي أعدته «بدقة مذهلة» والذي جعل من أمر إيفادها إلى الشرق مهمة تفوق تكليفها الأول أهمية . لقد تمكنت جيرتروود بيل من الخروج بقراءة دقيقة للعلاقات المستقبلية لبريطانيا وفرنسا مع العرب ، وفوق كل شيء اعتماد سياسة رئيسية تنصرف إلى تحريض شريف مكة ودفعه إلى الوقوف ضد الأتراك العثمانيين . فاتفاقية سايكس بيكو The Sykes Picot Agreement التي استهدفت بالأساس تقسيم الشرق الأوسط قد انطوت على ما ينذر بغموض مستقبلي . وعلى غير علم من لدن الذين عمدوا إلى زج العالم العربي في خضم الأحداث الدائرة ، كانت المنطقة قد قسمت بشكل سري وكان جورج بيكو قد قطع شوطاً في مضمار رسم صورة لكيان سورية فرنسية تمتد حدودها إلى نهر دجلة . وقد عمدت المس بيل بعد سنوات إلى شجب الممارسات الوحشية للسلطات الفرنسية في سوريا عبر تساؤلها «كيف يمكن للسوريين أن يغفروا؟» كانت تقاريرها مقنعة .

وعبر تواجد بعيد عن الأضواء ، ونشاط دؤوب في مضمار الكتابة والتحليل والتفسير

بدرجة عالية من الدقة والموضوعية ، قدر للآنسة بيل أن تغطي أحداث هذه السنوات بسلسلة من الرسائل البارعة التي تميزت بما طرحته بإيجاز من صور توضيحية ، ووصف ذكي وأمين ، وتفاصيل على درجة عالية من الدقة وباسلوب لا يقل إثارة ومتعة عما قدمته ريشة جين ويلش كارلايل Jane Welsh Carlyle .

كانت الآنسة جيرتروود بيل بالضرورة تتمتع بثقة رجال الحكومة البريطانية ، وهي ثقة انطلقت من إيمانهم بقدراتها ومصداقيتها ذلك لأنهم لم يكونوا على ما كانت عليه من دراية تامة بواقع الأمور ومجريات الأحداث ، ومن جانب آخر فقد فتن العرب بقدراتها على الحوار . ولو كتب لها العيش فترة أطول لتمكنت من أن تحصل على رتبة مفوض Commissioner مدى الحياة ، ولقدر لها أن تحيا بعد الحرب حياة كريمة كتلك التي شاءت الأقدار أن تحياها كل من اللادي هيستر ستانهوب Lady Hester Stanhope واللادي ايلينبورو Lady Ellenborough بوصفهما من بين ذوات المكانة الرفيعة من الشيخات .

كانت الآنسة بيل حجة في كل ما يتعلق بالقبائل والعشائر العربية ورؤسائها والمقدمين فيها الذين كان بإمكانها دائماً ترجمة أفكارهم وتطلعاتهم خدمة لمصلحة قليلي الاطلاع من أولي الأمر وأرباب المناصب من أبناء وطنها في بريطانيا . وتصف بشيء من السخرية وضع أهل الحل والربط من أبناء وطنها الذين تدفعهم على حد قولها إلى «فغر أفواههم بدهشة . بيد أن الجانب الذي يبعث على السخرية في هذا الأمر هو انصرافهم إلى الرد على مخاطباتنا بمنتهى السرية وإعلامنا عن تدبير تم لهم التوصل إليه بعد جهد وتأمل مستفيضين ليعلنوا بعد ذلك قائلين : يالها من صدفة عجيبة! إنه مماثل لما سبق لك طرحه علينا قبل أشهر مضت!»

كان لدى قدماء اليونان تعبيرخاص يصف هذا النوع من السخرية .

ومن حسن الحظ أن رجالاً كالسير برسي Sir Percy Cox والجنرال جورج ماكمن General George MacMunn كانوا يقدرون الميس بيل حق قدرها ويدركون حقيقة معدنها . إن رسائلها ستبقى حية . وما علينا بهذا الصدد سوى الاستشهاد بما كتبته عن شخصية الجنرال مود ، أو عن ظهور الغراندوق ديمتري Grand Duke Dimitri في الصحراء . كانت أحكامها خاطئة أحياناً فيما يتعلق بالنساء (كما كان عليه الحال بالنسبة للادي كوكس) أما فيما يتعلق بالرجال فإن هذه الأحكام كانت في أغلب الأحيان دقيقة وصادقة .

ببصيرة صادقة ، وإدراك دقيق ومسبق بما يمكن أن يحدث في المستقبل ، أجملت نزعة

بالفور Balfour الصهيونية فيما يتعلق بسوريا بوصفها «مخطط زائف بعيد جداً عن كل ما يمت بصلة للحقائق.»

وأخيراً، تمكنت من التنبؤ بتحقق وحدة العرب من خلال قولها «إن وحدة الأقطار العربية آتية لا محال.»

إذا ما أُريد تخليد ذكرى النساء اللائي كرسن حياتهن خدمة للإمبراطورية أبان سني الحرب العالمية الأولى، وقضين نحبهن نتيجة لذلك، بضريح يقام لهذا الغرض في كنيسة وستمنستر Westminister Abbey لما اختير لتمثيلهن شيئاً أكثر مدعاة للفخر والإجلال والاحترام من رفات الآنسة جيرتروود بيل.

شين ليسلي
Shane Leslie
لندن اس.دبليو. [1]
كانون الثاني من عام ١٩٦١

المقدمة

في محضر ما قامت بنشره جريدة الاوبزيرفر The Observer حول الرسائل الأولى لجيرتروود بيل (تحرير ومراجعة إلسا ريتشموند ، الناشر مؤسسة ايرنست بين ، ١٩٣٧)
(The Earlier Letters of Gertrude Bell (Edited by Elsa Richmond. Ernest Benn, 1937)

مع الإشارة إلى رسائل جيرتروود بيل (تحرير ومراجعة اللادي بيل - الناشر مؤسسة أرنست بن ، ١٩٢٧
The Letters of Gertrude Bell (Edited by Lady Bell, Ernest Benn, 1927)

كتب ناقد قائلاً :«إن من شأن طبعة تضم النصوص الأصلية الكاملة لرسائل الآنسة جيرتروود بيل أن تستقطب اهتماماً منقطع النظير لا سيما إذا ما أدركنا أن عدداً من بين الأكثر أهمية من رسائلها لم يتم نشره لحد الآن .»

تجدر الإشارة هنا إلى أن في الفترة التي تم فيها نشر الطبعة التي أشرفت على تحريرها ومراجعتها اللادي بيل ، كان حذف أجزاء معينة من الرسائل يشكل إجراءً تحتمه الضرورة السياسية . إلا أن الأمر قد اختلف تماماً فيما يتعلق بهذا العمل الذي يجده القارئ بين يديه وذلك لأنني عمدت إلى تحقيق استخدام كامل لنصوص الرسائل واليوميات كافة ، ولم أنصرف أبداً إلى إغفال أو حذف أي جزء يتميز بما له من أهمية - سياسية كانت أم شخصية - متفادية في أثناء ذلك استخدام النصوص خارج سيقاتها مما يؤدي إلى تغيير مضامينها وتحريف معانيها . لقد كتبت جيرتروود بيل قصة حياتها ، والتفاصيل المتعلقة بالتأريخ السياسي لعصرها ، من خلال الآلاف من رسائلها وأربعة عشر مجلداً من اليوميات . وعند اضطلاعي بأعباء هذه المهمة ، وضعت نصب عيني تحقيق هدفي الرامي إلى إكمال عرض أعمالها ، والتفاصيل المتعلقة بشخصها ، كما خطته يدها ، دائبة في الحين ذاته على وجوب الانتهاء من مهمتي هذه قبل أن يبدأ آخرون بالانصراف إلى تقدير قيمتها والخروج بتصور يقوم بالأساس على التقولات والإشاعات ليس إلا .

إثر وفاة الآنسة جيرتروود بيل ، كتب توماس إدوارد لورنس T.E.Lawrence في رسالة وجهها إلى أبيها السير هيو بيل Sir Hugh Bell قائلاً : رسائلها انعكاس دقيق لذاتها . كانت تواقة ومهتمة ، بل كادت تكون دائماً شديدة الحماس مع من حولها وما تعيشه من أحداث يومية . كان لها نشاط وحيوية أبديان ؛ فعلى أقل تقدير ، وبصرف النظر عما كان ينتابها من

تعب وإرهاق ، كان بإمكانها أن تثير في نفسها من الاهتمام بقدر ما كان لدى زائرها . لا أظنني قد التقيت من يفوقها تمدنا في كل شيء بمفهوم مدى ما لديها من تعاطف فكري . وكانت مثيرة أيضاً ، إذ لا يمكنك أن تدرك مدى قدرتها على الوثوب صوب اتجاه معين بدفع من أي إنسان يمتلك القدرة على جذب اهتمامها نحوه بفضل ما لديه من خبرة ومحاججة . لقد اعتدنا أن نشترك في الضحك سراً على ذلك . إنني أحتفظ برسالتين من رسائلها تصفني في إحداهما بأني ملاك وتتهمني في الأخرى بأن الشيطان قد تملكني ، وكنت أعرض عليها الأولى تارة والثانية تارة أخرى وألتمس منها أن تأخذها الرحمة بمن لا تحب من الناس .

كانت في غاية السعادة عند موتها على ما أظن ، ذلك لأن عملها السياسي - وهو واحد من أكبر ما قدر لامرأة أن تنهض بأعبائه - كان متقناً مثل عملي . إن دولة العراق تمثل صرحاً رائعاً حتى إذا ما تواصل بقاؤه لبضع سنوات فقط .»

والآن ، وبعد أن تداعى هذا الصرح الرائع ، على المرء منا أن يأمل ديمومة إنجازها الآخر الذي عمدت بمفردها إلى تحقيقه ومده بأسباب الازدهار . علينا أن نأمل بتواصل هذه الديمومة وفاء لجانبين أساسين أولهما خدمة النشاط الآثاري بوجه عام ، وثانيهما إحياء ذكرى جيرتروود بيل ذاتها لما كانت تكنه في نفسها من شعور المحبة للعرب والعراق .

إليزابيث بيرغوين
كالشالتون ، سوري
تشرين الاول ، ١٩٦٠

إضافة

إني مخولة بالإفادة بأن الرجل الذي أحب جيرتروود بيل ، وبادلته الحب هي بدورها أيضاً ، كان المقدم سي . إتش أم . دوتي وايلي Lt. Colonel C.H.M.Daughty - Wylie ، المعروف من قبل المقربين من أصدقائه بإسم «دك» ، والذي قتل في معركة غاليبولي -Galipo li في شهر نيسان من عام ١٩١٥ أثناء قيادته لقوة أسترالية في صولة مظفرة على سفح تل . وقد لقي مصرعه إثر بلوغه قمة هذا التل . وتقديراً لموقفه البطولي ، منح بعد وفاته وسام صليب الملكة فكتوريا The Victoria Cross .

شكر

أتقدم بجزيل شكري أولاً إلى اللادي رتشموند التي أتاحت لي فرصة استعارة رسائل جيرترورود بيل ويومياتها فضلا عما بادرت إلى إسدائه من مشورة وما قدمته من عون يتعلقان بمهمتي هذه .

كما أني مدينة بالشكر والعرفان إلى السير نايجل دايفدسون Sir Nigel Davidson لاسيما بصدد دأبه على دراسة مخطوطة الكتاب وتقديم ملاحظاته القيمة بشأنها والتي عمدت إلى تثبيت البعض منها تحت اسمه ودمج القسم الأكبر منها في النص الأصلي للعمل . كما إني مدينة بالشكر أيضاً لزوجته اللادي دايفدسون ألتي أتاحت لي مشكورة فرصة الاطلاع على دفتر يومياتها والاستفادة مما تضمنه فيما يتعلق بجيرترورود بيل .

وأود تقديم شكري بشكل خاص إلى السيد سي . جاي . ايدموندز C.J.Edmonds على ما أبداه من عون في مجال تهجئة الأسماء العربية ، وإلى العقيد إف . سي . سي . بالفور F.C.C. Balfour على إعارتي رسائل جيرترورود بيل الموجهة إليه شخصياً ، كما أود شكر العقيد السير كنهان كورنواليس Sir Kinahan Cornwallis لما قدمه من دعم ومساعدة وكذلك إلى حرمه اللادي كورنواليس . وأُقدم شكري أيضاً إلى كل من العقيد جويس Colonel Joyce وزوجته ، وإلى لسير هاري سندرسون Sir Harry Sinderson وزوجته اللادي سندرسون ، وإلى الآنسة فلورا رسل Miss Flora Russell والسيد جاي . أم . ولسون J.M.Wilson والدكتور دبليو .دنلوب Dr.W.Dunlop على ما قدموه جميعاً من عون في إطار ذكرياتهم الشخصية عن الآنسة جيرترود بيل . كما أخص بالشكر أيضاً الآنسة ماري رولات Miss Mary Rowlatt .

أما بخصوص استعارة الصور ، فأود شكر كل من اللادي رتشموند والآنسة إيديث تشيسمان ، واللادي كورنواليس والآنسة جويس والآنسة فلورا رسل ، والسيد سي . جاي . إيدموندز والسيدين لايونيل سمث وجاي .أم . ولسون .

ولابد من كلمة شكر أخيرة أقدمها إلى صديقتي إيديث فيرغسون Edith Ferguson التي اضطلعت بمهمة طباعة النصوص ومراجعتها ، وهي مهمة أسهمت بشكل فاعل في إنجاز هذا العمل .

إليزابيث برغوين
شباط ، ١٩٦١

مقدمة المترجم

بعد أن ووري جثمانها الثرى في عصر يوم الثاني عشر من شهر تموز من عام ١٩٢٦ في المقبرة العسكرية البريطانية المعروفة في بغداد حتى وقت متأخر باسم «مقبرة الإنجليز» ، وقف المندوب السامي البريطاني السير هنري دوبس وقال في ختام كلمته التأبينية : « . . . .إن عظامها ترقد حيث أرادت لها أن ترقد : في تربة العراق . . .»

وينتهي المجلد الثاني من كتاب «رسائل جيرتروود بيل» التي اختارتها وقامت بتحريرها الليدي فلورنس بيل ، زوجة أبي الآنسة بيل ، بالمقطع الأخير التالي : «ولكن دعونا لا نبكي الأجل الذي وافاها بهذه السرعة ، وفي هذا الوقت المبكر . . . إن الحياة كانت ستفضي بها حتماً ، و بثبات لا هوادة فيه ، إلى أسفل المنحدر ، أما الموت فقد أبقاها في القمة .»

ولعل أبلغ ما قيل من بعد وفاتها جاء على لسان زميلها العقيد توماس إدوارد لورنس المعروف ب «لورنس العرب» من خلال رسالة بعثها إلى أبيها وقال فيها : «رسائلها انعكاس دقيق لذاتها . كانت تواقة ، مهتمة ، بل كادت تكون دائماً شديدة الحماس مع من حولها ، وما تعيشه من أحداث يومية . كان لها نشاط وحيوية دائمتان ، أو كان بإمكانها على أقل تقدير ، وبصرف النظر عما كان ينتابها من تعب و إرهاق ، أن تثير من الاهتمام بقدر ما كان لدى زائرها . لا أظنني قد التقيت من يفوقها تمدناً في كل شيء ، في إحساسها بما لديها من تعاطف فكري . وكانت مثيرة أيضاً ، إذ لا يمكنك أن تدرك مدى قدرتها على الوثوب صوب اتجاه معين بدافع من أي إنسان يمتلك القدرة على جذب اهتمامها نحوه بما لديه من خبرة ومحاججة . . . . . كانت في غاية السعادة عند موتها على ما أظن ، لأن عملها السياسي - وهو واحد من أكبر ما تعيَّن على امرأة أن تضطلع به - كان متقناً مثل عملي . إن دولة العراق هذه صرح رائع ، حتى لو قدر له أن يبقى قائماً لبضع سنوات فقط .»

لربما لم تكن جيرتروود مارجريت لوثيان بيل (١٨٦٨ - ١٩٢٦) امرأة خارقة القدرات ، إن صح هذا التعبير ، بيد أنها بالتأكيد لم تكن شخصية اعتيادية . كانت في الواقع عجيبة ومدهشة في آن واحد . كيف لا وهي العالمة والشاعرة والمؤرخة والآثارية والناقدة الفنية والمكتشفة والمنادية بالمذهب الطبيعي والمسؤولة الحكومية المتميزة ، وإحدى هواة رياضة تسلق الجبال ، وهي مجالات يعترف المختصون فيها بأن الآنسة بيل كانت بحق خبيرة في كل منها . فهل يوجد بعد كل ذلك مجال للشك في كونها شخصية غير

اعتياديـة؟

ولعل من حسن حظ أهلها وأصدقائها ، وكل المهتمين بسياقات نشاطاتها المختلفة ، أن الآنسة بيل كانت من بين من يمكن إعادة بناء سيرة حياتهم بفضل مراسلاتهم . ومن خلال تجوالها في مختلف المناطق ، القريبة منها والبعيدة على حد سواء ، دأبت الآنسة بيل على أن تكون في تماس متواصل مع أفراد عائلتها ، لا سيما والدها وزوجته ، وذلك انطلاقاً من حرصها على إشراكهم في كل التفاصيل الخاصة بتجاربها ، وما تكونه من انطباعات نتيجة مشاهداتها وتعرضها لمواقف متعددة ومختلفة ، ورغبة منها في تدوين الوقائع بحسب تسلسلها التاريخي ، سواء أكانت مهمة أم لم تكن . إن رسائلها - بكل ما تميزت به من تنوع ، وسرعة بديهة ، وحضور النكتة ، وفتنة لا تخفق في الأخذ بمجامع القلب - كانت بحق مصدر متعة وإثارة ، لكل من قرأها .

لربما أهم ما تتميز به رسائل الآنسة بيل هو أنها صور حية لشخوص عامة ، وأحداث في طور التكوين ، تحمل في طياتها انطباعات وآراء صريحة ومخلصة وصادقة ، وبعيدة كل البعد عن صيغ التكلف . إنها قد تفتقر في بعض أوجهها أحياناً إلى الموضوعية ، بل وقد تتجاوز حدود اللياقة في أحيان أخرى ، بيد أنها تبقى أصيلة ، ولاذعة ، تنبض بالحياة وتنطوي على الفراسة وعلى درجة عالية من جمالية الوصف وروح النكتة . والأهم من ذلك كله فهي تعكس صورة لامرأة أحبت العراق وعشقت أجواءه وطبيعته ، بكل ما لهذه الأجواء والطبيعة من أوجه التناقض ، وشعرت بأنها كانت جزءاً لا يتجزأ منه ، وأرادت بطريقتها الخاصة ، وفي إطار ما تربت عليه من قيم و مفاهيم وما انصرفت إلى اعتماده من معايير ، أن تسهم إسهاماً فاعلاً في إعادة بنائه لينهض مرة أخرى صرحاً حضارياً جديراً بأن يكون مركز إشعاع ، وسليلاً لأعرق حضارات الأرض ، ومن بين أكثرها أثراً على السياق التاريخي لبني البشر . ومن هذا الإطار بالذات ينبغي لنا أن ننطلق بتقويمنا لشخص الآنسة بيل وأدائها ، وما طرحته من آراء وأفكار ، وما بدر منها من ردود أفعال تتعلق بالظروف التي عاصرتها ، وبمن تعامل معها من الأشخاص ، بريطانيين وعراقيين وغيرهم على حد سواء .

وثمة حقيقة يتعين علينا إدراكها ؛ إن هذه الرسائل ليست سجلاً تأريخياً لفترة الاحتلال البريطاني وما بعده بل هي تاريخ الآنسة جيرتروود بيل فيها ، وهناك فرق كبير بين الحالتين ، إذ يفترض في الحالة الأولى أن تشمل تمحيصاً لمسببات الأحداث وتحليلها ، وأن نخرج بدروس وعبر واستنتاجات مثيرة ، وبذلك فهي ليست أكثر من سرد لتفاصيل الحياة اليومية ، العامة منها والخاصة على حد سواء ، في إطار عالم جيرتروود بيل . كما أن

ترجمة نصوصها إلى العربية لم يأت بدافع من كونها سجلاً تاريخياً بل باعتبارها مصدراً معاصراً ذا أهمية بارزة يذكر جوانب معينة وتفاصيل خاصة قد يلجأ إليها من يرغب في كتابة تاريخ هذه الفترة أو إعادة كتابته ، وباعتبارها مرآة تعكس بشكل خاص مواقف الكادر الأعلى للقيادة السياسية البريطانية في العراق ، والوضع النفسي لأعضائه وما تتجاذبهم من قوى وتحركهم من دوافع ، وكذلك مواقف الشخصيات العراقية البارزة من الوجود البريطاني بشكل عام ، و من القضايا الوطنية المصيرية بشكل خاص .

لقد جاء كتاب «جيرتروود بيل من رسائلها الشخصية» في مجلدين يتناول الأول منهما الفترة (١٨٨٩ - ١٩١٤) ويتناول الثاني الفترة (١٩١٤ - ١٩٢٦) . وبذلك يكون العمل هذا ترجمة لمضمون المجلد الثاني الذي يستقطب مضمونه اهتمام القارئ العربي بشكل عام ، والقارئ العراقي بشكل خاص ، أما المجلد الأول فإنه يشمل تفاصيل حياتها منذ ولادتها إلى حين عودتها من رحلتها المشهورة إلى شبه الجزيرة العربية وحجزها مدة في حايل من قبل ابن رشيد . وبذلك فإن هذه الفترة من حياتها وما واكبها من أحداث لا تتمتع بذات الأهمية لدى القارئ العربي ، ولا تثير اهتمامه كتلك التي تعقبها . إن الأمانة والموضوعية تتطلب مني أن أحيط القارئ الكريم علماً بأن ما ورد في النص العربي من هذا العمل يمثل ترجمة أمينة للنص الإنجليزي باستثناء جوانب محدودة جداً ، اضطررت لها إما بسبب كونها لا تمت بصلة وثيقة إلى سياق الأحداث في العراق ، أو بسبب انصرافها إلى الخروج بأوجه تقويم شخصية قائمة على اعتبارات خاصة تبتعد كل البعد عن الموضوعية والطرح المنصف . وفي كل الأحوال فإن نسبة ما أُهمل لا تكاد تذكر بأي حال من الأحوال .

ولعل من بين الجوانب البارزة لهذه المرحلة (١٩١٤ - ١٩٢٦) ، هو ذلك المتعلق بطبيعة المشاكل المعقدة والمضنية التي كانت تحيط بالعراق والتي تركت بصماتها الواضحة على عمليتي تشكيل الحكم الوطني والانطلاق بحكم البلاد .

كان على رأس هذه المشاكل بنية الشعب العراقي ، أي تركيبة عناصره . فالعراق عربي في مجموعه وصميمه - وهي حقيقة لا ريب فيها بأي شكل من الأشكال - إلا أنه يضم عدداً من العناصر البشرية إلى جانب العرب الذين يشكلون مادته الأساس : ففي شماله ، وشماله الشرقي بشكل خاص ، شكل الأكراد قوة شديدة البأس ، وعصبة ذات سطوة ومرونة فائقة على القتال ، إلى جانب ذلك كانت تراود مخيلتهم طموحات تصبو إلى نيل الاستقلال . وهناك الآثوريون الذين أصبحوا يتمتعون بوضع خاص بعد الاحتلال البريطاني ، وعلى الرغم من أن عددهم لم يكن كثيراً إلا أنهم اعتبروا أقلية يحسب

لتحركاتها حساب . وهناك عدد لا باس به من الفرس[1] والتركمان وهؤلاء وإن لم يشكلوا إلا أقلية صغيرة ، إلا أنهم كانوا يصلون العراق بماضيه القريب وهو جانب له أهميته الخاصة . وماذا عن التركيب الروحي أو الديني للشعب ؟ إن كثرته الكثيرة مسلمة قوامها أبناء السنة والشيعة . وكان العراق في أمسه قد شهد تسابقاً بين الأنظمة التي تعاقبت على الحكم آنذاك باتجاه تعزيز شأن هذا المذهب أو ذاك طبقاً لمصالحها وأهوائها الأمر الذي كان من شأنه تعميق هوة الخلاف بين أصحاب المذهبين . ثم هناك المسيحية بشتى مذاهبها ، واليهودية التي برغم أن جماعتها كانوا قلة ، إلا أنها كانت قلة واضحة المعالم .

وأما الجوانب الطبوغرافية فهي ليست أقل اختلافاً وتنوعاً - فهناك بادية تسكنها القبائل ، وحضر يحاولون الاستقرار في المدن ، وكان أبناء القبائل يحرصون على ديمومة نظام حياتهم ولا يريدون من الحكومة إلا الحد الأدنى من التدخل ، وإلا شقوا عصا الطاعة عليها وأعلنوا العصيان ضدها !

وماذا عن صلة العراق بعلة العلل ؛ ببريطانيا ، الدولة المحتلة التي جاءت «محررة لا فاتحة»؟ وماذا عن تركيا التي كانت في ذلك الحين تواصل أحلام إعادة بسط سيطرتها على العراق ، أو الاستحواذ على الموصل على أقل تقدير ، والتي كانت تحظى بتأييد من لدن شريحة سكانية فاعلة لم تتوان في حينه عن الدعاية لها و ترويج الإشاعات المقلقة بقرب عودتها إلى حكم العراق ؟ وكيف ننسى فرنسا المحتلة لأرض سوريا المتاخمة لأرض العراق ، والتي كانت تنظر إلى «حليفتها» بريطانيا بعين الحسد وتتربص بها ، وتتحالف مع الأتراك خلسة في سبيل زعزعة استقرارها والتعلق بأمل التمكن من إزاحتها من أرض بلاد وادي الرافدين؟ ثم هناك صلة العراق بشبه جزيرة العرب بعد أن قويت حركة «الإخوان» في نجد تحت زعامة المغفور له (السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود لاحقاً) ، وكانت هجمات «الإخوان» على حدود العراق تتوالى وتتكرر ، بل إنها أصبحت إحدى السمات المميزة لتلك الفترة من تاريخ العراق .

وماذا عن أرض العراق وخيراته؟ إن لم يكن العراق في مطلع القرن العشرين ، وخلال

---

(١) سيجد القارئ الكريم عبارتي «فرس» و«بلاد فارس» بدلاً من «ايرانيين» و«ايران» وذلك لسببين أساسيين يتعلق أولهما بالترجمة الأمينة لعبارتي Persians وPersia اللتين عرف بهما كل من إيران والشعب الإيراني آنذاك! ويتعلق ثانيهما بواقع أن عبارة ايران لم تعتمد رسمياً إلا في عام ١٩٣٥ الأمر الذي يجعل من استخدامها في إطار هذه الفترة (١٩١٤ - ١٩٢٦) مفارقة زمنية ، وبذلك أستوجب التنوية - المترجم .

الفترة التي تدور فيها أحداث هذا العمل ، أرض السواد المعهودة : كانت هناك صحارى ورمال مكان الخصب والنماء اللذين عرفت بهما سابقاً ، أما أبناؤه فقد انتشر الفقر والمرض بينهم . لقد عاش العراق فترة طويلة من غير نظام حكومي ثابت القواعد . والقارئ الكريم يعلم جيداً أن إنشاء النظام الحكومي وديمومته لا يأتيان بمجرد إرادة ملكية ، أو مرسوم جمهوري ، أو قرار وزاري بل برياضة ومصابرة طويلين .

هكذا كان العراق عندما احتله البريطانيون ، وهكذا كان عندما تربع المغفور له جلالة الملك فيصل الأول على عرشه ؛ كانت خزينته خاوية ، وموارده فقيرة ، ومرافقه مهملة . كان حكم البلاد ممارسة صعبة جداً في خضم هذا البحر المتلاطم الأمواج من المشاكل التي لا حصر لها .

ومن عجيب الصدف فعلاً ، أن تجري الأحداث بعد تتويج الملك فيصل الأول ، وكأن جلالته كان على موعد معها ؛ ففي أول سني حكمه ثار الأكراد ، وثار الآثوريون ، وانتشرت الفتن بين القبائل ، وتفتحت المشاكل مع بريطانيا ، عقدة العقد ، في إطار تقرير علاقتها مع العراق ، وانتشرت الملاريا والكوليرا ، حتى الملك نفسه أُصيب بالزائدة الدودية في أحرج لحظة من لحظات الخلاف على المعاهدة والدستور ، وهي لحظات عاش العراق خلالها من غير ملك ولا وزارة ، لأن الوزارة كانت قد استقالت .

أجل ! إذا ما أخذنا كل هذه الجوانب مجتمعة ، وأدركنا ما كان لها من أهمية ، وكيف أنها تركت بصماتها الواضحة على السياق التاريخي اللاحق للعراق ، تبرز أهمية هذه الفترة التي يغطي المجلد الثاني من كتاب اليزابيث بيرغوين بعض جوانبها الهامة . وفوق ذلك كله تبرز بشكل واضح لا لبس فيه جدوى وحكمة السياسة التي اعتمدها جلالة المغفور له الملك فيصل الأول ، والتي كانت تقوم على مبدأ «خذ ثم طالب» .

وأخيراً وليس آخراً أتقدم من القارئ الكريم بالمعذرة عن أي قصور ، أو نقيصة ، قد يجدها في هذا العمل المترجم وما يرافقه من ملاحظات وآراء تقوم أولاً وآخراً على رؤية واجتهاد شخصيين ، وآمل مخلصاً أن لا يضن عليّ بأية ملاحظة أو تصويب ، فالعصمة لله وحده ، والمرء قليل بنفسه ، كثير بأخيه .

نمير عباس مظفر

عمان - ٢٠٠١/٧/٢٠

شكر وتقدير المترجم

أتقدم بجزيل شكري وامتناني إلى الذوات كافة ، سيدات وسادة على حد سواء ، الذين لم يتوانوا في مساعدتي سواء أكان ذلك عن طريق رفدي بالمعلومات والملاحظات القيمة التي لها علاقة ببعض جوانب هذا العمل ، أو الذين تفضلوا مشكورين بتزويدي بما لديهم من صور وكتب من مجموعاتهم الخاصة . كما أشكر من تولى طباعة وتنسيق وإخراج النص المترجم لهذا العمل . وأود أن أخص بالذكر بشكل خاص كلاً من المفكر والكاتب العربي الكبير الاستاذ عبدالرحمن منيف لمبادرته مشكوراً التقديم لهذا العمل وإلى صاحب السمو الملكي الأمير رعد بن زيد المعظم ، صديق الطفولة وزميل دراستي الابتدائية ، الذي أفادني مشكوراً بملاحظات قيمة تتعلق بسيرة المرحوم والده ، المغفور له صاحب السمو الملكي الأمير زيد بن الحسين المعظم ، والسيدة الأديبة والشاعرة مي عباس مظفر التي لم تتوان أبداً في تقديم العون والمشورة فيما يتعلق بصيغ عدد من النصوص الأدبية ، وتقويم جوانب البعض منها ، وإلى زوجها الفنان الأستاذ رافع الناصري الذي قام مشكوراً بتصميم غلاف هذا الكتاب دعماً منه ومساعدة في إنجاح العمل ، والأستاذ حارث العجيل ، حفيد الشيخ عجيل باشا السمرمرد شيخ الزبيد ، الذي أفادني بملاحظاته القيمة حول جوانب عديدة تتعلق بالقبائل والشؤون العشائرية في العراق ، والذي زودني كذلك بصورة جده الذي كان عضواً في أول وزارة عراقية شكلت والذي ورد ذكره في رسائل الآنسة بيل . وكذلك الحال بالنسبة للأستاذ ماجد عبد الرزاق علي السليمان ، حفيد شيخ الدليم علي السليمان الذي يرد ذكره في العديد من رسائل الآنسة بيل ، وقد تفضل مشكوراً بتزويدي بصورة تكاد تكون نادرة وهي تلك التي تجمع الشريف فيصل بالبارزين من شيوخ الدليم . كما أشكر الأستاذ المهندس ناصر توفيق السعدون وحرمه السيدة تمارة غازي الداغستاني اللذين زوداني مشكورين بصور المرحوم عبد المحسن بك السعدون ، وطالب باشا النقيب ، و عدد من الكتب المرجعية ذات العلاقة بالفترة التي يتناولها هذا الكتاب . كما أخص بالشكر أيضاً السيد مكي عبد المحسن العاني الذي أفادني هو الآخر بعدد من الملاحظات المتعلقة بالجوانب العشائرية ، إلى جانب قيامه مشكوراً بتزويدي بصورة للشيخ عجيل الياور وابنه أحمد . كما أشكر أيضاً الأستاذ قيس جعفر العسكري لتفضله مشكوراً بتزويدي بصورة والده المرحوم جعفر باشا العسكري وخاله المرحوم نوري باشا السعيد . وأخيراً ، وليس آخراً ، أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى زوجتي ، السيدة خلود عامر الكامل ، التي لم تأل جهداً في

طباعة النصوص وتنسيقها ، وهو جهد تتطلب منها الجلوس ساعات طوال أمام جهاز معالجة النصوص ، كما أشكر ولدي المهندس ، علي ، الذي له الفضل في التنسيق النهائي للنصوص المترجمة وإخراجها قبل تسليمها إلى الناشر الأستاذ ماهر الكيالي مدير عام المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت دار الفارس للنشر والتوزيع/عمان الذي يستحق مني بدوره كل شكر وثناء على تعامله الحضاري ، وما عرف عنه من احترافية متميزة والله ولي التوفيق .

نمير عباس مظفر
عمان - ٢٠٠١/٧/٢٠

الفصل الاول

١٩١٤

في أوائل آيار من عـام ١٩١٤ ، شـهـدت آخـر رحلة من رحـلات جـيـرتروود بيل الاستكشافية ، وأكبرها أهمية نهايتها ، وهي تلك التي تم لها فيها اجتياز الصحراء العربية بما في ذلك اعتقالها المثير في حائل . كانت آنذاك قد بلغت السادسة والأربعين من عمرها ، وللمرة الأولى في حياتها شعرت مرهقة ومنهكة . ولا غرابة في الأمر إذا ما أدركنا أنها بالإضافة إلى ما واجهته رحلتها هذه من عقبات ، وما حف بها من أخطار ، فإنها كانت تعيش حالة من التوتر العاطفي بسبب إضطرارها إلى التخلي عن الرجل الذي أحبت ، وما ترتب على ذلك من شعور بالحزن كاد يتحول إلى يأس قاتل لازمها في كل خطوة على طريق رحلتها الطويلة ليدفع بها إلى أعماق حالة من الإرهاق والسأم فاقت كل ما عرفته سابقا من صيغ المعاناة .

وإثر قضاء بضعة أيام في السفارة البريطانية في القسطنطنية (إسطنبول) بضيافة السير لويس ماليت Sir Louis Mallet ، أعلنت جيرتروود بيل ، على حد تعبيرها ، أنها «مستريحة جداً وفي غاية الانبساط» . كان كلاماً لم يخل من مبالغة على ما بدا . فاستناداً إلى ما روته فلورا رسل Flora Russell التي كانت تقيم في القسطنطنية في تلك الفترة بالذات ، كانت جيرتروود بيل منهكة ومرهقة إلى الحد الذي حال دون تمكنها من الاستمتاع بصحبة الأصدقاء ، وإن ما عكسته رسائلها الموجهة إلى ذويها في تلك الفترة من حس بالمرح والبهجة إنما جاء من أجل العائلة وراحة بالها ليس إلا .

وفي رحلتها الأخيرة هذه التي كانت أعدت لها ونفذتها بمفردها - شأنها بذلك شأن رحلاتها السابقة - تمكنت جيرتروود بيل من التوغل في شبه جزيرة العرب وصولاً إلى حائل ، معقل قبيلة شمر الحصين الذي كاد يكون موقعاً منيعاً لا يمكن اختراقه أبداً . ولقد كان من شأن تلك العزلة العميقة ، والمرعبة أحياناً ، التي فرضتها الصحراء ، والتي كان عليها مواجهتها يوماً بعد يوم ، وليلة تلو الليلة ، كما كان من شأن مشكلة شعورها بالوحدة والألم ، دونما نعمة الراحة التي تأتي بفضل المعتقد الديني ، أن يكسبا جيرتروود بيل درساً في الجلد الفلسفي . ومثلما تنبأت به هي بالذات فإن جيرتروود التي عادت من تلك الرحلة كانت جيرتروودا أخرى .

لم يكن هناك متسع من الوقت لتتمتع بفترة نقاهة . فعندما اندلعت نيران الحرب

العالمية الأولى في الرابع من آب من عام ١٩١٤ ، كانت جيرتروود بيل في رونتون غرايتج Rounton Grange مسكن العائلة في مقاطعة يوركشاير Yorkshire . ولولا وقوع هذا الاضطراب الكبير ، أي نشوب الحرب ، من كان يستطيع التكهن بما كان بإمكان جيرتوود بيل التوجه إليه من نشاط ؟ كان من المحتمل جداً بطبيعة الحال أن تعمد إلى تدوين تفاصيل رحلتها إلى حائل ونشرها في كتاب ، بيد أنه لم يكن من المحتمل بأي حال من الأحوال تصور إحجامها عن معاودة القيام برحلات أُخرى . في الواقع كان هناك عدد من المجالات التي كان بإمكانها التوجه إليها في لو ما قدر أن تتوفر لها حرية الإختيار ، إلا أن الخيارات في زمن الحرب كانت محدودة جداً وبذلك عمدت جيرترود ، التي لم يكن باستطاعتها الخلود إلى الراحة برغم ماكانت تعانيه من إرهاق ، إلى الاندفاع بكل ما أوتيت من قوة وعزم بإتجاه أية فرصة تسنح للعمل .

في شهر أيلول ، أرسلت مديرية العمليات العسكرية إلى وكيل وزارة الخارجية البريطانية السير ادوارد غراي Sir Edward Grey مقتطفاً من رسالة كانت جيرترود بيل قد وجهتها أصلاً إلى النقيب وندهام ديدز (Captain Wyndham Deeds العميد السير وندهام ديدز فيما بعد) . وكان المقتطف آنف الذكر الذي تميز بما كان له من مدلول خاص وما أثاره من اهتمام كبير يتعلق بالوضع السياسي في شبه الجزيرة العربية وسوريا . فهو لم يكن مجرد تقرير موجز تناول الشخصيات والأوساط الاجتماعية والميول السياسية في الولايات العربية للإمبراطورية العثمانية فحسب ، بل كان في الحين ذاته وثيقة تنطوي على تنبؤ متناهي الدقة حول ردود فعل هذه الشخصيات والأوساط في حال اشتراك تركيا في حرب ضد بريطانيا . كان في الواقع تقريراً لم يكن بمقدور أحد آخر غير الآنسة بيل إعداده . ومن جانب آخر ، لم يبق على قيد الحياة إلا عدد قليل من بين الذين قدر لهم أن يشهدوا تحقق كل ما ورد فيه من تكهنات مستقبلية . وبهذا الصدد كتبت جيرتوود بيل قائلة :

إن سوريا – لا سيما المناطق الجنوبية منها حيث يوجد وعي أكثر بما تحقق في مصر من أسباب الرفاهية – تؤيد الانجليز . ففي فصل الشتاء الماضي ، أخبرني ألماني أريب يدعى لويتفيد Loytved ، وهو صديق قديم لي يسكن حالياً في مدينة حيفا ، بأن وجود الرغبة الصادقة في سوريا في الخضوع لولايتنا (أي الولاية البريطانية) لا يعتبر ضرباً من المبالغة بأي شكل من الأشكال . وهذا ما أؤمن به كلياً . وفي الخريف المنصرم تعززت هذه الرغبة بدفع مضاف تمثل بما ساد من شعور بالكراهية إزاء النفوذ الفرنسي المتنامي . أما ألمانيا فلا يحسب لها حساب أبداً في سوريا .

إننا نتمتع في بغداد بثقل أكبر مما تتمتع به ألمانيا بسبب أهمية العلاقات الهندية التي هي في الأغلب روابط تجارية . كما أن وجود مجموعة كبيرة من المهندسين الألمان في بغداد لأغراض بناء خط للسكك الحديدية لن يعود على ألمانيا بفائدة كبيرة نتيجة إخفاقهم في كسب محبة الأهالي وتقديرهم .

ويمكنني أن أقول بوجه عام أن العراق لن ينظر بعين الرضى إلى دخول تركيا في حرب ضدنا ، وبذلك لن يكون له إسهام فاعل فيها . ومن المحتمل أن يعمد الأتراك إلى توجيه اهتمامهم نحو رؤساء القبائل العربية الذين يتمتعون بحمايتنا ، إلا أن مثل هذا الإجراء لن يجد قبولا من لدن أنصار الوحدة العربية الذين يتطلعون إلى السيد طالب (النقيب) في البصرة ، وشيخ الكويت ، وابن سعود باعتبارهم أنصاراً للوحدة العربية ومدافعين أقوياء عنها . إن السيد طالب مراوغ وعابث ، لم يحظ حتى الآن بأي دعم أو عون من قبلنا ، إلا أن أبناء جلدتنا من التجار يقيمون معه علاقات متميزة . أما شيخ الكويت فإنه يعتمد كلياً على مساعدتنا ودعمنا اللذين بغيابهما لن تقوم له قائمة . ويتوق ابن سعود إلى الحصول على اعتراف مؤكد من قبلنا وبذلك فإن من السهل جداً أن نضمن إمكانية وقوفه حليفاً لنا . وفي ضوء كل هذه المعطيات يصبح بإمكاننا تحويل الخليج إلى منطقة ساخنة يصعب على الأتراك التعامل معها . وتجدر الإشارة هنا إلى أن وكيل شركة لنج (Lynch - Cowley) في بغداد ، السيد آرثر تود Mr.Arthur Tod المعروف بكفاءته وقدراته العالية يرتبط بأواصر صداقة متينة مع عبد القادر باشا الخضيري ، الشخصية القيادية البغدادية ، الذي اشتهر بما يكنه لنا من شعور بالمودة وما له من نوايا حسنة تجاهنا .

لا يرغب أي من وجهاء العرب ورؤسائهم بالحكم التركي . إن عبد القادر باشا الخضيري في بغداد يفوق واليها نفوذاً وسطوة ، وكذلك الحال بالنسبة للسيد طالب (النقيب) في البصرة .

أما شيخ المحمرة فلا يمكن اعتباره شخصاً قليل الأهمية والشأن ، ناهيك عن كونه واحداً من حلفائنا . وفي حا ل دخلت تركيا في حرب ضدنا ، فمن المحتمل جداً أن يقوم أنصار الوحدة العربية باغتنام هذه الفرصة للتخلص من نير الحكم العثماني ، وفي حال إخفاقهم في المبادرة إلى ذلك ، فإن توجيههم نحو هذا الهدف لن يكون مهمة صعبة . وتتمحور عقدة المشكلة بقدر تعلق الأمر بسوريا حول واقع أن الفرنسيين قد وضعوا نصب عينهم حكمها بينما تميل قلوب أهلها باتجاهنا .

ويضيف النقيب ديدز الذي عمد بالأساس إلى إرسال المقتطف إلى وزارة الخارجية

قائلاً : «إن التقارير المرسلة من قبل مفتشينا المتواجدين في الولايات العربية تؤيد كلياً صحة ما ورد أعلاه .»

إن لجوء وزارة الحرب إلى استخدام بعض المعلومات التي تم لجيرتروود بيل الحصول عليها من خلال رحلاتها يعتبر المؤشر الأول باتجاه عملها المستقبلي . وكانت في الوقت نفسه لا تتوانى عن زج نفسها في أي عمل يمكنها الإسهام بتحقيقه وقد سنحت لها فرصة عمل محدد ، وإن كان مؤقتاً ، وذلك في مستشفى اللورد أونسلو Lord Onslow في مدينة كلاندون Clandon في مقاطعة ساري Surry . وفي العاشر من تشرين الثاني كتبت جيرتروود رسالة إلى زوجة أبيها قائلة : «والدتي العزيزة - لقد تحول القصر بأكمله إلى مستشفى يرقد فيها الآن ما يقرب من مائة جريح بلجيكي . ومن المقرر أن يتم نهار الغد تحديد المهام التي يتعين عليّ الاضطلاع بها ، ولكنني لا أتوقع تمكني من الاعتماد على نفسي والقيام بما يلزم على الوجه الأكمل إلا بعد بضعة أيام .»

وكتبت في السادس عشر من تشرين الثاني قائلة « تتزايد نسبة إسهامي في العمل بشكل تدريجي . لم يسمح لي لحد الآن دخول الردهات والعناية بالمرضى في إطار النشاط الخاص بمهنة التمريض باعتبار أني لن أتمكن من ممارسة السلطة على أشخاص يمارسون هم بدورهم السلطة علي أثناء ساعات معينة من كل يوم . إنه موقف يبعث على الأسى إذ أني أتوق إلى اكتساب بعض الخبرة في مجالات العمل كافة ناهيك عن رغبتي في ملء ما لديّ من فراغ أثناء اليوم إذ لا أجد من العمل ما يكفي لملء هذا الفراغ . ومع ذلك فالصبر مفتاح الفرج ، لعلي أتمكن من تحقيق رغبتي إذا ما التزمت بالصبر وواصلت التعبير عما أود القيام به .»

وفي اليوم التالي ، أي في اليوم السابع عشر من تشرين الثاني كتبت قائلة : «انطلقت عصر الأحد في نزهة مشياً على الأقدام أعقبتها بزيارة لآل ستراتشي Strachey حيث تناولت الشاي معهم ، وقد علمت بأنهم يستضيفون عشرين جريحاً بلجيكياً يمضون فترة النقاه عندهم . كان أول مريض تم لهذه العائلة استقباله عبداً أسود من الكونغو استطاع بشكل ما الحصول على سكينة كبيرة خبأها في فراشه مبرراً عمله بالقول : إنهم يأكلون الأسرى في أفريقيا الأمر الذي يدعوه دوماً إلى التأهب للدفاع عن نفسي ، قال ذلك وهو يضع يده على بلعومه دلالة على الذبح . وإزاء ذلك راح رب الأسرة جون سنت لو ستراتشي John St. Loe Strachy ينظر إليه بهدوء مشوب بشيء من الدهشة وهو يقول :«يالها من حالة ! إنها جزء من ويلات الحرب أن يعمد الفرد منا إلى تخصيص أفضل

غرف النوم في منزله لأُناس من أكلة اللحم البشري .»

لم تمض جيرتروود فترة طويلة في مستشفى كلاندون بارك إذ أن تأريخ آخر سالة لها من ذلك المكان كان في الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني حيث قالت : «استلمت صباح اليوم برقية من بولوين Boulogne حول إمكانية توجهي لمقابلة المعنيين بالأمر هناك في يوم الأحد أو الأثنين . ولقد أعلمتهم بدوري بأني قررت التوجه إليهم يوم الأثنين . وسأتوجه عصر اليوم إلى لندن لزيارة مكتب الصليب الأحمر ومحاولة لقاء السيد آرثر ستانلي Arthur Stanley . أجد المهمة مثيرة للغاية . ألا توافقينني على ذلك؟»

وما أن وصلت إلى مسكنها في لندن ، الذي كان يقع آنذاك في شارع سلون رقم ٩٥ حتى سارعت إلى توجيه رسالة إلى اللادي بيل تقول فيها : «هل لك التكرم بنقل أوامري إلى ماري والمقصود هنا خادمتها ماري ديليري Marie Delaere بضرورة إرسال الساعة اليدوية التي كنت طلبتها أصلاً لا تلك التي قامت بإرسالها . إن الساعة التي أقصد هي الساعة البرونزية ذات السير الجلدي الأخضر والتي من الضروري جداً إرسالها . إني أعلم أنها موجودة في مكان ما في غرفة نومي في القصر . كما أن ماري لم ترسل لي فستاني الأزرق البوكار (نسيج موشى بالقصب) الذي أمرتها بإرساله . إنه تصرف يدل على الغباء والإهمال وعدم المبالاة ! من حسن حظي أني كنت جلبت فستانا أنيقاً معي من كلاندون وإلا لما وجدت ما بإمكاني ارتداؤه في المناسبات الهامة .»

ومن شارع سلون رقم ٩٥ كتبت جيرتروود في الثاني والعشرين من تشرين الثاني قائلة :« لا أجد الساعة التي طلبت بين الأشياء التي أُرسلت لي . إن ماري على علم بذلك . هناك ساعة يد ذهبية صغيرة بيد أنها ليست الساعة التي طلبت فهي أساساً لا تعود لي ، فضلاً عن ذلك فإنها عاطلة ! إن الساعة التي أريد ، وها أنا أكرر مجدداً ، هي الساعة البرونزية ذات السير الجلدي الأخضر ، وهي تلك التي اعتدت لبسها دائماً أثناء رحلات الصيد . إن عدم مبالاة ماري وإهمالها لأمر لا يطاق! كانت الساعة فوق منضدة الزينة في غرفة نومي صبيحة اليوم الذي انطلقت فيه من رونتون .» ·

ثم قامت نهار السبت بكتابة ما يلي :«ذهبت إلى مكتب الصليب الأحمر وحصلت منهم مشكورين على كل ما من شأنه تسهيل أمر رحلتي كما زرت فلورا رسل التي قد عادت لتوها من بولوين ، واستمعت منها ما يفيدني من الأخبار والمعلومات التي بدت مثيرةً للاهتمام برغم ما عكسته من جوانب غير مريحة . لقد ذهبت ديانا رسل لتحل محل فلورا التي ستعود بدورها إلى بولوين بعد أسبوع . أرجو توجيه كل ما يأتيني بالبريد إلى عنواني

في بولوين : شارع فكتور هيوجو رقم ٣٦ وهو المكتب الذي يعنى بشؤون المفقودين في الحرب من أبناء القوات المسلحة . لم ترسل ماري ساعتي إلى حد الآن ! وأكرر : إنها الساعة البرونزية ذات السير الجلدي الأخضر . أود لو تم إرسالها إلى بولوين بالبريد . يرجى تأكيد ذلك على ماري . سوف أتوجه إلى بولوين في الساعة ٢٤٠٠ من يوم الاثنين .» وعلى ظهر المظروف الذي ضم الرسالة كتبت الملاحظة التالية : عثرت على الساعة! إنها في أسفل الدرج الذي تحفظ فيه الملابس الداخلية!»

تجدر الإشارة هنا إلى أن جيرتروود بيل لم تكن تؤمن بوجه عام بضرورة تبرير المواقف أو الاعتذار عن الأخطاء ، بيد أنه جانب لم تكن دائمة التقيد به .

* * *

شهدت هذه الفترة تنامياً ملحوظاً في حدة ما تميزت به جيرتروود بيل بطبيعتها من قصر الإناءة وضيق الصدر نتيجة التوتر العصبي الذي ترتب على تواصل لوعتها وألمها عاطفياً . وعلى الرغم مما عرف عنها من شجاعة مشوبة بالهدوء وبرود الأعصاب ، فإنها كانت متوترة الأعصاب وبذلك كان العلاج الوحيد لعلتها يكمن في تواصل نشاطها وانهماكها في العمل الأمر الذي اضطرها إلى تسخير كل ما كان باستطاعة فكرها المضطرب وبدنها المتعب توليده من طاقة لخدمة عملها في بولوين وذلك في مجال معالجة الجرحى وتعقب آثار المفقودين . وفي غياب أي كم من العمل الذي كان من شأنه أن يستنفد كل ما لديها من طاقة على الإنجاز ورغبة في تحمل المسؤولية ، فإنها كانت تميل إلى محاولة احتكار مهام ومسؤوليات زملائها لاسيما أولئك منهم الذين كانوا بطبيعتهم يفتقرون إلى الكفاءة ويتميزون بالبطء في الإنجاز . ونتيجة ذلك لم يكن بمقدور هؤلاء الزملاء أن يعتبرونها زميلة يمكن العمل معها بسهولة وراحة .

وفي الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني كتبت من بولوين مبينة أن«جواً من الهدوء والسكون يخيم على الحدود ، بيد أن هناك شعور عام بأننا سنتمكن من صد تقدم الألمان الذين كانوا أفرغوا كل ما في جعبتهم (بعد محاولتهم الأخيرة) ولن يتمكنوا من اجتياح معاقلنا بأي حال من الأحوال . لدينا كم هائل من الفهرسة والحفظ ، كما أننا مقبلون على مهمة ضخمة تتطلب منا إعداد فهرست البطاقات . إن الطقس دافئ وهو ما نحمد الله تعالى عليه . إن كلفة المعيشة باهظة هنا ، فبدل إيجار غرفتي ، على سبيل المثال ، يبلغ عشرة فرنكات في اليوم من غير طعام . علي محاولة الاقتصاد في النفقات .»

ثم كتبت في السابع والعشرين من الشهر نفسه تقول :«سنرحل إلى فندق أفضل وأقل كلفة - وهو جانب لا يخلو من غرابة . إنه فندق موريس Meurice .إن لعملنا شأناً كبيراً جداً . ديانا DIANA شخصية في غاية الدقة والكفاءة ، وستحل فلورا محلها لمدة عشرة أيام . لدينا أربعة من الشبان المكلفين بالقيام بمهام الحصول على المعلومات من المستشفيات . إنهم يتميزيون باللطف ودماثة الخلق كما أن العمل معهم سهل وممتع ، وهم داريل Darell ، ووترهاوس -Water hoouse ، ودووف Dove ، ويونغ Young . وصلنا اللورد روبرت سيسيل Lord Robert Cecil إلا أنه توجه مباشرة إلى مقر القيادة . أتوقع أن نتمكن من لقائه نهار الغد .»

كان رونتون غراينج ، قصر العائلة في مقاطعة يوركشاير ، قد أصبح هو الآخر مركز نشاط مهم ، فقد زاد عدد الناقهين المقيمين فيه ، وبذلك نجد رسائل جيرتروود حافلة بالعبارات التي تبين فيها استعدادها للعودة إلى قصر العائلة إذا ما كانت هناك حاجة لذلك .

وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني كتبت إلى اللادي بيل قائلة : «إني على أتم استعداد للعودة إلى رونتن غراينج . فهل لكم أن تعلموني بقراركم حول هذا الموضوع؟ بإمكان الإدارة هنا توظيف من باستطاعته أن يحل محلي . إنكم على ما أظن قادرون على رعاية أحد عشر ناقهاً بشكل مرضي ، أما رعاية عشرين منهم فأمر مختلف تماماً .»

ثم كتبت في الثلاثين من تشرين الثاني قائلة :«أُمي العزيزة - أشكرك على البطاقتين البريديتين . أتوقع استلامي برقية منكم يوم غد جواباً على رسالتي التي أعربت لكم فيها عن استعدادي للعودة . أؤكد لكم أني على استعداد للعودة فوراً إذا ما وجدتم أن الإرهاق قد أخذ منكم مأخذاً كبيراً .»

وفي الفاتح من كانون الأول كتبت تقول :« إننا مجهدون بشكل مرعب بالعمل المتواصل فيما يتعلق بفهرس البطاقات ، بيد أن الإجراءات ستغدو أسهل بكثير إثر إنجاز المهمة وبدء العمل باستخدام الفهرس أنف الذكر . لقد مضى على وجود السيد داريل فترة من الزمن ، وإن العمل معه ممتع جداً . ويلعب السيد دووف دوراً في نشاط المائدة المستديرة(١)

(١) المائدة المستديرة : أ- مجلة فصلية تأسست عام ١٨٩٠ و لاتزال قائمة إلى يومنا هذا .

ب- مجموعة دراسية قدر لها أن تلعب دوراً فاعلاً في الشؤون الإمبريالية البريطانية وهو دور لم يتم حتى الآن شرح تفاصيله وتحليل أبعاده كما ينبغي ، ويعود ذلك أساساً إلى ما أُريد أن تحاط به هذه المجموعة من سرية عمد المؤسسون إلى إدامتها والحفاظ عليها . وللحصول على معلومات إضافية عن هذه المجموعة والجوانب العامة لنشاطها أقترح على القارئ الكريم الاطلاع على كتاب -1914 . Britain's Moment in the Middle East 1956 بقلم الكاتبة Elizabeth Monroe الناشر - Chatto and Windus London, 1963. P.163 المترجم

Round Table وبذلك فإن ما يكتبه يتميز بطابع التقارير الخاصة بهذه المؤسسة لا بالتقارير الموجزة التي اعتدناها . أما السيد دييد Mr. Deed فإنه يخفق على ما يبدو في الحصول على المعلومات المطلوبة . لعل عملهم سيتحسن مستقبلا . إلا إننا سننسجم بالعمل معاً على ما أرى ، وهو الجانب المهم ، إذ أن لدينا كماً كبيراً من العمل الذي يتعين علينا الانصراف إلى ادائه بكفاءة وإتقان تامين إذا ما أردنا إنجازه كما ينبغي .

«إن الرسائل التي نستلم تثير الشفقة ، وكذلك من نقابل من أفراد ، وبذلك نشعر بسعادة وراحة تامتين كلما تمكنا من تزويدهم ببعض المعلومات المتعلقة بالجرحى والمفقودين من الأحبة و الأقارب . نتمكن في بعض الأحيان من معرفة المناطق والمواقع التي وقع الرجال فيها قتلى ، وتلك التي دفنوا تحت ترابها ، وإذا ما تم التنسيق والتعاون مع المستشفيات Clearing Hospitals (٢) يصبح بإمكاننا الحصول على مثل هذه المعلومات في كل الأحيان تقريباً ، وهو ما أحاول العمل على تحقيقه . بيد أن المشكلة تكمن في المواقع التي توجد فيها هذه المستشفيات وهو جانب يقع في إطار المعلومات السرية التي يقتصر تداولها والاطلاع عليها على جهات محدودة جداً .»

وفي هذه اللحظة بالذات تكرر جيرتروود مرة أخرى قائلة :«لا ينبغي لما قلت أن يثنيكم عن عزمكم على استدعائي للعودة إذا ما أردتم ذلك .»

أما رسالتها في اليوم التالي فموجهة إلى صديقها القديم والمؤتمن على أسرارها السير فالنتياين شيرول Sir Valantine Chirol ، وفيها تقول :« عزيزي دومنول - كم أود أن أكون من بين اللذين يصلون إلى بلاد ما بين النهرين في هذه اللحظة . أتطلع جداً لسماع أخبار احتلال بغداد . لا أظننا سنواجه مقاومة شديدة ، وسوف تؤكد لك الأحداث صحة ما أقول . إن السيد طالب(النقيب) قد تم ترويضه على ما أتوقع ، وهو جانب طالما تمنيت تحقيقه ، ولكنني أتوق لمعرفة التفاصيل . لقد تحولت في الوقت الحاضر على ما يبدو إلى موظف بدرجة كاتب إذ أجدني منهمكة في العمل الورقي على مدى ثمان أو تسع ساعات في اليوم وسط أكداس من الأوراق والتقارير والملفات .»

وفي الحادي عشر من كانون الأول كانت رسالتها موجهة أيضاً إلى صديقها شيرول : «عزيزي دومنول - سأتمكن على ما أظن من توجيه بعض الرسائل إلى الوطن بعيداً عن

(٢) المستشفيات الانتقالية -وتسمى المستشفيات المرحلية أيضاً وهي المستشفيات التي يعالج فيها المصابون والجرحى من المقاتلين قبل نقل من يتم إنقاذه منهم إلى المستشفيات المتخصصة في الخطوط الخلفية - المترجم

أجهزة الرقابة ، وها أنا أوجه أُولاها إليك . إننا نلجأ إلى الأصدقاء لحمل رسائلنا إلى الوطن . وهناك قصة حول رجل توجه إلى الباخرة الراسية بهدف العثور على شخص قد يتفضل عليه بنقل رسالة له إلى ذويه . وعند وصوله إلى الباخرة إقترب من أحد معارفنا طالباً منه ما إذا كان بإمكانه القيام بهذه الخدمة إلا أن الأخير هذا سرعان ما طلب منه الكف عن مضايقته بمثل هذه الأمور إذ أنه الرقيب العسكري ذاته ! وفي مناسبة معينة سأل أحد الرقباء اللورد روبرت سيسيل نفسه ما إذا كان لديه رسائل من أحد ، فرد عليه اللورد سيسيل قائلاً إنه كان بالفعل يحمل رسائل من بعض الأشخاص ، فكانت مفاجئة غير متوقعة ، إلا أن اللورد سيسيل تمكن من ركوب الباخرة ومواصلة حمل ما كلف بإيصاله دونما أخذ أو رد .

لقد أصدر اللورد كتشنر Lord Kitchner أمراً عسكرياً مباشراً يقضي بعدم السماح للزائرين بدخول المستشفيات إلا بإذن خاص . إنه لأمر في غاية السخف . لم تسنح لي لحد الآن فرصة الحصول على الإذن المطلوب بسبب انهماكي في العمل ، ولكنني لا أعتقد أن هناك أية صعوبة تحول دون تمكني من الحصول عليه . ويعزي السبب في إعتماد هذا الإجراء إلى الخوف من دخول الجواسيس إلى المستشفيات ومقابلة الجرحى والحصول منهم على معلومات قيمة حول مواقع وحداتهم العسكرية ومهامها . ويمكن لأي شخص سبق له التحدث مع الجرحى أن يدرك مدى سخف هذا التبرير ، إذ ليس لأي من هؤلاء الجرحى بشكل عام فكرة واضحة عن موقع وحدته أو طبيعه المهمة المكلفة هذه الوحدة بأدائها .

لقد وصل كلود رسل Claud Russell لتوه من هايزبروك Hazebrouck لقضاء يومين معنا . الطرق ما بعد سنت أومر St.Omer بحالة مزرية ، فأرضيتها المرصوفة بالحصاة تنهار تدريجيا لتظهر فيها جيوب تحف بها من الجانبين مستنقعات من الطين تتسبب بإعاقة حركة الآليات متى ما انحرفت عن خط مسارها إلى أي من جانبي هذه الطرق . إن أعمال الصيانة والإصلاح غير كافية لمواكبة حجم ما تتعرض له الطرق من أضرار ، وهذا ما تفيد به مصادر مطلعة . إن التوجه لمعالجة هذه الظاهرة أمر مجد ، وهناك العديد من اللاجئين الذين يمكن توظيفهم للقيام بهذه المهمة . ومن الواضح أن صنف الخدمات العسكرية Army Service Corps ليس بالكفاءة المطلوبة . وهناك مشادات وخلافات عنيفة بين صنف الخدمات الطبية الملكية ومفوضي الصليب الأحمر – والجهة الأولى هي المقصرة على ما أتصور – الأمر الذي دفع بمفوضي الصليب الأحمر إلى الاستقالة .»

وفي السادس عشر منه كتبت جيرتروود إلى زوجة أبيها قائلة :« أكاد أنتهي من تصحيح ذلك الكم الكبير من الأخطاء التي وجدتها عند استلامي العمل . والغريب في الأمر هو

انعدام أية محاولة للتحقق من صحة المعلومات وبذلك تركت الأخطاء تتكدس دون الالتفات إلى ما قد يترتب على ذلك فعلاً من فوضى .»

ارتفع السيد دووف شأناً في نظر الآنسة جيرتروود بيل على ما يبدو ، إذ نجدها تكتب عنه قائلة :«إن رجل المائدة المستديرة هذا عمدة بكل ما تنطوي عليه العبارة من معنى ، فبفضل عونه سأتمكن من مواصلة وضع الأمور في نصابها الصحيح على ما أظن . إننا إذا ما أخفقنا في اعتماد الدقة المتناهية في ممارستنا لن يكون عملنا مجدياً أبداً . إني قد ورثت حب العمل المكتبي على ما أظن ! الهدف من وجودي في الحياة على ما يبدو هو أن أعمل كاتباً في المكاتب ومجال الأعمال . إن الكم الذي أستلم يومياً من المراسلات ، وما يتعين علي الإجابة عليه منه ، هائل و لا حدود له على ما يتضح . وفي كل الأحوال ، إن ما نزود الأفراد به من أخبار ، برغم قلتها ، لا يخلو من جوانب إيجابية إذ أنه يشكل مصدر راحة لهم فضلاً عن كونه مؤشراً على الجهود التي تنصرف إلى معرفة ما حل بأحبائهم من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج . وفي حالات كثيرة أدرك جيداً انعدام الأمل في عودة الأشخاص الذين نحن بصددهم ومع ذلك يتعين علي اختيار أرق العبارات ، وتفادي التفاصيل المروعة ، في لقاءاتي مع أهلهم وذويهم . هذا هو عملي اليومي .»

إن الجو العام للبؤس والشقاء الذي كان يحيط بجيرتروود ، وساعات العمل المضنية ، قد أخفقا كلياً على ما بدا في تخفيف حدة ماكانت تعانيه من ألم . وهناك شعور بأن تكرار الإعلان عن استعدادها للعودة إلى قصر العائلة كان تظاهراً ليس إلا ، وإنها كانت تدرك جيداً أن توجهاتها هذه كانت مبادرات غير مستجابة . ويبرز هذا الجانب بوضوح من خلال رسالتها الموجهة في السادس عشر من شهر كانون الأول إلى فالنتاين شيرول الذي خصته وحده بهذا الجانب . فهي تقول :«عزيزي دومنول - لن آتي إلى إنجلترا في الوقت الحاضر . ومهما تكن الظروف ، فإني أتمكن هنا من قضاء يومي كله في العمل الذي يجسر هاوية البؤس التي كتب علي السير في غياهبها فترة طويلة . ومع ذلك أجد أن حتى الإجراء هذا يكاد يصل أحياناً إلى نقطة الانهيار . إنه جانب أجدني مضطرة إلى الحديث معك بشأنه وإن كان أمر الكتابة حوله غير مجد بالمرة . أرجو معذرتي . هناك أيام تكاد تبدو المشكلة فيها وكأنها لاتزال أكبر مما يمكنني تحمله . واليوم هو أحد هذه الأيام ، وفيه ألتفت إليك باكية برغم إدراكي بعدم جدوى هذا البكاء .»

وكانت جيرتروود في الحين ذاته تشعر بالقلق بشأن أخيها موريس Maurice الذي كان على وشك أن يرسل (مجنداً) إلى فرنسا . وقد رأى البعض أن قلقها كان مفرطاً بعض

الشيء إلا أنهم أعزوه إلى ماكانت تعانيه من إجهاد عصبي . وهو جانب يظهر بوضوح من فحوى الرسالة التي كتبتها إلى أبيها قبيل أعياد عيد الميلاد . ففي الثالث والعشرين من شهر كانون الأول كتبت تقول : «عندما استفقت من نومي صباح اليوم داهمتني رغبة عارمة في رؤية أخي موريس قبل رحيله . كان شعوراً كدت أعجز عن مغالبته . لا أرى جدوى من الذهاب إلى نيوكاسل Newcastle لمجرد قضاء ساعتين معه . إن وصوله إلى فرنسا ووجوده فيها سيريحني ، إذ أن في حال أصيب بجراح فمن المحتمل جداً أن ينقل إلى هنا . وحتى في حال نقله إلى مستشفى آخر لن يصعب علي تعقب أثره والعثور عليه . وخلاف ذلك فإن بإمكانه زيارتي هنا في أثناء إجازاته حيث سأتمكن من السهر على راحته وإسعاده . ومهما يكن الأمر يتعين عليكم إعلامي فوراً بفحوى أية برقية تقوم وزارة الحرب بإرسالها لكم حوله ليتسنى لي اتخاذ ما يلزم من خطوات .

أما بخصوص مكتبي فهو كئيب بطبيعة الحال . لقد انهمكت منذ قدومي بإجراء الكثير من التدقيق وإعادة الفهرسة . قبل مجيئي كانت الفوضى ضاربة أطنابها ، وكانت قوائم المعلومات مليئة بالأخطاء ، فضلاً عن انعدام التنسيق بين من كانت بعهدتهم هذه القوائم الأمر الذي كانت محتويات البعض منها تختلف تماماً عن محتويات البعض الآخر وبذلك كانت مهمة تنظيمها وإعدادها بالشكل المطلوب صعبة ، ولكنني تمكنت من تحقيق الهدف المتوخى . أما الآن فأجدني إزاء مشكلة أخرى وهي عملية تصنيف المعلومات وتبويبها ، والقيام بحذف الفقرات التي نرى أن متطلباتها قد استوفيت ولا يمكن الحصول على مزيد من المعلومات حولها(وهي كثيرة جداً) . وأخيراً وليس آخراً ، لابد لي من محاولة إقناع لندن بتبني خطتي وما يترتب عليها من تبويب وتصنيف وما يعقب ذلك من تحديث لما تتضمنه القوائم من معلومات . وتشمل هذه الإجراءات كذلك السجلات الخاصة بالرائد فابيان وير (Major Fabian Ware الذي أصبح فيما بعد السير فابيان وير) وهي جوانب تتعلق بالأفراد الموجودين على جبهات القتال والذين ينتظرون استلام المعلومات عن طريقنا ، وأعني بذلك الترتيبات الرائعة التي قام بوضعها اللورد روبرت سيسيل . بيد أن التصنيف والتبويب للأعراض الخاصة بالرائد فابيان وير على جبهات القتال إنما يختلفان بالضرورة عما هو معمول به للغرض ذاته هنا في باريس ، إذ أن بإمكانهم هناك الحصول على معلومات لا يمكننا نحن هنا الوصول إليها .

« لقد تمكنت أخيراً من الاضطلاع بمسؤولية القيام بهذا الكم الكبير من المهام ، ولذلك لا أرغب في العودة إلى الوطن بمناسبة عطلة أعياد الميلاد . إن غيابي يعني تردي الوضع

وعودة الأمور إلى كانت عليه سابقاً من فوضى . إن بقائي هنا وإمساكي بزمام الأمور يشكلان معاً ما أتمتع به من أفضلية أمتاز بها على الأختين رسل(أي ديانا وأختها فلورا) وهو جانب يسبغ علي في الحين ذاته نعمة تمسكي بالعمل وتواصلي على القيام به .»

وفي السادس والعشرين من شهر كانون الأول كتبت قائلة :« أبتي العزيز - أود تكليفك بالقيام بمهمة من أجلي ، أو التحري عما يمكن إجراؤه بصددها على الأقل . نواجه دائماً مشكلة انقطاع خيوط الاتصال (فيما يتعلق بأخبار أفرادنا) عند الوصول إلى الخنادق الألمانية . لدينا معلومات كاملة عن كل فرد من أفراد قواتنا المسلحة ، بما في ذلك آخر وقت شوهد فيه ، ووضعه في الخنادق التي يحتلها الألمان . إلا أننا نفقد كل أثر له عند قيامنا باستعادة الخنادق المحتلة . وهنا نقف إزاء احتمالين : أما أن يكون قد مات أو قتل ، أو أنه وقع في الأسر . بيد أننا لا نملك وسيلة للتأكد من أي من الاحتمالين . وبهذا الصدد ، أُحاول من مدة الاقتراح على المسؤولين فكرة الانصراف إلى إقناع الجهات الألمانية المختصة بالموافقة على ممارسة تبادل المعلومات معنا إما من خلال منظمة الصليب الأحمر أو بأية صيغة أخرى الأمر الذي يمكننا من الاستفسار من الجهات الألمانية ما إذا كان لشخص ما من مقاتلينا ، أو لمجموعة معينة منهم ، وجود في ألمانيا ، كما يمكن للجهات الألمانية بدورها من الاستفسار منا فيما يتعلق بفرد معين أو أفراد من مقاتليهم . وفي حالة الإخفاق في معرفة مكان وجود شخص أو أشخاص معينيين بعد استنفاد كل الخطوات أو الإجراءات المتبعة وفق هذا الأسلوب يصبح من المؤكد جداً أن الشخص هذا ، أو الأشخاص ، في عداد الأموات . لقد قمت بمفاتحة رئيس الوزراء هربرت هنري آسكويت Herbert Henry Asquith ولكنني على ثقة بأنه سيجيبني بما مفاده أن شيئاً من هذا القبيل لا يمكن أن يتحقق أبداً . وهناك صيغة أخرى ولكنها غير رسمية : أقصد من خلال المصارف(البنوك) . أعلم جيداً أن كوكس (Cox كذا) يحصل على معلومات من ألمانيا من خلال مصرف سويسري . ليتنا نستطيع فتح خط اتصال من هذا النوع . هل تظن أن بإمكان مصرف ناشنال بروفنشال The National Provinvial Bank اتخاذ أي إجراء من هذا القبيل عن طريق المصارف التي يتعامل معها في الدول المحايدة؟ وماذا عن دور بنك إنجلترا Bank of England هل بإمكانك مفاتحة اللورد كونلف Lord Cunliffe حول الموضوع؟ لعلها فكرة جريئة وغريبة ، ولكنني أتمنى مخلصة أن تعمد إلى النظر فيها . إننا لا نتمكن بدورنا من تقديم معلومات بالمقابل إذ أن ذلك وقف على القنوات الرسمية ، وإذا ما رفض الألمان التعاون معنا في إطار هذا الأمر فإن اللوم يقع عليهم . وضمن حدود مخططي هذا يمكن أن يتم تزويد المعلومات

لقاء إسداء خدمات ودية قد يطلب تحقيقها المصرف لصالحه . ولابد لهذه العمليات أن تتم بشكل سري على ما أفترض . فهل لك أن تحاول يا أبتاه؟» بعد ذلك تنهي جيرتروود رسالتها بالتعبير عن الأمنية التالية :«آمل أن لا نضطر أبداً إلى قضاء أعياد ميلاد مثل هذا العيد الذي كتب علينا قضاؤه ، ولكنني غير متأكدة ما إذا كان بالإمكان تحقيق مثل هذه الأمنية .»

وفي رسالتها المؤرخة في الساب والعشرين من كانون الأول والمعنونة إلى السير فالنتاين شيرول تقول جيرترزود :« طرق سمعي أن يوم عيد الميلاد كاد يشهد سلام الرب - فجبهات القتال (الأوربية) كادت تخلو من تبادل إطلاق النار ، ولقد برز الرجال من خنادقهم واختلط أفراد الجانبين المتحاربين بعضهم بالبعض الآخر ، بل أن موقعاً معيناً شهد مباراة في كرة القدم جرت بين الأعداء . ياله من أمر غريب ، أليس كذلك؟ يحدث الكثير من الأمور الغريبة في أية كفة من كفتي الميزان : فحالات الانحدار الغريب إلى درك الأساليب الوحشية التي تثير الاستغراب تقابل بحالات عودة إلى الممارسات الإنسانيةلا تقل غرابة بدورها . وهكذا تطرق سمع المرء منا روايات متضاربة ، ولكنها في الواقع ليست كذلك إنما مجرد قيام أحد طرفي النزاع ، أو الطرف الآخر بدوره ، بتصحيح التوازن . فأحياناً نستعيد مواقع كنا أجبرنا على تركها لنجد عند وصولنا إليها أن جرحانا قد تم تضميد جراحهم ووضعهم في الملاجئ ، وفي أحيان أخرى نجد أنهم قد قتلوا جميعاً طعناً بالحراب . للنتيجة بالأساس علاقة بطبيعة الوحدة العسكرية المعنية والوضع النفسي السائد في حينه . ترى ما العمل؟ ما هو الحل لهذه الورطة؟ إنها كارثة تزداد وطأتها يوماً بعد يوم . ولحسن الحظ لا أجد لدي الوقت الكافي للتفكير بالأمر .»

وفي الثلاثين من كانون الأول من عام ١٩١٤ كتبت إلى أبيها قائلة :«أبي الحبيب ، ياله من لطف وكرم لا حدود لهما . إنهما يتجسدان حقاً في مثل هذه الهدية الرائعة . لتباركك السماء أيها العزيز الغالي . إنها هدية ثمينة لا ينبغي لي قبولها على ما أظن ، بيد أني لا أستطيع إنكار ما يجيش في صدري من مشاعر الحب والتقدير إزاء قيامك بإرسالها . سأحتفظ بها هنا . لقد تم لي تقديم مجموعة كاملة من أدراج حفظ الملفات إلى المكتب وبذلك لا أجد داعياً لتقديم المزيد . كانت فترة الأسبوعين المنصرمين رهيبة للغاية بفعل تواتر الأخبار المرعبة : ياله من هدر كبير للأرواح لقاء مكاسب ضئيلة لا تكاد تذكر قيمتها . وعلى الرغم من إدراكنا بأنه أمر لا يمكن تفاديه ، لا يستطيع المرء منا مغالبة ما يداهمه من شعور بالألم إزاء ذلك .

***

١٩١٥

استهلت جيرتروود بيل إطلالة عام ١٩١٥ بإجازة أمدها نصف يوم قضتها في لاتوكي La Touquet . وفي طريق عودتها حظيت بلمحة غير متوقعة من جو الشرق الذي عشقت وذلك من خلال زيارة مستشفى سيكوندراباد Secunderabad Hospital . وبهذا الصدد فإنها تقول :«استقبلنا بترحاب منقطع النظير من قبل الأطباء البريطانيين والهنود العاملين هناك برغم أن زيارة المستشفيات من غير أذون خاصة ومسبقة ، ممنوعة منعاً باتاً . وأثناء تناولنا الشاي التقينا كل العاملين هناك الذين جاءوا للسلام علينا والتعبير عن فرحتهم بهذه الزيارة التي قلما يحظون بمثلها . بعد ذلك اصطحبونا في جولة تفقدية في أرجاء المستشفى حيث شاهدنا رجال من الكوركا Gurkhas ، والسيخ Sikhs ، والجاتيين Jats[٣] والأفارقة وهم يجلسون القرفصاء فوق أسرتهم ويمارسون مختلف ألعاب الورق (الشدة) بعظهم مع البعض الآخر بينما انهمك الطهاة في إعداد وجبات طعام خاص بالمسلمين والهندوس من الأفراد وطبخها فوق نيران متفرقة ، وانتشرت في أرجاء المكان رائحة السمن الزكية مشوبة بروائح الشرق المعبأة بالعفونة . وتفتقر المستشفيات الهندية إلى الكوادر النسوية ، كما يعاني الأطباء من عدم وجود ممرضين مدربين ، فالعاملين في مجال التمريض هم من بين عديمي الجدوى من أبناء القوات المسلحة ممن يمكن الاستغناء عن خدماتهم القتالية وزجهم في أعمال الفراشة والخدمات . ويعاني هؤلاء الأطباء الهنود من الوحدة والإهمال إذ ليس لديهم معارف من بين نظرائهم في صنف الخدمات الطبية الملكية ممن يمكن تبادل الزيارات معهم .

---

(٣) الكوركا هم أبناء النيبال من المجندين في الجيوش البريطانية الذين اشتهروا ببأسهم في القتال .

والسيك هم أبناء طائفة دينية هندية تبلورت معتقداتها أصلاً من الهندوسية ، أما الجاتيون فهم البنجابيون من أبناء الشعب الهندي .

وكانت الحكومة البريطانية تعمد إلى تجنيد أبناء شعوب البلدان المستعمرة وزجهم إلى جانب قواتها الوطنية في الحروب التي كانت تخوضها - المترجم

وقد عمد كل رجل منهم إلى تثبيت بطاقة المعايدة المرسلة من الملك فوق سريره ووضع صندوق الحلوى المرسل إليه من الأميرة ميري على المنضدة الصغيرة المجاورة له .»

وكانت رسالة جيرتروود المؤرخة في الثاني عشر من كانون الثاني معنونة إلى أبيها : «انتهى العمل من إعداد مكتب روان . وستعمل فلورا وديانا هناك ، وكذلك عزيزي السيد داريل الذي سأفتقده ، وسيحل محله رجل يدعى نوجينت Nugent . أما تايجر هوارد (Tiger Howard اي الآنسة هوارد) فنتوقع وصولها يوم الخميس القادم . وقد تقرر تخصيص آلة كاتبة أُخرى لي إذ أن الأولى تحتضر من شدة الإرهاق ! كما تقرر قيامي بالاضطلاع بمسؤولية المراسلات مع باريس (فيما يتعلق بإعداد صيغ النشرات التي تتضمن مختلف أنواع الأخبار .) إن الأمر يستهويني إذ أن الصيغة التي يتم من خلالها نقل الخبر تتسم بأهمية بالغة في إطار الطبيعة الخاصة بعملنا . وأنا أُدرك جيداً ما لدي من إمكانات بهذا الصدد لأنني أبذل قصارى جهدي من أجل أن تبدو المعلومة المطلوب إيصالها أقل مرارة مما هي عليه في الواقع .»

وفي نفس التاريخ كتبت جيرتروود إلى «العزيز دمنول» قائلة :« استلمت الليلة رسالتك المؤرخة في الخامس من هذا الشهر . يتواصل عملي ويستحوذ على اهتمامي برغم كل ما ينطوي عليه من جوانب مأساوية أجدني لا أكاد أتحملها أحياناً . أشعر كأن ملف الحرب بكل ما يتضمنه من أسرار يمر عبر يدي . إن الروايات التي تصلني تفاصيلها لا تنسى ، وشخصياتها البسيطة الرائعة تزدحم في أفكاري وترن في أذني ما ينقل عن أفواههم من عبارات . ياللهول ! كل هذا الدمار ، وكل هذا الأسى !

تخفق مهارات بني البشر في اختراق دفاعات أي من الطرفين المتحاربين تماماً مثلما تقف كل ضروب الشجاعة والبسالة عاجزة إزاءها . وإذ نقبع جالسين في أماكننا هنا ، فإن هناك أرواح تنفد تماماً كما ينفد الماء وهو وضع مأساوي نعجز كلياً عن وضع حد له . إن الوضع العام على جبهات القتال لا يصدق : فالرجال يقبعون في خنادق يصل الماء فيها حتى الركبتين . وفي أماكن أخرى يعيق الطين كل حركة نتيجة ارتفاعه إلى مستوى الركبتين ، بل وحتى الفخذين أحياناً ، الأمر الذي يجد الرجال فيه أنفسهم عاجزين تماماً عن إطلاق بنادقهم وهم في وضع الانبطاح ذلك لأن مرافق اليد تكون مدفونة فيه حتى الرسغ . إن نصف الحالات التي تعالج في المستشفيات هي حالات الإصابة بمرض التهاب المفاصل(الروماتزم) وقرصة الصقيع ! ويمضي الرجال في هذه الخنادق فترة واحد وعشرين يوماً ، تصل أحياناً إلى ستة وثلاثين ! هل بإمكانك تصور مثل هذا الوضع؟

لم يصل موريس لحد الآن ، فكل أسبوع يتأخر فيه عن الوصول هو كسب ليس إلا . إن الفرصة الوحيدة لعودة أي مقاتل من الخطوط الأمامية إلى الوطن تتأتى نتيجة إصابته بجرح يحول دون مواصلة بقائه فيها . هذا هو قدر أصحاب الحظ منهم . أما مصير الآخرين فاست بغافلة عنه ، إنه يبعث القشعريرة في أوصالي .

سيتم إعادة الجنود الكوركا إلى وطنهم على ما أظن ، أو لربما سوف يصار إلى إرسالهم إلى مصر . إنهم محطمون نفسياً ولا يتوانون عن الفرار . لقد أفرط في إجهادهم على ما أظن .

أتوق لسماع أخبار حملتنا على بلاد وادي الرافدين ، إذ لا خبر لدي حول هذا الموضوع أبداً ، فأرجو موافاتي بأخبارها .»

* * *

في السادس عشر من كانون الثاني ، وبخصوص مبلغ من المال كان أرسله والدها بمناسبة أعياد الميلاد ، كتبت جيرتروود قائلة : « أبتي العزيز – أود أن أخبرك بالتفاصيل المتعلقة بمبلغ الخمسين باوناً التي كنت أرسلتها لي . لقد طلب مني السيد مالكوم القيام بما يلزم لتنظيف غرفة كبيرة مهجورة لغرض إقامتي فيها وذلك في نفس دار السكن المخصص لنا . وإثر قيامي بما يلزم بما في ذلك تغطية أرضها وتثبيت ستائر من قماش قطني منقوش فوق نوافذها ، فإنها بدت جميلة ومشرقة ، وهذا ما يحتاجه الإنسان في جو يخيم عليه الحزن بوجه عام . وقد تم ذلك كله على نفقتي - أو بالأحرى على نفقتك الشخصية ! ولازلت بحاجة إلى كثير من المال لتغطية نفقات ما نحتاج من كتب وأضابير للحفظ ودفاتر لتسجيل الحسابات الجارية .

إنه لأمر يبعث على البهجة وراحة النفس أن يجد الإنسان نفسه قادراً على تغطية نفقات معينة من غير اللجوء إلى إرهاق كاهل الصليب الأحمر .»

وفي العشرين منه كتبت إلى السير فالنتاين شيرول Sir Valentine Chirol قائلة : «عزيزي دمنول – شعرت بضرورة كتابة رسالة إليك وإرسالها ببريد اليوم برغم أن ما أكتب لا يثير الاهتمام بأي شكل من الأشكال بسبب ما أشعر به من تعب وإرهاق من جانب ، ولوجودي على مقربة من هذا الصراع المرير القائم وسط الطين من جانب آخر . آمل أن توافق وزارة الحرب على الأقل على قيامي بمهمة ومسؤولية مراجعة القوائم الشهرية بأسماء المفقودين . لازلت أراجع قوائم شهر كانون الثاني التي كان أرسلها لي اللورد روبرت سيسيل طالباً مني تثبيت ملاحظاتي حولها والتي وجدتها مليئة بالأخطاء سواء ما يتعلق منها

بأسلوب العمل وأداء المهمة المطلوبة ، أو بما تم إغفاله وإهماله من جوانب . وبصرف النظر عن تحركات القطعات العسكرية سيبقى موقعنا هذا مقراً رئيسياً للمستشفى إذ أن هناك مجال واسع للإيواء على امتداد الساحل . ولازالت مدينة روان Rouen المقر الأكبر في الوقت الحاضر . وإني عازمة على مواصلة البقاء هنا لأني أفضل تواصل هذا التماس المباشر مع الجبهة ، وأحب ما أقوم به من عمل يتعلق بجماعة فابيان وير Fabian Ware ، وهو عمل من الممكن جداً أن يحقق تنامياً في إطار ما يتميز به من أهمية وقيمة . ومن المحتمل أن نتوجه شرقاً في حال تحرك الحلفاء في ذلك الاتجاه ، بيد أنه احتمال بعيد على ما يبدو ، والشائع بهذا الصدد أنه لن يكون هناك أي تحرك جاد قبل شهر نيسان أو آيار وعندها سيكون الوضع مروعاً ، بل أسوأ من أي شيئ قدر للعالم أن يشهده .

تطرق أسماعنا أخبار حول نزاع قائم بين كتشنر والفرنسيين يتعلق بالجيوش التي تعمل بإمرته ، بيد أني غير ملمة بتفاصيل الموضوع . أنت تنعم بدفئ الشمس وهو جانب أجده قد بات في غياهب النسيان بقدر تعلق الأمر بي . وبرغم كل مظاهر الكآبة والوجوم فقد عمدت إلى كل ما من شأنه أن يجعل مكتبي مكاناً يبعث على الراحة والفرح بفضل زهور الليلك والنرجس التي تزين جوانبه . إنها زهور جلبتها من الأسواق . أتساءل أحيانا كيف يمكن إيصال الزهور إلى بولوين في زمن الحرب؟ بيد أني أدعو من الله أن يبارك مثل هذه الممارسات وأن لا يحرمنا من نعمها .»

وفي الثالث والعشرين من كانون كتبت إلى زوجة أبيها تقول :« أمي الحبيبة - السيد مالكوم Mr.Malcolm موجود هنا . إنه دبلوماسي متميز ، وقد تم له تسوية قضايا تعتبر على جانب كبير من التعقيد ، وبذلك أصبحنا نستقبل المراتب(٤) بالإضافة إلى الضباط ، وهو ما يثلج صدري .

وصل إلينا بيرسي لوبوك Percy Lubbock بقامته الطويلة الفارعة ونحوله ، بدا شكلاً بشرياً غريباً بلباسه العسكري . إنه يعتبر وجوده معنا حتى نهاية الحرب أمراً مفروغاً منه . سوف نوكل إليه مهمة الفهرسة التي آمل أن تروق له .

أرسلت ملاحظاتي حول قائمة المفقودين الخاصة بوزارة الحربية إلى اللورد روبرت سيسيل وأقترحت قيامنا مستقبلاً بتدقيق الصحائف الخاصة بالطباعة (البروفات) . لا أدري

(٤) المراتب - جمع مرتبة ، أي درجة rank ، وتعني بالمفهوم العسكري الأفراد كافة (أو الرتب الأخرى) دون مرتبة الضابط - المترجم

إن كان ذلك سيحظى بموافقة وزارة الحرب ، بيد أني واثقة من جانب لا مجال للنقاش حوله وهو أننا أكثر معرفة منهم فيما يتعلق بالمفقودين .» وتنتهي الرسالة الأخيرة بمناشدة من القلب لا تخلو من مسحة فكاهة :« أماه! أتساءل أحياناً ما إذا كنت أساساً قد خلقت للقيام بمثل هذا العمل ، وما إذا سيتعين علي مواصلته إلى آخر يوم في حياتي !»

وبعد خمسة أيام تعود جيرتروود إلى مخاطبة زوجة أبيها قائلة :« إذ أعترف بأني كنت متراسلة غير منتظمة على مدى الأيام الأخيرة ، لابد لي من إعلامك بأني أعاني من رشح كان أصابني ، إلى جانب انهماكي بشكل غير طبيعي العمل نتيجة اعتماد نظام جديد لحفظ الملفات . أما الآن فأشعر بأني بدأت أتغلب على كليهما . ولا أنكر بهذا الصدد ما قدمه لي بيرسي لوبوك من مساعدة . إنه رجل طيب يعمل على مدى ساعات متواصلة بدأب ومثابرة من غير أدنى تذمر أو اعتراض . كما أشعر بارتياح وسعادة أثناء العمل مع الآنسة هوارد التي أجدها إنساناً رائعة بكل معنى الكلمة ، إننا على انسجام تام . آمل أن لا يقوم (هيوجو Hugo أخوها من زوجة أبيها) بزيارتي بسبب عدم تمكني من القيام بواجب الضيافة لكثرة مشاغلي . استلمت رسالة من اللورد كرومر Lord Cromer كانت طويلة ومفصلة كما هي رسائله دائماً . ولقد ذكر على نحو عرضي أنه يؤيد وجهة نظري التي ترى أن «مملكة اليهود في فلسطين هراء وكلام فارغ ليس إلا . وبذلك لا موجب لقيام هيربرت صموئيل Herbert Samuel بالتهيؤ ، والانصراف إلى إتقان العبرية .»

* * *

وفي الثاني من شباط كتبت إلى صديقها وموضع ثقتها السير فالنتاين شيرول قائلة : «عزيزي دومنول - كانت رسالتك من بورت سعيد مثيرة للاهتمام . لو أن لدي من الشجاعة ما يكفي للتعبير عن رغبة عزيزة على نفسي لطلبت أن أكون برفقتك في الخليج ، بيد أني لا أملك هذا القدر من الشجاعة . ولكن عليك بأية حال أن تخبرني بتفاصيل ما يدور من أحداث في ذلك العالم بالذات الذي كان في زمان ما ملكاً لي . تتابع الأيام وتتوالى الأسابيع والأشهر بغفلة من الإنسان . لقد قضيت في موقعي هذا فترة تقرب من ثلاثة أشهر ، وقد طرق سمعي خبر العديد من التحركات في مقر القيادة العامة . ترى ما حصيلة كل هذه التحركات ؟ الله أعلم . أما بالنسبة لعالمنا هذا فقد شهد مؤخراً كثيراً من المعارك التي لم تتميز بأي هدف معين باستثناء احتلال خندق وفقدانه ومن ثم استعادته مرة أخرى

وهكذا دواليك – هذا هو كل ما في الأمر . لقد بلغت خسائرنا على مدى الستة أسابيع الماضية أكثر من أربعة آلاف قتيل ! ياله من هدر !»

اتضح في هذه الفترة أن قدرة جيرتروود على انتزاع إجازة قصيرة كان أمراً ممكناً . ففي الخامس عشر من كانون الثاني كتبت تقول : «سوف أصل يوم الأربعاء على ما أظن ، ومن المحتمل أن أتوجه مباشرة إلى نيوكاسل Newcastle للقاء موريس وقضاء يومين بصحبته أعود بعدها إلى لندن . إن إجازتي قصيرة جداً . لا داعي لنشر خبر عودتي بين الأصدقاء والمعارف لأني مرهقة ولا أريد لقاء الكثير من الناس .»

* * *

إن المقطع المدرج أدناه مقتطف من آخر رسالة بعثتها جيرتروود من بولوين . فقد تم استدعاؤها إلى لندن من قبل اللورد روبرت سيسيل باعتبارها أفضل من يمكنه تحقيق النجاح في مضمار إعادة النظام إلى جو عمل تسوده الفوضى .

وفي الثاني والعشرين من شهر آذار كتبت تقول : «أمي العزيزة – لقد وافقت على المجيء إلى لندن . لن يكون عملنا مثمراً إلا إذا قدر لنا وضع الأمور في نصابها الصحيح في الدائرة المركزية ، وخلاف ذلك يجدر بنا التوقف عن العمل . سوف أصل يوم الخميس أو الجمعة ، إذ يتعين علي استكمال بعض المهام هنا قبل سفري . يرجى الإيعاز إلى ماري بالبقاء في لندن إن كانت لا تزال فيها ، أو العودة إليها في حالة وجودها في رونتون . أرجو عدم إخبار أحد عن مجيئي إذ لا أجد لدي الوقت الكافي لذلك ، ولا الرغبة في إشغال نفسي بأمور الناس .»

الفصل الثاني

في الفاتح من نيسان كتبت جيرتروود من مسكنها في شارع سلون ، رقم ٩٥ ، إلى السير فالنتاين شيرول قائلة :« عزيزي دومنول - وجدتني رسالتك الممتعة في لندن . لقد استدعاني اللورد رو برت سيسيل لتنظيم المكتب الرئيسي وهي مهمة لا يجرؤ على الإضطلاع بها إلا هرقل الجبار لا غيره ، ولا أدري كم من الوقت سيستغرق العمل بها لأنني لم أكن أدرك ما معنى الفوضى قبل مجيئي إلى هذا المكتب . يعتقد اللورد سيسيل بأنني سأبقى معهم إلى الأبد ! أما أنا فأرغب في العودة إلى فرنسا . وفي كل الأحوال لابد لهذه المهمة أن تنجز على الوجه الأتم ، أما ما يعقب ذلك فأمر لا يهمني بالمرة . لا أذهب إلى أي مكان ولا أرى أحداً ، ولكنني في الوقت الحاضر بعيدة عن بولوين وعالم الأوحال وأسباب القلق وعدم الراحة ، ولدي خادمتي الخاصة التي ترعاني وتسهر على راحتي ، كما أمارس رياضة السير على الأقدام عبر المنتزه العام وصولاً إلى شارع أرلنجتون Arligton St . أربع مرات في اليوم . يجد المرء هنا أنه أكثر خلاصاً من الحرب ، إلا أني بالإضافة إلى ذلك أشعر بعيدة عما تسببه من انفعالات وما تثيره من عواطف . قدر لي في بولوين معايشة ظروف معركة نوفي تشابيل Neuve Chapelle ، وقد ثبت أنها كادت تفوق ما يمكن لأعصاب بني البشر تحمله .

ويدرك جيداً كل من يعلم (ونحن في بلوين على علم تام بالأمر) أن الانتصار البيروسي Pyrrhic(*) الذي تحقق في نوفي تشابيل قد بين بشكل أكثر وضوحاً من السابق عجزنا عن اجتياح خطوط العدو . وبذلك لا أفهم سبباً لانصرافهم إلى التستر على خسائرنا التي قاربت (٢٠,٠٠٠) مقاتل بينما تراوحت خسائر الألمان ما بين (٨٠٠٠ - ١٠,٠٠٠) مقاتل .

إن العمل هنا يستهويني جداً ، كما يحظى اللورد سيسل بمحبتي واحترامي . انه أشبه بأحد صغار الجان الذين يدرك قراء القصص الخرافية بأنهم من بين من يسارعون إلى مد يد العون في الشدائد . ويعمل بإمرتي فريق قوامه عشرون امرأة بالإضافة إلى صبيين من أعضاء الفرق الكشفية هما بعبارة موجزة مصدر بهجة لا حدود لها .»

* * *

أثناء الفترة التي قضتها جيرتروود في لندن كانت رسائلها قليلة وقصيرة ، ولابد أن

(*) نسبة إلى Pyrrus ملك إيبروس Epirus الذي تكبد خسائر فادحة نتيجة دحر القوات الرومانية ، أي أنه انتصار تحقق بثمن باهظ جداً ــ المترجم .

الاحتمالات المستقبلية قد بدت لها قاتمة في كل الاتجاهات . ولا غرابة في ذلك إذا ما أدركنا أن أخاها موريس كان في معمعان المعارك الدائرة في فرنسا ، وأن الرجل الذي أحبت كان هو الآخر في حومة على منطقة الدردنيل Dardanells . ومع ذلك كانت هناك نقطة مضيئة تمثلت باحتمال إرسالها إلى بلاد ما بين النهرين . أما في الوقت الحاضر انهمكت في مهمة إعادة تنظيم عمل قسم الاستعلامات الخاص بالجرحى والمفقودين ، وهو عمل كان حجمه يتنامى بشكل مطرد . وبهذا الصدد نجدها تقول :« أشعر بالتعب والإرهاق في نهاية الأسبوع إلا أنني سرعان ما أستعيد نشاطي وسط الهدوء الذي يخيم على أرجاء المكتب أيام الآحاد .»

وفيما يتعلق بتوجهها إلى بلاد ما بين النهرين ، فإنها كتبت في الثاني من شهر حزيران قائلة :« لم يحدث شيء حتى الوقت الحاضر . لست مهتمة بالأمر أحاول جاهدة صرف انتباهي عن هذا الأمر .

في غضون ذلك بدأت أدرك بشكل أكثر من السابق معنى العمل بإمرة رجل مثل اللورد سيسيل تميز بالسرعة في إنجاز العمل ، والقدرة على اتخاذ القرارات الملائمة والالتزام بها ، وغياب كل ما يبدو مستحيلاً إذا ما أوكلت مهمة إنجازه إليه . سيتولى السير لويس ماليه Sir Louis Mallet مهام الأمور بيد أنه لن يمارس ذات السيطرة عليها .»

وفي الخامس من آب كتبت إلى زوجة أبيها قائلة :« أمي الحبيبة - لن أتمكن من الإفلات في الأسبوع القادم . إنني أعيش فترة مروعة بسبب وجود موظفين جدد أشرف على تدريبهم ، وأحاول في الحين ذاته تلافي ما يكثرون في الوقوع فيه من أخطاء في كل لحظة . وبغياب من أتمكن ائتمانه على إدارة القسم وتسيير شؤونه حتى ليوم واحد ، لا يمكنني ترك العمل في الوقت الحاضر . الوضع بات لا يطاق أبداً . أكره كل تغير تماماً مثلما أكره انتقال العمل من يد إلى أخرى .»

وفي العشرين من آب كتبت تقول :« نعاني من صعوبات كثيرة بسبب ضيق مكتبنا . لقد اضطلعنا بمسؤولية إضافية نزولاً عند رغبة وزارة الخارجية ، إنها مهمة جمع وجدولة كل المعلومات المتعلقة بمعسكرات اعتقال أسرى الحرب في ألمانيا . ويتعين علينا بالضرورة التعامل مع هذه المعلومات بطريقة ملائمة إذ أنها تساعدنا في التوصل إلى أفضل الطرق التي من شأنها مساعدة أسرانا القابعين في معسكرات الاعتقال الألمانية . بيد أن ذلك يعني في نفس الوقت التعامل مع عدد أكبر من الملفات وإدارة مزيد من الأشخاص الذين يقع على عاتقهم استخدامها . يراودني أمل قيام أسقف لندن بإعارتنا عدداً من الغرف لاستخدامها مكاتبا لنا . لا يمكنني أن أضع شعبة أسرى الحرب بعيداً عني دون التسبب في خلق

مضايقات واحتمال الوقوع في أخطاء خطيرة ناهيك عن ضياع الوقت . هل تعتقدين أن مواجهة الأسقف بهذا الطلب يعد خروجاً على قواعد اللياقة ؟ وإذا ما كان الأمر كذلك هل لك التكرم بمفاتحته بدلاً مني ؟ أجدني غير قادرة على تدبير هذا الأمر بما يحقق لي ما أصبو إليه من هدف .

إنني أعاني من وحدة قاتلة في هذا الشهر . إن عدم رغبتي في الانفراد بذاتي كما كان عهدي سابقاً لأمر لا يطاق ، إلا أنني عاجزة تماماً عن الابتعاد عن أفكاري وهو جانب لا يطاق هو الآخر أيضاً .»

* * *

كانت ايلسا Elsa اللادي رتشموند Lady Richmond أخت جيرتروود تسكن في ضاحية هامستيد Hampstead ، وعندما كانت جيرتروود تصل الحد الذي لا يمكنها فيه تحمل ما يدور في رأسها من أفكار ، أو كتمانها ، فإنها كانت تجد بعض الراحة في الإفضاء بها إلى أختها هاتفياً . وكان قد مضى عامان على رفضها التمتع بالسعادة على حساب بيت محطم ، وهربها في رحلة أخذتها عبر صحراء شبه الجزيرة العربية . ولكنها واصلت الاتصال بالنقيب .... وكانت تعمل في لندن عندما صدرت الأوامر إلى حبيبها بالتوجه إلى مسرح العمليات الحربية التي كانت تدور في بلاد وادي الرافدين ، ولذلك فإنها قضت بصحبته معظم فترة الأربعة أيام الأخيرة التي سبقت رحيله .

ثم راحت تواصل التعبير عن شعورها بالألم إزاء المعارك الرهيبة التي كانت تدور في منطقة الدردنيل وما ترتب عليها من خسائر بشرية فاقت كل التصورات والحسابات . وفي أثناء تناولها طعام الغذاء بصحبة بعض الأصدقاء سمعت بخبر مقتل النقيب .... وبهدوء أشبه بسكون الأموات أسرعت بالإفلات منطلقة إلى منطقة هامستيد حيث تسكن أختها التي عندما رأتها على ما كانت عليه من حال اختلط الأمر عليها وانفجرت باكية ظناً منها أن المقصود كان أخوها موريس و صاحت جيرتروود بصوت كاد يدل على التبرم ونفاد الصبر .«كلا ! لا أقصد موريس . .» قالت ذلك واستلقت فوق الأريكة وبدت لبضع دقائق وكأنها وجدت شيئاً من الراحة في حركة يد أختها التي راحت تمسد جبينها ، ولكنها سرعان ما أشاحت بوجهها عنها .

* * *

وفي أثناء تلك الأسابيع الحزينة التي أعقبت سماع الخبر ، كانت صديقتها الحميمة ، صاحبة العصمة[١] ملدريد لاوثر The Honourable Mildred Lowther ، على ما بدا مصدر سلوى وراحة لها . إلا أن باباً إلى الشرق بدأ ينفتح أمام جيرتروود بشكل مفاجئ في مطلع شهر تشرين الثاني . فبسبب ما كان لها من معرفة واسعة بشؤون العشائر العربية في شمال بلاد العرب ، حيث كان توماس ايدوارد لورنس يلعب دوره في إطار ثورة الصحراء ، بات من المؤكد تقريباً أن هناك حاجة لخدماتها في القاهرة . وقد أدرك الدكتور دايفيد هوغارث Dr. David Hogarth الذي كان على اتصال وثيق بلورنس إمكانية الاستفادة من معلوماتها ، ولهذا الغرض عمد إلى الاتصال بالنقيب ريجنالد هول Captain Reginald Hall الذي أصبح فيما بعد الفريق البحري السير ريجنالد هول Vice - Admiral Sir Reginald Hall .

لم تكن جيرتروود على استعداد لإضاعة دقيقة من الوقت . أدركت الحاجة الماسة للخرائط والكتب وبذلك راحت تمطر راونتون[٢] بوابل من الرسائل العاجلة تطلب فيها من زوجة أبيها اللادي بيل مد يد العون بهذا الصدد وإرسال كل ما تقع عليه يداها من كتب وخرائط ذات الصلة بالأمر .

في الثامن من تشرين الثاني كتبت إلى زوجة أبيها رسالة تعرب فيها عن امتنانها :«والدتي العزيزة - إن اختيارك للكتب والخرائط يمثل تجسيداً حياً لما تتمتعين به من عبقرية ليس إلا . لقد أرسلت كل ما أحتاج منها . أجدني عاجزة عن التعبير عن عظيم امتناني لما قمت به .»

لابد أن الأمر(أي توجهها إلى مصر) قد تمت تسويته بسرعة فائقة ، أما الرسالة التالية فلا تحمل أي تاريخ :

«أبتاه العزيز - استدعاني النقيب هول صباح اليوم وأخبرني بأن القاهرة قد أبرقت معلنة عن نيتها في التحاقي للعمل فيها ، وأن الخطوات التالية منوطة بالإدارة المعنية هناك وبذلك ينبغي لي على الأقل أن أكون على أهبة الاستعداد . هذا ما قاله . ولذلك قررت أخذ كامل

---

(١) يحمل هذا اللقب أبناء وبنات أي نبيل دون مرتبة مركيز Marquis . وقد شاء البعض ترجمة هذا اللقب بعبارة شريف (أو شريفة) ، إلا أنني آثرت اختيار عبارة صاحب (أو صاحبة) العصمة لما للقب الشريف أو الشريفة) من خصوصية معينة في إطار مجتمعنا العربي الإسلامي - المترجم

(٢) راونتون غرابنج Rounton Granage هو مسكن عائلة بيل في إنجلترا - المترجم

عدتي . وقد وافقني النقيب هول على توجهي هذا مؤيداً جدوى التهيؤ التام .

أتوقع قدومك إلى لندن قبل مغادرتي ، أليس كذلك ؟ أعلم أن أمي ستأتي لزيارتي يوم الثلاثاء . إنهم سيتحملون نفقات سفري كما سيمنحونني مخصصات تغطي الجوانب المتعلقة بالسكن . إن قبولي هذه المخصصات مبرر على ما أعتقد . أليس ذلك؟»

لابد أن نفترض بأن جيرتروود قد قابلت أباها قبل سفرها ، إلا أن اللادي بيل لم تتمكن من المجيء إلى لندن . وقد كتبت لها في السادس عشر من شهر تشرين الثاني قائلة :«والدتي الحبيبة - أظنك كنت على حق في رفضك المجيء إلى لندن في هذا الطقس البارد . كان يسعدني جداً لقاؤك قبل سفري . من المحتمل جداً ، على ما أظن ، أن ما لديهم من عمل لي لن يتطلب إنجازه أكثر من أسبوعين من الزمن الأمر الذي يعني احتمال عودتي قبل عطلة أعياد الميلاد . إن الأمر برمته من الغموض بما تعجز الكلمات عن وصفه . أما بخصوص رحلات أخرى ، فإنني لم أعلم بأي شيء محدد ، وأنا بدوري لا أرى ثمة ما يشير إلى احتمال وجود فرص بهذا الصدد .»

الفصل الثالث

كان الشرق من غير أدنى شك وطن جيرتروود بيل الذي فيه كانت تجد نفسها في أقصى درجات السعادة والتحرر من كل ما من شأنه أن يثير القلق والانزعاج . وما أن انطلقت في طريقها إلى القاهرة حتى بدأت تستعيد مرحها . وفي ميناء مرسيليا بدت بالتأكيد أكثر بشاشة وابتهاجاً ، أما قبل وصولها إلى القاهرة فكان هناك إحياء واضح لجوانب معينة مما كان لها من اهتمام ونشاط . وبشكل تدريجي بدأت رسائلها تزداد طولاً ، أخذت كلمات مثل «مسل» و «مله» ، و«مضحك» تنسل إلى نصوصها مرة أخري .

في القاهرة ، حيث استقبلها كل من دافيد جورج هوغارث David George Hogarth وتوماس إدوارد لورنس T.E. Lawrence كانت مهمتها في بادئ الأمر مقصورة على المساعدة في ملء الملفات الاستخبارية بالمعلومات المتعلقة بالقبائل العربية والشيوخ بما في ذلك أعداد هذه القبائل وأصولها ، وهي مهمة ثبت بوضوح أن جيرتروود كانت أهلاً لها بشكل لا مثيل له .

وبهذا الصدد فإنها كتبت في السادس من شهر كانون الأول تقول .«إن مجيئي إلى هذا المكان كان ضرباً من السخف على ما أظن ومع ذلك أجد متعة في العمل أحياناً . وفي كل الأحوال سأواصل البقاء هنا لفترة من الزمن أرى بعدها ما ستؤول الأمور إليه . أخشى أننا مقبلون على شتاء لا يخلو من صعوبات الأمر الذي يتعين علينا مراوحة الخطى والالتزام بالصبر . عمدت بعد ظهر يوم أمس إلى منح نفسي إجازة ذهبت فيها لزيـــارة اللادي آن بلنت Lady Ann Blunt التي وجدتها في غاية اللطف والرقة . تجاذبنا أطراف الحديث الذي تركز أغلبه حول بلاد العرب . لقد وجدت منطقة سكن اللادي بلنت واحة راحة وسلام قياساً بضجيج القاهرة وزحامها . كم أكره الفنادق و السكن في الأماكن العامة وهذا ما تنطوي عليه فكرة السكن في الفنادق أساساً . ويزداد كره المرء لمثل هذه الأماكن بشكل خاص بعد أن يكون قد قضى فترة وهو يعيش عيشة النساك الزاهدين .»

وفي اليوم التالي كتبت إلى والدها تقول :« سرني جداً استلام رسالة من موريس . باركه الرب . أظنه قد عاد الآن إلى فرنسا . يواصل المرء منا التطلع إلى المستقبل بيد أنه سرعان ما يشعر باليأس والقنوط عندما يخفق في تصور نهاية لهذه المأساة . لعل النهاية آتية في يوم ما ، ولربما يأتي اليوم هذا على نحو مفاجئ جداً .

شاءت الصدف أن يزاملني في مجال تعلم العربية بواقع ساعة في اليوم رجل في غاية

الظرف والرقة . كان قد جاب في أرجاء سوريا فبات يعرف مناطقها جيداً . إننا نجلس سوياً في شرفتي المسقفة ونتحدث عن الأماكن التي زرناها والناس الذين نعرفهم . إنها لمتعة أن يجد المرء نفسه قادراً على التكلم بالعربية مرة أخرى ، كما إنها تجربة لا تخلو من فائدة كبيرة في مجال ممارسة اللغة إذ إنني غالباً ما أجد نفسي عاجزة عن اختيار العبارة الصحيحة التي يتعين علي استخدامها .»

ويتضح من فحوى الرسالة التالية التي وجهتها جيرتروود إلى اللورد روبرت سيسل أن «الكشف الموجز» بالقبائل العربية قد بات الجزء الأهم من واجباتها إلى حين استقرارها في بغداد ، كما اعتبر في الحين ذاته دليلاً لا يقدر بثمن ، فبعد طباعته أصبح يستخدم من قبل كل من يؤتمن على القيام بالأعمال ذات الطابع السري وذلك في إطاري الإدارتين المدنية والعسكرية طوال سني العشرينات .

وفيما يتعلق بسياسة بريطانيا الخاصة بالشرق الأوسط في السنين الأولى من الحرب العالمية الأولى ، فإن ما تضمنته الرسالة آنفة الذكر من شرح لخططنا التي استهدفت دعم شريف مكة ، الذي أصبح فيما بعد ملك الحجاز ، هو مقدمة للسياق الخاص ببروز الملوك الهاشميين وأفول نجمهم على نحو مأساوي في النتيجة : الحسين ، وفيصل الأول ملك العراق ، وعبد الله ملك الأردن ، وأبناؤهم وأحفادهم . ولم تكن السياسة المذكورة عندما كتبت جيرتروود بيل رسالتها هذه أكثر من خطة فرضتها ظروف الحرب – وهي الاستفادة من عظم نفوذ شريف مكة وهيبته على المستويين المعنوي والديني وتسخير ذلك ضد المحاولة التركية الألمانية التي أرادت رفع راية الجهاد ضد البريطانيين والفرنسيين – إلا أنها سرعان ما أصبحت تمثل قاعدة السياسة البريطانية المعتمدة في الأراضي العربية في آسيا والمحور الرئيس لحياة جيرتروود بيل . ولقد قدر لهذه السياسة أن تتكلل بالنجاح في القريب العاجل ، إلا أن الوعود التي أعطيت للشريف ، ومن خلاله للعرب بوجه عام ، ثبتت في النهاية أنها أسنان تنين[1] ليس إلا ، ولم يكن حصادها بعد زوال الخطر التركي إلا المشاكل والقلاقل والاضطرابات .

«العشرين من كانون الأول . عزيزي اللورد رو برت – يطيب لي أن أبعث لك هذه

---

(١) هي الأسنان التي اشتهرت في الأساطير اليونانية القديمة باعتبارها تلك التي بذرت من قبل قدموس الفينقي والتي تحدر منها رجال مسلحون ! وقدموس Cademus هو مؤسس مدينة طيبة أو ثيبة Thebes or Thiva اليونانية القديمة التي تقع شمال غرب مدينة أثينا – المترجم .

الرسالة بالحقيبة الرسمية إذ يتعذر علي خلاف ذلك التطرق إلى أمور خارج نطاقي صحتي والطقس وهما موضوعان لا يجدر الكلام عنهما طويلاً . لقد تم تكليفي هنا بعمل يتناول الجوانب المتعلقة ببلاد العرب والقبائل والشؤون الجغرافية . إننا مقدمون على إصدار كتيب يضم التفاصيل المتعلقة بالقبائل مع التركيز على أعدادها وتجمعاتها السياسية ، بالإضافة إلى إصدار طبعة جديدة للخريطة . لا أعلم ما إذا سيتم استخدام الكتيب بعد صدوره ، إلا أنني تمكنت من اكتساب الكثير من المعلومات أثناء العمل وهو أمر يثلج الصدر بالإضافة إلى كونه مصدر بهجة ومتعة لا سيما في مجال جمع المعلومات من أبناء العرب المتواجدين هنا ، إذ أنني أقابلهم شخصياً على مدى ساعات حيث نعمل معا على تصحيح أسماء الأماكن والقبائل وذلك من خلال حوار يتناول مختلف الشخصيات ، التاريخية منها والحديثة على حد سواء ، والتي لم تكن قبل ذلك أكثر من ظلال بالنسبة لي . وإلى جانب ذلك فإن البرقيات التي ترد من عدن والبصرة تحمل في نصوصها الكثير من المعلومات الجديدة ، وهو مصدر متعة بالغة يمكنك تصورها من غير أدنى شك . وسنتمكن في النتيجة من الخروج بعمل نأمل أن يشكل قاعدة معلومات للمستقبل برغم كل ما فيه من أخطاء . أما في الوقت الحاضر ، فلا يوجد ثمة ما يمكن القيام به . إننا نراوح الخطى في بلاد وادي الرافدين ، دون تحقيق أي نجاح على ما أظن ، ونتوقع هنا هجوماً تركياً موجهاً ضد قناة السويس . المعلومات القادمة من سوريا قليلة وليس لها قيمة تذكر . إن الأتراك على ما يبدو عازمون على شن هجوم في بلاد وادي الرافدين أولاً قبل التوجه إلينا ، وهو من حسن حظ مصر إذ لم يتم البدء بالاستعدادات اللازمة لمواجهة الغزو إلا قبل ثلاثة أسابيع فقط ، كما أن معظم أفراد القوات الموجودة هنا هم مجا ميع مستجدة وغير متجانسة من الأستراليين . إن مجرد انصرافنا إلى مثل هذه المخاطرة لأمر لا يكاد يصدق ، وآمل أن لا يصدقه العدو . إلا أن المفاوضات مع الشريف قد أجريت بمهارة وبراعة تامتين ، وإذا ما تمكنا من الحفاظ على تواصل تعاونه معنا ، لن يكون هناك أي خوف من حركة دينية كبيرة . فهو الشخص الوحيد الذي بإمكانه رفع راية الجهاد ، أما الأتراك الذين ينطلقون بمواعظهم بتحريض من حلفائهم الألمان فمن غير المحتمل أن يكون لديهم ما يحمل على الإقناع هذا العام أكثر مما كان لديهم في العام الماضي . والسؤال هو ما إذا باستطاعتنا الحفاظ على تواصل تعاونه معنا . وتشير كل المعلومات الواردة إلينا إلى أنه قد اكتسب على ما يبدو مكانة مرموقة وملفتة للأنظار في بلاد العرب ، بيد أن قوته تقوم على أساس معنوي لا عسكري ، وإذا ما قدر للأتراك الوصول إلى سوريا بقوة فقد يتمكنون من ممارسة ضغوط لا يمكنه مقاومتها الأمر الذي لن يكون من غير المحتمل

استسلامه إلى حليف الحكومة العثمانيةألا وهو«المناخ الفكري السائد» . ونحن في الوقت الحاضر نجابه العراقيل التي تضعها الهند وفرنسا في طريقنا كما تعلم . والشريف بدوره يرفض النظر في المسألة العربية بمعزل عن المناطق المستوطنة ، وهو على حق بذلك إذ أن الصحراء لا تكفي ذاتها بذاتها وبذلك فإن من يبسط سيطرته على الأقاليم والمناطق المزروعة لابد له في النتيجة من بسط سيطرته على العناصر البدوية وسكان الواحات . ثم إن الشريف لم يبد غير عقلاني ، ومن المحتمل جداً أن نصل إلى اتفاق إلا أن ذلك لا يمكن أن يتم على أساس تخلينا عن كل سوريا . إن المطالب التي تقدم بها السيد بيكو M.Picot مؤخراً قد دفعت بحدود سوريا الفرنسية لتمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى نهر دجلة . إن الحكمة تقتضي بإرخاء الحبل للفرنسيين وإعطائهم قدراً وافياً من حرية التصرف ذلك لأنهم عندما يبدؤون النظر بجد إلى إدارة منطقة شاسعة كهذه فإنهم سيدركون من غير أدنى شك أن الأمر أكبر بكثير مما كانوا على استعداد للاضطلاع به من مهمة أساساً . إلا أن سياسة إرخاء الحبال تتطلب وقتاً طويلاً ، وعنصر الوقت هو ما نفتقر إليه . إن من شأن حركة عربية جادة ، إذا ما قدر لها أن تدخل إلى حيز التنفيذ ، أن تعمد إلى طردهم من شمال أفريقيا على نحو لا يقل سهولة عن طردنا من مصر . سيضطر الفرنسيون ، على ما أظن ، إلى الاكتفاء بمنطقة الإسكندرونة وكليكيا (وهما منطقة وميناء جيدان) بالإضافة إلى لبنان الذي لن يتنازلوا عنه في كل الأحوال بما في ذلك مدينة بيروت أيضاً . ويكمن ضعف الحجة في عدم قدرة العرب على حكم ذاتهم – وليس هناك من هو أكثر قناعة بذلك مني – وعندما يلجؤون إلينا طلباً للمساعدة بهذا الصدد (وهو أمر مؤكد) لن ينظر الفرنسيون إلى ذلك بعين الرضى . إلا أننا قد لا نضطر إلى النظر بعيداً إلى هذا الحد ، والضرورة الآنية تتمحور حول محاولة إقناعهم (الفرنسيين) بقبول حل وسط يرضى الطرف العربي أيضاً وذلك إزاء خطر إخفاقنا جميعاً . أما بخصوص العقبة الهندية ، فلعل تراجعنا في بلاد ما بين النهرين قد يساعد على دفع حكومة الهند إلى اعتماد نهج أكثر انسجاماً . وتشكل بلاد النهرين مشكلة أقل تعقيداً بكثير من سوريا ، فهي من الناحية الثقافية متخلفة عن الأخيرة بعقود ، كما أن حركة الوحدة العربية لم تكد تبدأ فيها . إننا لن نتمكن من ضم أي من ولايتي البصرة أو العراق بوجه عام بيد أن أحداً لن يعارض إدارتنا لها في حالة تفادي إدارتها تدريجياً من خلال نظام بيروقراطي هندي . أما موضوع الاستعمار فيتعين التعامل معه بحذر ودقة . إن بإمكاني الإسهاب في هذا الموضوع بيد أنني لن أفعل ذلك ! لابد أنك قد قاربت الوصول إلى حدود صبرك ! ترى ما الذي دفعني إلى الاعتقاد بأنك لن تضيق ذرعاً بآرائي

المتسرعة حول السياسات المتعلقة بالشرق الأدنى بوجه عام .»

* * *

القاهرة في الفاتح من كانون الثاني .« أمي العزيزة - أتساءل ، في حالة توفر لي الخيار ، ما إذا كنت أرغب في أن أعيش مرة أخرى أحداث العام الماضي بكل ما انطوت عليه من جوانب عجائبي ومذهلة ، مع تحملي مجدداً كل ما عانيت بسببها من حزن وألم ؟ وليس أقل هذه الجوانب العجائبية قيمة عطفكم عليّ وحبكم لي ، أنت وأبي ، ليبارككما الرب . ولطالما تساءلت ما إذا كان بإمكاني العيش بدونهما ، بيد أنني لم أستطيع التوصل إلى أي جواب . وفي كل الأحوال لا أرى جدوى في التحدث عن هذا الأمر في هذا المجال ، وبذلك يصبح الالتزام بالصمت الحل الأكثر جدوى ويكفيني القول بأنكما لا تغيبان عن بالي أبداً .

وصل إلى القاهرة السيد جورج لويد Mr. George Lloyd وقد دعوته لتناول طعام العشاء مساء الأمس مع السيد لورنس ، والعقيد نيوكوم Colonel Newcome . أن السيد لويد (الذي أصبح فيما بعد اللورد جورج لويد) رجل لطيف كنت تعرفت به في القسطنطينية . بعد العشاء قضيت معه ساعات في حديث تناول مواضيع عديدة .»

وفي العاشر من كانون الثاني كتبت للادي بيل قائلة :« والدتي الحبيبة - لا تحملي نفسك مشقة الكتابة لي إذا ما كنت منهمكة في أشغالك ، بيد أن كلمة موجزة تعلمني بأنك في خير وعافية تغنيني عن الكثير من التفاصيل . أجل يا أماه كان التراجع من غاليبولي إجراءً رائعاً . انه أمر لا ينفع التفكير فيه ، فالبقاء هناك غير مجد أساساً . الكثير من القوات الشرق أوسطية موجودة هنا ، وإن ما يروى من قصص لأمر يدمي القلب ويثير الأشجان . كانت كارثة بحق : كارثة بكل ما انطوت عليه من حماقة وفوضى وإرباك ومواقف شجاعة جوفاء .»

* * *

بعد تدبر ، وأخذ جوانب عدة بعين الاعتبار ، تقرر إيفاد جيرتروود بمهمة سياسية إلى الهند . وفيما يتعلق بهذه المهمة كتبت إلى أبيها رسالة بعثتها بواسطة الحقيبة الدبلوماسية .

وفي الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني كتبت تقول :«هناك خلاف كبير بين الهند

ومصر حول المسألة العربية ، وهو خلاف ينطوي على انعدام التعاون بين دائرتي الاستخبارات لكلا البلدين ، ويزداد حدة نتيجة تواصله . إنه بطبيعة الحال وضع لا يقبله العقل . إننا جميعاً أناس ذوو نوايا حسنة نحاول بذل كل ما نستطيع للمصلحة العامة ، إلا أنهم لا يدركون كيف ينظر الغرب إلى بلاد العرب ، كما يمكنني القول من جانب آخر إننا لا ندرك كيف ينظر الشرق إلينا .

إنني متجهة إلى الهند غير مدركة بالضبط جدوى هذه الزيارة باستثناء كونها محاولة يجدر بنا الانصراف إليها . سوف يتم لي في كل الأحوال معرفة الكثير من الأمور لأنني آمل أن يسمحوا لي بتمحيص ملفاتهم المتعلقة ببلاد العرب لأرى ما يمكن إضافته إلى معلوماتنا من مصادرهم . من المحتمل أن يتكفلوا بمصاريف رحلتي ، وحتى في حالة رفضهم ذلك لن يوقفني عن التوجه إليهم الذي أجد فيه جانباً مجدياً . وبهذا الصدد آمل أن تفهم ، أبتاه العزيز ، السبب في رجوع شركة P and O للسفر والسياحة إلى المصرف الذي أتعامل معه بغية التحقق من رصيدي معه إذ أنني كنت حررت شيكاً بمبلغ كبير لصالح الشركة آنفة الذكر ولهذا الغرض بالذات . آمل أنك ستوافقني على ما قمت به من إجراء كعهدي بك دائماً . في نيتنا استحداث مكتب استخبارات دائم a permament intelligence bureau للشرق الأدنى ، بأمل أن يتواصل وجوده حتى بعد أن تضع الحرب أوزارها – إنه إنجاز لا يقدر بثمن شريطة أن يحظى بعطف الهند ومساعدتها إذا ما أريد له أداء في المستوى المطلوب وهذا ما أود مناقشته مع نائب الملك The Viceroy هناك . »

* * *

في غضون ثلاث ساعات فقط تعين على جيرتروود التهيؤ للرحيل . وقد تمكنت من ذلك فعلاً . وعلى ظهر ناقلة الجنود يوروبيدس Euripides انطلقت في الثامن والعشرين من كانون الثاني في رحلتها ووصلت إلى ميناء كراتشي في السابع من شباط .

كتبت تقول : «تستغرق الرحلة إلى دلهي بالقطار بحدود ثمان وأربعين ساعة ! سوف أكون في غاية السعادة . إنها رحلة مرهقة . أما سفرتي البحرية فكانت مريحة برغم ما أثارته في نفسي من سأم وملل شأن كل الرحلات البحرية . لقد أنجزت كماً لا بأس به من العمل وقد لمست لطفاً ورقة في التعامل من لدن الجميع . ولقد وقع الجنرال سكيين General Skeen من نفسي موقعاً حسناً ، وكذلك العقيد

كلاركسون Colonel Clarkson الذي تعرفت به على مائدة ربان السفينة . وكان معنا على ظهر السفينة بالإضافة إلى ذلك فوجان من أفواج فيلق البنادق Rifle اللذان أوكلت إليهما واجبات الحماية ، وكان القسم الأكبر من منتسبيهما من المحامين ورجال الأعمال - جاء معظمهم من مدينة ليفربول وضواحيها . لم يكونوا جنوداً بالمعنى التقليدي ولكنهم كانوا قريبين إلى القلب ، ولابد أنهم قد ضحوا بالكثير لينالوا شرف الخدمة . ولم يكن أي منهم قد زار الشرق من قبل ولذلك كانوا تواقين لمعرفة كل ما له علاقة بهذا العالم . ولقد طلبوا مني التحدث إليهم عن بلاد ما بين النهرين وقد قمت بذلك نزولاً عند رغبتهم . ولم تخل كلمتي من جوانب سخيفة ، لا تعقل ، بيد أن موقفي ما كان ليبدو أقل سخفاً أو مجانبة للعقل في حالة رفضي الاستجابة إلى طلبهم .

سأكون في غاية السعادة للقاء عزيزي دومنول . يشعر المرء بالوحشة عندما يضطر إلى السفر على هذا النحو ومن غير رفيق سوى مايشاؤه الحظ له .»

* * *

استقبلت جيرتروود في دلهي من قبل السير فالنتاين شيرول . وبهذا الصدد كتبت في الحادي عشر من شباط قائلة :« جاء بي دومنول إلى هذا المكان وأسكنني في خيمة فخمة احتوت ثلاثة مرافق هي غرفة نوم وغرفة جلوس وحمام . وقد جالسني أثناء تناولي وجبة الفطور . وبعد أن تركني عاد لزيارتي بعيد العاشرة حيث انهمكنا في حديث طويل . وأثناء ذلك زارنا فخامة اللورد هاردنج H.E.Lord Hardinge وقد بدا ملهوفاً على ضرورة عودتي إلى مكان ما من بين المناطق التي كنت ألفتها . وإثر مغادرته عمدت إلى كتابة مذكرة بينت فيها ما قد يمكنني القيام به من مهام ، ثم ذهبت بعد ذلك لتناول طعام العشاء في القصر . وقد جاء اللورد ايرنجتون Lord Errington لاصطحابي وهو جاري في ذلك الامتداد الطويل للخيم التي نصبت لتشكل عدداً من الشوارع في المنطقة المخصصة لها .»

قلما تطرقت جيرتروود إلى الألم الذي كانت تواصل المعاناة منه ، بيد أن هناك إشارة خاطفة له في رسالتها التالية .

في الثامن عشر من شباط .« والدي العزيز - جلب لي آخر بريد استلمته رسالتك المؤرخة في العشرين من كانون الثاني . لا أستطيع وصف فرحتي باستلامه ، بيد أنني شعرت بالحزن لعدم استلامك رسالتي الطويلة التي كنت بعثتها لك من القاهرة جواباً على

رسالتك التي أخبرتني فيها بالتفاصيل المتعلقة بحالتي المالية . وفي كل الأحوال لقد كتبت لك لأخبرك بأن الكلمات تعجز تماماً عن التعبير عما لمسته منكما (أنت وأمي) من عطف وكرم ورعاية . في الواقع ، لم يسبق لشخص أن قدم لآخر ما قدمتماه لي من دعم ومساعدة . أما ما يعنيه حبكما لي وتعاطفكما معي فأمر هو الآخر أجدني عاجزة تماماً عن الخروج بما يعبر عنه على نحو يفيه حقه . حبيبي أبتاه ، لا أزال عاجزة عن التعبير عن شعوري كما ينبغي ، بيد أنني واثقة بأنك تدرك ما أريد قوله ، أليس كذلك ؟

لقد تمكنت ، على ما أظن ، من تسوية بعض الجوانب في العلاقة المتوترة بين دلهي والقاهرة ، بيد أن تحقيق إدامة علاقة ودية وطيبة لا يمكنه أن يتم إلا من خلال تواصل الاتصالات الشخصية . وإذ تعتمد الحكومة المركزية في لندن سياسة تقوم على استقلالية مختلف الأجهزة والشعب بعضها عن البعض الآخر ، فإن من واجب هذه الأجهزة والشعب تفهم الواجبات الخاصة ببعضها البعض الآخر والعمل على التعاون فيما بينها تحقيقاً للمصلحة العامة .

آمل يا أبتي الحبيب أن لا ترهق نفسك في العمل ، وكذلك الحال بالنسبة لأمي الحبيبة . فهناك الكثير مما يتعين إجراؤه والقيام به بعد نهاية الحرب ، فلابد لكما من توفير شيء من طاقتكما للإيفاء بذلك ، ولتواصل علاقتكما الطيبة بابنتكما المحبة التي تتمنى لكما الخير دائماً وأبداً .»

* * *

كراتشي . في السادس والعشرين من شهر شباط .« إنني أقيم الآن مع الجنرال شو General Shaw وزوجته اللطيفة التي استقبلتني في محطة القطار . كنت معفرة بالغبار ، لا أكاد أبدو إنساناً . غداً موعد سفر باخرتي .

إن تغيير نائب الملك في هذا الظرف إجراء غير موات . فبفضل ما يتمتع به اللورد هاردنج من معرفة واطلاع واسعين وخبرة طويلة فهو ليس فقط أفضل من بإمكانه توجيه السياسة الخارجية للهند ، بل أن لآرائه وزناً كبيراً لدى المسؤولين في الوطن . أما خلفه اللورد جيلمسفورد Lord Chelmsford فيتعين عليه اكتساب كل ما يستلزمه تبوّؤ هذا المنصب من معرفة وخبرة . وقد يهون الأمر بعض الشيء إذا ما عمد المسؤولون إلى استشارة اللورد هاردنج في الأمور والقضايا الهامة التي تخص المصلحة العامة بيد أن ذلك أمر لا ينسجم مع التوجه

العام والممارسات الرسمية وبذلك أخشى أن وزارة الخارجية و الحلقات الرسمية الأخرى في الدولة لن تلجأ إلى استشارته في القضايا الحساسة المتعلقة بكل من بلاد ما بين النهرين وفارس .

ليس من السهل مؤانسة الملوك وتسليتهم في الهند . لقد عشت تجربة بهذا الخصوص قبل رحيلي عن الهند . كان الأمر يتعلق بشخص مايسور Mysore الذي يقف على رأس طبقة اجتماعية في غاية الرفعة والأهمية ، وهو ما اضطر نائب الملك إلى بناء بيت بست غرف لاستقباله واستضافته . لم يكن بإمكان هذا الفاضل تناول الطعام ، أو الصلاة ، إلا في غرف ذات حجم محدد بعد أن يتم تجهيزها وترتيبها وفق نظام هو الآخر محدد أيضاً .

حضرت اجتماعاً للمجلس التشريعي ذات صباح بصحبة دومنول . كان أغرب ما عرفت من المجالس فبالإضافة إلى عدد من رجالنا الإنجليز كانت هناك تشكيلة كبيرة من الرجال ضمت مختلف الشخصيات الآسيوية جاء البعض منهم بلباسه الوطني وجاء البعض الآخر باللباس أوربي مع العمامة ، وكانت بعض هذه العمامات من قماش قرمزي اللون وأخرى موشحة بالذهب . يالها من بلاد !»

* * *

في البصرة حلت جيرتروود بيل ضيفة على السير بيرسي كوكس وزوجته اللادي كوكس Sir Percy and Lady Cox . وكان السير بيرسي آنذاك يشغل منصب الموظف السياسي الأقدم لمنطقة الخليج العربي Chief Political Officer in the Gulf وعلى الرغم من إن جيرتروود كانت التقت السير بيرسي في مناسبة سابقة إلا أن اجتماعهما هذه المرة لربما كان فاتحة لأكبر علاقة صداقة عرفها الجزء الأخير من حياتها . ومن البصرة كتبت في الرابع من آذار قائلة :

«هناك بريد سينطلق باتجاهكم يوم غد ، وبهذه المناسبة أود إعلامكم عن كيفية سير الأمور معي . . لقد استضافتني اللادي كوك وغمرتني بلطفها وكرم أخلاقها . ذهبت صباح اليوم لزيارة دائرة الاستخبارات حيث التقيت رئيسها العقيد بيتش Colonel Beach ، وزرت النقيب كامبل تومبسون Captain Campbell Thompson الذي كنت التقيته سابقاً عندما كان أثرياً . وقد وجدتهما لطيفين وكيسين للغاية ، وقد رحبا بي خير ترحيب . تقرر إيوائي في المقر العام ومنحي كل التسهيلات اللازمة في إطار عملي ضمن الكادر القائم على

إعداد المعجم الجغرافي» . وكانت جيرتروود قد جندت للعمل بوصفها عضواً في هيأة التحرير المكلفة بإعداد معجم البلاد العربية الجغرافي Gazetteer of Arabia الذي كان يجري جمعه وتصنيفه في Simla[٢] ثم تواصل جيرتروود قولها : «سيكون العمل ممتعاً ومثيراً للاهتمام على ما أتصور . إنني بصدد البحث عن خادم . الطقس هنا رائع . ولكن ما البصرة هذه ؟ إنها بعبارة موجزة موقع يجمع بين الطين والضفادع ! أنها مدينة موحلة ، تكثر فيها النهيرات الآسنة وحشود من العرب – ولكنها تستهويني .»

وفي الحادي عشر من شهر آذار كتبت قائلة :«تناولت طعام العشاء مع مبشر أمريكي وزوجته – السيد والسيدة فان ايس Mr. And Mrs. Van Ess كما التقيت السيد دوبس Mr. Dobbs الذي يعمل حالياً موظفاً سياسياً هنا . في المساء ذهبنا في نزهة مشياً على الأقدام بين غابات النخيل وقد حدثني عن الإدارة الجديدة وآلية العمل فيها . إنه يرأس حالياً مكتب الضرائب والمكوس Revenue Office الأمر الذي جعله يطلع عن كثب على النظام التركي المعتمد في هذا المجال . وبهذا الصدد يقول بأن النظام المذكور تميز بالتساهل بوجه عام ، ومع ذلك فإنه لم يخل من جوانب معقولة ومسؤولة انطوت على فهم جيد بأمور الأفراد الذين كان يتم التعامل معهم ، وبذلك فإننا نهتدي بضوء العديد مما يوفره من ممارسات وتوجهات . إلا أن الصعوبة تكمن ، على ما يبدو ، في خلق كادر مدني وطني يضطلع بأعباء المهام المطلوب إنجازها والنهوض بمتطلباتها . لقد كان العمل في هذا المجال مقصوراً على الأغلب على العناصر التركية . لقد جابهنا ذات المشكلة في مصر بيد أنها لم تكن حادة كما هي عليه الآن في بلاد وادي الرافدين وذلك لأننا لم نعمد إلى طرد الموظفين الأتراك وبذلك فإن الإدارة هناك بقيت من الناحية الشكلية تحت سيطرة الحكومة العثمانية .»

بلقائها بالسيد دوبس – الذي أصبح فيما بعد السير هنري دوبس – التقت جيرتروود ثاني من قدر لهم فيما بعد تبوّؤ منصب المندوب السامي High Commissioner في العراق ، والذي شاءت الظروف أن تعمل بإمرته مثلما عملت قبل ذلك بإمرة من سبقه ، أي السير برسي كوكس . فبعد إحالة السير برسي كوكس على التقاعد في عام ١٩٢٣ عين السير

(٢*) هي عاصمة مقاطعة هماشال براديش Himachal Pradesh الهندية الواقعة في المناطق الشمالية من الهند ، وعاصمة الهند الصيفية سابقاً . إن استخدامها في هذا الإطار يعني مقر الإدارة البريطانية في الهند آنذاك – المترجم .

هنري دوبس خلفاً له . وفي أثناء فترة مسؤولية السير هنري دوبس اجتمع المجلس التأسيسي بهدف إقرار المعاهدة المبرمة مع بريطانيا العظمى وسن القانون الدستوري .

وفي السابع عشر من آذار كتبت مايلي :«مازلت ضيفة على عائلة كوكس الكريمة . إن السير برسي في الواقع شخص ظريف خفيف الروح ، ممتع وواسع الاطلاع فضلاً عن كونه سياسياً بارعاً . كما أن السيد هنري دوبس رديف كفء ، وشخص جدير بالثقة . وقد ذهبت لتناول الشاي معه لأنني أردت الاطلاع على بعض الخرائط التي سبق له رسمها . بعد ذلك ذهبت، في نزهة بصحبة مساعده الشاب ، وهو شخص لبق الحديث وحلو المعشر اسمه بولارد (الذي أصبح فيما بعد السير ريدر بولارد Sir Reader Bullard و قد سبق له العمل في سفارتنا في القسطنطينية ، وبعد أن اجتزنا بساتين النخيل سيراً وصلنا إلى حدود الصحراء : كانت المرة الأولى التي أعود فيها إلى الصحراء بعد غياب دام عامين .

إن استدعاء الجنرال ايلمر Genral Aylmer على عجل حدث يستحق التعليق عليه . نأمل أن ترسل لنا السماء شخصاً أكثر كفاءة للقيادة إذ لا أرى خلاف ذلك أية فرصة لتقدمنا إلا بعد أن يفسح لنا الروس مجالاً للتقدم . إنها فكرة لا تبعث على الراحة والرضى .»

وفي الرابع والعشرين من آذار كتبت تقول :« أتساءل ما الذي سيترتب على فردان(٣) Verdun؟ هل ستشكل آخر مجهود كبير ؟ هل ستكلل بالنصر ؟ إنها تسير ببطء شديد ! لقد مضى شهر على القتال من غير نهاية !

إن الطقس رائع هنا – الربيع في أوجه . الفلاحون منهمكون في تلقيح أشجار النخيل ، وأشجار الفواكه مزهرة ، والأزهار التي تضمها الحدائق متفتحة ، بيد أن (البصرة) ليست مكانا مزدهراً ! فاستخدام الطين مقصور على الجوانب المنفعية فقط (أي استخدام لا علاقة له بالجوانب الجمالية أو تلك المتعلقة بالأسلوب) وخلاف ذلك فإنه يترك للضفادع»

كان توماس إدوارد لورنس قد أوفد من مصر إلى البصرة بصفة ضابط ارتباط ، وقد أجرت جيرتروود معه «حوارات قيمة» . وفيما يتعلق بلورنس كتبت قائلة :«إنه يتجه غداً شمالاً حيث تدور رحى المعارك .»

---

(٣) فردان – هي البلدة المحصنة المطلة على نهر ميوس Meuse River في شمال شرق فرنسا وفيها تم صد هجوم ألماني كبير شن عام ١٩١٦ بعد أن دارت أفظع معارك الحرب العالمية الأولى وأكثرها شراسة وقد سفكت فيها دماء ألوف لا حصر لها من الرجال – المترجم

وإلى زوجة أبيها اللادي بيل كتبت جيرتروود تقول :« أحمد الله على عدم قدرة موريس على الالتحاق بالخدمة الميدانية لشهر آخر . إن ما ذكرتيه من الصعوبات التي تجابهين في مضمار حشد عدد من الخبيرات في الشؤون الزراعية لأمر ممتع ومثير للاهتمام ، ومن جانب آخر فإن جوانب الحيرة والتشويش التي تشهدها أوجه النشاطات كافة لأمر يبعث على اليأس والقنوط . لاحظت وجود توجه من لدن الحكومة ينصرف إلى وضع اللوم عن الهزائم والنكسات التي حصلت في بلاد ما بين النهرين على عاتق الجنرالات في حين يعلم الجميع أنهم أجبروا على التقدم برغم كل ما أبدوه من تحفظ و عمدوا إليه من مقاومة كم أتمنى أن يكون النجاح حليفنا في الكوت !

لا أعتقد بأنني سأبقى هنا فترة طويلة من الزمن . لقد أفردوا لي كماً كبيراً من العمل في الوقت الحاضر يتعلق بتصحيح الخرائط - أقصد إجراء ما يتطلب من تصحيح على الأسماء وذلك بمساعدة من لدن شخصيات محلية استطعت اللجوء إليهم لهذا الغرض . لقد أوشكت على الانتهاء من عملي المتعلق بالكتيب الخاص بالقبائل .»

وفي السادس عشر من نيسان كتبت تقول :« إننا لا نزال نخوض معركتنا التي أسهمت الأمطار والرياح والفيضانات في إطالة أمدها . إن للإنجازات هنا طبيعة مائية أكثر من كونها عسكرية ، فالأمطار تعيق حركة كل شيء نتيجة ما يتكون من طين . أما كيف تواصل الكوت صمودها فأمر لا أكاد أستطيع تخمينه .

سيان عندي أن أنا بقيت أو رحلت - فالأمر سواء عندي حيثما ذهبت . بيد أن العمل هنا أكثر متعة كما أنني أجد فرصاً كثيرة للالتقاء بالأشخاص العرب والقيام بأعمال مجدية . سوف أرى ما إذا كان بإمكاني أن أشغل نفسي أثناء ترقبنا وصول الأخبار بإجراء ما ينبغي من تصويب على الخرائط . كان المسح قد تم من قبل مساحين هنود وبذلك فإن الأسماء المثبتة على الخرائط إنما جاءت بفضل الله وعنايته !»

وفي السابع والعشرين من نيسان كتبت جيرتروود ما يلي : «لم يعد لحد الآن أي من الذين ذهبوا مصعدين في النهر : لا النقيب اوبري هيربرت Captain Aubrey Herbert ، ولا الاميرال ويميس Admiral Wemyes ولا السيد توماس ادوارد لورنس . انه لأمر عجيب حقاً ، يذهب البعض مصعدين في النهر ثم يختفون ! أتوق لعودة أي شخص من أجل أن أعرف ما يجري شمالاً . إن ما يصلنا من الأخبار قليل ومحدود جداً .

ترى كيف حال أخي موريس؟ أخشى أنه قد يعود إلى فرنسا في غضون الشهر المقبل ليبدأ قلقنا مجدداً . أتساءل أيضاً عن صحة وأحوال أفراد العائلة فرداً فرداً و أود سماع

أخبارهم . إن من يبتعد عن أرض الوطن يصبح بشكل ما كمن يكون في حالة غيبوبة لا يصحو إلا بفعل انتفاضة بين الفينة والفينة .»

وكتبت في الرابع من آيار :«قبل بضعة أيام من سقوط الكوت بات واضحاً أنها ستسقط لا محالة . لقد أضعنا الكوت في الثامن من آذار عندما اخترقنا الخنادق التركية في Sinn ولكننا بدلاً من الاندفاع إلى الأمام (واستثمار الفوز) أضعنا الوقت بالانتظار لساعات الأمر الذي أتاح للأتراك فرصة جلب التعزيزات . بعد ذلك راحوا يتموضعون بصمود وصلابة بحيث تعجز أية قوة مهاجمة على زعزعتهم واحتلال مواقعهم . ولقد بذلنا آخر جهد في محاولة لتجنب الكارثة وذلك عن طريق اختراق الحصار بسفينة تحمل المؤن بحركة جريئة وشجاعة قام بها النقيب كاولي Captain Cowley الرجل الذي يعرفه ويحبه كل عربي في بلاد ما بين النهرين . أخشى أنه قد قتل ، من الصعب جداً ، بل ومن غير الممكن ، توفر بدلاء لأشخاص من هذا الطراز .»(٤)

كانت جيرتروود تجد متعة كبيرة في المهام المختلفة التي كانت تكلف بالقيام بها وبذلك كانت تتوق إلى البقاء في البصرة لا سيما في حالة منحها الحرية التامة لإعادة صياغة

---

(٤) ازاء ما ورد أعلاه لابد لي من ذكر الحقيقة التالية : إن الباخرة المذكورة هي الباخرة «جلنار» التي كانت أسرع باخرة نقل عرفها العراق أنذاك . وقد ارتأت القيادة البريطانية في أواخر أيام حصار الكوت شحنها بالاطعمة وإرسالها خلسة إلى الكوت في محاولة يائسة لمد الحامية المحصورة بالتموينات . وقد أبحرت من مدينة العمارة مساء ١٩١٦/٤/٢٤ . إلا أن أمرها سرعان ما انكشف للأتراك عن طريق أحد الجواسيس في العمارة الذي قام بإعلام قائمقام مدينة الحي سلطان بك الجبوري (أحد خريجي مدرسة العشائر في اسطنبول) والذي قام بدوره بإعلام القائد التركي خليل باشا . وما أن اقتربت الباخرة من الكوت حتى أمطرها الأتراك بوابل من الرصاص والقنابل فقتل الكثيرون من بحارتها وجرح آخرون . أما الباخرة فقد جنحت إلى الشاطئ وبقيت هناك . وكان «النقيب كاولي» الذي أشارت إليه الآنسة بيل من جملة من وقعوا أسرى في أيدي الأتراك . وبوصفه ضابطاً فانه دعي لتناول الطعام مع القائد خليل باشا وأركان قيادته . وفي محضر تفاخر الأتراك بقدراتهم العسكرية وسذاجة العدو ثارت حمية كاولي الذي ردد عليهم مثلاً بغدادياً عامياً يقول :« تالي الليل تسمع حس العياط .» (وكلمة حس تعني صوت ، وعياط تعني صراخ) أي أن النصر يتحقق في آخر الحرب لا في المعارك الأولى التي قد تخسرها بريطانيا . على إثر ذلك اختفى كاولي ووجد بعدها مقتولاً على ظهر السفينة وأغلب الظن أن الأتراك هم الذين قتلوه . وقد منحته الحكومة البريطانية وسام صليب فكتوريا تقديراً لشجاعته - المترجم

العديد من المطبوعات الاستخبارية التي وجدتها «رديئة إلى درجة تثير السخرية والعجب .»

وفي الثامن من أيار كتبت تقول :« لقد جاءنا البعض من رجال ابن رشيد ممن كنت قد التقيتهم في حائل . وقد وافوني بأخبار كل أصدقائي في حائل وأخبروني بأنني قد تركت أثراً حميداً هناك وإن ذكري يتردد بينهم دائماً . وقد أرسلت بواسطتهم رسالة إلى الأمير ورسائل إلى أناس عديدين هناك . وإذا ما نجحنا في جر أمير حائل إلى جانبنا نكون قد حققنا إنجازاً كبيراً .

سوف أضطلع الآن بمسؤولية كل ما يتعلق بنشاط الارتباط بين مصر والبصرة الذي آمل أن يجعلني أكثر تماساً بالسير بيرسي كوكس الذي سيكون المصدر الأساس لكل من المعلومات التي تتعلق بعملي . جورج لويد في طريقه إلينا من مصر وسيتولى الجوانب التجارية وهو مجال سيبدع فيه على ما أظن .

بعد أقل من ثلاثة أشهر سيبدأ موسم جني التمور ، ولكننا نفتقر إلى ما يكفي من السفن لنقله إلى حيث تتم الاستفادة منه . إن أموراً كهذه تستلزم تحقيق تعامل حكيم مع مثل هذه المنتجات كما تتطلب فكراً خلاقاً .»

ومرة أخرى تبسط جيرتوود لأهلها يداً بارة مترددة .

ففي رسالتها المؤرخة في الرابع عشر من أيار والمرسلة من مقر القيادة العامة تقول :«والدتي العزيزة - آمل أن تكوني في حال أفضل . أظنك كنت طريحة الفراش عندما كتبت لي رسالتك الأخيرة . لقد كتبت لأبي رسالة مطولة حول موضوع بقائي هنا . وهو جانب آمل أن تتداولا بشأنه . إنني دائماً على أستعداد تام لتلبية ما ترغبانه مني . وبغياب ما يستدعي وجودي بينكما ، فإن بقائي هنا أكثر جدوى على ما أظن . بديهي إنكما مثقلان بالعمل ، وإذا ما اقتضت الضرورة وجد من بإمكانه المساعدة ، فإنني على استعداد للعودة .

وفي الوقت نفسه يزداد العمل متعة وإثارة للاهتمام بشكل يفوق قدرتي على الوصف .

جاءني بريد اليوم ببعض الملابس : ثوب من الدانتيلا وآخر من الحرير المقلم الأمر الذي يدفعني إلى الأمل باحتمال استلامي مزيداً منها .»

ثم كتبت إلى والدها في الحادي والعشرين من أيار . من مقر القيادة العامة . «والدي العزيز - أود القول أن ما جاء في كراسك حول الاستيلاء على التجارة الألمانية قد أثلج صدري . يسمع المرء منا كثيراً من الكلام الفارغ حول مختلف المواضيع ، لاسيما في

الأوساط العسكرية ، ولطالما تساءلت ما إذا كان المجنون أنا أو من يردد الأقاويل والإشاعات . وأخيراً توصلت إلى استنتاج لا رجعة عنه : هم المجانين .

عندما أنطلق في نزهة على ظهر جوادي يمتد طريقي اعتيادياً عبر أحد أكبر معسكراتنا التي تقع على حافة الصحراء . بإمكان المرء أن يرى هنا كل أنواع البشر والحيوانات والمعدات : فهناك قوات بريطانية وهندية من مختلف الصنوف ، وهناك عربات تسحبها الثيران وأخرى تسحبها البغال بالإضافة إلى عربات الطنجا Tonga(٥) والسيارات ، وسيارات الحمل ، والجمال ، فضلاً عن أكواخ القصب وأسلاك الهاتف . وفجأة يتعرض كل شيء لسيل غير متوقع من الماء وما هي إلا لحظات حتى يتحول ميدان العرض إلى واحة كبيرة . وإلى جانب ذلك كله هناك مشكلة تحديد نظام الحكم - ما الذي يتعين علينا اتخاذه من إجراء فيما يتعلق بالبلاد وشعبها .»

وفي السابع والعشرين من أيار تقول جيرتروود :« لا أعلم ما إذا كنا مقبلين على تحقيق تطورات سريعة ، بيد أن ذلك لن يكون مستحيلاً في حال توفرت النية على القيام بذلك . إن البلد ينعم بالهدوء إلى الحد الذي يسمح فيه (لقواتنا) بالوصول شمالاً إلى الناصرية .»

وفي الحادي والثلاثين من أيار كتبت تقول :«تعرفت اليوم بالعقيد جرانت وزوجته - Colonel and Mrs Grant إنه يشغل منصب قائد المنطقة الإدارية Base Commandant . حدث ذلك بمبادرة مني إذ إنني استوقفتهما وبادرت بالكلام . لما كان مجموع النساء في الموقع ستة ، وبما أن كلاً منا (أنا والسيدة جرانت) كانت تعرف من الأخرى ، فمن السخف جداً أن تحجم الواحدة منا عن مخاطبة الأخرى لمجرد أن التعارف بيننا لم يكن قد تم بصورة رسمية . أسأم أحيانا من تواصل الاختلاط بالرجال فقط . وبرغم ما تتمتع به اللادي كوكس من رقة ولطف إلا أن مجال الحديث معها محدود . وبهذا الصدد فإنني أجد في السيدة فان ايس ، زوجة المبشر الأمريكي ، خير رديف . إنها لطيفة بشكل خاص وكذلك زوجها . إن لزوجها اطلاعاً واسعاً على البلاد وأحوالها الأمر الذي يجعل منه مصدر عون لي . إنه يتكلم العربية أفضل من أي أجنبي آخر عرفته .

لدينا لاجئون عرب فروا من بغداد بسبب ما يمارسه الأتراك ضدهم من شتى ضروب الاضطهاد . وإنها لمفارقة كبيرة أن يهرب الملالي المسلمون من نظام حكم إسلامي ليلتجئوا إلى المسيحيين حفظاً على حياتهم . إنني أقابل هؤلاء الناس لأعمد بعد ذلك إلى رفع تقارير

(٥) الطنجا = عربات بعجلين تسحبها الخيول - المترجم

تتعلق بمغامراتهم وما يحملون من آراء وما ينقلونه من أخبار . إنها ممارسة رائعة لا تخلو من جوانب قيمة في كثير من الأحيان إذ أن التحدث إليهم يتيح للفرد منا التوغل إلى أعماق الفكر الشرقي وما ينطوي عليه من تصورات وآراء . إن ما يسهل عملية تفاهمي معهم معرفتي ببعض أصدقائهم ومعارفهم سواء كان ذلك في بغداد أم في سوريا ، فضلاً عن ذلك فإنهم كانوا بدورهم قد سمعوا عني - وهو جانب يسهل عملية التواصل .

سأتوجه إلى الناصرية عصر اليوم .»

الفصل الرابـــع

١٩١٦

وصفت جيرتروود رحلتها إلى الناصرية من خلال رسالتين كتبتهما في الثاني عشر من حزيران كانت أولاهما طويلة و موجهة إلى أبيها ، أما الثانية التي كانت أقصر بقليل من سابقتها فموجهة إلى السير فالنتاين شيرول الذي كان لا يزال في الهند . ولأغراض كتابنا هذا ، نكتفي بمضمون الرسالة الأقصر منهما ، إلى جانب مقتطفات معينة من الرسالة الأولى .

«القرنة[١] . عزيزي دومنول - وصلت إلى القرنة في طريق عودتي من الناصرية . كانت الرحلة غاية في المتعة والروعة . انطلقت من البصرة قبل أسبوعين وسافرت نهراً باتجاه الشمال بصحبة الجنرال جورج (ماكمن General Macmunn السير جورج ماكمن فيما بعد) والسيد كووبر Mr. Cooper . وكان الجنرال رفيقاً شديد المرح جداً . وقد تولى كل ما يتعلق بوجبات طعامي وبذلك اكتفيت باستصحاب خادم واحد وما أحتاج إليه من أمتعة السفر .

انطلقنا شمالاً باتجاه أعلى النهر وسرنا على مدى يومين ، قضينا الليلة الأولى نبحر في مياه شط العرب وقضينا الثانية راسين في هور الحمار . إنه لمشهد خلاب في موسم الفيضان هي هذه البلاد ، حيث لا شيء ثابت سوى أشجار النخيل التي تنتصب مستقرة في الماء . القرى غير ثابتة ، بل تنتقل تبعاً لحركات المد والجزر ، والكثير منها يقوم على قواعد عائمة من حصران القصب ، وأفنية المزارع فيها هي الأخرى عائمة ، تقف فوقها الأبقار باستقرار ورضا . وتنتشر على كلا الجانبين من مجرى الفرات العريض غابة كثيفة من القصب الذي يرتفع ممتداً نحو الأفق ، وتتفرع من النهر قنوات ضيقة تظهر فيها الأشرعة البيضاء للمشاحيف[٢] ، وهي القوارب المحلية المكسوة بالقار ، تسمو فوق القصب . إن الضوء واللون يفوقان حد التصديق . إنه منظر طبيعي يختلف تماماً عن كل ما شاهدته من قبل ، وينفرد بجمال عجيب لا مثيل له .

---

(١) القرنة - تقع مدينة القرنة على مسافة أربعين كيلومتراً تقريباً شمال مدينة البصرة وهي ملتقى نهري دجلة والفرات وفيها أيضاً موقع «شجرة آدم» وهو معلم سياحي يستقطب أعداداً كبيرة من السياح - المترجم

(٢) جدير بالذكر أن هذه المشاحيف هي القوارب التي تظهر صورها في الأختام الأسطوانية التي تعود إلى حضارة سومر الأمر الذي يجعلها من بين حلقات التواصل التأريخي الذي تتميز به بلاد ما بين النهرين - المترجم

الناصرية في الوقت الحاضر تبلغ ثلاثة أميال طولاً وبعمق ميل واحد على كلا جانبي النهر . وكان الجنرال برووكن General Brooking قائد المنطقة في استقبالنا ، وقد حضر للسلام على الجنرالين ماكمن وكووبر . مكثت في الموقع فترة أسبوع حللت أثناءها ضيفة على الرائد هاملتون Major Hamilton الذي أصبح فيما بعد لورد بلهافين وستينتون Lord Belhaven and Steton ، وكانت زيارتي تستهدف بالأساس النقيب إدي (المقدم إدي فيما بعد) الذي يعتبر أكثر معرفة بشؤون العشائر وأحوالها من أي شخص آخر في بلاد ما بين النهرين . وكنا نعمل يومياً من بعد الفطور حتى موعد وجبة الشاي عصراً . وكنت أنطلق في وقت مبكر من كل يوم على ظهر جواد في جولات أجوب فيها أرجاء المنطقة ، وكان الجنرال برووكنج يصحبني في أغلبها . أما الأمسيات فكنت أقضيها بين استقبال من يأتي لزيارتي ، أو الذهاب للقاء أعيان البلد ، أو الانطلاق في نزهة نهرية بقارب القائد .

وأخيراً رحلت في أوج المجد إثر قيام الجنرال برووكنج ، إكراماً لي ، بالعفو عن ثلاثة شيوخ كان قد وضعهم رهن التوقيف . وقد رافقني في طريق العودة الرائد هاملتون الذي أراد التوجه إلى البصرة . وفي أثناء ذلك كانت الرياح التي أنعشتنا قد توقفت ، وصاحبت رحلة عودتنا موجة من الحر اللافح . وقبل وصولنا إلى البصرة عرجنا على سوق الشيوخ وهي مدينة تقع على المجرى الجنوبي لنهر الفرات . التقيت هناك السيد إدموندز[٣] الذي وجدته شخصاً ظريفاً وممتعاً للغاية ، بالإضافة إلى ما كان عليه من فطنة وذكاء على الرغم من صغر سنه ، كما التقيت أحد وجهاء البلد الذي لم أجده أقل ظرفاً وإبهاجاً من إدموندز . ونتيجة حديثي مع الأخير هذا اكتسبت معلومات كثيرة وقيمة تتعلق بالحياة في المدن والصحراء .

تحيط المياه بمدينة سوق الشيوخ ، شأنها بذلك شأن كل موقع في المنطقة في هذا الوقت من السنة ، أما البساتين التي تقع على امتداد النهر فإنها محمية بحواجز واطئة ، وهي من الخصوبة ما يفوق القدرة على التصور . تتشابك أشجار النخيل ، والبرتقال ، والدراق والتين والرمان متعانقة ، وتمتد الكروم المثقلة بالأعناب من نخلة إلى أخرى بينما يغطي البطيخ واليقطين والخيار والطماطم مساحة الأرض الممتدة تحتها . كان المكان من الجمال والمتعة ما جعلني أشعر بالأسف الشديد لاضطراري إلى الرحيل عنه ، بيد أنني كنت أدرك في الحين

(٣) هو السيد C.J.Edmonds الذي أصبح فيما بعد مستشاراً لوزارة الداخلية العراقية ومؤلف كتاب «الأكراد والأتراك والعرب» - المترجم

ذاته ضرورة عودتي إلى عملي في البصرة .

توقفنا بالأمس عند العديد من القرى العائمة ، لأن الرائد هاملتون أراد الاتصال بالمعنيين من الشيوخ لأغراض جمع القصب لبناء الأكواخ والأخصاص لإيواء أفراد قوتنا . إن للبناء بالقصب إمكانيات هائلة ، ويمكن لهذا النوع من المباني أن يتميز بجلال وفخامة . ويأتي الشيوخ المحليون إلى زورقنا البخاري لعقد الصفقات المتعلقة بهذه الأبنية ، ويتم الحوار أثناء تناول القهوة وتدخين السجائر . وكنت أقوم بدور الترجمان ، وهذا ما أكسبني عدداً من المفردات الخاصة بهذا الفن المعماري .

وفي القرنة اتضح لنا وجوب التوقف مدة يوم واحد . وقد قضيت اليوم هذا بلقاء الشيوخ وإكتساب المزيد من المعلومات المتعلقة بالعشائر . إلا أنني سأكون في غاية السرور لعودتي إلى دنيا التحضر نسبياً ، أي تناول المشروبات المثلجة والتمتع بالهواء الذي تحركه المراوح . لقد شعرت بوطأة الحر على مدى الأيام الأربعة الأخيرة ، لكنني لم أعر الأمر اهتماماً يذكر إدراكاً مني بأنني على ما يبدوا أقف بمنأى عن الإصابة بالأمراض التي تفتك بأبناء البشر» .

اختتمت كلتا الرسالتين في البصرة في السابع عشر من الشهر .

وفي محضر رسالتها الموجهة إلى السير فالنتاين شيرول قالت جيرتروود :«إن عملي هنا في غاية الصعوبة ، ومع ذلك يتواصل شعوري بالفرح لوجودي في مكاني هذا . أما عن النواحي التي تخرج عن نطاق اختصاصي ، فالأمور في غاية الرداءة ، فهناك نقص شديد في كميات الثلج ، وعدد الناموسيات (الكلل) ، والمواد التموينية للقطاعات الموجودة في جبهات القتال ، ناهيك عما نعانيه من عدم كفاءة في الأداء بوجه عام . لا أظن أن العالم قد شهد منذ حرب القرم حملات تعاني من جوانب النقص والافتقار إلى الكفاءة كتلك التي تعاني منها حملتنا هنا .»

* * *

بعد عودتها من البصرة عينت جيرتروود بوظيفة المراسل الرسمي المسؤول عن الاتصالات مع القاهرة ، وبذلك فإنها أصبحت من بين أفراد الحملة العسكرية الهندية (د) «The Indian Expeditionary Force "V» ، وقد بدأت ممارسة مهام عملها الجديد في مطلع شهر تموز . وفي منتصف موسم الحر - حيث راح الأفراد ، جنوداً وموظفين وعمالاً على حد سواء ، يقعون ضحايا مختلف الحميات - لم تصب جيرتروود إلا بوعكة خفيفة لم تعقها

عن العمل لأكثر من يوم واحد فقط .

وفي التاسع عشر من تموز كتبت تقول :«جاء جورج (لويد) من العمارة ، وقد أخبرنا عن أجواء الفوضى التي تخيم على الإجراءات الخاصة بعمليات النقل والترحيل . إن من الصعب جداً تحديد جهة التقصير بصورة دقيقة ، بيد أنني أستطيع القول أنه قلما حظيت المهارة البشرية في مجالي التنظيم و بُعد النظر بأسوأ مما شاءت الأقدار أن تجعلها من نصيب هذه الحملة العسكرية . آمل أن أستطيع في يوم ما أن أروي بعض التفاصيل المتعلقة بها ، ولربما لن تصدق ما أقول ، بل لا يمكن لأحد أن يصدق ما يجري هنا إلا بعد أن يرى ذلك بأم عينه . لا أظن أن الحكومة الهندية بإمكانها التنصل من اللوم ، وهو ما لا ينبغي لها التنصل منه أساساً . لقد دفعنا ثمن التهاون والتقصير والنقص في الرؤية الصحيحة والتدبر بالدم و بما نعانيه من ضروب الشقاء والبؤس - لقد تسببنا بهدر أرواح لا يمكن استعادتها .»

وفي الخامس عشر من تموز كتبت إلى والديها تقول : « تكمن الصعوبة هنا في عدم إدراكنا حقاً ما نعتزم القيام به في هذا القطر . هل بإمكانك إقناع شعب بالوقوف إلى جانبك عندما لا تكون متأكداً بالأساس من أنك ستتمكن بالنتيجة من مؤازرتهم والوقوف إلى جانبهم ؟ لا غرابة فيما يساورهم من شعور في التردد إزاء ما تطلبه منهم ، وبذلك فأنت بحاجة ماسة إلى بذل جهود مضنية في مضمار إقناعهم بأن وقوفك معهم ووقوفهم معك إنما يمثلان جانبين منسجمين ومتلائمين تماماً . لقد حُرمنا من القدرة على الإقناع وبذلك تجدنا مكتفين بما هو متيسر ، وبأقل ما يمكننا قوله مع عدم القيام بأي شيء .»

أثناء آخر رحلة كبيرة لها عبر الصحراء ، بقيت جيرتروود على مدى أحد عشر يوماً حبيسة في دار ابن رشيد في حائل ، وفي أوائل شهر أيار كان لها دور في محاولة الحفاظ على حياد هذا الأمير . وبتشجيع من لدن السير برسي كوكس كتبت جيرتروود إلى الأمير بهذا الصدد ، إلا أنه بقي ثابتاً على موقفه على الرغم من كل ما بذلته جيرتروود وآخرين غيرها من محاولات لاستمالته . وبذلك فإنها تقول في رسالتها آنفة الذكر ما يلي حول هذا الموضوع : « لم يكتب لنا النجاح في محاولة اجتذاب ابن رشيد إلى جانبنا برغم بذل كل ما يمكن بذله من جهود بهذا الخصوص : إنه يأبى الإصغاء لما نقول . إننا لا نريد مقاتلة الأعراب - إن ذلك لم يحدث لحد الآن وهو أمر يعود إلى عدم قدرة ابن رشيد على التعرض لنا برغم توفر النية لديه للقيام بذلك . إنه جاهل وأحمق إلى حد لا يمكن تصوره . آمل أن تعمد شمر إلى التمرد عليه واختيار أمير بديل عنه ، وهذا أمر محتمل جداً لأن أبناء قبيلته يدركون جيداً مدى ما هو عليه من ضعف وجنون .

إن ما يشغل فكري أكثر من أي شيء آخر لاعلاقة له بالمشاكل الآنية للحرب ، بل يتعلق بما ستؤول الأمور إليه بعد أن تضع الحرب أوزارها . لا أعلم بالضبط أي من السبل سيتعين علينا اعتمادها في مضمار حل المشاكل . بيد أنني لا أجد ضيراً في أمر التفكير بهذه السبل ، وهو فعلاً ما أنصرف إلى القيام به بما في ذلك مفاتحة المعنيين وأولي الأمر كتابة ، فلدي الكثير مما يمكن قوله بهذا الخصوص .»

لم يكن العمل مريحاً في جو حار مشبع بالرطوبة لا تقل درجة الحرارة فيه عن ١١٠ درجة فرنهايت ، أما بالنسبة للقوات المرابطة على جبهات القتال فقد كان الوضع على حد تعبير جيرتروود «جحيماً» . وكانت جيرتروود خلال الأسبوع الأول من شهر آب طريحة الفراش بسبب إصابتها بالحمى ، وكانت إصابتها شديدة إلى درجة حالت دون تمكنها من مواصلة كتابة رسائلها المعتادة إلى أهلها ، إلا أنها تمكنت في التاسع منه من كتابة رسالة قصيرة أعقبتها بعد يومين من ذلك برسالة أطول ، وكانت آنذاك قد عادت إلى العمل ، كما راحت النسائم الشمالية تلطف من حرارة الجو ليلاً .

وفـــي التاسع عشر من آب كتبت تقول :«هناك حركة تنقلات أخرى بين الأفراد العاملين هنا . إن المناصـــب الرفيعـــة فـــي بلاد ما بين النهرين تدير رؤوس أصحابها وتصيبهم بالدوار ، فضلاً عن افتقارها إلى مقومـــات الاستقرار ، وبذلك يخفق من يتبوؤها في استمـــرار البقـــاء فيها طويلاً . لا أجدني قادرة على تقييم ما تم مؤخراً من تعديل وظيـــفي على الرغم مما لدي من رأي خاص يتعلق بالرجل الحالي (الفريق السير برسي ليك Lieutenant General Sir Percy Lake) الذي طالما وجدته يفتقر إلى النشاط والحيوية . ولابد لي من الاعتراف بأنه كان في غاية اللطف والكرم معي ، ومع ذلك فإن المرء منا يجد نفسه عاجزاً في أن يصبح على تماس به ، ولا أظن أن أحداً يتمكن من ذلك بالأساس .»

كان من شأن إصابتها باليرقان أن يقعدها عن العمل خلال القسم الأكبر من شهر أيلول . وبرغم استخفافها بهذه الإصابة في بادئ الأمر إلا أنها سرعان ما تمكنت منها الأمر الذي تم نقلها على أثره إلى مستشفى الضباط الكائن في «بيت النعمة» حيث رقدت فترة من الزمن لم تتمكن من خلالها حتى من الحركة بالمرة ، بل إنها وعلى غير عادتها فقدت الرغبة في الحركة تماماً ، وقد زارها هناك أحد أصدقائها القدامى وهو العقيد رتشارد بوب هينيسي Colonel Richard Pope Hennessy الذي كتب إلى أبيها قائلاً :

«عزيزي سير هيو ، أمضيت ساعتين عند جيرتروود يوم أمس . كانت قد أُصيبت بنوبة يرقان حادة إلا أنها تتماثل للشفاء تدريجياً . إنها تدعي بتماثلها للشفاء التام وبذلك فقد

أعلنت عن رغبتها في العودة إلى العمل ، بيد أن السلطات المختصة بالمستشفى ترى عكس ذلك ، ولا توافق بالنتيجة على خروجها إلا بعد التأكد التام من تماثلها للشفاء وبذلك لا أخالها ستغادر المستشفى قبل عشرة أيام أو إسبوعين على أقل تقدير . وعلى الرغم مما هي عليه من ضعف بدني واضح بسبب المرض ، إلا أنها تستعيد عافيتها بسرعة كما يستدل من رغبتها في تناول الطعام وقدرتها على النوم بسهولة . وإذا ما أُجبرت على المكوث في المستشفى فترة أطول فإنها ستعود لمزاولة مهامها بقدر أكبر ونشاط أوسع . لقد سنحت لنا الفرصة في التحدث وتبادل الآراء . يالها من امرأة ! إنها ذات شخصية لا تعرف معنى الخضوع والاستسلام . لقد أخفق المرض تماماً في التأثير على معنوياتها . يشيد كل الموجودين بكفاءتها وقدرتها على العمل . وآمل مخلصاً أن يتمكن أبناء وطنها في يوم ما بعد انتهاء هذه الحرب الضروس من إدراك مقدار ما قدمته هذه المرأة الرائعة من خدمات جليلة لوطنها بريطانيا في ضل ظروف مناخية صعبة ، ومعاناة ، وجوانب محبطة من شأنها أن تثبط عزيمة أشد الرجال بأساً .

إن التعرف على جيرتروود يعتبر بحد ذاته مصدر سعادة وغبطة ، بل وشرف كبير ، وأنا شخصياً أجد نفسي أسعد حظاً من بقية أصدقائها ومعارفها لأن الظروف قد منحتني فرصة مراقبتها عن كثب في موقع العمل ، كما أتاحت لي فرصة الاستماع إلى آراء زملائها من رؤساء ومرؤوسين عنها ، وعن أدائها وكفاءتها .»

وكانت جيرتروود لا تزال في المستشفى عندما كتبت إلى اللادي بيل في السابع من تشرين الأول رسالة تتعلق بما طلبت إرساله من ملابس : «يعود الأحدث من بين ملابسي إلى صيف عام ١٩١٤ ، فلا غرابة في تهرئها . لقد كتبت إلى مارثا وطلبت منها أن تخيط لي فستانين من فساتين السهرة . إنها تعرف ذوقي . وفي الإمكان وضع ما أحتاج إليه من ملابس في طرد يفضل إرساله إلي بصحبة أحد الجنرالات القادمين إلى هذا الجزء من العالم . هناك الكثير منهم من غير أدنى شك . كما أود أن ترسلوا لي قمصان حريرية سميكة لتقيني شر البرد الذي سيداهمنا قريباً . وأتمنى أيضاً أن ترسلوا لي سترتي المصنوعة من نسيج (السيرج) ومعطفي الصيني الأزرق المطرز بالساتان(الأطلس) لا ذلك المبطن بالفرو .

إن الخدمات البريدية أمر يبعث على الحيرة ، فأنا لا أستلم أبداً كل ما يرسل إلي من الصحف والمجلات . ترى كم من الرسائل يكون الضياع نصيبها ؟ حبذا لو تركزت الجهود على إعادة النظر في هذه الخدمة الضرورية بغية معالجة جوانب الخلل فيها لاسيما بعد أن انتهى العمل بحركة التنقلات بين الجنرالات والضباط الأقدمين .

إننا ننعم الآن بطقس هبطت فيه حرارة الجو إلى مادون الثلاثين درجة مئوية .لا يمكنني وصف السعادة في التخلص من الحر .

لقد زارني الكثير من المعارف والأصدقاء وكان على رأسهم الصديق العزيز ، والزميل الأكرم ، السير برسي كوكس الذي جلب لي عدداً من البرقيات الأمر الذي كان من شأنه تواصل تماسي بالعمل الذي مضى على انقطاعي عنه شهر تقريباً ، تباً للأمراض . آمل أن لا أُصاب بمزيد منها .»

* * *

ومن مكتبها في البصرة ، كتبت جيرتروود إلى أبيها في الحادي والعشرين من تشرين الأول قائلة : «أخبرتني في الأسبوع الماضي عما لدي من ثروة نقدية في البنك . يالها من ثروة! أرجو أن تسترد منها مبلغ الأربعمائة باون الذي كنت قد أسلفتني إياه في العام الماضي . إنني على ثقة من دوام تمكني من اللجوء إليك كلما وجدت نفسي بحاجة إلى بعض النقود . ليباركك الرب . ما جدوى بقاء النقود في البنك في كل الأحوال ! وإنه لمن دواعي سروري أن أرى أنك تستعيد بعض ما قمت بمنحه من ديون معدومة وغير قابلة للتحصيل .»

وفي الثامن والعشرين من تشرين الأول كتبت جيرتروود رسالة طويلة إلى أبيها كان القسم الأكبر منها يتعلق بالتجارة الحرة Free Trade وهو مبدأ كانت جيرتروود تؤيده تماماً . وفي هذه الرسالة أيضاً أنصرفت جيرتروود إلى تحذيره من مغبة اتهامه بالتحيز إلى جانب النزعة الألمانية ، وهو اتهام لم يخل من تجن ومبالغة . تقول : «إن أية صيغة للعقاب تشفي الغليل وسط حدة القتال . وفي غمرة ما يواكب ذلك من هياج وصخب لن يجد التعليل المنطقي للأمور إلا آذاناً صماء .

يسرني رأي السيد لويد جورج Lloyd George[٤] حول جدوى وجودي هنا . لقد استلمت العديد من الرسائل التي تشيد بالمذكرة التي كنت قد أرسلتها وكانت الأخيرة من بين هذه الرسائل تلك التي بعث بها السيد أوستن تشيمبرلين Austin Chamberlin .[٥] إني

---

(٤) دافيد لويد جورج (١٨٦٣ -١٩٤٥) من بين أشهر رؤساء الوزارات البريطانية . كان ليبرالي التوجه واعتبر دوره القيادي إبان الحرب العالمية الأولى مماثلاً للدور الذي لعبه تشرتشل إبان الحرب العالمية الثانية - المترجم

(٥) أوستن تشيمبرلن (١٨٦٣ -١٩٣٧) السياسي البريطاني المحنك والأخ غير الشقيق لنيفيل تشيمبرلن رئيس وزراء بريطانيا (١٩٣٧ - ١٩٤٠) . شغل عدة مناصب وزارية وحاز على جائزة نوبل للسلام لدوره المتميز الذي أسهم في تحقيق التوقيع على حلف لوكارنو عام ١٩٢٥ ـ المترجم .

أُرحب بتقدير الشخصيات البارزة وإشادتهم بي إذ أن من شأن ذلك أن يعزز من موقعي ومكانتي أثناء قيامي بأداء واجباتي . أجد أنني أتحول تدريجياً إلى ما يشبه جهاز مهمد للصدمات يتوسط بين شيوخ البعض منهم حائرون ومرتبكون ، والبعض الآخر وهم الأكثر عدداً ، أوغاد وبين رجال السلطة . إن رجال السلطة على ما أعتقد رجال منصفون ومتسامحون وكرماء في آن واحد ، إلا أن الوقت محدود ، بل قصير جداً ، وحجم العمل هائل ، ومن جانب آخر فإن عمل جهاز تخفيف الصدمات يستهلك عدداً لا يعد ولا يحصى من الساعات الطويلة . وبرغم أن الساعات التي أقضيها في عملي لا تعتبر مثمرة ، وأن كم ما أنجزه من أعمال إزاء هذه الساعات الطويلة لا يكاد يبدو واضح المعالم ، فإنني أنصرف إلى مواساة نفسي بقناعة مفادها أنني على أقل تقدير أقوم في الواقع بإسداء خدمة في جانب معين من الجوانب المتعلقة بالجهود الحربي بشكل عام الأمر الذي يعني الإسهام في خدمة وطني . إن الشرق بحاجة ماسة إلى معالجات يجدر التوجه إلى القيام بها عبر قنوات وأساليب مختلفة وذلك من قبل كل من الذين يعمدون إلى تحقيق الإنجازات عن طريق الترهيب واعتماد القوة ، واولئك الذين يختارون وسائل أقل شدة وترهيباً ، على حد سواء . إنني أنتمي إلى الفئة الأخيرة ، وهي الفئة التي تعتمد الأساليب الأكثر سهولة (وبالتالي فهي الأكثر نجاعة) لاسيما بهدي توجيه من لدن رئيس يتميز أداؤه بالجودة والكفاءة العاليتين .»

* * *

توحي «الديم» ربيكا وست Dame Rebecca West[٦] وفي محضر نقدها للجزء الأول من هذا العمل[٧] بأنني قد قمت من خلال حذف مقاطع من رسائل جيرتروود بيل بإعطاء صورة غير كاملة ، بل ومحرفة ، تتعلق بعلاقاتها مع أصدقائها من الرجال ، وبشكل خاص علاقتها بالسير فالنتاين شيرول . الديم ربيكا مخطئة فيما ذهبت إليه بهذا الصدد . إنني لم أحذف مقاطع على النحو الذي نوهت عنه ، وإن ما نوهت عنه ليس أكثر من وهم ، ونسج

---

(٦) ديم (بفتح الدال وتشديد الياء) هو لقب شرف يمنحه التاج البريطاني للنساء تقديراً لما يقدمنه من خدمات جليلة في إطار نشاط معين – المترجم

(٧) الجزء الأول الذي يتناول رسائل جيرتروود بيل خلال الفترة ١٨٨٩ – ١٩١٤ – المترجم

خيال . وبهذا الصدد بالذات ، وبهدف قطع دابر المزيد من التصورات الرومانسية المحتملة من قبل النقاد ، أود التأكيد في هذا المجال على حقيقة أن المقطع الذي أورد نصه أدناه إنما يمثل أول إشارة وردت في رسائل جيرترورد بيل تتعلق بعلاقتها الغرامية المأساوية اللهم إلا باستثناء تلميح عابر ، أو تلميحين ، عكس ما كانت تعانيه من حزن ، واللذين لم أغفل ذكرهما :

«أجل ! إن كل هذا[٨] ليس إلامنة غير متوقعة شاءت السماء أن تسبغها علي . لا يمكنني تصور ما كان ينبغي علي القيام به ، أو اللجوء إليه ، لولا هذه الفرصة . إن عملي هذا يمتد إلى المستقبل ، برغم امتناعي عن التفكير في المستقبل . إن تفكيري لا يتعدى حدود ضرورة أن أعيش يومي وأنام ليلتي . هذا ما يكفيني ويغنيني . إني أود التقاء أهلي بين الفينة والأخرى لا غيرهم . لا أكاد أفكر بأحد أو أرغب في رؤية أحد خارج حدود حلقة الأهل . فهؤلاء ينتمون إلى عالم سابق لا يسعني الوصول إليه ، فهو عالم لم يبق لي منه غيركم أيها الأحبة الأعزاء .»

إن هذا النمط من ضبط النفس والتصرف الرصين ، وهذه النوع من الحشمة والسمو ، لا يمثلان بحد ذاتهما نهجاً لم يعد مألوفاً ومستساغاً فحسب ، بل جانباً لا يمكن تصديقه أو حتى تصوره من قبل البعض على ما يبدو .

* * *

في أوائل شهر تشرين الثاني مكثت جيرترورد خمسة أيام في القرنة قضتها في زيارات العديد من شيوخ المنطقة بهدف جمع المعلومات . وبعد عودتها إلى البصرة قامت في السادس عشر منه بتوجيه رسالة إلى أبيها قالت فيها :«قابلت أعداداً لا تحصى من شيوخ المنطقة وتمكنت من جمع كل ما أريد من معلومات . ولقد تناولت في أحد هذه الأيام طعام الغداء مع شيخ مدينة القرنة ، وكانت مناسبة لم تخل من متعة وفائدة . كان النهر رائعاً ، يتلامع نهاراً ويزهو ليلاً . إنه لأمر رائع أن أرى العالم الذي كان مخفياً تحت الماء أثناء آخر مرور لي به قد أصبح الآن يزهو بأسل ذهبية الخضرة ، وغابات نخيل خضر ، وصحراء ممتدة تتجلل هي الأخرى بالأخضر وتلامس حافة الماء ، وإكليل من دخان يهفو في الهواء هنا ، منبعثاً من مخيم صغير ، وسحابة كبيرة هناك تنبعث من مغارس القصب الذي اعتاد العرب

(٨) تقصد الآنسة بيل بهذا واجبها الذي أدى إلى انتقالها للعمل في الشرق الأوسط وفي العراق بالذات – المترجم

أن يشعلوا النار فيها عندما لا يتمكنون من جنيه .

استلمت لتوي برقية من الجنرال برووكنج Genral Brooking كان أرسلها من الناصرية يدعوني فيها لزيارته هناك يوم الأحد . أظنني سأقبل الدعوة ولو لمجرد القيام برحلة في القطار . إن الهدف الأساسي من زيارتي هو لغرض مشاهدة تلول أور وآثارها التي أحاول جادة حمايتها مما قد يلحقه بها القادة العسكريون ومهندسو السكك الحديدية من دمار .»

لقد خصصت جيرتروود ست صفحات من القطع الكبير مكتوبة بخط دقيق وكلمات متقاربة ضمت وصفاً دقيقاً لهذه الزيارة . ويضم كتاب رسائل جيرتروود بيل (تحرير اللادي بيل) مقتطفاً طويلاً مما جاء في هذه الصفحات . وحول أور تقول جيرتروود :« تكمن هذه التلول الكبيرة في الصحراء على بعد ما يقرب من ثمانية أميال جنوب نهر دجلة . ولقد انطلقنا نخوض في الرمال لنصل إلى أعلى رابية كانت عبارة عن هرم مبتور يمكن للمرء أن يشاهد من أعلى قمته رابية كبيرة أخرى تمتد من وراءها الصحراء ، ثم الصحراء ، ثم الصحراء . وبرغم كل ما قام به عالم الآثار لوفتوس Luftus من أعمال الحفريات في أور ، يبقى هناك الكثير مما يمكن إكتشافه . وبرغم أن حائط الهرم الذي شاهدت هو أثر فارسي Parthian قديم ، إلا أن الموقع يعود إلى بداية التاريخ .»

وحول رحلة عودتها إلى البصرة نهراً كتبت تقول :«أشعر كمن تم له اختبار كل فلك تقريباً من بين التي عرفها العالم قديمه وحديثه على حد سواء .» لم تكن رحلتها إلى الناصرية وعودتها منها أكثر من مجرد مغامرة صغيرة إلا أنها عكست بوضوح رفض هذه المرأة السماح لكل ما من شأنه أن يشكل عقبة أمام تحقيق ما تريده من هدف . وبذلك فإن استحالة عودتها إلى البصرة بالقطار بسبب تعطل قاطرات الجر المتوفرة في حينه لم يثنها عن عزمها على مبارحة الناصرية والوصول إلى البصرة في الوقت المحدد لزيارة ابن سعود (فيما بعد جلالة المغفور له الملك عبد العزيز بن سعود عاهل المملكة العربية السعودية) .

وحول هذه الزيارة كتبت في الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني قائلة :«عدت لأشهد تجربة كبيرة ومثيرة : كان السير برسي كوكس يقيم «درباراً»(٩) جمع من خلاله عدداً

---

(٩) الدربار – كلمة من اللغة الهندية Hindi وتعني حفلاً رسمياً ، أو اجتماعاً كبيراً ، لأمير هندي يقدم له رعاياه من خلاله فروض الطاعة والولاء . وقد تبنى البريطانيون هذه الممارسة واعتمدوها نهجاً في كل مستعمراتهم لكي يقدم أعيان البلد المستعمر العهد لهم . ويدرك القارئ الكريم ما لاستخدام هذه العبارة من مضامين في حدود الإطار العام للفكر الاستعماري البريطاني في حينه – المترجم .

من رؤساء القبائل العربية والشيوخ وذلك في الكويت . وقد دُعي ابن سعود[١٠] لحضور هذا الاجتماع . كنت أدرك جيداً ما كان سيدور في هذا الاجتماع الأمر الذي دفعني إلى الإسراع في عودتي من الناصرية . كان الأمر برمته مأثرة من مآثر السير برسي كوكس .

إنني مشغولة جداً ، أستقبل الشيوخ وكبار رجال العشائر والأعيان من أبناء المدن طوال اليوم بالإضافة إلى اجتماعي بالقائمين على إعداد الخرائط ورسمها . إن عملي يتميز بالمتعة والأهمية . كم أتمنى لو كان لليوم ساعات أكثر» .

وفي الفاتح من كانون الأول كتبت تقول :«كان لقاؤنا بابن سعود مناسبة مثيرة للاهتمام بشكل غير اعتيادي . إنه من بين الأكبر مهابة وروعة ممن التقيت من الشخصيات وأكثرهم مثاراً للإعجاب والانتباه . فهو رائع الشكل ، بهي الطلعة بطوله الفارع وبكل ما يوحيه مظهره من الهيبة والوقار ورباطة الجأش . ولقد احتفينا به عبر جولات في قاطراتنا وسياراتنا ، وزيارات شاهد من خلالها طائراتنا ، ومتفجراتنا القاصمة ، ومدافعنا المضادة للطائرات ، ومستشفياتنا وما لدينا من مستودعات للذخيرة والمعدات العسكرية ومراكز لتدريب الأفراد - أجل ، لقد زار المواقع كافة وشاهد كل شيء ، وعلى الرغم من إعجابه بما شاهده ، إلا أنه لم يبد مندهشاً ، فاغر الفم . طرح العديد من الأسئلة ، وأبدى ملاحظات تنم عن درجة عالية من الذكاء واتقاد الذهن . إنه رجل كريم ، عظيم الشأن . أتمنى مخلصةً لو كان بإمكاننا أن نقدم له شرحاً وافياً حول علم السلام بكل ما له من أبعاد وما ينطوي عليه من مفاهيم ، بيد أننا منهمكون الآن في خوض هذه الحرب الضروس أولاً ، والتي نأمل أن تعقبها الجوانب الأفضل بعد أن تكون قد وضعت أوزارها . ترى هل ستعقبها حقاً هذه الجوانب ؟ أما فيما يتعلق بما إذا كنا نتسبب بأذى هؤلاء الأشخاص أكثر من فائدتهم فمسألة فيها نظر ، بل هي جانب يشعر المرء منا بيأس أكثر إزاءه إثر ما تعرضت له حضارتنا من انهيار تام . ولكننا لا نتمكن من نبذهم ، بل لن يتم نبذهم في كل الأحوال وبصرف النظر عما لدى المرء منا من شعور ، فإن العالم يواصل مسيرته دونما توقف حتى في بلاد العرب .»

* * *

كتبت جيرتروود بيل التقييم المدرج أدناه عن (السلطان) عبد العزيز بن سعود ، والذي قام السير بيرسي كوكس بإرساله إلى السكرتير السياسي لوزارة الهند في لندن . وقد أثبتت

---

(١٠) وهو فيما بعد جلالة المغفور له الملك عبد العزيز بن سعود عاهل المملكة العربية السعودية - المترجم

الأحداث لاحقاً صحة ما جاء في تقييمها عن ابن سعود الذي واصلت في الاحتفاظ بما كانت تكن له من تقدير واحترام حتى بعد أن أصبح عدو الهاشميين أصدقائها الأعزاء . وقد عبرت في أكثر من مناسبة خلال السنوات التي تلت عن أسفها لتلكؤ الملك فيصل وإخفاقه في الوصول إلى ما بلغه ابن سعود من الحنكة السياسية . وبنهجها المعهود تنصرف جيرتروود بيل في تقريرها الموسوم «حاكم الصحراء» إلى إهمال الجانب الديني من سلطة ابن سعود بوصفه قائداً لذلك المذهب الإسلامي التطهري (البيورتاني) الذي يعمد مريدوه وأتباعه إلى محاسبة أي انحراف عن القواعد الإسلامية الصارمة ، وأي خروج عليها ، مثل التدخين وتعاطي شرب المشروبات الروحية ، محاسبة عسيرة .

حاكم الصحراء

كانت زيارة ابن سعود إلى البصرة في السابع والعشرين من تشرين الثاني حلقة من مسلسل الأحداث المتعلقة بالحملة (البريطانية) على بلاد وادي الرافدين لا تقل روعة بالنسبة للناظرين عما تميزت به من أهمية بالنسبة لمن كانوا على علم ودراية بالتفاصيل المتعلقة بمسار السياسة العربية . تتمحور الأحداث التي تشهدها المنطقة الداخلية من شبه جزيرة العرب على مدى فترة القرن الأخير حول التنافس بين جيشي شمال نجد وجنوبها ، أي جيشي ابن سعود وابن رشيد . وعندما كان عبد العزيز ، الممثل الحالي لآل سعود ، في الخامسة عشر من عمره كان سلطان آل رشيد قد بلغ أوج عزه . وقد تمكن أمير آل رشيد الكبير ، الأمير محمد ، ذلك المضيف الضنين للرحالة دوتي Daughty(١١) ، من دحر آل سعود واحتلال عاصمتهم الرياض وإجبارهم على اللجوء إلى الكويت . وعلى مدى أحد عشر عاماً راح عبد العزيز يعيش مرارة النكبة وعناءها ، وقد بقي على هذه الحال حتى عام ١٩٠٢ عندما قدر لشيخ الكويت ، الذي كان هو الآخر عدواً لآل رشيد ، أن يرى في الأمير الشاب سلاحاً واعداً الأمر الذي دفع بالمضيف إلى إتاحة الفرصة لضيفه للبدء بمسيرته الظافرة . وهكذا انطلق الأمير الشاب على رأس قوة قوامها ما يقرب من ثمانين جمالاً جهزها له مضيفه ، وقد تمكن من الانقضاض على الرياض ومباغتة حاميتها وقتل ممثل ابن رشيد فيها ليعلن بعد ذلك تسلمه موقع الصدارة . إن قصة هذه المغامرة الشجاعة

---

(١١) هو تشارلس دوتي (١٨٤٣ - ١٩٢٦) الرحالة البريطاني والمستكشف وصاحب كتاب «الصحراء العربية» الشهير - المترجم .

تشكل جزءاً أساسياً مما تحمله ذكريات أهل البادية من موروث ثقافي . ويتلخص سياق هذه القصة بوصول العصبة الصغيرة من الرجال عند الغسق إلى غابة النخيل في جنوب المدينة ، وقيام عبد العزيز بصحبة ثمانية من رفاقه الأشداء بتسلق سور القصر ، أعقبه لمعان السيوف الذي أيقظ العدو النائم ثم كتم أنفاسه إلى الأبد ، وأخيراً تم فتح بوابة المدينة عند الفجر ودخول بقية أتباع المهاجم المنتصر ورفاق سلاحه . بيد أن النضال لم يشهد نهايته بعد احتلال الرياض ، فمن خلال معركة كانت تتجدد عاماً تلو العام راح عبد العزيز يستعيد أراضي آبائه تدريجياً في ملاحم جعلت لاسمه أصداءً أخذت ترددها صحاري بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها . وفي عام ١٩١٣ كان من شأن طاقته المتجددة ونشاطه المتواصل أن يزجا به إلى خضم مجالات ذات أهمية سياسية أكثر اتساعاً . ونتيجة استيلائه على إقليم الأحساء ، الذي كان يخضع سابقاً لإدارة الرياض ، وطرد الحامية التركية منه ، وجد نفسه على ساحل الخليج . وكان ارتبط قبل إنجازه هذا بعلاقة صداقة مع النقيب شكسبير Captain Shakespear ، وكيلنا السياسي في الكويت ، الأمر الذي يعني أن ظهوره على ضفاف الخليج كان من المؤكد أن يجعله في تماس مباشر مع بريطانيا العظمى . ولقد كان من شأن اندلاع الحرب وانحياز تركيا إلى جانب أعدائنا أن يؤديا إلى تحريرنا من كل التزام يقضي بضرورة تمسكنا بالحياد التام إزاء العلاقة التي كانت قائمة بين ابن سعود والآستانة .

وفي شتاء عام ١٩١٤ - ١٩١٥ قام النقيب شكسبير بثاني رحلة له إلى نجد التقى من خلالها ابن سعود الذي كان في تلك الآونة يزحف شمالاً لصد هجوم شنه عليه ابن رشيد بتحريض من الأتراك . وقد التقت قوات الطرفين في أواخر شهر كانون الثاني لتخوض معركة لم تكن حاسمة . وعلى الرغم من أن النقيب شكسبير لم يكن بصحبة ابن سعود بصفة مقاتل بل مجرد ضيف ، إلا أنه قضى نحبه نتيجة إصابته بجرح مميت . وبفقدان هذا الضابط فإننا فقدنا مواطناً بريطانياً شجاعاً ورجلاً ذا خبرة عالية يندر وجود نظير لها في مجال معرفة المناطق الوسطى من شبه جزيرة العرب والتعامل مع أبناء العشائر وشيوخها ، وهي خبرة كان من شأنها بالتأكيد أن تؤدي به إلى تحقيق نجاح متميز في مجال عمله لو كان قدر له البقاء على قيد الحياة . وبعد مضي أقل من عام على هذا الحدث التقى ابن سعود السير بيرسي كوكس ، الضابط السياسي الأقدم لمنطقة الخليج ، وتم للاثنين عقد اتفاقية رسمية بين إمارة آل سعود الفتية وبريطانيا العظمى . وقد حظي ارتباط ابن سعود الوثيق بنا بتوكيد وتصديق علنيين من خلال دربار (مجلس) عقد في الكويت في العشرين من شهر

تشرين الثاني وضم شيوخاً ووجهاء من أبناء العشائر العربية . وقد تم في هذا الدربار تقليد ابن سعود رتبة فارس في منظمة حماة الإمبراطورية الهندية KCIE[١٢] وفي هذه المناسبة البارزة اجتمع ثلاثة من كبار الشيوخ العرب وهم شيخ المحمرة ، وهو عربي برغم كونه من الرعايا الإيرانيين ، وشيخ الكويت ، وابن سعود حاكم نجد ، وقد اصطفوا بمودة وإخاء وأعلنوا تأييدهم للقضية البريطانية ومناصرتهم لها . ومن خلال كلمة مرتجلة - كانت تلقائية وغير متوقعة - أوضح ابن سعود أن الإمبراطورية العثمانية قد استهدفت تجزئة الأمة العربية وإضعافها في حين تسعى السياسة البريطانية إلى جمع كلمة رؤسائها وتعزيز مكانتهم . وبهذا الصدد ، لابد أن الضابط السياسي الأقدم الذي جلس ينصت باهتمام بالغ إلى ما جاء في هذه الكلمة - التي سيكون لها من غير أدنى شك أصداء واسعة في مجالس العشائر حيث سيتكرر ذكرها وتناقش أبعادها - قد راح يستعيد في ذاكرته صور السنوات الطوال التي شهدت منطقة الخليج من خلالها ما بذلته بريطانيا من جهود صبورة قدر لها أخيراً أن تأتي أكلها .

لا يكاد يبلغ ابن سعود الأربعين من عمره وإن بدا في الواقع أكبر سناً من ذلك . إنه رجل ذو بنية رائعة ، وقامة فارعة تتجاوز الستة أقدام طولاً ، وشكل يوحي بمن اعتاد أن يمسك زمام الأمور بيده . وعلى الرغم من أن بنيته أكثر اكتنازاً وتماسكاً من النمط المألوف بين شيوخ البدو ، فإنه يمتلك ما يتميز به كل عربي كريم الأصل من السمات : صورة جانبية لوجه يتميز بشكل معقوف(كالعقاب) ، ومنخاران ممتلئان ، وشفتان ناتئتان وذقن طويل يزداد مظهره بروزاً بفعل لحية مستدقة الطرف . وتمثل يداه الدقيقتان ، وأصابعه الممشوقة سمة مميزة يكاد يكون لها شمول عام بين أبناء القبائل العربية الأصيلة . وبرغم قامته الفارعة ومنكبيه العريضين ، فإن شكله يوحي بتراخ لا يمكن تحديده بشيء من الدقة ، وإن يكن مألوفاً في عالم الصحراء ، باعتباره سمة عرقية ، لا شخصية . إنها حالة من السأم تتوارثها الأجيال لشعب عريق جيلاً بعد جيل : شعب عريق ، قائم بذاته ، اعتاد الاتكال على قدراته الأساسية والوقوف بمنأى عن كل ما يمكن أن يأتيه من خارج حدوده الوعرة . إن حركاته المتأنية ، وابتسامته العذبة ، البطيئة ، وتلك الومضات التأملية التي تطلقها عيناه من تحت جفنين ثقيلين ، بكل ما تضفيه عليه من جاذبية ووقار مضافين لا تنسجم بمجملها مع التصور الغربي للشخصية التي تتميز بما تملك من نشاط وحيوية . ولكن على الرغم من ذلك تتحدث

(١٢) - KCIE = Knight Commander of the Indian Empire المترجم

التقارير بإسهاب عما له من طاقة على الاحتمال والثبات يندر وجود مثيل لها حتى في بلاد العرب بكل ما عرف عن طبيعتها من قسوة وشدة ، كما تبين أن هناك قلة من بين من نمو وترعرعوا على ظهور الجمال ، وخبروا مصاعب الأسفار وذاقوا مرارة الأخطار ممن يمكنهم منافسة هذا الفارس الذي لا يعرف التعب والكلل ، وتحديه . وبوصفه قائداً لمجموعات غير نظامية فقد أثبت صلابة معدنه وبسالته وقدرته على حسم الأمور بالإضافة إلى ما يتمتع به من دهاء وحنكة سياسية حظيا بإعجاب أبناء القبائل وتقديرهم العالي . ولعل أفضل ما يمكن لهؤلاء توجيهه لهم من عبارات الإطراء هي تلك التي تضعه في مصاف من يتمتعون بدرجة عالية من التدبير والحنكة السياسية ويحسنون ممارسة فن الحكم وإدارة الأمور .

وباعتباره سياسياً ، وحاكماً ، وقائداً مغواراً ، يعكس ابن سعود صورة توضيحية لنمط تأريخي (من أنماط الرجال) . ويعتبر الرجال من أمثاله في إطار أي مجتمع بشري استثناءً من القاعدة العامة ، إلا أن العنصر العربي يجود بهم بشكل متواصل في إطار مجاله حيث يتمكنون من الإيفاء بكل ما لهذا المجال من احتياجات ومتطلبات . ولقد كان لهذا النوع من الرجال الفضل في تزويد حركة الفتوحات العربية بالفاتحين والإداريين العسكريين الذين نجحوا - حيث كان من المحتمل نجاح ابن سعود لو كان قدر له العيش في مجتمع أكثر بدائية ، أو إخفاقه كما يمكنه أن يخفق في إطار حقل أصغر - في تكوين دولة متحدة ، متجانسة وذات ديمومة من مجتمع قبلي من حيث جوهره . ويعتبر محمد الرشيد مثالاً تقليدياً في إطار الجيل السابق لنا . وكان قد مضى عشرون عاماً على وفاته ، بيد أن شهرته لا تزال حية . وعلى غرار ما فعله محمد الرشيد فقد تم لعبد العزيز بن سعود جذب خيوط الشبكة المفككة للتنظيم العشائري وتحويلها إلى أسرة مركزية تمكن بموجبها من فرض سلطة على مجموعات القبائل الرحل - سلطة اعترف بكونها عاملاً سياسياً برغم ما تميزت به من تذبذب وتقلب . وبفضل غابات النخيل في الرياض ، والواحات المنتشرة في منطقتي القسيم والأحساء ، يمتلك آل سعود مواردا أوسع قاعدة ، وثروة أكثر ضخامة ، وكماً أكبر من العناصر السكانية المستقرة مما لدى آل الرشيد ، وبذلك فإن سلطانهم يقوم على أسس أكثر متانة وديمومة . بيد أن مصدر الهيمنة والنفوذ في النهاية - كما يتضح من تسلسل سياق التاريخ العربي - يتمحوران حول شخصية القائد الذي بفضله وقدرته يتماسك الكيان السياسي ويتواصل - بصرف النظر عما إذا كان هذا القائد خليفة من خلفاء بني العباس ، أم أميراً من أمراء نجد - وبغيابه يتفكك ثم يتلاشى .

وإذا ما كان اعتراف الشيوخ العرب المؤتمرون بحسن نوايا بريطانيا إزاء أبناء جنسهم يمثل

السمة الجوهرية لدربار الكويت ، فإن ما أكسب زيارة ابن سعود إلى البصرة طابعها المميز وأهميتها وجود ذلك النمط الثابت للسيادة في الصحراء وسط ظروف كانت في الواقع جديدة وغير مألوفة إلى الحد الذي كادت تصبح غير مألوفة حتى من قِبل الذين يعود لهم الفضل في خلقها بالأساس . وفي غضون ساعات محدودات فقط انطلقت آخر ما توصل إليه العقل البشري من آليات الهجوم والدفاع تمر من أمام ابن سعود الذي أخذ يراقب باهتمام وتركيز عمليات تفجير العبوات الناسفة في خندق محسن ، وتفجر القنابل المضادة للطيران التي راحت تطلقها بطاريات الدفاعات الأرضية إلى الأعلى . كما ركب في عربات السكك الحديدية التي لم يكن قد مضى على الانتهاء من مدها أكثر من ستة أشهر ، واستقل السيارة إلى أرض المعركة في الشعيبة حيث تم له تفتيش وحدات من المشاة البريطانيين والخيالة الهنود ، وشهد تمريناً بالذخيرة الحية أجرته إحدى بطاريات مدفعية الميدان . وفي إحدى مستشفيات القاعدة العسكرية في الشعيبة ، والتي كان مقرها في قصر تعود ملكيته لصديقنا شيخ المحمرة ، تمكن ابن سعود من رؤية صورة لعظام إحدى يديه نتيجة تصويرها بأشعة رونتكن Rontgen . ثم زار المسافن الكبيرة الممتدة على شط العرب وشاهد المخازن الكبيرة التي احتوت على ما توفره القيادة العسكرية لمنتسبيها من أصناف المأكل والملبس . كما راقب باهتمام حركة إحدى الطائرات وهي تقلع محلقة بالجو . كان يشاهد أوجه النشاط هذه بتعجب ، بيد أن ما أظهره من اهتمام إنما عكس رغبة في التعلم لا صورة رجل يقف مذهولاً إزاء هذه الآليات الحديثة للدمار ، وقد تمكن من خلال جولاته وما أبداه من ملاحظات وعكسه من اهتمام أن يثبت لمرافقيه ومضيفيه من الضباط البريطانيين صحة الشهرة التي قدر له اكتسابها في الجزيرة العربية وذلك فيما يتعلق بما يتمتع به من حكمة وحسن إدراك إلى جانب سلوكه المتميز ومظهره المهيب .

قال شيخ المحمرة قبيل قيام الشيخين بالمغادرة : «سرنا جداً الاطلاع على ما تملكون من قدرات .» ولعل الذين سمعوا ما قاله هذا الشيخ سرحوا بمخيلتهم باتجاه قدرة هي بطبيعتها أعظم بكثير مما يملك أي قائد حربي كبير من الإمكانات ، وراحوا يتطلعون إلى اليوم الذي يتم لنا فيه ترويج علم السلام باعتباره البديل الأفضل لعلم الدمار .

وفي رسالة كانت وجهتها من البصرة إلى أخيها موريس في الثامن من كانون الأول ،

تقول جيرترورود : «أخي الحبيب - أود في أغلب الأحيان الكتابة إليك ، إلا أني أجد أن الرسائل هنا تقف بشكل ما أو آخر بمنأى عن عملية كتابتها . فأنا أقضي سحابة يومي في العمل هنا في المكتب ، وعندما أعود إلى مسكني أجد أن الكسل والإرهاق يحولان دون قيامي بأي نشاط . وإذ أقول ذلك ، فإني لا أعني بأني أقضي يومي في الكتابة ذلك لأن جزءاً كبيراً منه مكرس للقاء الناس ، والاستماع إلى ما يرفعون إلينا من استدعاءات ، والأهم من ذلك كله محاولة رد ما يتقدمون به من مطالب من غير أن يبدو الرد هذا رداً بل ليبدو استجابةً يشترط بها بدورها أن لا تبدو نزولاً سهلاً عند رغبة الطالب مما يدفع بالأهل والأقارب إلى التوجه إلينا بوابل من مطالبهم واسترحاماتهم . إنها مهمة لا تخلو من جوانبها الطريفة برغم ما تتسببه أحياناً من شعور بالسأم والملل . ومع ذلك لابد لي من القول أن العمل يستهويني بوجه عام لا سيما ما يتعلق منه بانصرافي كلياً إلى توفير المعلومات إلى ذوي المقامات العليا وأهل الحل والربط في الوطن الأم وإسداء ما ينبغي من التوجيهات من خلال مذكرات رسمية . إن هذه الممارسة أشبه بعملية تحايل تستهدف حث المقابل على الاستجابة لما ترغب في الحصول عليه منه ، وهي وسيلة قلما تنتهي بالإخفاق .

إني مهتمة جداً بما يبديه الفرنسيون من البسالة في النضال لاسيما في أثناء غيابك عن أرض المعركة ، بيد أنه غياب لن يطول كثيراً مما سيجعلني مرة أخرى فريسة للقلق والمخاوف» .

بعد دحر رومانيا بفعل هجوم ألماني نمساوي مشترك تم احتلال العاصمة بوخارست في السابع من كانون الأول . وفي التاسع منه كتبت جيرترورود إلى زوجة أبيها قائلة : «كان مصير رومانيا مأساوياً ، و هكذا سيكون الحال فيما يتعلق بمصير اليونان على ما أعتقد . وعلى الرغم مما يوجد هنا من جوانب غير مريحة ، فإني لا أرى رجالاً ينطلقون إلى جبهات قتال لا يعودون منها ، ولا بساتين وحدائق غناء تتحول إلى أرض يباب ، كما لا أجدني مضطرة إلى إدراك ما يترتب على التعامل مع غلاء الأسعار والنقص الحاد في الأيدي العاملة من صعوبات لا حصر لها .»

وفي الخامس عشر من كانون الأول كتبت جيرترورود إلى أبيها قائلة :« والدي العزيز ، بما أني لم أستلم منك رسالة في الأسبوع الماضي ، أتطلع هذا الأسبوع إلى استلامي حصة مضاعفة تشمل شيئاً من الملابس ، وإن كان ذلك أكثر مما يمكن توقعه .

لقد علمنا الآن بخبر تحرك قواتنا إلى مدينة الحي ، ولكننا لم نستلم أي تفاصيل حول الموضوع . وإذا ما تم ذلك بنجاح فإنه سيسهم في تعزيز موقعنا في هذه البلاد من الناحيتين

السياسية والاستراتيجية ، وتبقى البرقيات التي نستلمها من الوطن أكثر إثارة للاهتمام . إن الحكومة الجديدة تبشر بخير إذا ما تمكن لويد جورج Lloyd George من المحافظة على روح الانسجام فيها . إنه مجلس حرب غريب من نوعه . لا أعتقد أن اشتراك ملنر Milner بعد طول غياب عن مجريات الأحداث أمر يبشر بخير ، ومع ذلك فإني أميل إلى تأييد مجلس حرب صغير الحجم وسلطوي النزعة ، وإذا ما كان الأعضاء الجدد هم خير من يضطلع بأعباء الحكم على أحسن ما يرام فبورك بهم ، وليكن الأمر كذلك .

إن الأشخاص الذين أقابلهم وألتقيهم هنا طيبون وكرماء للغاية ، ولكنني غير مهتمة بأي منهم بشكل خاص . إني أحب العمل مع السير برسي كوكس ، أما بقية الزملاء فليسو بأكثر من أشخاص لملء لحظات عابرة من الفراغ . إن أحب الأشخاص لدي هو الجنرال ماكمن General MacMunn الذي يصطحبني في أكثر العصاري في نزهة إما سيراً على الأقدام أو في السيارة باتجاه الصحراء . إنه غير موجود في البصرة في الوقت الحاضر ، وعندما أذهب إلى التنزه بمفردي أجدني أتجه إلى غابات النخيل حيث ألتقي العديد من الفلاحين الذين تنتشر أكواخهم على امتداد الترع .»

وفي الحادي والعشرين من كانون الأول كتبت تقول :«إني متجهة شمالاً إلى مدينة العمارة . إنها فرصة تمكنني من مشاهدة المزيد من مناطق العراق . إني ذاهبة بصحبة السيد فلبي Mr. Philby مفوض الجمارك والمكوس .

ياله من تغير جوهري ، بل تحول جذري ، أن يرأس لويد جورج حكومة يشكل فيها الاتحاديون(١٣) من دعاة الوطنية الأكثرية . إن ما بلغه من مجد إزاء أفول نجم ونستون (تشرشل) لأمر يثير الحيرة والعجب في آن واحد . من كان يصدق تحقق مثل هذه الحال . وبصرف النظر عما للويد جورج من جوانب سلبية وأخطاء ، فإننا لاشك سنكون أسرى فضله لو قدر له إنقاذنا والوصول بنا إلى بر الأمان .»

---

(١٣) الاتحاديون = Unionists حزب سياسي بريطاني كان ينادي بضرورة إدامة الوحدة البرلمانية Parliamentary Union بين بريطانيا العظمى وإيرلندا ، وقد تشكل عام ١٨٨٦ نتيجة الائتلاف بين حزب المحافظين ودعاة الوحدة من بين أعضاء الحزب الحر (الليبرالي) الذين انفصلوا بقيادة جوزيف تشامبرلن Joseph Chamberlain من الحزب الحر نتيجة موقفهم المعارض من منح إيرلندا في حينه حكماً ذاتياً . وقد بات هذا الائتلاف يعرف باسم الاتحاديين أو المحافظين Conservatives . وكان لويد جورج لبرالياً ، أي عضواً في الحزب الحر - المترجم .

الفصل الخامس

أمضت جيرتروود بيل عطلة عيد الميلاد لعام ١٩١٦ في قلعة صالح بصحبة السيد سنت جون فلبي . وكان الاثنان قد اتجها شمالاً من البصرة إلى قلعة صالح بزورق إدارة الجمارك والمكوس . وفي اليوم الأول من السنة الجديدة (١٩١٧) كتبت جيرتروود رسالة إلى والدها قالت فيها .

«كان السيد بولارد Mr. Bullard مساعد الضابط السياسي Assistant Political Officer قد ذهب إلى البصرة لقضاء عطلة عيد الميلاد ، متيحاً لنا فرصة المكوث في داره الصغيرة . وقد أرسلنا في طلب ما يكفينا من المؤونة وبذلك هيأنا أنفسنا لحياة زهد شكلت الأطعمة المعلبة فيها غذاءنا الأساسي ، إلا أن خادمي أثبت كفاءة وحسن تدبير لم أكن أتوقعهما بالمرة وذلك بتقديم وجبات مطبوخة شهية على مدى فترة الخمسة أيام التي قضيناها في الموقع هذا . وقد عاد السيد بولارد قبل أن يحين موعد رحيلنا الأمر الذي مكننا من قضاء أمسية ممتعة بضيافته - إنه شخص لطيف المعشر ومثير للاهتمام .»

وبعد عودتها إلى البصرة ، كتبت في السادس والعشرين من كانون الثاني تقول :«البصرة أقل متعة مما كانت عليه في العام الماضي بسبب امتلائها بالمعسكرات . فغابات النخيل التى كنت أقصدها للتنزه قد باتت مأهولة الأمر الذي أُفسد ما تميزت به من هدوء ورونق وجوانب جمالية وبذلك لا غرابة فيما تولد لدى العرب من شعور بالاشمئزاز نتيجة هذا الوضع ؛ لقد ضاقوا ذرعاً بهذا التطفل غير المتوقع ، وهكذا كان الحال بالنسبة لي . لقد سأمنا جميعاً هذه الحرب . ومع ذلك فالحال أشبه بمن يسهر على راحة مريض يعاني من مرض موجع ، لا أعلم ما عسانا أن نفعل عند موته ! ترى هل ستكون الهزيمة نصيبنا بعد كل هذه الجهود ، أم ترانا سنكون عملياً في عداد المهزومين ؟ لا أظنني مهتمة جداً بما ستؤول إليه الأمور بأي شكل من الأشكال ، وإن كان الانحدار يعني بالضرورة جلاءنا عن هذه البلاد ، وبالتالي رحيلنا من آسيا رحيلاً لا عودة بعده .»

كانت جيرتروود تعاني من كآبة وغم لأسباب بدنية . وعلى الرغم من أنها لم تعش لتشهد ما ترتب على حربين عالميتين من آثار ونتائج وخيمة ، فإنها من خلال حالتها النفسية المؤقتة التي عكست بوضوح فتوراً وعدم اكتراث ، لاسيما فيما يتعلق بأمر من يكتب له النصر من بين القوى المتصارعة ومن يمنى باندحار ، تطرقت إلى حقيقة باتت الآن مثبتة ومؤكدة . إنها مسالة لم يعد لها أهمية بالتأكيد ، بيد أن الجانب المؤلم في الأمر هو أن ذوي المقامات الرفيعة

من صغار الرجال لا يزالون يتصورون أنفسهم منتصرين ! كان الله بعون هذا العالم .

وفي الثاني من شباط كتبت جيرتروود تقول :« جاءتنا اليوم مجموعة من الشيوخ من مختلف مناطق الفرات ، وكان القسم الأكبر منهم أشخاصاً لم يسبق لي التقاؤهم وإن لم تكن أسماؤهم ومغامراتهم خافية علي . كانوا مجموعة من العابثين والمخادعين الأشداء ممن عركتهم الأحداث والتجارب ، بيد أنهم كانوا على درجة كبيرة من الجاذبية والروعة . كانوا قد تمردوا على الحكم العثماني على مدى فترة تجاوزت خمسة عشر عاماً . ولكن ما يثير الدهشة الآن هو أنهم قد بدؤوا بالاستجابة لنا الأمر الذي يدعو إلى الإشادة بقدرة من تمكن إقناعهم بجدوى الاستجابة . ولابد من القول بهذا الصدد إنه على الرغم من أن جرائم القتل العنيفة لا تزال ترتكب من حين إلى آخر ، وإن حالات السلب والنهب والتهرب من دفع الضرائب لا تزال تتواصل ، يتعين على المرء منا أن يدرك الصعوبة التي تكمن في محاولة تغيير ممارسات وعادات متأصلة بشكل سريع . ومع ذلك لابد من القول أن الأمور تشهد بدايتها وهو جانب ذو أهمية بالغة .»

كان من شأن وفاة اللورد كرومر Lord Cromer[1] أن تلقي بظلالها على هذه الفترة من

---

(١) هو إيرل كرومر الأول First Earl of Cromer ١ ، واسمه ايفلين بارنج Evelyn Baring(١٨٤١ - ١٩١٧) الإداري والدبلوماسي البريطاني الشهير وأحد أساطين الامبريالية البريطانية الذي كان من شأن فترة الأربعة وعشرين عاماً التي قضاها في مصر بوصفه وكيلاً معتمداً أولاً ومن ثم قنصلاً عاماً بعد ذلك أن تترك بصماتها الواضحة على عملية النمو التي شهدتها مصر الحديثة . كان موضع ثقة واحترام المسؤولين البريطانيين في لندن الذين وجدوا فيه مرجعاً وحجة في كل ما له علاقة بمصر وشؤونها . وكان لإجراءاته التقشفية ودعمه للمشاريع الزراعية والإروائية أثراً بالغاً في زيادة الرخاء في مصر . كان يرى أن العقلية الشرقية تفتقر إلى الدقة والإتقان وتميل إلى الإهمال كذلك . وعلى الرغم من أنه كان يحسن اللغات اليونانية واللاتينية ، والفرنسية والإيطالية ، فضلاً عن تعلمه التركية أثناء وجوده في مصر بوصفها لغة الصفوة التركية الشركسية فيها ، فإنه لم يبذل أي جهد لتعلم العربية الأمر الذي حال دون تمكنه من الاتصال المباشر بأبناء الشعب لا سيما أفراد الطبقة الوسطى التي أنجبت جيل الوطنيين الجدد ، وبذلك فإنه أخفق في الواقع في فهم عقلية أبناء العرب بشكل عام وعقلية المصريين بشكل خاص كما ينبغي . إن انصرافه إلى القول في كتابه الموسوم «مصر الحديثة Modern Eygpt» «إن الإسلام لا مستقبل له» إنما يثبت بشكل قاطع مدى جهله بعالم العرب والإسلام وتجنيه عليه . وقد خضع هذا الرأي لنقاش مطول دار في وقت لاحق بين السيد عبد الرحمن النقيب ، نقيب أشراف بغداد ، والآنسة بيل أثناء زيارتها بغداد بعد عودتها من حائل ، أي قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى - المترجم

حياة جيرتروود بيل . وقد كتبت بهذا الصدد قائلة :« تترك هذه الخسارة فراغاً لا حدود له في دنيانا . لقد عاش حياة رائعة حفلت بالإنجاز والعطاء ، ويشكل ما تركه من آثار مثالاً حياً على ما يمكن اعتباره جوانب معيارية على مدى الزمن . لقد أحببته كثيراً أعجبت به ، وكان سندي الذي كنت أركن إليه ، ولطالما شعرت بإعزاز كبير لتمكني من الفوز بمحبته وثقته العالية ، وهو شعور أجدني عاجزة عن التعبير عنه بما يفيه حقه .»

وفي الرابع والعشرين من شباط كتبت تقول :«جاءنا اليوم خبر عبور (قواتنا) نهر دجلة من منطقة تقع شمال الكوت الأمر الذي يبشر بسقوط هذه المدينة قريباً ، كما يبشر أيضاً باحتمال حدوث بعض التطورات الإيجابية فيما يتعلق بالقبائل العربية التي لا تزال معادية لنا . كم تمنيت حدوث هذه التطورات قبل عام ، بيد أن المرء منا يذكر جيداً كيف كان الوضع قبل عام ، وكيف بدا مستحيلاً ما نراه يتحقق في يومنا هذا ! بدا مستحيلاً لافتقارنا آنذاك لما هو متوفر لدينا اليوم من وسائط نقل وعدد وأجهزة . لقد استغرق وضع الأمور في نصابها الصحيح فترة عام من العمل الدؤوب الذي تم في الواقع بفضل همة صديقي الجنرال ماكمن .»

وفي الثاني من آذار كتبت لوالدها قائلة :« لقد أصبت عندما عمدت إلى استثمار كل ما أملك من رصيد في القرض الحربي . أرجوا أن تواصل التصرف بأموالي على نحو ما تراه مجدياً بما في ذلك وضع يدك عليها . فالأمر لا يهمني أبداً ، وهو ما سبق لي إعلامك به .

إذا ما تواصل بقاؤنا في البصرة فسنغدو في حال أفضل مما كنا عليه في العام الماضي بعد أن أصبح لدينا عدد أكبر من المراوح وكميات أكثر من الثلج . ولكننا سنكون في وضع أسوأ إذا ما تم لنا الوصول إلى بغداد إلا أنه سيكون أمراً أكثر إثارة للاهتمام . لست مهتمة كثيراً في المكان الذي يطلب مني العمل فيه ، ومع ذلك فإنني أفضل الشرق على الغرب شريطة أن يكون لدي ما يكفي من العمل .

وأخيراً تحول مجرى الحرب في بلاد وادي الرافدين لصالحنا ، وهو جانب تجسد من خلال سرعة حركة قواتنا بإمرة الجنرال مود وتقدمها نحو بغداد» .

* * *

وفي التاسع من آذار كتبت جيرتروود إلى أبيها بلهجة متفائلة عكست مدى ارتياحها من الوضع العام : «إنه حلم الهيمنة الألمانية في منطقة الشرق الأدنى بكل جوانبها وبما في ذلك مشروع خط سكة حديد بغداد - برلين . لن يكون لألمانيا موقع مرموق في هذا الجزء من العالم - كان بإمكانهم تحقيق ذلك لو قدر لهم اعتماد السبيل الناجع إليه بدلاً من محاولة الإسراع في فرضه عن طريق الحرب . فلو قدر لهم اللجوء إلى غير سبيل الحرب

لارتضينا ، على ما أعتقد ، بترك هذه البلاد لهم . والغريب في الأمر هو أنهم كانوا على بينة من أمر هذه الحقيقة . أما الآن فقد باتوا خارج المنطقة ولن تتوفر لهم فرصة العودة . وهو ما تقع مسؤوليته على عاتقهم . أما من جانبنا ، فإنني على ثقة تامة من أننا سنبذل قصارى جهدنا في سبيل جعل هذه البلاد مركز إشعاع حضاري ورفاهية . أما هم (أي الألمان وحلفاؤهم) فكانوا دائبين على توجيه ضربة تركية - بروسية ماحقة تنشد القضاء التام على كل ما في هذه البلاد من سمات وخواص قومية ، وبذلك يتوجب علينا أن نضع نصب أعيننا تحقيق الغاية السامية التي نصبو إليها وهو ما سيكون لي إسهام في تحقيق جانب معين منه ، الأمر الذي يتوجب علي الحرص على مراعاته وتفادي إهماله .»

كان من شأن الزحف المظفر للجنرال مود على بغداد أن يزرع في نفس جيرتروود روحاً وأملاً جديدين ، ولعل ما كتبت بهذا الصدد إنما يشكل الفكرة الأساس لما اضطلعت به من نشاط حتى اليوم الأخير من حياتها .

«إني ألتقي الجنرال لوبوك أحياناً General Lubbock . إن لشخصيته جاذبية وسحراً متميزين . إنه يأتي لزيارتي وتناول الشاي معي في المناسبات التي يسمح له وقته الضيق في اقتناصها نتيجة انشغاله بالإشراف على مد سكتنا الحديدية . أما الجنرال ماكمن فمنهمك في حملته التي ينطلق بها نهراً إلى بغداد . إني حقاً أفتقد صحبة هذا الصديق العزيز . أبتاه العزيز ، لابد لي أن أروي لك حكاية كان قد أفضى بتفاصيلها إلي سراً ، علماً أنها لا تعتبر أبداً نموذجاً لما اعتاد أن يحدثني به من أمور . لاشك أنك على علم بأنه الشخص الذي استحدث الإجراء الخاص بتسجيل الخيل . ونتيجة ذلك فقد وجد نفسه محاصراً بجيش من الساخطين الذين راحوا يعترضون على سحب خيولهم منهم مبينين أن ما تم فعلاً يمثل آخر ما كانوا يتوقعون من إجراء . ومن بين هؤلاء المتذمرين قسيس شيخ من مقاطعة نورفولك بدا متأثراً جداً بسبب قيام المسؤولين بسحب مهر اعتادت ابنته الشابة أن تمارس هوايتها المفضلة فوق ظهره . وإزاء اعتراض القسيس انفجر الجنرال ماكمون غاضباً وقال :«سيدي ! إن تفادي المباغتة بوجود «اولن»[٢] في فراش ابنتك يعني أنك رجل سعيد الحظ من غير أدنى شك !» وإزاء ذلك لم ينبس القسيس العجوز بكلمة واحدة بل تناول قبعته وهرع إلى الخارج . تعكس هذه القصة صورة لا تخلو من طرافة . أليس كذلك ؟ أجل!

(٢) الأولن = Uhlan أحد فرسان وحدات الاستطلاع الخفيفة البروسية من حملة الأرماح التي تميزت بالبأس والشراسة و التفاني في القتال ، وهي وحدات تم تشكيلها على غرار تشكيلات مماثلة اعتمدتها الجيوش التترية القديمة في حروبها و غزواتها-المترجم .

إنها بالتأكيد قصة لا تخلو من طرافة فحسب بل ومن متعة لاسيما إذا ما نظرنا إليها في ضوء الملاحظة التي دونتها جيرتروود في أعقاب الرواية هذه . فقد أضافت قائلة : «من الأفضل على ما أرى ألا تقع عينا اللادي بيل على ما كتبت بهذا الصدد مخافة أن تظن بأني أنحدر إلى الهاوية ، أو إني قد انحدرت إليها فعلاً !»

وفي السابع عشر من آذار كتبت قائلة :« ذهبت في الأسبوع المنصرم لزيارة كبيرة الممرضات ، الآنسة جونز Miss Jones ، ذائعة الصيت التي أكن لها شعوراً بالمودة ، والتي أصرت على اصطحابي في جولة في أرجاء المستشفى تم لي من خلالها التقاء عدداً من الجرحى من بين الأسرى الأتراك أسعدتهم محاولتي الفأفأة ببعض العبارات التركية ، وكانت محاولة لم تخل من صعوبة بسبب انقطاعي عن التحدث بهذه اللغة على مدى السنوات السبع المنصرمة . وهكذا وجدتني أقف أمام هؤلاء البؤساء من أبناء الريف الأناضولي ذوي الوجوه المستديرة . كان بإمكاني الضحك منهم والبكاء عليهم في آن واحد . لقد جاءوا من شتى أنحاء تركيا : من قونيا وأنقرة وقيصيرية بالإضافة إلى البعض من أبناء الآستانة نفسها . لقد تحدثنا بإسهاب عن أحوالهم وعن بلادهم الجميلة . كان القسم الأكبر منهم يشعر بالراحة لأنهم لن يضطروا إلى العودة إلى سوح المعارك - كانت الحرب قد انتهت بقدر تعلق الأمر بهم . وكان بين الجرحى ضابط بغدادي يحتضر نتيجة جراحه التي أصيب بها . وكم بدا سعيداً عندما رحت أتحدث إليه بالعربية لأنه سرعان ما راح يستجمع قوته ويحاول مغالبة ما كان يعانيه من ألم مبرح ليهمس بسؤال واحد فقط : ما هي أخبار شريف مكة ؟ وهل صحيح أن ثورته تتنامى ؟ وهل إننا (البريطانيين) متفقون معه؟ أجبته بأن الوجود التركي في الحجاز كان قاب قوسين أو أدنى من نهايته . كم تمنيت مخلصة لو أن استقبال هذا الضابط الشاب للموت كان بسبب دفاعه عن قضية أمته وتحريرها . كان الجرحى من الضباط الأتراك يمزحون فيما بينهم ويهزءون منه لأنه عربي . لقد تكونت لدي صورة واضحة عما يعانيه الضباط والجندون العرب في صفوف القوات المسلحة التركية . إن الحرب هنا ورطة محيرة!»

بعد احتلال بغداد في الحادي عشر من آذار كانت جيرتروود قد أكملت كل المهام التي أوكلت لها وبذلك فإنها كانت على أهبة الاستعداد للانتقال إلى الموقع الجديد . وللمرة الأولى منذ اندلاع الحرب كادت جيرتروود تكون من غير عمل بعد أن تحول مركز اهتمامها إلى بغداد . وفي الحين ذاته كان الجنرال ماكمن قد عاد إلى البصرة ليعود كعهده دائماً مصدر راحة وبهجة للآنسة بيل .

* * *

لم يكن هناك أدنى شك من وجود الحاجة لخدمات جيرتروود في بغداد . ولم يمض أسبوع على احتلال بغداد حتى كانت جيرتروود في طريقها إليها . كانت رحلة نهرية استغرقت تسعة أيام قضتها على ظهر إحدى سفن نقل الجنود . وفي اليوم الخامس من الرحلة ، أي بتاريخ العاشر من نيسان ، كتبت ما يلي : «كانت سفينتنا واحدة من السفن الجديدة التي تميزت بكل أسباب الرفاهية من وسائل إضاءة كهربائية ، ومراوح ، وأسرة ومقاعد مريحة للغاية . ومع ذلك فإنني أتطلع بشوق إلى الوصول إلى بغداد التي تشهد في الوقت الحاضر أحداثاً وتحولات مثيرة للاهتمام . توقفنا ساعة في مدينة العمارة حيث تناولت طعام الفطور مع سنت جون فلبي وزوجته وتبادلت معهما الأحاديث . يعمل فلبي بصفة مساعد ضابط سياسي . أتوقع أن نكون هذه الليلة على مقربة من مدينة الكوت غريب جدا أن يضطر المرء منا إلى التعامل مع المناطق فقط باعتبارها مراحل لرحلة .»

وبعد ثلاثة أيام كتبت تقول :«من منصة الربان رحنا ننظر بدهشة إلى خطوط «الصناعيات»(٣) التي كان الأتراك متحصنين فيها - كاد يمحى أي أثر لها بعد أن اكتست بالأعشاب والنباتات الأخرى . ياله من أمر عجيب ! لا أظن أن هناك ساحات معارك في العالم أقل ضرراً من سهول بلاد ما بين النهرين التي لا تكاد تعكس أبداً أي آثار للحرب» .

أما المناطق الواقعة في شمال مدينة الكوت والتي شهدت صموداً تركياً لا يلين وحيث امتلأت القنوات والنهيرات بالقتلى والجرحى فقد كتبت جيرتروود عنها قائلة :«تكاد تشكل هذه المناطق جانباً لا يمكن تصديقه ، فهي تبدو آمنة وهادئة وقد انتشرت فوقها بيوت

(٣) «الصناعيات» ـ يجري نهر دجلة قرب الكوت من الغرب إلى الشرق . وكان الأتراك قد اتخذوا مواقعهم على جانبي النهر ، وراء النهر ، وراء الكوت (شمالاً) . وكان أهم موقع لديهم هو «الفلاحية» الذي لسبب لا أدركه كانوا الإنجليز قد أسموه «الصناعيات» وهو يقع على الجانب الأيسر من النهر وعلى بعد خمسة وعشرين ميلاً تقريباً من الكوت ، وهو عبارة عن برزخ ضيق من الأرض يحيط به نهر دجلة من الجنوب وهور الشويجة من الشمال ، ويعتبر أعظم موقع عسكري بين بغداد والبصرة ، وقد وصفه بعض العسكريين باعتباره دردنيل العراق نسبة إلى مضيق الدردنيل الذي يصل بحري إيجة ومرمرة ، ويشكل فاصلاً بين الأناضول والبلقان ، والذي فيه دارت رحى معارك دامية مني الحلفاء فيها باندحار مهين نتيجة استبسال الأتراك في الدفاع المستميت . وكان يطلق على الدردنيل تارة اسم جناق قلعة (وهي قلعة تشرف على أضيق موقع في مضيق الدردنيل) وتارة اخرى اسم غاليبولي (الأسم القديم لشبه الجزيرة الواقعة في الجانب الاوروبي لمضيق الدردنيل . ولا تزال عبارة «تشنه قلعه» في اللغة العامية العراقية (وهي تحريف لأسم جناق قلعة) تعني العمل الشاق الذي لا يتحقق إلا بجهود ومثابرة وقدرات مضنية ـ المترجم .

الشعر السوداء والخيم . لقد عاد سكانها العرب إلى منتجعاتهم ومراعيهم المعهودة ، وانتشرت قطعان مواشيهم على ضفاف النهر الذي كان شهد قبل شهر تراجع القوات التركية وفرارها .»

في الخامس عشر من نيسان تم أخيراً الوصول إلى بغداد أي بعد مرور ثلاثة أعوام على انطلاق جيرتروود منها نحو الصحراء السورية في طريق عودتها من شبه الجزيرة العربية . وعند وصولها إلى بغداد لم يكن بإمكانها أن تعلم بأن دار السلام قد قدر لها أن تكون المقام الذي كتب عليها أن تقضي فيه ما تبقى من عمرها ، بيد أنها شعرت فيها براحة تامة الأمر الذي جعل من مكوثها فيها مصدر سعادة ورضى تامين . ومما ضاعف من شعورها بالغبطة ذلك الترحيب الذي لمسته من لدن السير برسي كوكس برغم عدم رضاها عن ذلك «الصندوق الخانق» ، على حد تعبيرها ، أي المكان الذي تقرر تخصيصه لها سكناً . وما أن قضت ليلة واحدة تحت سقفه حتى انطلقت صباح اليوم التالي بكل ما عرف عنها من نشاط وهمة بحثاً عن سكن أفضل . وسرعان ما تم لها ما شاءت ، وعثرت على ضالتها المنشودة التي جسدها «بستان مليء بالزهور ضم ثلاثة بيوت صيفية ، وقد شاء الحظ أن يكون على مقربة من مقر المكتب السياسي Political Office . » ولعل الجانب الأفضل في هذا الاكتشاف تمثل في هوية مالك هذا العقار ، موسى جله بي[٤] الذي بفضله وبمساعدة من لدن خادمها الخاص الذي عرفته «منذ أمد طويل» تمكنت من اتخاذ ما يلزم لتحويل هذا الموقع سكناً جديداً لها . وهكذا راح الأصدقاء والمعارف يتوافدون على هذه الدار لزيارتها والسلام عليها ، كما طفقت البرقيات المرسلة من وزارة الحرب البريطانية تنهال عليها من أجل التعاقد معها حول إعداد تقارير مطلوبة ، إلى جانب قيام السير برسي كوكس بتكليفها «بكثير من المهام المثيرة .»

تعتبر جيرتروود بيل في واقع الحال مؤهلة للقيام بما أوكل إليها من مهام بشكل كاد يكون استثنائياً . وعلى حد تعبير السير نايجل دايفدسون : Sir Nigel Davidson[٥] «فإن

(٤) هو موسى جله بي الباجه جي ، سليل واحدة من بين أعرق العوائل البغدادية ولقب جله بي الفارسي الأصل يطلق اعتيادياً على كبار التجار في العراق . وكان موقع هذه الدار التي استأجرتها الآنسة بيل في محلة السنك الحالية التي تحدها منطقة باب الشرقي جنوباً ومنطقة سيد سلطان علي شمالاً - المترجم

(٥) السير نايجل دايفدسون - المحامي العام ، أو محامي الملك Advocate - General أي المستشار القانوني للتاج البريطاني . كان يعمل بهذه الصفة لدى حكومة السودان (البريطانية) التي انتدبته للعمل في العراق في عام ١٩٢١ خلفاً للسير ادغار بونهام كارتر Sir Edgar Bonham - Carter المستشار القانوني للإدارة المدنية في العراق . وقد أصبح في وقت لاحق مستشاراً للمندوب السامي ثم مندوباً سامياً بالوكالة أثناء غياب المندوب السامي السير هنري دوبس Sir Henry Dobbsعام ١٩٢٤ ـ المترجم

العالم لم يشهد أبداً من كان باستطاعته منافسة جيرتروود بيل في مضمار معرفة التفاصيل المتعلقة بالقبائل العربية ورؤسائها وأسرهم ، إذ لم يحظ أحد بما حظيت به جيرتروود من فرص تم لها بفضلها الحصول على المعلومات التي قدر لها جمعها من خلال رحلاتها وأسفارها .»

وبالإضافة إلى هذا المؤهل الخاص الذي امتازت به جيرتروود بيل فإنها كانت على اطلاع دقيق وواسع بالأساليب والمناورات السياسية الخاصة بالقبائل العربية - وهو اطلاع كان هو الآخر مجالاً لم ينافسها فيه أحد . وفي مجال إعداد الكتيبات المعلوماتية بما له علاقة بشتى جوانب الحياة العربية ، كانت جيرتروود - على حد تعبير عالم الآثار ورجل المخابرات المشهور دافيد هوغارث D.H.Hogarth من خلال مقال كتبه بهذا الصدد في جريدة التايمز اللندنية بعددها الصادر في الرابع عشر من تموز من عام ١٩٢٦ - «قد عكست اطلاعاً واسعاً على التفاصيل المتعلقة بأواصر العلاقات ، الاعتيادية منها وغير الاعتيادية على حد سواء ، التي تربط القبائل والمجموعات القبلية بعضها بالبعض الآخر ، فضلاً عن اطلاعها التام على مفردات الجرائم المحلية المرتكبة من قبل أفراد آل رشيد سفاكي الدماء .»

وإلى جانب كل ذلك ، تم استغلال ما لها من معرفة أو خبرة في مجال علم الآثار والمكتشفات الأثرية من خلال حماية ما تبقى من الأبنية والآثار القديمة والمحافظة عليها بعد أن زال العديد منها والذي جاء على حد تعبيرها نتيجة قيام «الأتراك بشق شارع عريض عبر المدينة (أي بغداد) متسببين نتيجة ذلك بإزالة العديد من المباني ، القديمة منها أو الجديدة على حد سواء .»[٦] وحول ما لمسته من حفاوة وترحاب إثر قدومها إلى بغداد كتبت إلى

(٦) لم يكن في بغداد إبان فترة الحكم العثماني شوارع عامة كالتي نعرفها في يومنا هذا . كانت المجازات والطرق عبارة عن دروب وأزقة يتصل بعضها بالبعض الآخر . وكان شارع النهر أول شارع رئيس عرفته بغداد ، وقد تم شقه من قبل الوالي ناظم باشا عام ١٩١٠ ، ومع ذلك لم يكن شارعاً حقيقياً لضيقه وعدم استقامته بل كان أشبه بالزقاق .

كان أول شارع حقيقي يشق في بغداد هو الشارع الذي يعرف اليوم باسم شارع الرشيد وقد أمر بشقه القائد العثماني خليل باشا إثر انتصاره على القوات البريطانية في الكوت وأسره قائدها طاوزند Townsend وتعينه والياً . وقد عرف هذا الشارع الذي امتد على طول بغداد آنذاك - من الباب الشرقي إلى باب المعظم - باسم خليل باشا (خليل باشا جاده سي) . وهناك ثلاثة عوامل أدت إلى شق هذا الشارع : ١ - العامل العسكري - تسهيل مرور القوات والمعدات العسكرية . ٢ - العامل الاقتصادي- إن شق الشوارع أثناء الحرب أقل كلفة ==

والدها قائلة :«هل سبق لي إخبارك عن صديقي ، أحد شيوخ العشائر ، الذي جاءني من الجانب الآخر من نهر الفرات خصيصاً ليقدم لي هدية رائعة هي حصان عربي أصيل؟ كان استضافني والده في عام ١٩١١ في أثناء زيارتي لقصر الأخيضر .[٧] وما أن طرق سمعه خبر عودتي إلى بغداد حتى سارع إلى إرسال ابنه ليرحب بي ويجلب لي هذه الهدية الثمينة . كما جاء لزيارتي أيضاً مصطفى باشا الذي قدم من مسقط رأسه ، مدينة خانقين ، خصيصاً لهذا الغرض ، وهو الآخر كان استضافني في عام ١٩١١ . لقد استغرقت زيارة مصطفى باشا لي زهاء نصف ساعة من الزمن تجاذبنا في خلالها أطراف الحديث واستعدنا بعض الذكريات المشتركة .»

وفي الحادي عشر من أيار كتبت تقول :« شكلت زيارة السيد رونالد ستورز Ronald Storrs (السير رونالد ستورز فيما بعد) الحدث الأهم في هذا الأسبوع . جاءنا السيد ستورز زائراً من مصر ، وكانت زيارته مصدر سعادة لي أجدني عاجزة عن وصفها . وقد اصطحبته في جولة طويلة زرنا من خلالها الأسواق القديمة ، فكانت متعة أجدني عاجزة عن وصف روعتها هي الأخرى أيضاً . راحت أجواء الأسواق القديمة ترتج بفعل قهقهات ستورز المدوية الأمر الذي عزز من شهرتي باعتباري رفيقة يجد الأصدقاء والأحبة في شخصها مصدر متعة لا حدود لها . وكم تمنيت قضاء وقت أطول بصحبته إلا أن كثرة مهامي

== من شقها أثناء السلم إذ بدلاً من قيام السلطات بدفع التعويضات الباهظة سلفاً ونقداً أثناء السلم فإنها تكتفي في أيام الحرب بإصدار سندات لا تستحق الدفع إلا بعد أن تضع الحرب أوزارها . ٣ - العامل الشخصي - تخليد اسم من يقوم بشق الشوارع إذ يطلق اسم المسؤول ، والياً كان أم قائداً ، على الشارع الذي يأمر بفتحه . وإلى جانب ما لعبته المحسوبية والوساطة والرشوة من دور في فتح هذا الشارع وتحديد مساره ، فقد تسببت عملية الفتح بهدم العديد من الأبنية والبيوت التراثية . ولم يكن الشارع قد تم تبليطه عندما سقطت بغداد في ١٩١٧/٣/١١ . وقد سارع البريطانيون إلى تعبيده لتسهيل تنقلهم عليه وأطلق عليه اسم الشارع الجديد . وقد بقي اسم« خليل باشا جاده سي» مكتوباً على بلاطة مثبتة على جدار جامع السيد سلطان علي لعدة سنوات ولم يتم رفع البلاطة إلا بعد أن قامت أمانة العاصمة بتسمية الشارع باسم شارع الرشيد وهو الاسم الذي لا يزال باقياً حتى يومنا هذا - المترجم

(٧) قصر الأخيضر - يقع هذا القصر العباسي الرائع قرب مدينة كربلاء على بعد ١٢٠ كيلومتراً جنوب غرب بغداد ، وكان بني أساساً لأغراض تتعلق بالصيد والقنص ، وقد تم بناؤه في السنوات الأولى من العهد العباسي الأول (عام ٧٨٠م) على غرار القصور الأموية الصحراوية - المترجم

ومسؤولياتي قد حالت دون تحقيق مثل هذه الأمنية . ومع ذلك فإن من شأن مثل هذه المناسبات السعيدة أن تدخل البهجة إلى قلوبنا وتعمل على تجديد حيويتها ، وهذا ما تم لي فعلاً إذ أنني سرعان ما شعرت بتجدد نشاطي فاندفعت إلى إعداد خطة رائدة خطة يمكن اعتبارها خطوة أولى إلى الأمام لصالح الإدارة الحكومية هنا . إن من شأن جرعة من الجرأة والشجاعة أن تخرج بنتائج واعدة . ومع ذلك يتعين علينا إدراك واقع مر مفاده أن أهل الحل والربط في الوطن يجهلون تماماً حقائق الأمور على أرض الواقع هنا ، حتى تلك الأكثر جلاءً ووضوحاً بينها ، وبذلك فإنني أرى أن من المجدي بنا الانصراف من وقت إلى آخر إلى الخروج بصيغ وكليشات تافهة وخالية من التجديد . ولقد قدر لي أن أكتشف قبل الآن أن ما ينبغي أن يعتبر بحق بمثابة سأم وضجر كبيرة إزاء ما هو جلي وواضح هو في الواقع حالة انشداه تنم عن دهشة إدراك نصف تام ليس إلا . أن الجانب الممتع من الأمر هو أنهم عندما يجيبون على المخابرات الجارية تجدهم ينصرفون إلى التوجه إليك بسرية تامة لإعلامك عن جوانب معينة قدر لهم إقرارها بعد التمحيص والمداولة والتي سرعان ما تكتشف أنها تلك التي فاتحتهم حولها أنت شخصياً قبل عدة أشهر .»

وفي السادس والعشرين من أيار كتبت تقول :« يؤسفني القول أن السيد ستورز قد سافر عائداً إلى محل عمله . قال لي أن ما يكنه لي فهد بك من مودة لأمر يعرضني للشبهات ! إن فهد بك[٨] يبلغ الخامسة والسبعين من عمره المديد . فتصور ! إنه حجة فيما يتعلق بالسياسات والشؤون القبلية .

وصل إلى البصرة أحد الدمشقيين ممن كانوا رافقوني في سفرتي إلى نجد ، وقد هاتفني طالباً الإذن في التوجه إلى بغداد لمقابلتي . إن بإمكاننا الاستفادة منه ومن خبراته ، وهو جانب لاشك لدي فيه بيد أن دائرة الاستخبارات العسكرية رفضت السماح له بالمجيء إلى بغداد مخافة أن يكون جاسوسا ! ياله من موقف ساذج ! إن بغداد مليئة بالجواسيس . آمل أن يتمكن السيد برسي كوكس من معالجة الموقف الأمر الذي سيسهل سفر هذا الصديق إلينا . إني مشتاقة جداً للقائه . كم تمنيت أن يكون القادم فتوحاً ![٩] لا أدري إن كان فتوح لا يزال على قيد الحياة . لقد عانت مدينة حلب ، ولا تزال تعاني حتى الآن ، الكثير من جور

---

(٨) هو فهد بك بن هذال شيخ قبيلة عنزة وأحد أصدقاء جيرتروود القدامى والمقربين منها - المترجم

(٩) فتوح من أبناء حلب الشهباء وخادم جيرتروود الأمين الذي كان رافقها في رحلتها عبر الصحراء ، وسيرد ذكره لاحقاً في عدد من الأماكن في هذا العمل - المترجم

الأتراك وقسوتهم . أخشى أن تكون علاقة فتوح بي شخصياً وبكل من جورج لويد ودافيد هوغارت مصدر تعاسة وشقاء له .»

كادت تكون رسائل جيرتروود التي كتبتها أثناء تجوالها في الصحاري المراسلات الوحيدة التي تخلو من طلبات تتعلق بإرسال ما كانت ترغب في الحصول عليه من فساتين وأحذية وإلى غير ذلك من الحاجيات . أما وقد استقر بها المقام في بغداد حيث راحت الحفلات واللقاءات والمناسبات تتواصل ، فإن طلباتها من الملابس والحاجيات الأخرى راحت هي الأخرى تتواصل بتزايد ملحوظ ، ولم يكن من السهل دائماً تلبية هذه الطلبات وفق أهواء هذه الآنسة . كما أن الملابس التي كانت تطلب إرسالها إليها لم تأت في كل الأحوال منسجمة مع الزي السائد (الموضة) . ولما كانت تلك الفترة بالذات هي التي سادت فيها التنورات القصيرة ، الضيقة فإن طلب جيرتروود المستعجل ، على سبيل المثال ، بصدد إرسال ثوب من الموسلين (النسيج القطني الرقيق) ذي أكمام فضفاضة ، كان يمثل في الواقع رغبة يصعب تلبيتها . وكانت أختها (مولي Molly اللادي ترفليان Lady Trevelyan) تحاول جاهدة تلبية هذه الرغبات . وعلى الرغم من ذلك فإن ما كان يرسل لها لم يحظ دائماً برضاها ، فنجدها على سبيل المثال تصف بعض هذه الفساتين بأنها « لم تكن فساتين سهرة بل معاطف من الفرو .»

١٩١٧

في بغداد وجدت جيرتروود ولأول مرة في حياتها أن لها بيتاً خاصاً بها . إنه لم يكن مجرد موقع للسكن بل كان بيتاً بكل ما تنطوي عليه عبارة البيت من أبعاد ومعان . فما أن انتقلت إلى هذا المنزل الصيفي الكائن وسط بستان الورود حتى سارعت إلى تحويله إلى بيت حقيقي . وقد عمدت بالإضافة إلى ذلك إلى فتح أبوابه أمام الزائرين من الأصدقاء والمعارف . وسرعان ما أصبحت اللقاءات والدعوات التي كانت تشهدها هذه الدار مظهراً بارزاً من مظاهر حياة بغداد الاجتماعية ، كما شكلت في الحين ذاته ملاذاً حقيقياً ومصدر متعة وراحة للكثير من الشبان البريطانيين الذين نأت المسافات بينهم وبين وطنهم وأهلهم . وبذلك لم تكن جيرتروود قد تمكنت من إعداد بيت جديد لها فحسب إنما أوجدت حياة جديدة أيضاً ، بل وانتهجت كذلك سبيلاً جديداً مكنها من مواصلة البقاء بين أناس كانت تكن لهم مودة خاصة ، والقيام بأعمال أولتها كل اهتمام ورعاية ، وهي أعمال كانت جيرتروود بحق أكثر من غيرها مؤهلة تماماً للقيام بها والاضطلاع بما يترتب عليها من

مسؤوليات . وبهذا الصدد نجدها تعبر ببلاغة عن هذه الحال قائلة :«ترى أية تركة هذه التي أورثها مزارعون كمبريون(١٠) قدر لها على نحو غير متوقع أن تنمو إلى صيغة متطورة من صيغ المضافة التي تعيد إلى أذهان الضيوف ذكرى الوطن وأجواءه ، وهي تستقر براحة وطمأنينة وانسجام في أحضان الشرق؟» .

وراحت الحرب تتواصل ببطء ممل . أما جيرتروود فكانت مرتاحة البال بخصوص أخيها موريس الذي كان قد عاد إلى الوطن حيث أوكلت له قيادة إحدى الوحدات المرابطة في الداخل وذلك إثر إصابته بجرح تسبب بإعاقته الأمر الذي حال دون تمكنه من الالتحاق بجبهات القتال . وفي التاسع والعشرين من حزيران كتبت إلى أبيها قائلة :

«دعني أؤكد لك عدم وجود ما يمكنني طرحه عليك من المشاكل والقضايا ، الكبيرة منها والصغيرة على حد سواء ، والتي لا تخفق أبداً في أن تحظى منك لا تعاطفا وتفهما تامين فحسب بل وحتى الغفران عند الضرورة . وأجدني عاجزة تماما عن وصف موقفك الرائع مني أثناء ما ألم بي من حزن وعانيت من كرب شديد إلى الحد الذي اندفعت فيه إلى التساؤل عما إذا كان بإمكان المرء منا تحمل مثل هذه الأشياء ومواصلة العيش . ووسط هذا العالم الجديد الذي يحيط بي من كل جانب أجد أن عدم تمكنك من مشاركتي إياه على نحو أوسع مدى وأعم شمولاً إنما يشكل مصدر تعاسة لي لاحدود لها .

سرني إعجابك بقصة الأولن(١١) وسأقص عليك الآن قصة أخرى . قام أحد ضباط قواتنا العاملة في هذا الجزء من العالم بتقديم طلب للتمتع بإجازة . وقد بين من خلال طلبه هذا السبب الذي دفعه إلى تقديم طلبه وهو أنه كان قضى في بلاد وادي الرافدين ما يربو على ثلاثة عشر شهراً عانى من خلالها الكثير من المصاعب التي تواترت عليه بسبب ظروف الحرب والمناخ ، إلا أن هذه المصاعب لم تكن لتبرر منحه تقريراً طبياً يؤيد تعرضه للأذى ويوصي بضرورة منحه إجازة مرضية تمكنه من الابتعاد عن جو الأحداث القائمة بوجه عام . إنه كان على قناعة بأن من شأن تمتعه بإجازة وبابتعاده عن الجو العام سيسهمان في جلب بعض الراحة إلى نفسه ، كما أبدى رغبته في التوجه إلى بومباي لرؤية زوجته التي كانت

---

(١٠) كمبريون - نسبة إلى مقاطعة كمبرية Cumbria التي تقع في شمال غرب إنجلترا وتضم كل من كمبرلاند و ويستمور لاند اللتين كانتا سابقاً مقاطعتين مستقلتين - المترجم

(١١) الأولن - وردت تفاصيل هذه القصة في بداية هذا الفصل . وحول معنى الأولن يرجى الرجوع إلى الهامش رقم ٢ - المترجم

على وشك وضع مولود جديد . وبعد أن وصل طلب هذا الضابط إلى وكيل القائد العام عن طريق سلسلة المراجع علق الأخير هذا على الطلب قائلاً :«ثمة خطأ في الأمر على ما أعتقد!» ثم أعاد الطلب من حيث أتى .

«استلمت من أمي رسالة وردت متأخرة عن وقت استلامها المعتاد ، وقد أخبرتني فيها بأني فقدت القسم الأكبر من ملابسي نتيجة غرق السفينة التي شحنت على ظهرها وأنها (أي أمي) قد أوعزت إلى وصيفتها مول Moll بأن تعد قائمة بقطع الملابس التي كان يفترض بي استلامها . بيد أن قائمة كهذه لن تفلح في إكسائي ، وآمل أن تتمكن عائلتي بما من الله عليها من ذكاء وفطنة أن تشتري لي قطعاً مماثلة لتلك التي فقدت . وقد استلمت ببريد ذات اليوم فستاناً من الموسلين الأبيض ومبذلاً (روب دي شامبر) من الحرير ، وقد سررت بهما سروراً عظيماً .»

في مطلع شهر تموز كانت جيرتروود قد انتهت من وضع جدول مفصل حول العشائر المتواجدة في شمال بغداد والشمال الشرقي منها ، وقد أعدت الجدول هذا وفق التسلسل الأبجدي أجرت طباعته بإتقان وبعدة نسخ ، وكانت في الحين ذاته منهمكة بما أسمته الفوضى الكبيرة المتعلقة بعشائر الفرات . وفي السادس من الشهر نفسه كتبت قائلة : «إن الجنرال كب Cobb ممتن جداً ، كما أني سعيدة لتمكني من مساعدة دائرة الاستخبارات بهذه الطريقة .

أبرمنا معاهدة مع صديقي الحميم فهد بك بن هذال شيخ قبيلة عنزة ، وما أن يتم الحصول على طاقم أسنان صناعية حتى ينصرف إلى تنفيذ المهمة التي أخذها على عاتقه وهي حراسة الصحراء الغربية بالنيابة عنا . يالها من نقلة رائعة ، إنها تمثل في الواقع أحد أهم ما حققناه من إنجازات وهو ما جعل الأتراك والألمان يحرقون الارم غيظاً ، ففي الوقت الذي كان الشيخ فهد بك منهمكاً معنا في استكمال التفاصيل المتعلقة بالمعاهدة آنفة الذكر ، عمد الأتراك والألمان إلى إرسال مجموعتين من الضباط تحمل كل منهما أكياس مليئة بالذهب استهدفوا من خلالها شراء ذمم رجاله أثناء غيابه . ولكن الحظ كان حليفنا عندما تمكنا من رد كيدهم إلى نحرهم ، لقد أفلح فهد بك في إيقاف قافلة سورية في الأسبوع الماضي من خلال قيامه بالإيعاز إلى ابنه باتخاذ ما يلزم بشأن احتجازها ، ومنع حركتها . وهكذا فقد أمسينا في وضع يمكننا من بسط نفوذنا على امتداد الخط الحدودي .»

عملت جيتروود بيل في جو حار ، تجاوزت فيه الحرارة ١٢٠ درجة فهرنهيتية ، وعاصف كانت الريح فيه « تذوي المرء وتحرق بؤبؤ العين » بتواصل راح يمتد بلا هوادة ليلاً و نهاراً .

والى جانب إعداد الدليل الخاص بالعشائر ، انهمكت جيرتروود في ذات الحين بإعداد سلسلة من المقالات تتعلق بتركيا . وبهذا الخصوص فإنها كتبت في الثالث عشر من تموز تقول : « قضيت أمسياتي الأخيرة في إعداد ورقتي السادسة حول تركيا . بقيت لدي الورقة الأخيرة التي يتعين علي كتابتها .»

«بعد انقطاع طويل ، بدأت دورية «الحس الفطري» Common Sense تصلنا مرة أخرى . وفي أحد أعدادها هناك مقال بقلم نويل بوكستون Noel Buxton يذكر فيه أن الرأي العام الأمريكي يميل إلى الاعتقاد بأننا قد رفضنا بشكل متعمد الاستفادة من فرصة سنحت للوصول إلى عقد صلح مع ألمانيا . إنني على بينة تامة من آراء السيد بوكستون وبذلك أجد نفسي مؤهلة لبيان ما لها من قيمة . لقد سبق له إعطاء حكم خاطئ يتعلق بتركيا قبل إعلان المشروطية ، كما أنه أساء التقدير ، وعلى نحو ضار يفتقر إلى الحد الأدنى من البصيرة ، فيما يتعلق بجمعية الاتحاد والترقي ، عبر انصرافه إلى الحكم عليها بشكل سطحي أجبره في النهاية إلى الاعتراف بخطئه وتسرعه في الحكم بعدما ثبت بشكل قاطع أن الاتحاديين كانوا أشد جوراً و أكثر تعسفاً من السلطان . وبذلك لا أثق بصحة أحكامه وتقييماته ، وقد حاولت جادة ، على مدى السنوات الماضية ، أن أبين وأثبت بالبرهان أن آراءه لاينبغي أن تشكل مرجعاً يعتد به أو يؤخذ على محمل الجد بكل ما يتعلق بأوجه السياسة التركية . وإنني على ثقة تامة بان الأمر كذلك فيما يتعلق بأوجه السياسة الأمريكية ، وعليه فإن ما طرحه من وجهة نظر حول الرأي العام الأمريكي بهذا الخصوص لايعتبر خطأً فحسب بل أمراً لا يخلو من خطورة بالغة إذا ما تقرر اخذه بعين الاعتبار . وعندما قرأت عنوان مقالته وقد كتبت بالبنط العريض و في دورية تقوم أنت (الكلام موجه إلى أبيها) بتمويل جزء كبير من نشاطها ، شعرت وكأنني طعنت بخنجر في ظهري . . . . . ومع ذلك أود التأكيد يا أبتي الحبيب على بقائي دائماً وأبداً ابنتك المخلصة برغم كل ما تنشره (دورية) «الحس الفطري» من أدبيات وما تنطوي عليه من آراء .»

وراحت شدة حرارة الجو تتواصل وتأبى بإصرار الانخفاض إلى أقل من ١١٦ درجة فهرنهيتية أثناء النهار «متسببة بإصابات لا تقل عدداً و خطورة عن تلك التي تتسببها الحرب» . إلا أنها بدأت تنخفض قليلاً في نهاية شهر تموز . وفي السابع والعشرين من الشهر نفسه كتبت جيرتروود إلى أبيها تخبره عن توقف الإجراءات و الترتيبات في المستشفى :

«كان من شأن عدم تهيئة ما يكفي من الترتيبات المتعلقة بالإقامة أن يؤدي إلى كل ما يترتب على ذلك من مشاكل . فضلاً عن ذلك كان هناك نقص في كميات الثلج التي

يتعين توافرها بالإضافة إلى نقص في عدد العاملين . وفي وسط ذلك الحر القاتل صدرت الأوامر إلى القطعات المعنية بمهاجمة موقع تركي صغير يقع على نهر الفرات ، كانت النتيجة وبالاً بكل ما تنطوي عليه العبارة من معنى ؛ كان عدد الإصابات التي سببها العدو لمقاتلينا بحدود ستين حالة بينما بلغت تلك التي تسببتها الشمس المحرقة أربعمائة وخمسين حالة ! ثم عادت قواتنا من حيث انطلقت من غير أن تحرز أي تقدم . بيد أنك قد تتصور نتيجة الاطلاع على البلاغات الرسمية أننا قد أحرزنا نصراً مبيناً . لطالما كرهت الكذب ، وبعد مثل هذه الممارسات راح كرهي يتنامى بشكل مطرد .

استلمت رسالة طويلة من بياتريس Beatrice (اللادي براونرج Lady Brownrigg) فأرجو منك إبلاغها جزيل شكري . لا أستطيع الإجابة عليها لعجزي عن كتابة الرسائل التي لا تحتوي سوى الثرثرة واللمز و التكلم في سير الناس . إنني أهوى الكتابة إليك ، كما أهوى مراسلة الأشخاص المهتمين بتفاصيل عملي ، وبذلك فأنتم الأناس الوحيدون الذين يمكنني تبادل الرسائل معهم . أجدني أزداد وعياً بما أعاني من عزلة نتيجة بقائي خلف جدار تجربتي الماضية المريرة التي يخفق الزمن في تجاوزها .

إن الأخبار المروعة المتعلقة بما تشهده الجبهة الروسية من أحداث (هزائم نكراء ، وتراجع ، وتمرد) لا تترك أي مجال للتفاؤل وتجعل من احتمال إحراز أي تقدم أمراً مستحيلاً . لم يبق أمام كرنسكي Kerensky[١٢] إلا زمن قصير يمكن له من خلاله أن يثبت ما إذا كان باستطاعته أن يلم شمل الوطن والوقوف في وجه الخطر الألماني وبغية منع قوات القيصر من فرض شروط وقف إطلاق النار على الروس في قلب عاصمتهم بيتروغراد Ptrograd.

كلما ازداد الفرد منا معرفة بالشرق تعين عليه بشكل متزايد أن يتعلم كيف يغفر ويتسامح وذلك انطلاقاً من المبدأ القائل إن زيادة الإدراك بواقع الأمور تؤدي بالنتيجة إلى زيادة القدرة على التسامح والغفران . إن نصف أصدقائي وأصدقاء بريطانيا هنا كانوا يجاهرون بالعداء ضدنا ويكتبون المقالات التي تندد بنا عندما كانوا في قبضة الأتراك . إن ما يكتبونه الآن من كلام مناهض للأتراك ومعاد لحكمهم وممارساتهم التعسفية ، وإن كان لا يأتي

(١٢) الكسندر كيرنسكي (١٨٨١-١٩٧٠) : السياسي الوطني الروسي والقائد الثوري الذي ترأس الحكومة الروسية المؤقتة التي استمرت في الحكم من تموز إلى تشرين الاول من عام ١٩١٧ بعد أن أجبرت القيصر نيقولا الثاني عن التنازل عن العرش لابنه . وقد أطيح بكيرنسكي وحكومته من قبل الشيوعيين . وقد لجأ كيرنسكي إلى أمريكا ومات هناك - المترجم .

مدفوعاً من قبلنا ، فإنه لا يريحنا أو يجلب السرور إلى قلوبنا . الكلمات في الشرق هي مجرد كلمات لا أكثر ، كأنها لا تعني شيئاً بالمرة . إنك في هذا الجزء من العالم تبطن أمراً معينا ثم تقول ما بدا لك ، فمن ذا الذي يمكنه أن يعرف ما في سرك ؟ من يستطيع معرفة ما تبطن ؟ وهذا جانب مألوف في أطر الممارسات الدينية والتعامل الاجتماعي ، كما هو كذلك في الأمور الصغيرة والكبيرة على حد سواء . إنهم يقولون شيئاً في يوم معين وما أن يصيح الديك فجر اليوم التالي حتى تجدهم يقولون شيئاً مغايراً تماماً . إنه لأمر غريب جداً ، بيد أنه لا يجب أن يغيب عن بالك أمر تقبلك هذه الممارسة الشائعة في الشرق لسببين أساسيين أولهما قدرتك على إدراك هذا الجانب وتفهمه كما ينبغي ، وثانيهما التغاضي عنه والتسامح معه . إن العديد من الشرقيين يفضلون الموت على نبذ إيمانهم العميق بالكلمات والكفر بها وهو جانب نتمنى مخلصين أن يتوفر لنا ما يكفي من الشجاعة للقيام به .

لقد انتهيت لتوي من كتابة مقالي الأخير عن تركيا وهو حلقة من سلسلة مقالات كتبتها لوزارة الحرب . فإذا ما قدر لها أن تكون مجدية ، وهي كذلك على ما أظن ، وإذا ما ثبت على أقل تقدير إنها مجدية فيما يتعلق بما لديهم من مقاصد وأهداف ، فإن أمر استخدامها يصبح منوطاً بوزارة الحرب . أما بقدر تعلق الأمر بي شخصياً ، فقد قمت بما يتعين علي إجراؤه بهذا الصدد .»

شعرت جيرتروود بسعادة عارمة إثر وصول فستانين آخرين من الموصلين ليرتفع عدد ما بات بحوزتها من هذه الأثواب إلى سبعة . وعلى الرغم من قدرتها على «النجاة» من ذلك الحر الخانق ، فإنها سرعان ما أصيبت برشح عنيف صبيحة أول يوم من الأيام التي لفحتها فيها نسمة باردة ، وقد قدر لهذا الرشح أن يقعدها عن العمل حيث اضطرت إلى ملازمة الدار والتمتع بإجازة مرضية لبضعة أيام .

وفي الثالث من آب كتبت إلى أبيها قائلة :« عند استلامك هذه الرسالة تكون أشد فترات الحر قسوة قد ولت إلى غير عودة ، وبإمكانك أن تستنتج من ذلك أن نشاطي سيشهد تنامياً متواصلاً لن يتوقف إلا في حالة وفاتي على نحو لا يدعو إلى التفاخر والمباهاة !»

وما هي إلا فترة أسبوع حتى عادت تزاول نشاطها المعهود . وكان من شأن مرضها العابر هذا وشفائها منه أن يعيد إلى ذاكرتها قصة مفادها :«أن ثمة رحالة بريطاني كان زار في مناسبة معينة قبل اندلاع الحرب مستشفى تركياً عسكرياً في الموصل . وقد وجد أن السجل الرسمي لهذه المستشفى قد بوبت محتوياته وفق أربعة محاور هي كالآتي - الدخول ، الخروج بعد الشفاء ، الوفيات ، الهروب من المستشفى ! وقد شملت الصفحة الأخيرة من هذا

السجل المعلومات التالية– عدد الذين أدخلوا إلى المستشفى : ستة ، عدد الذين تم إخراجهم نتيجة تماثلهم للشفاء : لا يوجد ، عدد الموتى : اثنان ، عدد الهاربين : أربعة !»

في الأيام الأخيرة من شهر آب قضت جيرتروود فترة قصيرة من الزمن في المستشفى . وعلى الرغم من خروجها منها في الأول من شهر أيلول إلا أنها سرعان ما أُدخلت إليها مرة أخرى نتيجة إصابتها بحمى ذبابة الرمل sand - fly fever . وفي الخامس من أيلول كتبت إلى أبيها قائلة : «من بين ما يواسيني ويطيب خاطري ، برغم قلة عدده ، هذا الحجر الزمردي الرائع المثبت على المشبك (البروش) الذي يشد ثوب نومي . وأجدني كلما أطلت النظر فيه أردد في نفسي دعاءً لأبي الحبيب أقول ما أسعدني بوالد رائع مثلك . أشعر الآن بأنني قد أصبحت حقل تجارب لما يكفي من الأمراض والعلل التي تكثر في المناطق الاستوائية ، وبذلك فقد عقدت النية على البدء بصفحة جديدة .

من المحتمل جداً ، على ما أظن ، أن الجمعية الآسيوية الأمريكية American Asiatic Association لن تكون أكثر من سحابة صيف لا خير يرتجى منها ، وبذلك لا أود التعامل معها بأي شكل من الأشكال . أرجو إعلام الوالدة المحترمة بأنها كانت على حق حين قامت بإرسال صورة شمسية إلى الصحفيين الملاعين ، كما بإمكانك أن تخبر دور النشر كافة بأنني لن أعمد إلى تأليف كتاب يتناول تفاصيل تجربتي هنا .»

* * *

في الثالث عشر من أيلول كتبت جيرتروود إلى صديقها العزيز السير فالنتاين شيرول قائلة :« كم يسعدني أن أفكر بأنك تمضي في طريق عودتك إلى الوطن أخيراً . وعندما تصل إلى إنجلترا وتستقر هناك سأتطلع بشوق إلى استلام رسائل مثيرة للاهتمام منك . لم أسمع من اللورد هاردنج منذ فترة طويلة جداً ، أما أفراد عائلتي فلا يكتبون إلا عن شؤونهم الخاصة ، بيد أنني لا أنفك عن حب تسقط أخبارهم بطبيعة الحال . ليباركهم الرب . وهكذا أجدني منساقة إلى محاولة الحصول على أكثر ما أستطيع من أخبار من وكالة رويتر Reuter . وباستثناء ما أستلم منك شخصياً من رسائل ، فإن الرسائل التي تثير الاهتمام بحق هي تلك التي أستلمها من المكتب العربي The Arab Bureau في مصر الذي يعمد منتسبوه إلى موافاتي بأخبار الحجاز وسوريا وهي جوانب تمسنا جميعاً ، بل هي بالنتيجة جزء لا يتجزأ من اللعبة ذاتها .

أن عملنا السياسي لا يخلو من جوانب صعبة ، وهي جوانب سيطلعك عليها اللورد هاردنج إذ لا يمكنني أن أكتب لك بشأنها . إن صديقي فهد بك ، ليباركه الرب ، يقوم بنشاط رائع ومفيد ، لقد تمكن من منع النشاط التجاري مع العدو في المناطق الصحراوية التي تقع تحت سيطرته . ومن جانب آخر تم لنا مؤخراً تجاوز مرحلة صعبة في كربلاء بعد أن نجحنا في تعيين أحد رجالنا بوظيفة مساعد ضابط سياسي الأمر الذي نأمل أن يسهم في منع النشاط التجاري مع العدو في تلك المنطقة من القطر . إن العناصر السكانية المتواجدة على ضفتي نهر دجلة تعاني على ما يبدو من نقص في المواد التموينية . لقد عمد ثلاثة من شيوخ المنطقة إلى النزوح من مواقع سكناهم واللجوء إلى المناطق الي تقع تحت سيطرتنا - جاءوا بدفع من القحط وما ترتب عليه من جوع . إنه أمر يعود علينا بالنفع لا سيما إذا ما نجحنا في تلبية ما يطلبون ، وهو القيام بزراعة الحنطة والشعير في فصل الشتاء . إن سوريا في وضع سيئ جداً . تردنا أخبار عن مجاميع من قبيلة عنزة تنوي القدوم إلى منطقتنا التي تعتبر موطنهم في الواقع وذلك إثر إخفاق دمشق في سد احتياجاتهم .

لم يخطر ببالي أن أخبرك بأنني قد أصبحت مساعد ضابط سياسي وهو العنوان (المسمى) الوظيفي الذي منحني إياه السير برسي كوكس إثر نقلي للعمل في المكتب السياسي Political Office إذ أن تبوّؤ منصب رسمي محدد كان من بين الأمور الملائمة التي تسهم في تسهيل عمليتي التعامل والأداء الوظيفيين ، ولكنني أشعر أن منحي اللقب هذا كان بدافع إحكام سيطرة أكبر على نشاطي الوظيفي لا سيما ما يترتب على هذا النشاط من مهام خاصة ، ومع ذلك فإنني ممتنة جداً لهذا الإجراء الذي إن دل على شيء فإنما يدل على حكمة وتبصر وحسن تصرف وظيفي من لدن السير برسي ، فالعمل غير المصنف وغير القائم على وضع رسمي محدد هو نشاط غير مجد بل ويكاد يكون إنجازه مستحيلاً فضلاً عن ذلك فإنني في الواقع من بين منتسبي الحملة العسكرية البريطانية وبهذه الصفة يعتبر إسكاني وإطعامي ورعايتي أثناء المرض من بين ما أتمتع به من حقوق . وهل تدرك كذلك بأنني أتقاضى راتباً مجرياً - ٣٠٠ روبية[١٣] في الشهر - وهو مبلغ لم أكن أتوقع تقاضيه أبداً .

عانيت مؤخراً من توعك صحتي ، بيد أنني تماثلت للشفاء وها قد عادت لي عافيتي كما كانت عليه في السابق ، ويمكن اعتبار هذا التوعك أمراً بسيطاً إذا ما أدركنا قسوة الطقس

(١٣) روبية - وحدة نقد هندية . وكانت في تلك الفترة تساوي بحدود ٧٥ فلساً - المترجم

ومن خلال رسالة وجهتها جيرتروود إلى أبيها في الخامس عشر من شهر أيلول ، قالت :« قد يهمك أن تعلم بأنني من بين دافعي الضرائب في الأقاليم المحتلة ، فقد قمت مؤخراً بتسديد مبلغ عشر روبيات إلى دائرة المالية وذلك لقاء ما يوجد في بستاني من أشجار النخيل . وإزاء هذا الإجراء أشعر بأنني أتمتع بمكانة متميزة .»

وفي الحادي والعشرين من أيلول كتبت تقول :«لابد أن أخبرك بأن عملية صرف العملة تشكل جانباً لا يخلو من مصاعب . أردت قبل يومين صرف شيك بمبلغ خمسين باوناً إلا أنني سرعان ما اكتشفت بأن المصرف (البنك) لم يكن على استعداد لإعطائي أكثر من ثلاثة وأربعين باوناً . وقد اقترح علي رئيسي الكريم السير برسي كوكس الذي كان يملك حساباً مصرفياً في كل من لندن والهند أن أعمد إلى تحرير صك لصالحه بمقدار خمسين باوناً يقوم بإيداعه في حسابه في لندن ليعطيني مقابل ذلك مبلغاً قدره ٧٥٠ روبية بدلاً من مبلغ ٦٥٠ روبية الذي كان عرضه المصرف علي . ترى هل يزج السير برسي نفسه في صفقة خاسرة ؟ لقد دفعت له مبلغ عشرة ريالات كفائدة . هل بإمكانك أن توصي بإجراء أفضل ؟ إن ممارسة التبادل بالعمل جانب يكتنفه الغموض بالنسبة لي ، أما أنت فقد تجده أوضح من نور النهار !»

وفي الخامس والعشرين من أيلول كتبت إلى زوجة أبيها تقول :« كنا على وشك الانتهاء من رزم بريدنا المتجه إلى الخارج عندما وصلتني رسالتك ، وفي اليوم التالي وصلتني مجموعة من المصوغات ضمت مشابك وحلى متدلية - إنها قطع جميلة ورائعة - لا أعرف كيف تمكنتما (أنت وأبي) من الانغماس في مثل هذا الترف ، والانصراف إلى تدليلي بهذا

---

(١٤) حبة بغداد - خراج صغير تسببه بعوضة . وتترك هذه البثرة بعد الشفاء أثراً في ذات المنطقة التي يتم فيها لسع جسم الفرد وهي تعرف في بغداد شعبياً باسم«الاخت» وقد تم القضاء على البعوضة تماماً في بداية الخمسينيات - المترجم

القدر؟ لم يسبق لي امتلاك هذا الكم الكبير من الحلي والمشابك . في كل الأحوال لا يسعني سوى التوجه إلى المولى القدير بالدعاء لكما . يالها من مجموعة رائعة ستحظى من غير أدنى شك بإعجاب أعضاء الحملة البريطانية في هذا القطر .»

* * *

بفعل خوفها من احتمال أن تكون رسالتها المعنونة إلى السير فالنتاين شيرول قد ضاعت ، كتبت جيرتروود له في السادس والعشرين من أيلول قائلة :« كنت على مدى الأيام القلائل الماضية أعاني من سقم وضعف . سأتوجه غداً إلى سامراء لبضعة أيام وآمل أن يحقق الجو الجديد ما أصبو إليه من تحول . إنه لأمر مؤسف أن لا يكون الإنسان على أتم صحة وعافية عندما يكون الطقس رائعاً جداً . ولكن اقتصار الغذاء على تناول البسكويت والشوربة لا يجعل المرء منا هرقلاً جباراً . ليباركك الرب ، يا عزيزي دمنول ، على ما ذكرت فيما يتعلق بعلاقة الصداقة والمودة القديمة التي تربط أحدنا بالآخر ، ولابد لي من الاعتراف بأن ما جنيت منها من فائدة كان أكثر بكثير مما عاد عليك منها ، ولابد لك أن تذكر دائماً أن هذه الصداقة قد باتت من أهم جوانب حياتي وهي حالة لا يسعني أبداً الاستغناء عنها . إن قلة قليلة من بين علاقات المعرفة – التي دأب المرء منا مؤخراً على تسميتها علاقات صداقة – هي فقط التي تثبت أصالتها في حال جاءت مستوفية لما يفرضه الغياب الطويل من معايير ، وإنني أقول ذلك من منطلق عدم افتقادي لها وبذلك لا أكاد أدرك كيف يمكن للمرء بوجه عام الانصراف إلى إعادة تواصلها . إنني أعمد أحياناً إلى توجيه الملامة لنفسي مع إدراكي التام بأن هذا هو حقيقة شعوري . إن الأشياء القليلة التي تبقى هي التي تكتسب أهمية وقيمة على نحو مطرد .

لقد عاد الجنرال غلمان General Gillman لتوه من سالونيكا Salonica ، وهو رجل ذو فكر مبدع ومنظم . لقد أنيطت به قيادة إحدى الفرق العسكرية . أما الشخص الثاني الذي حضر بيننا فهو كيرمت روزفيلت Kermit Roosevelt الذي جلب لي رسالة تعريف بشخصه . لقد وقع الأخير هذا من نفسي موقعاً حسناً لأنني استلطفته منذ أولى لحظات لقائنا ، وقد تعمق هذا الإحساس بسبب اهتمامي بما كان يرويه لنا من أحداث وروايات . إن القول بأنه لا يحب الرئيس ويدرو ويلسون Woodrow Wilson يعطي صورة غير واقعية عنه .»

* * *

منذ شهر آب بات دخول جيرتروود إلى المستشفى وخروجهامنها يتكرر ، ويعود ذلك في الواقع إلى أنها كانت تخرج وتواصل عملها قبل تماثلها إلى الشفاء كما ينبغي . وفي الثامن عشر من شهر تشرين الأول كتبت إلى أهلها من إحدى دور النقاهة الكائنة في ضواحي بغداد حيث اقتنعت أخيراً بضرورة تواصل بقائها هناك وخضوعها لإرشادات العقيد الطبيب ولكوكس Colonel Wilcox ، إلى حين تماثلها التام للشفاء . وكانت تتوقع أن تأجيل زيارتها لسامراء سيكون له دور في تماثلها للشفاء . وقد عكست ردود أفعالها إزاء ما انهال عليها من عبارات التهنئة إثر منحها وسام CBE «حامي حمى الإمبراطورية البريطانية» Commander of the British Empire إحدى أبرز سماتها المميزة . فإثر تفاجئها بهذه المكرمة التي لم يكن لها علم مسبق بها قالت بتهكم : «ياله من أمر يثير السخرية ! إن نظرة خاطفة على الأسماء التي ضمتها قائمة الذين تم تكريمهم لكفيلة بأن توحي بوضوح تام غياب عنصر الجدارة والاستحقاق .

لقد رحل كل من أصدقائي تقريباً ، أمراء الألوية والعمداء والعقداء على حد سواء - انطلقوا يخوضون المعارك ضد العدو . ومع ذلك فقد حضرت خلال هذا الأسبوع عدداً من دعوات العشاء الممتعة بحضور زملاء من الدائرة المالية .

أصبح لدينا مسؤول قضائي جديد : إنه السيد بونهام كارتر Bonham Carter (الذي أصبح فيما بعد السير بونهام كارتر) . إنه رجل في غاية الأدب والكياسة وميال إلى التمسك بالشكليات وآداب السلوك إلى الحد الذي يضفي على تعامله مسحة جفاف . ولقد اتضح لي من خلال ما تمكنت من مشاهدته أنه مدرك بما ينبغي عليه عمله وعالم بأفضل السبل الكفيلة بتحقيق ذلك الأمر الذي يثلج صدري إلى حد بعيد ويجعل من هذا الشخص إنساناً يجد لدي كل ترحاب وتقدير . كما يسرني أن أرحب بزملاء جاءونا من مصر ، أو بالأحرى من السودان ، أمثال النقيب فرانك بلفور Frank Balfour والعقيد نادلر Colonel Nadler ، الذين تمكنوا من إضفاء أجواء جديدة ، فضلاً عما جلبوا معهم من أفكار هي الأخرى جديدة الأمر الذي لا يخفق في أن يعود بالفائدة والمنفعة علينا .

ها قد وصلتني الثياب ، وهي غاية الطلب ، بيد أنني لازلت أترقب وصول فستاني الحريري الأخضر .»

* * *

خلال هذه الفترة أوكلت إلى جيرتروود مهمة إضافية مثيرة للاهتمام إلى حد كبير وهي رئاسة تحرير جريدة العرب التي تصدر باللغة العربية . وقد تبلورت لدى جيرتروود خطط

عديدة استهدفت تنشيطها . وكان مساعد رئيس التحرير قسيس لبناني(١٥) تقول جيرتروود عنه «إنه رجل يتميز بخفة الدم وفصاحة اللسان ، وإنسان أجدني منجذبة إليه مع قناعتي التامة بما هو عليه من مكر ودهاء على الرغم من ثوبه الكهنوتي .»

وفي التاسع من شهر تشرين الثاني كتبت إلى السير فالنتاين شيرول قائلة :«وأخيراً بدأت أشعر بتماثلي للشفاء واستعادة اهتمامي بما يشهده العالم من أحداث لا سيما في هذه البقعة منه والتي تعتبر في هذه اللحظة واحدة من المناطق القليلة في العالم التي تبعث على الراحة والرضا . وفيما يتعلق بوضعنا هنا ، وكذلك الوضع في سوريا ، فإن الأتراك على ما يبدو لا يحققون أي نجاح أو تقدم . لا نملك أي تفاصيل تتعلق بما يدور في غزة ، بيد أنهم (أي الأتراك) قد أبدوا مقاومة عنيفة في تكريت ، وقاتلوا قتالاً شرساً ، إلا أننا كنا أشد منهم باساً على ما ثبت . إنني أدرك جيداً أن أحد قواد الفرق في فيلقنا المقاتل يعتبر ضابطاً عديم المنفعة والجدوى وكان من شأن أدائه الميداني أن يعزز هذا الرأي فيه ، وسيكون إجراءً مجدياً إذا ما تم اتخاذ ما يلزم لإبعاده عن جبهات القتال . إن ما يتسببه القحط في المواد الغذائية من ضغط يعمل في الواقع على دفع المجاميع البدوية من الاتجاهات كافة إلى اللجوء إلينا وهو جانب من شأنه أن يأتي بنتائج مرضية ، بيد أن ما هو متوفر لدينا من قوت لا يكاد يكفينا . ومن جانب آخر فإننا جادون في اتخاذ ما يلزم لتأمين الوصول إلى كل المناطق عن طريق شق

(١٥) هو الأب انستاس ماري الكرملي(١٨٦٦ - ١٩٤٧) الراهب اللبناني الكرملي . كان لغوياً وأديباً معروفاً في الأوساط البغدادية ومن مؤلفاته المعروفة تاريخ بغداد . عمل مساعداً لسنت جون فلبي رئيس تحرير جريدة العرب ثم مساعداً لخليفته الآنسة جيرترود بيل . وكان يأتي إلى جيرتروود أسبوعياً ليقرأ عليها المقالات الرئيسة من أجل الحصول على موافقتها بوصفها رقيباً فضلاً عن كونها رئيس التحرير . وكان في الواقع لولب الجريدة والكاتب الأول فيها . وكان يدبج المقالات الرنانة في تمجيد الثورة العربية الكبرى بزعامة المنقذ الأعظم جلالة الملك الحسين بن علي وبطولة أشباله المقادم . وقد اتسمت لغة مقالاته بنزعتها العربية الحادة . وقد شارك في تحرير هذه الجريدة نفر من أدباء العراق وشعرائه المعروفين أمثال جميل صدقي الزهاوي ، وكاظم الدجيلي (الذي أصبح فيما بعد مدرس اللغة العربية الخاص لولي عهد العراق الأمير غازي بن فيصل) وعبد الحسين الأزري ، ومحمد مهدي البصير ، وشكري الفضلي وعطا أمين (وكان الأخير صديقاً حميماً لوالد كاتب سطور هذا الهامش ومترجم هذا العمل . وقد عمل عطا أمين في السلك الدبلوماسي العراقي وأصبح سفيراً . كما أنه تشرف لاحقاً بالتزوج من صاحبة السمو الملكي الأميرة سارة بنت الحسين أخت جلالة المغفور له الملك فيصل الأول ملك العراق) - المترجم

ما يلزم من القنوات . لا يمكننا القيام بأكثر من ذلك في الوقت الراهن . ندعو إلى المولى القدير أن يمن علينا بحاصل زراعي وافر في العام القادم .

«وباستثناء مشكلة الغذاء فإن الأمور المتعلقة بالعشائر جيدة . لقد أخذت انتصاراتنا الأخيرة تأتي بأكلها ، فهناك بوادر واضحة تشير إلى أن العشائر التي اتخذت مواقف معادية ضدنا تشعر الآن بالندم لتمردها . لقد استقرت الأوضاع في ولاية البصرة وساد السلام ربوعها - لا أظن أن منطقة البصرة قد شهدت حالة التزام بالقانون واحترامه منذ عهد الملك الفارسي كسرى انشروان . إن ما يعيق مسيرتنا في البصرة وجود مشاكل زراعية بعيدة الأثر وبالغة التعقيد ، وهي جوانب لا يمكن تسويتها إلا بعد تمحيص دقيق ومسح شامل للأراضي وهما إجراءان لا يمكن الاضطلاع بهما ولا بما يترتب عليهما من مسؤوليات أثناء الحرب ، إذ أن الحرب تحدد عدد الأفراد الذين يمكن الاستغناء عنهم لغرض تفرغهم لمثل هذا النشاط ناهيك عن طبيعة وضعنا النهائي في هذا البلد وهو جانب لم يتحدد بصورة نهائية وواضحة الأمر الذي لا يتيح لنا الانصراف إلى إجراء تسوية زراعية .

يدخل عملي مراحل جديدة ومثيرة للاهتمام . لقد أنجزت تقريرين لصالح المكتب العربي حول قضايا هامة أهمل النظر في أخذها بعين الاعتبار أثناء الفترة التي قضيتها طريحة الفراش بسبب معاناتي من الحمى . فضلاً عن ذلك ، فقد حصلت على موافقة السير برسي كوكس فيما يتعلق بإعداد مسودة تقويم نصف شهري لحكومة صاحب الجلالة ، وهو جانب كان يفترض القيام به هو الآخر قبل فترة ، إلا أن عدم وجود من بإمكانه الاضطلاع بهذه المهمة قد حال دون ذلك» .

* * *

١٩١٧

في الخامس عشر من تشرين الثاني كتبت جيرترود قائلة : «أبتاه العزيز - الأسبوع هذا حافل بالنشاط الاجتماعي . تناولت طعام الغذاء على مائدة القائد العام يوم الثلاثاء وكانت الدعوة على شرف صحفية أمريكية تدعى السيدة ايغان Mrs Egan [١٦] الله أعلم ما الذي

(١٦) إنها السيدة ألينور ايغان الصحافية الأمريكية التي حصلت برقياً على إذن خاص من الجنرال مود لزيارة بغداد فكانت ثاني امرأة غربية بعد المس بيل تدخل إلى بغداد منذ اندلاع الحرب . وقد نزلت بضيافة القائد العام الجنرال مود وفي داره الكائنة على النهر . ولم يرق الأمر للآنسة بيل ، وقد قدر لهذه الصحفية حضور الحفلة التي أقامتها المدرسة الإسرائيلية إذ أنها حضرت بصحبة الجنرال مود . وقد تركت لنا وصفاً مسهباً لهذه الحفلة وحال الجالية اليهودية في بغداد في كتابها «الحرب في مهد العالم» - المترجم

جاء بها إلى هذا الجزء من العالم ، بيد أنها تعرف على ما يبدو مداخل الأمور ومخارجها في معظم أنحاء العالم . كان الطقس بارداً للغاية بسبب تدفق الريح الباردة من كل صوب نتيجة فتح الأبواب والشبابيك وجلوسنا فوق أرضية مرصوفة بالحجر مما زاد من شدة الشعور بالبرد . لم أتأثر كثيراً بالهواء البارد لأنني كنت قد احتطت للأمر فارتديت من الملابس ما يقيني شر هذا البرد .

وفي الليلة التالية حضر الجميع حفلاً للفعاليات الاستعراضية التي أقامتها المدرسة الإسرائيلية ، مدرسة الأليانس Alliance Israelite School . بدأ الحفل في الثامنة مساء ، وكان النشاط الاستعراضي لا يزال قائماً عندما تركنا موقع الحفل في الحادية عشرة والنصف ولعله لا يزال متواصلا ! وكانت عروض الأطفال الأكثر جمالاً ومتعة من بين كل ما تم تقديمه من فقرات . إنني عازمة على الانصراف إلى العناية بالجالية اليهودية والوقوف على الكثير من التفاصيل المتعلقة بها وبنشاطها العام . إني لم ألتق من اليهود حتى الآن إلا الذوات الكبار منهم مثل كبير الحاخامين . مما لا شك فيه أن هذه الجالية سيكون لها في يوم ما شأن كبيراً هنا»

بعد ثلاثة أيام من تاريخ هذه الرسالة الأخيرة توفي القائد العام[١٧] بعد إصابته بمرض الكوليرا نتيجة حضوره الحفلة آنفة الذكر التي أقامتها المدرسة الإسرائيلية . وفي الثاني

---

(١٧) اللواء السير ستانلي مود Major - General Sir Stanley Moude القائد البريطاني الذي فتح بغداد في ١٩١٧/٣/١١ . كان قد شغل منصب القائد العام للحملة البريطانية على العراق بعد نكسة الكوت . ولقد اشتهر هذا القائد بشكل خاص بالبيان الذي أذيع على الناس باسمه والذي وردت فيه العبارة المشهورة «جئناكم محررين لا فاتحين» . كان البيان من صياغة السير مارك سايكس . وقد أصدره الجنرال مود باسمه مرغماً لأنه كان يرى أن هذه الوثيقة ستثير في العراقيين آمالهم وأطماعهم . كان يرى ضرورة في أن تبقى سلطة الجيش سائدة . ويستدل من هذا البيان أن حكومة لندن كانت قد بدأت تتجه في سياستها العراقية نحو فكر مدرسة القاهرة وتبتعد عن فكر مدرسة الهند . وقد توفي مود نتيجة إصابته بالكوليرا بعد شربه مقداراً من الحليب البارد (غير المغلي) أثناء حضوره حفلة مدرسة الأليانس . وقد حامت الشبهات حول اليهود في بادئ الأمر ، إلا أن الإنجليز أنفسهم كانوا حريصين على تبرئة اليهود من هذه التهمة لأنهم كانوا واثقين من إخلاصهم لاسيما في ضوء موقفهم من الإنجليز الذي كان يعتبر نموذجياً على حد تعبير السير أرنولد ولسن . ولا بد من القول أنه لم يكن من المعقول أن تكون للجالية اليهودية في العراق أية رغبة أو مصلحة في القيام بمثل هذا العمل ضد مود - المترجم .

والعشرين من تشرين الثاني كتبت جيرتروود من مدينة سامراء قائلة :«كان الجنرال مود قائداً عسكرياً بالأساس ، وبذلك فإنه كان بعيداً كل البعد عن فن الحكم وإدارة شؤون الدولة ، بل كان يعتبر الأمر هذا برمته جانباً لا ضرورة له بالمرة . ولم يستطع أحد أن يحظى بثقته لأنه كان يعتمد على ذاته فقط ، وبذلك لم يكن أي من ضباطه الأقدمين ولا أحد من أركان قيادته على علم بخططه المستقبلية . ولو قدر لنا أثناء وجوده أن نجابه بهجوم معاد كاسح ، أو نتعرض لضغوط من قبل قوات تركية مداهمة ، لواجهنا مواقف بالغة الصعوبة والتعقيد ولسارت الأمور في غير صالحنا تماماً . وفي الواقع كانت الانتصارات التي قدر لقواتنا تحقيقها في سوريا قد أزالت كل خطر مباشر يهدد جبهتنا في العراق . كان تمسكه بما يعقد العزم عليه يصل حد الاستعصاء على المعالجة ، وكان ضيق أفقه واقتصار هذا الأفق على اتجاه واحد يزداد حدة بفعل ما تميز به من شدة التركيز . ومع ذلك فقد سمعت من عدد غير قليل من العسكريين أن الزحف على بغداد كان إنجازاً عسكرياً رائعاً فضلاً عن كونه خطوة شجاعة . لم يقدر لي في الواقع معرفة هذا الرجل معرفة جيدة : كان في كل الأوقات مؤدباً جداً ، كما كان لطيفاً ومجاملاً إلى أبعد الحدود بيد أنه لم يكن شخصاً مثيراً للاهتمام . فلو قدر له أن يعيش فترة أطول لوجدنا أنفسنا في خضم صراع معقد لا سيما عندما تبدأ الجوانب الإدارية باستقطاب أهمية أكبر مما تستقطبه الاعتبارات العسكرية وهو وضع يكاد يكون وشيكاً جداً على ما أعتقد . وفي كل الأحوال كان الوقت يقترب جداً من ضرورة الالتفات إلى معالجة القضايا والجوانب التي كان مود يصر على اعتبارها إدارية بحتة وبالتالي فإنها لا تستدعي من وجهة النظر العسكرية أن يولي لها أي اهتمام مباشر . لقد تم دفنه في المقبرة العسكرية الجديدة خارج حدود مدينة بغداد(١٨) وهو موقع منعزل ، أجرد وموحش ، فضلاً عن كونه غير مسيج لحد الآن . إن مراسم الدفن التي طالما تميزت بعدم إيفائها بالمطلوب بدت أقل لياقة مما يتطلبه شخص المتوفى ومركزه ناهيك عن كونها غير مقنعة وسط تلك الأرض اليباب التي تمتد على ما يبدو إلى ما لا نهاية . وسرحت بمخيلتي بعيداً ولكنني سرعان ما ثبت إلى نفسي بفعل صوت الأبواق التي راحت تعلن انتهاء مراسم الدفن العسكرية - إنها بحق النهاية التي يعجز المرء منا عن وصف ما تنطوي عليه

(١٨) تقع هذه المقبرة باتجاه شمالي شرقي من منطقة باب المعظم في موقع كان يعرف باسم الكرنتينا (أي المحجر الصحي Quarantine وهذا ما كان بالفعل في العهد العثماني) ولا يزال قبر مود قائماً حتى يومنا هذا شأنه بذلك شأن قبر جيرتروود بيل ذاتها - المترجم

من إثارة .»

* * *

بعد عطلة قصيرة راحت جيرتروود تغوص وسط كم هائل من العمل المتراكم معترفة بأن لجوءها إلى العمل كان بمثابة مخدر لا يمكنها الاستغناء عنه لأية فترة طويلة من الزمن . وفي السابع من كانون الأول كتبت تقول :« شعرت وكأنني أنزلق إلى هوة التعاسة والشقاء حتى قبل انتهاء فترة الاثني عشر يوماً التي قمت فيها بزيارة مدينة سامراء . أحمد الله على نهايتها . إنني منهمكة في العمل إلى الحد الذي يعيق حتى التفاتي للعناية بأبسط أموري الخاصة ، بل دأبت كذلك على جلب العمل معي إلى الدار والانشغال به بعد وجبة العشاء . أحمد المولى على كثرة ما يتوفر منه . إنى أعاني من واقع عدم وجود من يمكنني اعتباره صديقاً . إني أُحب كل الموجودين هنا على حد سواء ودونما تفضيل ، ومع ذلك أجدني أفضل السيد بولارد ، أحد مسؤولي الدائرة المالية ، الذي أميل إليه أكثر من ميلي إلى أي شخص آخر . لقد جاء لتناول طعام العشاء معي في إحدى الأمسيات من هذا الأسبوع . إن عملي لا يتيح لي فرصة استضافة أحد آخر .»

كان من بين مهام جيرتروود الليلية انصرافها إلى التفكير والنظر في التفاصيل الخاصة بالمناطق التي يمر فيها نهر الفرات بهدف الخروج برسم تخطيطي لها . وكانت تجد راحة نفسية تدفعها إلى الانهماك بالعمل بفضل اعتدال الجو وما يترتب عليه من أمر إتاحة الفرصة أمامها لممارسة هوايتها المفضلة وهي ركوب الخيل لا سيما بوجود الفرس التي « خصصت» لها . كما كان من شأن انشغالها بتصليح نصوص بعض الأدبيات التي كانت تتواتر عليها - والتي كانت «مكتوبة بلغة إنجليزية شائنة» على حد تعبيرها - أن يزج بها في خضم ممارسات لا تخلو من متعة وحيوية .

وفي الحادي والعشرين من شهر كانون الأول كتبت قائلة : «عمدت إلى جر السير برسي كوكس إلى مصاحبتي في نزهة على ظهر الخيل عصر يوم الأحد المنصرم (إذ أن النظام الجديد[١٩] قد قرر اعتبار فترة ما بعد الظهر من أيام الآحاد عطلة رسمية) . إن الأرض الصحراوية التي تمتد إلى الشرق من بغداد كانت في زمن ما تسقى بمياه النهروان الكبير -

(١٩) تقصد الإدارة التي تولت زمام الأمور بعد وفاة الجنرال مود - المترجم

القناة الملوية التي امتدت بموازاة نهر دجلة وعلى بعد عشرة أميال منه . إن الصحراء مخددة بآثار روافد هذا النهر ، وهي آثار تكاد تمتلئ بالطمى أو التراب الذي تنثره الرياح . وفيها يجد السائر نفسه من وقت إلى آخر على قمة ركام ، أو هضبة صغيرة ، تغطيهما شقف من الفخار . وبينما كنت أقود السير برسي إلى إحدى هذه الهضاب شاء حسن الطالع أن نجد أمامنا قطعة زخرفية غير مزججة يدرك من يراها على الفور إنها تعود إلى الفترة القروسطية . وهكذا راح شبح ريف غني وعامر بالآثار يصاحبنا في نزهتنا هذه .

في يوم الاثنين تناولت طعام الغداء على مائدة القائد العام الجديد الفريق السير وليام مارشال Lieutenant - General Sir William Marshall . عندما يدعى أحدنا لحضور مأدبة عشاء فإن الاهتمام لا ينصب على نوعية المدعوين وعلى ما يقدم من أصناف الطعام ، بل على واقع ما إذا كان مكان إقامة الدعوة ، داراً كانت أم محلاً عاماً ، قد تم تدفئته كما ينبغي . وفي هذه المناسبة كان المكان دافئاً للغاية ، وكان المدعوون مجموعة لطيفة ومهذبة من الأفراد ضمت عدداً من الضباط والمرافقين العسكريين بالإضافة إلى السير برسي كوكس وإليّ شخصيا . الجنرال مارشال إنسان في غاية اللطف والكياسة . وبعد حديث مسهب جول السجاد بصورة عامة قضينا بقية الأمسية في ممارسة لعبة البرديج . كنت توقفت عن ممارسة هذه اللعبة منذ قدومي إلى العراق ، وقد ارتبكت بعض الشيء عندما شاء الحظ أن يكون شريكي في هذه اللعبة القائد العام نفسه ، الأمر الذي دفعني إلى التضرع في سري إلى المولى القدير كي يجنبني التعرض إلى مواقف محرجة . وقد استجيبت دعواتي على ما يبدو إذ حالفني الحظ وقدر لي الكسب .

لدينا مدير جديد للإمداد والتجهيز . إنه ليس صديقاً شخصياً لي فحسب بل رجل ذو كفاءة واقتدار فضلاً عما يتمتع به من حنكة وذكاء . أنا معجبة بالنظام الجديد وبكل ذوي الشأن فيه . إننا سنعمل معهم بتعاون وانسجام تامين على ما أعتقد . لازلت منهمكة في الجوانب الجغرافية المتعلقة بمناطق نهر الفرات ، وهي مناطق لم ترسم لها خرائط لحد الآن ، كما أعمل في الحين ذاته على وضع المعلومات المتعلقة بالعشائر هناك بصيغة جدول منظم ، ولابد من قيامي بزيارة موقعية لهذه المناطق للتأكد من صحة المعلومات التي بحوزتنا ودقتها .»

وفي التاسع والعشرين من كانون الأول كتبت إلى أبيها قائلة :«أبتاه الحبيب - في يوم عيد الميلاد انطلقت مع السير برسي كوكس لحضور حفلة شاي في المستشفى العسكري . وفي اليوم التالي عمدت إلى زيارة المستشفى المدني التي قد تم ترميمها وإعادة فتحها

للجمهور ، وهي الآن تدار من قبل مجموعة من الأطباء يرأسهم الطبيب الرائد كاري ايفانز Major Carey Evans زوج بنت رئيس الوزراء لويد جورج . إنه طبيب كفؤ . وقد التقيت هناك عدداً من المرضى من عرب ويهود وأرمن كما التقيت صديقتي القديمة زوجة مصطفى باشا . إنهما من الأكراد (أي مصطفى باشا وزوجته) . وجدت هذه السيدة تجلس فوق سريرها وقد لفت رأسها بعصابة سوداء مزركشة من النوع الشائع بين السيدات الكرديات . كانت منهمكة في الكلام حول مواضيع لا حصر لها وهي تنفث رماد سجائرها التي كادت تدخنها بغير انقطاع . وفي طريق عودتي إلى الدار اخترت العبور إلى الجانب الآخر من النهر ، وسلكت طريق الأسواق القديمة - وهي طريق موحلة وبائسة ولكنها ممتعة برغم ذلك لأنها تمثل بغداد القديمة التي تكاد تخلو تماماً من السيارات والجنود وكل ما له علاقة بالاحتلال . سرت متهادية على شاطئ النهر وتبادلت أطراف الحديث مع رجال انهمكوا بسد ما في هياكل قواربهم الصغيرة من شقوق وحزوز بالزفت - لقد شعرت براحة واستئناس كبيرين ، بل وبألفة من يجد نفسه بين أهله وذويه . إن نفحات من الشرق الذي عرفت وألفت سابقاً تكاد تكون جوانب نادرة وسط عالمي الذي ينوء تحت وطأة الأضابير والكراسي المكتبية . ولابد أن أخبرك عن هدايا العيد التي استلمت : سلال مليئة بالبرتقال وحزم من ورد النرجس والبنفسج .

إن امتزاج القديم بالجديد لأمر يثير الاهتمام والضحك في آن واحد - شيوخ عشائر عربية يترأسون لجان تعمل على جمع التبرعات لصندوق ذكرى الجنرال مود Maude Memorial Fund.[٢٠] إنهم يعملون معاً من أجل هذا الهدف بالرغم مما يعتمل في صدور البعض منهم من مشاعر العداء ضد البعض الآخر وما يترتب على هذا الشعور من اندفاع إلى الصراعات والانغماس في عمليات أخذ الثأر وإلى غير ذلك من الممارسات قليلة الشأن .»

كانت آخر رسالة كتبتها جيرتروود بيل في عام ١٩١٧ هي تلك الموجهة إلى السير فالنتاين شيرول :«إنني في أتم صحة وعافية بفضل استمتاعي بالطقس البارد . سأتوجه في الأسبوع

---

(٢٠) أسهمت هذه المبالغ بالنتيجة في صنع تمثال تذكاري للجنرال مود وهو على ظهر جواده . ولقد تم وضع هذا التمثال عند مدخل دار الاعتماد - وهي الدار التي أصبحت في ما بعد السفارة البريطانية الكائنة حتى يومنا هذا في منطقة الشواكة في جانب الكرخ من بغداد . وقد بقي هذا التمثال قائماً حتى صبيحة يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ عندما أطاحت به جماهير من الناس وهشمته لأنها كانت ترى فيه رمزاً يجسد الاستعمار البريطاني - المترجم .

القادم إلى كربلاء والنجف للحصول على ما يمكنني الحصول عليه من المعلومات . لقد تم لنا أخيرًا السيطرة على منطقة الفرات الأسفل ، وها نحن ننعم بالراحة التي من المحتمل جداً تواصلها باعتبارها حالة دائمة ، بينما لا تزال المعارك تتواصل في سوريا . لابد لنا من تنشيط العمل الزراعي في تلك المنطقة (أي في كربلاء والنجف) بهدف الحصول على ما ينبغي من المحاصيل وضمان فرض سيطرتنا عليها . إنه لأمر مثير للاهتمام جداً أن نرى انفتاح ذلك الجزء من العالم الذي كان مجهولا بالنسبة لنا . إن الأوضاع الزراعية تشهد تحولاً سريعاً إذ أن الأهوار الكبيرة تمتلئ بالغرين وإن سد الهندية سيسهم في تسريع العملية .

قامت العشائر في فصل الشتاء هذا وبفضل مساعدة من قبلنا بحفر قنوات كان قد مضى على جفاف مياهها فترة تزيد على خمسة وعشرين عاماً . كما تم أخيراً استحداث دائرة للري آمل أن تأخذ على عاتقها دراسة مثل هذه الجوانب . إننا في هذا المجال نهدف هنا إلى إنتاج المواد الغذائية والأطعمة بأسرع ما يسمح به الوقت ، وبأكثر كم ممكن . إن العشائر تعمل جادة على حرث الأرض وزراعتها مع تواصل انصرافها من وقت إلى آخر إلى مختلف الجوانب المتعلقة بالحزازات والثأر والشحناء وإلى غير ذلك من الممارسات المحلية . إن مناطق الأهوار تزخر بعناصر تهوى ممارسة أعمال العنف والخروج على القانون بيد أنها لا تشكل في الواقع خطراً جاداً على الإدارة . إن كبار المشايخ ورؤساء العشائر يميلون إلى الاستجابة إلى نداءاتنا والتعاون معنا وقد راحوا بالفعل يتملقون إلينا في محاولة لنيل الحظوة عندنا . ولابد لنا أن ندرك أن عملية تفسخ وانحلال المجتمع العشائري ، التي عمد العثمانيون على تشجيعها وتغذيتها (انطلاقاً من إيمانهم بأن ذلك يعود بالنفع على إمبراطوريتهم بينما الواقع هو خلاف ذلك تماماً إذ أن هذا الانحلال يؤدي إلى الفوضى) قد نجحت في جعل الشيوخ والرؤساء أقل هيبة وسيطرة مما كانوا عليه في السابق .

لقد تم لنا احتلال مدينة خانقين أيضاً ، وبذلك فإن من المحتمل على ما أظن أن نكون مقبلين على أيام لا تخلو من إثارة وحيوية بتواجد أكراد عابثين وماكرين في المنطقة الحدودية ممن بإمكانهم الدخول إلى إيران بكل سهولة متى ما شاءوا ذلك ، ولكنني واثقة من قدرتنا عاجلا على تدجين الأشد بأساً من بينهم وتشويه سمعتهم وسلبهم ما قد يتمتعون به من سمعة وما لديهم من مصداقية . إن السير برسي يشعر بقلق إزاء الانهيار الروسي في إيران حيث تعم الفتنة والقلاقل وسط محيط يعتبر مرتعاً خصباً لمثل هذه الجوانب . وأجدني أتساءل (على الرغم من أن تساؤلي هذا لا يرقى إلى ما من شأنه ان يؤدي إلى حل عملي إذ لا يمكننا عمل أي شيء أو تقديم أية صيغة من صيغ المساعدة) حول ما الذي ستؤول إليه

الأوضاع في منطقة بحيرة فان Van عندما ينسحب منها الروس - وهو ما سيقومون به على ما أفترض - ليجد الأرمن المساكين أنفسهم مرة أخرى تحت رحمة الأتراك والألمان . إن أفراد القبائل القادمين من الشمال يجلبون معهم أعداداً من الفتيات الأرمنيات اللواتي قد تم وشمهن كالبدويات - لقد شاهدت عدداً منهن في بغداد ! عزيزي دمنول إنها حالة مروعة ؛ سيول من الدموع المنهمرة ، وصور محزنة للتعاسة والمعاناة - هذا ما يعكسه لسان حال تلك البائسات اللاتي تم العثور عليهن بطريق الصدفة . قد يبدو المرء منا قاسي القلب إذا ما انصرف إلى اعتبار مثل هذه المعاناة البشرية أموراً اعتيادية ، شأنها بذلك شأن الوضع في الخنادق المنتشرة في فرنسا وخطوط التماس مع العدو في الجبهة الإيطالية .

إننا نواجه مشاكل عربية اعمق أثراً واشد خطورة وهي تلك المتمثلة بالمواجهة بين الشريف وابن سعود . آمل أن يتمكن الساسة في الوطن من تسوية الأمور بطريقة منصفة تشمل مراعاة الخير لكلا الطرفين .

إن حركة الرسائل بطيئة إلى حد مزر . أجدني تواقة إلى معرفة وجهة نظر الناس حيال الاحتمالات والتوقعات المستقبلية في فصل الربيع المقبل ، وما إذا سيتمكن الأمريكيون من مساعدتنا على الصمود ! كم تمنيت أن أكون في مدينة القدس في عيد الميلاد هذا - إنه أول عيد ميلاد يحتفل به في ظل الرعاية المسيحية منذ أيام حكم الملك فردريك الثاني(٢١) . وكم تمنيت حضور قداس منتصف الليل في كنيسة المهد في بيت لحم تحت الأجنحة الكبرى لكاتدرائية الإمبراطور قسطنطين . ترى أي منقذ هذا الذي سيحقق لنا سلاماً من شأنه أن يكون بديلاً للسيوف وآلات الحرب المدمرة ؟ أجل ! إني أتوق إلى رؤية تلال يهودا ذات اللون الرمادي - ولكنني لا أتوق إلى رؤية إنجلترا أبداً ! هل تعلم ذلك ؟ إن وطني إنجلترا الذي عرفت قد ولى إلى غير عودة .»

---

(٢١) المقصود هنا هو الأمبراطور فردريك الثاني (١١٩٤-١٢٥٠) الذي تربع على عرش الأمبراطورية الرومانية المقدسة خلال الفترة (١٢٢٠ - ١٢٥٠) وقاد الحملة الصليبية السادسة وتوج نفسه ملكاً على القدس في عام ١٢٢٩ . لقد عارضت جيرتروود على ما يبدو قيام دولة صهيونية في فلسطين ولكنها عجزت عن إخفاء نزعتها الصليبية الاستعمارية كما هو واضح . إن موقفها هذا يعيد إلى ذاكرتنا موقف رئيس وزراء بريطانيا بنجامين دزرائيلي من خلال صورة كاريكاتورية نشرتها مجلة بنش Punch الانجليزية ، وهي صورة تعتبر من بين أهم ما نشرت من صورها الكاريكاتورية وأكثرها متعة ، فهي تصور دزرائيلي وهو يمسك بمفاتيح مصر بعد قيام بريطانيا بشراء نصف حصص قناة السويس ويقول ما مفاده ها عادت لنا (أي لليهود) مصر مرة أخرى! - المترجم

الفصل السادس

١٩١٨

شهدت إطلالة عام ١٩١٨ الجديد جيرتروود وهي تتمتع بإجازة امتدت فترة أسبوعين قضتها في مناطق الفرات التي كانت قد انهمكت في دراسة ورسم معالمها الجغرافية على مدى الأسابيع التي سبقت هذه الزيارة . كانت معظم المناطق مألوفة لديها ومليئة بذكريات عاطرة تتعلق بأشخاص ارتبطت معهم بعلاقات صداقة متينة ، وكان على رأس هؤلاء الأشخاص الشيخ فهد بك بن هذال وأفراد قبيلته . بيد أن سوء الحظ شاء أن يكون الشيخ وقبيلته بعيدين عن مناطق سكناهم في تلك الفترة التي جاءت فيها جيرتروود زائرة ، فقد كانت القبيلة في إحدى رحلاتها التي اعتادت القيام بها إلى أعماق الصحراء .

وفي الثالث من كانون الثاني كتبت جيرتروود من مدينة كربلاء قائلة :« بدا الفرات جميلاً ورائعاً وقد امتدت على حافته أشجار النخيل والصفصاف الأصفر التي راحت تتلامع بفعل نور شمس الظهيرة . ذهبت إلى دار مضيفي ، ذي الشخصية الرائعة ، السيد تومبسون Mr.Thompson ، مساعد الضابط السياسي ، وهي دار كانت تقع على شاطئ النهر ، وقد أفرد لي غرفة بيضت جدرانها بماء الكلس . وقد تم لي هنا التعرف بكل من كيرمت روزفيلت Kermit Roosevelt ، الذي يعمل حالياً بصفة سائق عجلة مدرعة ، والرائد بويرز Major Bowers الذي يقوم بالإشراف على سدة الهندية . وقد قضينا أمسية ممتعة ونحن نراجع تفاصيل الخرائط والقوائم الخاصة بأسماء العشائر . و يتعلم المرء منا الكثير من خلال التقائه مختلف الأفراد في المواقع المعنية التي يتم له زيارتها .

تجولت على ظهر حصاني في أرجاء المدينة ومررت من أمام بوابة مقام الحسين الذي يعتبر المصدر الأساس لثروات مدينة كر بلاء ، ثم انطلقت إلى خارج المدينة عبر مسار موحل مليء بالبرك الآسنة لأصل بعد ذلك إلى حافة الصحراء السورية .» بيد أن الحظ لم يسعف جيرتروود هذه المرة في التوغل في الصحراء التي عشقت ، فقد وجدت نفسها مضطرة إلى العودة إلى كربلاء حيث راحت تتجول مرة أخرى وعلى حد تعبيرها : «فوق طرقها الموحلة التي ظللتها أغصان أشجار البرتقال وحباتها التي تدلت بكثافة ، بينما راحت أشعة الشمس تزيد سعف النخيل صفرة وتنعكس بتوهج واضطرام على منائر مقام العباس الذي لا يقل قدسية إلا عن مقام الحسين .»

من بين القضايا الكبيرة التي كتب على العراق مواجهتها تلك المتعلقة بالصدع العميق

الذي يفصل بين أبناء الشيعة والسنة في الإسلام ، فالأتراك من أهل السنة أما الإيرانيون فمن أبناء الشيعة . ولقد أدى موت العباس ، آخر الخلفاء المنحدرين من محمد ، وابنه الحسين إلى إحداث هذا الصدع الذي راح يواصل تسميم الروابط بين أبناء الطائفتين (كذا) .(١)

بعثت جيرتروود رسالتها المؤرخة في السادس عشر من كانون الثاني من مدينة الحلة ،

---

(١) هذا بالضبط ما ورد نصاً في هذا المقطع وقد ترجمته كما جاء أمانة ، فهو لا يعكس في الحقيقة خطأً شائناً لا يختلف عليه اثنان فحسب ، بل يعمل بشكل خاص على زيادة وتعميق إيماننا بجهل عدد لا يستهان به من أرباب الأقلام في الغرب وأصحاب الفكر والموجهين فيه فيما يتعلق بتاريخ الإسلام والمسلمين وتجنيبهم المتعمد عليه . لقد كان من الأجدى بالمؤلفة ، اليزابيث برغوين ، تفادي الخوض في موضوع من البديهي أنها تجهل أبسط أبجدياته . ولعل ما يثير الألم في النفس أن كتاباً ومؤلفين من هذا النوع يوهمون أنفسهم بأنهم على علم بأمور الإسلام والمسلمين وهم في الواقع أبعد ما يكونون عن ذلك . ولابد للقراء العاديين من أبناء الغرب أن يخرجوا بأفكار واستنتاجات محرفة عن الإسلام نتيجة اطلاعهم على طروحات خاطئة كهذه . وليس هذا النص إلا مثلاً بسيطا من بين أمثلة عديدة تخص أموراً ومواضيع أكثر تعقيداً وأشد خطورة . إن المجال لا يسمح بشرح أبعاد هذه الأخطاء الشنيعة التي وردت في سياق نص لا يزيد طوله على خمسة أسطر ، بيد أنني أجد لزاماً علي القول إن ما تحاول جهات مناوئة للإسلام تصويره من صراع في مضمار العلاقات الشيعية السنية وتهويله ليس في جوهره أكثر من جهد ينصرف إلى خدمة مصالح ومآرب هذه الجهات التي هي بالأساس جماعات مناوئة للإسلام والعروبة بشكل عام . وإذ تقول الكاتبة أن الأتراك (وتقصد بذلك العثمانيين) من أهل السنة وأن الإيرانيين من أبناء الشيعة فبديهي أنها لا تدرك أن الدولة الصفوية قد قامت أساساً بفضل سيوف وسواعد «القزلباش» من أبناء القبائل التركمانية وأن أبناء الشيعة هم عرب أقحاح بالأساس قبل أن تنظوي تحت لوائهم العناصر غير العربية من أبناء بلاد فارس وغيرهم . وإن الفئات المناوئة للعروبة والإسلام ، والتي تنصرف إلى استغلال أي اختلاف بين العناصر الإسلامية بهدف ترسيخ جذوره وتوسيع هوة أي تباين في الرأي والمنظور ، إنما تعمد إلى القيام بذلك خدمة لمآربها وأهدافها . ولعل أوجه التقارب والتفاهم ووحدة الكلمة والهدف التي شهدها العراق والعالم بين أبناء الشيعة والسنة إبان أحداث ثورة عام ١٩٢٠ التي سيأتي ذكرها لاحقاً في هذا العمل (والتي سأحاول التعليق على بعض جوانبها) خير دليل على وهن حجة هذه العناصر المناوئة وضعفها . ولعل هذا التقارب يشكل أحد الأسباب الرئيسة التي تدفع بنا إلى القول أن أحداث عام ١٩٢٠ كانت ثورة بكل معنى الكلمة لا تمرداً كما شاءت المصادر الغربية اعتبارها - إنها ثورة الجماهير التي اشترك فيها أبناء الشيعة والسنة على نحو فاعل ولعبت العناصر الشيعية فيها دوراً بارزاً ومتميزاً على صعيد قيادة وتوجيه المجاميع البشرية التي أسهمت فعلاً في القتال - المترجم

وهي الرسالة التي قالت فيها :«كتبت آخر رسالة لي من كربلاء حيث راحت تراودني رغبة جامحة في التوغل إلى قلب الصحراء بغية الهروب إليها والاختفاء فيها إلى الأبد ، بيد أنني أخفقت في هذا المسعى فيممت وجهي صوب الجنوب . وبعد أن أرسلت في طلب عدد من الخيل كان قد أعارني إياها العقيد ليجمان Colonel Leachman انطلقت في الخامس من كانون الثاني باتجاه طريق النجف حيث وافيت مجموعة الخيل والبغال التي كنت أرسلتها قبل ذلك ، ثم واصلت سفري إلى طويريج وهي مدينة صغيرة تقع على شط الهندية ، أحد روافد نهر الفرات . كان يوما رائعاً وقد زاد من روعته شعوري بأنني قد عدت مرة أخرى إلى اكتشاف طريقي حول العالم بنفسي - وهو شعور يبعث على الراحة والطمأنينة .

وفي طويريج اكتشفت وجود أحد موظفي دائرة الري ، هو السيد بولارد Mr. Pollard الذي كان قد اتخذ من إحدى غرف المكتب الحكومي لتلك المدينة سكناً له ، وقضيت سحابة عصر ذلك اليوم في زيارة وجهاء المنطقة والمقدمين فيها . وفي اليوم التالي عمدت إلى مواصلة سفري نهراً ، فجمعت لوازمي ووضعتها في قارب خصص لي ولخادمي وانطلقنا بصحبة السيد بولارد آنف الذكر مع مجرى قناة مائية كنا حفرناها مؤخراً بموازاة شط الهندية . كان يوما عاصفاً تخلله هبوب رياح عالية وومضات من نور الشمس ، إلا أن الرحلة كانت ممتعة ومثيرة للغاية ، وقد استغرقت زهاء ثلاث ساعات اكتشفنا خلالها ريفاً عادت نه الحياة بفضل القناة التي تم لنا حفرها ، ولقد أكسب الشعير أرض هذا الريف خضرة بدت وكأنها تمتد إلى ما لا نهاية . وفي منتصف النهار وصلنا إلى معسكر الضابط السياسي للمنطقة ، وهو السيد تايلر Mr. Tyler ، حيث قضيت ليلتي في كوخ شيد من القصب ، وفي هذا المعسكر التقيت عدداً من شيوخ المنطقة واستمعت إلى مختلف وجهات النظر حول ما كان يدور من أحداث .

بقي الطقس عاصفاً طوال اليوم التالي أيضاً ، بيد أن الريح كانت مواتية إذ أنها راحت تهب في الاتجاه الصحيح لمسار قاربنا . أما أنا فقد واصلت رحلتي على ظهر جوادي وبعد مضي ما يقرب من ثلاث ساعات وصلت إلى الكفل بصحبة السيد تايلر . وقبل وصولي إلى موقع سكني راح المطر ينهمر مدراراً ، وما هي إلا دقائق معدودات حتى بات العالم بأسره مستنقعاً غروياً . وكان قاربي قد وصل إلى الكفل ، وقبل مواصلة سفري استضافني شاب كريم وقدم لي شراباً ساخناً من الكوكو ووجبة طعام قوامها سمك الساردين . وبعد أن سلمت جوادي إلى أحد أفراد الشرطة وطلبت منه أن يسبقني إلى الكوفة ، ركبت القارب الذي راح يتهادى باتجاه هذه المدينة . كانت رحلة ممتعة .

وفي الكوفة استضافني النقيب بلفور (الذي اصبح فيما بعد المقدم اف .سي .سي . بلفور Lt.Colonel F.C.C. Balfour) وغمرني بلطفه ورعايته الكريمة ، باركه الرب . وقد عثرت بين رجال الشرطة العاملين بإمرته على صديق قديم لي كان رافقني في جزء من رحلتي في عام ١٩١١ ، وما أن شاهدني حتى أعلن عن رغبته في أن يعمل بخدمتي على الفور . وقد قضيت يومي الأول في محاولة استهدفت تجفيف رطوبة ملابسي وحاجياتي ، ومن ثم الانهماك في استكمال التفاصيل الجغرافية المتعلقة بالقبائل في منطقة الفرات ، بالإضافة إلى استقبال الزائرين من أبناء المنطقة ورد الزيارات لهم . وفي اليوم الثاني اصطحبني النقيب بلفور في زيارة لمدينة النجف حيث لم تبد الأمور في وضع مرض ، أما في اليوم الثالث فقد ذهبت إلى النجف بمفردي حيث التقيت عدداً من أبنائها . وفي اليوم الرابع انطلقنا أنا والنقيب بلفور في رحلة نهرية مع مجري الفرات استغرقت أربعة أيام . يتفرع شط الهندية جنوب الكفل إلى قناتين«شرقية» «وغربية» لم يتم تثبيت تفاصيلهما على الخرائط ، وتقع مدينة الكوفة على القناة الغربية منهما .

وبعد أن أرسلنا أمتعتنا على ظهور الدواب سرنا مسافة ثلاثة أميال باتجاه القناة الشرقية حيث وجدنا بانتظارنا القوارب التي كانت أرسلت لنا والتي استقليناها ومضينا نواصل رحلتنا مع مجرى النهر . وكنا نتوقف هنا وهناك بغية الاطلاع على ما كان تم مؤخراً شقه من قنوات وبنائه من سدود وذلك إلى جانب التقائنا عدداً من كبار الشيوخ في المنطقة والاستماع إلى مطالبهم المتعلقة برغبتهم في الحصول على مزيد من المساعدات والحبوب .

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم أصبح الطقس رائعاً ، وقد وصلنا إلى قرية صغيرة تسمى أم البعرور(٢) وكانت فيما مضى مركز الإدارة التركية لتلك المنطقة حيث تمت استضافتنا في المبنى الحكومي الكائن في القرية وكانت استضافة في غاية الراحة ، وقد وضعت أمتعتنا ولوازم السفر في غرف المبنى التي بدت وكأنها على وشك الانهيار . وقد شهد اليوم التالي موصلة سفرنا بنفس الطريقة الممتعة التي شهدتها الأيام السابقة .

وفي اليوم التالي وصلنا عند الغسق إلى قرية أصغر حجماً من قرية أم البعرور ، وكان مأوانا الوحيد هناك زريبة حقيرة كنا على أتم استعداد للمبيت فيها لولا همة وشهامة ممثل

---

(٢) هذا هو الاسم الذي كانت تعرف به هذه القرية في الوقت الذي دونت جيرتروود بيل رسائلها ومذكراتها ، وكذلك في الوقت الذي نشبت فيه ثورة العشرين . ولكنه تغير وهي تعرف في يومنا هذا باسم الشامية – المترجم

الحكومة هناك ، وهو رجل بغدادي طلق المحيا وحلو المعشر . وقد سارع هذا الشهم إلى نصب خيمة في منطقة تطل على شاطئ النهر وتقع خارج حدود القرية . وفي اليوم الثالث انحدرنا عبر مجرى مائي إلى الهور ومنه إلى القناة الغربية لشط الهندية عبر مجرى مائي آخر . وهكذا بات لدينا تصور كامل عن الجغرافية الطبيعية للمنطقة .

في أعماق منطقة الأهوار تكثر زراعة الرز ، وعلى امتداد القنوات وجرفي الشط تنتشر مجموعة من الأبراج الطينية المربعة وهي منشآت تعود ملكيتها للشيوخ وتتميز أسوارها بوجود مزاغل يسمح من خلالها بإطلاق نيران الأسلحة الصغيرة ، وقد انتظمت حول كل برج منها مجموعة من أكواخ شيدت إما من الطين أو القصب ، وعند الهور وصلنا إلى بيت طيني شاهق يعود إلى أحد السادة[٣] الملاكين الذي تربطني به معرفة قديمة ، وقد توقفنا لتناول القهوة في مضيفه المشيد من القصب والذي هو أشبه بنفق كبير يبلغ طوله بحدود ثمانين قدماً وقوامه حزم من القصب قنطرت بشكل متسق ومنسجم وحبك بعضها بالبعض الآخر بجدائل هي الأخرى من القصب أيضاً . إن القناة الغربية لشط الهندية نهر رائع بحق حيث تمتد في منطقته غابات كثيفة من النخيل ، وتفوق العناصر السكانية فيه سكان مناطق القناة الشرقية عدداً . إن الشيوخ هنا ملاكون أغنياء ، وتعتبر بيوتهم الطينية الشاهقة نظائر مقراتنا الريفية في إنجلترا التي يمتلكها كبار أصحاب الأطيان من الملاكين .

بيد أن نظرتنا إلى هذه الجوانب سرعان ما راح يشوبها شعور بعدم الارتياح إثر ما طرق سمع النقيب بولارد من أخبار أفادت بوجود اضطرابات في النجف ، وبذلك خامره شعور بالقلق إزاء احتمال حدوث ما لا يحمد عقباه أثناء غيابه . وبسبب ذلك رفضنا قبول دعوات الاستضافة للمبيت في أي من بيوت الشيوخ آنفة الذكر مفضلين مواصلة سفرنا الذي ثبتت صعوبته بسبب سيرنا عكس اتجاه الريح ومجرى تيار الماء ، ولم نصل إلى« أبو صخير» إلا عند الغروب . ومن أبو صخير تمكنا من مهاتفة الكوفة لنكتشف أن الأمور كانت على ما يرام في النجف . آمل أن تكون الاضطرابات التي حدثت في الأيام السابقة قد أسهمت في تنقية الأجواء الأمر الذي من شأنه أن يجعل سير الأمور أكثر سهولة .

---

(٣) السادة ومفردها سيد وهو في العراق(وكذلك في إيران واليمن وحضرموت وماليزيا وأندنوسيا) كل من ينتمي بالنسب إلى سيدنا النبي محمد صلى الله عليه وسلم . وفي مصر والمغرب يعرف بـ الشريف ، وفي بعض أنحاء الهند وتركيا يعرف بـ المير وفي جنوب وشرق أفريقيا يعرف بـ المولى . أما في الحجاز فيطلق على الحسني لقب الشريف كذلك الحال في الأردن ، وعلى الحسيني لقب السيد - المترجم

وفي صبيحة اليوم التالي قمت بجولة عبر غابات النخيل وصولاً إلى قرية مجاورة حيث تناولت القهوة في مضيف كبير سادتها الذي رافقني في طريق عودتي إلى الكوفة وراح يروي لي حكايات عن بداية الحرب ووقوف الرجال ضدنا في معركة الشعيبة ، ولكنهم ما أن اكتشفوا الأتراك ، وانعدام أي شعور بالمحبة الذي من شأنه أن يعزز الوفاق ويحقق وحدة الصف ، حتى سارعوا إلى العودة إلى ديارهم من غير أن تطلق بنادقهم حتى طلقة واحدة .(٤)

---

(٤) لابد من وقفة هنا لبيان أن ما جاء على لسان السيد آنف الذكر ، برغم ما انطوى عليه من مبالغة ، لأسباب واضحة ، لم يكن بعيداً عن الحقيقة وإن لم يخل من مبالغة ، الأمر الذي يدفع بي إلى إعطاء شرح موجز عن طبيعة العلاقة بين الحكومة التركية وأبناء العشائر في العراق لبيان السبب في عدم تواصل مؤازرة العشائر الحكومة العثمانية في الحرب ضد القوات البريطانية الغازية . ولنبدأ شرحنا من مولد حركة الجهاد في العراق التي يمكن القول أنها انطلقت عندما بدأ خطر الغزو البريطاني يهدد البصرة في أواخر الثلث الأول من أيام شهر تشرين الثاني من عام ١٩١٤ . وكان أهم ما خالج ذهن الحكومة العثمانية آنذاك هو التوصل إلى صيغ عملية من شأنها تحقيق النجاح في تحريض أبناء الشيعة للانضمام إلى حركة الجهاد التي استهدفت حشد أبناء الأمة الأسلامية من داخل الأمبراطورية العثمانية وخارجها للوقوف في وجه بريطانيا وفرنسا وروسيا . وفي إطار هذا المسعى تم إرسال وفد إلى النجف الأشرف ضم كلاً من محمد فاضل باشا الداغستاني وشوكت باشا والشيخ حميد الكلدار اللذين استقبلوا بحفاوة بالغة . وبعد عقد عدة لقاءات جماهيرية تمحورت مواضيعها حول وجوب دعم الحكومة في مساعيها لدرء الخطر عن بلاد الإسلام ، انطلقت من من النجف مجموعة من المجتهدين مع أتباعهم باتجاه جبهة الحرب معرجين على المدن والعشائر الواقعة في طريقهم بغية تحريضهم على الجهاد . وقد قدر لهذه الحركة أن يكون لها في الحين ذاته صدى مدو في عربستان حيث تحمست بها معظم العشائر العربية .

وعلى الرغم من النجاح في حشد أعداد كبيرة من أبناء العشائر التي دخلت المعركة مع القوات النظامية بصفة مجاهدين ، إلا أن التجربة لم تحقق النجاح المرجو ، إذ سرعان ما بدأت العشائر المشاركة في الجهاد تمل وتتذمر وتنذر القيادة العثمانية بالانسحاب والعودة إلى مواطنهم بحجة أن العشب قد قارب على النفاذ الأمر الذي يجعل من الصعب عليهم إعاشة خيلهم ودوابهم ، وقد ترك بعظهم المواقع فعلاً وعادوا إلى مواطنهم .

ومن جانب آخر ، كان من شأن الانتصارات البريطانية المتلاحقة أن يكون لها تأثير عميق على سلوك العشائر العراقية التي بدأت تؤمن بأن البريطانيين غالبون عاجلاً أم آجلاً . وبدأت الإشاعات حول قوة البريطانيين وتفوقهم في كل المجالات تنتشر بين سكان العراق بوجه عام وبين أبناء العشائر بوجه خاص الأمر الذي ==

* * *

١٩١٨

ومن بغداد ، كتبت جيرتروود في الثامن عشر من كانون الثاني قائلة :«عدت إلى مقر عملي وقد استعاد بدني نشاطه ، أما وضعي الفكري فلا يزال يعاني من جمود وعدم مرونة ، وإذا ما قدر لي الاستمرار في ما أنا عليه من خمول وعدم كفاءة يتعين علي عندئذ النظر بشكل جدي في خطط مستقبلية تتعلق بما يمكن أن يتاح لي من بدائل . إنها الحال تبعث على السأم والملل عندما يشعر المرء منا أنه غبي وأبله .

وفي الخامس والعشرين من كانون الثاني كتبت قائلة : « طلبت من السير برسي كوكس أن يأذن لي بمخاطبتكم برقياً بعد وفاة الجنرال مود مخافة أن يداهمكم شعور بالقلق حول انتشار وباء الكوليرا في العراق ، وبهذا الصدد أود أن أطمئنكم مؤكدة على أن القضاء على الوباء قد تم في الواقع قبل فترة طويلة ، وقد حل محله انتشار مرض الجدري الذي بات القضاء عليه وشيكاً . لقد تم تلقيحنا جميعاً ضده .

== جعل العراقيين يستهينون بالحكومة التركية ويحاولون إيذاءها . وقد أدركت الحكومة العثمانية بدورها أن حركة الجهاد كانت طلاءً خارجياً لدى أفراد العشائر وأنهم اندفعوا في الجهاد بداية تحت تأثير ما أثاره رجال الدين فيهم من حماس ما إن زال حتى عادت العشائر إلى سيرتها الأولى في سلوكها المعادي للحكومة . فالعداء العميق بين العشائر من جانب والحكومة العثمانية من جانب آخر لا يمكن أن يزول بتأثير فورة حماسية مؤقتة ، وإن هذا العداء المتأصل ، وعدم الثقة بين الجانبين اللذين يعودان إلى أول عهد الحكم العثماني في العراق ، هو السبب الأساس في نفور أبناء العشائر من السلطة العثمانية ورموزها وعدم انسجامهم معها . وبذلك لا يمكن بأي حال من الأحوال اعتبار هذا السلوك خيانة من قبل أبناء العشائر كما شاء الأتراك إلصاقه بالعرب بوجه عام من تهمة - المترجم

أود القول بالمناسبة إنني استهجن تماما ما خرج به بلفور من تصريحات صهيونية فيما يتعلق بسوريا .(إنه آرثر جيمس بلفور - الذي أصبح فيما بعد إرل بلفور - وزير خارجية بريطانيا وصاحب وعد بلفور سيئ الصيت .) لا أظن أن هذه الوعود التي صرح عنها قابلة للتنفيذ إذ أن القطر (السوري) غير ملائم للغايات التي يستهدف اليهود تحقيقها هناك . إنها أرض فقيرة لا تملك القدرة على تحقيق درجة عالية من النمو ، كما أن ثلثي سكانها من المسلمين العرب الذين ينظرون إلى اليهود نظرة ازدراء . إنها على ما أظن خطة زائفة لا تمت إلى واقع الأمور بأية صلة وبذلك لست على استعداد لمباركتها بل أدعو جادة بأن تلقى ما تستحق من خيبة وفشل ، وهي دعوة أخالها مستجابة .

والدتي الحبيبة - لطالما وجدت نفسي مدركة تماماً إن ما أضطلع به من أعباء ومهام هو في الواقع أقل وطأة بل وأقل أهمية مما تضطلعين به أنت . ولطالما تواصلت رغبتي في التواجد في آسيا حتى في أوقات الحرب بينما تعيشين أنت نمطاً من الحياة هو في الواقع أشد كآبة وأكثر رتابة من غيره . إن ما أتوق إليه أساساً في الحقيقة هو حصولي على من بإمكانه الأنصراف إلى السهر على راحتي و تدبير شؤون بيتي والإشراف على تنظيم وترتيب خزانة ملابسي ولذلك أجدني أدرك جيداً سبب لجوء الرجال العاملين في هذه الأجزاء من العالم إلى التزوج من أية امرأة تقذف الأقدار بها أمامهم !»

وبعد بضعة أيام كتبت إلى السير فالنتاين شيرول قائلة :« يمكن القول بوجه عام إن القطر ينفتح تدريجياً أمامنا وإن أبناءه قد بدؤوا يستسيغون ذلك برغم تذمرهم من ارتفاع الأسعار وحالات الحصار المفروضة وإلى غير ذلك من المعوقات . إن كبار الشخصيات في المدن يمثلون الفئة التي تقاسي بدرجة أكبر من غيرها من جور ممارسة الاستيلاء على بيوتهم وما طرأ على أنماط حياتهم من تحولات جذرية لاسيما إثر اضطرارهم إلى ترك وظائفهم القديمة وعدم توفر أخرى جديدة تؤمن لهم سبيل العيش والتواصل مع الحياة . ويمثل الشيوخ ورؤساء العشائر الفئة السكانية الأكثر انتفاعاً إذ أننا نعمل ما في وسعنا من أجل دعم مواقعهم ونفوذهم - وهو ما أخفق الأتراك في تحقيقه على نحو متواصل - فضلاً عن قيامنا بمساعدتهم في مجال تنمية نشاطهم الزراعي وهو ما قام به الأتراك من الناحية النظرية فقط .

إن الكثيرين من هؤلاء الشيوخ والرؤساء هم في الواقع شخصيات كبيرة تتسم بكل ما للمستبدين الأثرياء من سمات ظاهرة - فهم أقوياء في أطر مجالاتهم الخاصة ، وهو ما تمكنوا من إثباته فعلاً ، وهو بالإضافة إلى ذلك جانب قدر له إلى حد كبير أن يكون حتى الآن لصالحنا . إلى جانب هؤلاء الشيوخ والرؤساء هناك الملاكون من السادة الذين يتمتعون بنفوذ

كبير بين العشائر . إن قلوبهم معنا ، وقد بذلوا جهوداً مضنية في مضمار إبقاء مناطق الفرات هادئة قبل قيامنا باحتلال الأرض فعلاً . ويدرك السادة من أبناء الشيعة أن عودة الأتراك ليست من مصلحتهم أبداً - لقد كان من شأن أمر تنفير أبناء الشيعة وعزلتهم (من قبل الأتراك) أن يعود علينا بالمنفعة الكبيرة لاسيما في ضوء انعدام أي شعور ديني أو مصلحة لدينا من شأنهما أن يدفعا بنا إلى مجابهتهم في كل من كربلاء والنجف .

ياله من قطر جميل ، يا عزيزي دمنول ، إن أرضه منبسطة وذات جمالية منقطعة النظير بفضل ما تحتوي عليه من غابات النخيل وشجيرات الصفصاف وأشجار الحور . كما أن التوغل في الريف يثلج قلب المرء ويثير في نفسه البهجة والسرور وهو يرى أسراب اللقالق تخوض في مياه الأهوار ، وقطعان الماشية ترعى على ضفاف الأنهار .

ومنذ عودتي وجدت في حديقتي مغرسين إضافيين أحدهما لورد السوسن والآخر لزهر رعي الحمام (الفربينا verbena) ، كما ازدهرت ورود البنفسج التي زرعتها في عدد من الأصص ، أما الكرنب (الملفوف) فإنه يبشر بحاصل واعد . ليتني عمدت إلى طلب تزويدي بعدد من الأبصال بيد أن تكليف دائرة النقليات بطلبات كهذه يدخل في إطار إثقال كاهل المعنيين بأمور تعتبر كمالية وبالتالي فإنها تمثل جوانب يجدون أنهم في غنى عنها في ظل الظروف الراهنة . أن زرع أبصال ورد النرجس البري الأصفر لابد أن يؤدي بالنتيجة إلى إكساب حديقتي جمالاً مضافاً .

غادرنا السير برسي كوكس إلى البصرة لمدة أسبوعين بهدف توديع زوجته ولقاء شيخ المحمرة .» (إنه لقاء كثير الأهمية إذ أن حقول شركة النفط الأنجلو فارسية Anglo-Persian[٥] تقع في المنطقة التي تخضع لسيطرة هذا الحاكم شبه المستقل) .

وفي الحادي والثلاثين من شهر كانون الثاني كتبت جيرتروود إلى ذويها حول أزمة السكن قائلة :

«تعتبر ممارسة الاستيلاء على الدور من بين الجوانب السلبية الأسوأ للاحتلال ، ومع ذلك لا أجد حلاً بديلاً لها إذ لا يتوفر لدينا الوقت للبناء ، ومن جانب آخر لابد أن يتم إيواؤنا . أما بالنسبة لمنكودي الحظ الذي يتم إجبارهم على إخلاء دورهم فالأمر لا يقل عن محنة مريرة يتوجب عليهم تحملها برغم ما تنطوي عليه من معاناة . وفي الآونة الأخيرة رغبنا

---

(٥) تغير اسمها فيما بعد ليصبح شركة النفط الأنجلو إيرانية وهي المصلحة التي عمد رئيس وزراء إيران محمد مصدق إلى تأميمها في عام ١٩٥٣ - المترجم

في استخدام بيتين من بيوت آل النقيب وقد كلفت بمهمة مقابلة النقيب بغية تقييم ما سيكون لهذه الرغبة من وقع في نفسه ذاته . لم يكن لدينا أدنى شك من رد فعله المتوقع - غضب لا حدود له . وبسبب عدم قدرتنا على تحمل ما قد يترتب على غضب الشخصيات الدينية الكبيرة من نتائج كان لابد لنا من التخلي عن الفكرة . بيد أن ذلك يعني اضطرارنا إلى التوجه إلى أناس أقل رفعة ، وأقل منزلة من الجانب الديني ، ولكنهم لن يكونوا أقل غضباً .»

وفي هذه الفترة كانت جيرتروود تفكر في الجهة التي ينبغي أن تسافر إليها في أشهر الصيف . ولأسباب عديدة فإنها فضلت التوجه إلى المناطق الجبلية من بلاد فارس .

وفيما يتعلق ببلاد فارس كتبت جيرتروود قائلة : « ستكون للمسألة الفارسية أهمية كبيرة ، وبذلك يتعين علي الإلمام بجوانبها قبل عودتي إلى الوطن(*) ليتسنى لي إبداء الرأي حولها وهو ما سأقوم به على ما أفترض عندما تبلغ الأمور مرحلة الأزمة . لا أظن أن بإمكان العالم مواجهة حرب شتائية أخرى . ولابد لي من الاعتراف بهذا الصدد بأن ما دفعني إلى التوجه إلى بلاد فارس هو الرغبة في التجوال والسفر لا الرغبة في اكتساب المعرفة .»

* * *

وفي هذه الفترة بالذات هناك رسالة طويلة وجهتها جيرتروود إلى السير وليام ولكوكس Sir William Willcocks والتي خلصت فيها إلى ما يلي : « لطالما تصورت أن هذه البلاد سيكون من السهولة حكمها في المراحل الأولى (من الاحتلال) . إن الإنسان العربي لا يكتفي بتحقيق الغنى فحسب بل يرغب في الإنفاق أيضاً . إنه يطالب فوراً بفتح المدارس وإنشاء المستشفيات واقتناء المضخات العاملة بالبخار ، وبعد مضي عام أو عامين سيحاول الحصول على المحاريث والزوارق الآلية ، وستتلاشى أمام كل ذلك الحرف المحلية الرائعة ، والفدن(٦) ، وصوت موسيقى النواعير وهي جوانب لا يسعني أن أنكر أسفي على زوالها ، كما أن الأبراج الطينية ومزاغلها ستختفي هي الأخرى من جانب آخر الأمر الذي سيجعل من أمر العنف الذي يعزى وجود هذه الأبراج إليه بالأساس ظاهرة من ظواهر اماضي . لقد نشأت بيني وبين هذه الأرض مودة ضمت بين أعطافها كل ما تحتويه من مشاهد وأصوات .

(٦) الفدن : جمع فدان وهو النير الذي يقرن بين ثورين وذلك فيما يتعلق بعملية الحراثة - المترجم

(*) انظر التعليق رقم (٧) في الصفحة التالية (١٢٥) .

لا أخالني سأشعر يوماً بالضجر والملل من بلاد الشرق التي لا أجدها أرضاً غريبة عني ، كما أن وجودي هنا في العراق لا يشعرني بأنني منفية - إنه وطني الأصلي الثاني . ولو لم يكن لي أهل في إنجلترا لما وجدت في نفسي الرغبة في العودة إليها أبداً .»(٧)

١٩١٨

وفي الثامن من شهر شباط كتبت قائلة : «أبتي الحبيب - أرسلت لك اليوم برقية حول جزمتي الخاصة بركوب الخيل ، وهي برقية تنطوي على رسالة لا تخلو من لمسة حنان مؤثرة . إن السيد «د» اللعين - الذي اعتاد على مدى الخمسة عشر عاماً المنصرمة القيام بصناعة ما احتاج من جزمات ركوب الخيل - شاء أن يرسل لي مؤخراً جزمة صغيرة الحجم لا يمكن لقدمي الدخول فيها . وعند وصول رسالتي إليك ألتمس منك القيام أولاً بتعنيف السيد «د» بأقسى ما يمكن من عبارات اللوم والتقريع مع الامتناع عن تسديد ثمنها ، وثانياً إعلامه بضرورة قيامه بصنع جزمة أخرى بالمقاس الصحيح ، وبهذا الصدد أرجو منك تزويده بإحدى جزمي السوداء القديمة ليكون على بينة تامة من المقاس الصحيح وليتفادى تكرار هذا الخطأ الفادح الذي لم يكن له أي مبرر أبداً . وهكذا يتعين علي مواصلة ارتداء جزمتي القديمة البالية لشهرين آخرين على الأقل . إنه وضع لا يطاق !

تسبب وجود الممرضات بيننا في هز كيان المجتمع ! إنني لا أحاول أن أنكر عليهن ما يفضلن من سبل التسلية والترفيه بل أكتفي بالإعلان عن عدم رغبتي في مشاركتهن هذه السبل بأي حال من الأحوال إذ إن الحديث معهن لا يتجاوز حدود الكلمات ذات المقطع اللفظي الواحد ، وبذلك فإن تواصل الحديث وتبادل الأفكار معهن يكاد يكون معدوماً . وعليه قررت عدم حضور دعوات العشاء النسائية مستقبلاً .

قمت بالأمس بزيارة طويلة لأحدى العوائل البغدادية التي تربطني بأفرادها علاقة صداقة قديمة ؛ إنها عائلة جميل زادة التي يقع بيتها في قلب المدينة - وهو بيت تخيم عليه روح البهجة والمرح بشكل ملفت للانتباه وبذلك تجدني أهوى زيارة أهله باستمرار . إنهم لا

---

(٧) و(*) من الطريف أن نجد أن جيرتروود بيل تعتبر عودتها إلى العراق عودة إلى «الوطن» وهو أمر لا يدعو إلى الاستغراب في الواقع ، بل ينبغي التعامل معه بما يستحق من سخرية وعدم جدية ، فقد كان هذا ديدن البريطانيين فيما يتعلق بالأقطار والبلدان الذي تم لهم السيطرة عليها واحتلالها . أنهم يعتبرون هذه الأماكن جزءاً من « الوطن» . - الترجم

يبخلون علي بكرمهم - فالأعناب تأتيني في فصل الخريف ، كما تنهال علي سلال البرتقال والتمر في فصل الشتاء . إنها عائلة غنية وكريمة المحتد ومن أصول عربية ، ولها فرع في دمشق الشام وآخر في مدينة الموصل (٨) .»

وفي الخامس عشر من شباط كتبت تقول :« انطلقت يوم أمس بصحبه الجنرال ستوارت - وورتلي General Stuart - Wortley في جولة على ظهور الخيل أخذتنا عبر حقول الحبوب وغابات النخيل التي بدت في أبهى حلة . لعل القطر هذا لا يضاهي إنجلترا اخضراراً ، بيد أنه يزخر بجوانب عديدة لا يمكنك إلا أن تجد فيها مصدر متعة بالغة ، فلكل نصل من أنصال أوراق النبات سحر ، ولكل ورقة من أوراق الشجر فتنة ، تحت شمس مشرقة لا يزال لدفئها مسحة من المودة .»

بسبب الظروف الخاصة ببلاد فارس وعلى رأسها ما تعانيه من نقص في الأغذية (الأمر الذي لا يشجع على السياحة فيها) نجد أن جيرتروود تفكر في احتمال القيام بزيارة أهلها في إنجلترا أثناء فصل الصيف ، بيد أن البديل هذا لم يخل هو الآخر من صعوبات توضحها نهاية إحدى رسائلها التي تقول فيها :«إن العائق الوحيد أمام زيارتي لإنجلترا هو إنني لا أرغب في التقاء أي من أصدقائي الأكرمين .»

وفي رسالة جيرتروود التالية التي سلمت إلى والدها باليد من قبل السير برسي كوكس شخصياً الذي كان قد اضطر للقيام بزيارة مستعجلة إلى إنجلترا ، نجدها تقول : « أبتاه العزيز ، أتعلم أن هذه الليلة (الثاني والعشرين من شباط) هي الذكرى السنوية الثالثة لفراقي عن «دك» . لا أعلم لماذا يتسبب تكرار هذا التاريخ بعودة الذكريات بكل هذا العنف ، بيد أن هذا ما أصبح يحصل في الواقع ، وهكذا أجد نفسي مرة أخرى أعيش ذكرى كل دقيقة تقريباً من دقائق الأيام الأربعة التي عشتها قبل ثلاث سنوات . أنت تدرك يا عزيزي مقدار محبتي لك ، إلا أن هذا الحزن الذي أخاله يكمن خلف كل مفردة من مفردات حياتي يعمد بطريقة ما إلى قتل كل رغبة واهتمام لدي سواء ما يتعلق منهما بقضاء إجازتي في الوطن ، أو البقاء

(٨) إنها حقاً من بين أعرق العوائل العراقية القديمة وأكثرها غنى وجاهاً وإليها تنتمي السيدة مديحة الجميل زوجة اللواء الركن غازي الداغستاني الذي كان يشغل منصب قائد الفرقة الثانية حتى صبيحة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ وهو والد كل من السيد تيمور الداغستاني (الذي يشغل حالياً منصب سفير المملكة الاردنية الهاشمية لدى بلاط سانت جيمس) والسيدة تمارا الداغستاني زوجة المهندس ناصر السعدون مدير عام شركة البوتاس الأردنية سابقاً - المترجم

هنا في الشرق ، أو بكل ما يحتمل أن يحدث من أمور . وعلى الرغم من كل ذلك أجد أن هذه الذكريات تسرع في كياني نبض الجوانب العقلية من حياتي لتدفعني بالنتيجة إلى العيش على الذكرى والأفكار بشكل متزايد ، سواء وجدت نفسي بصحبتكم ، يا أبتاه ، أم بعيدة عنكم ، فإنكم تبقون مصدر راحتي الحقيقية دائماً وأبداً .

ذهبت نهار الأحد الماضي بصحبة السيد بولارد في رحلة على ظهور الخيل تجولنا من خلالها في أرجاء البساتين والحقول الكائنة في الجهة الجنوبية من بغداد حيث أبهجنا منظر أشجار اللوز وهي تزهر . إن أوجه الجمال في هذه الدنيا تشكل بحق مصدر السلوان الأبدي .»

السير برسي كوكس الذي حملته جيرتروود رسالة شخصية موجهة منها إلى والدها حمل كذلك رسالتين أخريين وجهت إحداهما إلى وكيل (أو أمين عام) وزارة الخارجية والأخرى إلى صديقها الحميم السير فالنتاين شيرول .

وقد كتبت في أولى الرسالتين آنفتي الذكر والمؤرخة في الثاني والعشرين من شهر شباط ما يلي :«عزيزي اللورد هاردنج - أجد لزاماً علي أن أحمل السير برسي كوكس سلاماً موجهاً إلى شخصكم الكريم . إن دعوة السير برسي إليكم للتشاور معه لخطوة حكيمة تحظى بتقديرنا وإعجابنا ، وعلى الرغم من أننا سنفتقد وجوده بيننا إلا أنني مسرورة لهذه البادرة التي سيتم للسير برسي من خلالها إعطاؤكم صورة حية عن الوضع العام الذي نعيش الأمر الذي سيسهم في دفعكم إلى مؤازرتنا . إن الأمور تبدو قاتمة للغاية هنا وإن ضرورة استمرار بقائنا في هذا القطر لجانب يستدعي تواصل الإصرار عليه والمثابرة من أجل تحقيقه . وعلى الرغم من أنك ستستمع إلى ما لدى السير برسي كوكس من أخبار وما تم إحرازه من نتائج ، أود أنا شخصياً مع ذلك أن أعلمك بدوري عن مدى ما تم تحقيقه من خطوات إيجابية تثير الإعجاب وذلك في مضمار خلق إدارة منظمة في هذا الجزء من العالم وعلى مدى الفترة الواقعة بين شهر آذار من العام المنصرم حتى يومنا هذا . وبقدر تعلق الأمر بالإدارة فإن ولاية البصرة تعيش في ظل ظروف يخيم السلام من خلالها على ربوع المنطقة ، كما أننا لم نشهد أية مبادرة تنذر بالمشاكل في ولاية بغداد . وجدير بالذكر أن القبائل التي تتواجد في المناطق الحدودية ، والتي يعيش نصفها داخل المنطقة المحتلة ، تعمل على مضايقتنا بعض الشيء ولكن ليس بدرجة تثير القلق والمخاوف ، أما بقية القبائل فقد تم إخضاعها من غير اللجوء إلى إطلاق عيار ناري واحد . ولا يمكن القول إننا لا نواجه مقاومة تتميز بالأهمية ، إلا أن الأهم من ذلك كله هو أننا لا نواجه مقاومة تنطلق من شعور ديني ، بيد أن هذا الإنجاز ليس من

النوع الذي يتم تحقيقه من غير التفريط بالجوانب الأفضل التي يتميز بها هذا القطر ، وأن الدعم الذي طلبناه وتم لنا الحصول عليه إنما يضعنا تحت وطأة مسؤولية ثقيلة .

وكلما ازداد إحكام قبضتنا ، زاد معه مقدار احترام أبناء البلد لنا . إن ما يثير قلقهم ومخاوفهم هو أنصاف الحلول . وليس لأبناء البلد آنفي الذكر أي شك في أمر تعاملنا معهم بالإنصاف والعدل ، ولكنهم غير متأكدين أبداً ما إذا كان بإمكانهم الحصول على معاملة مماثلة من قبل الأتراك ، كما لا يمكنهم في الحين ذاته تصور احتمال قيام حكومة عربية مستقلة ، وهو تصور أشاركهم فيه أنا شخصياً إذ أن البلد يفتقر إلى العناصر التي بإمكانها الاضطلاع بهذه المسؤولية . وبقدر تمكن المرء منا من الوقوف على الرأي العام السائد - وهو جانب لا يمكن التوصل إليه إلا من خلال اللقاءات الشخصية وما يمكن تكوينه نتيجة ذلك من انطباع وآراء الأمر الذي يفضي بالنتيجة إلى بلورة صورة معينة - فإن الفكرة الوحيدة التي يمكن استخلاصها إنما تتمحور حول الخوف العام من احتمال انقلاب الميزان مما يدفع الناس إلى تغير مواقفهم مجدداً . فإذا ما قدر لنا الإصرار على الصمود بثبات تكون العاقبة خيراً وهو أمر مفهوم ومقبول ، أما خلاف ذلك فإن من شأنه أن يؤدي إلى قيام الأتراك ، أو الألمان ، أو أية جهة أخرى بوضع توجهات واضحة ليس بالضروري أن تشكل جوانب مريحة لأبناء البلد الذين يعجزون عن أخذ زمام أمرهم بأنفسهم وهو ما يدركونه بوضوح .

«وإذا ما رغبنا في الفوز بثقتهم بنا على نحو أكثر اكتمالاً وذلك خلال الفترة الزمنية الطويلة التي قد تمضي قبل أن تكون الحرب قد وضعت أوزارها - أو حتى خلال فترة قصيرة - لابد لنا من بذل قصارى جهدنا من أجل إزالة كل ما من شأنه أن يعيق إدارة القطر . إن الوضع السياسي لأكثر أهمية من الوضع العسكري ، وهو جانب يحتمل تواصله ، وقد آن الأوان لأن نولي أسبقية للاعتبارات السياسية . فدعنا نمضي قدما في مواصلة الحرب وإنجاز ما نريد في سوريا من جانب ، ونعمل على تهيئة متطلبات إحلال السلام هنا من جانب آخر . ولابد أن ندرك أن إلغاء أي قانون عسكري نافذ يصبح أمراً لابد من القيام به إذا ما قدر له أن يسهم في تنمية القطر وازدهاره شريطة أن لا يترتب على هذا الإلغاء أية عواقب سلبية ، إذ أن من شأن هذا الإلغاء أن يكون أفضل سبيل لمناهضة الدعاية التركية ورد كيدها إلى نحرها ، كما أنه أفضل بكثير من كل إجراءات فرض الحصار واعتقال الأشخاص .

وثمة أمر آخر سيعمد السير برسي كوكس من غير أدنى شك إلى طرحه وشرح أبعاده ألا وهو ضرورة أن لا يكون هناك أي تمييز إداري بين الولايتين (أي بغداد والبصرة .) فالشروط التي سيتم لنا بموجبها إدارة إحداهما لابد أن تكون ذات الشروط لإدارة الأخرى . وإذا ما كنا

ندرك هذا الجانب عندما دخلنا إلى ولاية بغداد فإننا الآن ، وبعد مضي أحد عشر شهراً على دخولنا إليها وإحكام سيطرتنا على أجزائها ، اكثر قناعة بهذا الصدد من ذي قبل ، وهي قناعة تولدت بحكم التجربة العملية .»

أما رسالة جيرتروود بيل الموجهة إلى صديقها السير فالنتاين شيرول ، والمؤرخ هو الآخر في الثاني والعشرين من شهر شباط ، فقد جاءت على النحو التالي :«عزيزي دمنول - يتوجه السير برسي كوكس إلى الوطن لقضاء فترة لاتتجاوز عطلة نهاية الأسبوع فقط إن صح هذا التعبير . إن التخطيط السليم يقتضي بوجوب دعوته إلى مقر الحكومة للاستماع إلى ما لديه من آراء وأفكار . إن فكري مشغول تماماً بمصاب آل سبرنغ رايسSpring - Rice إثر وفاة رب الأسرة السير سيسل[٩] الذي أشارك زوجته وأطفاله حزنهم على فقيدهم الراحل الذي لا أعلم عن تفاصيل وفاته سوى النزر اليسير . كان رحمه الله شخصاً رقيقاً ، وصديقاً عطوفاً ومخلصاً . وعلى الرغم من حزني على هذا الصديق الوفي فإنني أولي الأحياء أهمية أكبر من الأموات . إنني مدركة تماماً عمق حزن زوجته العزيزة فلورنس وأطفاله المساكين الذين أضحوا بسن تمكنهم من أن يشعروا بالحزن والأسى . لا أعرف التفاصيل المتعلقة بكيفية موته - لقد فوجئت بالنبأ الذي أذهلني إلى أبعد الحدود .

إنك تدرك جيداً إنني لا أكترث لما يحدث أو قد يحدث ، بيد أنني أعلم جيداً مدى رغبة والدي في زيارتي لبيت الأهل خلال الصيف ، وبذلك يسرني أن أقوم بما يجلب الراحة والسعادة له .»

* * *

في الثالث عشر من آذار كتبت جيرتروود رسالة إلى زوجة أبيها اللادي بيل من مدينة الشنافية قالت فيها :«اعذريني على هذه الرسالة المقتبضة التي يجب علي كتابتها على عجل إذ يتعين علي اللحاق بباخرة نهرية صغيرة توشك على التوجه جنوباً . أود أن أخبرك بأنني أتمتع حالياً بجولة مثمرة ومبهجة في آن واحد ؛ لقد انطلقت في سفرة بالسيارة إلى الكوفة حيث قوبلت بترحيب حار من لدن النقيب بلفور الذي استضافني مشكوراً . وفي

---

(٩) إنه زوج اللادي فلورنس Lady Florence ابنة عمة جيرتروود الذي كانت تكن له درجة كبيرة من الود كما يتضح من ملاحظاتها - المترجم

اليوم التالي التقيت عدداً من شيوخ المنطقة وتدراست معهم تفاصيل وقضايا معينة تخص العشائر . وفي اليوم التالي توجهت إلى «أبو صخير» حيث انهمكت في العمل المتعلق بالتاريخ العشائري للمنطقة . أما في اليوم الثالث فقد انطلقت برحلة على ظهر الحصان إلى حدود الصحراء ، وكان بصحبتي رجل من السادة . وقد قمت أثناء هذه الرحلة بتحديد مواقع عدد من القبائل ، كما شاهدت مناطق تتميز بأهمية خاصة وهي أماكن طالما رغبت في زيارتها وتفهم أحوالها . وشاءت الصدف أن تشهد رحلتنا هذه سماءً مدراراً أجبرتني على الالتجاء إلى كوخ مبني من الطين ، وما هي إلا لحظات حتى غدا العالم من حولي أرضاً لا يمكن اجتيازها بسبب الطين اللزج . ومع ذلك لم يذهب وقتي سدى لأنني انتهزت الفرصة لأدون التفاصيل المتعلقة بتاريخ مضيفي صاحب الكوخ وما احتواه منزله المتواضع هذا من أشياء وممتلكات . ومما يثير الاهتمام أن ذلك الجزء من حافة الصحراء يعج بآثار وبقايا تعود إلى ما قبل ظهور الإسلام . وكم تمنيت أن يكون لدي متسع من الوقت لإجراء بعض الحفريات والأبحاث .

وفي الأمس انحدرت مع المجرى الغربي الرائع لنهر الفرات ، حيث انتشرت براعم الصفصاف وأشجار التين بين غابات النخيل ، وقضيت ليلة بضيافة أحد السادة الذي أفرد لي غرفة لا شبابيك فيها أبداً فكان من الصعب علي جداً ارتداء ملابسي وترتيب هندامي لا سيما وأن نظرة مضيفي السيد إلى واجبات الضيافة كانت تستدعي تواصل وجوده قرب غرفتي مباشرة ليكون بخدمتي ويعمل على تلبية أي طلب لي عند الحاجة . كم تمنيت في سري أن يبتعد قليلاً - حفظه الله وباركه - ليمكنني من التمتع بشيء من الحرية .

انحدرت اليوم مع مجرى الفرع الثاني من النهر لأسير في بادئ الأمر عبر غابة نخيل تلتها بحيرة عريضة هي في الواقع مستجمع لمياه الأمطار ، ثم لأجتاز بعدهما موقعاً تكثر فيه المنحدرات المائية أعاقت سيرنا لما يقرب من أربعين دقيقة . وأخيراً وصلت إلى غايتي ، أي مدينة الشنافية ، حيث كان يفترض بي المكوث في مخيم ولكنني رفضت ذلك لبعده عن المدينة الأمر الذي جعله مكاناً غير ملائم لطبيعة عملي فآثرت المكوث في خيمة نصبتها في فناء أطلال سراي تركي كانت الجهود منصبة حول إعادة بنائه . وعند وصولي لم تكن الشبابيك والأبواب قد ركبت لغرفه ومرافقه الأخرى ، إلا أننا أجرينا ما ينبغي من اتصالات تم على أثرها وضع الأبواب والشبابيك المطلوبة عصر ذلك اليوم فأصبح لدي غرفة جلوس بالإضافة إلى غرفة أفردت للقائمين على خدمتي . كان البناء من طين بيد أنه مريح ويفي

بالغرض . كان على أقل تقدير خلواً من سيد يصر بإباء وشمم على البقاء قرب الباب بانتظار ما قد أحتاج إليه من خدمات !»

وفي السابع عشر من آذار كتبت من مدينة السماوة قائلة :«لم يتم لي إنجاز الكثير من العمل منذ آخر رسالة كتبتها . التقيت ركب العقيد ليجمان Colonel Leachman حاكم واحة الصحراء . إنه رجل كفؤ دأب على اصطحاب رجال واحته معه حيثما توجه ، وبسبب المعرفة السابقة التي كانت تربطني بمعظم هؤلاء الرجال ، فإن هذه اللقاءات كانت مصدر متعة لا تضاهي .

شاءت الصدف أن يكون النقيب غولد سميث Captain Goldsmith ، الضابط السياسي لمنطقة السماوة ، موجوداً في مدينة الشنافية لغرض القيام بإجراء تحقيق حول موضوع معين ، وبذلك تمكنت من السفر معه في زورقه البخاري . كانت المنطقة التي شهدتها أرضاً يباباً شق النهر فيها جروفاً عميقة ، وتضاءل منسوب الماء فيها كذلك الأمر الذي بات من العسير جدا إرواؤها ، وبذلك كادت تكون العناية بأرضها معدومة . وكان بصحبتنا شيخان من شيوخ المنطقة الأمر الذي أتاح لي فرصة مراجعة كم كبير من القيود والمعلومات المتعلقة بالقبائل .

الشخص المقدم هنا سيد طاعن في السن كان يحسب له ألف حساب أبان الحكم التركي الذي لم يرتبط به في أغلب الأحيان بعلاقة ودية . وقد تناولنا طعام الغداء معه وأخبرنا كيف أن الأتراك قاموا بإرسال قوة كبيرة للإلقاء القبض عليه قبل اندلاع الحرب مما اضطره إلى اللجوء إلى القبائل والاحتماء بها لفترة طويلة دامت عدة أشهر ، كما أخبرنا عن أمور أخرى فضلاً عن ذلك . لاشك لدي بأنه عجوز ماكر يتمتع بقدر وافر من الذكاء والاقتدار فضلاً عن اطلاعه الواسع وعلمه بكل أمور الريف العراقي . وفوق كل ذلك فإنه من مؤيدي حكومة الإنجليز العظيمة والعادلة . ولابد من القول أن السادة من أصحاب الأطيان والأملاك في منطقة الفرات يعتبرون ذخراً وسنداً لنا . وباعتبار أن معظمهم من أبناء الشيعة الذين لا يستسيغون حكم رجال السنة فإنهم يقفون موقفاً معادياً من الأتراك ، وعلى الرغم مما يتمتعون به من نفوذ وحظوة بين العشائر ، إلا أنهم يقفون بمنأى عن كل ما يشوب العلائق بينها من أوجه الضغائن والعدوات والأحقاد . إنهم صناع سلام محترفون ، وأخصائيون مهرة في مجال تهذيب الأرض ورعايتها ، كما ينصب جل اهتمامهم حول سيادة القانون وإرساء دعائم الأمن والنظام في ربوع البلاد . وهناك مجموعة متميزة من هذه الشخصيات في الشنافية والذين أجد أن إسهاماتهم في مجال تزويدي بما أريد من معلومات

لا تقدر بثمن .

أجدني في عزلة تامة عن مجريات الأمور وما شهده العالم من أحداث على مدى العشرة أيام المنصرمة ، ولكن بما أن ما يحدث من خير يكاد يكون محدوداً في يومنا هذا ، أجدني سعيدة بهذه العزلة والجهل بما يدور من أحداث .»

* * *

وفي الثامن من آذار كتبت من بغداد قائلة : «أمي الحبيبة -لطالما راودتني فكرة إخبارك بمقدار إعجابي بصمودك وإرادتك الصلبة الرائعة في مضمار معاناة ما قد كتب عليك معاناته ، والوقوف بوجهه دونما استسلام حتى نهاية الأزمة . وبرغم إحجامك عن اللجوء إلى عبارات المجاملة وأساليب الملاطفة ، لا يوجد بيننا من يمكنه أن يعكس روحاً أروع من روحك أو همة أعلى من همتك ، فرسائلك لا تنم أبداً عما يسببه لك الإجهاد والمضايقات من سأم وإرهاق لا أكاد أخفق أبداً في تحسسها من خلال رسائلك . ولعل الشجاعة تمثل الجانب الأروع مما تتمتعين به من مزايا ، وهو جانب أكاد أقف عاجزة عن وصف ما أكن له من إعجاب واعتزاز وحب .

لابد أن تكونوا جميعاً بحاجة ماسة إلى جرعة من الشجاعة . إن أخبار المعركة الكبيرة تتسرب إلينا بصورة إشاعات مرتبكة ، إلا أنكم في الوطن تعيشون كل لحظة من لحظاتها ، وأنا بدوري لا أكاد أتصور أن في فرنسا هناك من لا يزال يشعر بنعم بالحياة من بين مقاتلي كلا الجانبين المتصارعين . إنها لأسوأ محنة عرفتها البشرية منذ بدء الخليقة . إننا هنا نعيش بأمل أن يستنفد الهجوم الألماني كل ما له من زخم دونما إحراز أية نتيجة حاسمة ، ولكننا نفتقر إلى تفاصيل ما يدور على الساحة من أحداث .»

وبصدد مقتل النقيب مارشال (الضابط السياسي في النجف Captain W.M.Marshal) الذي كانت تعرفه معرفة جيدة وتكن له شعوراً عميقاً بالإعجاب ، قالت جيرتروود :«ليس لمقتله أية دلالة سياسية . توجد في النجف عصبة لعينة من الأفاقين الذين طالما تسببوا لنا بمشاكل كثيرة . إن الرأي العام يقف ضدهم ، بيد أنهم يتسترون خلف ما تتمتع به مدينتهم من قدسية ومكانة دينية كبيرة الأمر الذي يجعل من إنزال العقوبات التي يستحقون أمراً في غاية الصعوبة . إنهم يدركون هذا الواقع جيداً ، وبذلك فإن شجاعتهم التي تدفع بهم إلى الإقدام على ارتكاب المنكر إنما تكمن في قناعتهم

بأنهم يتمتعون بحماية من أية صيغة من صيغ التعرض الذي إذا ما تم فإنما يتم على حساب تدنيس حرمات مدينتهم المقدسة . إنها حالة تكاد تكون من بين سخريات الأقدار ، برغم اعتقادي الجازم بأن تزامن هذه الفتنة مع ما تم لنا تحقيقه من انتصارات ضد الأتراك يمثل جانباً لا يخلو من فائدة ، فمثلما قام التمرد بين صفوفهم فقد قدر لنا بدورنا دفع الأتراك إلى أعالي الفرات وتدمير قواتهم المعادية تدميراً تاماً في تلك الجبهة .»

وتواصل رسالة جيرترورد هذه سرد تفاصيل رحلتها في منطقة الفرات إثر مبارحتها مدينة السماوة برفقة النقيب غولد سميث . وبهذا الصدد فقد كتبت تقول :«بدأنا رحلتنا بانطلاقة رائعة عند الفجر ، وبعد أن قمنا في الصباح المشرق بغلي الماء في إبريق الشاي تناولنا إفطاراً شهياً ونحن نتابع رحلتنا النهرية باتجاه أعالي النهر . ولعله من حسن الحظ أن لا تتجاوز أحاسيسنا إطار مثل هذا المجال الضيق ؛ ففي تلك اللحظة بالذات ، عندما غمرت نفوسنا سعادة بفعل ذلك الصباح الجميل وروعة المناظر الطبيعية في منطقة الفرات ، كانت مدينة النجف تشهد مصرع النقيب مارشال . ويلتقي شط الحلة (وهو ما أسمته جيرتوود بفرع الحلة من نهر الفرات) بالفرع الغربي لنهر الفرات من خلال عدة قنوات ضيقة تتحكم بها جميعاً سدود بناها الأهالي من أبناء المنطقة . وقد حاولنا في رحلتنا النهرية السير على امتداد الخط الأكثر صلاحية للملاحة ، ومع ذلك جابهنا أول هذه السدود ببعض الصعوبات الأمر الذي أجبرنا على سلك مسارات جانبية كان التيار فيها سريعاً للغاية . وقد قام النقيب غولد سمث بقيادة الزورق بدقة بالغة ، أما بقية الركاب فقد نزلوا من القارب وانقسموا بين مشاة على الضفاف وآخرين راحوا يسهمون في سحب القارب بالحبال حتى تم لنا تجاوز هذه المرحلة .

بعد هذه السفرة ودعت النقيب غولد سمث وانطلقت برحلتي بصحبة شيخين من شيوخ المنطقة بالإضافة إلى القائمين على خدمتي . وفي حدود الساعة الواحدة بعد الظهر وصلت إلى الرميثة حيث قضيت ليلتي حتى صباح اليوم التالي . والرميثة ناحية جميلة تقبع بسكون وهدوء على حافة نهر الفرات وقد أمضيت القسم الأكبر من عصر ذلك اليوم في جمع معلومات تتعلق بالعشائر المتواجدة في المنطقة . وكان مدير الناحية على علم مسبق بوصولي وبذلك قام باتخاذ ما يلزم بصدد دعوة الشيوخ المحليين للاجتماع بي وإفادتي بما كنت أريد جمعه من معلومات . (والمدير في التقسيمات الإدارية لبلاد ما بين النهرين يختلف عن المدير في إطار التقسيمات الخاصة بالإدارة المحلية في مصر والسودان إذ أنه يعتبر في إطار التقسيمات الأخيرة موظفاً إدارياً اقدمَ تقع على كاهله مسؤولية إدارة إقليم كبير .)

غادرت الرميثة فجر اليوم التالي بصحبة مدير ناحية الرميثة . وعند الظهيرة وصلنا مضارب إحدى القبائل البدوية حيث تم استقبالنا في مضيف شيخها الذي كان أكبر رجال المنطقة أهمية . تم الترحيب بنا وفق التقاليد المعروفة حيث تناولنا القهوة العربية . وقد أدهشني قيام هذا الشيخ بما ليس من عادة البدو الرحل القيام به وهو حفر قناة لري أراض زراعية بعيدة عن النهر . ولا أود القول بهذا الصدد أن البدو من أفراد هذه القبيلة هم الذين أسهموا بالجزء الأكبر من عملية الحفر ، ولكنهم على أية حال راحوا يشرفون على عمل من تولوا عملية حفر القناة وهم جلوس في مضاربهم السود . أما أنا فانهمكت في التعرف على الشيخ المذكور واسمه صحن الشعلان ، ولم أهمل تهنئته على مبادرته الخيرة هذه وجهوده المثمرة .

إن الديوانية (التي وصلتها جيرتروود عصراً) مدينة صغيرة تقع على حافة الصحراء ، وقد كادت تختفي عن الوجود كلياً عندما شاء نهر الفرات أن يهجر شط الحلة وينساب منحدراً إلى القناة الغربية ، إلا أن سد الهندية قد عمل على إعادة جزء من المياه الأمر الذي يعني أن الحياة ستعود إلى الديوانية بعد فترة قصيرة من الزمن . وقد تمت استضافتي من قبل وكلينا في المنطقة - وهو أحد أبنائها - الذي تميز بكونه مضيافاً ولكنه ثرثار وعديم الكفاءة إلى درجة كبيرة . لقد سهر على راحتي كثيراً أثناء مكوثي في داره على الرغم من ثرثرته المتواصلة . يا إلهي ! لا أستطيع وصف ما داهمني من شعور الملل والسأم أثناء قيامه بشرح مسهب لإنجازاته في إدارة المنطقة ، ومع ذلك لم يسعني سوى الإنصات بأدب جم ! أدعو من ربي أن يجعل من معاناتي هذه ثواباً ! (لابد لهذه المعاناة أن تعتبر ثواباً لا سيما أن جيرترود لم تكن من بين من يستطيعون معاناة الملل بصبر .) وقد قضيت سحابة اليوم التالي كله في الاجتماع بعدد من شيوخ المنطقة الذين تم بفضلهم حصولي على مزيد من المعلومات المتعلقة بالعشائر . وكنت أعمد كل ليلة إلى الاجتماع بعدد من ذوي الصدارة في المنطقة ، وتناول طعام العشاء معهم ، وكان علي تحمل ما كان يدور من تفاهات وكلام عام لا جدوى منه أبداً . كان بإمكاني أن أنفجر باكية لكثرة ما كتب علي معاناته من الضجر والملل ، بل وكدت أصاب بانهيار عصبي عندما دخل عجوز من بين أعيان المنطقة وراح ينشد أبياتاً لم أسمع أكثر منها رداءة وبشاعة . لقد انصرفت هذه الأبيات إلى الإشادة بمناقب الحكومة العليا (أي الحكومة البريطانية) التي منها تعلم أبناء البشر الرحمة والعدالة ، وإلى الإشارة إلى أن تشريف الخاتون (أي أنا شخصياً) قد أضفى على الدنيا بهجة وسروراً .»

لقد ضمت الرسالة أعلاه إشارة من قبل جيرتروود تبين بموجبها أنها استلمت برقية اللادي بيل التي أعلمتها بموجبها بأنها (أي جيرتروود) قد منحت

وسام المؤسسين The Founder's Medal الخاص بالجمعية الجغرافية الملكية . The Royal Geographic Society

في الثلاثين من آذار كتبت تقول : «إنني أتقاضى راتباً قدره عشرون باوناً شهرياً – إنه دخل حقيقي تم الحصول عليه بفضل جهودي المضنية . كما انني أخضع في الحين ذاته لنظام تموين صارم الأمر الذي يجبرني على تحمل كلفة الجزء الأكبر مما أستهلك من المواد التموينية .»

ويحضرنا في هذا المجال ما رواه العقيد بلفور عن ذهابه بصحبة جيرتروود إلى مطعم الضباط الذي ما أن جلسا فيه لتناول طعام العشاء حتى قامت جيرتروود برمي الشوكة والسكين والانفجار باكية إثر إدراكها أن ما تعين علينا تناوله في تلك الأمسية لم يك سوى لحم البقر المعلب ، أي ذات نوع الأكل الذي كان قد كتب على الأفراد تناوله على مدى أسبوعين متتاليين .

وكانت فكرة قضاء إجازتها في ربوع الوطن لا تزال تراودها عندما كتبت في رسالتها التالية : «لا يمكن للمرء منا التخطيط للقيام بأي عمل لأكثر من أسبوعين بسبب هذا الصراع المرير الذي تشهده أرض فرنسا (تقصد بذلك الهجوم الألماني الكبير الذي شنته القوات الألمانية في الحادي والعشرين من شهر آذار من العام نفسه .) ما أن استفقت اليوم من نومي حتى راود مخيلتي إدراك مرعب : يالها من كارثة كبيرة إذا ما قدر للهجوم الألماني أن يكلل بالنجاح وأن يتمكن من اجتياح خطوط القوات الحليفة . وإذا ما قدر لهم الإخفاق في تحقيق الاجتياح فمتى يعيدون الكرة ثانية ، ومتى سيشعرون بوطأة بما يسببه لهم من إرهاق؟

لقد حققنا نجاحاً كبيراً في هجومنا الذي قمنا به في أعالي الفرات وما ألحقناه بصفوف القوات التركية من دمار . لقد وقعت هذه القوات في قبضتنا ، وتم لنا أسر أفرادها كافة بما في ذلك قائمقام عانة ، كما استولينا على كل ما كان لديها من مؤن وذخائر . إن هذا النصر سينهي الحرب في العراق على ما أعتقد ، وإن صديقي الجنرال بروكنج هو بطل الساعة .

كان يوم أمس ذكرى ميلاد موريس العزيز . لقد استعدت في ذاكرتي تفاصيل الحفلات التي كنا نقيمها في هذه المناسبات في ريدكار Redcar(١٠) عندما كنا طفلين .»

كانت الزيارة التي أرادت جيرتروود بيل القيام بها إلى إنجلترا جانباً مشكوكاً في تحقيقه ، وفي الثامن عشر من آذار كتبت إلى أبيها قائلة : «أشعر أن لا جدوى هناك من

(١٠) ريدكار = اسم أحد القصرين الريفيين العائدين لأسرة جيرتروود بيل في إنجلترا – المترجم

محاولة القيام بالتخطيط (لقضاء فترة إجازة في إنجلترا) طالما بقى مصير فرنسا أمراً تتقاذفه يد الأقدار ، فضلاً عن ذلك فإن توفر فرص السفر ووسائطه لابد أن يكون بالحد الأدنى ، إن لم يكن معدوماً ، وبذلك لا يمكن لأحد منا تصور ما ستؤول إليه الأمور ، وما إذا ستتمكن هذه الأمور من تصويب وضعها . وعلى أقل تقدير ، سيتمكن السير برسي كوكس من إحاطتكم علماً عن أوضاع الرحلة ومخاطرها ، وفي ضوء ذلك بإمكانكم استشارة اللورد هاردنج ووزارة البحرية حول الأمر إذ أن في حالة توجهي إليكم ستضطرون على ما أظن إلى نقلي عبر البحر الأبيض المتوسط ببارجة حربية ، وعليه لا أظنكم ستتمكنون من الاتفاق مع أي شخص أوجهة حول الترتيبات الخاصة بهذا الصدد حتى يتضح أمرما سيؤول إليه مصير فرنسا .

ولابد أن يكون القرار المتعلق بأمر رحلة جيرتروود قد تم التوصل إليه في ذات الوقت الذي كانت تكتب رسالتها آنفة الذكر ، فقد استلمت مساء اليوم التالي برقية من السير برسي كوكس يعلمها فيها بأن والدها لا يحبذ فكرة قيامها بالرحلة في تلك الظروف . وقد اعتبرت جيرتروود قرار والدها إجراء حكيماً ، بيد أنها شعرت بكثير من الآسى لما تسببه هذا القرار من خيبة أمل لوالدها ومع ذلك فإنها تشبثت بأمل ضعيف مفاده أن في حالة تواصل إصرار والدها على مجيئها إلى الوطن فإنه من المحتمل جداً أن يتمكن من تدبير وسيلة ما لتحقيق هذا الهدف في غضون شهر أو اثنين . وهكذا فإن رسالتها التالية ، والتي كتبتها في وقت لاحق من تلك الليلة ذاتها ، أي في الثامن عشر من آذار ، تنصرف على نحو غير متوقع إلى الحديث عن الشؤون اليومية . وهكذا نجدها تقول :

«سأواصل إذاً سرد تفاصيل وقائع الحياة هنا على الرغم من ابتعاد أفكاري عنها . لقد عمد الجنرال ستوارت وورتلي General Stuart Wortley إلى تزويد داري بما يحتاج إليه من الإضاءة الكهربائية والمراوح . لا أجدني محتاجة لاستخدام المراوح أما الإضاءة الكهربائية فلها فائدة كبيرة القيمة ، وإن أقل ما يمكنني القول عنها هو إنها مصدر راحة ورفاهية لا حدود لهما . الطقس لا يزال منعشاً بشكل يثير العجب ، كما تهطل الأمطار بين يوم ويوم على غير المعتاد في هذا الوقت من السنة .»

وفي الرابع والعشرين من آذار كتبت تقول : «حضر لمقابلتي اليوم رجل كنت قطعت الصحراء بصحبته من دمشق في عام ١٩١١ ، ورافقني في رحلتي إلى شبه جزيرة العرب في عام ١٩١٣ ولكنني افترقت عنه في بغداد في عام ١٩١٤ . إنه علي شقال . كان في الواقع إنساناً كسولاً مما أثار غضبي ودفعني إلى الافتراق عنه حال وصولنا إلى بغداد . ومع ذلك فإن

وجوده معي لم يخل من منفعة أثناء تلك الرحلة الصعبة التي قادتنا إلى حائل . وعلى الرغم من استقبالــي لــه بوجــه متجهم إلا أنني قدمت له هدية في نهاية المقابلة ووعدته بالمزيد إذا ما انتهج سلوكاً أفضل . وكان يسكن في مدينة هيت عندما تم لنا الاستيلاء عليها ، فسارع إلى الانضمام إلينا من خلال ارتباطه بضابط الاستخبارات ، صديقي الرائد ايدي Major Edie ، وقد تم ذلك بناءً على سابق معرفتي به . وعندما زارني الرائد ايدي في وقت لاحق ، أخبرني بجدوى هذا التعيين بعد أن ثبت لديه ما يتمتع به علي شقال هذا من معرفة واسعة بكل ما له علاقة بالصحراء السورية وهو ما سبق لي اكتشافه شخصياً أثناء مصاحبته لي في رحلتي آنفة الذكر .

إن أحداث النجف بدأت تشهد نهايتها لصالحنا . لقد أخذ الفساد والفرقة يدبان في صفوف المتمردين ، بينما اخذ أصدقاؤنا يكتسبون مقداراً أكبر من الشجاعة والعزم لاسيما بعد أن تم تسليم العديد ممن أسهموا في قتل النقيب مارشال إلى قواتنا . أتوقع أن يتم إعدامهم شنقاً وهو ما آمل أن يتحقق . لقد تمت معالجة القضية بكفاءة ومهارة بفضل جهود كل من النقيب ولسون Captain Wilson(١١) والنقيب بلفور .

لا اظنني قد أخبرتك سابقاً عن النقيب ولسون الذي أعتبره شخصاً رائعاً . كان في بداية تعارفنا يعتبرني «كائدة أو متآمرة بالفطرة» وكنت بدوري أنظر إليه بعين الشك والريبة انطلاقاً من إدراكي برأيه عني .(وأذكر الآن أنني جابهت بعض الصعوبة عند أول وصولي إلى هذا الجزء من العالم وهو أمر يثير فيَّ الضحك كلما تذكرته .) ولكننا أصبحنا صديقين

---

(١١) الذي أصبح فيما بعد السير أرنولد ولسون والذي شهد العراق إبان إدارته انبثاق «ثورة العشرين» . تم اختيار ولسون لتولي منصب الحاكم الإداري العام بالوكالة إثر نقل شاغله السير برسي كوكس إلى طهران في نيسان من عام ١٩١٨ ليكون وزيراً مفوضاً لبريطانيا لدى البلاط الفارسي . كان ويلسون حينذاك ضابطاً في الرابعة والثلاثين من عمره . وقد أثار تعيينه في هذا المنصب الهام تساؤلات عديدة بسبب وجود ضباط بريطانيين عاملين في العراق ممن كانوا أقدم منه رتبة وأكبر سناً . ولعل السبب يعود إلى أن الرجل هذا كان يجمع بين النزاهة والإخلاص والدأب على العمل بعيداً كل البعد عن استغلال كان يتيح له مثل هذا المنصب من حياة مترفة . وفي خلال عامين فقط نجح في تكوين جهاز إداري ثبت أنه أفضل من أي جهاز تركي قبله من وجوه عديدة . ولعل مشكلة ولسون كانت تكمن في إخفاقه تماماً في فهم المجتمع العراقي كما فهمه كوكس من قبله . فضلاً عن ذلك فإنه أخفق على ما بدا حتى في فهم روح الزمن الذي كان يعيش فيه . كان ويلسون نتاجاً نموذجياً لفكرة الهيمنة البريطانية وسيادة أمبراطوريتها لا سيما على أبناء الشعوب التي كانت تعتبر==

حميمين في النهاية ، وأجدني معجبة بما يتمتع به من من ذكاء حاد . ولعلني قد أسهمت بعض الشيء في تثقيفه ، إلا أنه يسعى إلى تثقيف ذاته شخصياً ، أتتوقع أن يحقق تقدماً مطرداً ليصبح رجلاً ذا شأن كبير في يوم ما . إنه يزداد تسامحاً وصبراً وسيصبح رجل دولة كبير ، إني أهوى العمل معه .»

إلا أن هذه الحال (أي العلاقة بين الاثنين) لم يكتب لها التواصل إذ سرعان ما اصطدم أحدهما بالآخر . إن الصعوبة التي نوهت جيرتروود عنها كانت من غير أدنى شك ترتبط بواقع مفاده أن وجودها في العراق قوبل بادئ ذي بدء بشعور من عدم الارتياح ، بل وحتى الرفض ، من قبل إدارة لم تكن قد اعتادت التعاون مع امرأة في مجال العمل السياسي .

* * *

بعد إقامة قصيرة في مدينة الرمادي قضتها جيرتروود على مدى خمسة أيام عادت إلى بغداد . وفي التاسع من شهر أيار كتبت تقول :

«إن آخر زيارة قمت بها لمدينة الرمادي كانت في شهر نيسان من عام ١٩١٤ حيث قضيت ليلة بضيافة شيخ الدليم علي سليمان وذلك قبل قيامي باجتياز الصحراء السورية

== «متخلفة» ، ولمفهوم «الدول المتحضرة» الذي تبلور وثبتت جذوره في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، إلا أن هذه الفكرة إلى جانب مفاهيم فكرية وسياسية أخرى قد اهتزت وانقلبت بفعل الحرب العالمية الأولى . كان يؤمن بمفهوم «رسالة الرجل الأبيض» وبضرورة تطبيق مبدأ الشاعر البريطاني الكبير جون ملتون John Milton الذي يقول : «لا ينبغي لبريطانيا أن تنسى رسالتها في تعليم الأمم كيف تعيش .» وبذلك كان ويلسون يطمح في أن يلعب في العراق ما لعبه اللورد كرومر من دور في مصر والذي إليه يعود الفضل أساساً في تاسيس الجهاز الإداري الحديث في مصر وإنقاذها من الديون التي خلفها الخديوي إسماعيل . وكان ويلسون يشمئز من سياسة الوعود والتملق التي اتبعتها بريطانيا مع العرب ويستهين بدعاتها أمثال لورنس إذ يعتبرهم من المثاليين الذي يغلب عليهم الخيال والعاطفة ولا يفهمون الجوانب العملية من الأمور ، فالعرب في رأي ويلسون «أمة شعر لا أمة عمل .» واستناداً إلى ذلك كان ويلسون يرى أن العراقيين غير قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم الأمر الذي تطلب تدريبهم على حياة الحرية قبل منحهم إياها ، وبذلك رأى وجوب تأسيس إدارة بريطانية حازمة من الطراز الذي عرفته الهند ، كما رأى وجوب استثناء العراق من مشروع شريفي يضعه تحت ولاية أحد أبناء المغفور له جلالة الملك الحسين بن علي(أي النمط الذي كان لورنس ووزارة الخارجية البريطانية يحاولون تطبيقه) . وفي هذا المجال بالذات يكمن خلاف ولسون مع جيرتروود على نحو ما سنرى لاحقاً من خلال نصوص رسائلها - المترجم .

في طريق عودتي إلى الوطن . إن الرمادي مدينة جميلة تمتاز بشوارع عريضة وبيوت كبيرة تنتصب وسط حدائق غناء . وكانت الرحلة إليها ممتعة للغاية فقد تمكنت هذه الواحة النابضة بالحياة من أن تجعل الصحراء مزهرة بفعل ما انتشر في الأغوار والتجاويف الأرضية فيها من ورود آذان الدب الصفراء ، والمريمية الوردية وإلى غير ذلك من الورود التي تنتشر في البراري .

بعد تناول الشاي انطلقت بصحبة الجنرال برووكنج General Brooking في جولة بالسيارة تفقدنا من خلالها مسرح المعركة التي خاضتها قواتنا في شهر أيلول الماضي ، وقد شرح لي تفاصيل ما دار في كل موقع من مواقع المعركة التي كان قد شارك فيها . إنها فرصة فريدة إذ قلما يتمكن المرء منا من زيارة مسرح معركة معينة بصحبة من قام فعلاً بإدارة العمليات فيها ، وقد أثار كلامه اهتمامي بشكل أكبر بسبب ميله إلى الأسهاب في سرد التفاصيل المتعلقة بالحدث .

وفي صباح اليوم التالي انطلقت بالسيارة إلى مدينة هيت حيث قضيت الليلة في مقر القيادة العامة . وفي اليوم التالي تناولت طعام الغذاء مع مساعد الضابط السياسي ، النقيب ييتس Captain Yetts ، الذي وجدته لطيفاً وممتعاً للغاية . ولقد حدث أثناء هذه الزيارة أمر غريب جداً - هطلت الأمطار بغزارة طوال عصر ذلك اليوم ، السادس من أيار ! إنها لمعجزة حقاً . أما في فترة بعد الظهر فقد انهمكت في دردشة مع الرائد ايدي وأنا أستمتع بالشعور بالبرد . وبعد أن انقطع هطول المطر ، وانقشع السحاب قمت بزيارة عمدة هيت ، الذي وجدته شخصاً كثير الفائدة ، كما التقيت عدداً من أعيان هيت بمن فيهم علي العقيلي الذي كان بصحبتي أثناء سفري إلى حائل ، أما الآن فإنه يعمل بإمرة الرائد ايدي . وقد اصطحبني علي العقيلي فجر اليوم التالي في رحلة على ظهور الخيل زرنا من خلالها مكاناً أثرياً لم يسبق لأحد الوصول إليه . وقد قررت نتيجة هذا الاكتشاف القيام بإجراء ما ينبغي من حفريات أثرية في الخريف المقبل وذلك في ظل رعاية الجنرال برووكنج .

بعد الفطور جاء لمقابلتي جمع كبير من معارفي السابقين بمن فيهم صاحب النزل الذي سبق لي المبيت فيه ، والضابط حسين الذي سافر معي في عام ١٩٠٩ ، وهكذا رحنا نتبادل أطراف الحديث ونتناول الطعام فكان بذلك لقاء ممتع برغم ما ترتب عليه من كلفة باهظة بعض الشيء .

أتيحت لي فرصة تناول الشاي مع السيد نالدر Mr. Nalder ، الضابط السياسي ، والانهماك معه في حديث شامل ومسهب . وفي صباح اليوم التالي قام بدعوة الشيخ علي

سليمان وغيره من شيوخ الدليم الأمر الذي مكنني من إجراء دراسة تحليلية تتعلق بالعشيرة ، وقد انهمكت في هذا العمل حتى ساعة الغداء . وفي المساء قمت بإلقاء محاضرة على الضباط وضباط الصف تتعلق برحلتي إلى شبه جزيرة العرب وقد تخلل المحاضرة عروض لصور فوتوغرافية بواسطة الفانوس السحري الذي لم يثبت بالجودة التي توقعتها ، بيد أن المستمعين كانوا جمعاً رائعاً يتمنى أي محاضر أن يحظى بمثلهم وذلك في ضوء ما أبدوه من اهتمام ورغبة في المواضيع التي تطرقت إليها . وفي اليوم ذاته اصطحبني السيد نادلر برحلة في السيارة توجهنا من خلالها إلى مضارب الشيخ علي سليمان .»

في العاشر من أيار كتبت جيرترود إلى صديقها السير فالنتاين شيرول قائلة «يتعين علي إجابة رسالتك الرقيقة التي أرسلتها من آرنكلف Arncliffe ورونتون Rounton . ليباركك الرب أيها الصديق العزيز على قيامك بموافاتي بأخبار أسرتي .

أجل ! نحن بخير في هذا الجزء من العالم . حتى الفتنة التي قامت في النجف قد أخفقت في تحقيق أهدافها بعد أن كان بإمكانها أن تشكل حدثاً في غاية الخطورة . لقد أضحى زعماؤها في قبضة أيدينا ، كما أن الرأي العام في النجف على الصعيدين الديني والعلماني يقف إلى جانبنا . لقد دفعنا ثمناً باهظاً بوفاة النقيب مارشال بيد أنه ثمن لم يذهب سدى . ولقد جاء فتح مدينة هيت في الوقت المناسب من الناحية النفسية ، كما تم لنا القضاء على شبكة التآمر والخداع التركية الألمانية بأكملها ، وبذلك لا أظننا سنواجه أية صعوبة أو مشكلة بعد الآن في منطقة الصحراء السورية .

لقد حل اللورد ولنجدون وزوجته اللادي ولنجدون Lord and Lady Willingdon ضيفين علينا ، وكان لوجودهما بيننا أثر كان من شأنه أن يجدد قوانا وينعشنا ، وقد احتل اللورد ولنجدون مكاناً رحباً في صدري نتيجة تعاطفه مع إنجازاتنا الإدارية وتقديره لما قمنا به في هذا المجال وتشجيعه لنا على مواصلة العمل ، ولابد لي من القول أن نشاطنا في مناطق الفرات شكل دعاية حسنة لنا في هذا العام ، فقد انتشرت على جانبيه المحاصيل الزراعية . وأما ما يجعل الحياة منسجمة ولطيفة فإنما يأتي بفعل الزمالة الطيبة التي تربطني ببقية العاملين بريطانيين وعرباً على حد سواء . لقد أقمت حفلة شاي للسيدات قبل عدة أيام لبتها كل البارزات منهن . عزيزي ديمنول ، أنه لمصدر راحة وفخر أن يشهد المرء منا التقدم المتواصل والحثيث الذي يتم تحقيقه في هذه البلاد .»

* * *

وفي الثالث عشر من أيار كتبت إلى والدها قائلة : «أبتي الحبيب - يغادر النقيب روزفيلت منطقتنا يوم غد متوجهاً إلى فرنسا وقد عرض علي مشكوراً حمل أية رزمة أود إرسالها ، وبذلك أرسل إليكم حلساً(١٢) تركمانياً آمل أن ينال استحسانكم ورضاكم فقد بقي بحوزتي بحدود عام زاد من خلاله إعجابي وتعلقي به ، كما أرسل إلى الوالدة الحبيبة قطعة قماش مطرزة بأسلوب فارسي جميل ، أما للعزيز موريس فأرسل له خرجاً من النوع الشائع بين أفراد عشيرة الجاف (في شمال العراق) وهو أجمل ما شاهدت من أنواع الخرجةالتي توضع على ظهر الدواب . وبهذا الصدد يسعدني القول أيها الأعزاء بأنني لا أجد ما يمكنه أن يرقى إلى مستوى التعبير الصادق عن مدى حبي وتقديري لكم جميعاً .»

ثم كتبت في الثامن عشر من أيار قائلة : «إنها السادسة صباحاً ، وأنا أجلس في حديقة منزلي مكتفية بارتداء قميص النوم فقط . إنه صباح مشرق وجميل - فالأزهار لا تزال متوردة ، وغزالي يقبع بهدوء ورضى تامين تحت ظلال إحدى شجيرات الدفلى ويشغل نفسه بأكل ما يوجد من حشائش على جانبي الساقية . إنها صورة تعكس بوضوح حلول فصل الصيف برغم أن درجة الحرارة لا تزال معتدلة كما لا تزال النباتات محتفظة بنضارتها . لقد أمضيت أسبوعاً كاملاً بعمل لا يمكن اعتباره أكثر من مضيعة للوقت بسبب زيارة المفتش العام الذي يصر على الذهاب إلى المكتب في الخامسة صباحاً . إنه يهوى الخروج بالسيارة في رحلات قصيرة إلى المناطق الصحراوية ، وقد اعتدت مصاحبته ، وكانت رحلاتنا هذه تقودنا في أكثر الأحيان إلى التجول في العديد من الأماكن سيراً على الأقدام . وكنت في أغلب الأحيان كذلك أتناول طعام العشاء معه على ظهر سفينته النهرية التي كانت مقر عمله وواسطة نقله في آن واحد ، ولابد من الاعتراف بأنها وسيلة نقل في غاية الراحة بالإضافة إلى كونها أسلوباً باذخاً في العيش .»

وفي الرابع والعشرين من أيار كتبت ما يلي : «لقد انهمكنا في عمل يتعلق بأسبوع الصليب الأحمر الذي توج نشاطه بحفلة رسمية أقيمت مساء اليوم في الحدائق العامة ، وكانت حفلة ناجحة للغاية بفضل تعاون أبناء الجالية اليهودية في إقامتها . و كان بين المدعوين العديد من وجهاء البلد المحليين الذين تم لهم التعرف على القائد العام (للقوات البريطانية في بلاد ما بين النهرين) ، وقد قمت بدور الترجمان . وفي نهاية الحفلة ألقى القائد العام كلمة أعدت بهذه المناسبة من قبل النقيب ولسون وبإسهام مني .

(١٢) الحلس = هو القماش الذي يوضع تحت سرج الحصان أو فوقه وهو غير العدل - المترجم

لست متأكدة ما إذا كنت (تخاطب أباها) مدركاً من هو النقيب ويلسون - إنه نائب المفوض السياسي والقائم بأعماله حالياً وذلك بسبب غياب السير برسي كوكس ، شخص رائع للغاية ويتمتع بقابليات ومواهب خلاقة . إنه في الرابعة والثلاثين من العمر ويجمع بين القدرتين البدنية والعقلية ، وهو أمر نادر للغاية . إنني أتفانى في خدمته ، وأعتقد جازمة بما سيكون له من شأن عظيم في المستقبل . لا أظنني قد التقيت أحداً يتمتع بمثل قدرات ويلسون وطاقاته غير الاعتيادية .»

وفي الحادي والثلاثين من أيار كتبت تقول : «وصلتني رزمة تحتوي على جوارب حريرية ، ودبابيس للشعر وزوج من الأحذية بلون أبيض جذاب . وصل في وقته المناسب إذ أنني قد سئمت بروز أصابع قدمي من حذائي الذي اعتدت لبسه في الآونة الأخيرة . وأشعر بأن أناقتي قد اكتملت لا سيما إثر قيام اللادي وولنجدون Lady Willingdon هذه المخلوقة الملائكية ، بإرسال عدد من قبعات «التوبي»[١٣] Topis وقطع من قماش الموسلين . آمل أن يضفي عليّ ذلك كله مظهراً يعكس الطهر والعفاف برغم كل ما لدي من شكوك بذلك !

من المقرر قيامي يوم الاثنين بإلقاء كلمة على منتسبي القوات المسلحة البريطانية تتعلق بأسفاري في مناطق الجزيرة العربية ، أما مساء الثلاثاء فقد تقرر أن أوجه هذه الكلمة إلى الأوانس والسيدات البريطانيات في القاعة المخصصة للعروض السينمائية . ولقد طرق سمعي إن سيدات المجتمع قد تهافتن على شراء فساتين جديدة ! إنني أخشى مما سينتابهن من شعور بالإحباط على ما أتصور عندما يكتشفن عدم تمكنهن من التباهي بما سارعن إلى أقتنائه وذلك بسبب ظلمة المكان ومساحته الضيقة .»

* * *

وفي السابع من حزيران كتبت إلى صديقها السير فالنتاين شيرول قائلة : «عزيزي ذومنول - أعلمني والدي كيف نجحت في إقناعه بالرجوع عن رغبته في استدعائي للسفر إلى الوطن . وبهذا الصدد ، أجدني عاجزة عن التعبير عن عظيم امتناني لما قمت به من جهد . إنك تدرك عدم رغبتي في المجيء ومع ذلك أشعر بوجوب التزامي بتلبية طلب الوالد في حال إصراره على تنفيذ إرادته . يالها من رحلة شاقة إذ أن القيام بها يتطلب من المسافر

---

(١٣) التوبي - قبعات مصنوعة من الفلين اعتادت الأوانس والسيدات البريطانيات ارتداءها في المستعمرات - المترجم

قضاء فترة تقارب الثلاثة أشهر بين السفر ذهاباً وإياباً - وهي فترة يجد المرء فيها نفسه عاجزاً تماماً عن القيام بأي عمل . إنني أتطلع بشوق إلى زيارة بلاد فارس ، إن بإمكاني الوصول إلى منطقة الجبال الجميلة بأقل من ست وثلاثين ساعة ، ناهيك عما ستتاح لي من فرص لدراسة الوضع هناك ، والذي بات يتميز بالغموض وعدم الاستقرار بشكل متواصل . إننا نقوم بعمليات في إطار فراغ تام على ما أتصور . كم أتمنى أن يكون لدينا هناك شخص يتميز بالحزم والدراية والكفاية .

إنني أزداد حباً لبلاد وادي الرافدين التي أواصل اكتشاف خفاياها والتعرف عليها على نحو متزايد بمرور الأيام واستمرار مكوثي فيها . بدأت التعرف على السيدات (العراقيات) من خلال إقامة المناسبات والحفلات لهن - إنهن يهوين زيارتي ، حتى المحجبات منهن . هل تدرك ياعزيزي دومنول أن لا أحد يمكنه القيام بمثل هذا النشاط هنا غيري أنا ؟ ستثبت لك الأيام حقيقة ما أقول .»

* * *

وفي الرابع عشر من حزيران كتبت إلى ذويها قائلة : «أهلي الأعزاء -كان الجو اليوم حاراً للمرة الأولى ، فعندما خرجت بصحبة الجنرال ستوارت - ورتلي وفرانك بالفور في نزهة على ظهور الخيل كانت الريح تعيد إلى أذهاننا ما تتميز به لسعاتها من لهيب حارق . ولا بد أن أذكر ما يتحلى به الجنرال ستوارت - ورتلي من رقة ودماثة خلق ، وإنه لمن دواعي سروري أن أجد أنه يعرف كل من أعرف من الأشخاص ، ويعود الجانب الأهم في علاقتنا إلى كونه يوركشاريا الأمر الذي يجعلني قريبة إلى قلبه .

انطلقت على ظهر جوادي في الصباح الباكر من يوم الأحد ، وقبل موعد وجبة الفطور ، في زيارة لصديقي القديم الحاج تاجي في بستانه . جلسنا بفيء أشجار التوت نأكل من ثمارها ونحتسي القهوة ونتجاذب أطراف الحديث حول مختلف الجوانب المتعلقة بالحكومة البريطانية . ولقد أرسل لي اليوم عينات من أول نتاج لبطيخ هذا الموسم باعتبارها ، وعلى حد تعبيره ، «نماذج فقط ! لا هدايا» وفي يوم الاثنين قمت برحلة إلى مقر لواء الخيالة - كانت رحلة نهرية قطعت فيها مسافة عشرة أميال اتجاه أعلى النهر (أي السير ضد التيار) . كان الهدف من الرحلة قيامي بإلقاء محاضرة على بعض منتسبي اللواء . بعد ذلك انطلقت في نزهة بالسيارة إلى الصحراء فوصلتها عند الغروب ، و تمت استضافتي في

خيمة قبعت بهدوء بين أشجار النخيل والطرفاء المطلة على النهر . وقد تناولنا طعام العشاء وكان من جملة الموجودين ضابط شاب يدعى بجي Bigge من مدينة مدلتون تايس Middleton Tyas في إنجلترا ، وكان زار راونتون حيث حضر إحدى حفلاتها ، كما أنه يعرف أخي موريس . وفي يوم الثلاثاء عبرت النهر إلى الضفة المقابلة حيث ألقيت محاضرة أيضاً على أفراد وحدة عسكرية أخرى .»

ومن خلال رسالة كتبتها في الحادي والعشرين من شهر حزيران تحدثت جيرتروود بيل عن عدد من المحاضرات التي سرها جداً إلقاؤها على مختلف الفئات ، وبهذا الصدد نجدها تقول : «يمكنكم الاستنتاج من خلال ما كتبت أنني لست في أحسن حال فقط إنما أقضي في الواقع وقتاً ممتعاً لم أشهد له مثيلاً منذ فترة طويلة جداً ، ولعله حال أشبه بمن يتناول جعة لا تعتبر من بين الأصناف الممتازة ولكنها على الأقل ليست ماءً أجاجاً ! إني أجد في لقاء الناس والاختلاط بهم متعة كبيرة برغم أنهم - باركهم الرب - ليسوا من بين من يثيرون الاهتمام بشكل ملفت للأنظار . ومن جانب آخر فإنني أتطلع بشوق إلى القيام برحلة إلى بلاد فارس إذ بدأت أسأم مكوثاً خلواً من الأسفار والمغامرات ، أما في إيران فسيكون أمامي مجال واسع لمشاهدة مناطق جبلية رائعة قرأت عنها في الكتب ، كما قرأت عن سيرة اللخميين ، ناهيك عن قدرتي على اغتنام الفرصة للتحدث بالفارسية - وفوق كل ذلك سأجد هناك مجالاً للهروب من عناء المكتب وروتينه اليومي القاتل .

إن الساقي الخاص بي وكبير خدمي ، طوبيا ،(١٤) الذي أعجز عن تثمين ما يقدمه لي من خدمة ممتازة قد نجح في تطوير قدراته وإمكاناته ليصبح خادماً من الدرجة الأولى وفق كل المعايير والحسابات . وله طفل صغير أجده بين الفينة والأخرى يدرج بخطى قصيرة ومضطربة في أرجاء حديقتي ، وما أن يراني أمامه حتى يهرع إلي ويسارع إلى تناول يدي وتقبيلها برقة وخشوع . رباه ! كم أجده قريباً إلى قلبي . كما أن البستاني قد رزق بغلام يبلغ من العمر الآن بحدود الأسبوعين - لقد ولد في حديقة داري ، ويبدو وهو ملفوف في قماطة أشبه بحشرة في الطور الذي يعقب اليرقانة منه بطفل رضيع . ترى كيف يكتب لهؤلاء المواليد البقاء والنمو؟ لطالما جابهني هذا التساؤل !»

---

(١٤) طوبيا : من أسماء العلم المذكرة في العبرية وكذلك في اليونانية Tobia وهو من الاسماء المألوفة بين المسيحيين الكلدانيين من سكان الأرياف في محافظة نينوى (الموصل) لاسيما في مناطق تل كيف والقوش وبحشيقة وبطناية . - المترجم

وفي الثامن والعشرين من حزيران كتبت تقول : «إن خططي المتعلقة بسفري إلى بلاد فارس جاهزة للتنفيذ ، فالقائد العام الذي يستعد لقضاء إجازة في الهند قد تفضل بترك سيارته في خدمتي ، كما أن الجنرال غلمان General Gillman يقوم بما ينبغي من الإجراءات اللازمة لنقل حاجياتي بما في ذلك الدواب التي سترافقني بغية نقل أمتعتي وإلى غير ذلك من الحاجيات ، أما المهر الخاص بي فقد سبقني في الذهاب إلى فارس . الجو حار وخانق ، والمرء منا ينتابه ذلك الشعور القاتل بالخمول والوهن وهو شعور يكاد يقتصر على فصول الصيف الحارة . سوف أكون في غاية الراحة والسعادة عندما يحين وقت السفر .

يزورنا في هذه الأيام رئيس طائفة عبدة الشيطان[١٥] (كذا) وهو رجل مثير للاهتمام تمكن من الاستحواذ على إعجابنا به وتقديرنا له . إن طائفته تقطن في أعالي منطقة الموصل ، ويتطلع أبناؤها إلى قدومنا إلى ديارهم بغية مساعدتهم في محاربة الأتراك وهو ليس بالأمر السهل في الوقت الحاضر . آمل مخلصة أن نتمكن من القيام بمساعدتهم بشكل ما أو بآخر . إنهم قوم ودودون ولطفاء وتربطني بالبعض منهم علاقة صداقة قديمة .

إن الأخبار الواردة من أوربا تبشر بالخير على ما يبدو وإن الأوضاع أفضل مما كانت عليه الأمر الذي من خلاله لا يمكن للمرء منا سوى التفاؤل باحتمال تجاوزنا الجوانب الأسوأ من الأمور . ومن جانب آخر فإن الأتراك يمثلون الحلقة الضعيفة من الكتلة التي تقف إلى جانب ألمانيا ، كما أن الأحقاد البلغارية القديمة تنبعث مجدداً على ما يبدو . الله أعلم بما ستؤول إليه الأمور . إن أسوأ ما في الأمر هو عدم امتلاكنا ما من شأنه دفع حلفاء ألمانيا إلى نبذها . على أية حال الوقت لا يزال مبكراً للتفكير في هذا الجانب .»

وفي الخامس من حزيران كتبت جيرتروود إلى والدها تقول : «والدي العزيز – لدي من النقود ما يغطي حاجتي ويخدم مصلحتي . فلماذا تصر على منحي المزيد منها ؟ ومع ذلك لابد لي أن أقول لك إنني أرغب فيها لانها تأتي منك ، ولأنها هبة منك . أو ليس كل ما يخصني ويتعلق بي منحة وهدية منك ؟ أقصد كل ما هو قيم ، وجدير بأن يمتلك .

---

(١٥) هكذا وردت بالنص وقد ترجمتها كما وردت أمانة . والمقصود هنا بطبيعة الحال أبناء طائفة اليزيدية الذين تقوم عقيدتهم أساساً على الغلو في يزيد بن معاوية وتقديس الشيطان . ويتواجد أفراد هذه الطائفة في قضائي سنجار والشيخان(لواء الموصل – محافظة نينوى في يومنا هذا) من شمال العراق .ولهم وجود كذلك في سوريا (حلب) وفي أرمينيا وبلاد القوقاز ، بيد أن غالبيتهم في العراق حيث يتراوح عددهم بحدود ٤٠,٠٠٠ نسمة . وهم يقدسون في العراق مقاماً باسم الشيخ عدي ويطلقون على كتابهم المقدس اسم الجلوة – المترجم.

اليوم هو الجمعة ، وسأتوجه إلى فارس مساء يوم الثلاثاء المقبل . تصور ؛ بعد عامين ونصف العام من عمل كاد يكون متواصلاً لا يمكنني وصف مقدار لهفتي وتطلعي إلى هذه الفرصة ، كما أجدني عاجزة تماماً عن وصف ما تنطوي عليه من روعة وما تثيره في نفسي من مشاعر . إن الوضع في بلاد فارس على ما نظن فوضوي ومأساوي إلى حد الجنون ، وأخالني مهتمة جداً في مشاهدة الأوضاع على ما هي عليه في الواقع وتقييمها وفق ذلك .

أجل يا أبتاه ! أتفق تماماً معك : السير برسي رجل خجول ومتحفظ ، بيد انه إنسان رائع عندما تعرفه جيداً ، إنه حقاً رجل إنساني حقيقي بكل ما لهذه العبارة من أبعاد . انه يعاني على ما أظن من مرارة العيش مع زوجة لا تهتم بأي شيء بالمرة ، ولا أظنه يتوقع أن يحظى منها في يوم ما بأية صيغة من صيغ التعاطف أو الفهم ولطالما عاش السير برسي حياته منطوياً على نفسه . ولابد لي أن أقول لك يا أبتاه الحبيب أن إدراك المرء منا بحب الأهل والمقربين ، وشعوره بمقدار تفهمهم لشعوره وتعاطفهم معه ، لأمر رائع بل هو منة فضيلة . إن المرء منا يتوقع أن يجد الود والعشرة من لدن الآخرين من بني البشر وهو أمر طبيعي على ما أعتقد .

وما زلنا في محضر الحديث عن النقود أود أن أقول إنني قد أنفقت الكثير منها هذا العام . لقد ذهب جزء مما أنفقت لتمويل جوانب حميدة كإقامة حفلات الاستقبال لاسيما الحفلة الخاصة بالسيدات البغداديات ! أما الجزء الآخر فقد تلاشى إلى حيث لا أعلم ولا يمكنني بيانه ! ترى كيف تضيع الأموال وتتلاشى؟ لا أظنني قادرة على الإجابة على هذا التساؤل . بيد أن هناك أمراً مفرحاً للغاية : لقد عثرت على قطعة قماش مطرزة على الطريقة الفارسية . إنها رائعة ولكنني قاومت رغبتي الجامحة في شرائها !

بالمناسبة : أرسلت لكم قطعاً من فرو الاستراخان[١٦] أرجو تسليمها إلى العزيزة إيلسا .»

(١٦) فرو الأستراخان (أو الأستراجان) = فرو الخروف الفارسي - المترجم .

الفصل السابع

١٩١٨

كانت العطلة التي قضتها جيرترود في بلاد فارس قد بدأت عندما باشرت بكتابة رسالتها التالية في الحادي عشر من شهر تموز من مخيم الضيافة الخاص بالقيادة البريطانية العامة في منطقة طاق جراه :

«شاء الحظ أن يسهل مهمة وصول رسالتي هذه إليكم بواسطة العقيد غودمان Colonel Godman الذي وجدته في هذه المنطقة الرائعة التي أثملني سحر جبالها ، فالمخيم يقع على ارتفاع (٥٠٠٠) قدم فوق سطح البحر ، والقاصد إليه يصل في بادئ الأمر إلى مضيق مدهش حيث يرتفع المنحدر الصخري منتصباً أمامك بشكل يكاد يكون رأسياً ، ويتعرج الطريق مرتفعاً عبر وديان ملتوية ليؤدي إلى القوس الشهير الذي يعرف المضيق باسمه : طاق جراه ، أو قوس جراه ، الذي يشبه أقواس النصر الرومانية بكل سماتها الكلاسيكية . وما هي إلا مسافة ميل أو ميلين بعد ذلك حتى تصل إلى القمة حيث يكمن المخيم أنف الذكر الذي يطل على وادي طويل يمر من بين مرتفعات صخرية شديدة الانحدار تنتشر فوقها شجيرات السنديان . وهنا التقيت عدداً من الأفراد وكان العقيد جودمان من بينهم . وبسبب حاجة سيارتنا إلى بعض التصليح ، وغياب ما يدفعنا إلى الاستعجال في السفر ، فقد قررنا المبيت هناك . وما أن بزغ الفجر حتى انطلقت في مغامرة تسلق عزمت من خلالها الوصول إلى قمة التلال التي ترتفع مسافة (٢٣٠٠) قدم فوق المخيم . وجدت المنظر مذهلاً . كانت زهور الزنبق والجنطانيا تخرج بزهورها – ولقد أرسلت لكم كمية من بزور الزنبق التي أرجو تسليمها إلى السيد هانغان Mr. Hanagan رئيس جنائني قصر راونتون غراينج – أما القرنفل فلا يزال غير ظاهر للعيان حتى الآن ، وهناك تشكيلة مذهلة من الأشواك السنانية ، ونبات الجصية ، وغير ذلك من أنواع الورود والنباتات التي تكسو سفوح الجبال . وعندما عدت من مغامرتي هذه لتناول طعام الفطور كانت قدماي متقرحتين من أثر السير بسبب توقفي عن ممارسة هذه الرياضة منذ وقت طويل ، ومع ذلك أشعر كمن ولد للدنيا حديثاً . المنطقة تكاد تخلو من السكان وأثناء تجوالي التقيت عدداً ضئيلاً من الحطابين الذين انهمكوا في العمل في أسفل المنحدرات ، وقد توقفت وهلة لأتجاذب معهم أطراف الحديث . أما من الأعلى فلا يمكن رؤية أحد من البشر ، إذ لا وجود إلا للسكون الجبلي .

ويجدر بالمرء منا أن يقبع في مكتبه في بلاد وادي الرافدين فترة عامين ونصف العام ليتمكن بعد ذلك من الانطلاق برحلة من هذا النوع وينعم من خلالها بمثل هذه المتعة .»

من مدينة كرمنشاه كتبت جيرتروود في الثالث عشر من تموز تقول :«بارحت المخيم في طاق جراه في الخامسة من صباح يوم أمس ووصلت هنا في الواحدة بعد الظهر بعد أن اجتزت طريقاً طويلاً وأجرداً . وقد مررنا في طريقنا بمعسكر حربي بريطاني حيث توقفت وهلة للتزود بشيء من الخبز . بعد ذلك مررنا بعدد من القرى المدمرة ، وكانت قرية كارند الأفضل من بينها حيث امتدت إلى الأسفل منها بقعة مزروعة ضمت مزارع للكروم ، وحقول الذرة ، وأشجار الصفصاف التي لم يبق الكثير منها بفعل قيام الأتراك والروس بقطعها . لقد قدر لنا إنقاذ البقايا من السكان من الموت جوعاً بفضل ما بذلناه من جهود إغاثة مضنية . إن مقاطعة كرمنشاه قد كتب عليها أن تعيش تاريخاً دامياً على مدى مئات عديدة من السنين ، وقد شهدت السنوات العشر الأخيرة أشد فصول هذا التاريخ قسوة ودموية . وكان من شأن أوجه سوء الحكم والثورات أن تعمل على تجريد هذه المقاطعة من كل خيراتها . ومع ذلك تبقى الحقول خصبة على ما أفترض ، وتغطي الغابات والأحراج التلال والمرتفعات الممتدة . إن حقول الذرة تزدهر حيثما توجد عناصر سكانية تعمد إلى زراعتها ، وتواصل شجيرات السنديان نموها على نحو متقطع بين الصخور وحيثما توجد مقابر كردية تؤمن لها الحماية ، إذ أن الحطابين لا يقطعون الأشجار التي تمتد جذورها بعمق في القبور ، وحتى النعاج تبتعد عنها احتراماً على ما يبدو ، وهكذا فإن للفرد الكردي ، الذي تكاد تكون مناقبه محدودة جداً أبان حياته ، فائدة بعد مماته (كذا) .

وبسبب غياب القنصل البريطاني ، العقيد كينيون ، Colonel Kennion ، عن المنطقة فقد استضافني مدير البنك السيد هيل Mr. Hale في داره حيث وجدت الجنرال واوتشوب General Wauchop . ولأنني كنت متعبة وبحاجة ماسة إلى الاستحمام للتخلص مما علق بي من الغبار والأوساخ ، فإنني استأذنت مضيفي وصحبته للاهتمام بنفسي . بعد ذلك ذهبنا لتناول الشاي في دار القنصل الروسي وزوجته حيث جلسنا في فناء الدار الذي توسطه حوض ماء اكتست جوانبه والشريط المتاخم لها بجنبات مزهرة فبدا المنظر أشبه بصورة من كتاب فارسي مزخرف ، ورحنا نتجاذب أطراف الحديث حتى دلوك الشمس ، وكان الرائد وير Major Ware ، الضابط السياسي للمنطقة ، وشخصان آخران قد انضموا إلينا .»

وفي الثاني والعشرين من تموز كتبت من طهران ، و من دار المفوضية البريطانية

بالتحديد ، قائلة : « توجهت من كرمنشاه إلى همدان بالسيارة عبر طريق وعر استغرق قطعه عشر ساعات . وقد نزلت بضيافة مدير البنك السيد مكموري Mr. MacMurray وزوجته الفاتنة . وبعيد وصولي إلى دار عائلة مكموري وصل إليها كذلك الجنرال دونتسيرفيل General Dunsterville ، قائد القوات البريطانية في بلاد فارس ، الذي نزل هو الآخر بضيافة هذه العائلة ، وبهذا الصدد أود القول أن الجنرال أنف الذكر يمثل تجسيداً واقعياً لما عكسته ريشة الأديب روديارد كبلنج Rudyard Kipling من صورة حية للتشامخ والزهو (البريطانيين) وذلك من خلال عمله الموسوم ستالكي ومشاركوه Stalky and Company ، ويمكن اعتبار دار سكن عائلة ماكموري جنة بكل ما لهذه العبارة من مداليل ، فبالإضافة إلى جوه المنعش فإنه في غاية الترتيب والأناقة . ولقد سنحت لي الفرصة في التحدث طويلاً مع الجنرال دونسترفيل ، أما في عصر ذلك اليوم فقد انطلقت بصحبة الجنرال واوتشوب وزملاء آخرين من بغداد ، لزيارة مطعم الفقراء الذي عمدنا إلى إقامته لغرض إطعام الجياع من المواطنين . لقد كانت المجاعة التي عانى منها هذا القطر رهيبة نتيجة ما قام به الأتراك والروس على حد سواء من ضروب النهب والسلب . إننا نواصل في الواقع إطعام ما يصل مجموعه إلى ٤١٠٠٠ فرد في اليوم الواحد في مدينة همدان .

«انطلقت صبيحة اليوم التالي بالسيارة إلى مدينة قزوين التي تبعد مسافة (١٤٠) ميلاً عن همدان . وفي قزوين تمت استضافتي من قبل مدير بنك آخر وهو السيد هارت Hart . ولابد من القول أن الرحلات الطويلة فوق طرق وعرة مرهقة إلى أقصى الحدود . وقد رافقني الجنرال واوتشوب إلى طهران وحل هو الآخر أيضاً ضيفاً على عائلة مارلنغ Marling .(١) يالها من سعادة أن يجد المرء نفسه في حدائق المفوضية البريطانية بعد عناء ذلك الطريق المترب والجو الحار . لقد اشتهرت دار المفوضية البريطانية في طهران وحدائقها بنواحيها الجمالية ولاسيما بما احتوته من أشجار باسقة . وبعد قضاء أربعة أيام في ربوع هذه الجنة شعرت بأنني قد أصبحت إنساناً آخر . بالإضافة إلى ذلك فإن آل مارلنغ عائلة كريمة ومضيافة إلى أبعد الحدود . وكنت عازمة في بادئ الأمر على البقاء في دار الوزير المفوض البريطاني خمسة أيام فقط ، إلا أن توجهنا إلى الجبال والتخييم هناك سيعني ضرورة تمديد فترة إقامتي لتشمل أسبوعاً آخر . ولابد من القول أن هذا الجانب يفقد كل أهمية له إذا ما قورن بزيارة

(١) كان السير تشارلس مارلنغ الوزير البريطاني المفوض في طهرن – المترجم

الغراندوق ديمتري Grand Duke Dimitri[٢] الذي جاء في بادئ الأمر لقضاء فترة يومين فقط ولكنــه واصــل مكوثــه مــدة عــام ! إنــه الشخــص الذي يفتـرض قيـامـه بقـتل راسبوتين Rasputin .[٣] وعلى الرغم من أنه لم يكن القاتل في الواقع ، بل تصادف وجوده في الدار التي دبرت فيها مؤامرة القتل ، إلا أن ابن عمه قيصر روسيا حمله المسؤولية وأمر بنفيه . إنه في الثالث والعشرين من العمر وذو شخصية جذابة وخلق رفيع وسلوك مهذب ولكنه قليل الخبرة والمعرفة بشؤون العالم شأنه بذلك شأن كل أفراد عائلة رومانوف .

قضيت أياماً رائعة انعم بالراحة والاسترخاء . فبعد نزهة أقوم بها على ظهور الخيل قبل وجبة الفطور ، اقضي سحابة يومي في الحديث وتبادل وجهات النظر مع كل من يأتي لزيارة دار الممثلية . ولقد ذهب جمع كبير منا نهار الأمس في سفرة ممتعة للغاية ، فقد انطلقنا بعد الغداء مشياً على الأقدام لمدة ساعتين على طريق يرتفع ملتوياً إلى ممر جبلي ضيق في غاية الجمال لاسيما بفعل نور القمر . وفي تلك البقعة الساحرة تناولنا وجبة العشاء وسط مجموعة من أشجار الحور قرب قرية جبلية ، وبعد ذلك التحفنا بما جلبناه معنا من البطانيات وقضينا ليلتنا في العراء قرب البقعة الساحرة . وبعد أن استفقنا من النوم فجراً تناولنا شيئاً من الشاي ثم قفلنا راجعين من حيث أتينا .»

وفي السادس من آب كتبت من مدينة همدان قائلة : «من هذه المنطقة قمت بإعادة سيارة القائد العام ورحت أواصل تجوالي معتمدة على بغالي ومهرتي .

كانت آخر رسالة كتبتها من طهران تلك التي أرسلتها «قبل توجهنا إلى الجبال حيث

---

(٢) الغراندوق ، أو الدوق الكبير بالمعنى الحرفي للعبارة ، هو حاكم إحدى الدوقيات التي عرفتها أوربا منذ القرون الوسطى والتي تعتبر دوقية لوكسمبورج حالياً مثالاً حياً لها . والغراندوق أقل منزلة من الملك ويلقب بعبارة صاحب السمو الملكي ، وكان اللقب الرسمي لأبناء قيصر روسيا وأحفاده باستثناء ولي العهد الذي يلقب بعبارة الزارفتش أي ابن القيصر ، ومؤنث العبارة هو الغراندوقة أو الدوقة الكبيرة - المترجم

(٣) راسبوتين (١٨٧٢-١٩١٦) الراهب والمغامر الروسي الشهير الذي قذف به القدر من ريف سيبريا إلى العاصمة سان بطرسبرج ليمارس نفوذاً غريباً على شخص زوجة القيصر نيقولا الثاني وذلك بفعل ممارسته لصيغة فريدة من التنويم المغناطيسي . ومن خلال نفوذه على الامبراطورة تمكن من ممارسة سلطة غير مباشرة على شخص القيصر (الأمبراطور) ذاته . وقد اشتهر بفسقه وتهتكه مما أثار ضغينة النبلاء وأفراد عائلة رومانوف الأمبراطورية ودفعهم إلى تدبير المؤامرات لقتله . ولقد نجحوا في النهاية وتم اغتياله ولكن بشكل تكاد تفاصيله تكون أسطورية - المترجم

قضينا ستة أيام ممتعة . وكانت مجموعتنا تضم كل من اللادي مارلنغ ، والغراندوق ديمتري ، والجنرال واوتشوب ، والسيد ماكلين Mr. Maclean أحد موظفي المفوضية البريطانية بالإضافة إلي شخصياً . وقد تم لنا قضاء وقت يعجز القلم عن وصف روعته حيث تمكنا من المبيت ليلتين فوق قمة يبلغ ارتفاعها (٢١٠٠٠) قدم فوق سطح البحر . وقد انهمك الجنرال واوتشوب في ممارسة هوايته المفضلة : الصيد .

اضطررت إلى ترك الجماعة والرجوع بمفردي إلى دار المفوضية حيث قضيت يوماً قبل أن أقوم مكرهة بوداع آل مارلنغ لأتوجه بعد ذلك إلى قزوين حيث تعين علي البقاء ثلاثة أيام لتبويب وتنظيم ما كان لدى المسؤولين البريطانيين هناك من معلومات و أمور استخبارية عمدت إلى قراءتها بإمعان وتوزيعها على ملفات مصنفة . وقد عمدت إلى الاحتفاظ بنسخ من هذه المعلومات جلبتها معي إلى بغداد . لابد من القول في هذا المجال أن الجنرال دونسترفيل شخصية رائعة ومحبوبة للغاية ، وقلما يجد الفرد منا نظيراً له في يومنا هذا .»

* * *

إثر عودتها إلى بغداد علمت جيرتروود أن السير برسي كوكس قد عين وزيراً مفوضاً في طهران خلفاً للسير تشارلس مارلنغ . ومن خلال رسالة كتبتها في الثلاثين من شهر آب ، قالت جيرتروود :

«واظبت على تدوين يوميات مفصلة على مدى فترة الثلاثة أسابيع التي قضيتها في كردستان ، وتتم الآن طباعة هذه اليوميات والخواطر بغية تقديمها إلى مقر القيادة العامة لأغراض تتعلق بالمقر المذكور . وقد أمضيت يومين في قراءة تفاصيل ما دار من أحداث وما تم إجراؤه من أعمال أثناء فترة غيابي بالإضافة إلى لقاء العديد من الأشخاص . لا أتوقع عودتي إلى الحالة الطبيعية (فيما يتعلق بالنشاطين الوظيفي والاجتماعي) قبل نهاية الأسبوع القادم .»

ومن خلال رسالة وجهتها جيرتروود إلى صديقها الحميم السير فالنتاين شيرول ، فإنها أضافت قائلة :

«إن السير برسي كوكس سينتقل إلى طهران كما تعلم . وفيما يتعلق بهذا الموضوع يتنازعني عاملان أولاهما حزني لفقدان السير برسي كوكس مرة أخرى ، وثانيهما ارتياحي لما سيترتب على هذه الحركة من تواجد شخص يتمكن من فهم تلك الأزمة الصعبة ومواجهتها بحزم وعزم ، وهو جانب أخفق مارلنغ فيه لأسباب لابد من الاعتراف بأنها لم تكن كلها نتيجة أخطاء ارتكبها أو خلل في إدارته . ومن جانب آخر فإن السير برسي يتمتع

بميزة هامة جداً وهي صلته الوثيقة بالقيادة العامة للقوات البريطانية العاملة في المنطقة وتمتعه بثقتها العالية . فالعمل المنسق والتعاون التام يشكلان على ما تعلم جانباً يتعين توافره إذا ما أريد للمساعي المبذولة أن تتكلل بالنجاح . وبقدر تعلق الأمر بالسير تشارلس مارلنغ فإن الجانب آنف الذكر كان مفقوداً . فضلاً عن ذلك فإن طهران(٤) كانت بحاجة ماسة إلى عمليات إصلاح وإعادة تنظيم لممارسات وتقاليد بالية وهو أمر لا يمكن اعتباره بطبيعة الحال تقصيرا أو خطأ من جانب السير تشارلس مارلنج . ويمكن القول بوجه عام أن السير برسي سينطلق في عمله من موقع أكثر قوة وأساس أكثر متانة بسبب ما يتمتع به من دعم وثقة من لدن القيادة العامة .

لقد قام الروس بتخريب كردستان وتدميرها بشكل يفوق التصور ، أما بلاد فارس فإنها عانت من الاحتلال الروسي وما تسببه من ويلات ودمار أكثرمما عاناه أي قطر آخر من ويلات الحرب العالمية الأولى المدمرة ، فهناك مناطق فقدت ما يزيد على خمس عدد سكانها بسبب الجوع بعد أن استولت القوات الروسية على المحاصيل الزراعية وعمدت إلى تدمير القرى . أما في المناطق التي خضعت لسيطرتنا ، فإننا قمنا بإطعام العناصر السكانية والمحافظة على النظام والأمن فيها وذلك بصرف النظر عن كل ما يدور في طهران من شائعات وأقوال تهدف إلى إعطاء صورة مغايرة . وفي كردستان نجد أن الأغنياء والفقراء على حد سواء تواقون إلى قيامنا بتولي مقاليد الإدارة . إنها حقاً بلد ساحرة ومذهلة بوديانها وأراضيها الخصبة وعناصرها السكانية ومع ذلك لا تجد فيها طريقاً واحداً يمكن السير عليه .»

وفي الخامس من شهر أيلول كتبت جيرتروود إلى أهلها قائلة : «لا أعلم ما الذي يروى لكم عن شؤون بلاد فارس ، ولا ما يمكنني أنا شخصياً من إفادتكم به . سيتم أعلامكم بكل الأحوال عن سقوط مدينة باكو ، ولكنكم قد تتساءلون عن الدافع وراء قيامنا بحملة في منطقة تبعد ما يقرب من ٥٠٠ ميل من آخر موقع لتموين الجيش . وبهذا الصدد أود القول أن المخططين لهذا العمل في هذا القطر ، مدنيين وعسكريين على حد سواء ، لم يقوموا بالتبصر بالأمر كما ينبغي ، اللهم باستثناء التعبير عن مخاوفهم وقلقهم ، وهو ما يعكسونه للسلطات المعنية في الوطن من غير أدنى شك ، وبذلك يحدوني الأمل في أن يتحمل المخططون لهذا العمل ، والقائمون على الإيعاز بتنفيذه ، تبعة أية كارثة قد تقع من جرائه .

يتوجه السير برسي كوكس إلى طهران بعد ثلاثة أيام وستصحبه قرينته اللادي كوكس

---

(٤) المقصود هنا هو النشاط البريطاني في طهران بوجه عام - المترجم

بالإضافة إلى ببغائهما الأمر الذي يضفي مسحة مضافة إلى ما يتسم به الجو العام في بلاد فارس من غرابة ، ناهيك عما يتنافى مع كل ما هو غير معقول ومنطقي . أجل ! إن الأمر برمته ، لا مجرد انتقال السير برسي إلى طهران ، أشبه بأوبرا كوميدية تنطوي على كل ما يمكن أن يشكل مأساة حقيقية .»

وفي الثالث عشر من أيلول كتبت تقول : « إن أخباري هذا الأسبوع مملة ، فحالة الطقس مقرفة للغاية(٥) بسبب ارتفاع درجة الحرارة (٤٥ درجة مئوية) والجو الخانق . فضلاً عن ذلك فإنني أعاني من الرشح والحمى . ولعدم وجود ما يثير المتعة والاهتمام من الأنشطة فإنني أقضي ساعات طوال منهمكة في تدوين المعلومات المتعلقة بكتابي الاستخباري الخاص ببلاد فارس .

وأخيراً غادرنا السير برسي واحسرتاه ! وقبل رحيله جاء لزيارتي واستفسر مني باهتمام حول ما إذا كنت راضية عن وضعي بوجه عام ، وما إذا كان الجميع يسهرون على راحتي ورعايتي ، وبعد أن اطمأن على وضعي تقدم مني وعانقني بحرارة مودعاً فكانت بادرة لا يمكن اعتبارها مألوفة . إنني أكن له شعوراً بالمودة والاحترام وهو شعور أجد أنه جدير به . إلى جانب ذلك فإنه سيصطحب السيد بولارد معه إلى مقر عمله الجديد الأمر الذي سيحدث فجوة كبيرة في حلقة أصدقائي ومعارفي المقربين .»

وباعتبارها إنساناً عاطفياً ومحباً ، فإن رغبتها الملحة في إظهار شعورها تنعكس بوضوح من خلال رسائلها . ولما كان كل زملائها رجالاً من غير استثناء ، وكان القسم الأكبر منهم أقل سناً منها ، فقد أضحى بيتها الصغير الكائن وسط حديقة الزهور ، والمستأجر من السيد موسى جله بي الباجه جي ، ملاذاً آمناً يأتي لهؤلاء الرجال بنفحات من أرض الوطن الأم ، ويؤمن لجيرتروود في الحين ذاته متنفساً لما لديها من نوازع الأمومة .

* * *

عقد القائد العام للقوات البريطانية في العراق دربارا(٦) ضم العديد من شيوخ العشائر . وبهذا الصدد كتبت جيرتروود في التاسع عشر من أيلول قائلة : «قام القائد العام بابتسامته المعهودة التي طالما علت وجهه في مثل هذه المناسبات بمصافحة كل رجل من الحضور

---

(٥) لاغرابة في هذا الأمر إذ تشهد أواسط شهر أيلول ارتفاعاً في درجة الحرارة يصاحبه ارتفاع في نسبة الرطوبة وتسمى هذه الفترة القصيرة بفترة نضوج التمور - المترجم

(٦) يرجى الرجوع إلى الهامش رقم ٩ /الفصل الرابع من هذا الكتاب حيث تم شرح عبارة دربار - المترجم

والترحيب به بأرق عبارات المجاملة . وكنت أجلس في أقصى مكان من المنصة ، ومع ذلك انتبه الشيوخ إلى وجودي فاندفعوا بعد تحية القائد إلى الالتفات نحوي والتوجه إلى مصافحتي أيضاً الأمر الذي جعلني أنتصب وقوفاً لتحية هذه المخلوقات المباركة (كذا) الذين تربطني بكل فرد منهم بطبيعة الحال معرفة وثيقة . ولكنني لم أشعر بأن قيامهم بذلك كان يمثل بادرة لائقة في هذه المناسبة الأمر الذي دفعني إلى محاولة الاختفاء خلف سيدة أمريكية بدينة وقنصل فرنسا الذي كان هو الآخر ممتلئ الجسم ، إلا أن محاولتي لم تحقق نجاحاً تاماً . ولقد علمت لاحقاً أن الشيوخ قد أعربوا عن تقديرهم لسلوك القائد العام وإعجابهم بما أبداه من ضروب المجاملة مقارنين ذلك بتصرفات الولاة الأتراك الذين إذا ما أقبل أي من الشيوخ للسلام عليهم فإن قيامهم بحركة متكاسلة من باب رد السلام كان أقصى ما يقومون به . ولابد من القول من جانب آخر أن أياً من الولاة الأتراك لم يشهد ما رأيناه اليوم وشاهدناه بأم أعيننا (من توجه من قبل الشيوخ ثم بوضوح عما يكنونه لنا من احترام ومودة .) . وقد زار العديد من هؤلاء الشيوخ مكتبي في الأيام التالية ليخبروني عما لمسوه من تحول في علاقتنا معهم في هذه المناسبة قياساً بما كان عليه الحال في العام المنصرم ، وكيف أن الجانبين قد أضحى يعرفان أحدهما الآخر بشكل أفضل من ذي قبل . إنها لشهادة أعتز بها اكثر من أي شيء آخر .

كما كان اجتماع الضباط السياسيين في هذه المناسبة جانباً لا يقل قيمة وإثارة للاهتمام من اجتماع الشيوخ أنفسهم . ولابد من الإشارة إلى حقيقة مفادها أن هؤلاء الضباط السياسيين لم يكن قد تعرف بعضهم بالبعض الآخر . وبذلك فقد جاء اللقاء هذا فرصة مكنتهم من التعرف على بعضهم البعض الآخر ومناقشة جوانب المشاكل التي كانت تعترض سير أعمالهم كل في منطقة نفوذه ، واستناداً إلى ذلك يتعين علينا جمعهم مرة أخرى تحقيقاً للصالح العام . وبما أن دار السير برسي كوكس قد باتت شاغرة إثر رحيله إلى طهران ، بات بإمكاننا استضافة الضباط السياسيين سالفي الذكر فيها كلما اقتضت الحاجة دعوتهم إلى الاجتماع .»

وفي السابع والعشرين من أيلول كتبت تقول : « تقتصر المادتان الأخباريتان لهذا الأسبوع على تغير الطقس بعد أن خفت وطأة حرارة الجو من جانب ، و وصول عائلة مارلنغ ومعها الغراندوق ديمتري من جانب آخر . إنهم وصلوا قبل ستة وثلاثين ساعة من الموعد المقرر أساساً لوصولهم وبعد أن فقدوا أمتعتهم وأصيبوا جميعاً ، ومن غير استثناء ، بالأنفلونزا . كانت بداية غير موفقة لزيارتهم للقائد العام ، ولا يمكنني بصراحة أن أقول بانها

كانت زيارة ناجحة . وما على المرء منا سوى تصور وجود السير تشارلس مارلنغ وسط مجموعة من الجنرالات الذين تراوحت رتب القسم الأكبر منهم بين لواء و فريق ليدرك من غير أدنى شك سبب فشل الزيارة . فضلاً عن ذلك لم يعرف أي من أفراد هذه المجموعة حقيقة ما بنفسه ، فضلا عن ذلك فإنهم لم يكونوا على ثقة بمضيفهم أو مساعده وبذلك لم يكونوا على أستعداد على ما يعمدون إلى وضعه من خطط . إنهم لا يبدون اهتماماً بأي شيء أبداً . ولكن للسير تشارلس اهتماماً كبيراً بالآثار ومعرفة واسعة بها وقد سرني جداً اصطحابه في زيارات للأماكن الأثرية في بغداد وضواحيها . وقد تناولت العائلة طعام العشاء معنا في المكتب السياسي وبقينا نتجاذب أطراف الحديث معهم حتى منتصف الليل .
ولابد من القول أننا كثيرو المشاغل ومتعددوا الواجبات ، وبذلك ما أن غادر الضيوف حتى انكب العقيد ولسون على قراءة عدد من البرقيات الواردة ووضع التوجيهات اللازمة بشأن كل منها وهو عمل استغرق إنجازه زهاء ساعة ونصف الساعة من الزمن . ولقد شعرت شخصياً بالإرهاق لاضطراري إلى البقاء بصحبة الضيوف إلى ساعة متأخرة من الليل لا سيما وانني لا زلت أعاني من تبعات ما أصابني من رشح وحمى . آمل أن يكون ضيوفنا قد قضوا وقتاً ممتعاً ، وهم مدعوون عصر اليوم لتناول الشاي في حديقة منزلي ، وقد دعوت نخبة ظريفة من زملائي احتفاءً بالزوار وذلك بالإضافة إلى كل من الجنرال لوبوك والجنرال ستوارت- ورتلي .

إننا جميعا مستاؤون على ما أظن من السياسة الفارسية (أي السياسة البريطانية المعتمدة في بلاد فارس) التي يعتبر السير تشارلس مارلنغ ممثلاً لها . فلولا المشروع الفارسي - الذي أعتبره مغامرة حمقاء نتيجة مشاهداتي وتقييمي للأمور على أرض الواقع على عكس المسؤولين في وزارة الحرب الذين يقيمون الامور من الناحية النظرية فقط - لكنا الآن نشن هجوماً على مدينة الموصل التي تعتبر صنواً لمدينة دمشق . لا يمكننا أبداً خوض عمليات في كل من الموصل وبلاد فارس في آن واحد لأسباب تتعلق بأمور النقل و التموين . فلو قدر لنا الوصول إلى الموصل شمالاً لتمكنا من ضمان السيطرة على منطقة إنتاج القمح في سهل أربيلا Arabela[(٧)] ولتيسر لنا أمر تموين المدن الكبيرة الذي لا يزال جانباً صعباً بسبب بقاء

(٧) السهل الذي شهد معركة أربيلا التي قامت في عام ٣٣١ قبل الميلاد والتي حقق فيها الإسكندر الكبير نصراً حاسماً على الأمبراطور الفارسي داريوس الثالث فانفتحت بلاد فارس نتيجة ذلك أمامه الأمر الذي مكنه من التوسع شرقاً - المترجم

مدينة الموصل خارج قبضتنا . ولكننا سنتمكن بالنتيجة على ما أفترض من زراعة ما يكفينا من القمح في المناطق السفلى من بلاد وادي الرافدين ، إلا أن تحولاً زراعياً كهذا يتطلب وقتاً طويلاً ناهيك عن حقيقة أن بغداد طالما اعتمدت على الموصل فيما يتعلق باحتياجاتها من القمح . كما أن هناك عدداً من المشاكل الصغيرة التي كان بالإمكان تسويتها إلى جانب حقيقة مفادها أن إحراز نصر في كل من سوريا وشمال العراق كان من شأنه أن يفقد الاتراك توازنهم ويقضي على وجودهم في تلك المنطقة بالذات . ولقد قمت بمفاتحة اللورد هاردنغ بفحوى هذه الأمور . ولكن ما جدوى الحديث عن ذلك الآن ؟ لقد قدر لنا الخروج من باكو من غير أن نتكبد خسارة كبيرة وهو أكثر مما يستحقه مخططو هذه المغامرة اليائسة وكل من كان له يد فيها من بين من عملوا على التخطيط والدعاية لها . إن الجنرال دونستر فيل موجود حالياً في بغداد ، وإني أكن له مودة وتقديراً خاصين ، ولكنه رجل كيشوتي الأمر الذي يعني أن تطبيق الاستراتيجية التي تقضي بمهاجمة الطواحين الهوائية لا تؤدي بالنتيجة إلى تحقيق النصر في يومنا هذا .»

وفي الثالث من تشرين الأول كتبت جيرتروود تقول : «كانت حياتنا خالية من الاحداث على مدى الأسبوع المنصرم . لقد قمنا بتدبير سفر عائلة مارلنغ والغراندوق ديمتري إلى مدينتي النجف وكربلاء ، وأثناء غيابهم دعوت أطفالهم عصر أحد الأيام لتناول الشاي معي في المكتب . آمل أن يكون الضيوف الصغار قد استمتعوا بهذه الدعوة بقدر تمتع مضيفتهم بها ، إذ عمدت كذلك إلى جلب جروين من جراء الداكسهوند(٨) لحضور حفلة الشاي هذه . وبعد الانتهاء من تناول الشاي انطلقنا جميعاً نجري خلف طاووس المكتب الذي راح يسرع هرباً منا حتى أنهكه التعب أخيراً فأمسكنا به فوق سطح المكتب . يالها من متعة !

بعد عودة آل مارلنغ من زيارة مدينتي كربلاء والنجف فإنهم أمضوا ليلة في بغداد قبل توجههم إلى البصرة . وقد تناولت طعام العشاء في تلك الليلة على مائدة القائد الذي كان يستضيف آل مارلنغ والغراندوق ديمتري أثناء وجودهم في بغداد ، وقد بدا متجهم الوجه ، باركه الرب ، لأنه في الواقع لم يكن كثير الميل إليهم ، إلا أنه لم يخرج عن حدود الأدب والمجاملة ، وسرعان ما استعاد مرحه ، وعلت ابتسامة الرضا وجهه ، إثر الحديث عن أمور تتعلق بالمناطق الوسطى من شبه جزيرة العرب . إنني شخصياً أكن لعائلة مارلنغ كل مشاعر

(٨) الداكسهوند : كلب ألماني صغير يتميز بطول الجسم وقصر القوائم - المترجم

الود والتقدير ومع ذلك لابد لي من القول بأنهم يفتقرون إلى اللمسات الإنسانية . أما الغراندوق ديمتري فإنه يعاني من كونه غراندوقاً ومن كل ما يترتب على حامل هذا اللقب من تبعات بدون التمتع بما يمكن لهذا النسب الرفيع والمكانة السامية أن يأتيا به من فوائد ومزايا محتملة ، وهي جوانب لا أظنه سيتمتع بها بعد اليوم بكل حال من الأحوال .(٩)

نترقب يومياً سماع أخبار قيام تركيا باللجوء إلى التماس السلام . أما الحملة على سوريا فلم تكم سوى معجزة ليس إلا ! واذا ما طلبت تركيا السلام فسوف نتحرر نحن بدورنا على ما أمل من كابوس الحملة على بلاد فارس ونتفرغ خلال أيام الشتاء للقيام بنشاط مجد ومثمر في هذه البقعة من الارض . كما آمل أن لا تتداعى ألمانيا وتنهار بشكل مفاجئ ، بل أريد أن يكون لنا متسع من الوقت لغزوها بهدف تلقين أهلها درساً لن يتمكنوا من نسيانه ، فهم بأمس الحاجة لدرس كهذا . إن الرئيس الأمريكي ولسون هو النصير الأكبر في هذا المجال فهو على ما يبدو عازم على شرب الكأس حتى الثمالة .

وفي محضر الحديث عن الأمريكيين لا أذكر أنني قد أخبرتكم عن عائلة وليام جاكسون الأمريكية المؤلفة من زوجين عجوزين قدما إلى بلاد وادي الرافدين بصحبة أعضاء مؤسسة خيرية تنشد تقديم الإغاثة إلى أبناء فارس . كان السيد جاكسون أستاذاً واسع الاطلاع وكانت زوجته امرأة في غاية اللطف والرقة وأشبه بشطيرة (ساندوتش) بيضاء وحمراء . كان الجزء الأسفل (والأكبر) من الشطيرة يتمثل بجسم صاحبته البدين والصغير الحجم المغطى بثوب قطني أبيض ، محكم ، وكان وجهها القرمزي الوضاء يمثل الجزء الوسطي من هذه الشطيرة ، ولعل الحمرة هذه قد جاءت نتيجة شدة أشعة الشمس وشدة إحكام ثوب السيدة هذه على جسمها ، وكان شعرها بكل بياضه الثلجي يمثل الجزء الأعلى . لقد ارتبطت بهذين الفردين بأواصر علاقة متينة ، وكانا يمثلان الطيبة والكرم بأسمى معانيهما ناهيك عما تميزا به من رقة العواطف ، وهي سمة تكاد تقل أمريكية عن العند والحماقة ! وقد قام الأستاذ جاكسون في الأسبوع المنصرم بإلقاء محاضرة ذهبنا جميعاً للاستماع إليها بصحبة القائد الذي كان استضافنا إلى العشاء قبل ذلك . كانت المحاضرة أسوأ من السيئ ولكنها مضحكة بشكل غريب لاسيما عندما طفق الأستاذ العجوز يردد أبياتاً من الشعر الفارسي الذي يتغنى بالجوانب الجنسية أردفها بملاحظات فاضحة دونما إدراك منه بما كان لها من وقع

(٩) الإشارة هنا واضحة إلى انتهاء عز دولة آل رومانوف الذين ينتمي ديمتري إليهم بعد أن أطاحت بهم الثورة في روسيا وافلت شمسهم إلى الأبد – المترجم

لقد قدر للقشعريرة والحمى اللتين عانت جيرترورود من ويلاتهما ولم تشف منهما أن يتبعا بإصابتها بالملاريا ، وهو ما تذكره في رسالتها المؤرخة في الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول :

«إنني أتعافى ببطء من مرض الملاريا ، فالأمر يتطلب بعض الوقت . سيصلنا (الجنرال ماكمن) مفتش المواصلات العام The Inspector - General of Communications بعد أسبوع أو عشرة أيام وسوف أنطلق بصحبته في إجازة قصيرة . إن سفينته النهرية مريحة ومزودة بأسباب الترف ، فضلاً عن كونه شخصياً إنساناً هادئاً يشعر المرء إزاءه بالراحة والاطمئنان . أما في الوقت الحاضر فإنني منهمكة بعمل مثير للاهتمام وآمل أن أكون بصحة جيدة مما يتيح لي فرصة القيام بمتطلباته كما ينبغي . ومن جانب آخر فقد بدأ الزحف (العسكري) باتجاه أعالي نهر دجلة . إن الأمور تسير سيراً حسناً والحمد لله .»

* * *

كانت الأحداث تسير بسرعة فائقة ، وفي الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول تم عقد الهدنة بين تركيا من جانب والحلفاء والدول المشاركة معهم من جانب آخر . وفي اليوم التالي كتبت جيرترورود قائلة :

«توقفت الحرب في هذا الجزء من العالم – فقد وصلت إلينا أخبار تفيد بأن الهدنة مع تركيا قد تم إبرامها . إنه أمر لا يكاد يصدق . أرجو أن تصل قواتنا إلى مدينة الموصل مساء اليوم ، إذ أن الاتراك قد انسحبوا منها حسبما علمنا ، وبغياب يد حازمة من المحتمل جداً أن تشهد المدينة الكثير من أحداث السلب وهتك الأعراض والقتل .

أعمل مع أحد الزملاء على إعداد كتيب حول الإدارة في هذا القطر وذلك من خلال عكس فكرة عامة عن كل ما تم إنجازه على مدى الأربعة أعوام المنصرمة ليكون الناس على بينة

تامة من هذا الامر ، وإذا ما تم تعميمه على الشعب الامريكي فإنه سيحقق فائدة كبيرة . ولايمكنني أن أقول كم هو رائع أن يتمكن المرء منا من تدوين تفاصيل مثل هذه القصة البديعة . لقد انتهيت لتوي من الفصل الذي يتناول المعلومات المتعلقة بتهدئة العشائر .

لقد اعتدت العمل في المكتب حتى الظهر ، أي نصف يوم ، أعود بعد ذلك إلى المنزل لتناول طعام الغذاء والاستراحة لفترة ساعتين تقريباً أتفرغ بعدها إما للمطالعة أو تجاذب أطراف الحديث مع من يأتي لزيارتي من الناس . وكان من شأن هذا النظام الذي عمدت إلى إتباعه أن يحقق لي الراحة إلى حد كبير الأمر الذي بدأت أزداد وزناً بشكل ملحوظ(وكانت جيرتروود قد وصفت نفسها ذات مرة بالقول إن نحافة جسمها تدخل في اطار ما هو غير محتشم وغير لائق !) فضلاً عن ذلك فانني والحمد لله في صحة جيدة الأمر الذي يعني أنني قد تعافيت من مرض الملاريا على ما أفترض .»

* * *

كانت الأحداث في المنطقة تسير سيراً حثيثاً ، ففي الثالث من شهر تشرين الثاني أعلنت الهدنة بين الحلفاء والنمسا- هنغاريا(١٠) ، وفي الحادي عشر منه شهد العالم نهاية الحرب العالمية الأولى - «الحرب التي تضع نهاية للحروب »- بعد أن وضعت أوزارها بشكل تام إثر إعلان الهدنة مع ألمانيا .

---

(١٠) النمسا - هنغاريا ، أو المملكة الثنائية التي جمعت بين النمسا وهنغاريا والتي جاءت حصيلة إعادة تنظيم كيان الأمبراطورية النمساوية إثر اندحارها على يد القوات البروسية عام ١٨٦٦ . وفق التنظيم الجديد بات الأمبراطور يعرف بأمبراطور النمسا وملك هنغاريا وقد تم لهنغاريا التمتع بحكم ذاتي ضمن هذا الإطار - المترجم

الفصل الثامن

١٩١٨

أولى أيام السلام - أم تراها أولى أيام توقف العمليات الحربية؟ - كانت فترة إجازة سعيدة قضتها جيرتروود في النقاهة على ظهر القارب النهري الذي راح يتهادى فوق مياه دجلة . ومن على ظهر هذا القارب كتبت رسالة في الثالث عشر من شهر تشرين الثاني قالت فيها : « أكتب لكم من على ظهر القارب النهري الخاص بمفتش المواصلات العام الذي بارحت بغداد بصحبته قبل تسعة أيام . إننا لا نزال نواصل رحلتنا النهرية التي راح القارب فيها يشق طريقه بهدوء وبطء فوق مياه نهر دجلة ، وليس لي من شغل شاغل سوى الأكل والنوم والمطالعة وتجاذب أطراف الحديث مع مضيفي الجنرال ! يالها من فترة راحة رائعة لا مثيل لها .

قبل بضعة أيام من سفري كنت شهدت مناسبة مثيرة للمشاعر التقى فيها القائد العام جمهوراً غفيراً من المواطنين وقرأ عليهم البلاغ الذي أعده بمناسبة إعلان الهدنة مع تركيا . كانت الساحة تعج بالجنود والأعيان ، وقد عمد عدد كبير من الرجال والصبيان إلى تسلق جذوع الأشجار أو التجمهر في شرفات المنائر القريبة في محاولة منهم للاستماع إلى البلاغ ومشاهدة كل ما كان يدور من نشاط . وما أن انتهى القائد الأعلى من قراءة البلاغ حتى تقدم جندي ليرفع الراية التي سرعان ما راحت ترفرف خفاقة من ساريتها التي انتصبت بشموخ وسط الساحة . وهكذا تم لنا في هذه المناسبة كتابة عنوان لفصل جديد من تاريخ وجودنا في أرض وادي الرافدين . ترى ما الذي راح يجول في رؤوس أصدقائي المسلمين ؟ كانوا بالدرجة الاولى على ما أعتقد ومن غير أدنى شك يشعرون بالراحة والرضى باعتبار أنهم قد راهنوا على الحصان الرابح . أما بالدرجة الثانية فهناك إقرار بأمر لم يكن من السهل مواجهته والتسليم به ألا وهو الإدراك بما مني به سيف الإسلام من هزيمة الأمر الذي لابد أن يكون له وقع مأساوي على نفوس علماء الدين والمجتهدين ناهيك عما ينطوي عليه من شعور عام بالمرارة واليأس . وأخيراً هناك الأمل الذي نعلل أنفسنا به - نحن جميعاً ومن غير استثناء - وهو ما يمكننا تحقيقه لأبناء هذا البلد من خير عميم ورفاهية وازدهار . وأذكر بهذا الصدد ما أخبرني به ذات يوم الجنائني الذي يعمل على رعاية وتهذيب حديقة منزلي - إنه بغدادي ، أمي ، يتحدث بلهجة محلية يصعب حتى علي شخصياً فهم مفرداتها وإدراك ما تهدف إليه من معنى . قال لي ما مفاده : «اعلمي يا

حضرة الصاحب[1] إن كلفة المعيشة كانت زهيدة جداً في ظل الحكم التركي بيد أن النقود لم تكن متوفرة بشكل عام . أما الآن فالأمر مختلف تماماً ؛ صحيح أن كلفة المعيشة باهظة ، بل وباهظة جداً ، ولكن انظري إلى مستويات دخولنا المرتفعة !» إنه لدليل قاطع على إدراك العراقيين التام بأن مستويات الرواتب والأجور قد تخطت كلفة المعيشة .

توقفنا عند الصناعيات بعد تجاوزنا الكوت في طريق رحلتنا جنوباً ، ونزلنا إلى البر لنقوم بجولة في أرجاء ساحة المعركة . كانت خنادقنا وخطوطنا الدفاعية أول ما شاهدناه من معالم هذا المسرح الرهيب ، ثم امتدت بعد ذلك أرض الحرام التي ما ان اجتزناها حتى شاهدنا الخنادق التركية التي دكتها قذائف مدفعيتنا . وقد امتدت خلفها مقبرة الأتراك حيث تناثرت فوق أرضها عظام الموتى وجماجمهم وبقايا تجهيزاتهم وذلك نتيجة قيام السكان المحليين من العرب بنبش القبور في محاولة للحصول على ما تيسر لهم من أسلاب . فضلاً عن ذلك فإن المنطقة كانت لا تزال مليئة بالقنابل الحية والعبوات الناسفة التي لم يتم تفجيرها .

وفي البصرة سوف نطلع على تفاصيل استسلام الجيوش الألمانية وشروط الهدنة . إننا على بينة من هروب قيصر ألمانيا . يالها من فاجعة !

لقد عشنا خمسة أيام مطيرة ، وهناك المزيد على ما يبدو ، أما الارض فقد اكتست بخضرة لا تضاهيها روعة سوى أمالنا وتطلعاتنا . »

* * *

وفي بغداد راحت جيرتروود مرة أخرى «تقضي أكثر الأوقات متعة» . وقد تضمن الإعلان الإنجلوفرنسي الذي صدر في الثامن من شهر تشرين الثاني وعداً نص على «ضرورة قيام السكان المحليين بممارسة حق تقرير المصير فيما يتعلق بنظام الحكم الذي يرغبون

---

(١) الصاحب : عبارة شاع استخدامها في الهند إثر الاستعمار البريطاني ، وكانت أساساً تعني الصديق بيد أنها سرعان ما خرجت عن معناها الصحيح لتعني «السيد» وهو ما اعتاد الهنود مخاطبة البريطاني به ، أما المرأة فكانت تخاطب بعبارة «ميم صاحب» أي مدام صاحب . وقد تواصل استخدام هذه العبارة حتى منتصف القرن العشرين وكانت مصدر فخر وراحة للبريطانيين الذين كانوا يصرون على وجوب مخاطبتهم بها من قبل من كان يسهر على راحتهم من الخدم والأجراء – المترجم

العيش في ظله . » ونتيجة ذلك كانت بغداد تعيش جواً من الإثارة ، وكانت جيرتروود الجهة التي اتجهت صوبها أنظار المعنيين من أبناء البلد الذين راحوا يتوافدون على دارها في محاولة منهم للوقوف على بعض ما استعصى عليهم فهمه من أمور ومناقشة ما تضمنه الإعلان من أبعاد .

وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني كتبت جيرتروود قائلة : «إن الرأي العام في حالة توتر وانفعال شديدين ، وبإمكان أبسط الأمور وأكثرها تفاهة أن تثير سخط الناس وتذعرهم وتدفع بهم إلى القيام بأعمال صبيانية ، وإن كل ما نصرح به من أمور ونقوله من كلام لا يعكس بالضرورة ما نضمر ، أي إننا نجهر بشيء ونبطن شيئاً مغايراً تماماً .

أقضي معظم أوقات الصباح في أحاديث ونقاشات متواصلة . وكان القائد الأعلى عوناً لنا في كل الاحوال والظروف بفضل ما عكسه من حكمة وتعقل واعتدال ، وبغياب السير برسي فإنه كان ملاذي الوحيد ومصدر راحة يصعب علي تقييمه . وفيما يتعلق الأمر بي شخصياً ، أشعر وكأنني قد أصبحت سياسية محنكة!

قضيت يومين في جولة قصيرة ومسلية للغاية أمضيتها بصحبة أسقف سنغافورة الذي جاء خصيصاً لمشاهدة آثار بابل . وبعد مشاهدة مستفيضة قفلنا نسير الهويني . وفي محضر تبادلنا المعلومات التأريخية ذكر الأسقف قصة راحيل(٢) الأمر الذي دفع بي إلى التأمل وأنا أرى أمامي عدداً من حفيداتها اللاتي انهمكن بحمل جرار الماء بعد ملئها من الترعة ، وعدداً من أحفاد إبراهيم وهم يقفون وسط خيامهم السود . أجل ! رحت أتأمل وأعلق متساءلة بتعجب : ترى كيف امتزجت هذه القصص القبلية ذات الأصول السامية القديمة بالدين المسيحي؟ تباغت الأسقف بسؤالي هذا ليخرج بعد ذلك بإجابة نمت عن بلاهة وتفاهة واضحتين : «إنها استهدفت تحقيق أفضل النتائج على ما أفترض! » كم أردت إحراجه بالاستفسار عما كان يقصد «بأفضل النتائج » ولكنني كنت واثقة من عجزه التام عن الخروج بأي جواب . »

كان السير هيو بيل يواصل سعيه من أجل تدبير زيارة لابنته التي عمدت إلى ذكر هذا الجانب من خلال رسالة قصيرة قالت فيها : «يتوجب علي قضاء فصل الشتاء القادم هنا على ما أظن . لقد قام مؤجري موسى جله بي الباجه جي بمنحي إلى أجل غير مسمى

---

(٢) راحيل هي زوجة يعقوب ووالدة يوسف وبنيامين ، وقد ورد ذكرها في سفر التكوين من العهد القديم (الأصحاح ٢٩-٣٥) - المترجم

منفعة استخدام حديقة المنزل الذي أقيم فيه . وقد اقترحت عليه بدوري تناوبنا على ملكيتها بحيث تكون له صيفاً ولي شتاءً وهو إجراء منصف إذ أنه يرغب في امتلاكها في الصيف . وإلى جانب ذلك فإني منشغلة ببناء غرفة إضافية . ويتملكني شعور رائع بالراحة نتيجة ذلك بعد أن بات لدي مكان دائم ألجأ إليه متى أردت ، وهو مكان يلبي كل احتياجاتي إلى جانب ما يتميز به من جوانب جميلة للغاية . »

وفي الخامس من كانون الأول كتبت قائلة : «أشعر بصحة تامة ، أما اهتمامي بعملي فقد ازدادت جذوره تأصلاً . وأميل أحياناً إلى الشعور بما ينتاب الخالق من إحساس ، لابد أنه قد تساءل في حينه عن الطبيعة التي ستتميز بها خليقته تماماً مثلما يراودني الآن من تساؤل . كم أتمنى انصرافهم (أي العراقيين) عن فكرة (الانضواء تحت راية) أمير عربي . ينتابني شعور بالملل لمجرد التفكير بأمر إنشاء بلاط ملكي جديد هنا . واحسرتاه ! إنهم ميالون إلى تحقيق هذه الفكرة . قد لا يصلون إلى اتفاق حول شخص معين - وهنا يكمن أملي ورجائي . في مثل هذه الحال سيكون السير برسي كوكس البديل الوحيد ، وهو شيء رائع . أما أنا فأمثل الخيار الثاني لمنصب المندوب السامي حسبما طرق سمعي . ترى ما هو موقف كبار المسؤولين إزاء ذلك؟

انطلقت اليوم في نزهة على ظهور الخيل بصحبة الجنرال ستيوارت - وورتلي . كانت الصحراء رائعة ورطبة ولكنها لم تكن موحلة ، وكان العشب الأخضر يغطي المنخفضات الصغيرة في الأرض ، ولبست الذرة حلة خضراء رائعة . لا أظنك تدرك مدى ما تتركه صفرة الخريف من أثر في نفوسنا ، فعندما تكتسب أشجار الفاكهة لوناً ذهبياً فإن الذرة تحتها تكتسب بدورها لوناً زمردياً - إنه منظر رائع يفوق جماله كل قدراتنا على وصفه . أما أزهاري الخريفية فإنها تواصل عكس ما تتميز به من جمال وما تضفيه من روعة : فالبنفسج مزدهر والأقحوان ينتشر بأعداد كبيرة . وقد قمت بزراعة بذور الكبوسين والخزام الفواح والقرنفل الذي كان هانغان قد أرسلها لي من حديقة منزلنا في إنجلترا أما بذور القنطريون العنبري التي زرعتها في العام الماضي فقد راحت تنثر بذورها .

وصلنا فرانك بلفور صباح هذا اليوم . إنني أشعر بسعادة عارمة لعودته بيننا لا سيما بعد جلبه لنا أخباراً هامة من لندن ومن مصر وسوريا ، فالأخبار لا يطرق سمعنا منها سوى النزر اليسير .

الله أعلم بما ستؤول إليه الأمور في بلاد فارس إذا ما رفض الأمريكيون تولي مسؤوليتها ، وإذا صح ما يتواتر إلينا من معلومات فإنهم غير تواقين إلى القيام بذلك على ما

يبدو . أن أبناء فارس ليسوا ممن يمكن التعامل معهم بسهولة ، فهم صعبو المراس والإرضاء . إنهم من الناحية الطبيعية على درجة لا تصدق من الانحطاط والفساد ، فضلاً عن ذلك فانهم يقفون تقليدياً موقفاً مناهضاً من أي نظام للحكم قد يفرض عليهم . إنني شخصياً أكن لهم كل مودة وأرغب في لقائهم والاختلاط بهم ، كما أن وجودي بينهم لايشعرني بالغربة ، ومع ذلك لا أجدني راغبة بأي شكل من الأشكال بالتورط في توجيه خطواتهم التي تتميز بالتناقض وعدم المسؤولية إلى جانب بعدها عن كل ما هو منطقي وعقلاني . »

وفي الثالث عشر من كانون الاول كتبت تقول : «إن الوجهاء وأصحاب الشأن في المناطق القروية والريفية يقفون بحزم ضد فكرة ولاية أمير عربي وذلك انطلاقاً مما عبروا عنه من عدم رغبة في التخلص من طغيان حكم جائر ليرموا أنفسهم في براثن آخر لا يقل استبداداً وتعسفاً . آمل أن يبقى الحال هذا على ما هو عليه ، بل وأتمنى أن يعم أرجاء القطر إذ أنني لا أرغب في إقامة بلاط ملكي هنا مع كل ما يواكب ذلك من ضجة لا جدوى منها وما يترتب عليه من مشاكل لا حدود لها .كما أن وجود بلاط - أي بلاط كان - لا يخفق في تشكيل عائق في طريق أية مسيرة .»(٣)

وفي السابع والعشرين من كانون الأول كتبت إلى والدها قائلة : «أبتي الحبيب . استلمت رسالتك المؤرخة في الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول والبرقية التي أعقبتها والتي تخبرني فيهما عن عدم تمكنك من زيارتنا هنا . ولا أخفيك أنني لم أصب بخيبة أمل كبيرة نتيجة هذه المعلومة إذ يراودني شعور أكيد بما سيطرأ على مخططاتي من تغير في أية لحظة ، وذلك من قبل السلطات العليا هنا ، بيد أنني آمل مخلصة ان تتمكن من النظر في إمكانية لقائي في مصر في شهر آذار من العام الجديد .

على الرغم من أن أيامي مليئة بالعمل والواجبات ، لا أجدني أنجز الكثير على ما يبدو . ومن جانب آخر فإنني منهمكة مع القائد العام في التشاور والتأمل حول المواقع المستقبلية للثكنات والأماكن العسكرية الدائمة والتي تدخل في الإطار العام للتوسع المحتمل لنشاط الإدارة المدنية . لقد قمنا بزيارة موقعين شمال بغداد وجنوبها ، أما شغلنا الشاغل فيتمحور حالياً حول التخطيط المدني لبغداد وغيرها من المدن الرئيسة . ومن خلال مساعينا بهذا

---

(٣) يلاحظ القارئ كيف تتطرق جيرتروود بيل أحياناً إلى التسرع في إصدار الأحكام فيما يتعلق بالأفراد والحالات والخروج بالاستنتاجات باندفاع طائش الأمر الذي جعلها نزاعة إلى تغيير رأيها والتراجع عن مواقفها بذات التسرع - المترجم

الصدد تم لنا اكتشاف مهندس معماري شاب ذي مواهب عالية هو السيد جاي . ام .ويلسون J.M.Wilson(٤) احد تلامذة لوتينس Lutyens(٥) الذي يقوم برسم المخططات الهندسية التي ننصرف إلى دراسة تفاصيلها بدقة واهتمام بالغين . إن لديه آراء قيمة .

قضيت يوماً ممتعاً بصحبة كل من ايفلن هاول Evelyn Howell وفرانك بالفور : بعد أن قمنا بإرسال عدد من الخيول لتسبقنا إلى المثابة المحددة استقلينا سيارة نقلتنا إليها ومن ثم مضينا على ظهور الخيل إلى موقع أثري بابلي يدعى عقرقوف وهو برج هائل لم يسبق لي مشاهدته عن كثب . وفي هذا الموقع التقينا شيخ عشيرة بني تميم الذي كانت مضاربه تقع على مقربة من الموقع الأثري سالف الذكر . وقد جاءنا بصحبة اثنين وثلاثين من فرسانه الذين قاموا بعدد من الحركات البهلوانية الجريئة من فوق ظهور جيادهم الأمر الذي عكس قدرتهم العالية في فن الفروسية . وبعد أن شربنا القهوة العربية في مضارب بني تميم عدنا إلى الكاظمية حيث تناولنا طعام الغداء على مائدة رئيس بلديتها ، صديقنا الحميم السيد جعفر عطيفة . وأثناء ذلك تم لي قضاء ما يقرب من نصف ساعة بصحبة ابنة السيد جعفر وأطفالها . كم أحزن لحال هذه المنكودة التي كتب عليها أن تكون حبيسة بيتها لا تغادره ولا ترى أحداً . هناك عدد من العوائل التي تعمد على عزل النساء عن العالم بشكل يكاد يكون تاماً ، وهو جانب لابد من الاعتراف بأنهن يكرهنه كرهاً شديداً كما أنه يثير في نفسي الحزن تعاطفاً معهن . كم أشعر بالسأم لمجرد التفكير بمثل هذا الوضع . »

* * *

١٩١٩

وفي الثالث من كانون الثاني كتبت قائلة : «كانت فترة أعياد الميلاد مليئة بالبهجة والسعادة وقد حضرت حفلتين من الحفلات التي تقام في المستشفيات تم لي أثناء الأولى منهما ربح جائزة بعد فوزي في لعبة الكراسي ، أما الثانية فكانت حفلة راقصة كدت أكون

---

(٤) هو السير أدوين لاندسير لوتينس (1896 - 1944) Sir Edwin Landseer المهندس المعماري البريطاني الشهير الذي ترأس مجموعة المهندسين الذين قاموا بتخطيط وبناء مدينة نيودلهي في الهند - المترجم

(٥) هو الرائد المهندس جاي . إم . ولسون مساعد مدير دائرة الأشغال العامة وبذلك لا ينبغي الخلط بينه وبين العقيد أرنولد ولسون الذي أصبح فيما بعد سير أرنولد ولسون - المترجم

خلالها قاب قوسين أو أدنى من هلاك أكيد لاسيما أثناء فترات الاستراحة بين الرقصات التي راحت تدور فوق أرض رصفت بالطابوق ، إلا أن عزوفي عن البقاء إلى ساعة متأخرة هو الذي أنقذني من هلاك محقق . وإذا ما استثنينا برودة الطقس يمكنني القول بأنني قد أمضيت وقتاً ممتعاً للغاية .

«إلا أن الجانب الأكثر أهمية وإثارة تمثل بالمحاضرة التي ألقاها الأستاذ مارغوليوت Professor Margoliouth ، أستاذ اللغة العربية في جامعة أوكسفورد والذي قد جاءنا بمهمة كان يقوم بتنفيذها لصالح القيادة العامة للجيش . كانت المناسبة إنجازاً أكاديمياً رائعاً تم للأستاذ مارغوليوت من خلالها التحدث على مدى خمسين دقيقة عن روعة وعظمة بغداد القديمة . لقد ألقى محاضرته بلغة عربية فصحى لم يتخللها خطأ واحد ، والأكثر مثاراً للإعجاب في هذا الأمر أن الأستاذ هذا راح يلقي محاضرته من غير الاستعانة بأية ملاحظات مدونة ! إنه إنسان رائع بكل ما تنطوي عليه العبارة من معان فضلاً عن كونه تجسيداً حياً لأفضل ما يمكننا أن نطرحه من الجوانب الدعائية . إن العرب يحبونه ، ويقدرون ما يتمتع به من خبرة وعلم خير تقدير ، وهكذا الحال بالنسبة لي ايضاً . وإلى جانب علمه وأفقه الواسع فإنه حاضر البديهة ، قوي الملاحظة وسريع الخاطر .

إن أخبار الانتخابات تثير في نفسي شعوراً بالرضى والارتياح ، فإن من شأن أغلبية تضم ائتلافاً كبيراً أن يكون غاية ما أتمنى تحقيقه من اهداف . إنني في الواقع لم أكن أجرؤ على تمني مجيء أغلبية (برلمانية) بهذا الكم الكبير . ترى هل سيتقاعد اسكويث من الخدمة العامة ؟ هناك أخبار تفيد بأنه مرهق للغاية وأن زوجته باتت قاب قوسين أو ادنى من جنون محقق ! ترى هل الأمر على هذا الحال حقاً أم أنه مجرد إشاعة ؟ لقد تم تعيين فرانك بلفور حاكماً عسكرياً لمدينة بغداد . إنه لمن دواعي غبطتي وسروري أن يكون فرانك من بين زملائي .»

وفي العاشر من شهر كانون الثاني كتبت قائلة : «بعد أن هدأت الامور وتجاوز المرء منا مرحلة ما اعتراه من دهشة وذهول إزاء مسيرة الأحداث ، فإن قيامنا بالنظر إلى واقع الحال نظرة دقيقة ومتفحصة سيكشف لنا من غير أدنى شك أن عالمنا لا ينعم بالسلام حقيقة . فأوضاع ألمانيا من جانب ، وأحوال روسيا من جانب آخر وبشكل أكبر ، لا توحي بما يبشر بخير بل على العكس من ذلك إذ أن هذين الكيانين يشكلان مصدر قلق كبير لنا . إن العالم على ما أرى لن يعود بسرعة إلى ما كان عليه (قبل الحرب العالمية) من نظام وسكينة .»

وفي محضر ما ذكرت حول ما كان يجابه الإداريين البريطانيين في بغداد من صعوبات

تضيف جيرتروود قائلة : «إن إدامة توازن الأوضاع لن تكون ممارسة سهلة إذا ما تواصل تعرضها إلى تيارات الهواء الساخن القادمة إلينا من الوطن (بريطانيا) بصيغة إعلانات عالمية . إن السواد الأعظم من أبناء هذا البلد لا رأي لهم فيما يدور من أحداث وما يتمخض عن ذلك من نتائج ، وإن القسم الأكبر من بين أهل الفكر فيه راغبون في إدارتنا في ظل قيادة السير برسي كوكس وتوجيهاته . بيد أن هناك مجموعة صاخبة تدعى بأنها قادرة على تسيير دفة الأمور بمفردها . إنها بالتأكيد تود إزاحتنا عن طريقها ليخلو لها الجو ، وإذا ما تحقق لها ذلك فإنها ستنعم بالتجربة ، وستتمتع بحلاوة الحكم . بيد أن ذلك إذا ما تحقق فسيكون لفترة قصيرة جداً ، إذ أنها ستنتهي بسرعة جداً ، ولن تكون الثمار بالنتيجة سوى الفوضى وإراقة الدماء . لا فكرة لدي بالمرة عما ستؤول إليه الامور في سوريا ، إذ لا علم لنا عما يدور هناك من أحداث بسبب عدم قيام أية من الجهات المعنية بإخبارنا وهو خطأ كبير على ما أظن . وبهذا الصدد ، أرى لزاماً علي التوقف في سوريا للاطلاع على سير الأمور هناك وما يدور خلف الكواليس ، وذلك في طريق توجهي إلى الوطن .

إن ما كتبته والدتي من أخبار تتعلق ببزتها الرسمية و بكل ما لهذا الأمر من تفاصيل ، إنما يثير إعجابي ويملؤني فخراً واعتزازاً» .(٦)

وفي السابع عشر من شهر كانون الثاني كتبت تقول : « إنني في صراع متواصل مع رشح تعرضت له خلال هذا الأسبوع إلا أن نهايته تكاد تكون قريبة جداً على ما يبدو . ولقد حضرنا الدرس الأول من دورة تثقيفية تتعلق بالجوانب الصحية وتعقد في دار زوجة أحد الباشوات بإشراف وإعداد طبيبة جديدة انضمت إلى كادرنا مؤخراً . ولعدم قدرتها التحدث بالعربية توجب علينا جلب من تولى مهمة الترجمة . كانت دورة مفيدة للغاية ، وقد قامت الطبيبة بدورها بكفاءة وجودة عاليتين . وكان عدد اللواتي حضرن هذه الدورة من السيدات ثلاثين مشاركة أغلبهن من المسلمات واليهوديات . وسيكون موعد الدرس التالي في الأسبوع المقبل . فضلاً عن ذلك فإنني مدعوة لحضور حفلة شاي لدى إحدى العائلات المسلمة عصر غد . إن حفلات الشاي تهطل علي هطول الأمطار !

يقوم فرانك بلفور بأداء مهام واجبه بكفاءة تامة وهو أمر يثيرالإعجاب إذا ما أدركنا أن الاضطلاع بمهمة الحاكم العسكري لمدينة بغداد ليس بأمر سهل أبداً . إنه اعتاد زيارتي في

---

(٦) لقد أنعم على الليدي بل بلقب ديم Dame of the British Empire أي سيدة متميزة من سيدات الأمبراطورية البريطانية - المترجم

المكتب وموافاتي بتفاصيل ما يدور من أحداث . كم أتمنى أن يكون السير برسي معنا هنا ، بيد أنه يقوم بعمله بتفوق وامتياز ملحوظين الأمر الذي يعني صعوبة جره من عمله هناك لكي يتسلم مقاليد الأمور هنا . » .

* * *

أراد العقيد ويلسون من الآنسة جيرتروود أن تقوم بدور ضابط الارتباط له شخصياً وذلك أثناء تمتعها بإجازتها في إنجلترا ، وقد قام بإرسال برقية إلى لندن يقترح من خلالها فكرة إيفاد جيرتروود بهذه الصفة . ولم تكن جيرتروود متفائلة بإمكانية استجابة لندن لمقترحه . وهذا ما تم فعلاً . وفي الحادي والثلاثين من شهر كانون الثاني كتبت حول هذا الموضوع قائلة : «لم تبد لندن أية رغبة في أن يكون لأي منا حضور في العاصمة أساساً ، وبذلك لا أجد أي سبب يدعوهم الآن إلى إعادة النظر في موقفهم هذا ، ومع ذلك فقد أخبرت ولسون بأني سأبذل قصارى جهدي للقيام بما يرغب في تكليفي به من مهام .

سنكون محظوظين للغاية إذا ما نجحنا في الخروج بصيغة دائمة للحكم هنا في هذا الوقت من العام القادم . أما في الوقت الراهن فإننا سنواصل جهودنا للقيام بما نكلف به من أعمال على ما أفترض وذلك تنفيذاً لأوامر القائد العام وتوجيهاته . وطالما أن شاغل الموقع هو السير وليام فلا ضير في بقائه مهما طال أمد ذلك نظراً لما يتمتع به من حكمة وتسامح في مضمار تعامله مع الجوانب الإدراية لا سيما رأيه في فسح المجال أمام الإدارة للقيام بواجباتها وتطوير أدائها على الوجه الأكمل بعد أن وضعت الحرب أوزارها وعم السلام ربوع هذه الأجزاء من العالم .

أتوقع أن أكون منهمكة في العمل (عند وجودي في إنجلترا) اللهم إلا في حالة عدم رغبتهم في الاستماع إلى آراء من يتواجدون فعلاً في موقع الحدث ، وهو أمر محتمل جداً .»

الفصل التاسع

١٩١٩

على عكس توقعات جيرترود ، فإن ما اقترحه العقيد ولسون قد قوبل بموافقة من لدن الحكومة البريطانية وذلك بصدد قيام جيرتروود بالتوجه إلى الوطن وشرح أبعاد الوضع في العراق بتفاصيل أوسع شمولاً وأكثر دقة مما يمكن أن يحتويه نص برقية ترسل بهذا الخصوص .[١] ويصبح من الضروري هنا الاستشهاد بهذا الجزء من البرقية التي أرسلها السيد أدوين مونتاجيو Edwin Montague ، الوزير المسؤول عن حقيبة الهند ، إلى العقيد ولسون بتاريخ السادس عشر من شباط : «إن حكومة صاحب الجلالة إذ تنظر بتقدير وامتنان عظيمين إلى ما عكسه تنفيذكم للواجبات التي أنيطت بكم من عناية فائقة ودقة متناهية ، فانها لن تتصرف إلى اتخاذ أي إجراء يمكن لها تفاديه إلا بعد وصول الآنسة بيل وقيامها بإعطاء صورة أكثر تفصيلاً حول القضية .»

وصلت جيرتروود إلى باريس في السابع من آذار وقامت في اليوم ذاته بكتابة الرسالة التالية من مكان إقامتها في فندق ماجستيك : «كان لي لقاء مثير ومثمر للغاية مع اللورد ملنر Lord Milner الذي بدا مهتماً بمشاكلنا وتواقاً إلى رؤية إمكانية قيامنا بوضع أسس عملية لنشاطاتنا . وسوف أتناول طعام الغذاء ظهر الغد مع السيد بلفور[٢] الذي لا يعير الأمر أي اهتمام على ما أتصور . ولكنني آمل بالنتيجة أن أتمكن من الإمساك بذيل سترة السيد لويد جورج الذي إذا ما استطعت لقاءه ودفعه إلى الإصغاء إلى ما أقول فإنني سأحظي بتعاطفه معنا على ما أعتقد . وفي أثناء ذلك تم استدعاء كل من العقيد ولسون من بغداد والسيد هوغارث من القاهرة (وقد جاء أمر استدعاء الأخير هذا بناءً على توصية مني) وعند وصولهما فإنني أعتزم إنشاء كتلة صلدة من بين رجالنا العاملين في الشرق الادنى ، بمن فيهم السيد توماس إدوارد لورنس ، بهدف الخروج برأي موحد . لقد ألحوا علي جميعاً

(١) للاطلاع على هذا الجانب بشكل أكثر تفصيلاً بإمكان القارئ الكريم الرجوع إلى كتاب السيد آرنولد ولسون الموسوم «بلاد ما بين النهرين ١٩١٧ - ١٩٢٠ : تناقض الولاءات : سجل شخصي وتاريخي» لندن ، ١٩٣١ (الناشر : مطبعة جامعة أوكسفورد) وهو عمل لم تتم ترجمته على ما أعتقد - المترجم .

(٢) إنه السيد بلفور صاحب «وعد بلفور» الشهير وبذلك لا ينبغي خلطه مع ابن جلدته فرانك بلفور - المترجم .

ومن غير استثناء بضرورة البقاء ، وأن عملي الآن ينصب هنا على ما أعتقد .

إني أملأ الوقت بالاتصال بالفرنسيين بهدف الوقوف على ما لديهم من وجهات نظر ، إذ أن تسوية الأمور المتعلقة ببلاد ما بين النهرين مرتبطة ارتباطاً وثيقا بتسوية الأمور المتعلقة بسوريا الأمر الذي لا يمكننا من خلاله النظر في إحدى التسويتين بمعزل عن الأخرى ، وبقدر تعلق الأمر بسوريا فإن الموقف الفرنسي هو العامل الذي يعتد به .»

* * *

لم يكن السير هيو بيل قد رأى ابنته منذ ثلاث سنوات ونصف ، وبذلك فأنه سارع إلى الذهاب إلى باريس بغية لقائها . وقد قامت عن طريقه بتوجيه الرسالة التالية إلى اللادي بيل وذلك في يوم الأحد المصادف السادس عشر من شهر آذار :

«باريس - والدتي الحبيبة - في هذه اللحظة لا أتمنى شيئاً أكثر من لقائك : إنها رغبة ملحة لا يضاهيها أي شيء آخر . وإذا ما تمكنت من الإفلات من قبضة مهامي ومشاغلي لمدة يوم أو يومين فإنني لن أتوانى عن إعلامك برقياً . أخبرني أبي باحتمال قدومك إلى لندن . إنني أقضي وقتاً ممتعاً مع أبي الذي يجد في هذه المناسبة مدعاة للتسلية إلى جانب متعته بوجودنا معاً . فضلاً عن ذلك فإنه يساعدني كثيراً في مجال اتصالاتي بالأمريكيين الذين أتناول طعام الغداء والعشاء معهم في معظم أيام هذا الأسبوع .

أما في الوقت الحاضر فلا يوجد ثمة ما يمكننا القيام به باستثناء العمل على تثقيف حلفائنا الأمريكيين الذين يبدون على استعداد تام لتقبل ما نزودهم به من معلومات . لابد أن تتم تسوية الأمور كافة بين الحلفاء أنفسهم ، بيد أن ذلك مرهون بالتوصل إلى تسوية مع الأعداء بالدرجة الأولى .»

* * *

الثامن عشر من آذار كتبت جيرتروود إلى أبيها قائلة : «أبتي الحبيب - شعرت بوحشة قاتلة إثر رحيلك ، إلا أن هذا لا يلغي أثر ما حققته زيارتك من جدوى . ولا يمكنني وصف ما كان لوجودك معي على مدى يومين من أثر بالغ - فإلى جانب سروري وانشراح صدري فإنه كان مصدر دفع وتشجيع كبيرين .

تناولت طعام العشاء ليلة أمس مع هارولد نكلسون(٣) (الذي أصبح فيما بعد السير هارولد نكلسون Sir Harold Nicolson) وزوجته فيتا Vita التي تنتمي إلى عائلة ساكفيل ويست Sackville - West ، وهي بحق مخلوقة في غاية الفتنة والروعة .

قضيت صباح اليوم في مكتب السير آرثر هرتزل Sir Arthur Hirtzel(٤) جاثمة بقرب أنابيب التدفئة لأنعم بدفئ ما بداخلها من ماء ساخن ، ودونت عدداً لا يستهان به من الأوراق التي تضمنت ملاحظات حول الشكاوي الفرنسية ضد سلوكنا في بلاد ما بين النهرين ، وإن أقل ما يقال في هذه الشكاوى هو أنها مثيرة للضحك وغير معقولة بالمرة . حقاً إن الفرنسيين قوم عجيبون ! اتفقت مع توماس إدوارد لورنس حول قيامنا بتناول طعام الغداء معا . وأثناء وقوفنا في القاعة دخل إليها اللورد ملنر الذي ما أن شاهده لورنس حتى طلب مني دعوته لمشاركتنا طعام الغداء . وقد استجمعت شجاعتي وتوجهت إليه بالدعوة ! كم سرني قبوله لها . قضينا وقتاً ممتعاً تم لنا من خلاله تناول عدد من المواضيع الهامة . وقد اخبرنا اللورد ملنر عن بعض تفاصيل البرنامج المزمع طرحه على الوفد الألماني - تكلم عن هذا البرنامج بشيء من الاهتمام بيد أنه لم يبد متفائلاً . ولأنه طلب منا عدم ذكر اسمه في حال قيامنا بالتطرق إلى التفاصيل آنفة الذكر ، فأنني سأحجم عن ذكر أي شيء عنها في هذه الرسالة . وبهذا الصدد قلنا للورد ملنر أن من اعتادوا تناول طعام الغذاء معنا أناس قليلوا التحفظ فيما يتعلق بما يأتمنون عليه من أسرار . ولابد لي من الاعتراف بأن شخصية لورنس تشجع محدثيه بوجه عام على رفع الكلفة والتبسط في الحديث معه . أي أنها تساعد على إضفاء جو من الثقة . إنها نعمة فضيلة .»

وجدير بالذكر في هذا المجال أن الملك حسين ، ملك الحجاز ، كان يتوقع أن يعقب انتهاء الحرب العالمية الأولى قيام ممالك عربية وذلك من باب المكافأة والعرفان بالجميل إزاء ما قدمه

---

(٣) يعتبر السير هارولد نيكلسون أحد أبرز دبلوماسيي بريطانيا ومخططي سياستها الخارجية في القرن العشرين ، كما يعتبر كتابه «مؤتمر فينا» أحد أهم المراجع البارزة في حقل الدبلوماسية والعلوم السياسية . أما زوجته فتنتمي إلى إحدى أعرق العوائل البريطانية التي يقع قصرها التأريخي في منتزه Knoll في ضواحي مدينة Seven Oaks في مقاطعة Kent - المترجم

(٤) يجب عدم الخلط بينه وبين ثيودور هيرتزل Hertzl مؤسس الحركة الصهيونية ، أما المقصود هنا فهو السيد Hirtzel أحد أعضاء البعثة الدبلوماسية البريطانية إلى مؤتمر فرساي . ويمكن للقارئ الكريم تحديد الفرق بين الاسمين من خلال الفرق في صيغتيهما باللغة الإنجليزية - المترجم

العرب من مساعدة في مجال دحر الأتراك ، وهي ممالك كان من المؤمل أن تشمل سوريا ولبنان وفلسطين والعراق وجزءاً من شبه جزيرة العرب . وقد اقترح الحسين بهذا الصدد أن يتوج ابنه الثالث ، فيصل ، ملكاً على سوريا ، وابنه الثاني عبد الله ملكاً على العراق . وإثر الهدنة التي تم التوصل اليها مع تركيا في الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول من عام ١٩١٨ قام فيصل بدعم من بريطانيا بالذهاب إلى دمشق وانتظار ما سيحدث من تطورات وما ستؤول إليه الامور . إلا أن بموجب اتفاقية سايكس بيكو - وهي الاتفاقية التي تم عقدها في شهر أيار من عام ١٩١٦ والتي قام البلاشفة بإفشاء سرها والإعلان عنها بهدف إحراج القوى الاستعمارية - كانت هناك مناطق نفوذ لكل من بريطانيا وفرنسا وكانت سوريا ولبنان من حصة فرنسا .

كان فيصل على رأس القوات العربية التي قامت بإسناد القوات الحليفة العاملة بإمرة الجنرال اللنبي وذلك في مضمار جهودها الرامية إلى احتلال سوريا ولبنان وفلسطين . فضلاً عن ذلك فقد مثل فيصل والده في مؤتمر السلام الذي عقد في فرساي .

* * *

وثمة رسالة أخرى قامت جيرتروود بارسالها من باريس وهي تلك المؤرخة في السادس والعشرين من شهر آذار والتي تقول فيها :

«إنه لمن دواعي سروري أن أعلن عن وصول العقيد ولسون . وقد عقدنا ليلة أمس اجتماعاً مثيراً للاهتمام في دار السيد وكهام ستييد Wickham Steed رئيس تحرير صحيفة التايمز اللندنية ، وبرغم كونه شخصاً لا أميل إليه ، لا يسعني سوى الاعتراف بأنه فرد لا يخلو من فائدة . وقد حضر الاجتماع صديقي العزيز دومنول والعقيد لورنس ، وكان الهدف من هذا الاجتماع لقاء العديد من الصحافيين الفرنسيين اللذين كان على رأسهم كل من تيمب Temps ، وديباتس Debats ، وماتين Matin بالإضافة إلى أحد مسؤولي وزارة الخارجية الفرنسية Quai d'Orsay ورئيس غرفة تجارة مارسيليا . وبعد الانتهاء من طعام العشاء قام لورنس بشرح تفاصيل الوضع القائم وذلك فيما يتعلق بالأمير فيصل بن الحسين ومؤيديه السوريين من جانب ، وكذلك فيما يتعلق بفرنسا من جانب آخر ، ثم بين الخطوط الرئيسة لبرنامج خاص باتفاقية يمكن التوصل إليها من قبل الجانبين من غير تأخير ، وذلك لأن التأخير يشكل العائق الرئيس الذي يتمثل بأمر إيفاد لجنة إلى سوريا . ولقد قام لورنس بطرح القضية بصورة رائعة ، وكان لما تميزت به شخصيته من سحر وجاذبية ، ولما اتسم به

طرحه من صدق وبساطة ، أثراً كبيراً على مستمعيه الذين وجدوا أنفسهم مقتنعيُن تماماً بما تضمنه هذا الطرح من جوانب منطقية وعقلانية . ولكن كانت هناك مشكلة تعين علينا تجاوزها ؛ ترى هل بات إقناع وزارة الخارجية الفرنسية ورئيس الوزراء كليمنصو Clemenceau بجدوى طرحنا أمراً فات أوانه ؟ ومع ذلك هناك بصيص أمل في هذا الاتجاه ، إلا أن ما تتسم به الآلية من تعقيد لكفيل بحد ذاته بأن يحول دون تمكننا من التوصل إلى ما من شأنه أن يشكل كسباً لكلا الطرفين .

ولعل الاستشهاد بمقطع مما كتبه العقيد ولسون في كتابه «بلاد ما بين النهرين ١٩١٧ - ١٩٢٠» قد يعيننا في تسليط بعض الضوء على التفاصيل الخاصة بهذه الفترة من التاريخ . ويذكر القارئ الكريم أن العقيد ولسون كان وصل إلى باريس في العشرين من شهر آذار .

«شهد فندق ماجيستك عدداً من المدنيين والعسكريين من الخبراء الاختصاصيين بشؤون المناطق الغربية من بلاد العرب ، ومع ذلك لم يكن لدى أي منهم - باستثناء الآنسة جيرتروود بيل - أية معلومات مباشرة ودقيقة عن العراق أو نجد أو بلاد فارس . فضلاً عن ذلك فإن واقع وجود أغلبية سكانية شيعية في العراق قد تم رفضه بإصرار واعتباره شيئاً من نسيج خيالي ليس إلا وذلك من قبل أحد هؤلاء الخبراء الذي يتمتع بشهرة على نطاق عالمي باعتباره حجة لا يشق له غبار في مجال اختصاصه . وهكذا فقد كتب علي وعلى زميلتي الآنسة بيل الإخفاق في إقناع العناصر العسكرية وممثلي وزارة الخارجية البريطانية بأن الأكراد في ولاية الموصل يشكلون نسبة عالية من السكان وإنهم من المحتمل جداً أن يشكلوا مصدراً للاضطرابات والمشاكل ، وإن ابن سعود يمثل قوة يتعين أخذها بعين الاعتبار الأمر الذي يعني ضرورة التوصل إلى اعتماد سياسة عقلانية في التعامل معه ، وإن ما نعاني من مشاكل لا يمكن حلها وتجاوزها بذات السبل التي يتم من خلالها معالجة القضايا والمشاكل في سوريا وهي السبل التي بادر إلى طرحها المهتمون من بين أعضاء المكتب العربي .»

* * *

في أوائل شهر نيسان انطلقت جيرتروود بصحبة أبيها في رحلة سياحية بالسيارة زارا من خلالها بلجيكا والمناطق الشمالية من فرنسا ليمضيا بعد ذلك إلى الجزائر عن طريق ميناء مرسيليا ، وبعيد عودتهما إلى باريس في شهر آيار توجها إلى أرض الوطن ، إنجلترا ، حيث قضت جيرتروود الجزء الأكبر من فصل الصيف . وعند عودتها إلى الشرق اصطحبت

معها خادمتها ، ماري ويلاري ، وكانت أول رسالة بعثتها بعد مبارحتها إنجلترا تلك التي كتبتها من على ظهر الباخرة نيفاسا Nivasa قبل وصولها إلى ميناء بورت سعيد ، وكان ذلك في السادس والعشرين من شهر أيلول حيث قالت :

«إنه لأمر ملفت للنظر بغرابته أو جدته أن يكون المرء جزءاً من الكادر الوظيفي الرسمي العامل في الشرق ، ولطالما تساءلت بهذا الصدد عما يعني الأمر هذا بالنسبة لمن يسافر منا على ظهر باخرة كهذه متحرراً تماماً من أي إحساس بأنه شخص غريب ومن عالم آخر ، وهو جانب لا أجده يخلو من متعة لا سيما وإنني لم أكن قد اعتدته بعد كما ينبغي .»

وكعهد جيرتروود دائماً في وصف المشاهد بإسهاب ودقة ، فقد احتوت الرسالة الأخيرة على تفاصيل دقيقة تتعلق بأكثر من كانوا على ظهر الباخرة من المسافرين ، وما كان لهم من نشاط . فضلاً عن ذلك فقد احتوت صفحتان من هذه الرسالة على سجل بالحاجيات التي كانت جيرتروود قد تركتها خلفها ولكنها تطلب الآن إرسالها إليها (إلى العراق) وبذلك كان بإمكان الرسالة هذه أن تكون أطول إلا أن جيرتروود سرعان ما اختتمتها بالقول : « . . . . إنكم الآن على ما أفترض قد أصبحتم على بينة تامة من أمر هذه السفينة وركابها ، اللهم إلا باستثناء التفاصيل المتعلقة بحياة ربانها وضابط الحسابات فيها وبقية الشخصيات الرئيسة من بين أفراد طاقمها ، وهي تفاصيل لن أتطرق إليها إذ على الرغم من عدم خلوها من جوانب تثير الاهتمام إلا أن الكتابة عنها يتطلب جهداً ووقتاً لا يسعني التورط فيهما .»

أنهت جيرتروود الرسالة آنفة الذكر بعد يوم من وصولها إلى ميناء بورت سعيد لتبدأ في تدوين يومياتها والتي تعتبر أول محاولة لها في هذا المجال منذ رحلتها إلى حائل في عام ١٩١٣ ، وهي في الحين ذاته المحاولة الأخيرة أيضاً . وعلى غرار يومياتها المعهودة فإن الأخيرة هذه جاءت طويلة ومفصلة إذ أنها فضلاً عما تضمنته من وصف وآراء وانطباعات فإنها تضمنت كذلك تفاصيل ما دار بينها وبين العديد من الشخصيات من حوارات تم لها في ضوئها تكوين صورة واضحة ودقيقة عن أحوال سوريا والوضع العام فيها . ولقد عمدنا إلى إدراج العديد من مقاطع هذه التفاصيل في عملنا هذا كما أوردتها جيرتروود نصاً ، ولكننا مع ذلك اضطررنا إلى تلخيص ما انطوى عليه القسم الأعظم منها من معلومات .

* * *

وفي التاسع والعشرين من شهر أيلول كتبت جيرترودد من القاهرة قائلة : «سأمضي

بضعة أيام هنا بغية التعرف على الأوضاع وسير الأمور عن كثب وهي جوانب لا يمكن لغير الجنرال جلبرت كلايتون General Gilbert Clayton أن يوضحها بدقة ومعرفة تامتين . إن كلايتون يشغل الآن منصب وزير الداخلية في الإدارة المصرية .(إنه ذات الشخص الذي تشاء الأقدار أن يصبح في عام ١٩٢٩ مندوباً سامياً لبريطانيا في العراق) . وسأنطلق صباح الغد بصحبته في رحلة إلى الاسكندرية لمقابلة السير ميلن تشيتام Sir Milne Cheetham الذي يتولى مقاليد الأمور في مصر حالياً ، بالإضافة إلى مقابلة بعض شخصيات المكتب العربي . إن تبادل المعلومات الاستخبارية يشكل أحد الجوانب التي تجد لدي ميلاً واندفاعاً منقطعي النظير .

يقول الجنرال كلايتون إن إضراب منتسبي السكك الحديدية في بريطانيا قد جاء في لحظة غير مؤاتية بالنسبة لمصر التي تشهد أجواؤها تنامي شعور قوي باتجاه التنظيم النقابي ، وهو شعور تغذيه الأفكار الاشتراكية الإيطالية ويعمد الحزب الوطني المصري إلى ترويجها ودعمها . كما أنه لا يرى جدوى من إيفاد لجنة ملنر Milner Commission(٥) في حال تفاقم خطر المقاطعة . إن المصريين يرفضون أن تكون لهم أية علاقة باللجنة المذكورة لأنهم قد أرسلوا إلى باريس ممثلين عنهم مخولين بعكس ما لدى الشعب المصري من موقف . وكان الجنرال كلايتون قد التقى أعضاء الوفد المصري قبل انطلاقهم إلى باريس فوجد أن لديهم حجة مقنعة ، يقول المصريون أن البريطانيين كانوا أعلنوا بعيد مجيئهم إلى مصر أن تواجدهم على أرضها سينتهي بعد أن يتم لنا (أي للمصريين) تحقيق الأمن والأستقرار ، وإن الإعلان عن هذه النية قد تم في مناسبات عديدة على الرغم من طول الفترات الفاصلة بين إعلان وآخر . وعلى الرغم من ذلك فقد اتضح بمرور الزمن أن البريطانيين قد لجؤوا ، وبشكل متزايد ، إلى استخدام أبناء جلدتهم في مختلف الوظائف ، بما في ذلك الإدارية منها التي تتميز بطبيعتها البسيطة ، بدلاً من الانصراف إلى تدريب العناصر المصرية وتهيئتها لاستلام المهام التي ينبغي لها ممارستها . ومع ذلك نجد أن المصريين يشيدون بما حققه البريطانيون من منافع تتعلق بالقطر المصري .

لقد تم بشكل مفاجئ قطع أواصر العلاقة القديمة التي ربطت مصر بتركيا بعد إعلان الحرب ، ومن غير التشاور مع المصريين ، أو حتى الالتفات إلى مشاعرهم وما يحتمل أن

---

(٥) إنها اللجنة التي تم تشكيلها برئاسة اللورد ملنر للتحري عن الأسباب التي أدت إلى قيام الأضطرابات التي شهدتها مصر في شهر آذار من عام ١٩١٩ - المترجم

يكون لهذه القطيعة من أثر على نفوسهم . وعلى الرغم من هذه الحقيقة لم تحتج القوى الوطنية المصرية ولم تعلن عن رفضها لهذا الإجراء انطلاقاً من قناعتها بأن الحلفاء كانوا يناضلون من أجل إعلاء حقوق القوميات المضطهدة . وكنا قد أعلنا في أول بلاغ أصدرناه بعد إعلان الحرب بأننا نحن أنفسنا سنتحمل وطأة الحرب وأعباءها ، الا أن مصر سرعان ما وجدت نفسها مجبرة على تموين جيوشنا وتوفير كل ما يتطلبه المجهود الحربي من عمالة سواء كان ذلك داخل مصر أو خارجها . وقد قامت الحكومة المصرية بدفع مبلغ أربعة ملايين باون استرليني إسهاماً طوعياً منها في تغطية تكاليف الحرب . وإلى جانب ذلك كان لهذه الحرب انعكاسات سلبية على التجارة في مصر وما واكب ذلك من ارتفاع حاد في مستوى الأسعار . ثم جاء إعلان المبادئ بكل ما انطوى عليه من مضامين تصب في صالح قضية استقلال مصر . لقد أشاد رئيس الوزراء لويد جورج بمبادئ الرئيس ولسون الأربعة عشر ، وأعلن التزامه بها بحرارة ، الأمر الذي جعل من موضوع تقرير المصير أمراً كثر تداوله بين مختلف الأوساط . وهكذا ، وبدفع من المبادئ التي لم نتوان نحن بدورنا من الإعلان عن تأييدها والالتزام بها ، طلب المصريون منا السماح لهم بإرسال وفد إلى لندن يهدف إلى طرح وجهة نظرهم بهذا الصدد . وقد قوبل طلبهم هذا بالرفض بحجة أن حكومة صاحب الجلالة لا وقت لديها للاستماع إلى ما يرغب الوفد المصري في طرحه برغم ما وجد الطرح هذا من تأييد من لدن المندوب السامي البريطاني في مصر . وإزاء إصرار نواب الشعب المصري على ضرورة تنفيذ مطلبهم هذا ، لم تتوان السلطات البريطانية عن زجهم في السجون .

ويقول كلايتون بهذا الصدد إنه على الرغم مما تنطوي عليه الحجة المصرية من ثغرات فهي بالأساس وبوجه عام ، مشروعة ومعقولة . وإزاء هذا الوضع ، فانه يرى ضرورة قيامنا بمراعاة جانبين أساسيين : أولهما حماية المصالح الأمبريالية (البريطانية) وضروراتها في مصر ، وثانيهما حماية المصالح الدولية التي قطعنا على أنفسنا وعداً بضرورة النهوض بمسؤولياتها دونما التفات إلى أية اعتبارات أخرى لا تنسجم مع مثل هذا الموقف . ويتعين علينا إحكام سيطرتنا التامة على قناة السويس ، ومياه نهر النيل ، وقوات الشرطة والجيش على حد سواء . إنه (أي كلايتون) لا يعارض سحب المستشارين البريطانيين من الوزارات المصرية القائمة . وعلى الرغم من كونه على ثقة تامة من أن المسؤولين المصريين سيرتكبون الأخطاء تلو الأخطاء في ممارساتهم للمسؤولية ، إلا أنه يرى أن من حقهم زج أنفسهم في خضم التجربة . كما يرى كلايتون بهذا الصدد أن من شأن قيامنا بتنازلات من هذا النوع أن تكسبنا تأييد أغلبية العناصر المصرية التي لا تتطلع إثر ذلك إلى مساعدات من جهات

أخرى غيرنا ، كما لا ترى إمكانية الحصول على أي شكل من المساعدة والدعم من أطراف أخرى . وإذا ما أخفقنا في الانصراف إلى القيام باعتماد إجراءات شجاعة تتميز بالتساهل والتسامح نكون قد أسهمنا في خلق قضية إيرلندية شرقية في مصر .

وبقدر ما لديه من معلومت تتعلق بالوضع العام في بلاد ما بين النهرين ، فإنه ينصح بقيامنا بانتهاج سياسة من شأنها تفادي ما يواجهه البريطانين من وضع في مصر ، وبصرف النظر عما قد نعانيه من ضعف عام في الأمكانات فإنه يحثنا على القيام باستحداث وزارات عربية (محلية) مع تعين مستشارين (بريطانيين) لها يقومون بإسداء المشورة إلى المندوب السامي . وبإمكان هؤلاء الوزراء الذين يتم تعينهم تشكيل مجلس يرأسه رجل عربي من غير حقيبة ويكن لهذا المنصب أن يمر بعملية نمو وتطور قد تخرج بالنتيجة برئيس للدولة .

بعد هذا اللقاء تركني الجنرال كلايتون بصحبة العقيد ماينرتزهاجين Colonel Meinertzhagen الذي أخبرني إثر الانتهاء من رسم الخطوط العريضة لرحلتي بأن القضية السورية لا تزال في البوتقة . وقد أفادت برقية أرسلها اللورد كرزون Lord Curzon يوم أمس بأن قراراً لم يتخذ حتى الآن (حول سوريا) . وإن وجود الأمير فيصل في لندن قد دفع حكومة جلالة الملك على ما يبدو إلى التأني حيال النتائج التي تم الوصول إليها في باريس .

بعد أن ناقشنا أمر تبادل المعلومات الاستخبارية ، اتضح لي سبب إخفاق المكتب العربي في ممارسة ما طلبنا منه القيام به من مهام ، فبسبب عمله بإمرة المندوب السامي لم يكن بمقدوره القيام بأي عمل إذ أن قوات الجنرال اللنبي وكذلك كل من سوريا وفلسطين تقع كلها خارج حدود نشاطاته . وبسبب ذلك لا يصل أي مما نقوم بتوجيهه من المراسلات إلى الضابط السياسي الذي يعمل مع الجنرال اللنبي .»

في القاهرة التقت جيرتروود السيد طالب النقيب ، أحد أعيان مدينة البصرة ، الذي راح يعرب عن رغبته في العودة إلى موطنه الأصل ونقل خدماته إلى البريطانيين بعد أن تم دحر الأتراك وطردهم . ولم يكن لدى جيرتروود أي شك في أن السيد طالب كان يطمح إلى تولي إمارة العراق مستقبلاً على الرغم من ادعاءاته أن رغبته في العودة إلى البصرة كانت بدافع التفاته إلى رعاية أملاكه وأطيانه هناك . وكان أول انطباع كونته جيرتروود عن السيد طالب هو أنه «مراوغ اكثر من كونه شخصاً يميل إلى الإسراف والانغماس في الملذات ، وأن مظهره لا يعكس أبداً صورة بطل مغامر يهوى مقارعة الخصوم وخوض غمار الحروب .»

ومن خلال تجوالها بصحبة الجنرال كلايتون ، زارت جيرتروود ميناء الإسكندرية حيث

دونت الملاحظة التالية : «أكد (كلايتون) لي ما كنت كونته من انطباع نتيجة قراءتي لتقارير الضباط السياسيين وذلك بصدد ما يخامر الكثير من اليهود المحليين من قلق إزاء تدفق اليهود الأجانب الذين يخشى المحليون من قيامهم بسلب تركتهم (كذا) . لقد بدأ الكثيرون من اليهود الغاليسيين والبولونيين يجدون طريقهم إلى ميناء بورت سعيد المصري بأمل الاستقرار في فلسطين .»

وقد تحدث الجنرال كلايتون عن ثلاث شخصيات قدر أن يكون لهم شأن بارز في العراق ، وهم كل من ياسين باشا الهاشمي ، وجعفر باشا العسكري وصهره نوري باشا سعيد ، ولقد أصبح ياسين الهاشمي من بين أفضل من عرف العراق من الوزراء وأكفأ من قدر لهم تولي رئاسة الحكومة فيه وذلك خلال الفترة التي أعقبت إعلان الدستور ودخول المعاهدة العراقية البريطانية إلى حيز التنفيذ . لقد وقف الهاشمي ضد البريطانيين دوماً ، بيد أن موقفه هذا لم يمنعه من التعامل معهم على نحو معقول . ومن سياق كلامها مع الجنرال كلايتون (حول أمور تخص العراق والعراقيين بوجه عام) أدركت أن ياسين الهاشمي كان سياسياً متطرفاً يرفض أي توجيه أجنبي ، وبذلك فإنها اعتبرته «رجلاً خطيراً» .

أما جعفر باشا فكان له سمعة جيدة ، ورصيد عال . فبعد خدمة مشرفة ومتميزة في صفوف الجيشين الألماني والتركي نال وسام الصليب الحديدي Iron Cross ، وإثر تحول مفاجئ وتام منح وسام الانتماء إلى نظام القديسين مايكل وجورج Companion of the Order of St. Michle and George وهو الوسام الذي قام الجنرال اللنبي بتقليده إياه . وكان جعفر باشا على رأس الوطنيين الذين عادوا من سوريا إلى العراق ، وقد أصبح رئيساً للوزراء في الحكومة التي تولت عمليتي صياغة الدستور واتخاذ ما يلزم للتصديق على المعاهدة العراقية البريطانية من خلال المجلس التأسيسي . وكان العسكري (رحمه الله) صديقا مخلصاً للملك فيصل الأول والإنجليز ، وقد أصبح بعد الاستقلال سفيراً للعراق لدى بلاط سانت جيمس في لندن ، وقد تجلت اهتماماته ، وما تميز به من حب لاكتساب المعرفة ، من خلال مثابرته على الحصول على إجازة تمنحه حق المرافعة أمام المحاكم بدرجة محامي barrister و حق الانتماء إلى جمعية المحامين بالدرجة المذكورة الأمر الذي يعني أن العسكري ، وبحكم هذا الانتماء ، كان له حق المرافعة أمام المحاكم الكبرى في بريطانيا . وفي إطار هذا التاريخ بالذات من مذكرات جيرتروود بيل ، كان جعفر العسكري يشغل منصب الحاكم العسكري لمدينة حلب . وتقول جيرتروود عنه أنه رجل مخلص وأمين ، وأن بإمكانه فضلاً عن ذلك أن يكون عوناً كبيراً لنا .»

أما عن نوري سعيد فقد كتبت جيرتروود ما يلي : «لعله الرجل الأفضل من بينهم ، فضلاً عن تمتعه بدرجة كبيرة من الفطنة والذكاء .» وكانت جيرتروود محقة في حكمها هذا فقد قدر لهذا الرجل الفذ أن يشغل منصب رئيس وزراء العراق ست عشرة مرة . وكان نوري سعيد قد انضوى تحت لواء الثورة العربية الكبرى بعد فترة وجيزة من وقوعه في أسر القوات البريطانية ، وقد عمل بمعية الأمير فيصل ولورنس . وقد تميز هو الآخر بارتباطه بعلاقة حميمة مع الملك فيصل وبقائه صديقاً مخلصاً لبريطانيا . وكان دوره وسيلياً في دفع العراق إلى القيام بإعلان الحرب على دول المحور خلال الحرب العالمية الثانية ، ولمبادراته الشخصية وجهوده الحثيثة يعود الفضل بالدرجة الأولى في إنشاء جامعة الدول العربية في عام ١٩٥٤ (كذا) .[٦] وفي آخر مرحلة من مراحل حياته أصبح رئيساً لوزراء الاتحاد الهاشمي الذي جمع الأردن والعراق في اتحاد ملكي فدرالي . وقد قضى نوري سعيد نحبه إثر انقلاب عسكري تم تنفيذه في الرابع عشر من تموز من عام ١٩٥٨[٧] .

كان لجيرتروود بيل لقاء طويل مع الدكتور فارس نمر رئيس تحرير جريدة المقطم تبادلا من

---

(٦) لابد أن الرقم قد جاء بهذه الصيغة نتيجة خطأ مطبعي إذ أن تأسيس الجامعة العربية قد تم في عام ١٩٤٥ وليس كما هو مبين أعلاه وقد أوردته كما ورد نصاً أمانة – المترجم

(٧) لابد لنا من وقفة هنا من أجل التعليق على ما ورد في هذا النص وذلك بخصوص ما دأب الكثيرون على تناوله من أمر علاقة الصداقة التي ارتبط بها المغفور لهما جعفر باشا العسكري ونوري باشا السعيد ببريطانيا ، وما ترتب على ذلك من سمعة قدر أن يكون لها انعكاسات سلبية شاءت جهات عديدة انطلاقاً من مآرب شخصية أن تعمد إلى استخدامها بطرق وصيغ كان من شأنها أن تخرجها بعيداً عن سياقاتها التاريخية والحقيقية بهدف النيل من هذين الرجلين اللذين يقفان في الصف الأول بين الشخصيات الوطنية والقومية التي قدر لها أن تلعب دوراً فاعلاً وأميناً لا في مضمار إقامة الدولة العراقية فحسب بل في مجال العديد من المسارات القومية ، وما جهود نوري السعيد المثمرة وإسهاماته في مجال إقامة الجامعة العربية وإرساء دعائمها إلا مثال حي على هذا الدور . إن تاريخ العسكري والسعيد حافل بجلائل الأعمال والمنجزات المشرفة ، وإذا ما قدر لما انتهجاه من طرق وما انصرفا إلى اعتماده من أساليب وتوجهات أن تختلف مرحلياً وتكتيكياً عن آراء وتوجهات الغير ، أو أن تبدو صيغاً غير منسجمة مع الشعور العام للميول والتوجهات السائدة والتي ثبت بشكل قاطع أنها كانت تقوم على الانفعال والتحيز لا على العقل والتجربة (وهو ما تنصرف سياقات الأحداث إلى إثباته بشكل متواصل حتى يومنا هذا) فإن ذلك لا يبرر بأي شكل من الأشكال ما وجهت ==

خلاله الحديث وتناولا القضايا والشؤون السورية . وتقول بهذا الصدد : «إنه مسيحي سوري يتميز بالبصيرة والاعتدال والنزاهة ويتمسك بقوة بأمل أن يأتي ذلك اليوم الذي سيرى فيه بلده سائراً على طريق التقدم والرقي بفضل مساعدة بريطانيا العظمى ودعمها تماماً مثلما

== إليهما من تهم وما نعتا به من عبارات قاسية تعمدت التشهير بهما والنيل من مكانتهما السياسية والاجتماعية سواء كان ذلك عن طريق التشهير دائم الأثر ، أو القذف ، دون مراعاة لأبسط قواعد اللياقة ومن غير منحهم حتى حق الانتفاع من الشك ، أي بتأويل الشك لمصلحتهما بهدف تغليب جانب البراءة حتى الوقت الذي تتكشف فيه بواطن الأمور وتظهر من خلاله الحقائق وتبرز فيه ماهيات النوايا . وقد شاءت الأقدار أن تظهر هذه الحقائق في وقت متأخر كان فيه الاثنان قد لقيا حتفهما على يد ذات العناصر التي لم يألوا جهداً في سبيل العمل من أجل تحقيق الخير والرفاه والسعادة لها .

كان العسكري والسعيد ، شأنهما بذلك شأن قائدهما جلالة المغفور له فيصل الأول المعظم ملك العراق ومؤسس كيانه الحديث ، يريان ضرورة في محاولة بذل كل الجهود في سبيل تقريب وجهات النظر المتعارضة وذلك فيما يتعلق بمصالح العراق الوطنية وتلك الخاصة ببريطانيا واضعين نصب عينيهما السعي الحثيث إلى تحقيق الاستقلال بشكل تدريجي وبأساليب سلمية ودبلوماسية بعيدة عن صيغ التشنج والعواطف الجوفاء .

لقد كان من شأن ما شهداه من تقلب الأحوال وما عصفت بهما من رياح التجارب المريرة التي كان أخرها وابلغها أثراً سقوط المملكة العربية في سوريا على يد القوات الفرنسية أن يجعل منهما مريدين مخلصين للسياسة الهاشمية الرشيدة التي تنصرف إلى العمل وبذل الجهود ضمن إطار ما هو متاح وممكن حتى الوصول إلى تحقيق الغايات المنشودة كافة وأقصد بذلك مبدأ «خذ ثم طالب» الذي اعتمده المغفور له الملك فيصل ، في زمن لم يكن اتباع أي أسلوب مغاير مجدياً بحكم الظروف السائدة وأوجه عدم التكافئ في العلاقة القائمة بين الجهات البريطانية وتلك الوطنية العراقية ، ومع ذلك فإن اعتماد العسكري والسعيد لهذه السياسة لم يمنعهما ، كما لم يمنع الملك فيصل الأول ، من الاصطدام بالسلطات البريطانية عندما كانت المصالح الوطنية العراقية تقتضي بالنتيجة ضرورة تحقق الصدام . وما الخلاف حول تطبيق قانون التجنيد الإجباري ، والمحاولات الرامية إلى تطوير الجيش ، وتلك التي استهدفت تعديل المعاهدة العراقية والبريطانية لصالح العراق ، إلا أمثلة حية على القضايا التي أدت إلى الاصطدام بين الجانبين .

ولعل من سخريات القدر أن يقضي العسكري والسعيد نحبهما في ظروف تشير أصابع الاتهام فيها إلى تورط ذات الجهة التي ارتباطا بأواصر الصداقة معها في تدبيرها ، أو على الأقل علم إلى هذه الجهة بالظروف آنفة الذكر مسبقاً والسكوت عنها - المترجم

قدر لمصر أن تجدد حياتها وتمضي على طريق الرقي بفضل جهود اللورد كرومر . إن مثل هذه الآمال وما ترتب عليها من أحلام قد شهدت انبعاثاً بفعل أحداث الحرب العالمية الاولى ، إلا أن جذونها انطفأت ، وهو الآن ينظر بانشداه إلى زمن لا يبشر بالخير بل بالصراعات والإخفاقات وتلاشي الهوية الوطنية تحت نير الحكم الفرنسي . وفي نهاية اللقاء بدا احتمال الهيمنة الفرنسية الخيار الوحيد الذي كان على سوريا الرضوخ له من غير أدنى شك . ولقد أخبرني بأن الفرنسيين يعمدون بشكل يومي وعبر الجرائد والمجلات المصرية الناطقة باسمهم على نشر قوائم سوداء بأسماء الوطنيين السوريين الذين ينوون نفيهم من سوريا متى ما تم لهم بسط سيطرتهم التامة عليها . وتصاحب هذه القوائم مختلف عبارات التبجح والتباهي التي تمجد عظمة فرنسا وتتغنى بجبروتها والتفاخر باستحالة التغلب عليها وهو ما سيتم للسوريين إدراكه بكل ما له من أبعاد مع دفع كل ما يترتب على ذلك من ثمن . وبوجود الدبلوماسي جورج بيكو في بيروت مبعوثاً فرنسياً مطلق الصلاحية لا يجد المرء منا أي احتمال يبشر بمصير مختلف عما يراه فارس نمر ويتوقع قرب تحقيقه بالتأكيد . ويواصل جورج بيكو دفع الوطنيين السوريين ، المسلمين منهم والمسيحيين الأورثودوكس على حد سواء ، إلى الاستسلام ونبذ كل صيغ المعارضة والمقاومة مؤكداً لهم عدم استجابة أي من أمريكا أو بريطانيا لما ينشدونه من دعم منهما الأمر الذي يجعل من مقاومة فرنسا أمراً غير مجد بالمرة . وأخشى أنني قد قمت بدوري بتبرير هواجسه والاتفاق معه حول كل ما كان يساوره من مخاوف تتعلق بالموقف الأمريكي .

كما تحدث عن الصهيونية التي كان من المناوئين لها ، وأبدى استغرابه إزاء دعمنا لها . وقد أخبرته بدوري باستحالة التعامل مع مسلمي فلسطين بشكل غير منصف (كذا!) طالما بقي القطر تحت الانتداب البريطاني ، ولكنه أعرب عن مخاوفه بالقول أن الأمر يختلف تماماً عما أقول ، فالقضية ليست مسألة تعامل مع العناصر المسلمة من أبناء فلسطين .

فضلاً عن ذلك فهو يعارض بشدة فصل فلسطين عن سوريا ، وقد أخبرني بأن القبائل البدوية الموجودة على الحدود السورية كانت تتوق للاستقرار وأنها على استعداد للقيام بذلك حال قيام حكومة مستقرة في دمشق . ثم سألته عن مقدار ما يتمتع به فيصل من نفوذ في الأوساط البدوية فأجابني بأنه يتمتع بقدر كبير من النفوذ بين هذه القبائل بيد أن النفوذ هذا مرهون بتأييد من لدنا نحن ، وإذا ما شئنا سحبه فإن موقف فيصل سيضعف لا في الأوساط البدوية فحسب بل في تلك الخاصة بالمجتمعات المستقرة كذلك .

في معرض الحديث عن الصهيونية ، أخبرني الدكتور نمر بأن فيصل قد التقى في

العقبة الدكتور حاييم وايزمان مؤسس الحركة الصهيونية (كذا)[٨] وأن الأخير هذا قد قد تمكن من إقناع الأمير بإمكانية انسجام المطالب اليهودية مع تطلعات العناصر العربية وطموحاتها ، بيد أن فيصل سرعان ما اعتمد موقفاً مختلفاً بعد أن تم له الاطلاع على الأهداف والنوايا الصهيونية بشكل أفضل .»

* * *

وفي مدينة القدس حيث حلت جيرتروود ضيفة على المسؤول الإداري الأول للمدينة ، الجنرال واطسون General Watson فإنها تمكنت من التقاء المفتي[٩] والاجتماع به لمدة ساعة من الزمن دار أغلب الحديث خلالها حول الصهيونية . وبهذا الصدد كتبت في مذكراتها تحت تاريخ الخامس من تشرين الأول : «يقف المفتي بصلابة ضد الوجود الفرنسي ، ولابد من القول فضلاً عن ذلك أن الانتداب الفرنسي على سوريا يعني ضياع كل أمل يتعلق بها» ، أما عن آراء الجنرال واطسون فقد كتبت تقول : «إنه يشجب كل محاولة من قبل الصهاينة تنصرف إلى اعتماد السرعة في استعمار البلاد ، إذ أن من شأن اليهود الذين قد تم لهم الاستيطان هنا أن ينظرو إلى سيل المهاجرين القادمين من غاليسيا أو أي مكان آخر لا بشيء من عدم الارتياح فحسب ، بل وبالازدراء أيضاً . ولقد وحد الخوف من الصهاينة صفوف العرب ، المسلمين منهم والمسيحيين على حد سواء ، وباتت فلسطين تضم مجتمعاً متضامناً بفئتيه المسيحية والمسلمة يهدف بالدرجة الأولى إلى الوقوف في وجه هيمنة اليهود على البلاد ، وهو نشاط تتم ممارسته بشكل سافر ، كما أن قادته على اتصال مستمر بالمسؤول الإداري الأول ، بيد أن السيد رونالد ستورز (الذي كان موجوداً في القدس في ذلك التاريخ) يقول إن مناهضة الصهيونية تشكل الرابطة الوحيدة التي تجمع بين أبناء المجتمع الفلسطيني

(٨) خطأ آخر تقع فيه الكاتبة : حيث تصف حاييم وايزمان بأنه مؤسس الحركة الصهيونية ، مع أنه من المعروف أنه مؤسس الحركة الصهيونية هو ثيودور هرتزل . أما حاييم وايزمان المذكور فقد عمل رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية وذلك في مناسبتين كما كان أول رئيس لدولة إسرائيل وذلك في عام ١٩٤٨ - المترجم .

(٩) كان المفتي في ذلك التاريخ السيد كامل الحسيني الذي بقي شاغلاً هذا المنصب حتى وفاته في عام ١٩٢٢ ؛ وقد أعقبه فيه الحاج أمين الحسيني - المترجم

(كذا)[١٠] ، إلى مناهضة الوجود البريطاني أيضاً .»

والى جانب ذلك استمعت جيرتروود إلى العديد من الآراء حول هذا الأمر كان من بينها رأي المسؤول الأول للتربية والتعليم ، النقيب تادمان Captain Tadman ، وكذلك رأي الضابط السياسي العقيد كوكس Colonel Cox فضلاً عن رأي كل من مدير بلدية القدس ، وعضو سابق في مجلس المبعوثان كان قد عاد لتوه من الآستانة ، والدكتور إيدر Dr.Eder وهو أحد يهود مدينة لندن وممثل الحركة الصهيونية ، والسيد يلن Me. Yellin أحد رموز المجتمع اليهودي في لندن . وقد بين كل من السيدين ايدر ويلن ما مفاده أن مطالب اليهود كانت متواضعة للغاية ، وبما أن العرب قد حصلوا على سوريا وبلاد ما بين النهرين فما الضير في ترك فلسطين لليهود؟

وفي مساء اليوم التالي ، أي السابع من تشرين الأول ، وصلت جيرتروود إلى دمشق وكتبت قائلة : « لم أجد من يستقبلني عند وصولي إلى دمشق ، بيد أنني لحسن الحظ التقيت بطريق الصدفة رجلاً كان فيما مضى يعمل قواساً (أي فراشاً أو آذناً) وهو الذي قادني إلى دار الرائد وادمان Major Wadman الذي استغرب من أمر وصولي دون سابق إشعار ، وقد أخبرني بأنه لم يستلم أي إشعار من القدس يعلمه بتوجهي إلى دمشق الأمر الذي يعكس خللاً إدارياً . وهكذا وجدت نفسي مضطرة إلى الإقامة في فندق قصر دمشق The Damascus Palace Hotel .

وفي يوم الأربعاء الثامن من شهر تشرين الأول كتبت قائلة : «انطلقت ماشية إلى المسجد الكبير . لقد تغيرت دمشق كثيراً ؛ فسوق الحميدية لاسقف له؟ والمدخل إلى الجامع مفتوح بأمر جعفر باشا . إنها جوانب جيدة ، وهو أمر لا داعي إلى ذكره ، ولكن يتعين علي الإشارة إلى واقع أن العمل لم يكتمل بما في ذلك الأعمال التي يتم تنفيذها من أجل فتح الشارع الكبير الذي يقع غرب سوق الحميدية والذي قام جعفر باشا بشقه . المدينة مليئة بالأوساخ بشكل يعجز المرء عن وصفه . وعلى الرغم من أن الناس في الشوارع لم يكونوا أفظاظاً في تعاملهم إلا أنهم بدوا أقل كياسة ومجاملة مما كانوا عليه سابقاً إبان الحكم

---

(١٠) ترى هل نسي السيد ستورز مؤلف كتاب «مشرقيات» الروابط الأخرى كعنصري التأريخ واللغة المشتركين ووحدة المصير أم آثر أن يتناساها؟ - المترجم

التركي . وعند وصولي إلى مكتب الرائد كلايتون[١١] وجدت كلاً من الرائد وادمان والنقيب كنج Captain King . كان كلايتون بانتظار مجيء ثلاثة أشخاص من بين أعضاء حزب العهد العراقي ، وقد تمكنت من تقديم المساعدة من خلال ترجمة ما دار من حديث أثناء اللقاء ويسعى هذا الحزب إلى تحقيق استقلال العرب بعيداً عن أية صيغة من صيغ الهيمنة الأجنبية وذلك في كل من سوريا وبلاد ما بين النهرين . ويعتبر ياسين باشا الهاشمي القوة الكامنة وراء هذا التنظيم وروحه المحركة ، كما يعتبر النشاط المناهض للوجود الفرنسي من جانب آخر ، وما يقوم عليه هذا النشاط من شعور بالكراهية ، من بين السمات الأساسية لهذا التنظيم . وفي حالة مجيء الفرنسيين هنا ، يعتزم ياسين الهاشمي العمل على إثارة العالم العربي وتوجيهه ضد الأوربيين . فضلاً عن ذلك فإنه على اتصال بكل من جمعية الاتحاد والترقي في الآستانة ومصطفى كمال ، ولعله يفضل الهيمنة التركية على أية صيغة من صيغ الحماية الأجنبية لا سيما الفرنسية منها .

إن أعضاء حزب العهد العراقي الذين جاءوا لمقابلة الرائد وادمان كانوا من البغداديين . وقد أفادوا بأنهم يأسفون لما يعم بلادهم من شعور بعدم الرضا فيما يتعلق بالحكم البريطاني لبلاد ما بين النهرين ، ولكنهم يعترفون بأن ما نقدمه لبلدهم من مساعدة وحماية يعتبر جانباً ضرورياً الأمر الذي قد ولد لديهم الرغبة في التوجه شخصياً إلى وطنهم ، أو إيفاد أعضاء آخرين من الحزب ، لكي يكونوا وسطاء بيننا وبين أبناء وطنهم . ولابد من القول في هذه المناسبة بأنهم جميعاً يرغبون في تبوّؤ مناصب وظيفية في ظل حكمنا .

عدت إلى مكتبي بغية الاطلاع على الملف الخاص بحزب العهد وتمحيص مضمونه ، ثم توجهت بعد ذلك لمقابلة ياسين باشا ، رئيس المجلس العسكري . كان ياسين في العقد الثالث من عمره ، قصير القامة وممتلئ البنية ، تبدو عليه سيماء الصراحة وقوة الشخصية ويثير مظهره الإعجاب والاحترام في نفس من يلتقيه . وقد طلبت منه شرح أبعاد برنامجه الذي يعتزم اعتماده في بلاد ما بين النهرين . وقد أخبرني بصراحة أن بلاده لا يمكنها مواصلة مسيرتها من غير مشورة أجنبية وذلك على مدى عشر سنوات من الزمن . (ويناقض

---

(١٥) هو الرائد التيد كلايتون Major Iltyd Clayton ، وهو غير السير جلبرت كلايتون . وقد شاءت الأقدار أن يلعب كلاهما دوراً في العراق وقد أصبح الأخير هو الآخر أيضاً صديقاً مخلصاً للآنسة جيرتروود في بغداد - المترجم

هذا الجانب تماماً رأي كلايتون عن ياسين باشا .) ولم يكن هناك من شك بالمرة حول هوية الأمة الأوربية التي تقع على عاتقها مهمة الاضطلاع بهذا الدور : لا يمكن لأية أمة أوربية غير بريطانيا أن تطالب بممارسة هذه المسؤولية . ومن جانب آخر يتعين علينا الاعتراف بعدم وجود ثمة من يقوم بتقديم الخدمات من غير مقابل ، الأمر الذي يدفعنا إلى المطالبة بضمانات . وبعبارة أخرى لابد لنا من ممارسة السيطرة . وقدحدثني ياسين باشا عن السرعة التي يمكن من خلالها تطوير العراق وسهولة هذه المهمة . وقد أخبرته بدوري بأن عملية التنمية المنشودة تفتقر إلى عنصرين أساسيين أولهما السكان المحليون وثانيهما محدودية الموارد التي يمكن الحصول عليها من بريطانيا ، إلا أنه لم يبد مقتنعاً فيما يتعلق بالعنصر الثاني على الرغم من أن السيد شوكير Shoucair المستشار المالي لحكومة السودان كان قد لمح أثناء زيارة قصيرة قام بها للمنطقة بما مفاده أن الإدارة العربية لا يمكنها الاعتماد على إعانات مالية من قبل الحكومة البريطانية ، أو أية صيغة من صيغ المساعدات المالية من الخارج .

بعد ذلك التفت ياسين باشا إلى موضوع الأمير المزمع قيامه بتولي أمور البلاد مبيناً احتمال نجاح الأمير عبد الله بن الحسين (الأخ الأكبر للملك فيصل) في اكتساح كل من يحاول منافسته على الفوز بهذا المركز ، وأن هذا النجاح سيكون حليفه متى ما حضر شخصياً إلى العراق . وقد اعترف ياسين باشا في الحين ذاته بأن السير برسي كوكس يتمتع بسمعة عالية في العراق بيد أن هذا قد جاء نتيجة وجوده في العراق على مدى عامين متواصلين . وبإمكانه (على حد تعبير ياسين باشا) أن يكون المندوب السامي للأمير المرتقب .

إن الحديث الذي لم يخل من تشنج وعدم مرونة في بادئ الامر انتهى بنبرة ودودة ، وقد بدا ياسين باشا في نهاية اللقاء في حالة نفسية جيدة كما اتضح ذلك من خلال حديثه الهادئ وتبادله النكات معي . وقد طلبت منه مراسلتي إن شاء ذلك .

وفي يوم الخميس ، التاسع من تشرين الأول ، ذهبت لمقابلة الأمير زيد بن الحسين الذي كان ودوداً ومجاملاً إلى أقصى الحدود ، وقد سبق له استشارة الرائد كلايتون حول إمكانية التحدث معي بحرية وصراحة تامتين ، وهذا ما قام به فعلاً عند لقائنا . حدثني عن مظالم أهل بلاد وادي الرافدين ومعاناتهم معبراً في الحين ذاته عن ارتياحه لعودة السير برسي كوكس الأمر الذي اعتبره خطوة حظيت بترحيب كل أبناء البلاد من غير استثناء .»

في بيت الرائد كلايتون التقت جيرتروود ياسين باشا الهاشمي مرة أخرى ، وبهذا الصدد كتبت تقول : «سألت ياسين عن رأيه حول جيش الاحتلال في بلاد ما بين النهرين مبينة في الحين ذاته أن عدم وجود جيش عربي في البلاد يشكل عقبة ومشكلة ، اذ لابد

لأية حكومة من أن تعمد إلى عملية استعراض للعضلات إذا ما أرادت أن تقوم بجمع الضرائب وإدامة النظام في المناطق التي تسيطر عليها العشائر . ولقد وجد ياسين باشا نفسه مجبراً على الاعتراف بضرورة وجود جيش الاحتلال في بادئ الأمر إلا أنه بين في الحين ذاته أن تشكيل جيش عربي يمكن القيام به وإعداده في غضون فترة لا تزيد على ستة أشهر . كما بين أيضاً أن وجود جيش للاحتلال يعني أن السيادة لنا . ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن التربية والتعليم متهماً السلطات البريطانية بالتقاعس عن القيام بما ينبغي بهذا الخصوص معرباً في الحين ذاته عن كامل استعداده لترك أمر السيادة وإدارة البلاد لنا مقابل قيامنا بتوفير مستلزمات التعليم والثقافة لشباب العراق . ولقد شرحت له بدوري أوجه الصعوبات التي تقف أمام مثل هذا المسعى ، لا سيما ما يتعلق منها بالافتقار إلى الكوادر التعليمية اللازمة ، الأمر الذي يتعين علينا من خلاله السير ببطء وتأنٍّ لحين توفر العدد الكافي من هذه الكوادر . ولقد كان من الأجدى برأي ياسين باشا الإبقاء على المدارس التركية وتطويرها وهو وضع أفضل بكثير من عدم وجود مدارس بالمرة . وإزاء ذلك أخبرته أن ما كان الأتراك يقدمونه بهذا الخصوص لم يكن أكثر من سم زعاف . وقد عارض ياسين باشا كذلك فكرة إقامة منظومة جيدة من المدارس الابتدائية وعدد قليل من المدارس الثانوية تعقبها مدارس فنية تأهيلية . إنه يطالب بالبدء بالدراسة الجامعية فوراً ، وعلى حد قوله بهذا الخصوص ، وفي حال عدم الانصراف إلى اعتماد الدراسة الجامعية فإنكم ستحصلون على عدد من المزارعين والمهندسين الجيدين ولكننا لن نحصل بعد مرور خمسين عاماً على استمرار مثل هذه الحال فئة من أصحاب الثقافة العليا المؤهلين لاستلام زمام الحكم في البلاد .(١٢)

أماجعفر باشا العسكري فإنه يتكلم سبع لغات بطلاقة ، وقد حاول اختباري في كل واحدة منها . لا يمكنني التحدث باللغة الكردية ، كما أعجز عن مواصلة أي حديث بالتركية ، بيد أنني أثبت كفاءتي في الإنجليزية والفرنسية والألمانية والعربية والفارسية . ويقال عن جعفر باشا بأنه الأكفأ إدارياً من بين رجال الإدارة العربية . إنه رجل بدين ، مرح وخفيف الروح .»

* * *

في الثاني عشر من تشرين الأول كتبت جيرتروود إلى عائلتها قائلة : «لو أنكم ألقيتم

(١٢) رحم الله ياسين باشا الهاشمي . كان بحق قائداً عسكرياً محنكاً ورجل دولة كفؤاً ، ووطنياً غيوراً ذا عقل راجح وبصيرة ثاقبة ، لقد صدق من لقبه ب «أبي دماغين» - المترجم

نظرة عابرة على ما أدونه يومياً في دفتر مذكراتي لأدركتم السبب في عدم تمكني من تجنيد ما يكفي من الوقت لمراسلتكم وذلك منذ مبارحتي القاهرة إنه كم وافر من المعلومات . إنني أعمد يومياً - ولمدة ساعتين من الزمن ، وقبل تناولي وجبة الإفطار ، وهو كل ما لدي من وقت خاص بي - إلى تدوين كل التفاصيل المتعلقة بما أشهده يومياً من أمور وما أكتسبه من خبرة وما تمر بي من أحداث . وباستثناء الأوقات التي لابد لي من قضائها في رحلات الذهاب والإياب لقضاء ما يتطلبه مجال عملي من مهام ، أو في مقابلة من لابد لي من مقابلتهم ولقائهم من وقت إلى آخر ، فإنني أكرس كل ما أمكنني من وقت من أجل تدوين يومياتي .»

إن رسالة جيرتروود آنفة الذكر (أي تلك التي كتبتها في الثاني عشر من تشرين الأول) طويلة جداً إذ يبلغ عدد صفحاتها اثنتي عشرة صفحة مليئة بالتفاصيل المتعلقة بجوانب شخصية لا أمور فنية وسياسية على غرار ما اعتادت أن تضمه صفحات دفاتر يومياتها . وتنتهي الرسالة المذكورة بمعلومة تتعلق بحفلة أقيمت على شرفها والتي تقول بصددها : «بعد تناول وجبة شاي فاخرة استمعت إلى ثلاث كلمات مطولة تناولت تفاصيل حياتي . كانت تجربة لم تخل من إحراج . وسوف أغادر يوم غد ، وهو أمر أجد فيه كثيراً من الراحة إذ لا يمكنني تحمل وضع كهذا لأية فترة أخرى من الزمن ، ومع ذلك لم تخل زيارتي هذه من فائدة تمثلت بلقائي العديد من الأشخاص وإضافة كم كبير من التفاصيل إلى ما لدي من معلومات .»

* * *

بعد مبارحتها دمشق انطلقت جيرترود إلى بيروت حيث علمت أن مؤيدي فرنسا من بين أبناء البلد والذين كانت صفوفهم قبل عام من الزمن تضم كل أفراد المجتمع المسيحي ، بطائفتيه الكاثوليكية والأرثوكسية ، ونسبة خمسة وعشرين بالمائة من المسلمين ، قد تناقص عددهم ، وبذلك فإن عدد معارضي فرنسا بات يشمل نصف أبناء المجتمع المسيحي تقريباً وكل أبناء المجتمع المسلم .

وبعد مضي ثلاثة أيام وجدت نفسها في حلب حيث التقت فتوح الذي وجدت أن أحواله قد تدهورت كثيراً وبأنه قد أصبح حطاباً إثر ما عاناه من معاملة قاسية على يد الأتراك نتيجة علمهم بأنه كان خادماً لها . وتقول بهذا الخصوص «إن فتوح راغب في

استئجار جنينة من مديرية الأوقاف وهو مسعى يمكنني مساعدته فيه لسببين أولهما ما لدي من دالة على رجال الإدارة العربية وثانيهما قدرتي على مساعدته مادياً . لا يمكنني أبداً نسيان الأوقات الجميلة التي شاءت الأقدار أن أقضيها بصحبة صديقي فتوح .»

وفي العشرين من تشرين الأول انطلقت من مدينة حلب باتجاه العراق ، وقبل يومين من وصولها إلى بغداد ، أي في السابع والعشرين من الشهر نفسه كتبت تقول :

«إنه لأمر يثير العجب في النفس وذلك فيما يتعلق بمقدار التفاصيل التي تم لي الاطلاع عليها في أطار ما دار من أحداث خلال فترة غيابي عن العراق . وجدت بيتي في بغداد رائعاً وجميلاً كعهدي به دائماً ، أما حديقتي فإنها في غاية الروعة بسبب ما تحتويه من زهور تفتن الناظر إليها . وبدأ البغدادبون يتوافدون على زيارتي والاطمئنان على صحتي وأحوالي ، مرحبين بعودتي أجمل ترحيب . وقد أذهلني كم العمل الذي كان يتطلب التفاتي إلى القيام به وإنجازه على الوجه الأتم . فضلاً عن ذلك لابد لي من إيجاد الوقت الكافي لإعداد تقريري الخاص بسوريا .»

الفصل العاشر

١٩١٩

بغداد ، في الثاني من تشرين الثاني : «أسبوع شهد أفواجاً لا حصر لها من الزائرين الذين جاءوا لتحيتي وتهنئتي على سلامة الوصول إلى بغداد . إنه تقليد مبهج للغاية ، الا إنه يتسبب بإضاعة الكثير من الوقت ، فالزيارات هذه تستهلك أوقات الصباح كلها وتستأنف مرة أخرى بعد الثالثة عصراً . إنه أمر مرهق للغاية إذ يتعين علي بالإضافة إلى ذلك الالتفات إلى كتابة تقريري عن سوريا الذي أحاول الانصراف إليه كلما تسنح الفرصة لي خلال الفترة الممتدة بين الثامنة صباحاً ومنتصف الليل .»

وفي التاسع من تشرين الثاني كتبت تقول : « انطلقت يوم أمس بصحبة الجنرال سير جورج ماكمن لزيارة الموقع المختار للثكنات العسكرية الجديدة . سرنا بمحاذاة شاطئ النهر حيث تقرر أن تقام المدينة الجديدة . كان القمر بدراً ، وكان النهر المُضبب والأرض الترابية يذوبان معاً مثل عالم الأحلام . إنه عالم جميل في مثل هذه اللحظات ، غير أنني أكاد أراه جميلاً دائماً من فرط حبي له» .

وفي الثالث عشر من تشرين الثاني كتبت تقول : « وصلت ماري وبدت مسرورة ، وكعهدي بها دوما فإنها راحت تمارس واجباتها ببراعة وكفاءة . إنها في الواقع كنز : تبهجها الاشياء فتثير اهتمامها لتوليها بعد ذلك عناية خاصة لا سيما في مجال جعل البيت أكثر بهجة وترتيبا . إنها حالياً منهمكة في عمل ستائر الدار . . إنها تقوم بواجباتها بالتعاون مع خدم المنزل المحليين بانسجام تام . لقد بدأت تتعلم العربية . إنه جانب يبعث علي الغبطة والراحة أن أجد الأمور تسير كما يرام فيما يتعلق بوجود ماري . أما الجوانب التي لا تسير كما ينبغي ، أو كما أرغب أنا شخصياً فإنها تلك المتعلقة بالأثاث والأواني وأدوات المطبخ التي كنت قد قمت بترتيب أمر شرائها من محلات مايبلس Maples في شهر أيلول المنصرم بيد أنها لم تصل لحد الآن ، بل لا أثر لها على ما يبدو .

ذهبت بعد ظهر أحد الأيام إلى بيت أكبر الرجال علماً وثقافة هنا . إنه لا يعاشر الأوربيين عموماً ، أما علاقتي به فتمتد على مدى فترة طويلة . وعند زيارتي له هذه المرة وجدته قد دعا مجموعة مختارة من الأشخاص للقائي شخصياً . ولابد لي من الإعراب عما ينتابني من شعور بالفخر وفرحة بالنصر كلما جلست في دار هذا الرجل باعتباري من بين المقربين منه . وعلى الرغم من عدم محبته لنا (نحن معشر البريطانيين) ورفضه لوجودنا ،

فإنه يرحب بزيارتي ، وزيارة اثنين من زملائي ، ويعاملنا معاملة الأصدقاء .»

وفي الثلاثين من تشرين الثاني كتبت تقول: « ياله من أسبوع مضنٍ بسبب إصابة ماري بالرشح ، وكادت هذه المنكودة تكون قاب قوسين أو أدنى من الوقوع في براثن مرض الدسانتري . إنها والحمد لله تتعافى بشكل مطرد ويقول الدكتور إنها ستشفى كلياً بحدود يوم أو يومين على الأكثر . أما في الوقت الحاضر فأجدني أعيش معاناة شديدة إذ أن التفاصيل المتعلقة بملابسي وموقعها في الخزائن لا يعرفها غيرها ، وبذلك أجدني أواجه كثيراً من الصعوبات في مجال وضع يدي على ما أحتاج من المناديل والكفوف وإلى غير ذلك من الحاجيات الشخصية .

هناك عدد كبير من الأشخاص الذين عادوا من الآستانة أثناء غيابي عن بغداد . إنهم بين نواب سابقين ، وضباط خدموا في الجيش التركي ، وأفراد ولوا الأدبار عشية احتلالنا بغداد . ويمكن القول إنهم بوجه عام بين موالين للأتراك ومؤيدين متحمسين للتيار القومي العربي[1] . ويعتبر إرضاء الفئة الأخيرة واستمالتهم أمراً مستحيلاً قبل قيامنا بتشكيل حكومة مدنية ومنح العرب دوراً أكبر مسؤولية في إطار إدارة البلاد . ويبقى تحقيق هذاالدور بطبيعة الحال مرهوناً بالتوصل إلى سلام مع تركيا إلا أنه أمر مؤجل إلى ما لا نهاية على ما يبدو . ويستنفذ هذا التأخير كل صبرنا وقوانا إذ أن تواصله يزيد من صعوبة التسوية النهائية

---

(١) كانت هذه الفئة من الأشخاص تعرف باسم الأفندية « والذين فقد أغلبهم مناصبهم في عهد الاحتلال البريطاني الأمر الذي جعلهم من غير مورد وألجأهم إلى ارتياد المقاهي والانشغال في بث الدعايات المناوئة للاحتلال والتبشير بقرب عودة الأتراك وبذلك باتوا نواة للفتنة والعداء . ولابد من ذكر ما كان لأفراد هذه الفئة من قدرة على إثارة الناس بسبب ما كان لديهم من معلومات عامة ، وإن كانت محدودة وسطحية ، وبسبب قدرتهم على مطالعة الصحف ونقل ما يقرؤون من أخبار إلى عامة الناس . وعلى الرغم من إدراك البريطانيين بهذا الجانب إلا إنهم كانوا ينظرون إلى فئة الأفندية نظرة ازدراء واستخفاف غير آبهين بهم وبما انصرفوا إليه من نشاط . ولقد دفع البريطانيون ثمناً باهظاً لهذه الهفوة إذ كان لتنسيق العمل بين هذه الفئات ورجال الدين ، أي «الملائية» من أبناء الشيعة والسنة وتعاونهم دور بارز في التقارب الطائفي الذي ظهر بوضوح تام خلال ثورة العشرين . كان الأفندية يلتقطون الأخبار من مصادر مختلفة فيوصلونها إلى الملائية الذين كانوا بدورهم وبحكم احتكاكهم اليومي بالجماهير ، يقومون بنشرها بين الناس . وبعد أن انتبهت السلطات البريطانية إلى هذا الجانب فإنها عمدت إلى إغراء الافندية بإغداق الوظائف والنعم عليهم فنجحت في إسكات نسبة كبيرة منهم - المترجم

وتعقيدها .

انطلقت اليوم في نزهة بالسيارة بصحبة الجنرال سير جورج ماكمن أعقبتها بزيارة صديقي العزيز الحاج ناجي(٢) . إنه نموذج طيب من البشر ، ومن بين أفضل المهتمين برعاية المزروعات وتهذيبها . فضلاً عن ذلك فهو من أقرب أصدقائنا ، وإن غاية ما يتمناه هو العيش في ظل حكومة رشيدة تؤمن له الانصراف بحرية وسلام إلى جمع ثمار جهوده واستغلالها على الوجه الأتم .»

وقد تضمنت الرسالة الأخيرة آنفة الذكر تفاصيل تتعلق بالجزمة الخاصة بركوب الخيل وهو ما ظل يشكل معضلة صعبة وتشمل هذه التفاصيل قياسات دقيقة تتعلق بالجزمة مع رسم إيضاحي لساق جيرتروود . وبهذا الصدد نجدها تقول : «ان الرسم يماثل ساقي في الواقع والذي يبدو حجمه متماثلاً أسفل الركبة وحول بطة الساق ! إنه أمر يثير الدهشة ، بيد أنه حقيقي .»

وفي السابع من كانون الأول كتبت قائلة : « كان أسبوعا حافلاً من غير ريب . ذهبت أحد أيامه لتناول الشاي في دار التمريض الخاص بضباط الجيش والنساء الإنجليزيات ، وقد تجولت في مرافقه بصحبة العميد لين Colonel Lane ، مدير الدار وكالة ، فوجدته مؤسسة لائقة تقوم على إدارته وتسيير أعماله نخبة خيرة من النسوة . وقد زارتني في اليوم التالي رئيسة ممرضات الدار آنفة الذكر ، الآنسة جونز Miss Jones ، حيث تناولنا الشاي معاً في داري . إنها امرأة أجدني أكن لها كل الود والمحبة . وفي اليوم التالي استضفت في داري كلاً من الجنرال هامبرو Hambro مدير التموين ، والجنرال ستيوارت Stewart ، رئيس أركان القوات البريطانية في بلاد ما بين النهرين حيث تناولنا الشاي معاً وأمضينا وقتاً ممتعاً ونحن نتجاذب أطراف الحديث حول مختلف المواضيع . بعد ذلك انطلقت على متن جوادي إلى الكاظمية لزيارة أميرة فارسية جاءت لزيارة العتبات المقدسة . وفي طريق عودتي قدر لي أن أعيش مغامرة : فبينما كنت ماضية في طريق عودتي سبقني صبي شقي على ظهر حصان

---

(٢) يمكن القول أن الحاج ناجي - الملاك البغدادي المعروف الذي كانت تعود إليه ملكية نسبة كبيرة من أراضي منطقة الجادرية بما فيها الموقع الحالي لجامعة بغداد - كان من بين العراقيين المقربين جداً ، إن لم يكن الأكثر قرباً ، من الآنسة جيرتروود بيل التي كانت تعمد إلى زيارته في أغلب الأحيان طلباً للراحة وهرباً من مشاكل العمل وزخمه إلى جانب استقاء المعلومات والاطلاع على ما كان يدور في الأوساط البغدادية من الأخبار والشائعات من مصدر موثوق به - المترجم

زين بأعداد كبيرة من الأجراس التي أحدث قرعها ضجيجاً أشبه بصخب فيالق الجحيم مما أجفل فرسي الذي راح يشبو بعنف كاد يطرحني أرضاً لولا العناية الإلهية التي تمثلت بظهور ضابط هندي سارع إلى الإمساك بالجواد ومصاحبتي بعد ذلك إلى بغداد .

قرأت ما كتبه سير جورج بيوكانان Sir G. Buchanan من رسائل إلى رئيس تحرير جريدة التايمز (اللندنية) وبهذا الصدد لا أكاد أحتاج إلى الإشارة إلى أن ادعاءه بأن الإجراءات المعتمدة في بلاد ما بين النهرين لا تصل إلى مستوى الطموح إنما ينطلق أساساً من واقع أنه لم يكن بالذات من قام بصياغتها واعتمادها بالأساس . ولا يسعني بهذا الخصوص سوى القول أن السير جورج سالف الذكر يمثل تجسيداً غريباً من نوعه للأنانية والإفراط في التحدث عن الذات ليس إلا . ان ما يكتبه هو محض تشويه للحقائق وبالتالي فإنه تضليل للقارئ . وقد قام العقيد ولسون باتصال برقي مع لندن طلب من خلاله الموافقة على الإجابة على تخرصات السير جورج آنف الذكر ونقض ما بينه من خلال الحقائق والأرقام الإحصائية إلا أن طلبه رفض من قبل السيد ادون مونتيجيو لا لسبب أعلمه . وأرى أن أموراً كهذه لابد أن تقابل بالإجابة لبيان الحقائق ودحض الافتراءات والمزايدات وإن كل هذا الدحض قد تم فعلاً حتى قبل نشر رسالة السير جورج بيوكانان وذلك من خلال التقرير الذي كان رفعه السير جون هيويت Sir John Hewett ، ومما يحز في النفس هو أن الكثير من القرار لا ينصرفون إلى الاطلاع على التقارير الفنية التي يتم نشرها في الصحف بينما يهتمون بقراءة نصوص الرسائل التي توجه إلى رؤساء التحرير لاسيما تلك الموجهة إلى رئيس تحرير جريدة التايمز اللندنية .»

وفي الثامن من كانون الأول كتبت إلى زوجة أبيها اللادي بيل قائلة : «إن كلفة المعيشة هنا باهظة جداً ، فالطاهي لدي يتقاضى راتباً قدره مائة وثمانية جنيهات أسترلينية في العام ، ويبلغ الراتب السنوي للساقي أربعة وثمانين جنيهاً استرلينياً لابد من زيادتها اعتباراً من الشهر القادم . كما أن اللحوم الحمراء باهظة الثمن أيضاً ، ولابد لي من القول أننا الموظفين المدنيين لم نعد مشمولين بالحصص التموينية العسكرية الأمر الذي جعلني أشعر معنى الغلاء . وألاحظ من مراجعة دفاتري المالية التي لا أزال أحتفظ برصيد قدره أربعة جنيهات مصرية لدى متجر هارودز Harrods وهو مبلغ سأحاول نسفه في القريب العاجل !»

وبعد أن استطاع والدها أخيراً أستكمال الاستعدادات اللازمة لزيارة ابنته جيرتروود في بغداد ، نجد أنها قد انهمكت في هذه الفترة لا في الترتيبات الخاصة برحلة ذهابه إلى بغداد فحسب بل في تلك المتعلقة برحلة العودة منها كذلك . وبذلك نجد أن رسالتها المؤرخة في

السادس عشر من شهر كانون الأول تقول :

«إن أمر العودة إلى الوطن عن طريق سوريا يعتمد بالدرجة الأولى على سير الأوضاع هناك . ولابد لي من القول بأنني أمثل الطرف الوحيد الذي بإمكانه تدبير أمر مرورك عن طريق سوريا . سأبرق لفيصل أو زيد بغية إعلامهما عن خبر مجيئك ، وسأصطحبك إلى حلب .

قبل ليلتين انتقل صديقي العزيز موسى جله بي الباجه جي فجأة إلى جوار ربه مأسوفاً عليه ، وكان رحمه الله إلى جانب السيد عبد الرحمن النقيب ، من بين أقدم الأصدقاء الذي تم لي شرف التعرف بهم . إنه مالك العقار الذي أسكنه . ولم يكن فضله علي مقصوراً على ما كان يكنه لي ، رحمه الله ، من شعور بالمحبة والمودة ، الرقيقة فحسب ، بل ما كان يفيدني به أيضاً من تقييمات صريحة وقيمة حول أوجه مختلف القضايا السياسية . كان رحمه الله صريحاً في طرحه وجسوراً في الإعلان عن رأيه ولأنه لم يكن مدفوعاً بأية مصلحة شخصية كنت لا أتوانى عن التوجه إليه لا لغيره طلباً للمشورة والنصح . إنني حزينة لفراقه ، فبغداد من غيره - وكذلك من غير صديقي الآخر السيد عبد الرحمن الجميل أمد الله بعمره - لا يمكنها إلا أن تكون بغداد أخرى . ذهبت مساء اليوم لتعزية النساء . لا يمكن فصل الموت عما يتركه من مشاعر الرهبة في نفوس الأحياء من بني البشر . بعد أن ووري موسى جله بي التراب ، عمدت زوجته وابنته وحشد كبير من القريبات والصديقات إلى الجلوس أرضاً ورحن يصرخن ويولولن ويلطمن على صدورهن حزناً . فالتقاليد الاجتماعية بهذا الخصوص تقضي بوجوب قيامهن بذلك على مدى أسبوع كامل . غطت كل من المنكوبتين رأسها ووجهها بنقاب أسود - ويمكن التعرف على أقرب السيدات إلى الفقيد من خلال عويلهن الذي يعلو صوته على أصوات عويل وبكاء البقية . وعندما هدأت حدة الصخب والجلبة تحدثت إليهما عن مناقب الفقيد مبينة أن غيابه خسارة لنا جميعاً الأمر الذي أسهم في تهدئتهما بعض الشيء . وقد طلبت من زوجة الفقيد الخلود إلى النوم بعد تناول قرص من الاسبرين الذي وعدت بإرساله إليها ، وقد أكدت لي بدورها أنها ستعمل بنصيحتي إكراماً لي شخصياً .

ذهبت بصحبة فرانك ظهر هذا اليوم لزيارة أحد أبناء النقيب ، وهو السيد محي الدين ، الذي كان قد عاد لتوه من الآستانة . إن دار سكنه تقع وسط جنينة جميلة في الأطراف الجنوبية من بغداد . إنه شديد الميل إلى الأتراك على ما أعتقد ، كما أنه من بين أكثر الرجال لطفاً وأدباً وكياسة ، ويعتبر خبيراً في شؤون البستنة وفي زراعة وتربية الأشجار بشكل

خاص . وقد قام بشرح جوانب مثيرة للاهتمام تتعلق بزراعة أشجار النخيل ورعايتها . إنني عازمة على لقائه مرة أخرى بغية اكتساب معلومات أكثر بصدد زراعة النخيل . ولا يسعني بهذا الصدد سوى القول أن ما لديه من نخيل يفوق كل ما شاهدته منها جودة وجمالاً .

إننا في خضم أوضاع في غاية الصعوبة والتعقيد : لقد تم الاستيلاء على مدينة دير الزور الواقعة على نهر الفرات من قبل قوة عربية . وعلى الرغم من أن رجالنا العسكريين بأمان إلا أن قلبي يتقطع حزناً على من قام بخدمتنا بأمانة وإخلاص تامين من بين الأفراد المحليين ، وأذكر بشكل خاص مدير ناحية الدير الذي كان لي شرف تناول طعام العشاء بضيافته أثناء مروري من المدينة . إنهم جميعاً أسرى .

تناولت طعام العشاء ليلة أمس مع عائلة تود Tod . يعمل السيد تود مديراً لشركة لنج إخوان Lynch Brothers ، أما زوجته الإيطالية فإنسانة رائعة بكل ما تنطوي عليه العبارة من معنى . إن هذه العائلة التي أكن لها كل مشاعر الود والاحترام كانت استضافتني في عام ١٩١٤ . كم سرني قرار هذه السيدة المجيء إلى بغداد والسكن فيها ، إذ أشعر أنها صديقة بحق .»

وفي العشرين من كانون الأول كتبت : «كان أسبوعاً مرهقاً في الواقع : كان ولسون مجهداً - الحالة مزمنة - وهو وضع لا ينبغي من خلاله الانصراف إلى العمل ، إذ أن ذلك يزيد من حدة إجهاده الذي يجعله سريع التأثر وكثير الغضب الأمر الذي ينعكس سلباً على علاقاته بنا . أما اليوم فقد بدا أحسن حالاً وأكثر كياسة وبذلك آمل أن تكون أزمة علته قد ولت إلى غير عودة .

إن الوضع الخاص بدير الزور يميل إلى الاستقرار على ما يبدو . لقد أرسل فيصل برقية تضمنت شجباً تاماً لما آلت إليه الأمور في دير الزور ، كما أن القبائل المحلية رفضت القيام بأي دور في الحركة . إنها نقطة لصالحنا بالتأكيد . ترى هل ستتعمد الجماعة المتطرفة في سوريا بقيادة ياسين (الهاشمي) إلى القيام بدورها بشجب هذا الإصرار من قبل فيصل؟ إنه أمر سيتضح لنا عاجلاً أم آجلاً على ما أعتقد . حبذا لو قامت حكومة جلالة ا لملك بالاستقرار على توجه معين يقضي بقيامها بالتعاون مع الحكومة الفرنسية إلى اتخاذ ما يلزم من إجراءات تنشد تحقيق السلام مع تركيا بأفضل ما يمكن لاسيما بعد أن آثرت أمريكا - لعنة الله عليها - الانسحاب من العمل في هذا المعترك . لا أرى من خيار بديل لهذا العمل . إننا هنا بحاجة ماسة لإقامة حكومة مدنية ، وهو جانب لا يمكننا القيام به قبل التوصل إلى إبرام السلام مع تركيا . إن من شأن أي انحراف في مسارنا أن يعود بالفائدة على الأتراك ، وهو

أمر لاشك فيه .»

وفيما يتعلق بموضوع إقامة حكم مدني في العراق ، كان من الصعب جداً على أحد توقع قدرة جيرتروود على التنبؤ بما كان يحتمل حدوثه ومع ذلك ، وعلى الرغم من أن عقد السلام مع تركيا لم يتحقق فعلاً إلا بعد مرور عشرة أعوام ، فإن العراق لم يشهد قيام حكومة مدنية في ربوعه فحسب ، بل شهد أيضاً قيام نظام ملكي دستوري له برلمانه وقانونه الدستوري وقد تم ذلك قبل أن يكتب للسلام المنشود أن يرى النور . كان من شأن هذا الوضع أن يشكل حالة قانونية فريدة من نوعها ، فضمن الإطار الخاص بالقانون الدولي ، وبقدر تعلق الأمر بوجود بريطانيا العظمى فوق أرض العراق ، تجسد هذا الوجود بجيش يحتل أرضاً للعدو . وعلى عاتق سير نايجل دايفدسون ، المحامي سيئ الحظ ، وقع عبء مسؤولية إسداء النصح والمشورة إلى كل من ملك العراق ، والمندوب السامي البريطاني في بغداد ، فيما يتعلق بوضع بريطانيا ، وهو وضع لا وجود له أساساً في القانون الدولي العام .

وكانت آخر رسالة كتبتها جيرتروود في عام ١٩١٩ هي تلك التي حررتها ليلة عيد الميلاد للسنة آنفة الذكر :

«أبتي الحبيب ، أبعث لك أطيب الأماني وأتساءل بشوق عما يمكن لأي عضو من أبناء عائلتي أن يكون بصدده في هذه الليلة المباركة . سأنطلق غداً إلى النجف في مهمة تستغرق بضعة أيام . أما في مساء هذا اليوم فاننا سنقيم مأدبة عشاء فاخرة على شرف الضباط السياسيين وزوجاتهم . إنني عازمة على ارتداء أفضل فستان لدي من فساتين السهرة على الرغم من إدراكي التام بأنني سأرتعش برداً طوال الأمسية . لقد انتهيت أنا وماري من إعداد الترتيبات الخاصة باستضافتك في داري عند وصولك إلى بغداد . آمل أن تصل الصحون والمستلزمات الأخرى لغرفة الطعام من محلات مايبلس قبل وصولك إلينا .»

الفصل الحادي عشر

١٩٢٠

من بغداد وجهت جيرتروود في الرابع من كانون الثاني رسالة إلى أبيها قالت فيها : «استغرق غيابي مدة أسبوع من الزمن كان من شأنه ، وما صاحبه من كسل ، فضلاً عن التقائي عدداً من الشيوخ والشخصيات الأخرى خارج بغداد ، أن يعمل على بلورة أفكاري ويمكنني بالتالي من توجيه رسالة مفصلة إلى أدوين مونتيجيو تضمنت التفاصيل المتعلقة بنظام الحكم الذي يتعين علينا إقامته هنا . وقد أرفقت طي هذه الرسالة مسودة الدستور الذي نرى إمكانية سنه واعتماده . وأجدني مؤمنة تماماً بصواب المقدمة المنطقية لما قمت ببيانه ، وما تقوم عليه من أسس حقة ، أما الدستور فلا يسعني سوى الاعتراف باحتمال أن يكون على جانب كبير من الرداءة ، إذ أن من الصعب جداً أن تتكلل أولى تجارب المرء منا في هذا المضمار بالنجاح . وإذا ما حظيت المقدمة المنطقية بقبول من لدن أصحاب القرار في الوطن ، ستجد الجوانب المتبقية هي الأخرى بدورها قبولاً بشكل ما أو آخر على ما أعتقد . وفي كل الأحوال قمت ببذل قصارى جهدي في إيجاد ما ينبغي إجراؤه وعرضه على أنظاره . ولا يسعني أحياناً سوى التفكير بأنه في الواقع يمثل الشيء الوحيد الذي يستحوذ على اهتمامي ألا وهو رؤية هذا البلد وهو ينطلق على المسار الصحيح . إنه ذات الشعور الذي يراودني دائماً سواء كنت هنا أم على أرض الوطن . ولهذا السبب أظنك تدرك السبب الذي يحول دون تمكني من العودة معك إلى إنجلترا .»

وأثناء وجودها في منطقة الشامية ، في طريقها إلى مدينة النجف ، حلت جيرتروود ضيفة على الضابط السياسي الرائد نور بوري Major Norbury ، وإن ماكتبته عن الشامية إنما يأتي تتمة لرسالتها آنفة الذكر التي وجهتها إلى أبيها في الرابع من كانون الثاني كما أسلفنا . وبهذا الصدد تقول جيرتروود : «إن الشامية روضة بلاد ما بين النهرين ، أو منتزهها بالأحرى ، ولقد كدت أنسى كم هي جميلة في فصل الشتاء ، فالصفصاف وحور الفرات التي تمتد بمحاذاة شاطئ النهر وضفة القناة هي مزيج من الذهب والأخضر المذهب ، وخلفها غابات نخيل لا يزيد عمر النخلة الواحدة فيها على خمسة عشر عاماً . أي أجمل فترات حياتها وقبل أن تزداد جذوعها طولاً .

في اليوم الأول - وبعد أن شقينا طريقنا في المجاري المائية للهور بقوارب السجع[1] تناولنا طعام الغذاء بضيافة أكبر شيوخ المنطقة ، وهو الشيخ عبادي الحسين . كانت الضيافة رائعة وعلى الرغم مما شعرنا به من جوع شديد فإن ما تناولناه من طعام لم يترك أي أثر على مقادير ما وضع أمامنا من أصنافه ، ولا بد أن القبيلة بأسرها قد وجدت ما يكفيها من مختلف أصناف وكميات ما تبقى أمامنا من الطعام . وقد سمح لي باستخدام الملعقة لتناول الأرز ، أما البقية فقد تناولوا طعامهم باستخدام أصابع اليد .

. . . وفي صبيحة اليوم التالي انطلقت مع ا لرائد نوربوري ومساعده السيد حميد خان (أحد أقرباء الأغاخان) في جولة زيارات لأعيان المنطقة . لقد سررت بذلك جداً إذ أن الفرصة قد مكنتني من التقاء هؤلاء الأعيان مرة أخرى فضلاً عما دار خلال هذه الزيارات من أحاديث مثيرة للاهتمام .»

وفي إطارات هذه الزيارات ، يمكن اعتبار الدعوة التي وجهت الى جيرتروود بيل من قبل أحد كبار المجتهدين لزيارته حدثاً استثنائياً . وبهذا الصدد نجدها تقول : «إنه شخص مهيب ، طويل القامة وضخم البنية تظهر ملامحه المشرقة تحت عمته البيضاء الكبيرة التي تبدو بحجم قبعة كوانغل وانغل . Quangle Wangle's hat[2] لم تكن الزيارة مثيرة للاهتمام ، ولا حتى مسلية ، بسبب انصراف الشيخ علي إلى الحديث من غير انقطاع . وقد باءت بالفشل الذريع كل محاولاتنا للمشاركة في الحديث وإبداء ما لدينا من رأي حول ما قاله . وبعد الغداء انطلقت في جولة حول أسوار النجف - وقفت في نهايتها فوق المنحدر الصخري المطل على الصحراء السورية التي راحت تمتد أمامي . شعرت بروعة المنظر وأنا أراقب امتداد هذه الصحراء (التي كنت قطعتها في رحلة عودتي من نجد) وانتهاءها عند أسوار المدينة بدورها المكتظة التي يبرز من وسطها بشموخ مقام الإمام علي (كرم الله

---

(١) قوارب طويلة تستخدم في الأهوار سطحها السفلي مستوى ومقدمته مرتفعة تستخدم في الأهوار ويستغلها عادة الشيوخ وذوو الشأن من أفراد المنطقة وحراسهم الشخصيين - المترجم

(٢) كوانغل دانغل - شخصية خيالية كوميدية (أو كارتونية إن صح التعبير) رسمتها ريشة الكاتب الإنجليزي إدوارد ليير (1812 - 1888) Edward Lear يعيش كوانغل وانغل فوق شجرة على شكل كعكة لينة ، مستديرة الشكل ، ويضع على رأسه قبعة مستديرة يبلغ طول قطرها (١٠٢) متراً وبتدلى من أطرافها أعداد لا حصر لها من الشرائط والخيوط الملونة والأجراس والأزرار لتغطي وجهه بحيث يتعذر على الناظر رؤيته بالمرة . والصورة بمجملها لا تخلو من مسحة دعابة ولكنها لا تنصرف إلى الإهانة والاستهزاء - المترجم

وجهه) . وكان المنظر أكثر جمالاً وأشد روعة عندما شاهدته مساء الأمس حيث انطلقت بعد وجبة الشاي في رحلة مماثلة أخذتني إلى الرابية الكبيرة الكائنة قرب الزاوية الجنوبية لسور المدينة ، كاد الوقت يكون ليلاً عند وصولي ، وقد راح شريط أحمر يتلامع بين طبقات السحب التي خيمت فوق الصحراء ، أما فوق المدينة فقد تدلت عناقيد الأضواء المحيطة بمآذن المقام الأربعة .»

في طريق عودتها أخفقت جيرتروود في الوصول إلى الحلة في الوقت المناسب الذي يمكنها من ركوب القطار المتجه إلى بغداد . لكنها تقول بهذا الصدد : «علمت أن ثمة جنرال كان ينوي التوجه من بابل إلى بغداد بإحدى عربات الترولي Trolly ، فانطلقت مسرعة إلى بابل بالسيارة ، وكم كانت دهشتي كبيرة عندما اكتشفت أن الجنرال هذا لم يكن سوى العقيد كونلف أوين Colonel Conliffe Owen ، وقد تم لنا الوصول إلى بغداد في تمام السابعة وخمس عشرة دقيقة ، مما مكنني بعد ذلك من تغيير ملابسي والظهور بالمظهر اللائق لحضور مأدبة العشاء الثانية التي كان ولسون يقيمها تكريماً لغير المسؤولين من البريطانيين والأجانب . وهكذا عدت مرةً أخرى لمزاولة أعمالي اليومية بما فيها القيام بزيارات للسيدات المحليات والأميرات الفارسيات وإلى غير ذلك من الواجبات الإجتماعية . وقد وجدت كلابي على أتم صحة وعافية وقد بدوا فرحين ومنتعشين جراء عودتي(إنها كلاب صيد عربية كان أهداها لجيرتروود صديقها الشيخ فهد بيك بن هذال .)»

وفي الثاني عشر من كانون الثاني كتبت تقول : «والدتي العزيزة - تقولين إن العالم يبدو عاصفاً كلما فتحت صفحات الجرائد للاطلاع على ما يدور في من أحداث ، أما هنا فإن المرء منا لا يضطر إلى اللجوء إلى الصحف لاكتشاف هذا الواقع : فإلى الشمال منا يقف الأتراك ساخطين وهم لا يألون جهداً في ترويج الدعاية البلشفية الحرجة والتشجيع على نشر المبادئ الهدامة لهذه الحركة ، وهو ما يقومون به بالفعل ، بل وما يقوم به الروس أنفسهم كذلك ، في الوقت الحاضر[٣] .

---

(٣) إن من بين الأهداف الأولية التي استقطبت جهود الشيوعيين لا سيما في السنوات الأولى من حكمهم ذلك المتعلق بمقارعة قوى الاستعمار حيثما وجدت الأمر الذي دفعهم إلى مساعدة كل الحركات الوطنية . وفي مضمار ذلك نجدهم قد انصرفوا إلى مساعدة الحركة الكمالية في تركيا والحركة المناوئة لبريطانيا في إيران وكان إرسال الدعاة وتوزيع المنشورات من بين السبل التي اعتمدوها في استراتيجيتهم المعادية للدول الاستعمارية . وكان دعاة الحركة البلشفية يدخلون العراق في زي زوار وطلبة علم إيرانيين ويعمدون إلى توزيع المنشورات ==

أما الأكراد فهم على استعداد تام للتعاون مع أية جهة تؤمن لهم ذبح النصارى من غير أن يترتب على ذلك أي عقاب لاحق . إن العدالة والإنصاف تقضيان بعدم انصرافهم إلى مثل هذه الأعمال ، أما نحن فعاجزون عن تطبيق العدالة بما يؤمن وضع حد لهذه الأعمال الوحشية . ومن جهة الغرب لابد للدولة العربية السورية ، نتيجة ما ابتليت به من ضعف وما يعتمل في صدور أبنائها من غضب ، أن تغرق في غياهب الأزمات المالية ، إن لم نقل أزمات ذات طبيعة أخرى ، ومع ذلك نجدها تقاوم بقوة قبول مساعدة من لدن الجهة الأوربية الوحيدة ، وأقصد بذلك فرنسا . أما مصر فقد تحولت إلى إيرلندا ثانية نتيجة غبائنا وسوء تصرفنا ، وماذا عن القطر هذا؟ ترى إلى أين سيتجه بفعل كل قوى التقلب والاضطراب وعدم الاستقرار التي تتجاذبه؟ كم تمنيت لو أنني كنت أكبر شأناً ، وأكثر أهمية ، ولكنني ضمن الأقلية من بين العاملين في المجال السياسي في بلاد وادي النهرين . ومع ذلك أشعر بصحة رأيي وصواب موقفي . لابد للمسؤولين في الوطن أن يدركوا حقيقة الأمور ويفهموا ما تنطوي عليه من مضامين وما يمكن أن يترتب على الإخفاق في إدارتها بالشكل الصحيح من عواقب . لايمكنهم أن يكونوا بهذه الدرجة من عدم البصيرة بحيث يخفقون تماماً في رؤية الجوانب التي تنذر بوضوح بما يلوح أمامنا من أخطار .»

أما رسالة جيرتروود المؤرخة في الثامن عشر من كانون الثاني فهي الأخرى موجهة إلى زوجة أبيها اللادي بيل . «آمل قبل استلامك هذه الرسالة أن يكون أبي قد شد الرحال باتجاه البصرة . إن قلمي يعجز تماماً عن وصف لهفتي إلى لقائه . إنني أعيش ظروفاً لا تخلو من مصاعب الأمر الذي يجعلني بحاجة ماسة إلى من يمكنه نصحي وتذليل الصعاب التي تكتنف مساري .(لابد لنا أن ندرك ان علاقة جيرتروود بالعقيد ولسون لم

== البلشفية التي سرعان ما باتت متداولة في العتبات المقدسة في العراق . وبهذا الصدد يقول العقيد ولسون في المجلد الثاني من كتابه «تضارب الولاءات A CLASH OF LOYALTIES» ما مفاده إن جمعية في العراق تأسست باسم الجمعية البلشفية . كما تتحدث جيرتروود بيل ذاتها في كتابها الموسوم «فصول من تاريخ العراق القريب» عن جمعية (بلشفية) أقامها البلاشفة بالتعاون مع العناصر الوطنية التركية وكانت على اتصال بالجمعيات السياسية المتطرفة في العراق . وكانت الجمعية آنفة الذكر تهدف إلى إحراج وضع البريطانيين عن طريق استغلال الرابطة الدينية المشتركة بين الأتراك والعرب - المترجم

تكن على ما يرام في هذه الفترة .) آمل أن تعملي ما بوسعك لضمان تعيين الجنرال هالدين General Haldane قائداً عاماً هنا .[٤] إن تعيينه يعتبر خطوة في الاتجاه الصحيح فهو رجل كفؤ بصرف النظر عما يعتبر عيبه الأسوأ ، أي انه وصولي ، وهو جانب لا أهمية له في هذا الجزء من العالم حيث ينعدم أي مجال يمكنه الوصول إليه إذ أنه سيكون في القمة اساساً إن صح هذا التعبير . واأسفاه على ذهاب السير وليام مارشال الذي كنت الجأ إليه كلما تلبدت السماء بالغيوم واعترضت سبيلي المشاكل . ومع ذلك يراودني الأمل بأن الأمور ستسير في طريقها الصحيح عند عودة السير برسي كوكس .

فاتني أن أخبرك بأن افتتاح الخط الحديدي بين بغداد والبصرة قد شكل الحدث الأهم للأسبوع المنصرم . لقد خرجنا جميعاً لنكون باستقبال القطار القادم الذي قطع المسافة بين البصرة وبغداد بأربع وعشرين ساعة ونقل عشرين من الوجهاء وذووي الشأن من المواطنين . وقد أقيمت في محطة القطار حفلة شاي بهذه المناسبة .»

وفي هذه الفترة بالذات افتتحت أول مدرسة للبنات في بغداد[٥] . وفي محضر ذكرها وقائع حفل الافتتاح ، كتبت جيرتروود في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني ما يلي :

«لم يحضر حفل الافتتاح إلا أربعة فقط من النساء البريطانيات وهو أمر شائن ومحزن للغاية . وقد قام ولسون بتعنيف اللواتي أخفقن في الحضور مؤكداً على وجوب قيامهن لا فقط بتلبية الدعوات التي يدعين إليها من غير استثناء بل وعلى ضرورة أن يبذلن أقصى جهد ممكن في عكس صورة مقنعة للكياسة واللطف والمجاملة . أما ممارستهن للعبة الجولف فجانب يمكن الانصراف إليه في أيام أخرى .

---

(٤) عين هالدين قائداً عاماً للقوات البريطانية في العراق خلفاً للجنرال السير وليام مارشال . وكان عند تعيينه قد شارف على الستين من عمره ، ولم تكن صحته على ما يرام . ويعزى تعيينه في الأساس لعلاقته الشخصية بونستون تشرشل . وعلى عاتق هالدين(من وجهة النظر البريطانية) يقع جزء من مسؤولية الهزائم الأولية التي منيت بها القوات البريطانية على يد قوات العشائر الثائرة إبان ثورة عام ١٩٢٠ . إن عدم ثقته بتحذيرات المفوض المدني (العقيد ولسون) وضباطه حول خطورة الموقف ، وإهماله لها ، فضلاً عن عملية تقليص قوة جيش الاحتلال وغياب الكثير من كوادره القيادية ، كان من شأنهما الإسهام في إضعاف القدرات العسكرية البريطانية - المترجم

(٥) إن أول مدرسة للبنات في بغداد هي مدرسة الراهبات المركزية الكائنة في محلة عقد النصارى وهي المدرسة المقصودة على ما أظن - المترجم

وفي اليوم التالي أصبت برشح مهلك أجبرني على المكوث في الدار والانهماك في التفاصيل المتعلقة بالأكراد والمنطقة الكردية والتي تشكل جزءاً من تقريري الموجه إلى وزارة الهند .»

وفي الأول من شباط كانت جيرتروود لا تزال تعاني من ويلات رشح بدا مزمناً عندما كتبت تقول : «تلقيت دعوة من آل همبرو Hambro لمصاحبتهم في رحلة إلى المدائن Ctesiphon ، وقد استجبت لها انطلاقاً من شعوري أن من شأن رحلة كهذه أن تأتي بإحدى نتيجتين : فهي إما أن تعود علي بالعافية أو أن تعجل من نهايتي ، وتشكل النتيجة الثانية جانباً لا أخالني أكترث له كثيراً . وفي كل الأحوال فقد ثبت لي احتمال رجحان كفة الخيار الأول . إن السيدة هامبرو امرأة رائعة ، لا كبقية زوجات المسؤولين هنا ، وقد قضينا وقتاً ممتعاً للغاية .»

بدأ سيل الأخبار القادمة من سوريا وتركيا يتدفق على العراق وقد انهمكت جيرتروود في تلقي الأنباء من ناقليها الذين راحوا يتوافدون عليها من مدينة حلب السورية .

وتواصل رسالتها الأخيرة في عكس آرائها حول ما كانت الساحة السورية تشهد من أحداث : «إننا نشترك مع كل من فرنسا و الولايات المتحدة في تحمل اللوم على ما يحدث ، فالتاريخ لم يشهد أخطاءنا كتلك السلسلة الرهيبة منها والتي راح الغرب يرتكبها بحق الشرق منذ قيام الهدنة وانتهاء الحرب . وفي الحين ذاته فإن إدارتنا في بلاد ما بين النهرين ، خلافاً لكل ما هو منصف وعادل ، تجني ثماراً وفوائد لا حصر لها (أي لا حق لها فيها) فعلى حد تعبير كل من عاد (من سوريا) وجلس في مقاهي بغداد وراح يعبر عن آرائه ومشاعره : «فإنكم ، أيها البغداديون ، لا تدركون ما أنتم عليه من خير ونعمة لا سيما إذا ما علمتم ما كتب علينا أن نشهده من أحداث وأن نعانيه من اهوال !» إن الفرنسيين يتصرفون بحماقة في سوريا على ما يبدو وإنهم بالتأكيد سيجنون عواقب ما يقترفون من أخطاء عاجلاً أم آجلاً . ومع ذلك فإن السوريين على ما أخشى هم الذين سيدفعون الثمن على المدى البعيد .»

وفي الرابع من شباط كتبت تقول : «إني ذاهبة إلى الحلة لقضاء يومين هناك في محاولة مني لتغيير الجو والتمتع بشيء من الراحة بعيداً عن دنيا العمل وزحمه . هناك كم كبير من المعلومات التي يتعين علي الاطلاع عليها وذلك بصدد كل ما يدور من أحداث مؤلمة في كل جزء من أجزاء المعمورة ، وما لهذه الأحداث من انعكاسات على هذه المنطقة ، وإنني أعني الأحداث التي تشهدها سوريا وآسيا الصغرى وبلاد القوقاز . إنها حالة مؤلمة من الفوضى

وعدم الاستقرار . وإذ أقول ذلك بخصوص هذا الكم الكبير من الوثائق التي يتعين علي الاطلاع على مضمونها ، فإنني لا أقصد أنها عديمة الأهمية بل أود القول أن الاطلاع عليها وإدراك فحواها يمثل عملية هي أشبه من يقدر له اجتياز حقل من الطين اللزج الذي يصعب عليه شق طريقه عبره . إن الفرنسيين في أسوأ حال ممكن - إنهم يعيشون عالماً تهيمن عليه قوى الاحتيال والفساد والفتنة . كيف يمكنهم مواصلة العيش على هذا النحو في وقت يشهد العالم حولهم انهياراً واضحاً؟ وعلى الرغم من هذا الواقع المؤلم فإنهم يواصلون العيش على ما أرى . ياله من أمر عجيب !

«أجل إن الواجبات الاجتماعية مرهقة جداً . إن النساء اللواتي لا يجدن ما يشغلهن هنا يتوقعن قيامي بتبادل الزيارات معهن في ساعات فراغي التي أجدني في أشد الحاجة إلى قضائها في أطر الأمور التي تثير اهتمامي . وبذلك يتعين علي وضع حد لهذه المناسبات والواجبات الاجتماعية التي تجعل من الحياة حالة لا تطاق وتسهم في اعتلال صحتي . ليقلن عني ما يطيب لهن ، إنه جانب لا يقلقني ولا يثير اهتمامي بأي شكل من الأشكال .

شهدت بغداد فترة عشرة أيام من البرد القارص التي لم يسبق لها مثيل ، ومما جعل الأمر أكثر سوءاً الأبواب والنوافذ ، التي لا يمكن غلقها بإحكام بما يقي الناس البرد ، ووسائل التدفئة التي تقتصر على المدافئ النفطية فقط .»

* * *

وفي الثامن عشر من شباط كتبت جيرتروود الى صديقها السير فالنتاين شيرول قائلة : «بدأت حقاً على ما أظن فهم السيدات هنا ، أعني اللواتي ينتمين إلى الطبقات العليا من المجتمع . إنهن مجاملات إلى أبعد الحدود من غير أي عناء أو تكلف . وإن العقبات التي تجعل من أمر الإكثار من زيارتهن ، أو دعوتهن لتناول الشاي في داري ، أموراً صعبة إلا أنها سرعان ما تصبح جوانب ثانوية لا أهمية لها إذا ما قورنت برغبتي في التعرف عليهن وفهم جوانب عديدة من الحياة البغدادية التي لا يمكن الاطلاع عليها بطريقة أخرى ، وبذلك فإن أي جهد ينصرف إلى التقرب منهن والتعرف عليهن هو في الواقع محاولة مجدية . إنني عازمة على السير باتجاه تحقيق خطة طموحة تتعلق بإقناع سيدات المجتمع الراقي في بغداد بجدوى تشكيل لجنة تضطلع بمهمة جمع مبالغ نقدية من أجل إنشاء مستشفى خاص بالطبقات العليا ، وقد لمست تجاوباً ورغبة من لدن البعض منهن وذلك فيما يتعلق بهذا المشروع .

وخلاف ذلك فإن الأمور لا تخلو من مصاعب ، ذلك فإن العقيد ولسون يقوم بالتعامل معها بشكل رائع على ما أظن . ولابد من القول بهذا الصدد أنني عاجزة تماماً عن فهم الأسباب التي تدفع بالحكومة العربية[٦] إلى شن الحرب علينا في مناطق الفرات الأعلى ، ويتبادر إلى ذهني عدد من التساؤلات بهذا الصدد :ترى هل ما تشهده المناطق سالفة الذكر إنما يتم بدفع من لدن الحكومة المذكورة وتشجيعها ، أم أنه توجه تنصرف إليه العناصر المتطرفة التي تعجز الحكومة عن السيطرة عليهم؟ وهل الحكومة والعناصر المذكورة صنوان؟ لا تردنا أخبار من مصر من شأنها أن تساعدنا في حل هذا اللغز ، ومن المؤكد أن ما لدى مصر من المعلومات المتعلقة بسوريا يفوق ما لدينا . إننا لا نعلم إذا ما كان فيصل قد عاد إلى سوريا ، وما إذا قد قدر له التوصل إلى نوع من التفاهم مع الفرنسيين . إن اعتمادنا على ما يردنا من أخبار من قبل المسافرين ، أو على ما تنشره الصحف البريطانية ، إنما يشكل خطأً فظيعاً ، بل أمراً شائناً للغاية . فالأخبار من سوريا تصلنا بعد ثلاثة أسابيع من وقوع الأحداث ، كما يتطلب التأكد من صحتها أسبوعاً إضافياً ! (ولابد من القول أن المعلومات الواردة كانت تتأكد في كل الأحوال الأمر الذي يعني أن الاستخبارات كانت جيدة جداً .) وتشكل الصحف اللندنية مصدر هذا التأكيد . وبطبيعة الحال يتعين علينا استلام الأخبار في حينها وذلك برقياً وعن طريق القاهرة . وعندما التقيت لورد اللنبي في لندن بدا مهتماً بضرورة أن يكون هناك تبادل المخابرات بين إدارتي مصر والعراق . إننا نقوم بإرسال كل ما لدينا من معلومات ، ولكننا لا نستلم أي شيء .

ويمكنني القول بشكل عام أن الفوضى التي تشهدها سوريا تعود علينا بالفائدة : فالمسافرون القادمون من حلب إلى العراق يتعرضون دائماً إلى عمليات سلب داخل حدود المنطقة التي تخضع للإدارة العربية ، وفي أحيان كثيرة يتم السلب هذا من قبل قوات الدرك النظامية التي إنما وجدت أساساً لحماية المواطنين والمسافرين . ولابد لأفراد قوات الدرك هؤلاء من الحصول على موارد تؤمن لهم العيش عندما تخفق الحكومة في دفع ما يترتب لهم من رواتب وأجور . وما أن يصل الذين يتم سلب أموالهم وأمتعتهم إلى بغداد حتى يعلنون بصراحة : «إننا والله فرحون بوصولنا إلى البو كمال بداية بر الأمان والاطمئنان .» ونتيجة ممارسات كهذه نجد أن فكرة إقامة الإدارات العربية تخفق في استقطاب ما ينبغي من رضى وتأييد .

تشهد البلاد موجة لا يستهان بها من الدعاية المؤيدة للأتراك (فضلاً عن الدعاية

---

(٦) تقصد الحكومة العربية في سوريا بزعامة الملك فيصل بن الحسين - المترجم

البلشفية) التي يقوم ببثها أعضاء عرب في جمعية الاتحاد والترقي ممن عادوا مؤخراً من القسطنطينية . ولابد لي من القول أنني لا أجدني أعير هذه الدعاية أية أهمية فهي بمثابة من يعمد إلى ضرب كلب ميت بأمل استنهاضه . إن ما لحركة الرابطة الإسلامية من صدى هنا هو محدود جداً على ما أظن اللهم إلا باستثناء مجموعة صغيرة من العلماء السنة والشيعة ، وهو تحالف من غير المحتمل أن يكون ذا ديمومة ، كما أن ما لدى العناصر الشابة ، والأكثر ثقافة وتعلماً من غيرهم ، من شعور مناهض لنا وهو ليس بأقل مما تكنه لنا من شعور بالرفض وعدم الارتياح . إنني ألتقي العناصر الشابة في كثير من الأحيان من خلال دعوتهم لحضور حفلات عشاء محدودة يقتصر عدد الموجودين فيها على اثنين أو ثلاثة من هذه العناصر بالإضافة إلي شخصياً وإلى شخص معين من بين زملائي وتتميز هذه اللقاءات بما يدور خلالها من أحاديث مجدية وتبادل للآراء تنتهي في أغلب الأحيان بتفهم كل جانب ما للجانب الآخر من آراء وأحاسيس .

يخامرني شعور أكيد بأننا عندما نعمد إلى إقامة حكومة مدنية على أسس لبرالية حقيقية ، دونما أي شعور بالخوف ، فإننا سنحظى برضى وتأييد (أبناء) البلاد . ولابد لنا أن ندرك أننا سنواجه مصاعب كثيرة وكبيرة بيد أنها ستكون أقل عدداً وأخف وطأة من تلك التي من المؤكد أننا سنواجهها على المدى البعيد في حال اعتمادنا حلولاً أخرى . وتكمن المعضلة الأساس في كيفية قيامنا بحماية العناصر السكانية الريفية والقبلية من البغدادين الذين لا يأبهون بهذه العناصر سالفة الذكر ولا يولونها أي اهتمام بالمرة . ويبرز هذا الجانب بوضوح إذا ما أدركنا أن المسؤولين العرب (الذين ستقع على عاتقهم مهمة النهوض بالإدارة وممارسة الحكم) لابد أن يكونوا من البغدادين السنة بسبب عدم وجود أية فئة متعلمة أخرى ، وهي فئة لا يكن لها أبناء العشائر (وأكثرهم من الشيعة) أي شعور بالمحبة .

انطلقت مؤخراً في رحلتين قصيرتين إلى مناطق الفرات ، ومما يثير العجب هو مقدار ما تم تحقيقه من تقدم على مدى فترة العامين المنصرمين : إن المدن والقرى في هذه المناطق بات يصعب التعرف عليها لما بدت عليه من نظافة وترتيب ورخاء واضح .

الآن دعونا نضع القضايا العامة جانباً . إن ما تركه رحيل العم فرانك (سير فرانك لاسال Sir Frank Lascelles) من مشاعر الحزن والاسى في نفوسكم لا يقل عما تركه في نفوسنا منها . إن ما أسبغه على العم فرانك من أفضال كاد يفوق ما منحني منها أي شخص آخر . لقد أحببته بكل جوارحي . أرجو منك يا عزيزي دومنول الاعتناء بصحتك . لا أظن أن هناك من يمكنه أن يكون بديلاً لك! أعني بقدر تعلق الأمر بي شخصياً وبحياتي .

إن أبي متجه إلينا . أليس رائعاً أن أتمكن من تعريفه بوطني الثاني هذا؟ لا أنوي المجيء إلى أرض الوطن في صيف هذا العام : لا يمكنني في الواقع تحمل فراق هذه البقعة من الأرض وسط كل ما تشهده من أحداث مثيرة وهامة .»

* * *

وفي الحلة حلت جيرتروود ضيفة على الضابط السياسي ، الرائد تايلر Major Tyler . وبهذا الصدد نجدها تقول : «في أثناء هذه الفترة تماثلت للشفاء التام من بقايا الرشح الذي كان أصابني قبل فترة جعلني أصل إلى الحلة وأنا أشعر بأنني نصف ميتة . وقد قضيت عصر يوم وصولي في نوم عميق ، وعندما استفقت من نومي أمضيت بقية الأمسية في حديث مع الرائد تايلر يتعلق بشؤون المنطقة وأحوالها . إن تايلر رجل حكيم بدليل ما تميزت به مشورته من آراء سديدة وما عكسته من حصانة .

وفي اليوم التالي ذهبنا بالسيارة إلى طويريج ، التي تقع على الفرع الغربي من نهر الفرات ، ومنها انطلقنا على ظهور الخيل بصحبة عدد من الشبان المحليين في رحلة كادت تأخذنا إلى مدينة كربلاء . كانت سفرة رائعة تم لنا من خلالها عبور حقول الرز خبباً واجتياز قنوات الري قفزاً . وكان من شأن ما شهدته المنطقة من شتاء شديد البرد ، وشحة في منسوب الأمطار ، أن يتسببا بتأخير نمو أغلب المزروعات ، بيد أنهما أخفقا تماماً في منع عائلة الجيرانيوم بورودها الحمراء والقرنفلية والبيضاء من إضفاء سحرها على سطح الأرض ، ومن الانتشار على جوانب الجداول والقنوات . وكانت مهمتنا تتمحور حول مراقبة البدايات الأولى لعملية مسح الأراضي والتسوية المتعلقة بالأراضي الزراعية وتوزيعها توزيعاً عادلاً وهي القضية التي تكمن في جذور المشاكل العشائرية .

لم يكن التوفيق حليف الجزء الأخير من رحلتي آنفة الذكر : فعند ركوبي القطار في الرابعة مساءً كنت أتوقع وصولي إلى بغداد في وقت مناسب يتيح لي فرصة حضور حفلة العشاء ، إلا أن ما أصاب القاطرة من عطب(وهو أمر كثير الحصول) حال دون وصولي إلى البيت قبل الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ، وكان الجوع قد أخذ مني مأخذاً إذ لم أكن قد تناولت أي طعام منذ وجبة غداء اليوم السابق .

وقد شهد عصر ذلك اليوم حدثاً هاماً في المستشفى المدني حيث تم لنا افتتاح جناح خاص بالنساء . وقد قمت بدعوة سيدات الأسر البغدادية المعروفة لحضور حفلة شاي في الجناح آنف الذكر ، وقد حضر جمع كبير منهن . بعد تناول الشاي قمت بشرح أبعاد ومزايا المعالجات الطبية الجيدة في المستشفيات ، لاسيما أثناء عمليات الولادة . بعد ذلك قمنا

بجولة تفقدية في أرجاء المستشفى . كانت التجربة ناجحة للغاية وآمل أن تؤدي إلى ما نصبوا إليه من تطور .

تمتعت اليوم بنصف عطلة جاءت نتيجة ذهاب الجميع ، باستثنائي أنا شخصياً ، لمشاهدة سباقات الخيل . وقد قررت الترويح عن نفسي فامتطيت صهوة جوادي وذهبت لزيارة الحاج ناجي الذي أخذني لرؤية شجرة المشمش الأبكر ثمراً في بلاد وادي الرافدين لهذا الموسم – على أية حال كانت الشجرة المزهرة الوحيدة . بعد ذلك دعاني لتناول وجبة شاي كبيرة تجاذبنا خلالها أطراف الحديث حول أمور تتعلق بالطقس والحاصلات الزراعية في سوريا وفي منطقة دير الزور(٧) بالإضافة إلى أمور أخرى . وقد اصطحبني في رحلتي هذه كلبي السلوقي الذي سار خلف الجواد بهدوء تام الأمر الذي شجعني على عقد النية على اصطحاب كلا كلبي السلوقيين في المرة القادمة .

وصلت مفردات أثاثي المنزلي ، ولوازم المطبخ ، قبل ثلاثة أيام . أرجو منك عدم إرسال أي شيء إلى إلا عن طريق البريد كما ألتمس منك مفاتحة السادة شركة دبليو . اتش . سمث وأولاده W.H.Smith and Sons والطلب منهم بالكف عن إرسال مجلة السبكتيتور The Spectator ذلك لأنني قد سئمتها ، وإرسال مجلة النيو ستيتسمان

(٧) كان لواء الدير في أواخر العهد العثماني مرتبطاً بالعاصمة اسطنبول ارتباطاً مباشراً . وعلى أثر الهدنة التي عقدت في ١٩١٨/١٠/٣١ انسحبت منه القوات التركية فأصبح خالياً من أية سلطة مدنية الأمر الذي أدى إلى نشوء سلطة محلية مؤلفة من رؤوساء المحلات راحت تمارس الحكم بمقتضى الأعراف والعادات العشائرية . وبعد قيام الحكومة العربية في دمشق قرر أهل الدير الانضمام إليها عن طريق تقديم طلب إلى دمشق بهذا الصدد . وقد استجابت دمشق لذلك وتم تعيين متصرفاً للدير هو مرعي باشا الملاح . وجدير بالذكر أن منطقة الدير كانت قبل ذلك مركزاً تجارياً مهماً لوقوعها على الطريق الرئيسي الذي يربط بين سوريا والعراق وتركيا ، إلا أن الطريق هذا انقطع بعد الحرب فتعطلت نتيجة ذلك الحرف والأعمال المرتبطة بالطريق أنف الذكر . وبعد أن سمع أهالي الدير بما كان العراق يشهده من ازدهار اقتصادي تحت الحكم البريطاني طالبوا بانضمامهم إليه فاستجابت الإدارة البريطانية بدورها لمطلبهم ، وقد حظي الأمر كذلك بموافقة من لدن حاكم مدينة حلب العسكري ، شكري باشا الأيوبي . وإثر قرار المركز العام لحزب العهد العراقي في دمشق استرجاع الدير من قبضة البريطانيين شهدت منطقة الدير فترة صراع لعبت فيه العشائر دوراً بارزاً في شن الغارات على معسكرات الإنجليز في الصالحية والبو كمال ليلاً . وكان لهذه الغارات واحتلال الدير أثر كبير في التطورات التي مهدت لاندلاع ثورة العشرين – المترجم

The New Statesman بدلاً منها .»

وفي الثالث والعشرين من شباط كتبت تقول : « . . . . ومن الأفضل لي بكثير شراء السفرن Sovereign (أي دينار ذهب انجليزي) من إنجلترا فسعره يقل عن عشرة شلنات مما يعني اضطراري إلى دفع ضعف قيمته التي باتت باهظة جداً .

قضيت أسبوعاً يبعث على الملل بوجه عام اللهم إلا باستثناء دعوة العشاء التي أقامتها عائلة الجنرال ليسلي (القائد العام بالوكالة) والتي كان من شأنها أن تضفي بعض المرح والحيوية على مفردات حياتنا ، وقد التقيت فيها الأميرال السير هيو توثل وقرينته اللادي توثل Admiral Sir Hugh Tothill فوجدتهما شخصين في غاية اللطف والرقة . كما التقيت في دعوة غداء أقامها فرانك بلفور على شرف عائلة غويسكن Goschen المكونة من صاحبي السيادة لورد ولادي غويسكن وابنتيهما والذين كانوا في زيارة عابرة لبلاد وادي الرافدين . وقد قمت باصطحابهم في جولة حول بغداد زرنا فيها عدداً من المباني والمنشآت القديمة ، وقد أظهروا اهتماماً بالغاً بما شاهدوه ، كما نمت تعليقاتهم وملاحظاتهم عما يتمتعون من ذكاء وحس تاريخي .

قام السيد طالب بزيارتنا . إنه أحد أعيان مدينة البصرة ولعله الأذكى ، ولربما الأكبر ، من بين أهل المكر والحيلة .(٨) وكان موقوفاً في الهند قبل توجهه إلى مصر التي عاش فيها منذ شهر تشرين الثاني من عام ١٩١٤ . أما الآن فإنه قد عاد إلى أرض الوطن ولعله أشهر شخصية في بلاد وادي الرافدين . إن مراقبة ما يلقاه السيد طالب من ضروب الترحيب والحفاوة من قبل مختلف الأوساط المحلية لأمر يثير الاهتمام ويبعث على التأمل . وعلى الرغم من مظاهر الاحترام والكياسة التي قوبل بها هناك دلائل واضحة على أنه لم يعد يثير الخوف في نفوس الناس في ظل حكمنا القائم - لم يعد يتمتع بما اعتاد عليه من أهمية بارزة ، وهو جانب سيكتشفه في القريب العاجل على ما أتوقع . ولقد أقمت دعوة عشاء على شرفه حضرها كل من السير ادغار(٩) ، ومدير التربية والتعليم الرائد بومان Major Bowman بالإضافة إلى السيد محي الدين النقيب (أحد أبناء نقيب أشراف بغداد السيد عبد الرحمن

---

(٨) إن العبارة التي استخدمتها جيرترورد في وصف السير طالب باشا النقيب هي Rogue وهي تعني بمفهومها الذي لا يخلو من مسحة ظرف وفكاهة كل من يميل إلى العبث وإثارة المشاكل وبرغم ذلك يبقى محبوباً من قبل من هم حوله ومن يقدر له التعامل معهم - التمرجم

(٩) هو السير ادغار بونهام كارتر ، المستشار القضائي للإدارة المدنية - المترجم

باشا النقيب) وكانت أمسية رائعة قلما يجد المرء منا مناسبة تفوقها روعة وإثارة للاهتمام .

لقد عدت توي من دعوة عشاء توديعية كبيرة أقامها السيد فخري الجميل ، أكثر الشخصيات المحلية أناقة ، في داره على شرف السيد طالب الذي يتوجه إلى البصرة مساء هذا اليوم . لقد ضمت الحفلة أعيان بغداد كافة . كانت مناسبة مسلية للغاية قام السيد طالب خلالها بذكر عدد من الروايات الرائعة ، بيد أنه لم يعد ذات الشخص الذي كان الجميع يرتجفون خوفاً منه . إن ما نبدوا عليه جميعاً من انسجام وتجانس في مثل هذه المناسبات لأمر رائع حقاً . استقطب فرانك بلفور كعهده دائماً اهتمام الحاضرين ومحبتهم ، وكنت أنا كعهدي دائماً المرأة الوحيدة في هذا التجمع . إن ما دار من حديث كان ممتعاً للغاية ، وكان السيد طالب متوقد الذهن ، حاضر البديهة ، وإذا ما كانت زيارته هذه بهدف الاطلاع على الأوضاع وسيرها فإنه بالتأكيد قد رأى الأمور على حقيقتها .»

وفي التاسع والعشرين من شهر شباط كتبت قائلة : «اصطحبت آل غوسكن جميعاً في رحلة إلى بابل هذا الأسبوع . إن اللادي غوسكن امرأة طيبة و ودودة بشكل خاص . كما أنه لمن المجدي والمنعش في آن واحد أن يلتقي المرء منا بين الفينة والفينة أناساً من منزلته ومكانته ، كما أن اللورد غويسكن لا يقل روعة وطيبة عن زوجته فضلاً عما يعكسه من مشاعر تنم عن تقديره وتحمسه لما يلقاه من اهتمام وما يبذل في سبيل متعته والترفيه عنه . إنه يحمل آراء سديدة من وجهة نظرنا نحن وذلك فيما يتعلق بهذا القطر : عدم الانصراف إلى استغلاله . عند عودته إلى أرض الوطن أشعر واثقة بأنه سينقل إلى ذوي الحل والربط في العاصمة ما يعود علينا بالفائدة . والسؤال الذي يطرح نفسه بهذا الصدد وهو ذلك المتعلق بما إذا كان هناك من على استعداد للإصغاء .»

وفي السابع من شهر آذار كتبت ما يلي : «انتهيت لتوي من كتابة رسالة إلى لورد روبرت سيسيل تضمنت انتقاداً شاملاً تتعلق بمعالجات المؤتمر (أي مؤتمر فرساي) للقضايا الخاصة بمنطقة غرب آسيا . آمل أن يتم له في يوم ما تولي مسؤولية رئاسة الحكومة ، أو شؤون وزارة الخارجية على أقل تقدير ، ليعمد على عكس كل ما تم اتخاذه من تدابير وإجراءات وهي جوانب تقوم كلها ، ومن غير استثناء ، على أسس خاطئة وبذلك لا يمكنها أن تحقق أي نوع من الاستقرار .

بدأت التبرعات المتعلقة بالمستشفى تصل تباعاً ، وكان أولها من النقيب ذاته ، وقد حملها ابنه علي نحو رسمي مهيب وقدمها طي رسالة ساحرة وجهها لي شخصياً . ويمكنني القول إن هذا الشيخ الوقور لم يسبق له التبرع بمثل هذا المبلغ الكبير طيلة سني حياته الثمانية

والسبعين الأمر الذي يجعلني ممتنة للغاية .»

قضت جيرتروود أصيل أحد الأيام بزيارة لدار أحد مجتهدي الشيعة البارزين الكائنة في الكاظمية . وهناك وصف كامل لتفاصيل هذا اللقاء في المجلد الثاني من رسائل جيرتروود بيل The Letters of Gertrude Bell - Vol II . وعلى الرغم من إدراكها التام بحقيقة أنها المرأة الأولى التي كانت دعيت لتناول القهوة مع أحد المجتهدين والاستماع إلى ما تضمنه خطابه من أفكار وآراء ، فإنها أوضحت موقفها منذ البداية ، إثر مفاتحتها بأمر هذه الدعوة ، مبينة أنها على الرغم من شعورها بالسعادة لتلقي هذه الدعوة لزيارة السيد حسن(١٠) فإنها لن توافق على الوقوف عند باب دار السيد بانتظار السماح لها بالدخول ، إذ أن ذلك لا يليق بمقام ضابط سياسي . وقد تمت الزيارة وفق ما حددته جيرتروود من شرط ، وكانت مناسبة تكللت بالنجاح .

وتواصل جيرتروود القول : «وفي طريق عودتي إلى داري سمعت من فرانك بلفور أن فيصل قد توج ملكاً على العراق (كذا) وتوج عبد الله ملكاً على سوريا . هكذا إذا كتب علينا مواجهة المشاكل والمصاعب . يتوجب علينا اللجوء إلى كل السبل والمعالجات الودية بهدف منع هذا القطر من أن يصبح فريسة للفوضى . حتى زيارتي للسيد حسن بدت وكأنها حدثت بفضل تدخل العناية الإلهية .»(١١)

وفي الرابع والعشرين من شهر آذار كتبت جيرتروود من مدينة البصرة قائلة :«والدتي العزيزة – قدمت إلى البصرة من أجل استقبال أبي ، فقد استلمت برقية منه تعلمني بوصوله إلى البصرة بتاريخ الثالث والعشرين من هذا الشهر الأمر الذي دفع بي إلى الإسراع بالسفر للوصول إلى البصرة في الوقت المناسب . وكم كانت خيبتي كبيرة بعد وصولي إلى البصرة واستلامي برقية أخرى مرسلة من مدينة كراتشي تعلمني بأنه سيبحر من هذه المدينة بتاريخ اليوم (١٩٢٠/٣/٢٤) . ومع ذلك فإن هذا التأخير سيتيح لي فرصة التخلص من رشح

---

(١٠) إنه السيد حسن الصدر والد رجل الدولة المعروف السياسي السيد محمد الصدر أحد كبار رجالات العراق ورئيس أسبق للوزراء – المترجم

(١١) مما لاشك فيه أن ما ورد في هذا النص خطأ فاضح لابد من الإشارة إليه علماً بأنني قد ترجمته كما ورد في الكتاب أمانة . والصحيح هو أن في هذه الفترة بالذات شهدت بيعة المغفور له جلالة فيصل بن الحسين ملكاً على سوريا من قبل المؤتمر السوري كما شهدت كذلك قيام العناصر العراقية المشتركة في المؤتمر المذكور باختيار جلالة المغفور له عبد الله بن الحسين ملكاً على العراق – المترجم

كنت أصبت به فرب ضارة نافعة .

قضيت الأمس كله بالحديث مع السيد فان ايس المبشر الأمريكي . إنه رفيق يضفي على الجو شعوراً بالمرح والنشاط والحيوية . إنه يعرف المكان خير معرفة – بل أفضل من أي إنسان آخر – كما أن حديثه عن العرب ومشاعرهم يبعث في المرء الأمل ويدفعه إلى التفاؤل . إننا بحق نطفو على بحر مديد .

سوف أقوم اليوم بتوجيه أستاذ أمريكي وذلك عن طرق رسم الخطوط العريضة لمقال ينوي كتابته للصحافة الأمريكية – إنها فرصة من شأنها أن تعود علينا بدعاية مجدية . بعد ذلك سوف أستقبل عدداً من أعيان المدينة في دار السيد فان ايس . وقد كان لي في بغداد في الأسبوع المنصرم لقاء مع صحفية أمريكية سريعة البديهة ، خفيفة الظل . تحدثت معها فترة طويلة . آمل أن يأتي هذا اللقاء بأكمله من خلال ما ستنشره جريدة الساترداي ايفننج بوست The Saturday Evening Post . وكما أخبرتني ، فإن الأمريكيين لا يعرفون بالمرة ما نقوم به من نشاط وما نحققه من إنجازات في هذا الجزء من العالم . إني أود لقاء مثل هذه الشخصيات إذ ليس لدينا ما نحاول التستر عليه أو إخفاءه ، بل على العكس فإن أية صيغة من صيغ الدعاية تكون من صالحنا . أنوي القيام يوم غد بزيارة لمدارسنا ومستشفياتنا .

وعدت لزي Lizzie بأن تبعث إلى ماري كتباً ومجلات تتعلق بالأزياء السائدة ولكنها لم تبر بوعدها حتى الآن . إن ماري تواقة لعمل فساتين من الموسلين بيد أنها تجهل الزي السائد حالياً . آملاً أن تتمكن لزي من إرسال بعض ما وعدت .»

أما في رسالتها المؤرخة في الثلاثين من آذار فهي تقول : «وصل أبي صباح يوم أمس وبدا بأحسن حال . لا يمكنني وصف فرحتي بلقائه . وقد قضينا يوماً ممتعاً في مدينة الزبير تم للوالد فيها التحدث(عن طريقي بطبيعة الحال) إلى أحد شيوخ المدينة ، وقد ترك حديثه انطباعاً حسناً في نفس الشيخ أنف الذكر الذي عبر عن شعوره بهدية كانت عبارة عن سجادتين صغيرتين . وسأقوم عصر هذا اليوم باستضافة ما لا يقل عن أربعين شخصية من أعيان البصرة لتناول الشاي والتقاء أبي . إن اصطحابه في جولات تعريفه بالناس يشكل متعة لا نظير لها بالنسبة لي . أشعر وكأنني في حلم جميل .

لقد تعافيت تماماً ! هل ذكرت لك أني كنت أعاني من التهاب حاد في قصباتي الهوائية عند وصولي إلى البصرة ؟ لا أظنني قد أخبرتك بذلك . وعلى أية حال كان علي المكوث في الفراش فترة أربعة أيام قبل وصول والدي .

سنتوجه غداً إلى الناصرية بالقطار ، وسنعقب ذلك بزيارة إلى الحلة تليها أخرى إلى

النجف ومن المؤمل أن نصل بغداد في الثامن من نيسان .»

* * *

تركت جيرتروود لوالدها مهمة رواية التفاصيل المتعلقة برحلته إلى العراق إلى زوجته ، وبذلك فإن الرسالة التالية كانت المؤرخة في السادس من آيار والتي تضمنت جواباً لها على رسالة غير متوقعة كان أبوها قد بعثها إليها بعيد رحيله من العراق بهذا الصدد فإنها تقول :

«لابد أن تكون أفكارنا قد وجدت نقطة لقاء لها عندما رحت أتناول الشاي من قنينة الترمس العائدة لك ذلك لأنني كنت أتساءل ما إذا كنت بحاجة لها ! داهمني شعور عارم بالحزن لعدم تمكني من البقاء بصحبتك حتى موعد إبحار السفينة . بيد أنني أجد عزاءً في مقولتك :لا يمكن للوداعات الطويلة أن تكون مجدية ومفيدة ! بدا البيت عند عودتي خالياً لا روح فيه وعبثاً حاول كلباي الترفيه عني ومواساتي . ليباركك الرب أيها الأعز لدي .»

الفصل الثاني عشر

١٩٢٠

بات لمراسلات جيرتروود مع أبيها متعة مضافة بعد أن زار بغداد وتعرف على مرافق دارها هناك . . وفي التاسع من شهر أيار كتبت له قائلة :«استلمنا نسخة من مذكرة رائعة أوضحت وزارة الحرب من خلالها كل ما انطوت عليه أحكام معاهدة السلام المعقودة مع تركيا من مضامين وأفكار اعتبرتها حمقاء وغير مجدية . وبهذا الصدد فإنها تطرح بحق عدداً من التساؤلات التي من بينها ذلك المتعلق بتحديد هوية الجهة التي ستعمل على تثبيت موطن للأرمن في حدود المنطقة التي تم تخصيصها لهم من بين الأراضي التركية ، كما تبين في الحين ذاته عجز حكومة القسطنطينية (اسطنبول) عن تنفيذ أي بند من بنود المعاهدة آنفة الذكر حتى في حال قبولها بما تم فرضه عليها من شروط . وهناك تساؤل آخر مفاده تحديد الوسائل التي من المقترح اعتمادها في مجال إقامة مناطق كردية تتمتع بحكم ذاتي ، وتطالب وزارة الحرب بإلحاح بضرورة عدم إضافة أية مواد على أحكام معاهدة الصلح لا يحتمل القبول بها إذ لا يوجد بيننا من هو على استعداد لتوفير الموارد المالية والقوة العسكرية المطلوبة لغرض فرض ما هو غير مقبول بالقوة . ولهذا السبب بالذات ، تم على ما افترض توجيه طلب جديد إلى الولايات المتحدة بهدف إقناعها بالاضطلاع بمسؤولية أرمينيا . لكن أمريكا سترفض بطبيعة الحال وهو موقف لا أكاد أتوانى في اتخاذه لو كنت في مكانها . وفي الحين ذاته يتجه إخواننا النساطرة إلى موطنهم الذي يقع برمته تحت السيطرة الكردية وفي منطقة نائية لا يمكننا الوصول إليها لغرض مد يد المساعدة لهم . إني أنظر إلى الأمر بترقب مشوب بالخوف . كان ينبغي أن يتم إرسال الرجال أولا لاتخاذ ما يمكن من تدابير ذلك لأنني أتوقع حدوث كوارث مريعة لا يمكن لضمائرنا التنصل منها . وتتعزز المخاطر(كما تبينه مذكرة وزارة الحرب) بواقع احتمال أن يؤدي تفاقم شعور النقمة لدى العناصر المسلمة في الأناضول نتيجة شروط السلام إلى مذابح دامية تستهدف الفئات المسيحية . وأود بهذا الصدد أن أقول إننا كنا في وضع يمكننا من فرض ما نريد من أمور على القسطنطينية نتيجة قدرتنا على الوصول إليها ، بيد إننا نقف عاجزين عن القيام بأبسط الإجراءات في المناطق الوسطى من آسيا الصغرى . لقد أهملنا طرد الأتراك من القسطنطينية – وهو الإجراء الصحيح الذي كان ينبغي لنا اتخاذه – أما الآن فتجدنا نوجه اهتمامنا نحو ما يتستحيل تحقيقه . علينا أن نلتزم بالحذر .

هل تذكر عائلة دروري The Drurys الذين التقيناهم في مسكن عائلة تود The Tods؟

إنهم لا يزالون هنا ، وأنا التقيتهم أثناء مآدب الغداء الرسمية . إن وجودهم في هذه المآدب التي أجدها ثقيلة الوطأة يشكل مصدر راحة وعزاء بالنسبة لي ، وهي مناسبات يترأسها العقيد ولسون الذي تجده في أغلب الاحيان غاضباً وعابساً مثل دب مشاكس ، ولعل أنجع علاج لمجابهة مثل هذه الحالات النفسية هو الإهمال التام وهو ما يثير غضبه بدرجة أكبر . ولكن ما عسى المرء منا أن يعمل خلاف ذلك في مثل هذه الأحوال؟

وفي السادس عشر من أيار كتبت تقول :« لدي مهر عربي أصيل رمادي اللون ، أجده متمماً لكلبي السلوقيين ، ولكنه بحاجة إلى الكثير من الترويض والتدريب وعليه فإنني أنطلق على ظهره في رحلات قصيرة فقط بصحبة الكلبين وقبل موعد وجبة الإفطار . إنه يحقق تقدماً ملحوظاً في مجال الاستجابة إلى ما هو مطلوب منه . إنه مخلوق ذكي للغاية ، فهو يقفز الموانع برشاقة متناهية ويخوض في المجاري والمسالك المائية بخفة ملحوظة وبقوائم لا تخطئ في خطواتها ، وكان قد قدم هدية من قبل القسم الذي يعنى بالأفراس البديلة في دائرة النقليات . آمل أن لا يتسرب خبر هذا الموضوع إلى أي من أعضاء مجلس النواب !

بدأت بالإعداد لمناسبات أسبوعية أستضيف من خلالها في حديقة منزلي مجموعات من العناصر الوطنية الشابة ، وقد شهدت أولاها حضوراً جيداً قوامه ثلاثون شاباً إلى جانب ستة من زملائي بمن فيهم فرانك بالفور ، والسير ادغار (بونهام كارتر) . لقد كانت مناسبة رائعة حسب رأي فرانك . وقد قمت بتزيين حديقتي بعدد مما لدي من المصابيح البغدادية القديمة التي تتميز بالجمال والأصالة . وأعتزم في هذه المناسبات تقديم المرطبات والفواكه والمعجنات إلى زواري . إن مدى ما سيكتب لهذه اللقاءات من نجاح لأمر يثير الاهتمام .

زارني عصر أحد هذه الأيام الجنرال هالدين ، وقد جاءت زيارته بعد انتهائي من تناول وجبة الشاي . وعلى الرغم مما يتميز به من لطف ودماثة خلق لا أجد لديه ما يفترض أن يكون لدى القائد العام من شخصية ، ومع ذلك فهو جانب لا أهمية له الآن إذ أن أمر استبداله يبدو محتملاً . أتوقع أن يتم اعتماد خطة تنصرف إلى تخفيض القوة العسكرية العاملة إلى فرقة واحدة وتبوؤ منصب القيادة العامة من قبل أحد ضباط سلاح الجو . وبقدر تعلق الأمر بي شخصياً فإن لدي شكوكاً حول حكمة مثل هذا التوجه . لا أجدني مؤمنة بأن الاعتماد على سلاح الجو يشكل إجراءً ناجحاً ومجدياً لأغراض تتعلق بالحالات الدائمة . إن دور القوة الجوية يقتصر على القيام بنشاط تدخل في أطر صولات زنبورية لا تحقق نتائج فاعلة ، ذات ديمومة . إننا بأمس الحاجة إلى تبني موقف إصرار هادئ يقضي بضرورة الالتزام بمفهوم احترام القانون والنظام لا مجرد الاكتفاء بإنزال عقوبات محدودة

الأثر ، برغم كل ما قد يترتب عليها من أذى آني ، كمعالجات لحالات التجاوز عليهما . إنني لا أعترض أبداً على وجود فرقة عسكرية واحدة والعديد من الطائرات شريطة أن تكون القيادة بيد أحد أفراد الصنوف الحربية الأرضية لا بيد نظير له من بين أفراد سلاح الجو . إن الخطة آنفة الذكر هي من بنات أفكار ونستون (تشرتشل) الذي لا أعتبره موضع ثقة بالمرة .»(١)

---

(١) من أجل تحقيق استيعاب تام لأبعاد ما تنطوي عليه الجملة الأخيرة من مفاهيم ، يجدر بالقراء الكرام ، الاطلاع على أوجه الخلاف القائم في التوجهات الخاصة بإدارة المستعمرات والمناطق الخاضعة للنفوذ البريطاني بين كل من مدرسة الفكر التي تمثلها الإدارة البريطانية في الهند ، وتلك التي تمثلها مراكز القوى في كل من وزارة الخارجية البريطانية والإدارة البريطانية في مصر آنذاك . إن من شأن قراءة متبصرة لمؤلفات مثل «بلاد وادي الرافدين ١٩١٧ - ١٩٢٠ : تعارض الولاءات» للعقيد ولسون ، و «العراق ١٩٠٠ - ١٩٥٠» للعميد ستيفن همسلي لونغرك من جانب ، و «مشرقيات» لرونالد ستورز ، و«أعمدة الحكمة السبعة» للعقيد لورنس من جانب آخر وذلك على سبيل المثال لا الحصر ، أن تسهم في توضيح هذا الخلاف بين التوجهات ، فحواشي هذا العمل لا يمكنها الإيفاء بهذا الغرض الذي يتطلب بحثاً مستفيضاً ، إلا أن الاستشهاد بالمثال التالي قد يفي بجزء يسير منه . بتاريخ ١٩٢٠/٢/١٥ قال عضو البرلمان البريطاني السيد بونارلو Mr Bonar Law في محضر المناقشات التي تمت في مجلس العموم في ذلك التاريخ ما يلي :«إن الإدارة المدنية لبلاد وادي الرافدين تخضع لإشراف وزير الهند وسلطته بينما تخضع الإدارة العسكرية لتوجيهات وإشراف وزارة الدفاع . ولا يمكننا الانصراف إلى تشكيل نظام إدارة مدنية(وطني في العراق) إلا بعد التوصل إلى سلام بين الحلفاء وتركيا وتحديد الوضع الخاص بمختلف المناطق والأقطار التي كانت تخضع للحكم العثماني .» إن مثل هذا الحال يوضح إلى حد ما الوضع الخاص بالعراق آنذاك .

أما بخصوص المسألة العامة المتعلقة بالالتزامات العسكرية البريطانية في العراق فقد اقترح ونستون تشرشل ، وزير الدفاع آنذاك ، في جلسة مجلس العموم ليوم ١٩٢٠/٢/٢٣ ، وفي معرض طرحه لخطة من شأنها تحقيق إحكام السيطرة البريطانية ، لا سيما بعد تخفيض حجم القوات العسكرية العاملة في العراق ، إناطة القيادة العسكرية في بلاد وادي الرافدين بأحد ضباط سلاح الجو الملكي البريطاني ، إلا أن الفكرة لم تحظ بتأييد الإدارة البريطانية في الهند ، ولا بمباركة مقر القيادة العسكرية البريطانية في العراق إذ أن الكثيرين من كبار الضباط العاملين في العراق لم يكونوا على قناعة بجدوى هذه القوة الجديدة ونجاعتها ، فضلاً عن ذلك فإنهم (وعلى غرار ما عبرت عنه جيرترورد بيل رفضوا حتى فكرة إتاحة الفرصة أمام استخدام سلاح الجو أو (القوة الجوية كما تعرف باللغة العسكرية العراقية) كما ينبغي الأمر الذي تسبب بهدر ملايين الجنيهات وفقدان ==

إنه لمـن المنصـف أن نذكر بهذا الصدد أن كل العاملين في الحقل السياسي في بلاد وادي الرافدين ، بما فيهم جيرتروود بيل ، قد تحولوا كلياً بتفكيرهم إلى مناصرة قيادة سلاح الجو A ir Force Command ودعمها بعد أن تم تشكيلها ودخلت إلى حيز التنفيذ وهو جانب يعود فضله إلى حد بعيد إلى قدرات قائدها سير جون سالموند Sir John Salmond ومهارته في إدارة شؤون سلاحه .

«تشهد المنطقة بداية الطقس الصيفي حيث أخذت درجات الحرارة تتجاوز ٣٥ درجة مئوية ومع ذلك فهو طقس لا أعتبره شديد الحرارة ، كما أعتبر النوم ليلاً فوق سطح منزلي متعة لا تضاهيها متعة أخرى . ويقوم خادمي زيا بوضع مفرش قرب سريري ليرقد عليه كلباي السلوقيان . إن الجانب السلبي لهذا الإجراء يتمثل أحياناً باستجابة الكلبين ، أو أحدهما ، لنباح الكلاب السائبة الذي يأتي من وراء سياج الدار .

يتصرف ولسون بأدب ولطف ، إلا أن المكتب يفتقر بوجه عام إلى النظام وذلك لأسباب عديدة يقف على رأسها افتقارنا إلى ما يكفي من الأيدي العاملة ، أما بقدر تعلق الأمر بي شخصياً فإنني لا أخفق في تدبير أموري والقيام بما يتطلبه الأمر مني من غير مشاكل أو مصاعب»

وفي الثالث والعشرين من آيار كتبت إلى زوجة أبيها قائلة : «أمي الحبيبة – إنني أفتقد أبي وأشتاق إليه ، كثيراً . لقد كان وجوده بيننا مصدر سعادة لا حدود لها .

تم منح ولسون وسام نظام الفروسية الخاص بإمبراطورية الهند Knight Commander of the Indian Empire(K.C.I.E) ، وهو أمر يثلج الصدر إذ أنه حقاً جدير بهذا الشرف . كم تمنيت لو أن منحه هذا الشرف يواكب بعملية إكسابه ما يتميز به الفرسان عادة من سلوك حسن!»

كان وصول فتوح إلى بغداد مصدر سعادة كبيرة لجيرتروود التي تتحدث عن هذه المناسبة بقولها :«كانت رحلته من حلب إلى بغداد مرعبة بسبب تواصل تعرض المسافرين لاعتداءات وتجاوزات قطاع الطرق من بين أبناء العشائر . ومما يزيد الأمر هولاً واقع أننا في الخامس من آيار كنا قد توصلنا معهم إلى اتفاقية رسمية تم بموجبها رسم الحدود التي تقرر

== آلاف الأرواح . ولا أعلم لهذا الموقف سبباً منطقياً خارج حدود التقوقع ورفض كل ما هو جديد . إن عامل المسافات الشاسعة التي كان على البريطانيين قطعها في العراق بين مختلف مناطق تواجدهم كان كفيلاً بحد ذاته بتبرير لجاعة الجوء إلى سلاح الجو خدمة لمصالحهم ليس إلا . - المترجم .

احترامها والالتزام بها . ومن جانب آخر ، فإنني سعيدة بوجود فتوح بيننا برغم إصراره على العودة إلى حلب حال تمكننا من ضمان طريق عودة آمنة له . أما في الوقت الحاضر فإنه موجود بضيافتي .

يقوم الشاه حالياً بزيارة العراق . لم أكن من بين مستقبليه عند وصوله ولكنني ذهبت صباح اليوم التالي بصحبة فرانك بلفور والرائد هاي Major Hay إلى الكاظمية حيث كان الشاه يقوم بزيارة للعتبات المقدسة هناك . وقد قمنا بتفقد مرافق الدار التي تم تجهيزها لغرض إقامة حفلة استقبال فيها على شرفه ، وقد التقيت هناك رئيس تشريفاته ، أو كما يسمى بالفارسية «وزيري دوربار» . كان شيخاً يلبس بدلة رسمية رثة ، سوداء اللون . لكنه بدا سيداً مهذباً بكل ما تنطوي عليه العبارة من معنى وذلك برغم وجهه غير الحليق وقيافته البعيدة عن الأناقة والترتيب . وقد تجاذبت معه أطراف الحديث بالفارسية بينما انهمك فرانك في عملية تفتيش مرافق الدار وقد علمت من هذا السيد الفارسي الفاضل أن الشاه كان ممتناً لكل ما لمسه من حفاوة وترحيب . بعد ذلك توجهنا إلى المقام الشريف عبر سوق الكاظمية . كانت مشاهدة رائعة ، فقد فرشت أرض السوق وكل دكاكينه بالسجاد . وكانت تجربة فريدة بقدر تعلق الأمر بي شخصياً إذ لم يسبق لي ركوب جواد والسير به فوق أرض مفروشة بالسجاد . أما الدكاكين فكانت مزينة بقطع من الحرير والقماش المقصب (البروكير) وبذلك كان الفرد منا يسير وسط طريق تمتد على جانبيه برك من الألوان الجذابة .

بعيد سفر الشاه سينطلق ضباط القيادة العامة للجيش في رحلة إلى مصيف كرند حيث سيمكثون هناك حتى شهر تشرين الأول و لا أعلم بالضبط ما إذا كان الإجراء هذا قد تقرر من قبل الجنرال هالدين ، القائد العام نفسه أم من قبل الجنرال هامبرو ، مدير صنف التموين والنقل ، وبصرف النظر عن صاحب القرار فإنه إجراء خاطئ أثار موجة عارمة من الانتقاد اللاذع من قبل العناصر العسكرية والمدنية على حد سواء ، فأمامنا ستة أشهر حرجة تفرض وجوب تواجدنا جميعاً في موقع الحدث . وعلى الرغم من جهل هالدين بالأمور الإدارية فإنه يبقى على رأس الهرم الإداري الأمر الذي يعني أن إجراء المعاملات كافة يتم باسمه إذ عليه النظر في كل منها ومناقشتها وإبداء ما ينبغي من توجيه بصددها وهو أمر لا يمكن أن يتم من خلال المراسلات البرقية . وبهذا الصدد يسعدني القول أن لدينا كميات وفيرة من المراوح والمصابيح الكهربائية إلى جانب وفرة الثلج والمساكن المريحة ، الأمر الذي يعني أن حرارة الطقس لا يمكنها أن تكون مصدر ضيق وأذى ، وحتى في حالة كونها كذلك فإن على العاملين كافة ، بمن فيهم الكوادر العاملة في الإدارة المدنية ، أن يكونوا على أتم

استعداد لتحمل وطأته ، وكذلك الأمر بالنسبة لضباط القيادة العامة .[٢]

إن العاصفة التي أثارتها المعاهدة التركية لم تندلع بعد ، بيد أن اندلاعها أمر مفروغ منه . آمل أن لايتم ذلك في هذا القطر . إن الجزء الوحيد من تركيا الذي سيقبل بشروط المعاهدة وأحكامها هو ، على ما أفهم ، ذلك الواقع بين مضيق البوسفور ومنطقة جنوب بحر قزوين إنه ليس بجزء كبير من الامبراطورية إلا أنه يمثل كل ما يمكننا بسط سيطرتنا عليه . وستبقى

---

(٢) أود بهذا الصدد أن أنقل إلى العربية ما ورد على لسان العقيد ولسون في كتابه (-Mespoputamia 1917 1920: A clash of Loyalties ص ٢٧٦ - ٢٧٧) باعتباره دليلاً على ما أثاره قرار القيادة العسكرية البريطانية حول نقل مقرها خلال فترة الصيف إلى مرتفعات كرند في إيران من رد فعل لدى الأوساط البريطانية في العراق ، علماً بأن كتاب ولسون آنف الذكر لم يسبق لاحد ترجمته إلى العربية على ما أعلم :

«لم يأل سير أيلمار هالدين ، ولا أي من كبار الضباط الأركان في قيادته ، جهداً في الإعلان عن رأيهم حول ما انطوى عليه تقديري للموقف العام في العراق من تشاؤم . ونتيجة ذلك فإنهم قاموا في الرابع والعشرين من شهر حزيران بشد الرحال عائدين إلى كرند حيث تواجد القسم الأعظم من منتسبي القيادة العامة .

وكنت قد عارضت بشدة اختيار الموقع آنف الذكر مقراً إذ أنه لم يبد لي موقعاً تفوق مزاياه العسكرية ، وما فيه من مرافق تتعلق بالجوانب الصحية والترفيهية ما ينطوي عليه من جوانب سلبية ومضار سياسية بديهية ، وعبثاً حاولت مناشدة وزير الدولة لشؤون الهند بمفاتحة وزارة الدفاع بهدف منع تنفيذ هذا الإجراء . وجاء الثمن باهظاً . لقد ثبت أن الجانب الصحي من الإجراء كان أمراً مشكوكاً فيه إذ برغم شدة الحر في بلاد وادي الرافدين فإن معدلات الإصابة بالأمراض في بلاد فارس كانت أعلى بكثير من تلك التي عرفها العراق في فصل الصيف الماضي ، كما أن معدلات حالات الدخول إلى المستشفيات في العراق في عام ١٩١٩ كانت أقل منها في مناطق التواجد البريطاني في الهند ، ومن جانب آخر ، لم يبطن الجنرال هالدين استياءه ، وعدم رغبته في البقاء في بغداد أثناء فصل الصيف الذي على حد تعبيره يحول دون تمكن الفرد من التمتع بما ينبغي من التمارين البدنية الضرورية للصحة اللهم إلا باستثناء ساعة أو ساعتين في الأمسيات . وبرغم تعاطفي مع رأيه هنا ، لابد لي أن أكرر قول حقيقة مفادها أنه لم يكن يتمتع بصحة جيداً بالأساس ، ومع ذلك فإن مثل هذه الأعذار لا تشكل مبرراً مقنعاً للذهاب إلى كرند . ومن جانب آخر فقد اختلقت تماماً مع تقديره الخاص للموقف علماً أن المعطيات المتوفرة للوصول إلى القرار الصحيح كانت متوفرة لكلينا .(انتهى الاقتباس) ويمكن القول من وجهة نظر المصالح البريطانية إن تقدير ولسون للموقف كان أكثر دقة وتفهماً من تقدير القائد العام ، الجنرال هالدين - المترجم .

منطقة الأناضول في حالة تمرد مستمر ، وعالماً لا نهاية له ، وهو أقصى ما يمكنني رؤيته مع احتمال تعرض العناصر المسيحية لمذبحة كبرى تأتي من باب التعبير عما يجيش في نفوس مصطفى كمال وجماعته من مشاعر وما يعتمدون من توجهات . ولا يمكنني من جانب آخر التكهن بما سيكون موقف العناصر المسلمة في الهند إزاء ما آلت إليه الأمور في تركيا ، إلا أنني أستطيع الجزم بأنها غير راضية . وفي الحين ذاته تهاجم جماعة الإخوان أرض الكويت بسبب نزاع حدودي سنجد أنفسنا مسؤولين عن تسويته ، وهو نشاط يبشر بشيء من المتعة .»

وفي الأول من حزيران كتبت ما يلي :«نعيش في خضم هيجان عنيف يدفعنا إلى الشعور بالقلق . إنه قلق لا علاقة له بالمرة بأمر سلامتنا ،إنما يتعلق بما إذا كان سيكتب لنا أن نشهد حلول شهر رمضان ورحيله بمنأى تام عن الأضطرابات وأعمال الشغب . وإذا ما اندلعت مثل هذه الأعمال فإن المسؤولية تقع على عاتق حكومة جلالة الملك . لابد من ترجمة نصوص الدستور إلى العربية ومن ثم طباعته تمهيداً لتوزيعه . وقد قام ولسون بمناشدتهم (أي أعضاء الحكومة البريطانية) بضرورة الإعلان عنه قبل حلول شهر رمضان إلا أنهم رفضوا الاستجابة لهذه المناشدة لأسباب لا نعلمها ، أو بالأحرى لا لسبب خاص على ما نعتقد اللهم إلا باستثناء توهمهم بأنهم على بينة من حقيقة الأمور بشكل أفضل مما نحن عليه . إنهم ليسوا كذلك بالتأكيد ، وإن ما كان ولسون يخشى حدوثه قد حدث فعلاً . إن واقع إخفاقنا في القيام بأي إجراء باستثناء الخروج بإعلانات ذات طبيعة عامة تتعلق بنوايانا حول إقامة مؤسسات عربية (من غير إعطاء أي دليل ملموس يوحي بجدية ما نطلق من تصريحات) إلى جانب الدعايات التي تجد طريقها إلينا من سوريا والمشاعر التي حركتها أحكام معاهدة السلام المبرمة مع تركيا ، قد وضع في يد العناصر المتطرفة كل الوسائل التي يمكنها تسخيرها ضدنا . لقد اعتمدت هذه العناصر في الواقع نهجاً يصعب مقارعته والتغلب عليه ألا وهو وحدة الصف بين أبناء السنة والشيعة ، أي وحدة الإسلام ، وهو جانب يتم استغلاله إلى أبعد حد ممكن . فالمساجد تشهد أسبوعياً لقاءين ، او ثلاثة ، بين أبناء الفئتين . إنها حفلات صاخبة تتغنى بهذه الوحدة التي لم يعرف لها سابقة والتي تقام تارة في مساجد السنة وأخرى في مساجد الشيعة ويحضرها جمهور غفير من أبناء الطائفتين . إنها وحدة سياسية لادينية ، ولا أعتقد أن هناك من يؤمن بأن هذه الوحدة بكل ما تعكسه من مشاعر الاعتزاز والافتخار (بتحققها) تمثل حالة ذات ديمومة . تتضمن هذه اللقاءات مواعظ نصف سياسية ونصف دينية ، إلى جانب قصائد وطنية ملتهبة ، تنصرف جميعها

إلى تكريس فكرة طرد الكفار[٣] .

---

(٣) قدر للتقارب بين أبناء السنة و الشيعة أن يبلغ ذروة لم يعهد التاريخ مثيلاً لها مما أذهل البريطانيين وأقضّ عليهم مضجعهم إلى حد كبير . وعلى الرغم من محاولات المسؤولين البريطانيين التقليل من الأهمية الحقيقية لهذا التقارب - كما هو واضح من ملاحظات الآنسة بيل ومن انصراف العقيد ولسون إلى اعتباره نتيجة لشدة تأثر الإنسان العربي بالعبارات البليغة التي تتضمنها الخطابات الحماسية والنداءات التي تستثير المشاعر الدينية والوطنية - فإنهم يعترفون في الحين ذاته بما كان لهذا التقارب (الذي جسدته الحفلات الدينية التي سمحت قوات الاحتلال للعراقيين بإقامتها خلال شهر رمضان من عام ١٩٢٠) من أثر بالغ وفاعل على العراقيين لاسيما أبناء عشائر الفرات الأوسط منهم . وإن من شأن الاستشهاد ببعض الأبيات الشعرية التي راحت تتردد على ألسنة الناس بوجه عام أن يعطي مؤشراً واضحاً على ما عكسه هذا التقارب من مشاعر وأحاسيس إسلامية ووطنية . ففي النجف الأشرف يصعد السيد محمد باقر الحلي إلى منبر جامع الهندي ، في أواخر شهر حزيران ، ليلقي قصيدة سياسية من نظمه بدلاً من إلقاء قصيدة في رثاء سيدنا الإمام الحسين رضي الله عنه عكست رفضاً لمبدأ الانتداب وترحيباً بحكم وطني هاشمي القيادة ، وقد جاء فيها ما يلي :

هم يطلبون على العراق وصيّا
عجباً فهل أبناؤها أيتام
فليحيَ عبد الله فهو لشعبنا
ملك ووالده الشريف إمام
وعلى الرجال العاملين تحية
وعلى حماة المسلمين سلام

وفي ذكرى وفاة الإمام علي كرم الله وجهه في الحادي والعشرين من رمضان ، انطلق موكب من أهل الأعظمية إلى الكاظمية لمشاركة أهل الأخيرة في العزاء ، وعند وصوله إلى صحن الكاظمية راح يهزج (بالعامية) :

أبو بكر وعمر حزنانين
على الوصي حيدر
وملائكة السما وجبرائيل
لاجله تكدر

أما الشاعر الموصلي حبيب العبيدي فقال في مضمار شجب الانتداب والوصايا والنهي عن التفرقة الطائفية :

ما تركنا إخواننا الأتراكا
وخذلنا همو وأزرناكا

==

إنني مؤمنة بأن الفئات الأكثر وزناً (وأعمق إدراكاً بماهية الأمور) تقف ضد هذه المظاهرات- كما إنني على يقين تام من أن البعض منهم يستنكرونها ، بل ويشمئزون منها بشدة إلا أن الوقوف في وجه نداء الدين أمر في غاية الصعوبة ، وكلما طال أمد هذه الحال ازدادت صعوبة التوصل إلى تسويته[٤] لقد مضت عشرة أيام على بدء هذه المظاهرات ، وقد عمد فرانك (بلفور) إلى إلقاء القبض على أحد الشبان المتهورين الذين كان يقوم بإلقاء كلمة ملتهبة . إنه إجراء صحيح على ما أظن برغم كل ما ينطوي على اتخاذه من خطورة وحرج .

وشهدت الليلة التالية اجتماعاً موسعاً في الجامع الكبير الذي يقع في الشارع الجديد[٥] ، وقد ضم الاجتماع حشداً اعتبره فرانك تجمعاً خطيراً الأمر الذي دفعه إلى إرسال سيارات مصفحة لحراسة الشارع . ونتيجة إلقاء الحجارة على إحدى المصفحات مما أجفل سائقها وأجبره على الارتداد بمصفحته ، اندفع حشد من المتظاهرين نحوه ، فقام بدوره بإطلاق بضعة عيارات نارية فوق رؤوسهم لتخويفهم فتفرقوا أيدي سبأ مثل أرانب برية أصابها الذعر ، وفي خضم هذه الفوضى دهست مصفحته أحد المتظاهرين ، وما هي إلا لحظة حتى خلت الشوارع ، وكنت قد سمعت صوت إطلاق العيارات النارية مباشرة بعيد ذهابي

== شغفاً يا ابن لندن بهواك

بل لنيل استقلالنا بولاكا

فلماذا تكون فينا وصيا؟

لا تقل جعفرية حنفية

لا تقل شافعية زيدية

جمعتنا الشريعة الأحمدية

وهي تأبى الوصاية الغربية

وقد قوبلت هذه القصيدة بارتياح شديد من لدن أبناء الشيعة ، فلا غرابة إذاً في ما ساور البريطانيين من قلق إزاء هذا التقارب ، وكان درساً لهم حرصوا أن يمنعوا تكراره مستقبلاً - المترجم .

(٤) في تقرير سري لها ، تدعي جيرتروود أن السيد سليمان فيضي كان أحد الذين استنكروا هذه الحفلات وعبروا عن سخطهم إزاء هذا التقارب - المترجم

(٥) المقصود هنا هو شارع الرشيد - المترجم

إلى السرير للنوم(٦) . وفي الصباح الباكر هرعت قبل الفطور إلى منزل فرانك بلفور لأخبره بما تيسر لي من معلومات ، إلا أنه سارع بدوره إلى إخباري بتفاصيل ما حدث . وكنت أعمد إلى إعلام فرانك بكل ما كان يردني من أخبار ومعلومات عن طريق شخص(٧) اعتاد القيام بزيارات صباحية لإفادتي بما كان يدور في الاجتماعات من تفاصيل ، وكنت أجد فرانك على علم مسبق بما كنت أوافيه به من معلومات ، ومع ذلك كنت أنقل إليه كل ما يردني من

(٦) إن الاجتماع موضوع البحث هو الحفلة الدينية الثالثة (أقيمت الأولى في ١٩٢٠/٥/١٤ في جامع القبلانية الواقع في سوق البزازين ، وأقيمت الثانية في جامع الميدان في ١٩٢٠/٥/٢٠) التي أقيمت مساء يوم الأحد المصادف ١٩٢٠/٥/٢٣ في جامع الحيدر خانة والتي ألقيت فيها خطب حماسية . وقبل نهاية الحفلة نهض شاب كان موظفاً في دائرة الأوقاف وهو السيد عيسى الريزلي وألقى قصيدة دعا من خلالها إلى مزيد من التلاحم بين أبناء المذاهب الإسلامية المختلفة منددأ في الحين ذاته بمن كان ينقل أخبار التجمعات وما يقال فيها إلى الإنجليز . ولهذا السبب ، ولربما لكونه موظفاً لدى السلطة أيضاً قررت الإدارة البريطانية اعتقاله . وقد زاد خبر اعتقال الريزلي من غضب الجماهير التي عمد أعضاء حزب الحرس إلى استغلالها لتنظيم مظاهرة احتجاج ضد السلطة . وإزاء ذلك قامت السلطة بتكليف جنودها بحراسة الدوائر الرسمية فضلاً عن حراسة دور القادة وكبار الموظفين ، كما أرسلت أربع سيارات مصفحة لإرهاب الجماهير ووقفت إحداها أمام جامع الحيدرخانة . ونتيجة مجابهة الجمهور لهذه المصفحة وإلقاء الحجارة عليها تسبب ذلك على ما بدا في إرباك السائق الأمر الذي جعله يحرك المصفحة بشكل مفاجئ نتج عنه دهس رجل أخرس كان يحاول الهجوم عليها بطرقته . وقد حمل هذا الرجل الذي دهست ساقه المصفحة وأدخل المستشفى إلا أنه مات قبل منتصف تلك الليلة . وقد تقرر القيام بتشييع هذا الرجل الذي أطلق عليه لقب «شهيد الوطن» واستغلال هذه المناسبة بهدف تحدي السلطة . ومما تجدر ملاحظته بهذا الصدد هو عدم تدخل السلطة في سير الجنازة وما واكبها في مظاهر التحدي ، بل أنها قامت بتكليف كوكبة من فرسانها لتسير أمام موكب التشييع بينما راحت طائرات ثلاث تحلق فوق المسيرة . وكان الهدف من ممارسة السلطة هذه هو إرهاب الجماهير باستعراض للعضلات وتحذيرهم من مغبة القيام بأعمال الشغب . إن هذا التشييع الذي يمكن اعتباره تعبيراً عن وحدة الصف بين أبناء السنة والشيعة شارك فيه جمع غفير قدر حجمه بما يقرب من ثلاثة آلاف شخص وقد تقدم مسيرة الجنازة موكب أشبه بالمواكب الحسينية . وبعد أن توجه الموكب إلى جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني سار بعد ذلك من أمام القنصلية الأمريكية وبعد عبور النهر اتجه إلى مقبرة الشيخ جنيد حيث دفن الجثمان فيها - المترجم

(٧) إنه رئيس البلدية السيد عبد المجيد الشاوي - المترجم

اخبار إذ تبقى عملية توكيد المعلومات ممارسة مجدية لا ضير فيها . وقد قام فرانك باستدعاء أناس معينين من بين المسؤولين عن هذه الحوادث وعقد معهم لقاءً أخبرهم من خلاله بأن السلطة تصر على ضرورة فرض النظام في المدينة لكي يستتب الأمن فيها ، كما أخبرهم بأن لهم مطلق الحرية في القيام بعقد الاجتماعات الدينية ولكنه نبه في الحين ذاته بأن السياسة لا مكان لها في مثل هذه الاجتماعات . ونتيجة لهذا اللقاء قام قاضٍ بارز مساء ذلك اليوم بتحذير المجتمعين من مغبة التطرق إلى الشؤون السياسية وبذلك سارت الأمور سيراً حسناً . إلا أن الفوضى التي أثارتها بغداد قد أخذت تحرك كربلاء وتثير المشاعر فيها ، وقد وردتنا أخبار مساء يوم أمس مفادها أن عدوى الإثارة قد وصلت إلى البصرة . وتدور هنا إشاعات لا أساس لها من الصحة تتحدث عن قيام قوات عربية بقيادة عبد الله (الشريف عبد الله بن الحسين على ما أفترض - المترجم) بمهاجمة طريقي الفرات والموصل (علماً بأن الشريف عبد الله كان موجوداً في مكة في هذه الفترة) وقد تعززت هذه الإشاعات بفعل قيام عدد من عشائر الفرات بمهاجمة أهداف في مناطق نهر دجلة وتخريب الخط(خط السكة الحديدية) جنوب قلعة الشرقاط .

في الحين ذاته قام المنظمون لهذه النشاطات هنا - والذين لا يزيد عدد الشخصيات البارزة من بينهم عن أربع - بتوجيه رسالة إلى العقيد ولسون يطلبون فيها لقاءه بهدف بيان وجهة نظرهم . وقد قام بدوره بالإجابة على طلبهم بطريقة حكيمة وأعلمهم أنه في الوقت الذي يرحب بزيارتهم فإنه لا يعتقد بأن عدد الموقعين على الرسالة آنفة الذكر يشكل ما يمكن اعتباره نسبة كافية من الرأي العام وعليه فإنه سيعمد إلى دعوة شخصيات أخرى من ذوي الصدارة في المجتمع . ولعل ما سيدور في هذا اللقاء من نقاش سيكون قيماً ومجدياً علماً بأنني لا أعتقد بأن نسبة عالية من بين الحضور تؤيد فكرة إقامة نظام حكم عربي لا يتمتع بحماية بريطانية . إن العديد منهم على بينة تامة من الخطوط العريضة للدستور المقترح ، وإن هذا الدستور يحظى بموافقتهم . وإن من شأن قيام ولسون بإطلاع بقية الوجهاء والأعيان على الخطوط العريضة آنفة الذكر أن يعزز من موقفه ، وبذلك أتمنى لو أنه يعمد إلى القيام بذلك .

فتوح لا يزال في ضيافتي وهو ناقل أخبار مفيد ، وهو يرى أن البغدادين أشد أذىً وخبثاً من ريشان (أحد كلبي جيرتروود) الذي قام مؤخراً بالتهام العديد من دجاجاتي .»(كذا !)

وفي السابع من حزيران كتبت قائلة :«لقد شهد هذا الأسبوع هو الآخر أحداثاً صغيرة كان على رأسها لقاء العقيد ولسون بالمهيجين والمحرضين على الشغب وكانت النتيجة

جيدة ، فقد كان من شأن الكلمة التي ألقاها في الاجتماع أن تحبط تدابيرهم وتزعزع ثقتهم بمناعة موقفهم الأمر الذي جعل حديث الأسواق يدور حول الموقف المحرج الذي وضعت (بغداد) نفسها فيه . وعلى ذمة ما نقله لي فتوح الذي يرتاد المقاهي يومياً ، فإن هذا الشعور بالإحراج يتنامى بشكل متواصل .(٨)

---

(٨) لابد من وقفة هنا لمراجعة ما ورد في رسائل الآنسة بيل (بدء برسالتها المؤرخة في ١٩٢٠/٦/١ حول هذه الأحداث والتعليق عليها إذ أن من شأنها (إذا ما تم قراءتها بمعزل عن مصادر أخرى) أن تؤدي إلى احتمال تشويش القراء الكرام فيما يتعلق بسياق الأحداث وتفاصيلها . في أعقاب توقيف السيد عيسى الريزلي من قبل السلطات البريطانية تم في جامع الحيدر خانة اختيار خمسة عشر مندوباً للسعي لإطلاق سراحه ، وفي ١٩٢٠/٦/٢ اجتمع المندوبون بالعقيد ولسون الذي كان دعا بدوره عشرين من وجهاء بغداد الذين اعتقد بأنهم يؤيدون موقفه ووجهة نظره لحضور الاجتماع آنف الذكر . وقد علم المندوبون بخبر هؤلاء الوجهاء فدعوهم إلى اجتماع تمهيدي أريد منه الخروج بجبهة موحدة للحوار مع السلطةالمستعمرة وقد تم الاتفاق على توحيد المطاليب التي كان أولها يتعلق بالإسراع في تشكيل مؤتمر عراقي ينصرف إلى تحديد مصير العراق ، وإقرار صيغة إدارته . إن المندوبين قد نسوا قضية الريزلي على ما يبدوا واعتبروا أنفسهم ممثلين لجماهير الشعب العراقي في مجال المطالبة بحقوقه التي يحاول الإنجليز تجاهلها . وقد بدأ اللقاء بكلمة ألقاها ولسون وأكد فيها على رغبة بريطانية في تأسيس حكومة وطنية مبدياً أسفه في الحين ذاته إزاء ما واكب هذه الرغبة من تأخير لأسباب خارج إرادتها . وقد حذر في محضر كلمته من التوجه إلى أساليب العنف في محاولة لتأسيس نظام حكم وطني والإسراع في ذلك إذ أن الأمر يتطلب السير المتأني تحقيقاً لمثل هذا الهدف ذلك لأن العراق والعراقيون لم يكونوا مؤهلين بعد للاضطلاع بمثل هذه المسؤولية لاسيما في أعقاب قرون طويلة من الرضوخ لحكم الأجنبي . وقد بين بوضوح قدرة السلطات على مجابهة أعمال العنف والشغب بما ينبغي من رد فعل فاعل ، واختتم كلمته بالتأكيد على اهتمام بريطانيا بمصير العراق واعداً في الحين ذاته بأنه سيرفع وجهة نظرهم إلى السلطات العليا في بريطانيا .

وإزاء ذلك قام السيد محمد الصدر بدوره بالتأكيد على أن الحركة التي يتزعمونها سلمية لا يقصد منها إثارة المشاكل وأن ما تطلبه هو تشكيل حكم وطني وفق تصريح الحلفاء وتنفيذاً لمقرارات مؤتمر سان ريمو وهو ما يتفق مع ما ورد في الكلمة التي ألقاها ولسون في هذا الاجتماع . وقد أفاد ولسون بأن مؤتمر سان ريمو كان قد أقر استقلال كل من سوريا والعراق على أن تكون الأولى تحت وصاية فرنسا والثانية تحت رعاية بريطانيا .

ولعل ما يجدر ذكره بهذا الصدد هو عدم تأثر المجتمع البغدادي بما دار من نقاش من هذا الاجتماع بل إن المجتمع المذكور عمد في الواقع إلى لوم من تحدث في اللقاء من العراقيين(أي محمد الصدر ويوسف السويدي)

وفي اليوم التالي استقل العقيد ولسون طائرة أقلته إلى الحلة والنجف ، وقد اكتشف عدم وجود أي ميل باتجاه الإسهام في الاضطرابات القائمة في بغداد وتأييدها ، ولقد رفضت النجف في واقع الحال إرسال وفد عنها للمشاركة في التظاهرات التي تطالب بتحقيق الاستقلال ، كما أن معارضينا يشهدون في الوقت الحاضر انقساماً في صفوفهم تعبر عنه النزاعات القائمة بينهم(٩) .

يحاول الخرف ، الأحمق يوسف السويدي(كذا) تأسيس قوة درك وطنية يتقاضى الفرد من منتسبيها راتباً شهرياً قدره ستة جنيهات . لقد نجح في تجنيد قوة بلغ قوامها عشرون رجلاً الأمر الذي شكل مصدر تسلية ولهو للمجتمع البغدادي الذي يرحب بالدعابة على حساب ذاته بكل أريحية وطيب نفس .

قبل ثلاثة أيام قامت قبيلة شمر بتأثير دعايات شريفية ، وبقيادة ضباط خدموا في الجيوش الشريفية ، بمهاجمة تلعفر الواقعة على بعد أربعين ميلاً غرب مدينة الموصل . ولم يكن لدينا قوات مرابطة هناك ، كما أن مساعد الضابط السياسي كان خارج المدينة في جولة تفتيشية . وقد أعلن المهاجمون أن الشريف عبد الله ، الأخ الأكبر للشريف فيصل ، موجود

لاستناد حججهما على أحكام مقررات سان ريمو التي أقرت نظام الانتداب والوصاية . وهذا هو الموقف الذي اعتبرته الآنسة بيل «محرجاً» ، بيد أنها أخفقت في قراءة واقع الحال إذ أنه على الرغم من الاختلاف إزاء صيغة الطرح لم يكن هناك أي خلاف حول الأهداف التي توخى الجمهور تحقيقها اللهم إلا باستثناء آراء بعض الوجهاء ، ممن كان اختارهم ولسون والذين وجدوا أنفسهم مضطرين إلى المجاملة خوفاً مما كان سيترتب على معارضتهم من نتائج - المترجم

(٩) عجيب أمر هذه الصورة التي تحاول جيرترورود عكسها . ترى هل كان البريطانيون يعيشون في إطار تقوقع ذهني بعيد عن واقع الحال ، أم أنهم كانوا يحاولون خداع أنفسهم؟ يذكر ولسون في كتابه عما توصل إليه من قناعة نتيجة زيارته إلى عدد من مراكز الإدارة في العراق فيقول إن ما سمعه من آراء إنما جاءت بالإجماع مخالفة لفكرة التعجيل في تأسيس نظام دستوري . وقد تعززت هذه القناعة بفعل التقارير التي كان الضباط السياسيون يرسلونها من مقررات إدارتهم والتي كانت تعكس صورة مماثلة . ترى هل أخفق البريطانيون في فهم واقع مفاده أن ما كان يتم التعبير عنه أمامهم لم يكن اكثر من آراء اصطنعت لإرضاء فقط دون أن تعكس حقيقة شعور القائلين بها؟ ألم يكن هذا ديدن أهل المنطقة طوال فترات العهد العثماني ، أي الخروج بالفاظ كان تكرارها قد بات شيئاً طبيعياً بالنسبة لهم؟ كيف تخفق جيرترورود في فهم هذا الواقع وهي الضليعة في أمور العشائر وأحوالهم؟-المترجم

في دير الزور (كان في مكة في الواقع) وأنه بصدد الزحف على بلاد وادي النهرين لتولي مهام الأمور فيها ، وبذلك راحوا يحثون أبناء تلعفر على الإعلان عن تأييدهم لقيام حكومة عربية ، وعلى قتل كل من يجدونه في طريقهم من الإنجليز . وهكذا تم قتل الضابط المسؤول من قوات الدرك المحلية وهو النقيب ستيوارت Captian B.Stuart الذي كان في الواقع شخصاً رائعاً نال وسام الخدمة المتميزة Distinctive Service Order تثميناً لخدمته في الحرب ، كما تم قتل موظفين بريطانيين(كان كل منهما يعمل كاتباً) بالأضافة إلى قتل أعداد سيارتين مصفحتين . أما مساعد الضابط السياسي ، النقيب بارلو Captian Barlow ، فقد تم إلقاء القبض عليه من قبل سكان القرية الذين أرسلوه مخفوراً إلى تلعفر بعد يومين حيث قتل غدراً على عتبة داره . لا يمكنني التعليق على تفاصيل هذه الرواية .(١٠)

بعيد ذلك انطلقت حملة تأديبية لمعالجة الموقف ووضع الأمور في نصابها الصحيح . ليس باستطاعتنا إلقاء القبض على الشمريين (المسؤولين عن الأحداث) إذ أنهم في هذا الوقت يكونون قد وصلوا إلى نصيبين ، بيد أن سكان تلعفر سيجبرون على ترك منازلهم والتوجه إلى القرى المجاورة بعد أن تقرر هدم كل منزل من هذه المنازل .

لقد ذهب السير أيلمار إلى طهران بصحبة رئيس الأركان الجنرال ستيوارت ومدير التموين والنقل الجنرال هامبرو ، وسوف يتوجهون بعد ذلك إلى مصيف كرند ولن يعودوا إلى العراق إلا في شهر تشرين الأول . إننا لم نعتد على وجود سلطة عسكرية لا تسهم بحماس

---

(١٠) بديهي أن التفاصيل مشوشة فيما يتعلق بهذه الحادثة ، ولعل جيرتروود قد أصابت كبد الحقيقة عندما بينت عدم قدرتها على التعليق حول ما حدث . بإمكان القارئ الكريم الرجوع الى المصادر للتعرف على سياق الأحداث (أقترح رجوع القارئ إلى كتاب قحطان أحمد عبوش التلعفري :« ثورة تلعفر» بغداد ١٩٦٩ .) وملخص ما حدث هو أن النقيب بارلو كان قد أعلم بأخبار اجتماع عشائري تم في موضع خنيزيرة الواقع شرق جبل سنجار حيث تقرر إرسال وفد إلى تلعفر للتأكد من استعداد رؤسائها للتعاون ، كما علم بوصول ممثلين عن المجتمعين إلى تلعفر . وعندما أدرك الأخيرون بعلم النقيب بارلو بأمرهم هربوا إلى قرية قبك الواقعة على بعد عشرة كيلومترات شمال تلعفر ، وقد لحق بهم بارلو في محاولة منه لتقصي جلية الأمر . وعندما أدرك أن المتآمرين يضمرون الشر هرب محاولاً العودة إلى تلعفر التي كانت في تلك اللحظة تخضع لهجوم عشائري استهدف احتلال القلعة حيث مقر قوة الدرك التي كانت بإمرة النقيب ستوارت سالف الذكر . وقد نتج عن الهجوم ضحايا من الجانبين كان ستيوارت من بينهم . وإثر هذه الأحداث شوهد بارلو متجهاً إلى تلعفر فأردي قتيلاً - المترجم

في لعب دور فاعل فيما يدور من أحداث ، وعليه فإننا نشعر بمرارة إزاء تخلي القيادة عنا . ويبذل الجنرال فريزر General Fraser قصارى جهده من مقره في الموصل من أجل معالجة الموقف وقد وجد نفسه مضطراً إلى الانصراف إلى اتخاذ ما يجده مناسباً من المبادرات دون الرجوع إلى الجهة التي تقوم اعتيادياً بإصدار الأوامر والتي لا وجود لها في هذه اللحظة بالأساس . ولقد تناولت طعام الغداء مع السير أيلمار ظهر اليوم الذي سبق توجهه الى طهران ، وتجاذبنا أطراف الحديث وتذكرنا عدداً من المعارف والزملاء المشتركين بيننا ، وقبيل انصرافي إلى بيتي قلت معلقة :« عند سماعك في طهران أن العشائر قد تمكنت من احتلال بغداد ستعمد على ما أفترض إلى مواصلة سفرك إلى كرمنشاه؟» أجابني قائلاً :«لن أكون مسؤولاً أبداً عما قد يحدث أثناء غيابي!» رباه ! كم نتمنى عودة السير وليام مارشال .»

وفي الرابع عشر من حزيران كتبت تقول :«لقد عمد الوطنيون إلى إقامة عهد من الإرهاب ، وكاد يكون عملنا معدوماً على مدى الأسبوعين المنصرمين . لقد راح هؤلاء يرسلون أعداداً كبيرة من الرسائل إلى العشائر بهدف دفعها إلى الخروج على طاعة الملحدين ، إلا أن العشائر لم تستجب لهذه المبادرات اللهم إلا بالعبارات الرنانة ، الفارغة من كل مضمون . لن تنفجر أية ثورات على ما أعتقد سواء كان ذلك هنا (أي في بغداد) أو في المناطق الريفية على الرغم من دقة الوضع وخطورته بشكل عام ، وإن اندلاع أعمال العنف هو آخر ما نريد . وقد اعتاد شخص ما أو آخر من بين هؤلاء الوطنيين على زيارتي في المنزل في معظم الأمسيات ، وفي المكتب بعد السابعة والنصف صباحاً . إن هذه الزيارات لا تتم من قبل العناصر الوطنية المتطرفة بل من بين المعتدلين منهم ومن بين مؤازرينا ومؤيدينا الذين ينشدون الراحة والاستقرار وتفادي المشاكل . وما هي إلا فترة زمنية قصيرة حتى يقوم المتطرفون بدورهم بهذه الزيارات أيضاً . لقد تمكن النقيب من الصمود ما استطاع إلا أنه اضطر أخيراً إلى مسايرة التيار الأمر الذي أجبره على السماح لهم (العناصر الوطنية) بإقامة اجتماع في مسجده . ولكنه لم يحضر الاجتماع الذي تم عقده والذي طرحت فيه مختلف الأفكار والصيغ الثورية الغريبة وتحدث الجميع حتى بحت أصواتهم باسم الاستقلال .

لقد صمد رئيس البلدية السيد عبد المجيد الشاوي صمود الصخرة الصماء ، ونتيجة تضافر جهودنا معاً تم لنا نحن الاثنين الخروج بخطة استهدفت منح المهيجين فرصة لإرسال استدعاء (يحتوي على مطالبهم) إلى لندن وقد حظي الأمر بموافقة ولسون ، كما أنه أصبح حديث المجالس على ما طرق سمعي من أخبار . وإن ما من شأنه تسهيل مهمتهم على ما أعتقد هو انصرافهم إلى المطالبة بمجيء عبد الله ، الأخ الأكبر لفيصل ، ليتولى إمارة البلاد .

إن عبد الله «جنتلمان» من الطراز الذي يهوى مطالعة جريدة «الفيغارو Figaro أثناء تناول وجبة الفطور . ولا يساورني شك أبداً بخصوص انسجامنا معه . وصار بعد ذلك يعمد إلى استدعاء العراقيين من سوريا للعمل معه بهدف مؤازرته وإقامة حكومة وطنية بأقرب وقت ممكن . إن البعض من هؤلاء العراقيين أناس ذوو خبرة وقابليات مشهودة ، وإذا ما تم لنا التعامل معهم معاملة الند للند لا أرى صعوبة في أمر انصرافهم إلى العمل بحكمة .

وفي أثناء ذلك ، تعترض طريقي مشاكل كبيرة . فقد نشبت بيني وبين العقيد ولسون مشاجرة عنيفة بعد أن كانت العلاقة بيننا يسودها جو من الوئام والانسجام ، ولقد جاء ذلك إثر قيامي بإعطاء أحد أصدقائنا العرب معلومة معينة ما كان يفترض بي في الواقع إعطاؤها برغم عدم أهميتها (وهو جانب يتفق فرانك بلفور مع ولسون حوله) ، ولم يخطر ببالي أبداً إنني قد ارتكبت خطأً حتى الوقت الذي قمت فيه بشكل عرضي بإخبار ولسون بأمره . ونتيجة ذلك أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً جعله يصب جام غضبه علي ويخبرني بأن هفواتي وعدم تحفظي قد بلغا حداً لا يطاق ولا يمكن السكوت عنه وعليه لا ينبغي قيامي مستقبلاً بالاطلاع على وثيقة أخرى من وثائق المكتب . وعلى الرغم من اعتذاري عن هذه الهفوة فإنه واصل تعنيفه لي قائلاً :«إنك قد تسببت بما لم يتسببه أحد من قبلك من أذى ولو لم أكن على وشك الرحيل من هنا لطالبت بأمر فصلك من العمل - أنت وأميرك . . .» وفي هذه اللحظة غص من شدة الغضب . وهنا بادرته القول وأنا أحاول كظم غضبي : «حسناً ! لقد تسببت بما لم يتسببه أحد قبلي من أذى ! والآن عليك أن تسمع ما جئت لإعلامك بصدده» . ثم قمت بإخباره بما كان لدي من معلومات ، وخرجت من مكتبه .

لم أره بعد ذلك ليومين متتالين وذلك لسببين أولهما غيابه عن المكتب يوماً واحداً وثانيهما عطلة يوم الأحد الأسبوعية . وقد وجدت اليوم بعض الأوراق والوثائق فوق منضدتي كالمعتاد ، وفي أثناء الغداء كان ولسون في غاية الكياسة والأدب الأمر الذي دفعني إلى أن أفوقه بدوري كياسة وأدباً . أما ما يبطنه من شعور إزائي فجانب لا فكرة لي عنه بالمرة ، كما لا أجد لدي الرغبة حتى في محاولة إدراكه أو السؤال عنه ، بيد أن الأمر برمته يكاد يكون محيراً ، أليس كذلك؟ تصور ما قاله لي :«أنت وأميرك»وهو بمثابة اتهامي بأنني غدارة ، دساسة بالفطرة ، وبأنني أهوى تدبير المكائد .

إنني أدرك جيداً ما الدافع وراء هذه الثورة العارمة والغضب الشديد :كنت على حق وكان على خطأ . ولا أجد داعياً للقول بأنني لم أجد ضرورة للبوح بهذه الحقيقة وذلك لأنها مدونة على الورق . فلو أردت مطالعة تفاصيل تقريري حول سوريا لوجدت فيه مسودة دستور

لبلاد وادي الرافدين بقلم ياسين الهاشمي ، وهو وثيقة وجدت أن محتواها معقول جداً وقد اعترفت لياسين بذلك . وقد قام ولسون بدوره بإرسال المسودة [١١] طي مذكرة بين من خلالها أن شيئاً من هذا القبيل إنما يتعارض تماماً مع ما ينبغي للبريطانيين ممارسته من سيطرة على العراق ، كما أنه أخبرني شخصياً بأنه غير مستعد أبداً لقبول مثل هذا الحل . وإذا ما نظرت إلى ما طرحه السير إدغار من مقترحات دستورية لوجدتها أكثر تحرراً وأكبر تسامحاً مما احتوته مسودة ياسين من نصوص . والجدير بالذكر أن ولسون ذكر من خلال كلمته التي وجهها إلى المندوبين [١٢] أن بإمكان العراقيين أن يحظوا بحكم الأمير الذين يريدون . إننا بطبيعة الحال عاجزون عن الوقوف بوجه هذه الرغبة ، كما لا أرى أن لنا مصلحة في القيام بذلك . ولكن لا بد لي من القول إننا لو قدر لنا اعتماد هذا النهج قبل ثمانية أشهر لما وجدنا أنفسنا نواجه الوضع الذي نحن فيه حالياً ، وهو جانب يدركه ولسون أيضاً على ما أتوقع . إنني أرى ضرورة رحيله عن هذه الأرض الأن بسبب عدم قدرته على التعاطف حقاً مع السياسة التي تم التخطيط لها (من قبل حكومة صاحب الجلالة) في عام ١٩١٨ . لقد تم له في الواقع التغاضي عن هذه السياسة ومحاولة إهمالها كلياً . فضلاً عن ذلك فإن الشعب (العراقيين) على بينة تامة من موقفه من هذه السياسة وبذلك فإنهم لا يثقون به .

أما في الوقت الحاضر فأنا الشخص الذي يحتمل رحيله عن مسرح الأحداث على ما يبدو . ولكنني لن أرحل قبل أن يتم إصدار أمر رسمي يقضي برحيلي وليس قبل ذلك . وبهذا الصدد أشكر العناية الإلهية على قرب مجيء السير برسي كوكس الذي من المتوقع وصوله في غضون الأسبوع المقبل وذلك في طريق رحلته إلى إنجلترا الأمر الذي سيمكنني من التداول معه حول الأمر إذا ما وجدت ذلك ضرورياً .

أتعلم يا أبتاه أن ولسون يتمتع بمزايا رائعة إلى جانب سلبياته المريعة . وفي كل الأحوال ليس من السهل على المرء أن يسمع من رئيسه المباشر قولاً مفاده أنه (أي الرئيس ذاته) لن يتوانى عن فصله عن العمل إذا ما كان بمقدوره تحقيق ذلك ، حتى في حال أن لا يكون القول هذا تعبيراً عن رغبة حقيقية . إنني لا أظنه قد جاء تعبيراً صادقاً عن رغبته في التخلص مني !

---

(١١) قام بإرسالها إلى الجهات المختصة في لندن على ما أفترض - المترجم

(١٢)عجيب أمر الأنسة بيل . ألم تصف هؤلاء الأشخاص في مجال سابق بأنهم مهيجون ومحرضون على الشغب؟ - المترجم

لقد وصل الرائد كلايتون لتولي مهام وظيفته هنا ، وجاء إلى منزلي لزيارتي حيث تحدثنا على مدى ثلاث ساعات . وقد اتضح لي من سياق الكلام أننا (أي الإدارة البريطانية في العراق) كنا نحاول السير عكس التيار على مدى الأشهر السابقة ، وبذلك فإن كلايتون يتفق معي حول ما لدي من رأي سديد يتعلق بالشعور القومي العربي . آمل أن يكتب له النجاح في مضمار تغيير توجه الإدارة هنا . أما مدى انسجامه مع ولسون وقدرته على العمل معه فجانب ستتضح معالمه مع مرور الوقت .

انطلق فتوح في الأسبوع الماضي في رحلة عودته إلى حلب عن طريق الموصل في نفس الوقت الذي قامت به قوات من قبيلة شمر بمهاجمة خط السير في ثلاثة مواضع . وعلى الرغم من تكبيدهم خسائر فادحة ، فقد تم قطع طريق الموصل مؤقتاً الأمرالذي أجبر فتوح على العودة إلى بغداد وها هو يتمتع بضيافتي مرة أخرى إلى الوقت الذي يصبح فيه أمر السفر ممكناً .

إن السيد محمد الصدر ، نجل مجتهد الكاظمية الكبير ، هو أحد الاشخاص البارزين في الاضطرابات التي يشهدها القطر حالياً . وأجدني على ثقة من أنه إنسان ذكي وحكيم وبذلك لا أظننا سنخفق في التوصل إلى صيغة عملية للتعاون معه إذا ما حاولنا القيام بذلك . سينتهي رمضان في غضون الأسبوع القادم ، وهو ما أشكر الرب عليه إذ ربما سنتمكن بعد ذلك من التوصل إلى حل معين . وثمة حقيقة يتعين علينا إدراكها وهي أن المرء عندما يعاني من الجوع أو العطش من جانب ، أو من الإكثار من الأكل من جانب آخر ، فإنه لا يحسن حسم الأمور وتسويتها عقلانياً .»

وفي العشرين من شهر حزيران كتبت تقول :«اليوم هو الأحد ، وقد انتهى شهر رمضان ليلة الخميس الماضي[١٣] فشكراً لله ، أو للنبي ، على ذلك .كانت المساجد قد شهدت سلسلة من الاجتماعات التي لم تصاحب بأية اضطرابات وهو جانب يعود جزء منه إلى نجاحي في إقناع فرانك بعدم القيام باعتقال أي من المحرضين . إن الشرق الآن يعيش أيام عطلة ليس إلا . قد ينصرف المرء منا إلى فرك عينيه والتأمل بتعجب بشأن ذلك الكابوس التي شهدته الأيام المنصرمة . وقد قام فرانك بجولة من الزيارات استهدفت تقديم التهنئة بهذه المناسبة كما هو متعارف عليه اجتماعياً ، وقد شملت زيارته بيوت قادة الحركة المسعورة التي وجهت ضدنا ، وقد قوبل بكل ترحاب ومودة . وفي العاشرة صباحاً جاء لاصطحابي

---

(١٣) أي في السابع عشر من شهر حزيران - المترجم

إلى دار النقيب . كان الجو حاراً للغاية في تلك الساعة لا سيما بفعل تيارات الريح الملتهبة المحملة بالغبار . وعند وصولنا إلى دار النقيب أدخلنا إلى سرداب(١٤) تميز جوه ببرودة معتدلة . وما هي إلا لحظات حتى سمعنا وقع خطوات النقيب المترنحة وهو يهبط إلى أسفل السلم بردائه الصيفي الأبيض ، وقد بدت آثار الضعف واضحة عليه ولم تكن على ما أظن بفعل الصيام فحسب ، بل كذلك نتيجة استقباله أعداداً لا حصر لها من الزوار الذين يبدؤون اعتيادياً بالتوافد على داره للسلام عليه بعد صلاة الفجر مباشرة . ودار بيننا حديث ودي ولكنه اعتيادي لا يثير الكثير من الاهتمام ، وقد قام فرانك أثناء ذلك بإعلام النقيب باحتمال وصول السير برسي إلى بغداد يوم غد ، وهو خبر كان وقعه علي جيداً أنا الأخرى كذلك .

أما بقدر تعلق الأمر بالعقيد ولسون فلم يجر بيني وبينه أي ذكر للمشهد العاصف الذي دار بيننا بل راح يواصل تحويل المراسلات الاعتيادية إليَّ بغية بيان ما لدي من ملاحظات بشأنها ، كما تواصل التقاؤنا ظهراً على مائدة الغداء وكأن شيئاً لم يكن ، إلا أنني انقطعت كلياً عن الذهاب إلى مكتبه تفادياً لاحتمال تعرّضي لإحدى نوبات غضبه الجنونية ومكتفية باستقباله في مكتبي متى ما وجد لمثل هذه الزيارة موجباً وهو امر يضطر إليه في أغلب الأحيان لكثرة ما يريد الاطلاع عليه والإحاطة بجوانبه من أمور . وقد أفضى إلي فرانك بسر مفاده أنه تعرض شخصياً لنوبة غضب مماثلة من لدن ولسون مساء ذات اليوم نفسه الذي دار فيه المشهد العاصف بيننا ، وكان لغضبه هذه المرة علاقة بشخص آخر . وقد بين فرانك بهذا الصدد أن ويلسون يفقد السيطرة على نفسه في مثل هذه الحالات وبذلك لا يمكنه أن يعتبر مسؤولاً عما يبدر منه من أعمال .

تناولت طعام العشاء مع السير أيلمار مساء الأمس إثر عودته إلى العراق في أعقاب استلامه رسالة شديدة اللهجة وجهها إليه ونستون تشرشل ، ولكنه أعلن عن نيته الرجوع إلى كرند في أقرب وقت ممكن . ياله من رجل يثير الدهشة ! وكان معنا على مائدة العشاء كل من الجنرالين ستيوارت وهامبرو ، وقد وجدت في هذا الاجتماع مناسبة لبيان التفاصيل الحقيقية ، لا تلك الرسمية ، حول الأحداث الدائرة .

وجاء السير برسي بعد العشاء ، وقد عمدت إلى بيان وجهة النظر الصحيحة فيما يتعلق

(١٤) الطابق التحتاني (أو التسوية) الواقع تحت أرض الدار تماماً والذي تمتاز به العمارة البغدادية القديمة وحيث يلجأ أصحاب الدار هرباً من الحر - المترجم

بالتفاصيل الخاصة بالوضع العربي(١٥) والتوجه الرديء الذي تم اعتماده في مضمار التعامل مع الأحداث على مدى فترة الثمانية أشهر المنصرمة . وكان السير برسي متفهماً تماماً لكل ما أفدته به من أخبار وآراء . وكان من شأن وجوده بيننا أن يولد لدي شعوراً بأننا قد تمكنا أخيراً من التشبث بصخرة أمان صامدة وسط الأعاصير والاضطرابات العاصفة التي شهدناها على مدى فترة الأسبوعين المنصرمين . بيد أنني أحجمت عن إخباره عن تفاصيل المشهد الذي دار بيني وبين ولسون انطلاقاً من إيماني بأن ما تم لم يكن أكثر من حالة جنون محض ليس إلا .

إن النقيب كلايتون مصدر عون لا مثيل له ، فهو يحاول دفع ولسون إلى إدراك واقع الأمور كما ينبغي وذلك فيما يتعلق بفيصل والسوريين بوجه عام . كما أجد في كل من فرانك بلفور والسيدة اوريلياتود ملاذاً ألجأ إليه كلما تلبدت الأجواء بالغيوم» .(١٦)

---

(١٥) المقصود هنا هو الوضع المحلي فيما يتعلق بالعراق (بدايات ثورة العشرين) - المترجم

(١٦) من الملفت للنظر أن جيرترورود تلتزم الصمت تماماً إزاء تفاصيل مهمة من سياق الأحداث التي كانت تشهدها منطقة الفرات الأوسط في هذه الفترة . إنها لا تذكر حقيقة مفادها أنه في الوقت الذي كانت فيه بغداد تعج بالأحداث في أيام شهر رمضان ، كان المرزا محمد رضا - ابن آية الله الشيخ محمد الشيرازي الذي كانت المرجعية الشيعية قد استقرت في شخصه بعد وفاة سلفه السيد كاظم اليزدي - يقوم بنشاط واسع في مضمار تأييد تلك الأحداث وبث الدعاية لها في أوساط العشائر . وقد اتضح للعقيد ولسون أن المرزا محمد رضا آنف الذكر كان مصدراً أساسياً من مصادر الحركات المناوئة في منطقة الفرات الأوسط الأمر الذي قرر بموجبه القيام باعتقاله مع أعوانه ، وقد تم ذلك في كربلاء في الحادي والعشرين من شهر حزيران . ويعتبر نفي ابن الشيرازي وأعوانه من بين أهم العوامل المباشرة التي أدت إلى اندلاع الثورة في الفرات الأوسط ، كما أنها لا تذكر شيئاً عن الاجتماع العشائري الذي عقد في مضيف عبد الكاظم الحاج سكر في المشخاب ، وهو لقاء عبر المؤتمرون من خلاله عن شعورهم إزاء ما جرى لابن الشيرازي من اعتقال ونفي - المترجم .

الفصل الثالث عشر

١٩٢٠

في السابع والعشرين من شهر حزيران كتبت تقول :«أبتي الحبيب ، استلمت رسالتك التي بعثتها من مصر ، الأمر الذي يوحي بالتأكيد بأنك لست على عجل من الوصول إلى الوطن .

إنني لم أتوصل بعد إلى قرار حول ما أود القيام به من نشاط ، أما فرانك فإنه من المزمع أن يتوجه قريباً إلى الوطن خلال شهر تموز ليعقد قرانه على صاحبة العصمة فيلس غوسكن Phyllis Goschen وليعود بعد ذلك بصحبة السير برسي كوكس والعمل بإمرته ليصبح الشخص الثاني بعده (في التسلسل الهرمي للإدارة البريطانية في العراق) . إنها خطة جيدة على ما أعتقد برغم ما سيترتب عليها من نقص في الكادر العامل ، وسيتولى الرائد بولارد مهام فرانك أثناء غيابه .

امتطيت صهوة جوادي صباح اليوم (الأحد) وذهبت لزيارة الحاج ناجي الذي وجدته في وضع نفسي رائع . كان يتعين علي زيارته قبل هذا الوقت ، فقد عاش فترة عصيبة أثناء شهر رمضان بسبب ما مارسه المتطرفون عليه من ضغوط إلى جانب التهديد وتوجيه الشتائم له بهدف دفعه إلى المشاركة في الاضطرابات التي قامت ، إلا أنه وقف بعند وصمود في وجه كل هذه الممارسات رافضاً أن تكون له يد في الأحداث الدائرة . وقد أخبرني بهذا الصدد قائلاً :« لا يغمض لي جفن في الليالي ، وقد قمت بتعيين حارساً يقوم برعايتي وحراستي بسبب كوني وحيداً وبعيداً عنك إذ أن هؤلاء الكلاب ، وأبناء الكلاب ، لا يتوانون عن القيام بأي عمل عندما تكونين بعيدة عني» . وكنا نجلس في التعريشة الكائنة في حديقة داره ، وكنت أتناول التفاح والبطيخ بينما انهمك هو في الخروج بسيل لا يتوقف من الحديث والأخبار . ولقد قمت بدوري بتهدئته ووعدته بتواصل زياراتي له ، وأن الأمور ستكون على ما يرام بعد - وقد بدأ الناس يعودون إلى جادة الصواب . لقد تم إلقاء القبض على عدد من المشاغبين والمتصيدين في الماء العكر في كل من الحلة وكربلاء ، وهو إجراء جاء بنتائج جيدة على ما أظن .

مما يثير الدهشة أن بالإمكان ترهيب الفرد العربي باستمرار تقريباً(باستثناء كل من السيد عبد المجيد الشاوي والحاج ناجي) من أجل حمله على القيام بأي شيء ، ويمكن القول بهذا الصدد أن القسم الأعظم من الأشخاص الذين حضروا الاجتماعات التي عقدت أثناء شهر رمضان لم تكن لديهم الرغبة أساساً في الحضور ، وأكاد أكون واثقة تماماً من أن نسبة

٩٠٪ من أبناء السنة يكرهون إقامة علاقات اجتماعية وودية مع أبناء الشيعة والعكس بالعكس صحيح أيضاً ، ومع ذلك نجد أنه إذا ما أجهر شخص برأي وأعلنه على الملأ ، لا ينبري أحد لمعارضته حتى في حال عدم اتفاق الأخير هذا مع الرأي سالف الذكر . والمشكلة الآن تكمن في انصرافنا إلى توفير جسر يؤمن للأشخاص العودة إلى جادة الصواب . إننا في الواقع على استعداد لمنحهم ما يطلبون ، وأخالهم على علم تام بهذا الجانب ، ومع ذلك لا يسعني سوى التساؤل أحياناً ما إذا كنا في حقيقة الأمر على استعداد للقيام بما يتعين علينا القيام به لو لم نجابه بهذه الاضطرابات والمواقف المعارضة؟(١)

---

(١) إن الأسباب التي أدت إلى اندلاع ثورة ١٩٢٠ وسياقاتها تجيب بوضوح على هذا التساؤل ، كما أن تلاحم أبناء الطائفتين بعضهم مع البعض الآخر في الشدائد والأزمات لخير مثال على دحض ما ذهبت إليه جيرتروود بهذا الصدد . ولابد من وقفة هنا بهدف التطرق بشكل موجز إلى موضوع هذه الثورة ، إذ أن التعليق على ثورة عام ١٩٢٠ في العراق يستدعي أولاً إلقاء نظرة عابرة على أهم السمات البارزة التي ميزت السياق التاريخي للفترة الواقعة بين الغزو المغولي وتقويض أركان ما كان قد تبقى من الدولة العباسية وذلك في عام ١٢٥٨ من جانب والاحتلال البريطاني للعراق في النصف الثاني من الربع الأول من القرن العشرين من جانب آخر وذلك بغية الإلمام بما يتسم به تاريخ العراق خلال الفترة أنفة الذكر من خصوصية تكاد تكون فريدة من نوعها . فلقد كان من شأن بقاء العراق على مدى حقب طوال خاضعاً للسيطرة الأجنبية وتعاقب الأسياد الذين جاءوا من مختلف الملل والنحل أن يلعب دوراً بارزاً في مضمار تقدير أوضاعه المعاصرة وفهم نفسية سكانه بتعدد أعراقهم وتباين أهوائهم وتضارب ولاءاتهم . وثمة حقيقة تجدر الإشارة إليها لما تثيره من اهتمام لدى الدارسين من مؤرخين وباحثين في علم الاجتماع وهي أنه على الرغم من السيطرة الأجنبية على مدى ٦٦٣ عاماً (أي من الغزو المغولي حتى تاريخ قيام الحكم الوطني في الثالث والعشرين من شهر آب من عام ١٩٢١ عندما تم تتويج الشريف الهاشمي جلالة المغفور له الأمير فيصل بن الحسين ملكاً على العراق) فقد بقيت أجزاء من أرض العراق خاضعة إما لنفوذ أمير عربي أو حاكم محلي لفترات غير قصيرة ولعل السجل التاريخي لمدينتي البصرة ومشارفها ، والموصل والمناطق المتاخمة لها ، يعطي القارئ خير مثالاً على ذلك ، إذ نجد قيام أنظمة حكم لأسر عربية كاد يكون حكمها وراثياً وذا استقلالية تامة . فضلاً عن ذلك كانت مدينة عانة عاصمة لإمارة عربية مستقلة في منطقة أعالي الفرات امتد نفوذها جنوباً ليشمل مدينة هيت وشمالاً حتى دير الزور بل وكاد يصل إلى حلب . ولم تخضع القبائل العربية في مناطق الفرات الأوسط للغزاة والحكام الأجانب إلا خضوعاً اسمياً وجزئياً برغم كل ما بذل من محاولات تمت على تعاقب الحكام والولاة . أما القبائل الرحل ، لاسيما تلك منها التي شهدت البادية الشمالية تواجدها ، فقد عاشت هي الأخرى حالة من الاستقلال شبه ==

إن ما يثير الغضب في نفسي هو ما يغذي به الجمهور البريطاني من هراء وكلام فارغ يتعلق بنا وبأدائنا هنا . فعلى سبيل المثال قرأت في جريدة التايمز تحت باب «رسائل إلى رئيس التحرير» رسالة موجهة من قبل السير جورج بيوكنان Sir G. Buchanan والتي لا يمكنني بصددها سوى القول أنها لم تكن أكثر من محض هراء ليس إلا . وقد قمت بدوري بإعداد مسودة جواب استجابة لتوجيه من قبل العقيد ولسون وسأعمد إلى إرسالها إلى جريدة التايمز من خلال مراسلهم المتواجد هنا . ولابد لمثل هذا الكلام الفارغ أن يقابل برد حاسم وسريع ، وإن تقاعس وزارة الهند عن الرد على مثل هذه التخرصات ، وإخفاقها في

== التام بدليل ما اعتادت أن تمارسه من هيمنة على سلامة طرق المواصلات وما تفرضه من أتاوات على القوافل التي كانت تقطع الصحراء بين بغداد والشام من جانب ، وبين بغداد والبصرة والكوت من جانب آخر . وكان من شأن هذا الواقع تعميق روح الاستقلالية بين أفراد القبائل برغم الهيمنة الأجنبية التي تمركزت في المدن الرئيسية ، ولقد لعبت هذه الروح دوراً بارزاً في قيام ثورة عام ١٩٢٠ .

وإذ ننهمك في مجال قراءة ملاحظات الآنسة بيل التي تنطلق بها من وجهة نظر خاصة مدفوعة بما تمليه عليها المصالح البريطانية من توجهات ، وما تفرضه من واقع ، لابد لنا أن ندرك ما تتميز به هذه الحركة (ثورة عام ١٩٢٠) من أهمية برغم انصراف الإنجليز إلى التقليل من شأنها واعتبارها مجرد تمرد ، وأن نطلع على الأسباب التي أدت إلى اندلاعها ، الخارجية منها والداخلية على حد سواء .

ويمكن القول أن ثورة العشرين ، شأنها بذلك شأن غيرها من الثورات الوطنية والانتفاضات القومية ، قد قامت بفعل أسباب لم يكن لجميعها نفس المفعول في أرجاء الوطن ، فقد كان بعضها أعظم أثراً في المدن والمراكز الرئيسة المرتبطة بالعالم الخارجي ، والتي لها صلات وثيقة ببقية أجزاء الوطن العربي ، من الأماكن النائية حيث تتمركز العشائر . فضلاً عن ذلك فقد اتسمت بعض هذه الأسباب بصبغة محلية ضيقة الأمر الذي جعلها تفتقر إلى الشمول الذي من شأنه أن يجعلها جوانباً ذات طابع عام .

ومما لاشك فيه أن رغبة العراقيين في الاستقلال ، وانتشار الروح القومية (التي بدأت بالظهور في أواخر العهد العثماني وتعزز زخمها نتيجة قيام الثورة العربية الكبرى التي فجرها المغفور له الملك الحسين بن علي ، وتصريحات الحلفاء العديدة ، والمبادئ الأربعة عشر التي أعلنها الرئيس الأمريكي ولسون لاسيما ما تعلق منها بحق تقرير المصير) كان لهما أهمية كبيرة في إيقاظ العراقيين وإثارة شعورهم ودفعهم إلى المطالبة بحقوقهم السياسية . كما كان من شأن الإعلان الإنجليزي الفرنسي (١٩١٨) حول غاية كل من بريطانيا وفرنسا تحرير العرب من الحكم التركي وتأسيس حكومات تستمد سلطاتها من رغبات السكان الوطنيين أنفسهم (وهو الإعلان الذي أريد منه بالأساس تخفيف حدة التوتر الذي ترتب على نشر تفاصيل كل من اتفاقية ==

الرجوع إلينا بهدف تصحيح مثل هذه الطروحات ، تقصير ليس إلا .»

وفي الرابع من تموز كتبت تقول :«على الرغم من انتهاء شهر رمضان تتواصل الاجتماعات التي يتم عقدها في المساجد ، وبدأت العشائر من جانبها تظهر ميلاً إلى الخروج على القانون وعدم الانضباط وهو جانب أعراضي يعكس تحولاً في الوضع القائم . إنك لاشك تذكر شيخ بني تميم ، صديقنا حسن السهيل . لقد قامت جماعة من عشيرته بغزو بعض عشائر الدليم . وقد جاء الشيخ حسن إلى فرانك مطالباً بضرورة قيام السلطات بجعل الجماعة المعتدية عبرة لغيرها وذلك لأن الدليم طالما كانوا موالين ومخلصين ، وبأنه

== سايكس بيكو ووعد بلفور) أن يزيد من اندفاع العراقيين ورغبتهم في المطالبة بالتمتع بحقوقهم السياسية كاملة وغير منقوصة . ومن جانب آخر فإن قيام دولة عربية في الشام كان له أثره الملموس في دفع العراقيين إلى الثورة والمطالبة بقيام دولة في العراق أيضاً . إذ نذكر هذه العوامل ، لا ينبغي لنا أن نغفل ما لعبه ذلك العدد الكبير من الضباط العراقيين الذين خدموا في جيوش الثورة العربية الكبرى وأسهموا مساهمة فاعلة في قيام الدولة العربية في سوريا واحتلال مناصب حساسة في إدارتها ، من دور بارز في دفع العراقيين على الثورة ، وتشكيل حلقات ارتباط بين العراق وسوريا مما أحرج السلطات البريطانية إلى حد كبير ، إلى جانب قيامهم بنشاطات على الأصعدة كافة والتي تتوجت بالمناداة بالشريف عبد الله بن الحسين (المغفور له جلالة الملك عبد الله الأول بن الحسين مؤسس المملكة الأردنية الهاشمية) ملكاً على العراق ، وبتأييد استقلال سوريا والتأكيد على إيجاد علاقات خاصة تربط بين سوريا والعراق .

والى جانب ما أوجزت ذكره أعلاه من أسباب خارجية وعوامل ايديولوجية ، هناك الأسباب الداخلية التي أعتبرها العوامل المباشرة والأكثر أهمية في قيام الثورة والتي يقف على رأسها سوء الإدارة من قبل سلطات الاحتلال البريطانية وإخفاقها في تحقيق ما وعدت من رفاه وازدهار اقتصاديين ، بيد أن أكثرها أهمية كان انصراف إدارة الاحتلال ، متمثلة بما كان يعرف بالمفوض المدني ، أو المندوب المدني Civil Commissioner العقيد أرنولد ولسون (السير أرنولد ولسون فيما بعد) ، إلى فرض نظم وممارسات لم تنسجم مع حالة العراق وأوضاعه الاجتماعية والفكرية السائدة ، وهي تلك التي استهدفت إخضاع العراق للحكم البريطاني المباشر على مدى خمس سنوات على الأقل ، مع جعل الشق الجنوبي منه مرتبطاً بشكل كلي بالإدارة البريطانية في الهند ، غير آبهة أبداً بكل ما من شأنه أن يشير إلى وجود نيه لإقامة حكم ذاتي أو السماح لممارسة حق تقرير المصير . وقد تعزز هذا التوجه بالسماح للبريطانيين العاملين في العراق بجلب زوجاتهم وأبنائهم بغية الاستقرار فيه ، إلى جانب مجيء العديد من الإنجليز الذين كانوا يجهلون أي شيء عن أحوال العراق وخصائصه المميزة والذين كانوا من مريدي المدرسة الإنجليزية الهندية المغالية في الاستعمار والمناوئة لفكرة تولي الأسرة ==

(أي الشيخ حسن) على استعداد لمؤازرة أية قوة من الخيالة تعمد السلطات إلى توجيهها لهذا الغرض . وهكذا تم تنفيذ حملة ليلية استهدفت إلى ملاحقة المذنبين وقد تم لها فعلاً إلقاء القبض على شخصين منهم ، وكان الشيخ حسن على رأس أفضل مجموعة من القوات المداهمة .

كما أن عشيرة صغيرة من العابثين والأشرار في المحمودية ، وهي مكان يقع عند منتصف الطريق الذي يربط بغداد بالحلة ، قامت بسلب عدد كبير من الزوار الإيرانيين ، وهي الآن تقف بتحد أمام العالم كله ، الأمر الذي أجبرنا على إرسال قوة لردع هذه الطغمة وتأديبها . ولكن الوضع الأكثر خطورة هو تمرد عشائر الفرات في المنطقة الواقعة بين السماوة والديوانية ، لا سيما بعد أن تم لها قطع الخط (أي خط السكك الحديدية) في ثلاثة أماكن . وتعتبر عشائر المنطقة المذكورة من أشد العشائر تمرداً وأكثرها خروجاً على القانون في العراق ، وهي ذات العشائر التي كانت السلطات العثمانية عاجزة تماماً عن تأديبها وإخضاعها إلى سلطة الدولة ، كما أخفقت في إجبارها على دفع قرش واحد من المبالغ التي يتوجب تسديدها للدولة . أما نحن فقد تمكنا من الحصول على كل الاستحقاقات منها ، وكنا لا نتوانى عن قصف القرى إثر أية محاولة من قبل شيوخ هذه العشائر تستهدف اللجوء إلى المقاومة . إنهم مجموعة أوغاد ومشاغبين وهو ما أدركه أنا كما يدركه الجميع جيداً . ومع ذلك لدي شك حول ما إذا كنا قد سلكنا الطريق الأمثل في مضمار جعلهم يقدرون المنافع المتأتية من وجود

== الهاشمية مقاليد الأمور في البلدان العربية ، كما تعزز أيضاً بانتهاج العنف والقوة لتنفيذ المآرب . وكانت سياسة العنف هذه تمارس بتعسف من قبل البعض من الحكام السياسيين ومعاونيهم في الأقضية وهو ما شهدته كل من كربلاء والحلة والديوانية بشكل خاص وكذلك مدينة النجف الأشرف قبل ذلك .

وإلى جانب سوء الإدارة كانت هناك أسباب ثانوية أسهمت هي الأخرى في اندلاع الثورة ، وهي البطالة التي ترتبت على قيام السلطات البريطانية بتسريح قسم من قواتها العاملة في العراق ، وبتقليص النفقات الواسعة التي اعتادها العراقيون أثناء سني الحرب ، وعدم دفع الرواتب التقاعدية للضباط العراقيين لاسيما أولئك منهم الذين راحوا يتوافدون على العراق بعد إعلان الهدنة ، وكثرة الموظفين من الهنود في دوائر الدولة ومرافقها ، وفرض ضرائب اعتبرت باهظة في حينها ، وإكراه بعض أصحاب الدور ، لاسيما أرباب البيوت العريقة ، على إخلاء دورهم واستئجارها ببدلات كانت أدنى بكثير من الأجر بالمثل ، وأخيراً وليس أخراً ، زرع بذور الشقاق والتنافس بين رؤساء العشائر وتفضيل بعضهم على حساب البعض الآخر من غير مراعاة القواعد المتعارف عليها فيما يتعلق بالمشيخة بل كان المعيار ولاء الشخص وتقربه من سلطات الاحتلال - المترجم .

إدارة (حكومية) مستقرة وثابتة . ولشهور مضت حاولت شخصياً كما حاول أشخاص عديدون أيضاً ، إعلام العقيد ولسون بأننا نبالغ أحياناً في ممارسة الضغوط على هذه العشائر ، ولطالما توقعت أن في حالة اندلاع أي نوع من أنواع الاضطرابات والتمرد فإن بدايتها تنطلق من منطقة الديوانية . وتتميز مثل هذه الحالات بكونها معدية ، الأمر الذي يعني احتمال تعرضنا لمزيد من المشاكل .

وثمة نقطة مضيئة – استلمنا برقية من الجنرال اللنبي يحثنا من خلالها على السماح لجعفر باشا العسكري بالمجيء بغية شرح الوضع الخاص بحكومة فيصل في سوريا . وإزاء ذلك قام ولسون بإحالة البرقية إلي (للوقوف على رأيي) وقد أخبرته بدوري بأن الأمر يمثل فرصة هبطت علينا من السماء بفضل العناية الإلهية . إن أصداء الأحداث التي تشهدها سوريا تكمن في جذور ما يدور هنا من مشاكل وبذلك لن يهدأ لنا بال ، ولن تسير أمورنا بهدوء كما ينبغي لها أن تسير ، إلا بعد التوصل إلى تفاهم مع فيصل والتعامل معه على أساس الند للند . وإن من شأن وجود جعفر باشا هنا ، وقيامه بالتعاون التام معنا ، وهو ما سيتحقق بالتأكيد مع الرائد كلايتون على أقل تقدير ، أن يؤدي إلى تقويض أركان حملة الدعاية المناهضة للبريطانيين ، وهي حملة طالما وقف فيصل معارضاً لها . ولقد راح جعفر باشا يراسلني طوال فصل الشتاء المنصرم في محاولة منه لإقناعي بجدوى عودته (إلى العراق) إلا أن ولسون شاء إحباط هذه المحاولات والتوجهات وعدم تشجيعها . ثم ما جدوى تشجيع جعفر باشا على العودة ليتم بعد ذلك إهماله وتهميش دوره ، وهو ما كان يحتمل حدوثه بالتأكيد؟

«أقمت في الأسبوع المنصرم دعوة عشاء مختصرة حضرها كل من الرائد هويتلي Major Wheatley ، والرائد موري Major Murry ، والسيد بولارد ، والسيد رؤوف الجادرجي ،[٢]

(٢) هو أخو السياسي العراقي المعروف كامل الجادرجي رئيس الحزب الوطني الديمقراطي في العراق . وقد شغل السيد رؤوف الجادرجي منصب سفير المملكة العراقية لدى بلاط سانت جيمس في الثلاثينيات ، أما عشية دخول الإنجليز إلى بغداد فقد كان رؤوف الجادرجي يشغل منصب رئيس بلدية بغداد وقد اقترن اسمه آنذاك بما واكب فتح جادة خليل باشا أو « الشارع الجديد» والذي سمي فيما بعد شارع الرشيد من استياء عام من قبل أصحاب العقارات التي تم استملاكها لهذا الغرض . ولقد لعب رؤوف الجادرجي دوراً في عملية التعويض إذ أنه اتفق مع المالكين على دفع قيمة إيجار دورهم لسنة واحدة على أن تتم المفاوضة على الشراء بعد الحرب ، وقد دفع لهم القيمة المشار إليها بالعملة الورقية الأمر الذي سبب استياءً كبيراً أدى بالنتيجة إلى سفره إلى خارج العراق خشية انتقام المتضررين وذلك بعد أن أوشكت بغداد على السقوط بيد القوات البريطانية – المترجم

والأخير هو ابن أحد أعيان بغداد وكان قد عاد مؤخراً إلى بغداد بعد أن كنا نرفض السماح له بالعودة لكونه من بين المتحمسين من مؤيدي جمعية الاتحاد والترقي . ياله من سبب واه ! إنه يتكلم الفرنسة والإنجليزية والألمانية بطلاقة ، وله نظرة متشائمة حول كل ما يدور هنا من أحداث . إن كل أقربائه مشتركون في معمعان الاهتياج (الذي يعيشه العراق) . ورؤوف الجادرجي رجل ذكي ، بيد أنني لا أخاله متزناً . إنه يأتي لزيارتي بانتظام وأنا أتحدث معه كما لو كان واحداً منا (أي من البريطانيين .) أتوقع تمكنه مستقبلاً من تبوّؤ منصب مرموق هنا ، وأنا أقوم بدوري بتعريفه على زملائي بشكل هادئ لا يستقطب الاهتمام .»

أما في الحادي عشر من تموز فقد كتبت جيرتروود ما يلي حول ثورة عام ١٩٢٠ :«إن شأن الرميثة خطير ، فهناك بحدود مائتين من رجالنا معظمهم من الهنود العاملين في السكك الحديدية ، وقد أخفقنا حتى الآن في اختراق الحصار المفروض عليهم ، إلا أن تزويدهم بالمؤن والطعام يتم عن طريق إلقائها من الجو فوق المنطقة المحاصرين فيها . إن الأمر كما يبدو لي لم يجر التعامل معه وإدارته بالشكل الصحيح منذ البداية ويعود ذلك جزئياً إلى رحيل مقر القيادة إلى المرتفعات الإيرانية بعد رفض المسؤولين فهم طبيعة الثورة وإدراك مالها من أهمية . ولقد تمكنت العشائر من الاستيلاء على قطار أو أكثر من قطارات الإغاثة التي تم إرسالها بما في ذلك الاستحواذ على كل ما حملته من المدافع الرشاشة من نوع لويس Lewis Guns التي أمنت لرجال العشائر الحصول على سلاح فتاك مكنهم من استهداف طائراتنا عند تحليقها على ارتفاعات منخفضة بهدف تأمين إيصال المواد الغذائية إلى المحاصرين . فضلاً عن ذلك فإننا نعاني من نقص حاد في عدد ما بإمرتنا من قاطرات السكك الحديدية وحافلاتها - التي لم يكن لدينا وفرة منها بالأساس - الأمر الذي يجعل من الصعب جداً تموين طوابير الإغاثة المزمع إرسالها ، أو إرسال التعزيزات . وقد بدأت المشاكل إثر قيام الضابط السياسي المسؤول عن منطقة قناة الدغارة ، الرائد دالي Major Daly[٣] ، بتوقيف اثنين من شخصيات المنطقة البارزين ، ومن ثم إرسالهما

(٣) يكاد يجمع المؤرخون ، وكذلك من عاصر أحداث ثورة عام ١٩٢٠ ودونوا في مذكراتهم كل ما يتعلق بمسبباتها وسياقاتها ، أن المعاملة الشرسة واللاإنسانية التي دأب الكثير من الحكام السياسيين على انتهاجها مع العشائر ورؤوسائها بوجه عام قد شكلت أحد الاسباب الرئيسة لهذه الثورة . وكان الرائد دالي (في الديوانية) والعقيد ليجمن Colonel Leachman (في الرمادي) من بين أكثر الحكام السياسيين البريطانيين فظاظة وقسوة وكانا يتعمدان الإهانة والحط من كرامة الشيوخ والشخصيات البارزة في منطقتي ==

مخفورين جنوباً إلى البصرة . ولكن سرعان ما تم إنقاذهما من قبل رجال العشائر الذين عمدوا في الحين ذاته إلى قطع خط السكة الحديدية . وكان ينبغي للرائد دالي أن يدرك مسبقاً ما إذا كان في واقع الحال في وضع يسمح له اللجوء إلى مثل هذا الإجراء الصارم ، وقد اتضح من سياق الأحداث أنه لم يكن مدركاً ذلك أبداً . إلا أن للأمر برمته جذوراً أعمق . وفي الحين ذاته لم يتم للحركة تحيق انتشار أوسع . وكان الرائد نوربري Major Nurbury يعاني من بعض المشاكل التي تسببها أصدقاؤنا من شيوخ آل فتلة ولكنه تمكن من إدامة السلام في منطقته ، وبذلك فإنه جدير بكل ثناء . لقد تميز عمل الرائد نوربري ، وكذلك عمل النقيب مان Captain Mann ، بكثير من الحكمة والتعقل والبراعة .

تم للعقيد ولسون الحصول على موافقة الحكومة البريطانية على البدء بالتحضيرات الحثيثة التي تهدف إلى الدعوة إلى تشكيل مجلس تأسيسي ، وسيتم دعوة النواب السابقين(٤) كافة إلى حضور الاجتماع في المجلس لمناقشة الأسس التي سيتم في ضوئها تحديد طريقة إجراء الانتخابات . ويمكن القول بوجه عام أن النواب - سواء كانوا حقاً ممثلين (للمواطنين) أم خلاف ذلك (وبطبيعة الحال فإنهم لم يكونوا ممثلين حقيقيين عن المواطنين إذ أن اختيارهم كان قد تم من قبل جمعية الاتحاد والترقي) - كانوا أشخاصاً بارزين من ذوي الكفاية والمقدرة . ولم يكن لنا أي دور في اختيارهم بل كنا مقتنعين بأن اختيارهم كان قد تم أساساً في حدود الأطر الخاصة بالمعايير المعتمدة في العهد البائد وذلك فيما يتعلق بتمثيل العراق الأمر الذي يجعلهم الأشخاص الذين ينبغي دعوتهم لهذا الغرض وذلك حتى الوقت الذي يتم من خلاله انتخاب مجموعة أخرى من النواب من قبل أبناء الشعب . وكان من

== نفوذهما . ولعل مواقف ليجمن من الكثير من الشخصيات ، بمن فيهم الشيخ ضاري المحمود وما ترتب على ذلك من قيام الأخير بقتله ، و الأساليب اللاأخلاقية التي اعتاد الاثنان آنفي الذكر اعتمادها بما في ذلك مواجهة الأعيان المحليين من أبناء منطقته بعبارات مهينة وكلام بذيء إلى جانب فرض الغرامات عليهم لأتفه الأسباب تشكل بمجملها مثالاً حياً على ما كان يلجأ إليه هذان من ضروب الاستهتار وسوء التصرف . وجدير بالذكر أن دالي الذي نقل إلى البحرين بعد انتهاء ثورة عام ١٩٢٠ لم ينبذ ممارساته التعسفية بل واصل انتهاجها وذلك انطلاقاً من نهجه الاستعماري العقيم الذي أبى أن يرى أي حق خارج إطار القوة ، أو إقامة العدل بمنأى عن ممارسة التعسف والعنف والاستبداد - المترجم

(٤) المقصود هنا على ما أفترض هو دعوة كل العراقيين من أعضاء مجلس المبعوثان العثماني - المترجم

بين النواب آنفي الذكر صديقنا الطيب عبد المجيد، وكذلك السيد طالب[٥]. ولعل ما يثير الاهتمام في هذا السياق هو الموقف الذي سيتخذه السيد طالب. وعلى مدى الأسبوعين المنصرمين، راح فرانك يمارس شتى صيغ الضغوط لغرض دفعنا إلى دعوة السيد طالب، ولا يسعني سوى القول أنني أميل كلياً إلى تأييد مسعى فرانك بهذا الصدد. لقد وقف السيد طالب موقفاً ثابتاً من الاضطرابات التي انصرفت الى المطالبة بالاستقلال التام، ورفض الإسهام فيها، وهو ذات الموقف الذي عمد كل وجهاء البصرة وأعيانها إلى اتخاذه والذي جسد مضمون ما توصلوا إليه من قرار شديد اللهجة أعلنوا من خلاله تأييدهم التام للانتداب البريطاني على العراق.

وجدير بالذكر من جانب آخر أن القائدين البارزين في هذه الحركة، أي يوسف السويدي ومحمد الصدر، لم يكونا من النواب السابقين. أما في الوقت الحاضر فإنهما منهمكان في عملية ترشيح أشخاص لوفد (يضمهما معاً أيضاً) من المزمع توجهه إلى لندن. ولقد تم لهما بالفعل ترشيح أربعة أشخاص إلا أن الخلاف سرعان ما دب بينهم جميعاً الأمر الذي أدى إلى استقالة أحدهم. لدي شكوك حول إمكانية توصلهم إلى أي اتفاق. وإذا ما قدر لخطة استدعاء النواب السابقين أن تثمر فإن الإجراء المتعلق بإرسال وفد إلى لندن سيموت موتاً طبيعياً. وإذ أقول ذلك فإنه لا يعني أنني أقف ضد ذهابهم إلى لندن، بل على العكس من ذلك إذ أن من شأن ذهابهم هذا أن يجعلهم بمنأى عن التسبب بأي أذى على مدى فترة الشهرين أو الثلاثة أشهر القادمة.

ويكاد يكون ضرورياً جداً، على ما أرى، قيامنا بتسهيل عودة شخصيات عراقية معينة من دمشق إذا ما أردنا أن نصل إلى تسوية مرضية للأمور، إلا أن حكومة جلالة الملك، على ما أفهم، لا تزال عند موقفها الرافض لفكرة العودة، بيد أن إصرار اللنبي على ضرورة عودة جعفر باشا العسكري قد يدفع الحكومة بالنتيجة إلى تغيير موقفها، كما أنه من المحتمل أن يعمد السير برسي كوكس إلى القيام بإجراء ما بهذا الاتجاه.

إنني في جهل تام عن كل هذه الجوانب، فالعقيد ولسون لا يحيطني علماً بأي شيء مستهدفاً من ذلك تحجيمي على ما أفترض ووضعي في المكان الذي ينبغي أن أكون فيه، بيد أن لا أحد يعلم ما المكان هذا وأين هو! ومع ذلك أرى من الأفضل تفادي مناقشة هذا الجانب وكذلك مناقشة موضوع بلاد ما بين النهرين، وتأجيلهما إلى حين رجوع السير برسي

---

(٥) أي عبد المجيد بك الشاوي والسيد طالب باشا النقيب - المترجم

كوكس .

سأتناول طعام العشاء هذه الليلة على مائدة عائلة كاي Kay حيث سألتقي القائد الأعلى الذي قد عاد قبل يومين . كما أن الجنرال هامبرو قد عاد هوالآخر أيضاً ، وأظنهما سيواصلان البقاء هنا بسبب تواصل وجود جبهة القتال التي تشهدها منطقة الفرات (الأوسط) .»

تشكر جيرتروود في رسالتها الموجهة إلى ذويها في إنجلترا ، والمؤرخة في العشرين من تموز ، أفراد عائلتها على تمنياتهم الرقيقة لها بمناسبة عيد ميلادها ، لتنطلق بعد ذلك قائلة : « يمكن القول بوجه عام أن الوضع الراهن لا يزال كما كان عليه ، إلا أن العشائر تعكس توجهاً يشير إلى رغبتها في التوصل إلى تفاهم . إن المجموعتين الكبيرتين في منطقة الشامية ، أي الخزاعل وبني حسن ، قد أعلنتا عن موقفهما (الموالي لنا) أو تحاولان الادعاء بذلك ، باعتبار أنهما لم تقوما بأي عمل (ضد السلطات البريطانية) . وتعتبر عشيرة الخزاعل من بين العشائر التي تتميز بأهمية كبيرة وهي تقطن قرب أم البعرور حيث مقر عمل النقيب مان الذي لا يوجد بينه وبين هذه العشيرة على ما يبدو أي عداء ، وكانوا قد أكدوا له على رغبتهم في مواصلة تأييدنا ، وكان ذلك قبل بضعة أيام . إلا أنهم بعد التوصل إلى قرار يقضي بضرورة إنضوائهم تحت لواء الحركة الوطنية أعلموه بأنهم على استعداد لتأمين وصوله إلى حيث يريد ، ولكنه أخبرهم بدوره بعدم رغبته في التوجه إلى أي مكان آخر ، وبأنه باق في أم البعرور . أما بنو حسن فهما مجموعتان منفصلتان يقودهما أخوان اثنان . كانت المجموعة الشمالية تحت رئاسة الشيخ عمران الذي لم يتمرد علينا في الواقع بل يميل كثيراً إلى مساعدتنا . أما الأخ الآخر - أي الشيخ علوان رئيس المجموعة التي تقطن قرب مدينة الكوفة - فلطالما كان أقل استقراراً وثباتاً من أخيه . ومن المتوقع أن يكون قد خرج على طاعتنا إلا أنني لا أعتقد أنه قد قام بما يجدر ذكره من نشاط .(٦)

إن الأمور في بغداد في توقف تام ، ولقد استجاب واحد أو اثنان من النواب إلى الدعوة

---

(٦) إنهما علوان الحاج سعدون وأخوه عمران وكانا قد اقتسما الرئاسة العامة لعشيرة بني حسن . كان علوان رئيساً لأفخاذ بني حسن الساكنين قرب الكوفة ، وكان عمران رئيساً للأفخاذ الساكنين قرب طويريج . وقد بقي الأخير هذا بعيداً عن الثورة لقناعته بأن العشائر لا يمكنها مقارعة البريطانيين ؛ وقد ظل مصراً على موقفه حتى معركة الرارنجية (أقوى معارك ثورة العشرين) التي اضطر بعدها إلى النزول عند رغبة جماعته - المترجم

بصدد تشكيل لجنة بينما طرق سمعي خبر استنكاف اثنين من الأعضاء . ويخامرني شعور بأن مجيء السيد طالب من شأنه أن يؤدي إلى تحريك الأمر .

لقد عادت القيادة العامة إلى قواعدها لتستقر فيها ، كما عاد الجنرال همبرو أيضاً الذي كان أكثر أركان القيادة تردداً في العودة . وخلال الأسبوع المنصرم تناولت الشاي مع السير أيلمار والجنرال ستوارت وكان الأول في غاية اللطف والكياسة وقد عكس درجة عالية من حسن الفهم والتقدير . وقد تداولنا حول ما كان يدور من أحداث ، وقمت من جانبي بطرح عدد من المقترحات التي حظيت بموافقته . وفي ضوء ذلك قمت بتوجيه مذكرة إلى العقيد ولسون ، ولكنني أكاد أجزم أنه أودعها سلة المهملات . وكان مقترحي يرمي إلى محاولة فتح باب الحوار مع العشائر عن طريق لجنة ذات وزن تضم عضويتها شخصيات من أبناء العراق عمدت إلى تسمية من وجدته مناسباً منهم مقترحه في الحين ذاته استشارة السيد عبد الرحمن النقيب حول الأمر . إن السيد أيلمار يؤيد الانصراف إلى التوصل إلى حل وسط بيد أن رأيه ليس له أية أهمية بسبب جهله بأمور البلاد ، بل وحتى بجوانبها الجغرافية .

الطقس معتدل لحسن الحظ ، فدرجة الحرارة لا تزيد على ١٠٦ فهرنهايت وهو جانب إيجابي ومشجع وبذلك لا أجد لدي أي سبب يدفعني إلى الانطلاق بعيداً في إجازة .»

وفي السادس والعشرين من تموز كتبت إلى أبيها تقول :«أبتاه الحبيب - يسعدني أن أعمد إلى توكيلك رسمياً للقيام بما تراه ضرورياً فيما يتعلق بأموري الشخصية . وبهذا الصدد أود القول أن لديك مطلق الحرية في التصرف بكل ما لدي من موجودات وفي اتخاذ ما تراه مناسباً من الإجراءات ذلك لأن هذه الموجودات لم تتحقق لي أساساً إلا بفضلك . أما بقدر تعلق الأمر بي شخصياً فإنني عازمة على الالتزام بالاقتصاد وتقليل النفقات . ولابد لي من الاعتراف بأن ما أتقاضاه من رواتب هنا لا يكفي لتدبير أمور معيشتي . ومن المحتمل جداً أن أجد نفسي مضطرة للقيام بمسؤولية الضيافة على نطاق واسع خلال الأشهر القادمة وذلك لأن منزلي يعتبر ملتقى جيداً يجمع بين ذوي الشأن من العرب والمسؤولين البريطانيين ، وأن مبلغاً شهرياً قدره ثلاثون باوناً إسترلينياً لن يخفق على ما أعتقد في تغطية مصاريفي الإضافية . ويسرني أن أخبرك بهذا الصدد بأنني ومنذ سفرك قد نجحت في مقاومة كل الإغراءات التي من شأنها دفعي إلى الذهاب إلى «البازار» الذي يعتبر مكاناً يستحوذ على الأفكار ويشغل البال بشكل خطير للغاية !

يشهد سياق الأحداث تحولاً (لصالحنا) منذ آخر خطاب أرسلته لك في الأسبوع الماضي ، فقد تمكنا من نجدة (قوتنا المحاصرة في) الرميثة ، بيد أننا اضطررنا إلى خوض

معارك حرب المؤخرة لتخليص هذه القوة وذلك على طول خط تراجعنا الأمر الذي اضطرنا إلى إخلاء المنطقة الواقعة بين الديوانية والسماوة لتضرب الفوضى فيها أطنابها . فما لدينا من القوات في الوقت الحاضر لا يكفي لمعالجة الموقف وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح . أما الحلة فقد بقيت هادئة . وكنت على خطأ عندما قلت أن عمران المنتسب إلى عشيرة بني حسن قد تخلى عنا ، بل على العكس فقد بقى ثابتاً على ولائه لنا برغم صعوبة ظرفه لاسيما وأن أخاه علوان وكل أفراد العشيرة المتواجدين في منطقة الكوفة قد خرجوا علينا . وعلى الرغم من أن النقيب هوبكنس Captain Hopkins وجماعته محاصرون في أبي صخير على مدى الأربعة أيام المنصرمة فقد علمنا أن البعض من العناصر المحاصرة تميل إلى إخلاء سبيلهم وإرسالهم بسلام إلى الكوفة . كما وصل النقيب مان Captain Mann إلى الكوفة أيضا ولكنه يعاني من حمى شديدة الوطأة كان أصيب بها ، ويعود ذلك أساساً إلى ما قاساه من قلق وإرهاق نتيجة قيام آل فتلة بمحاولتين للقضاء عليه إلا أن الموالين له من أبناء العشائر تمكنوا من حمايته وصد الأذى عنه .

وصل (إلى بغداد) يوم أمس السيد طالب النقيب ، و جاء لزيارتي عصر اليوم . وتأتي زيارته هذه تلبية لدعوة من بعض النواب القدامى[٧] الذين من المزمع قيامهم بعقد لقاء هنا في الحادي والثلاثين من الشهر . ولقد عمد (أعضاء) الحزب الوطني إلى تجاهل هذا النشاط برمته باعتباره محاولة من قبلنا لزعزعة مركزهم . إنهم يطالبون بضرورة اتخاذ الإجراءات التي من شأنها العمل مباشرة على تشكيل مجلس استشاري وفق اختيارهم وبما قد يؤمن لهم القدرة على كتم أنفاس العناصر المعتدلة إن لم يكن استبعادها كلياً . ولتبرير معارضتهم فإنهم اعتمدوا في طرحهم صيغة نقاش بالية مفادها أن النواب إبان الحكم العثماني كانوا يعينون من قبل أعضاء جمعية الاتحاد والترقي وبذلك لم يكونوا في الواقع ممثلين حقيقيين للشعب . يالهُ من أمر عجيب ! إن ما يثير السخرية في هذا الطرح هو أن يتم اعتماد هذه الحجة من قبل أناس كانوا قبل فترة قصيرة فقط من أشد أنصار جماعة الاتحاد والترقي تحمساً وأكثرهم تأييداً لها . و لابد من القول أن طرحهم هذا يفتقر إلى المنطق وذلك لأنهم يعتبرون بالأساس أول من ينبغي لومهم لأنهم ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا نواباً بهذه الطريقة ، أما بقدر تعلق الأمر بنا فإن نظرتنا إلى المؤسسات التركية القديمة قد استندت إلى

(٧) يقصد بالنواب القدامى أعضاء مجلس المبعوثان – المترجم

ما لهذه المؤسسات من قيمة ظاهرية لا في هذا المجال فقط بل في مجالات أخرى أيضاً . أما بالدرجة الثانية - وهنا تكمن الحجة الحقيقية - فإن جمعية الاتحاد والترقي كانت تعتمد الدقة المتناهية في مجال اختيار النواب وبذلك كان من المحتمل جداً أن يتم انتخاب هؤلاء النواب القدامى شخصياً لا غيرهم من قبل أبناء الشعب في حال كانت هناك انتخابات نيابية حقيقية . ومع ذلك لابد من القول أن هناك ثغرة تتمثل بإعطاء لجنة النواب القدامى حق اختيار أعضاء آخرين وتجنيدهم للعمل معهم الأمر الذي منحهم حرية استقطاب أعضاء من بين العناصر الوطنية المتشددة ، مثل السيد يوسف السويدي ، وهي العناصر التي لم تكن في الواقع من بين النواب القدامى . كما لم يكن بينهم أي من أبناء الشيعة وهو جانب لابد من الالتفات إليه إذ يتعين عليهم استقطاب بعض أبناء الشيعة وإشراكهم في المجلس . أما السيد طالب النقيب فإن وضعه لا يخلو من غرابة ، فقد بدأ حياته السياسية بتأييد جماعة الاتحاد والترقي إلا أنه سرعان ما راح يعارضها بعنف وشدة من خلال تزعمه حركة الحزب الوطني للفترة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الأولى ، وبذلك فإن العناصر الجديدة تنظر إليه بعين الشك والريبة وهو أمر يعود سببه إلى جانبين أولهما نواياه التي تنصرف إلى محاولة تبوؤ منصب الصدارة وإدارة دفة الأمور وهو ما يطمحون هم أنفسهم إليه ، وثانيهما إدراكهم التام بعلاقته الطيبة جداً معنا وما يترتب على هذه العلاقة من احتمال عدم قبوله بإقامة نظام عربي لا يرتبط بالانتداب . فضلاً عن ذلك فإن هذه العناصر تخشى من السيد طالب النقيب باعتباره الرجل الأكثر كفاءة في البلاد كلها ، وهو جانب لا غبار عليه ، كما أنه في الحين ذاته - وهو ما لا ينبغي أن يغيب عن بالنا - شخص لا يتورع عن القيام بأي شيء في مجال تحقيق مصالحه والوصول إلى مآربه ، بيد أن مصالحه لا تتعارض مع مصالحنا بالمرة ، بل تلتقي معها ، وهو ما بينه لي صراحة ليلة الأمس . إن ما يتوخى تحقيقه في الواقع هو الحصول على ضمان منا بتأييده ودعمه من أجل الوصول إلى الموقع الأعلى في حال تمكنه من تشكيل حزب يضم عناصر معتدلة . إننا بطبيعة الحال لا يمكننا منحه ضمان كهذا ، كما لا يمكننا إلزام أية حكومة عربية ، بعد أن يتم لنا تشكيلها ، بالعمل بإمرة من نرغب في فرضه عليها .

وبعد انصراف السيد طالب ، انطلقت مع أفراد عائلة تود في سفرة نهرية على ظهر مركب نهري كبير ، توقفنا خلالها عند شاطئ جزيرة رملية صغيرة لنمارس السباحة في ماء النهر ، فكانت متعة رائعة لاسيما وإنني لم أكن قد مارست السباحة لفترة طويلة قبل هذه المناسبة التي آمل أن تتكرر دائماً .

كتبت ما ورد أعلاه قبل وجبة الفطور ، ولكن عند وصولي إلى المكتب وجدت أن الوضع في الفرات (الأوسط) كان تغير كلياً . فالقبائل كلها قد خرجت علينا ، واضطررنا إلى إخلاء منطقة سدة الهندية والرحيل عنها ، ونقوم في الحين ذاته بالإنسحاب من الديوانية . أما عن مدى إمكانية نجاحنا في الصمود في الحلة فأمر لا أعرفه ابداً . إن الرائد نوربوري محاصر في الكوفة إلا أن وضعه جيد بصورة عامة إذ لديه ما يكفي من القوات والمؤن . إن اجراءات السلطات العسكرية المختصة تفتقر إلى الكفاءة والحكمة على ما يبدو وإلى الحد الذي يصعب تصوره . ولعل الفضيحة الأكبر تتمثل بقيام هذه السلطات قبل يومين بإرسال فوج من قوات مانشستر من الحلة إلى الكفل .

وكانت الأوامر قد صدرت بوجوب تحرك الفوج آنف الذكر في الساعة ٤٠٠ ولكنه لم يتحرك إلا بعد الساعة ١٠٠٠ ، وكان كل ما لديه من زاد وماء هو ما يكفي ليوم واحد فقط . إنك لاشك تذكر ذلك الطريق (بين الحلة والكفل) القاحل الذي ترتفع درجة الحرارة فيه إلى حدود لا يمكن تصورها ؛ تخيل حال قوة من الرجال تحاول السير على هذا الطريق في ظهر أحد أيام شهر تموز ! فما أن قطعت هذه القوة مسافة سبعة عشر ميلاً حتى راح أفرادها يتساقطون على جانب الطريق من شدة الإعياء والإرهاق . وإلى جانب ذلك راحوا يتعرضون لصولات أبناء العشائر . وعلى الرغم من أن هذه الصولات لم تكن شرسة إلا أن رجالنا عجزوا عن صدها ومقاومتها نتيجة ما كانوا يعانونه من إرهاق . ولقد تمكن أبناء العشائر من الاستحواذ على ما كان لدى هذه القوة من مدافع وأعتدة كانت تحاول إيصالها إلى الكفل ، إلا أن المهاجمين لم يعترضوا سبيل سيارات الإسعاف التي هرعت من الحلة لالتقاط ضحايا الحر القاتل ورصاصات القوات المهاجمة .

يتم إرسال مزيد من القوات من الهند ، على ما أعتقد ، إلا أن هذا لن يجدي نفعاً إذا لم تتم المبادرة إلى تعيين قيادة جديدة ، وبخلاف ذلك لن يصبح الوضع في صالحنا حتى في حال إرسال عشرين فرقة عسكرية !

وفي الحين ذاته نجد أن البغداديين ، محدثي هذه القلاقل ومروجيها بالأساس ، قد حركوا مارداً سرعان ما وجدوا أنفسهم عاجزين عن التحكم به وفرض سيطرتهم عليه . فالعشائر تتمتع الآن بثمار التمرد وبذلك فهي لا تلقي بالاً لما يقوله أحد بل تتطلع إلى التمتع بفترة مطولة من الإحجام عن دفع ما يترتب عليها من الضرائب والرسوم . إنه وضع لا يحظى بقبول البغداديين ورضاهم بأي حال من الأحوال إذ أنهم ينظرون إلى هذا الوضع المتفجر بقلق شديد . ولقد زارني صباح اليوم شخصان بارزان من بين المعممين من أبناء

السنة كان أحدهم من قياديي الكوادر الوطنية . وبعد الترحيب بهم في منزلي قالا لي :«جئنا لمقابلتك لأنك إنسانة محبوبة استطاعت أن تحظى بتقدير أبناء بغداد وأن تصبح موضع ثنائهم . وبعد تبادل عبارات المجاملة عمدت إلى طرح عدد من الأسئلة بأسلوب دبلوماسي لبق فاتضح لي أن الشخصين آنفي الذكر قد جاءا ليقفا على حقيقة أمر ما إذا كان بالإمكان اتخاذ إجراءات من شأنها تهدئة العشائر . وكانت حصيلة هذا اللقاء خروجنا بمسودة خطة تنصرف إلى تشكيل لجنة سنية شيعية مشتركة تضطلع بمهمة التوجه إلى مدينتي كربلاء والنجف (بهدف التوصل إلى المطلوب وهو عودة السلام والاستقرار إلى ربوع البلاد .) وقد قمت بدوري بتقديم المسودة سالفة الذكر إلى العقيد ولسون شخصياً (متجاوزة العهد الذي قطعته على نفسي بعدم القيام برفع المعاملات إلى ولسون بيدي شخصياً) الذي بدا منزعجاً من الأمر وأعلن عن عدم استطاعته النظر في الأمر إلا بعد أن يتم إحالته إليه عن طريق النقيب كلايتون . وإزاء ذلك أجبته بأنني كنت على استعداد تام لإشراك النقيب كلايتون في هذا المسعى (فهو شخص أكن له مودة خاصة إلى جانب اتفاق آرائنا حول العديد من الأمور) ولكنني أرى في الحين ذاته ضرورة ملحة لمشاركتي شخصياً ذلك لأن كلايتون كان لا يزال لاعباً جديداً على مسرح الأحداث إلى جانب جهله بالأشخاص الذين كنا نتحدث عنهم الأمر الذي يحول دون تمكنه بالتقدم بأية مقترحات مجدية . وهكذا وجد ولسون نفسه مضطراً إلى التراجع عن موقفه . وقد قمت بعد ذلك بدعوة العزيز كلايتون لحضور اجتماعي بالشخصين المعممين آنفي الذكر بصفة مستمع فقط لا مشارك . وقد خرجنا بخطة في النتيجة كانت في الواقع خطتي أنا ! وقد قمت بعد ذلك برفع مذكرة إلى ولسون حول الموضوع . ويظن صديقاي المعممان أنهما صاحبا هذه الخطة ، ويعود الفضل في ذلك إلى الكياسة التي تم من خلالها التعامل معهما صباح اليوم . بل أن ولسون نفسه يظن أن الخطة من بنات أفكار هذين السيدين الوقورين ! .

سيأتي الشخصان المذكوران صباح الغد لإعلامنا بقرارهما النهائي (حول الاضطلاع بمهمة تنفيذ الخطة سالفة الذكر) ، ولكنني أخشى من احتمال اعتذارهما عن القبول بتولي ما يتطلبه الأمر من إجراء إذ أنهما يميلان إلى وضع اللوم على أبناء الشيعة في محاولة للخروج من مأزق كان في الواقع من تدبير القادة من أبناء السنة بقدر ما كان من تدبير أقرانهم من أبناء الشيعة . ولعل ما يثير الاهتمام بهذا الصدد هو أن الشخصين آنفي الذكر يمقتان فكرة اللجنة المشتركة التي تجمع بين ممثلين عن الشيعة وآخرين عن السنة ، إلا أنهما لا يستطيعان في الحين ذاته ائتمان الشيعة على الاضطلاع بمهمة القيام بما يلزم وحدهم .

كما لا يمكنهما من جانب آخر رفض العمل مع أبناء الشيعة بسبب الموقف العام الذي تم الالتزام به طيلة أيام شهر رمضان والذي قام أساساً على فكرة الوحدة التامة بين أبناء أمة الإسلام ضدنا . وقد قمت من جانبي باستغلال هذه الفكرة على علاتها وبنجاح تام .

وفي الحين ذاته تبلور وضع جديد في سوريا لا أجدني بحاجة إلى القول بأنني أعتبره مؤسفاً ، بل وفظيعاً للغاية . فبصرف النظر عما يحققه الفرنسيون مبدئياً من نجاح ، لابد للفشل أن يكون نصيبهم في النهاية وهو أمر مؤكد لايقل تأكيداً في واقع الحال عما سنحرزه من نجاح في حال قيامنا بتنفيذ البرنامج الذي عقدنا العزم على اعتماده وذلك بفضل ما يقوم بيننا وبين أبناء هذا القطر من تعاطف جوهري على العكس تماماً من شعور الكراهية القائم بين الفرنسيين وأبناء سوريا والذي يعتبر هو الآخر جوهرياً أيضاً .

إن فيصل سيقاتل وسيضطر على ما أعتقد إلى طلب المساعدة من مصطفى كمال . ترى هل توجد جهة أخرى يمكنه مناشدتها لمساعدته؟ ومهما يترتب على هذه الحال من نتائج فإن تواصل الشعور بالغضب والمرارة سيبقى أمراً قائماً الأمر الذي سيكون له انعكاس أكيد علينا هنا . وإذا ما قدر للبريطانيين الجلاء عن أرض وادي الرافدين فإنني سأعمد إلى البقاء فيها بسلام لأرى ما ستؤول إليه الأمور . سيكون أمراً في غاية الروعة ؛ لن يبقى من البريطانيين سواي شخصياً وعائلة تود ، أي كما كان عليه الأمر سابقاً !

والآن أود التطرق إلى جانب الأعمال التجارية . لقد استشرت السير ادغار ، ونتيجة ذلك سأعمد غداً إلى إرسال وكالة مصدقة من قبل الكاتب العدل وستحمل اسمك المبجل (بوصفك وكيلي) وهو إجراء أجده مناسباً تماماً برغم كل ما لدي من ثقة ثابتة بما يتمتع به أخي موريس من فطنة وقدرة على التدبير المتبصر للأمور . كما أني على استعداد لخوض المغامرة معك ، وإذا ما قدر لنا بالنتيجة أن ننتهي في أحد ملاجئ الفقراء سنعمد معاً إلى كتابة مذكراتنا . أفهم من سياق ما كتبت لي أنني سوف أكون مدينة للبنك بمبلغ سبعة آلاف جنيه أسترليني وهو مبلغ سأتمكن من إطفائه بشكل أفضل عندما تبدأ حصصي في مؤسسة دورمان لونغ Dorman Long بمنحي عوائد مجدية . أما في الوقت الحاضر فإنني سأواصل الالتزام بخطتي التي تقوم على مبدأ اعتماد الاقتصاد في النفقات . وإذا ما عزمت على تنفيذ رغبتي في شراء هذه الدار(٨) ، فسوف أضطر إلى بيع ما لدي من موجودات تحقيقاً لذلك . وإذا ما قدر لنا (أي البريطانيين) مغادرة بلاد وادي الرافدين فإن ثمن الدار سيكون

(٨) أي الدار البغدادية المستأجرة أصلاً من موسى جله بي الباجه جي – المترجم

أقل بكثير مما هو عليه في الوقت الحاضر نتيجة ما سيترتب على أمر هذه المغادرة من هبوط مفاجئ في قيمة الأراضي والعقارات بوجه عام ، وبل بقيمة كل شيء آخر أيضاً .

والآن أود أن أعترف لك بما قمت به من عمل . لقد منحت فتوحاً مبلغاً قدره مائة جنيه إسترليني وذلك نتيجة ما قدمه لي من خدمات جليلة وما يكنه لي من مشاعر الود والإخلاص التي جعلتني مدينة له ، فلطالما تفانى في خدمتي برغم كل ما تعرض له من مضايقات ومواقف محرجة باعتباره خادمي . ونتيجة عملي هذا أكون قد أوفيت وأديت ما علي من واجب و بما علي من التزام أخلاقي اللذين ما كانا ليتحققا لولا قيامي بمنحه المبلغ آنف الذكر .

يحتمل في أية لحظة الآن أن يتم عزلنا عن العالم كلياً إذا قدر لعشائر دجلة أن تعلن عصيانها علينا . لا أهمية للأمر على ما يبدو ، كما لا أجدني رافضة لهذا الواقع في كل الأحوال .»

يمكن القول أن ما عكسته جيرتروود من رباطة جأش وبرود أعصاب لم يكن جانباً غريباً بل صفة من صفاتها المميزة . كان موقفاً أصيلاً وبعيداً كل البعد عن التكلف في السلوك بهدف التأثير على الآخرين . وقد أبدت رباطة جأش مماثلة إزاء أزمة خطيرة حدثت بعد عامين من نهاية هذه الأحداث . وفيما يتعلق بالأزمة سالفة الذكر قالت تحدث أحد زملائها - هو السير نايجل دايفدسون - «إنه لأمر مسل للغاية ، أليس كذلك يا نايجل؟» .

الفصل الرابع عشر

١٩٢٠

في الثامن من شهر آب كتبت جيرتروود تقول :« لا أجد أن عالمنا قد أضحى أكثر حكمة وتعقلاً منذ آخر رسالة لي . إننا نتابع بقلق شديد المسيرة البطيئة لطابور الرميثة وهو في طريق عودته إلى مدينة الحلة ، التي يفترض وصوله إليها بعد غد ، ولن نتنفس الصعداء إلا بعد أن يتحقق ذلك فقد تركت الحادثة الخاصة بتلك الكتيبة من قوات مانشستر أثراً سيئاً في النفس لا سيما بعد أن بلغ عدد المفقودين من أفرادها ١٩٩ مقاتلاً من أصل مجموع القوة البالغ ٤٤٠ مقاتلاً . ومن المحتمل جداً أن يكون القسم الأكبر من هؤلاء المفقودين بأمان نتيجة وقوعهم أسرى بيد أبناء العشائر الذين لا يكنون لنا أية ضغينة بالمرة .

وفي بلاد فارس أجبرنا على التراجع من قمم جبال البرز إلى قزوين . إن السيد نورمان يلتمس (الجهات المعنية) من أجل إرسال كتيبتين إلا أن الاستجابة لذلك أمر صعب . ولكن هناك كتيبة من المتوقع وصولها من الهند قريباً ، وآمل أن تصلنا قوات أكثر لا سيما في ضوء الرأي المحلي السائد والذي مفاده أن العشائر لن تهدأ ولن تلقي بسلاحها إلا بعد أن تشهد تحقق نجاح عسكري بارز . ويسود في بغداد شعور عام بالرعب نتيجة ما انصرفت إليه هذه المدينة من نشاط - اللهم إلا باستثناء قلة من المتطرفين من بين أبنائها - والبغداديون يلتمسون منا الآن القيام باتخاذ ما من شأنه تأمين حمايتهم .

إن انهيار الحكومة العربية في سوريا يغير وضع الأمور . بشكل تام . ونحن لسنا على علم بعد بكل التفاصيل المتعلقة بما حدث في سوريا ، ولكن علينا استغلال ما نتمتع به من مزايا لنبين بوضوح لا لبس فيه أن نوايانا فيما يتعلق بتشكيل مؤسسات وطنية (في العراق) صادقة وثابتة وذلك بصرف النظر عما يحدث في سوريا .

قمت بتوجيه رسالة طويلة إلى السيد أسكويت Mr. Asquith ، وقد عمدت قبل إرسالها إلى عرضها على أنظار العقيد ولسون الذي لم يبد أي اعتراض إزاء ما ورد فيها باستثناء إيمانه المطلق بعدم قدرتنا على تنفيذ أية صيغة من صيغ الانتداب (على العراق) و لكنني لا أشاركه هذا الإيمان .

وفي غضون ذلك يتواصل هذا الوجود الذي لا يكاد يصدق . فالسيد طالب النقيب يبذل قصارى جهده ، بيد أنه يخفق في تجسيد أية قدرة بناءة ، معترفاً في الحين ذاته بأن تشكيل حزب معتدل هو أمر أكثر صعوبة وتعقيداً مما كان يتوقع . فالمحاولات التي استهدفت

تشكيل لجنة استرضائية قد باءت بالفشل . لا يمكن لأحد أبداً من التوصل إلى مستوى مرض للأداء . إن بغداد محاطة بحلقة من الحصون الصغيرة التي تؤمن لها الحماية من صولاتٌ أبناء العشائر ، ولكننا في الحين ذاته لا نستطيع أن نتجاهل احتمال قيام تمرد بين عشائر دجلة في أية لحظة . (ملاحظة : لا داعي للقول أنني لست خائفة بالمرة !)»

* * *

في هذا الوقت نجد أن هناك العديد من المرفقات التي قامت جيرتروود بإرسالها طي خطاباتها الموجهة إلى أبويها . وكان من بين هذه المرفقات وثيقة مؤرخة في الثالث من شهر آب تتضمن تفاصيل كتبها شخص يدعى عبد بن عبدالله شبانة ، أحد أبناء مدينة شهربان ، عن غارة قامت بها عناصر عشائرية وأدت إلى مقتل ستة من العسكريين البريطانيين . وهناك وثيقة مرفقة أخرى بتاريخ الخامس من شهر آب تتضمن تقريراً موجزاً عن تمرد العشائر والهجوم على قلعة دمشق . كما توجد ثلاث وثائق مرفقة أخرى تحمل كلها تأريخ السادس من شهر آب ، وهي كما يلي :

برقية صادرة من وزارة الهند في لندن و موجهة من السيد مونتيجيو إلى الآنسة بيل جاء في أعلاها عبارة (سري وشخصي) .«أمل أن تكوني على بينة من ضرورة وقوفنا جميعاً متحدين ومتكاتفين إزاء الوضع المتأزم في بلاد وادي الرافدين حيث المستقبل يقف معلقاً بيد القدر . فإذا ما كان لديك من الآراء ما تودين منا النظر فيها ، فسوف أكون ممتناً لو تفضلت بالطلب من المفوض المدني(1) اتخاذ ما يلزم حول إيصالها إلينا ، أو قيامك بطلب إجازة اعتيادية تقضينها في ربوع الوطن يتم لك من خلالها زيارتنا ونقل هذه الآراء والأفكار إلينا مباشرة . ولك أن تكوني على ثقة تامة من أن آراءك ستلقى دوماً ما تستحق من الاهتمام والتقدير . ولابد من القول إن على الضباط السياسيين الالتزام التام بالحذر والحيطة في مضمار محتوى مراسلاتهم الشخصية الموجهة إلى أفراد لا يحتلون مواقع مسؤولة . فإلى جانب الأوجه المتعلقة بالتفاصيل الاعتيادية ، وتلك التي لها طابع شخصي ، من المحتمل جداً أن تؤدي ما تحتويه هذه الرسائل من معلومات إلى زيادة الأمور تعقيداً وإلى نتائج مؤسفة لا تلقى منك أي قبول بالمرة .»

برقية موجهة من جيرتروود إلى السيد مونتيجيو :

«إن العقيد ولسون يمنحني كل فرصة ممكنة للتعبير عن أي رأي قد يتبلور لدي . كما

(1) - The Civil Commissioner هو العنوان الوظيفي الذي استبدل لاحقاً ليصبح «المندوب السامي» – المترجم

أجدني على اتفاق تام مع السياسة التي تم اعتمادها منذ شهر نيسان . إنك على بينة تامة من موقفي العام تجاه قضية العرب الأمر الذي يجعلك مدركاً تماماً مدى أسفي لعدم انصرافنا إلى اعتماد هذه السياسة من قبل إلا أن الإعراب عن هذا الرأي والموقف بشكل علني لا يعتبر غير مجد فحسب بل وضار كذلك . أما فيما يتعلق بمراسلاتي - وباستثناء تلك الموجهة إلى أبي - لا أذكر أنني قد وجهت رسائل تتعلق بمواضيع وجوانب سياسية إلى أشخاص غير رسميين قبل عرضها مسبقاً على أنظار العقيد ولسون . ومع ذلك فأنني أعتبر ما أبديتم من ملاحظات تنبيهاً وتذكيراً لا يخلوان من فائدة» .

وثمة مذكرة داخلية موجهة إلى جيرتروود بيل من العقيد ولسون جاء فيها : «الآنسة بيل - قام السير برسي أثناء مروره (من العراق) بطرح تساؤل يتعلق بأمور حدثت في وقت مبكر من العام الحالي من بينها ما يخص طبيعة العلاقة التي تربط بيني وبينك وما إذا كانت هذه العلاقة طيبة . لم يسعني القول إنها طيبة . كما أخبرته بأن اختلافك معي في الآراء ووجهات النظر قد أصبح على كل لسان مستقطباً الكثير من التعليق والملاحظات .(ولقد أشار السيد طالب إلى هذا الجانب بشكل ملفت للانتباه عند زيارته لي هذا اليوم .) وقد أخبرت السير برسي نتيجة ذلك بأن الوضع هذا لا يمكن السكوت عنه ، أو السماح بتواصله ، لولا أملي بقرب وصول من سيحل محلي في موقع المسؤولية هنا . ولطالما أصريت على ممارسة حقك كأي إنسان حر الإرادة في كتابة ما يحلو لك ، ولمن ترغبين في توجيه رسائلك . ولابد لي من الاعتراف بأنك قد عرضت على أنظاري مراسلات عديدة ، كتلك الرسالة الموجهة إلى السيد أسكويت ، وهو جانب لقي مني كل امتنان وتقدير ، إلا أن اضطلاعي على ما احتوته من مضامين لا يعني أبداً قناعتي بها ورضاي عنها . وفيما عدا ذلك لا توجد لدي أية ملاحظات أخرى أود إضافتها .»

* * *

وفي اليوم التالي المصادف السادس من شهر آب ، كتبت جيرتروود إلى والدها قائلة : «لا أعلم ما إذا كان إيدوين مونتيجيو قد أخبرك عن المراسلات المتبادلة بيننا والتي تجدها مرفقة طياً . عندما استلمت البرقية أعددت مسودة الجواب عليها ثم قمت بإرسالهما معاً إلى العقيد ولسن الذي وجه لي بدوره المذكرة الداخلية المرفقة طياً والتي تم لنا مناقشة محتواها صباح هذا اليوم . ولقد أخبرت العقيد ولسون أن شيوع التباين في وجهات نظرنا بين الناس كان أمراً حتمياً وجانباً لم أكتمه عن أحد وكان هو (أي ولسون) أول من واجهته بذلك .

ولكنني لم أعمد بهذا الصدد إلى الخروج على أي من توجيهات حكومة صاحب الجلالة الملك أو تعليماتها . أما فيما يتعلق بملاحظة السيد طالب النقيب ، فإن الأمر لا يعدو كونه جانباً في منتهى السخف ، إذ دارت شائعة مفادها أنني أعارض تشكيل لجنة من النواب القدامى وهو أمر بعيد كل البعد عن واقع الحال ذلك لأنني كنت أمثل إحدى القنوات التي مرت فكرة تشكيل هذه اللجنة من خلالها . وإذا ما شاءت الظروف أن أغدو مشجباً تعلق عليه كل صيغ المعارضة الموجهة ضده (أي ضد ولسون) فمن الأفضل له اتخاذ ما يلزم بصدد منحي إجازة أقضيها في الهند إلى حين عودة السير برسي كوكس إلى العراق . إلا أن ولسون لم يوافق على الاستجابة إلى هذا الإجراء ، كما ليس من حقي أن أعمد من جانبي إلى الإصرار على وجوب قيامه بذلك . وإزاء هذا المقترح تمحور جوابه حول نقطتين أولهما قرب رحيله عن العراق ، وثانيهما احتمال أن أكون عنصراً مفيداً لمن يخلفه في الوظيفة . وكان خلال هذا اللقاء منصفاً ومعقولاً للغاية .

لعل أمر ابتعادي (عن ولسون) ما كان ليشكل جانباً يخلو من فائدة ، على ما أظن وهذا أوحيت به إلى السير برسي في منتصف فصل الشتاء ذلك لأن وجودي لم يكن ذا فائدة تذكر ، وكان لابد له نتيجة ذلك أن يشكل مصدر ملل وإحراج لولسون بسبب اختلافي معه حول القضية الجوهرية . وعندما سألته ذات مرة عما إذا كان راضياً عن اختلاطي بالشباب العرب ولقاءاتي بهم أجابني قائلاً : «إنك ترغبين في إرضاء كلا المعسكرين !» ولقد عمدت إلى تذكيره بهذه الملاحظة .

وفيما يتعلق بالمراسلات أخبرته بأن مذكرته الداخلية قد أذهلتني في واقع الأمر . فعلى سبيل المثال ، وفيما يتعلق بالرسالة التي كنت وجهتها إلى السيد آسكويث في الأسبوع المنصرم ، فإنه لم يعلمني بعدم رغبته في قيامي بإرسالها عندما قمت بإطلاعه على فحواها ناهيك عن قيامه بمناقشة بعض ما ورد فيها . وعليه فإنني أخبرته بأن اعتراضه على إرسالها لا أساس له ذلك لأنني كنت قد عرضت فحواها عليه قبيل إرسالها الأمر الذي أتاح له فرصة بيان الرأي حولها وتحديد موقفه منها . وقد اكتشفت في وقت لاحق أن ما أثار قلقه في الواقع إنما انطلق من احتمال قيامي بالكتابة إلى وزارة الهند ، أو إلى دومنول حول الموضوع ذاته – أجل صديقي العزيز دومنول الذي لم أوجه له أية رسالة على مدى فترة الأحد عشر شهراً المنصرمة إلا في مناسبتين فقط . ثم أوضحت له مبينة أنني في المناسبات القليلة التي قمت فيها بمراسلة السير آرثر هرتزل فإن ذلك كان يتم بعلمه دائماً ، وموافقته التامة وترحيبه أحياناً . وفي مناسبة معينة كتبت رسالة دافعت فيها عن ولسون نفسه ضد

اتهامات لا مبرر لها كانت قد وجهت له وقد قام بدوره بالتعبير عن خالص امتنانه إزاء ذلك . كما بينت كذلك بأن تحذير اديون مونتيجيو قد تناول بشكل خاص غير الرسميين من الأفراد والأشخاص . وإزاء قول ولسون أنه يعترض أساساً على أية مراسلة يتم توجيهها إلى وزارة الهند ، بصرف النظر عن فحواها ، أجبته أنني سأمتثل لرغبته على الرغم من رأيي بأنها لم تكن غير منطقية فحسب بل وغير منصفة كذلك . وعليه أرجو إعلام دمنول بأن اسمه قد أُدرج في سجل الحظر وكذلك اسم أيدون مونتيجيو .

بعد ذلك شكرني (أي ولسون) على ما أبديته من صراحة وشفافية ، وقد تصافحنا قبيل افتراقنا . كانت مصافحة دافئة - لابد لها أن تكون دافئة في جو تزيد فيه درجة الحرارة على خمسين درجة مئوية . ومع ذلك لا أجدني أعلم ما يدور في رأسه من أفكار ، وما يحمله عني من رأي ، وبذلك فإنني عازمة على إثارة موضوع ذهابي إلى الهند مرة أخرى إذا ما وجدت فرصة مناسبة لذلك .

في مضمار اختلاف الرأي حول أي موضوع من المواضيع بين طرفين معينين قلما نجد أن أحدهما على حق كلياً والآخر على خطأ كلياً ، وبهذا الصدد لا يمكنني تصور نفسي على حق كلياً في أية قضية من القضايا . وثمة نقطة واحدة لا تخفق أبداً في تحريك ضميري وإثارتي وهي تلك المتعلقة بالمناسبات العديدة التي فيها وجدت نفسي في أشد حالات السخط والغضب بسبب فظاظة ولسون وجلافته اللتين تصلان حد الوقاحة وسلاطة اللسان . وعندما يكون المرء منا في مثل هذا المزاج يصعب عليه جداً عكس صورة لمحاوريه ومحدثيه من أبناء العرب توحي بأنه على وفاق وتفاهم تامين مع رئيسه . ومع ذلك لم يعمد أي من أصدقائي ومعارفي من أبناء العرب إلى تناول شخص العقيد ولسون معي بشكل مباشر ، وهو جانب لا يمكنني السماح به بأي حال من الأحوال ، بيد أنني أتوقع بأنهم على بينة تامة من واقع أنني لم أكن على وفاق تام معه حتى الوقت الذي تم له فيه اعتماد سلوكية مختلفة في علاقته معي وذلك في شهر نيسان . وعلى الرغم من خلافي مع ولسون ، وما بيننا من تباين في المواقف والآراء ، لم أكن أتردد أبداً في دعم السياسة العامة والدفاع عنها انطلاقاً من ظني بأن مثل هذا التوجه يمثل الموقف الذي ينبغي للمرء منا الالتزام به .

وفي كل الأحوال كان هذا ما حدث فعلاً بقدر تعلق الأمر بي شخصياً ، ومن المحتمل جداً أن يكون الأمر مختلفاً من وجهة نظر العقيد ولسون ، وهو جانب ينبغي لك ، يا أبتاه العزيز أخذه بعين الاعتبار أيضاً . وبهذا الصدد أود منك التكتم على هذا الأمر وعدم مناقشته مع أحد اللهم إلا باستثناء أمي العزيزة وأخي موريس ، وباستثناء دومنول كذلك إذا

ما وجدت ذلك مناسباً ، إذ لا أجدني في الأساس تواقة إلى عكس صورة لجبهة منقسمة على نفسها وهو أمر لا يجلب لنا سوى الأذى ، ومن جانب آخر فإن شيوع هذا الخبر قد لا يخلو من انعكاس سلبي علي شخصياً ، وعلى ما أتمتع به من مصداقية ، بسبب ما يوحيه من إخفاق في المحافظة على توازن الأمور . ولعل العبرة الحقيقية من ذلك كله هي أن المرء منا لا يمكنه مواصلة العمل مع من يختلف معه حول أمور أساسية ، وإذا ما وجد المرء هذا نفسه في مثل هذا الوضع عليه أن يسعى للابتعاد عنه . وبذلك سوف أكون ممتنة لك في حال قيامك بنصحي ، أو انتقاد رأيي وموقفي ، بل وحتى شجبي إن وجدت ذلك أمراً مبرراً ، بهدف هدايتي وتوجيهي وصولاً إلى اعتماد النهج الصحيح .»

وفي الثامن من آب كتبت تقول :«يبدي السيد طالب مهارة فائقة فيما يضطلع به من مهام ، فقد تم له ولمن معه تفعيل لجنة قدامى المبعوثين (النواب) . ومن جانب آخر يعكس الوضع العسكري تحسناً واضحاً لاسيما بعد وصول قوات جديدة من الهند . ويواصل الجنرال السير ايلمار هالدين زيارته لي من وقت إلى آخر وهو كعهده دائماً في غاية اللطف والكياسة . إن النجاح سيغدو حليفه على ما أعتقد .

سوف يشرع السيد حسين أفنان بتأسيس جريدة تعمل لمصلحة الحزب المعتدل الذي يحاول السيد طالب تشكيله . والسيد حسين هو أحد أصدقائي المقربين ، وهو رجل في غاية الذكاء والألمعية .

بدأت الأخبار تصلنا من سوريا وبالطريقة التي طالما اعتدناها ، أي عن طريق رجال عشيرة العقيل ، تجار الصحراء .(٢) ولقد وصلت قافلة كبيرة هذا الأسبوع يقودها صديقنا

---

(٢) خلال هذه الفترة من تاريخ بلاد وادي الرافدين ، تفيد بعض الأدبيات أن عشيرة العقيل كان لها سمة مميزة بوصفها كياناً تجارياً وعسكرياً في آن واحد إن صح هذا التعبير ، وهو كيان تأتى من واقع تمتعها بامتياز خاص منحها حق تنظيم وإدارة القوافل البرية وتولي أمر سيرها عبر الصحراء بين العراق وسوريا . وعلى الرغم من أن مركز هذه العشيرة كان يقع أصلاً في مدينة الزبير القريبة من ميناء البصرة إلا أن أفرادها كانوا منتشرين في مناطق متعددة ، فقد تواجدوا في ضواحي بغداد (الكاظمية) ودمشق وحلب ومدن أخرى . ويمكن وصفهم بوجه عام باعتبارهم مجرد جهة ناقلة ، لا قوة متحكمة لها شأن ونفوذ بارزان ، كما أن رعايتهم للقوافل أثناء السفر قد تحققت في الواقع نتيجة لما تمكنوا من التوصل إليه من تفاهم واتفاقات مع العشائر التي كان خط السير يمر في مناطق نفوذها . وفي إطار هذا السياق لا يمكن اعتبار العقيل قوة كان يحسب لها حساب ، وهو ما توحي به بعض الأدبيات بشكل غير مباشر – المترجم

الحميم منصور الزميح الذي أفاد باحتمال قيامه بزيارة كربلاء لأغراض تجارية موحيا بإمكانية موافاتنا بما يشاهده من الأحداث ويسمعه من الأخبار . وقد قام بتوجيه برقية إلى صديق له من أبناء عشيرته يسكن في سوق الشيوخ أخبره من خلالها بما جابهته القافلة من مخاطر أثناء سفرها . وقد أخبرنا بأن صديقه كثير الكلام ، وأن هذه الأخبار سوف تنقل عن طريقه إلى والده (أي والد صديقه) الذي لا يقل عن ابنه حباً للثرثرة وإشاعة الأخبار ، وبذلك لن يبقى أحد في مدينة سوق الشيوخ وضواحيها إلا ويصبح على علم بما كان من أمر القافلة .»

وفي السادس عشر من آب كتبت تقول :«لعل الخبر الأسوأ هو ما يتعلق بالكمين الذي نصب للعقيد ليجمان Colonel Leachman ومقتله بعد ذلك . لقد سمعت النبأ اليوم من أحد أصدقائنا من أبناء العقيل ، وهو مصدر موثوق به للغاية . وبهذا الصدد أسرد لك ما طرق سمع هذا الصديق من أخبار تتعلق بهذه الجريمة ، وهي أخبار أتوقع أنها صحيحة . كان ليجمان في طريقه إلى مدينة الفلوجة عندما توقف بمفرده عند خيمة شيخ عشيرة زوبع ليكيل له أبشع عبارات اللوم والمسبة لإخفاقه في إدامة الأمن و السلام على الطريق . ولطالما اعتاد ليجمان استخدام العبارات النابية والكلام القاسي في مواجهة أبناء العرب ، وإزاء ذلك كان الحقد يملأ قلب الشيخ ضاري المحمود الذي يعتبر شخصاً حقوداً يحب الانتقام . وبعد أن ترك ليجمان خيمة الشيخ ضاري (لمواصلة رحلته إلى الفلوجة) عمد أحد عبيد الشيخ إلى نصب كمين له وقتله . كان ليجمان مغامراً باسلاً ، وضابطاً عسكرياً شجاعاً ، شاع اسمه واشتهر في كل أرجاء بلاد العرب .

الله وحده العالم بما ستشهده هذه المنطقة من أحداث - إن أفضل ما يمكنني طرحه من مقترحات هو أن يقوم السير برسي كوكس باستغلال وجود فيصل في لندن بهدف تتويجه ملكاً على بلاد الرافدين في كنيسة ويستمنستر (إن لم تكن قد تهاوى صرحها وتهدمت) ومن ثم العودة به يداً بيد إلى العراق . لا أعتقد أن تحقق رؤية كهذه هو أقل احتمالاً مما نشهد حدوثه من أمور على أرض الواقع هنا . لا أرى أن السيد طالب قد توفق في مسعاه الرامي إلى الحصول على عرش العراق ، كما أن الشكوك تساوره هو الآخر على ما أظن في إمكانية نجاحه في هذا المسعى على الرغم مما دار بينه وبين السيد تود من حديث يتمحور فحواه حول إمكانية حصوله على عرش العراق . وبهذا الصدد قال السيد طالب معلقاً : « إن الخبرة هي كل ما تحتاجه الإدارة (أي إدارة القطر) ، وهو جانب أملك ناصيته ، فالطبيب لا يتقن مهنته إلا بعد أن يكون قد قتل ما لا يقل على مائتي شخص من مراجعيه ، ولقد تم لي قتل مائتين من الرجال ، وهو جانب لا يدركه أحد كما تدركه أنت بالذات» . ولا يمكن للسيد تود أن

ينكر إدراكه بواقع السيد طالب ومعدنه .»

وفي الثالث والعشرين من شهر آب كتبت تقول :«لا توجد أخبار سارة باستثناء الخبر الذي يفيد بأن المجتهد الأول ، (آية الله) الميرزا محمد تقي الشيرازي ، قد استسلم لداء الشيخوخة وبات قاب قوسين أو أدنى من هلاك محتم .(٣) وعلى الرغم من أنه ليس بأكثر من قائد صوري ، إلا أنه بهذه الصفة يشكل خطراً ومصدراً للأذى ، إذ بإمكانه إصدار الفتاوى التي من شأنها أن تبرر الأعمال الثورية ، والقتل ، والتعصب الديني . وهناك شائعة مفادها أن خليفته المتوقع ، والذي لا يختلف كثيراً عنه ، قد توفي أثناء رحلته من النجف إلى كربلاء . من أجل أن يؤم بجموع المصلين في جنازة الإمام الراحل . إنه خبر لا أشك في صحته . ويعتقد أن لخليفته آراء معتدلة ، وقد سمعنا بأنه يرفض أن يُدفع من قبل المتطرفين إلى المناداة باعتماد العنف . ولابد من القول أن وضع المجتهدين لا يخلو من صعوبات ومواقف محرجة . تصور ما قد يمكن أن يكون عليه الحال في كانتيربوري نتيجة وجود مجموعة من البابوات الأجانب الذين يعمدون إلى إصدار مراسيم كنيسة وفتاوى لها أولوية على قوانين البلاد ؟ ولطالما كان الأتراك العثمانيون على خلاف مع المجتهدين ، ولابد لأية حكومة عربية مستقبلية أن تجد نفسها في مثل هذا الحال .

وفي أطر المبادئ العسكرية السائدة في الوقت الحاضر يمكن القول أن التمرد في بعقوبة لم يتم مجابهته والتعامل معه في الوقت المناسب الأمر الذي أسهم في امتداد رقعته إلى خانقين . وهناك الألوف من أفراد العشائر الذين راحوا يمارسون السلب والنهب ، وإن وضع حد لمثل هذه الفوضى إنما يتطلب جهداً كبيراً وهو جانب يتعذر علينا الالتفات نحوه ومعالجته إلا بعد أن نكون قد حققنا نجاحاً في منطقة الحلة . ولقد تميز التمرد في بعقوبة

---

(٣) لقد عرف عن الشيرازي أنه كان يولي الثورة اهتماماً ورعاية بالغين على الرغم من شيخوخته ، وقد دأب على إرسال كل ما يصله من الحقوق الشرعية إليها . وقد أثرت نكسة الحلة والنكسات الأخرى التي أعقبتها والتي شهدتها ثورة العشرين على صحة الشيرازي التي انهارت إثر مشاهدته عدداً كبيراً من الجنائز التي جيء بها إلى صحن سيدنا الحسين عليه السلام في يوم خرج به إلى الصحن لأداء الصلاة فيه . وقد توفى رحمه الله في مغرب يوم السابع عشر من آب من عام ١٩٢٠ . أي أنه كان قد مضى على وفاته ستة أيام عندما كتبت جيرتروود ما كتبته الأمر الذي يغنينا عن ذكر مقدار ما تتميز به بعض كتاباتها ورسائلها من دقة ، ولابد لذلك أن ينسحب منطقياً على جوانب أخرى من مدوناتها وآرائها . وعلى إثر وفاة الشيرازي بويع الشيخ فتح الله الأصفهاني ليكون خليفته في الإشراف على الثورة - المترجم

بوقوع أشد الأحداث وحشية وقسوة وكان أسوأ بكثير مما شهدته تلعفر . وقد قام عدد كبير من الرعاع من بين أبناء العشائر بمهاجمة شهربان و قتل أفراد الكادر السياسي (البريطاني) بأسره والذي كان قوامه ستة رجال بمن فيهم الضابط المسؤول عن الري النقيب بيوكانان (Captiain Buchanan) الذي كان مسؤولاً أيضاً عن قيادة القوات المجندة (الليفي Levies) التي كان أفرادها من أبناء العرب والذين كان تصرفهم مثالياً إذ أنهم ساعدوا الإنجليز على الدفاع عن أنفسهم على مدى ثلاثة أيام . إن زوجة ضابط الري ، السيدة بيوكانان ، لا تزال حتى الآن في دار العمدة ، الذي يعتبر رجلاً على درجة لا بأس بها من الثقافة وبذلك فإنها ستكون بخير على ما أعتقد ، ولكن علينا أن نتصور ما تعانيه هذه المسكينة من وضع نفسي مؤلم .(٤)

كان لي لقاء مؤثر مع أحد أبناء عشيرة العقيل الذي كنت على معرفة قديمة به ، وقد جاء ليخبرني بتحركات الشيخ ضاري المحمود قاتل العقيد ليجمان . آمل أن تعمل هذه المعلومات على تمكيننا من إلقاء القبض على الشيخ ضاري الذي تجاوز على كل قواعد الضيافة العربية والممارسات القائمة على حسن النوايا ، كما آمل أن تمكننا أيضاً من تحقيق انضمام الشيخ حسن السهيل ، شيخ عشيرة بني تميم ، إلينا . وإن الشيخ ضاري جار الشيخ حسن ، وقد قام الأخير هذا بإيفاد رسول إلينا لمعرفة ما إذا كنا على استعداد لحمايته في حال تعرضه لعمليات انتقامية إذا ما عمد إلى نقل مضاربه إلى منطقة الكاظمية . وإزاء إعلامه بموافقتنا على منحه الضمانات المطلوبة أعرب عن استعداده للتعاون . لطالما كان الشيخ حسن السهيل صديقاً صدوقاً لنا .

تتجسد المعجزة الحقيقية من خلال الوضع القائم في كل من الناصرية وسوق الشيوخ والحي إذ لابد أن يكون ضباطنا السياسيون قد أحسنوا التعامل مع العشائر في هذه المناطق الثلاث التي برغم كونها من بين مناطق بلاد وادي الرافدين الأقل التزاماً بالانضباط فإنها بقيت هادئة . لقد رفضت عشائر دجلة الاشتراك في التمرد ، ولو قدر لها الخروج علينا لأصبح وضع بغداد في خطر حقيقي . فضلاً عن ذلك فقد أبدى المقدم نادلر

(٤) لا يخلو هذا النص من خلط وأفكار مشوشة الأمر الذي يعني بوضوح إن الآنسة بيل لم تكن في الواقع على بينة من تفاصيل هذه الأحداث ، ولا حتى من العدد الصحيح لجموع البريطانيين العاملين في المنطقة آنذاك . ولتفاصيل أكثر دقة وموضوعية يرجى الرجوع إلى الفصل الثاني من الجزء الخامس (القسم الثاني) من لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث للأستاذ الدكتور علي الوردي رحمه الله – المترجم

Colonel Nadler حكمة ومهارة في أسلوب الإدارة والحكم الأمر الذي يعزى إليه بقاء الموصل بعيدة عن كل صيغة من صيغ الاضطرابات والقلاقل .»

وكانت جيرتروود قد أرفقت طياً خطابها أعلاه رسالة شخصية موجهة إلى والدها السير هيوبيل قالت فيها : «أرفق طياً برقية أخرى أرسلت لي من قبل إيدون مونتيجيو كما أرفق أيضاً جوابي على ما ورد فيها ، علما بأنني قمت بعرض هذه المراسلات كلها على العقيد ولسون . ولقد قررت التوقف عن مراسلة إيدوين بعد الآن ، بيد أني أود منك التكرم بالاستفسار من إدوين - إذا ما وجدت ذلك مناسباً حول الأمر ومحاولة تحديد أسماء الساسة سواء من هو موجود منهم في الخدمة العامة أم خارجها ، الذين يظن بأنني أقوم بمراسلتهم . ومرة أخرى أود القول أنني لم أقم بمراسلة أطراف غير مسؤولة قبل عرض النص على أنظار العقيد ولسون . ولكنني آمل من جانب آخر باحتمال توصله إلى افتراض العكس وهو غاية ما أتمناه وأتوقعه منه . أن برقياته لا تخفق في الواقع في الإيحاء بأن هناك ثمة جهة تغذيه بالأفكار الخاطئة وتدفعه إلى الكتابة على هذا النحو . ولكنني عاجزة عن تحديد هوية هذه الجهة .

إن من شأن هذا كله أن يضيف إلى شعوري العام ما ينطوي عليه المستقبل من عدم استقرار وغموض . وفي ضوء الأحداث التي شهدتها فترة الشهرين المنصرمين ، لامجال للشك أبداً في واقع ما أخفقنا في تحقيقه هنا ، ولابد أن نظام الحكم المعتمد في إدارة البلاد كان على خطأ فيما يتعلق بما تم تطبيقه من أساليب وما اعتمده من نهج إلى درجة لم يكن بمقدور أحد تصورها ، الأمر الذي يتطلب تغييره تغييراً جذريا . ولعلنا أخطأنا على ما أفترض في تقدير حقيقة أن هذا القطر هو في الواقع تجمع عشائري بدائي لا زال غير قادر على الانصهار بهدف أن ينتظم بعضه مع البعض الآخر في وحدة متكاملة . إن الأتراك لم يحكموا هذا البلد ، أما نحن فقد حاولنا حكمه ولكننا فشلنا . لعلنا بالغنا فيما استخدمنا من أساليب الحكم وطرائقه ، وبذلك فإن غاية ما أتمناه هو أن يتواصل سير الأمور على ما هو عليه حالياً إلى حين عودة السير برسي كوكس حيث نأمل أن يتم الانتقال من الحكم البريطاني إلى الحكم الوطني بشكل سلمي الأمر الذي يعني احتمال تحقيق الاستفادة من القسم الأعظم مما تم لنا إجراؤه واعتماده من أساليب وممارسات . بيد أنني أخشى أن يكون هذا أمراً مستحيلاً ، وبذلك لابد لنا من تكييف أنفسنا لكي نعتاد رؤية عقارب الساعة وقد تم إرجاعها فترة طويلة إلى الوراء . وتعتبر إجراءات منع تفشي الأوبئة والأمراض ، والخدمات الصحية والطبية ، من بين الجوانب التي يندم المرء منا على تدهور مستواها وانعدامها . وأنا

شخصياً لا أعير التربية والتعليم اهتماماً كبيراً ، فهو جانب أجدني نزاعة إلى الشك فيما له من قيمة وجدوى . ولقد عقدت العزم على الرحيل من هذا القطر في حال عدم تمتعي بثقة من أعمل معهم من الأفراد ، وفي حال شعوري بأن ما يعتمدون من برنامج عمل لا يشكل النهج الصحيح الذي ينبغي اعتماده .

بات كل شيء في البوتقة . أشعر وكأنني أعيش ليومي فقط دونما محاولة لرسم خطط للمستقبل . ونتيجة معاناة ما تتميز به هذه الأشهر من طقس حار ، تفقد المقدرة العقلية للفرد منا مرونتها بحيث يتعذر عليها الاستنتاج من الوقائع إن صح هذا التعبير . ومن جانب آخر فإننا نتلمس طريقنا بجهد وسط بحر خضم من المشاكل التي يصعب تكهن ما لها من حلول . ونتيجة ذلك أجدني أستسلم لليأس لألتفت إلى العمل اليومي بشكل يفتقر إلى الكفاية والفاعلية . ولقد أصبحنا معتادين على مجابهة المآسي التي تحل بنا بشكل مفاجئ ، والتعامل معها بجلد تام . إنها تتسبب بتخدير أحاسيسنا إلى الحد الذي يشعر المرء منا فيه وكأنه نصف ميت . ومع ذلك يراودني شعور يكمن في أعماق قلبي باحتمال تحقق تسوية هذه الحالة القائمة بصورة غير منتظرة تماماً مثلما كانت بدايتها . وإذ أقول ذلك فإنني أدرك من جانب آخر أن احتمال عدم تحقق أية تسوية لهذه الحال هو الآخر وارد على حد سواء .

رباه ! كم أتمنى أن يكون العالم أكثر قرباً من الوضع الطبيعي الذي ينبغي له أن يكون عليه ، أم تراك تظن أن الحروب والثورات هي التي يعتقد الآن بأنها تمثل الوضع هذا ؟»

وفي الثلاثين من آب كتبت إلى أبيها قائلة : «أبتي العزيز : لابد أن تفهم أنني متوترة الأعصاب وسريعة الانفعال إزاء الطريقة التي تتعامل بها مع رسائلي وذلك في أعقاب أخبار تم لي استلامها مؤخراً من إيدوين (مونتيجيو) . إنني لا أدون يومياتي في سجل منظم بل أكتفي بإفادتك بكل الأخبار عن طريق المراسلة ، وهي معلومات لا ينبغي لك القيام بترويجها ونشر تفاصيلها . إن مجرد تفكيري بإطلاعك على ما أدونه من انتقادات صريحة تتعلق بتصرفات كبار القادة العسكريين (البريطانيين في العراق) وأساليب عملهم ترسل في كياني قشعريرة . فاعلم ، يا أبتاه ، أن كل الأخبار تجد طريقها حول عالمنا الكروي لتصل في النهاية إلى أسماع الجنرال السير أيلمار هالداين وبصورة مبالغ فيها ؛ فهي لا تصله بصيغة أنها ليست أكثر من مجرد رسالة موجهة إليك ، بل باعتبارها اتصال شخصي موجه إلى وزارة الحرب ، وعليه لابد لك من التقيد بالحذر .

عانيت من انحراف في صحتي طوال هذا الأسبوع إثر إصابتي برشح شديد الوطأة . وبجهد جهيد مشوب بالكآبة والفتور ، رحت أناضل من أجل استكمال الفصل الأخير من

تقريري المتعلق بالحركة الوطنية . إنها مهمة لم يسبق لي الاضطلاع بأصعب منها . فالمرء منا لا يستطيع كتابة التاريخ عندما يكون التاريخ هذا قيد الصنع ولم يكن قد تم التوصل بعد إلى ما يمكن استخلاصه من نتائج وعبر . ومع ذلك فإن العقيد ولسون يرى في تقريري هذا نتاجاً من الطراز الأول الأمر الذي يذهلني إلى أقصى حد . وأنا بدوري لا أجد حاجة للقول بأنني لا أشاركه الرأي هذا إذ لا أجد في هذا العمل نتاجاً من هذا النوع ، بل لا يمكنه أن يكون بهذا المستوى ، إلا أنه قد أُنجز على أية حال ، ولن أضطر بعد الآن إلى بذل جهود مضنية في آصال الأيام القائظة عندما تتمرد الكلمات علي وتقف بمنأى عني بكل عند وإصرار ، كما لن أضطر إلى النهوض في الأسحار لأقتنص ساعتي عمل قبل ابتداء حر النهار المهلك . وإلى جانب كل هذه المزايا والجوانب الحسنة فإنني أتمتع بدرجة عالية من الحظوة والرعاية الأمر الذي من شأنه أن يحرر المرء من قيود القلق والهم ويجعل الأمور أكثر سهولة !

زارني السيد طالب على نحو مفاجئ ليجدني منهمكة في تناول وجبة فطوري . بدأ حديثه معي قائلاً إنه ينظر إلي شخصياً باعتباري شقيقته ، لا بوصفي مسؤولة حكومية ، وعليه فإنه يطلب مني النصح والإرشاد . وقد أنصت إلى كل ما قاله . وأنا أواصل تناول بيضتي المسلوقة المعهودة وحبات من الزيتون الأسود . بعد ذلك سألني ما إذا كان ينبغي له القبول بتمويل من قبلنا ، وما إذا كان قبوله بذلك سيؤدي إلى هبوط منزلته لدينا وإضعاف مركزه بالنتيجة ؟ وإزاء ذلك أجبته مبينة أن قبول الأموال منا لقاء ما يقدمه من خدمات لاجدى بكثير من أن يغدو مديناً لزيد أو عمر من الناس الذين لابد وأن يعمدوا بالنتيجة إلى مطالبته بالسداد . إنه يقوم بعمل مجد ، وقد بينت له حقيقة مفادها أنني شخصياً قد قبلت باستلام مرتب من السلطة لقاء خدماتي وبذلك لا أرى ما يحول دون قيامه هو الآخر باستلام ما يعود له من أتعاب . ونحن من جانبنا نتساءل في كثير من الأحيان عن طبيعة نواياه الحقيقية برغم أن تعامله معنا حتى الآن قد تميز بالأمانة – وإنني لعلى ثقة من أن ثمة تساؤل مماثل يراود مخيلته هو الآخر أيضاً برغم أن تعاملنا معه لا يقل هو الآخر أمانة وصدقاً . وما دام أنه يواصل المجيء إلي ومكاشفتي في كل الأمور يصبح من السهل جداً إدامة التعاون والانسجام بيننا ، وإنني لعلى ثقة تامة بأنه لا يلجأ لأحد آخر غيري ليبوح له بمكنونات صدره . ولهذا السبب أجدني منصرفة إلى فتح المجال أمامه ، والإصغاء لما يعبر عنه من آراء ، بأمل أن يعود ذلك علينا بالفائدة . مع ذلك لابد لنا أن ندرك أنه في حال امتناعنا عن تمويل نشاطه فإن بإمكانه الحصول على ما يحتاج من تمويل عن طريق الابتزاز وهو جانب يعتبر السيد خبيراً في ممارسته ولكنه نشاط لن يعود بالفائدة علينا ، ولا عليه على المدى

البعيد . ويعتبر قيامه بلعب دور كبير في المستقبل أمراً لا مفر منه ، وحتى يحين ذلك الوقت علينا أن نحاول إبعاده عن ارتكاب كل ما من شأنه أن يكون ضاراً .

لقد أثبت أصدقائي من رجال العقيل جدواهم ، فهم يقومون دوماً بتزويدنا بمعلومات دقيقة عن أماكن وجود الأشخاص الذين تستقطب أعمالهم وأنشطتهم اهتمامنا . إنهم (أي الأصدقاء آنفي الذكر) يحثونا على القيام بتشكيل وحدات هجانة ، وإنني واثقة بأنهم على حق في ذلك . وقد سنحت لي فرصة طرح هذه الفكرة قبل يومين وذلك أثناء تناولي طعام العشاء بصحبة الجنرال السير ايلمار هالدين وعدد من الجنرالات الذين تمكنت من جعلهم يتحمسون للأمر ، أما فيما يتعلق باستعدادهم للقيام بأي إجراء بهذا الصدد فجانب لا يسعني الحديث عنه . إنهم في أغلب الأحيان لا يقومون بشيء بالمرة . إنهم في الواقع ليسوا بأكثر من مجموعة جثث هامدة! لايمكن مقاتلة أفراد العشائر بقوات نظامية ، فالأمر يتطلب قوة تتميز بسرعة الحركة وباستقلالية تامة من كل الجوانب المتعلقة بأمور الإعاشة ، وتوفير المياه والخدمات الطبية ، وأن تنصب جهودها على مهمة حراسة الحدود . ولا يمكن لغير الهجانة من الاضطلاع بمهام من هذا النوع .

أمضيت نصف ساعة ممتعة بصحبة النقيب صباح هذا اليوم . ولقد لاحظت أن وجهة نظره فيما يتعلق بحكمة الوساطة قد تغيرت ، بل وخفت حدتها ، بفعل عدم تردد العشائر المتمردة في منطقة ديالى في نهب بساتين النخيل والأعناب والشعير المملوكة من قبله . ولابد من الاعتراف بما لهذا الحدث من وقع قاسٍ على النقيب بسبب كونه أقل الناس تعاطفاً مع الحركات الوطنية . ومن جانب آخر ، لا يمكنني مغالبة ضحكي وأنا ألاحظ ردود الأفعال لدى غيره من الوجهاء البغداديين - من ذوي الضياع والعقارات المطلة على ضفاف نهر ديالى - الذين كانوا في بادئ الأمر على استعداد تام للاشتراك في القلاقل وأعمال الشغب بينما لا يجدون الآن (أي بعد أن تعرضت أملاكهم لأعمال النهب والسلب) ما يكفي من العبارات لشجب التمرد . ولقد قال لي أحد هؤلاء الأعيان والوجهاء إنه يعتبرنا شخصياً مسؤولين عن كل ما تعرض له من خسائر . وإزاء هذا الموقف أجبته بضرورة توجهه إلى السيد يوسف السويدي ومطالبته بالتعويض ، وقد دفعت إجابتي هذه كل الحاضرين إلى الاستغراق في الضحك وذلك لأن يوسف السويدي ومحمد الصدر موجودان في ديالى حيث يقومان بتشجيع العشائر على التمرد ضد السلطة بضمان أنهما قد قاما باتخاذ كل الإجراءات التي من شأنها تحقيق طرد البريطانيين من بغداد على الفور . إلا أن حماس المتمردين سرعان ما شابه شيء من الفتور إثر محاولة هذين الوجيهين إقامة حكومة مؤقتة - قوامها شخصاهما

فقط - والسعي بهذه الصفة إلى المطالبة بجمع الضرائب . ولقد أثار هذا المسعى بحق سخط العشائر وغضبها . وإثر هذه الصحوة ، ونجاحنا في استعادة بعقوبة ، فإن مصداقية المؤسسات والتجمعات الوطنية آخذة في التناقص .

وأثناء وجودي مع النقيب صباح هذا اليوم ، قال لي ما مفاده أنه يكره تصرفات الوطنيين الشاذة التي لا تخفق في إثارة الضحك ، وأنه يفضل الانضمام إلى أية جهة كافرة - باستثناء الفرنسيين دائماً . ولكنه أردف قائلاً :«افرضي أنني اعتليت منبر الوعظ وجاهرت بما يجول في فكري ! ما أن يتم لي ذلك حتى ينتشر خبره في أرجاء أفغانستان والهند ، حيث أتمتع باحترام منقطع النظير ، ويقال إنني موال للانجليز وخائن لدين الإسلام . وبهذه الصفة لا أدري كيف يمكنني أن أحقق لكم أي خير أو فائدة .» وأنا بدوري لا أدري كذلك كيف يمكنه أن يحقق لنا أي خير أو فائدة في مثل هذه الحال . ومع ذلك فإن قدرتي على تبادل أكثر وجهات النظر صراحة مع دنيا الشرق التليد ، كما هو ديدني مع النقيب ، لأمر يدعو إلى الدهشة والبهجة على حد سواء .

تشكل التسوية مع مصر بحق الجانب المضيء (من نشاطاتنا) . فإذا ما تمكنا هناك من العمل بروح الأخوة والمحبة مع قطر عربي مستقل ، فإن من شأن ذلك أن يعمل على جعل علاقتنا مع العرب أكثر متانة وأقل عرضة للمشاكل والمصاعب . كما إنه يمثل اعترافاً بمبدأ التعاون بدلاً من الهيمنة وهو أمر يلقى مني كل ترحيب . ولابد لي من القول بعدم جدوى التظاهر بأن ما يستأثر باهتمامي لا يقتصر على المشكلة الشرقية فقط ، بل لا يوجد ما يستأثر باهتمامي عداها ، فهي كفيلة بأن تستحوذ على اهتمام كل من يتعامل معها وأن تحول دون تمكنه من الالتفات إلى قضايا أخرى .»

وفي الخامس من أيلول كتبت تقول :«آمل أن نحظى بحيازة خطوط السكك الحديدية الفارسية خلال هذا الأسبوع . (وعلى الساحة العراقية) منينا بخسارة عسكري آخر يضاف اسمه إلى قائمة من فقدناهم من مساعدي الضباط السياسيين ، وأقصد بذلك مساعد الضابط السياسي في كفري . كان شخصاً لم أحظ بمعرفته . وكان قد تم أسره من قبل بعض أفراد العشائر وإيداعه السجن حيث لقي مصرعه مقتولاً على ما أعتقد . يالها من حادثة مروعة ومخجلة ، ولكن علينا أن ندرك جيداً أن الوحوش الأهماج لا يتوانون عن ارتكاب الأعمال الوحشية عند خروجهم للقتال ، وإن العشائر ، برغم تعاقب الألفيات ، قد أخفقت في الارتقاء إلى غير مرتبة الوحوش والأهماج . وأنا بدوري أميل كلياً إلى تأييد ضرورة قيامنا بتنفيذ عدد من الإعدامات (بحق رموز التمرد) في حال تمكننا من القبض عليهم ، وإلى

إمكانية التعامل بلين بعد ذلك مع عامة الأفراد ، وهذا هو رأي العقيد ولسون فيما أعتقد . كما أميل إلى الظن بوجه عام أيضاً بأن وضعنا هنا يضاهي وضعنا في إيرلندا .(٥)

وتزداد الأمور تعقيداً بفعل الهراء الذي يكتبه توماس إدوارد لورنس (المعروف بـ لورنس العرب) في الصحف اليومية . ذلك لأن الحديث عن تشكيل جيش عربي قوامه فرقتان ليس أكثر من كلام فارغ . فباستثناء الضباط ، لا نملك مقومات تشكيل هذا الجيش . لقد قمنا أثناء الحرب ، وبشكل متقطع ، بتشكيل فرق عمل بلغ تعداد الواحدة منها عشرين ألف رجل ، إلا أن ذلك تم بعد ممارسة الكثير من الضغوط . ويعترف الجميع أن ما شهده القطاع الزراعي من السكان من هدر ونزف في حينه قد مثلا في الواقع أقصى ماكان بإمكان هذا القطاع تحمله برغم أننا كنا نسمح لأفراد فرق العمل آنفة الذكر بالعودة إلى الحقول في موسم الحصاد .»

في هذا الجزء من الرسالة أضافت جيرتروود ملاحظة دونتها بالحبر الأحمر فكانت بمثابة استدراك يتعلق بفرق العمل . وبهذا الصدد فإنها تقول : «أود إعادة النظر في تعداد هذه الفرق - لقد بلغ تعداد الواحدة منها ستين ألف رجل . وقد علمت بأننا نستطيع جمع عشرين ألف رجل من غير اللجوء إلى التجنيد الإجباري وذلك على مدى عامين من الزمن أو ما يقرب من هذه الفترة . أما تحويل هذه المجموعة إلى جيش فعملية لا يمكن الانتهاء منها بصورة مرضية في أقل من خمس سنوات .»

ثم تواصل جيرتروود كتابة رسالتها بعد ذلك لتقول :«تم لنا حتى الآن تسجيل ثلاثين ألف رجل ، أو أكثر ، في إطار القوات المجندة (الليفي : Levies) ، وإن هذه القوة تبلي بلاءً حسناً في منطقة الحلة . وإني لعلى ثقة من أن عملية تمكن القطر من توفير العدد الكافي من الرجال لغرض حفظ الأمن والنظام تتطلب في الواقع وقتاً طويلاً . وكان لدى الأتراك قوات

(٥) على الرغم من أن النضال الايرلندي للتخلص من الحكم البريطاني مثل حالة تعود بداياتها إلى سنين طويلة نسبياً ، إلا أن الربع الأول من القرن العشرين شهد تصعيداً مثيراً للقضية الايرلندية . وتعتبر الحركة المعروفة باسم«انتفاضة عيد الفصح» The Easter Rising أبرز معالم هذا التصعيد وهو ما شهدته إيرلندا عام ١٩١٦ . وقد ظلت القلاقل والاضطرابات تعم أرجاء ايرلندا (وجنوبها بشكل خاص على وجه التحديد) التي لم تشهد هدوءً نسبياً إلا في عام ١٩٢٢ عندما تشكلت الحكومة المؤقتة للدولة الحرة التي ترأسها مايكل كولنز Michael Collins أحد أبرز رموز حركة الكفاح الايرلندي والذي لقى مصرعه بعد عشرة أيام من تسلمه منصب الرئاسة - المترجم

تركية إلا أنهم لم ينجحوا في فرض النظام وتحقيق الأمن . بالإضافة إلى ذلك فإنهم فرضوا نظام التجنيد الإجباري . ومن جانب آخر ثبت أن السوريين كانوا دون مستوى البراعة في هذا المضمار .(٦)

لايسعني تبرير إخفاق وزارة الهند في الانصراف إلى الاعتراض على ما تنشره الصحف من هراء وتكذيبه . وعودة إلى توماس ادوارد لورنس : إن ما يقوله عن قيامنا بفرض اللغة الإنجليزية على القطر ليس ادعاءً كاذباً فحسب بل هو افتراء يدركه لورنس نفسه حق إدراك . فالعربية هي لغة العمل الرسمي ولغة كل الإجراءات التي تقوم بها الدوائر والأوساط الرسمية ، كما أنها اللغة المعتمدة في المدارس ، والمحاكم ، والمستشفيات ، ولا توجد لغة بديلة لها ، وهي ظاهرة يشهدها القطر للمرة الأولى منذ سقوط دولة العباسيين .

صحيح أننا نعاني بوجه عام من ظروف وأوضاع ما كان يمكن لنا أبداً أن نمارس أي نوع من السيطرة على مسبباتها ، أو التحكم في مساقاتها . إن الاندفاع الجارف لكل من تيار الوعي القومي القادم من سوريا ، والتيار الإسلامي الموجه إلينا من تركيا بكل ما انطوى عليه من سخط واستياء ، قد ثبت من غير أدنى شك أنه أكبر بكثير مما كان باستطاعتنا مجابهته ومقاومته برغم كل ما أوتينا به من بعد نظر وقدرة على استشراف آفاق المستقبل ، بيد أن ذلك لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يبرر ما كنا عليه من جهل وحماقة وتهور . هناك فئة قليلة في بغداد ترغب في انتداب بريطاني . لا أحد يعلم ما الذي يريدون(٧) على وجه التحديد ، بل وأنهم أنفسهم لا يعلمون ما يريدون اللهم إلا باستثناء عدم رغبتهم في بقائنا . ترى هل سيتمكن السير برسي من اكتشاف دخيلة هذا الشعور؟ وثمة احتمال مفاده أن الخسارة المالية ، والشعور بالانزعاج والقلق ، اللذين يمثلان حصيلة ما جاءت به الانتفاضة العشائرية (إذ تكاد تكون الفواكه والخضروات سلعاً نادرة في الوقت الذي حققت الأسعار فيه ارتفاعاً فلكياً) قد يدفعان بالناس إلى استنتاج حقيقة مفادها أن ما حصل لايعتبر صيغة ملائمة للاحتجاج . إلا أن بإمكانهم من جانب آخر تجنب الاعتراف بذلك من خلال قولهم أن العشائر ما كانت لتشق عصا الطاعة لولا وجودنا في بلادهم ، وهذه هي الحقيقة لا مفر منها ، أي لولا وجود حكومة بالمرة . لم تكن هناك حكومة في سوريا .«إن الجميع يجلسون

---

(٦) إن ما تقصده جيرتروود هنا يتعلق بالأداء الحربي للقوات العربية التي قاتلت الفرنسيين واندحرت في معركة ميسلون- المترجم

(٧) أي ما يريده المتمردون - المترجم

في بيوتهم لأنهم لا يجرؤون على الخروج منها ؛ هذا ما أخبرني به أحد أصدقائي من أفراد عشيرة العقيل إثر عودته من دمشق قبل بضعة أشهر . ليست الحكومة الجهة التي تدفعهم إلى البقاء بهدوء في بيوتهم . فالحكومة لا وجود لها أساساً . أن عبارة «أنا تاجر» هي الفيصل ، ولكن «البازار» خلو من التجار !

مرة أخرى أعارض بشدة ما يقوله توماس ادوارد لورنس وهو أن الإنسان العربي لديه الخلق Character[٨] وأن ما يحتاج هو الذكاء Intelligence . وواقع الأمر هو على العكس من ذلك تماماً ، فالعربي يمتلك الكثير من الذكاء ولكنه يفتقر إلى الخلق (الشخصية) . ولابد للناس أن يدركوا أن ذلك ما الدولة العظمى المفوضة بالانتداب مدعوة بالأساس إلى تهيئته والنهوض به . فهل يمكن تحقيق ذلك؟»[٩]

وفي الثاني عشر من أيلول كتبت جيرترود قائلة : «هناك شائعات مفادها اندلاع ثورات

---

(٨) أثرت اختيار عبارة خلق (بضم الخاء واللام أو بضم الخاء وسكون اللام) باعتبار أنها تعني نظاماً متكاملاً من الخصائص السلوكية التي تميز شخصاً ، أو مجموعة من البشر ، وتشكل بمجموعها الهيكل النفسي لهذا الشخص ، أو المجموعة ، كما أنها المحرك الذي يدفع بهذا الشخص ، أو المجموعة ، إلى السلوك إزاء المواقف المختلفة سلوكاً متفقاً مع الذات . وعلينا أن ندرك الفارق بين مفهوم الخلق ومفهوم الشخصية ، فالتركيز في الأول يتجه إلى الإرادة ويتحدد بالتقييم بينما يتناول في الثاني المظاهر الاجتماعية للسلوك عموماً . يمثل هذا بوجه عام تعريف الدكتور أحمد زكي بدوي الذي تضمنه معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية (مكتبة لبنان - بيروت ١٩٨٦) أما الأستاذ منير بعلبكي في موسوعة المورد العربية (بيروت - ١٩٩٠) فإنه يعرف عبارة الخلق بأنها الاسم الذي يطلق على مجموعة السمات والصفات التي تقرر فعالية المرء الاجتماعية ، أو لا فعاليته ، والتي تمكننا من التنبؤ بطريقة سلوكه . وقد عرف بعض علماء النفس الخلق بأنه «الشخصية مقيمة بمقياس قانون أخلاقي» مع التوكيد على القدرة (أو عدم القدرة) على التنظيم والتركيز وتوجيه السلوك نحو أغراض خاصة وعامة يختارها المرء بنفسه . وليس من اليسير دائماً التميز بين مفهوم «الخلق» ومفهوم «الشخصية» على اعتبار أن كلاً من المفهومين يتصل بالظاهرة الاجتماعية لسلوك الفرد .» أما مفهوم الذكاء فيعني القدرة على التحليل والتركيب والتميز والاختيار والقدرة على مواجهة المواقف الجديدة بنجاح - المترجم

(٩) لابد للقارئ الكريم أن يدرك أن كلا الشخصيتين لورنس وبيل ينطلقان ولاشك من فهم استشراقي للمجتمع العربي ، ومن موقع استعلائي . والتفاوت بين نظريتهما للشخصية العربية نابع بالأساس من اختلاف مهماتهما : العسكرية لدى الأول والمدنية لدى الثانية ، علماً بأنهما يلتقيان في نهاية الأمر في دوافعهما الاستعمارية بعيدة المدى - المترجم

في أرجاء سوريا . إنها أخبار لا نعلم بمدى صحتها وذلك لأننا في الواقع لا نستلم أية معلومات رسمية . ولعل ما يبدو غريباً ولا يمكن تصديقه هو افتقارنا إلى أخبار رسمية تتعلق بالتسوية المصرية ، وإن ما لدينا من أخبار هو ما ينقل إلينا عن طريق رويتر فقط . أما الأخبار الخاصة بالقدس فمقطوعة عنا تماماً منذ وصول السير هيربرت صموئيل Sir Herbet Samuel إليها ، ومع ذلك فإن ما يفهم مما تنشره الصحف المصرية من أخبار يشير بوضوح إلى أن الأمور هناك غير مطمئنة بالمرة ، ولابد من القول أن الصحف المصرية هذه لا تصلنا إلا بعد أن يكون قد مضى شهر على تاريخ صدورها ، ومع ذلك فإنها تبقى مصدري الرئيس لتسقط أخبار العالم العربي ، اللهم إلا باستثناء ما يردني أحياناً منها بفضل وصول قافلة من القوافل التي يرعى رجال العقيل شؤونها . ومن جانب آخر فإن الصحف (التي تأتي من بلاد الشام) تفتقر إلى الوضوح بسبب ما تمارسه السلطات الفرنسية من رقابة مشددة على المطبوعات في بيروت . وكاد يمضي شهر على وصول آخر قافلة ، بيد أنني أتوقع وصول واحدة من حلب هذا الأسبوع .

إن الهاجس الحالي للجنرال السير ايلمار هالدين هو أن تمرد العشائر يعود بالأساس إلى ما ولده ضباط سياسيون معينون لدى الناس من شعور بالكراهية . ويؤسفني القول أن الجانب هذا لا يخلو من صحة فيما يتعلق بالديوانية . وإذ أقول ذلك ، فإنني لا أعني أن قيام التمرد يعود فقط إلى ما لدى الناس من شعور بالكراهية ضد الرائد ديلي Major Daly(١٠) إلا أن شعور الكراهية هذا قد عجل بتفاقم الأمور . لقد بدأت الحركة في الديوانية ذاتها- أي أن طبقة الجليد قد انهارت عند الموقع الأشد وهناً . وباستثناء حالة العقيد ليجمان ، الذي كان هو الآخر أيضاً مكروهاً إلى درجة كبيرة جداً (فقد قال لي فتوح في أحد أيام شهر أيار المنصرم أن ليجمان هذا سيقتل بالتأكيد ، وقد قمت بدوري بنقل هذا الانطباع إلى العقيد ولسون في حينه) ولا علم لي بأية حالة معينة أخرى تعكس وجود علاقة غير ودية بين الضابط السياسي المعني وأبناء الشعب . ويعاني السير ايلمار بطبيعة الحال من جهل تام (بمجريات الأمور وطبيعتها) .

تناول طعام العشاء على مائدتي قبل بضعة أيام صديقي الطيب ، الجنرال همبرو ، الذي

---

(١٠) من أجل الاطلاع على بعض جوانب الأعمال المشينة للرائد ديلي ، اقترح على القارئ الكريم الرجوع إلى كتاب فريق المزهر الفرعون (الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها) - بغداد ١٩٥٢ وكتاب J.S. Mann. الموسوم An Administrator in The Making London. 1921. وذلك على سبيل المثال لا الحصر - المترجم

اقترح فكرة مثيرة مفادها وجوب قيامنا بتخريب مناطق المتمردين . وإزاء ذلك قمت مع السير أدغار بونهام كارتر بإعلامه بأن مناطق المتمردين التي تقع ضمن حدود مسؤولياته المباشرة ، أي في كل من ديالى و الهندية ، تمثل موجودات عقارية تعود ملكيتها إلى وجهاء بغداديين ، وبأن إمكانية نجاحه في إنزال خسائر فادحة في أملاك تعود إلى النقيب و أحد أعيان اليهود وأناس آخرين ، لن تجدي في تهدئة الأوضاع في البلاد . كم أتمنى أن يكون الناس على بينة من حقيقة الأمر ! وهنا تكمن المشكلة .

إن السيد سيف الدين ، أحد أبناء النقيب ، متواجد على أرض المزرعة طوال هذه الفترة بعد أن تم إجباره على القيام بتزويد أبناء العشائر (بكل ما يحتاجونه) من خيرات هذه المزرعة . إنها من غير أدنى شك تجربة مرة بالنسبة للسيد سيف الدين ، إذ أن عائلة النقيب لا تقوم بالعادة بمنح أي شيء لأحد .

إن ما تشهده بغداد من تغير مفاجئ في الاتجاه لأمر مضحك للغاية ! إنهم يناقشون الآن ما إذا كان بإمكانهم توجيه رسالة إلى السيد أسكويت يلتمسون فيها العفو (ويعدون) بعدم الخروج بأية عبارة ضد الانتداب البريطاني . وعندما يأتون إلي بهدف الاستئناس برأيي أُجيبهم قائلة : ما الذي يمنعكم عن ذلك؟»

وفي التاسع عشر من أيلول كتبت مايلي :«يشهد الوضع تحسناً عاماً بدليل تمكن قواتنا من بسط سيطرتها وانصراف أبناء العشائر إلى الاستسلام . إن الشيوخ بطبيعة الحال يبذلون جهداً من أجل تبرئة أنفسهم - إنهم ليسوا بالضبط مجموعة مثالية من الأخيار ، بيد أنها الصورة التي يودون عكسها عن أنفسهم ، وبذلك تجدهم يطرحون الحجج المؤيدة لمواقفهم بدقة متناهية . ومما يجدر الاعتراف به إخفاقنا في الإيحاء بما يوحي أننا لم نعط أية إشارات بنوايانا حول الإيفاء بوعودنا ، وبقدر تعلق الأمر بالسكان المحليين فلم تتوفر لدينا نية الوفاء بهذه الوعود طالما كان بإمكاننا ذلك . صحيح أن العقيد ولسون أجرى تغييراً كاملاً ومفاجئاً في الموقف ، وأن هذا التحول في الاتجاه قد تزامن مع (قرار) منحنا الانتداب (على العراق من قبل عصبة الأمم) ، إلا أن ما يدعو إلى الأسف هو أنه قد تزامن كذلك مع الاضطرابات والقلاقل في بغداد ، وهو ما يبرر انصراف الشيوخ وغيرهم إلى الظن بأن تغير العقيد ولسون إنما جاء بسبب الاضطرابات لا بسبب منح الانتداب . ما كان لأحد - بما في ذلك حكومة جلالة الملك - أن يفكر باحتمال منح العرب حرية تصرف كتلك التي نحن الآن بصدد منحها لهم نتيجة التمرد ! أما أمر ما إذا كان ذلك بالنتيجة سيعود عليهم بالفائدة ، أم أنه سيؤدي إلى إعاقة نمو الدولة الحديثة فمسألة أخرى . أما من وجهة نظري الشخصية ، فإن من شأن هذه النتيجة أن تدفع بعقارب الساعة

خمسين سنة إلى الخلف ، وهو جانب لا أجدني واثقة من إنني سأعيره أية أهمية . وإنني لعلى ثقة تامة من أن الشبان المتحمسين من بين أصدقائي كانوا يفضلون سكب الخمر الجديدة في زقاق عتيقة[11] بوفرة ، ولذلك أجدني سعيدة جداً ذلك لأن ما كان من شأنه أن يقف حائلاً دون قيامنا بإنشاء إدارة قائمة على أسس متقنة وتامة سيعمل بدوره على إعاقة تقدمهم وتعثر خطاهم . ورغم كل ذلك لا يمكن لجيلين أن يشكلان فترة طويلة بحساب الدهر ، وإن ما أعني بهذا الصدد هو انتفاء الضرورة للعجلة .

إن واقع كوننا مذنبين ومدانين بارتكاب خطأ في البداية يجعل من الصعب علينا الرد على رسائل كتلك التي يكتبها توماس ادوارد لورنس - إنها مضللة تماماً على ما أعتقد ، بيد أن إدراك ذلك (أي لماذا تعتبر مضللة) يتطلب منا قدراً كبيراً من المعرفة الوثيقة لا بتفاصيل الأحداث على مدى العامين المنصرمين فحسب بل وبتفاصيل تتعلق بالبلاد وسكانها الأصليين ، ناهيك عن طريقة تعاملنا معهم ، الأمر الذي يكاد يدفعني إلى اليأس بسبب إخفاقي في تدارك الخطأ ووضع الرأي العام في الإطار الصحيح للأحداث . ولقناعتي وإيماني الراسخين بأن لورنس ليس بغافل أبداً عن حقيقة ما يدور على مسرح الأحداث ، فإنني أعتبره مذنباً بارتكاب منكر لا يغتفر وذلك من خلال تعمده الانصراف إلى التعتيم على الحقائق . إننا في هذا البلاد نقف إزاء مهمة في غاية الصعوبة بينما يعمد لورنس إلى الإسهام في جعلها أكثر صعوبة وتعقيداً عبر دأبه على حمل الرأي العام على الاعتقاد بأنها سهلة . كيف يمكن لهذه المهمة أن تكون سهلة عندما يطلب منك التوفيق بين الأفكار والمثل الخاصة بمجتمع قبلي لم يعرف التغيير أبداً على مدى الخمسة آلاف سنة المنصرمة من جانب ، وبين تلك الخاصة بعصبة من الساسة من أبناء المدن الذين تفتقر ممارساتهم إلى النضج والبراعة والذين يكيلون لك اللوم لإخفاقك في إقامة جامعات . وإذا ما تساءلت عن مصدر التمويل لهذه الجامعات فإنهم يشيرون إلى الحكومة غير واعين بأن الحكومة لا يمكن أن يكون لديها قرش واحد عندما تعجز عن جبايته من أبناء الشعب . وبقدر تعلق الأمر بهذه المشكلة فإننا لم نتوصل على ما يبدو إلى هذا الاستنتاج المنطقي حتى في إنجلترا !

دعني أضرب لك مثلاً مذهلاً من نوع آخر : إنهم يطالبون بحق التصويت لكل من هم في سن الرشد من أبناء الشعب كما كان عليه الحال إبان الحكم التركي على حد تعبيرهم . إن الحق هذا كان بالتأكيد قائماً إبان الحكم التركي ولكن على الورق فقط . ففي واقع الحال

---

(١١) العبارة مستوحاة من إنجيل متى (الاصحاح التاسع ،الآية السابعة عشر) - المترجم

لم يتم لأي فرد من أبناء العشائر تسجيل اسمه (في قوائم الناخبين) إذ أن ذلك كان يعني أن الفرد هذا يصبح عرضة للخضوع إلى مبدأ التجنيد للخدمة العسكرية . وبذلك لم يكن سكان الأرياف ممثلين ، وهو أمر لم يعن شيئاً لهم آنذاك أكثر مما يعنيه الآن . واعلم بأنك إذا ما أردت أن تشكل هنا جيشاً قائماً على مبدأ التجنيد الإجباري فإنك سترى تكراراً لتلك الظاهرة . أما إذا أردت أن يكون الجيش هذا قائماً على مبدأ التطوع فعليك دفع الرواتب وفق النسب السائدة حالياً ، ولربما أكثر من ذلك ، من أجل دفعهم على ترك بيوتهم . والمعدل الحالي هو روبيتان ، أو ثلاث ربيات ، في اليوم الواحد والذي يصل مجموعه إلى ما يعادل مائة باون إسترليني في العام الواحد ، وهو مبلغ باهظ جداً في بلد يشهد بواكير عملية للتنمية وحيث يحتمل أن يصوت القسم الأعظم من سكانه ، في حال منحوا حق التصويت ، ضد فرض الضرائب ! وإزاء ذلك نجد أن لورنس يتحدث عن تشكيل فرقتين عسكريتين وكأن أمر تشكيلهما يمكن تحقيقه يوم غد . كيف يمكن تمويل هذا الجيش؟

زارني يوم أمس الشيخ حسن السهيل ، شيخ عشيرة بني تميم وقد سررت جداً لرؤيته ، ذلك لأننا كنا قلقين بشأنه بسبب وجود مضارب ضاري - الشيخ الذي قام بقتل العقيد ليجمان - على مقربة من موقعه ، ولأننا كنا نواصل قصف هذه المضارب . إلا أن ضاري قد ولى الأدبار الآن بعد أن تخلى عنه معظم أفراد عشيرته . وقد جاء الشيخ حسن ، تعلو وجهه ابتسامة عريضة ، ليقوم بجولة من الزيارات . إنه شخص محبوب للغاية .

استضفت كلاً من القنصل الأمريكي والسيد انغرتMr. Engert والنقيب كلايتون في داري حيث تناولنا طعام العشاء وقد وجدت السيد انغرت شخصاً ممتعاً للغاية . وبعد إطلاعه على بعض ما لدينا من الأوراق ، بذلنا جهداً كبيراً في مجال شرح أبعاد الوضع الخاص بنا . لقد حدثته بكل وضوح وصراحة ، وهو ما ينبغي أن يكون عليه الحال بين الزملاء على ما أعتقد لا سيما عندما يكون الشخص المعني ممن لهم اطلاع واسع على تفاصيل المسألة الشرقية . ويرى السيد انغرت أن بريطانيا بمثابة القيم على شؤون الشرق الأدنى ، نظراً لرفض الولايات المتحدة أن يكون لها يد في الأمر ، كما أنه يميل إلى حث حكومته على منحنا كل ما تستطيعه من دعم مادي ومعنوي لمساعدتنا . وأنه ، على ما أفهم ، قد وجه مذكرة مفصلة إلى واشنطن بهذا الخصوص . وأنا بدوري أرغب في أن يزورنا مزيداً من هذه الفئة من الشخصيات ليروا الأشياء كما هي على أرض الواقع .

أما القنصل الفرنسي هنا فلا أجد لدي الرغبة في لقائه بسبب عدائي الشديد للسياسة التي تعتمدها فرنسا في الشرق - بل وفي كل مكان - الأمر الذي لا يمكنني من أن أسلك

معه سلوكاً حضارياً . وبهذا الصدد أجدني أتطلع بشيء من الفرح إلى الخطوة اللعينة التالية التي ستخطوها فرنسا في سوريا . ولقد تم لي الحصول على المعلومة التي كنت أتوقع استلامها وذلك بفضل إحدى قوافل العقيل القادمة مباشرة من دمشق . وتعتبر المعلومة هذه تصحيحاً أميناً للبلاغات الكاذبة التي يعمد الفرنسيون إلى نشرها .

إن العالم يزداد جنوناً على ما يبدو . ولا أود الكتابة حول ما له علاقة بالأحداث الخاصة بايرلندا ، وإضرابات عمال مناجم الفحم ، وروسيا بسبب كونها جوانب لا يسع المرء إزاءها إلا الخروج بعبارة «رباه !» .

وفي رسالة وجهتها إلى أبيها في الخامس والعشرين من شهر أيلول . قالت جيرتروود :«إن ملاحظاتك حول الرسالة التي وجهتها إلى السيد إسكويت مثيرة للاهتمام جداً . ما كان ليخطر ببالي أبداً ، ولا يمكن أن يخطر بالمرة ، أن يقف العقيد ولسون موقف المعارض من رسالتي آنفة الذكر لأنني كنت قد عرضت محتواها على أنظاره وقمنا معاً بعد ذلك بمناقشة نقاط عديدة فيها الأمر الذي يبرئ ساحتي ، وأنني على ثقة من أنك تؤيدني في ذلك . لقد اضطررت إلى الكتابة لأن العقيد ولسون كان من بين أولئك الذين راحوا يواصلون طرح فكرة حمقاء تقضي بقيامنا بإخلاء بغداد والصمود في البصرة ، وهي فكرة لم تلق أية معارضة أبداً الأمر الذي دفعني إلى التفكير بإمكانية التوجه إلى من لرأيه وزن مؤثر بهدف إيضاح عدم جدوى هذه الفكرة وافتقارها إلى أي مبرر منطقي .

أعلمني السيد بولارد مؤخراً بما طرق سمعه من أخبار تتعلق برغبة حكومة صاحب الجلالة في إقامة حكومة عربية ، وبتصميم العقيد ولسون على الوقوف بوجه هذه الرغبة ومحاربتها . وتحدث السيد بولارد وكأن الأمر لا يعدو أكثر من مجرد جانب يثير السخرية ، بيد أنه الواقع بذاته ، أو أنه كان الواقع بذاته حتى شهر نيسان المنصرم عندما اكتشف العقيد ولسون أنه قد اندحر وبات مغلوباً على أمره . إلا أنني لم أخبر السيد بولارد بهذه الحقيقة إذ لا جدوى من ذلك بالأساس ، فهو يمثل صفحة طويت . ولكن عندما حضر النقيب كلايتون إلى العراق في شهر حزيران واطلع على مضمون الملفات فإنه سرعان ما أدرك حقيقة الواقع ، واتضحت له الصورة بفضل ذات الضوء الذي قدر لي رؤيتها فيه ، وقد تم له ذلك من غير ثمة تحريض أو إيحاء من جانبي . وعليه فإنني سأستشهد بما قاله نصاً باعتباره شاهداً محايداً ، لا يميل إلى محاباة أي طرف معين :

هنا ينتهي البحث إذاً ، أيتها الحبيبة . لا أخالني أكترث لرأي أحد آخر غيرك حول ما أسلك من نهج . ومن خلال علاقتي بالعقيد ولسون وجدت أنني كنت أتلمس طريقي في

وسط مظلم بسبب إخفاقه في التعامل معي بصراحة وشفافية . ولكنني التزمت على ما أعتقد التزاماً أميناً بالبرنامج الذي وضعته حكومة جلالة الملك ، وما كان بإمكاني أبداً اعتماد مسار مغاير بسبب تمسكي الصادق بهذا البرنامج .»

وفي السابع والعشرين من أيلول كتبت قائلة :«كان أسبوعاً مترعاً بحفلات الوداع التي أقيمت على شرف العقيد ولسون (بمناسبة انتهاء مهامه في العراق) . وقد عرج لوداعي شخصياً في الليلة التي سبقت نهار سفره . وفي هذه المناسبة أخبرته بما يعتريني من وهن في العزيمة ناتج عن التثبيط ، وبأسفي الشديد على إخفاقنا في تحقيق الانسجام في علاقتنا . وقد أجاب بدوره قائلاً إنه قد جاء ليعتذر عن كل ما بدر منه ، إلا أنني سارعت إلى القول بأنني لم اكن أقل خطأً منه في إطار علاقتنا معبرة عن أملي بأن لا يحمل في نفسه مشاعر غير ودية تجاهي ، وقد لقي هذا الالتماس الوجداني تجاوباً طيباً من قبله . أما عن رأيه الحقيقي حول الأمر بأكمله فجانب لا يعلمه سوى الله تعالى . وعلى الرغم مما يتميز به من إمكانات رائعة وشخصية فذة ، سأكون سعيدة جداً في حال ابتعاده عن العمل السياسي في آسيا . أن ما شهدته المنطقة من أحداث سيحفظ في الذاكرة باعتباره جانباً سلبياً وحجة في غير صالحه ، وسيحمل وزر الكثير مما لم يكن مسؤولاً عنه أبداً . ولكنني لا أظنه سينزوي عن مسرح الأحداث ، وسيواصل ممارسة نفوذ كبير بفضل ما يمتلك من قدرات ، وهو ما يثير الرهبة في نفسي . لا أظن أن لرجل من طراز ولسون من المرونة ما يدفعه إلى الرضوخ إلى أحكام الواقع الجديد الذي أفرزته الحرب والذي بات من شأنه تنظيم العلاقة التي تربط أوربا بآسيا ، وأنا من جانبي أفضل أن أرى المستقبل بأيادي من هم أقل حظاً في مجال قدراتهم العقلية ، ولكنهم يتمتعون بفهم إنساني أوفر حظا . لقد تم تلقينه درساً مراً هنا ، وهو درس أرفض رفضاً باتاً الإيمان بأن ولسون قد أخفق في الاتعاظ به وذلك انطلاقاً مما أكنه من احترام شديد لذكائه وقدراته العقلية ، أما الإمكانية على تغير وجه نظره ومواقفه ، وقد بلغ ما بلغه من العمر ، فأمر مشكوك فيه . ولعل وجهة نظري خاطئة ، فإذا ما ثبت ذلك ينبغي بالتأكيد عدم بقائي في موقعي هنا . ويخضع الجانب هذا إلى تقدير السير برسي .

لا يوجد ثمة ما يدفعني إلى الشعور بالرضى عن دوري في القصة ، وإذا ما أريد تحديد الجهة الأكثر تقصيراً سأكون أنا الملامة بالتأكيد إذ ما كان ينبغي لي مواصلة البقاء في موقعي بعد اكتشافي مدى اختلافنا في المواقف والاتجاهات . وأنني لو كنت أدركت مدى معارضته الشديدة لمواقفي ، لما توانيت عن الرحيل أبداً . وبأية حال فإنني أطوي الصفحة بشعور من يترك خلفه فصلاً لا يبعث على الراحة والرضى أبداً .»

الفصل الخامس عشر

١٩٢٠

يسجل هذا الفصل بادئ ذي بدء تفاصيل التحول التام في موقف جيرتروود بيل لصالح إدارة عربية بقيادة أمير من أسرة الشريف (حسين)، تعمل بمنأى عن سيطرة وايتهول Whitehall، مع وجود السير برسي كوكس والمستشارين الذين يقتصر دورهم على تقديم المشورة والعون فقط. فبعد أن كان موقفها معارضاً لهذه الفكرة باعتبارها خياراً يستحيل تحقيقه، فإنها تقوم الآن بتبني المشروع بهمة وحماس ملحوظين، وتلعب دوراً قيادياً من أجل تحقيقه. وفي هذه الفترة بالذات، وحتى الوقت الذي تم فيه بلورة شكل معين لحكومة دستورية مسؤولة أمام البرلمان، مارست الآنسة بيل أقصى نفوذ قدر أن يكون لها، وعاشت أعظم لحظات حياتها.

ويضم الفصل هذا أيضاً سجلاً بالتفاصيل الخاصة بتشكيل أول مجلس وزراء عراقي برئاسة السيد عبد الرحمن أفندي النقيب، وبأحداث قدر لها أن تضع جيرتروود في تماس مباشر مع ثلاث شخصيات فذة هم النقيب ذاته، وجعفر باشا العسكري، وساسون أفندي حسقيل. وكان الأخير هذا كبير أعيان يهود بغداد، وحامل رتبة فخرية في نظام الفروسية المعروف باسم «فارس الأمبراطورية البريطانية Knight of the British Empire».

تواصل جيرتروود رسالتها المؤرخة في السابع والعشرين من شهر أيلول قائلة: «يسافر السيد طالب النقيب إلى البصرة للقاء السير برسي بناءً على طلب من الأخير هذا. وكان قد جاء لتوه لوداعي وكله ثقة في المستقبل. إنه يخفق تماماً على ما أظن في تقدير طبيعة ما يعترض طريقه من مصاعب. إنه لمن السهل جداً للمرء منا التحدث في العموميات، إلا أن الصعوبة تكمن في التفاصيل العملية.»

وفي الثالث من تشرين الأول كتبت ما يلي: «تعتبر مسألة الشيعة على الأرجح المشكلة الأكثر جسامة في هذا القطر، وقد شكلت موضوع نقاش دار ليلة أمس حول مائدة العشاء في داري. وبهذا الصدد تساءل عبد المجيد بك الشاوي قائلاً: «ماذا سيكون موقفكم في حال قيام المجتهد الأكبر بإصدار فتوى تحظر على الشيعي الجلوس في المجلس التشريعي، أو مواصلة النقاش حول مسودة قانون معين بحجة أنه مخالف لأحكام الشريعة الأمر الذي يستوجب رفضه بصرف النظر عن كل الاعتبارات الأخرى؟» وإذا ما تصورنا قيام البابا بممارسة سلطة دنيوية حقيقية في إيطاليا وعرقلة مساعي الحكومة وإجراءاتها ستتكون لدينا

صورة واضحة عن حجم المشكلة المطروحة أمامنا . إن العلاج يكمن - بمرور الزمن - في الوسيلة التي جاءت بها إيطاليا ؛ أي أن يتم النظر إلى البابا والمجتهد الأكبر باعتبارهما شيخين أحمقين لا أكثر من ذلك . ولكننا لم نصل بعد إلى مثل هذه المرحلة هنا .

إذا ما أردنا إقامة كيانات تعتبر بحق نظائر للمؤسسات التمثيلية ، فإننا سنجد أن العناصر الشيعية تشكل أغلبية الأعضاء فيها . ولهذا السبب بالذات لا يمكن إقامة ثلاث مناطق تتمتع جميعها بالحكم الذاتي . ولابد من الاحتفاظ بمنطقة الموصل السنية لتشكل جزءاً من دولة بلاد وادي الرافدين لغرض تعديل التوازن . وتعتبر هذه الحجة برأيي من بين الحجج الرئيسة باتجاه منح بلاد ما بين النهرين حكومة مسؤولة . وباعتبارنا أشخاصاً خارجيين ، فإننا غير قادرين على التمييز بين أبناء الشيعة والسنة ، ولابد من ترك هذا الجانب لهم لأنهم سيتمكنون بالنتيجة من تجاوزه ، تماماً كما فعل الأتراك من قبلهم ، بطرق ملتوية معينة تعتبر في الوقت الحاضر السبيل الوحيد للتخلص من المشكلة . ولابد للسلطة أن تكون بيد أبناء السنة ، على الرغم من كونهم أقل عدداً ، لتفادي قيام دولة يديرها المجتهدون تعتبر شراً ما بعده من شر . وهناك اعتباران مواتيان : أولهما احتمال أن يؤدي فشل الثورة - التي قامت بتحريض وتشجيع من لدن المجتهدين بقدر تعلق الأمر بالعشائر - إلى زعزعة موقع هؤلاء السادة كهداة دنيويين ، وثانيهما احتمال تهاوي المجتهد الأكبر إلى قبره - وهو مصير تم بمزيد من الأسف تفاديه قبل عام عن طريق طبيبنا في النجف - ليخلفه شخص أكثر تنوراً وانفتاحاً . هناك وجود لمثل هذه الشخصيات حتى بين صفوف المجتهدين .

ليتنا نتمكن من تنصيب أحد أبناء البلد رئيساً للدولة . إنني أتفق مع رأي عبد المجيد بك الشاوي فيما يتعلق باستحالة تنصيب السيد طالب ، وبعدم وجود بديل ممكن باستثناء أحد أبناء الشريف حسين . إن العناصر الشبابية في بغداد ، على ما أفهم ، قد كفوا عن تأييد الشريف عبد الله ، كما تقف مشاعر الفرنسيين حائلاً أمام (احتمال تنصيب) الشريف فيصل . لعن الله الفرنسيين .

عرج على مكتبي صباح اليوم الشيخ حسن السهيل وأعرب عن أمله في أن تسنح الفرصة لكبار شيوخ العشائر الذين لم يخرجوا (على القانون) لكي يتمكنوا من عرض وجهة نظرهم أمام السير برسي كوكس قبل دخوله في مفاوضات مع المتمردين . وخلاف ذلك سيصبح في مقدور الذين خرجوا عليكم وناصبوكم العداء وضع برنامج العمل ، ولذلك لابد أن يكون لنا يد في ما سيتم اتخاذه من تدابير ، ونحن بوصفنا من بين مؤيدي الانتداب البريطاني نرى أن لنا حقاً في أن تسمع آراؤنا أولاً . وقد قمت بدوري برفع مذكرة بهذا

الصدد إلى السير برسي . إن من شأن حفل تتم دعوته وفق الأسس التي يقترحها الشيخ حسن السهيل أن يكون بمثابة تظاهرة مهيبة يتم لنا من خلالها تسليط الأضواء على شيوخ بارزين مثل صديقي العتيد فهد بك ابن هذال شيخ عشيرة عنزة ، وشيوخ الدليم في أعالي نهر الفرات ، وشيخ عشيرة شمر في ولاية الموصل ، بالإضافة إلى شيوخ القبائل الكبيرة التي تتواجد في مختلف مناطق نهر دجلة . إنها بداية موفقة ، إذ أن من شأن هؤلاء الشيوخ أن يمثلوا أكثر من نصف مجموع أبناء العشائر في القطر .

منذ سفر العقيد ولسون يغالبني شعور من قدر له التحرر من كابوس رهيب لم أدرك مدى ثقل وطأته علي إلا بعد رحيله . كما أُخفق تماماً في تصور موقف السير برسي مني : هل سيرغب في بقائي أم لا ؟ وثمة جانب أكيد لا مجال للشك فيه وهو رفضي العمل مع العقيد ولسون مرة أخرى . وإذا ما قدر له العودة إلى العراق فأنني سأغادر المكان في لحظة وصوله إليه . لا يمكنني العمل مع أي شخص مثله مجرد من المبادئ الخلقية . إن عدم الثقة في أمانة الزملاء واستقامتهم كارثة ، وهو أمر لا أنفرد به ، إذ ساورت شكوك مماثلة السيد دوبس (السير هنري دوبس Sir Henry Dobbs فيما بعد والذي أصبح مندوباً سامياً خلفاً للسير برسي كوكس) انطلقت من نفس السبب هذا . كانت لدي وجهات نظر مختلفة ومستقلة - شأني بذلك شأن السيد دوبس - وهي جوانب كان بإمكان العقيد ولسون تجاهلها تماماً بقدر تعلق الأمر بي شخصياً على الرغم من إخفاقه في تغييرها . أما بقدر تعلق الأمر بالسيد دوبس فلم يكن بإمكانه تجاهلها ولكن كان بإمكانه مضايقته إلى حد لا يطاق .

لم أحتفظ بنسخة من محضر ما دار من حديث مع عبد المجيد بك على ما يبدو ، وبذلك لا يمكنني ارتكاب حماقة إرسالها إليك (الكلام موجه إلى أبيها) . ويتمحور فحوى الحديث حول استهزاء (مجتمع) بغداد من طموحات السيد طالب وتطلعاته باتجاه تولي إمارة البلاد . ويقول عبد المجيد بك بهذا الصدد ما مفاده عدم وجود من بإمكانه تبوّؤ منصب رئيس الدولة مؤقتاً إلا السيد برسي ، فالمكانة الكبيرة التي يتمتع بها السير برسي هنا تجعل من حل مؤقت كهذا أمراً ممكناً . ومع ذلك فإن هذا الإجراء لا يجعلنا في حل من السعي بهمة وسرعة إلى التوصل إلى معالجة أكثر ديمومة» .

وفي العاشر من تشرين الأول كتبت تقول :«كنا نتوقع وصول السير برسي واللادي كوكس إلى بغداد يوم أمس ، إلا أنهما قررا قضاء يوم إضافي في العمارة والكوت وبذلك فإنهما لن يصلا إلى بغداد قبل يوم غد .

ما كاد يبارح السيد طالب بغداد متوجهاً للقاء السير برسي حتى برزت إلى السطح كل مشاعر الكره المضمرة له . وعندما شاع أمر عودته إلى بغداد بصحبة السير برسي ، راحت بغداد ترغي وتزبد غضباً ، فهي تعلم جيداً أنه سيعمد - وهذا هو ديدنه - إلى الظهور وكأنه هو الذي يشمل السير برسي برعايته ويقوم متفضلاً بتعريف الناس به . لا نعلم ما إذا كان السير برسي قد التزم بدعم السيد طالب وتأييد تطلعاته ، وإلى أي حد ، ومع ذلك فإن مثل هذا الالتزام لن يخفق في إثارة دهشتي . . وكان العقيد ولسون ، بفضل عدم اكتراثه واستخفافه بهذا الجانب يؤيد ترشيح السيد طالب غير آبه بما إذا كان هذا الترشيح يحظى بقبول عموم الناس أو رفضهم ، ولعله قد عمد إلى إعطاء السير برسي فكرة خاطئة عن الأمر . بيد أن السير برسي ليس من بين من يمكن خداعهم بظواهر الأمور ، وإنه سرعان ما سيتمكن من تحديد مدى قوة السيد طالب وما له من ثقل سياسي . وقد قمنا بإرسال برقية إلى السير برسي نوصي من خلالها بوجوب وصول السيد طالب إلى بغداد قبله - أي في هذا اليوم - ليكون نتيجة ذلك في استقباله (أي استقبال السير برسي) بوصفه رئيس لجنة النواب ، وليقوم بهذه الصفة بتقديم النواب إليه . إنها خطة ذكية وبارعة جادت بها قريحة النقيب كلايتون . من أجل أن تمنح السير برسي منفذاً (للتهرب من مأزق مصاحبة السيد طالب) في حال رغبته في منفذ كهذا .

ولابد من القول في هذا المجال بأننا جميعاً محايدون فيما يتعلق بأمر ترشيح السيد طالب ، بل أن نجاحه في كسب أصوات الناس ملائم لنا ، أما الانصراف إلى فرضه فسيكون وبالاً علينا لا محالة . وإذا ما توجب علينا في واقع الأمر فرض شخص معين ، فمن الأجدى بنا فرض السير برسي . وتتمحور الفكرة العامة حول محاولة إقامة حكومة تحظى برضى كل الأطراف المعنية ، إلا أن المشكلة تكمن في واقع أن مثل هذه الحكومة لا وجود لها أبداً .

قبل بضعة أيام دار بيني وبين ساسون أفندي حديث مثير للاهتمام ، بينت من خلاله أن لا مانع لدى السير برسي أبداً فيما يتعلق بالشخص الذي يختاره العراقيون ، أما من وجهة نظري الشخصية فأرى أن من الأجدى بهذا الشخص أن يكون أميراً عربياً . إزاء ذلك قال ساسون أفندي : إذا ما أدرك أبناء الشعب أنكم تؤيدون ترشيح السيد طالب فإنهم سيوافقون على ذلك ظاهرياً بصرف النظر عن رأيهم بالسيد طالب . أذكر في مناسبة جمعتني بالسيد طالب عندما كنا في طريق عودتنا بحراً من القسطنطينية وكان السيد طالب آنذاك عضواً في مجلس المبعوثان . أذكر جيداً أن أهل البصرة ، ومن غير استثناء

تقريباً ، كانوا يكرهون السيد طالب ويخشون شره ، ولك أن تصدقي أنهم جميعاً هرعوا إلى استقباله في مدينة المحمرة ، وأن الذين احتفوا به حفاوة بالغة كانوا من بين الأكثر كرهاً له . وهكذا سيكون الحال الآن .

تكتب الصحف الإنجليزية بوجه عام هراءً لا حدود له ، فهي تكتب على سبيل المثال إن ظاهرة سوء إدارة الشؤون العربية (في العراق) قد بدأت منذ وفاة الجنرال مود ! لا يمكن لأحد تصور مدى بعد الجنرال مود عن أية فكرة تتعلق بممارسة الحكم الذاتي في أي من مناطق آسيا . فالإعلان الذي تمت صياغته في الوطن ، والذي ينسب إليه اعتيادياً ، قد لقي منه قبولاً مشوباً بكثير من السخط والتذمر .[١] ولم يوافق على نشره إلا بعد استلامه أوامر شديدة اللهجة بهذا الخصوص . وبعد أن تم إصدار هذا الإعلان ، قضى السير برسي ستة أشهر مضنية في كفاح مرير من أجل محاولة التمسك بتطبيق أقل الحقوق المدنية اعتدالاً بحق السكان المحليين . لم يسبق لأحد قبل الجنرال مود أبداً اختيار لحظة أكثر يمناً ، وأعم خيراً ، للرحيل عن هذه الدنيا !

كما أن الادعاء بأن إدارة العقيد ولسون كانت رهيبة ودموية هو الآخر مثير للضحك ومدعاة للسخرية ، فهي لم تكن كذلك أبداً . إن الواقع الذي يشكل أساساً لكل صيغ النقد الموجهة (ضدنا)- الأمر الذي يجعل من الصعب جداً الخروج برد شاف لكل ما يقال وينشر - هو ذلك الوعد الذي قطعناه على أنفسنا بخصوص إقامة مؤسسات للحكم الذاتي والذي لم نكتف بعدم اتخاذ أية خطوة لوضعه في موضع التنفيذ فحسب ، بل عمدنا بالإضافة إلى ذلك إلى الانهماك في إقامة شيء مغاير تماماً . ولكن لنحاول الآن توزيع الانتقاد بصورة غير متحيزة . تقول إحدى الصحف عن حق بأننا وعدنا إقامة حكومة عربية يساندها مستشارون بريطانيون ولكننا أقمنا حكومة بريطانية بمشاركة مستشارين عرب . والآن دعنا نلتفت إلى منطقة منتدبة أخرى من المناطق التي تقع ضمن مسؤليتنا ، أي فلسطين ، حيث لابد على ما يبدو لي أن يتم تطبيق ذات المبادئ العامة المطبقة هنا . ومع ذلك فقد أقام هيربرت صموئيل في فلسطين بالضبط ما تمخض عن جهودنا هنا ، أي حكومة بريطانية بمشاركة مستشارين عرب . ولقد لجأ صمويل إلى هذا الحل إدراكاً منه أن في حال إقامة أي نوع من المؤسسات الأهلية ، التي تتمتع باستقلالية حقيقية ، فإنها من المحتمل جداً أن ترفض الصهيونية رفضاً

---

(١) الإعلان الذي صدر في أعقاب احتلال بغداد والذي نص على ما مفاده «إننا جئناكم محررين لا فاتحين» - المترجم

قاطعاً . ألا يعتبر ذلك تنديداً صريحاً بالصهيونية وشجباً واضحاً لها؟ هذا ما أعتقده أنا شخصياً ، وإنني على يقين كذلك باحتمال قيام فلسطين العربية Arab Palestine في يوم ما بالتخلص من نير الصهيونية بمساعدة مصر . ولابد من الاعتراف بهذا الصدد بأن الذنب في ذلك ذنبنا ، فلقد وفرت لنا التجربة في بلاد وادي الرافدين فرصة الاستفادة من درس بليغ الأثر مفاده أن المجاهرة بشيء معين لا يمكن أن تفضي إلى الانصراف إلى القيام بشيء مغاير تماماً .

أكتفي بهذا القدر من الحديث عن الجوانب السياسية الخاصة بنا في هذا القطر . خلال الأسبوع الماضي عرج علينا الجنرال ايرونسايد General Ironside وهو في طريقه إلى بلاد فارس ، وقد دار بيننا حديث مثير للاهتمام لأنه كان قد قدم لتوه من القسطنطينية . إنه إنسان رائع أولاً بوصفه من بين الأكبر شأناً ممن التقيت من الرجال ، وثانياً لامتلاكه كماً كبيراً من المعرفة والآراء السديدة حول مختلف الشؤون المتعلقة بالمنطقة التي تمتد من ميناء آركانجيل Archangel إلى سواحل البحر الأسود . إنه يبلغ السابعة والثلاثين من العمر ومع ذلك فهو ضابط برتبة لواء ، كما أنه مترجم بارع- بل ومن الصنف الأول من المترجمين- في مجال سبع من بين لغات العالم ، وبذلك فهو طاقة لا يمكن الاستهانة بها بيد أن الجانب الأهم من كل ذلك كونه رجلاً بكل ما تنطوي عليه العبارة من أبعاد ، ومن النوع الذي يمكن الاستفادة من قدراته في المناطق الشمالية من بلاد فارس .

جمعت مائدة العشاء في داري النخبة المعتادة من زملائي وهم الرائد يتيس ، والنقيب كلايتون ، والرائد موري بالإضافة إلى السيد حسين أفنان ، رئيس تحرير إحدى الجرائد العربية التي تصدر هنا . إنه لا يكاد يقل عني إجادة في مجال التحدث باللغة الإنجليزية ، كما أنه يحسن اللغتين العربية والفارسية ، بالإضافة إلى ما لديه من معلومات واسعة حول الشرق الأدنى وتفهمه التام لوجهة النظر الأوربية وتعاطفه المطلق معها . إنه ليس متفائلاً بما يتعلق بالشرق ، وإن ما يستقطب دهشته هو مدى ما تتميز به الحياة الخاصة في هذا العالم من إثم وافتقارها التام للقيم الأخلاقية . إن نمط عيش القسم الأكبر من العناصر الشبابية والقومية لا يخفق أبداً في إثارة دهشة المرء منا ، وعلى حد تعبير السيد حسين أفنان بهذا الصدد :«ما الذي يمكن توقعه من قوم لا يأوون إلى فراشهم إلا وهم سكارى ، فاقدي الوعي؟» ولا ينبغي الظن بأن ذلك قد جاء نتيجة التماس مع الغرب ، فلطالما كانت حياة المدينة على هذا النمط ، وسواء اعتادوا شرب الشمبانيا أو العرق فالنتيجة واحدة . فنادراً ما تجد محمدياً يحيا حياة محتشمة (كذا) . إنهم يدفعون صحتهم ثمناً لذلك ، وهذا يعني

قواهم العقلية أيضاً ! إنني لا أعرف علاجاً لهذه الحال . وإنه لأمر لا يخفق في إثارة الدهشة والعجب أن نكون نحن في أوربا قد تمكنا من الوقوف على حقيقة مفادها أن حداً أدنى مقبولاً من الفضيلة والأمانة يعتبر من بين الجوانب الضرورية واللازمة لأي مجتمع ناجح ، وهي حقيقة لم يتم للشعوب الآسيوية الوقوف عليها حتى الآن بصرف النظر عن الديانة التي ينتمون إليها .»

عاد السير برسي واللادي كوكس إلى بغداد في الحادي عشر من تشرين الأول ، وبفضل مناورات الآنسة بيل والنقيب كلايتون كان السيد طالب يقف فوق رصيف المحطة متقدماً أعداد المستقبلين من الأعيان ممن يتم جمعهم معاً اعتيادياً في مثل هذه المناسبات .

خرج السير برسي من داخل عربة القطار ببزة رسمية بيضاء ، وبعد أن صافح القائد الأعلى للقوات البريطانية في العراق صعد إلى منصة التحية حيث عزفت الفرقة الموسيقية العسكرية السلام الملكي البريطاني «ليحفظ الله الملك» . وبهذا الصدد كتبت جيرتروود تقول :« عندما وقف السير برسي ببزته البيضاء المزينة بشرائط ذهبية ، ووقار يوحي الرفعة والبساطة في آن واحد ، لم يسبق لي على ما أذكر مشاهدة استقبال أكثر هيبة وأهمية ، ولا شخصية راح يدور حولها ذلك الكم الكبير من المشاعر المتضاربة ، والآمال ، والشكوك ، والمخاوف ، ناهيك عما استقطبته فوق ذلك من ثقة تامة بما تمتع به من استقامة ونزاهة وحكمة . ولقد حاولت جاهدة مغالبة دموعي»(٢)

ما أن وصل السير برسي إلى بيته (دار الاعتماد) حتى أوضح لجيرتروود أنه سيعمل فوراً على اتخاذ ما يلزم بخصوص «تشكيل وزارة عربية كإجراء مؤقت» ، وقد تلقت جيرتروود هذا النبأ بكثير من الراحة والسعادة . كما قام في اليوم التالي باستدعائها إلى مكتبه حيث أسر لها بتفاصيل الإجراءات التي قرر اتخاذها ذلك اليوم . وعندما عادت إلى مكتبها واجهها سيل عارم من الرسائل والزوار ، وقد شكل التذمر العام من مراسيم الاستقبال الموضوع الرئيس ، وقد اتضح أن القسم الأكبر من الأعيان «قد تم تجميعهم مثلما تجمع القطعان وإجبارهم على الوقوف فوق أرض متربة خارج سياج المحطة» من غير أن يسمح لهم فرصة الوصول إلى السير برسي .

وفي رسالتها الموجهة إلى أبيها والمؤرخة في السابع عشر من شهر تشرين الأول تقول

---

(٢) هناك وصف مسهب لمراسيم الاستقبال التي شهدتها هذه المناسبة وذلك في كتاب رسائل جيرتروود بيل - تحرير اللادي سيل (زوجة أبيها) - المترجم

جيرتروود :« ومما زاد من مرارة هذه التجربة هو أن الشخص الذي تولى جمعهم بهذا الشكل لم يكن غير الرائد ديلي الـذي يعتبرونـه شخصيـاً مسؤولاً عن التمرد القبلي . ويتعلق السؤال الذي يطرح نفسه بهذا الصدد الآن بتحديد ماهية الخطوة التي سيتم اتخاذها . إن السيـر برسـي منهمـك في اجتمـاع مع ايفلـن هاويل Evelyn Hawell والعقيد سليتر Colonel Slater ، المعنيين بمستقبل أفراد الكادر البريطاني ووضعهم القانوني ، وهما جانبان لا أرى لهما أية أهمية في الوقت الحاضر مقارنة بتحديد مستقبل بلاد وادي الرافدين الذي يعتمد كلياً على رغبة أبناء شعب البلد وتوجههم . وعليه قررت فوراً القيام بتبوّؤ منصب السكرتيرة الشرقية ، والاضطلاع بما يترتب على شاغل هذا المنصب من واجبات» .

وبمساعدة من لدن السيد فلبي - الذي كان قد رافق السير برسي في طريق عودته إلى بغداد - قامت الآنسة بيل بإعداد جدول يضم أسماء مائة من الأعيان والشخصيات البارزة الذين ينبغي للسير برسي مقابلتهم شخصياً . ولقد وافق السيد برسي على هذه الإجراءات فوراً ، وتم إرسال الدعوات إلى المعنيين في اليوم ذاته ، وجاءت النتائج مرضية للغاية . وهكذا تم لنا تحويل وضع محرج إلى نجاح باهر . ومع ذلك ظل يراود جيرتروود شعور بالخوف والقلق مما كان يمكن أن تؤول إليه الأمور لو لم تتخذ الإجراءات السريعة التي تم اللجوء إليها .

وتقول جيرتروود : «إن من بين الأمور اللاحقة التي ينبغي لنا القيام بها هي : دعوة أشخاص معنيين من بين كبار شيوخ العشائر الذين أيدوا موقفنا في منطق الفرات ، أولاً ، وثانياً حث السير برسي على القيام بزيارة مدينة الموصل من أجل تفادي ما قد يعم أجواءها خلاف ذلك من شعور بالخيبة وعدم الرضا ، وقد حظي كل من الأمرين بموافقة السير برسي ومباركته ، وبذلك سارعنا إلى إرسال برقيات إلى أربعة من بين أبرز رؤساء العشائر آنفي الذكر ، كان أحدهم فهد بك ابن هذال الذي كان قد تفضل مشكوراً بمنحي كلابي العزيزة ، كما أعددت مسودة برقية سلمتها إلى السيد تشيسمان Mr.Cheesman ، سكرتير السير برسي ، بغية إرسالها إلى العقيد نادلر ، الضابط السياسي في الموصل ، وذلك لإعلامه بزيارة السير برسي المرتقبة ورغبته في لقاء أعيان المدينة عند وصوله إليها . لقد سافر السير برسي إلى الموصل جواً صباح يوم أمس ومن المتوقع أن يعود إلى بغداد مساء هذا اليوم . إنني أروي لك هذه التفاصيل الغريبة كما حدثت . ولكنني لن أواصل إدارة شؤون بلاد وادي الرافدين بهذه الطريقة ، إلا أن عدم وجود من بإمكانه الاضطلاع بهذه المسؤولية ، وإدراكاً مني بضرورة عدم إضاعة الوقت ، جعلني أقدم على القيام بها .

تعتبـر الخطة التي تنصرف إلى تنظيم مكتب سكرتارية خاص بالسيـر برسي أكثـر

المسائل الشائكة تعقيداً بسبب كونها شخصية . وتكمن المشكلة في نية السير برسي تعيين السيد غاربيت .Mr. Garbett سكرتيراً مدنياً Civil Secretary له . إنه منصب لا يتميز بأية أهمية ، وإن السيد غاربيت سيكون شاغلاً مناسباً لها ، إلا أن كلاً من ايفلين هاويل والعميد سليتر يخشيان من احتمال قيام السكرتير المدني من منع مستشاري الوزراء العرب ، بل ومنع الوزراء أنفسهم بطبيعة الحال ، من أن يكون لهم اتصال مباشر بالمندوب السامي . إنها لحماقة كبيرة ، على ما أظن ، ولكنني قررت بعزم وإصرار الوقوف بمنأى عن المشكلة . كما أنهما كانا معارضين بشدة لفكرة وجود وزارة عربية ، إلا أن السير برسي قد واصل العمل باتجاه إقامتها . أما أنا فأنشد في قلبي ترانيم التسبيح والتهليل طوال اليوم . وأجدني على ثقة أيضاً بأن السير برسي سيهمل أية فكرة من الأفكار الحمقاء التي تتمحور حول الانتقام والعقاب - والتي تدور حالياً خارج حدود حلقتي السياسية ، عند تعامله مع العشائر المتمردة في منطقة الفرات . كيف يتم معاقبة أشخاص على تمردهم ضد الحكومة العسكرية البريطانية عندما لم يعد لهذه الحكومة وجود بالأساس؟ في الإمكان معاقبتهم على ما تسببوه من دمار لبلدهم ، ولكن علينا أن ندرك إننا حتى في هذا المجال نفتقر إلى الأساس المتين ، والمسوغ المنطقي لقيامنا بذلك ، لا سيما إذا ما أدركنا أن القسم الأكبر من الدمار قد تسببته القطعات البريطانية نفسها ! وعليه لابد من إصدار عفو شامل إثر انتهاء العمليات العسكرية ، إذ أنه يمثل الخيار الوحيد والذي يستثنى منه بطبيعة الحال الأشخاص المعروفون بارتكابهم جرائم قتل .

ولقد ثبت في الحين ذاته أن إقامة وزارة مؤقتة تعتبر مهمة في غاية الصعوبة . و من جانب آخر ، فقد أضحى لدى السير برسي تصور كامل عن مدى قوة التيار المناهض للسيد طالب . ولكن من هو الشخص الذي ينبغي تكليفه بتشكيل الوزارة ؟ لقد اقترح أغلب الذين التقاهم السير برسي تكليف السيد عبد الرحمن النقيب بهذه المهمة . ولكنني أدرك جيداً أن النقيب لن يرفض التكليف هذا فحسب ، بل يرفض كذلك حتى التوصية بترشيح أي بديل غيره ، فمكانته الدينية برأيه أهم وأثمن من أي جانب آخر في هذه الدنيا ، وإنه لن يألو جهداً في سبيل المحافظة عليها وعدم السماح لما يحتمل أن يؤدي بالنتيجة إلى الإضرار بها بأي حال من الأحوال ، وإن أي إسهام في القضايا والشؤون العامة من شأنه ، على حد ظن النقيب ، أن يعرض مكانته للخطر . ومع ذلك فإنني أؤيد مخلصة انصراف السير برسي إلى تكليف النقيب ، وآمل جادة في أن أكون على خطأ فيما يتعلق بتوقعي رفضه التكليف هذا . أما إذا صدق توقعي فمن هو البديل يا ترى؟ إن تكليف السيد طالب خطأ فادح ، على ما

أرى ، وهو مما توصل إليه السير برسي من قناعة الآن كذلك ، ومع ذلك لا يمكن تجاوزه والتوجه إلى شخص آخر . وعلى الرغم من أن تكرار تنبيهنا له حول ضرورة قيامه شخصياً بتثبيت وضعه (وتحسين صورته) حيث لا يمكننا تقديم أية مساعدة له في إطار هذا المسعى بالذات ، إلا أنه يرى وجوب قيامنا بدعمه وفرضه على البلاد . إنه يسعى الآن إلى استخدام كل الفرص والسبل الممكنة التي من شأنها تحيق ما يصبو إليه من هدف . وإذا ما تمكن حقاً من الفوز برضى العراقيين وتأييدهم فإن ذلك سيكون منة من السماء بقدر تعلق الأمر بنا ، ولكنني أدرك جيداً عدم تمكنه من ذلك بأي حال من الأحوال . إن هذا السيل العارم من الوافدين إلى مكتبي على مدى الأسبوع المنصرم ، والذي يشكل بمجمله العام انعكاساً واضحاً لكل الآراء السياسية على الساحة العراقية ، لم يأت من فراغ !

إنني الآن بصدد اصطحاب اللادي كوكس ومجموعة من السيدات والسادة في سفرة نهرية . كم أتمنى أن تفارق هذه الحمى اللعينة بدني!» (في هذا التاريخ بالذات كانت تعاني من التهاب شعبي .)

وفي الثامن عشر من شهر تشرين الأول كتبت تقول :«برغم كل شيء لم أشارك في النزهة ، فإثر وصولي لركوب الزورق البخاري ، سارع النقيب كلايتون إلى إعادتي إلى الدار وقام بالاعتذار من اللادي كوكس نيابة عني . وفي عصر هذا اليوم طلب مني السير برسي العمل ضمن الكادر الخاص بمكتبه ، إما بوظيفة السكرتيرة الشرقية ، أو أي منصب آخر يقرره هو بالذات ، وقد أعلمته بدوري بأنه من دواعي سروري أن أخدم بمعيته بأية صفة يقررها هو بالذات ، وكان على حد تعبيره ، منهمكاً في محاولة تجاوز المصاعب التي أثارها كل من ايفلين هاويل والعقيد سليتر وإزالة ما لديهم من تصورات خاطئة»

كان من شأن الالتهاب الشعبي الذي عانت منه جيرتروود أن يبقيها طريحة الفراش أسبوعاً كاملاً مما أجبر السير برسي كوكس على النظر في قضايا وشؤون صغيرة حالت دون تمكنه من التفرغ تماماً للتعامل مع المسألة الكبرى . ولو كانت جيرتروود موجودة في المكتب لتمكنت من أن تحول دون حدوث أي انقطاع (في المسيرة التي استهدفت الوصول إلى الهدف الأساس) الأمر الذي جعل عملها يقتصر على إرسال تقارير يومية تتناول ما كان يدور من شائعات ، فضلاً عن ما كان يعم المدينة من غليان ونفاد صبر ، والذي لا يمكن إلا لقرار حاسم وسريع أن يضع حداً له .

وفي رسالتها المؤرخة في الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول تقول جيرتروود :«جاء (السير برسي) لزيارتي مساء يوم الثلاثاء . وبعد حديث موجز عن أحداث الساعة السياسية

أخبرته بتفاصيل قصة الرسالة التي كنت وجهتها إلى السيد إسكويت . فاقترح علي توجيه رسالة إلى إيدوين وإعلامه بتفاصيل الأمر ، وقد عملت بهذه المشورة على حساب إثقال كاهلي إيدون بحيثيات الموضوع مما قد يضجره . بيد أنني لم أتطرق إلى رأيي الخاص فيما يتعلق بما تميز به تصرف ولسون من أوجه المكر والخداع فهو جانب لا يكاد يحتاج إلى توضيح ، ولا أجدني قادرة على غفرانه .»

عقد في دار جيرتروود عصر يوم الخميس مجلس دولة تم فيه أخيراً إقرار مشروع السير برسي حول تشكيل حكومة مؤقتة ، بعد أن أجريت عليه بعض التعديلات البسيطة . وقد أعلن السير برسي عن نيته طرح هذا المشروع على أنظار النقيب . ولم يشهد يوم الجمعة أي نشاط ، إلا أن يوم السبت بدأ بزيارة قام بها جعفر باشا العسكري بهدف الاستئناس برأيي حول مدى ما يحتمل أن يترتب على اشتراكه في الحكومة المؤقتة من آثار سلبية تضر بمكانته الوطنية وسمعته إذ أن الممارسة هذه سينظر إليها باعتبارها حيلة بريطانية ليس إلا . وإزاء ذلك سارعت إلى الإمساك بخناقه (مجازياً) ورجه بعنف ! إن ما لدى الذين قاتلوا في سوريا من ثقة (بنا) قد تزعزعت نتيجة ما اعتبروه تخلياً من جانبنا عن فيصل (وهو جانب لا يخلو من الحقيقة) الأمر الذي يجعل بواكير جهودنا في بلاد وادي الرافدين تنطلق من ظرف معوق . وكان جعفر أول العراقيين الذين عادوا من سوريا ، وإن الكثير سيتوقف على ما يعتمده من توجه . ولقد بينت له بوضوح واقعاً لم أتوقف أبداً عن الإيمان به وهو إننا لن يهدأ لنا بال قبل أن تكون بلاد وادي الرافدين قد اختارت أميراً لها من بين أبناء الشريف (حسين) ، وإن الحكومة البريطانية لن تعارض هذا الاختيار ، ولا يمكنها أن تعارضه بأي شكل من الأشكال . كان لعباراتي هذه وقعاً فورياً الأمر الذي سرعان ما دفع بجعفر إلى الدخول في نقاش حول مناقب كل من زيد وعبد الله ، وهو موضوع رفضت أن أنجر إلى الخوض في تفاصيله باعتباره أمرًا لا يخصنا بأي شكل من الأشكال وذلك انطلاقاً من رغبتنا في أن تتوفر لأهالي بلاد وادي الرافدين الحرية التامة في اختيار صيغة الحكم التي يفضلون .(٣)

وصل الرائد نوربري عصر اليوم (إلى بغداد) بعد أن عاش حصاراً في الكوفة لمدة واحد وتسعين يوماً ، إلا أن فرحتنا بنجاة هذه الحامية سرعان ما أصيبت بنكسة مؤلمة نتيجة وفاة النقيب مان Captain Mann الذي لقي حتفه بفعل طلقة طائشة . إن الرائد نوربري شخص

(٣) سبحان مغير الأحوال ! ترى لماذا قامت ثورة عام ١٩٢٠ بالأساس ، وما طبيعة ما شهدته مدن العراق من عدم استقرار؟ - المترجم

رائع حقاً إذ ليس لديه أية رغبة في الانتقام ، أو الحث على تنفيذ الإجراءات التأديبية الصارمة ، فهمه الأول ينصب في سرد ما لمسه من نوايا حسنة وكرم من لدن عدد من الجهات المتمردة . إن من شأن مثل هذا التوجه أن يجعل من تهدئة الخواطر واستتباب السكينة أمراً هيناً .»

كم كانت عظيمة فرحة جيرتروود عندما عاد السير برسي من زيارة النقيب ليخبرها بأن السيد الكريم قد وافق على تشكيل الحكومة المؤقتة . وهكذا كتب النجاح للخطوة الأولى .

وعبر التفاتها وهلة إلى جوانب أخرى ، تقول جيرتروود لأبيها :« لا ينبغي لك أن تظن بأنني منهمكة كلياً بشؤون بلاد وادي الرافدين فقط ، فإضراب عمال صناعة الفحم الحجري تشكل مصدر قلق كبير لي ، إلا أن افتقاري إلى ما يكفي من معلومات حول الحدث يحول دون تمكني من التوصل إلى رأي محدد حول الموضوع ومع ذلك فإن السياسة التي تعتمدها حكومتنا تفتقر إلى الحكمة من الناحية الاقتصادية على ما يبدو لي وإلى الحد الذي يصعب من خلاله وضع كل اللوم على عاتق العمال . وإنني أفضل جمع الأموال عن طريق فرض الضرائب المنصفة بدلاً من اعتماد إجراءات عرضية كزيادة أسعار الفحم الحجري المصدر ، إذ يشكل مثل هذا الإجراء صيغة من صيغ التحايل . وسواء كان تحايلاً أم غير ذلك ، فالإضراب ليس بأقل من كارثة مروعة .»

وفي الأول من شهر تشرين الثاني كتبت جيرتروود إلى والدها تقول :«أبتاه الحبيب . استلمت منك أحب رسالة إلى قلبي وهي تلك التي تتعلق بما أعانيه من مشاكل المراسلات . إلا أن الأمر قد تمت تسويته الآن تماماً ، وهو جانب لا يعود بالمرة إلى جهود العقيد ولسون . لقد قدر لي فهم شخصيته (أي شخصية ولسون) التي لن أنساها ما حييت ، كما لن ينساها السير برسي أيضاً على ما أظن . وكان الجانب الأحب إلى قلبي من رسالتك تفهمك التام لما أعانيه من قلق وضيق ورغبتك في مواساتي بصرف النظر عما إذا كنت على حق أو خطأ . إن من شأن هذا الموقف أن يدفعني إلى الإحساس بأن أهلي وأقربائي هم ملاذي الآمن بصرف النظر عما يحدث ، وهو ما يدفعني إلى التوجه إلى الرب داعياً له أن يباركم ويحسن إليكم على نحو يفوق قدرتي في التعبير عنه . إن الحياة العامة صعبة جداً ، وحتى في حال قيام المرء منا ببذل أقصى ما يمكن من جهود ، والعمل بكل استقامة ونزاهة ، فإنه لن يكون بمنأى عن احتمال قيام الآخرين بفهم نواياه وتأويل مقاصده فهماً وتأويلاً خاطئين . وعلى الرغم من هذا ، أستطيع القول أنني لا أخشى من حدوث ذلك في إطار العمل مع السير برسي .

لقد أمضينا أسبوعاً قلقاً وحرجاً للغاية ، ولكن الأمور بوجه عام تسير باتجاه ما نأمل أن يتحقق . وقد تناولت طعام العشاء مساء يوم الاثنين بصحبة النقيب كلايتون والرائد مري ، وكان جعفر باشا ضيف الشرف . كانت أمسية تثير الدهشة والعجب ؛ فقد انفتح جعفر باشا تماماً مثلما تتفتح الزهرة وراح يروي لنا تفاصيل ما حدث في سوريا (وهي جوانب رحنا ننصت إلى تفاصيلها بصمت وشعور بالخجل) لينتقل بعدها إلى مناقشة ما حدث في دير الزور مبيناً أن الأمر قد أحزنه إلى حد بعيد ، بل وكاد يقطع قلبه . وقد أخبرته بدوري بأن الأمر كاد يقطع قلبي أنا الأخرى أيضاً . وإزاء تعليقي هذا أجابني قائلاً :«إن الأمر كان أسوأ بالنسبة لنا وذلك لأن دعمكم لجهودنا ووقوفكم خلفنا شكلا أملنا الوحيد في الوقت الذي دأب الجانبين من حولي على دفع الإنجليز إلى نبذ تعاطفهم معنا .» وقد توصلنا إلى قناعة مفادها أن اتصالاً حراً بين الإدارتين السورية والعراقية ، لو كتب له أن يتحقق في حينه ، لكان من شأنه أن يؤدي إلى تفادي النتيجة البائسة بكل أبعادها (وهو جانب لم يحظ أبداً باعتراف من لدن العقيد ولسون .) ثم انتقل جعفر باشا بعد ذلك إلى وصف حال الفئات الوطنية في بلاد وادي الرافدين والتي وجد أن محاولة إقناعها إلى الإصغاء إلى صوت العقل لا يقل استحالة عن المحاولة التي استهدفت إقناع نظيراتها في سوريا . وبهذا الصدد يقول جعفر باشا :« أقول لهم هل تنشدون تحقيق الاستقلال الناجز؟ هذا ما أنشده أنا كذلك . ألا يحلم كل منا بفتاة جميلة في الرابعة عشر من عمرها ، بشعر ينساب منسدلاً ليغطي على خصرها؟ ولكن لا وجود لهذه الفتاة ! إن الاستقلال الناجز في ظل الظروف الراهنة لأمر مستحيل .» ثم يواصل جعفر باشا حديثه موجهاً كلامه بعد ذلك إلينا :«ولأنني مؤمن بنزاهتكم وبسلامة نيتكم وصدق ما تقولون ، فإنني على استعداد للعمل معكم من أجل إنقاذ وطني . ولكن عندما أتجه إلى إخواني في محاولة مني لإقناعهم بالتعاون معنا فإنهم يشيحون بوجوههم عني ليقولوا لي : إنك إنجليزي!» وهنا قلت له لقد جاء دورك يا باشا ! فعندما توجهت أنا إلى إخواني في العام الماضي بطلب مماثل أشاحوا هم الآخرون بوجوههم عني وقالوا لي :«أنت عربية !» ياله من حوار رائع ! وثمة شيء أخر من بين جملة ما قاله جعفر باشا يستحق ذكره في هذا المجال . ففي محضر وصف تفاصيل رحلته فوق مياه دجلة قال : «رحت أتأمل الناس على ضفتي دجلة بكل ما تميزوا به من حدة البصر وتناسب الأوصال فوجدتهم ، رجالاً ونساءً على حد سواء ومن غير استثناء ، قد هبطوا إلى درك البهائم بفعل ما هم عليه من جهل مطبق وعدم مبالاة . وإزاء ذلك قطعت على نفسي وعداً بضرورة قيامي بكل ما أستطيع من أجل بعثهم وتنويرهم طالباً من المولى عز وجل أن يغرق السفينة في حال لم أكن صادقاً في وعدي هذا .

كان السيد طالب أول من زارني صباح الثلاثاء محتجاً بشدة وقائلاً أن قبوله موقعاً ثانوياً كان أمراً لا يليق بمكانته حتى وإن كان النقيب ذاته صاحب الموقع الأول . وكان قد عرض علي السيد طالب تبوُّأ منصب وزير الداخلية . وقد تمكنت بمساعدة السيد فلبي من إقناعه بضرورة قبول هذا التكليف باعتبار أن واجبه الوطني يحتم عليه ذلك ، وقد بذل أقصى ما لديه من جهود باتجاه دفعنا إلى الاعتراف بأنه يلي النقيب فقط في الأهمية ، ولا إنساناً آخر غير النقيب ، وإن في حال غياب النقيب أو وفاته يصبح الموقع الأول من نصيبه هو لاغيره ، وأن يكون بالضرورة وفي كل الأحوال موضع أقصى درجات الاحترام والتبجيل وأن يسمح له بالاحتفاظ بمجموعة كبيرة من الحراس الشخصيين ، إلا أننا لم نتردد أبداً في الوقوف بمنأى تام عن الالتزام بأي وعد بهذا الخصوص ، وقد قمنا بإحالة الموضوع إلى السير برسي الذي لم يعتبر أمر قبول السيد طالب بمنصب وزير الداخلية أكثر من شيء اعتيادي .»

وفي صباح اليوم التالي ، عندما بدت الأمور وكأنها تسير سيراً حسناً علمت جيرتروود أن ساسون أفندي حسقيل وحمدي باشا بابان يرفضان تعيينهما . وبهذا الصدد كتبت جيرتروود قائلة :«على الرغم مما كان يتمتع به الاثنان معاً من أهمية ، إلا أن قبول ساسون أفندي حقيبة المالية كان له أهمية مطلقة إذ أن بغيابه يهبط مستوى المجلس الوزاري إلى درك وزارة طالبية مصيرها الفشل لا محالة . وعليه لم تكمل جيرتروود تناول فنجان الشاي الذي كان أمامها بل هرعت إلى مكتبها لتجد فيه السير برسي الذي أمرها على الفور بالتوجه إلى مقابلة ساسون أفندي ودفعه إلى تغيير موقفه بعد أن أخفق كل من فلبي والنقيب كلايتون في إقناعه . وبعد مرور ساعة من الزمن قضتها جيرتروود في محاولة إقناع ساسون أفندي بالعدول عن رأيه في عدم الاشتراك بدأ الأخير هذا يتردد . وتقول جيرتروود بهذا الصدد :«لقد تم لنا إقناعه أخيراً بأن السير برسي لم تكن لديه رغبة في فرض السيد طالب ، أو أي شخص آخر غيره على بلاد وادي الرافدين ، إلا أن هناك ضرورة في منح السيد طالب فرصته شأنه بذلك شأن أي شخص آخر غيره ، فإذا ما ثبتت جدارته فإنه سيساهم في بناء المؤسسات الوطنية وإذا ما ثبت العكس فإن ذلك يعني نهايته سياسياً . وهكذا تمكنا من إقناع ساسون أفندي بإعادة النظر في موقفه والذهاب لمقابلة السير برسي صبيحة اليوم التالي . ولقد خالجني شعور خفي بأننا قد ربحنا المباراة وهو جانب يعزى جزء منه إلى جسور الثقة التي نجحت في إقامتها مع ساسون أفندي ، وعلى الرغم من أن أيًا منا لم يكن على ثقة تامة بما سيشهده الغد من أحداث ومفاجآت .»

وفي اليوم التالي ، وإثر لقاء دام قرابة نصف الساعة مع السير برسي ، خرج ساسون

أفندي ليخبر الآنسة بيل بأنه قد وافق على تبوّئ المنصب . وما أن انتهت هذه الأزمة حتى برزت لنا مشكلة أخرى : جعفر باشا العسكري . ولقد تمكنت جيرتروود من التقائه في وقت لاحق من اليوم ذاته بهذا الصدد فإنها كتبت تقول :«دار بيننا حديث مثير للغاية . فقد أخبرني بأنه كان قد قبل الاشتراك في الوزارة فقط من أجل دحر السيد طالب الذي كان يكرهه ويرتاب في نواياه ومقاصده ، وأنه (أي جعفر) يعتبر اشتراك السيد طالب في الوزارة ، ووقوف بين كبار شخصيات بلاد وادي الرافدين ، أمراً مخجلاً للغاية . وإزاء ذلك أجبته بأن العراقيين أنفسهم مسؤولون عما وصل إليه السيد طالب من حال بسبب خوفهم وخنوعهم ، وأن أمر تغيير هذا الوضع مرهون بهم فقط لا بغيرهم إذا ما أرادوا ذلك حقاً .

يقف السيد عبد الرحمن النقيب موقفاً صلباً ضد عودة قادة التمرد قبل أن تكون الحكومة العربية قد امتدت جذورها ووقفت بثبات . يالها من سلوى ! ما أجمل أن يأتي ذلك من جانب النقيب لا من جانبنا نحن! فلتعش الحكومة العربية ! إنه الحل الأمثل : أن يتم منحهم (أي منح العراقيين) المسؤولية بغية تسوية أمورهم بينهم وهو جانب يتمكنون من القيام به بشكل أفضل بكثير مما نستطيعه نحن . فضلاً عن ذلك فإن تحملهم المسؤولية يعني بالضرورة ، إدراكهم بما تتطلبه ممارسة الحكم من مستلزمات وما يواكب ذلك من مشاكل الأمر الذي سيدفعهم إلى نبذ الكلام الفارغ والالتزام بالتعقل بدلاً منه .

قبل نهاية الأسبوع كانت أعصابي مرهقة للغاية الأمر الذي دفعني إلى اتخاذ قرار بضرورة الخروج من بغداد طيلة يوم الأحد . وهكذا قمنا بترتيب رحلة إلى أحد البساتين الجميلة الواقعة في منطقة الفحامة التي يستغرق الوصول إليها قرابة الساعة بواسطة الزوارق البخارية . وقد انطلقنا أنا والسيد فلبي مع خادمتي ماري وطباخي زيا وكلبي ريحان مباشرة بعد تناولنا وجبة الإفطار . ولقد عمدت إلى اصطحاب السيد فلبي لتعريفه بأحد أصدقائي الأعزاء ، وهو فائق بك ، وهو ملاك مثل الحاج ناجي إلا انه أعلى من الأخير اجتماعياً وأرفع منه تهذيباً وكياسة .(٤) وعند وصولنا كان فائق بك منهمكاً في جمع غلة

(٤) فائق بك هو والد الدبلوماسي العراقي المخضرم والسفير الأسبق الأستاذ باهر فائق . وتقع مزرعة فائق بك التي زارتها الآنسة بيل في منطقة الفحامة قرب مزرعة الأستاذ كامل بك الجادرجي وتعتبر من بين أجمل مزارع بغداد . وكان الأستاذ باهر يقوم سنوياً بدعوة أعضاء السلك الدبلوماسي المعتمدين في العراق لحضور مأدب كان يقيمها فوق أرض هذه المزرعة الأمر الذي يمكن اعتبارها أحد المعالم السياحية في بغداد وهو ما أفادني به مشكوراً السفير الأستاذ عطا عبد الوهاب - المترجم

أشجار نخيله من التمور . وهكذا جلسنا بين أكوام ذهبية من التمور ورحنا نتجاذب أطراف الحديث مع فائق بك الذي أخذ يعبر عما لديه من آراء ويروي لنا ما يدور في أنحاء بغداد من مواضيع . ولم يكن ما سمعناه مدعاة للسرور والارتياح بل على العكس من ذلك تماماً ، وقد عبر فائق بك عن شكوكه في قدرة النقيب على تحقيق النجاح في مساعيه . وكان ما سمعناه مفيداً للغايـــة إذ أنه مثل رأياً محايداً وأميناً إلى أبعد الحدود . بعد ذلك انطلق فائق بك معنا باتجـاه شاطـئ النهر حيث كنا بانتظار قدوم السير برسي واللادي كوكس الذين سرعان ما وصلا إلى حيث كنا . وقد تمت بتعريف السير برسي بفائق بك الذي بدا ممتناً لهذه الفرصة . وسرعان ما لحق بنا كل من النقيب كلايتون ، والرائد مري والسيد تشيسمـان . وقـد قـام زيـا وماري بإطعامنا وجبة غداء فاخرة انطلقنا بعدها في إثر طيور الحجل التي يكثر عددها في هذه البساتين الممتدة التي تقع على حافة الصحـــراء .

قضيت معظم صباح اليوم في جولة تفقدية في أرجاء المدرسة النظامية والتحدث مع أعضاء هيأة التدريس فيها . أما طعام الغداء فقد تناولته على مائدة آل نود حيث علمت من السيد تود أن بغداد بأسرها تلهج بالثناء على نزاهة السير برسي ونوياه الطيبة . أعتقد بأننا إذا ما مضينا قدماً في سبيل تحقيق هدفنا ، وإذا ما تفادينا الشعور بالقلق والاضطراب إزاء ما يطرق سمعنا من عبارات الانتقاد والشجب ، فإننا سننجح في مساعينا . ومن جانب آخر ، فإن السيد طالب ، على ما أعتقد ، سيخفق فيما يصبو إلى تحقيقه من هدف . آه ! كم أتمنى أن ننجح في تحقيق أهدافنا . أمامي رؤى وأحلام كثيرة . وكما تعودنا قوله بالعربية مرات عديدة كل يوم ، أود القول :بفضل وجود صاحب السعادة مثل جلالة الملك ، وبدعم من لدن الحكومة العظمى ، لابد أن يعم الخير وتسير الأمور على ما يرام إنشاء الله تعالى .»

وفي الثالث من شهر تشرين الثاني كتبت جيرتروود إلى السير فالنتاين شيرول قائلة :«مجلس الدولة الذي شكله النقيب عقد أول اجتماع له يوم أمس ولكنه لم يتوصل ، على ما يبدو ، إلى نتائج يجدر ذكرها اللهم إلا باستثناء التوجه إلى دعوة السير برسي إلى الاجتماع بالأعضاء لغرض شرح طبيعة عمل المستشارين البريطانيين وحدود صلاحياتهم وهو ما اعتبروه جانباً ضرورياً . وبعد أن انفض الاجتماع انتهز الأعضاء فرصة وجود الشيخ فهد الهذال في بغداد واستدعوه للاجتماع بهم لغرض تكليفه بمهمة تهدئة العشائر المتمردة . وقد سارع إلى زيارتي بعد الاجتماع لغرض معرفة ما إذا كان التكليف هذا يأتي منسجماً مع

آراء «كوكز»(٥) وقد قال لي بصريح العبارة :«إني أعرف كوكز وأعرفك أنت ياخاتون ، ولكن لا علم لي أو معرفة بأية حكومة عربية . إنني رهن إشارة كوكز وأمره ، ولن أقوم بشيء إن لم يكن ذلك برضاه وبأمر مباشر منه» . وتفيد آخر الأخبار (عن التمرد) بأنهم (أي رؤساء العشائر) يهرولون باضطراب لكي يعلنوا عن خضوعهم ، وأرى بشكل عام أن الإسراع في إعلان خضوعهم أمام جبروت القوة العسكرية البريطانية أكثر فائدة وجدوى من تجاوبهم مع مناشدات مجلس (الوزراء) العربي ومحاولاته الرامية إلى إقناعهم (بالكف عن العمليات الحربية .) إن أبناء الشيعة يشكون من أن تمثيلهم في مجلس الوزراء غير كاف متجاهلين بذلك تماماً واقع أن معظم رؤسائهم ومقدميهم من التبعية الإيرانية الأمر الذي يتعين عليهم بادئ ذي بدء تغيير جنسيتهم لكي يتمكنوا من تبوُّئ المناصب الحكومية . إنهم يمثلون العنصر الأصعب إرضاءً في البلاد ذلك لأنهم يكادون يكونون متمردين من غير استثناء ، ناهيك عن عدم اهتمامهم بالمصلحة العامة .

يقوم السيد فلبي بأداء واجبه بشكل متميز ، وهو يقف اليوم حيال مهمة في غاية الصعوبة ؛ وهي تلك المتمثلة بإسداء المشورة إلى السيد طالب النقيب ، ومع ذلك سيكون النجاح حليفه على ما أعتقد .

لا تظنني غافلة عن حجم المصاعب والعقبات الكبيرة التي نواجهها ، إلا أن عزائي يكمن في واقع ما ينطوي عليه تعاملنا معهم من استقامة وسلامة نية . ولابد لي من الاعتراف بما يخامرني من شعور بالقلق إزاء ما يشهده الوطن (إنجلترا) من مكائد ومناورات تتعلق بالنفط . ترى هل هم (الحكومة البريطانية) صادقون ومخلصون في منطلقاتهم؟ فإذا ما ثبت العكس علينا نبذهم ، إذ لا سبيل لغير ذلك أبداً .

---

(٥) «كوكز» هو الصيغة المحلية المحرفة لاسم (كوكس) وهو ما اعتاد العامة لفظه . وقد وردت هذه الصيغة في بعض الأهازيج الشعبية التي انتشرت في فترة ثورة العشرين ومنها :

طيـــارة طارت فـــوك بيـــهـــا مـــدامـــة
وكـــعت على كـــوكـــز وكـــــــرت عظامــه
طيـــارة طارت فـــوك بيـــهـــا مكناســـة
وكـــعت على كـــوكـــز وكـــــــرت راســـه

– المترجم

أجل! مصر وبلاد وادي الرافدين : لابد لنا من استعادة سمعتنا الحسنة من خلال تعاملنا معهما . أما فيما يتعلق بالهند فلا أعلم ما عساي أن أقول بيد أن الأمر ، على ما يبدو لي ، يسير باتجاه ما يفضي إلى الاستسلام (للأمر الواقع) مخافة أن نجبر بالنتيجة على الاعتراف بحقيقة ما بينه لي جعفر باشا ذات مرة قائلا :«ستي ! إن الاستقلال الناجز لا يمنح أبداً ، بل يؤخذ دائماً!»

وفي السابع من تشرين الثاني كتبت إلى أبيها قائلة :« سمعت أن جعفر - الذي لم أره طيلة هذا الأسبوع- في اشتباك متواصل مع الضباط العرب من منتسبي الجيش التركي سابقاً الذين لم ينضموا إلى جيش الأمير فيصل بن الحسين . إنهم شديدو الانتماء إلى الأتراك ، ويرفضون إبداء المساعدة في أمر تشكيل جيش عربي انطلاقاً من قناعتهم بحتمية عودة الأتراك عاجلاً أم آجلاً . وتقوم حجتهم على أساس مفاده عدم إمكانية أية قوة من الاحتفاظ بالعراق في حال لم تكن قد بسطت سيطرتها على الممرات الشمالية وبشكل خاص على مداخل كيليكيا Cilician Gates ، وبما أن الأتراك لا يزالون يحتفظون بهذه المنطقة فإنهم عائدون لا محالة . ياله من جهل يثير العجب ! ترى هل تم لأي من البابليين أو الآشوريين أو السلوقيين أو قدماء الفرس أو الخلفاء العرب الذين حكموا هذه البلاد بسط سيطرتهم على الممرات الشمالية؟ ومع ذلك فإن لهذه الحجة من الثقل الاستراتيجي ما يمكنها من ترك أثر بليغ في نفوس الناس .

علينا الإسراع في إجراء الانتخابات للمجلس الوطني حتى وإن تم ذلك بصورة غير ملائمة أو مثيرة للسخرية . سوف أكون مخطئة جداً (وهو ما أنا عليه في أغلب الأحيان على ما أظن) إذا ما أخفق (من يتم انتخابهم) في المطالبة بأحد أبناء الشريف أميراً ، فهو الحل الوحيد بحسب تقديري . بإمكان السيد عبد الرحمن النقيب أن يكون رئيس دولة جديراً بالاحترام والتقدير ، ولكنه رجل مريض ، أما أولاده فهم من غير استثناء غير جديرين بتبوُّئ مثل هذا المنصب ، وكان صيت فسادهم قد ذاع ، وبات مصدر استنكار ، حتى في بغداد التي يعتبرالجو الأخلاقي العام فيها جانباً لا يجدر ذكره . إن أمر العلاقة (غير المشروعة) بالنساء لا يحظى باهتمام كبير في الشرق ، ولكن هناك جوانب أخرى لا يمكن للإسلام أن يغض النظر عنها والتي تشكل ممارستا (معاشرة) الصبيان وتناول الخمور جزءاً منها . إنه أمر يبعث على الاشمئزاز ومع ذلك فإنه يشكل حقيقة لا مفر من ذكرها . ولابد من القول في هذه الحالة أن فيصلاً شخص يلتزم ، وبشكل متميز ، بمعايير أخلاقية رفيعة (أما عبد الله فلا أعرف عنه شيئاً) .

«كان لي مغامرة صغيرة هذا الأسبوع . انطلقت في إحدى الأمسيات في نزهة على ظهر مهري الجموح الذي من المحتمل أن يعود حرونه إلى افتقاره إلى الممارسات المنتظمة ، وأثناء سيرنا مررنا بمجموعة من الكلاب التي راحت تعترض سبيلنا بموجة صاخبة من النباح مما أجفل المهر وجعله ينطلق بعدو نحو حاجز من الأسلاك الشائكة في محاولة فاشلة لاجتيازه . وقد شاءت الظروف أن تأتي بنتيجة أفضل مما كان يتوقع حدوثه في مثل هذه الحال لأنني لم أسقط فوق السياج إنما على مسافة قريبة منه لأنجو تماماً من الأذى ، أما المهر فقد أصيب بخدش بسيط وهو الآن في وضع جيد .»

وفي الرابع عشر من شهر تشرين الثاني كتبت تقول : «تشكل أمسيات الآحاد من كل أسبوع هو الوقت المخصص لكتابة رسائلي ، إلا أنني اليوم عمدت إلى تقليص هذا الوقت للسبب التالي : فقد انطلقت في العاشرة من صباح اليوم بصحبة السيد فلبي والنقيب تشيزمان في رحلة بالسيارة إلى عقرقوف . كان صباحاً بارداً بالرغم من شمسه الساطعة . وبعد فترة قضيناها في صيد عدد من طيور الطيهوج Grouse قمنا بجولة في أرجاء مضارب بني تميم ، ثم تناولنا ما جلبناه معنا من طعام قرب مقام صغير . وقد تم لنا ذلك وسط عاصفة من عبارات الاحتجاج التي انطلقت من أفواه رجال العشيرة الذين أحاطوا بنا من كل صوب مبينين لنا أنه من غير اللائق أن نعمد إلى جلب طعامنا معنا ونحن على أرض بني تميم . وبعد الانتهاء من تناول الغداء ، استقلنا سيارتنا ورحنا نتعقب أسراب طيور الطيهوج التي راحت هي بدورها تدور حولنا ، وما هي إلا فترة قصيرة حتى وصلنا إلى خيام زوبع التي كانت قبل شهر فقط من بين من شقوا عصا الطاعة ضدنا وأثناء مرورنا في هذه المنطقة انفجر أحد إطارات سيارتنا مما اضطرنا إلى التوقف . وأثناء عملية إصلاحه انهمك رفيقاي في اصطياد طيور السقساق Plovers بينما رحت أنا أتجاذب أطراف الحديث مع رجال زوبع وأنا أراقب قيامهم بصنع الفحم من جذور الطرفاء بعد حرقها داخل حفر في الأرض . كانت تجربة لذيذة ورائعة في عرض الصحراء ، وكان الرجال في غاية اللطف والكرم . وكنا قد تجاوزنا عقرقوف في طريق العودة عندما انفجر إطار آخر ، ولعدم وجود ما يمكننا استبداله به فإننا لم نصل إلى الكاظمية إلا عند الغروب لنجد المآذن وقباب المساجد فيها قد بدت أشبه برواب ومشاعل من نور بفعل الشفق .

تشهد الأمور سيراً متواصلاً ، ففي يوم غد ستفتح وزارة الداخلية (طالب باشا النقيب والسيد فلبي) أبواب مقرها الجديد . ويواصل أبناء الشيعة موقفهم العدائي من الترتيبات الجديدة ، وتنطلق شكواهم الرئيسة من واقع عدم إسناد أية حقيبة وزارية لشخص شيعي . وهناك أيضاً مجموعة كبيرة من أنصار الأتراك الذين يشعرون بالغيرة والغضب ، ويقفون موقفاً

معادياً من كل أبناء العرب الذين خدموا بإمرة الأمير فيصل . إن ما تعيشه تركيا من فوضى هو المصدر الأساس للمشكلة ، وبذلك لن يتحقق الاستقرار هنا إلا بعد أن يتم التوصل إلى تسوية ما هناك . وفي الحين ذاته يقف مصطفى كمال ضد الجميع ، وقد تمكن الأناضوليون من إقامة علاقات طيبة مع البلاشفة . إن الذنب في ذلك كله ذنبنا . إن لمصطفى كمال أبوين ، شأنه بذلك شأن غيره من بني البشر ، أحدهما بلاد اليونان والآخر مدينة إزمير . وكان الاحتلال اليوناني لإزمير المحرك الأساس لتأجيج لهيب القومية التركية . وواقع الحال هو أن المنطقة الآسيوية الممتدة من البحر الأبيض المتوسط إلى حدود الهند أشبه بمرجل الشيطان لكثرة ما فيها من المشاكل والصعوبات وإلى الحد الذي يجعلنا عاجزين عن رؤية أية إمكانية يمكن من خلالها إنقاذ بلاد وادي الرافدين من حالة الإرباك والفوضى التي تشهدها . وإزاء ذلك أجدني أزداد قناعة يوماً بعد يوم بعمق مسؤولية العقيد ولسون عما يدور من أحداث ، فلو قدر أن يكون له قدر أكبر من الرؤية السياسية لخف إلى حد كبير عبء المشاكل التي تحيط بنا من كل جانب في هذه المنطقة .

طلب مجلس الوزراء (العراقي) إعادة كل الذين تم نفيهم من قبل العقيد ولسون عقاباً لهم على تآمرهم ضدنا . إن البعض من هؤلاء ليسوا بأكثر من صعاليك وحمقى ، وسيكونون شوكة في جنب أية حكومة ، بيد أن عودتهم على ما أتصور ستكون أمراً حتمياً عاجلاً كان ذلك أم آجلاً . ولعله من حسن الحظ أن يكون يوسف السويدي والشخصيات البارزة الأخرى قد ولوا الأدبار . ويقف السيد عبد الرحمن النقيب موقفاً صلباً من أمر السماح لهم بالعودة الأمر الذي يجعل من اختفائهم إجراءً مواتياً .

في غضون ذلك بدأت العمل على تنظيم شؤون مكتبي ، وقد تم لي حتى الآن استخدام رجل فارسي ، قصير القامة يدعى بهادر . إنه شخص ذكي ودمث الأخلاق ، وقد أنطت به مهمة تزويدي بموجز ما تتناوله الصحف المحلية من مواضيع . ويلي هذا النشاط أهمية ذلك المتعلق ببطاقات الفهرسة ، وقد تمكنت بهذا الصدد من تحديد الشخص الذي أطمح إلى تكليفه بالاضطلاع بهذه المهمة : إنه أوراسي يدعى فرنانديز (٦) يشغل حالياً

(٦) فرنانديز شخص برتغالي الأب وهندي الأم أصله من مقاطعة جوا Goa في الهند والتي كانت تعرف سابقاً بالهند البرتغالية . وقد شاءت الظروف أن تجمعني الدراسة الثانوية في كلية بغداد بابن هذا الرجل واسمه منير . كان منير شاباً محبوباً ، وذا خلق عالية ، أحسن والده تربيته . وكان من المتفوقين في الدراسة . انقطعت عني أخباره بعد تخرجنا من الثانوية إذ سافرت إلى إنجلترا واتجه هو إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث لا يزال مقيماً فيها على ما أعلم - المترجم

منصب مسؤول القيود . أما النقيب كلايتون الذي أتمنى مخلصة قيامه بالتعاون معي فإنه قد انفصل عني مؤقتاً فقط على ما آمل وبذلك أجدني أعمل بمفردي .»

وفي اليوم التالي(أي في الخامس عشر من شهر تشرين الثاني) كتبت جيرتروود إلى العقيد بلفور قائلة :«فرانك الحبيب ، أشكرك كثيراً على رسالتك اللطيفة التي تمكنت من اقتناص ساعة فراغ من وقتك الثمين بغية كتابتها وإرسالها لي من وزارة الهند . كم أتمنى أن أجيبك عليها برسالة مماثلة بيد أن يدي مغلولتان بسبب انهماكي في الانتهاء من كتابة تقرير استخباري هام ناهيك عن تدفق الزائرين الأمر الذي يعيق عمل فكري ، وقلمي أيضاً ، في الاتجاه الصحيح .

لقد تم الانتهاء من الإجراءات الأولية ، وستفتح أولى الوزارات - وهي وزارة الداخلية - أبوابها بعد أن تقرر أن تحتل الموقع المقرر لها . ولم يتم إلى الآن حتى تخصيص مكتب واحد لأي وزير آخر من الوزراء ، إلا أن السير برسي سيتمكن بالنتيجة من سحب السراي من يد السلطات العسكرية (البريطانية) من أجل توفير مكاتب للحكومة العربية ، إذ لا وزن بالمرة لوزير يفتقر إلى مكتب ، بل وحتى إلى منضدة للكتابة .

ومع ذلك ، يمكن القول بوجه عام أن هناك مبررات تدفعنا إلى الشعور بالارتياح والرضا . أما مقدار ما سنحققه من نجاح ، أو ما يصيبنا من إخفاق ، فجانب لا يمكن لأحد التكهن به . لا أجدني قادرة على ترديد صدى مشاعرك فيما يتعلق بالعقيد ولسون بسبب قناعتي - التي أجدها تزداد عمقاً يوماً بعد يوم - بأن إخفاقه المأساوي في فهم واقع الوضع العام ، وعدم قدرته على تكوين رؤية شاملة للاحتمالات المستقبلية ، كان من شأنهما التفريط بكل فرص تحقيق النجاح . وبفضل تجربتي الشخصية في مجال العمل معه أدركت بأنه شخص عديم الضمير ، أما من الناحية السياسية فإنني مؤمنة بأن ما تسببه من ضرر يفوق بكثير ما بإمكان أي شخص آخر أن يلحقه (بمصالحنا) .

إننا بحاجة ماسة لخدمات العناصر العراقية التي عملت تحت لواء فيصل في سوريا - وهي العناصر التي تحمل في نفوسها روح القومية العربية . وإذا ما أخفقنا في جذبها إلى التعاون معنا فإننا سنتخبط في مسيرتنا بين ثيوقراطية (حكومة رجال الدين) شيعية وبيروقراطية موالية للأتراك . ومن جانب آخر ، فإننا لسنا بغافلين عن خطر التحالف القائم بين العناصر الوطنية التركية والحركة البلشفية ، وهو خطر لا ننفك عن استشعاره دائماً .

لو أنك فقط تدرك ، يا عزيزي فرانك ، مدى المحنة التي قدر لنا أن نعيشها ، وإننا في كل الأحوال نشعر بخطرها وعواقبها أكثر من العرب . ففي يوم أمس ، على سبيل المثال ، كنت

في وسط الصحراء وبين رجال زوبع الذين كانوا قبل شهرين مضت قد شقوا عصا الطاعة وتمردوا علينا بعد أن قتلوا العقيد ليجمان ، أما الآن فإنهم يستقبلوننا بكل ترحاب وكأن شيئاً لم يكن بالمرة . إن الأمر بطبيعة الحال لن يكون كذلك مع بني حجيم الذين كنا قصفنا مواقعهم ، وواصلنا الإغارة عليها على مدى سنة أو أكثر . ترى من المذنب بيننا : هم أم نحن؟

ولعل التمرد في ديالي كان الأشد فظاعة ووحشية ، فضلاً عن كونه الأكثر صلابة . لا أظن أن لدى المتمردين هناك أية شكوى معينة ، فهم لم يكونوا أكثر من مجموعة من الأوغاد الذين اندفعوا إلى التمرد بفعل مناشدات دينية والرغبة في السلب والنهب . ولأنهم وحوش وأوباش فإنهم تصرفوا على نحو ما تتصرفه الوحوش والأوباش ، ولم يتوقفوا عن نشاطهم حتى الآن .

لا أرى موجباً لإحجامك عن اصطحاب فيلس Phyllis معك عند عودتك إلى العراق ، فلقد بات مجيء زوجات العاملين في الحقل المدني أمراً طبيعياً لا مشكلة فيه . كم أتمنى لكما الخير ، لقد كان من شأن انهماكي في الشؤون العربية أن يحول دون تمكني من التفكير في الأوربيين الذين بات أمر معاشرتهم يشكل مصدر ملل متزايد بالنسبة لي ، اللهم إلا باستثناء زملائي المقربين والسيدة أوريفيا تود ، وكم أتمنى أن أحظى برفقتكما دوماً باعتباركما من بين النخبة المتميزة» .

وفي السادس عشر من تشرين الثاني كتبت جيرترورد إلى زوجة أبيها قائلة :«والدتي الحبيبة ، لقد تمكنت رسالتك من تحقيق نقل دقيق لكل ما راح يدور برأسي من أفكار على مدى فترة طويلة من الزمن . فنحن نجلس هنا متمتعين بمزية مشكوك في جدواها ، أي مزية استلام الأخبار الخاصة بآسيا والتي تأتينا من كل حدب وصوب - فالتقارير السرية التي تردنا من كل الجهات تمر جميعها ومن غير استثناء من بين أيدينا - إلا أن المكائد والدسائس ، والاضطرابات والثورات بصيغتها المطلقة تمثل صوراً لما يتكون في نفس المرء منا من انطباعات ، وهي بطبيعة الحال الأخبار التي يتواجد كتاب التقارير في موقع الحدث خصيصاً لنقل تفاصيلها ، ونحن من جانبنا نقوم بالشيء ذاته . إننا لا نعمل على إفادة أحدنا الآخر بالأخبار الأسرية الخاصة بأبناء الطبقة الوسطى في عالم الشرق ، والذين يجلسون اعتيادياً في بيوتهم بأمان وطمأنينة كل ليلة حول طبق الرز المفضل لديهم ، وهناك العديد منهم بالتأكيد . وكما قلت في رسالتك ، فإن واقع قدرتنا على تلقي معظم الأخبار المتعلقة باجتماعات اللجان الثورية ، بكل ما يدور في حدود عالم يمتد من الصين إلى بيرو

في أقل من شهر من الوقت ، بل وخلال سويعات فقط في بعض الأحيان ، يجعلنا ننظر إلى العالم نظرة تختلف كلياً عن نظرة أناس لم يعرفوا أبداً على سبيل المثال أن نابليون كان استقل باخرة من جزيرة ألبا(ليصل إلى البر الفرنسي .) وأجدني آمل أحياناً بأن ما أراقب حدوثه هو ليس تداعي العالم وانهياره بل مجرد انهيارات عرضية واعتيادية لصخور هنا ، وطبقات عليا من التربة هناك ، وهو ما يتم اعتيادياً بفعل أي مد أو تيار جارف ، إلا أنني لست بغافلة في الحين ذاته عما يتركه أي منهما بدوره من أثر . وبرغم توجهي إلى الإبقاء على هذا الأمل في حدود قلبي فقط ، أجده يخفق في الحين ذاته في شمول هذه الظاهرة بكل أبعادها . ورغم تحفظي من القول أن العالم لم يشهد مثل هذا الفوضى من قبل ، أجدني مضطرة إلى الاعتراف بأنه قلما شهد أسوأ منها اللهم إلا باستثناء ما صاحب سقوط الأمبراطورية الرومانية من اختلال في موازين الأمور ، إنه لأمر مثير للاهتمام ، بل مثير جداً في واقع الحال ، أن يجد أحدنا نفسه في مثل هذا التماس المباشر مع الأحداث .

أكتب رسالتي هذه بشيء من العجلة لسببين أولهما محاولة التمكن من إدراك البريد المتجه إليكم في الوقت المناسب ، وثانيهما قصر الفترات الفاصلة بين لقاءاتي مع عدد لا يحصى من الزوار . ولا يسعني في بعض الصباحات مغالبة شعوري بأن معظم ما يدور في بغداد من شائعات وأخبار يتدفق إلى مكتبي .»

وفي الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني كتبت تقول :«وردتنا اليوم أخبار تثير الاهتمام بشكل استثنائي حول ما مني به (فينيزيلوس Venizelos رئيس وزراء اليونان) من هزيمة الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى احتمال قيام تركيا باتخاذ قرار معين ، إذ أن الاحتلال اليوناني لمدينة إزمير يكمن في صلب المشكلة القائمة ، وكان فينيزيلوس صاحب فكرة هذا الاحتلال والداعي بإصرار إلى ضرورة الإبقاء عليه . إن ما سيترتب على هذا الأمر من تطورات سيترك بالتأكيد بصماته الواضحة علينا . أما احتمال توصل الفريقين إلى سلام ، أو زيادة حدة التوتر بينهما ، فجانب يستحيل التكهن به ، إلا أن غياب النزعة الإمبريالية اليونانية نتيجة خروج فينيزيلوس من مسرح الأحداث يعني تلاشي إحدى العقبات التي تحول دون تحقيق السلام بينهما . وإذا ما عمدت تركيا إلى الاستقرار والالتفات إلى تصحيح أوضاعها الداخلية وإعادة بناء بيتها (وهو جانب لا يكاد المرء منا يتوقع تحقيقه بالشكل المطلوب إذا ما أدركنا إننا لم نترك لتركيا ما يمكن اعتباره في الحقيقة بيتاً) فلعلها تكف عن إثارة المشاكل في أماكن أخرى الأمر الذي من شأنه أن يجعل من مهمتنا هنا في العراق أقل صعوبة .

إنني أميل إلى الاعتقاد بأنه في حال لم يتم أساساً أي مما قام به ولسون من أعمال، لجاء ذلك خدمة للصالح العام، إذ ما كان بإمكاننا أن نجابه بها بمعزل عن موقفه المعارض المتشدد إزاء الحقائق التي تتحكم في تنظيم علاقتنا بالشرق. ولابد من الاعتراف من جانب آخر بأن العمل كان جيداً إلى حد معين فقط، إلا أنه أضحى ضاراً بعد ذلك وإلى حد تجرد الجانب الإيجابي فيه من أي وزن له. ومع ذلك لا يمكننا بعد الخروج بحكم نهائي بخصوصه فلربما نتمكن في النهاية من تحقيق مكسب معين منه.

تم لي في الأسبوع المنصرم استضافة جمع ممتع من السادة على مائدة العشاء ضم ثلاثة من أعيان الموصل بالإضافة إلى النقيب كلايتون والرائد بولارد. وقد اتضح لي أن السيد محمد علي فاضل شيخ معمم في غاية الظرف والمرح وخفة الدم، ويعود له ولرفيقه المسيحي داوود أفندي اليوسفاني الفضل في ما دار بين المدعوين من حديث شيق غلب عليه طابع المرح واللباقة، مما أشاع جواً من المتعة لم يخفق في إبهاج الضيوف والمضيفة إلى أبعد الحدود.

ينتمي محمد علي فاضل إلى الشيعة الزيدية التي تتخذ من عاهل اليمن إماماً لها. إنه لأمر لا يخلو من غرابة أن يرتبط المرء منا بعلاقات ودية مع مريدي إمام اليمن! وكان محمد علي فاضل واليوسفاني عضوين في مجلس المبعوثان العثماني منذ ١٩٠٨ وهما على معرفة وثيقة بمداخل مدينة إسطنبول ومخارجها. وقد أشادا بشخص الأمير عبد الله بن الحسين الذي تفضله الموصل بوجه عام وتطالب بتوليته أميراً، ولكنني أشك في رغبة المجلس التأسيسي في اختياره، أو اختيار أي شخص آخر غيره، أميراً، إذ أن من المحتمل جداً أن يعبر هذا المجلس عن رغبته في تواصل الأمور على ما هي عليه حالياً. إننا نفترض دوماً عدم احتمال حدوث أي تغير مفاجئ في سياقات الأحداث، ومع ذلك لا أجدني راغبة في التكهن في كل الأحوال بسبب ما عانيته دوماً من هزائم فرضتها علي وقائع الأحداث.

ذهبت صباح السبت في سيارة إلى مدينة زور Zor التي تقع جنوب المدائن وتطل على نهر دجلة - ، حيث استقليت منها الزورق البخاري المخصص للنقيب بيدرCaptain Pedder ، مساعد الضابط السياسي لمنطقة الصويرة، وانطلقت في رحلة نهرية الى مدينة الصويرة استغرقت زهاء الساعة باتجاه أعلى النهر. ويسكن النقيب بيدر، باركه الرب، في بيت يكاد يكون بدائياً قياساً بمساكن بقية زملائه وأقرانه ممن تمت استضافتي فيها، ومع ذلك فإنه يعتبره آخر صيحة في الترف والفخامة، إلا أنه في الواقع أبعد ما يكون عن ذلك. وبعد أن طاف بي في أرجائه أدخلني إلى غرفه الطينية المعتمة وقال بنبرة لم تخل من فخر واعتزاز: «كل ذلك ولم يكلفني ترميمه وتجديده أكثر من مائتي روبية!» وإزاء ذلك لم

يسعني سوى الإجابة بأدب واحترام قائلة :«ياللعجب ! إنه لانجاز رائع حقاً !» ولكنني تساءلت في نفسي كيف تم صرف هذا المبلغ بالأساس ذلك لأنني لم أجد أثراً لأي ترميم أو إصلاح . ومن باب المبالغة في الاحتفاء بي فإنه أنزلني في أفضل غرف الدار ، وهي غرفة خصصها لتكون مكتبة ، حيث كان الباب فيها منفذ النور الوحيد ، وإذا ما أغلقت تصبح الغرفة في ظلام دامس ، وهكذا قدر لي التمتع بنعمة الاستحمام أمام باب مفتوحة ! أما ارتداء ملابسي في صباح اليوم التالي فقد تم في ضوء فانوس جيء به لهذا الغرض . وفي التاسعة انطلقنا راكبين نحو صحراء الجزيرة الرائعة بصحبة عجيل - عجيل الياور شيخ مشايخ شمر في العراق(كذا) - حيث قمنا بزيارة مضايف كبار مشايخ بيت عبد الله ، وتناولنا طعام الغداء بعد ذلك في المضيف الواقع على مقربة منها . وكانت مضارب الشيخ ديصل (كذا) تضم ما يقرب من مائة خيمة امتدت فوق أرض تغطيها مجموعة من الشجيرات الشوكية على مقربة من «بدعة حمد» (قناتهم) . وكان الحيز المخصص لاستقبال الضيوف يشغل ثلث مساحة فسطاط الشيخ ، وقد فرشت أرضه بالسجاد وامتدت الأرائك على جوانبه ، وكانت جدرانه من الستر الصوفية المتدلية التي تتم حياكتها وتخضيبها محلياً ، وكانت ألوانها الرائعة تجمع بين البرتقالي ، والقرمزي والأزرق الغامق من جانب وأنماط مختلفة من اللونين الأحمر والأزرق فوق أرضية بيضاء من جانب آخر ، وقد بدت هذه الجدران رائعة وهي تتدلى من السقف ذي اللون البني المعتم ، وتسمح بدخول أشعة الشمس المشرقة . أما طعام الغداء فقد تكون مما لا يقل عن خمسين طبقاً وتلول من الأرز وضعت فوقها خراف محمرة . وبعد تناول الطعام ذهبت للسلام على النساء اللاتي وجدتهن في غاية الجمال . وكانت أم ديصل (كذا) هي المتحدثة ، أما الصبايا فقد امتنعن عن الحديث خجلاً بل اكتفين بالتحديق بعيون دعج والقهقهة ، وكن يسارعن إلى حجب وجوههن كلما خوطبن . لا أظن أن أحداً يأمل بمشاهدة مثل هذه المجموعة الرائعة من المخلوقات التي لا تخفق في إثارة الشعور بالرضا والارتياح ، رجالاً ونساءً على حد سواء . فضلاً عن ذلك ، فإنهم يتميزون بالظرف وسرعة البديهة على طريقتهم الخاصة . أما فيما يتعلق بالشيخ عجيل فيمكن القول أنه من بين الأكفاء من رجال بلاد وادي الرافدين . وبعد هذه الزيارة أطلقنا لخيلنا العنان في طريق عودتنا إلى الصويرة ، ورحنا نسابق الريح مما أقلق مرافقينا من الأعراب وأزعجهم لاسيما إذا ما أدركنا أن اللباس العربي لا يتلاءم مع ركوب الخيل عدواً لسهولة انفصال أجزائه بعضها عن البعض الآخر ، وعدم قدرتها على التماسك . أما بالنسبة للنقيب بيدر ولي شخصياً فكانت الممارسة متعة لا يضاهيها شيء علماً أن

الحركة فوق الشجيرات الشوكية ، وتجاوز القنوات الصغيرة الجافة ، لم تكن ممارسة رياضية سهلة ، ومع ذلك يمكن القول بوجه عام بأنها كانت بالنسبة لي التجربة الأقرب إلى ممارسة الصيد من فوق ظهور الخيل .(٧)

وصلت السيدة فلبي إلى بغداد بصحبة طفلها الرضيع . إنها امرأة جذابة المظهر بشعرها الأصهب الجميل . وكنت على معرفة سابقة بها .»

وفي التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني كتبت تقول :«يقف الجنرال هامبرو موقفاً صلباً إزاء طلب تخلية السراي ، المقر الرسمي السابق للسلطة التركية الذي اتخذته السلطات العسكرية البريطانية بدورها مقراً لها بعد دخولها بغداد . إنه موقف استفزازي وفي غاية الحماقة فضلاً عما يتسببه من عرقلة تنفيذ الأوامر الصادرة من وزارة الحرب والقاضية بضرورة قيامنا بسرعة بتشكيل حكومة عربية يتم إثرها سحب بعض القطعات العسكرية . بالإضافة إلى ذلك فإنه موقف يحرم الكادر العربي من الاستقرار في المكاتب المخصصة له ، وممارسة نشاطه الطبيعي ، الأمر الذي من شأنه أن يعطي زخماً مضاعفاً لما تلوكه الألسن في المقاهي العامة ، وما يدور من لمز واغتياب في المجالس الخاصة ، وهي جوانب من الممكن إسكاتها في حال انتهجت القيادة العسكرية نهجاً عقلانياً .

ونشهد في الوقت الحاضر أعلى مد للأزمة التي يعانيها مجلس الوزراء . لقد استقال السيد طالب النقيب من منصبه وطلب السماح له بالسفر إلى إنجلترا بصحبة ابنيه . إن الأسباب التي دعته إلى هذا التصرف واهية وغير مقنعة بالمرة ، فالدوافع الحقيقية على ما أعتقد تكمن في السياق التالي : كان السيد طالب قد طرح أمام المجلس صيغة طويلة ومملة لقرار عفو عام ، وهو إجراء كاد يكون واثقاً من احتمال رفضه جملة وتفصيلاً من قبل السيد

(٧) هذا ما ورد نصاً في الكتاب وقد عمدت إلى ترجمته أمانة . بيد أني أود تنبيه القارئ الكريم لأي خطأ وقعت فيه الكاتبة (الآنسة بيل) إذ أنها افترضت أن عجيل الوارد اسمه في الرسالة هو الشيخ عجيل الياور شيخ قبيلة شمر جربة في العراق . أما عجيل الذي تشير إليه الآنسة بيل فهو عجيل باشا السمرمرد ، شيخ الزبيد ، أما (بدعة حمد) فهي قناة تمتد من مدينة الصويرة إلى ناحية الزبيدية ويبلغ طولها بحدود (٤٠) كيلومتراً وتقوم بإرواء الأراضي الزراعية التي تمر من خلالها . و«ديصل» هو خطأ آخر تقع فيه الكاتبة والصحيح هو الشيخ فيصل أحد أولاد عم الشيخ عجيل وهم جميعاً شيوخ من عائلة عبد الله . ويعود اسم بدعة حمد إلى الشيخ حمد الشلفح جد أبي الشيخ عجيل السمرمرد . وبهذا الصدد أو أن أتقدم بجزيل شكري إلى الأستاذ حارث العجيل السمرمرد ، حفيد الشيخ عجيل ، الذي تفضل مشكوراً بإيضاح هذا الجانب لي - المترجم

عبد الرحمن النقيب الأمر الذي يجعل منه بطلاً قومياً عجز عن العمل مع السلطات البريطانية بالرغم من كل جهوده التي انصرفت إلى التعاون معهم . وتتمحورحقيقة الأمر في الواقع حول حقيقة موقفنا الذي يرفض فكرة فرضه (حاكماً) على البلاد ضد مشيئة أبنائها مما دفعه إلى التعلق بأمل استقطاب دعم العناصر المتطرفة والوطنية على حد سواء وضمان وقوفها إلى جانبه . ولقد تم تحذير النقيب وعدد من أعضاء المجلس مسبقاً الأمر الذي دفع بجعفر باشا وساسون أفندي إلى قضاء معظم صباح هذا اليوم في مداولات معي . إنهم على ما أتصور عازمون على اعتماد ذات المنهج المقترح ولكن بعد إجراء بعض التعديلات الطفيفة عليه بهدف إحباط خطة طالب وإفساد أمرها . ومع ذلك فإننا مجمعون على أن استقالة السيد طالب تعتبر أمراً يؤسف له ، إذ أن من شأنها أن تصيب المجلس بصدمة لا يزال أضعف من أن يتحمل وقعها باتزان ورباطة جأش . ومن جانب آخر ، فإن إصرار السيد طالب على الاستقالة ومغادرة البلاد لابد أن يقابل منا بموقف شجاع . ومما لاشك فيه إن التخلص من طالب لا يخلو من فائدة كبيرة إذا ما قدر لنا تحمل ما يترتب على هذه اللعبة من تبعات .

حظيت اليوم بزيارة من قبل أحمد باشا الصانع الذي كان قد وصل قريباً من البصرة للاضطلاع بمهام منصبه عضواً في مجلس الوزراء . لقد قبل التكليف هذا على مضض لأنه يكره بغداد وألاعيبها (ولم يسبق له المجيء إليها) ويشجب حماقة أهلها وجهلهم بينما يشيد من جانب آخر بحكمة أبناء مدينته البصرة وتعقلهم . إنه يتحدث بصراحة عن مقدار دهشته إزاء ما يدور في أوساطها من كلام فارغ ويتساءل متعجباً : ألا يدركون ما هم عليه من خير ونعمة؟ وكان (أي أحمد باشا) قبل الاحتلال البريطاني للبصرة يضطر إلى حمل مسدسه ليلاً ونهاراً لحماية نفسه ، وكان لا يتجرأ على الذهاب إلى بساتينه (خارج مدينة البصرة) من غير حماية قوامها عشرون رجلاً مسلحاً من رجاله . أما الآن فإن البصرة لا تقل أماناً عن لندن . كما أن خط السكة الحديدية - الذي اعتبر أن إنجازه مثل حدثاً ما كان يظن أنه سيشهد تحققه في حياته أبداً - قد تم إنشاؤه من أجل أن يعمد العرب إلى تخريبه . وبقدر تعلق الأمر به شخصياً فإنه يود أن يرى بلاد وادي الرافدين تقاسي ويلات ما جنته يداها شريطة موافقتنا على الاحتفاظ بالبصرة فقط .

وإزاء ذلك بينت له احتمال أن تصاب البصرة قريباً بهذه الويلات ، وبذلك فإن الواجب يحتم عليه ، مثلما تحتم عليه المصلحة العامة كذلك ، أن ينصرف إلى الإسهام في عملية البناء حتى وإن تطلب ذلك ضرورة إقامته في بغداد المقيتة ! ولقد كان من شأن حديثي معه أن يهيج مكامن الشعور لديه إلى حد معين على ما أعتقد . إنه لن يوافق على المكوث في

بغداد فترة طويلة ، بيد أن بقاءه سيعني من غير شك تحقيق تحول أكيد في توجهه السابق .

يعمد السير برسي كوكس اعتيادياً إلى استدعائي إلى مكتبه بحدود منتصف النهار بغية تداول الأمور وتبادل وجهات النظر ، وبعد ذلك أقوم بتناول طعام الغداء معه بحضور زوجته ، اللادي كوكس ، والنقيب تشيسمان .

استضفت في الأسبوع المنصرم ثلاث دعوات عشاء كان ضيوف الأولى منها السير برسي واللادي كوكس بالإضافة إلى الجنرال السير ايلمار هالداين ، وجعفر باشا العسكري ، إلا أنها لم تثبت الدعوة مناسبة ناجحة حسب تقديري برغم كل ما بذلت من جهود مضنية من أجل جعلها حدثاً ناجحاً وهو شعور لا يفترض به أن يراود مخيلة أي مضيف . ولا بد لي من الاعتراف بأن تصرف اللادي كوكس كان رائعاً وجديراً بالثناء . وضمت الدعوة الثانية السيد فلبي وعقيلته وثلاثة من الشباب الوطنيين (العراقيين) . أما الدعوة الثالثة فقد شهدت النقيب كلايتون والسيد فلبي ورشيد بك الخوجة بالإضافة إلى رئيس تحرير أبرز صحيفة وطنية والذي يكاد يكون أمياً ، فهو لم ينبس بحرف واحد تقريباً طيلة الأمسية بينما انهمكنا نحن في الحديث عن موضوع الساعة ، أي قانون الانتخاب ، وعن البلشفية وإلى غير ذلك من المواضيع الشيقة . أما مقدار ما قدر لرئيس التحرير آنف الذكر اكتسابه من العلم والحكمة فأمر سيتضح لاحقاً ، فإذا ثبت بأنه قد أخفق في فهم فحوى ما دار من حوار ، وما انطوى عليه من مضامين ، فإن لحظة إغلاق صحيفته تصبح مسألة وقت ليس إلا . وبعد استئذان الضيوف العرب ومغادرتهم بقي السيد فلبي والنقيب كلايتون حتى منتصف الليل . كان حديثاً طويلاً ومسهباً وهو أمر طبيعي عندما يكون المرء منا في خضم عملية تكوين دولة جديدة في وجه صعاب جمة تهدد بفشلها .

أثناء توجهنا بالسيارة يوم أمس لزيارة المدائن أسلمنا أنا والسير برسي بأنها حقاً قدرة إلهية أن يكون العقل البشري قد خلق على نحو يمكن صاحبه من التوقف عن التفكير في كل ما يجابهه من المخاطر والمصاعب ، فإلى جانب جهودنا المنصبة نحو بناء قصور من الرمال من المحتمل جداً عدم قدرتها على الصمود ضد المد ، ومع ذلك يمكننا قضاء يوم بأكمله من غير عمل والاكتفاء بالتمتع بنور الشمس والهواء الطلق شأننا بذلك شأن طائر الدودو Dodo[٨] . قال سير برسي متأملاً :«سيكون أمراً يدعو إلى الأسف إذا ما تمكنت

---

(٨) الدودو - طائر منقرض أشبه بحمامة كبيرة كان يعجز عن الطيران ويعيش فوق جزيرة ماروشس في المحيط الهندي إحدى أعضاء رابطة دول الكومنويلث البريطاني - المترجم

البلشفية من إحباط مساعينا في ذات اللحظة التي بات القطر هذا قاب قوسين أو أدنى من الاستفادة من أول فرصة ذهبية سنحت له» . أجل ! سيكون أمراً يدعو بحق إلى الأسف .»

هناك حاشيتان أضيفتا إلى نهاية هذه الرسالة أولهما أبيات كان نظمها أحد الشباب العاملين في مكتب جيرترورد ، وهي أبيات يتناول موضوعها السيد عبد الرحمن النقيب ومجلس الوزراء الذي يرأسه :

وثمة طرف دأب على أن يستشهد بما روي عما أوصى به محمد إنها تعاليم يأبون الالتزام بها ويطالبونه (النقيب)بتجنب ذكرها والاكتفاء بتعاليم نورثكليف(٩) بدلاً منها .

أما الحاشية الثانية ، والمؤرخة في الثلاثين من شهر تشرين الثاني ، فكانت نص لآخر خبر وصل في حينه إلى الصحف (العراقية) قبل انتهاء طباعتها جاء فيه :«طالب يسحب استقالته !» .

---

(٩) وهو الفريد شارلز وليام هامزورث ، فيكونت نور ثكليف (Viscount Northcliffe (1856 - 1922 أحد ملوك الصحافة في بريطانيا . وقد قام بالتعاون مع أخيه هارولد ، فيكونت روذرمير Viscount Rothermere بامتلاك مجموعة من دور الصحف ، وأسس في عام ١٨٩٦ جريدة الديلي ميل Daily Mail الشهيرة ، أبرز الصحف الناطقة بلسان المحافظين ، والتي من خلالها (بوصفها أول جريدة أصبحت في متناول يد العامة بفضل رخص ثمنها) تمكن من التحكم في توجيه الرأي العام البريطاني لاسيما خلال سني الحرب العالمية الأولى – المترجم

الفصل السادس عشر

١٩٢٠

كانت جيرتروود بيل ترغب في القيام بتسجيل التفاصيل الدقيقة لهذه الفترة من التاريخ التي قدر لها أن تكون من بين شخصياتها البارزة ، وكانت ترغب معاودة تدوين هذه التفاصيل في دفتر يوميات« فقط لو أن الأيام كانت بضع ساعات أطول مما هي عليه» على حد تعبيرها وذلك من خلال رسالة كتبتها إلى أبيها في الرابع من شهر كانون الأول ، أضافت فيها قائلة :«ولهذا السبب تجدني أكتب لك التفاصيل بإسهاب مدركة أنك تحتفظ برسائلي .

تستقطب ألاعيب السيد طالب الجزء الأكبر من اهتمامنا ولقد سبق لي إعلامك بخبر استقالته ومن ثم قيامه لاحقاً بسحبها . كان الهدف الأساس منها التزلف إلى الوطنيين ، ولقد كشف عن نيته هذه بوضوح من خلال مقابلة أجراها معه رئيس تحرير جريدة الاستقلال المتطرفة ، ونشرت تفاصيلها في أعقاب سحب استقالته . قال إنه كان يراقب عن كثب وباهتمام بالغ توجه الرأي العام الذي اكتشف بأنه يقف ضد الوزارة الأمر الذي دفعه إلى طرح عدد من المطالب على المجلس بأمل مفاتحة السير برسي كوكس حول ضرورة تحقيقها . وقد شملت هذه المطالب عودة كل المنفيين واللاجئين ، ومنح الوزراء حرية أوسع للعمل . ولإخفاق هذه المطالب المطروحة في دفع زملائه على الترحيب بها وإيلائها ما تستحق من اعتبار فإنه شعر بأن واجب المواطنة يحتم عليه تقديم استقالته آملاً أن يحذو زملاؤه حذوه إذا ما كانوا يحبون بلادهم ، ملمحاً في الحين ذاته ، بأنه على استعداد لإعادة النظر في موقفه في حال قبل المجلس مشروعه المطروح . إن الأمر لا يتعدى كونه نسيجاً من الصور المحرفة ، فقضية المنفيين يتم النظر فيها حالياً من قبل المجلس والسير برسي كوكس معاً ، وقد أعرب الأخير عن موافقته حول عودة البعض منهم . وكما يعلم السيد طالب جيداً فإن السير برسي يواصل مفاتحة لندن برقياً بهدف حثها على اتخاذ ما يلزم حول عودة الضباط العراقيين من سوريا . أما بقدر تعلق الأمر بالوزراء ، فإن السير برسي قد قام شخصياً بالطلب من المجلس النظر في مهام الوزراء وواجباتهم . ولابد من الاعتراف بأن مناورة السيد طالب هذه قد حسنت موقفه إزاء العناصر العربية الشابة التي كانت حتى الوقت الحاضر تكن له شعوراً بالكراهية .

تقع على عاتقي مسؤولية تشجيع ومواساة كل من ساسون أفندي وعبد المجيد بك

الشاوي اللذين أكن لهما تقديراً واحتراماً عميقين ، فهما العضوان الوحيدان اللذان يقفان بصلابة في مواجهة السيد طالب في المجلس . ولقد تمكنت من إقناعهما على ما أظن بأنه على الرغم من أن القرار الخاص بتحديد صيغة نظام الحكم في العراق ليس من شأننا ، إلا أنه من واجبنا بالضرورة التأكيد على أهمية أن يكون القرار هذا حقيقياً ، وأن يتم اتخاذه بمنأى تام عن أي تأثير يأتي بفعل دسائس طرف معين ومكائده ، وإزاء ذلك يعمد السيد حسين أفنان الذي يعمل سكرتيراً لمجلس الوزراء في الوقت الحاضر إلى هز رأسه مفيداً أن السيد طالب قد قضى ثلاثين عاماً في التفوق على المسؤولين الأتراك بالمكر والخديعة الأمر الذي يجعله خبيراً ماهراً بكل جوانب اللعبة وخفاياها . أما جعفر باشا فإنه يعمد في الوقت الحاضر إلى مجاراة السيد طالب ، إلا أنني قد توصلت إلى قناعة مفادها أن جعفر يقوم بذلك حتى الوقت الذي يتم له فيه تثبيت مركزه ، والأكثر من ذلك فإنه ينصرف إلى مواصلة هذه المناورة إلى حين عودة بعض (الضباط) العراقيين من سوريا لمساعدته . وتجد قناعتي هذه تأييداً كاملاً لها من لدن عبد المجيد الشاوي الذي أسر إلي بأن جعفر باشا كان فاتحه مؤخراً طالباً منه الدعم والمساعدة انطلاقاً من واقع كونهما متفقين في الآراء الأمر الذي يعني وجوب وقوفهما معاً صديقين وحليفين في آن واحد . ويسرني القول أن هذه هي التوليفة الصحيحة التي شاءت الأقدار تحقيقها .

إن طالب رجل مخادع ، وإذا ما قرر العراقيون اختياره أميراً عليهم فإن كل ما يمكنني قوله إزاء ذلك هو أنهم سينالون ما يستحقون ، ولكنني لا أظن بأنهم سيختارونه . ومن بين النقاط التي أوردها في مذكرته المطروحة على مجلس الوزراء تلك التي تقترح إيفاد لجنة من المجلس إلى مناطق النجف والفرات بوجه عام بهدف التوصل إلى وضع مشروع لإدارة المناطق هذه . وكان السير برسي قد تقدم في اليوم ذاته إلى المجلس باقتراح مماثل ، ونتيجة ذلك عين المجلس لجنة تضم جعفر باشا وكلاً من الشيخ عجيل ومحمد صهيود[1] (وكلا الأخيرين من أعضاء المجلس أيضاً) . كما أن ادعاء السيد طالب بأن زملاءه قد رفضوا برنامجه هو الآخر محض افتراء ذلك لأنه قدم المشروع إلى السيد عبد الرحمن النقيب فقط لا إلى مجلس الوزراء ، وإزاء ذلك جاء رد رئيس المجلس مطابقاً لما تقتضيه حكمة الإجراءات الأصولية بهذا الصدد ، فقد طلب إمهاله وقتاً لتدارس الأمر .

---

(١) المقصود هنا هو عجيل باشا السمرمد ، شيخ الزبيد ، أما محمد صهيود فهو محمد الحبيب أمير ربيعة الذي يتولى ابنه ربيعة المشيخة حالياً - المترجم

حظيت مؤخراً بزيارة من لدن رجل مثير للاهتمام جداً وهو السيد محمد رضا الشبيبي الذي كنت تعرفت عليه في عام ١٩١٨ ولكنه سرعان ما توارى عن أنظاري حانقاً ، مستاء لسبب لازلت أجهله ، وقد توجه في حينه إلى الحجاز وسوريا حيث راح ينشر مقالات صحفية مناهضة للبريطانيين ويشجب فيها نهجنا المعتمد في حكم البلاد . إنه يشعر بخيبة أمل على ما أتصور إزاء الطريقة التي رضخ فيها السوريون أخيراً للحكم الفرنسي لبلدهم . وإنني أعتبر شجبه للفرنسيين أول شهادة حقيقية على ما حققوه من نجاح والذي يبدو أكبر مما كنت أظن . وفي كل الأحوال ، فإن السيد محمد رضا قد عاد إلى العراق ليقول إنه على ثقة تامة بحكمة ما نقوم به من عمل في العراق وصوابه . إنه رجل معروف بقلمه السيال وفكره الخلاق . وإذا ما عقد العزم مخلصاً على التعاون معنا فإن ذلك سيتم على حساب سمعته ، إذ سيشار إليه من قبل المتهورين بوصفه صديقاً للإنجليز ، وإذا ما قدر لهذا التعاون أن يتحقق فلعله يثبت أمراً نافعاً .

إن ما يتميز به السلوك النزيه للسير برسي كوكس من شفافية هو في الواقع عون للفرد منا في مضمار التعامل مع وطنيين من هذا الطراز . وثمة شائعات تصلنا حول تجمعات لفئات وطنية عربية مناوئة لنا ، وحول الحجاز ، وابن رشيد ، وما تبقى من رجال الحزب السوري ، كما تردنا أخبار عن تهديدات عربية - تركية من الشمال حيث التجأ قادة التمرد (يوسف السويدي وجماعته) إلا أن ذلك كله لا يخيفني بالمرة في حال تمكنا من إدامة الاستقرار في بلاد وادي الرافدين»

وفي الثامن عشر من شهر كانون الأول كتبت تقول :«عانيت طيلة هذا الأسبوع من نتيجة إصابتي برشح مهلك ، ولكنني أحمد الله تعالى على هطول الأمطار لأنها وضعت نهاية للبرد القارص . آمل أن لا نتعرض إلى المزيد منه إذ يستحيل علينا الحفاظ على درجة حرارة ملائمة تمكننا من العيش والعمل كما ينبغي . وفي هذا اليوم المصادف الأحد انطلقت في نزهة صباحية على ظهر جوادي ، وكانت الأرض موحلة إلى حد يكاد يعيق سير الواحد منا كلياً . ومنذ عودتي من هذه النزهة عمدت إلى الجلوس في شرفة الدار لأتمتع بدفء الشمس وأراجع محتويات بعض الجداول المتعلقة بالعشائر . إن حديقة داري محمية بأسوار عالية وأشجار البرتقال ، وهي الوحيدة التي لم يفلح الصقيع في إضفاء لون أسود على ما فيها من الأقحوان .

يبلغ سعر الجنيه الإسترليني خمس عشرة روبية ! إنه سعر يناسبني تماماً ، إلا أن هذا التدني السريع قد أدى إلى حدوث أزمة مالية في بغداد . إنني واثقة من أنك (الكلام موجه

لأبيها السير هيوبيل) تدرك أسباب هذا التقلب في سعر الروبية ، أما بالنسبة لي فهو لغز يصعب علي سبر أغواره .

لا أظنني قد رويت لك قصة في غاية السخف تتعلق بمغامرة جوية قام بها العقيد ولسون عندما استقل طائرة إلى أربيل والموصل في شهر أيلول (المنصرم) . تم ذلك في خضم التمرد العشائري الأمر الذي جعل من المغامرة ممارسة في غاية الخطورة ، فلو قدر لطائرته في حينه أن تجبر على القيام بهبوط اضطراري لكان لقي حتفه بالتأكيد على يد العشائر . وكان قبل مغادرته أربيل قد استلم برقية من مقر القيادة العامة جاء فيها ما يلي نصاً :«إذا ما أراد المفوض المدني مواصلة رحلته إلى الموصل ، فهل له أن يتكرم بإلقاء قنبلة على باطاس .» وكانت باطاس[٢] تعيش حالة تمرد تام . وقد شكل ما جاء في هذه البرقية منة ما كان لولسون أبداً أن يرفض التكرم بمنحها في أي وقت . ومن جانب آخر ، فإن نص هذه البرقية على ما يبدو ينم بوضوح عن حماقة وغباء لا حدود لهما .

سرني جداً أن أجد نفسي موضع تقدير وزارة الداخلية (والحكومة العربية بوجه عام) بوصفي المرجع الأول فيما يتعلق بالعشائر . إنني كذلك حقاً ، إذ أن معرفتي بالعشائر العراقية بصورة عامة تفوق معرفة أي شخص آخر بها ، ولا غرابة في ذلك إذا ما أدركنا مقدار ما بذلت من جهد ، وعلى مدى سنوات ، في مجال جمع المعلومات الخاصة بالموضوع وتبويبها . وإلي شخصياً يعود الفضل في تسوية وتنظيم التفاصيل المتعلقة بالتمثيل العشائري الذي لا يعتبر أمر تحققه توجهاً صحيحاً بحد ذاته فحسب بل إن ارتباط أبناء العشائر بالحكومة الوطنية وانتماءهم إليها يعتبران من بين المستلزمات الضرورية لتحقيق أمنها .[٣] فضلاً عن ذلك هناك شعور قوي حول هذا الموضوع داخل الحلقات الوطنية العليا . ومهما كان من أمر هذه الخطوة فإنها جريئة . ولابد لنا أن ندرك أن أبناء المدن بوجه عام ، والملاكين فيها بوجه خاص ، يكرهون رجال العشائر ويخشون بأسهم (تماماً مثلما يكره رجال العشائر أبناء المدن) وبذلك فإنهم غير ميالين إلى أن يحظى أبناء العشائر بمنزلة سياسية (من الناحية القانونية) وذلك على العكس من المثقفين وأهل الفكر الذين على الرغم من أنهم لا يملكون

---

(٢) تقع باطاس في منطقة كردستان العراقية (محافظة أربيل) بين دشت حرير وكلي علي بك - المترجم

(٣) لقد أصابت الآنسة بيل كبد الحقيقة عبر هذا الطرح ، ولعل إخفاق العشائر بوجه عام في النهوض فوراً إلى نجدة الحكم الملكي اثر اندلاع الثورة صبيحة الرابع عشر من تموز من عام ١٩٥٨ إنما يعود جزئياً إلى غياب هذا الارتباط وإخفاق الحكومات المتعاقبة في تنمية شعور الانتماء بينها وبين العشائر وتعزيز أواصره - المترجم

أصولاً عقارية ، إلا أنهم يشكلون عماد الجماعات الوطنية وعمودها الفقري . إن أعضاء المجلس من كبار الملاكين بدءاً بالرئيس ، السيد عبد الرحمن النقيب ، سيحاولون جهدهم من أجل وضع العشائر خارج المعادلة السياسية» وتنهي جيرتروود هذه الرسالة بالقول :«لم تكن الحياة الرسمية ممارسة سهلة بالمرة ، لاسيما بعد أن تم وضعي في موقع صعب جداً على ما أظن ، إلا أن ذلك قد انتهى كله ، وأمسى تاريخاً إثر عودة السير برسي كوكس التي وضعت حداً لكل ما كنت أعانيه من مصاعب . وكلما تواصل وجودي معه ازداد شعوري بالثقة بحكمته واستقامة سلوكه ، وهذا هو الأساس الوطيد (للعمل المثمر) وهو غاية ما يتمناه المرء . أما فيما يتعلق بالسيد إدوين مونتيجيو فلا أجد ما يدفعني إلى التشكي منه أو التذمر من سلوكه . وحول برقية العقيد ولسون (التي لم ينشد أساساً وصولها إلى إدوين ، والتي كانت أرسلت إلى السير برسي) فإن إدوين كان مصيباً في مخاطبتي برقياً على نحو ما فعل ، وكانت برقيته عنواناً للطف ومراعاة الشعور . أن المشكلة تكمن في عدم فهمي للهدف الذي توخى ولسون تحقيقه من برقيته لاسيما في ضوء إنكاره توجيه أية تهمة أو شكوى لم يسبق له إخباري عنها . ولا يسعني سوى الانفجار بالضحك عندما أتصور مقدار حيرة ولسون ودهشته نتيجة علمه بالبرقية التي عمد إدوين إلى إرسالها لي .»

وفي الثامن عشر من كانون الأول (وبالإشارة إلى استفسار وزارة الهند حول إمكانية تخفيض النفقات ، لاسيما العسكرية منها) كتبت جيرتروود تقول :«يجيب ادوين مبيناً أن وزارة الحربية ستثير مسألة الانسحاب إلى خط الناصرية- القرنة مع القيام في الحين ذاته بممارسة مهام ومسؤوليات الانتداب حتى الموصل . ويتفق السير برسي معي حول ما يتميز به هذا الطرح من جانب غير عملي ، وكانت رسالتي الموجهة إلى آسكويت تتعلق بهذه النقطة بالذات ، إذ لا يمكن سحب القوات إلى البصرة والقيام بتنفيذ متطلبات الانتداب .

أما فيما يتعلق بالدفاع الخارجي ، فيكفينا القول أن هناك مجموعة تركية من الرعاع (ندرك قيام البلاشفة بتمويل نشاطاتها) تتواجد في مناطقنا الشمالية[٤] وتطلق على نفسها اسم جيش العراق وهو الجيش الذي تأمل هذه المجموعة أن يحقق لها إعادة وحدة بلاد وادي الرافدين مع الإمبراطورية التركية . إن العناصر الوطنية العربية لا ترغب في وحدة

---

(٤) يلاحظ القارئ الكريم الإطار الفكري العام لهذه «الخاتون» التي تعتبر شمال العراق «مناطقنا الشمالية» ، وتقترح إعادة البلاد إلى حظيرة الأتراك كحل بديل ، متجاهلة تماماً (ولربما من غير وعي أبداً) مشاعر ورغبات ذلك الشعب الذي دخلت القوات البريطانية أرضه «محررة لا فاتحة» على حد تعبير الجنرال مود ! - المترجم

بلادهم مع تركيا ، بيد أنها ستجد نفسها عاجزة عن إحباط هذه الحركة في حال انسحابنا من البصرة .

إنه لأمر مضحك للغاية ، بل ومناف للعقل كذلك ، أن نتحدث عن تنفيذ متطلبات الانتداب ومستلزماته من قاعدة عسكرية في البصرة . وقد يصر الشعب البريطاني على الانسحاب الفوري لإحدى الفرقتين العسكريتين اللتين يعتبر وجودهما ضرورة من أجل تنفيذ وعدنا القاضي بإقامة حكومة عربية ، أو على انسحابهما معاً . لا يمكنني فرض رأيي على أبناء وطني ، ولا إجبارهم على توفير ماليس بحوزتهم على ما يبدو لي من الأموال المطلوبة (لتمويل نشاطاتنا في العراق) . ولكن ما يمكنني ، بل وما يتعين علي قوله في مثل هذه الحالة هو ضرورة تخلينا عن الانتداب ، وإزاء ذلك يتمثل الإجراء الوحيد الذي تقضي الأمانة علينا اعتماده بدعوة الأتراك إلى العودة .

وثمة حقيقة أخرى يتعين علينا مواجهتها بهذا الصدد ، ، مفادها :(إن تخلينا عن الانتداب يعني بالضرورة) انسحابنا من البصرة أيضاً ، وهذا ما بينته في رسالتي التي كنت وجهتها إلى السيد أسكويت ، إذ ليس من المعقول أن يسمح لقوة أجنبية عظمى باحتلال الميناء الوحيد الذي تمتلكه البلاد وبذلك سيواصل كلا العرب والأتراك المطالبة به بكل السبل ، بل والقتال من أجل امتلاكه إن تطلب الأمر ذلك . فهل بإمكانك تصور بقاء بريطانيا العظمى في حالة حرب لانهاية لها بالمرة ؟ كلا بطبيعة الحال .

ومما لاشك فيه أن السير برسي سيعمد إلى إرسال جواب ذكي وبارع ، بيد أنني لا أظن بأنه سيختلف مع أي مما ذكرت ، اللهم إلا باحتمال استثناء البصرة التي قد يقترح التشبث بالاحتفاظ فيها . ومهما يكن تفكيره وتوجهاته فإنني لن أغير رأيي وهو إننا في حال عدم تمكننا من الاحتفاظ بالحد الأدنى من حجم القوات العسكرية المطلوب على مدى السنتين القادمتين - فرقتان عسكريتان أو قوة أقل منهما بشيء قليل فقط - يتعين علينا مبارحة البلاد كلياً .

في يوم الخميس دخل ساسون أفندي مكتبي وقد بدا في غاية الفرح والارتياح بعد حضوره جلسة ثالثة لمجلس الوزراء ليعلن بأنهم قد انتهوا من صقل نص قانون الانتخابات ، ووضعوا اللمسات النهائية له .

اليوم هو الأحد من أيام الأسبوع ، وقد جاء السيد طالب لزيارتي ، ولابد لي من الاعتراف بأنه ترك لدي انطباعاً حسناً . أخبرني صراحة عن رغبته في تولي إمارة البلاد . ومن خلال مناقشة مطولة تناولت وضعه بشكل عام شعرت بأنه قد عكس درجة عالية من

الوعي والحكمة . بعد ذلك تداولنا حول إغلاق الصحيفة ذات النزعة القومية المتطرفة التي قد تحولت الآن إلى وسيلة دعائية بلشفية[٥] لربما تحظى بدعم من لدن جهة معينة . إنه يرى ضرورة القيام بإغلاقها أظنه على حق في توجهه هذا ، وسوف أقوم بدوري بمداولة الأمر مع السير برسي يوم غد . إلى جانب ذلك فإنه يحث علي وجوب قيامنا بالتصدي لما يدور في المقاهي والمجالس العامة من أقاويل وشائعات وضرورة إفراغه من محتواه عبر الانصراف إلى توفير الوظائف الحكومية لمحبي القيل والقال ومروجي الإشاعات (وأغلبهم من موظفي الدولة العثمانية وضباطها السابقين)[٦] وهو جانب أتفق مع السيد طالب تماماً حوله . إنه لا يشعر

(٥) إن الصحيفة المقصودة هي على الأغلب جريدة الاستقلال الذي كان صاحبها السيد عبد الغفور البدوي ورئيس تحريرها السيد قاسم العلوي - المترجم

للاطلاع على تفاصيل التمثيل العشائري (وفق ما وضعته جيرتروود) يمكن للقارئ الكريم الرجوع إلى المجلد الثاني من «رسائل جيرتروود بيل» - المترجم

(٦) كانت المؤسسات الحكومية في عهد الاحتلال يشغلها موظفون كان أغلبهم من البريطانيين والهنود ، ولم يكن فيها من العراقيين إلا قليل . وإثر تشكيل الوزارة العراقية الأولى اتجهت السياسة البريطانية نحو تقليص عدد الأجانب وتعيين عراقيين بدلاً منهم . ويمكن القول أن ظاهرة التهافت على الوظائف الحكومية تعود بدايتها إلى تلك الفترة من تاريخ العراق ولعل العوامل الثلاثة التالية تنصرف إلى تعليل هذه الظاهرة :

١ - المكانة الاجتماعية المتميزة التي يتمتع بها صاحب الوظيفة

٢ -ما تدره الوظيفة على صاحبها من عوائد مادية ثابتة كانت تعتبر آنذاك عالية جداً إذا ما قورنت بمستوى أجور العمال وأرباب المهن .

٣-ما شهدته فترة ما بعد الاحتلال من كساد اقتصادي وتضخم جعل من الوظائف الحكومية مجال رزق لا يستهان به .

وجدير بالذكر أن السياسة البريطانية في العراق اتجهت إلى إسناد الوظائف الحكومية إلى «الأفندية» العائدين من سوريا (بعد سقوط المملكة العربية هناك) والذين نالوا حصة الأسد من هذه الوظائف الأمر الذي أدى إلى امتعاض أبناء الأسر العريقة في بغداد الذين لم يرق لهم تولي المناصب من قبل من يعتبرونهم من طبقات اجتماعية دنيا ، ناهيك عن تباين الأفكار بين أبناء الفئتين ، كما أدى كذلك إلى امتعاض من شارك في ثورة العشرين من «الأفندية» الذين لم يشاركوا في الثورة العربية الكبرى والذين كانوا يعتبرون أنفسهم أولى بهذه الوظائف من غيرهم . ولعل الاطلاع على كتاب «الوقائع الحقيقية» لعلي البازركان - (بغداد ٤٥٩١) يتيح للقارئ فرصة تحسس هذا الشعور الذي ساد في حينه بين قادة الحركة الوطنية في بغداد .

ولا يستبعد أن يكون البريطانيون قد تعمدوا هذا التوجه الأمر الذي جعل من تبوئ الوظائف جانب إغراء وتخدير من جانب ووسيلة لزعزعة وحدة الصف من جانب آخر - المترجم

براحة تامة مع مستشاره السيد فلبي الذي لا يميل على ما يبدو - برغم كل آرائه وتوجهاته الليبرالية المتقدمة - إلى منح وزيره ، أي السيد طالب ، فرصاً كافية للتعبير عن آرائه واتخاذ القرارات اللازمة . ولابد من القول بهذا الصدد أن حتى الأفضل من بين المستشارين (البريطانيين) يجابهون صعوبة كبيرة في التسليم بواقع أن دورهم يقتصر على إسداء المشورة فقط .

لا أظنني أجانب الحقيقة عندما أقول إننا نتمتع بثقة كل العاملين معنا . إن الشخص الذي أحب هو ساسون أفندي الذي أعتبره إلى حد بعيد الرجل الأكفأ بين أعضاء المجلس . وعلى الرغم من ميله إلى التصلب في المواقف أحياناً ، فإنه يرى الأمور بمنظار المحامي المتمرس بالشؤون المتعلقة بالقانون الدستوري وبذلك فإنه لا يأخذ بعين الاعتبار أحوال العراق البدائية ، إلا إنه صادق في توجهاته ، وبعيد عن التحيز وتوخي المصالح الشخصية . وإلى جانب ماله من قدرات حقيقية فإنه يتمتع بخبرة واسعة ، وإن سعيه إلى طلب المشورة مني ، والسير على هديها ، لا يخفقان في ترك أثرهما في نفسي فحسب بل إن ما ينطويان عليه من أدب جم وتواضع يكادان يدفعانني إلى الشعور بالخجل . لا ينبغي اعتبار ما أقوله بهذا الصدد مشورة حقيقية أقوم شخصياً بإسدائها ذلك لأنها ليست أكثر من صدى لما يجول في رأس السير برسي من أفكار . بيد أن ما يثلج صدري حقاً ، ويعزز شعوري بالثقة ، هي آصرة الصداقة الحقيقية التي تربط بيننا وما يعززها من شعور متبادل بالاحترام . ولابد من الاعتراف بهذا الصدد بأن هذا الشعور هو ما أكنه للجميع بوجه عام وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة . إنه لأمر مهم ، أليس كذلك ؟ كما أنه الأساس المتين للانطلاق نحو تنفيذ الواجبات الملقاة على عاتق الجهة التي تضطلع بمسؤولية الانتداب .

قمت يوم أمس بزيارة طويلة للنقيب الذي بدا لي من خلالها طاعناً في السن ، واهناً ، إلى درجة لا يتصورها العقل ، إلا أن حديثه لم يقل إسهاباً ولامرحاً عما اعتدته دائماً . أتضرع إلى السماء ، وأتوسل إلى المولى ليمد بعمره إلى ما بعد اجتماع المجلس الانتخابي . ترى كيف يمكننا تصريف الأمور في حال غيابه؟ لا يسعني تصور ذلك أبداً .

إن الطقس اليوم شديد البرودة وغائم ، انطلقت على ظهر جوادي إلى الكرادة لزيارة صديقي الحاج ناجي الذي وجدته مسافراً ولكنني لم أعد أدراجي بل قررت الجلوس قليلاً وتناول الفواكه المجففة وتجاذب أطراف الحديث مع زوجته وبعض العاملين في مزرعته . تحدثنا عن الصقيع والمحاصيل بصورة عامة . بدا المنظر رائعاً في هذا المكان الذي راح يشهد تساقط آخر أوراق الخريف من على أشجار الفواكه ، ونمو الشعير الأخضر وترعرعه بين أشجار

النخيل .»

وفي الخامس والعشرين من شهر كانون الأول كتبت تقول :«أبتاه الحبيب - يسعدني جداً سماع أخبار دعوتكم للسيدة مارجوري هامبرو Marjory Hambro لتناول طعام العشاء على مائدتكم . إني أفتقد وجودها بيننا في هذا الشتاء . أما الجنرال (زوجها) فسيغادرنا في غضون الأسبوع القادم . كم أتمنى بقاءهما معنا هنا ، ذلك لأنني أشكو من الوحدة كما تعلم . لست مهتمة بمن حولي من الناس ، ومن الطبيعي جداً أن لا يهتموا هم بدورهم بي أيضاً . ما الذي يدفعهم إلى الاهتمام بي؟ لا شيء بالمرة ! فضلاً عن ذلك فإن ما يسرهم ويبعث الراحة في نفوسهم لا يؤنسني بالمرة بل يدفعني إلى الشعور بالسأم والملل . وفي مثل هذه الحال لا أكاد أرى أحداً اللهم إلا باستثناء الأشخاص الذين يعملون معي .

لا أكتب لك لمجرد قضاء جزء من يوم عيد الميلاد فحسب ، بل كذلك لأنني سأنطلق في رحلة إلى الرمادي طلباً للراحة والاستجمام . سأنطلق بصحبة النقيب كلايتون وسنحل ضيفين على الرائد ييتس Major Yetts . وبرغم ما أكن للنقيب كلايتون من شعور بالمودة ، فإنني أتمنى مخلصة لو كان باستطاعتي القيام بهذه الرحلة بمفردي وذلك انطلاقاً من نزوعي إلى العزلة والانفراد بالذات والسير على طريق يعيد إلى ذاكرتي أصداء رحلات سابقة وتداعياتها ، وهي جوانب أفضل استعادة سياقاتها في داخل ذاتي ودونما مشاركة من أحد .

يراودني في كثير من الأحيان مؤخراً شعور بأن أصدقاءنا العرب يرغبون في قيامنا بمهمة إرشادهم . لقد راح العديد منهم يناشدونني شخصياً ، ويناشدون كذلك غيري ممن يثقون بهم من بين المسؤولين البريطانيين ، بضرورة قيامنا أثناء إجراء الانتخابات بالتأكيد على انتخاب العناصر الجيدة التي يجدر حقاً انتخابها ، وبخلاف ذلك فإن من المحتمل جداً أن يضم المجلس المنتخب الكثير من مهيجي الجماهير والمحرضين على العصيان الذين لا يتوانون عن القيام بكل أنواع الأعمال والنشاطات الطائشة وغير المسؤولة ـ لابد لنا من ممارسة مالنا من نفوذ ـ هذا ما يردده على مسامعي هؤلاء الأصدقاء من أجل ضمان الحصول على أغلبية من بين ذوي الحكمة والحس بالمسؤولية من الأشخاص . بعد ذلك يحاولون بتلهف معرفة رأيي حول الطريق الأفضل الذي ينبغي للقطر أن يسلكه . وإزاء ذلك أقول لهم دوماً إن أي صيغة من صيغ السلطة العربية التي يريدون تشكيلها ستلقى قبولاً منا ومع ذلك فإنهم يصرون على قيامنا بتحديد ماهية هذه السلطة والجواب على ذلك لا يخلو من صعوبة كبيرة . إن لدي فكرة واضحة حول هذا الجانب ؛ إنها تمثل الحل العملي الوحيد الذي لا خيار آخر غيره ، وهي أن يتولى أحد أبناء الشريف حسين إمارة البلاد ، ويمثل فيصل الخيار الأفضل . أجل ، إنه حقاً

الخيار الأول والأفضل . ولكنني لا أستطيع الإجهار بهذه الحقيقة ، إذ ينبغي أولاً الاستئناس برأي الفرنسيين وهو جانب لا يمكن القيام به إلا من قبل قادتنا الوطنيين ، وإن هناك مؤشرات توحي على ما أتصور ، بأنهم يأخذون هذا الجانب بعين الاعتبار .

لاشك لدي بالمرة بأن أفضل ما يناسبنا ، ويجنبنا كل صيغ المشاكل والمضاعفات ، إنما يتمثل بقيام حكومة جلالة الملك بعرض الاضطلاع بمهمة الحكم على فيصل قبل قيامنا بإجراء الانتخابات هنا ، بيد أنني لا أعتقد أن لديهم الشجاعة على القيام بذلك . وحبذا لو أن الحكومة توافق على انصرافنا إلى المبادرة إلى الإرشاد والتوجيه إذ يحتمل أن نتمكن نتيجة ذلك من تدبير أمر الانتخابات ومعالجتها من غير صعوبة تذكر ، ذلك لأنني أخشى منهم (أي من الناخبين) ، كما يخشى منهم ذوو الرأي والمشورة من زملائي ، في حال قيامنا بالدعوة إلى الاختيار في غياب إسداء المشورة حول الشخص الأمثل الذي ينبغي لهم اختياره ؛ إنهم حائرون ، مبلبلو الفكر ، وغير واثقين من أنفسهم كل الثقة . فضلاً عن ذلك فإنهم يدركون جيداً عدم قدرتهم على التوصل إلى قرار وذلك إلى جانب النزعة الشرقية التي تنصرف دوماً إلى محاولة إلقاء اتخاذ القرار على عاتق طرف آخر . وتمثل هذه المسؤولية بالذات على ما أتصور ما ينبغي للدولة القائمة على ممارسة مهمة الانتداب التعهد بالقيام به .

بعد تناول وجبة الفطور صباح اليوم ، انطلقت إلى زيارة عائلة كوكس للإشراف على ترتيب الزهور- التي توليت جلبها كذلك - استكمالاً للاستعدادات الخاصة بمأدبة العشاء التي يقوم الزوجان باستضافتها مساء اليوم . بعد ذلك قضيت قرابة الساعتين من الزمن في مكتبي الكائن في الجانب الآخر من النهر . ولابد لي من الاعتراف بأنني أشعر بالأسى لاضطراري إلى ترك مكتبي الصغير الذي يضم بين جدرانه كل أصداء بغداد منذ شتاء عام ١٩١٧ ، فضلاً عن قربه من مكان سكني ، وسهولة انتقالي بينهما . وفي الساعة الرابعة عصراً جاء النقيب كلايتون والرائد موري لاصطحابي لحضور حفلة الأطفال التي تقيمها عائلة تود في منزلها حيث تناولنا الشاي قرب شجرة عيد الميلاد (كانت برتقالية اللون مغطاة بمختلف أصناف الفواكه) واشتركنا في ألعاب عاصفة لا وازع لها حتى السادسة والنصف مساءً . كانت حفلة ناجحة حقاً ، ولقد لعب الزوجان ، السيد تود وزوجته ، دور الملاكين الحارسين ، ولا غرابة في ذلك إذ أن عدد الأطفال كان بحدود عشرين طفلاً بين إنجليزي وشركسي ، ويهودي ومسيحي من أبناء بغداد ، إلى جانب الأطفال العرب ، وقد راحوا يلعبون معاً وكأنهم أبناء عائلة واحدة ولدوا وترعرعوا في حضانة مشتركة .

استلمت أربعة ديكة رومية وإوزة واحدة بمناسبة عيد الميلاد ، وقد بدت حديقتي نتيجة

ذلك أشبه بمزرعة ريفية . والآن حان الوقت لارتداء ثياب السهرة استعداداً لحضور دعوة العشاء التي يقيمها صاحب السيادة السير برسي واللادي كوكس في منزلهما .»

* * *

١٩٢١

في الثالث من شهر كانون الثاني كتبت جيرتروود قائلة :«عندما أطالع الأخبار الخاصة بما تشهده الساحة الإيرلندية من أحداث لا يسعني سوى التساؤل ما إذا يمكن أن تبلغ بنا الوقاحة إلى حد الادعاء بإمكانيتنا على القيام بدور الدولة المرشدة التي تضطلع بمثل هذه المهمة في مجالي الإدارة وفن الحكم ! وبقدر تعلق الأمر بفن الحكم وممارسته ، لا أظنك ستجد في سجلات تاريخنا من هم أضعف أداءً وأقل قدرة في هذا المضمار من كل من لويد جورج وونستون تشرشل! .

لم تثبت رحلتي إلى الرمادي تجربة ناجحة ، ولربما يعود ذلك في بعضه إلى رداءة الطقس . ولقد تمت استضافتنا من قبل الرائد ييتس الذي يقيم مع موظفيه في إحدى الدور المحلية ، وهي دار تعتبر مريحة بقياس مستوى الدور المحلية بيد أن هذا لا يعني أبداً إنها دار بالمستوى المطلوب ، فالشبابيك لم تكن مزججة الأمر الذي يعني إما غلق مصاريعها الخشبية والجلوس وسط ظلمة دامسة ، أو فتحها والتعرض لبرودة الجو . وفي مساء ذلك اليوم قمنا بالتجمع حول نار متوهجة . إن الموظفين العاملين بإمرة الرائد ييتس مجموعة لطيفة وكيسة للغاية وأخص بالذكر منهم معاون الضابط السياسي ، النقيب كارفر Captain Carver وظابط التجنيد ، النقيب وليامز Captain Williams .

الدليم اسم المنطقة حيث يتواجد الشيخ علي السليمان الذي يعد شيخ مشايخها والذي وقف بثبات إلى جانبنا طوال فترة الاضطرابات(٧) وأجبر رجال قبيلته على الالتزام بالهدوء والسكينة . إنه رجل كفؤ وذكي إلى أبعد الحدود ، كما أنه موسور الحال ، ودائب على مضاعفة ثروته من خلال نشاطات تجارية كانصرافه إلى شراء البساتين وبناء الأسواق

---

(٧) المقصود هنا طبعاً أحداث ثورة العشرين الكبرى التي تأبى الأنسة بيل على ما يبدو الإشارة إليها كما ينبغي ، أي باعتبارها ثورة ، أما فيما يتعلق بالشيخ علي السليمان فإنه كان حقاً شخصية فذة ، وحول قيادته يقول ستيفن همسلي لونجرك في كتابه (العراق ١٩٠٠ - ١٩٥٠)«أن قبيلة الدليم التي يمتد نفوذها من عانة إلى الفلوجة لم تعمد إلى مجابهة السلطة ، أو المسافرين على طرق المواصلات المارة بمناطقهم ، بأية مشاكل منذ تولي الصنديد علي السليمان المشيخة في عام ١٩٠٣ ، فقد عرف بحزمه وشدة بأسه» - المترجم

التجارية وفندق في مدينة الرمادي . ومن جانب آخر فإنه يشعر بالقلق إزاء احتمال قيام حكومة عربية . أما الشيخ الذي يليه أهمية في المنطقة ذاتها فهو الشيخ مشحن الحردان الذي يحتل في نفسي منزلة أكبر من تلك التي يحتلها الشيخ علي السليمان إلا أنه أصغر سناً من الأخير وأقل نفوذاً .

وفي صباح اليوم التالي انطلقنا على ظهور جيادنا ورحنا نخوض في مناطق موحلة قبل الوصول إلى مضارب الشيخ مشحن الواقعة على الجانب الآخر من النهر حيث تناولنا طعام الغداء وسط حفل عشائري ضخم تجمع في خيمة الديوان . ويجدر القول أن الطعام في مثل هذه المناسبات لا يكون سائغاً إلا عندما تشعر بأنك تكاد تموت جوعاً . وقد قادني الشيخ مشحن إلى نصف الخيمة المخصص للنساء لغرض التقائهن . ويحرص رجال الدليم على عزل نسائهم بعد أن فقدوا ما تضفيه حياة الصحارى من أجواء وعادات حرة على حياة الأعراب ، فهم ليسوا بدواً . وكانت عمة الشيخ مشحن ، الآنسة نعمة ، تشكل استثناءً من القاعدة العامة ، أي عادة عزل النساء ، وذلك بسبب تقدمها في السن ولكونها عزباء وبذلك كان يسمح لها التجوال حيثما شاءت شأنها بذلك شأن الرجال من أبناء العشيرة ، وقد ردت زيارتي لها مساء اليوم ذاته مقترحة مصاحبتي إلى بغداد . وإزاء هذا الاقتراح رحت أتملص من تحديد موعد لرحيلي ، وهو جانب لا يسعني إنكاره .

كنا عقدنا العزم على التوجه صباح اليوم التالي لزيارة بعض الينابيع التي تقع بحدود أربعين ميلاً غرب الرمادي والتي كان شيوخ المنطقة راغبين في تطويرها . ويعرف الموقع الذي أردنا زيارته باسم ويزا Wizah[(٨)] وهو مكان كنت قد مررت به أثناء رحلتي في عام ١٩١٤ وقمت بتثبيته على الخارطة . وقد بدأنا رحلتنا بحدود السابعة صباحاً وكنت بصحبة كل من الشيخ علي السليمان ، والشيخ مشحن الحردان ، والشيخ فرحان الصايح الذي كان يحل ضيفاً على الشيخ علي السليمان . وكان دليلنا في هذه الرحلة أحد أبناء الشيخ محمد العبد الله الذي سبق له (أي الشيخ محمد العبد الله) مرافقتي أثناء رحلتي في عام ١٩٠٩ بحثاً عن قصر الأخيضر . إلا أن رغبتنا في زيارة الينابيع لم تتحقق إذ بعد أن قطعنا مسافة سبعة أو ثمانية أميال في رحلة ممتعة للغاية برغم برودة الجو القارصة ، أدركنا استحالة مواصلة الحركة على أرض مشبعة بالماء ، وتحت سماء ملبدة بغيوم قاتمة الأمر الذي أقنعنا بعدم

---

(٨) لقد أخطأت المؤلفة على ما يبدو في اسم المنطقة ، والاسم الصحيح هو أم الوز وهو ما أفادني به مشكوراً الأستاذ ماجد عبد الرزاق علي السليمان أحد أحفاد الشيخ علي السليمان - المترجم

جدوى المضي في الرحلة أجبرنا على الرجوع مكسوري الخاطر إلى الرمادي حيث تناولنا وجبة الفطور لننطلق بعد ذلك - أنا والنقيب كلايتون والرائد ييتس - إلى مدينة هيت بالسيارة . وبحلول المساء بدأنا الصعود إلى المدينة المرتفعة التي تقبع فوق رابيتها مثل قلعة حصينة - كانت بلا شك قلعة يعود زمانها إلى بداية التاريخ - قاصدين منزل أحد أعيانها ، الحاج علي ، الذي كان قد دعانا لتناول طعام العشاء . وقد جلسنا على وسائد وأسندنا ظهورنا إلى الحائط في غرفة توسطها منقل نحاسي للفحم راحت جمراته تضفي دفئاً رائعاً ، وجيء بالطعام في صينية كبيرة وضعت فوق كرسي خشبي أمامنا . وكان قاضي المدينة - وهو رجل معمم ، ثاقب البصيرة - من جملة المدعوين معنا . وقد حاولت استدراجه للحديث بهدف التعرف على آرائه حول المستقبل واحتمالاته إلا أنني وجدته ميالاً إلى الالتزام بالحذر ، يأبى الإجهار برأي صريح ملزم ؛ اللهم إلا باستثناء ما عكسه كلامه من شعور بالريبة وسوء الظن بكل ما له علاقة بسياسات بغداد وساستها .

وتعيش مدينة هيت بعيداً عما تشهده القارة الآسيوية من صيغ الاضطرابات والقلاقل التي يكره أهل المدينة هذه على ما أظن مواجهتها والتورط بها . لقد عاشت هيت حالة من الأمن والاستقرار منذ احتلالنا لها في عام ١٩١٨ ، وهي حالة لم يسبق لها معرفتها في العهود السابقة ، إلا أنها قد أتت أكلها على ما يتضح من خلال وجود مزارع جديدة للنخيل امتدت فوق مساحة شاسعة من الأرض . وعلى بعد ثلاثة أميال باتجاه الصحراء حيث توجد خرائب مدينة قروسطية على مقربة من عين كبريتية ، يقوم أهل مدينة هيت بزراعة الشعير والمزيد من أشجار النخيل . ومن المحتمل أن يكون الموقع هذا قد شهد خرابه قبل ما يقرب من مائتي عام إثر اجتياحه من قبل بدو شمر الذين جاءوا من شبه جزيرة العرب يتبعهم رجال عنزة . ومنذ ذلك الاجتياح حتى يومنا هذا (كذا)[٩] لم يجازف أحد على ما أفترض بزراعة نخلة واحدة في المعمورة Mamurah! كيف كان يمكنه ذلك أمام تواصل هجمات رجال البدو الذين اعتادوا القضاء على الأخضر واليابس على حد سواء ، تماماً مثلما تفعل

(٩) إن عبارة حتى يومنا هذا تشكل مفارقة أخرى من مفارقات الآنسة بيل! ألم تذكر في سطور سابقة أن المدينة تعيش حالة من الأمن والاستقرار منذ الاحتلال لبريطاني في عام ١٩١٨ ؟ إن «يومنا هذا» يقع في الأيام الأولى من عام ١٩٢١ ، أي بعد مرور ما يقرب من ثلاثة أعوام على الاحتلال البريطاني! ولقد تعمدت إبراز هذه النقطة على الرغم من قلة أهميتها من باب إيضاح ما تنصرف إليه الآنسة بيل أحياناً ، ومن غير وعي منها ، من مفارقات ! - المترجم

أسراب الجراد ؟

انطلقت صباح اليوم التالي بصحبة الرائد يبتس لتفقد الموقع الذي كنت عثرت عليه أثناء رحلتي في عام ١٩٠٩ - وأقصد بذلك موقع مقلوبة Maghlubah الذي تجد له صورة فوتوغرافية في كتابي الموسوم Amourath to Amourath[(١٠)] . كان هناك عدد من الكتل الصخرية الكبيرة التي تم تثبيتها من غير مبرر واضح في تجاويف رابية صخرية ، وقد قمنا بتكليف عدد من الرجال بإجراء ما يلزم من حفريات فجاءوا بمعاولهم وفؤوسهم وراحوا يحفرون حول أكبر هذه الكتل - أي تلك التي تراها في الصورة - إلا أننا أخفقنا في العثور على أي أثر لبناء أو لما يجدر ذكره من القطع الفخارية باستثناء إناء صغير ذي مقبضين كامل ومتقن الصنع يبلغ ارتفاعه بحدود ستة إنجات ، ومطلي بطبقة زجاجية زرقاء اللون وخشنة الملمس لربما يعود تاريخها إلى ما قبل مائتي أو ثلاثمائة عام . ترى من تركها تحت التراب ؟ وكيف حافظت على حالتها الأصلية وهي على عمق لا يزيد على إنج واحد أو إنجين تحت الرمل؟ إنه لأمر محير لا أجد له أي تفسير بالمرة . ويبقى موقع مقلوبة لغزاً لا يمكننا سبر أغواره بأية درجة من الدقة ، بيد أننا نظن بأنه لربما كان مقبرة لمدينة قامت قبل قرنين ، أو

---

(١٠) Amourathصيغة محرفة لاسم (مراد) ، أي أن عنوان الكتاب هو (مراد يعقب مراد) والمقصود من العنوان تواصل الحكم العثماني بكل ما عرف عنه من جبروت وطغيان . إن اسم مراد (أي السلطان مراد - والمقصود هنا كل سلطان بهذا الاسم تعاقب على عرش آل عثمان منذ عهد السلطان مراد الرابع الذي تولى الحكم في عام ١٥٧٤ والذي عمد إلى قتل كل إخوانه بعيد تسلمه العرش) قد بات عنواناً للبطش والقسوة . والعنوان مستوحى من مسرحية شكسبير (هنري الرابع - القسم الثاني - الفصل الخامس/المشهد الثاني) . وكتاب الآنسة بيل هذا يقع في إطار أدب الرحلات ، وهو سجل يضم تفاصيل رحلتها التي قامت بها في عام ١٩٠٩ وشملت مناطق من سوريا والعراق . والجانب المثير فيه بقدر تعلق الأمر بالحركة القومية العربية بشكل خاص هو ما يحتويه من تفاصيل حول ما تكون لدى جيرترود بيل من انطباعات تخص الجانب هذا وذلك أثناء تجوالها في منطقة الموصل بعيد الانقلاب العثماني (١٩٠٨) وهي انطباعات تعكس ملاحظات تناقض تماماً ما كونته من آراء واعتمدته من توجهات بعد ما يقرب من عقد من الزمن شأنها بذلك شأن أقرانها وزملائها من أساطين الإمبريالية البريطانية في ذلك العصر - وأقصد بذلك كل من هوغارث (الذي كان له الفضل الأكبر في توجيه أفكارها فيما يتعلق بفلسفة الحكم وأساليبه) ومارك سايكس ، ولورنس - الذين ثبت أن رائدهم كان دوماً وأبداً ملاءمة توجهاتهم مع ما تقتضيه مصلحة بريطانيا . ويأتي هذا الكتاب متمماً لما جاء في كتاب سابق لها بعنوان سوريا : البادية والحضر (Syria : The Desert and The Sown) من أفكار وآراء - المترجم

ثلاثة قرون ، من الزمن على مقربة من عين الماء في المعمورة .

عدنا إلى الرمادي في اليوم التالي ووصلنا في الوقت المناسب لتناول وجبة الغداء ، وعند العصر مررت على الشيخ علي السليمان وقمت بزيارة زوجته ، وهي صديقة قديمة لي ترجع علاقتي بها إلى عام ١٩١٤ عندما نصبت خيمتي في بستان النخيل المجاور لدارهم . وقد قضيت وقتاً ممتعاً مع الشيخ وزوجته ، وفي المساء راح المطر يهطل مدراراً ، وقد واجهت أنا والرائد ييتس صعوبة جمة أثناء عودتنا إلى بغداد في ا ليوم التالي . وقد بدأت مشاكلنا بعد تركنا منطقة الفرات عند مدينة الفلوجة وعودتنا إلى المناطق الغرينية الحقيقية من أرض بلاد ما بين النهرين ، فقد غرزت سيارتنا في الطين مرتين في رحلة العودة هذه الأمر الذي اضطرنا إلى الاستنجاد ببعض أفراد جيشنا من العسكريين الهنود المرابطين في مواقع الحراسة المنتشرة على امتداد خط السكة الحديدي والذين كانوا يهرعون إلى سحب سيارتنا بغية تخليصها من الأطيان والتأكد من انطلاقنا في طريق عودتنا . وفي لحظات معينة ظننت أننا سنضطر إلى المبيت في الصحراء ، أو خلف أكياس الرمل التي تحيط بأحد مواقع الحراسة في أفضل الأحوال . ولكننا والحمد لله استطعنا بعد جهد جهيد من الوصول إلى بغداد بعد حلول الظلام . ولقد تمكنت في تلك الليلة من اكتشاف حل فريد لكيفية قضاء ليلة راس السنة الجديدة : الذهاب إلى الفراش والخلود لنوم هانئ .

لابد لي من الاعتراف بأنني في غاية السعادة لجهلي التام بما يمكن للعام الجديد أن يأتي به من أمور وأحداث ، ولا أظنني أذكر أبداً بأنني قد استقبلت صباح عام جديد بمثل ذلك الشعور بالراحة الذي داهمني في ذلك اليوم .

لدي قناعة قاطعة بأن العسكريين من رجالنا إذ ما عمدوا قليلاً إلى التخفيض من مستوى الإنفاق الباهظ المعهود في أيام الحرب لتمكنا من الإبقاء على العدد الذي يتعين بقاؤه بالضرورة من رجال جيشنا بكلفة أقل . تصور أننا لا نزال نستخدم أعداداً كبيرة من منتسبي صنف الخدمات العسكرية للقيام بواجبات السقاية وإدامة الطرق على حساب دافعي الضرائب البريطانيين ، وهو جانب يمكن الاضطلاع بمهامه من قبل منتسبي الدوائر البلدية في بلاد ما بين النهرين ، وإذا ما ثبت عدم قدرة هذه الدوائر على تحمل ما يترتب على مثل هذه الأعمال من تكاليف فلا داعي لتواصلها أساساً . كما أن الجيش البريطاني لا يكتفي بتزويدنا بالطاقة الكهربائية فحسب بل وحتى بما نحتاج من حليب وزبدة ، وهي جوانب أجدني على ثقة بأنه يقوم بتوفيرها بخسارة مادية . ولابد لمثل هذه الجوانب أن تقدم من قبل مؤسسة تجارية ربحية . ومن جانب آخر فإن وضع القيادة العامة للجيش برمته لا زال

قائماً على قدم الاستعداد للحرب ؛ فما الداعي على سبيل المثال إلى الإبقاء على تشكيل استخباري كبير يضم أربعة ، أو خمسة ، من كبار الضباط من أصحاب الرواتب الضخمة؟ إن تشكيلاً كهذا يمثل حاجة يتطلب توفرها أثناء الحروب ، لا أثناء استتباب السلام ! إن الضباط آنفي الذكر يقومون بواجبات لا داعي لها بالمرة ناهيك عن أنهم لا يقومون بها على الوجه الصحيح حسب تقديري . ولقد جاءني ضابط من هذا التشكيل مؤخراً - إنه برتبة رائد - وأخبرني بأنه مكلف بإعداد فهرس جغرافي Gazetteer عن بلاد ما بين النهرين وأنه يطلب مساعدتي في بعض أوجه عمله بسبب حداثة عهده بهذا القطر وبالعمل المكلف به بشكل خاص . وبدأ يطرح علي سلسلة من الأسئلة التي لا يوجد على وجه البسيطة من بإمكانه الإجابة عليها بشكل مرض ، إن لم نقل بشكل دقيق ، فهي تتراوح بين جوانب تافهة وأخرى لا يمكن لأحد من سبر أغوارها . ومن جملة هذه الأسئلة غير المجدية ذلك المتعلق بأحوال بغداد في عصر الخليفة هارون الرشيد . كيف كانت هذه المدينة في ذلك العصر؟ لا جواب لدي على هذا السؤال ولا أظن أن هناك من بإمكانه الإجابة عليه . لقد أمضى العديد من العلماء فترات طويلة في بحث مثل هذه الجوانب ، وبذلوا جهوداً مضنية في محاولة رسم صورة تقريبية لهذه العهود ، إلا أنهم أخفقوا تماماً في التوصل إلى أية نتيجة حقيقية .(١١) ثم فاجأني بعد ذلك بسؤال كاد يفقدني صوابي :سأل ما إذا كنت أظن بأن الأتراك ينتمون أصلاً إلى العنصر السامي !! كان سؤالاً لم أتردد في الإجابة عليه فوراً ، على الرغم مما أصابني من ذهول إزاءه إلا أن ما يثير العجب بشكل أكثر هو الإطار الفكري لهذا الإنسان ! ومما زاد الطين بلة انصرافه إلى تشويش الأمر على نفسه وتوريطها في متاهات يصعب عليه سبر أغوارها والخروج منها بسهولة كتطرقه إلى موضوعي كل من الكلدانيين (الذين اتضح لي بشكل قاطع أنه لا يعرف أي شيء عنهم بالمرة) والكنيسة الكلدانية الحديثة ، والأخيرة هذه هي الفرع الرومي الكاثوليكي للنساطرة - والتسمية ليست أكثر من

(١١) عجيب حقاً أمر هذه المرأة : ألم يصف علماء التاريخ الغربيون عصر هارون الرشيد بالعصر الزاهر الذي وصلت فيه الحضارة العربية الإسلامية ، بل الحضارة الإنسانية ، أوج عظمتها - ترى كيف تم لها التوصل إلى مثل هذا الاستنتاج؟ إن من شأن ملاحظات كهذه ، ومن قبل شخص له ما للآنسة بيل من وزن ومكانة ، وحس مرهف وقدرة رائعة على الوصف والتحليل والاستنتاج ، أن تذهل القارئ منا والمتتبع ، وتصيبه بالكثير من خيبة الأمل . وإن تمحيصاً دقيقاً لأعمالها مثل مراد يعقب مراداً ، وسوريا :البادية والحضر ، والسفر نامة ، وقصائد من ديوان حافظ ، ألف كنيسة وكنيسة ، إلى جانب رسائلها ، لكفيل بتأييد ما أقول - المترجم

صيغة منمقة ، لمشروع تبشيري . وأخيراً ضقت ذرعاً بهذا الرجل وأخبرته بأن لدي الكثير مما يتعين علي إنجازه ، وبأن عليه مطالعة بعض المقالات الواردة في دائرة المعارف البريطانية قبل توجهه مرة أخرى لمقابلتي ، وهكذا عمدت إلى صرفه بطريقة لم تخل من خشونة وفظاظة . إن ما أود الإشارة إليه هو أنك تقوم شخصياً بدفع كلفة ما يقوم به هذا الرجل من أبحاث - بل وكلفة ما يقوم به كثيرون من أمثاله ، وهو أمر مؤكد .

إن الخطة الوحيدة التي يمكن لوزارة الحربية التفكير باعتمادها من أجل تقليل المصروفات التي تنفق في سبيل رفاهية غير الأكفاء من أمثال هذا الشخص هي نبذ البلاد التي عمدنا إلى تدمير ما كان فيها من نظام حكم - فهو إلى جانب ما كان يعانيه من علل يبقى نظاماً قائماً للحكم - أخفقنا في الحين ذاته في استبداله بآخر ، برغم كل ما قطعناه على أنفسنا من وعود تتعلق بعزمنا على تحقيق تقدمها وازدهارها ، وعلى الرغم مما تسببه توجهنا هذا من تعريض كل من آمن بوعودنا وعمد إلى التعاون معنا من الأشخاص إلى الشبهة والفضيحة ، إن لم نقل للخطر . علينا أن نشكر العناية الإلهية على ما منته علينا من فضل يتجسد بوضوح من خلال وجود السير برسي كوكس ، بكل ما يتمتع به من صلاحيات ومهارة مذهلة لا في مضمار تعزيز مكانة شرفنا القومي فحسب بل في مجال رعاية ودعم علاقاتنا المستقبلية مع آسيا بوجه عام . وعلى الرغم من ذلك كله ، لا أدري ما إذا كان حتى باستطاعة شخص كفؤ مثل السير برسي القضاء على كل غير الأكفاء الذين يشكلون عقبة كأداء على طريق مسيرته ، ناهيك عن المعوقات الأخرى التي هي في الواقع وليدة الحماقة التي تتميز بها سياستنا الخاصة بمنطقة الشرق الأدنى .

سيكون اليوم ، مثلما أتوقع أن يكون نهار الغد ، يومي غضب بمناسبة انتقال مكاتب السكرتارية إلى الجانب الآخر من النهر . ولهذا السبب يعجز المرء منا عن العثور على أي شيء قد يحتاج إليه ، بما في ذلك كرسي واحد للجلوس ! لقد أضحى كل شيء في وسط السيل !»

الفصل السابع عشر

١٩٢١

جاء في رسالة الآنسة جيرتروود بيل المؤرخة في العاشر من شهر كانون الثاني ما يلي : «عشنا أسبوعاً من الأمطار الغزيرة : لقد رأيت بغداد موحلة بيد أنني لم أرها غارقة بهذا الكم من الوحل ! ويمكن القول أن انتقال مقر عملنا إلى الجانب الآخر (الغربي) من النهر لم يشهد بداية طيبة ، فقد توجب علي في هذه الفترة قطع المسافة بين داري والمقر الجديد تحت عصف الريح وهطول الأمطار تارة أو من خلال غطاء كثيف من الضباب تارة أخرى . فضلاً عن ذلك فقد قضيت يومين و أنا أعاني من خراج في أحد أضراسي انتهى بقلعه في اليوم الثاني مما أجبرني على ملازمة الدار لبقية ذلك اليوم .

تناولت طعام الغداء يوم أمس على مائدة عائلة فلبي ، وكانت رحلة الذهاب إلى دار هذه العائلة معاناة بحد ذاتها ، فبعد أن ارتديت سترة عسكرية تصل إلى الركبتين ، و جزمة مطاطية طويلة ترتفع إليهما ، رحت أقطع طريقي الموحل وأنا أترنح وأتمايل في محاولة للحفاظ على توازني أثناء السير . أما اليوم فالوضع أسوأ بعد أن جف الوحل قليلاً مما يجعل السير فوقه أكثر صعوبة ، وسيكون الوضع أكثر سوءاً يوم غد على ما أتصور .»

أما رسالتها المؤرخة في السابع عشر من شهر كانون الثاني فتبدأ بإشارة إلى «الكتاب الأبيض»[١] الذي أعدته واستعرضت من خلاله الجوانب المتعلقة بالإدارة المدنية لبلاد ما بين النهرين ، وهي الوثيقة التي تم عرضها على مجلس العموم واللوردات وبهذا الصدد تقول الآنسة جيرتروود بيل (مخاطبة أباها) : «استلمت لتوي رسالة والدتي التي تخبرني فيها عما تسببه كتابي الأبيض من ضجة مدوية . وقد علقت الصحافة عليه قائلة «إنه لأمر يثير العجب والذهول أن يتمكن الكلب من الوقوف على قائمتيه الخلفيتين» ، أي قيام امرأة بإعداد «كتاب أبيض» . آمل مخلصة بأن يتمكنوا من نبذ هذه التصرفات والكف عن التعبير

---

(١) الكتاب الأبيض و يسمى أيضاً البيان الأبيض ، أو الورقة البيضاء ، أي الوثيقة التي تتضمن عرضاً رسمياً والتي تقوم الحكومة البريطانية بإعدادها أيضاً ونشرها بياناً لوقائع أو خطط أو معلومات تتوخى إطلاع الجمهور عليها حول موضوع معين وذلك قبل الانصراف إلى سن قانون يتعلق بالأمر . وهناك أيضاً الورقة الخضراء ، أو الكتاب الأخضر Green Paper ، أي الوثيقة التي تقوم الحكومة بإعدادها ونشرها بياناً لمقترحات وتوصيات يتم طرحها للمناقشة ، وقد تستخدم لاحقاً لأغراض سن تشريع جديد يتعلق بموضوع بحثها - المترجم

عن دهشتهم والانصراف بدلاً من ذلك إلى قراءة دقيقة لما احتواه (الكتاب) من تفاصيل من شأنها أن تساعدهم على فهم واقع بلاد ما بين النهرين ولابد لي من الإعراب عن شكوكي حول ما إذا سيتمكن هذا الكتاب من إثبات جدواه بسبب الظروف السائدة التي تم في ظلها إعداده بالأساس . وآمل من أمي بهذه المناسبة أن لا تتصور أن ولسون هو الذي طلب مني إعداد هذا الكتاب بل كانت وزارة الهند هي الجهة التي طلبت مني الاضطلاع بهذه المهمة ، وكنت أصريت على ولسون في حينه على وجوب قيامي بالمهمة بطريقتي الخاصة التي قد لا تكون طريقة جيدة بيد أنها بالتأكيد أفضل من طريقته . وسواء مثل هذا الكتاب جهداً قيماً أو العكس من ذلك ، فقد تمت كتابته وانتهى الأمر . وبهذا الصدد أشكر العناية الإلهية على عدم وجودي في إنجلترا وتعرضي نتيجة ذلك لمضايقات رجال الصحافة .»

بلغ عدد صفحات الكتاب الأبيض آنف الذكر مائة وسبعة وأربعون صفحة من القطع الكبير foolscap ضمت تفاصيل دقيقة تتعلق بكل أوجه نشاط الإدارة المدنية في العراق إبان فترة الاحتلال العسكري البريطاني ، وقد تناول الكتاب المواضيع التالية التي تم تبويبها في عشرة فصول : ١- احتلال ولاية البصرة ، ٢- تنظيم الإدارة ، ٣- تهدئة العشائر والعلاقات بين الإدارة العسكرية والمدن الشيعية (كذا) خلال الفترة المنتهية باحتلال بغداد ، ٤- العلاقات مع العشائر العربية والكردية ومدينتي كربلاء والنجف بعد سقوط بغداد ، ٥- احتلال الموصل ، ٦- القضية الكردية ، ٧- تطوير الإدارة . دائرة الإيرادات ٨- الإدارة القضائية ، ٩- تنظيم دائرة المعارف (أي التربية والتعليم) ، وقوات الليفي والشرطة ، والخدمات الطبية المدنية ، ودائرة التجارة والصناعة ، والسكك الحديدية ، والمالية والملاك (أي جدول التشكيلات) ، ١٠- الحركة الوطنية . بالإضافة إلى ذلك هناك فهرس عام ملحق بالكتاب .

ثم تواصل جيرتروود بيل رسالتها آنفة الذكر (أي الرسالة المؤرخة في السابع والعشرين من كانون الثاني) قائلة : «والآن دعني أخبرك بتفاصيل الأحداث منذ آخر رسالة كتبتها لك : أقمت مأدبتي عشاء كانت الأولى على شرف عائلة دكسون Dickson (يعمل السيد ديكسون ضابطاً سياسياً لمدينة الحلة وتوابعها) حيث تم لهم التعرف على جعفر باشا العسكري والسيد حسين أفنان ، وكانت مناسبة ناجحة للغاية . أما المناسبة الثانية فلم تكن أقل نجاحاً من سابقتها وقد تم فيها لقاء كل من السيد عبد المجيد الشاوي والسيد فخري الجميل وأمير ربيعة بالسيد فلبي و النقيب كلايتون ، والرائد موري . وكان الهدف من هذه الدعوة الثانية تطييب خاطر أمير ربيعة وتهدئة روعه ، فقد وقف هذا الرجل إلى جانبنا بولاء

وإخلاص لا غبار عليهما خلال فترة الاضطرابات ، إلا أنه يشعر بالقلق الآن ويتوق إلى معرفة ما ذا سيكون من أمره وأمر قبيلته عندما يصبح عربي مسؤولاً عن إدارة الكوت حيث تتواجد قبيلة ربيعة . وبهذا الصدد آمل أن يكون قد خرج من داري مطمئناً من واقع أننا لن نتخلى عنه أو نفرط به . ويبلغ أمير ربيعة بحدود الخامسة والعشرين من العمر ، وعلى الرغم من شغفه المفرط بالراقصات المحترفات والغواني فإنه رجل طيب ، وإذا ما تم التعامل معه بأساليب كيسة وطيبة فمن المتوقع جداً أن يصبح عضواً نافعاً في المجتمع . فضلاً عن ذلك فإنه أحد أعضاء مجلس الوزراء ومن بين من يخشون من بأس السيد طالب ويكنون له شعوراً بالكراهية .

وفي غضون ذلك يعمد السيد طالب على ما يبدو إلى الاضطلاع بدوره على أفضل وجه ، فقد قام مؤخراً بطرح قائمة طويلة من المقترحات المتعلقة بالجوانب الإدارية أمام المجلس - مقترحات حول تعيين متصرفين وقائمقامين لمختلف الوحدات الإدارية - وهي جوانب ينبغي وضعها موضع التنفيذ لكي يرى أبناء المجتمع العراقي تبوأ أشخاص عرب مناصب إدارية الأمر الذي يعزز الإيمان بوجود حكومة عربية . وقد وافق السير برسي من جانبه على ما اقترحه السيد طالب من ضرورة إجراء بعض التعديلات على هيكل المجلس بهدف الخروج بتشكيل هيكل جديد إلا أن مقترحات السيد طالب لم تلق قبولاً من لدن السيد عبد الرحمن النقيب . وقد سارع السيد طالب إلى زيارتي صباح اليوم ليخبرني عن تفاصيل لقاء عاصف تم له مع السيد عبد الرحمن النقيب وهو أمر سارعت بدوري إلى نقل تفاصيله إلى السير برسي . وأنا من جانبي لا أدرك بالضبط ما الهدف الذي يتوخى السيد طالب تحقيقه ، فهو قد يئس على ما أتصور من إمكانية فوزه بإمارة البلاد- وهذا بالأحرى ما يقوم بالتعبير عنه - إلا أنه يظن بأن لديه فرصة قوية تؤهله لخلافة السيد عبد الرحمن في وقت لا يمكن أن يكون بعيداً ، ولكنني لا أتوقع أن يحظى بقبول أبناء البلد وتأييدهم على الرغم من تعاطفي مع كل ما يصبو إلى تحقيقه من طموحات . ولابد لي من الاعتراف بقناعتي بأن رائده في طرح الأسماء لتبوّئ المناصب الإدارية لم ينطلق من رغبته في تحقيق ما يهدف إلى بلوغه من طموحات بل من رغبة صادقة في اختيار الأشخاص المناسبين لتبوّئ المناصب التي ينبغي لهم إشغالها . أما ساسون أفندي حسقيل فيكن للسيد طالب شعوراً بالكراهية يدفعه إلى إحباط أي إجراء أو مقترح يعمد السيد طالب إلى طرحهما . ولابد لي من الاعتراف بأنني أكن لساسون أفندي شعوراً بالمودة والاحترام وذلك إلى جانب قناعتي بأنه الأكفأ من بين وزرائنا . وقد زارني صباح اليوم في مكتبي حيث دار بيننا حديث طويل . كم

أتمنى لو كان لدي متسع أكبر من الوقت ، أو بالأحرى لو تمكن السير برسي من تخصيص مزيد من الوقت للاستماع إلى التعليلات والتفسيرات الشخصية التي أعتبرها بوجه عام أكثر فائدة وجدوى من أي شيء آخر إذا ما أدركنا أن الفريق الوزاري لا يعتبر مجموعة من السهل قيادتها وتوجيهها الأمر الذي يتطلب قيام (الجهات البريطانية المختصة) بالتعامل معها بصورة شخصية دائماً . وعلى الرغم من ذلك أشعر بأننا نحقق تقدماً جيداً ، فهناك حس أكبر بالاستقرار وبأن الحكومة العربية ماضية في توطيد أركان سلطتها الأمر الذي من شأنه أن يثبت لأبناء البلد بأننا عازمون على الإيفاء بما تعهدنا بتنفيذه من إجراءات وسياسات . ياله من جنس بشري بائس ذلك الذي يجد نفسه مجبراً على قضاء القسم الأكبر من وقته محاولاً إقناع أبنائه بصدق نواياه ؛ لابد لهؤلاء الأبناء أن يتكاتفوا من أجل أن يكسب بعضهم البعض الآخر . إن ما أعجز عن القيام به يمكن لساسون أفندي حسقيل أو جعفر باشا العسكري القيام به ، وهو ما أتمنى تحقيقه بمرور الوقت . وإن المهم في الأمر هو المبادرة إلى دحرجة الكرة ، على غرار ما قام به السير برسي ، ومن ثم الوقوف جانباً وإتاحة الفرصة لهم (أي لأبناء العراق) لكي يواصلوا دحرجتها .

قام جعفر باشا بجولة تفتيشية في مناطق الفرات (الأوسط) وصل من خلالها إلى الناصرية . وقد أخبرني بعد عودته أنه وجد القسم الأكبر من شيوخ العشائر غير مهتمين بالمرة بطبيعة الحكومة التي ستتولى أمر حكم البلاد ، وأنهم بصورة عامة يفضلون الحكم التركي الذي عرفوه واعتادوا أساليبه على نظام جديد يجهلون طبيعته ، فلا غرابة إذاً في توجههم له بالسؤال التالي : متى سيعود أبونا إلينا؟ والمقصود بالأب هنا هو السلطان العثماني؟ وإزاء ذلك انبرى جعفر لهم قائلاً : لا أمل في عودته بالمرة ، كما أنه ليس أباكم ! إن إجابة مباشرة كهذه لأبلغ أثراً من كلمة خطابية الأمر الذي يجعل من جعفر باشا وزير دفاع عربي فاعل !

ولعل أهم مناسبة اجتماعية شهدها الأسبوع المنصرم هي دعوة الغداء التي أقامتها حرم السيد طالب باشا النقيب الذي كان قد عاد لتوه من البصرة . وزوجة السيد طالب شركسية الأصل ، بهية الطلعة وذات خلق رفيع وأدب جم إلى جانب ما تتميز به من شخصية مرحة ووقار يكاد يكون مثالياً . وقد حضرت المناسبة هذه بصحبة اللادي كوكس ، وعند وصولنا إلى مكان الدعوة كانت السيدة أوريليا (الإيطالية الأصل وزوجة السيد تود مدير أعمال شركة لنج للملاحة النهرية) وزوجات عدد من المستشارين قد سبقننا وقد استقبلتنا السيدة النقيب بحفاوة وترحاب بالغين وأخبرتني في الحين ذاته أن زوجها السيد طالب يعتبرني

بمثابة أخت له فكانت مبادرة دفعتني إلى الخروج فوراً بما مفاده التسليم بصحة هذه الآصرة . وقد تناولنا أكلات شركسية لذيذة قالت مضيفتنا الكريمة أنها قامت شخصياً بإعدادها ، ولابد من الاعتراف بجودة هذه الأكلات التي حازت على إعجاب الجميع بل ونالت تقديراً من لدن اللادي كوكس نفسها التي لم يكن إرضاؤها جانباً سهل المنال .

وفي اليوم التالي - وكان الأحد من أيام الأسبوع- انطلقت مباشرة بعد وجبة الفطور في رحلة إلى المحمودية بصحبة الرائد موري والنقيب كلايتون والسيد حسين أفنان . وعند وصولنا إلى المدينة جلسنا نحتسي الشاي ونتناول الخبز العربي الساخن أثناء استفسارنا من سكان المدينة عن أفضل موقع للصيد . وما هي إلا لحظات حتى ظهر أمامنا المدير (أي مدير الناحية) الذي سرعان ما قام بتعريفنا برجل أبدى استعداده التام لاصطحابنا إلى موقع ممتاز اكتشفنا بعد ذلك أنه كان في الواقع مزرعته الخاصة ، وهكذا تم له تأمين رحلة العودة إلى مزرعته بصحبتنا . ولقد وجدنا المزرعة مكاناً جميلاً يقع في منطقة صحراوية تتوسط المسافة بين المحمودية والمدائن Ctesiphon . وكان هناك مستنقع انهمك الرجال في الخوض في أرجائه بينما اكتفيت أنا في الجلوس قرب حافته مستمتعة بدفء الشمس ومراقبة أسراب البط البري وهي تحلق في الفضاء . وبعد أن أخفق الرجال في التوفق في اصطياد ما أرادوا من البط البري انطلقنا في سيارتنا نحو مناطق نهر دجلة حيث أخفق رفاقي كذلك في الحصول على ما أرادوا اصطياده من الحجلان ، وكان مغنمنا الوحيد طائر حبارى كنا لمحناه من على بعد وهو يسير بصحبة اثنين من رفاقه وطاردناه بأقصى سرعة حتى تمكنا من اصطياده . يالها من ممارسة مثيرة للغاية . وعلى الرغم من إخفاقنا في العودة بصيد وفير ، إلا أننا قضينا يوماً ممتعاً .

لقد أدت عملية جلائنا عن بلاد فارس إلى قيام ضجة كبيرة توقفت أثناءها حركة التجارة بين البلدين (أي بين إيران والعراق) وامتنعت بسببها المصارف عن مزاولة أعمالها بينما راح سوق بغداد الذي كان مديناً لبلاد فارس بما لا يقل مجموعه عن عشرة ملايين جنيهاً إسترلينياً يتخبط حائراً وغير عالم بالكيفية التي سيتم له من خلالها تسديد ما قد ترتب عليه من ديون الأمر الذي جعله يقف قاب قوسين أو أدنى من كارثة مؤكدة .»

وفي الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني كتبت الآنسة بيل قائلة : «تركت المكتب عصر أحد الأيام في وقت يمكنني من الانطلاق على ظهر حصاني في زيارة لصديقي الحاج ناجي الذي أخبرني بأن السيد طالب النقيب يحقق نجاحات متواصلة في كسب المؤيدين بفضل كرمه . ولابد لي أن أخبرك بدوري (مخاطبة أباها) بأن كرم السيد طالب يتحقق على

حساب أناس آخرين ، فقد اعتاد التجاوز في إنفاقه حدود قدرته المالية وهو لايتوانى بهذا الصدد عن التوجه إلى الأغنياء من أصحاب الأموال طالباً منهم تزويده بما يحتاج من مبالغ ، والغريب في الأمر هذا أن دائنيه لا يترددون في الاستجابة لمطالبه بسبب خوفهم منه . إنها ممارسات مستهجنة بيد أنني لا أعلم كيف يمكننا أن نضع حداً لها !»

ثم كتبت في الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني تخبر والدها عن قيامها «بنزهة طويلة على ظهور الخيل بصحبة السير إدغار بونهام كارتر بمناسبة قرب رحيله عن أرض بلاد ما بين النهرين إثر انتهاء خدمته فيها . إن رحيله خسارة كبيرة لنا ذلك لأنه مستشار متميز ، وعلى الرغم من أنني لم أكن على معرفة وثيقة به إلا أنه قد وقع من نفسي موقعاً حسناً .

دعوت كلاً من عجيل باشا (السمرمد) والنقيب بيدر Captain Pedder ، مساعد الضابط السياسي في الصويرة ، لتناول طعام العشاء في بيتي والتقاء السيد حسين أفنان . وقد عبر عجيل باشا عن عدم إيمانه القاطع بأية حكومة عربية والانتخابات العامة . وعلى الرغم من قناعتي بصواب موقف عجيل باشا وتعاطفي معه ، آمل مخلصة أن نعمد إلى تأخير ابتداء عملية الانتخابات إذ من المحتمل جداً أن تفقد حكومة كتلك القائمة حالياً (ناهيك عن حكومات أخرى) الكثير مما قد يكون لها من دعم شعبي بدلاً من اكتساب قدر أكبر منه . وكنت قد عمدت مؤخراً إلى بحث هذا الجانب مع السير برسي كوكس .

سأقوم قريباً بتناول طعام العشاء على مائدة السيد طالب النقيب ، وهي مناسبة تم دعوة العالم بأسره إلى حضورها على ما يبدو ! ترى من سيتولى تغطية مصاريفها ؟»

ومن خلال رسالة وجهتها جيرتروود إلى زوجة أبيها في الثلاثين من شهر كانون الثاني قالت : «إن ما كتبتيه أيتها العزيزة بصدد ما يشهده العالم من فوضى لأمر مثير للاهتمام إلى جانب ما ينطوي عليه من غرابة . ولعلها ليست بفوضى بالرغم من كل شيء ، بل مجرد نهاية لحالة اعتدناها في الشرق والغرب على حد سواء ، وهي حالة لا يمكننا اعتبارها سياقاً رائعاً يدفعنا إلى التمسك به بكل ما أوتينا من قوة ضد ما قد يعقبه من حالات أخرى . وإن موقفك من العناصر الجديدة لا يختلف كثيراً عن موقفي على ما يبدو وهو السعي إلى إيجاد طريقة تحقق المعايشة بسلام ، ولا أجدني فضلاً عن ذلك مؤمنة بما يقال عن وجود مكان لنا جميعاً تحت الشمس ، فقد توفر الشمس لنا ما يكفينا من الدفء فقط ، وأما ما يقال عن أن يوم عمل قوامه ست ساعات ، أو حتى ثمان ساعات ، يفي باحتياجات كل أهل المعمورة فأمر مشكوك بصحته .

إنني منهمكة في الوقت الحاضر بمطالعة كتاب السيدة آسكويت الذي لابد لي من

الاعتراف بأنه (والكلام خاص بيننا) يدعو إلى الحيرة . على افتراض أن لا يكون تقديري لواقع الأشياء وحكمي عليها قد خرجا عن حدود النهج السليم ، فالكتاب لا يعتبر عملاً رفيع المستوى ، وعلى الرغم مما تعكسه من فطنة في محضر إشارتها إلى سياقات المحادثات . أما ما تستشهد به من حكم وأمثال تتعلق بالحياة فجانب يخلو من كل معنى ومغزى ، فضلاً عن ذلك فإن قدرتها على فهم الأشخاص وتقييمهم سطحية جداً . ومع ذلك يتعين علي القول أن الكتاب لابد وأن يحتوي على جوانب أكثر إيجابية من تلك التي تم لي اكتشافها . وفي كل الأحوال تبقى تجربة السيدة أسكويت مع الحياة محدودة على ما يبدو برغم اعتقادها بعكس ذلك تماماً .»

وفي اليوم ذاته (أي في الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني) كتبت إلى والدها قائلة : «إن ما جاء في رسالتك حول الآراء التي عبر عنها العقيد ولسون[٢] فيما يتعلق بمستقبله لأمر مثير للاهتمام حقاً . وقد قمت بإطلاع السير برسي كوكس على نص هذا المقطع من الرسالة بالذات وإعلامه في الحين ذاته رفضي القاطع لفكرة العمل مع العقيد ولسون أو بإمرته تحت أي ظرف من الظروف بسبب اعتقادي الجازم بأنه يميل إلى ممارسة ما يوكل إليه من عمل بطريقته الخاصة الأمر الذي لا يجعل منه شخصاً مناسباً يمكن أن تعهد إليه مسؤولية إدارة علاقاتنا مع آسيا ، وهو نشاط يتطلب قيام المسؤول بالتشاور والعمل على بناء جسور الثقة والتعاطف مع الفئات المحكومة وإدامتها . وأستطيع القول من وجهة نظر شخصية أن العقيد ولسون شخص لا يمكن الثقة به والركون إليه وبذلك لا يمكن العمل معه . كما أن إعطاءه مكاناً في أية دائرة حكومية لا يعتبر إجراءً حكيماً . إنه رجل كفؤ ورائع في مجال إدارة العمل ، أما سياسياً فإنه لا يتمتع بقدر كاف من السماحة وسعة الأفق ، فضلاً عن ذلك فهو مدان من قبل العناصر الوطنية العربية التي يتعين علينا التعاون معها إذا ما أريد لوجودنا هنا أن يكون مجدياً . وفي إطار إمكانية الإشارة إلى نقطة محددة في مساق الشؤون الخاصة ببني البشر باعتبارها نقطة تحول ، يمكنني الإشارة إلى اللقاء الذي تم في دمشق بين العقيد ولسون من جانب وياسين باشا الهاشمي وناجي السويدي ونوري باشا السعيد من جانب آخر وذلك في شهر آيار من عام ١٩١٩ - وهو لقاء لا يسعني أن أتذكر ما إذا كان جعفر باشا قد شارك فيه - حيث قام السادة المذكورين بطرح أفكارهم فيما يتعلق

(٢) كان العقيد ولسون قد طرح هذه الآراء وغيرها أثناء مأدبة أقامها على شرفه السير هيو وزوجته اللادي بيل في لندن - المترجم

بمستقبل بلاد ما بين النهرين ، وهي آراء لم تكن معتدلة وعقلانية فحسب بل كانت تصب في إطار برنامجنا العام الذي نقوم باعتماده حالياً ، إلا أنها قوبلت برفض وشجب قاسيين من لدن العقيد ولسون بحجة ضرورة قيامهم بالعمل في أطر المجالس البلدية أولاً قبل الانصراف إلى تولي زمام القيادة . وقد سمعت خبر هذا اللقاء وما دار فيه من حديث عن طريق ضابط بريطاني كان برفقة ولسون ، وقد أخبرني بأن السادة المذكورون انسحبوا من هذا اللقاء بصمت دون أن يتركوا لولسون فرصة إتمام ما أراد قوله . وبهذا الصدد لا أجد أي داع لذكر واقع أن السادة آنفي الذكر كانوا في ذلك الوقت بالذات قائمين على إدارة الشؤون المدنية والعسكرية في سوريا ، وإن إخفاقهم في الارتفاع إلى مستوى أفضل في أداء بعض المهام الموكلة إليهم كان يعود بشكل رئيس إلى عدم قيامنا برفدهم بما كانوا يحتاجون إليه من خبراء للنهوض بالعمل على الوجه الأكمل ، وكان توجهنا هذا ينطلق من ضرورة تفادي كل ما من شأنه إثارة الحساسيات الفرنسية . ولا يمكن اعتبار موقف العقيد ولسون من هؤلاء السادة الذين كانوا ضباطاً سابقين في الجيش العثماني برتبة لواء سوى موقفاً يتسم بالسخف وقلة العقل لا سيما إذا ما أدركنا أن ياسين باشا قد ثبت نداً لا يقل قدرة وكفاءة عن أي من جنرالاتنا وذلك في ربيع عام ١٩١٨ ، وإنهم جملة وتفصيلاً إداريون حازمون تم تدريبهم وصقل مواهبهم في إطار المدرسة الشرقية لفنون الحكم والإدارة وبذلك لا يمكن لهم أن يرضوا بالعمل في أطر النشاطات الخاصة بإدارة المجالس البلدية فقط . وكان من شأن هذه الحال أن تجعل هؤلاء العراقيين يقطعون الأمل من أي احتمال بإقامة مؤسسات حكم في بلاد ما بين النهرين ، وأن تدفع بياسين باشا بشكل خاص إلى حث العراقيين من جماعة العهد ، باعتباره قائدها والموجه الأول لها ، إلى القيام بدعاية معادية للبريطانيين وهو النهج الذي عمدت هذه الجماعة إلى تبنيه منذ ذلك الحين . وكانت هذه الدعاية المحرك الوحيد للتمرد الذي شهدناه هنا . وبسبب قيام ولسون بإغضاب الوطنيين من أبناء بلاد ما بين النهرين وإثارة ضغينتهم ، وإخفاقه في فهم أبعاد شعورهم والاستهانة بما كان ينطوي عليه هذا الشعور من قوة[٣] فإنه مدان بارتكاب أحد أكبر الأخطاء في إطار السياسات البريطانية

(٣) تجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أن ولسون قد أرسل برقية في صيف عام ١٩١٩ ذكر فيها نصاً ما يلي : «إنني أعتبر العهد العراقي تنظيماً تافهاً لا يعتد به» الأمر الذي يدل على مدى استخفافه بالشعور الوطني العراقي واستهانته به . وبهدف تمكين المهتمين من القراء الكرام والباحثين من الإلمام بسيرة العقيد ولسون وشخصيته بشكل أوسع يرجى الرجوع إلى كتاب توماس لايل الموسوم «بلاد ما بين النهرين : بواطن الأمور وظواهرها -==

المعتمدة في آسيا وهو خطأ يتعذر على أي منا حساب أبعاده بأية درجة من الدقة .

وكان جعفر باشا قد استلم رسالة من ناجي السويدي يعلمه فيها عن عزمه العودة إلى العراق . ياله من قرار شجاع لا سيما في ضوء موقف والده الأحمق وما ترتب على هذا الموقف من نتائج جعلت منه شخصاً مطارداً ومطلوباً للمثول أمام العدالة .كما طرق سمعنا أن نوري باشا السعيد هو الآخر في طريق عودته إلى الوطن . إن هؤلاء الأشخاص وأمثالهم هم الذين يمكنهم مساعدتنا في مضمار إعادة كسب ثقة العناصر الوطنية .»

وفي السابع من شهر شباط كتبت الآنسة جيرتروود بيل قائلة : «شهدنا أسبوعاً عاصفاً بسبب خلاف قام بين اثنين من المستشارين البريطانيين (أي السيد فلبي والعقيد سليتر) حول كيفية معالجة وضع أفراد القوات العربية المجندة[٤] (الليفي) ، أي الجندرمة ، وهو خلاف أثار بدوره غضب الوزيرين المعنيين (أي كلاً من السيد طالب النقيب وساسون أفندي حسقيل) اللذين لم يكونا على وفاق ووئام أصلاً ، ووصل إلى الحد الذي بات من خلاله أمر

== لندن – ١٩٢٣ Thomas Lyell. The Ins. and Outs of Mesapotamia, London, 1923 والذي يطرح من خلاله صورة للعقيد ولسون وأعماله تختلف تماماً عن الصورة التي رسمتها له الآنسة جيرتروود بيل . وعلى الرغم مما يعكسه لايل من صورة قاتمة تتعلق بالعراقيين بشكل خاص وعلى المسلمين ، والشيعة منهم ، بوجه عام ، وإلى جانب اختلافي مع لايل لا بوصفي مترجماً فحسب بل بوصفي باحثاً وتلميذاً في التاريخ أيضاً وذلك فيما يتعلق بآرائه حول العرب والمسلمين بوجه عام والعراقيين بشكل خاص ، فإن الدقة والأمانة والموضوعية تفرض على الباحث ، بصرف النظر عن توجهاته ومنطلقاته ، ضرورة الاطلاع على مختلف وجهات النظر وذلك في إطار مسعاه الرامي إلى الوصول إلى الحقائق في كل ما ينصرف إلى البحث فيه من المواضيع – المترجم

(٤) من بين المواضيع التي تم عرضها على المجلس في جلسته المنعقدة في ١٩٢١/٢/٣ ذلك المتعلق بربط قوات الليفي بإحدى الوزارات وذلك في ضوء كتاب كان المندوب السامي قد وجهه إلى المجلس بهذا الخصوص . وعلى الرغم من أن أغلبية الأعضاء من بين الوزراء العاملين والذين كانوا بلا وزارات أيدوا اقتراحاً مفاده إلحاق هذه القوات بوزارة الداخلية ، ارتأى البعض إلحاقه بهذه الوزارة على أن يكون لوزارة الدفاع علاقة به من ناحية اللوازم وجوانب أخرى ، إلا أن وزير المالية ساسون أفندي عارضه بحجة تضاعف النفقات . وقد ارتأى الرئيس إحالة الأمر إلى المندوب السامي بانتظار إلحاق هذه القوات بأية وزارة يشاؤها . وقد اقترح المندوب السامي بدوره وضع هذه القوات تحت إدارته . وقد بقي الحال كذلك إلى ما بعد إعلان استقلال العراق عام ١٩٣٢ عندما اتخذت بريطانيا من هذه القوات حرساً خاصاً لمطاراتها الحربية في العراق – المترجم

استقالة ساسون أفندي جانباً محتملاً جداً إثر توصل مجلس الوزراء إلى قرار تم بموجبه وضع القوات المجندة آنفة الذكر بإمرة وزارة الداخلية بدلاً من وزارة الدفاع ، وهو قرار لم يأت منسجماً مع ما أبداه ساسون من رأي حول الموضوع . ولابد لي من القول أنه قرار خاطئ ومع ذلك فهو أمر لا أهمية كبيرة له طالما وضعت هذه القوات بإمرة إحدى الوزارات فوراً وذلك تمشياً مع رغبتنا في وجود قوة تأخذ على عاتقها إدامة الأمن والاستقرار في منطقة الفرات الأوسط عندما يتم سحب القوات البريطانية الموجودة هناك . وهو إجراء من المزمع تنفيذه في غضون أسبوعين تقريباً . وتكمن المشكلة بالأساس في تردد جعفر باشا في الموافقة على وضع هذه القوات بإمرة وزارته بسبب إدارتها البريطانية . ولو كنت في محل السير برسي لقمت بصفع المتخاصمين دونما استثناء ولعمدت إلى إجبار هذه القوات قيادة ومراتب على التكييف وفق متطلبات جعفر باشا العسكري وأولوياته ومن ثم إلحاقها بوزارة الدفاع ، إلا أن السير برسي لم يشأ القيام بذلك ، وهو أدرى بما ينبغي اتخاذه من إجراءات . وفي كل الأحوال لم يأت هذا الخلاف بأي أثر سلبي لاسيما بعد أن تمكنت من تهدئة خاطر ساسون أفندي وإقناعه بقبول قرار مجلس الوزراء . وبعد نقاش مطول لم يحظ باهتمام القسم الأكبر من أعضاء المجلس ، همس السيد عبد الرحمن النقيب في أذن السيد طالب كلاماً سارع على أثره إلى الإعلان عن قرار لم يكن أحد قد توصل إليه في الواقع الأمر الذي دفع بوزير الأوقاف[٥] بعد ذلك إلى الالتفات إلى من كان يجلس بجواره من الزملاء متسائلاً :ما قوات الليفي هذه؟

استضفت مساء الخميس ساسون أفندي لتناول طعام العشاء على مائدتي ، وقد جاء بصحبة حكمت بك[٦] وهو رجل كفوء عمل في مجال التربية والتعليم في العهد العثماني

---

(٥) الوزير المقصود هو السيد محمد علي فاضل الذي كان قد عين وزيراً للنافعة عند تشكيل الوزارة إلا أنه تولى وزارة الأوقاف بعد التعديل الوزاري الأول الذي أعقب تشكيل الوزارة بفترة قصيرة - المترجم

(٦) إنه حكمت بك سليمان نجل المؤرخ البغدادي المعروف سليمان فائق وأخو محمد شوكت باشا ، الصدر الأعظم الذي قتل في حادث صباح يوم ١٩١٣/٦/١٢ قيل في حينه أنه من تدبير الائتلافيين بينما بينت القرائن أن الاتحاديين كان لهم يد فيه ، وقد اتخذوا من الحدث قميص عثمان للاستيلاء التام على السلطة وهذا ما تم فعلاً . وقد تولى حكمت سليمان رئاسة الوزارة في العراق بعد أن أطيح بحكومة ياسين باشا الهاشمي نتيجة الانقلاب العسكري الذي قاده الفريق الركن بكر صدقي العسكري في تشرين الأول من عام ١٩٣٦ - المترجم

والشخص الذي تمنيت مخلصة توليه حقيبة المعارف إثر قيام السير برسي بإقناع وزير المعارف السابق[٧] الذي لا يحسن قراءة العربية وكتابتها بتولي وزارة النافعة .

---

(٧) تم تشكيل أول وزارة عراقية في ١٩٢٠/١٠/٢٥ ، أي قبل قيام الحكم الوطني بعشرة أشهر ، وكان أعضاؤها صنفين ضم الأول منهما ذوي الحقائب الوزارية وهم (إلى جانب رئيس الوزراء) السيد طالب باشا النقيب للداخلية ، جعفر باشا العسكري للدفاع ، ساسون أفندي حسقيل للمالية ،حسن الباجه جي للعدلية ، عزت باشا الكركوكلي للمعارف والصحة ، الشيخ مصطفى الألوسي للأوقاف ، عبد اللطيف باشا المنديل للتجارة ، ومحمد علي فاضل للنافعة . وإثر اعتذار حسن الباجه جي عن الاشتراك في الوزارة جرى تعديل طفيف تولى بموجبه مصطفى الألوسي وزارة العدلية وتولى محمد علي فاضل وزارة الأوقاف . وبقيت وزارة النافعة شاغرة حتى ١٩٢١/١/٢٩ عندما تولى أمرها عزت باشا الكركوكلي بعد تغيير اسمها إلى وزارة الأشغال والمواصلات ، وبذلك يكون عزت باشا آنف الذكر هو الوزير الذي أشارت إليه الآنسة جيرترود في ملاحظتها أعلاه . وبقي منصب وزير المعارف شاغراً حتى ١٩٢١/٢/٢٢ عندما أسند إلى السيد محمد مهدي بحر العلوم الطباطبائي الملقب بابن مرزا كجك . وقد جاء هذا التكليف نتيجة القرار الذي تم التوصل إليه في ضوء إلحاح المندوب السامي على ضرورة إسناد أحد المناصب الوزارية إلى واحد من أبناء الشيعة الإمامية الأمر الذي تم في ضوئه اختيار محمد مهدي بحر العلوم . ويعزى هذا التأخير في إعادة توزيع المناصب الوزارية إلى صعوبة العثور على رجل من الشيعة ذي مكانة اجتماعية مرموقة يرضى الاشتراك في الحكومة الجديدة ، فقد كان الشيعة بشكل عام يحتقرون من يقبل الاشتراك في الوزارة ويعمدون إلى نبذه اجتماعياً . وقد بين المرحوم الأستاذ الدكتور علي الوردي في الجزء السادس من مؤلفه المشهور «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» هذا الجانب بوضوح مشيراً إلى أن أبناء الشيعة كانوا يطلقون على من يقبل الاشتراك في الحكومة من بين رجال الدين لقب «عالم حفيز» (وتعني عبارة حفيز مكتب ، أي office ، وهي تسمية كانت حتى فترة قريبة مألوفة أيضاً في بعض دول الخليج العربي على ما أعتقد) . ومن الجانب الثاني كان النقيب ذاته لا يميل كثيراً إلى مشاركة أبناء الشيعة الأمر الذي أسهم بدوره في التأخير في عملية إعادة توزيع المناصب الوزارية . ويواصل الأستاذ الوردي تعليقه قائلاً . . . ومعنى هذا أن الطباطبائي كان من علماء الحفيز .» وإلى جانب الوزراء العاملين كان هناك اثنا عشر وزيراً من صنف آخر تم اختيارهم من قبل السير برسي كوكس تمشياً مع التقليد البريطاني المتبع في المستعمرات البريطانية والقاضي باستقطاب أرباب البيوتات والأسر المعروفة وإضفاء صيغة من الصيغ الرسمية عليهم إرضاءً لهم وتوخياً لما قد يعودون به من فائدة على بريطانيا في مجال تنفيذ سياساتها المرسومة . وقد جاء هذا التوجه من قبل كوكس منسجماً مع وجهة نظر النقيب بهذا الصدد . وسمي هؤلاء الوزراء وزراء بلا وزارة ، أو بلا حقائب وزارية ، وكانوا كلاً من حمدي باشا بابان (بغداد) ، ==

كما أقمت في هذا الأسبوع أيضاً مأدبة عشاء إنجليزية استضفت فيها الرائد الطبيب سندرسن وزوجته والسيد فلبي و زوجته وصديقي الحميم الرائد إيدي الذي يعمل مساعداً لمستشار جعفر باشا العسكري . ولابد لي من الاعتراف بما أكنه من حب وتقدير للسيدة فلبي وكذلك لزوجها الذي أعتبر العمل معه تجربة في غاية الروعة .

وفي صباح يوم الأحد انطلقت على ظهر جوادي في رحلة إلى منطقة الفحامة حيث قمت بزيارة صديقي فائق بك الذي له وجه مثل تفاحة خمرية اللون والذي أجده رجلاً في غاية الأمانة والبساطة ، وإنساناً يعشق الأرض وكل ما ينمو فيها من الأشياء . وقد قال لي في مناسبة معينة «اعلمي أيتها الخاتون أن ضباطكم يظنون أن بلاد ما بين النهرين مثل إنجلترا ، ولكنها في الواقع مختلفة تماماً ذلك لأننا مختلفون عنكم ، ولذلك لا يمكن حكم بلادنا كما تحكمون أنتم بلادكم .» وإزاء ذلك أجبته قائلة : «ولهذا السبب ، يا فائق بك ، أود أن أرى عرباً يمارسون الحكم .» ثم أردف قائلا : «أجل ! ولكن عليكم رعايتهم !»

وهذا بالضبط ما قاله لي حكمت بك سليمان أيضاً عندما أوضحت عن رغبتي في الوقوف جانباً ومراقبة الكيفية التي سيتم لهم (أي لمن يمارسون السلطة من أبناء العراق) فيها القيام بما ينبغي لهم أداؤه من أعمال وواجبات . وقد قال حكمت بك بهذا الصدد : «كلا ! لا نريد منك الوقوف جانباً بل القيام بحجم كبير مما يتطلب أداؤه من العمل .»

== عبد الغني كبة (بغداد) ، عبد المجيد بك الشاوي (بغداد) ، عبد الرحمن الحيدري (بغداد) ، فخر الدين آل جميل (بغداد) ، محمد الصهيود ، - أمير ربيعة-(الكوت) ، عجيل باشا السمرمد - شيخ الزبيد - (الصويرة) ، أحمد باشا الصانع (البصرة) ، الشيخ سالم الخيون (الحمار) ، هادي القزويني (الحلة) ، وداود اليوسفاني (الموصل) . ونتيجة اعتذار حمدي باشا بابان وهادي القزويني عن الاشتراك في الوزارة حل محلهما الشيخ ضاري السعدون (الناصرية) ونجم البدراوي (العمارة) . وقد خصص المندوب السامي في حينه راتباً شهرياً لرئيس الوزراء قدره (٧٠٠٠) روبية ولكل وزير (٣٠٠٠) روبية . ونتيجة اعتراض السيد طالب النقيب على مساواته في الراتب مع بقية الوزراء ، قام المندوب السامي باقتراح زيادة راتب وزير الداخلية ليصبح (٥٠٠٠) روبية وقد وافق المجلس على ذلك وأضاف (١٠٠٠) روبية أخرى ليصبح راتب السيد طالب (٦٠٠٠) روبية وبهذا الصدد يروي السيد خيري العمري في كتابه الموسوم «حكايات سياسية» نادرة مفادها أن الوزراء لم يكونوا مرتاحين من اقتراح المندوب السامي حول الزيادة المذكورة وقد قرروا التصويت ضده ، ولكن عندما طرح الموضوع على التصويت العلني تخاذل الوزراء وصوتوا بعبارة «موافق» باستثناء عبد المجيد الشاوي الذي كان حاضر البديهة سريع النكتة فصوت بعبارة «منافق» بدلاً من موافق - المترجم

أجل . لنطلق للعراقيين العنان وسنرى كيف أنهم سيهرعون إلينا (طلباً للعون والمساعدة) ، أما إذا ما أحجمنا عن ذلك وحاولنا الاستئثار بالسلطة فسينقلبون ضدنا ، وبذلك يسرني جداً أن أرى المتصرفين والقائمقامين يمتطون صهوات جيادهم بالرغم من حقيقة أن البعض منهم ليسو بفرسان جيدين .

وما دمنا في محضر الحديث عن ركوب الخيل ، فإن ماري تتعلم ركوب الخيل وهو ما يرضي رغبتها على ما يبدو ، ويتولى هذه المهمة رئيس السياس ، المسؤول عن إدارة الإصطبلات المدنية .»

وقد أرفق طي رسالة جيرتروود أعلاه (أي الرسالة المؤرخة في ١٩٢١/٢/٧) ملحق دونت عليه عبارة «سري للغاية» وجاء فيه : «مرة أخرى تبدو الاحتمالات المستقبلية قاتمة ، لا تبشر بخير ، فمن المزمع عقد مؤتمر في الحادي والعشرين من هذا الشهر إما في لندن أو باريس بهدف إعادة النظر في أحكام معاهدة سيفر The Treaty of Severs[(٨)] . تتنبأ السلطات المختصة في الوطن (أي في بريطانيا) باحتمال نجاحها في استرضاء تركيا ، من غير المبالغة في إزعاج اليونان (وأفهم من ذلك احتمال الانصراف إلى عقد معاهدة جديدة تبقى ميناء إزمير بحوزة اليونان بشكل ما أو آخر) وذلك عن طريق عرض عرش بلاد ما بين النهرين على أمير تركي . وفي غضون ذلك لن يتوجه تشرتشل إلينا للقاء كوكس بل من المحتمل الاجتماع به وبصموئيل (أي هيربرت صموئيل) في مكان ملائم (مصر مثلاً؟) ويعتقد تشرشل بإمكانية نجاحه في حمل جماهير بريطانيا على منح بلاد ما بين النهرين مبلغاً سنوياً قدره خمسة ملايين جنيه إسترليني وذلك للسنتين القادمتين فقط لا لفترة أطول . وتتمحور ملاحظاتي بصدد هذا الموضوع حول النقطتين التاليتين :

---

(٨) معاهدة الصلح المعقودة بين إنجلترا وتركيا (١٩٢٠/٨/١٠) التي تم بموجبها في بادئ الأمر انتزاع معظم جزر بحر إيجا (بإستثناء جزر دوديكانيز) وهوما يعرف بأوربا التركية (شرق تراقيا) و إلحاقها باليونان . كما تم وضع ميناء إزمير ومنطقة غرب الأناضول تحت إدارة اليونان لمدة خمس سنوات بأمل أن يتم في نهايتها إجراء استفتاء افترض أنه يؤدي بالنتيجة إلى ضمها كلياً إلى اليونان وتعتبر هذه الإجراءات في الواقع تجسيداً حياً لسياسة غلادستون (رئيس وزراء بريطانيا الأسبق) القاضية بتوسيع رقعة اليونان «لتستعيد حدودها الثقافية في مناطق آسيا الناطقة باليونانية .» كما تم وضع مضيق الدردنيل ومدينة إسطنبول تحت سيطرة دولية « لتأمين حسن سلوك تركيا» . ولم يبق تحت السيادة الاسمية للسلطان العثماني سوى منطقة الأناضول . وقد أدى تطور الأحداث لاحقاً إلى تغيير هذا الواقع - المترجم

١- لا جدوى من محاولتنا القيام باسترضاء تركيا من غير أن نحنث بوعدنا فيما يتعلق بالقرار الخاص بإزمير، ولابد من القول أن الأتراك على حق من الناحيتين الاقتصادية والوجدانية في مطالبتهم بهذا الميناء، وعليه فإن إعطاءه لليونانيين كان منذ البداية إجراء يتعارض مع كل ما هو معقول في إطار إدارة شؤون الدول، وهو ما بيناه بوضوح في باريس قبل عامين.

٢- إنني على استعداد لقبول (فكرة تنصيب) أمير تركي تماماً كاستعدادي للقبول بأي إجراء من شأنه أن يعود بالخير على هذا البلد، بيد أنني أرى (أ) أن الإيفاء بمستلزمات نظام الانتداب لن يكون سهلاً في ظل حكم هذا الأمير، و(ب) لا يمكن إدارة هذا البلد في ظل انتداب تركي، فتركيا منهمكة، وقد باءت بالفشل كل مناشداتها التي استهدفت دعوة الأطفال القاصرين والأطباء للخدمة في صفوف جيش الأناضول. ومن جانب آخر فإن الفوضى في سوء الأحوال في ظل حكم العهد البائد لبلاد ما بين النهرين قد تجاوزا حدود ما يمكن أن يشهده أي مجتمع حضاري الأمر الذي يشكل حالة تعجز تركيا الجديدة عن تمكين هذه البلاد من تجاوزها. وبطبيعة الحال لا يجد دافع الضرائب البريطاني نفسه مهتماً بمصير بلاد ما بين النهرين، وسيان لديه إن عمت الفوضى أرجاءها أم ساد فيها النظام وتمتعت بخيرات الرفاه، أما أنا فلا يمكنني النظر إلى هذا الأمر في ذات الضوء.

نأمل أن يتمكن الحلفاء حقاً من تحسين سلوكهم بهذا الصدد والانصراف في علاقاتهم مع تركيا إلى اعتماد إجراءات جديدة تحظى برضى الحزب الوطني ومصطفى كمال. وإن من شأن ذلك أن يزيل ما تشهده حدودنا الشمالية (كذا)[٩] من تهديد ويضع حداً لسيل الحملات الدعائية التي تنحدر قادمة إلى هذه البلاد. أما العناصر الوطنية هنا، والتي لا ترغب في عودة الأتراك ولكنها غير راضية عن الأوضاع الراهنة، فإنها تعمد إلى استغلال البعبع التركي بهدف إحراجنا وإخراجنا من البلاد (بواسطة الأتراك) ومن ثم الالتفات بعد ذلك لطرد الأتراك. وعلى الرغم من أن أفراد هذه الزمرة ومن يسير في ركابها قليلون، إلا أنهم جماعة صاخبة تنبري جريدة الاستقلال إلى نشر وترويج أفكارها، وإن القسم الأكبر

---

(٩) تقول الآنسة بيل «حدودنا الشمالية» لا حدود العراق الذي جاءوه «محررين لا فاتحين»! إنه مثال آخر يسلط الضوء على الإطار الفكري الاستعماري السائد في حينه، وهذا حال من أحبت العراق وسعت على حد تعبيرها إلى خيره. ترى ما هو حال المغالين من أساطين الاستعمار؟ - المترجم

من كتاب هذه الجماعة ومريديهم أناس لا يمكن لأية حكومة أن ترضى بتوظيفهم ، وإذا ما خرجنا من هذه البلاد إلى غير عودة فإنهم سينقلبون على من يأتي ليخلفنا في حكمها . ومع ذلك يجب الاعتراف في الحين ذاته بوجود مظالم حقيقية ، فالعقوبات التي تم إنزالها من قبل قواتنا العسكرية بحق عشائر الفرات كانت على ما أفهم شديدة ومؤلمة . كما يشعر أبناء العشائر بغضب وسخط شديدين لامنا شخصياً بل من مهيجي الجماهير البغداديين والخطباء الذين ، على حد تعبير أبناء العشائر ، قاموا بإغوائهم ودفعهم إلى طريق الضلال من غير أن ينالهم العقاب ، بينما يعمد المهيجون سالفوا الذكر إلى المزيد من أعمال الشغب والقلاقل .

إني أوجه اهتماماً جاداً بما تتداوله الصحف ، وهو جانب لا أحبه ولكنه ضروري . وقد عمدت إلى اتخاذ ما يلزم بصدد قيام رئيس تحرير جريدة العراق ، وهي صحيفة معتدلة ، بزيارتي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع لغرض تزويده بالأخبار ومده بالأفكار . إنه رجل طيب ، قصير القامة ولكنه لا يتقد ذكاء ! وإنه لأمر مؤسف أن يخفق عامة الملائكة في أن يكون لهم ما لإبليس من مظهر بديع ! .

وأقوم كذلك بالنظر في عدد من الخطط التي تستهدف ترشيح رجلين من ذوي الكفاءة الحقيقية لعضوية مجلس الوزراء ، الأول هو حكمت بك سليمان والثاني هو ناجي بك السويدي الذي سيصل إلينا قريباً عائداً من سوريا . فضلاً عن ذلك ، فإنني أريد قسمة مجلس الوزراء إلى قسمين يشكل القسم الأول منهما مجلساً استشارياً - أشبه ما يكون بمجلس الملك الخاص(١٠) - ويشكل الثاني مجلس وزراء صغير قوامه وزراء من ذوي الحقائب الوزارية فقط . وقد قمت بطرح مقترحات أولية بهذا الصدد أمام السير برسي كوكس الذي أبدى موافقته حولها على ما يظهر .

وكان لي حوار مع ساسون أفندي أمتد على مدى ساعتين من الزمن وتناول قضايا ذات طابع عام . وكان من جملة هذه القضايا تلك المتعلقة بإمكانية تنصيب أمير تركي (ملكاً على عرش العراق) وقد وجدت ساسون مؤيداً لها شريطة أن يتم ذلك في ظل انتداب بريطاني . وكان لفائق بك رأي مماثل ، وهو ما أخبرني به صباح اليوم ، مضيفاً : « . . .

---

(١٠) ويعرف بالإنجليزية ب Privy Council وهو مجلس يتشكل لامن وزراء الدولة فحسب بل ممن يختارهم الملك (أو الملكة) من الشخصيات المعروفة ، وهو الهيأة التنفيذية الحاكمة في بريطانيا . وتعرف أوامره بالأوامر المحلية Orders in Council . أو البلاغات ، وفيه لجنة قضائية ذات اختصاص استثنائي أعلى - المترجم

واعلمي أنهم كانوا كاذبين حتى عندما راحوا ينادون بالأمير عبد الله (ملكاً) في العام الماضي .» إن الأمور سائرة بذلك الاتجاه على ما أظن[١١] وأنا من جانبي أميل إلى حل مغاير تماماً في حال كان حسم الأمر بيدي ، إلا أن القرار ليس بأيدينا ، بل لا يمكنه أن يكون في أيدينا . ورغم كل ذلك علينا أن نتذكر أن عائلتنا المالكة من أصل ألماني ، وكذلك العائلة المالكة التي تحكم اليونان ، كما أن مصر تحكمها عائلة مالكة من أصل ألباني ، فلماذا لا يكون للعراق عائلة مالكة من أصل تركي؟ ومن المحتمل أن يحقق مثل هذا الحل (أي تنصيب أمير تركي ملكاً على العراق) الاستقرار وهو الجانب المهم في الأمر لا تطبيق فكرة السيادة العربية التي تحظى بالرضا العام .»

وفي الثالث عشر من شباط كتبت جيرتروود قائلة : «إن السبب في طول رسائلي الموجهة إليكم إنما ينطلق من كونها الصيغة الوحيدة لما يشبه دفتر اليوميات . ولا أجدني راغبة في الاحتفاظ بنسخ منها ، فاحتفاظكم بها يشكل مصدر سعادة لي . وقد أجد في يوم ما رغبة في الرجوع إليها . من يدري؟

زارني النقيب توماس مؤخراً للتداول معي . وقد جاء من مدينة الناصرية حيث كان قد أُرسل بالأساس لمساعدة الرائد دتشبورن Major Ditchburn في منطقة قناة الغراف عندما بدأت الاضطرابات . وقد قام بواجباته على الوجه الأتم ، وهو يزورنا اليوم بصحبة أحد كبار الشيوخ في منطقة الفرات وهو الشيخ خيون العبيد الذي تمكن النقيب توماس بفضل ذكائه وحسن تصرفه من الحفاظ على ما بينهما من أواصر الود وحسن العلاقة الأمر الذي أبقى هذا الوجيه ، بل ومنطقة الغراف بأسرها ، بعيداً عن مسرح القلاقل والاضطرابات مما حال دون توسع رقعة التمرد وشمولها مناطق نهر دجلة إذ أن ذلك كان سيؤدي إلى انقطاعنا كلياً عن العالم الخارجي .

ومن خلال متابعة استطلاعاتي حول ما يجول في رؤوس أبناء البلد من أفكار تتعلق بالمستقبل أدهشني ما اكتشفته من مشاعر معادية للأتراك لدى مقامات غير متوقعة بالمرة . فمن خلال مأدبة غداء كنت أقنعت السير برسي بإقامتها ودعوة كل من حكمت بك سليمان وساسون أفندي حسقيل إليها ، تفاجأت كثيراً عندما علمت برفض حكمت بك كلياً فكرة تنصيب أحد أبناء السلطان العثماني حاكماً على العراق وبأنه ، على حد قوله ، قد قطع كل علاقة له بتركيا ، وهو جانب لا يخلو من غرابة إذا ما أدركنا واقع كونه تركياً

(١١) أي باتجاه تنصيب أمير تركي - المترجم

بثقافته وخدمته العامة فضلاً عن كونه عضواً سابقاً في جمعية الاتحاد والترقي وأحد مريديها البارزين في العراق . وقد قال بهذا الصدد إن الأتراك عاجزون عن حكم أنفسهم فلماذا أرغب في أن يقوم أحدهم بحكمنا ؟ وعليه فقد أعلن تأييده للنقيب (أي السيد عبد الرحمن النقيب) . ومن جانب أخر علق عزت باشا الكركوكلي بهذا الصدد قائلاً ما مفاده إن تأييد النقيب غير مجد إذ أنه سيموت قريباً (وهو جانب لا يخلو من حقيقة إذ أن صحة النقيب في تداع مستمر) ، وإذا ما كنا (نحن العراقيين) نجد في طلب عمود لخيمتنا فإن أي عمود سيفي بالغرض طالما انصرفتم (أنتم البريطانيين) إلى الإمساك به ومده بأسباب البقاء . ومما تجدر الإشارة إليه هو أن كل من تحدثت معه حول الموضوع رفض فكرة تولي أحد أبناء الشريف زمام الأمور هنا باعتبارهم من المحافظين المتمسكين بالأساليب والطرق القديمة . إنه لأمر يدعو إلى الأسف ، ولكن إذا ما كان الحال على هذا المنوال فلا مناص منه - إنه جانب لا يسعني تغييره . وإذا ما دعمنا فكرة تنصيب أحد أبناء السلطان العثماني فإن ذلك سيشكل الخيار الأفضل(١٢) اللهم إلا في حال تحقق ما هو مستحيل ، أي تمكن السيد طالب من الفوز بمرامه .

وكان عزت باشا حكيماً في نظرته إلى هذا الجانب عندما أشار علينا بالتريث بضعة أشهر لنرى كيف ستتطور الأمور . ويرى عزت باشا - علماً بأنه ليس من بين المتحيزين إلى البريطانيين - ومن يشاركه وجهة نظره أننا لا نتمكن من إجراء انتخابات عامة إلا بعد أن يتم الإعلان (رسمياً) عن قيام نظام الانتداب مستهدفين من ذلك واقع أن الانتداب ليس من بين القضايا التي يدعى المجلس التأسيسي إلى إقرارها . ولا أدري بهذا الصدد ما يدور في رؤوس الحلفاء من ألاعيب تتعلق بما يرغبون في تطبيقه من الأنظمة الانتدابية ، بيد أنني أود الإعلان عن موقفي المؤيد لتوجه عصبة الأمم حول ضرورة إعلان كل ما يتعلق بالأنظمة آنفة الذكر من تفاصيل بوضوح وشفافية وبدون مواربة . وهكذا لا أستغرب من تردد (الحلفاء) في نشر التفاصيل الخاصة بالانتداب على فلسطين علماً بأنني مطلعة على مسودة المشروع ، كما أحسب في الحين ذاته أن الانتداب المزمع تطبيقه في سوريا هو الآخر يصعب الدفاع عنه (وتبريره) . أما انتدابنا على العراق فإجراء معقول ورشيد للغاية ، ولكنني أشك في احتمال أن يتوفر لدينا الوقت الكافي لأخذ نصيحة عزت باشا الكركوكلي بعين الاعتبار . وقد

(١٢) يرجى الرجوع إلى نص رسالة الآنسة بيل المؤرخة في ١٩٢٠/١٢/٢٥ الواردة في الفصل السادس عشر من هذا الكتاب للاطلاع على ما تضمنه هذه العبارة من مفارقة - المترجم

ينصرف مؤتمر (السلام) في باريس إلى التقدم من تركيا بخصوص إمارة بلاد ما بين النهرين ، وحتى في حالة عدم قيامنا بذلك فإن السير برسي كوكس سيجد نفسه مجبراً من خلال لقائه في أوائل شهر آذار بكل من ونستون تشرشل والجنرال اللنبي وهربرت صموئيل على الخروج بقرار حول هذا الموضوع .(١٣) وفي هذا السياق يود السير برسي اصطحابي معه . وعلى الرغم من أهمية حضوري هذا اللقاء الهام ، إلا أنني سأشعر بقلق شديد إزاء غيابنا نحن الاثنين عن البلد وبذلك فإن من الأجدى بي البقاء بسبب كوني من بين القلة القليلة التي بإمكانها توحيد الرأي العام وتهيئته فضلاً عن كوني بالتأكيد من بين من بإمكانهم البقاء على تماس مباشر معه الأمر الذي يعني تمكني بدوري من جعل السير برسي هو الآخر أيضاً على تماس به (أي بالرأي العام) أثناء غيابه . كما يود السير برسي في الحين ذاته اصطحاب ساسون أفندي الأمر الذي يشكل بادرة ذكية إذ أن من شأن ذلك أن يعطي المؤتمر حساً بواقع الحكومة العربية - فهي حقيقة فقط في إطار مفهوم مفاده أن المؤسسة الإنسانية

---

(١٣) تجسد هذا اللقاء بمؤتمر القاهرة الذي انعقد صباح السبت الموافق ١٩٢١/٣/١٢ في فندق سميرأميس في القاهرة . وإن ما يثير العجب حول ما تبينه الآنسة بيل في هذا السياق (الذي يشكل جزءاً من التقرير «السري للغاية» المرفق برسالة جيرتروود المؤرخة في ١٩٢١/٢/٧) حول قصر الفترة الزمنية الواقعة بين ما ورد بصدد تحديد هوية من سيعتلي عرش العراق وبين تاريخ انعقاد مؤتمر القاهرة الذي نعلم جيداً أن موضوع الترشيح لعرش العراق كان قد تقرر قبيل انعقاده أساساً . وما علينا بهذا الصدد سوى الاستشهاد ببعض الحقائق التاريخية من أجل رسم صورة واضحة للامر :

١- في ١٩٢٠/١١/١١ كان الأمير فيصل في شمال إيطاليا عندما وجه إليه اللورد كرزن وزير خارجية بريطانيا رسالة يدعوه فيها إلى زيارة لندن . وكانت هذه الزيارة تتعلق بنية بريطانيا إقناعه بقبول عرش العراق .

٢- في ١٩٢٠/١٢/٢٦ أرسل بيرسي كوكس برقية إلى الحكومة البريطانية أفاد من خلالها أن فيصل كان أليق من يمكنه تبوّؤ عرش العراق .

٣- كان فيصل قد قبل بترشيحه لتبوّؤ عرش العراق (الذي جاء مشروطاً بقبول أخيه الأمير عبد الله بالتنازل عن ترشيحه) قبل تاريخ رسالة جيرتروود بيل سالفة الذكر .

٤- أن أمراً كهذا (أي القرار بترشيح الأمير فيصل) لا يمكن أن يكون قد تم من غير أن يكون للآنسة بيل أي علم مسبق به أو ببعض تفاصيله ، ومع ذلك نجدها تدون ما دونته بخصوص هوية المرشح لعرش العراق . إنه جانب لا يسعني فهم أسبابه وإنه لمن غير المعقول أن تكون فكرة تبني ترشيح الأمير فيصل قد تم اعتمادها ووضعها موضع التنفيذ في غضون أيام معدودات !! - المترجم

الأضعف هي في الواقع كائن حي في عالم تكتنفه الظلال - وأن يساعد الحكومة العربية من جانب آخر على الحس بأنها واقع ملموس ، ولا غرابة في ذلك إذا ما أدركنا في النتيجة أن المؤتمر قد انعقد أساساً لتقرير مصير هذه الحكومة ، فما الذي يمنع اشتراك العرب (تقصد العراقيين طبعاً) فيها؟

إن الفرنسين على ما أتصور يواصلون حبك وتنفيذ خططهم الدنيئة ، ويقول عزت باشا بهذا الصدد أن لديه معلومات مؤكدة تشير إلى قيامهم بتحريك الأكراد ودفعهم إلى الانفصال عن العراق وطلب شمولهم بنظام انتداب فرنسي . وعلى حد ما أفاد به عزت باشا بهذا الخصوص ، فإن الفرنسيين يحاولون تنفيذ مخططاتهم هذه من خلال شخصية كردية متواجدة في باريس .

ومن بين الرموز التي تزيد الرأي العامة صلابة ورسوخاً ظهور كليشهات تعمل على التعبير عنه ، والكليشة الجديدة بهذا الصدد تنص على ما يلي : «إذا ما ذهبتم عنا فسيأكل بعضّ البعض الآخر» ، وهي الحقيقة بعينها من غير أدنى شك .

جاءنا يوم أمس «الشيخ الساذج» (كذا) أحمد داود للسلام على السير برسي وعلي شخصياً وقد شاءت الظروف أن يجدني في حديث ودي مع عزت باشا ، وكانت هذه المناسبة أول زيارة للشيخ أحمد بعد عودته[(١٤)] وقد تفاجأ برؤية عزت باشا المعروف بنزاهته ووطنيته . وكان الشيخ أحمد يرى في نفسه بطل بلاد ما بين النهرين إن لم يكن يرى فيها أمير البلاد المرتقب ، وقد شعرت بأنه راح يتضاءل أمام عيني بسبب ما عرته من بغتة وأخذته من دهشة نتيجة رؤية عزت باشا .»

انتهت الآنسة جيرتروود بيل من كتابة رسالتها الأخيرة هذه صباح اليوم التالي بإضافة العبارات التالية : «استضفت جعفر باشا يوم أمس حيث تناولنا العشاء معاً وتجاذبنا أطراف الحديث . إنه يدعم ترشيح أحد أبناء الشريف (الحسين بن علي) ولا يرى حلاً آخر بديلاً له . وقد طلبت منه أن يجمع أكبر عدد ممن يؤيدون وجهة نظره هذه من الناس إذا ما أمكنه ذلك . وقد أكد لي في الحين ذاته أن توجهه لا ينبثق من معارضته للحكومة العراقية . وأنا بدوري لا أجد في موقفه هذا ما يدفع إلى التساؤل والتعجب في ضوء تجربته التي عاشها في

---

(١٤) أي عودته من جزيرة هنجام حيث تم نفيه مع مجموعة من رجالات العراق من بينهم جعفر الشبيبي وعارف السويدي ومحمد مصطفى الخليل ونوري فتاح بسبب نشاطاتهم الوطنية التي كان لها أثرها على السياقات الخاصة بثورة العشرين - المترجم

سوريا ، وبذلك فإن ما يكنه لنا من شعور بعدم الثقة ليس مثاراً للعجب ! أما نحن بدورنا فلا نطلب أكثر من تحقق إجماع (حول مرشح معين) وهو جانب تساورني الشكوك حول تحققه .

أما في الوقت الحاضر فإن السيد طالب دائب على ترويج فكرة مفادها بشكل صريح أنه سيصبح ملكاً على العراق بحلول الخريف .»

١٩٢١

«لقد انطلقنا في رحلتنا .» بهذه العبارة استهلت جيرتروود رسالتها المؤرخة في الرابع والعشرين من شهر شباط التي بدأت بها من على ظهر السفينة النهرية التي كانت تقلها من بغداد إلى البصرة في طريقها إلى القاهرة ، والتي راحت تواصل كتابتها بعد ذلك من على ظهر الباخرة هاردنج Hardinge . وكانت الرسالة موجهة إلى زوجة أبيها لأن أباها كان في طريقه إلى القاهرة من أجل لقائها . وكان السير برسي كوكس مصراً على ضرورة اصطحابها معه لحضور مؤتمر القاهرة ، وهو توجه حظي بتأييد من لدن السير إدغار بونهام كارتر . ثم تواصل جيرتروود رسالتها قائلة : «وهكذا تم بالنتيجة اصطحابي في هذه المهمة . ويشعر كل من جعفر باشا وساسون أفندي بالامتنان لدعوتهما إلى حضور المؤتمر . وعلى العكس من ذلك فإن السيد طالب غاضب بسبب استثنائه من الاشتراك مع المجموعة . وكنا جميعاً قد تناولنا طعام العشاء بصحبته عشية سفرنا ، وبسبب جلوسي بجنبه على مائدة العشاء توجب علي تولي مهمة تهدئة خاطره ، فبعد أن تناول عدداً من أقداح الوسكي مال ليهمس في أذني ، بنبرات تعكس شعوراً واضحاً بالحزن والأسى ، كيف أنه يجد فيّ أختاً عزيزة له ، وبأنه لم يُخفق أبداً في الالتزام بنصائحي ولم يساوره أدنى شك بأنني سنده الوحيد . أما من جانبي ، فإنني لم أستطع سوى تمتمة بعض عبارات المودة التي افتقرت إلى الدفء وإلى كل ما من شأنه أن يضفي على النفس شعوراً بالثقة والراحة وذلك انطلاقاً من قناعتي الراسخة بعدم إمكانية الإيفاء بطموحاته بأي شكل من الأشكال .

وكان الأسبوع المنصرم قد شهد بروز عنصر جديد على مسرح الأحداث في بلاد ما بين النهرين وهو وصول الضباط العراقيين الذين كانوا قد خدموا في سوريا والذين يقف في مقدمتهم نوري باشا سعيد زوج أخت جعفر . وعلى الرغم من أن جعفر كان من بين هؤلاء الضباط ، وأنه كان مدفوعاً بأعلى المثل وأنبل القيم ، إلا أنه يفتقر إلى الشدة والصلابة ، فهو بطبيعته رجل رخي البال ضخم البنية وشديد البدانة ، ميال إلى أخذ الأمور بسهولة وبساطة . إنه شخص دمث الأخلاق ، تعلو وجهه دائماً ابتسامة مشرقة ، سريع الاستجابة إلى من يبدي تجاهه شعوراً بالود والتعاطف ، وسريع الاطمئنان إلى الناس والوثوق بهم . ولعل ما يثير الدهشة في هذا الأمر هو كيف يمكن لرجل يتميز بهذه الصفات العقلية والبدنية أن يكون شديد الحماسة لما لديه من قناعات سياسية . إن تأثيره على الآخرين قليل ، بدليل

إخفاقه في إقناع العناصر الشبابية المتطرفة بسلامة نوايانا (تجاه البلد بوجه عام) وعلى نحو يماثل ما لديه شخصياً من قناعة بهذا الخصوص . أما نسيبه نوري باشا سعيد فشخص مختلف عنه تماماً ، فمنذ أن وقعت عليه عيناي للمرة الأولى - بقامته النحلية المشوقة ، ووجهه الصغير البارز ، وعينيه الرماديتين اللتين كانتا تستيقظان تدريجياً كلما استرسل في كلامه - شعرت بأننا نقف إزاء قوة تجمع بين الصلابة والهدوء في آن واحد ؛ إنها قوة يتعين علينا إما التعاون معها أو مجابهتها في صراع صعب نعجز فيه عن تحقيق نصر سهل وسريع». (١)

وفي اجتماع ضم كلاً من جيرتروود ، ونوري باشا ، وجعفر باشا والنقيب كلايتون والرائد مري ، بدأ نوري بالتحدث بحذر واحتراس في بادئ الأمر ، إلا أنه بدفع وتشجيع من لدن جيرتروود راح يطرح نقاط برنامجه التي تم مناقشتها بإسهاب ، وهي جوانب كان أهمها بالنسبة لجيرتروود ما يتعلق باختيار رئيس للدولة . ترى ما هي الخيارات التي كانت متاحة بهذا الصدد في ذلك الوقت؟ هذا ما راح بالتأكيد يراود مخيلة المجتمعين .

وتواصل جيرتروود رسالتها قائلة :«كان متردداً في بادئ الأمر مبدياً عدم رغبته في الإفصاح عن رأيه مخافة أن يؤدي ذلك إلى إثارة القوى المعارضة (وهو تلميح مبطن يتعلق بالسيد طالب) ، وقال إن الأمر ينبغي تركه للمجلس التأسيسي . وإزاء ذلك قلت له إنك تدرك جيداً أن عضوية المجلس سيقررها أفراد مثلي ومثلك ، وإنني على استعداد للإدلاء برأيي حول هذا الموضوع وعليك أنت بدورك أن تدلي برأيك كذلك . وإزاء ذلك عبر عن رأيه بشيء من الحذر قائلاً أن لا أحد غير فيصل يمكنه حكم العراق . وإزاء ذلك قلت له أن خياره هذا سيلقى مقاومة شرسة ناهيك عما يواكب هذه المقاومة من أوجه عدم الوضوح لاسيما بوجود عناصر موالية للأتراك وتوجهات تنصرف إلى تأييد فكرة تنصيب أمير تركي يعمل في ظل الانتداب البريطاني ، وفوق ذلك كله هناك شعور سائد بعدم الثقة في إقامة نظام حكم عربي حتى وإن تم ذلك في ظل انتداب بريطاني . وإزاء ذلك سألني نوري باشا

(١) صدقت جيرتروود في ما ذهبت إليه من رأي أثبت سياق الأحداث اللاحقة ما انطوى عليه من صدق ودقة . كان تعاون نوري باشا مع العناصر البريطانية ينطلق من إيمانه الثابت بأن ذلك إنما يصب أولاً وآخراً في مصلحة الوطن . وإثر تحوله عن هذا التعاون نتيجة إدراكه بعدم جدواه ، تحولت العلاقة إلى صراع خفي بالغ الأثر . وهناك شعور متنام بين العراقيين بأن نوري باشا كان وطنياً غيوراً ، وسياسياً نزيهاً ، وقائداً أميناً عمل لصالح العراق - المترجم

عن رأيي حول أفضل السبل الكفيلة بتجاوز هذه الصعاب فأخبرته أن الطريق الأفضل هو الانطلاق نحو إقامة نظام حكم عربي بقيادة أمير هو الآخر عربي أيضاً . وإثر ذلك أرسلناه (أي نوري باشا) لمقابلة السير برسي كوكس الذي تكلم معه بصراحة ووضوح تامين مؤكداً أن غاية ما يرغب (أي السير برسي) في السعي إليه هو ما من شأنه أن يضمن إقامة نظام حكم مستقر وأنه غير قادر على تحديد أي خطة بهذا الصدد قبل انعقاد مؤتمر القاهرة وعودته منه ، وعليه فقد طلب من نوري باشا عدم الانصراف إلى القيام بأية نشاطات دعائية إلا بعد عودته (أي عودة السير برسي) من القاهرة .

وإزاء ذلك سارع نوري باشا إلى الإعلان عن موافقته على ما طلبه السير برسي متعهداً بالإضافة إلى ذلك العمل على إقناع العناصر العربية الشابة بالالتزام بالهدوء ، فضلاً عن طمأنة بال كل الذين من المحتمل أن يعودوا من سوريا أثناء غياب السير برسي عن العراق ، الأمر الذي يعني وجوب تعليق كل النشاطات السياسية»

وفي الثاني عشر من آذار كتبت من القاهرة قائلة : «وصلنا يوم أمس . وكنت استلمت برقية من أبي أثناء توقفنا في ميناء عدن يعلمني فيها عن قدومه . يالها من بادرة رائعة من لدنه . آمل مخلصة أن تطول أعمال المؤتمر من أجل أن يوفر لنا وقتاً أكثر للبقاء معاً . وقد استقبلنا في المحطة حشد من الأصدقاء والزملاء كان على رأسهم ، توماس إدوارد لورنس الذي سررت برؤيته . وما أن وصلنا إلى فندق سميرأميس حتى اختليت بأبي في غرفتي على مدى ساعة من الزمن . بعد ذلك تم لي حديث طويل مع السيدة كليمنتاين تشرتشل (التي أصبحت فيما بعد اللادي تشرتشل) بينما اختلى السير برسي بتشرتشل . تصوري أن (العقيد) ولسون موجود هنا أيضاً ! إنه هنا لا لأغراض حضور جلسات المؤتمر بل باعتباره رئيساً لمجلس إدارة شركة النفط الأنجلو-فارسية The Anglo-Persian Oil Company[٢] . كان لقاؤنا ودياً ، إلا أننا لم نلتق بعد ذلك ، ولا أجد في نفسي رغبة في ذلك بأي حال من الأحوال . ويتعين علي الآن إنهاء هذه الرسالة بغية التوجه لحضور الجلسة الأولى للمؤتمر الذي سيشكل على ما أعتقد حدثاً بارزاً لسبب ما يتميز به من أهمية .»

* * *

(٢) الشركة التي أصبحت تعرف فيما بعد بشركة النفط الأنجلو - إيرانية والتي قام رئيس الحكومة الإيرانية الأسبق الدكتور محمد مصدق بمحاولة تأميمها وذلك في مطلع الخمسينيات من القرن الماضي ، وقد تم تأميم الشركة فعلاً إلا أن التجربة أُحبطت إثر فشل ثورة مصدق - المترجم

من بين القرارات التي اتخذت في مؤتمر القاهرة فيما يتعلق بالسياسة البريطانية في الشرق الأوسط ذلك الخاص بالموافقة على دعم ترشيح الأمير فيصل بن الحسين لتبوّئ عرش العراق . ولم تعمد جيرتروود (على ما يبدو) إلى كتابة أية رسائل أثناء انعقاد المؤتمر ، ويشهد يوم الخامس والعشرين من شهر آذار قيامها بالكتابة إلى كل من زوجة أبيها والعقيد بلفور .

«القاهرة - والدتي العزيزة - أجدني مدفوعة برغبة الكتابة إليك قبل مبارحتي القاهرة لأخبرك عن عظيم فرحتي بوجود أبي معنا هنا . كنت تواقة جداً لالتقاء أحد أفراد عائلتي ، إلا أن أبي حفظه الله قد استطاع أن يجمع في شخصه كل هؤلاء الأفراد ، وكانت عودته إلى الوطن بعد ذلك تجربة بغيضة شاء لها أن تلقي بي في غياهب فراغ رهيب لا أزال أعاني منه ، وبذلك فإن قرب عودتي إلى بغداد ، وما سيترتب على ذلك من انشغالنا جميعاً بالاضطلاع بمهام المرحلة المقبلة ، سيشكلان مصدر عزاء لي من شأنه أن يخففا من لوعة هذا الفراق .»

أما الرسالة الموجهة إلى العقيد بلفور فقد كتبتها من القطار أثناء رحلة العودة ، والتي قالت فيها : «عزيزي فرانك الحبيب - أكتب لك وأنا في طريق عودتي إلى بغداد لأُجيب على رسالتك التي وصلتني أثناء وجودي في القاهرة والتي يؤسفني جداً أن أدرك من خلالها أنك غير عائد للعمل معنا في العراق . والآن دعني أخبرك شيئاً عن المؤتمر الذي كان بحق حدثاً رائعاً تم لنا من خلاله ، وعلى مدى أربعة عشر يوماً ، تغطية كم كبير من العمل يربو حجمه على ما يتم تغطيته اعتيادياً في خلال عام من الزمن . وكان تشرتشل يتصرف بشكل يثير الإعجاب ، فقد كان على استعداد للتسامح مع كل الأطراف ، مبدياً في الحين ذاته حكمة وكفاية منقطعتي النظير لا في إدارة دفة الجلسات السياسية الكبيرة فحسب بل حتى في إدارة وتوجيه سير أعمال اللجان السياسية الصغيرة التي شكلها المؤتمر والتي تم توزيع العمل والعاملين عليها .وقد شاء حسن الحظ أن يأتي ما تم لي وللسير برسي طرحه من أفكار وصيغ للعمل منسجماً مع ما حمله وزير الدولة (أي تشرشل) في جعبته . وإننا الآن في طريقنا إلى بغداد لتسوية الأمر مع النقيب (أي السيد عبد الرحمن) ومحاولة إقناع السيد طالب ، إن كان في المكان إقناعه ، بأن آماله وأمانيه لن تكلل بالنجاح . ويراودني شعور أكيد بأن الرأي العام السائد (في العراق) سيكون في صالحنا مما يبدد أية شكوك حول نجاح مساعينا .

وقد جاء أبي لزيارتي فأمضينا معاً أسبوعاً رائعاً . ويؤسفني القول أنني لن أتمكن من رؤيته قبل انقضاء عام من الزمن على الأقل إذ لن يكون بمقدوري ترك بغداد في صيف هذا العام بسبب ما سيتطلبه وصول أميرنا (أي الأمير فيصل بن الحسين) من مهام وما سيترتب

على ذلك من مسؤوليات وتوجيه وهو جانب لا يسعني تركه من غير انصرافي التام إلى القيام بكل ما بوسعي تقديمه من أوجه الدعم والعون . ولن أكون مبالغة ياعزيزي فرانك إذا ما قلت لك إن عملنا سيكون ممتعاً للغاية ، وإذا ما كُتب لنا النجاح فسنكون قد حققنا إنجازاً رائعاً من شأنه أن يكون مثالاً يُحتذى به .»

وفي أثناء رحلة عودتها إلى العراق على ظهر الباخرة هاردنج ، كتبت إلى أبيها قائلة :

«إن كل فرد (من بين الذين حضروا مؤتمر القاهرة) يبدو أكثر انشراحاً وتفاؤلاً في رحلة الإياب مما كان عليه في أثناء رحلة الذهاب ، ولا أجد ثمة ما يثير قلقي ويتسبب بإزعاجي سوى شعوري بانعدام الانسجام بين رئيسي (أي برسي كوكس) والجنرال آيرونسايد General Ironside لما للأخير هذا من دور أساسي وحيوي في إطار تطبيق برنامجنا المرتقب والمتعلق بالوعد الذي قطعناه على أنفسنا وذلك بخصوص تولي أمر المخافر الحدودية الواقعة في المرتفعات الشمالية والشرقية لمنطقة الموصل ، والعمل على إمدادها بما تحتاج من أفراد من المزمع تجنيدهم من بين العناصر الكردية ، والذين لا وجود لهم حالياً ، لن يكون لهم وجود إلا بعد أن يقوم الجنرال سالف الذكر باتخاذ ما يقتضيه الأمر من إجراءات . ولابد لي القول بصراحة أن المهمة في غاية الصعوبة ، إن لم أقل مستحيلة ، وأن تحقيقها لا يتم إلا بفضل الجنرال آيرونسايد . ومن أجل أن يتمكن الأخير هذا من القيام بما ينبغي له بهذا الصدد يتعين على السير برسي الانصراف إلى التعاون معه وتذليل كل العقبات التي تقف في سبيل تحقيق ذلك ، إلا أن بوادر قيام السير برسي بذلك لا وجود لها بالمرة .إن رئيسي السير برسي رجل ليس من السهل التعامل معه ، فهو لا يطيق أية صيغة من صيغ المعارضة ، اللهم إلا في حال تم إخفاؤها وسترها بصورة ذكية ، كما أنه يهوى توجيه دفة الأمور ، سواء كان على معرفة بها أم لم يكن ، وعليه ستشهد الأيام المقبلة على ما أتوقع اندلاع مناوشات عنيفة بين هذين الرجلين ، وآمل مخلصة بهذا الصدد أن يكون النجاح حليف الجنرال آيرونسايد . وإذا ما شاء مناقشة الأمور معي على نحو ما تم له يوم أمس فسأحاول جاهدة تذليل ما يمكنني تذليله من عقبات وتهدئة ما يمكنني تهدئته من الخواطر ، بيد أن الجنرال هذا ليس من النوع الذي يهوى التحدث عن الأمور ومناقشتها إلا في حال وجد في نفسه ميلاً إلى ذلك ، وعليه فإن حديثه معي يوم أمس أثار دهشتي . وعلى السير برسي التنازل عن موقفه ، إلا أن ذلك يعني أنه سيحاول التخلص من الورطة بالحيلة والدهاء وهو نهج لا يليق به ولا بغيره بأي حال من الأحوال» .

* * *

وفي الثاني عشر من نيسان كتبت جيرتروود من بغداد قائلة : «بعد أن يئس السيد طالب من إمكانية تحقيق مآربه بشكل مباشر ، فإنه يقوم الآن بالدعوة إلى ترشيح النقيب لإمارة العراق بأمل أن يرث العرش عنه بعد وفاته . وتحقيقاً لهذا الهدف ، فإنه قام أثناء غيابنا عن العراق بجولة واسعة في أرجاء البلاد عمد من خلالها إلى إقامة حفلات استقبال باذخة راح يشيد من خلالها ، وبلغة مبطنة ، بمناقب السيد عبد الرحمن النقيب أمام جماهير مستمعيه ، إلا أن خطبه لم تلق آذاناً صاغية ، فقد سئمت منطقة الفرات الأوسط أبواق النذر وأصوات التحذير ، وخيم عليها جو من الكآبة والغم إثر فشل ثورتها ، كما أن الحلة والمناطق المجاورة لها ترغب في حكم بريطاني مباشر إذا ما قدر أن يكون لها الحق في ممارسة التعبير عن رغبتها . ولابد أن نستذكر بهذا الصدد بأن أهالي هذه المناطق لربما يظنون بأننا راغبون في ذلك (أي حكم بريطاني مباشر) وبأن تولي أحد أبناء الشريف حسين عرش العراق يمثل آخر خيار نرغب في اعتماده .(ولعلهم على حق في ظنهم هذا !) ألم يطالبونا بهذا الخيار في العام المنصرم ولم يلقوا منا سوى التعنيف والعقاب؟ إن رغبتهم هذه على ما أرى تمثل تعبيراً صادقاً عن عدم كفاية تفكيرهم المنطقي ، الأمر الذي يضع بصماته الواضحة على قدرتهم في التعبير عن مكنون أفكارهم . أما في بغداد ، فإن الساحة هناك تشهد وجود اعتبارات أخرى ، فأعيان المدينة ، وأبناء الأسر المتنفذة ، استئثاريون وبذلك فإنهم يرفضون فكرة قيام العناصر الشبابية التي لا ينتمي أغلب أفرادها إلى البيوتات المعروفة ، والتي قدر أن تمارس الهيمنة على سوريا إبان حكم الملك فيصل هناك ، بالسيطرة على مجريات الأحداث ومقاليد الأمور في العراق . إن ما لدى هؤلاء الأعيان من أفكار لا ينسجم مع ما تحمله هذه العناصر الشابة من أفكار تقدمية ، وما تعمد إلى التعبير عنه بوضوح وصراحة من تطلعات ، وتهدف إلى تحقيقه من رغبة تنصرف إلى دفع هؤلاء المحافظين والرجعيين بعيداً عن دائرة الأضواء . وعلى الرغم من أن هذه العناصر محقة في توجهها هذا ، إلا أنه توجه لا يجعلها قريبة من قلوب أصحاب المنافع والمصالح المكتسبة . وبذلك نجد أن هؤلاء الأعيان يرحبون بفكرة ترشيح النقيب لرئاسة البلاد متعامين في الحين ذاته عن احتمال أن يخلفه السيد طالب في تولي العرش .

وهكذا وجدنا أن حزب النقيب الذي لم يكن له وجود قبل سفرنا إلى القاهرة قد نما وبات له وجود حقيقي ، ومع ذلك فإن الغالبية العظمى من أبناء الشعب ، بما في ذلك أبناء بغداد ، يفضلون التروي بانتظار ما ستؤول إليه الأمور ويرغبون في استقراء نوايانا قبل الإعلان عن مواقفهم .»

وفي السابع من نيسان كتبت تقول: «يتردد كل من ناجي (السويدي) ونوري (السعيد) وجعفر (العسكري) على مكتبي، ولقد قام ناجي ونوري (في مناسبة) بتعريفي بالرجل الذي كان قد وقع عليه اختيارهما من أجل النهوض بأعباء جريدة تنصرف إلى خدمة مصالح حملتهما. وكان السيد طالب قد أرجأ منح الامتياز الخاص بتأسيس الجريدة المذكورة إلى ما بعد الانتخابات. وبما أن موافقة السيد طالب (بوصفه وزيراً للداخلية) لا تعتبر ضرورية من الناحية القانونية فقد عهد السير برسي إلي بمهمة اتخاذ ما يلزم للبدء بنشاط الجريدة.

تتوالى البرقيات الموجهة إلى ملك الحجاز والتي يرجو مرسلوها منه الموافقة على إرسال أحد أبنائه.

ويعمد السير برسي بهذا الصدد إلى تسهيل إرسال هذه البرقيات بواسطة أجهزة اللاسلكي إذ لا يجرؤ أنصار الشريف فيصل على إرسالها بالطرق الاعتيادية مخافة أن يقوم السيد طالب باعتراض سبيلها بحجة تطبيق التعليمات والأنظمة الخاصة بمراقبة المطبوعات. وتشير كل هذه الإجراءات والممارسات إلى صعوبة إجراء «انتخابات حرة» عندما يكون أحد الأطراف المعنية بها في موقع (حكومي) رفيع الأمر الذي يجعلني على قناعة تامة بضرورة أن يصار إلى تعليق (نشاط) الحكومة العربية حال وصول فيصل إلى مسرح الأحداث وإلى ما بعد انتهاء الانتخابات.

يمر السيد طالب عموماً بحالة انفعال وغضب شديدين ولكنها تقف في منأى عن التأثير على أواصر العلاقة التي تربط أحدنا بالآخر، إذ يحاول كلانا إدامة غطاء متواصل من الصفاء والود. إلا أنه سرعان ما كشف عن حقيقة ما كان يجول في فكره في أثناء مأدبة عشاء كان قد أقامها في داره على شرف السيد لاندون Mr. Landon مراسل جريدة الديلي تليغراف The Daily Telegraph وهي مناسبة حضرها عدد من الشخصيات المعروفة كان من بينها السيد تود وزوجته ولفيف من البريطانيين بالإضافة إلى شخصيتين عربيتين بارزتين هما كل من أمير ربيعة والشيخ سالم الخيون[٣] وما أن انتهى المدعوّون من تناول طعام العشاء

---

(٣) الشيخ سالم الخيون هو شيخ قبيلة بني أسد التي يقع مقرها في الجبايش في منطقة الأهوار الجنوبية، وتقع الجبايش بين محافظتي ذي قار (الناصرية سابقاً) والبصرة. وكان الشيخ سالم الخيون من الشخصيات البارزة المعروفة بمعارضتها للوجود البريطاني في العراق - المترجم

حتى نهض السيد طالب وألقى كلمة بدا من الواضح أنها قد أعدت بعناية سلفاً ، وقد أعلن فيها عن ارتياحه التام من المندوب السامي ، والسياسة التي تنتهجها الحكومة البريطانية في العراق ، ولكنه أشار في الحين ذاته إلى وجود مجموعة من المسؤولين البريطانيين من بين حشم فخامة المندوب السامي عرفت بتحيزها وانصرافها إلى ممارسة نفوذ غير مشروع (لصالح طرف معين) متسائلاً في الحين ذاته ما إذا ينصحه السيد لاندون بالتماس جلالة الملك جورج ، أو السير برسي ، لغرض نقلهم من مواقعهم الوظيفية . وإزاء هذا التساؤل أجابه السيد لاندون بذكاء ما مفاده أنه يدرك من جانب آخر وجود مسؤولين بريطانيين معروفين بتأييدهم لطرف آخر ! فهل يرغب السيد طالب بنقلهم أيضاً ؟ وهنا همس السيد حسين أفنان الذي كان يتولى مهمة الترجمة بضع كلمات في أذن السيد طالب قائلاً :«لقد أصاب هدفه ، ونال مأربه منا ! »وهنا زمجر السيد طالب ولم يعلق على الأمر ، إلا أنه سرعان ما أردف قائلاً : «في حال تمت أية محاولة باتجاه التأثير على سير الانتخابات فإنها لن تمر بسلام إذ سيقف أمير ربيعة مدعوماً بثلاثين ألف بندقية ، كما سينهض الشيخ سالم الخيون بكل رجاله ، لتسوية الأمر .» (ملاحظة : إن كلا الشخصين آنفي الذكر يناصبان طالباً العداء ، إلا إن غروره وشدة إعجابه بنفسه يحولان دون تمكنه من التمييز بين الأنصار والمناوئين .) ثم يواصل القول : «سوف يلجأ النقيب إلى (عالم) الإسلام ، ويناشد أهل الهند وأهل مصر ، ويتوجه بندائه إلى القسطنطينية وباريس» (كذا) . إنه تحريض سافر على العصيان ، لا يقل إثماً عن عبارات التحريض والإثارة التي أشعلت نار الفتنة في البلاد في العام الماضي ، ولايبتعد كثيراً عن إعلان الجهاد . ولايبدو أمراً يخرج عن حدود المعقول أن يؤدي انصراف السيد طالب إلى مواصلة حملته الانتخابية بهذه الحدة والحماسة إلى دخوله السجن .»

وفي أقل من خمس دقائق ثبتت صحة نبوءة جيرتروود وذلك من خلال ما أوردته في ذات الرسالة إذ تقول : «أثناء كتابتي الرسالة هذه دخل علي النقيب كلايتون ليطلعني على خبر في غاية الأهمية : تم إلقاء القبض على السيد طالب وأرسل مخفوراً إلى الفاو . وهكذا قام السير برسي بوخز الفقاعة وتفجيرها ، ويمكن القول أن الخبر المتعلق بكلمة السيد طالب آنفة الذكر والذي كنت قد نقلته إلى السير برسي صباح هذا اليوم كان بمثابة الدبوس الذي تم به تفجير الفقاعة . ولابد لي أن أقص عليكم التفاصيل المتعلقة بهذا الخبر : بعد أن قمت بإبلاغ السير برسي بكل ما حدث (أي التفاصيل الخاصة بدعوة السيد طالب وكلمته الموجهة إلى مدعويه)لم أره طيلة ذلك اليوم . وفي الساعة الرابعة والنصف من عصر ذلك

اليوم ذهب السيد طالب لتناول الشاي مع اللادي كوكس تلبية لدعوتها ، وكان هناك عدد من الأشخاص من بينهم الرائد بوفل Major Bovil . أما أنا فلم أحضر المناسبة بسبب انشغالي بمهمة كان علي إنجازها . وبعد مرور نصف ساعة طل علي السيد طالب مودعاً - كان وداعاً بحق ! وكان الرائد بوفل - الذي لابد أن يكون قد انسل من الحفل بسرعة - قد تصدى للسيد طالب قرب الجسر ، وبعد أن أعلن عن أسفه لاضطراره إلى إلقاء القبض عليه تنفيذاً لأوامر صدرت إليه بهذا الصدد اصطحبه إلى شاطئ النهر ونقله إلى القارب النهري الخاص بالقائد الأعلى للجيش الذي انطلق به إلى الكوت حيث سيتم نقله بسفينة نهرية خاصة إلى البصرة ومنها إلى الفاو لم يعلم أحد بتفاصيل ما جرى ، وإنني سعيدة لأنني لم أكن على علم بما حدث إذ أن ذلك قد جنبني لقاءً مع طالب يوم أمس لو قدر له أن يتم لكانت مهمة في غاية الصعوبة .

رباه ! كم سعيدة أنا إزاء قيامي برفع تقرير مفصل عن كلمة السيد طالب آنفة الذكر ! وكنت قد أُخبرت بتفاصيل ما حدث من قبل السيد تود أولاً ومن قبل المحتفى به ، السيد لاندون ، ثانياً . ألم يسبق لي القول أن لا وجود لمن يمكنه أن يضاهي السير برسي كوكس في معالجة مشكلة سياسية في غاية الدقة ؟

أشعـــــر بأن عبئاً ثقيلاً قد أُزيح عن بالي . لا شيء أبداً يثني طالباً عن القيام بما يريد ، فقـــد تم له جمـــع ذات العصبة من القتلة السفاحين التي كان يسخرها لتنفيذ خططه وخدمة أهوائه في البصرة إبان الحكم التركي ، وكان قد اصطحب معه من البصرة مؤخراً رجلاً اشتهر بأنه الشخص الذي قتل قائداً تركياً تنفيذاً لأوامر السيد طالب ذاته (وهو ما يشكل الحلقة الأشد إثارة في إطار سيرته .) وكنت أضفت هذه المعلومة بالذات إلى مضمون تقريري الذي رفعته إلى السير برسي يوم أمس بهدف تحذيره من احتمال قيام السيد طالب بمحاولة اغتيال فيصل في حال قدم الأخير إلى العراق ، وهو احتمال يكاد يكون مؤكـــداً .

إنها نتيجة حسنة ، فقد نفد صبر السير برسي من كثر ما تناهى إلى سمعه من أخبار حماقات السيد طالب وما اعتاد الأخير هذا من الانصراف إلى انتهاجه من طرق ملتوية . وقد عمد السير برسي كوكس بعد ذلك إلى إعطاء التفاصيل المتعلقة بكلمة السيد طالب إلى مراسل إحدى الصحف اللندنية ، وذلك بحضور القنصلين الفرنسي والإيراني الأمر الذي يشكل ممارسة دعائية مشهودة . ويمثل هذا الحدث الإجراء الأخير في عملية فك خيوط مؤامرة الأذى والأضرار التي حاكها العقيد ولسون ، إذ لا يعلم أحد ما كان قدمه لطالب من

وعود عندما سمح بعودته إلى العراق.»(٤)

وفي الخامس والعشرين من نيسان كتبت جيرتروود قائلة : «لم ينطلق صوت واحد

(٤) في إطار ما يمكن أن يفهم ضمناً من ملاحظة جيرتروود الأخيرة هذه أجد ضرورة في التوقف هنا وهلة للنظر في بعض الجوانب المتعلقة بالسيد طالب باشا وذلك من خلال استعراض موجز للسياق الخاص بعلاقته مع الجهات البريطانية . يمكن القول أن السيد طالب باشا كان عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى الشخصية الأقوى في البصرة ، كما أنه كان على صلة وثيقة بالبريطانيين شأنه بذلك شأن كل من الشيخ مبارك الصباح في الكويت والشيخ خزعل في المحمرة . وكانت بريطانيا من جانبها تأمل في تعاونه معها مثلما تعاون معها كل من شيخ الكويت وشيخ المحمرة سالفي الذكر الأمر الذي دفعها إلى محاولة التوصل إلى تفاهم معه إلا أن جهودها باءت بالفشل على ما بدا . ولابد من القول بهذا الصدد أن المراجع تفتقر إلى معلومات دقيقة وموثوق بها توضح هذا الجانب وتبين بتجرد وأمانة ما دار بين الجانبين (طالب والبريطانين) من حوار . ففي كتابه الموسوم «الولاءات : بلاد ما بين النهرين ١٩١٤ -١٩١٧ » (أي الجزء الأول من عمله الشهير) يقو العقيد ولسون «إن السيد طالب ، الذي ينتمي إلى أعرق عائلة سنية في مناطق شط العرب ، قد دخل في مفاوضات معنا من خلال شيخ المحمرة ، إلا أن طموحاته كانت شخصية جداً إلى الحد الذي حال دون التمكن من القبول بها كأساس للحوار ، ومن ثم رحل إلى أواسط شبه جزيرة العرب . وبعد انتهاء الحرب فضل الانزواء في جزيرة سيلان . وفي عام ١٩١٧ انتقل إلى مصر ليعود إلى البصرة في شباط من عام ١٩٢٠ . ومن جانب آخر نجد أن السيد سليمان فيضي المعروف بصداقته وولائه للسيد طالب ، يذكر في كتابه الموسوم «مذكرات سليمان فيضي في عمرة النضال» أن البريطانيين تعهدوا بتنصيب السيد طالب حاكماً على البصرة بالإضافة إلى منحه امتيازات خاصة به وبعائلته ،لقاء قيامه بمساعدتهم في احتلال البصرة . إلا أن العرض البريطاني قوبل بالرفض من جانب السيد طالب بدعوى أن البلاد العربية تروم الاستقلال إثر تخلصها من نير الحكم التركي وبذلك فإنه طالب البريطانيين بضرورة المساعدة في مجال إقامة دولة دستورية مستقلة في العراق ، وهي دولة لا بأس أن تكون تحت الحماية البريطانية . وقد رفضت بريطانيا ما اقترحه عليها طالب باشا الأمر الذي أدى إلى انقطاع المفاوضات بين الجانبين لاسيما في ضوء تهديد طالب باشا باحتمال عودته إلى الحضيرة التركية في حال أخفقت بريطانيا في النزول عند رغباته . وبصرف النظر عن الاختلاف في الرأي حول الأسباب الحقيقية للخلاف بين السيد طالب والبريطانيين ، فإن السيد طالب كان مغضوباً عليه من قبل السلطات البريطانية . أما بعد أن وضعت الحرب أوزارها في عام ١٩١٨ ، وفي أواخر عام ١٩١٩ ، فإنه بدأ يناشد السلطات البريطانية من أجل السماح له بالعودة إلى الوطن ، وهو جانب يشرحه بوضوح الأستاذ الدكتور غسان العطية في كتابه العلمي الموسوم «العراق ١٩٠٨ - ١٩٢١ : دراسة اجتماعية سياسية» ==

احتجاجاً على «الانقلاب» الذي نفذه السير برسي (ضد السيد طالب) بل على العكس من ذلك تماماً فقد تنفست البلاد الصعداء نتيجة اختفائه ، ولعل ما يلفت الانتباه ، ولا يخلو من

== (بيروت - ١٩٧٣) ، إلا أن طلبه رفض في البداية بحجة «عدم توفر المجال المجدي للاستفادة من خدماته في الوقت الحاضر .» وقد عاود المناشدة مرة أخرى طالباً السماح له بالعودة إلى البصرة ، معززاً طلبه هذا بتعهد خطي يعد بموجبه بذل أقصى ما يستطيع لخدمة المصالح البريطانية . وإثر إحالة الطلب هذا إلى العقيد ولسون للنظر فيه ، وذلك في شهر تشرين الأول من عام ١٩١٩ ، تردد في الموافقة على الطلب في بادئ الأمر إلا أنه وافق أخيراً بشرط التزام السيد طالب بعدم الاشتراك في النشاطات السياسية .

وفي الثامن من شباط من عام ١٩٢٠ عاد السيد طالب من منفاه في البصرة . وإثر زيارة قصيرة له إلى بغداد ، بدأ ولسون على ما بدا يعيد النظر في رأيه الأول عن السيد طالب ومع ذلك ظل ينظر إليه بوصفه «شخصاً يصعب تلاؤمه مع واقع المؤسسات التمثيلية المحلية .»

يتضح من ذلك أن العقيد ولسون لم يكن بوجه عام ميالاً في بادئ الأمر إلى منح السيد طالب الفرصة للقيام بدور فاعل وهو على عكس ما تنوه عنه الآنسة بيل بهذا الخصوص ، إلا أن الظروف وسياق الأحداث قد أجبراه على مراجعة موقفه وهو جانب يجد تأييداً ضمنياً من خلال ما ورد في رسالة الآنسة جيرترورد والمؤرخة في ١٩٢٠/٧/١١ (يرجى مراجعة الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب) والتي تقول فيها «إن فرانك بالفور يصر على عودة السيد طالب للاشتراك في النشاطات الرامية إلى تشكيل المجلس التأسيسي» ، وهي دعوة لقيت تأييداً من جيرترورد ذاتها .

أما في رسالتها المؤرخة في ١٩٢٠/١٠/١٠ (يرجى الرجوع إلى الفصل الخامس عشر من هذا الكتاب) نجد أنها تقول صراحة أن العقيد ولسون كان يميل كلياً إلى تأييد السيد طالب غير أبه بما إذا كان الأخير يحظى بقبول عموم الناس أو رفضهم . ولا بد من القول أن مثل هذا الاتهام لا يخلو من تجن واضح ، إلى جانب كونه رأياً غير منصف ، إذ برغم كل ما أبداه ولسون من تحفظ إزاء دخول السيد طالب إلى المعترك السياسي ، فإن ما تميز به الأخير هذا من همة ونشاط وطموح ، ناهيك عما كان له من حضور مؤثر ، أدى في الواقع إلى تحقق تحول في رأي السلطات البريطانية حول اشتراكه في النشاطات السياسية إذ سرعان ما تم تفسير الشرط الخاص بعدم اشتراك السيد طالب في النشاطات أنفة الذكر بأنه يعني عدم التمتع بتأييد الإدارة البريطانية . وقد شاءت الظروف أن تسنح الفرصة لدخول طالب إلى معترك العمل السياسي عندما راح موقف الإدارة البريطانية في العراق يشهد تراجعاً ملحوظاً في كل الاتجاهات وذلك إزاء مواقف العناصر الوطنية الأمر الذي جعل هذه الإدارة في حاجة ماسة إلى إيجاد وزن مقابل للنفوذ المتزايد للعناصر أنفة الذكر وهو ما وجدته في شخص السيد طالب .

وعلى الرغم من أن ولسون كان على بينة تامة من طبيعة السيد طالب وسيرته ، إلا انه دعاه إلى بغداد في ==

غرابة في الحين ذاته ، ذلك النجاح الباهر الذي حققه السير برسي نتيجة إجرائه هذا ، ويشكل الإعجاب بشجاعته الشعور السائد بين الناس بوجه عام ، ولعل ما حققه هرقل الجبار من نصر مبين في مضمار التغلب على الوحوش الكاسرة وتدميرها لم يحظ في حينه بمثل ما حظي به السير برسي من تقدير واستحسان . ولابد من القول أن ما يعتبر أمراً غير معقول هو أن يبدو السيد طالب للجميع بصورة شرير غاشم ، إذ أنه لم يكن في الواقع ذلك الشخص المهيب والمرعب الذي تصوره الجميع ، ومن جانب آخر فإن غروره وزهوه قد جعلا منه شخصاً واهناً يفتقر إلى المنعة ويسهل أذاه بالانتقاد . ومع ذلك فهو شخص ممتلئ نشاطاً وحيوية برغم كل الرذائل الموهنة كتعاطي المشروبات والمخدرات (كذا) ، وإلى غير ذلك من المساوئ . ومنذ أفول نجمه تمكنا من تعقب خيوط شبكة للكيد والابتزاز ، ونشاط محموم لا يعرف الهدوء في مجال التحايل من أجل الحصول على الدعم المالي المباشر ، مع كل ما يترتب على ذلك بالنتيجة من دعم سياسي - لقد تمكن من الحصول على الأموال وإنفاقها وبذلك يكون قد حقق بعض المنفعة ، أما الوعود المقطوعة فلم تكن تساوي حتى ما نفث من نفس في سبيل إخراجها فضلاً عن أن الذين قطعوها على أنفسهم سارعوا إلى إنكارها(٥) يا لسيد طالب المسكين! حتى هو بالذات يمكنه أن ينعم ببعض الراحة في إطار ذلك الجو الهادئ لجزيرة سيلان الذي فرض عليه في أعقاب ما شهدته الأشهر القليلة الأخيرة من

= الخامس والعشرين من شهر تموز من عام ١٩٢٠ للاشتراك في تشكيل اللجنة الانتخابية وهو أمر اعتبره السيد طالب بدوره بمثابة اعتراف متأخر من جانب السلطات البريطانية بقدراته وحاجتها الماسة لخدماته . وبذلك فإن عودة السيد طالب إلى مسرح الأحداث إنما تحققت بفضل قدراته ومواقفه المعلنة (بما في ذلك تعهده العمل لمصلحة السلطات البريطانية) ووجود الحاجة الماسة للتعاون معه ، لا بسبب مؤامرة قام ولسون بتدبيرها عمداً وهو اتهام من البديهي أن جيرترود قد أطلقته بدافع ما كانت تكن لرئيسها السابق ولسون من شعور بعدم الود - المترجم .

(٥) لابد من وقفة أخرى في هذا المجال أيضاً للقول أن ما ورد في هذا الصدد عن السيد طالب باشا النقيب هو ترجمة دقيقة لما عبرت عنه الآنسة بيل . ولابد من القول أن المصادر العربية المعاصرة ، المؤيدة منها لتحركات وتوجهات ومطامع السيد طالب أو المناوئة لها على حد سواء ، لا تذكر هذه «الرذائل» لا سيما تعاطي المخدرات في إطار تناولها سيرة السيد طالب . وليس غريباً على الآنسة بيل أن تستخفها الحمية فتطلق لمخيلتها العنان لتخرج بمبالغات أو تحريف للحقائق ، ومع ذلك فأمام الباحثين والمهتمين مجال واسع للبحث والاستقصاء بهدف التوصل إلى الحقائق ووضع الأمور في نصابها الصحيح - المترجم

نشاطات ومكائد محمومة . لا أظنني قد التقيت شخصاً آخراً مثل طالب لا هم له إلا ذاته ، فلا أثر في نفسه لهاجس يتعلق بالمثل العليا ولا هم لديه سوى العمل على تحقيق تقدمه وخدمة مصالحه الشخصية ، وكانت ذاته شغله الشاغل ولا مشغولية لديه سواها . وبذلك لا أكاد أفهم كيف لا يخطر شيء من ذلك على بال مستشاره السيد فلبي الذي أزعجه كثيراً ما حدث للسيد طالب ، ولا يزال يزعجه في الواقع ، وعلى مدى أسبوع من الزمن ظل يلاحقني بعتابه على ما حدث فلم أجد بداً من الدخول معه في حديث صريح وأمين ، من القلب إلى القلب ، أجبرته من خلاله في النهاية على الاعتراف بأنني في كل الأحوال لم أفعل أكثر مما كان يتعين علي القيام به . إنه لن يخاصم السير برسي (بسبب ما حدث) كما لن أدعه يخاصمني ، وهو ما تمكنت من تفاديه على ما أعتقد ، أما أمر تواصل بقائه في العراق في حال تم (للعراقيين) انتخاب فيصل ملكاً فجانب لا أدركه .

في الأسبوع الماضي ، جاءنا الرائد دتجبورن Major Ditchburn من الناصرية على رأس جماعة من الشيوخ . إنه يعيش فترة في غاية الصعوبة بسبب التصرف الرديء لمشايخ منطقة سوق الشيوخ ومقدميها والذي يمثل الحالة التي أعقبت إعلان حالة الطوارئ الذي كان في حينه إجراءً حتمياً أثناء فترة الاضطرابات[٦] (كذا) . وبما أن المشايخ سالفي الذكر لم يشقوا عصا الطاعة في حينه فإنهم لم يعاقبوا ويجردوا من السلاح وبذلك تجدهم اليوم يعودون إلى ما اعتادوا عليه بشكل عام من استباحة للقانون وخروج على الشرع . ولقد دعوت الرائد دتجبورن لتناول العشاء معي ومع مجموعة من الأصحاب في محاولة لصرف ذهنه عن ما يعانيه من مشاكل . ولابد من القول إن ثمة مسؤولية ثقيلة تقع على عاتق هذه العناصر الشابة (أي الضباط والسياسيون ومعاونوهم) التي يلقى بها في القفار والأراضي اليباب والتي لا يتم تسليحها بأكثر مما تتمكن من فرضه شخصياً من سيطرة ونفوذ .

قمت اليوم بتصفح القوائم الخاصة (بالمشمولين) بالعفو العام بالإضافة إلى مقابلة مختلف الأشخاص والاستماع إلى ما يدور من أحداث ويتم تناقله من كلام ، إلى جانب حضور سريع تلبية لدعوة أقيمت بمناسبة عقد قران أحد إخوة زيا طباخي الخاص - كان حضوراً خاطفاً لم يستغرق أكثر من نصف ساعة لمناسبة لم أشهد مثيلاً لها من قبل لكثرة ما

(٦) تواصل الآنسة بيل بإصرار وعند تسمية ثورة العشرين بـ «الاضطرابات» تارة و «التمرد» أو «العصيان» تارة أخرى متجاهلة عن قصد ، بل رافضة تماماً الاعتراف بواقع أن هذه الثورة كانت من بين العوامل المباشرة الأساس إن لم تكن في الواقع العامل الأساس ، لقيام الدولة العراقية وتأسيس حكومتها - المترجم

جمعت من الأشخاص البدن الذين احتشدوا بعضهم مع البعض الآخر . بعد ذلك كان لي حديث هادئ مع السيد ناجي السويدي .»

وفي الثاني من أيار كتبت الآنسة بيل تقول : «انطلق السيد فلبي في جولة تفقدية في أرجاء الموصل ، وكان آخر لقاء لي معه قبل عشرة أيام . انه لا يزال غاضباً بسبب ما حل بالسيد طالب على ما أعتقد . سأشعر بالأسف إذا ما رحل عن العراق ، ولكن بقاءه لن يكون مجدياً في حال تواصل ما يدور في نفسه من شعور دفين بالعداء ضد الحكومة القائمة .»

وفي الثامن من أيار كتبت تقول : «أقام السير برسي عصر يوم الخميس حفلاً في حدائق منزله دعا إليه ما يقرب من أربعمائة شخص . وقد قمت بالاشتراك مع نواب مكتبنا ، بالإشراف على ما يتعين إجراؤه من ترتيبات بما في ذلك الموقع الذي ينبغي للسير برسي الوقوف فيه ، وكيف يتم مد السجاد وإلى غير ذلك من الإجراءات . وكان السير برسي مسروراً من ما قمنا به من جهود تنظيمية ، أما زوجته فقد شاءت الإعراب عن أسفها لعدم قيامنا بالإيعاز إلى الأشخاص المعنيين بغسل الأشجار التي كان الغبار يكسو أوراقها وجذوعها ! وإزاء هذه الملاحظة وجدتني مدفوعة برغبة قوية إلى القول بأن الفضل الأكبر في كل ما تعلق بتنظيم الدعوة ونجاحها إنما يعود إلى ما بذلته أنا شخصياً وما بذله النواب بدوره من جهود مضنية ، ولكنني أحجمت عن ذلك ! إن جل ما قامت به اللادي كوكس هو الإيعاز بنقل القسم الأكبر من الكراسي إلى موقع في الحديقة جعلها عرضة لأشعة الشمس الملتهبة بحيث تعذر الجلوس عليها ! وقد سارعت بدوري ، وبطريقة لا تستلفت الانتباه ، إلى نقلها تدريجياً إلى حيث تم ترتيبها أساساً ! وعلى الرغم من انعدام أي دور لهذه السيدة في الجوانب التنظيمية الخاصة بمثل هذه المناسبات ، إلا أنها تتمتع بالعديد من المزايا السلبية إلى جانب مزية إيجابية واحدة تتمثل بما تكنه لي من شعور يزخر بالمودة .

وشهدت المحاكم نهار السبت احتفالاً خطابياً مهيباً تتوج بدعوة لتناول الشاي وذلك بمناسبة انتهاء خدمات السير إدغار بونهام كارتر[٧] هناك شعور عام بالحزن على فراق السير

---

(٧) شاء حسن الطالع أن يكون المقدم فوكس - Lt.Colonel Knox أحد محامي المحاكم العلياBarriste-at-Law وعضو الدائرة السياسية الهندية Indian Political Departmentوقاضي ذي خبرة واسعة - أول من ترأس الجانب القضائي ، أو العدلي ، وأن يخلفه في منصبه هذا السير إدغار بونهام كارتر سالف الذكر ، وهو الرجل الذي ذاع صيته وعظم نفوذه بفضل ما تمكن من فرضه من هيبة واحترام ، والذي نجح في إقامة نظام تشريعي على أسس قويمة وهو نظام قدر له أن يصمد أمام تجارب الزمن وهو جانب حظي بشهـادة العراقيـين ==

إدغار وهو شعور أشارك فيه بكل ما أوتيت من قوة ، إلا أن لفراق أوريليا تود التي كانت قد رحلت مع أولادها إلى إيطاليا موقع أكثر قوة ، فأنا أفتقدها وأشعر بحنين شديد إليها باعتبارها صديقتي الحميمة الوحيدة في هذا الجزء من العالم .»

وهناك رسالة أخرى موجهة إلى العقيد بلفور كتبت في الثالث عشر من أيار وجاء فيها : «لقد انتهت سيرة السيد طالب الوظيفية هنا ، وهي نهاية آمل أن تكون أبدية . ويخامرني شعور عارم بالراحة وهو شعور تشاركني فيها شريحة واسعة من الأفراد . كان طالب شخصاً قروسطياً بكل معنى الكلمة !

آمل أن يتم صدور العفو العام خلال يوم أو يومين . إن (تطبيق) قانون الانتخابات ينتظر القرار الخاص بما إذا كان سيتم ضم المناطق الكردية إلى العراق ، وإن إجراء الانتخابات لن يتم على ما أتصور قبل نهاية شهر حزيران . إن البلاد ستطالب بتولي فيصل زمام الأمور على ما أظن . (وعلى الرغم من) أن الفكرة لا تحظى بحماس شديد إلا بين مجموعة صغيرة من الأشخاص ، يبقى فيصل الخيار الأفضل .

وفي الخامس عشر من أيار كتبت الآنسة جيرتروود تقول :«بدأت الإجابات تتدفق من الشريف (حسين) جواباً على البرقيات الأولى التي كانت أرسلت إليه تطلب منه إرسال أحد أبنائه لتولي إمارة العراق . وتتميز الإجابات بأسلوب طنان ومبهم ، فبعد ديباجة طويلة ، وسيل جارف من عبارات الشكر على الاعتراف بما يحظى به (الشريف ذاته) من مزايا

== والبريطانيين على حد سواء . وقد تمكن السير إدغار من إدارة دفة التشريع والمحاكم والأوقاف في الفترة التي سبقت تشكيل الحكم الوطني في العراق . وبهذا الصدد يقول الأستاذ سليمان فيضي في كتابه الموسوم «مذكرات سليمان فيضي في غمرة النضال» :«- - -وأود هنا أن أنوه بعناية الإنجليز بالقضاء وحرصهم على نزاهته ، فقد عهدت الحكومة إلى السير إدغار بونهام كارتر (مهمة) انتقاء حكام وطنيين يجلسون محل الحكام السياسيين الإنجليز في بعض الألوية ، فكانْ هذا (أي السير إدغار) يستشير من يثق بهم من حكام التمييز والحكام الآخرين في ترشيح من يرونه كفؤاً لملء مناصب القضاء حتى إذا تجمع لديه عدد من المرشحين عكف على التحقيق في أخلاقهم وسيرهم ومعلوماتهم القانونية ، وقد تستغرق هذه الدراسة أشهراً . فإذا ما أطمأن إلى أحدهم لا يعينه حتى يحصل على تعهد خطي ممن زكاه . وهنا يكمن سر نزاهة القضاء العراقي في بداية عهد الحكم الوطني» - المترجم

وأفضال فإنه يعلن عن تكرمه بالنزول عند رغبتهم يوعدهم بأنه سيقوم بـ (إرساله) إليهم من غير أن يحدد من هو الشخص الذي قرر إرساله إليهم .»

لا يزال الناس يشعرون بشيء من القلق إزاء التوجهات المحتملة للسلطات البريطانية ونواياها وبذلك فهم بحاجة إلى من يؤكد لهم أن اختيار المرشحين (لتولي رئاسة البلاد) ، والتعبير عن وجهات نظرهم ، إنما يعتبران من قبلنا من بين الجوانب الملازمة بالضرورة لعملية الانتخاب . ولابد من الاعتراف بأن أمر ترددهم لا يعتبر جانباً يسترعي الانتباه أو يدعو إلى الاستغراب ، ففي العام الماضي كان الإعلان عن الرغبة في اختيار أحد أبناء الشريف أميراً بمثابة الخيانة ، وهو توجه لا يزال يلتزم به البعض من المسؤولين البريطانيين حتى في يومنا هذا .

بدا صباح هذا اليوم ، الأحد ، ساحراً للغاية في أعقاب هطول زخات من المطر مما دفعني إلى الانطلاق على صهوة جوادي إلى منطقة الفحامة والعودة منها بمحاذاة شاطئ النهر . وكان الطريق المحاذي للشاطئ يمتد فوق سد عالٍ يحاذي بدوره بساتين البرتقال والتمور التي بدت أكثر بهجة وروعة بفضل شجيرات الدِفلة التي ارتدت حلة زاهية من الزهور البيضاء والوردية . وكانت السماء رقيقة ، والنهر شبيه بحجر الأوبال بلونه الوردي الشاحب .»

وفي الثاني والعشرين من أيار كتبت تقول : «في إحدى ليالي الأسبوع المنصرم تناولت طعام العشاء على مائدة عائلة كوكس بمناسبة قرب رحيل السير إدغار بونهام كارتر ، وقد ضم الحفل كلاً من السادة فلبي ، وغاربيت ، وسليتر وزوجاتهم إلى جانب مدعوين آخرين من بين أعضاء الإدارة البريطانية في بلاد ما بين النهرين . كانت مناسبة لطيفة سادها جو من الود المتبادل بين الحاضرين باستثناء شخص واحد - أقصد السيدة فلبي التي بدت متحفظة ، فاترة بشكل أثار الانتباه . إنني لم آل جهداً في سبيل استمالتها وكسب ودها إلا أن جهودي لم تكن مثمرة على ما يبدو ، وعليه لا أظنني سأعير الأمر أي اهتمام في المستقبل . لا يسعني فهم ما علتها ، وإزاء ذلك لا يسعني سوى التصور أنها لا تكن لي أي شعور بالود . أما زوجها ، السيد فلبي ، فيبدو لطيفاً ومجاملاً كلما التقينا على الرغم من أن لقاءنا لا يتم اعتيادياً إلا بين الفينة والفينة .»

وجاء في رسالة الآنسة جيرتروود بيل المؤرخة في التاسع والعشرين من أيار ما يلي : «تتعلق أخبارنا الخاصة بهذا الأسبوع بشكل رئيس بالشأن الفارسي . إن سقوط السيد ضياء الدين سيلقي ببلاد فارس في البوتقة .وقد أطيح بحكم السيد ضياء الدين من قبل قائد

وحدات القوزاق ، وهو شخص يدعى رضا خان .(١)

وتواصل الآنسة بيل ذكر أخبار رئيس وزراء إيران الذي أطيح بحكومته وذلك من خلال رسالتها المؤرخة في الخامس من شهر حزيران : «السيد ضياء الدين موجود هنا وهو في طريقه إلى الهند ومن ثم إلى إنجلترا . لقد أصبحت إنجلترا على ما يبدو ملاذاً يلجأ إليه المبعدون والمطاح بحكوماتهم من الوطنيين ، فقد جاءها فيصل أولاً ليعقبه ضياء الدين بعد ذلك ! وإنه لأمر يدعو إلى الضحك أن يُقدر للاستعمار الغاشم ، الذي يعمد البلاشفة إلى التنديد به في كل أرجاء آسيا ، أن يضم تحت جناحيه كل وطني مناضل فقد موقعه . إن السيد ضياء الدين رجل ممتع للغاية وهو يعزو سبب أفول نجمه إلى ألاعيب أحمد شاه ومكائده النابعة من خوفه الشديد من المشاريع التي تهدف إلى تحقيق الإصلاح الاجتماعي . وأنا من جانبي لا أميل إلى رؤية بلاد فارس وهي تتخبط في غياهب الفوضى البلشفية ، إلا أنه سيكون أمراً مضحكاً عندما أرى الشاه غارقاً في غمارها .

وفي أنقرة تمكنت العناصر المتطرفة من السيطرة على الأمور الأمر الذي يعني تواصل الاضطرابات وتُهيج النفوس على حدودنا (كذا) الشمالية . وكان آخر الأحداث ظهور ضابط تركي وثلاثة عشر جندياً من رجاله في مدينة راوندوز الكردية التي تقع في منطقة جبلية شرق الموصل . وكان القسم الأكبر من سكان المدينة آنفة الذكر قد أرسلوا التماساً يطلبون من خلاله السماح بانضمام منطقتهم إلى دولة العراق تحت ظل انتدابنا . إلا أن ظهور جماعة الاستطلاع التركية هذه كان من شأنه أن يبعث الرجفة في أوصال مناطق الحدود الكردية الذي راح سكانها يرقبون بقلق احتمال مجيء مزيد من القوات التركية ويتساءلون عما يمكن

---

(١) كان رضا خان قد قام بالتعاون مع السيد ضياء الدين الطبطبائي ، أحد الساسة الإيرانيين ، بالاستيلاء على مقاليد السلطة بعد أن زحفت القوات التي كانت بإمرته واحتلت العاصمة طهران . وهكذا أصبح السيد ضياء الدين رئيساً للوزراء وأصبح رضا خان وزيراً للدفاع وقائداً عاماً للقوات المسلحة . إلا أن رضا خان قام في عام ١٩٢١ بالإطاحة بحكومة السيد ضياء الدين وإجبار الأخير هذا على الفرار ليصبح هو رئيساً للوزراء . وما هي إلا سنوات معدودات حتى أجبر رضا خان الملك أحمد شاه على التنازل عن العرش وتوج نفسه ملكاً ليصبح رضا شاه في عام ١٩٢٦ . ورضا شاه الذي أجبر على التنازل عن العرش لمواقفه المعادية للحلفاء، هو أبو الشاه محمد رضا بهلوي الذي أطيح بحكمه نتيجة ثورة شعبية قادها الإمام الخميني في عام ١٩٧٩ . - المترجم

أن يترتب على ذلك من ردود فعل بريطانية . ولكننا لا نملك قوات عسكرية تضطلع بمهمة الدفاع عن هذه الحدود . وتفترض القاهرة أننا نعيش حالة سلام مع تركيا .

تشهد السياقات الخاصة بالأحداث العديد من حالات التأخير ، وإن فيصل الذي كان يفترض وصوله إلينا في أواسط شهر أيار لم يغادر مكة حتى الآن ، وتقوم عصبة الأمم المتحدة بإرجاء اتخاذ القرار الخاص بالانتداب مراعاة للأهواء الأمريكية ، بينما أرجئ مرة أخرى توجيه كلمة السيد ونستون تشرتشل التي كان من المزمع قيامه بإلقائها في الثاني من أيار المنصرم أمام مجلس العموم البريطاني . وقد حث السير برسي كوكس من جانبه على وجوب قيامنا بالتخلي عن الانتداب كلياً والاستعانة عنه بمعاهدة تُبرم مع الدولة العربية (أي العراقية) عند قيامها . إنها خطوة رائعة لو قدر أن يكون لدينا من الشجاعة ما يكفل لنا وضعها في موضع التنفيذ .»

وعلى حد تعبير السير نايجل دايفدسون فـ«إن هذه السياسة التي تنصرف إلى الاستعاضة عن الانتداب بمعاهدة - أو بعبارة أخرى ممارسة السلطات والمهام الانتدابية من خلال معاهدة تبرم مع حكومة «المنطقة المنتدبة» - تعتبر عملاً فذاً ذلك لأنها تضع حلاً لمشكلة التوفيق بن التطلعات الصادقة للعناصر الوطنية التي تطالب بتحقيق الاستقلال الناجز والمباشر للبلاد من جانب ومسؤوليات بريطانيا العظمى أمام عصبة الأمم فيما يتعلق بضمان تحقيق ١ - الاستقرار المالي و ٢ - إقامة علاقات خارجية و ٣ - ما يتطلبه الدفاع عن الدولة الفتية من مستلزمات من جانب آخر . وإن من شأن الاضطلاع بهذه المسؤوليات أن تتطلب بالضرورة اعتماد إجراءات معينة للسيطرة على الأوضاع حتى الوقت الذي ترى فيه عصبة الأمم أن العراق يمكن الركون إليه في مجال الاعتماد على الذات ، وأن بإمكانها نتيجة ذلك قبوله عضواً من أعضائها . بيد أن مما يؤسف له أن عبارة «الانتداب» (لا سيما في إطار ترجمة هذه العبارة إلى العربية) قد أوحت بفكرة الخضوع والاستذلال التي لم تكن حالة تفوق ما يمكن للعناصر الوطنية احتماله نحسب ، بل وضعاً لا يستطيع الملك ارتضاءه بأي حال من الأحوال كذلك . أما معاهدة تبرم بين طرفين ساميين متعاقدين - يوافق أحدهما بموجبها وبحرية تامة على إخضاع ممارسة بعض حقوقه السيادية لقيود معينة (كما هو الحال بالنسبة لكل المعاهدات التي يتم إبرامها بين أطراف ذات سيادة) لقاء حصوله على مساعدات مالية وعسكرية ودبلوماسية من الطرف الآخر - فإنها تعتبر قضية مختلفة تماماً وحالة يمكن القبول بها بمنأى تام عن وصمة «الاستعمار» . وعلى هذا الأساس بالذات تم إقامة الحكم الملكي الدستوري في العراق ، كما تم له تحقيق استقلاله الناجز من غير مزيد

من إراقة الدماء ومن غير ثورة[٢] .»

ثم تواصل الآنسة بيل رسالتها قائلة :«وفي غضون ذلك صدر العفو العام وانهمك أصدقائي في مهمة تشكيل حزب شريفي ، معتدل يقوم على برنامج سياسي محدد الملامح ، وهو برنامج قاموا بعرضه علي شخصياً . وقد أخبرهم السير برسي كوكس بدوره بالسير قدماً في مسعاهم ، وبإمكانية اعتمادهم على دعمه لهم ومؤازرته لجهودهم .

وأود القول بالمناسبة بأنني لست في مدينة السليمانية . وعندما أخبرت ناجي (السويدي) ونوري (سعيد) بأنني أفكر بالقيام برحلة لمدة أسبوع من الزمن بُغتا الأمر الذي دفعني إلى القول بأنني سأعيد النظر في قراري هذا . وبعد مداولة الأمر مع السير برسي قررنا بأن من الأولى عدم غيابي عن موقع العمل في هذه المرحلة . وكنت قد أخبرت الحاج ناجي - الذي يعتبر شريفياً غيوراً - بنيتي على القيام برحلة ، وإزاء ذلك بعث لي برسالة مستعجلة يرجو فيها لقائي قبل الرحيل . وقد قمت فعلاً بلقائه مساء ذلك اليوم ذاته فأخبرني بأنه أراد لقائي ليعلمني بأنه لا يرغب أبداً في رحيلي في هذه الفترة بالذات ، وعندما أخبرته بأنني قد عدلت عن الذهاب حمد الله تعالى وأعلمني بوجوب إدراكي واقعاً مفاده أن المندوب السامي أشبه بالرب (كذا) وأنني شخصياً أشبه بالنبي عيسى عليه السلام فكيف له (أي المندوب السامي) أن يعلم تفاصيل ما يجري من أحداث في العالم في حال عدم تواجدي في موقع الحدث ؟

السيد فلبي هو أحد ما يواجهنا من صعوبات بسبب تعصبه الشديد ضد فيصل . وباعتباره المسؤول عن سير الأمور في وزارة الداخلية فهو في موقع من يمكنه ممارسة صيغة

(٢) هذا ما ورد نصاً على لسان السير نايجل دايفدسون المستشار القانوني للإدارة البريطانية المدنية في العراق ، والذي قدر له في وقت لاحق أن يصبح مستشاراً للمندوب السامي ثم مندوباً سامياً بالوكالة في عام ١٩٢٤ فكان بذلك شخصاً على بينة تامة من واقع الأمور ومجرياتها . ونجده هنا يذكر عبارة «ثورة» في إشارة واضحة لثورة عام ١٩٢٠ الأمر الذي يعتبر اعترافاً ضمنياً من لدن مسؤول بريطاني كبير بأن أحداث عام ١٩٢٠ في العراق لم تكن «عصياناً» أو «تمرداً» أو «اضطرابات» كما شاء البعض بما فيهم الآنسة بيل تسميتها ، بل ثورة بكل ما تنطوي عليه عبارة «ثورة» من مفاهيم وأبعاد إذ أنها كانت من بين العوامل الرئيسة التي أجبرت السلطات البريطانية على إعادة النظر في حساباتها الخاصة بوجودها في العراق وما أعقب ذلك من تطورات أدت في نهاية المطاف إلى قيام الدولة العراقية - المترجم

فاعلة من صيغ المقاومة السلبية ، فلا يمكننا مثلاً القيام بتأسيس جريدة وطنية قبل تسجيلها لدى وزارة الداخلية واستحصال موافقتها على الإصدار مما قد يعني الدخول في دهاليز إجرائية ومتاهات قانونية لا يستهدف منها سوى التأخير ليس إلا . وهكذا كان الحال في ظل القوانين التركية (التي نعتمدها نحن كذلك) . وإذا ما أريد تأسيس حزب سياسي توجب تسجيله لدى ذات الوزارة الأمر الذي قد يعني التعرض لذات الإجراءات الروتينية العقيمة التي لا يستهدف منها سوى العرقلة والتأخير . ومع ذلك فقد تم استقطاب انتباه السير برسي إلى هذه الجوانب ، وسوف يقوم باتخاذ ما ينبغي من إجراءات تنصرف إلى تسهيل الأمور . ولابد من القول أن تصرف السيد فلبي على هذا النحو يثير الغضب والسخط في النفس ، وإن ما يعتبر ممارسة لا ضرورة لها هو أن يعمد أحد المسؤولين إلى عرقلة مسار سياسة رسمية تعتمدها الجهات الرسمية . وبما أنه (أي السيد فلبي) لا يقوم بزيارتي فإنه ينظر إلي على ما أتصور بوصفي عدواً لدوداً له ، أو أقرب ما أكون إلى العدو اللدود .و(أن ما يؤلمني هو) أنني لا أتمكن من تحذيره تحذير صديق صدوق يرى في نهجه هذا سلوكاً خاطئاً ، إذ أن تصرفه هذا قد أكسبه سمعة شخص مناوئ . إنه لوضع يدفع إلى الشعور بالأسف ، ولقد بذلت قصارى جهدي من أجل بناء جسور للعلاقة إلا أنه يرفض السير عليها وهو أمر لا حيلة لي فيه .

حضرت مناسبة مدرسية بصحبة السيد لايونيل سمث Lionel Smith فكنا الشخصين البريطانيين الوحيدين من بين المدعوين والمنظمين . جلسنا في صفوف الحضور واستمعنا إلى ما ألقي من الخطب والكلمات وما أُنشد من القصائد والأناشيد التي أجدني مؤمنة تماماً بأنها حازت على إعجاب الحاضرين . ولعل من الخطأ الكبير أن يظن المرء منا بأن ما يعتبر مضجراً لفئة معينة من الناس يضجر فئات أخرى كذلك . وعلى الرغم من أن بعض فقرات منهاج الحفل كانت بالنسبة لي مضجرة للغاية ، إلا أنني وجدت البعض الآخر مثيراً للاهتمام وجديراً به وأخص بالذكر قصيدة ألقاها شاعرنا الكبير السيد جميل صدقي الزهاوي ، الذي كان يعاني من شلل نصفي . وقد استغرق إلقاء القصيدة ما يقرب من خمس وثلاثين دقيقة ، وهو وقت يعتبر طويلاً ومع ذلك فقد كانت عملاً يستحق الاستماع إليه حتى النهاية . وجميل صدقي الزهاوي ليس بشاعر عظيم فحسب بل فنان ماهر في تخَير الألفاظ ، مبدع في الأداء . وقد بدأ عرضه بالتهاوي من المنصة الأمر الذي تطلب الإسراع إلى الإمساك به ودفعه إليها مرة أخرى وسط عبارات «الله ! الله !» التي راح يطلقها جمهور المستمعين . وبعد الانطلاق بإنشاد عشرين بيتاً تغنى فيها بسماء العراق ، انصرف

بهدوء إلى إلقاء أبيات نابضة راحت تتسارع بحيوية لتتناغم مع صوت يتنامى جهارة . وسرعان ما ألهبت بلاغة الأبيات وإنشادها المتقن مشاعر المستمعين الذين اشرأبت أعناقهم وانحنوا إلى الأمام بوجوه مشرقة مرددين عبارة «أعد ! أعد !» مرة تلو الأخرى . وكان جعفر باشا الذي يهوى الشعر جالساً خلفي ، وعندما حانت مني التفاته إليه لاحظت وجهه الذي راح يشع إثارة وبهجة . ولقد استطاع الزهاوي في الواقع التواصل في استقطاب اهتمام الجميع حتى عندما سرحت بعض الأبيات لتلج في مدارات تبعث على السأم عبر بيان المدى الذي يفصل الشمس عن الأرض ، ولتتطرق إلى أمور لا تنسجم مع طبيعة القصائد . بعد ذلك قام عدد من طلاب المدارس بإلقاء خطب أُعدت سلفاً ، وباستثناء أصواتهم الفتية الحادة والعالية فإن عرضهم للأفكار المبتذلة والكليشهات التافهة الخالية من كل وجه من أوجه التجديد قد تم بذات أسلوب التملق والمداهنة الذي اعتمده الأكبر منهم سناً من الخطباء . وقد بدأ أصغرهم سناً بإلقاء كلمته بأعلى صوته ولكنه ما أن وصل إلى منتصفها حتى اختفى صوته كلياً ، ومع ذلك فإنه واصل القيام بدور الخطيب ولكن من غير صوت بالمرة حتى عمد أحدهم مشكوراً إلى رفعه من على الكرسي ليختفي كلياً عن الأنظار . ولعله لا يزال يواصل أداء كلمته هذه بذات اللهجة الحماسية على حد علمي!»

وتقول الآنسة بيل في رسالتها المؤرخة في الثاني عشر من شهر حزيران :«كان أسبوعاً مملاً إلى حد ما بسبب حلول عيد الفطر الذي يلي شهر رمضان . وقد قمت بصحبة السيد غاربيت بزيارة العديد من البيوت لتقديم التهاني إلى أربابها وذويهم بهذه المناسبة التي أعتبرها من بين المناسبات الأقل متعة والتي يضطر فيها المرء منا إلى تناول العديد من قطع المكسرات وشرب القهوة والعصائر داعياً إلى المولى القدير في سره أن تكون خالية من الجراثيم التي تتسبب بحمى التايفوئيد ، هذا إلى جانب ما تفرضه المناسبة من ضرورة تبادل حوارات تخلو من كل مضمون وطعم - إنها بالأحرى الحوارات التي كنت في كل الأحوال أميل إلى الدخول فيها في مثل هذه المناسبات انطلاقاً من رغبتي الصادقة في تفادي الدخول في مواضيع سياسية خلافية .

يتوجه فيصل إلى العراق في غضون هذا الأسبوع ، وعلينا الآن أن نمهد الطريق له . ومن المتوقع أن تصلنا يوم غد توجيهات خاصة من الوطن (إنجلترا) ، وسيقوم السيد تشرتشل في اليوم التالي بإلقاء كلمة في مجلس العموم يتمحور مضمونها حول الخطوط العريضة التي اقترحها السير برسي كوكس الذي سيقوم في أعقاب ذلك بالتوجه إلى السيد عبد الرحمن النقيب بنصيحة مفادها التوقف عن ترشيح نفسه (لإمارة العراق) بسبب تقدمه في السن .

وثمة يقين ثابت يكمن في أعماق فكري مفاده أن لا وجود لشعب يرغب في البقاء محكوماً بصورة دائمة من قبل شعب آخر . وفي العام الماضي عندما كان الجميع يهتفون باسم عبد الله فإن ذلك لم يكن لجمال عينيه ، أو بدافع من حماسهم الوطني ، بل لقناعتهم بأن التوجه هذا كان موقفاً مناهضاً للبريطانيين - وهي حقيقة لا لبس فيها - بيد أنني شعرت بأن افتقارنا الفاضح للحنكة السياسية قد تجسد في الواقع بفعل تركنا المجال مفتوحاً أمام تبلور فكرة مفادها أن الشعور الوطني يعني مناهضة البريطانيين . أما الآن فنحن نحاول رعاية الروح الوطنية ، وأنا من جانبي على استعداد دائم للاعتراف باحتمال أن يكون الشعور الوطني الذي لا يقف موقفاً مناهضاً من الأجنبي نبتة ضعيفة النمو . وفي حال قام فيصل بالسير يداً بيد معنا فإنه سيعكس صورة مغايرة تماماً لفيصل يقف على رأس حركة جهادية . ولكن فيصل لن يقود جهاداً لأن الجهاد ليس خطه . تُرى هل سنتمكن من أن ننفث فيه ما يكفي من روح الحياة ، بعيداً عن الجهاد ، لنجعله قادراً على أن يكون مبعث إلهام لدولة عربية بالحد الذي يمكنه من حث العراقيين على التطوع في صفوف الجيش؟ إن ذلك يعتمد أساساً على شخصية فيصل وحكمة السير برسي في مراعاة ضرورة العمل من وراء الكواليس .»

وبمناسبة قرب وصول الشريف فيصل بن الحسين إلى العراق ، شهدت بغداد حملة مكثفة من الاستعدادات العاجلة والإجراءات اللازمة الخاصة باستقباله وإقامته . وبهذا الصدد تقول جيرتروود بيل في رسالتها المؤرخة في التاسع عشر من حزيران :«وسط هذه الأحداث التي تستقطب الانتباه وتستحوذ على الاهتمام ، حضرت حفلاً راقصاً (حفلة «بالو») أقامه السيد فلبي وزوجته في النادي . لم أُشارك في الرقص بل اكتفيت بالجلوس في الحديقة وتجاذب أطراف الحديث مع العديد من الأشخاص . ومع أنني قضيت وقتاً ممتعاً إلى حد ما ، إلا أن انشغال فكري بالعديد من الأمور لم يترك لي مجالاً كبيراً للاهتمام بالحفلات والمناسبات الاجتماعية . إننا نعيش هنا في وسط مجنون ! فهم يرتادون الحفلات الراقصة بمعدل أربع مرات في الأسبوع ! يالها من لعنة ! كيف يمكن لرجال مرهقين في أداء الواجبات والإيفاء بمستلزمات المهام الجسام ، كما هو الحال بالنسبة لمسؤولينا ، التوفيق بين السهر حتى الساعات الأولى من الصباح و ضرورة التواجد في مكاتبهم في تمام السابعة صباحاً ! الزوجات - قاتلهن الله - هن اللواتي يدفعن بأزواجهن إلى هذا السلوك ، إذ لا شاغل لديهن سوى الاهتمام بسفاسف الأمور إن اهتمامهن بما يجري على الساحة من أحداث معدوم ، كما أنهن لا يلتقين أحداً من أبناء البلد ، وليس لديهن أية رغبة أبداً في

تعلم العربية ، بل يعمدن إلى صب جل اهتمامهن على خلق مجتمع بريطاني خاص بهن وبأزواجهن (إنه في الواقع مجتمع دون المستوى المطلوب) يقف بمنأى وانعزال تامين عن كل مظاهر الحياة في المدينة . وبهذا الصدد بدأت أفهم السر وراء ما تجابهه الحكومة البريطانية من مأساة في الهند حيث تسلك زوجات المسؤولين هناك سلوكاً مماثلاً .»

وفي الثالث والعشرين من حزيران كتبت تقول :« اليوم يصل فيصل إلى البصرة . لقد أطلقنا سهمنا وستثبت الأيام القليلة القادمة ما إذا سيقدر له (أي لفيصل) إصابة المرمى والخروج بالنتائج المرجوة .

قضيت وقتاً رائعاً مساء الثلاثاء . وكان مساء اليوم ذاته موعد سفر حرم السيد طالب النقيب بصحبة [illegible] البصرة وذلك في طريق رحلتها إلى سيلان لتلتحق بزوجها ، وكان لابد لي من الذهاب إلى محطة القطار لتوديعها ، وهو توجه حظي بتأييد من لدن السير برسي . وقد انطلقت إلى محطة القطار في التاسعة وأنا أرتدي فستان السهرة . وكم سرني جداً قيامي بهذا الواجب ، فقد كان في وداع السيدة النقيب العديد من أصحاب زوجها الذين توافدوا إلى المحطة في مسعى لإثبات ولائهم وبذلك فإن غياب من يمثل السير برسي في هذه المناسبة كان بالتأكيد سيعكس صورة غير لائقة . وبعد أن تأكدت من صعودها إلى عربة القطار وتوافر كل أسباب الراحة لها أثناء الرحلة ، التفت للقيام بمهمة مماثلة فيما يتعلق بسفر ولي عهد إيران[٣] وزوجته اللذين كانا في المرحلة الأولى من رحلة تأخذهما إلى الهند ومن ثم إلى أوربا . ولو قدر لزوجها المحترم ، ركوب القطارات في أوربا بنفس الطريقة فإنه لن يصل إلى أي مكان يريد الذهاب إليه ؛ فقد وصل إلى المحطة بعد دخول زوجته وكان متأخراً عن الموعد المحدد لانطلاق القطار بما يزيد على نصف الساعة وحتى بعد أن وصل إلى رصيف المحطة لم يبد مهتماً بما تسببه من تأخير للمسافرين وإحراج للقائمين على سير القطار . وبعد أن انتهيت من توديع زوجته و من برفقتها من الخادمات والخصيان ، انطلقت في طريقي لحضور الحفلة التي أقامتها اللادي كوكس في النادي الرياضي الكائن قرب منطقة الأعظمية في شمال بغداد . كانت ليلة جميلة بنور قمرها الساطع ونسائمها العذبة ، وقد رقص المدعوون في الهواء الطلق على بسط مدت فوق العشب الأخضر الذي غطى أرض حدائق النادي . أما أنا فاكتفيت بالجلوس وتجاذب أطراف الحديث مع مختلف الشخصيات . وبعد

---

(٣) أي ابن الشاه أحمد خان الذي أطيح به بعد خمس سنوات تقريباً بانقلاب دبره رضا خان (الذي أصبح فيما بعد الشاه رضا بهلوي) على نحو ما أسلفنا في حاشية سابقة - المترجم

تناول العشاء بصحبة السير برسي عدت إلى داري في منتصف الليل بصحبة السيد تود وزوجته ، بينما واصلت اللادي كوكس الرقص حتى الرابعة صباحاً .»

وتواصل جيرترورد كتابة رسالتها هذه في السادس والعشرين من شهر تموز قائلة :«اضطررت لقطع كتابة رسالتي هذه تلبية لدعوة عشاء أقامها شيخ الجبايش الذي أرسل سيارته الخاصة الباذخة لتنقلني إلى داره . إن هذا التوالف بين شيوخ القبائل و الطراز الأحدث من السيارات الفارهة هو من الأمور التي أجد من الصعب التكيف معه ! ويتمتع الشيخ سالم الخيون بقدرات كبيرة كما أن لديه طموحات أكبر ، ويُعتبر من بين كبار المؤيدين لقيام نظام حكم جمهوري في العراق ، وهو توجه لربما يعزى أساساً إلى إيمانه باحتمال أن يصبح هو شخصياً رئيساً ؛ ياله من تصور خيالي ! كانت مناسبة لطيفة جداً برغم حرارة الجو وتيارات الهواء الحارقة التي راحت تلفحنا بلهيبها أثناء جلوسنا في شرفة بيت الشيخ سالم المطلة على نهر دجلة .

وردنا يوم أمس خبر وصول فيصل إلى البصرة والاستقبال الرائع الذي قوبل به ، فلنحمد السماء على ذلك . وقد جاء الخبر من فلبي شخصياً الذي شاءت حكمة السير برسي إيفاده إلى البصرة من أجل استقبال فيصل . ويحدوني أمل لا يسعني كبته وهو أن فيصل لن يخفق في ترك أفضل الأثر في نفوس كل من يلتقيهم من الأفراد ، وأن هناك احتمالاً كبيراً في عودة فلبي إلى بغداد شريفياً شديد الحماسة .»(٤)

---

(٤) عشية وصول جلالة المغفور له فيصل بن الحسين إلى البصرة ، تم في بغداد تشكيل وفد شعبي لاستقباله . وقد رافق هذا الوفد وزيران اختارهما كوكس وهما كلٌ من جعفر باشا وزير الدفاع وجون فلبي وزير الداخلية . ولربما كان إيفاد الوزيرين جزءاً من التخطيط الذكي الذي عمد إلى رسمه كوكس ليعكس صورة للحياد البريطاني أمام الناس فلقد كان فلبي من بين المعارضين لترشيح فيصل بينما كان جعفر باشا على العكس من ذلك تماماً - المترجم

الفصل التاسع عشر

١٩٢١

كان وصول سيدي فيصل إلى بغداد، كما بدا ظاهراً، مناسبة مظفرة، فقد اكتظت الشوارع وسطوح المنازل بجماهير الشعب، وانتشرت الأعلام وأقواس النصر في كل مكان. ومع ذلك لم يخل الجو من تيارات خفية مناقضة للاتجاه الظاهر. وقد أُذهل فيصل بما لمسه من تفاوت في التوجهات الخاصة بمن كانت بيدهم مقاليد الأمور في حينه. وفي طريقه إلى بغداد طرق سمعه ما مفاده أن السير برسي قد التزم بالحياد، وأن الآنسة بيل والسيد غاربيت كانا يرغبان في تنصيبه أميراً، بينما انصرف السيد فلبي إلى تأييد فكرة إقامة نظام جمهوري.

بعد مصافحة فيصل في محطة القطار، وقفت جيرتروود تتحدث مع السيد كورنزالس (الذي أصبح فيما بعد السير كنهان كورنوالس) الذي رافق فيصل في رحلته إلى العراق. وفي رسالتها المؤرخة في الثلاثين من حزيران كتبت تقول: «أخبرني (كورنوالس) أن الأمور لم تسر سيراً حسناً، فقد ارتد الناس إلى الوراء مبتعدين، وهكذا كان ديدن الضباط السياسيين الذين لم يعكسوا أي شعور بالاهتمام والتعاطف، وكان موقف السيد فلبي الأسوأ من بين مواقف المسؤولين البريطانيين (غير المؤيدين لفكرة تولي فيصل إمارة العراق). ولحسن الحظ أجبر فلبي على التخلف عن مرافقة الركب بسبب إصابته برشح ألزمه على البقاء في مدينة الحلة.[1]

---

(١) استقبل المغفور له جلالة الملك فيصل الأول المعظم عند وصوله إلى البصرة استقبالاً حاراً، ولكنه لم يبق فيها إلا يوماً واحداً فقد غادرها في اليوم التالي متوجهاً إلى الحلة. وقد تميز استقباله في المحطات الواقعة بين البصرة والحلة بالفتور على العكس من روح الترحيب التي سادت أجواء البصرة، وكان ذلك بسبب التعليمات التي أوعز بها فلبي إلى الحكام السياسيين مما أزعج فيصل إلى أبعد الحدود. ويقول فلبي في مذكراته بهذا الصدد أنه من خلال حديث جرى بينه وبين فيصل أثناء رحلة القطار إلى الحلة أخبره الأخير بأنه يتوقع دعماً فاعلاً من لدن المسؤولين البريطانيين جميعاً انطلاقاً من واقع أن ترشيحه إنما تم برغبة من الحكومة البريطانية أساساً. وإزاء ذلك أجابه فلبي بصراحة بأن الحكومة البريطانية تريد أن يتم انتخابه بشكل حر من قبل أبناء البلاد بصرف النظر عن موقفها منه ورغبتها في ترشيحه، كما أضاف ما مفاده أنه (أي فيصل) إذا ما أراد كسب ود الشعب ورغبتهم باعتباره مرشح بريطانيا سيكون أمله بالنجاح ضعيفاً جداً. وقد أغضب هذا النهج فيصلاً ==

وبعد أن دفعت كورنوالس إلى سيارة ساسون أفندي حسقيل انطلقنا باتجاه جسر مود(٢) ، إلا أننا لم نتمكن من الوصول إلى حيث أردنا بسبب أزمة المرور ، وبسبب ماكان يعانيه كورنوالس من عطش فقد قررنا ترك السيارة حيث كانت والسير إلى بيت السيد غاربيت . وبعد أن تناولنا كفايتنا من ماء الصودا المثلج جلسنا أنا وكورنوالس والسيد غاربيت في شرفة منزله المطلة على الحديقة نتجاذب أطراف الحديث .

وأثناء عوتي إلى المنزل سيراً ، أوقفني سائق كريم الخلق وتساءل إذا كان بإمكانه توصيلي إلى الدار وقبلت العرض شاكرة ، واستقليت ذات السيارة التي زينت بالأعلام والورود

== الذي ازداد امتعاضاً عندما وجد محطة الحلة خالية من المستقبلين اللهم إلا باستثناء رجلين هما معاون المفتش الإداري ، السيد برترام توماس ، ورئيس البلدية عبد الرزاق شريف . ويذكر دولة علي جودت الأيوبي في مذكراته أن جعفر باشا انفجر غاضباً إزاء هذا التصرف المتعمد وغير اللائق وعاتب رئيس البلدية أنف الذكر لعدم اهتمامه بإجراءات الاستقبال ومستلزماته كما ينبغي إلا أن الأخير هذا اعتذر قائلاً بأنه ينفذ التعليمات التي تصدر إليه من الضابط السياسي . ومما زاد الأمر سوءاً أن برترام توماس أنف الذكر قد بلغت به الوقاحة إلى الحد الذي دفعه إلى سؤال فيصل عن سبب وجوده في العراق ! ولم يكن استقباله في كربلاء أكثر حرارة ، بل لم يكن حماسياً بالمرة ، كما أن المتصرف ، السيد حميد خان ، لم يكن في بادئ الأمر راغباً في استقباله على ما بدا ولكنه غير موقفه في ضوء ما تلقى من توجيهات إثر استدعائه إلى بغداد الأمر الذي جعله يعود إلى كربلاء مسرعاً ليقوم بما يلزم إلا أن الاستعدادات التي أُجريت لم تتم كما كان ينبغي بسبب العجلة . وعلى الرغم مما شعر الأمير الهاشمي من مرارة إزاء مثل هذه التصرفات ، فإن ما تميز به من الحلم ونبل الخلق ، إلى جانب سمو النفس والترفع عن الدنايا ، كان كفيلاً بأن يجعله يغض النظر عن هذه الجوانب بانتظار ما سينجلي عنه الموقف من واقع . وسرعان ما ثبتت جدوى هذا الموقف الحكيم ، بعد أن زار مدينتي النجف وكربلاء وعتباتهما المقدسة ، وبعد أن عرج على طويريج قبل عودته إلى الحلة لاستئناف سفره إلى بغداد ، وجد في عودته إلى الحلة حالة مختلفة تماماً : فقد خرجت لاستقباله هذه المرة جموع غفيرة من أبناء الشعب ضمت الشباب والشيوخ والنساء وطلاب المدارس الذين راحوا يهتفون «حي الله الملك فيصل» – المترجم

(٢) جسر مود نسبة إلى القائد البريطاني السر ستانلي مود الذي فتح بغداد . لقد عرف هذا الجسر بأسماء أخرى : فعلى الصعيد الشعبي كان يعرف بجسر حافظ القاضي نسبة إلى محلات حافظ القاضي التي كانت تطل على الساحة (الدوار) التي كان ينتهي عندها الجسر في جانب الرصافة ، أما الاسم الرسمي له إبان العهد الملكي الهاشمي فكان جسر الملك فيصل الثاني . وقد تغير هذا الاسم منذ عام ١٩٥٨ ليصبح جسر الأحرار ، وهو الاسم الذي لا يزال عليه حتى الوقت الحاضر – المترجم .

والتي كانت قد خصصت لنقل الأمير فيصل من المحطة . وهكذا وصلت إلى داري وسط انشداه خدامي وذهولهم . وقد أخبرني السائق آنف الذكر بأن الأمير فيصل وجد نفسه محاطاً بجماهير هرعت إليه بعد خروجه من محطة القطار الأمر الذي أُضطر القائمين على الاستقبال إلى الإسراع به إلى داخل السيارة المخصصة له ، وأثناء ذلك حانت من السائق التفاتة إلى رجل بلباس عربي حاول الركوب معه (أي مع فيصل) . إلا أن القدرة الإلهية شاءت أن تلهم السائق هذا بفكرة مفادها وجوب أن يكون فيصل بمفرده في السيارة ، وبذلك فقد سارع إلى إغلاق الباب والانطلاق بالسير . أتراني لا أعرف من هذا الرجل؟ إنه الشيخ أحمد داؤد واحد من بين أكبر المهذارين في بلاد ما بين النهرين ، وأحد قادة التمرد الذي شهده العام الماضي ، وموضع سخرية الجميع من غير استثناء . ولو قدر له مرافقة فيصل في هذه المناسبة لكانت مفاجأة ما بعدها مفاجأة للقادم الكريم . ولم يدرك فيصل ، على حد تعبير السائق ، ما الذي كان ينبغي له القيام به ، كما أن الانطلاق بالسيارة كاد يكون مستحيلاً بسبب جموع الناس التي عزلت السيارة عن السيارات المرافقة . ولم تتمكن السيارة من الانطلاق بحرية إلا بعد جهد جهيد و إثر وصولها إلى الشارع الرئيسي حيث عملت الشرطة المكلفة بتنظيم مسيرة الموكب على فتح الطريق أمامها . ثم يواصل السائق روايته قائلاً بأنه راح يسير ببطء الأمر الذي أتاح لفيصل فرصة الوقوف والتلويح بيديه تحية للجماهير المحتشدة على جانبي الطريق العام الممتد من جسر مود إلى السراي . بدا فيصل سعيداً للغاية . وبهذا الكيفية جاء فيصل إلى بغداد .»

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي عرجت جيرتروود إلى السراي حيث تم إيواء فيصل لتترك بطاقة الزيارة الخاصة بها ، إلا أنها وجدت أن الأمير كان راغباً في لقائها .

وبهذا الصدد تقول جيرتروود في ذات الرسالة : «جلسنا معاً على الأريكة ، وراح يفضي إلي بمكنون صدره ويخبرني عما كان يساوره من ظنون ، وقد طمأنته بدوري مؤكدة له أن السير برسي يقف إلى جانبه ويؤيد قضيته تأييداً مطلقاً . بعد ذلك أسديت إليه بعض النصائح حول أمور تتعلق بأبناء الشعب مبينة له في الحين ذاته ضرورة عدم السماح لأحد بالركوب جنبه في السيارة ، والأهم من ذلك هو ضرورة انصرافه دائماً إلى مصارحة السير برسي بكل ما في نفسه من أمور . وأثناء انصرافي لاحظت أن الشيخ أحمد داود كان يجلس في حجرة الانتظار .

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم زارني في المكتب الشيخ علي السليمان ، أكبر مشايخ الدليم ، الذي كان من بين أشد معارضي (فكرة مجيء) فيصل . وقد سبق لي الدخول معه

في صراع طويل عبر الرسائل والحوارات .[٣] وقد جاء لزيارتي هذه المرة بصحبة شيخ آخر يعتبر أول من يليه (أي يلي علي السليمان) أهمية من بين شيوخ الدليم .[٤] وقد قمت بتعريف الشيخين الضيفين بالسيد كورنوالس الذي شاءت الصدف أن يكون في مكتبي عندما دخل الضيفان آنفا الذكر . وقد أخبرني الشيخ علي السليمان بأنه كان قد وصل لتوه قادماً من الرمادي بسيارته الخاصة ، وبأنني كنت أول من توجه إلى زيارته في بغداد . وإزاء ذلك سألته مداعبة : ترى هل لديك من تزوره قبلي؟ ووسط جو الود الذي ساد هذا اللقاء تحدثنا عن فيصل ، وقد شارك كورنوالس بعدد من الملاحظات اللبقة التي عكست درجة عالية من الكياسة . ولقد ثبت من سير الحديث لاحقاً أن الشيخ علي السليمان قد جاء إلى بغداد في الواقع لمقابلة فيصل !»

وتواصل جيرتروود كتابة الرسالة ذاتها في الثاني من تموز حيث تقول : «أما المناسبة التالية فكانت الدعوة التي أقيمت على حدائق مود[٥] ، وكانت مناسبة رائعة التنظيم .

أجد لزاماً علي الانصراف إلى وضع تفاصيل لمراسم خاصة ببلاط فيصل - عندما يصبح لديه بلاط - إذ لا يوجد هنا من لديه أية فكرة عن الخطوات التالية التي يجب اتخاذها .

وبعد أن وصل فيصل (أي وصوله إلى حيث أقيمت الدعوة) وصافح السير برسي والجنرال (أي الجنرال هالداين القائد العام للقوات البريطانية في بلاد ما بين النهرين) واللادي كوكس ، ثم صافحني أنا وجلس على الأريكة التي أعدت لجلوسه وراح يكلمني بصفتي الشخص الأقرب إليه والذي يمكنه التحدث معه بصراحة وسهولة . إنه لا يتكلم الإنجليزية ، ولا يعرف من الفرنسية إلا شيئاً قليلاً .

شعرت أن الوضع هذا لا يفي بالمطلوب أبداً ، ولإخفاق أي شخص آخر (من بين

---

(٣) في محاولة لإقناعه على الانحياز إلى جانب فيصل على ما أفترض - المترجم

(٤) إنه على أغلب الظن الشيخ محسن الخردان - المترجم

(٥) كانت حدائق مود في أوائل العشرينات تقع في الصالحية إلى يسار الشارع العام الذي يمتد من ساحة جمال عبد الناصر إلى ساحة الأحرار (ساحة المتحف العراقي) أي في المنطقة التي عرفت في وقت لاحق دور موظفي السكك الحديدية العراقية في الصالحية والتي تضم في يومنا هذا من جملة ما تضم من مباني المؤسسة العامة للإذاعة والتلفزيون ، ووزارة الإسكان والتعمير ، الخ - المترجم

الحضور) في القيام بما يتطلبه الموقف من إجراء، استأذنته (أي فيصل) بتقديم الأشخاص له ثم طلبت من السيدة سليتر، والسيدة غاربيت والسيد تود البقاء قربه حتى يحين موعد العشاء. وأثناء الجلوس على مائدة العشاء جرى بين فيصل والقائد العام محاورة بسيطة باللغة الفرنسية، أما القسم الأكبر مما دار من حديث فكان بالعربية وهو الذي دار جزء يسير منه بينه وبين السير برسي والسيد عبد المجيد الشاوي، أما الجزء الأكبر فقد دار بيني وبينه. بدا فيصل سعيداً، وشعرت أنا بدوري بالسعادة أيضاً وكذلك السيربرسي. أما عبد المجيد فقد أعجب بفيصل إعجاباً منقطع النظير.

إثر الانتهاء من العشاء، شكل المدعوون حلقة كبيرة تحت أشجار النخيل، وبعد أن أجلسوا فيصل في الوسط تركوه لحاله! ومرة أخرى سارعت إلى مداراة الموقف وبدأت بتقديم الأشخاص إليه وما هي إلا فترة قصيرة حتى قام عبد المجيد بمساعدتي من خلال توليه تقديم بقية الموجودين لغرض تعريف فيصل بهم. إلا أن عملية تقديم الأشخاص تعثرت بشكل حاد بسبب الكلمات والخطب التي تبعث على السأم والتي أصر خطباؤنا على إلقائها بصرف النظر عن كل الاعتبارات(٦). مسكين فيصل! وعندما تمكن أخيراً من تحرير نفسه

---

(٦) كان من جملة ما قدم بين يدي الأمير من النصوص المنظومة والمنثورة قصيدة للسيد أمين خليل المفتي قال في ختامها: «

قـــــد دعـــــوناك علينا ملكاً

لـيـس نـرضـى عـنـك بـديـلاً»

إثر ذلك تعالت أصوات الاستحسان التي ترددت في قسم منها عبارة «بايعناك بالملوكية.» وأعقب ذلك قيام جميل صدقي الزهاوي بإلقاء قصيدة كان مطلعها

«إنا مـحـبـوك فـاسلم أيها الملك

ومـصطفـوك لعـرش شـاءه الفلك»

بعد ذلك نهض الشيخ مطلق القطيفي ليلقي بقصيدة تركت كلماتها أثراً عميقاً في نفوس المدعوين، ولا غرابة في ذلك فقد كان من خطباء المنبر الحسيني ويتمتع بصوت جهوري ونغمة موسيقية. إلا أن قصيدته كانت طويلة نسبياً وهي التي من الواضح جداً أن جيرترورود قد أخفقت فهم معناها الأمر الذي دفعها على أغلب الظن إلى قول ما مفاده أن الكلمات والخطب كانت تبعث على السأم. وقد لوحظ من خلال هذه الحفلة أن القسم الأكبر من القصائد والخطب التي ألقيت تضمنت إشارات واضحة إلى الأمير فيصل باعتباره ملك العراق - المترجم

من قيود هذه الممارسات ونهض استعداداً للانصراف ، اقترب مني وقال : «كنت أحاول جهدي تفادي الاضطرار إلى سماع الخطب في سوريا ، ولكنني أخشى أن الأمر هنا سيكون أسوأ بكثير !» .

وفي السابع من تموز كتبت تقول : «عاد السير فلبي مساء يوم الأحد ، وفي صباح اليوم التالي قابل السير برسي الذي طلب منه تسليم عمله إلى السيد تومبسون Thompson . إن فصله من العمل لكارثة بحق إلا أن براقش قد جنت على نفسها . لقد كان السير برسي صبوراً جداً في تعامله مع فلبي ، قد منحه ما يكفي من الوقت لإعادة النظر في موقفه ، ولم يكن إيفاده إلى البصرة لاستقبال فيصل إلا محاولة تم اللجوء إليها بأمل أن يتمكن الاثنان (أي فيصل وفلبي) من التوصل إلى نوع من التفاهم[٧] . ولكن فلبي كان يصر على الإشادة

(٧) لابد للعودة إلى الوراء قليلاً لنستذكر ما تركه أمر إلقاء القبض على السيد طالب باشا النقيب ونفيه إلى جزيرة سيلان (سرنديب) من أثر سيئ في نفوس العديد من العراقيين وفي نفس فلبي كذلك . فما أن سمع الأخير هذا بخبر الاعتقال حتى سارع إلى مقابلة كوكس من أجل إعلان احتجاجه على ما حدث ومن ثم تقديم استقالته باعتبار أن إبعاد طالب والإصرار على تأييد فيصل لا يشكلان تحولاً واضحاً عن مبدأ حق تقرير المصير الذي أقره صراحة الإعلان البريطاني الفرنسي فحسب بل نبذاً قاطعاً له . إلا أن كوكس ، وبكل ما تميز به من ذكاء وكياسة وبرود أعصاب ، كان أقدر من يستطيع اجتياز العواصف بأمان ، فقد سارع إلى إخبار فلبي أنه كان قد عقد النية منذ فترة على تعليق نشاطات الوزراء العرب كافة إلى حين الانتهاء من عملية إقرار من سيتولى رئاسة البلاد ، وإنه نتيجة ذلك كان يرى ضرورة قيام المستشارين البريطانيين بتولي مهام الوزارات كل حسب وزارته ، وعليه قد تقرر تعيين فلبي وزيراً للداخلية بالوكالة . وقد كان من شأن هذا الإجراء على ما يبدو أن يكسر من حدة غضب فلبي ويعيد الهدوء إلى نفسه على حد ما بينته اليزابيث مونرو Elizabeth Monroe في كتابها العلمي الرائع «فلبي العرب» Philpy of Arabia وبذلك كانت هذه الخطوة «ضربة معلم» ناجحة إن صح هذا التعبير . إلا أن خطة كوكس اللاحقة – أي إيفاد فلبي لاستقبال فيصل في البصرة بأمل أن يتمكن الأخير هذا بفضل ما عرف عنه من لطف وكياسة ودهاء من كسب قلب هذا المعارض – لم تكلل بالنجاح بل إنها فشلت فشلاً ذريعاً على نحو ما تم بيانه في مجال سابق من هذا العمل ومن الحواشي المتعلقة بهذه النقطة بالذات ، وبديهي أن كلاً من كوكس وسكرتيرته الشرقية الآنسة بيل لم يدركا تماماً عمق ما كان لدى فلبي من قناعة راسخة بأن نظام حكم جمهوري كان الحل الأمثل للعراق وذلك انطلاقاً من إيمانه بحق أبناء الشعب في اختيار نظام الحكم والحاكم الذي يريدون . وثمة سؤال يراود ذهني دائماً : ترى هل كان فلبي يرغب في لعب دور مماثل لدور لورنس؟ قد يكون الأمر مثيراً للجدل ولكنه حقل بحث خصب على ما أعتقد ! – المترجم

بمناقب ابن سعود ، وعلى قناعته بأن العراق كان راغباً في إقامة نظام حكم جمهوري . وكان قد أوعز إلى المستشار في الحلة ، الرائد دكسون Major Dickson ، بالقيام بجولة تفقدية مطولة في المناطق الواقعة ضمن نطاق سلطته الإدارية وذلك لإبعاده عن مقر عمله (الحلة) عند مرور فيصل . إن الرائد دكسون لا يزال في بغداد وقد تم له مصالحة فيصل . إن السير برسي الذي لا يُعرف عنه التردد في اتخاذ أي إجراء يرى أن واجبه يحتم عليه اتخاذه ، قد استأصل العقدة بالطريقة الوحيدة الممكنة ، ومع ذلك ينتابني شعور صادق بالحزن على ما جرى ! . وقد ذهبت يوم الثلاثاء لزيارة عائلة فلبي للتعبير عن أسفي لما حدث فكان لي معها لقاء مؤلم للغاية تجسد بانفجار السيدة فلبي بالبكاء وباتهامي باعتباري المتسببة لما حدث لزوجها ، لتخرج بعد ذلك من الغرفة وهي تكاد تنفجر غضباً . وإزاء هذا وجدتني مضطرة إلى تذكير فلبي بصداقتنا التي امتدت على مدى فترة طويلة من الزمن والتماسه الوثوق بصدق محاولتي التي طالما انصرفت إلى إقناعه بواقع أن الموظف الحكومي لا يمكنه عصيان ما يوعز إليه من أوامر . أما كيف تم له تبني قضية السيد طالب ومناصرتها فجانب يصعب فهمه ، ومع ذلك فإنه قد تماهى معها .

وفي صباح اليوم ذاته زارني عبد الجبار باشا ، أبرز شخصية مسيحية هنا ، بصحبة المتصرف ناجي السويدي في محاولة استهدفت إقناعي بأن الظرف لا يسمح بالانتظار وبأن علينا اللجوء إلى استفتاء عام من أجل تنصيب فيصل ملكاً . إننا على بينة تامة من هذا الواقع ، وإن الشيء الوحيد الذي كان فيصل يخشى منه هو وقوع انقلاب الأمر الذي يعني وجوب حرصنا على أن تسير الأمور بأفضل صيغة دستورية ممكنة . إن أقرب صيغة لما يمكن اعتباره حكومة لدينا هنا هو مجلس النقيب برغم أنه مجرد فكرة جادت بها قريحة السير برسي . ومع ذلك لابد للخطوة التالية أن تنبثق من هذا المجلس . واستناداً إلى ذلك فقد اجتمع السير برسي بالنقيب وتم الاتفاق على التدابير اللازمة والتي مفادها توجه المجلس إليه (أي إلى السير برسي) بطلب معرفة الكيفية التي يمكن من خلالها إجراء الانتخابات . إن السير برسي على يقين تام من عدم تمكننا من تسجيل الناخبين بفترة تقل عن شهرين من الزمن وهي أطول مما يسعنا انتظاره ، وعليه قرر الإجابة على استفسار المجلس في إطار هذا المعنى مضيفاً أن هناك طرقاً أسرع يمكن اللجوء إليها في حال رغبة المجلس في اعتمادها . إن الأمر بعد ذلك – إذا ما رغبنا التحدث من غير وجل أو مواربة – متروك لنا في حال أردنا التلاعب بالمجلس وسير أعماله وهو بمقدورنا من غير أدنى شك . إنني شخصياً أفضل حسم الأمر عن طريق الانتخابات إلا أن فترة شهرين طويلة جداً ، وفي ضوء ما نتمتع به من وضع مؤات وواعد بإمكاننا حمل البلد على

القبول بأي حل نرضاه . وكانت الصحافة المحلية قد بدأت الحديث عن استفتاء عام من غير إيحاء بذلك من جانبنا . وإنني مؤمنة - وهو إيمان آمل أن يكون خلواً من كل وجه من أوجه المبالغة - بأن النتيجة مضمونة بل إنها في راحة يدي .

يأتي إلينا قادة التمرد واحد بعد الآخر ليقدموا لنا فروض الاحترام ، كما يحضر كل من الشيوخ والسادة الذين قاتلوا ضدنا ، ويجزمون جميعهم أن ما حدث ما كان ليحدث لو أن السير برسي كان موجوداً ، وهي حقيقة مطلقة لا يمكن إنكارها أبداً .»

في ليلة السابع من تموز أقام النقيب مأدبة عشاء على شرف فيصل ضمت السير برسي ، والآنسة جيرتروود ، والسيد غاربيت والسير إيلمار هالدين وأعيان مدينة بغداد . وقد جلست جيرتروود إلى جانب فيصل . وفي رسالتها المؤرخة في اليوم التالي أي في الثامن من تموز ، كتبت تقول : «كم سرني توفر الفرصة للدخول في حديث مثمر (مع فيصل) ولكني بعد تناول لونين أو ثلاثة من ألوان الطعام سلمته إلى السير إيلمار لأتحدث إلى عزت (باشا الكركوكلي) الذي عمد وسط الحديث إلى النظر إلي بارتياب متسائلاً : « لماذا جئتمونا بهذا الرجل؟» كانت لحظة استوجب فيها التكلم بصدق وصراحة . قلت له : وهل تريد جواباً ؟ لأنه أفضل عرب زمانه . فهل تعتبر هذا جواباً شافياً يفي بالغرض؟ « أجابني : نعم ! إنه جواب شاف يفي بالغرض تماماً» . بعد ذلك رحنا جميعاً نتبادل الحديث عبر المائدة مع النقيب والسير برسي . وقد طرق سمعي أن عزت كان له لقاء طويل مع فيصل صباح اليوم التاي دار بينهما من خلاله حوار مفصل أعلن فيصل إثره عن ظنه بأنه قد تمكن من كسب عزت إلى جانبه . وفي حال تم له ذلك فعلاً فإنه يكون قد كسب كركوك كلها . وعندما قاربنا من الانتهاء من العشاء قام أحد أفضل خطبائنا بإلقاء كلمة قصيرة ومتميزة أعقبتها قصيدة أقصر طولاً وأكثر بلاغة(٨) مفادها أن من شأن اجتماع الأمير والنقيب أن يضمن للعراق

(٨) إنها القصيدة التي ألقاها في هذه المناسبة شاعر العراق الكبير المرحوم معروف الرصافي والتي أشاد فيها باجتماع الأمير والنقيب والتي ندرج أدناه ما جاء في المقطع الرابع منها :

مـــد النقـــيب إلى الأمــــيـــر

يد المعـــاضـــد والنصـــيـــر

فليـــخـــز كل مـــشـــاغب

في القـــوم يلهج بالـــــرور

وليـــحـــيـــا مـــولانا النقـــيب

حـــيـــاة مـــولانا الأمـــيـــر

==

مستقبلاً واعداً . وكان النقيب يجلس محني الظهر ، وقد بدا طاعناً في السن كأنه يحمل على ظهره عمر القرون ، وهو يردد من حين وآخر عبارة «أحسنت !» وكان على ما أظن يرغب في قول شيء بالمناسبة إلا أن فيصل الذي كان قد نفد صبره من الجلوس بعد الانتهاء من العشاء ، لا سيما إثر تناوله كميات كبيرة من الفواكه ، نهض من المائدة وبذلك ضاع إلى الأبد ما كان النقيب راغباً في قوله . بعد ذلك عدنا للجلوس في الشرفة العالية حيث جلس فيصل إلى جانب النقيب بينما عمدت أنا إلى دعوة شيخ آخر لا يقل سناً ولا قدسية عن مضيفنا وأجلسته إلى الجانب الآخر من فيصل لأجلس بعد ذلك إلى جنبه (أي جنب الرجل الآخر) لكي أتمكن من المساعدة في مجال توجيه دفة الحديث وانسيابه . إلا أن الجلسة لم تطل كثيراً فقد نهض فيصل منصرفاً وسط عاصفة مدوية من التصفيق الحاد من قبل الحضور ، كما قمنا نحن بدورنا كذلك بالاستئذان بالانصراف .»

وفي نهاية اليوم التالي - وكان يوماً طويلاً بدأ في مكتب جيرتروود في السابعة صباحاً - قامت جيرتروود بزيارة ساسون أفندي . وبهذا الصدد تقول : « أخبرته بأمر الكتاب المزمع توجيهه إلى المجلس والذي استهدف من ورائه دفع المجلس إلى طلب إجراء استفتاء عام . والآن ، وبعد هذا اليوم الطويل ، لابد لي من الذهاب إلى الفراش وأخذ قسطي من الراحة وخلاف ذلك لن أتمكن من مواصلة عملي في اليوم التالي !»

وفي الأحد الموافق العاشر من تموز كتبت تقول : «إننا بخير على ما أظن . كنت دعوت عبد المجيد بك الشاوي يوم أمس لزيارة مكتبي حيث أخبرته بكياسة ما كان يتوجب القيام به من قبل المجلس الذي كان هو واحداً من أعضائه . وقد وافق بحماس على الفكرة وانطلق

== ومن الطريف أن نذكر أن الرصافي كان قبل ذلك قد استدعي من فلسطين حيث كان يدرس العربية في دار المعلمين في القدس ليرأس تحرير جريدة تنطق باسم الجماعة التي كانت تنادي بمبدأ العراق للعراقيين والتي كان من بين أعضائها النقيب ذاته ، والسيد طالب ، وحكمت سليمان ، وتوفيق الخالدي . وفي طريق عودته إلى العراق كان على الرصافي السفر إلى مصر ليستقل منها باخرة تنقله إلى البصرة . وقد التقى الرصافي أنذاك الوفد الذي كان قد حضر مؤتمر القاهرة . وحين علم السير برسي بنية الرصافي التوجه إلى العراق دعاه إلى السفر معهم . ولم يكن يدري أن توجه الرصافي إلى العراق كان لهدف يختلف تماماً عما تقرر في مؤتمر القاهرة فيما يتعلق بالعراق وهو السعي إلى تنصيب الشريف فيصل ملكاً ! كما تجدر الإشارة أيضاً بهذه المناسبة (أي بمناسبة الدعوة التي أقامها النقيب) أن الرصافي كان قد عُين وكيلاً لرئيس لجنة ترقية العلوم في وزارة المعارف قبل أربعة أيام من تاريخ الدعوة أنفة الذكر ! - المترجم

مسرعاً في مسعى استهدف إقناع العديد من زملائه الأعضاء لغرض تأييدها» .

وفي السادس عشر من تموز كتبت تقول : «في يوم الاثنين المصادف الحادي عشر من تموز ، واستجابة لمقترح طرح من قبل النقيب ، نهض المجلس بالمهمة الملقاة على عاتقه بدقة وإتقان فاقا كل توقعاتنا ؛ فقد قرر المجلس بإجماع الأعضاء المناداة بفيصل ملكاً على العراق ، كما كلف وزارة الداخلية باتخاذ كل الإجراءات اللازمة بهذا الخصوص .

يقوم فيصل والسير برسي معاً بتشكيل حزب شريفي جديد قوامه كل الأفاضل المعتدلين من الأشخاص ، أما الحزب الشريفي القديم الذي رفع علم العصيان والتمرد فإنه ينحدر تدريجياً ليضيع في غياهب النسيان ويتلاشى بفعل نفور الجميع وارتيابهم منه . ولقد قام فيصل بدوره (على أحسن ما يرام) ، وتعامل مع المتطرفين في تحمسهم من بين أتباعه وأنصاره بفطنة وحصافة كانتا مثاراً للإعجاب . وفي حفل كبير أقامته إحدى المدارس الشيعية[٩] صباح السبت التاسع من تموز ، قام محام ادعى بأنه يمثل كل العاملين في المجال القانوني ، وكان قد عاد حديثاً من منفاه في هنجام ، بمبايعة فيصل ملكاً . إلا أن فيصل سارع إلى رفض هذه المبايعة قائلاً إنه لم يأت لفرض نفسه على العراق ، وإن أمر ولايته متروك للعراقيين وهم لا غيرهم الذين يقررون ما إذا كانوا يريدون تنصيبه ملكاً عليهم . كان رداً لبقاً وذكياً أكسبه على ما أعتقد موالين أكثر من كل ما تمكن أن يكسبه من أنصار في كل المناسبات الأخيرة التي أقيمت تكريماً له منذ أن وطئت قدماه أرض البصرة .

ولكننا لم ننج بعد من المصاعب المحيطة بنا . فقد عمد الأشد حماساً من بين مؤيدي

---

(٩) هو الحفل الذي أقامته المدرسة الجعفرية في دارها الواقعة في محلة سوق الغزل . وحول هذا الحفل يقول المرحوم الأستاذ الدكتور علي الوردي في الجزء السادس من عمله الرائع لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث أن من بين من شاركوا في هذا الحفل هم جميل صدقي الزهاوي ، وكاظم الدجيلي ، وعبد الحسين الأزري ، وباقر الشبيبي والمحامي إبراهيم ناجي .وفيما يتعلق بموضوع البيعة يقول الوردي أن الشيخ أحمد داود هو الذي دعا المجتمعين قائلاً : «أتبايعون رجلاً بالملوكية غير سمو الأمير فيصل المعظم؟» وإزاء هذا السؤال انطلقت أصوات عالية تقول : «لقد بايعنا فيصل بالملوكية ولا نريد غيره .» ويستند الأستاذ الوردي فيما يقول إلى ما نقلته جريدة العراق في عددها الصادر في ١٩٢١/٧/١١ . والشيخ أحمد هو الذي كان قد عاد مؤخراً من هنجام . إلا أن الشيخ أحمد رحمه الله لم يكن محامياً ، ولا أدري إن كانت الآنسة بيل قد وقعت في سهو من أمر هوية الشخص المعني ، وأظنها قد وقعت في سهو إذ أن الشيخ أحمد هو الذي نادى بالدعوة وكان هو الذي قد عاد لتوه من هنجام بيد أنه لم يكن محامياً - المترجم

فيصل وأنصاره ، بدفع على ما أظن من لدن السيد محمد الصدر ، إلى تنظيم صيغة خاصة بالبيعة ، تضمنت الكثير من ما يتعلق بعراق مستقل ، يتمتع بحرية مطلقة ، انصرفوا إلى تعميمها على أبناء الشعب بغية التوقيع عليها . وقد عقدت النية على قيام البغداديين بحمل هذه الصيغة ونقلها إلى كل أنحاء البلاد من أجل أن يتم التوقيع عليها من قبل الجميع دونما استثناء أي من كبار القوم إلى الأقل شأناً من أبناء الشعب . ولابد أن يكون الأمر هذا قد تسبب بخلق مشاكل جادة إذ لا يحظى البغداديون بثقة أبناء المدن والقرى والأرياف الذين من المحتمل جداً أن يرفضوا التوقيع على الوثيقة . وقد زارني أمير ربيعة مستفسراً عن معنى هذه الصيغة مبيناً رفضه التوقيع على أية وثيقة تخلو من أي ذكر لتواصل وجودنا ، وهكذا كان موقف الشيخ عمران الحاج سعدون كبير قبيلة بني حسن ، وأحد قادة التمرد ، الذي زارني في أعقاب زيارة أمير ربيعة ، وهكذا أيضاً كان موقف العديد من الشيوخ الذين تساءلوا عما إذا كانت الوثيقة وما تتضمنه من إعلان يمثلان إجراءً تم اتخاذه من جانبنا ، وما إذا ينبغي لهم التوقيع عليه . ولكن الأمر سرعان ما تم وضعه في نصابه الصحيح ؛ فقد استدعى فيصل قبل يوم السيد ناجي السويدي وأمره بوقف هذا الإجراء بعد أن كان قد تم صباح ذات اليوم عقد اجتماع بين فيصل وكوكس تقرر من خلاله قيام السيد تومبسون Mr.Thompson مستشار وزارة الداخلية ، بتشكيل لجنة على الفور تضم في عضويتها رجالاً مثل السيد عبد المجيد الشاوي ، والسيد ناجي السويدي ذاته الذي كان قد أعد مسودة الصيغة غير الرسمية أنفة الذكر (فجاءت دعوته في الواقع خطوة تنطوي على الكثير من الكياسة والذكاء) وتضطلع بمهمة إعداد صيغة إعلان رسمي يتم تعميمه على كل المناطق عن طريق المتصرفين والقائمقامين . وانطلاقاً من ذلك فقد عمدت إلى طمأنة كل من زاروني من الشيوخ وأخبرتهم بالانتظار إلى حين استلام الإعلان الرسمي ، وهكذا تم لنا تجاوز مشكلة أخرى .

إنه لأمر ذو أهمية أن يبادر الكماليون إلى الانطلاق بحملة ساخنة في مضمار دعم مرشحهم (لعرش العراق) الشيخ أحمد الإدريسي السنوسي حالما سمعوا بخبر قدوم فيصل إلى العراق . وقد طرق سمعنا خبر هذه المبادرة للمرة الأولى في أعقاب قيام أحد مواطني مدينة الموصل بإطلاع السيد نادلر على وثيقة تدعو العراقيين إلى إعلان ولائهم للسنوسي سالف الذكر . أما الخبر التالي حول هذا الموضوع فقد جاء عن طريق أحد الأعيان المعروف بلقب نقيب سامراء والذي كان قد انضم إلى الأتراك في عام ١٩٠٨ ولكنه قد عاد إلى العراق مؤخراً . وعلى الرغم مما اشتهر به من ميل إلى المكر والمخادعة ، وجدتني ميالة إليه . وقد أخبرني بأن الأتراك قد كلفوه بجلب وثائق إعلان الولاء (للسنوسي) إليهم ولكنه رفض

الاستجابة إلى طلبهم هذا، إلا أنه ذكر أسماء آخرين قبلوا القيام بالمهمة. وفي اليوم ذاته توجه أحد الأفاضل إلى جعفر باشا وقدم له ثمانين وثيقة من هذه الوثائق طالباً منه عرضها على أنظار فيصل. ويتضح من ذلك أن دعوة السنوسي لا تجد لها أرضاً خصبة، وإن ما نصبوا إليه يتم تحقيقه على ما يبدو وهو أن وجود فيصل قد أحبط المساعي التركية وأفشل حملتهم الدعائية. كما أن حديث المقاهي يخلو من أي ذكر للأتراك في هذه الأيام بل يتمحور حول آخر خطبة لفيصل وما إذا سيكون هناك استفتاء عام.

إن قيام طيور برية، مثل نقيب سامراء بالتوجه إلى بغداد، والسعي إلى كسب رضا فيصل ومودته، هو بحد ذاته جانب يدفع إلى الارتياح. فالمخطط التركي السنوسي يخفق على ما يبدو في كسب ثقة العراقيين. ويقوم فيصل من جانبه بالتعامل مع مثل هذه المطالبات (أي وثائق إعلان الولاء للسنوسي) بكل ما يتطلبه الموقف من لباقة وكياسة وعقلانية، فهو يخبر حاملي هذه المطالبات بضرورة قيام مرسليها الخارجين على القانون بطلب العفو من السلطات الحكومية وبذلك فإنه يعمد إلى إرسالهم إلينا. وبعد أن يتم لي مقابلة هذه العناصر، أقوم في ضوء ما يصدره السير برسي من أوامر بإعلام فيصل بإعادتهم إلى الجهات التي كانت قد أرسلتهم بغية إعلامها بوجوب قيامها بمقابلة السير برسي.

وفي الرابع عشر من تموز توجب علينا حضور حفلة ساهرة أقامها القنصل الفرنسي بالمناسبة[١٠] وعلى الرغم من حرارة الجو التي كادت تذيبنا جميعاً فقد أمضينا وقتاً ممتعاً نتيجة قيام المدعوين بتبادل روايات مسلية تتعلق بما عاشوه من أحداث وتجارب في بلاد العرب. وكان القنصل الفرنسي قد استلم توجيهات من حكومته بصدد تجاهل فيصل والاستهانة به! إنه لن يكون موقفاً سهلاً عندما يصبح فيصل ملكاً!»

وتواصل جيرتروود كتابة رسالتها هذه في اليوم التالي إذ تقول: «إن قضية فلبي تتوضح معالمها تدريجياً. كانت تجربة مريرة بالنسبة لي - فإزاء دهشة السيد فلبي وزوجته المشوبة بالغضب الشديد حول إجراء كان قد جاء بالأساس نتيجة سوء تصرفه، فإنهما يعتبرانني الطرف الذي تسبب بإنهاء خدمته في العراق، أو على الأقل هذا ما تتصوره السيدة فلبي. إلا أنها قد أعادت النظر بموقفها مجدداً على ما يبدو، فقد جاءت في مناسبة قريبة لتتناول طعام الغداء على مائدة عائلة كوكس وكانت في غاية اللطف والكياسة في تعاملها مع بقية

---

(١٠) المناسبة هي ذكرى اندلاع الثورة الفرنسية (الأولى) التي قامت في الرابع عشر من تموز من عام ١٧٨٩ - المترجم

المدعوين ، كما حضر زوجها يوم أمس مأدبة غداء وداعية أقامها السير برسي على شرفه . وأثناء توجهنا إلى الدار بعد انتهاء الدعوة أخبرني بأنه يأمل في الحصول على عمل في مجال تسوية الأراضي في العراق وأنه يفكر في نبذ العمل السياسي كلياً . سأكون في غاية السعادة في حال تمكنه من العمل في هذا المجال فهو شخص كفؤ للغاية فضلاً عن حبه لهذه البلاد وتفانيه في خدمتها ، كما أنه ليس ممن يمكننا التفريط به .»

وفي السابع عشر من تموز كتبت جيرتروود إلى العقيد بلفور قائلة : «لابد أن أروي لك تفاصيل الأخبار المتعلقة بأصدقائنا . يقوم عبد المجيد الشاوي بزيارة فيصل صباح كل يوم . كما أنه يأتي إلى زيارتي في أغلب الأحيان . وعندما يحين موعد زيارته لفيصل فإنه يعمد إلى إخراج ساعته (من جيب صدرته) لينظر إليها بوقار قائلاً : خاتون ! يجب علي طلب الإذن منك بالانصراف إذ قد حان وقت زيارتي لصاحب السمو الأمير لأطلعه على أخبار المدينة . ياله من إنسان حبيب . كما أن فخري جميل من بين من تجدهم جلوساً في غرفة الانتظار لغرض مقابلة فيصل ، وقد اعتلت قسمات وجهه ابتسامة عريضة ، أما الشيخ أحمد داود فهو أضحوكة زمانه ، وذلك لأنه يواصل الجلوس على عتبة باب فيصل ، وينتصب واقفاً في كل مناسبة لترديد قسم الولاء والطاعة له «باعتباري مفوضاً من قبل الشعب» على حد تعبيره . ولابد أنه قد قام بهذا النشاط ما يربو على خمسين مرة ، بيد أنه جانب لا يحظى بأي اهتمام من قبل فيصل أو أي شخص آخر . كما أن فيصل متبرم من السيد محمد الصدر ويقول عنه إنه شخص لا يهتم لغير صالحه وبذلك فهو شخص لا حاجة له (أي لفيصل) به أبداً ، وعلى الرغم من ذلك فإن فيصل لا يهمل أبداً مراعاة شعوره ومجاملته لما يتمتع به من نفوذ معين . وقام يوسف السويدي بمنح نفسه لقب «أمير» وعمد إلى تثبيت هذا اللقب على بطاقات الزيارة الخاصة به[11] . إنه رد فعل ، على ما أفترض ، للمكانة الثانوية التي وجد أنه قد استنزل إليها . أما الشيوخ فإنهم يتزاحمون لزيارتنا ، فقد زارنا في الأسبوع الماضي كل شيوخ الفرات ، وسيزورنا شيوخ دجلة في غضون هذا الأسبوع . إن درجة حرارة الجو تصل حالياً إلى ١٢٢ درجة (فهرنهايت) الأمر الذي يعلل عدم انصرافي إلى الكتابة بتفاصيل أشمل . وأود ذكر أمر بالمناسبة وهو جانب يتعلق بطالب : إنه لم يكن ثملاً عندما قام بإلقاء كلمته أثناء مأدبة العشاء التي أقامها ! فالكلمة كانت قد أعدت

(١١) لا أرى غباراً على مثل هذا التصرف ذلك لأن جذور عائلته تمتد إلى بني العباس أي أنه سليل العباسيين الأمر الذي لا يجعل من توجهه هذا أمراً يثير الاستغراب على ما أعتقد - المترجم

مسبقاً وقد تم التمرين على أدائها باعتناء ودقة .»

وفي إطار رسالتها التالية والمؤرخة في العشرين من شهر تموز ، تشير جيرتروود مرة أخرى إلى السيد محمد الصدر بقولها : «إن خبيث القوم هو السيد محمد الصدر ، هذا العالم الديني ذو القامة الطويلة واللحية السوداء وسيمائه التي تنذر بالشر والذي قدر له الوثوب إلى الصدارة الخبيثة بوصفه المشاغب الأول وسمسار الشر في مسلسل التمرد الذي شهده القطر مؤخراً . فخلال تلك الأيام التي اختلت فيها موازين العقول كان ينظر إليه باعتباره شخصاً ذا قدسية وكان أبناء الشيعة يقبلون أذيال عباءات الذين يحظون بلمس يديه . وكنا قد حاولنا إلقاء القبض عليه إلا أننا أخفقنا في ذلك . بعد أن تمكن من أن ينسل من بغداد هارباً وراح يجوب القرى والأرياف ويثير أبناء القبائل ضدنا . وأخيراً ، وبعد أن انتهت اللعبة ، هرب مع بقية من هربوا من السادة والمشايخ والتجأ إلى مكة ، وبعد صدور العفو العام عاد إلى الوطن بصحبة فيصل . لقد رغب في أن يأتي بالدرجة الثانية بعد فيصل ، إن لم يكن في الدرجة الأولى في الواقع ، إلا أنه سرعان ما وجد نفسه في موقع مغمور نسبياً . ومنذ عودته لم أره إلا في اليوم هذا كما رأيته أيضاً في حفل أقيم بمناسبة افتتاح الكلية العسكرية ، أو ما يمكن تسميها بكلية ساندهرست الجيش العربي . وقد وصلت إلى موقع الاحتفال متأخرة ، وكان السيد محمد الصدر أول من شاهدني من المدعوين بسبب جلوسه إلى جانب السير برسي وفي أماكن الجلوس المخصصة لكبار الشخصيات . بدا أشبه بالشيطان تماماً ، وقد حدجني بنظرة عابسة عندما بادرته بالتحية . لم يعره أحد أي اهتمام بالمرة(١٢) .»

وفي الرابع والعشرين من تموز كتبت قائلة : «استدعاني فيصل ودار بيننا حديث طويل سألته أثناءه عن زوجته ، وهي ابنة عمه ، وبينت له رأيي حول ضرورة تشجيعها باتجاه تحديد موقع خاص بها وإقامة بلاطها الخاص بها . اعتراه الخجل عند ذكر زوجته وهذا ديدنهم جميعاً فيما يتعلق بنسائهم لظنهم بأنهن من الجهل بما يحول دون تعريفهن بالناس ، ومع ذلك فقد وافقني على ضرورة الانصراف إلى اتخاذ الخطوة الأولى في هذا المجال .»

وفي السابع والعشرين من تموز كتبت إلى أبيها قائلة : «سوف أرسل لك خطاباً بالطائرة آملة أن يصلك بعد سبعة أيام أو ثمانية ، وقد عمدت إلى ذلك لكي أشعر كما لو كنت قريباً

---

(١٢) يعود هذا التهجم على شخص دولة المرحوم السيد محمد الصدر أساساً على ما أظن إلى مواقفه الوطنية المشهودة ومكانته الدينية والسياسية وإلى واقع أنه لم يكن من بين من اعتادوا التردد على مكتبها والتملق لها - المترجم

مني بدلاً من الشعور بهذه المسافة الهائلة التي تفصل بيننا . إن رسالتك المؤرخة في الثامن والعشرين من حزيران لم تخل من نغمة قنوط فيما يتعلق بثروة العائلة ، وإن مجابهتك لظروف عسيرة لأمر صعب للغاية ، بيد أنها محنة سرعان ما ستجد طريقها إلى الزوال «إن شاء الله» تماماً مثلما تتلاشى المصاعب التي راحت تحيط بمهمتنا هنا ، وتزول فعلاً إلى الأبد ليحل النجاح محلها . فلا تقلق أيها العزيز ولا تشغل نفسك بأمر هذه الظروف وذلك لأن ما يحصل لابد له أن يحصل ولابد لنا بدورنا أن نتكيف معه ، والجانب الأهم في الأمر كله هو أن تكون بخير وتشعر بسعادة .

لقد انتهى موسم الحر الشديد وقد هبطت الحرارة لتصل إلى درجة ١١٥ (فرنهايت) ، بل وأقل من ذلك أيضاً ، وهي درجة يمكن للمرء احتمالها ، كما أنني على ما يرام وأتمتع بصحة جيدة» .

يمكن القول أن التجمع العشائري الكبير الذي شهدته مدينة الرمادي على مدى بضعة أيام في نهاية شهر تموز ، والذي تم تنظيمه تكريماً لفيصل ، يعتبر الحدث الأكثر أهمية . وكانت جيرتروود من ضمن الموكب الذي توجه إلى الرمادي ، فقد استقلت سيارة رسمية خاصة سارت مباشرة خلف سيارة فيصل على طريق اصطف فرسان من الخيالة العرب على القسم الأكبر من كلا جانبيه ، كما انتظمت حشود من أبناء العشائر على طول الستة أميال الأخيرة الممتدة بين مدينة الفلوجة والعبارة[١٣]

وفي الحادي والثلاثين من تموز واصلت الآنسة جيرتروود بيل كتابة تفاصيل الحدث آنف الذكر قائلة : «وعند موقع العبارة نصبت خيمة ديليمية كبيرة وقف عند بابها سهروت ابن فهد بك بن هذال . وفي هذه الخيمة عقد فيصل مجلساً مصغراً جلسنا بعده حول سماط فرش على الأرض وامتدت فوقه أوان مستديرة من الأرز والدجاج المحمر واللبن الخاثر . وبعد هذه الوجبة من الطعام قمت بصحبة فيصل واثنين آخرين بالعبور إلى الجهة الثانية من النهر في قارب صغير بينما عبرت السيارات على ظهر المعدية . وكان الشيخ فهد بك بن هذال يقف في استقبالنا على الجانب الآخر من النهر . كانت لحظة رائعة ؛ فقد كان فهد

---

(١٣) العبارة أو المعدية ، ويسميها أهل العراق المهيلة ، وهي مركب نهري كبير لنقل الأشخاص والدواب والعجلات بين جانبي الأنهر ، وكانت كثيرة في العراق إلا أنها سرعان ما أخذت تزول بازدياد عدد الجسور ، وكانت هذه العبّارة بالذات من بين تلك التي كانت تستخدم في نهر الفرات وقد استعيض عنها بجسر عام في بادئ الأمر قبل بناء الجسر الثابت الموجود حالياً – المترجم

بك يعارض بشدة (قيام) حكومة عربية ، وفيصل بالذات لأنه (أي فيصل) كان يمثل شيئاً بغيضاً غير بريطاني . ولحسن الحظ فإنه (أي فهد بك) كان قبل يوم أو يومين قد استلم رسالة تهديد من ابن سعود ينذره من خلالها بأن قبيلة عنزة وأفرادها أتباع له (أي لابن سعود) و عليه فإنه يحذره من مغبة خدمة «أي منكود عربي أحمق» قد يتقرر تنصيبه في بلاد ما بين النهرين . قد يرغب فهد بك بخدمتنا باعتبارنا أصدقاء ابن سعود ، بيد أنه يرفض تماماً خدمة أي طرف آخر . وقد سارع إلى الإفضاء بمحتوى هذه الرسالة إلى فيصل الذي وجد فيه مستمعاً متعاطفاً ! (أرجو منك يا أبتاه عدم إذاعة هذا الخبر لاسيما وأن السير برسي عازم على تسوية هذا الأمر مع ابن سعود الذي تجاوز حده .)»

في مدينة الرمادي التي لبست حلة زاهية بهذه المناسبة ، حلت الآنسة جيرتروود بيل ضيفة على المتصرف وبما أن مذكراتها (تحرير اللادي بيل) تضم وصفاً نابضاً بالحياة للاحتفالين الكبيرين اللذين شهدا بيعة فيصل ، واللذين خُصص الأول منهما لأبناء القبائل والآخر لأبناء المدينة ، لا أجد موجباً لتكرار التفاصيل المتعلقة بهما إذ بإمكان القارئ الكريم الرجوع إليها إذا ما رغب في ذلك . ولعل اللحظة التاريخية التي ستبقى حاضرة في الذهن دوماً هي تلك التي التفت فيها فيصل نحو الآنسة بيل بنظرة تساؤل أثناء إلقائه كلمته الموجهة إلى أبناء القبائل ، وهي النظرة التي أجابته فيها الآنسة بيل بشبك يديها ، إحداهما بالأخرى ، ورفعهما إلى الأعلى تعبيراً عن الوحدة بين البريطانيين والعرب .(١٤)

ثم تواصل جيرتروود رسالتها هذه بالقول : «وبعد انتهاء هذه المراسم الاحتفالية انطلقنا

---

(١٤) تذكر الآنسة بيل في إحدى رسائلها (رسائل جيرتروود بيل - تحرير اللادي بيل) السبب الذي دفع بفيصل إلى الالتفات نحوها في هذه المناسبة قائلة إنه (أي فيصل) بعد أن انتهى من كلمته الموجهة إلى أبناء القبائل ، نهض الشيخ علي السليمان وفهد بك ابن هذال كل من جانب وقالا : «نبايعك لأن الحكومة البريطانية قد قبلت بك !» وعلى الرغم من دهشة فيصل من هذا الإعلان غير المتوقع ، فإنه سرعان ما تمالك نفسه وأجاب بلباقته واتزانه المعهودين قائلاً : «إن علاقتي مع الإنجليز معروفة ، لاشك فيها ، ولكن علينا أن نسوي أمورنا فيما بيننا .» قال ذلك ثم نظر إلى جيرتروود التى سارعت إلى إجابته برفع يديها على نحو ما هو مبين أعلاه . ويرى الكاتب العربي ، الأستاذ أمين الريحاني ، في كتابه الموسوم «فيصل الأول» (بيروت - ١٩٥٨) أن الإنجليز هم الذين عمدوا إلى تدبير هذا الاحتفال الكبير لأبناء القبائل لكي يثبتوا لفيصل بأنهم حلقة الوصل بينه وبين هذه الشريحة الهامة من أبناء العراق - المترجم

جميعاً في مسيرة انتهت عند منزل الرائد ييتس Major Yettes[١٥] حيث عقد فيصل عدداً من اللقاءات الخاصة مع الشيوخ بينما انهمكت أنا في حوارات ممتعة مع العديد من الأصدقاء الذين لم أكن قد التقيت الكثيرين منهم لفترة طويلة من الزمن . وقد جلسنا في فناء الدار حتى المغرب لننتقل بعد ذلك إلى سطحها الذي فرشت أرضه بالسجاد ووضعت فوقها الكراسي والأرائك . جلسنا هناك نتجاذب أطراف الحديث حتى موعد العشاء . كان فيصل تواقاً لمعرفة التفاصيل الخاصة بالمناطق الأثرية ، وقد حدثناه - أنا وفهد بك - عن قصر الأخيضر الذي يرى الشيخ فهد في المناطق المحيطة به أفضل أماكن الرعي لأغنامه . وقد انهمك أكبر وجهاء مدينة الرمادي بإعداد العشاء لنا والذي حرص على جلبه إلى حيث جلسنا . هناك الكثير مما يمكن للمرء منا الإشادة به فيما يتعلق بأية مأدبة عشاء عربية ، فأنت تجد أطايب الطعام مصفوفاً أمامك لتتناول منها ما تشاء ثم تعود بعد ذلك مرة أخرى إلى تناول ما تشاء من القهوة وتدخين ما تريد من السجائر . ولقد اعتاد فيصل هذا النمط من الأكل وبذلك تجده نافد الصبر خلال الولائم التي تقام على النمط الأوربي إذ أنه يرغب في ترك مائدة الطعام حال انتهائه من الأكل . وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث لفترة من الزمن آويت إلى فراشي الذي كان قد أعد لي فوق سطح دار المتصرف والذي راحت ترفرف فوقه أعلام (مملكة) الحجاز . وقد غمرني شعور عميق بالارتياح إزاء تمكن المرء منا من النوم بأمن وسلام في ظل العلم الشريفي تماماً كتمكنه من النوم كذلك في ظل العلم البريطاني .

وفي اليوم التالي قفلنا راجعين إلى بغداد إثر ورود أخبار مقلقة تنذر بالخطر . فقد بذلت المجموعة المتطرفة جهوداً مضنية لاستبدال الصيغة الرسمية للبيعة بأخرى تشير ضمناً إلى رفض الوجود البريطاني كلياً . وقد قام فيصل إثر ذلك باستدعاء السيد محمد الصدر ، الذي كان مسؤولاً عن هذا الأمر ، بغية إنذاره بأنه (أي فيصل) بعد أن بات ملكاً من الناحية العملية لن يتسامح مع أية صيغة من صيغ العبث بالأمن والسكينة ، وإن من تسول له نفسه الانصراف إلى مثل هذه الممارسات ينبغي مجابهته بكل ما يترتب على أعماله من إجراءات مناسبة . وقد أوضح نهجه هذا من خلال كلمة تميزت بالحكمة والبلاغة وجهها صباح يوم أمس في الاحتفال الخاص بأبناء الطوائف المسيحية الكاثولكية . قال فيصل في هذه المناسبة : « على مدى ثمانية قرون من الزمن ، عانينا من نير العبودية والاستبداد . فلو

(١٥) الضابط السياسي للمنطقة والذي كان مقره في مدينة الرمادي - المترجم

أعطيتموني عاماً من كل مائة عام ، بل من كل مائتي عام ، سترون ما يمكننا أن نحققه في ظل استتباب السلام وديمومته .» ثم انتقل بعد ذلك موضحاً ما مفاده أن لا أمة يمكنها البقاء والتواصل بمفردها ذلك لأنها تشكل جزءاً لا يتجزأ من المجتمع العالمي . والعرب فوق كل شيء بحاجة ماسة إلى المساعدة . وهنا لابد من طرح هذا التساؤل : هل يمكننا التوجه إلى طلب المساعدة من طرف غير بريطانيا ، الأمة الأقرب إلينا جغرافياً واقتصادياً ؟ وإذ أتوجه إلى البريطانيين بطلب المساعدة ، فإنني أقوم بذلك باعتباري رجلاً حراً يطلب العون من شعب حر ، وصديقاً ينشد المساعدة من صديق .

وفي المساء ذهبت لتناول الشاي مع فيصل ، وقد عرج علينا كورنوالس فقضينا وقتاً ممتعاً في تبادل الأحاديث واستنزال اللعنات على كل من لا نودّ من الأشخاص مع تدارس كيفية التعامل معهم . وفي طريق عودتي إلى الدار التقيت السير إيلمار الذي كان يحاول الاتصال بي (من أجل مناقشة جوانب معينة) فدعوته للتوجه معي إلى داري . إنه تواق جداً إلى اتخاذ كل ما من شأنه أن يدفع بالأمور إلى مسارها الصحيح ، فهو يحب فيصل ويجد نفسه على أتم استعداد لتقديم كل ما يلزم من تسهيلات وعون في مضمار تشكيل الجيش العربي .»

قبل السادس من آب ، أي موعد رسالة جيرتروود بيل التالية ، كان الاستفتاء العام قد أوشك على الانتهاء ، وخلت صيغه المعتمدة من أي نص معاد للبريطانيين بل إن مناطق معينة عمدت في الواقع إلى مبايعة فيصل شريطة قبوله بالتوجيهات البريطانية . وفي إطار هذا السياق ، كتبت الآنسة بيل قائلة : «أقام أبناء الطائفتين البروتستانتية والأرمنية حفل استقبال يوم الاثنين على شرف فيصل في فناء الكنيسة الأرمنية ، وكان في الواقع من أجمل ما أقيم على شرفه من الاحتفالات . بدا فيصل في غاية السرور والانشراح ، وقد دعاني إلى الجلوس إلى جانبه بينما جلس الأسقف الأرمني في الجانب الآخر منه . وقد شعرت في بادئ الأمر بأنه (أي فيصل) قد بالغ في الإعلان عن العلاقة الحميمة التي تجمع أحدنا بالآخر ، إلا أن الاستجابة إلى الرغبة السامية بدت السبيل الأفضل .»

وفي مضمار دأبها المتواصل على شرح التفاصيل المتعلقة بما بات لديه (أي لدى فيصل) من مواقع أثرية (كذا) استفاقت في ساعة مبكرة من اليوم التالي أي الثلاثاء ، لتصطحب الأمير وجمعاً من المقربين في رحلة صباحية إلى المدائن . بعد ذلك عادت إلى المكتب لمواكبة زخم عملها اليومي الاعتيادي الأمر الذي أرهقها في نهاية اليوم فكادت تشعر على حد تعبيرها «ميتة أكثر من كوني على قيد الحياة ، حتى لو لم أكن قد نهضت من الفراش

قبل الخامسة صباحاً . وبسبب موعد مسبق مع النقيب لم أستطع أخذ قسطي من الراحة عصر ذلك اليوم . وبصدد ذكر النقيب لابد لي من القول أن محبتي له اليوم قد تضاعفت برغم أن ما أراد التعبير عنه قد استغرق زهاء ساعة ونصف من الزمن . بدا في غاية الانشراح وفي قمة السعادة للدور الذي لعبه . وقد قال لي بهذا الصدد : «خاتون ! إنك بمثابة ابنتي وبذلك أود أن أخبرك بكل ما دار في رأسي من أفكار - فمنذ وصول السير برسي إلى بغداد لم أخالفه في مشورة ، ولم أعمل ضد رغبات الحكومة البريطانية أبداً . وعندما وجدت أن فيصلاً يصلح أن يكون ملكاً ، وأدركت أنه يحظى بتأييد من لدن الحكومة العظمى ، عقدت النية على تجاهل كل صيغ الكلام والشائعات والوقوف بثبات وعزم في المجلس للمجاهرة به ملكاً . فكرت في بادئ الأمر باحتمال استشارة السير برسي كوكس[١٦] إلا أن أفكاري وقناعاتي سرعان ما وفرت علي عناء هذا التوجه ، وعليه قررت عدم استشارة أحد بل الانصراف إلى اتخاذ ما يمليه علي ضميري من قرار . فلو شاء السير برسي معارضتي أتظنين بأنني قادر على الوقوف في وجهه وإجباره على تغيير رأيه؟ وبصفتي شيخاً طاعناً في السن لا أعتقد بأنني مسؤول تجاه أحد باستثناء خالقي سبحانه وتعالى ولذلك لم أستشر أحداً » . إن التعامل مع كرام الناس من أبناء الأسر العريقة لشرف وحظوة ، ولا يوجد من هو أحسن من النقيب سلوكاً ورفعة .

شهد منتصف الأسبوع حدثاً غريباً من نوعه يتعلق بإحدى الصحف اليومية التي قام رئيس تحريرها باقتباس بعض ما ورد في صحيفة مصرية ، وفي دورية Echo de Paris (صدى باريس) ، وذلك حول السياسة الفرنسية في سوريا ، كما وعد قراءه بنشر افتتاحية تتعلق بالموضوع في عدد اليوم التالي ، وعندما حل اليوم الموعود صدرت الجريدة من غير الافتتاحية الموعود بها وقد قمت من جانبي بصرف النظر عن الأمر برمته ظناً مني أن رئيس التحرير آنف الذكر قد أخذ تحذيراتي موضع الاعتبار وكف عن نشر ما وعد قراءه به . إلا أن القنصل الفرنسي - هذا الخناس الخبيث - كان له موقف مختلف ، فقد قابل السير برسي وأعلن احتجاجه حول مقال لم يتم نشره . ونتيجة لذلك استدعاني السير برسي وأمرني باتخاذ كل ما يلزم للحيلولة دون كتابة هذا المقال ونشره ، وقد قمت بدوري بتوجيه رسالة بهذا الخصوص إلى رئيس التحرير المعني الذي سارع إلى الحضور إلى مكتبي في السابعة والنصف من صباح اليوم التالي ليخبرني بأن رسالتي جاءت متأخرة ، إلا أن الصحيفة لم

(١٦) بصدد تأييد مرشح آخر على ما أفترض - المترجم

تكن قد صدرت بعد ، وطلب مني الإذن من أجل قراءة مضمون الافتتاحية أمامي . كان عنوان الافتتاحية «سياستان» مشيراً من خلالها إلى علاقات البريطانيين والفرنسيين بكل من العرب والأتراك ، ومتتبعاً أطوار السياق الخاص بهذه العلاقة من الناحية التاريخية . كان مقالاً متميزاً تمكن من إصابة المرمى ، وطرح التفسير الصحيح ، بخصوص كل ما تم تناوله من جوانب الأمر الذي من شأنه أن يجعل القنصل الفرنسي يزداد غضباً إزاء كل نقطة منصفة من النقاط التي يعمد المقال إلى ذكرها . وقد أعلن رئيس التحرير سالف الذكر عن استعداده لاتخاذ ما يلزم بصدد منع توزيع الصحيفة في حال عدم موافقتي على نشر المقال . وقد أعلمته بدوري بترددي عن اللجوء إلى هذا الإجراء بيد إنني طلبت منه أن يمهلني كي أتمكن من مداولة الأمر مع المندوب السامي الذي عمدت إلى إعطائه نبذة موجزة عن فحوى المقال والذي أشار بجدوى منع توزيع الجريدة . وبذلك قمت بشراء كل نسخ العدد وعمدت إلى حرقها . وقد تم لنا وفق هذا الإجراء شراء السلاح الأفضل ضد القنصل الفرنسي في حال قيامه بتكرار تذمره واحتجاجاته . إني عازمة على إلحاق الأذى به بأي حال من الأحوال ! إن الصحف السورية التي يقوم الفرنسيون بتمويلها ودعمها تزخر بالمواقف المعادية ، وعبارات الشتم الموجهة ضدنا وضد فيصل . وقد قمت بدوري بمنح رؤساء تحرير الصحف المحلية الإذن المطلق باقتباس كل ما تنشره الصحف السورية بهذا الصدد والتعليق عليه .

وقد قمت بإعلام فيصل بتفاصيل هذا الأمر ، وزودته بنسخة من المقال الذي مُنع نشره . ومثل ورقة رابحة ، فإن نهجه (أي نهج فيصل) جاء في اليوم التالي منسجماً تماماً مع التوجه الذي يعود علينا بالفائدة[١٧] . فقد شاءت الظروف أن يكون هناك حفل استقبال أقيم في المدرسة الإيرانية في بغداد ، وحضرته كعادتي في مثل هذه المناسبات ، إلا أن حضوري هذه المرة كان أكثر ضرورة بسبب وجود السيد محمد الصدر ، منظم الحفل ، وكنت أخشى من احتمال أن يصار إلى ذكر ما لا يعتبر ملائماً وناسباً من المواضيع وبذلك كان لحضوري مثل هذه المناسبات دور حاسم في مجال التأكيد على ممارسة ضبط النفس من قبل المشاركين . وقد حضر السيد محمد الصدر قبيل تشريف الأمير ، وعند دخوله القاعة وقف الحضور له احتراماً وتقديراً ، أما أنا فبقيت جالسة دون حركة مكتفية بتحيته على غرار ما

(١٧) أود إعلام القارئ الكريم بأن تعليقي على هذه الملاحظة سيأتي في مناسبة لاحقة من هذا العمل عندما تغدو «ورقة» جيرتروود «الرابحة» ورقة خاسرة بعد أن يتضح لها ولزملائها البريطانيين بشكل قاطع أن هذا الأمير القرشي لم يكن في واقع الأمر الأداة الطيعة التي تصوروا ! - المترجم

اعتدته مع غيره من الناس ، أي أنني قمت بتحيته بعد جلوسه في المكان المخصص له والذي كان على يسار موقع الجلوس المخصص للأمير بينما كنت أنا في الجانب الأيمن منه . أما عند دخول الأمير فيصل فإنني انتصبت واقفة بنشاط ملحوظ ! ويمكن القول أن الأمور سارت سيراً حسناً حتى الجزء الأخير من الاحتفال عندما نهض شاب أحمق وألقى قصيدة حول عرش بيروت وجبال لبنان (كذا) وما يصبو إليه العرب جميعاً من هدف . وقد همس فيصل في أذني متسائلاً ما إذا كنت قد فهمت معنى العقيدة وعندما أجبته بنعم قال : «لابد لي من قول بضع كلمات حول الموضوع .» هتفت له مشجعة . قال : « هذا اجتماع خاص ، وليس لما يطرح فيه من أمور أية أهمية سياسية ، وإنه لمن دواعي أسفي أن أسمع قصيدة رشيد هذه(١٨) .» وهنا ساخ رشيد في الأرض خجلاً . ثم واصل فيصل قوله : « ولو أنني

---

(١٨) إنه الشاعر العراقي رشيد يحيى الهاشمي (١٨٩٦ -١٩٤٣) . ولابد لنا من وقفة هنا لتوضيح أوجه التناقض بين ما أوردته الآنسة بيل ، والذي ينطوي على كثير من الخلط وسوء الفهم ، وبين ما تشير إليه المصادر العراقية . فوفق ما جاء على لسان الآنسة بيل ، فإن المناسبة كانت حفلة استقبال في المدرسة الإيرانية في بغداد وإنها قد تمت قبل حفلة تتويج الأمير فيصل ملكاً . إلا أن وثيقة البلاط الملكي العراقي المرقمة (٣٠٨) من الإضبارة المرقمة ك/١١ تشير إلى أن المناسبة قد أعقبت حفلة التتويج وأن مسرح الحدث كان مدينة الكاظمية لا المدرسة الإيرانية . وقد حضر جلالة المغفور له الملك فيصل الأول هذه المناسبة تلبية لدعوة رفعها إلى مقامه السامي السيد محمد الصدر الذي هنأ جلالته بالتتويج ووجه له دعوة لزيارة الكاظمية والتيمن بمشهد الإمام الكاظم . ويذكر السيد عبد الله الجبوري ، الأمين الأسبق لمكتبة الأوقاف العامة في بغداد ، في كتابه الموسوم «ديوان رشيد الهاشمي» (مطبعة المعارف - بغداد - ١٩٦٤) الذي ساعد المجمع العلمي العراقي على طبعه ، أن الحفل آنف الذكر يترأسه العلامة المرحوم حسن الصدر ، وقد أقيم بتأريخ الخامس والعشرين من آب من عام ١٩٢١ . وقد قدم السيد محمد الصدر سيفاً ذا غمد مذهب إلى الملك ، وارتجل كلمة طلب فيها تحقيق أماني الشعب أجاب جلالته بعدها قائلاً بأنه سيبذل جهده في هذا السبيل . ويبين الأستاذ الدكتور علي الوردي في الجزء السادس من عمله الرائع «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» أن المناسبة شهد حدثاً مفاجئاً لم يكن مقيمو الحفل على علم مسبق به وهو قيام الشاعر رشيد الهاشمي بإلقاء قصيدة ثانية بعنوان «عتاب من نار» لم تخل من غمز بالملك . أما عبد الله الجبوري فيذكر أن القصيدة كانت ضمن البرنامج المقرر للحفلة . ومهما يكن الأمر ، فقد جاء في بعض أبياتها ما يلي :

يا لابس التاج في بغداد هنيئا

به إذا كنت لاستقلاله جيتا

==

أدركت نيته في إلقاء قصيدته هذه لمنعته من ذلك . أرجو أن تعمدوا إلى توجيه أفكاركم صوب إقامة دولة عربية في بلاد ما بين النهرين فقط لا شيء آخر غير ذلك .»
كان لكلماته وقع مؤثر ، بل أنها سرعان ما أضحت حديث المجالس في كل أرجاء

== لا يكمل التاج إلا أن يكون له
جيش يشتت شمل الذل تشتيتا
فزنه بالعدل والعدل الأعم ولا
ترصع لزينته دراً وياقوتا
واستعمل الحزم وأنقذ أمة نصبت
من بعد نهضتها للذل طاغوتا
نبهت للشعب عيناً وهي راقدة
وقمت توقظ روحاً كان مبهوتا
يا قائد الشعب لا تفسد قيادته
ولا يرى لك حبل العهد مبتوتا
هذا العراق وقد ناداك ساكنه
حييت إنك أنت الحر حييتا
فقم على عرش كسرى إن هممت بأن
تقارن الشام من نجد وبيروتا
واضرب بنا جبهة الباغي ، فإن لنا
بأساً ، يرد عليه البغي مكبوتا
واهجم على الشام واركز عند هامته
رمح العراق وجاورها بتكريتا
وانشر على كل أهل الضاد رايتنا
إنا نشرنا لهم بين الورى صيتا
ماذا أقول لقوم بيننا نقضوا
عهداً رأيناه عند الضيق مثبوتا؟
فهل من الحق والإنصاف أن يذروا
حليفهم في اشتداد الخطب مبغوتا؟

المدينة . ألا تظنه زميلاً رائعاً ؟

تناولت العشاء ليلة أمس بصحبة السير أيلمار هالدين قبل لقاء فيصل الذي كان في غاية الانفعال إزاء ادعاء ابن سعود بأن القبائل البدوية كافة تخضع لسيادته لا سيما قبيلة

== يا أمة نقضت بالشام حلفتنا
لقد عطست ، فهل أسمعت تشميتا
غاضت ينابيع لبنان فوا أسفي
عليه إن كان بعد الخصب سبروتا!
أتزعمون بأن الأمن منتشرُ
وكل يوم نرى منكم مهاريتا
أين العدالة؟ ما شاهدت عندكم
إلا الدعاية تحكي سحر هاروتا
عمت مظالمكم في الأرض شاملة
الناس والوحش في الصحراء والحوتا
هذا حسامك ، خذه للدفاع ، ولا
تجعل لجسمك غير العز تابوتا
ونحن قوم بنينا من جماجمنا
عرش العراق فشبتناه تشبيتا

كان حقاً عتاباً من نار شمل الأطراف كافةً دون استثناء . وبعد أن فرغ من إنشادها أمر الملك رجال الشرطة بإلقاء القبض عليه إلا أنه تمكن من الفرار واللجوء إلى بيت السيد حسن الصدر بمساعدة الأستاذ سامي خنده والد صديق طفولتي وزميل دراستي الابتدائية والثانوية الأستاذ الدكتور سرمد سامي خنده . وقد روى الأستاذ سامي خنده تفاصيل تهريب الهاشمي إلى كل من الأستاذ الدكتور علي الوردي والسيد عبد الله الجبوري . ومن طريف ما يبينه الأستاذ الوردي من تفاصيل ، أن جريدة دجلة التي وصفت الحفلة في اليوم التالي قد نشرت قصيدة أخرى تضمنت مدحاً للملك . ولابد أن الشاعر كان قد أعد قصيدتين على ما يبدو أنشد إحداهما في الحفلة وأعطى الثانية إلى الجريدة وهذا ما يثبت بطريقة غير مباشرة أن إلقاء القصيدة في الحفلة كان أمراً مبيتاً سلفاً وإن جاء مفاجأة لبعض الحضور . وفي كل الأحوال تأتي تفاصيل هذه الحادثة بشكل قاطع وبإثبات مضاف يوضح افتقار بعض السياقات التي توردها الآنسة جيرترورود بيل إلى الدقة . ترى هل تجنح الآنسة بيل أحياناً إلى اختلاق تفاصيل لا وجود لها بهدف إثبات نقطة ما أو أخرى؟ الله أعلم- المترجم

عنزة وشيخها فهد بك بن هذال . وبهذا الصدد قال فيصل : (يشهد الله على أننا سنعيش مرة أخرى أحداث معركة «فتح الفتوح» التي وصفتها لي أنت يا جيرتروود(١٩) في حال تم الإخفاق في وضع حد لتجاوزات ابن سعود) .

جاء نوري باشا لزيارتي مساء اليوم ، ولابد لي من ذكر فقرة من جملة ما دار بيننا من حديث . وأكرر عليك ثانية ضرورة التقيد بعدم البوح بما أكتبه لك من أحداث . أخبرني نوري قائلاً : إن الناس يميلون إلى رؤيتك في الاجتماعات التي تعقد ترحيباً بالأمير فيصل ، وإنهم يدركون أن كل شيء على ما يرام حيثما تكونين . إنهم يظنون بأنك مسؤولة عن تقويم مسار السير برسي ونهجه . وقد أجبت بدوري قائلة : هذا كلام غير دقيق فالأمور تسير وفقاً لسياسة السير برسي منذ البداية . عند ذلك أجاب نوري قائلاً : هذا صحيح ، ولكن النهج هذا كان نهجك منذ البداية وقبل مجيء السير برسي لاستلام زمام الأمور . إن أبناء الشعب يدركون جيداً أنك كنت ولا تزالين تنادين بفكرة إقامة دولة عربية وبذلك فإن رؤيتك في المحافل والمناسبات يزيد ثقتهم بهذا النهج .»

وفي اليوم ذاته ، أي بتاريخ السادس من شهر آب ، كتبت جيرتروود رسالة أخرى وجهتها إلى صديقها السير فالنتاين شيرول قالت فيها : «ثمة مقال مسموم كتبه ستانلي ريد Stanley Reid في جريدة التايمز ، بعددها الصادر في السادس من شهر تموز المنصرم ، دفعني اطلاعي على فحواه إلى اللجوء إليك مستنجدة . إننا لا نتمكن من الإجابة على مثل هذه الطروح لبعد المسافة التي تفصلنا عن الوطن . إن دوائر الدولة المعنية لا تنصرف على ما يبدو إلى الالتفات إلى مثل هذه الجوانب وتصحيح ما يرد فيها من طروحات غير صحيحة ، فهل لك أن تعمل على نجدتنا من وقت إلى آخر؟ بإمكانك الحصول على كل الرسائل التي بعثتها إلى أبي منذ وصول فيصل - ستجد فيها كل التفاصيل المطلوبة ، ولكنك ستدرك أن لها طابعها الشخصي وأن الكثير من ما ورد فيها لا يمكن اقتباسه بيد أنها ستعطيك صورة واضحة عن الجو العام . إن الاستفتاء حول قيادة فيصل ، وما ينطوي عليه

(١٩) لعل الأمير فيصل رحمه الله لم يكن قد شاهد آثار «المدائن» قبل قدومه إلى العراق ليتبوأ عرشه ، ولكن هل يعقل أنه لم يكن واعياً بما كان لدى العراق من أماكن أثرية لا سيما ما يتعلق منها بسياقات الفتوحات الإسلامية الكبرى؟ وهل كان رحمه الله بحاجة إلى من يشرح له تفاصيل واقعة «فتح الفتوح» واندحار يزدجرد على يد القوات العربية الزاحفة؟ إن المعروف عن جلالة الملك فيصل رحمه الله أنه كان على أقل تقدير شخصاً عالماً بتفاصيل تاريخ بلاده وأمته بوصفه أحد قادة الثورة العربية الكبرى ، فهل كان بحاجة إلى الآنسة بيل أو لغيرها ليبينوا له جانباً كهذا ؟ - المترجم

من إجماع في الآراء حول هذا المرشح ، إنما تم لأنه (أي فيصل) مرشحنا وإننا في الوقت الراهن نتمتع بنفوذ منقطع النظير - فالشعب يثق بنا ، كما أن فيصل من جانبه على استعداد تام للقبول بهذا الوضع الذي يمكنه من نبذ العناصر المتطرفة التي كان تأييدها له مصدر قلق وخوف إثر اكتشافه في سوريا أن هذا التأييد لم يكن أكثر من جرف منهال وقاعدة أضعف مما يمكن الاعتماد عليها . لقد اكتسب من فشله في سوريا خبرة قيمة . إنه إنسان كفؤ وقد بدأ بالوقوف على قدميه والاعتماد على نفسه ، وهو الهدف الذي ننشد ؛ إننا نرغب في قيامه تدريجياً بالاضطلاع بمهمة حكم البلاد والسير بها قدماً . إنه يراعي في الوقت الحاضر الالتزام بلعبتنا وشروطها مدركاً في الوقت الحاضر أنها لعبته وبذلك فإنه يعمد إلى صد العناصر المتطرفة بلطف وكياسة ، ويقف معنا موقف المعاون في كبح جماح الصحف العربية ، ويقوم بكيل اللوم إلى الفرنسيين ، ولا يضمر أي شعور بالعداوة والحقد نتيجة الكارثة السورية التي عاشها والتي يكتفي بالإشارة إليها باعتبارها مجرد سوء طالع وتجربة مرة ليس إلا ، فضلاً عن الانصراف إلى الإعلان عن آرائه اللبرالية النيرة دونما خوف أو وجل . إن عدم شعوره بالخوف إنما ينطلق من إيمانه بأننا نقف خلفه ونمده بالدعم والعون ، وهكذا فهو يثق بنا شأنه بذلك شأن أفراد الشعب . ويمكن وصف علاقتنا الشخصية به بأنها من الروعة بما تعجز الكلمات عن التعبير عنها . إننا (أي نحن وفيصل) نعمل من أجل تحقيق ذات الهدف ، وبذلك تجدنا نعمد إلى التشاور معاً من أجل اعتماد الصيغة الأمثل التي تقودنا إلى هذا الهدف .

لابد لك أن تدرك ، ياعزيزي دمنول ، أننا - ولو لمرة واحدة فقط - نحاول إعطاء جزء معين من الشرق فرصة أمينة ومنصفة لكي يتمكن من ترتيب شؤونه وتنظيم أموره . فإذا ما كتب لنا النجاح في هذه التجربة لن يكون من غير المحتمل أن نعمد إلى محاولة تعديل (وتحسين) أسس العلاقة القائمة بين بريطانيا وآسيا . إنها لمهمة كبيرة تلك التي ننصرف إلى القيام بها . وعلى الرغم من عدم ميلي إلى المبالغة في مدح ذاتنا ، إلا أن ممارسة شيء من التمدح (وذكر الإنجازات) من وقت إلى آخر قد يوفر لنا رد الفعل الكافي الذي من شأنه أن يكتم أصواتاً كصوصأة ستانلي ريد المبتذلة ويضع حداً لها . فهل لك يا عزيزي دمنول أن تعمد إلى إسعافنا من وقت إلى آخر؟ لا أحد يبادر إلى نجدتنا وإنصافنا . سوف أقوم بكتابة بعض المقالات - وقد أوجه واحدة منها إلى دورية بلاكوود - Blackwood بيد أنني لا أستطيع التوقيع عليها باسمي الصريح مخافة اتهامي بالتحيز ونبذ الموضوعية .»

كان الاستفتاء قد استكمل عندما شرعت جيرتروود بكتابة رسالتها المؤرخة في الرابع

عشر من آب ، وباستثناء كركوك فقد انتخب فيصل ملكاً بالإجماع . وحول هذا الموضوع تقول جيرتروود في رسالتها هذه :

«إن سكان مدينة كركوك تركمان ، أما سكان القرى والمناطق المتاخمة لها فهم من الأكراد ، وكلاهمايرفض الخضوع لحكم عربي . وقد طالبت محلتان من بين المحلات السكنية لمدينة كركوك بحاكم تركي . ولم يكن الأكراد مناوئين للبريطانيين ، إلا أنهم يرغبون في إقامة دولة كردية مستقلة تخضع لحمايتنا ، أما ما هو المقصود من ذلك فجانب لا يدركه الأكراد ، أو أي أحد آخر ، بالضبط ، كما أنهم يرفضون الارتباط بمنطقة سليمانية الكردية بأي شكل من الأشكال ، وكانت المنطقة آنفة الذكر قد صوتت باتجاه الانفصال عن الدولة العراقية . أكتفي بهذا القدر من الحديث عن الشعور القومي الكردي والذي من المحتمل أن تسمع عنه الكثير من الكلام الفارغ على مدى البضعة أشهر القادمة اللهم إلا في حال نجح السير برسي في إقناع كركوك بالاستماع إلى صوت العقل . أما أربيل والمناطق الكردية المتاخمة لمدينة الموصل فقد صوتت جميعها لصالح الانضواء تحت لواء الدولة العراقية إدراكاً منها أن صلاح أمرها ورفاهها سياسياً واقتصادياً مرتبطان بالموصل ، كما عمد أهلها إلى المساومة من أجل تحقيق بعض الامتيازات التي سيتم لهم الحصول عليها مثل تنصيب مسؤولين أكراد في مواقع المسؤولية . وقد طالب بعض الأكراد اعتماد اللغة الكردية في المدارس وهو طلب معقول إلا أن ما يحول دون تحقيقه هو أن الكردية لا تكاد تكون لغة مكتوبة ناهيك عن عدم وجود معلمين أكراد ، ولتعذر وجود كتب باللغة الكردية لا يمكن تدريب المعلمين وتوجيههم إلا بالعربية .

كان الطقس وما ترتكبه الصحف المحلية من حماقات وجنح كفيلين بإثارة غضبي . فجريدة دجلة يرأس تحريرها شاب أحمق[٢٠] لا يختلف بأي شكل من الأشكال عن غيره

(٢٠) لا غرابة في هذه الملاحظة إذا أدركنا أن الشخص المقصود هو الشاعر رشيد الهاشمي الذي ألقى القصيدة التي أزعجت الملك فيصل أثناء زيارته إلى الكاظمية كما هو مبين في مكان سابق من هذا العمل . وكان رشيد الهاشمي رئيس تحرير جريدة دجلة التي أسسها المحامي داود السعدي والتي صدرت للمرة الأولى في ١٩٢١/٦/٢٥ . وكانت «دجلة» أكثر الصحف عرضة للنقد والتهجم من قبل الفئات والشخصيات السياسية وفق ما يبينه الصحفي العراقي السيد فائق بطي في كتابه «صحافة العراق» . وبسبب ذلك وجد صاحبها ، المحامي داود السعدي ، نفسه مجبراً على إدخال لغة السباب والقذف لأول مرة إلى الصحافة وذلك في مقاله الشهير الذي نشر تحت عنوان «الحر ممتحن بأبناء الزنا» . وقد توقفت هذه الجريدة عن الصدور في ١٩٢٢/١٠/٢٦ - المترجم .

من الأشخاص ، لكنها صحيفة يكب على قراءتها بنهم جمهور الحمقى من رواد المقاهي بأمل أن يجدوا في رئيس التحرير سالف الذكر معارضاً لنا ثابتاً في توجهه وصادقاً في عزمه . وباعتباره عربياً مخلصاً ، وطني النزعة وسامي الفكر ، فإنه يعمد إلى عكس هذه الخصال عبر نشر كل الأخبار التي تروي تفاصيل الانتصارات التركية التي كان قد مضى على حدوثها أكثر من ستة أسابيع من غير أن يكلف نفسه عناء تحديد تواريخها .

إن شدة وطأة هذا الطقس المهلك ، وقيام رئيس التحرير آنف الذكر وفي نفس اليوم بنشر خبر حول هروب اليونانيين من إزمير ، وتهافتهم على كل ما كان متوافراً من السفن بقصد النجاة - بينما قامت صحيفة عربية أخرى بنشر خبر مصدره وكالة رويتر جاء فيه أن الأتراك يخلون مدينة أنقرة - كانا أكثر مما يمكنني احتماله . إن الجمهور هنا يكره اليونانيين ويصفق طرباً لكل خبر يتحدث عن الانتصارات التركية ويشيد بها . وفوق ذلك كله تجد هذه الصحيفة رواجاً كبيراً بين جمهور القراء هنا . إنني أشارك الجمهور شعوره مبدئياً ، وعلى أقل تقدير فإنني لا أرغب في أي تواجد لليونانيين في آسيا الصغرى إذ أن من شأن هذا التواجد أن يمنع تحقيق أية تسوية . إلا أن همي الأساس ينصب حول إقامة دولة عربية في بلاد ما بين النهرين ، وإن العدو الوحيد الذي يبرز بوضوح هو اتحاد الكماليين مع البلاشفة . وبفضل قوة صغيرة قوامها ستون رجلاً ، تم للأتراك في هذه الفترة بالذات احتلال جزء صغير من مناطقنا (كذا) الجبلية شمال أربيل حيث أقاموا حكومة تركية . إن الأمر برمته لا يتعدى كونه مهزلة ليس إلا ، ولكننا نفتقر إلى ما يكفي من القوات التي يمكن إرسالها لتطهير هذه المنطقة الجبلية وبذلك تقتصر الإجراءات فقط على القيام بعمليات جوية وهي نشاطات لا تعتبر كافية بحد ذاتها ، وهكذا نجد أنفسنا مجبرين على ترك الأمور على وضعها مما يثير انتباه أي لئيم تسول له نفسه تشويه الحقائق والتشدق بما يحلو له ويخدم مآربه . وقد قام جعفر بإرسال خبر لي مفاده أنه في الوقت الذي تواصل صحيفة دجلة نشر نصوص برقيات تفيد بأخبار الانتصارات التركية ، يخفق هو من جانبه في الحصول على مجندين للخدمة في صفوف الجيش العربي ، إن أفكار الناس مشوشة ، وقد بدؤوا يتحدثون عن احتمال عودة الأتراك !

توجب علي القيام بإجراء ما . إن رئيس تحرير جريدة دجلة صديق لأحمق آخر هو ابن عبد المجيد بك الشاوي . وعلى الرغم من أن الشاوي يحب ابنه حباً شديداً إلا أنه يشجب ممارساته التي يتمسك بها بعند وإصرار . وقد استدعيت عبد المجيد بك وبينت له أن الأمر لم

يعد يمكن السكوت عنه ، ثم استكتبته بضع كلمات بينت من خلالها وضع كل من الأتراك واليونانيين ، إلا أن الخبر لم ينشر في عدد اليوم التالي من الجريدة بل نشر بدلاً عنه إعلان مفاده أن كل الأخبار المتعلقة بالأعمال العدوانية التي تشهدها منطقة الأناضول مقتبسة حرفياً من صحف إنجليزية وهندية ومصرية . وكنت قد انتهيت لتوي من قراءة هذا الإعلان وأنا في حالة من الغضب والسخط يعجز القلم عن وصفها عندما فوجئت بدخول رئيس تحرير جريدة دجلة نفسه إلى مكتبي . شكرت الرب على ما لدي من قدرة على التكلم بالعربية . فبعد أن ذكرت له من بين جوانب أخرى أنه رجل فاسد وفاسق ، هددته برميه في السجن في حال أخفقت جريدته في نشر ما أمليته على عبد المجيد الشاوي في عددها الصادر صباح اليوم التالي . وقد تم نشر المادة فعلاً إلى جانب مقال افتتاحي بعنوان «حر هاجمه أولاد زنا» ، وعلى الرغم من أن المقال لم يذكر اسمي إلا أنه يتعلق بي على أغلب الظن ، بيد أن ذلك لم يؤثر في بالمرة إذ أن الجانب الأهم هو ما سيجده هذا الصحفي الشاب من صعوبة في التوفيق بين ما أجبرته على نشره والأخبار البائخة التي قد يستلمها من مصادر أخرى .

رباه ! إنهم حقاً يهوون الهراء والكلام الفارغ ! فمن جملة المواضيع التي يتشدقون بها ، وتستقطب اهتمام الشرائح الأفضل من بين أبناء الشعب ، ذلك المتعلق بحاجة العراق الضرورية لتطبيق مبدأ الديمقراطية ، وهو ما تتناوله كل صحيفة من الصحف من غير استثناء . إنني لا أحاول منع هذه الطروحات مدركة تماماً أن فيصل عازم على أن يكون ملكاً لا بالاسم فقط بل في الحقيقة أيضاً . وقد طلب مني مؤخراً شاب مهذب من أبناء الموصل ، يرغب في إصدار جريدة هناك ، تزويده ببعض التوجيهات التي يمكن للعاملين في الصحافة من السير بهديها . وقد قمت بذلك مبينة في الحين ذاته أنه من السهل جداً المبالغة في طرح مزايا الديمقراطية وتعديدها في هذا القطر ، وموضحة كذلك أن رؤساء القبائل وشيوخها في بلاد ما بين النهرين لم يتم لهم على ما أظن التمكن من مبادئ الديمقراطية ومفاهيمها بما يسمح لهم بممارستها وحتى يحين ذلك الوقت يصبح لكل حادث حديث .

هذا تقريباً كل ما لدي من أخبار باستثناء خبر واحد يتعلق بقيامي يوم أمس بممارسة السباحة في نهر دجلة . السباحة هواية رائعة لا سيما في مثل هذا الطقس . ليتك ترى اللادي كوكس وهي تمارس لعبة قفز الضفدع في الماء ! إنها لعبة تميل إلى ممارستها .

أبتاه ! هل يمكنك توفير ما يكفي من المال لغرض تزويدي بمزيد من أوراق الكتابة ؟ إن الأوراق التي سبق لك إرسالها تشجع على الكتابة ، فهي صقيلة وخفيفة . ولأنني أكتب

لك رسائل طويلة فإن الكمية التي بقيت بحوزتي تكاد تنفد .»

وفي الحادي والعشرين من شهر آب كتبت الآنسة بيل تقول : «صادف يوم الاثنين المنصرم أول يوم من أيام عيد الفطر . وفي السابعة من صباح ذلك اليوم انطلقت بصحبة السيد كورنوالس في جولة زيارات كانت الأولى بينها زيارة دار السيد عبد الرحمن النقيب الذي وجدناه منشرح الصدر وهو محاط بمجموعة من شيوخ الموصل ، فقضينا معه ربع ساعة ممتعة للغاية . بعد ذلك توجهنا لزيارة فيصل وتهنئته بالعيد أعقبناها بزيارة عبد المجيد بك الشاوي من بعده ، ثم زيارة يوسف السويدي الذي لم يسبق لي زيارته من قبل . ويمكن القول إنه لمن دواعي سرور المرء منا أن يتمكن من إثارة شعور بالفرح والبهجة عند دخوله إلى غرفة أو مكان ما . وهذا ما تم لي ولزميلي كورنوالس . ولا أجد غرابة في ما لمسته من شعور البهجة لدى المجتمعين في مجلس السويدي والذين كان القسم الأكبر منهم دون المستوى اللائق (كذا) ، وفي كل الأحوال لم أتمكن من التعرف على أكثر من ثلاثة منهم . ويوضح هذا الجمع من الناس بالذات الموقف الذي يجد السويدي نفسه فيه الآن . إنه أشبه بطبل مكسور! بل لم يكن في الواقع أكثر من طبل أجوف ! ياله من شيخ منكود .

وفي يوم الثلاثاء حضرنا حفلة شاي رائعة إكراماً لرئيس بلدية الكاظمية . وقد جاءت هذه الضيافة نتيجة السياق التالي ؛ لقد وقف السيد جعفر منا موقفاً رجولياً ثابتاً عكس شجاعة لا مثيل لها برغم ما تعرض له من مواقف صعبة تثير الخوف في النفوس لاسيما بعد أن أعرض عنه المتعصبون من المجتهدين ، ونأوا بجانبهم عنه . وعلى الرغم من أن فيصل كان قد زار مدينة الكاظمية في مناسبتين فقد حالت الظروف دون تمكنه من الاقتراب من بيت السيد جعفر ، ناهيك عن زيارته . وقد زارني الأخير هذا بعد ذلك في مكتبي شاكياً لي ما أصابه من حيف وما تعرض له من إهانة . قلت له دعك من هذا الكلام الفارغ ! اذهب إلى فيصل وادعه إلى حفلة شاي في دارك ، وسأقوم أنا بدوري بدعوة كل من المندوب السامي والقائد العام للقوات البريطانية . استجاب فيصل للدعوة التي وجهها له السيد جعفر وحضر بصحبة مرافقيه العسكريين ، بينما حضرت أنا بصحبة القائد العام السير أيلمار هالدين ، وجاء السير برسي واللادي كوكس بصحبة أحدهما الآخر . وقد قام السيد جعفر بحق الضيافة على أتم وأحسن وجه ؛ لم يسبق لي أبداً شرف مشاهدة هذا الكم الهائل من مختلف أنواع الكعك والحلويات والمعجنات الأخرى والفواكه التي وجدت طريقها إلى مائدة طعام هذا المضيف الكريم . وبعد إنتهاء الوجبة قام السيد جعفر بإهداء فيصل ساعة ذهبية ، وخاتماً ماسياً ، ومعطفاً من الفرو بالإضافة إلى عدد من العباءات الرجالية ، والسجادات

الفارسية .(٢١)

أقمت مساء الأربعاء مأدبة عشاء (كان المدعوون إليها كلهم من أبناء العرب) . وقد قام زميلي تومبسون ، الذي أعتبره الأعز من بين كل زملائي ، بمساعدتي في هذه المناسبة التي لم يكن من بين المدعوين إليها ممن لا يجيد ثلاث لغات على الأقل ، بل وكان عدد معين منهم يجيد خمس لغات في الواقع . وعلى الرغم من ذلك فقد دار الحديث بالعربية باعتبارها اللغة التي يتمكنون جميعهم من التحدث بها بالشكل الأفضل . وقد أحسنوا التكلم إلى الحد الذي لم تمض فيه دقيقة واحدة خلت من كلام رائع . وكانوا جميعاً ، ومن غير استثناء ، منشرحي الصدر ، تربطهم بنا أقوى أواصر المودة . ولا يسعني بهذا الصدد سوى القول أنني آويت إلى فراشي وأنا في أقصى درجات السعادة والرضا . وإذا ما تم لك الحفاظ على مثل هذا الجو (من الود والثقة) فهل يبقى هناك ما تعجز عن تحقيقه ؟

---

(٢١) تعتبر إقامة الولائم الخاصة من قبل وجهاء المدن وشيوخ العشائر من بين مظاهر الحفاوة التي جوبه بها الأمير فيصل بن الحسين في الفترة التي سبقت تتويجه ملكاً على العراق . وسرعان ما وجد الأمير نفسه في حيرة من أمره إزاء ما كان يتوجب عليه فعله فإذا ما قبل دعوة أحدهم استاء الآخرون . وكانت وليمة السيد جعفر عطيفة رئيس بلدية الكاظمية إحدى الولائم الكبيرة التي أقيمت على شرف فيصل . وقد شاءت الظروف أن يكون هذا الرجل على صلة وثيقة بالإنجليز منذ بداية احتلالهم بغداد ، وقد اعتاد الإكثار من الاحتفاء بهم وإقامة الولائم على شرفهم . وكان الحاج عبد الحسين الجلبي ، والد المرحوم عبد الهادي الجلبي رئيس مجلس الأعيان في العهد الملكي في العراق ، ينافسه على رئاسة البلدية . وقد ساء السيد جعفر زيارة الأمير دار السيد عبد الحسين الجلبي من غير أن يأتي إلى زيارته .

إثر استجابة فيصل للدعوة على نحو ما ورد أعلاه ، قرر السيد جعفر على ما يبدو بذل الغالي والنفيس من أجل إقامة دعوة تصبح حديث القاصي والداني . كان رجلاً واسع الثراء ، كريم النفس ، وقيل أن تكاليف دعوته هذه بلغت ستين ألف روبية في حينه وهو مبلغ كبير جداً في معايير تلك الأيام ، كما قيل أنه كلف صانع حلوى أرمني معروف في بغداد بإعداد أطباق وأصناف من الحلوى لم يسبق لها مثيل وكان مقدار ما دفعه لهذا الصانع الماهر لقاء ذلك ثلاثة آلاف روبية . وإلى جانب الهدايا التي قدمها السيد جعفر إلى الأمير - من بينها سجادتان فارسيتان عليهما رسم أحمد شاه ، وساعة أثرية مذهبة ذات أربعة عقارب ، وخاتم ذو فص من الزبرجد النادر ، وجبتان مبطنتان بالفرو الثمين - فإنه لم ينس كوكس ، وهالدين ، والآنسة بيل الذين استلم كل منهم هدية ثمينة . وقد أشيع في حينه أن السيد جعفر قد قام بكل ذلك نكاية بالسيد عبد الحسين الجلبي - المترجم

وفي اليوم التالي أمضيت صباحاً ممتعاً في المكتب . لقد كان من شأن حضور فيصل إلى بغداد ، وتواجده فيها ، أن يجتذب إلى بغداد أناساً طالما سمعت عنهم وعن أخبارهم ولكنني لم أكن قد التقيتهم ، وكان من بينهم عبد الله بك بن فالح السعدون رئيس أحد فرعي آل السعدون في الناصرية . وكان هذا الوجيه يعاضد الأتراك عندما كنت في البصرة . ولابد لي من الاعتراف بأنني لم يسبق لي التقاء من يتمتع بهذا النوع من سمو الأخلاق والرفعة والتهذيب . وكان طويل القامة ، يزيد طوله على ستة أقدام ، ممشوق القد . وعلى الرغم من أنه لم يكن في الواقع رجلاً وسيم الطلعة إلا أن تقاطيع وجهه تميزت بلياقة ودقة تثيران العجب . لا أظنه كثير الغنى ، ويكاد يكون مفرط التهذيب ، إلا أن شكله يسر النظر . أما الرجل الذي فاق عبد الله بك السعدون روعة فكان عجيل الياور ، أحد شيوخ شمر ، الذي كان قرر الوقوف إلى جانبنا في عام ١٩١٧ ولكنه سرعان ما انجرف إلى جانب الأتراك ، ثم عاد إلينا بعد احتلالنا الموصل لينجرف مرة أخرى إلى جانب الأتراك لأسباب لم يقدر لنا إدراكها . للشيخ عجيل الياور قامة بطول ستة أقدام وأربعة إنجات (أي ما يزيد على ١٩٠ سم) . أنه مخلوق رائع وجبار . لم يكن في جسمه من اللحم أية زيادة يمكن الاستغناء عنها ، أما يداه فهما مما تود أن يكونا لك نموذجاً . ومن تحت كوفيته الحمراء تتدلى فوق صدره أربع ضفائر من شعره الأسود ، أما لحيته السوداء فقصيرة . وكان يرتدي عباءة ذهبية اللون فوق قميص قطني مزرر إلى حد الرقبة والرسغين - تلك هي الصورة . لقد حضر لزيارتي عدة مرات تحدثنا في الأخيرة منها على مدى ساعة من الزمن . وعند نهاية هذا اللقاء ، وبعد أن توثقت أواصر المودة بيننا ، أخبرته بأننا طالما أسفنا لاضطراره إلى تركنا المرة الثانية ، وسألته عما دفعه إلى القيام بذلك . كان يسترخي في جلسته ، ويخفض جفنيه قليلاً عند استرساله في الحديث ، ولكنه ما أن سمع سؤالي حتى وجه بريق عينيه صوبي وقال : ليجمان كان السبب ! عندما استجبت لندائه وجئت إلى الموصل ، حاولت التحدث معه ، إلا أنه أمرني بالسكوت وقال لي إنني مثل امرأة ، ورفض الاعتراف بموقعي ومركزي في القبيلة . اعلمي يا خاتون أنني شيخ من شيوخ العرب ، وإزاء مثل هذه المعاملة ما الذي كان ينبغي لي القيام به؟ هذا ما قاله ، وإنني أصدق كل ما أخبرني به فهكذا كان ليجمان !»

زارني معظم شيوخ العشائر الذين تمتد مناطق عشائرهم على طول مجرى النهر[٢٢] -

---

(٢٢)جاء في النص most down-river shaikhs ، أي إنها لم تحدد أي نهر إلا أن دجلة هو المقصود على أغلب الظن - المترجم

جاءوا يسألون ما إذا كان ينبغي لهم التوجه لمقابلة فيصل؟ وإزاء ذلك كنت أقول لهم دوماً لا ينبغي ذلك لكم فحسب ، بل يتعين عليكم بالتأكيد الإسراع فيه . وكنت أزودهم برسائل تعريف موجهة إلى رستم بك حيدر ، سكرتير فيصل ، أعرفه من خلالها بهم وبمواقفهم ، وما أسدوه من خدمات جيدة . بعد ذلك يسارعون إلى الذهاب ، وهذا ما أريده ! سوف أكون في غاية السعادة والراحة عندما يعتادون التوجه إلى فيصل أو السير برسي مباشرة من غير أن يعرجوا على زيارتي . وفي كل الأحوال هذا ما نهدف إليه أساساً .

وفي هذه الأثناء هناك بوادر لعاصفة مرتقبة ؛ فقد أرسلت وزارة المستعمرات برقية تدخل في إطار أقصى درجات الإفراط في الاهتمام بالشكليات والجوانب الروتينية ، وتنص على وجوب قيام فيصل بالإعلان من خلال خطاب التتويج أن المندوب السامي يمثل السلطة النهائية في البلاد . إن فيصل يرفض القيام بهذا كلياً وهو على حق في ذلك ، وقد بين لنا بوضوح ما يجب علينا القيام به منذ البداية وهو الاعتراف به ملكاً ذا سيادة وذلك من خلال معاهدة تبرم بين الطرفين وخلاف ذلك لن يتسنى له كسب احترام العناصر المتطرفة . وإزاء ذلك أظهر السير برسي ، ليباركه الرب ، بعض التردد ولكنني بينت له أن النتيجة ستكون واحدة في كل الأحوال وفي النهاية لا أرى جدوى فالسعي إلى طلب سلطة لا يمكن فرضها بالقوة . بعد ذلك قام فيصل بإعداد مسودة تصريح رائع ، أردفها كوكس بمسودة تصريح آخر لا يقل روعة ، وأُرسل كلاهما إلى لندن برقياً . وقد أجابت حكومة جلالة الملك بوجوب تأخير حفل التتويج بسبب رفض فيصل القبول بوجهة نظرها . وكانت الاستعدادات قد تمت لإجراء الاحتفال في يوم الثلاثاء ، أي بعد يوم غد ، وهي مناسبة سيحضرها الكون بأسره . وإزاء هذا الموقف أبرق السير برسي رسالة جازمة بين فيها رأيه حول استحالة تأجيل الاحتفال وبأنه سيبقى قائماً .»

الفصل العشرون

توج فيصل ملكاً على العراق في الثالث والعشرين من شهر آب من عام ١٩٢١ ، وفي الثامن والعشرين منه كتبت جيرتروود قائلة :

«سبق لي إخبارك عن العقبة الكأداء التي وضعتها حكومة جلالة الملك في طريقنا في اللحظة الأخيرة ، إلا أنها رضخت أمام الرد الصلب لكل من فيصل والسير برسي ، بل وأقول أنها خضعت متذللة . كان موقفها خاطئاً ، ولا حق لها في التدخل . ليباركنا الرب جميعاً . وهكذا مضينا في طريقنا مبتهجين .»

أقيمت مراسم الاحتفال في الساعة السادسة صباحاً فوق منصة واطئة وضعت في وسط باحة السراي ، وقد حضر هذه المناسبة حشد من المدعوين بلغ عددهم ألفاً وخمسمائة شخص . وتقول الآنسة بيل في وصف الاحتفال : «دخلنا من بوابة السراي بعد أن أبرزنا بطاقات الدعوة ، وما أن بدأ الاحتفال حتى منعت قوات الشرطة العربية دخول أي فرد الأمر الذي أثار استغراب عدد لا بأس به ممن جاءوا متأخرين من الأعيان وسراة القوم الذين لم يسمح لهم بالدخول . كان الأمر تنظيماً عربياً وإجراءً صحيحاً لا غبار عليه . وبدا فيصل بكل وقاره ، وبرغم توتره ، شخصاً مهيباً يبعث على الاحترام . وراح يلقي نظرة على الجالسين في الصف الأول من الحضور ، وعندما وقعت عيناه على جيرتروود فإنها أجابته على حد تعبيرها « بإيماءة تشجيع صغيرة .» بعد ذلك قام السيد حسين أفنان بقراءة البلاغ الذي أعده السير برسي . وبغياب نشيد وطني عراقي ، أو سلام ملكي ، عزفت الفرقة الموسيقية العسكرية لحن «ليحفظ الله الملك» في نفس الوقت الذي انطلق علم العراق مرفرفاً وهو يعتلي ساريته التي انتصبت جنب الملك .»

ثم تواصل الآنسة جيرتروود بيل وصفها للاحتفال قائلة : «أعقب ذلك دوي المدافع التي أطلقت إحدى وعشرين قذيفة تحية وتيمناً بهذا العيد القومي . وقد أخبرني الرائد دتشبورن Major Ditchburn ، أحد ضباطنا العاملين في منطقة الناصرية أن أحد شيوخ السعدون ، شباه الصقور ، صاح قائلاً عند دوي المدافع «إي ! هذا الحجي»[1] وأظنه على حق فيما قال ، فلغة المدافع على ما أفترض هي القول الفصل في كل مكان . بعد ذلك

---

(١) وتعني باللهجة العراقية «نعم ! هذا هو القول الصحيح» المترجم

نهض جلالة الملك فيصل الأول ليوجه كلمة إلى أبناء شعبه .»[٢]

لم تستغرق الحفلة وقتاً طويلاً ، وما أن انتهت حتى أسرعت جيرتروود عائدة إلى مكتبها لتصله في الوقت المخصص لوجبة الفطور وبذلك فإن قصر مراسيم التتويج وبساطتها قد زادتا مما لها من وقع مؤثر في النفوس . ثم أخذ الزوار يتقاطرون إلى مكتبها «من أجل شيء من الدردشة» على حد تعبيرها . وكان الشيخ علي سليمان أول الزائرين الذين طفق يحدثها عن انطباعاته ثم قال : «والله ! بدا السير برسي مثل القمر بينهم ، ووجهه كالجنة .» كما سمعت من أشخاص آخرين أن الشيوخ الذين قدموا من أماكن بعيدة كانوا شديدي التحمس لمقابلة السير برسي الذي بدا «بقامته الفارعة ، وأنفه العقابي الأعقف ، لا كريماً وعطوفاً فحسب بل وجباراً أيضاً .»

أعقب هذه الملاحظات الجيرترودية إن صح هذا التعبير وصف دقيق وحي للفعاليات والنشاطات التي شهدتها الأيام التي تلت مراسم التتويج ، فعلى سبيل المثال تقول الآنسة بيل : «كان قاضي الموصل من بين الذين حضروا الاحتفال وهو رجل يمكن اعتباره الشخصية الأقرب إلى القلب من بين شيوخ العراق المسنين - بدا أبيضاً بجلبابه الأبيض وما عكسته هيأته من سيماء الحكمة والرقة ، وعبد اللطيف المنديل بملامح وجهه الدقيقة ، الحادة التي يتميز بها عرب الداخل من أبناء شبه جزيرة العرب ، ويُعتبر الشخصية الأقوى في البلاد بعد غياب السيد طالب عن مسرح الأحداث ، فضلاً عن كونه تاجراً كبيراً ، ومطران النساطرة ورئيسهم الروحي المار شمعون ، الرجل ذو القامة القصيرة والذي كان منصبه الروحي وقفاً على عائلته يتوارثه ابن الأخ عن العم بسبب ما يفرضه المنصب هذا من ضرورة

(٢) لا يمكن لأحد إنكار حقيقة هامة في إطار هذا الحدث البارز من تاريخ العراق ألا وهو أن الأمير فيصل تمكن بجدارة فائقة من تذليل كل الصعوبات والعقبات التي وقفت في سبيل نجاحه . وقد اقترح على السير برسي أن يتم تتويجه في يوم ١٩٢١/٨/٢٣ (١٨ ذي الحجة من عام ١٣٢٩) الذي صادف يوم ذكرى عيد الغدير الذي كان بويع فيه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالخلافة . وهكذا رأت حكمة المغفور له الملك فيصل الأول أن يجمع يوم تتويجه بين مناسبتين عزيزتين (خلافة الإمام علي وقيام الدولة العراقية الحديثة) وعهدين تاريخيين وعيدين ساميين . وبهذا الصدد ، و من باب حث القارئ الكريم على مراجعة تفاصيل هذه الحقيقة من تاريخ العراق أقترح عليه قراءة نص خطاب التتويج الذي ألقاه الملك فيصل في هذه المناسبة للتعرف من خلاله على بعض أوجه الشخصية الفذة التي شاءت القدرة الالهية الكريمة أن تخص بها هذا الرجل ، ولاستقراء ما انطوى عليه هذا الخطاب من معان ومضامين - المترجم

تبتل شاغله ، وقد حضر بكامل زيه الكهنوتي بما في ذلك الصليب الذهبي الكبير الذي تدلى فوق صدره - لقد كتب على المار شمعون أن يكون مطراناً طوال حياته ، وسعيد بك ، الرئيس الديني لجماعة عبدة الشيطان[٣] - وكنت قد تعرفت عليه في عام ١٩٠٩ عندما حللت ضيفة على دار والده ، ويذكر سعيد بك كيف كان يقضي سحابة يومه معي أثناء وجودي في منطقتهم ، والشيخ نوري البريفكاني - بشعره الأبيض ، وجلبابه وعمامته الأبيضين - الذي يمارس سيطرة تامة على قسم كبير من المناطق الحدودية لما يتمتع به من نفوذ ديني واسع النطاق الأمر الذي يجعل منه دكتاتوراً لا دينياً فحسب بل دنيوياً كذلك ، ثم قادر آغا كبير أعيان الشوش[٤] الذي لا يعرف غير الشوش عالماً آخر - إنه رجل ضخم البنية هائل البدانة ، أشبه بمارد منه برجل ، يرتدي فدادين لا حصر لها من قماش مقلم تم تفصيله بهيأة سروال كان أشبه بكيس منتفخ هائل الحجم ثُبت حول خصره بخيط مصيص ، وصدرية صارخة الألوان ، وعمامة كانت الأكبر من نوعها في كردستان لف حولها خماراً بأكمله - إنه منظر يستحق المشاهدة حقاً .»

في أحد أيام الأسبوع الأول الذي أعقب حفلة التتويج دُعيت الآنسة جيرتروود بيل لتناول الشاي على مائدة الملك فيصل ، وكانت مناسبة قضت فيها بصحبته ساعتين من الزمن . وبهذا الصدد فإنها تقول :

«جلبت له صوراً فوتوغرافية ، وخريطة لسوريا كانت جريدة التايمز (اللندنية) قد نشرتها وأوضحت فيها ما قامت به السلطات الفرنسية من تقسيم البلاد إلى عدد من الأقاليم المنفصلة بعضها عن البعض الآخر . فرح فيصل بمشاهدة الصور التي أعادت إلى ذهنه ذكرى

---

(٣) أي اليزيدية وهم أصحاب عقيدة دينية تقوم على تقديس الشيطان ، نسبتها إلى شخص يدعى يزد من آلهة الزادشتيين الإيرانيين . إنهم من الأكراد ولا يزيد تعدادهم عن ٥٠,٠٠٠ شخص يعيش معظمهم في شمال العراق ، قضاء سنجار في محافظة نينوى (الموصل) ، ومنهم جماعات في تركيا وفي نواحي مدينة حلب . ومن أشهر أوليائهم عدي بن مسافر وهو صوفي لبناني المولد ولكنه عاش في الموصل وهو صاحب كتابَي «الجلوة» و «مصحف روش» ، أي المصحف الأسود ، الذين يعتبران من الكتب المقدسة لدى أبناء هذه الطائفة وقد تم تأليفهما باللغة الكردية - المترجم

(٤) الشوش أو السوس ، منطقة تقع في خوزستان جنوب مدينة ديزفول أو ديزبول في إيران . وكانت الشوش عاصمة العيلاميين قبل أن يدمرها الملك الآشوري آشور بانيبال في العام ٦٤٠ ق .م . ثم أصبحت عاصمة الفرس الأخمينيين في عهد الملك داريوس الأول ، ولا يزال يشاهد فيها أطلال قصور غناءة - المترجم

الرحلات التي كان قد قام بها في أنحاء سوريا التي رحنا نتحدث عنها بشكل عام . ثم انضم إلينا كل من رستم حيدر وجعفر باشا ونوري باشا . وقد أخبرت هذا الجمع من الأصدقاء بأن معرفتي بسوريا تفوق معرفة أي واحد منهم باستثناء رستم باعتباره سوري الأصل ، وبأنني أحبها أكثر من أي واحد منهم - كيف لا وقد عرفتها قرية قرية ، وجبلاً جبلاً ، ونهراً نهراً ، كما أوضحت لهم أن أمل سوريا الوحيد يكمن في قيامنا بالتكاتف معاً والقيام بكل هدوء وكفاية بواجبنا (أي بناء دولتنا) ، وما أن ننتهي من جعل بلاد ما بين النهرين دولة عربية نموذجية حتى تصبح بؤرة استقطاب يرنو كل سوري وفلسطيني إلى الاندماج فيها والانضواء تحت لوائها ، وقلت إنني أتطلع قبل موتي إلى رؤية فيصل وهو يحكم دولة تمتد من الحدود الفارسية إلى سواحل البحر البيض المتوسط . ولكن إذا ما عمدنا إلى إثارة المشاكل ، ورفعنا أصواتنا ، وحركنا كل ما هو ساكن فإن من شأن ذلك أن يؤدي إلى دمار سوريا والعراق على حد سواء . وقد تطرقت إلى هذا الموضوع بسبب ما يعمد مولود باشا - الذي يصفه جعفر بأنه «متهور من الباب الأول» - إلى التصريح به من أقوال مفادها أنه عازم على إعادة فتح سوريا بصرف النظر عن أوامر فيصل وتعليماته بهذا الصدد . ومولود باشا هو الذي قاد الهجمات التي وجهت ضدنا في مناطق الفرات الأعلى خلال العام الماضي مخالفاً بأعماله هذه أوامر فيصل المتكررة . ولكننا لن ندعه يفعل ما يشاء هذه المرة .»(٥)

وثمة رسالة قصيرة موجهة إلى اللادي بيل جاءت بنفس الظرف الذي ضم الرسالة أعلاه ، والتي تقول فيها : «أتوق إلى قراءة ردودك الأولى على رسائلي الخاصة بفيصل . إني على ثقة تامة من أنها لا ولن تخفق أبداً في إدخال البهجة إلى نفسك وهو شعور لا يمكن للمرء منا مغالبته على الرغم من أن سياقات الأحداث التي احتوتها الرسائل جاءت على نحو يميل إلى الفجاجة والافتقار إلى البلاغة والبراعة في التعبير وهو جانب يعود بالأساس إلى السرعة التي تمت فيها تدوين التفاصيل . ولابد لي من الإعراب عن عظيم فرحتي لأنني أعيش أحداثاً جساماً أتمكن من تدوين تفاصيلها وسياقات وقائعها . إن رسائلي لك

---

(٥) للاطلاع على التفاصيل المتعلقة بأحداث دير الزور (التي تعتبر من بين العوامل التي مهدت لاندلاع ثورة العشرين في العراق) وتلك التي لعب فيها كل من رمضان شلاش ومولود باشا مخلص دوراً بارزاً نهيب بالقارئ الكريم مراجعة كل من المصادر التالية : ١-كتاب العقيد ولسون (المجلد الثاني Loyalities 2) ٢- كتاب «مقدرات العراق السياسية» لمحمد طاهر العمري ٣ - كتاب «الثورة العربيية الكبرى» لأمين سعيد ٤- الجزء الخامس من «لمحات اجتماعية» للأستاذ على الوردي - المترجم .

هي السجلات الشخصية الوحيدة ، إلا أن التقارير الرسمية التي أكتبها لا تخلو هي الأخرى من جوانب مثيرة للاهتمام .

لا يمكنني أبداً تصور كيف سيتسنى لي أن أنتزع نفسي من هذا القطر ! ترى هل بإمكانك تصور ذلك ؟ إن الشيء الوحيد الذي أجدني أخفق في تحقيقه هو أن أكون ابنة صغيرة وأختاً صالحة . إنه لأمر محير حقاً ! ومع ذلك ، فإننا مقبلون على فصل شتاء مضن لكثرة ما سيتطلبه منا من جهد وما سيشهده من أحداث بارزة : المؤتمر(٦) والقانون الأساسي ، وبذلك لا وقت لدي للتفكير بأمور أخرى .»

وفي الرابع من أيلول كتبت الآنسة بيل قائلة : «انصب اهتمامنا خلال الأسبوع على ما راح يدور وراء الكواليس من نشاط مشوب بالإثارة والانفعال حول تشكيل الوزارة الجديدة . ولم يتردد جعفر في البوح لي بكل ما كان يعتمل في صدره . وبعد ذلك ائتمنني فيصل بدوره على مكنونات صدره . لقد أرسل في طلبي يوم الأربعاء ، ولم تكد تمضي لحظات على وجودي في حضرته عندما أعلن عن وجود الرائد ييتش ورغبته في مقابلة الملك . وبعد مداولة سريعة معي وافق فيصل على لقائه الأمر الذي أدى إلى قيام حوار ناجح للغاية بيننا نحن الثلاثة . يُعتبر (لواء) الدليم الأفضل من بين كل أقسامنا الإدارية (في بلاد ما بين النهرين) فقد حققت الزراعة فيه تقدماً ملحوظاً كما زادت عوائده الضريبية ثلاثة أضعاف على مدى الأربع سنوات الأخيرة . ولم يكن الرائد ييتس من بين من يهون الخروج بالتفاصيل الأمر الذي دفعني إلى جره إلى الكلام من خلال طرحي عليه أسئلة توحي بالإجابة التي كنا نسعى للحصول عليها مثل : أخبرنا يا عزيزي الرائد كيف تقارن عوائدكم لهذا العام بما كانت عليه في عام ١٩١٨؟ لقد أثلج هذا الأسلوب صدر فيصل وراح يسترسل هو الآخر بدوره في طرح الأسئلة التي سرعان ما انتقلت إلى موضوع القبائل ، وهو موضوع وجدت أن آراءهما حوله كانت منسجمة تماماً . إن المشكلة تكمن في نزوح أعداد كبيرة من رجال شمر من حائل ، بفعل غارات ابن سعود وتحرشاته ، ولجوئهم إلى مناطق قبيلة عنزة التي ينوون منها القيام بغارات وغزوات مقابلة ضد جماعة ابن سعود . وبهذا الصدد يبين الشيخ فهد بك بن هذال بحق أنه سيخرج من هذه الأحداث خاسراً وبذلك لأن قبيلته

---

(٦) كان العراقيون قد اشترطوا في بيعتهم للملك فيصل أن يصار إلى عقد مؤتمر عام خلال ثلاثة أشهر من تتويجه وذلك لوضع دستور المملكة وإقرار قانون الانتخاب للمجلس النيابي ، إلا أن عدداً من العوائق حالت دون عقد هذا المؤتمر خلال المدة المحددة - المترجم

ستسهم من غير شك في الغزوات المقابلة التي سيشنها ابن سعود بالتأكيد ضد شمر . وقد عكس فيصل حكمة رائعة حول الأمر برمته وراح يصوغ الخطط والمعالجات التي من شأنها إقناع شمر بممارسة ضبط النفس على الرغم من رغبته الصادقة (ورغبتنا نحن كذلك) في أن يشهد فشل ابن سعود في مساعيه الرامية إلى الاستيلاء على حائل .

بعد انصراف الرائد بيتس تحدث فيصل معي بصراحة تامة حول الوزارة . كانت المشكلة تكمن في وزارة الداخلية التي بقي منصب الوزير فيها شاغراً منذ أن تم دفع طالب بعيداً عن مسرح الأحداث . إن للتعيينات الجديدة أهمية كبيرة بالنسبة لفيصل إذ أن من شأنها أن تشكل واحداً من بين المعايير التي سيتم في ضوئها تقييم أدائه . فإذا ما قام بتعيين أشخاص رمزيين لمجرد أنهم رجال لا خوف منهم وموالون لنا فإن الناس سوف ينظرون إلى الوزارة الجديدة باعتبارها مهزلة ليس إلا ، وأما الملك فلن يبدو أكثر من دمية يحركها البريطانيون . ومن جانب آخر لابد للحكومة التي ستقع عليها مسؤولية عقد المؤتمر وإعداد القانون السياسي أن تكون قوية العزم وثابتة على العهد .

وبهذا الصدد فإن من الواضح جداً أن ناجي بك السويدي هو المرشح الأفضل لهذا المنصب . إلا أن ناجي بك على الرغم من كونه ذكياً وحسن النية يفتقر إلى ثبات الموقف . وكنت في بادئ الأمر أميل إلى تأييد السير برسي في رأيه حول عدم إشراك ناجي بك في الوزارة ، إلا أن صعوبة إيجاد بديل لا ينظر إليه بصفته شخصاً رمزياً دفعني إلى رأي مغاير . وإذا ما قدر لناجي تبوّؤ منصب وزير الداخلية لا ينبغي لنا إغفال مراقبته باستمرار وإذا ما تم لنا ذلك فباستطاعتنا على ما أتصور جعله يسير بخط مستقيم . وقد أعلمت فيصل بهذا الموقف ولكنني بينت له أنني لست أكثر من موظف يأتمر بأمر السير برسي وينفذ توجيهاته وإن رأيي بالنتيجة لن يكون إلا رأيه . ولكن إذا ما وجد تطابق بين رأي هذا ورأي كورنواليس فإنني سأحاول صباح الغد مقابلة السير برسي في مسعى لحمله على تغيير موقفه من ناجي . بعد ذلك ذهبت لمقابلة كورنواليس فوجدته مؤيداً لموقفي ، إلا أن السير برسي بقي ثابتاً على موقفه . وفي النتيجة وقع الاختيار على توفيق الخالدي ، وهو نائب سابق ، ورجل ألمعي واسع الثقافة ، إلا أن مشكلته تكمن في ما هو معروف عنه من ميل شديد للأتراك ، الأمر الذي سيقف حائلاً دون تمتعه بثقة فيصل .

وفيما يتعلق بالعناصر الموالية للأتراك ، هناك حملة دعائية مكثفة تدور في كل أرجاء القطر . ويقوم السيد أحمد السنوسي بتوجيه كتب إلى العشائر والأشخاص يحثهم فيها على مناهضة فيصل باسم الإسلام .

أثناء تصفحي الجرائد العربية مؤخراً لفت انتباهي خبر مفاده أن أحد أسوأ الخبثاء وأكثرهم مكراً قد تعين ناظراً للخزينة الملكية ؛ إنه رجل يدعى طه لطفي[٧] وتعود معرفتي به إلى العام ١٩١٦ ولم أعرف عنه سوى المكر وإثارة المشاكل وبحسب ما يشاع عنه فإنه في الواقع أسوأ من ذلك بكثير . والغريب أن كورنوالس كان لا يعرف عنه شيئاً وكذلك فيصل . وإزاء ذلك عمدت إلى إعداد إضبارة أدخلت فيها كل ما أمكنني جمعه من معلومات تتعلق به . وأثناء ذلك زارني جعفر ليخبرني بأن تعيين توفيق الخالدي وزيراً للداخلية يعتبر كارثة ستعمد العناصر الموالية للأتراك باستغلالها لغير صالح النظام الجديد ، وإن مثل هذه الظروف تعرقل مساعيه (أي مساعي جعفر باشا) في ملء صفوف جيشه بالمتطوعين . وبذلك فإنه أخبر فيصل بنيته على الاستقالة . وإزاء هذا الموقف من لدن جعفر انفجرت غاضبة وقلت له إن تصرفه هذا غير مقبول إذ عليه أن يبذل قصارى جهده وفي كل الظروف من أجل العمل البناء ، شأنه بذلك شأننا جميعاً . وهنا سألت جعفر ما إذا كان يتوجب علي التوجه لمقابلة فيصل الذي كان يشعر باليأس ويفكر في التوجه إلى إنجلترا لمقابلة وزير الخارجية وشرح أبعاد المشكلة له .[٨] وما هي إلا لحظات حتى انطلقت مع جعفر لمقابلة الملك الذي سرني جداً أن

---

(٧) لم أجد لهذا الشخص أية إشارة في أي من المراجع المتوفرة ، الإنجليزية منها والعربية على حد سواء . ومهما كان الأمر فإن تعيينه لم يستمر على ما يبدو فترة طويلة إذ أن من المعروف أن من استلم منصب ناظر الخزينة الملكية كان صفوت باشا العوا وهو من بين من رافق جلالة المغفور له الملك فيصل إلى العراق من السوريين وقد تم تعينه في هذا المنصب في أوائل عام ١٩٢٢ – المترجم

(٨) لابد من وقفة هنا لشرح أسباب شعور اليأس الذي داهم جلالة المغفور له الملك فيصل الأول ولم يكن قد مضى على تتويجه ملكاً سوى بضعة أسابيع فقط . وبهذا الصدد أود العودة بالقارئ إلى أحكام المادة (٢٢) من ميثاق عصبة الأمم التي نصت على ما مفاده أن بعض الأقوام التي كانت تنتمي سابقاً إلى الأمبراطورية العثمانية قد حققت من الرقي ما يمكن من الاعتراف باستقلالها مبدئياً شريطة أن يتم رفدها بالمشورة الإدارية والمساعدات المختلفة إلى الوقت الذي تتمكن فيه من الوقوف بمفردها . إلا أن مثل هذه الصيغة لم ترق للعراقيين وكانت من بين أسباب اندلاع «ثورة العشرين» . وجدير بالذكر أن مقاومة كل شكل من أشكال الانتداب قد تواصلت بعد تتويج الملك فيصل محدثة حالة خطيرة من الاضطراب . فضلاً عن ذلك فإن إدراك الحكومة البريطانية بضرورة تحديد وضعها القانوني في العراق بصيغة معاهدة لا بصيغة انتداب صريح لم تنطل خدعته على العراقيين . وبديهي أن بريطانيا لم يكن في نيتها أبداً إحلال المعاهدة محل الانتداب بل تمديد الانتداب وصياغته في شكل معاهدة ، وبديهي كذلك أن الصيغة الجديدة (أي المعاهدة) كان لابد ==

أجد عنده كل من كورنواليس والعقيد جويس[٩] Colonel Joyces وقد قمنا مجتمعين بإقناع فيصل على نبذ فكرة التوجه إلى لندن في هذا الوقت إذ أن مثل هذا التوقيت سيطلق العنان للألسنة التي ستتحدث عن خلاف قائم بين البلاط والمندوب السامي يتعلق بالوزارة وهو ما سيكون له تبعات سيئة على كلا الطرفين . ولقد تمكنا على ما أظن من إقناعه على العدول عن فكرة الذهاب إلى إنجلترا ، أما فيما يتعلق بالوزارة فلم يكتب لنا النجاح .

وردت أخبار موثوق بها من الشمال تفيد بأن الحكومة الفرنسية في سوريا قد أرسلت مبلغ عشرين ألف باون إسترليني إلى السنوسي في مسعى منها لمساعدته في الوقوف ضد فيصل وضدنا - ياله من موقف جميل ، أليس كذلك ؟ إن الفرنسيين قوم لا يمكن احتمالهم! أرجو اعتبار هذه المعلومة ، وتلك المتعلقة بالأزمة الوزارية في العراق ، من بين

== لها أن تحتوي أحكاماً تمكن بريطانيا من القيام بذات التعهدات التي احتواها صك الانتداب . وإزاء هذا الوضع أبدى الملك فيصل مخاوفه وتحفظاته . ومع أن الملك وحكومته لم يعارضا بشدة عقد معاهدة تحدد أوجه العلاقة القائمة بين الطرفين البريطاني والعراقي لمدة عشرين عاماً إلا انهم لم يتصوروا واقع أن النظام الانتدابي كان مخططاً له أن يدوم طوال هذه الفترة . ولابد لنا أن ندرك جيداً مقدار ما تسببه هذا الوضع من قلق وألم للملك وما وضعه فيه من موقف حرج . لقد نشب الصراع بين الملك فيصل والسلطات البريطانية منذ الأيام الأولى التي تلت مراسيم التتويج . وفي كتابه الموسوم «فيصل الأول» يبين أمين الريحاني حراجة موقف الملك إذ يقول نصاً عن لسان الملك : « وعدني المستر تشرشل وعدين : أن يلغي الانتداب وأن يعترف باستقلال العراق . وقد جاءنا الآن بمعاهدة طافحة بذكر الانتداب وعصبة الأمم . فإذا كان الانتداب فما الفائدة من المعاهدة وما الغرض منها . . . .إننا مصرون على ما وعدنا به المستر تشرشل وهو ما يطلبه العراقيون المعتدلون منهم والمتطرفون . . . وإلا فالموقف حرج ، يا أخي ، حرج جداً .» هذا من باب ومن باب أخر كانت هناك مشكلة تشكيل الوزارة الجديدة : كان كوكس يريد إسناد الوزارة إلى النقيب بينما أراد الملك إسنادها إلى رجل غير متهم بالتعاون مع الإنجليز . ولكن إزاء إصرار كوكس على اختيار النقيب وجد الملك نفسه مجبراً على الرضوخ . وما أن تم «تسوية» هذه المشكلة حتى برزت مشكلة من سيتبوأ منصب وزير الداخلية . أراد كوكس تعيين توفيق الخالدي إلا أن الملك كان يريد غير ذلك . وكان الاتجاه يميل إلى تعيين ناجي بك السويدي . ولكن كوكس رفض للأسباب التي بينتها الآنسة بيل أعلاه . وبعد خلاف استمر ثلاثة أسابيع ، وبعد إقناع الملك بالعدول عن الذهاب إلى لندن تم الاتفاق على تعيين ضابط غير معروف عمل رئيساً للتجنيد اسمه الحاج رمزي . وهكذا كانت المشاكل والمضايقات تحيط بالملك . المترجم

(٩) كان العقيد جويس يعمل مستشاراً عسكرياً للحكومة العراقية - المترجم

الجوانب السرية . ولابد أن تعلم بأنك بمثابة دفتر يومياتي - ليعينك الرب بقدرته - وإنني أسجل تفاصيل الأحداث كما تقع .

أقامت عائلة كوكس حفلة عشاء محدودة في حديقة دارهم مساء الأمس . كانت مناسبة جميلة - فقد فرش السجاد ووضع وعدد من الأرائك فوق أرض الحديقة بينما تدلت المصابيح من الشجيرات وأشجار النخيل . وكان الجو رائعاً . إلا أن ما يحزنني كثيراً هو عدم اهتمام اللادي كوكس بشبابنا (الريطانيين) العاملين في الإدارة المدنية إذ أنها لا تقوم بدعوتهم لزيارة بيتها . إنها تقضي معظم وقتها مع أفراد القوة الجوية (سلاح الجو) الملكية . ويأتي شبابنا العاملون في مختلف المناطق الريفية في العراق إلى بغداد فلا يجدون من يهتم بأمورهم ويسعى إلى الترفيه عنهم بعد عمل شاق ومضن في مواقع مسؤولياتهم . وهكذا ديدنها حتى مع الأشخاص العاملين في المكاتب (البريطانية) في بغداد اللهم إلا باستثناءات محدودة جداً .

يوم أمس كان العاشر من محرم ، وكانت أنوار مشاعل المسيرات ، التي راحت تجوب الشوارع وسط الصرخات ولطم الصدور ، تفوق كل أنوار حديقة دار السير برسي تألقاً وإشراقاً .

الطقس لا يطاق ، وأيام أيلول هذه التي تشهد رحيل الصيف وحره القاتل هي الأسوأ من بين أيام السنة - فلا وجود للنسائم التي تلطف الجو وتطرد غشاء الضباب الخفيف الذي يخيم فوق النهر في الصباح الباكر وفي المساء ، ويشعر المرء منا وكأنه قطعة قماش ندية . ومع ذلك استجمعت قواي وقررت الخروج في نزهة ، فامتطيت جوادي وانطلقت في زيارة لصديقي الحاج ناجي قبل موعد الفطور . وعلى مدى شهر مضى لم أجد لدي القدرة على القيام بمثل هذه الرحلة . وفي المساء ذهبت مع بعض الشباب العاملين في المكتب للسباحة (في نهر دجلة) . كانت ممارسة رائعة للغاية ، كان الماء أشبه بالزيت تحت سماء توسطها قمر منير . وأمام موقع سباحتنا وقف فيصل يراقبنا من شرفة منزله الجديد ونحن نتبارى في القفز إلى الماء من فوق العوامة .»

وفي الحادي عشر من شهر أيلول كتبت قائلة «أبتي الحبيب ، قليلة هي الرسائل التي تحظى بنجاح فائق (في جلب الفرحة إلى النفوس) وتفوق في هذا المضمار ما حققته رسالة التهنئة التي أبرقتها مشكوراً إلى مدينة مدلسبوره Middlesbrough ومنها أُرسلت إلينا بالبريد ، فكانت مصدر فرح وارتياح كبيرين لي وللسير برسي ، وقد تأملنا في فحواها بتلذذ ذلك لأنها كانت المؤشر الأولى على وجود من يركز اهتمامه علينا وعلى شؤوننا وما نحن

بصدده من أعمال . وكان السير برسي قد استلم عدة برقيات تهنئة من تشرتشل وغيره من المسؤولين ، أما عامة الناس فإنهم على غير علم بمجريات الأمور ، ولا يوجد من يعمد إلى وضعهم بالصورة حول ما يجري . إننا نطالع الصحف (البريطانية) بدقة ونتابع كل ما تنشره بأمل أن نجد أي أثر للكم الهائل من المعلومات التي نواصل بدأب إرسالها إلى الوطن ، وكل ما نجده فيها هي الرسائل التي توجه إلى رؤساء التحرير من قبل بعض السادة الذين يعربون عن احتجاجهم (على تواجدنا في العراق) قائلين بأن العرب (أبناء البلاد) . سيكونون ممتنين لو قمنا بالجلاء عن بلدهم . إن حكومة جلالة الملك بحاجة على ما أظن إلى القيام ببعض الإجراءات الدعائية بالنيابة عنا .

كانت رسالتي التي بعثتها في الأسبوع الماضي قد انتهت بأخبار ما واكب تشكيل الوزارة من آلام وقلق . لقد قُضي الأمر ، وتم تشكيل أول وزارة في عهد فيصل . إننا مرتاحون بشكل عام . لقد أُضيف إلى الوزارة الجديدة عنصر جيد تمثل بشخص طبيب موصلي مسيحي ، متمرس وهمام ، تم تعينه وزيراً ليضطلع بمهام حقيبة وزارية جديدة هي الصحة . ولابد لي من أن أئتمنك على سر مفاده أن تعيينه قد تم من قبلي ، فقد عمدت إلى تقديمه إلى السير برسي واقترحت عليه استحداث وزارة للصحة . لقد فرح الجميع بهذه الخطوة ، بيد أنهم لا يعلمون بأنني كنت وراء تحقيقها .»(١٠)

وهكذا أصبح النقيب رئيساً لأول وزارة تشكلت في عهد المملكة العراقية ، وقد حضرت الآنسة جيرتروود بيل بصحبة السيد غاربيت حفلة الاستوزار . وبهذا الصدد نجدها تقول : «العراق قطر صغير ، وقد لا يتمتع رئيس وزراء بأية أهمية على الصعيد الدولي ، ولكننا مع ذلك نصنع تأريخاً .»

ثم تواصل رسالتها هذه بالقول : «من خلال إجراء تشكيل الوزارة في الأسبوع المنصرم ، تم لي التوغل بعمق أكثر إلى عقول أتباع فيصل الأوفياء ، وبشكل لم يسبق لي تحقيقه من قبل . لا يوجد الكثير منهم ، وأقصد بذلك الوطنيين ذوي الإيمان الصادق الذين يتعزز إخلاصهم لفيصل وتعلقهم الشديد بشخصه بإيمان راسخ بما ينفرد به شخصياً من مزايا يمكن بفضلها أن يصبح ملكاً يُكتب له توحيد أمة العرب ، وأن يتبوأ مركزه الطبيعي بين قادة العالم وحكامه . ويمثل جعفر ونوري بحسب تصوري مثالين بارزين لمثل هؤلاء الوطنيين المخلصين .

(١٠) إنه الدكتور حنا خياط ، وقد تم تعيينه على نحو ما بينته الآنسة بيل في رسالتها أعلاه وبعد أن أقنعت السير برسي بفصل نشاط الصحة عن وزارة المعارف واستحداث وزارة جديدة باسم وزارة الصحة - المترجم

إن ما يخشاه كل منهما هو عودة الأتراك لا بقوة السلاح إنما بالكيد والخداع ، كما يعتقدان باحتمال أن يؤدي تحول الأوضاع إلى عودة قادة جمعية الاتحاد والترقي إلى سدة الحكم مرة أخرى الأمر الذي سيروق كثيراً إلى أعضاء الجمعية سالفة الذكر من بين العراقيين . وإذا ما تم لهؤلاء تبوّؤ مناصب رفيعة واحتلال مراكز حساسة فبإمكانهم القيام بأمور لا يمكن حساب ما قد تتسببه من أضرار للقضية العربية وعليه ، وبصرف النظر عما يتمتع به البعض من هؤلاء من كفاية ومقدرة ، فإن مجموعتي الصغيرة من الأصدقاء[١١] ستقف لهم بالمرصاد وستعارض تعيينهم في مواقع المسؤولية ، ولهذا السبب بالذات فإنهما يعارضان تعيين توفيق الخالدي وزيراً . وإزاء ما طرحه نوري من رأي يتعلق بتوفيق الخالدي اعترضت موضحة له أن الخطر لا يكمن في شخوص الذين لديهم ميول تركية فقط بل يكمن كذلك في حماقة المتطرفين من جماعتكم وعدم تعقلهم . وإزاء ذلك رد نوري قائلاً ما مفاده أن المتطرفين ليسوا خطرين إلى مثل هذا الحد المهلك ، وطالما أنهم يواصلون حمل هذا الشعور العربي (القومي) الصادق لا موجب للخوف منهم ، كما أن سيدي فيصل يعرف جيداً كيفية التعامل معهم ، وسوف يختفون من مسرح الأحداث .

لبيت مساء الأربعاء دعوة عشاء ممتعة أقيمت على مائدة فيصل في مسكنه الجديد المطل على دجلة وحضرها كذلك كل من نوري ، ورستم حيدر وأحد المرافقين .[١٢]

وقد روى فيصل لنا تفاصيل تجاربه في لندن إثر وصوله إليها بعد أن أخرجه الفرنسيون من سوريا : ذهب لمقابلة السير جون تلي Sir John Tilley الذي وصفه بحق بأنه كان شخصاً مأمون الجانب ليس فيه ما يضر أو يؤذي ، وقد أخبره السير جون بأنه (أي فيصل) سيقابل الملك (جورج الخامس) ولكن كان عليه عدم التطرق إلى موضوع سوريا ، أو ذكر الفرنسيين ، والأهم من ذلك كله كان عليه تجنب الإشارة إلى أن اتفاقاتنا (أي الاتفاقات البريطانية) مع العرب لم تأت منسجمة مع تلك التي أبرمناها مع الفرنسيين . إلا أنهم مع الأسف قد أغفلوا على ما يبدو اقتراح ذات الشيء على الملك جورج الخامس و إقناعه بحكمة عدم التطرق إلى المواضيع ذاتها مما جعله يخوض فيها لينتهي بعد ذلك بتطمين الملك فيصل مؤكداً له أن لا موجب لشعوره بالقلق لأننا (أي البريطانيين) نقف خلفه ونؤيده بثبات تام .

وفي صباح الجمعة انطلقت بصحبة نوري باشا في جولة على ظهور الخيل أخبرني في

(١١) أي أولئك الموالين لجلالة الملك والمخلصين له - المترجم

(١٢) إنه تحسين باشا قدري على أغلب الظن - المترجم

أثنائها كثيراً من الأقاويل والشائعات المتعلقة بعائلة الشريف (حسين) . « فمن بين الأشقاء الثلاثة علي وعبد الله وفيصل كان عبد الله الابن المدلل وكان نصيب فيصل القيام بالمهام التي يتطلب أداؤها ذهابه إلى أماكن بعيدة ، وبعد وفاة والدتهم تزوج الشريف من امرأة شركسية دأبت على مخاصمة الشريف علي حول الأمور المتعلقة بإدارة الشؤون المنزلية . وكان علي يكره ابنها زيداً على العكس من فيصل الذي كان يكن له كل الود والمحبة . ويشعر علي وعبد الله بغيرة شديدة من فيصل في الوقت الحاضر .»

وفي السابع عشر من أيلول كتبت إلى أبيها وزوجته رسالة لم تخل نبرتها من عتاب حاد : «إنه لأمر يصعب علي احتماله عندما تعلمانني عن مقال هام يتعلق بي شخصياً نشرته صحيفة النيويورك هيرالد The New York Herald من غير أن يكون لكما أي علم بفحواه ! إن من شأن نهج كهذا أن يدفع المرء إلى التصور بأن المقال هذا أسوأ بكثير مما حاول كاتبه إبرازه من جوانب . وأنا من جانبي لم أسمع أبداً بمن يدعى جون ماكهيو ستيوارت John Mc.Hugh Stewart ، لعنه الله من مغامر ![13]

ليس صحيحاً أبداً أنني قمت بتحديد مصير العراق ، والصحيح هو أنني وجدت مكانتي الحقة بقيام حكومة عربية . ولابد من القول أنه لوضع في غاية الدقة ، وجانب يتطلب الاضطلاع به مهارة فائقة ، أن يجد المرء نفسه مؤتمناً من قبلهم لا سيما إذا ما أدركنا أن ما ينتظرهم لا يعتبر مهمة يسهل تحقيقها والارتفاع بأدائها إلى مستوى المسؤولية . بالإضافة إلى ذلك فإنهم مهتمون جداً بكسب مودة العناصر التي لم يكن أعضاؤها أفضل من سوار كُسيت بمفارش للموائد وتوجت رؤوسها بالسلاجم ؛ إنها صورة طالما عمدت إلى الإجهار بها غير آبهة (بما قد يترتب على صراحتي هذه من تبعات) ، ولعلهم سيكتشفون هذه الحقيقة بأنفسهم في يوم ما ويستطيعون الإفادة من ما تنطوي عليه من سخرية لاذعة . وتكمن الحقيقة - وهو ما يدركونه بشيء من الانزعاج وعدم الرضى - في واقع أن الوطنية

---

(١٣) من المعروف عن الآنسة جيرتروود بيل أنها كانت تحاول تفادي كل صيغة من صيغ الدعاية الشخصية - المترجم

الحقة في هذا القطر جانب لا يكاد يذكر (كذا)[١٤]، ولن يكون لها وجود إلا بعد أن يدركوا يقيناً أن الحكومة العربية، وبفضل دعمنا المتواصل، لن تؤول إلى الإخفاق أو تحل بها المصائب. وفي ذات الوقت هناك عدد لا يستهان به من الحمقى الذين يتصورون أن في حال عدم تمكنهم من تولي الحكم فإنهم سيعمدون إلى الإطاحة به، إلا أنهم عاجزون عن تحقيق أي من هذين الخيارين، وسواء أدركوا ذلك أم لم يدركوه فجانب لا أهمية له بالنسبة لي أبداً بسبب كونهم أناساً عديمي الأهمية بالأساس.

صادف يوم الثلاثاء المنصرم العاشر من شهر محرم، أي يوم عاشوراء، وقد ذهبت إلى الكاظمية لمشاهدة النشاطات التي تجري هناك في هذا اليوم من كل عام. وبطبيعة الحال لا يمكن للمرء منا مشاهدة ما يجري داخل صحن الحضرة، إلا أن رئيس بلدية الكاظمية كان

---

(١٤) إن التعليق على ما صرحت به الآنسة جيرتروود بيل يتطلب الدخول في تفاصيل علمية ودقيقة لا يمكن الدخول فيها وإيفاؤها حقها في إطار هذا العمل بالذات، ومع ذلك ينبغي لنا أن نقول أننا لا نشارك الآنسة بيل رأيها هذا. فالحس الوطني لم يكن مفقوداً لدى العراقيين. وإذ نقول ذلك لابد لنا أن ندرك أن الوعي السياسي في العراق كان قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى في بدايته وكاد يكون مقصوراً على قلة قليلة من بين المثقفين الذين شكل أبناء العوائل العريقة وضباط الجيش الجزء الأكبر منها. ولابد أن نتذكر في الحين ذاته أن العراقيين كانوا قد عاشوا على مدى أربعة قرون من الزمن تقريباً باعتبارهم عثمانيين، وكان الدين، لا العنصر، يشكل الرابطة الأساس والعامل الحاسم. وكان العرب، ومنهم أبناء العراق متكافئين مع الأتراك وشركاءهم في إدارة البلاد لاسيما في أطر المجالات المحلية أما الشك في حقيقة هذا الواقع فلم يبدأ بالتغلغل إلى نفوس العناصر العربية إلا بعد عام ١٩٠٨ عندما تولت جمعية الاتحاد والترقي زمام الأمور وانطلقت في اعتماد توجهاتها الطورانية. ومن يدري ما كان ستؤول الأمور إليه لو أن الحرب لم تندلع وتشترك فيها تركيا ويتأتى ما تأتى عليها من نتائج؟ وثمة أمر واحد يمكن قوله بالتأكيد وهو أن اندلاع الحرب قد جاء في وقت كان الخلاف المتنامي بين العرب والترك قد وصل مرحلة متقدمة. وإذا ما أخذنا كل هذا بعين الاعتبار لا يسعنا سوى التوجه إلى الآنسة بيل بالقول أن الحس الوطني لم يكن مفقوداً بل لعله كان بحاجة إلى التنوير والتوجيه والدعم وهي جوانب لا يمكنها أن تكون صعبة إذا ما أدركنا توافر القواسم المشتركة كاللغة وسياقات التاريخ وأمجاد الماضي ومالها من دور بارز على الصعيدين الوطني والقومي - المترجم

أعد لنا غرفة في دار له فارغة مقابل الحضرة . وعند وصولنا إلى الكاظمية توجه فيصل[(١٥)] إلى داخل صحن الحضرة حيث أُعدت له مقصورة خاصة ليتمكن من مشاهدة المواكب وتمثيل سياق الأحداث التي تنتهي بمقتل الإمام الحسين على يد قوات يزيد بن معاوية ، وحرق الخيم وقطع رؤوس الموتى وإرسالها إلى يزيد في الشام . وقبل تمثيل مشهد المقتل راحت المواكب تمر الواحد تلو الآخر ، وكانت على نوعين : اللطامون الذين لا يعتبر منظرهم مؤذياً نسبياً ، وأصحاب القامات . وكانت الممارسة الأخيرة تتسبب بمقتل عدد من القائمين بها وذلك في المناسبات التي كانت تنظم بهذا الخصوص إبان الحكم التركي . أما الآن فإن هذه المناسبات تقام تحت رقابة الشرطة على الرغم من بشاعة مواكب أصحاب القامات وممارساتهم فإنها لا تعتبر عملية خطرة . ويمكن إجمال تفاصيل العملية بما يلي : بعد أن

---

(١٥) عرف عن المغفور له جلالة الملك فيصل الأول انصرافه إلى مجاملة أبناء الشيعة والتقرب إليهم . وعلى سبيل المثال وكما أسلفنا في مجال سابق فإنه شخصياً اختار يوم الثالث والعشرين من آب ، الذي صادف الثامن عشر من ذي الحجة بالتقويم الهجري ، ليكون يوم تتويجه لأنه كان يوم «عيد الغدير» الذي يحتفل فيه الشيعة باعتباره اليوم الذي نصب فيه النبي (ﷺ) علياً للخلافة من بعده . وقد أراد جلالته تذكير أبناء الشيعة بأنه من سلالة الإمام علي كرم الله وجهه وأن تتويجه يجري في ذكرى ذات التاريخ الذي نصب فيه جده للخلافة . كما اهتم جلالته ، وعلى نحو ما فعل البريطانيون عقب احتلالهم بغداد ، بشهر محرم حيث عمد إلى مساعدة المواكب ، وإقامة مجالس التعزية في صحن الكاظمية على نفقته الخاصة . ومن الطريف في هذه المناسبة بالذات (١٩٢١/٩/٤) ، وبما ذكره الأستاذ ساطع الحصري في مذكراته ، أن الأنظار تركزت على العلم العراقي الجديد الذي راح يرفرف بين أعلام المواكب وهو منظر امتعض بعض القائمين على شؤون المواكب منه ذلك لأن العلم هذا في نظرهم كان علم الشريف الذي رفعه إثر تحالفه مع البريطانيين ضد الدولة العثمانية المسلمة بينما رفع المجتهدون في العراق علم الجهاد لنصرة الدولة العثمانية . ولهذا السبب راح حامل العلم العراقي يسير إلى جانب ممثل عمر بن سعد قائد الجيش المعادي للحسين لا إلى جانب ممثل الحسين وأخيه العباس . وقد انتبه ساطع الحصري إلى ذلك وسعى لدى من رافق الملك من المسؤولين إلى معالجة الموقف . وقد أوعز إلى حامل العلم بالابتعاد عن ممثل عمر بن سعد و الاقتراب من ممثل الحسين . وما أن تم ذلك حتى راح الأخير يدفع حامل العلم العراقي بعيداً عنه . وإزاء هذا الإحراج نصح الحصري بانسحاب حامل العلم العراقي بهدوء من غير أن يلفت أنظار الناس ، وهذا ما تم فعلاً . ولم يكن الملك قد انتبه إلى كل ذلك لانشغاله بتتبع حركات المواكب والاستماع إلى الشروح المتعلقة بمختلف النشاطات . وهكذا تم تفادي حصول ما لا يحمد عقباه - المترجم

يحلّق الرأس بحيث يُعرى جزء من فروته تماماً يقوم أحد مفتشي الشرطة بجرح الرأس في أكثر من موضع بواسطة سيف فتنزف الدماء على أثرها بغزارة وتغمر الوجه ، ونتيجة لطم الرأس باليد ومن ثم لطم الصدر يبرز للمشاهد منظر دموي مثير يجمد الدماء في العروق . ويقوم البعض بتخضيب الجزء الخلفي من جلاليبهم بالدم الذي لا يمكنني التصور بأنه دمهم بل دم طرف آخر وقد يكون دم خروف . ثم ينطلق أصحاب المواكب خارجين من صحن الحضرة وهم يلوحون بالقامات والسكاكين التي سرعان ما يصار إلى تحريرهم منها بطرق ماهرة وذكية من قبل ذات مفتش الشرطة الذي كان قد قام أساساً بجرح الرؤوس ، وتتم عملية التجريد من الأسلحة الجارحة أحياناً على الكره من البعض الذين لا يتوانون عن الإعلان عن احتجاجهم إزاء ذلك . وتنطلق عملية تجريدهم من هذه الأسلحة الجارحة من الحرص على تفادي احتمال إصابتهم بمزيد من الأذى الذي قد يترتب على المبالغة في إظهار الحماس . إنها ممارسة وحشية يستهجنها السنة باعتبارها جانباً يسيء إلى الإسلام .

وبعد أن انتهى هؤلاء السادة من ممارستهم هذه لم يحدث أي شيء لفترة غير قصيرة من الزمن – إن الإدارة المسرحية للمارسة بأسرها ضعيفة بسبب طول الفترات الفاصلة بين المشاهد . وعلى الرغم مما أبدته الجماهير من اهتمام ، فإنني استلقيت على الأرض وسرعان ما رحت أغط في سبات عميق على مدى نصف ساعة من الزمن . وعند حلول الظهر أعلن رئيس البلدية بأن طعام الغداء جاهز في داره . وللوصول إلى دار رئيس البلدية كان علينا السير في شارع قصير وجدنا فيه العديد من المشاهدين و المشتركين في التمثيل ، وقد تحدثت مع الأخيرين مستفسرة منهم عن أي من الجيشين كانوا ينتمون ، وقد حصلت منهم على إجابات حملت في طياتها الكثير من الود والحماس . وجدير الذكر أن الأوربيين قبل الحرب ما كانوا يجرؤون على الوصول إلى الكاظمية في يوم عاشوراء . بعد ذلك انطلقنا نسير في شوارع الكاظمية ، وقد مررنا في طريقنا ببوابتين من بوابات الحضرة الكاظمية قبل أن نصل إلى الشارع الضيق المؤدي إلى دار رئيس البلدة . وكان الناس يجلسون على جوانب الطرقات حيث توفر الظل بينما انهمك باعة الخبز و «تشريب» الباقلاء والسقاة في ترويج بضاعتهم . وكنت أخاطبهم قائلة « عوافي »(١٦) فيجيبونني بعبارة «الله يعافيك» . وأثناء وقوف رئيس البلدية على عتبة داره وهو يحاول البحث بارتباك عن مفتاحه ، لم أستطع مغالبة ما تملكني من شعور مفعم بالحيوية حمل في طياته مزيجاً من الغرابة والإلفة في آن واحد : السيد بلباسه

---

(١٦) يقابل عبارة «عوافي» بالعراقية الدارجة عبارة «صحتين» في بلاد الشام – المترجم

التقليدي وهو يقف على عتبة داره ، والشارع الضيق ، وحرارة الجو ، والناس الذين كان يفترض بهم بحق أن يحتدموا غضباً بفعل تعصبهم الديني (إزاء وجودنا) بيد أنهم لم يكونوا كذلك .

إنني شخصياً سنية ، ومع ذلك لا يجدي بي التظاهر بأنني في الواقع أقل قرباً من شخص عزيز كالسيد جعفر عطيفة أو أي فرد شيعي من أبناء القبائل ممن كانوا منهمكين في تناول «تشريب» الباقلاء .

وغند عودتنا إلى النافذة المطلة على مسرح الأحداث في الصحن ، كان النشاط قد وصل إلى نهايته تقريباً ، وراح سيل الذين اشتركوا في «التشابيه»(١٧) يتدفق إلى خارج الصحن يجر البعض منهم خيولاً مدبجة ويحمل البعض الآخر محفات النساء (التي ضمت صبياناً وصبايا في أقصى درجات البهجة والسرور لاشتراكهم في الأداء) ، وكانت هناك رايات ورايات لا حصر لها ، كان أكثرها أسود اللون ، إلى جانب العلم . الفارسي ، وجثث دامية بدت حقيقية للغاية وهي محمولة في توابيت . ثم خرج فيصل وانطلقنا معه راجعين إلى قواعدنا .

تشهد كردستان تطورات تثير الاهتمام ، فمنذ وصول فيصل راحت الرسائل تتوالى عليه من أعيان الأكراد وسادتهم - في المناطق الواقعة شمال حدودنا - الذين عبروا عن رغبتهم في التخلص من نير حكم الأتراك وإقامة دولة كردية تتمتع باستقلال ذاتي تحت لواء فيصل (صيغة حكم أشبه بنظام المملكة النمساوية المجرية)(١٨) .

(١٧) العبارة المحلية التي ترمز إلى هذه التمثيلية بالذات - المترجم

(١٨) المملكة النمساوية المجرية (١٨٧٦ - ١٩٨٨) The Austro-Hungarian Monarchy كانت المجر محتلة احتلالاً تاماً من قبل الإمبراطورية النمساوية ولكن بعد عام ١٨٦٦ ، وإثر هزيمة النمسا على يد بروسيا في معركة سادوا Sadowa أو Sadova (التي تعتبر الخطوة الثانية في مضمار تنفيذ سياسة الدم والنار التي اعتمدها بسمارك لغرض توحيد ألمانيا وإقامة أمبراطوريتها) تزايد نشاط المعارضة المجرية مستغلة ظرف النمسا وحالة الضعف التي سادت أجواءها إثر هذه الهزيمة الأمر الذي أدى بالنتيجة إلى توقيع اتفاق نص على إنشاء دولتين متساويتين في الحقوق ، لكل منهما عاصمتها وجهازها السياسي الخاصين بها ولكن ضمن كيان سياسي واحد برئاسة موحدة وبسياسة خارجية ودفاعية ومالية واحدة إضافة إلى نواب ومجلس شيوخ يجتمعان دورياً في كل من فينا وبودابست . وكان مهندس هذا النظام الإمبراطور فرانسيس جوزيف الذي كان يحمل لقب إمبراطور النمسا وملك هنغاريا ولذلك سميت «المملكة النمساوية المجرية» لا الإمبراطورية النمساوية المجرية وهي تسمية خاطئة ترد في بعض الكتب والمعاجم . وقد تلاشت هذه المملكة بعد اندحار النمسا في الحرب العالمية الأولى وانفصال المجر عنها - المترجم

شهدت درجات الحرارة هبوطاً ملحوظاً في هذا الأسبوع - فما أن دخلت إلى مكتبي يوم أمس حتى شعرت بقشعريرة تدب في أوصالي ، وعندما نظرت إلى مقياس الحرارة ذُهلت : كان المؤشر الزئبقي يقف عند (٨٠) درجة فهرنهايت ، أي أنها درجة الارتعاد من البرد بمقياس هذه المنطقة من العالم ! »

وفي الخامس والعشرين من شهر أيلول كتبت تقول : «دعوني أسرد لكم ما شهده هذا الأسبوع من أحداث - تناولت طعام العشاء على مائدة الملك في إحدى الأمسيات ، وبعد أن انتهينا من الطعام جلسنا في الشرفة المطلة على النهر ، وراح الملك يفضي إلي بمكنونات صدره وهو ما جاء في أعقاب إصراري عليه بضرورة قيامه باستحضار زوجته وأطفاله . أخبرني بأنه لم يكن واثقاً من مستقبل هذا البلد ، وبأن البلد تميل إلى الأتراك بشكل عام ، وبأنه لا يعلم ما إذا كانت الحكومة البريطانية ستصر على وضع شروط في المعاهدة المرتقبة يعجز عن القبول بها . وفيما يتعلق بالنقطة الأخيرة أخبرته بضرورة توصلنا (نحن البريطانيين) إلى اتفاق معه ، أو الاعتراف بالإخفاق التام خلاف ذلك ، إلا أنني أخبرته كذلك بأنني لا أرى موجباً لأي نوع من القلق . وفيما يتعلق بأول نقطة أثارها بينت له بأننا نشكر المولى على شخصيته الجذابة ، وحديثه الساحر الذي يأخذ بمجاميع القلوب ، وتساءلت عن سبب عدم تواصله في استغلال مثل هذه المواهب ؟ وقد أيد ما قلت بحرارة مضيفاً أنه يرغب في تحقيق مزيد من التماس مع الناس ومستفسراً حول ما إذا كان من المجدي به إقامة دعوات عشاء مقتصرة ، وحول الأشخاص الذين يجدر به دعوتهم لحضورها . وبهذا الصدد أعربت له عن استعدادي للقيام بتنظيم مسودات قوائم تضم أسماء من يمكن دعوتهم من بين العرب والبريطانيين لحضور هذه المناسبات . وإزاء ذلك انفجر بحماسه الذي يأخذ بمجامع القلوب قائلاً : أي والله ! أنت سيدة هذا الدار فادعي من ترين أنه الأجدى بالدعوة . ثم أضاف قائلاً أنه باستثنائي شخصياً وباستثناء كل من السيد كورنوالس والعقيد جويس فإنه لم يكن على معرفة بالضباط البريطانيين ، كما أنه لم يكن واثقاً من أنهم كانوا على استعداد لتقديم ذات الخدمات الأمنية والخاصة التي اعتاد الحصول عليها منا عندما كان في سوريا .

وقد أكدت له بدوري بأنهم لن يتوانوا عن تقيم مثل هذه الخدمات له في حال أقدم على كسب صداقتهم والتعامل معهم على نحو ما اعتاده من تعامل معي ومع السيد كورنواليس . إثر ذلك ودعته منصرفة بأمل أن يعمل كلانا على تدارس ما يلزم من تدابير من أجل تنفيذ هذه التوجهات .

وفي صباح اليوم التالي نظمت عدداً من القوائم ووضعت الترتيبات اللازمة لإقامة العديد من دعوات العشاء . سوف أقوم على ما يبدو بإدارة شؤون البلاط الملكي حتى الوقت الذي يتمكن فيه من الاعتماد على ذاته .

أفكر أحياناً بما تتسم به الأمور هنا من غرابة في ما يخص علاقتي بالأشخاص (غير البريطانيين) لاسيما علاقتي الشخصية بكل من الملك وفائق بك . إنهم أشخاص مختلفون عنا تماماً وذلك في إطار نشأتهم وعلاقاتهم وتقاليدهم ، ومع ذلك عندما يجد المرء منا نفسه في وسطهم فإنه لا يشعر بوجود هذا الاختلاف ، كما أنهم بدورهم لا يشعرون به كذلك . أناس أمثال فيصل - هذا الرجل الذي ولد وترعرع في مكة في قصر مليء بالعبيد والخصيان ، والذي اكتسب ثقافته في مدينة القسطنطينية (إسطنبول) ، ثم عمل قائداً عاماً لجيش عربي ، وتوج ملكاً ، ثم أصبح منفياً ثم توج بعدها ملكاً مرة ثانية ، وأمثال فائق بك الذي يعمل على رعاية مزرعته وما تحتويه من أشجار ونخيل وكروم ، وينطلق إلى بغداد ليجد أسواقاً من أجل تصريف محاصيله الزراعية - إنهما ، أي فيصل وفائق ، يهرعان للقائي كلما شاهداني ، ويمدان يديهما لي مرحبين قبل أن ينصرفا ، كل بطريقته الخاصة ، إلى التحدث معي حول مختلف أمور حياتهم وما يشهدانه من أحداث ويمارسانه من مهام ، وكأنني أخت شقيقة لهما ، ولعل ما يثير العجب في الأمر هو أنني بدوري أبادلهما هذا الشعور الأخوي !»

وفي الثاني من شهر تشرين الأول كتبت تقول : «نقوم بإرسال كم وافر من الرسائل المستعجلة بالبريد الجوي ويكون الرابع عشر والثلاثون من كل شهر يومين يشهدان حركة محمومة في مضمار تهيئة المراسلات وإنجاز التقارير التي يُطلب إرسالها ، كما أنهما اليومان اللذان يتعين علي فيهما إنجاز تقريريٍّ النصف شهريين وهو جهد يكاد يصل إلى مستوى تدوين تاريخ بلاد ما بين النهرين بواقع مرتين في الشهر . إنه والحق يقال عمل رائع ومثمر يتم الاطلاع عليه من قبل كل ضباطنا العاملين في مختلف المناطق الريفية (في العراق) كما ترسل نسخ منه إلى كل من الهند ، ومصر ، وعدن ، ويافا ، وإسطنبول ، والقدس ، ولندن ، وطهران .

أقام الملك ليلة أمس أولى دعوات العشاء التي عمدنا إلى تنظيمها واستضاف فيها كلاً من السير برسي وزوجته ، والدكتور هاري سندرسون وزوجته ، وجعفر باشا ، وساسون أفندي حسقيل ، والسيد يوسف السويدي ، وكانت مناسبة جيدة التنظيم أثبت فيصل من خلالها أنه مضيف رائع . إنني الآن بصدد تدريب مرافقي جلالة الملك على كيفية القيام بتحريك

الأشخاص المدعوين ، بلباقة وكياسة من مكان إلى آخر بما يضمن تمكن كل ضيف من التحدث مع الملك .

شهد اليوم التالي جانبين يبعثان على المضايقة والملل - أولاً جاءني البريد بالمقالة سيئة الصيت ، التي يتعذر علي التعبير عنها ، والتي كانت صحيفة النيويورك هيرالد قد نشرتها - ينبغي أن يكون عقاب كتاب مثل كاتب هذه المقالة الحبس لمدة ستة أشهر مع الأشغال الشاقة . أما ثانياً فهو كتاب من السيد نادلر يخبرني فيه عن عدم تمكنه من استضافتي في الموصل أثناء زيارة الملك المرتقبة لها . لا أظنني قد شعرت بخيبة أمل مماثلة منذ فترة طويلة . كنت أود مخلصة أن أشهد ترحيب الموصليين بمليكهم لكي أتمكن من تدوين وصف حي للمناسبة . ولعل هناك جانباً أكثر أهمية من الترحيب ؛ إن مدينة الموصل قريبة جداً من الحدود مع تركيا ، وبإمكان عميل من عملاء مصطفى كمال ، مسلح بمسدس أو قنبلة ، أن يتسبب بكارثة كبيرة ، فكلما زاد عدد المرافقين المحيطين بفيصل كان الوضع أفضل وأكثر أماناً ، ولا أراني أقل فائدة على ما أفترض عن أي من مرافقيه بسبب ما قد يترتب على إصابتي بأي أذى ، في حال تم ذلك ، من القيل والقال . وإنني لعلى ثقة تامة بأن نصف عوائل الموصل لن تتوانى عن الترحيب بي ضيفة عليهم في حال قمت بمفاتحتهم بذلك . إلا أن قراءة لما ضمته رسالة السيد نادلر بين سطورها من مضامين كانت كفيلة بأن تجعلني أدرك عدم رغبته في مجيئي الأمر الذي كان مصدر ألم وإزعاج لي في آن واحد . فالسيد نادلر ليس من بين موظفينا وضباطنا الذين يحظون بحب الناس وتقديرهم ، كما أن فيصل شخصياً لا يميل إليه برغم دفاعي عنه أمامه (أي أمام فيصل) باعتباره من أفضل المسؤولين البريطانيين العاملين في العراق ومن بين أكثرهم كفاية ، وهي حقيقة لا مفر منها .»

وتواصل جيرتروود كتابة رسالتها أعلاه بتاريخ الثالث عشر من تشرين الأول قائلة : «أتساءل في أغلب الأحيان عن صواب بقائي هنا ، فالمرء نزاع إلى المبالغة بما يتمتع به من أهمية ، ولا شك أن المملكة العراقية ستواصل مسيرتها بغيابي برغم كل ما أتصوره من عدم قدرتها على ذلك ، إلا أن المصيبة تكمن في حقيقة أنني كلما توصلت إلى مثل هذا الاستنتاج العقلاني أجدني منجذبة مرة أخرى إلى غروري - أو لعلك تصفه بجنوني أو بأي نعت آخر قد تجده أكثر ملائمة - من خلال التفكير بأن أموراً كهذه لا تعتمد أساساً على التفكير المنطقي المجرد ، وأن المعادلة لا يمكن تجريدها من الجوانب المتعلقة بالعواطف والمشاعر الشخصية التي قُدر لها أن تنمو وتتبلور لدي . وأذكر في محضر حديث مع شاكر بك عن الوطنية في الجيش ، وهو حديث دار في المدرسة العسكرية قبل بضعة أيام ، فإنه قال لي :

«خاتون ، إننا نخبرك بهذه الجوانب ، ونتحدث إليك بهذه الأمور لأننا نعتقد بأنك واحدة منا» . وعندما أتحدث مع فيصل وأذكر له احتمال ذهابي في زيارة إلى الوطن في الصيف المقبل ، فإنه يجيبني بنبرة حادة قائلاً « ما هذا الكلام ! لا يتعين عليك الحديث عن الذهاب إلى الوطن ، فوطنك هنا ، ولكن بإمكانك القول أنك تودين السفر لرؤية والدك .»

وصلنا زميل قانوني لطيف المعشر ليحل محل السير إدغار بونهام كارتر - إنه يدعى (دايفدسون Davidson الذي أصبح فيما بعد السير نايجل دايفدسون) وستلتحق زوجته به في غضون الشهر المقبل والتي آمل أن تكون هي الأخرى لطيفة المعشر وأن تصبح صديقة لي لأنني أفتقر إلى من يمكنني أن أرتبط بها بعلاقة صداقة ومودة ، وهو ما يشكل عائقاً كبيراً . وعندما أشعر بالوحدة ، أجد نفسي مدفوعة برغبة قوية إلى امتطاء فرسي والتوجه لقضاء ساعة من الزمن بضيافة الحاج ناجي الذي يعتبر بديلاً فريداً من نوعه لصديقة صدوقة . إنه أفضل من قُدر لي اكتشافه بهذا الخصوص حتى الآن !»

وفي السابع عشر من شهر تشرين الأول كتبت تقول : «عاد سيدي فيصل اليوم من الموصل . بدا بصحة جيدة وفي غاية السرور لنجاح زيارته . أحمد الله على عودته سالماً !»

وتستأنف الآنسة بيل رسالتها في الرابع والعشرين من الشهر ذاته حيث تصف مأدبة عشاء أقامها الملك ، وزيارة قامت بها إلى ساحة سباق الخيل . وفيما يتعلق بالمناسبة الأخيرة تقول جيرتروود بأنها تميزت بالرتابة . وبسبب كونها أول حضور للملك فيصل ، فقد عمدت إلى دفع فخري الجميل إلى حضورها عن طريق إقناعه باصطحابي إليها الأمر الذي أجبرني على إجراء ما يلزم لتأمين جلوسه ، وبقية الوجهاء الذين حضروا المناسبة ، في المقصورة الملكية . ولعل مرور الوقت كفيل بنجاح المرء منا في إقناع مرافقي جلالته بوجوب الانتباه إلى حقيقة مفادها أن عدداً كبيراً من العداوات المتأصلة يمكن أن تتأتى نتيجة هفوات اجتماعية صغيرة .

«تناولت الشاي بصحبة جلالة الملك في عصر أحد الأيام ، وبعد أن تناقشت معه بصدد استحداث نظام أوسمة عراقي (إذ لابد أن يكون لنا نظام لمنح الأوسمة خاص بنا) انتهينا إلى حوار طويل حول كردستان بين فيصل لي من خلاله أن حرق أصابعنا في نار الشؤون الكردية ليس بأمر مناسب له ولنا على حد سواء ، وأن أول ما يجب طلبه من الأكراد هو انصرافهم إلى الاتفاق على شخص معين يمكن لهم ترشيحه للاضطلاع بمهام ملك أو رئيس جمهورية - أي قيامهم في الواقع بتنصيب فيصل كردي إن صح هذا التعبير . وأنا من جانبي لست مؤمنة للحظة واحدة بأن لديهم مثل هذا الشخص . وبقدر تعلق الأمر

بكردستان ، وبأرمينيا ، فإن تصريحاتنا التي أعقبت إعلان الهدنة قد تجاوزت بحد كبير قدراتنا على الإيفاء بما انطوت عليه من التزامات ، وعليه لابد لنا أن نعلم الأكراد بوضوح لا لبس فيه بأننا غير قادرين على إنفاق فلس واحد في مضمار ترويج فكرة استقلال كردستان ، وإذا ما انصرفنا إلى تشجيعهم في هذا المجال فإننا سرعان ما سنجد أنفسنا مضطرين إلى التخلي عنهم في ساعة شدتهم وهو أسوأ شيء ممكن .

يراودني شعور يدعو إلى التفاؤل بأننا نمضي قدماً في مساعينا . لقد كان لزيارة فيصل إلى الموصل وقع إيجابي بالغ الأهمية على بغداد . لقد اهتم الموصليون اهتماماً بالغاً بالملك فيصل الذي سر من جانبه سروراً عظيماً بحفاوتهم به ، وبما لمسه من حسن أداء وكفاية من لدن نادلر الأمر الذي أرسى قواعد الثقة الشخصية بين الجانبين (أي فيصل من جانب والموصليين والسيد نادلر من جانب آخر .) لقد بدأ فيصل بتحسس قيمة من هم موضع ثقتنا واعتزازنا من الأشخاص الذين يعتبر كل من السيد نادلر والشيخ علي السليمان مثالاً حياً لهم . وكان الشيخ علي السليمان في بغداد عند عودة فيصل الذي بالغ في الاحتفاء به إلى الحد الذي جعله في أقصى درجات السرور . وهذا بالذات ما يسعى المرء منا إلى تحقيقه ، أي قيام أواصر الثقة المتبادلة بين الملك ورعيته . وسينطلق فيصل نهار الغد في رحلة إلى منطقة الحلة وتوابعها .

وفي هذه الأثناء تنصرف الجهود باتجاه المعاهدة (المزمع إبرامها) بين الحكومتين البريطانية والعراقية . وقد أخبرني السير برسي بأنه لا يتوقع وجود أية صعوبة في هذا الخصوص ، وعندما تتم صياغتها ستزول عقبة هائلة من طريق مسيرتنا . ويعيش فيصل في حالة رعب منها انطلاقاً من خوفه من احتمال قيام الحكومة البريطانية بدفعه إلى الموافقة على شروط لا يمكنه إقناع العناصر الوطنية العراقية بالقبول بها ، وعلى غرار ما قامت به الحكومة الفرنسية في سوريا ، وحتى زوال هذا الكابوس لن يهنأ له عيش ولن يشعر بالأمان . ومن وجهة نظري الشخصية فإنني لا أرى أي موجب لهذا القلق ، فالسير برسي على بينة تامة من أمر العناصر التي ينبغي إرضاؤها . ولابد لنا أن نتذكر بأننا قد سبق لنا رؤية كيف يضطر تشرتشل إلى مطاوعة السير برسي عندما يقوم الأخير هذا باتخاذ قرار معين ويصر بثبات على تطبيقه» .

وفي السابع والعشرين من شهر تشرين الأول كتبت إلى والدها تقول : «ذهبت صباح يوم الخامس والعشرين لوداع فيصل بالنيابة عن السيد برسي ، ثم تناولت فطوري بعد ذلك بصحبة كورنواليس فكانت مناسبة لطيفة إذ لم يجتمع أحدنا بالآخر قبل هذه المناسبة لفترة

طويلة من الزمن بسبب ما أعانيه من إرهاق فكري وهو ما حال كذلك دون تمكني من إنجاز أعمالي . إنني أفكر بجد باحتمال الذهاب إلى السليمانية لبضعة أيام في غضون الأسبوع المقبل .»

وفي الحادي والثلاثين من الشهر نفسه كتبت تقول : «إن ما ينتابني من فتور عام وملل يحولان دون تمكني من كتابة رسائلي بالشكل الملائم ، وبذلك سأكتفي بتزويدك بموجز عام لنشاطي . أقمت يوم الجمعة دعوة عشاء على شرف الرائد يونغ الذي اصطحبته عصر يوم الاثنين في زيارة لحديقة السيد جعفر عطيفة في الكاظمية حيث تناولنا الشاي بضيافة هذا السيد الكريم ، وحيث التقى يونغ عدداً من التجار من أبناء الشيعة . أما يوم الأحد فخرجت في نزهة زرت فيها أصدقائي من أبناء الدليم الذين كانوا بصدد إنجاز شبكة واسعة من القنوات التي تنقل مياه الفرات من مكان يقع ما وراء مدينة الرمادي لإرواء المناطق الصحراوية ، وهي شبكة تكاد تصل إلى بغداد . إنه مشروع رائع يعود الفضل في إنجازه أساساً إلى فكر الشيخ علي السليمان المبدع وجهوده ، وإلى ما قدمه له الرائد بيتس من دعم . وكان الأخير قد دعاني بهدف مشاهدة هذا الإنجاز . وقد اصطحبت معي السيد تومبسون الذي أعتبره من أروع رفاق السفر . وقد استقبلنا الرائد بيتس عند مدينة الفلوجة التي انطلقنا منها إلى القناة . كان هناك ما يقرب من ألف وخمسمائة من أبناء العشائر الذين انهمكوا في القيام بمختلف الأعمال . وكان هؤلاء الأفراد مسؤولين عن إعالة أنفسهم أثناء العمل الذي كانوا يقومون بإنجازه من غير أجر مباشر ، ذلك لأن أجرهم سيتمثل في حقهم في إرواء أراضيهم بعد إنجاز المشروع . مضينا في سيارتنا عبر ما بدت لنا أرضاً صحراوية بيد أنها أرض سوف يتم حرثها في غضون أسبوعين من الزمن . ومع ذلك فإن الأرض سالفة الذكر لم تكن في الواقع صحراء ، إذ بإمكان من يمعن النظر فيها أن يرى آثاراً واضحة لمنظومة قنوات طاعنة في القدم ، وحيثما ترتفع الروابي فوق مستوى السهل يمكن للمرء في أغلب الأحيان أن يجد قطعاً من الآجر يعود تأريخها إلى الأزمان الغابرة . وهكذا يمكن القول أن الزراع الدؤوبين من أبناء العصور العباسية قد وفروا على المنحدرين من سلالاتهم عناء تكبد المصاريف ، والانهماك في العمل المضني ، من خلال تأمين ما يكفيهم من مواد البناء التي يمكنهم استخدامها في أعمال بناء منظومة قنواتهم الجديدة .»

وتواصل الآنسة جيرتروود بيل كتابة رسالتها في الأول من شهر تشرين الثاني بالقول : «إن فيصل قد عاد يوم الاثنين من رحلته إلى الحلة محققاً على ما يبدو تقدماً مظفراً . إن المناطق الريفية قد بدت تعي على ما يبدو بواقع أنها قد حظيت بالفعل بملك عربي يستحق

بجدارة أن يكون موضع اعتزاز لها . وحيثما حل كانت تأتي لاستقباله حشود لا حصر لها من الفرسان والراجلين ، وقد استقبل في كربلاء استقبالاً لم يسبق له مثيل وكذلك كانت الحفاوة به . هذا ما طرق سمعي من قبل أطراف ثالثة لأنني لم أتمكن حتى الآن من الاستماع إلى تفاصيل الرحلة منه (أي من جلالة الملك نفسه) بسبب ما أشعره من إرهاق وبسبب انهماكي المتواصل بالمفاوضات الأولية المتعلقة بالمعاهدة . كما أن الملك ، على ما أتصور ، هو الآخر منهمك في لقاءاته مع حداد باشا(١٩) الذي كان قد وصل إلى بغداد جواً نهار الأحد والذي من المزمع رحيله جواً أيضاً ، أو بأية وسيلة أخرى ، في أقرب وقت ممكن وهو ما آمل تحقيقه لأنه فضولي من الباب الأول والصنف الممتاز إذا ما صح هذا التعبير .

شهدت ليلة أمس مأدبة عشاء أقيمت في المدرسة العسكرية ، وهي مناسبة كان بإمكاني التمتع بها إلى أقصى الحدود لو لم يكن الإرهاق قد أخذ مني مأخذاً كبيراً . وبهذا

---

(١٩) الجنرال جبرائيل حداد (١٨٦٥ - ١٩٢٣) لبناني من مواليد طرابلس ، مسيحي أورثوذكسي ، تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت ثم انتقل إلى مصر حيث عمل مساعداً لمدير الجندرمة البريطاني هارفي بك (أصبح فيما بعد هارفي باشا محافظ القاهرة) . وتقلب حداد باشا في وظائف الشرطة والأمن العام في مصر ، وكان في الحين ذاته يمارس الأعمال الزراعية . وبعد اعتزاله من خدمة الحكومة انصرف إلى مزاولة الأعمال المالية والاقتصادية إلا أن نصيبه فيها كان الفشل . وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى عاد إلى الخدمة الحكومية فعين مراقباً للصحافة العربية والأجنبية بالاسكندرية في ظل الأحكام العرفية . وبعد دخول القوات البريطانية القدس ، وتعيين برتون باشا محافظاً للقدس أقنع الأخير هذا حداد باشا بالعمل معه . وقد عمل بعد ذلك مع رونالد ستورز خليفة برتون في محافظة القدس . ثم عينه الجنرال اللنبي ضابطاً في الجيش البريطاني برتبة رائد . وبعد دخول القوات الفرنسية دمشق رشحه الجنرال اللنبي للعمل مع فيصل في مجال تنظيم قوات الأمن العام(الشرطة والدرك) في سوريا . وفي عام ١٩٢٠ أوفده فيصل إلى لندن ممثلاً له في مفاوضاته مع الجهات البريطانية . وقد جاء في تقرير خاص للاستخبارات العسكرية البريطانية حول حداد باشا ما مفاده أنه رجل ذو سجل جيد في خدمة الشرطة في مصر ، يحب العمل وذو كفاية بيد أنه يميل إلى المبالغة في تقييم قدراته . وكان يكن شعوراً بالعداء ضد ياسين باشا الهاشمي . بعد تبوئ فيصل عرش العراق ، جاء الجنرال حداد لزيارة الملك ولكنه كان مريضاً فسافر إلى أوربا حيث أجريت له عملية جراحية في كبده توفي على أثرها . وكان له ولد اسمه شفيق درس في جامعة كمبردج ثم عمل في العراق حيث اكتسب الجنسية العراقية . ، وقد عمل ملحقاً عسكرياً في المفوضية العراقية في واشنطن ولكنه بقي في أمريكا بعد انتهاء مهمته - المترجم

الصدد لابد من الحديث عن بعض نسائنا البريطانيات اللواتي آمل مخلصة أن تبدين شيئاً من التعقل فيما يتعلق بمظهرهن . فقد حضرت السيدة( ) بفستان أخضر وذهبي يتألق روعة ، إلا أنه كان فاضحاً ، واسع الفتحة حول الرقبة وأعلى الصدر وغير مُردن بالمرة ، وكل ذلك في مناسبة جمعت عدداً من ذوي الشأن من رجال الدين السادة والسراة الذين يرون أن الاحتشام التام في ملبس المرأة يشكل ضرورة لا محيد عنها بأي شكل من الأشكال . وإزاء هذا المظهر غير اللائق لم يكن بوسعي سوى الهمس بالشجب وكيل اللعنات في أذن السير برسي الذي أيد موقفي من غير تحفظ . وقد حظي شجبي بتأييد من لدن اللادي كوكس التي تعتبر مثالاً رائعاً على الالتزام بالحشمة والتصرف الحكيم ، والتي أيدت أيضاً قيامي بإصدار توجيه باسمها يقضي بقيام من يرغب في حضور مأدبة العشاء التي ستقيمها البلدية في شهر تموز القادم بارتداء فساتين محتشمة لا تُظهر الذراعين وأعلى الصدر . ومع أني آمل أن يقوم السير برسي بتوجيه أمر صارم يتعلق بما ينبغي ارتداؤه في مثل هذه المناسبات ، إلا أنني وجدت نفسي مضطرة إلى التماسه بعدم القيام بذكر أية علاقة لي في الأمر لعدم رغبتي في معاداة عنصرنا النسوي هذا الذي لا ينظر لي أساساً بعين الود والمحبة .»

* * *

بديهي أن الآنسة جيرتروود بيل كانت بحاجة ماسة إلى التمتع بشيء من الراحة واستنشاق هواء أكثر طلاقة ونقاءً . وفي الثاني من شهر تشرين الثاني انطلقت من بغداد لتقضي فترة ثلاثة أسابيع في ربوع كردستان وتلال فارس . وقد تركت وصفاً حياً لتفاصيل رحلتها هذه تضمنته رسالة وجهتها إلى عائلتها ودونت بخط دقيق على وجهي خمس عشرة صفحة ورق ربعية كوارتو .

* * *

في الرابع من كانون الأول كتبت الآنسة بيل من بغداد رسالة وجهتها إلى أبيها قائلة : «انطلقت في وقت مبكر من صباح يوم الثلاثاء (إلى محطة القطار) للترحيب بالملك عند عودته من الناصرية ، فكانت مناسبة طيبة تم لي من خلالها رؤية بعض الناس والتحدث معهم . وقد حضر هذه المناسبة الوزراء وعدد قليل من المستشارين إلى جانب بضعة من

الطفيليين من بين أتباع فيصل السوريين الملازمين له .

يدور كلام كثير حول مظاهرة قيل أن من المزمع القيام بها عند محطة القطار حيث ستُلقى الخطب وتُرفع العرائض (الاستدعاءات) بخصوص تحقيق الدعوة إلى عقد المؤتمر(المرتقب) وتحرير الوزراء العرب والمسؤولين الإداريين من سيطرة المستشارين البريطانيين ، إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث ولعل الأمر برمته لم يكن أكثر من إشاعة يعود سببها أساساً إلى ما تشغله هاتان المسألتان من مساحة في فكر جمهور الناس . سنضطر على ما أظن إلى الموافقة على إعطاء تنازلات تفوق ما لحكومة جلالة الملك من استعداد للقيام به بهذا الصدد . ومن جانب آخر تساورني الشكوك حول موافقة العرب (أي العراقيين) على قيامنا بفرض سيطرتنا التامة على كل أوجه العلاقات الخارجية وهو رفض يحظى بتأييد ودعم من لدن الأمريكيين الذين لم يعترفوا أساساً بالانتداب ، والذين يتوقون في الحين ذاته إلى عقد معاهدة خاصة بهم مع الدولة العراقية يأملون بموجبها تحقيق ترتيبات مثمرة لصالحهم .

إن لعبارة «الانتداب» (هنا) ذات الأثر الذي تحدثه عبارة «المحمية» في مصر . وإن تصريح اللورد فشر Lord Fisher في عصبة الأمم حول ما مفاده أن الانتداب يمثل علاقة بريطانيا بعصبة الأمم ، أما المعاهدة فتمثل علاقتها بالدولة العربية ، قد أثار زوبعة صغرى ، بل وأبهت فيصل نفسه الذي اعتقد بأن الانتداب كان قد تم التخلي وإذا به يبرز للوجود مرة أخرى بصيغة مغايرة . إن التخلي عن الانتداب أمر حتمي على ما أتوقع ، شأنه بذلك شأن الحماية في مصر ، وعندما يتم ذلك لن ألبس عليه ثوب الحداد . إن ما ينبغي علينا أن نضعه نصب أعيننا هو أن كلما ازداد عدم قدرة العرب على المضي قدماً في مسيرتهم من غير مشورتنا وسيطرتنا على زمام الأمور ازداد معه استياؤهم وغضبهم من وجود عبارة السيطرة في مجمل المصطلحات السياسية المعتمدة ، أو من وجود عبارة التوجيه إذا ما خرجت عن إطار كونها مجرد مشورة مقدمة تحظى بقبول حر .

قمت بزيارة النقيب يوم الأربعاء . إن ولاءه الثابت للسير برسي أمر رائع ومؤثر في النفس . وقد لعب دوراً نبيلاً ومجرداً من أية منفعة ذاتية في إطار علاقته بالملك فيصل . ولقد حال أمر تردي صحته العامة وما يعانيه من ضعف نتيجة ذلك دون تمكنه من التوجه لمقابلة الملك شأن أي رئيس للحكومة الأمر الذي جعله بمنأى عن تقديم ما ينبغي من أوجه النصح والمشورة . ومن جانب آخر فإن وجود فيصل وسط محيط تطغى على أجوائه ممارسات التزلف والمبالغة في المديح قد أقنعه بأن الملك لا ينبغي له التوجه لزيارة رئيس وزرائه . ولقد قمت من جانبي ببذل جهد مضنٍ في مضمار مقاومة هذه الفكرة بدعم من لدن السير

برسي ، وعليه يحدوني الأمل بنجاح جهودي التي من المحتمل جداً أن تأتي بثمارها في القريب العاجل . »

وفي الخامس من شهر كانون الأول كتبت إلى أبيها تقول : «استلمت رسالتين من الوالدة وإلسا انطوت كلتاهما على إيحاءات كئيبة مفادها احتمال قرب انهيار المصارف(البنوك) الأمر الذي لابد أن يلقي بنا في غياهب الإفلاس . إنه لجانب قاتم لا يبعث على الراحة ، بيد أن عجزي عن القيام بما يحول دون ذلك يدفعني إلى الانصراف بذهني كلياً عن مثل هذه الاحتمالات التي تكرب النفس وذلك على غرار ما عبر عنه السيد بلفور في محضر حديثه عن أوجه السياسة الخاصة بالشرق ! إن ما يقلق فكري بهذا الخصوص هو إدراكي بما تعيشه أحياناً من عناء إلا أن عزائي يكمن في أن ما تتمتع به من طبيعتك من قدرة وشجاعة على تجاوز الأزمات من شأنها أن تعمل على نجدتك . وأود أن أُضيف بهذا الصدد أن مبادئ معلوماتي المالية تقوم أساساً على حقيقة مسلم بها وهي أن ما تقوم به من إجراء يبقى دائماً أفضل ما يمكن تحقيقه ، شأنه بذلك شأن إحساس الشيخ فهد بك بن هذال بما لدي من معرفة تامة بتخوم القبائل .»

وفي السادس من شهر كانون الأول ، وفي محضر إجابتها على رسالة كانت قد استلمتها من زوجة أبيها كتبت تقول : «في مجال الحديث عن الإيحاء الذاتي ، لدي إحساس بأنني شخص يفضل الاعتماد على الذات ، وأجدني صماء وعمياء إزاء كل ما يتناقض مع ذلك . وإنني لعلى ثقة تامة من أن اللجوء إلى استخراج المشورة القائمة أساساً على ما لدي من أحكام وتقديرات لأفضل بكثير ، برغم كل ما يحتمل أن تنطوي عليه من جوانب النقص والسلبيات ، من التوجه للاستماع إلى النصح والإرشاد من مختلف الأطراف ، ولعل هذه المشورة تنطلق بكل الأحوال من ميول وتوجهات يتم نقلها ووصولها إلي بشكل غير مباشر .»

وفي السابع عشر من كانون الأول كتبت الأنسة بيل رسالة موجهة إلى العقيد بلفور قالت فيها : «إن أهل الحل والربط في الوطن يواصلون على ما أرى نقاشهم حول إزمير وتراقيا وهما جانبان لا أهمية لهما بالمرة قياساً بالمسؤوليات التي قُدر لنا الاضطلاع بها هنا . وعندما يقول فيصل إنه غير قادر على فهم سياستنا وسياقاتها لا يسعني سوى الاتفاق معه والوقوف إلى جانبه . وفي الوقت الذي تعمد الأحقاد التركية إلى بث أشد سموم الدعاية المرة والموجهة ضدنا في كل أرجاء الشرق الأدنى ، تمكن الفرنسيون من تحقيق سبق علينا ، وبذلك تجدهم يجنون ثمار اتفاقيتهم . و إننا لا نتمكن على ما أرى من الخروج من وضعنا

المعقد بشرف وكرامة ، بيد أنني على استعداد تام للتفريط بالشرف والكرامة والضرب بهما عرض الحائط في حال تمكنّا من الخروج من هذا الوضع بأية وسيلة ممكنة بصرف النظر عن ماهيتها . ونحمد المولى على أن التعامل مع ابن سعود في الجنوب يتولاه السير برسي لا حكومة جلالة الملك (أي الحكومة البريطانية) . وليس لدي أدنى شك من أن احتلال مدينة حائل سيكون له نتائج بعيدة المدى . فضلاً عن ذلك فقد امتدت خطاه بعد ذلك لتصل إلى كل من سوريا وفلسطين ناهيك عن منطقة شرق الأردن ومملكة الحجاز . وتعني منطقة شرق الأردن ضمناً السيد فلبي الذي يتولى في الوقت الحاضر زمام السلطة فيها - هذا إذا ما أمكن القول أن ثمة سلطة قائمة هناك - والذي قد يتبنى قضية أميره (الشريف عبد الله الأخ الأكبر للملك فيصل) . ولكنه من المحتمل أن يبقى ثابتاً على ولائه لابن سعود . أما فيصل فإن نظره إلى الأمر مشوب بالتشاؤم . ويمكنني القول بوجه عام أن ما نتمتع به من نفوذ في المنطقة من شأنه ، على ما أعتقد ، أن يحول دون قيام ابن سعود بابتلاع الحجاز ، بل وحتى منطقة شرقي الأردن ، وبذلك فإن وجود ممثل بريطاني في شرق الأردن تربطه علاقة ودية بابن سعود يعتبر جانباً لا يخلو من منفعة . ولابد من القول أن ابن سعود قد التزم حتى الآن بكل ما أبرمه معنا من اتفاقات برغم أن شعور الحقد القائم بينه من جانب وبين عائلة الشريف من جانب آخر لأمر يفوق القدرة على الوصف والتعليل .

كما أتمنى ياعزيزي فرانك أن تكون وزوجتك فيلس بيننا هنا لاسيما وأنني أشعر بحاجة ماسة لوجود صديق عزيز ، أو اثنين ، يمكنهما الوقوف إلى جانبي . إن السيد كورنووالس هو بحق صديق عند الضيق ، إلا أن مشاغله تحول دون تمكني من لقائه بشكل متواصل . ويعتبر النقيب كلايتون ، والرائد موري ، والسيد تومبسون من حلفائي الرئيسيين ، كما أنني أكن للسيد نايجل دايفدسون شعوراً مفعماً بالود . وقد وصلت زوجة دايفدسون إلى العراق قبل فترة قصيرة جداً ، وهما (أي السيد دايفدسون وزوجته) مدعوان لتناول طعام الغداء على مائدتي ظهر الغد . وأنا من جانبي أميل إلى الإيمان بأن دايفدسون جدير بأعلى درجات التقدير . إنه لبرالي الفكر وقد تم له فهم الأسس التي تقوم عليها علاقتنا مع العرب فهماً جيداً .

لقد أشرت علي في مناسبة أن لا أعكف جادة مخلصة على القيام بما يناط بي من مهام وما يتطلب مني إنجازه من أعمال . وبطبيعة الحال لا يمكنني القيام بغير ذلك . فقد أولاني الجميع ومن غير استثناء - ابتداءً من فيصل ونزولاً إلى الأقل منزلة من بين المسؤولين - فوق ما أستحق من المحبة والثقة ، وحتى لو قدر لهم الإعراض عني فسأكون دائماً مدينة لهم .

وعلى الرغم من أنهم قد بالغوا في تقييم ما أقدمه لهم من خدمات ، لا يمكنهم من جانب آخر المبالغة بتقدير ما لدي من رغبة صادقة في خدمتهم . لقد قمت بواجباتي بكل جد وإخلاص ونلت ثوابي بشكل وافر .»

الفصل الحادي والعشرون

١٩٢٢

بعد أن أصبح العراق مملكة ، وأُنيطت مسؤولية رئاستها بسيدي فيصل الذي يُعتبر الرجل الأليق من الأوجه كافة ، تم تحقيق أول خطوة كبيرة بسلام . إلا أن الوضع مع ذلك لا يزال محفوفاً بالمصاعب ، كما أن العام ١٩٢٢ لا يعد بفترة هدوء وراحة .

إن سن دستور لنظام حكم عربي مؤتلف تحت قيادة الملك فيصل ، له مجلس وزراء يضطلع أعضاؤه بمسؤوليات وزاراتهم ، يعتبر من قبل الآنسة جيرتروود بيل لا نصراً مؤزراً للسياسة التي عملت باتجاه تحقيقها بكل دأب وإخلاص فحسب ، بل ونصراً شخصياً لها كذلك باعتبارها المستشار الأول للسير برسي والرئيس المسؤول عن جهازه التنفيذي . بيد أن الحقيقة المؤسفة من جانب آخر تجلت في واقع أن تحقيق هذا الإنجاز قد أدى بدوره إلى عملية زوال تدريجي لسلطتها ونفوذها على الصعيد الرسمي ، ولكن من غير أن يكون لذلك أي أثر على ما كان لها من تأثير شخصي على الأفراد .

إن عملية صياغة الدستور ومسودة المعاهدة ، ومناقشة أحكام موادهما مع الملك ووزرائه ، انتقلت إلى أيدي أفراد آخرين هم على وجه التحديد كل من هيوبرت يونغ Hubert Young ، الذي كان قد أُوفد بتوجيهات خاصة ومحددة من قبل دائرة الشرق الأوسط في وزارة المستعمرات البريطانية ، وكورنوالس ، الصديق البريطاني الشخصي للملك فيصل ومستشاره ، وإيدوارد درور Edward Drower ، المشاور القضائي لرئاسة الوزراء العراقية ، ونايجل دايفدسون ، سكرتير الشؤون القانونية لدى المندوب السامي ومستشاره في وقت لاحق . إلا أن معرفة الآنسة بيل الوثيقة بكل ذوي العلاقة من الشخصيات ، وما لها من نفوذ على الأفراد بوجه عام ، بقيت جانباً لا يقدر بثمن ، ولكن باعتبارها السكرتيرة الشرقية (للمندوب السامي) لم يكن لها أي دور رسمي في هذه المداولات التي تمخضت عنها صياغة الدستور والمعاهدة اللتين تم القبول بهما من قبل الملك ووزرائه بعد مرور عامين من المساومات على الطريقة الشرقية ، ومن ثم التصديق عليهما بالنتيجة من قبل مجلس تأسيسي اعتبر تمثيلاً نوذجياً بحق . ومن جانب آخر فإن شعور جيرتروود بيل بالإحباط وخيبة الأمل بكل أبطالها ، باستثناء السير برسي كوكس ، ينعكس بشكل متزايد من خلال رسائلها للعامين ١٩٢٢ و١٩٢٣ ، وهو جانب يتأتى من واقع غير مدرك ومفاده أن القرارات الرسمية ، الإدارية منها والسياسية على حد سواء ، كانت قد أصبحت بمنأى تام

عن أية سيطرة لها . وعلى الرغم من أن معرفتها بالأفراد ، وما تمارسه من نفوذ شخصي ، بقيا جانبين لا يباريها فيهما أحد ، فإن تقييماتها لردود الأفعال الشعبية باتت تتميز بالتحيز بفعل ما تحب وما تكره ، كما أن انحسار مساحة ما كان لها من سلطات وصلاحيات أخذ يدفع بها إلى الإساءة بشكل غير معتدل إلى مناوئيها وخصومها في هوايتهول (أحد شوارع لندن الذي يرمز للحكومة البريطانية) وبغداد على حد سواء . فعلى سبيل المثال فإن ممارسات الملك فيصل في تشجيع العناصر المتطرفة على معارضة الانتداب كانت تقابل بشجب انفعالي من قبل الآنسة بيل بوصفها جوانب تدل على الضعف والغدر ، بل والخيانة ، بينما هي لم تكن في الواقع أكثر من مناورات لا تعني في الإطار العام للدبلوماسية الشرقية أكثر من اعتماد منهج معارض بهدف ضمان الحد الأعلى الممكن من المساعدات المالية ، والحد الأدنى الممكن من السيطرة البريطانية وفق المعاهدة .

وبحدود نهاية عام ١٩٢١ ، وفي الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني تحديداً ، كتبت إلى السير فالنتاين شيرول قائلة : «رسالتك الموجهة إلى رئيس تحرير صحيفة التايمز (اللندنية) بتأريخ الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني حول ما شهدته علاقاتنا الودية مع المصريين من انقطاع تحرك عواطفي ، وتدفعني إلى الكتابة إليك . وبهذا الصدد أود القول أن منذ حدوث هذا الانقطاع في العلاقات الودية ، باتت مصر بلداً معادياً لا يزال اللجوء إلى السلاح يهيمن على أجوائه الأمر الذي أوجد ثغرة واسعة بيننا وبين هذه الشريحة من العناصر العربية ، وهي ثغرة بلغت صعوبة جسرها حداً لم يسبق له مثيل من قبل .

إننا هنا ، ولربما في مصر أيضاً نمسك بالأوراق الرابحة ، إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال إنما يتمحور حول ما إذا سنعمد إلى استخدامها بحكمة وإنصاف . وبهذا الصدد قال السير برسي اليوم « أن المسؤولين في الوطن (بريطانيا) لا يدركون بصورة دقيقة طبيعة الأجواء التي نعيشها هنا .» وبالنظر لما اتسم به نهجهم في مصر من عدم فهم أخرق بطبيعة الأجواء السائدة هناك ، فإنني أرتعش خوفاً إزاء ما قد يحتمل قيامهم باعتماده من توجه يتعلق بنا وبهذا البلد بالذات . وتساور فيصل هذه المخاوف أيضاً . لقد تم صياغة مسودة المعاهدة ، وبقدر تعلق الأمر بصياغتها هنا فإنه مرتاح تماماً ، إلا أن ما يخيفني هو احتمال قيامهم في الوطن بالتلاعب بالتعابير من خلال اللجوء إلى حذف نصوص هنا ، وتعديل أخرى هناك ، مما قد يسهم في تحوير فحواها وإضعاف ما تنطوي عليه من جزالة ، الأمر الذي يُفقد المضمون العام كل ما من شأنه أن يحقق الرضا ويحظى بالقبول (من قبل العراقيين) ويساعد فيصل بالنتيجة في التغلب على العقبات وإحراز النصر . ويمكن تحقيق ذلك من

جانبنا عبر استجابتنا لذلك الإصرار الطفولي (إن شئت نعته بذلك) على أن يصار إلى عكس صورة لاتفاق قائم بين شعبين حرين يقدم أحدهما العون إلى الطرف الآخر الذي يقبله بدوره دونما مس بكرامته . هذا هو المطلوب فقط ، أي خلق الجو الملائم والخروج بالعبارات الطنانة .

إننا محاطون من خارج العراق بأشد المشاعر العدوانية مرارة - فهذه بلاد فارس تواصل اعتماد أشد أساليب الدعاية المعادية نشاطاً ، وهناك الفرنسيون الذين هم في غنى عن أي تعريف بهذا الصدد ، إذ أن بإمكانك أن تتصور أي نوع من الجيران يمكن للفرنسيين أن يكونوا ! ومع كل ذلك لا يحيد العراق عن توقعاته بصدد «الإيفاء بكل الوعود» . وإذا ما قُدر لنا التوجه إلى النيل من كرامة العراقيين ، وجرح مشاعرهم المضطربة ، لاسيما وأنهم مدركون جيداً بأنهم يتبنون مواقف لا قدرة لهم على الإيفاء بمستلزماتها ، فما الذي سنجنيه من ذلك؟ إننا بالتأكيد أكثر تمرساً وحنكة ، وأشد بأساً ، من أن نُعير أي اهتمام للألفاظ والمسميات طالما تمكنا من الإمساك بجوهرها ، وإن الإمساك بجوهر الأمور والتحكم به لا يتحقق لنا إلا من خلال دأبنا على المحافظة على إدامة ميزان ثقتهم بنا . ولا ينبغي لنا تناسي أن الصهيونية تواصل التسبب بما يكفي من القلاقل والاضطرابات مما يُضيق الصدور ويقزز النفوس .

إن سياستنا العربية تفتقر إلى الانسجام بسبب إخفاقنا المتواصل في النظر إلى القضية العربية برمتها باعتبارها وحدة كاملة . فلدينا الوطنيون في العراق ، والصهاينة في فلسطين ، أما في سوريا فقد أفسدنا كل المبادئ التي ادعينا بأننا نسيير بهدي نورها بعد قبولنا بالوجود الفرنسي . وإذا ما قدر لك دفع كل الأقطار العربية المتحضرة إلى السير على درب الدعوة التحررية القومية ، وبمباركة من لدنا ، ستجد أن شخصاً مثل ابن سعود لن يشكل مصدراً للمصاعب والمشاكل ، بيد أنه لن يكون من السهل عليك من جانب آخر حماية فلسطين من نوايا أي أمير عربي في حال قمت بالتحرك بالنيابة عن الصهيونية ، أو حماية سوريا بالنيابة عن فرنسا . ومن المحتمل أن يحاول الفرنسيون حمل هذا الأمير على القبول بشروطهم ، إلا أن يكون لهذا التفاهم أية نوايا حسنة تتماثل مع ما لدينا بهذا الخصوص في إطار علاقاتنا مع العرب فأمر يصعب تصديقه . ومن جانب آخر فإن في درعنا من الثقوب ما يُمكن أي رمح معاد من أن ينفذ إلينا .

إن عبء ما أحاول طرحه من شكوى هو أننا لا ينبغي لنا القيام بتجزئة السياسة العربية وحصرها في حجيرات منيعة ينفصل بعضها عن البعض الآخر ، وهو بالذات ما نحاول

القيام به على ما يبدو . فعلى الرغم من أن صحافتنا المحلية تزخر بالشجب العنيف الموجه ضد الصهيونية - وهو جانب ينظر إليه يهودنا (أي يهود العراق) باستنكار وارتياب - نجد لدينا طلباً من السير تشرتشل يقضي بوجوب قيامنا بالسماح لوفد صهيوني بزيارة العراق لغرض التبشير بمبادئ الصهيونية . إن السير برسي سيحاول على ما أفترض التملص من الاستجابة لهذا الطلب بشكل ما أو آخر إذ أن من شأن ذلك أن يؤدي إلى ما لا يحمد عقباه . إننا نتخبط في مسيرتنا ، أو لعلنا نحاول السير متخبطين ، وهي مسيرة يفقد المرء من خلالها حاسة إدراك الاتجاهات لديه الأمر الذي يعني أن المكان الذي سيتمكن بالنتيجة من الوصول إليه سيكون مسألة حظ ليس إلا .»

كان أول رسالة كتبتها الآنسة جيرتروود بيل في عام ١٩٢٢ هي تلك الموجهة إلى أبيها والمؤرخة في الثاني من شهر كانون الثاني ، وبعد قضاء عطلة عيد ميلاد تعيسة بسبب إصابتها برشح شديد ونتيجة الظروف المناخية التعيسة التي عمت العراق في حينه . وكان نوري باشا سعيد قد تناول طعام الغداء معها في يوم عيد الميلاد ، ثم تمكنت بعد ذلك من الذهاب لتناول الشاي في قصر الملك الذي لم تصله إلا بعد نضال مرير مع الأوحال التي غطت المسافة بين منزلها والقصر الملكي .

وبهذا الصدد نجدها تقول : «لم أعد إلى بيتي حتى السابعة مساءً لأجد أن ثمة خلافاً كان قد نشب بين كل من طباخي والخادم زيا وتطور ليدفع بالطباخ إلى مهاجمة زيا بسكين حاد وإصابته بجرح بليغ في الرأس . وقد قمت بدوري بزجرهم بعنف شديد لاحتفالهم بيوم عيد الميلاد بطريقة أبعد ما تكون عن اللياقة . وبسبب غياب ماري عن الدار تلبية لدعوة عشاء كانت تلقتها من صديق ، وجدت نفسي مضطرة لتناول عشائي وحيدة والتأمل باغتمام بالخطوات التي ينبغي علي اعتمادها من أجل إعادة تنظيم شؤون منزلي والعاملين فيه . إلا أن الطرفين المتخاصمين سرعان ما عمدا إلى تسوية خلافهما ليتوجها بعد ذلك إليَّ بطلب الصفح عنهما وهو ما وجدت نفسي مضطرة إلى منحه باعتباره الخيار الأسهل» .

وهكذا تواصل تعاقب أيام هذه «العطلة البغيضة» التي وجدت جيرتروود بيل نفسها فيها ميتة أكثر منها على قيد الحياة مع الاستمرار في القيام باستضافة المدعوين من جانب وقبول الدعوات من جانب آخر .

وكان أول زوارها في يوم رأس السنة الجديدة كل من الحاج ناجي والشيخ علي السليمان اللذين وصلا في السابعة والنصف صباحاً تلبية لدعوتها لهما بتناول طعام الفطور على مائدتها . وفيما يتعلق بهذه المناسبة ، فإنها تواصل كتابة رسالتها قائلة : «لم تخفق محاولة

تعامل شيخ الدليم مع البيض المفقوص في الماء الغالي (poached eggs) في إثارة بعض المخاوف في نفسي ، إلا أنني تداركت الوضع من خلال قيامي بإقحام ملعقة صغيرة في يده برغم افتراضي انه لم يسبق له استخدام مثل هذه الأداة أبداً ، إلا أنه سرعان ما أظهر براعة في استخدامها محققاً من خلال ذلك الحفاظ على ما تتطلبه آداب المائدة من وقار (كذا) . ولابد لي من الاعتراف بما يتمتع كلاهما به من تهذيب وحسن سلوك فطريين لا يخفقان أبداً في المسارعة إلى نجدتهما عند الحاجة» .

وتنهي جيرتروود رسالتها هذه في الخامس من شهر كانون الثاني ، بعد أن استرجعت شيئاً من عافيتها ، قائلة :«دعوت السير جون دايفدسون Sir John Davidson لتناول الشاي في داري يوم أمس . إنه ينتمي إلى مجموعة الساسة البريطانيين التي تضم كلاً من غينس Guinness واورمزبي غور Ormsby - Gore و ونترتون Winterton و رالف غلين Ralph Glynn والتي برغم تعاطفي مع مبادئها ومواقفها لا أظنها تتمتع بأي نفوذ وأهمية ، وهو جانب يعود أساساً إلى كونهم حسني النوايا ، وغير فاعلين على ما يبدو . إن السير جون برلماني متقاعد وقد اعترف لي في سياق حديثه عن المجموعة سالفة الذكر بأنها تفتقر إلى قائد ملهم الأمر الذي يعلل ما تعيشه من إخفاقات ، كما عبر عن اعتقاده باحتمال عودة لويد جورج إلى الحكم إثر حملة الانتخابات النيابية القادمة ، وإذا ما كان لويد جورج يمثل أفضل ما يمكننا إنجابه من القادة فلابد لنا ، على ما أفترض ، أن نحني رؤوسنا لهذا الواقع ، والاعتراف به بكل خجل وحياء .

استضفت اليوم السيدة دايفدسون (زوجة السيد نايجل دايفدسون) لتناول الشاي معي . إنها امرأة في غاية الرقة واللطف ، وبهذا الصدد فإنني أشعر أن وجودها إلى جانب وجود السيدة جويس يُعتبر فاتحة لعهد جديد ذلك لأنهما شخصيتان حقيقيتان . وعلى الرغم من إدراكي بما أفتقر إليه من المرونة ، لا يمكنني مع ذلك احتمال النوع الآخر من النساء (البريطانيات) اللواتي يزخر بهن مجتمع بغداد في يومنا هذا . إنني في الواقع أستهجن هذا النوع من النساء وأتمنى باستمرار وجود من بإمكاني الانسجام معهن .»

وفي التاسع عشر من شهر كانون الثاني كتبت تقول :«سأكون ممتنة لك إذا ما قمت باقتطاع أية أدبية (من الصحف) يتسم مضمونها بالأهمية وإرسالها إلي . ليس بإمكانك تصور مدى فرحي عند استلامي الرسالتين الموجهتين إلى صحيفة التايمز ، وقد تم للسير برسي في الواقع الحصول على كامل سلسلة هذه الرسائل ، والبالغ عددها ثلاثاً ، من مراسلين شخصيين . وكاتب هذه الرسائل رجل يدعي موور Moore عمل مراسلاً لجريدة

التايمز في طهران ، أما معلوماته فإنها مستقاة من السيد فلبي وذلك أثناء وجود الأخير هذا في طهران حيث قضى معظم وقته هناك بصحبة عائلة موور . ولم يكتف فلبي بتزويد موور بمعلومات من مصادر رسمية لم يكن من حقه الإفصاح عنها بوصفه مسؤولاً حكومياً (والتي جاءت تفاصيلها محرفة بفعل صياغتها بما ينسجم مع وجهة نظره الشخصية) ، بل إن حديثه عن الشؤون العراقية قد عكس صورة تنذر بالشر وتثير الشكوك . إن علمنا بهذه الجوانب قد جاء من مصادر أخرى ، فبعد وصول السيد فلبي إلى طهران (قادماً من بغداد) استلم السير برسي رسائل من أصدقائه يعربون من خلالها عن مواساتهم بخصوص الأوضاع المزرية التي يشهدها العراق . وعندما أذكر مقدار ما لمسه فلبي من كرم ومودة من لدن السير برسي الذي عمد إلى تدبير إيفاده إلى بلاد فارس بإجازة مرضية (وهو على أتم صحة وعافية) بهدف منحه فرصة للحصول على عمل مناسب هناك ، والذي أعانه في مجال حصوله على وظيفته الحالية مع الأمير عبد الله بن الحسين - عندما أذكر كل ذلك أكاد أنفجر غضباً . وبطلب من السير برسي قمت بجمع كم من المعلومات لغرض استخدامها في دحض مزاعم السيد موور هذا في حال تعرض السيد تشرشل إلى ما قد يطرح في البرلمان من استفسارات بهذا الصدد» .

وفي نهاية فقرة تُجمل من خلالها الجوانب المتعلقة بالموقف البريطاني إزاء عملية ترشيح فيصل (لعرش العراق) وانتخابه لاحقاً ، تقول جيرتروود :

«ترى من برأيك كان أول من طرح فكرة ترشيح الشريف فيصل لتبوئ عرش العراق؟ الجواب هو العقيد ولسون ، وكان ذلك في شهر آب من عام ١٩٢٠ !! هل بإمكانك تصور ولسون باعتباره قومياً عربياً ؟ لقد أدرك بما لا يقبل الشك ، شأنه بذلك شأننا نحن جميعاً ، عدم توفر مرشح محلي .»

اضطرت جيرتروود بيل إلى الاستسلام لواقع الرشح الذي أصابها الأمر الذي أجبرها على ملازمة الدار لمدة أسبوع من الزمن ، وعلى حد ما ذكرته في رسالة موجهة إلى أبيها ، وفيما يتعلق بهذه الإجازة الإجبارية تقول : «هنا يكمن سر شفائي - كانت عملية مملة للغاية ، إلا أن معاناتي من ويلات هذا الرشح حالت دون تمكني من القيام بأي عمل . ولحسن الحظ كنت قد انتقلت لتوي إلى حجرة جلوسي الجديدة (التي كان قد تم بناؤها وإضافتها إلى الدار بأمر من لدن السير برسي) المزودة بمصطلى fireplace وهذا يعني أنني أتمتع بكامل وسائل الراحة . وأود بهذا الصدد ذكر أن سعر الطن الواحد من الفحم يبلغ اثني عشر باوناً ، وهو أرخص من سعر الخشب .

ويقودني هذا الكلام إلى موضوع ما تواجهه من ضائقة مالية ، ولا يسعني بهذا الصدد سوى الإعراب عن شديد أسفي وحزني لما تعانيه من قلق . ولعل من الأنسب أن تعمد إلى إغلاق راونتون (بيت العائلة) لوهلة من الزمن والانطلاق بعد ذلك في بداية جديدة برغم كل ما ستواجهه أنت والوالدة من مضايقات بسبب اعتيادكما المعيشة والعمل في غرف كبيرة ، ولكن للضرورة أحكام على ما أفترض . أما أخي العزيز موريس فيا له من فيلسوف رائع ، فهو يأخذ الأمور بهدوء وترو ، ويشمل ذلك حتى اضطراره إلى الابتعاد عن اسطبلاته ومحاجر كلابه ، ولعل إخفاقي في الارتفاع إلى مستوى حكمته يحز في نفسي ويجعل من أمر اعترافي بهذا الواقع جانباً مخجلاً .

أما الأمور هنا ، فيمكن القول بوجه عام أنها تسير سيراً حسناً باستثناء المناطق الحدودية الشمالية الشرقية حيث يقوم الأتراك بنشاطات مُغيظة ومُتعبة في آن واحد . فقد تعرضنا مؤخراً لهجومين قامت بهما عناصر كردية بتدبير وتشجيع من الكماليين ، وقد قاد الهجوم الثاني وغد جاءنا من وراء الحدود الفارسية وكلفنا حياة قائد قوات الليفي في المنطقة وهو النقيب فتزجبون Captain Fitzgibbon الذي كان من بين المجموعة التي حضرت مأدبة غداء كانت أقيمت في كركوك في شهر تشرين الثاني الماضي على شرفي وذلك أثناء مروري بهذه المدينة . وإزاء ذلك لا يسعني سوى الشعور بالحزن العميق على رحيل هذا الشاب الممتلئ حيوية ونشاطاً ، والذي يرقد حالياً في غياهب قبره في مدينة حلبجة .

وعودة ، أيها الحبيب إلى رسائلك . لقد أثار اهتمامي خبر الاجتماع مع نقابة عمال مناجم حجر الحديد - إنهم أناس رائعون . ولكن ما رأيك من جانب آخر بإسهامات السيدة أسكويث التاريخية المنشورة في جريدة التايمز ؟ ألا يحمر وجهك خجلاً عندما تدرك أن الشعب الذي أنجب عمال مناجم حجر الحديد هؤلاء يعمد من جانب آخر إلى الخروج بمثل هذه الحماقة التي تثير الاشمئزاز وتبعث على الغضب ؟ إنني أجد نفسي عاجزة عن الكلام إزاء قيام جريدة محترمة بنشر مثل هذا الهراء !»

وفي الثلاثين من شهر كانون الثاني كتبت : «إن عنوان وظيفتي هنا هو السكرتيرة الشرقية للمندوب السامي . وقد أخبرني السيد كورنواليس بأن من دواعي سروره ترشيحي لمنصب رئيس قسم الاستخبارات في وزارة الداخلية ، وقد شكرته بدوري وأخبرته بعدم استطاعتي ترك العمل مع السير برسي ، وبأن عملي كضابط ارتباط بين دار الانتداب من جانب ووزارة الداخلية من جانب آخر هو أكثر فائدة .»

بعد أن راحت جيرتروود تولي صحتها اهتماماً أكبر ، بدأت تشعر بتحسن ملحوظ .

وهكذا كان الحال مع الملك الذي أُخضع لعملية جراحية تم من خلالها استئصال مصرانه الأعور . وبهذا الخصوص تكتب قائلة : «قضيت فترة لا بأس بها من الوقت وأنا أمسك بيده - مجازاً - بعد أن أُلزم على البقاء في القصر على مدى أسبوع من الزمن . وبناءً على طلبه فقد زرته في مناسبتين خلال هذه الفترة لتبادل الأحاديث والدردشة . وقد التقيته في المناسبة الأولى وهو مستلقٍ على أريكة ، وقد ذُهل موظفو القصر لاستقباله لي بهذه الطريقة غير الرسمية ، إلا أنه قال لهم بهذا الصدد بأنه يعتبرني واحدة من بين العاملين بإمرته بشكل مباشر الأمر الذي يعني إمكانية استدعائه لي متى ما شاء ذلك . أما في المناسبة الثانية فقد وجدته جالساً في شرفة القصر ، وما أن جلست حتى أُعلن عن حضور نوري باشا سعيد - الذي كان قد عين مديراً للأمن العام - الذي أُذن له بالمثول أمام الحضرة الملكية . وقد تم لي إبداء ما استطعت من إسهام ومساعدة في حوار سري تناول موضوع كيفية التعامل مع الجواسيس الذين ترسلهم الجهات التركية إلى العراق ، ومع الأشخاص الذين يقومون باستقبالهم . وإنني من جانبي على اطلاع واسع بما يدور في المدينة (بغداد) من أحداث الأمر الذي يمكنني في أغلب الأحيان من تنبيه دائرة التحريات الجنائية The Criminal Investigation Department (CID) حول الكثير مما تشهده بغداد من نشاطات . وبهذا الصدد أليس هو بأمر لا يخلو من غرابة أن أجد نفسي جزءاً من نشاط استخباري عربي سري ، وأن يُنظر إلي من قبل كل من الملك ونوري سعيد كأحد العاملين في الجهاز الحكومي القائم على هذا النشاط ؟ إن نوري يقوم بمهام عمله خير قيام ، وإن المتآمرين من جانبهم ترتعد فرائصهم خوفاً .»

وفي الحادي والثلاثين من كانون الثاني كتبت تقول : «شعرت في خلال الأسبوع المنصرم بشيء من الانزعاج وعدم الراحة بعد أن تحققت المصالحة بين كل من خادمي زيا وطباخي بحيث تقرر قيام الأول بالتزوج من ابنة الثاني . ولابد لي من القول أن جنوحهما إلى تبادل الضرب على الرؤوس لأهون وأقل عناءً بكثير من ارتباطهما بعلاقة مصاهرة . فبعد أن أضحى زيا عريساً نتيجة ذلك ، تعين على والد العروس القيام بما يلزم من واجبات والتي كان من بينها قيامه بإعداد الفطور للعريسين (بعد ليلة الدخلة) وبين عشية وضحاها لم أجد من يقوم على إعداد الطعام لي ولا من يقوم بواجبات الخدمة المنزلية . وإزاء ذلك عمدت إلى فرض نفسي ضيفة على كل من كورنواليس والسير أيلمار هالداين وذلك خلال اليومين اللذين شهدت الاحتفالات فيهما أسوأ حالاتها ! وبالنظر لحضور كل من ماري ومزهر هذه الاحتفالات ، لم يبق لي أحد من بين مستخدمي داري ممن يمكنه تلبية احتياجاتي والسهر

على راحتي ! وقد حضرت شخصياً جزءاً من هذه الاحتفالات عصر اليوم الثاني . إلا أن السيد كووك Mr. Cooke ، مستشار دائرة الأوقاف ، الذي كان قد كلف بمهمة مساعدتي في شراء قطع أثاث للغرفة الجديدة في داري ، انبرى لمساعدتي أيضاً في الجوانب المتعلقة بهذا الزواج . إن احتفالات الزواج المسيحية مناسبات شاقة ورهيبة في آن واحد – فالعائلة تجد نفسها مضطرة لإقامة دعوة مفتوحة على مدى فترة يومين أو ثلاثة ينفقون من خلالها مبالغ طائلة لتغطية نفقات المأكولات والمشروبات (الروحية منها وغير الروحية على حد سواء) والفرق الموسيقية – بآلاتها التي تعمد إلى تعذيب السامعين لا الترفيه عنهم – ويدعون إليها كل أصدقائهم ومعارفهم من غير استثناء !

يصلنا الشاه يوم غد في طريقه إلى أوربا ، وهي رحلة لا يحتمل على ما أظن عودته منها إلى وطنه بسبب الخلافات القائمة . إنه يملك ثروة طائلة مودعة في المصارف السويسرية ، كما أن مغريات العيش في أوربا بأمن وبحبوحة ، بعيداً عن تهديدات العناصر البلشفية وخطر الحكام العسكريين المستبدين ، قد تثبت جوانب لا يمكن مقاومة إغرائها . كما أن السير برسي لا يرى من جانبه نهاية سريعة لهذه العائلة المالكة الأمر الذي يعني أن بلاد فارس ستشهد فترة أكثر سوءاً من قبل إذ أن أخا الشاه وولي عهده أسوأ منه بكثير .

إن العقيد ولسون يقوم حالياً بزيارة إلى بغداد التي مضى على وجوده فيها بضعة أيام ، وقد خصني بزيارة طويلة مساء هذا اليوم بدا فيها في غاية اللطف والكياسة . إنه شخص لا أثق به أبداً ، ولكن بالنظر لارتباط مصالح شركة النفط الأنجلو – فارسية بنظام حكم مستقر في هذا القطر (أي العراق) لا أظنه سينصرف إلى القيام بما من شأنه زعزعة أركان التوازن القائم ، كما أنني أتوق من جانبي إلى رؤية أية تطورات من شأنها أن توفر لهذا البلد عوائد مجدية . لا أحد سوى المولى تعالى يعلم كم نحن بحاجة إلى الموارد المالية ، وبهذا الصدد يتعين علينا أن نعتمد بالضرورة على رؤوس الأموال الأجنبية – شأننا بذلك شأن كل الدول في يومنا هذا – من أجل تنمية مواردنا المعدنية .

أرى أن اللورد اللنبي قد استُدعي للسفر إلى الوطن لغرض «المداولة» – إنها الصيغة المعتادة التي تستخدم غطاءً لعملية الاستغناء عن خدمة مسؤول كبير . ترى هل هذا حقاً هو المقصود من هذه الدعوة ؟ وبصرف النظر عن تقديري واحترامي لشخص اللورد اللنبي ، فإننا بحاجة على ما أظن إلى من هو أفضل دبلوماسية (وأكثر مرونة) منه في مصر .

تفيد وكالة رويتر بخبر مثبط للهمة مفاده عدم استعداد الفرنسيين للمشاركة في مؤتمر يسعى إلى تحقيق تسوية تتعلق بالشرق الأدنى . إنهم يعلمون ، على ما أعتقد ، بأن

الكماليين يعدون العدة للقيام بهجوم على العراق في غضون فصل الربيع وبذلك فإنهم (أي الفرنسيين) ميالون إلى المماطلة و التسويف إلى حين انجلاء الأمور . إن الفرنسيين قوم لا خير يرتجى منهم أبداً ! فاتهاماتهم المتكررة والموجهة ضد فيصل ، والتي مفادها أنه يقوم بالتآمر عليهم من العراق ، هي تخاريص وأحاديث ملفقة لا أساس لها من الصحة أبداً . وعلى الرغم مما يتعرض إليه فيصل من استفزازات ، فإنه يواصل اعتماد المواقف المتزنة والتوجهات الصحيحة ، وبصرف النظر عن الجهة التي يوجه إليها الفرنسيون أحقادهم ومؤامراتهم بشكل أكبر ، أي ما إذا كان المقصود بذلك هو فيصل أم نحن البريطانيين ، فإنهم على أتم استعداد لتسخير أي سبيل ممكن بهدف تدمير الدولة العراقية . لقد أورثتنا الحرب (العالمية الأولى) عالماً يزخر بالمشاكل والصعوبات .»

وفي الثاني من شباط كتبت إلى زوجة أبيها اللادي بيل قائلة : «والدتي الحبيبة- أشعر براحة لا حدود لها إزاء قراركم القاضي ببقائكم في راونتن ، فالانتقال منه كان من المحتمل جداً أن يؤدي إلى تحول فجائي ذي تبعات لا حصر لها . وبهذا الصدد أرجو منكما صرف النظر عن أمر مساعدتي في تجهيز غرفة جلوس لي ، إذ بإمكاني الاستغناء عنها خلال الفترة القصيرة التي سأكون فيها بإجازة .

كم كانت دهشتي كبيرة منذ أيام عندما فتحت رزمة مرسلة إلي لأجد أنها تحتوي على إكليل مرصع بالجواهر ! كدت أنفجر ضاحكة بصوت عال ، فقد مثل الإكليل شيئاً غير مألوف وسط أضابير المكتب . إنها لبادرة كريمة من لدنكما أنْ تعمدا إلى إرسال هذا الإكليل - كدت أنسى مدى روعته . وبهذا الصدد فإن ارتدائي له قد يدفع بالناس إلى الظن حقاً بأنني ملكة بلاد وادي الرافدين المتوجة !

إننا نمر بفترة عصيبة جداً ، وهو أمر يعود بشكل كبير إلى الخطر التركي الذي يتهددنا . ويعمد السير برسي إلى المحافظة على الظهور بمظهر يوحي بالاطمئنان والهدوء التامين مما يثير العجب إلى أبعد الحدود ، أما نصوص برقياته الموجهة إلى الوطن فإنها تنطق بالوضوح والحكمة . وباعتباره رجل دولة ودبلوماسياً في آن واحد ، يمكنني القول بكل تأكيد أنني لم أشهد له مثيلاً أبداً . إلا أنه في مجال الإدارة وممارستها لا يعتبر نداً للورد كرومر . لقد شاء حسن الحظ أن تحظى مصر برجل مثل اللورد كرومر الذي جمع بين جانبي السياسة الأساسيين .»

وقد أرسلت جيرتروود طي رسالتها المذكورة أعلاه رسالة أخرى موجهة إلى أبيها والتي بإمكان القارئ الكريم أن يجد نصها الكامل في كتاب «رسائل جيرتروود بيل» ، إلا أننا نود

في هذا المجال الاستشهاد بالنص الكامل للفقرة الأولى منه الذي يلقي بشكل خاص مزيداً من الضوء على ما لهذه الامرأة من شخصية متميزة في إطار تماهيها مع العراق وانتسابها له على طريقتها الخاصة :

«أبتي الحبيب - أود أن أُخبرك ، وحدك ، أنت يا من تدرك كل شيء وتفهمه ، بأنني واعية كل الوعي بما منته علي الحياة . ولقد استعدت ، بعد سنوات كثيرة ، إحساسي السابق ببهجة الوجود . وإنني لسعيدة بأحساسي بأنني قد كسبت محبة وثقة شعب بأكمله . وقد لا تكون هذه هي السعادة الحميمة التي افتقدتها ، ولكنها سعادة رائعة تستحوذ عليّ ، بل تكاد تستحوذ علي أكثر مما يجب . ولابد من معذرتي ، فإذا ما بدا الأمر يشغلني على نحو مفرط ، فإنه لا يفصلني عنك في واقع الأمر إذ أن من أعظم المتع عندي هو التحدث إليك بشأنه ، يقيناً مني بتعاطفك معي .»

مسكينة جيرتروود لأنها ما تزال حقاً وحيدة ، كما لا يزال ذهنها يرفض الأمل والراحة اللذين يحملهما الإيمان بالدين . ولعلها كانت تحظى بلحظات من تجليات الإيمان - كيف لا وهي على ما تملك من أحاسيس مرهفة بجمال الفنون والطبيعة ؟ غير أنها ترفض اعتبارها من غيب السماوات ، مع أنها ، في ذروة إحساسها باللوعة من جراء مقتل الرجل الذي أحبت ، صرخت قائلة :«لا يسعني إلا أن أشعر بأنه في مكان ما ، مازال بحاجة لي .»

***

وفي السادس عشر من شباط كتبت تقول :«دعاني فيصل لزيارته ، ودار بيننا حوار رائع . إن ذهنه يقف بمنأى عن كل صيغ التحامل والتحيز ، بيد أنه يعيش ، وبشكل يتعذر اجتنابه ، في وسط تخيم على أجواء صيغ التملق المفرط : فهو محاط بعصبة من المتزلفين الذين يحاولون إقناعه بأن كل ما يتوجب عليه هو المجاهرة بأنه ملك مسلم وحر ليلتف أبناء الشعب حوله ، أكراداً وعرباً على حد سواء . وأنا من جانبي لا أجد ما يسعدني أكثر من أن يكون الأمر كذلك ، إلا أنني أدرك أنه على العكس من ذلك تماماً . إن الشعب سيلتف حوله بالتأكيد ، ولكن ذلك لن يتم نتيجة تحول في النفوس يأتي بشكل مفاجئ وإعجازي . فالعراق بحاجة إلى سنوات عديدة من الاستقرار والحكم الرشيد ، وإنه ليس بحاجة إلى معجزات بل إلى مكافآت وعوائد مجدية تتأتى نتيجة العمل المتواصل . ولعل عائقنا الأكبر يكمن في توجهنا إلى القيام بالأعمال على عجل . إننا نسعى إلى التخلص من مسؤولياتنا

والخروج (من القطر) قبل الأوان ، وندفع بفيصل إلى تحمل المسؤولية قبل الأوان أيضاً ، مع رفضنا في الحين ذاته الاعتراف بأن المسؤولية في الواقع تقع على عاتقه . وإنه لعلى حق تام عندما يطلب منا التعهد بضمان عدم تعرضه إلى أي هجوم (من الخارج) على مدى عشرين عاماً من الزمن ، لقاء قبوله بترك توجيه دفة الأمور بيدنا بشكل أكثر . إلا أننا نعجز عن ذلك . إننا نتلاعب بالألفاظ في الوقت الذي يقوم الكماليون بحشد قواتهم على حدودنا الشمالية ، وهو ما يمثل الواقع الوحيد الذي يتميز بالأهمية أولاً وآخراً . وإذا ما قاموا بشن هجومهم علينا فسنضطر إلى التراجع «وفق الخطة المرسومة .» ولابد من الاعتراف بأن الانسحاب من الموصل وأربيل وكركوك وديالى يعني بعبارة واضحة الجلاء عن البلاد .»

وقد تخللت كل هذه الأحداث سلسلة لا نهاية لها من الحفلات والمناسبات الترفيهية التي ضمت مجموعات صغيرة وكبيرة لا هم لها سوى حضور الدعوات والتقاء الأصدقاء . وتتضمن رسالة جيرتروود الموجهة إلى ذويها وصفاً مسهباً لهذه المناسبات وروادها مع ذكر أسماء القسم الأكبر منهم . وتقف على رأس هذه المناسبات دعوة الغداء التي أقامها النقيب في حديقة منزله التي تقول جيرتروود «أنها بدت رائعة الجمال بأشجار البرتقال التي كانت ثمارها أشبه بجواهر متدلية . وقد حضر هذه المناسبة الملك ، والسير برسي وزوجته ، كما حضرها السيد نايجل دايفدسون وزوجته ، والقائد العام للقوات البريطانية ، والسيد فخري آل جميل ، والجنرال بولفن General Bulfin والآثاري ويلد بلونديل Mr.Weld Blundell أما طعام الغداء فكان شيئاً رائعاً ضم ما يزيد على خمسة عشر لوناً . وكان الجهد الذي استهدف إيجاد لغة مشتركة أمراً مرهقاً بشكل لا يمكن وصفه ، الأمر الذي يُجبرني في العادة إلى الرجوع ، بشكل لا هوادة فيه ، إلى العربية . ويتحاور الملك والقائد العام بما يمكن وصفه بأسوأ مستوى للغة الفرنسية ، اللهم إلا باستثناء مستوى فرنسية اللادي كوكس التي تشترك مع القائد العام في عدم القدرة على النطق ولو بكلمة عربية واحدة ، والتي هي اللغة الوحيدة التي يتكلمها كل من مضيفنا النقيب وولديه . ومع ذلك بدا الحضور جميعاً ، ومن غير استثناء ، في غاية الانشراح .»

وفي السادس والعشرين من شهر شباط كتبت :«لا تتمتع شركة النفط الأنجلو فارسية بسمعة طيبة في بغداد بسبب الأسعار الباهظة التي تفرضها على بيع النفط الأبيض (الكيروسين) . وقد حظي العقيد ولسون بمقابلة الملك فيصل حول الموضوع ، فكانت المناسبة الأولى التي يرى ولسون فيها ملك العراق . وقد قصدت الملك في اليوم التالي للاطلاع على ما دار في المقابلة ، فلم يبد لي أن ولسون قد ترك انطباعاً جيداً لدى الملك الذي وصفه

قائلاً : «إنه لص بحق يا أختي العزيزة !» ويعود ذلك إلى العرض الذي طرحه فيصل بخصوص شراء النفط من المحمرة وتدبير نقله (من قبل الجهات العراقية) وقد جاء هذا الطرح في ضوء ما بينه ولسون من أن ارتفاع سعر النفط إنما يعود إلى كلف نقله العالية .

إلا أن ولسون أوضح عدم استطاعته تلبية هذا الطلب ، ولعل ذلك يعود إلى العقد المبرم بين الشركة المذكورة ، ومؤسسة مسبرس Mespers التي تتولى عملية نقل النفط . وفي أثناء ذلك يزداد غضب الناس على الشركة وإدارتها نتيجة انخفاض أسعار المنتجات الزراعية إلى معدلات فترة ما قبل الحرب بينما وصلت أسعار المحروقات إلى ما يقرب من ثلاثين ضعفاً مما كانت عليه في الفترة المذكورة الأمر الذي حال دون تمكن المزارعين من تشغيل مضخاتهم . إن شركة النفط الأنجلو فارسية تحقق أرباحاً خيالية على ما أعتقد إلا أن التصلب في المواقف فيما يتعلق بتحديد الأسعار لن يجديها نفعاً في حال رغبت في الحصول على مزيد من الامتيازات في العراق . ويدور همس متزايد حول ضرورة أن توجه ثروات القطر المعدنية لمصلحته .

يعتمد ولسون أسلوباً ودياً في تعامله معي ، كما أنه يعمد إلى نشر مقالات صحفية تزخر بالإشادة بالحكومة العربية وذلك على العكس ما يعبر عنه في لقاءاته الشخصية ، والتي يوضح فيها رأيه عن ديومة هذه الحكومة التي لا يعتقد أنها ستتجاوز ثمانية عشر شهراً . إن حساباته خاطئة على ما أرى ، فباستثناء اضطرارنا إلى مواجهة هجوم كمالي (تركي) فإنني لا أرى أي مبرر للخوف من وجود عقبة خطيرة تعترض مسيرتنا . إن العناصر المتطرفة تكثر من الكلام ، إلا أنها تخفق في تحقيق أي تقدم فعلي .

أهدى الحاج ناجي جلالة الملك ثلاثمائة شجيرة آملة أن تشكل بداية لإقامة علاقة طيبة مع البلاط الملكي [الذي لا يزال بلاطاً بالاسم فقط] . ويعتبر الحاج ناجي بطريقته الخاصة من بين الأكثر حكمة وتعقلاً ممن التقيت من الأشخاص ، فهو ماجد ، شريف ، كريم النفس و الخلق (جنتلمان) . وقد جاء احتياج الملك للأشجار نتيجة شرائه جزءاً من مزرعة الألبان ، وهو ما ينوي تحويله إلى حديقة عامة . لا أدري من أين حصل على المال الذي أتاح له شراء هذا العقار إذ أنه بعلمي لا يملك شروى نقير . وحتى في حال تحقق هذا الشراء نتيجة مال استقرضه ، فلا يمكنني سوى الشعور بالسعادة إزاء هذه العملية إذ أنها مؤشر على نيته المتجهة إلى ترسيخ جذوره والاستقرار أولاً ، كما أنها متنفس من شأنها أن تمنحه الفرصة للقيام بنشاطات خارج نطاق العمل والالتقاء بأفراد الشعب من مختلف الشرائح الاجتماعية ثانياً .

حضرت مع السير برسي صباح الجمعة تشييع جنازة النقيب فتزجبن الذي كان قتل في الشهر الماضي في مدينة حلبجة نتيجة هجوم قامت به عناصر كردية جاءت من بلاد فارس . كان صباحاً مشمساً ، وجميلاً للغاية ، أما المقبرة العسكرية ، التي هي في العادة ليست أكثر من أرض يباب ، فقد لبست حلة زاهية من العشب الأخضر والزهور الصفراء ، وهو ما جاء بفضل ما شهدته المنطقة من أمطار . إن إحساسي بجمال هذا الصباح كاد يدفعني إلى التعبير عن معارضتي واحتجاجي عندما طُلب منا أثناء مراسيم الدفن أن نبتهج برحيل هذا المخلوق ، بكل ما كان عليه من نشاط وحيوية وحب للحياة ، عن عالم مُفعم بالأمل وبكل ما يستهوي النفوس .»

كما كتبت في وقت لاحق من ذلك اليوم قائلة : «اصطحبني السيد كووك إلى افتتاح «سوق عكاظ» - وهو مناسبة جاءت إحياءً لذكرى المهرجان الشهير الذي كان يقام في الجاهلية ، وحيث كان شعراء العرب يجتمعون ويتبارون في مجال نظم القصائد التي لا يزال قسم منها محفوظاً إلى يومنا هذا . وتحاول العناصر الشبابية في بغداد إحياء هذه المناسبة سنوياً مع إقامة معرض للفنون والحرف المحلية . وقد افتتح الملك هذه المناسبة وجلس على مدى ساعتين بوقار جدير بالإعجاب وهو يستمع لما ألقي من قصائد وخطب . رباه ! يالها من خطب وقصائد طويلة ! وكان الموضوع العام يتمحور حول فكرة مفادها «لماذا أُحب وطني؟» وهو موضوع كفيل بأن يضجر أي بشر ، ويخرجه من جلده اللهم إلا باستثناء كبار النوابغ ، إلا أن شبابنا تبنوا المناسبة بكل ما أوتوا به من حمية وحماس مبرهنين من خلال ذلك على أنهم لم يكونوا ثقيلي ظل محترفين فحسب بل مملين إلى أقصى الحدود أيضاً مما دفع الملك بالنتيجة إلى الإيعاز باختصار الفقرة الأخيرة من البرنامج . إلا أن المناسبة لم تخفق في تسليتي ذلك لأنني كنت على معرفة بكل المساهمين ، وكنت مهتمة جداً برؤية ما يثيره فن الخطابة لدى المتحمسين من الوطنيين من ردود أفعال - لقد أخفقوا في الواقع في إحداث التأثير المنتظر على السامعين . ويسعدني في هذا المجال أن أراهم يتبرمون من هرائهم وكلامهم الفارغ ، ويملونه . وعندما دُعينا أخيراً لمشاهدة المعروضات اصطحبني نوري باشا ليسير بي من خلال جمهور الحاضرين ، وليرشدني إلى حيث كانت المعروضات فلم أجدها بالمستوى المطلوب . وقد نُصبت خيمة امتلأت بصور الفنانين المحليين ، وكان الطابع الغالب عليها رمزياً يمثل روح العراق ، في مختلف صيغ التفكك والاختلال ، روح تنهض من تحت رماد الماضي . كان من الأجدر التحفظ عليها وإبقاؤها مطمورةً كما كانت إذا ما أُريد لها أن تبدو على هذه الصورة . سيمضي وقت طويل حسب تقديري قبل أن ننجب ميخائيل أنجلو خاص بنا .

وبالمناسبة ، لابد لي أن أخبرك بأن النقيب يرفض التزحزح من موقفه إزاء المعاهدة كما يرفض تحمل ما يترتب عليها من مسؤولية ، إلا بعد أن يصار إلى نبذ الانتداب بالتحديد ، وعلاوة على ذلك فإن السير برسي قد أشار بوجوب النزول عند رغبة النقيب .»

وباقتراب موعد الانتخابات العامة ، شهد العراق حركة محمومة في مجال تشكيل الأحزاب السياسية . وبهذا الصدد تكتب جيرتروود في الثاني عشر من شهر آذار قائلة :«إن العناصر المتطرفة تشعر بالقلق والخوف إزاء ما يعتمده المعتدلون من مواقف محددة . وفي إطار هذا الجو العام يشعر المرء منا بالأسى لإخفاقنا في معالجة تردي الأوضاع ، وتفادي وقوع الكارثة في عام ١٩٢٠ . لقد تركت أحداث ذلك العام وراءها سيلاً من مشاعر الحقد وعدم الثقة ، وهي جوانب يصعب التغلب عليها . ومن جانب آخر فقد شكلت هذه الأحداث إنذاراً للمناطق الريفية ، وتحذيراً لها ، مفادهما أن انصراف رؤساء القبائل وشيوخ العشائر إلى اعتماد توجه قد يؤدي إلى إثارة المشاكل والإخلال بالأمن قد بات أمراً غير محتمل .»(١)

إلا أن جو العراق لم يخل من اضطرابات . فقد قامت مشاكل جديدة مع ابن سعود الذي باتت حدود المناطق التي تمكن من بسط سيطرته عليها إثر احتلاله حائل متاخمة لحدود العراق . كما أن مشاعر الحقد والعداء التي كانت تسود أجواء العلاقة القائمة بين فيصل وابن سعود قد دفعت الأخير إلى مهاجمة قوات الهجانة العراقية حديثة التشكيل التي أريد لها مراقبة المناطق الحدودية وحفظ الأمن فيها . كما أن طائرة استطلاع تعرضت هي الأخرى أيضاً لنيران «الإخوان» أتباع ابن سعود(٢) .

وفي السادس عشر من شهر آذار تواصل جيرتروود رسالتها التي كانت بدأتها في الثاني عشر منه قائلة :«إن الملك مسرور من قضية الإخوان . ففي اليوم الذي تلى قيامهم بالتعرض

---

(١) ترى ما كان يمكن للآنسة بيل أن تقوله لو قدر لها أن تعيش سني الثلاثينيات لترى كيف دأب ساسة العراق ورجال دولته على تحريض القبائل على التمرد وشق عصا الطاعة ضد النظام القائم تحقيقاً لمآرب سياسية معينة؟ - المترجم .

(٢) للاطلاع على خلفية وتفاصيل غارة «الإخوان» سالفة الذكر وما تسببته من أزمة وزارية إلى جانب ردود أفعال الملك ودار الاعتماد ، أهيب بالقارئ الكريم مراجعة كل من المصادر التالية :١-عبد الرزاق الحسني : تاريخ الوزارات العراقية ٢- عبد الجبار الراوي : البادية ٣- علي الوردي : لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث الجزء السادس ٤- محمد مهدي البصير : تاريخ القضية العراقية ٥- صالح جواد كاظم : محاولة استجلاء جديدة (مجلة المثقف العربي - حزيران ١٩٧٤) - المترجم .

لطائرتنا الاستطلاعية قمنا بقصف معسكرهم الأمر الذي أجبرهم على الفرار والتوغل جنوباً مسافة أربعين ميلاً داخل حدودهم . إلا أن طائراتنا واصلت تعقبها لهم وقصفهم مرة أخرى صباح اليوم لتالي . إن هجوم «الإخوان» لم يأت نتيجة استشارة ، فضلاً عن ذلك فإنهم عمدوا إلى سلب الرعاة الآمنين وقتلهم . وبهذا الخصوص لا أذكر بالضبط متى كان آخر شعور لي بالفخر والاعتزاز إزاء قدرتنا على رد الصاع صاعين . إن «الإخوان» ، ودعوتهم إلى اتباع مذهب قروسطي ، بكل ما تميزت به هذه الدعوة من تعصب رهيب ، يثيرون في نفسي أشد مشاعر الكره وذلك لأنهم يضربون أسوأ مثل على القدرة على ترويج الإيمان عن طريق فرض العقوبات .»

وجدير بالذكر إنَّ غارة «الإخوان» قد سببت لجيرترود خيبة أمل شخصية ، فقد كانت تتطلع بشوق إلى لقاء أبيها في فلسطين ومن ثم مرافقته إلى إنجلترا . وفي رسالتها المؤرخة في الثلاثين من آذار تقول :

«أكتب إليك وأنا أعيش أسوأ حالات القلق النفسي والتشوش الفكري نتيجة إدراكي عدم التمكن من التمتع بإجازة في هذا الصيف وذلك بسبب الأزمة الحادة التي تمر بها الوزارة العراقية ، والتي يؤسفني القول أنها قد جاءت نتيجة إجراء متسرع ، وغير حصيف ، من لدن الملك الذي وجد في تقاعس الحكومة في التعامل مع حركة «الإخوان» إهانة له الأمر الذي دفعه - من غير استشارة أحد - إلى استدعاء خمسة من الوزراء ومطالبتهم بتقديم استقالتهم لأنه فقد ثقته بهم .[٣] وقد قام الوزراء المعنيون بتقديم استقالتهم فعلاً بعد يومين من التردد في اتخاذ ما ينبغي من موقف ، وهي فترة حاول عبثاً كل من السير برسي والمستر كورنواليس إقناع الملك من خلالها بتغير موقفه . إن اثنين من بين الوزراء المستقلين شخصيتان تتمتعان بأهمية بارزة .[٤] كما قام ساسون أفندي هو الآخر بتقديم استقالته . لقد كانت غارة «الإخوان» تجربة سيئة للغاية فقد بلغت خسائر عشائرنا (كذا) من القتلى ما يقرب من (٢٠٩) قتيلاً إلى جانب ما فقدوه من مواشٍ وخيم . ولم يكن بوسع مجلس الوزراء القيام بأي أجراء إلا بعد التأكد من مدى تورط ابن سعود شخصياً في العملية هذه . وقد استلم

---

(٣) الوزراء الخمسة هم : ناجي بك السويدي ، الدكتور حنا أفندي خياط ، عبد اللطيف باشا المنديل ، عزت باشا الكركوكلي ، والسيد محمد علي هبة الدين الشهرستاني . ولمزيد من التفاصيل حول الأمر هذا يرجى مراجعة المصادر المبينة في الحاشية السابقة من هذا الكتاب - المترجم

(٤) الشخصان المقصودان على ما أفترض هما كل من ناجي بك السويدي وعبد اللطيف باشا المنديل - المترجم .

السير برسي من ابن سعود برقية جديرة بالإعجاب مبدياً من خلالها أسفه على ما حدث ومنكراً أي علم له بالحادثة ومؤكداً على قيامه بالإيعاز إلى المعنيين بالحادثة بالعودة إلى ديارهم . ويستغرق وصول البرقيات وقتاً طويلاً ، إذ أنها ترسل على ظهور الجمال إلى البحرين لتبرق منها بعد ذلك . ولا يسعني القول بهذا الصدد أن ابن سعود بريء ، طاهر الذيل ، إلا أنني على ثقة تامة من قدرة السير برسي كوكس على تسوية القضية والخروج بأفضل النتائج ذلك لأن ابن سعود يكن له أقصى درجات الاحترام والتبجيل بعد الله (جل جلاله) . وفي الحين ذاته يصعب عليّ رؤية الكيفية التي سيتم لفيصل من خلالها الخروج من المأزق الذي زج نفسه فيه وتصحيح موقفه . فإذا ما تراجع عن موقفه فإنه سيبدو أحمَق ، وإذا ما أصر عليه بعند فسيكون بحق أحمَق . إلا أن السير برسي - سيد المعالجات والتدابير قد يجد مخرجاً لهذه الأزمة .(٥)

انهمكنا في خلال الأسبوع الماضي بتوديع إيلمار هالداين - إن مبارحته العراق ستشكل خسارة لنا لا سيما بعد أن تمكن من توطيد أركان علاقة طيبة لا مع الملك وقيادة الجيش العربي فحسب بل ومع الجميع من غير استثناء . فضلاً عن ذلك فقد انهمكت على الصعيد الشخصي باستقبال واستضافة عدد من الأصدقاء والزملاء الذين جاءونا من بلاد فارس ، فكان عليّ القيام بما ينبغي من الواجبات تجاههم رداً على ما لمسته منهم من لطف وحسن ضيافة أثناء وجودي هناك في عام ١٩١٨ . ومع ذلك لابد لي أن أقول أن زيارتهم في

---

(٥) قد تبدو هذه الأزمة للوهلة الأولى بسيطة وعابرة ، بيد أنها كادت تطيح بعرش الملك ! ففي ضوء ما كتب السير برسي إلى تشرشل عن تفاصيل الأزمة ، مع التركيز على «إخفاق» الملك في استشارته قبل قيامه بالطلب إلى الوزراء الخمسة بتقديم استقالتهم ، وما أعقب ذلك من قيام ساسون حسقيل بتقديم استقالته ، أبدى تشرشل دهشته لعدم انسجام تصرف الملك مع روح تعهداته الشخصية التي قضت بوجوب التشاور مع المندوب السامي في القضايا الهامة ، كما أوعز بما مفاده الانصراف إلى إثناء ساسون عن الاستقالة . وفي برقية لاحقة بيّن كوكس أن الملك قد أدرك تهوره ، وأنه أحس بضرورة الاعتدال في موقفه ، وعليه فقد طلب من تشرشل توجيه رسالة شخصية إلى الملك يعبر فيها عن خيبة أمله إزاء إغفاله التشاور مع المندوب السامي قبل اتخاذ إجراء هام كالذي تم له اتخاذه . كما بين كوكس بوضوح تام في برقيته هذه ما مفاده أن في الوقت الذي لا ترغب حكومة جلالة الملك في تقويض أركان ما للملك من مكانة ، وإجباره على التنازل من باب حمله على نبذ التصرفات «المتهورة» والتي تأتي جراء نصائح وطروحات «غير حكيمة» ، فإنه (أي السير برسي) يوصي باللجوء إلى اتخاذ ما يلزم بصدد القيام بما يلزم لإعفاء الملك في حال أصر على مواصلة مثل هذه التصرفات - المترجم .

هذا الوقت بالذات ، وما توجب علي القيام به تجاههم ، قد شكل عبئاً ثقيلاً ، إذ أن وجودهم تزامن مع انشغالي بإعداد التقرير الخاص الذي ينبغي لي إرساله إلى وزير الخارجية (البريطاني) .»

تضمنت الرسالة الأخيرة رسالة أخرى موجهة إلى اللادي بيل جاء فيها : « جاء قراري بعدم مرافقة والدي إلى بريطانيا إثر تفكير طويل ، ومشاورة ضميري بتأنٍ . آمل أن تجديني علي حق . قد لا يتمتع الدور الذي أقوم به هنا بأهمية بارزة ، ولكن لا يوجد من يقوم بالاضطلاع به . وفي كل الأحوال فإن بقائي هنا سيكون أقل كلفة بكثير من سفري إليكم ، لا سيما وإن الجانب المالي يعتبر أمراً جديراً بالاهتمام .»

وفي السابع والعشرين من نيسان كتبت إلى زوجة أباها أيضاً ، إذ أن أبيها كان في طريقه إلى فلسطين . وتقول في هذه الرسالة : «سأتوجه للقاء أبي في عمان يوم ٤/٢٩ وسأستقل نفس الطائرة التي ستنقل هذه الرسالة . لا أعلم بالضبط ما الذي ينوي القيام به ، ولكنه إذا ما كان ينوي زيارة دمشق فإنه سيصاب بخيبة أمل . فنتيجة ما وجه ضد فرنسا من ضوضاء وصخب ستصنف زيارتي إلى سوريا في إطار التقارير (الفرنسية) الخاصة بالتحريات الجنائية تحت باب «تحركات العناصر المشبوه بها» . كما أنني لست متأكدة بالضبط من عدم إدراج اسمي تحت هذا الباب حتى في فلسطين . إلا أنني في كل الأحوال سأحظى بترحيب من لدن سيدي عبد الله في عمان . ومع ذلك سأكون وأبي في غاية السعادة حتى في حال اضطر إلى أن يمسك بيدي وأنا قابعة في السجن !

لا ينبغي لي الذهاب بعيداً عن مقر عملي في الواقع ، ومع ذلك فإنني سعيدة برحلتي هذه بسبب ما عانيته من إرهاق على مدى الأسبوعين الماضيين ، إلا أنني لا أعلم بالتأكيد ما إذا كنت قد شعرت سابقاً بتماس أكثر مع تطلعات وأماني شعبي الحبيب ومخاوفهم .»

الفصل الثاني والعشرون

١٩٢٢

من مدينة القدس، وجهت جيرتروود مرة أخرى رسالة إلى زوجة أبيها، وذلك في العاشر من آذار، قالت فيها: «سيروي لك أبي تفاصيل رحلتنا. الريف يبدو ساحراً، مليئاً بالزهور الجميلة، والطقس ليس حاراً بالمرة، وأنا منهمكة في الاستمتاع بالنظر إلى الصخور والجبال والأشجار ومياه الجداول العذبة. وقد وصلنا في الواقع إلى قمم جبال لبنان التي تغطيها الثلوج حيث كانت زهور العصل[1] تتفتح، وحيث غطت وشائع من الزهور البرية المنحدرات السفلى. ما أجمل الدنيا، وما أجمل أن يراها المرء وهو بصحبة من يحب الجمال ويفهمه.

قضينا وقتاً ممتعاً للغاية هنا (في فلسطين)، كما سعدنا جداً بضيافة عائلة بومان Bowman اللذين يبالغان في الترحاب بنا والسهر على راحتنا. ويشترك بومان معنا في النظرة إلى الصهيونية باعتبارها مجرد هراء ليس إلا. وقد أقامت عائلة بومان ليلة أمس دعوة حضرها العديد من الشخصيات الفلسطينية البارزة الذين التفوا حولي وحول أبي ليخبرونا عن رأيهم باليهود. وقد استمتعت كثيراً بحوار دار بيني وبين المسيو دي كاي M.de Caix الذي استفسر بشكل مفصل عن كيفية قيامنا بتمشية الأمور في العراق. وقد أجبته بأننا مرتاحون جداً من عملية تمكين العرب (العراقيين) من إدارة أمورهم وشؤونهم بأنفسهم ليتمكنوا من خلال هذه المسيرة اكتشاف ما يقعون فيه من أخطاء. وإزاء طرحي هذا أجابني المسيو كاي قائلاً بأن السلطات الفرنسية تبالغ في تحديد مستوى الكفاية الذي تسعى إلى تحقيقه، وهذا بالضبط ما أدركه. إني على بينة تامة من مثل هذا التوجه الذي عانيت منه الأمرّين تحت إمرة العقيد ولسون. إلا أن الأساس الذي ينطلق منه فكري إنما يتمحور حول واقع قدرتنا على السماح للعرب بالمضي قدماً في تمشية أمورهم وفق ما يريدون لأن ذلك سيقودهم بالنتيجة إلينا، أما الوضع مع الفرنسيين فمختلف تماماً إذ أنهم في حال أرادوا أن ينهجو نهجاً مماثلاً لنا فالله وحده العالم بالتوجه الذي قد ينصرف السوريون إليه. إن الفرنسيين ليسو على تماس بواقع الأمور ومجرياتها، كما أن الآصرة الشخصية الحميمة التي يمكن أن تربط المسيو كاي بأي مواطن سوري - كتلك القائمة بين مسؤولينا، الكبار منهم

---

(١) العصل - نباتات مُزهرة تزيينية من فصيلة الخلنجيات - المترجم

والصغار ، من جانب وأفراد الشعب العراقي من جانب آخر مفقودة تماماً . فبالدرجة الأولى لا يوجد بين المسؤولين الفرنسيين في سوريا من يحسن التحدث بالعربية - ترى ما نوع العلاقة الحميمة التي يمكن أن تربطك بطرف آخر من خلال مترجم ؟

لا أدري إلى أين ستنتهي هذه الأمور (المتعلقة بالشعوب العربية) ولكنني واثقة من أنها ستؤدي في يوم ما إلى قيام الوحدة بين أبناء الأقطار العربية كافة ، أما طبيعة هذه الوحدة وتداعياتها فتبقى جوانب ينبغي للعرب أنفسهم العمل على تحديدها .»

***

بعيد عودة جيرتروود إلى بغداد ، كتبت إلى والدها رسالة في الثامن عشر من أيار قائلة :

«مضى أسبوعان على أصيل رائع ليوم أمضيناه في مدينة بعلبك ، وأسبوع على رحلتنا بالسيارة إلى عمان بصحبة همفري بومان . كانت الرحلة أشبه بحلم ساحر - فصور الأماكن الجميلة التي شاهدتها بصحبتك تدور في ذاكرتي باستمرار ، كما أستذكر دوماً صورتك الجميلة ، وما عبرت عنه بصوتك الرائع من أمور وجوانب لا تخفق أبداً في إثارة اهتمامي واستقطاب انتباهي . ولعل الشيء الوحيد الذي كرهت هو سماع صوتك للمرة الأخيرة عبر أسلاك الهاتف - فقد أثار بي حنين العودة إلى الوطن . إلا أنني سرعان ما استعدت مرحي صباح اليوم التالي وأنا مقبلة على رحلة العودة وما يواكبها من نشاطات . قطعنا المسافة في ست ساعات . وبعد أن حططنا في مدينة الرمادي للتزود بالوقود ، أدركت أنني قد أصبحت من بين المدمنين على هواية الطيران .

اتجهت إلى بيتي مباشرة ، وبعد أن انتهيت من تناول الشاي انطلقت لزيارة عائلة دايفدسون . وقد أخبرني السيد دايفدسون أن الإنذار النهائي الذي قد أُرسل من الوطن ؛ يفيد بضرورة قيام الحكومة العراقية بالقبول بواقع كوننا الدولة القائمة على تطبيق النظام الانتدابي بالنيابة عن عصبة الأمم ، والذي ينبغي أن تتضمنه معاهدة يتم إبرامها مع العراق . وخلاف ذلك سوف نُضطر إلى ترك البلاد قبل حلول أعياد عيد الميلاد .

وفي صباح اليوم التالي زارني في المكتب كل من الرائد موري والنقيب كلايتون وأعادا علي تفاصيل القضية كلها . إن المعاهدة مطروحة على بساط البحث ، إلا أن الوزراء يحجمون عن تحمل ما يترتب عليها من مسؤولية . وانطلاقاً من خوفه من الخروج بقرار ، تظاهر جعفر باشا بضرورة قيامه بزيارة عاجلة إلى الموصل ، إلا أن الملك - إدراكاً منه بعدم وجود أي خيار

آخر ، واعترافاً بهذا الواقع - مستعد لتحمل عبء المسؤولية كاملة . وقد اتفقنا على ضرورة حصوله على دعم كل أعضاء مجلس الوزراء ليتمكنوا بعد ذلك من طرح معاهدة على المؤتمرتحظى بموافقتهم جميعاً . وفي عصر اليوم ذاته زارني ناجي بك السويدي - الذي ينظر إلى الموضوع بشكل معتدل جداً - ليشجب ما يثار من هياج واعتراض ضد الانتداب ، الذي يبقى في نهاية المطاف انتداباً من الدرجة الثانية ، وليؤكد لي أن القطر سيقبل به .

وفي عصر يوم الاثنين ذهبت لتناول الشاي في قصر الملك . وقد أخبرت جلالته بأنني قد عدت من رحلتي بقناعة تامة بأننا القطر العربي الوحيد الذي يسير على الطريق الصحيح ، وبأننا إذا ما أخفقنا في مساعينا هنا فإن ذلك سيعني نهاية طموحات العرب وتطلعاتهم . كان الملك في غاية اللطف والود . وإنه لمن دواعي سروري أن يكون فيصل شريكاً لنا . وقد تكتنف الصعوبات عملية التعامل مع شخص مثله ، حساس وسريع الانفعال ، إلا أن من شأن ما يتمتع به من صفات جوهرية حميدة وما يتميز به من أفق واسع ، أن يعوض عن كل الجوانب الأخرى .»

وتتواصل كتابة هذه الرسالة الطويلة على مدى عدة أيام لاحقة لتنتهي في الخامس والعشرين من أيار حيث تقول : «نشرت الصحف المحلية رسالة من الشيخ محمد مهدي الخالصي ، الذي يعتبر الأشد عنفاً والأكثر تشدداً من بين العلماء الشيعة ، جاء فيها أنه يعلن بأسم مسلمي العراق رفضه لأية صيغة غير الاستقلال الناجز . وقد زارني ناجي بك السويدي ليحثني على ضرورة البدء بحملة دعائية موالية للبريطانيين . إنه على ثقة من أن القضية إذا ما تم طرحها بشكل منصف وأمين فإن المعاهدة ستحظى بتأييد ٩٠٪ من مجموع الشعب الذي لن يلتفتوا إلى صيغة الانتداب التي تنطوي عليها ضمناً .»

بدأت جيرتروود في الثاني من شهر حزيران بكتابة رسالة موجهة إلى أبيها بلغ عدد صفحاتها ثمان عشرة صفحة من قطع الربع (كوارتو) . وندرج أدناه مقتطفات معينة منها لم يسبق نشرها أبداً قبل صدور هذا الكتاب :

«وصلنا قادماً من دمشق كل من السيد ليديو Mr.Ledew والرائد باول Major Powel . إنهما أمريكيان وصلا بغداد على ظهور الجمال بعد أن رفض الفرنسيون السماح لهما بالسفر عن طريق تدمر ودير الزور بحجة عدم قدرتهم ضمان وصولهما بسلام وحمايتهما من العشائر ، إلا أن القنصل البريطاني في دمشق دبر لهما الاتصال بقافلة كانت متوجهة عبر الصحراء إلى مدينة هيت - أي ذات الطريق الذي كنت سلكت في عام ١٩١١ - وقد توصل الأمريكيان سالفا الذكر إلى استنتاج مفاده أن البريطانيين أكثر دراية ومعرفة بالعشائر

من الفرنسيين . وقد شهد هذا الاستنتاج بواكيره في دمشق حيث يواصل الفرنسيون طوف الشوارع في دوريات ويشعرون بخوف من احتمال اندلاع ثورة .»

مرت بسلام ونجاح مناسبة تقديم التهاني والتبريكات للملك بمناسبة حلول أول أيام عيد الفطر الذي صادف في يوم الأحد ، الثامن والعشرين من شهر أيار . وكانت السلطات البريطانية قد طرق سمعها إشاعة تفيد باحتمال قيام مظاهرة ضد الانتداب ، إلا أنها علمت بأن الملك قد أمر بمنعها .

وفي أثناء جولتها في بغداد لتقديم التهاني والتبريكات سمعت جيرتروود الكثير عن المظاهرة التي انصرفت المحاولات إلى تنفيذها ، وما دار من كلام صريح حول عدم إمكانية التسامح مع مثل هذه الممارسات . وقد قام البعض بتوجيه اللوم إلى الملك باعتباره الجهة التي عمدت إلى تشجيع قيامها ، بينما قال البعض الآخر أن نوري باشا سعيد قد تبنى القيام بالمبادرة -وبعبارة موجزة ملأت الإشاعات والقيل والقال العاصمة بغداد . وقد اكتشفت أن السير برسي قد اتصل بكل من الملك والسيد كورنواليس ، بيد أنني لست واثقة مما للأول منهما من دور في هذه القضية . وراحت الإشاعات والأقاويل بمختلف صيغها وتفاوت درجاتها تتواتر على مكتبي صباح اليوم التالي . وقد طلب مني الرائد موري والنقيب كلايتون تناول طعام العشاء معهما - وكان نوري باشا الضيف الآخر . قبلت الدعوة شاكرة ، وقد أخبرنا نوري باشا خلالها تفاصيل ما حدث في يومي الأحد والاثنين . كان تصرف المسؤولين كافة ، ابتداءً من الملك ونزولاً إلى أقل المستويات الوظيفية ، رائعاً . ولابد لك أن تعترف بما نتمتع به من موقع مكين ، إذ أننا في حال أردنا معرفة ما يدور على الساحة من أحداث ما علينا سوى التوجه إلى أبطال الدراما أنفسهم للاطلاع على تفاصيل ما قاموا به!»

وتتواصل الرسالة التي تقول جيرتروود فيها في الرابع من حزيران : «دار حديث مطول بيني وبين السيد كورنوالس الذي بينت له عدم ارتياحي من موقف الملك غير الحاسم ، ورفضه القيام بتكذيب التصريحات التي تنشرها الصحف المتطرفة ، ومواقفه الداعمة حتى للشخصيات الأدنى مكانة من بين العناصر المتطرفة . وقد أيد كورنوالس طرحي هذا قائلاً بأنه تشاجر مع الملك وبأنه (أي كورنواليس) يشعر بخيبة أمل . وإن من بين ما يتسبب بإثارة القلق في نفوسنا من القضايا تلك المتعلقة بتصديق الملك كل ما يسمعه من كلام يتعلق بالرائد ييتس الذي يعمل حالياً مستشاراً في الناصرية (المنتفق) والذي يعتبر الأفضل من بين ضباطنا السياسيين . ولقد وقع الملك في أخطاء جسيمة فيما يتعلق بشؤون تلك المنطقة ، فالرائد ييتس أوسع معرفة وأكثر دراية بشؤون القبائل هناك من أي شخص آخر ، وإن الأوغاد

الذين عمد إلى إبعادهم يهرعون إلى الملك متباكين ومدعين بأن الرائد ييتس لا يعمل لمصلحة الحكومة العربية . وإن الأمر الذي يحز في النفس هو أن الملك من جانبه يصغي إلى ما يقولون بانتباه .(٢)

انطلقت فجر هذا اليوم إلى منطقة الكرادة في جولة على ظهور الخيل بصحبة نوري باشا سعيد ، وأثناء ذلك بينت له رأيي حول الوضع ، وقد وجدته مُطمئناً ، وباعتباره وطنياً متطرفاً

---

(٢) أرى وجوب التوقف هنا للتعليق على ما جاء على لسان الآنسة بيل بهذا الصدد وفيما يتعلق بمشكلة الناصرية (أو المنتفق) وهي المحافظة العراقية المعروفة اليوم باسم ذي قار . ففي الوقت الذي راح الصراع يشتد حول المعاهدة والانتداب فإن مشكلة الناصرية قد أسهمت في استفحال الخلاف بين الملك ودار الاعتماد .

أفاد التقرير البريطاني المرفوع إلى عصبة الأمم ، وفيما يتعلق بمنطقة الناصرية ، بأن القبائل هناك تحتفظ بما لديها من سلاح وأنها تشعر بقدرتها على تحدي الحكومة . هذا من جانب ، ومن جانب أخر لابد لنا أن ندرك أن عشائر المنتفق كانت فئتين :فئة موالية للإنجليز وأخرى مناوئة لهم ، وكانت الأولى تفوق الثانية عدداً . وكان في اللواء مستشار بريطاني صارم وشديد القسوة هو الرائد ييتس الذي تشيد الآنسة بيل بقدراته ، والذي اعتاد حكم المنطقة بطريقة سلطوية لا تمت للتفاهم والتسامح بأية صلة . وقد دأب هذا المستشار على جمع شيوخ العشائر وحثهم على توقيع عرائض يطلبون فيها استمرار الانتداب البريطاني . وفي أثناء ذلك نشرت جريدة الاستقلال في الثاني والعشرين من حزيران وكذلك في الخامس والعشرين منه مقالين مفادهما أن شيوخ العشائر رفضوا الاستجابة إلى مطالب ييتس ، وأن مؤتمرات وطنية قد عقدت لشجب مواقف دعاة الاستعمار ، والمطالبة بالاستقلال التام ورفض الانتداب ، الأمر الذي أدى إلى قيام السلطة (أي الرائد ييتس) باعتقال بعض المنظمين لتلك المؤتمرات وإبعاد البعض الآخر . وقد بدأ المتذمرون من الرائد ييتس وتوجهاته يلجؤون إلى الملك ويستغيثون به بهدف إنقاذهم من محنتهم ، كما توالت البرقيات الموجهة إلى جلالته والتي تطالب بإحقاق الحق . وقد قام الملك في حينه بالاتصال بالمندوب السامي طالباً منه نقل ييتس . إلا أن السير برسي كان راضياً عن أداء هذا الضابط الذي اعتبره شخصاً قادراً على ضبط المنطقة وإدامة الأمن والاستقرار فيها . إثر ذلك أخذت الصحف المعارضة تهاجم ييتس بعنف ، ومن المعتقد في حينه أن ذلك كان قد تم بإيعاز من الملك الأمر الذي أغضب المندوب السامي . وتوضح هذه المشكلة بجملها العام صعوبة موقف الملك الذي كان برغم إدراكه التام بضعف العراق وقلة حيلته وجبروت المستعمر لا يتوانى في التعاطف مع مشاعر أبناء الشعب وتطلعاتهم ويقوم بما يستطيع لإسناد موقفهم مع محاولاته الجادة في الحين ذاته في الحفاظ على التوازن بين مصالح الطرفين – المترجم

أصيلاً فإنه أكد لي بأنهم جميعاً عازمون على العمل معنا . وكان يمتطي مهراً عربياً رائعاً ، وقد بدا راضياً عن نفسه كل الرضى . إنه إنسان بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى ، كما أنه من بين أحب الأشخاص إلى نفسي هنا .

وفي الرابعة والنصف عصراً ذهبت لتناول الشاي مع الملك وقد عقدت العزم على مصارحته بكل ما كان يدور في رأسي من أفكار . كم أود أن أرسم لك صورة حية للمشهد : الغرفة الكبيرة الخالية ، والمراوح السقفية التي راحت تدور بسرعة محدثة صوتاً أشبه بالطنين ، والملك بلباسه العربي - كان يرتدي جلباباً ناصع البياض ، وكوفية من الكتان هي الأخرى بيضاء ناصعة أيضاً ، وجو يزخر بالانفعال ، وهو جو كان الملك بفضل فطنته الحادة على وعي تام به . كنت ألعب ورقتي الأخيرة ، وهذا ما بينته له . بادرته بالسؤال حول ما إذا كان مؤمناً بإخلاصي وولائي التامين له . أجابني بأنه لا يشك في ذلك أبداً إدراكاً منه بما بذلت في سبيله في العام الماضي . قلت بعد ذلك بأنني ، وانطلاقاً من ذلك ، سوف أتكلم بكل حرية وصراحة ، وبأنني لم أكن مرتاحة من موقفه أبداً ، وبأنني كنت قد نحت له تمثالاً كريماً من الثلج ، منحته ولائي ، ثم رأيته يذوب أمام عيني ، وبأنني أفضل الرحيل قبل أن يكون كل خط خارجي نبيل فيه قد أزيل من الوجود . وبرغم ما أكنه من حب لأمة العرب ، وشعوري بالمسؤولية تجاه مستقبلها ، لا أظن أنني قادرة على تحمل رؤية تبخر الحلم الذي سدد خطاي يوماً بعد يوم . إن الرجل الذي طالما آمنت بأن روحه لا تحركها إلا الأسمى من المبادئ ، أراه اليوم قد وقع فريسة لكل صيغة من صيغ الإشاعات الخبيثة . إنه يصغي بانتباه إلى رجال عمدوا بالأمس إلى إعلام الأتراك أثناء الحرب بأسماء شخصيات عربية خدمت البريطانيين ، وغداً ، عندما نكون قد رحلنا ورجع الأتراك ، سيعمد هؤلاء الوشاة إلى فضح الذين خدموا فيصل . بعد ذلك تناولت مسألة الناصرية لأقول له أنه كان على خطأ من البداية إلى النهاية في كل ما قام باتخاذه من إجراءات هناك . وفيما يتعلق بالرائد ييتس ، بينت له أنني في الفترة التي دأبت من خلالها على تأيد القضية العربية ضد سياسة العقيد ولسون وقف إلى جانبي ثلاثة رجال فقط هم الرائد ييتس ، والرائد موري والنقيب كلايتون الذين لولا حرصهم على تأييدي ومعاضدتي لما استطعت الصمود . إن شكوكه (فيصل) الخبيثة ستجبر الرائد ييتس على الاستقالة ، وهو ما سيدفع بي بدوري إلى تقديم استقالتي كذلك ، لأنني لن أنتظر اليوم الذي سيتمكن فيه أخيراً هؤلاء الأوغاد ، موضع ثقته ، من تشويه صورتي في عينيه .

وقد دار بيننا نقاش هائل حول الإطار العام لهذا الموضوع ، وكان يعمد من خلاله إلى

تقبيل يدي من وقت إلى آخر ، وهو جانب مربك للغاية ! وقد أخبرني بأن من واجبه الانصراف إلى طمأنة العناصر الوطنية المتطرفة التي نرفض (نحن البريطانيين) على الدوام الاعتراف بها . وإزاء ذلك قلت له أن طرحه هذا لا ينسجم مع واقع الأمر وذلك لأننا لا نتنكر إلا للذين ينصرفون إلى العمل لخدمة مصالحهم الشخصية ، أما الذين يعملون بحق لمصلحة الحكومة الوطنية فإننا لا نقبل بهم فحسب بل نرحب بهم كذلك . وفي حال أخفقنا في العمل معهم نكون قوماً لا خير يرتجى منا . إننا قادرون في الواقع على العمل معهم ، بل وتم لنا العمل معهم فعلاً ، فالسيد جعفر أبو التمن كان أحد قادة التمرد وهو الآن وزير يرتبط مع البريطانيين بوجه عام ، ومعي شخصياً بوجه خاص ، بعلاقات ودية . إن عدم قدرتنا على التوصل إلى صيغة عمل ممكنة (مع الأطراف كافة) لأمر لا يمكن تصوره في حال قام الملك بمد ما ينبغي من أسباب الدعم والمساعدة . وقد تمكنت أخيراً من إقناعه بالموافقة على نشر تكذيب رسمي للتقارير الصحفية (وهو جانب لم يتم بعد وضعه في حيز التنفيذ!) . وعندما حاولت قبل انصرافي تقبيل يده ضمني إلى صدره بحرارة ! وقد تم ذلك بعد أن ناقشنا مشكلة مكة - نجد ، التي تعتبر مسألة في غاية الخطورة ، وتوصلنا إلى اتفاق بصددها . فعلى مدى السنوات الثلاث الأخيرة يعمد ابن سعود ، الذي يقوم بينه وبين الملك حسين والد فيصل عداء مستحكم ، إلى منع أبناء شعبه من أداء فريضة الحج وذلك استجابة لطلب منا بهذا الخصوص ، إلا أنه قد أعلن عن عدم قدرته على مواصلة هذا المنع عاماً آخر . وفي ضوء تدفق الألوف من حجاج نجد ، والسياسة غير الحكيمة التي يعتمدها الملك حسين ، فإن من المحتمل جداً اندلاع هيجان عنيف ، أما كيف يتم لنا تفادي ذلك فأمر لا أدركه أبداً . ويعلن فيصل من جانبه أن في حال أخفقنا في اتخاذ ما يلزم من خطوات سيجد نفسه مضطراً إلى ترك كل شيء والعودة إلى الحجاز ليموت دفاعاً عن أسرته ونسائها . وإذا ما قُدر للحج إلى الأماكن المقدسة أن يؤدي إلى نشوب قتال مفتوح يشترك فيه كل من شاء ، فإن من شأن ذلك ، على ما نرى ، أن يبرر كل ما يقوله المسلمون الهنود حول ضرورة قيام الأتراك بإعادة بسط سيطرتهم على الحجاز ، وعلى البلدان العربية الأخرى بالمناسبة . ولقد عمدنا أنا وفيصل إلى طرح مختلف الوسائل التي سأقوم بدوري برفعها إلى السير برسي غداً .

لا زلت غير واثقة مما قد سيتمخض عنه هذا اللقاء في الواقع . فعلى الرغم من أن فيصل هو من أحب الناس إلى القلب ، إلا أنه يفتقر إلى قوة الشخصية بشكل يثير العجب . وإلى جانب كل ما يؤمن به من مثل عليا ، بإمكان أتفه العقبات أن تقف عائقاً في

سبيله في أية لحظة . لقد آثر أن يربط عربته بالنجوم[٣] مما يجعل من حبل ربط بهذا الطول عرضة لأن يعلق في كل أجمة أو دغل قد يقعان على مساره . ولا يمكن للمرء من التعامل معه إلا عن طريق التعاطف الشديد معه ، وهو أمر ليس بالصعب أبداً شريطة أن يدرك كل من يتعامل معه سرعة تحول مساره (أي مسار فيصل) وتذبذب آرائه مع كل نَفَس وفي أية لحظة . لقد تركته مساء هذا اليوم مؤمناً تماماً بأن رغبتي الوحيدة هي خدمته ، إلا أنه سيصبح غداً فريسة للظنون . ومع ذلك ، وبرغم كل الانحرافات التي قد تطرأ على خط سيره ، فإنه يدرك في صميم قلبه أنه يثق بنا ، كما أنه يؤمن أن مجموعة معينة منا – أننا والسير كورنوالس والنقيب كلايتون – لا نألوا جهداً في الانصراف إلى دعمه ، كما أنها على استعداد لبذل الغالي والنفيس في سبيل خدمة مصلحته ، الأمر الذي يمثل أقوى الأواصر التي تربطنا به .»

وفي السادس من حزيران كتبت تقول : «الدراما تتواصل متنامية . زارنا في المكتب صباح يوم الاثنين الشيخ علي السليمان وأخبرني والسير برسي بأن ثمة اتفاقاً قد تم التوصل إليه بينه وبين الملك مفاده أنه في حال ورد رد إيجابي من لندن فيما يتعلق بمختلف التعديلات التي اقترح إجراؤها على أحكام المعاهدة ، فإن الملك سيتوجه على الفور للتعامل مع العناصر المتطرفة بكل أمانة . أما في حال ورد رد لا يعتبر إيجابياً من جميع الوجوه ، فإنه سيطلب من علي (علي السليمان) القيام بجمع رجال من بين الذين تنسجم آراؤهم مع رأيه (أي رأي علي السليمان) من أجل إرغام العناصر المتطرفة على القبول بالشروط البريطانية . ولكن قبل ظهر ذلك اليوم ، طرق سمعنا أن خمسة من المندوبين المزعومين لهذه العناصر قد قاموا بإرسال ما بلغ قيمته (١٥٠٠) روبية من البرقيات التي وجهوها إلى كل الملوك والبرلمانات والصحف الرئيسية في أوربا وأمريكا ، بالإضافة إلى تلك الموجهة إلى عصبة الأمم ، معلنين من خلالها رفضهم التام للانتداب بأية صيغة كانت . إلا أن البرقيات قد

---

(٣) العبارة الاصطلاحية التي شاعت الآنسة بيل استخدامها هي he has hitched his wagon to the stars وتعني من يُبعد أو يُغالي في مرماه أو مطمحه – المترجم

أوقف إرسالها من قبل الرقيب ريثما يصار إلى استمزاج رأي الملك حول منع إرسالها .(٤)
تناولت طعام الغداء مع السيد كورنواليس وسمعت منه أن الملك قد تراجع عن وعده

(٤) لابد من وقفة هنا لذكر تفاصيل تتعلق بهذا الموضوع قد أغفلت ذكرها الآنسة بيل ، عن قصد أو من غير قصد ، وهي جوانب هامة يتعين ذكرها في هذا المجال .

لقد أصاب الأستاذ الدكتور علي الوردي كبد الحقيقة في محضر إشارته إلى مشكلة المعاهدة عندما عرفها باعتبارها «أكبر سبب للصراع بين فيصل وكوكس ، وبأنها كانت وراء جميع مظاهر الصراع بين الرجلين على وجه من الوجوه .»

وفيما يتعلق بموضوع الخلاف بينه وبين الملك حول المعاهدة يقول كوكس أنه هو الذي أشار على حكومته بجدوى أن تقوم العلاقة بينها وبين العراقيين على أساس معاهدة بدلاً من الانتداب ذاكراً أن السبب في ذلك إنما يعود إلى نفور العراقيين من فكرة الانتداب باعتبار أنها توحي بالانقياد إلى السلطة المنتدبة . وبرغم موافقة الحكومة البريطانية على هذ الرأي إلا أنها كانت تسعى إلى معاهدة في حدود المقصود من الانتداب وعلى نحو ما أسلفت في حاشية سابقة من هذا العمل . أما المغفور له جلالة الملك فيصل الأول فكان ينشد إلغاء الانتداب والدخول في معاهدة تحالف بسيطة مع بريطانيا بدلاً منها ، وهو موقف أوضحه في محضر حديث مع السيد أمين الريحاني (فيصل الأول - بيروت ١٩٥٨) عندما قال : «وعدني تشرشل بإلغاء الانتداب والاعتراف باستقلال العراق . . وهو ما نصر عليه . . ونأمل أن يعمد تشرشل إلى البر بوعده .»

وكانت المفاوضات حول المعاهدة قد بدأت قبل مضي شهرين على تتويج الملك وراحت مسودة المعاهدة تنتقل من دار الاعتماد إلى مجلس الوزراء ومن ثم البلاط وبالعكس وهي تحمل تعديلاً هنا وإعادة صياغة هناك . وظلت المفاوضات تدور بشكل مكتوم حتى أواخر أيار من عام ١٩٢٢ عندما أعلن تشرشل في البرلمان أن الملك فيصل وحكومته لم يسبق لهما إعلام الحكومة البريطانية برفض الانتداب من قبل الشعب العراقي مما أثار ضجة في العراق .

قامت العناصر المعارضة لفكرة الانتداب - والتي تصر الآنسة بيل على تسميتها بالعناصر المتطرفة - بعقد اجتماعين أحدهما في جامع الوزير والآخر في جامع الحيدر خانة تمخض الأخير منهما عن انتداب ستة أشخاص ينوبون عن الشعب في التعبير عن احتجاجه ضد تصريح تشرشل والذين أشارت إليهم الآنسة بيل بعبارة «المندوبين المزعومين» وهم كل من السادة محمد الصدر ، محمد الخالصي ، أحمد الشيخ داود ، مهدي البصير ، مزاحم الباجه جي وياسين الهاشمي . ولم يستطع المندوبون مقابلة الملك في اليوم الأول إلا أنهم ، وباستثناء الهاشمي ، تمكنوا ن مقابلته في اليوم التالي . وكان لاعتذار الهاشمي أسباب منطقية تعود إلى واقع كونه قد عاد قريباً من سوريا بعد أن كان ممنوعاً من الدخول إلى العراق ، ولم يسمح له العودة إلا بعد أن أعطى==

فيما يتعلق بأحد الأمور التي التمست منه تنفيذها وظننت بأنني ربما كنت قد أفلحت في إقناعه بالتخلي عن تأييده لأفاك ، عديم القيمة ، يتظاهر بالوطنية .»

وفي ذات المساء أقامت الآنسة بيل مأدبة عشاء استضافت فيها عدداً من الشخصيات من بينهم رستم حيدر وصفوت باشا(٥) وبعد ذهاب المدعوين الآخرين بقي الاثنان المذكوران إلى ما بعد الثانية عشرة وراحا يلتمسان ضرورة وقف حجاج نجد وهو أمر لا نظن بأن أحداً

== تعهداً بأن يكون «أميناً مخلصاً» ، وبذلك لم يشأ توريط نفسه في مشكلة مع الإنجليز . «ولعله آثر الابتعاد عن النشاط السياسي مؤقتاً» لحين انجلاء الموقف (سامي عبد الحافظ القيسي - ياسين الهاشمي - رسالة جامعية غير منشورة) .

مما لاشك فيه أن الملك كان في موقف حرج ، إذ على الرغم من تعاطفه مع المحتجين كان يحاول تفادي إغضاب السلطات البريطانية . إلا أنه وافق على ما يبدو بعد إلحاح شديد من قبل المندوبين على أن يُصار إلى إعلام عصبة الأمم برفض العراقيين للانتداب .

وما أن خرج المندوبون من مقابلة الملك حتى سارعوا إلى إذاعة بيان نشرته جريدة الاستقلال مفاده أن الملك لا يعمل ضد رغبات الشعب وأنهم سيعمدون إلى إرسال برقيات (وهي التي تشير إليها الآنسة بيل في رسالتها أعلاه) إلى مختلف جهات العالم يعلنون فيها رفضهم للانتداب . وأدناه نص البرقية المذكورة التي كان أورد مضمونها السيد محمد مهدي البصير في كتابه «تاريخ القضية العراقية» واستشهد بها الأستاذ الدكتور علي الوردي :

«لقد أثبت العراقيون رغبتهم الأكيدة في الاستقلال التام ورفضهم أي انتداب كان رفضاً باتاً . وحركتهم الخطيرة سنة ١٩٢٠ أعظم شاهد على ذلك . وبمناسبة تصريح المستر تشرشل في البرلمان الإنجليزي بشأن مسألة الانتداب في العراق ، أقام الشعب العراقي مظاهرة سلمية فوضنا فيها أن نعلن أمام مجلسكم الموقر ولدى البرلمانات الأخرى عن رأيه في رفض الانتداب . وعليه فإننا نرفض كل انتداب ونحتج على كل قرار يعارض الاستقلال التام للعراق .» (التوقيع) محمد الخالصي- أحمد الداود- محمد الصدر - حمدي الباجه جي - محمد حمدي البصير .

وفي النهاية ، وفي ضوء «اقتناع» المندوبين بما سيتسبب إجراؤهم هذا من إحراج لموقف الملك ، فإنهم توقفوا عن إرسال البرقيات . وهذا ما ستبينه الآنسة بيل في مكان لاحق من هذا الكتاب - المترجم

(٥) إنه صفوت باشا العوا ، أحد السوريين الذين كانوا قد عملوا مع جلالة المغفور له الملك فيصل في سوريا والذين قدموا بعد ذلك للعمل معه في العراق . وكان صفوت باشا وعلى نحو ما أسلفنا في حاشية سابقة ، قد تعين حديثاً ناظراً للخزينة الملكية - المترجم

يمكنه وقفه . وبهذا الصدد يقول (الملك) حسين الآن أن في حال قدم حجاج نجد فإنه سيعود إلى جدة ! إن من شأن ذلك أن يؤدي إلى انفجار لا مناص منه على ما أظن ، والحسين سيعمل ما في وسعه للتأكيد على قيام ذلك .

تتواتر إلينا سمعنا أخبار تفيد بأن الملك لا يزال «يحاول إقناع» المندوبين بعدم إرسال البرقيات التي لا تزال مستودعة في صندوق محكم في المكتب !(٦)

انطلقت بصحبة السيدة دايفدسون والسيد كوك في زيارة لدار السيد عبد الحسين جله بي وذلك تلبية لدعوة الشاي التي أقامها . إن مضيفنا على ما يفترض من بين العناصر المتطرفة ، إلا أنه يقيم معنا أفضل العلاقات الودية . فإذا ما كان متطرفاً فليلعنه الله ! إن التطرف برمته هراء ليس إلا . وأنا أعمد من جانبي إلى استغلال كل مناسبة ممكنة من أجل الإعلان عن ارتباطي بالسيد الجله بي !

الملك ! وآه من الملك ! ليته كان أصلب موقفاً ! إنه يفوت على نفسه فرصة العمل - ولكن ما عسى المرء منا أن يعمل؟»

وفي الثامن من حزيران كتبت تقول : « أشعر بأنني أكثر سعادة : لقد وافق الملك على منع إرسال البرقيات المذكورة . وعندما عمد الحمير الخمسة (كذا)(٧) إلى استئجار سيارة بقصد الإسراع بالتوجه إلى بلاد فارس لغرض إرسال البرقيات من هناك أخبرهم (الملك) باحتمال أن يتسبب إجراؤهم هذا بأفدح الأضرار فأحجموا عنه .

ليلة سعيدة أيها الحبيب - آمل أن تفهم الآن لماذا لم يكن باستطاعتي المجيء إلى الوطن أليس كذلك ؟» بهذا التساؤل أنهت جيرتروود ، أو كادت تنهي ، أخيراً رسالتها الموجهة إلى أبيها . نقول أنها كادت تنهي بسبب وجود حاشية أضيفت لاحقاً وكتبت بخط يصعب قراءته ، وقد جاء فيها : «أود القول أنك كدت تفقدني إلى الأبد نتيجة سقوطي من على ظهر حصاني ! إلا أن الحادث لم يصبني بأي سوء !»

من بين مآدب الغداء والشاي و العشاء التي دأبت جيرتروود على حضورها ، فإنها تخبر أباها من خلال رسالتها المؤرخة في الثاني والعشرين من شهر حزيران عن دعوة شاي

---

(٦) هكذا وردت العبارة بالإنجليزية the telegrams which are reposing in a strong box in the office فأي مكتب هذا الذي تقصد ؟ ولماذا لم تحدد مكتب البريد مثلاً ؟ أم تراها كانت مستودعة في مكتب دار الاعتماد ؟ - المترجم

(٧) إنها تقصد المندوبين بطبيعة الحال - المترجم

جمعتها مرة أخرى بالملك والتي دار في خلالها ، وعلى حد تعبيرها ، الحوار الأمتع من بين كل ما تبادلته مع فيصل من حوارات : «وكان نقطة البداية في هذا الحوار ياسين الهاشمي الذي أخبرت فيصل بأنني منجذبة إليه برغم إحساسي بأنني لا أفهمه . وقد أخبرني جلالته بدوره بأن هذا هو إحساسه هو الآخر أيضاً . وبعد ذلك عدنا بالحديث إلى التفاصيل المتعلقة بمؤتمر باريس وما توصل إليه تدريجياً من قناعة بأننا قد عمدنا إلى التخلي عنه ليصبح تحت رحمة الفرنسيين (وهو جانب لم يتم إشعاره به بصورة مؤكدة حسب علمي إلا في تموز من عام ١٩١٩) ، وكيف تجددت آماله بفعل مجيء الوفد الأمريكي[٨] ، وهي الآمال

(٨) المقصود هي لجنة كنج-كرين . The King Crane Commission وهنا يجدر التوقف وهلة لإلقاء نظرة خاطفة على سياق الأحداث فيما يتعلق بتشكيل هذه اللجنة وما تمخض عن نشاطها من نتائج .

في صباح يوم ١٩١٩/٣/٢٠ عُقد اجتماع سري جمع رؤساء الدول الأربع الكبرى (أي إيطاليا وأمريكا ، وبريطانيا ، وفرنسا) وشهد نقاش حاد حول العرب والقضية السورية . وقد بين رئيس وزراء بريطانيا ، دايفد لويد جورج ، أنه لا يحيد عن التزامات بريطانيا في اتفاقية سايكس بيكو إلا بقدر تعلق الأمر بالموصل وفلسطين (علماً أن اتفاقاً مسبقاً كان قد تم بين لويد جورج ونظيره الفرنسي جورج كليمنصو بعد مجيء الأخير إلى لندن بعد الحرب ، وهو اتفاق تنازل بموجبه كليمونصو عن الموصل ، ووافق على أن تكون فلسطين من دان إلى بئر سبع تحت السيطرة البريطانية مقابل أن تكون سوريا كلها تحت الانتداب الفرنسي . وقد تم الاتفاق النهائي حول ذلك بين الطرفين في ١٩١٩/٩/١٥ ، حيث تقرر أن تكون سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، وأن يتم سحب الحاميات البريطانية من سوريا وكيليكيا ، وأن يكون العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني . ويبين أمين سعيد في كتابه «الوطن العربي» ما مفاده أن الاتفاق آنف الذكر تضمن تخلي بريطانيا عن فيصل والسماح لفرنسا بالتعامل معه كما تشاء) كما وبين لويد جورج أيضاً (وهو جانب يثير العجب) أنه يعتبر نية فرنسا للقيام باحتلال دمشق انتهاكاً صارخاً للتعهدات البريطانية الممنوحة للعرب . وعلى الرغم من أن الفرنسيين لم يكونوا مرتبطين بأي تعهد مع العرب ، إلا أن اتفاقية سايكس بيكو على الرسالة التي كان مكماهون قد بعثها إلى الملك حسين (الشريف حسين في حينه) في ١٩١٥/١٠/٢٤ . ثم أطنب رئيس وزراء بريطانيا على العرب ودورهم الفاعل في كسب الحرب في تلك المنطقة من العالم . وجدير بالذكر في هذا الصدد أن انصراف البريطانيين إلى الإطناب في دور العرب ، وترويج الدعاية لفيصل ، إنما كان جزءاً من سياسة بريطانيا التي استهدفت المساومة مع الفرنسيين لتحقيق أكبر كسب ممكن من ما يمكن تسميته بـ «غنائم الحرب» . وإزاء ما دار من رد وبدل بين الجانبين البريطاني والفرنسي نفذ صبر الرئيس الأمريكي ولسون الذي أوضح أن السبيل الوحيد لمعالجة القضية هو الرجوع إلى أهالي المنطقة المعنية واستمزاج==

التي أُحبطت مرة أخرى بفعل ما جوبه به تقرير اللجنة من إهمال وإعاقة ، وعزمه من بعد ذلك على مسايرة الفرنسيين إلى أبعد مدى ممكن ، وحتى الوقت الذي كان سيتم له فيه إقامة حكم عربي ، وتوطيد أركانه ، بحيث يصعب القضاء عليه ودثر معالمه حتى في حال تم إجباره (إجبار فيصل) على الخروج من سوريا ، ومن ثم اضطراره كرهاً إلى ما لم يحمد عقباه بفعل ضغوط المتهورين من جماعته من جانب ، والموقف الفرنسي المتشدد من جانب آخر . أضف إلى ذلك كله ما توجب عليه التعامل معه من مشاعر الغيرة والحسد الكامنة في نفوس أفراد عائلته ، وتشبثه بأذيال أثوابنا التي راحت تتوارى عن الأنظار .

جلست أنصت باهتمام منقطع الأنفاس - كان إسهاماً في التأريخ . وقد دونته أخيراً بتفصيل تام . ولكن الجانب النفسي هو ما أعجز عن التعبير عنه . لو أنك تمكنت من مراقبته لخمس دقائق لاستطعت فهمه . فوجهه دقيق ومتلهف ، يعكس كل انعطافة في فكره .

== رأيهم . وهكذا تم أخيراً الاتفاق على تشكيل لجنة من أعضاء أمريكيين وإيطاليين وبريطانيين وفرنسيين تعمل على استطلاع الحقائق ورفع تقرير بهذا الصدد إلى مؤتمر الصلح . إلا أن بريطانيا وفرنسا سرعان ما عارضتا بعد ذلك الاشتراك في اللجنة ، ولكن الرئيس ولسون أصر على إرسال اللجنة فكانت لجنة أمريكية بحتة . وفي ١٩١٩/٦/١٠ وصلت اللجنة الأمريكية إلى ميناء يافا وراحت تنتقل في أنحاء البلاد حيث قضت فترة اثنين وأربعين يوماً زارت خلالها ستة وثلاثين مدينة واستقبلت ألفاً وخمسمائة وعشرين وفداً واستلمت ألفاً وستمائة وثلاثاً وستين عريضة . وقد وجدت اللجنة أن غالبية الناس في المناطق - باستثناء لبنان - كانوا على رأي فيصل ، أي المطالبة باستقلال سورية مع أمريكي أو بريطاني لا فرنسي . وكان الأمر في لبنان على العكس من ذلك حيث طالبت الأغلبية بالانتداب الفرنسي .

بعد عودتها إلى باريس ، قدمت اللجنة تقريرها الذي تضمن تحبيذ نظام الانتداب لمدة محدودة على سوريا والعراق على أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية الدولة المنتدبة على سوريا ، وتكون بريطانيا الدولة المنتدبة على العراق ، والتي يمكن أن تمنح انتداباً على سوريا في حال رفض الولايات المتحدة الأمريكية القيام بالدور المطلوب . وفي حال تشبث فرنسا بمصالحها في سوريا فيمكن منحها حق الانتداب في لبنان . وقد تضمن التقرير أيضاً تحديد هجرة اليهود إلى فلسطين ، ونبذ فكرة جعلها موقعاً لدولة يهودية .

لم يجد التقرير من يهتم به في الواقع لاسيما بعد ابتلاء ولسون بمرض عضال ، وتكاتف بريطانيا وفرنسا على وأده ، وبذلك ألقي به في زوايا الإهمال ، ولم تجد محتوياته طريقها إلى النشر إلا في عام ١٩٢٢ ، وذلك بعد فوات الأوان . إلا أن عواقبه كانت وخيمة وذلك في إطار إغضَاب فرنسا الذي انعكس بشكل واضح في السياق الذي أدى إلى يوم ميسلون وخروج الملك فيصل من سوريا - المترجم

وبدت العينان البراقتان للرجل المثالي ، لما فيهما من حزن وخيبة ، أشد عمقاً ، ومع ذلك كانتا خاليتين من أية ملامة . أحسست وهو يكشف عن تفاصيل روايته المأساوية بأن كل ما نُدعى إلى ممارسته من صبر وتسامح إزاءه لن يفي بما يستحقه منهما بسبب ما اقترفته يدانا .

عندما تحين ساعة الحساب في يوم الدينونة ، عليك أن تثق بأن تقديرنا سوف يتم بموجب الدرجة الأعلى التي قد تم لنا إحرازها . وسوف يحتل فيصل في ذلك اليوم منزلة رفيعة جداً . إنه يندفع بموجة عارمة إلى مسافة بعيدة عبر الشط السماوي . وإذ ينخفض المد ثانية فإنه سيكون هناك وقد ترك خطاً صغيراً من بحره الذهبي فوق الشاطئ .(ذلك هو الجانب الشعري من شخصية جيرتروود . وقد يتساءل المرء ما إذا كانت بالفعل قد أخذت مثل هذه الإمكانات بنظر الاعتبار .)

قال إنه لن ينسى ما قلت له عن الصورة التي كونتها له من الثلج ، وفي حال عرضت عليه حكومة جلالة الملك معاهدة يمكنه توشيحها باسمه بشرف ، فإنه لن يتوانى عن المضي قُدماً على المساق الذي اقترحته أنا شخصياً عليه ، إلا أنه شكا من أن وزراءه لا يمدونه بالعون اللازم . وإزاء ذلك أخبرته بأن عدداً منهم يلمون شملهم ويتكاتفون مع ناجي السويدي من أجل تشكيل جماعة معتدلة ذات قاعدة صلبة . ومنذ أن سمع مني ذلك باتت مناسبات لقائه بناجي تزداد .»

بعد بضعة أيام وصل جواب الحكومة البريطانية حول المعاهدة الأمر الذي زج دار الاعتماد يوماً بأكمله في العمل على فك رموز شفرته . وتعلق جيرتروود حول ذلك قائلة : «بإمكانك تصور مقدار انهماكنا في العمل ، وما يواكب ذلك من توتر وقلق . ويمكن القول إن المعاهدة وثيقة لا بأس منها ، بل معتدلة وسخية ، وقد أُرفق طيها برقية موجهة إلى جلالة الملك (فيصل) من المستر تشرشل . والآن بإمكاننا الانطلاق بمسيرتنا على ما آمل .

سيتم عصر هذا اليوم طرح نصوص المعاهدة على أعضاء مجلس الوزراء . وإنني بهذا الصدد لست متأكدة تماماً من احتمال عدم قيامهم بإجراء أحمق كوضع ملحق بالمعاهدة ، أو تذييلها بفقرة إضافية ، بخصوص رفض الانتداب الأمر الذي من شأنه أن يخذل الملك ويزيد من صعوبة الأمر كله . وكان السير برسي قد بذل ما يمكنه من جهود لإقناع النقيب بالابتعاد عن هذا التوجه . وقد قامت ثلاث صحف يومية بنشر عرائض (استدعاءات) ضد الانتداب موقعة من قبل كل من هب ودب ، إلا أنها آثرت الالتزام بالصمت حيال نشر أخبار عن مطالب محددة تقدم بها كبار الشخصيات لصالح نظام الانتداب . بالإضافة إلى ذلك فإن ما يتعرض له الرائد ييتس من هجمات شرسة تفوق حد التصديق بسبب تشجيعه لحركة

مناوئة للحكومة العربية ، وبذلك فإنها (الهجمات) ستواجه بإعلان رسمي يُعبر عن الثقة التامة به . وقد عمدت وزارة الداخلية إلى وضع الحظر على إحدى هذه الصحف الثلاث التي أتوقع أن تكون كلها مأجورة من قبل ذلك البعبع الحرون (كذا) الشيخ مهدي الخالصي(٩) ، أحد المعممين الذين أود حبسهم في قمقم .

(٩) كان للشيخ مهدي الخالصي ، وولده الأكبر محمد ، موقف مناوئ للعائلة الهاشمية لوقوفها في الحرب إلى جانب الإنجليز «الكفار» . وبإمكان من يطلع على نصوص مذكرات الشيخ محمد مهدي الخالصي (المخطوطة) إدراك حجم هذا الموقف والتعرف على مسبباته . وكان فيصل يدرك تماماً أن الحصول على بيعة المجتهد الكبير ، الشيخ مهدي الخالصي ، كان جانباً ضرورياً في إطار استكمال المتطلبات الأساسية لبيعته .

وينقل الأستاذ الدكتور علي الوردي في الجزء السادس من كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» نص ما أورده الشيخ محمد مهدي الخالصي في مذكراته فيما يتعلق ببيعة والده الشيخ مهدي لفيصل . ويتضح من السياق أن فيصل كان قد طلب في حينه الاختلاء بالشيخ مهدي وبين له أنه (أي فيصل) إنما جاء لينقذ العراق من الإنجليز ، وإن ذلك لا يمكنه أن يتم في غياب موافقة من لدن الشيخ المذكور ومبايعته . وقد جاءت بيعة الخالصي في النهاية مشروطة بأن يكون فيصل «ملكاً على العراق مقيداً بمجلس نيابي ، منقطعاً عن سلطة الغير ، ومستقلاً معه بالأمر والنهي .» وهو ما جاء في نص كتاب البيعة الذي نشرته جريدة العراق في عددها الصادر في ١٩٢١/٧/١٦ . ويعتبر الأستاذ الوردي أن حصول فيصل على بيعة الشيخ مهدي الخالصي في الكاظمية هو أهم نجاح حققه في مضمار إجراءات وصوله إلى عرش العراق . إلا أن ذلك تبعه عدد من المواقف التي لم يترتب عليها سوء التنافر بين الاثنين ، الذي يعزى أساساً ، وحسب تصوري ، إلى الإخفاق في النظر إلى وضع فيصل بشكل موضوعي .

وبذلك فإننا عندما ننظر إلى موقف الخالصي والعناصر التي كانت تؤيده ، لابد لنا في الحين ذاته من النظر إلى مواقف العناصر المؤيدة لفكرة الانتداب وإلى مواقف الإنجليز بوجه عام لندرك صعوبة موقف الملك فيصل الذي لم ينصفه العراقيون عموماً ، سواء كانوا من مؤيدي الإنجليز أو من مناوئيهم ، وكما لم ينصفه الإنجليز بدورهم أيضاً . ففي الوقت الذي اتهمه الوطنيون بخدمة مصالح الإنجليز ، اتهمه الأخيرون هؤلاء بانقلابه عليهم بعد تتويجه . وفي الحقيقة فإنه ، وعلى نحو ما بينه أمين الريحاني في كتابه «فيصل الأول» ، لم يكن كما وصفه أي من الطرفين أنفي الذكر ، بل كان في الواقع ينشد التوفيق بين مطالب العراقيين وتطلعاتهم من جانب ، ومصالح الإنجليز من جانب آخر ، أخذاً بنظر الاعتبار ضرورة الحفاظ على عرشه ، وبالتالي مصلحته الخاصة ، وهو أمر مشروع إذ أن ذلك ديدن الحكام في كل زمان ومكان ، ولابد للحكم عليهم أن يتم على ما أعتقد وفق ما يحققون من أداء في إطار المذهب النفعي ، أي النجاح في تحقيق أعظم قدر من الخير لأكبر عدد من الناس ، وهذا باعتقادي ما سعى إلى تحقيقه الملك فيصل وخلفاؤه من بعده ، ومن عمل معهم من الساسة ورجال الدولة بوجه عام - المترجم

وفي الحين ذاته يرفض ابن سعود القبول بالشروط الخاصة بالمعاهدة بين العراق ونجد . إلا أنه قام بتوجيه برقية إلى السير برسي يلتمس من خلالها لقاءه في مكان ما من أجل الاستئناس بتوجيهاته حول السياسة التي ينبغي له (أي لابن سعود) اتباعها فيما يتعلق بكل من الحجاز والعراق وشرق الأردن . وبهذا الصدد ، يخامرني شعور بأن هذا النهج المشاكس من لدن ابن سعود لم يأت بمعزل عن مغامرات السيد فلبي الطائشة . بعد وصوله (فلبي) إلى الجوف أبرق إلى بغداد طالباً الإذن بالمجيء إلى العراق من أجل إجراء دراسة ميدانية تستهدف إمكانية مد خط حديدي ثان(١٠) ، وبدلاً من الانتظار لحين ورود جواب من بغداد فإنه انطلق

(١٠) راودت القيادة البريطانية فكرة مد خط سكة حديدي عبر الصحراء يربط منطقة الخليج العربي بمناطق البحر الأبيض المتوسط التي تخضع للسيطرة البريطانية . وكان فلبي عند تعيينه بوظيفة الممثل البريطاني الأقدم في إمارة شرق الأردن قد اتفق مع العقيد لورنس على محاولة إدخال وادي سرحان (الذي يمتد جنوباً إلى واحة الجوف ويمتد شمالاً إلى نقطة لا تكاد تبعد أكثر من خمسين ميلاً عن العاصمة عمان) بأكمله ضمن حدود إمارة شرق الأردن . وقد جاء هذا الاتفاق منسجماً مع تصور القيادة البريطانية حول إنشاء الخط الحديدي الصحراوي آنف الذكر ، لا سيما أن مثل هذا الخط من شأنه أن يجنب البريطانيين الدخول إلى المناطق التي تسيطر عليها فرنسا وصولاً إلى البحر الأبيض المتوسط .

إلا أن الجانب الغريب بالأمر هو أن فكرة مد الخط الحديدي كان يعتبر في هذا الوقت بالذات (أي بحدود الفترة المحصورة بين شهري أيار وحزيران من عام ١٩٢٢) أمراً بعيد التحقيق وذلك إدراكاً من القيادة البريطانية أن سيطرة السلطان عبد العزيز ابن سعود على المناطق الشمالية للجزيرة العربية ، بما في ذلك وادي سرحان ، كاد يكون أمراً مفروغاً منه لاسيما بعد أن نجح في ضم عسير وحائل وجبل شمر إلى ملكه . ومن جانب آخر كان البريطانيون يدركون جيداً أن معارضة تنفيذ هذا الخط كان يشكل هدفاً تلتقي فيه مصالح كل من السلطان عبد العزيز ابن سعود والسلطات الفرنسية لأسباب واضحة . وانطلاقاً من ذلك ، فإن السؤال الذي يطرح نفسه بهذا الصدد يتمحور حول الدافع الرئيسي لتوجه فلبي إلى الجوف لاسيما إذا ما أدركنا أن رحلته هذه قد سبقت بأيام معدودات سيطرة رجال السلطان عبد العزيز ابن سعود عليها ، وهو من بين الأسئلة المحيرة التي تحتاج إلى بحث ودراسة . لقد وصفت هذه الرحلة بأنها «حركة بهلوانية» . وهذا ما بينه رفيق دراستي الجامعية معالي الدكتور معن باشا أبو نوار في المجلد الأول من كتابه العلمي «تاريخ المملكة الأردنية الهاشمية» عندما أوضح ما مفاده أنه لم يعثر على أدلة تمكنه من الإجابة على هذا التساؤل . ترى هل كان فلبي يسعى حقاً إلى ضم وادي سرحان إلى إمارة شرق الأردن ؟ إن سياق توجهاته لا تدل على ذلك أبداً . هل هي جزء من مخطط بريطاني عام تختلف مظاهره عن بواطنه ؟ ومن المحتمل جداً أن ما خامر الآنسة جيرترود بيل من شعور بهذا الصدد لم يكن بعيداً عن الحقيقة - المترجم

في طريقه إليها وفي أثناء توجهه إلى بغداد ، لم يكن على علم بدوي الأوامر التي راحت تنهمر عليه من قبل المندوبين الساميين (في كل من بغداد والقدس) والوزراء (البريطانيين) المعنيين ، وتوعز إليه بضرورة العودة إلى عمان فوراً ، وهذا ما علمه عند وصوله إلى مدينة كربلاء ؛ لم يأذن وزير الخارجية (البريطاني) له بالتوجه إلى بغداد ، ونتيجة لذلك تم على الفور تسفيره جواً إلى عمان ، حيث على ما آمل وأرجو ، سيتلقى ما يستحق بجدارة من لوم وتقريع . ولابد أن ندرك مدى سرعة انفعال ابن سعود وحساسيته إزاء موضوع منطقة الجوف والطرف الذي ينبغي له بسط سيطرته عليها ، بينما يحاول فلبي التأكيد على أن يتم ذلك لصالح الأمير عبد الله بن الحسين . أما بقدر تعلق الأمر بنا هنا ، فإن آخر ما نريده هو تورط العراق بهذا النزاع الذي لا يعنيه أمره بالأساس . وفي حال تم مد الخط الحديدي آنف الذكر ، من المؤكد أن المشروع لن يغطي التحويلة الطويلة التي تصل إلى الجوف .

نواجه كارثة أخرى في السليمانية – فقد خسرنا ضابطين من ضباطنا البواسل بسبب غدر أحد الأغوات الأكراد الذي كان يحاول قتل مسؤول كردي فصب جام غضبه على الضابطين المذكورين اللذين جاءا لتسوية الأمر معه فأرداهما قتيلين . ياله من ثمن باهظ ندفعه من أجل استرداد هذه الأرض التي لا تراعي حرمة القانون و التي لا سلطة للقانون عليها بالأساس .»

وفي رأس الصفحتين الأخيرتين من هذه الرسالة دونت جيرتروود الملاحظة التالية : «آخر خبر – الثامنة صباحاً .» وندرج هنا النص الكامل لكل منهما :

«زارني قبل قليل السيد حسين أفنان سكرتير مجلس الوزراء ليخبرني عن النقاش (الذي تم في المجلس) الذي لم يسفر عن شيء . بعد قراءة نصوص المعاهدة حث وزير العدلية عبد المحسن بك (السعدون) على القبول بها ، بينما بين وزير الداخلية توفيق بك (الخالدي) أنه في الوقت الذي يدرك ما للقضية من أهمية ، فإنه يرى ضرورة في الإشارة إلى أن نسبة ٩٥٪ من مجموع أبناء الشعب يعارضون معاهدة ينطوي مضمونها على فكرة الانتداب . أما النقيب فقد سأل جعفر باشا ما إذا كان جيشه مستعداً لقمع الاضطرابات ، إلا أن جعفر أجابه أن العربي لا يميل إلى مقاتلة عربي آخر . بعد ذلك تكلم وزير التجارة جعفر أبو التمن ، الذي يعتبر لبرجل الشرير[11] (كذا) في إطار هذه المجموعة . كان يجلس

(١١) هذا ما دأبت الآنسة بيل قوله عن العناصر التي كانت تقف مناوءة لأية صيغة من صيغ الممارسات البريطانية . ومما يثير العجب أن هذه الامرأة العاملة ، المهذبة ، ذات الحس المرهف والتوجه الإنساني الذي ينطوي بالتأكيد على مبدأ القبول ب «الآخر» ، أو يفترض بها أن تكون كذلك ، تلجأ إلى مثل هذه النعوت بحق رجال مثل السيد جعفر أبو التمن الذين هم ، بفضل مواقفهم وتطلعاتهم ، في غنى عن أي تعريف – المترجم

صامتاً منصتاً وكأنه مكلف بتقديم تقرير عما يشهده إلى رؤسائه علماء الشيعة . وكان أعضاء المجلس ، باستثناء عبد المحسن السعدون وساسون حسقيل ، يراقبونه من طرف عيونهم بحذر وخوف . قال أبو التمن إن إقرار الأمر هذا يقع خارج صلاحيات مجلس الوزراء وبذلك لابد من إحالته إلى المؤتمر . إن السادة ، وعُمُد الدين ، يقفون ضد المعاهدة . وإزاء ما قاله أبو التمن علق ساسون أفندي قائلاً إن إجراء الانتخابات يتطلب وقتاً طويلاً ، ولابد للمجلس أن يطرح شيئاً على المؤتمر(١٢) ، وعليه أقترح التوقيع على المعاهدة على أن يخضع تنفيذها لتصديق المؤتمر . وبعد أن جرى نقاش على مدى ساعتين دون التوصل إلى نتيجة ، تقرر تأجيل النظر في الأمر إلى يوم السبت !

ويرى حسين أفنان أن النقيب غير قادر على اتخاذ قرار بسبب معاناته من شلل قواه العقلية .

لقد حان الوقت لقيام ناجي السويدي وجماعته بالعمل . وإنني واثقة ، بقدر ما يمكن لأي شخص أن يكون واثقاً في إطار الجوانب السياسية ، من أنهم سيحققون النجاح . وأنا بدوري أشعر وكأنني ملاك حافظ(١٣) أراقب نضال الروح باتجاه تحقيق الخلاص .

أبتاه ! هل بإمكانك التساؤل عن سبب دأبي على البقاء هنا ، برغم عظيم رغبتي في أن أكون معك؟»

وفي السادس من تموز كتبت تقول : « مضت فترة أسبوعين شهدنا من خلالها تذبذباً في توجهات الملك وممارساته ، وكيف أنها كانت تصل من وقت إلى آخر إلى أدنى مستوياتها . وقد تركتك في رسالتي الأخيرة عند الوقت الذي راح الوزراء فيه يواصلون تأجيل النظر في المعاهدة ، وأعقب ذلك تصاعد وتائر الحركة والضجة ، وتجمعت في بغداد عناصر مناهضة للانتداب من بين شيوخ الفرات وسادته ، وفي صباح السبت توجه جمع من أبناء المدن - من الشيعة - إلى زيارة النقيب منذرين بما سيترتب على توقيع المعاهدة من عواقب وخيمة . وقد قام الملك باستدعاء جعفر أبو التمن ليخبره بأن النية معقودة على إلغاء

---

(١٢) العبارة الواردة في النص الإنجليزي هي Congress ، وإن المقصود بها على ما أعتقد هو المجلس التأسيسي ، وقد عمدت إلى ترجمتها كما وردت نصاً - المترجم

(١٣) ويسمى أيضاً الملاك المُحصي ، أي الملاك الذي يُحصي على الإنسان أعماله - المترجم

وزارته (التجارة) وفق توصية لجنة جديس[١٤] Geddes Committee ، وبأن عليه تجنب حضور جلسات مجلس الوزراء ، ويفضل قيامه بالتمتع برحلة ينشد من خلالها الراحة والاستجمام . وعليه قام السيد جعفر أبو التمن بإعلام زملائه الوزراء بأنه مريض . بعد ذلك وافق الوزراء مثل الطيور على التوقيع على المعاهدة !

وقد تم التأكيد على هذا القرار في اجتماع خاص عقد في اليوم التالي ، أي يوم الأحد . وفي صباح الاثنين توجه المعارضون للانتداب إلى الكاظمية للتشاور مع علامتهم ومصدر وحيهم وإلهامهم ، الشيخ مهدي الخالصي ، الذي أخبرهم بأن الملك لم يف بالتزاماته التي تم بموجبها مبايعته للعرش ، أي وعده بالمحافظة على استقلال العراق ، وبذلك يعتبر قسمهم بالولاء له ملغىً وباطلاً . ثم التفت للحديث عن الحكومة العراقية فقال إن الإنجليز كانوا يحكمون البلد قبل تشكيلها ، وإنهم لا يزالون يحكمونها ، إلا أن ذلك يتم الآن من خلال شرذمة من المبذرين ، المنافقين - وبذلك فإن الحالة الثانية هذه أسوأ من سابقتها .

ولابد لي من إخبارك بأن السيد جعفر أبو التمن حضر اجتماع المجلس الذي عقد في يوم الأحد ، وعمد إلى تثبيت معارضته ضد المعاهدة في محضر الجلسة . وإزاء هذا التصرف أقسم الملك على أن ذلك قد تم من غير علمه ، ولكنني لا أصدق ما يقول ! بعد ذلك قدم جعفر استقالته بكل تباه ، ولكنه عاد لحضور جلسة يوم الثلاثاء . لقد أرسل الملك خبراً إلى النقيب طالباً منه بصورة خاصة التريث في قبول استقالة جعفر أبو التمن ، ويقول الملك بهذا الخصوص إن إجراءه قد استهدف منع اندلاع انفجار شعبي محتمل ، وهو عذر إما غير صحيح بالمرة أو خلاف المعقول ، ذلك لأن الجميع كانوا على علم باستقالة جعفر أبو التمن ولم يعرها أحد أي اهتمام بالمرة .

وفي يوم الثلاثاء ذاته راجت إشاعة مفادها أن ثمة مظاهرة كبيرة قد تقرر القيام بها . ومرة أخرى عمد الملك إلى إبراز قوته من خلال القيام باستدعاء المتطرفين وتحذيرهم من أن كل من يعمد إلى التحريض على القيام بالمظاهرات سيتم توقيفه . وفي نفس الوقت أبرق السير برسي إلى بوشهر مستفسراً عن حال السجن في جزيرة هنجام وما إذا كان في حال جيد - وهو المكان الذي أرسِل إليه متمردي عام ١٩٢٠ . وبما أن منطوق البرقية قد تم إعداده بدقة متناهية ، وبوضوح لا يقبل الشك ، فإن خبرها سرعان ما انتشر في إرجاء المدينة كالنار

(١٤) لجنة شكلها المندوب السامي البريطاني لغرض دراسة الحالة الاقتصادية في العراق - المترجم

في الهشيم ! وكانت فرحة السير برسي عظيمة ؛ لم يحدث شيء بالمرة ![15]

بعد اجتماع يوم الثلاثاء ، وافق النقيب على استقالة السيد جعفر أبو التمن من غير الاستئناس برأي الملك الذي كان قد طلب منه عدم قبول الاستقالة ، إلا أن ذلك جاء بعد فوات الأوان . وتبقى مسألة سفره إلى خارج البلاد أمراً معلقاً ، وسأصدق خبر رحيله فقط عندما أسمع أنه موجود في بومباي ![16]

لعلك تظن ، تماماً مثلما كنا نظن أيضاً ، بأن إقرار المعاهدة في جلسة يوم السبت يعني نهاية كل شيء ، اللهم إلا باستثناء إطلاق الهتافات ؟ كنا نشاهد مباراة في لعبة البولو عدت عند انتهائها بصحبة الرائد موري عن طريق شارع الأعظمية[17] باتجاه بغداد . وبينما كنا على بعض الطريق التقينا سيارة تحمل شخصاً كان وجهه يشع كالقمر . ولم يكن الشخص هذا سوى صبيح بك (نشأت) وزير الأشغال والمواصلات الذي لوح لنا محيياً ثم استوقفنا ليخبرنا ، لاهثاً ، بأن المجلس قد وافق على القرار . وما هي إلا لحظات بعد ذلك حتى التقينا سيارة أخرى كان وجه راكبها يتلامع كالشمس . إنه توفيق بك (الخالدي) وزير الداخلية الذي أخبرنا بالشيء ذاته ! بعد ذلك واصلنا طريقنا ونحن ننفجر ضحكاً إذ أن مثل هذه الأمور لا يمكن أن تحصل في بلد آخر غير العراق حيث يستوقفنا وزراء ليخبرونا بآخر ما تم في مجلسهم من أعمال وآخر ما تم اعتماده من مقررات .

---

(١٥) لم تجر في ذلك اليوم أية مظاهرة مما جعل كوكس يتصور أن برقيته كانت سبباً في إخافة الناس ، إلا أنه كان على خطأ إذ أن صحف المعارضة لم تشتد في حملاتها المناوئة للانتداب فحسب بل أخذت تنشر العرائض المعادية له كذلك - المترجم

(١٦) أود بهذا الصدد طرح عدد من الأسئلة الدالة : ألم تدع الآنسة بيل في مكان سابق أن أحداً لم يعر استقالة السيد محمد جعفر أبو التمن أي اهتمام ؟ فلماذا إذاً تقول ما مفاده أنها لن يهدأ لها بال إلا بعد أن تسمع خبر وجوده في بومباي ؟ هل يمكن لشخص عديم الأهمية أن يشغل بالها إلى الحد هذا ؟ وفيما يتعلق بالاجتماع الذي عقد عند الشيخ مهدي الخالصي ، والذي تشير إليه الآنسة بيل في رسالتها ، ألم يأت في ذات اليوم الذي قدم فيه أبو التمن استقالته ، أي في ١٩٢٢/٦/٢٦؟ وإذا ما وضعنا جانباً إعلان الشيخ الخالصي بأن البيعة للملك قد باتت لاغية ، ألم يتوتر الوضع في بغداد والكاظمية وترددت أخبار عن نية قيام زعماء المعارضة بمظاهرة كبيرة ؟ وبعد هذا كله هل يمكن لنا أن نقول أن استقالة أبو التمن لم تحض باهتمام أحد ؟ - المترجم

(١٧) شارع الإمام الأعظم في يومنا هذا - المترجم

إلا أن تخميناتنا لم تأخذ موقف مليكنا بعين الاعتبار ، ذلك لأنه أرجأ منح موافقته على قرار وزرائه إلى حين إدخال تعديلات على النص العربي للمعاهدة . وكانت هناك أربع محاولات ، حسب علمي ، أراد الملك من خلالها إرسال إشارات سرية إلى وزرائه يطلب منهم عن طريقها أن يضيفوا إلى مضمون موافقتهم ما من شأنه أن يشكل نقضاً للانتداب وذلك على الرغم من أنه كان قد أبلغ مراراً وتكراراً من قبل السير برسي بأن الأخير هذا يرفض رفضاً باتاً إرسال أي قرار إلى حكومته يحمل بين طياته مثل هذه الأفكار . وفي يوم الأحد - أي اليوم الذي تم فيه إقرار المعاهدة من قبل مجلس الوزراء - استدعاني الملك لمقابلته ، فذهبت في الساعة الخامسة لأجد أمامي كل الشيوخ المعارضين للانتداب . إلا أن الملك بعث لي برسالة يطلب مني الانتظار . وما هي إلا دقائق معدودات حتى ظهر أمامي ، منفعلاً ، ليخبرني بأنه استطاع أن يحصل منهم على تعهد بترك تدبير الأمور له وإطاعة أوامره . ترى ما طبيعة تلك الأوامر التي أصدرها لهم ؟ وكل ما يمكنني قوله بهذا الصدد هو أن أربعة منهم توجهوا إلى النجف حيث انهمكوا بجمع التواقيع على عرائض (استدعاءات) ترفض الانتداب .

وفي نفس الوقت تجمع في بغداد عدد من الشيوخ المؤيدين للانتداب ، وقد استقبلهم الملك بحفاوة بالغة - برغم ما يكنه لهم في نفسه من كره - إلا أن رجال الحاشية في البلاط عمدوا إلى التلميح لهم بأنهم غير مخلصين . وقد استشطت غضباً عندما أخبروني بأنهم أثناء الانتظار في الصالة المخصصة للضيوف راح عدد من الشيوخ المعارضين للإنجليز يقرؤون بصوت عال ما كتبته الجرائد المحلية الممقوتة ، ويمزحون مع بضعة من صغار موظفي البلاط حول قرب احتمال أن يصبح النفوذ البريطاني مختصراً على شخص المندوب السامي وسبع طائرات فقط .

وهكذا مر أسبوع من الزمن . وفي يوم الاثنين ، الثالث من شهر تموز ، وافق مجلس الوزراء ، وللمرة الألف ، على الصيغة النهائية للمعاهدة مع إصدار قرار بعدم قبوله بأي تعديل آخر لها . وقد لا تصدق بأن الملك أثار بعد ذلك اعتراضاً يتعلق بضرورة إجراء تعديل على النص الإنجليزي للمعاهدة . وإزاء ذلك بدا المندوب السامي مُحبطاً وقلقاً بشكل لم أشهد له مثيلاً من قبل . وأخيراً وافق السير برسي على صيغة يمكنه إرسالها إلى الحكومة البريطانية شريطة أن لا يطرأ عليها أي تعديل آخر . إننا بانتظار الجواب .

توافرت لدينا أدلة على مدى عشرة أيام تشير إلى انصراف الملك إلى التعامل بمكيالين . وإن ما نشرته الصحف المحلية يوم أمس لم يكن سيئاً فحسب بل كان في الواقع أسوأ من أي

شيء لا يطاق ! فقد نشرت أخبار عن العرائض التي قدمت في النجف ، كما جددت الحملات الموجهة ضد الشيخ علي السليمان[١٨] ، وهي حملات بدأت تُشن ضده منذ فترة معينة ، كما أعلنت أن قادة الشعب يستنكرون البرقية التي وجهها وزير الخارجية إلى الرائد ييتس يعلمه من خلالها بأنه موضع ثقة الملك وحكومته . وقد وقفت وزارة الداخلية مغلولة اليدين إزاء ما نشرته الأسوأ من بين الصحف المحلية بسبب ما تتمتع به الصحيفة هذه من دعم من لدن البلاط الملكي .[١٩] وفي المساء التقيت نوري باشا صدفة فأخبرته بأنني أعتبر موقف الملك يمثل سلوكاً لا يمكن تبريره ، وعليه لن تربطني به أية علاقة بعد ذلك . وقد قام نوري باشا بإعلام الملك بذلك فسارع الأخير هذا إلى دعوتي لتناول الشاي معه عصر ذلك اليوم ، إلا أنني التمست منه إعفائي من الاستجابة للدعوة . وبعد ساعتين من الزمن اتصل بي السيد كورنواليس ليخبرني بأن جلالة الملك يشعر بالارتباك إزاء رفضي قبول دعوته على الشاي الذي لا يدرك له سبباً ، وبذلك أشار علي بضرورة قبول الدعوة ومصارحته بأسباب الجفاء ، فذهبت .

استقبلني الملك بحرارة سارعت إلى إخماد جذوتها بإعلامه بأنني قد أتيت بالرغم من كل شكوكي ومخاوفي ، و من دون قناعة تامة بصواب مجيئي . تلى ذلك حوار دار على مدى ربع ساعة ، وتميز بالعنف والشراسة ، وانتهى بتأكيدي على حقيقة أنني لم أصدق كلمة واحدة مما قال . بعد ذلك لاحظت أنني إذا ما تركته وانصرفت ونحن على هذه الحال ، من المحتمل جداً أن تكون المناسبة هذه آخر لقاء بيننا ، وبذلك وجدت من الضروري أن نتوصل إلى صيغة معينة للعمل ، وهو ما وافقني هو شخصياً عليه . بعد ذلك رحت أبين له ما توافر لدي من الأدلة التي تدينه وتدين بلاطه . لم يحاول الدفاع عن بلاطه ، إلا أنه اعترف بأنه قد عمل ، وسيواصل العمل ، ضد القبول بمبدأ الانتداب . وهنا بينت له أن من خلال قبوله بالمعاهدة يكون قد قبل بالانتداب ضمناً ، وأن كل ما يستطيع عمله هو أن

---

(١٨) حول ما يتعلق بالشيخ علي سليمان بهذا الصدد جاء في المجلد الأول من سلسلة تاريخ الوزارات العراقية للعلامة الأستاذ عبد الرزاق الحسني (الطبعة الخامسة - ص ١٠٥) ما يلي : « . . وفي لواء الدليم شرع الوطنيون في إذلال الشيخ علي السليمان أكبر أعوان الإنجليز في اللواء» - المترجم

(١٩) لعلها جريدة «لسان العرب» لصاحبها المرحوم الأستاذ إبراهيم حلمي العمر (جارنا في محلة العيواضية في بغداد) وهي جريدة صدرت في حزيران من عام ١٩٢٢ وعرفت بدعمها لجلالة الملك فيصل الأول ، إلا أنني لست متأكداً تماماً من ذلك فهو مجرد تخمين ليس إلا - المترجم

يطلب منا مساعدته على الخلاص منه ، وهو جانب نحن على أتم استعداد للتعهد به . ومن جانب آخر نبهته إلى واقع أن أتباعه لم يعبروا عن قبولهم بالمعاهدة بل انهمكوا في رفض الانتداب ، أما أتباعنا فإنهم جعلوا القبول بالمعاهدة مبدأهم الأساسي في العمل ، وإزاء ذلك سألته عن الاتجاه الذي تنشد سياسته السير فيه؟ أظنني قد أصبت هدفي على ما أرى ! ثم واصلت حديثي بالقول أن عليه إزالة العقبات من بلاطه ، والموافقة على نقل مسؤولين من منطقة الحلة ، عرباً وبريطانيين على حد سواء ، بسبب قيامهم بأداء مهامهم الإدارية بدافع من منطلقاتهم وولائاتهم الحزبية .

وأخيراً ، وبعد ساعتين من النقاش ، ضمني إلى صدره بحرارة لينفض اجتماعنا عن قيام علاقة انطلقت من أسس غير متجانسة جمعت بين تقارب وجداني واختلاف سياسي! ولابد لي الآن من إقناع نوري باشا بضرورة قيامه بتوكيد أهمية اتهاماتي .

قد ننجح في دفع الملك إلى السير باستقامة (كذا) أثناء حملة الانتخابات من أجل الحصول على مجلس وطني (مجلس أمة) يضطلع بمهمة التصديق على المعاهدة ، من غير رفض للانتداب ، لنتوجه بعد ذلك إلى الله بالدعاء من أجل أن تستجيب حكومة جلالة الملك (البريطانية) لرغبة الحكومة العراقية و تعمد إلى إلغائه . وهذا ما نحن على أتم استعداد للقيام به بسبب كون الانتداب هراءً أوكلاماً فارغاً ليس إلا . ولكننا سنواجه معارضة مُرة من قبل الفرنسين ، والله أعلم ما سيكون من أمر الانتداب على فلسطين (وهو جانب لا يهمني بالمرة) . وإذا ما أخفقنا في توجهنا هذا سيفلت منا زمام الأمور ، وتتفجر الأوضاع في العراق ، ويخسر فيصل عرشه الثاني . ترى أين سيجد له عرشاً ثالثاً ؟

في هذه اللحظة أشعر بأنني مرهقة معنوياً!

بعد أن تقوم جيرتروود بإعطاء ذويها صوراً مفصلة عن سفرات قامت بها ، وحفلات عشاء حضرتها ، تكتب قائلة : «تم أستدعاء الرائد موري على عجل إلى الوطن بسبب مرض والدته . إنه أحد أفراد شلة السباحة ، أما الآخرون فهم كورنواليس ودايفدسون ، وسنفتقده كثيراً .»

أصبحت أيريس دايفدسون Iris Davidson ، زوجة نايجل دايفدسون ، صديقة جيرتروود المقربة ورفيقتها الغالية .

وفي ختام هذه الرسالة الأخيرة تقول جيرتروود : «أود القول أن ثمة سُحب تتجمع في شمال البلاد ، فالأتراك يحشدون قوات في مدينة وان Van ، وذلك إلى جانب ما أرسلوه من تعزيزات جديدة إلى منطقة راوندوز . فضلاً عن ذلك هناك حملة دعائية تستهدف

القبائل الكردية وبذلك فإن قيادتنا العامة للجيش تعتبر هذا الوضع خطيراً . أما في مدينة السليمانية فإننا لم نستطع حتى الآن من إلقاء القبض على قتلة النقيبين بوند Bond وماكانت Makant اللذين كانا على اتصال وثيق بالأتراك في راوندوز .

أبتاه الحبيب - آمل أن لا تعارض رغبتي في ائتمانك على كل ما أقوم به من فعل ، وكل ما يدور في رأسي من فكر . أجد من الصعب جداً إدامة قدرتي على أن أكون منصفة ، وأتحلى بالصبر - كم أتمنى لو أن شخصاً آخراً أكثر حكمة مني يتولى مهام منصبي ، إلا أنني لا أعتقد أن هناك من يرغب في تكريس حياته وقدراته لخدمة مصالح العراق ومستقبله أكثر مني .»

وفي السادس عشر من شهر تموز كتبت تخاطب أباها قائلة : « أين انتهيت في رسالتي السابقة ؟ أنهيتها على ما أظن ولم يكن قد مضى وقت طويل بعد على آخر مشهد عاصف كان لي مع الملك ، أليس كذلك ؟ إن جهودي لم تخل من نتائج جيدة . إنه لا يزال على نهجه المُتعب فيما يتعلق بالمعاهدة ، إلا أن ذلك بات يتم بشكل صريح وعلني بكل الأحوال . إنه يقوم الآن بتوجيه كل القرارات الصعبة التي يريد من مجلس الوزراء اعتمادها إلى السير برسي ، وبذلك يصبح لدى الوزراء علم بأن المندوب السامي قد رفضها من قبل أن تأتيهم توجيهات الملك ، وبذلك فإنهم يعمدون بدورهم إلى رفضها ، لينصرف الملك بعد ذلك إلى النظر في شيء آخر !

وافق السير برسي في الأسبوع الماضي بالتأكيد على إرسال التعديل الأخير (على المعاهدة) إلى الوطن إلا أنه جوبه برفض من لدن وزير الخارجية (البريطاني) ، وهو رفض أضطر مجلس الوزراء إلى جرعه . بعد ذلك توجهنا إلى الملك مستفسرين منه عما ينوي القيام به الآن . وكان الملك أثناء ذلك قد أعد لقاءً مُوعزاً به مع ممثلي الصحف المحلية تم من خلاله شرح ما تنطوي عليه المعاهدة وفكرة الانتداب التي تتضمنها من أهمية ، ومن ثم التأكيد على أن العربي الشريف لن يُؤمر أبداً من قبل الأجنبي . وإزاء ذلك علق السير برسي قائلاً أن بإمكان أي مهندس ري مستخدم من قبل الحكومة العراقية (على سبيل المثال) توجيه أمر إلى أي نبيل عربي يعمل بإمرته وعلى الأخير هذا الامتثال للأمر وتنفيذه . ثم أضاف قائلاً أنه في حال تم نشر وقائع هذا اللقاء فإنه سيوقف المفاوضات الجارية بشأن المعاهدة . وقد تم إعلام مجلس الوزراء بموقف دار الأعتماد من اللقاء وعبر أعضاء المجلس بدورهم عن استنكارهم له .

وقد اقترح السير برسي على أعضاء مجلس الوزراء (الذين كانوا بصدد مداولة حيثيات

اللقاء سالف الذكر) ضرورة التصريح بأن المعاهدة تعتبر الوثيقة الوحيدة بين الحكومتين البريطانية والعراقية ، مبيناً في الحين ذاته بأن لهم ، إذا ما شاءوا ذلك ، أن يعبروا عن أملهم بإمكانية قيامنا (نحن البريطانيين) بمساعدتهم على إقناع عصبة الأمم بإلغاء الانتداب . إلا أن النقيب لا يحبذ هذه الفكرة لما تنطوي عليه من اعتراف ضمني بوجود الانتداب - ياله من نعامة! ويواصل الملك محاولاته لمداورة صيغة القرار (قرار مجلس الوزراء) بما يوحي رفض الانتداب ، إلا أن المندوب السامي ، بكل ما عرف عنه من يقظة وحذر ، أبرع من أن يقع في مثل هذا المطب . وهكذا تتواصل اللعبة !

وإذا ما بدا الأمر مجرد لعبة هنا في بغداد ، فإنه يأخذ طابعاً خطراً على ضفاف نهر الفرات حيث يمارس الموظفون العرب هناك مهامهم الإدارية وفق توجهات حزبية - أي مناهضة للانتداب . ويكاد يكون كبار شيوخ القبائل مؤيدين للانتداب إلا أنهم يلمسون الكثير من المضايقات والتعامل الجاف على أيدي المسؤولين الإداريين العرب مما قد يؤدي إلى نفاد صبرهم . وقد ارتكبت جريمتان من قبل بعض المناهضين للانتداب من الشيوخ لأسباب سياسية بحتة .

إنني على قناعة تامة بعدم وجود أية دولة في العالم يمكنها تنفيذ مبدأ الانتداب وتطبيقه بنجاح . لقد قام الفرنسيون ، أولاً وقبل أي طرف آخر ، بتلويث سمعة الانتداب في سوريا وقد تبعناهم نحن بدورنا لنكون ثاني طرف يقوم بذلك بالنسبة لفلسطين .

إنني على معرفة وثيقة بفكر فيصل ، وما يصبو إلى تحقيقه من أهداف : ١- إنه يسعى إلى رفض الانتداب هنا كخطوة أولى لرفضه في سوريا . ٢-إنه يزمع الانصراف إلى إقناع العالم الإسلامي بأن دولة عربية مسلمة قد برزت إلى حيز الوجود . ٣ - إنه ينوي استعادة الخلافة ووضعها في أيادي عربية - وهو منهج مناسب لنا تماماً لأنه يحمل في طياته قيام دولة ، أو دول ، عربية صديقة تقع بشكل ملائم على الحدود الغربية لآسيا وتشكل حلقة وصل بين طرفنا البحرية من جانب والمناطق الداخلية للقارة من جانب آخر ، كما أنها تخضع بقية العالم الإسلامي - إذا ما قدر لها ذلك ، وهو أمر يهمها بالذات - لسلطة خليفة واحد . فهل يمكننا تصور أي ترتيب أفضل من ذلك ؟ إلا أنه وضع لا مكان للفرنسيين فيه ، كما أنه يبقى الصهاينة في ذات المكان .»

ومن خلال حضور مأدبة غداء استضافها الملك وحضرها معلمه القديم ، صفوت باشا العوا ، وجدت جيرتروود في الأخير هذا حليفاً جديراً بالثقة ، وبذلك نجدها تقول : « ليحمه الرب ، إنه سيكون عوناً كبيراً لي . وقد زارني في اليوم التالي في مكتبي ليرجو مني زيارة

قصر الملك كلما استطعت إلى ذلك سبيلاً باعتباري الشخص الوحيد هنا الذي يحب الملك حقاً ، ويسعى للعمل في سبيل مصلحته ، والذي يحبه الملك بدوره أيضاً . وقد بينت لصفوت باشا إن كلامه هذا لا ينصف السيد كورنواليس الذي قد بذل الغالي والرخيص في سبيل خدمة الملك ، والسهر على مصلحته ، إلا أن أنه أصر على موقفه هذا موضحاً أنني أختلف عن كورنواليس ، وإن الملك يميل إلى الإمساك بيدي ، وإن كان يعانق كورنواليس في أحيان أكثر - وهكذا رحنا أنا وصفوت باشا نتطارح الأفكار ونتبادل الآراء !

قد يبدو هذا الكلام طفولياً بيد أنه صحيح . لا يمكنك التعامل مع فيصل إلا بعد أن يحس بشكل أكيد بأنه قد استحوذ على محبتك ، و مودتك الخالصة . لقد فاز فعلاً بمودتنا وعطفنا ، وهو شعور يعمل لصالح الطرفين ، وهذا ما ينبغي له الاعتراف به .

شهدت ليلة أمس حدث الأسبوع ، فقد أقمت حفلة ليلية على شرف شيوخ الفرات والشيخ علي السليمان . كانت مناسبة تميل في الواقع إلى وضع المدعوين موضع شبهة بسبب كونهم جميعاً ، ومن غير استثناء ، من الموالين للبريطانيين . وقد دعوتهم لغرض تعريفهم بالسيد محمود النقيب ، النجل الأكبر للسيد عبد الرحمن النقيب ، وفخري الجميل ، وعبد المجيد الشاوي . إلا أن السيد محمود اعتذر عن الحضور بسبب «صداع» أصابه ، ولم يتمكن فخري الجميل من الحضور بسبب «عطب أصاب أحد عجلات سيارته» . كما حضر المناسبة كذلك السيد حسين أفنان ، والسيد كورنواليس والنقيب كلايتون وآل دايفدسون - كانت حفلة ضمت واحداً وعشرين مدعواً من بينهم تسعة من بين أكبر شيوخ القبائل في العراق لم يسبق للقسم الأكبر منهم زيارة بغداد من قبل . وقد جلس المدعوون يتسامرون فيما بينهم ، وهم يدخنون السجائر ويتناولون المرطبات والمثلجات ، وكأنهم قد اعتادوا هذه المناسبات طول عمرهم ، إذ لم يكن البعض منهم قد التقى البعض الآخر من قبل هذه الدعوة برغم أنهم يخوضون نفس المعركة . ولا يمكنك تصور كيف كان بعضهم في السابق يتحاشى لقاء البعض الآخر ، فالريف لم يكن مجالاً أميناً للسفر ، كما أن وعورة الطرق قد أسهمت في تكريس هذه العزلة ، ناهيك عن شكوك الأتراك إزاء اجتماع أي عدد قليل من هؤلاء الشيوخ معاً ، إذ أنهم كانوا لا يرون في مثل هذه الاجتماعات أكثر من مؤامرات تحاك ضدهم !

تعرض (الشيخ) علي (السليمان) لحملة شرسة شنتها عليه الصحف المتطرفة . وعندما سمعت بما يعانيه من حزن وألم ، وجهت له رسالة دعوته من خلالها إلى زيارة مكتبي . دخل مكتبي بوجه تعلوه ابتسامة وضاءة ، انطلقت من تحت طبقة سميكة من الغبار ، ليضع

على أرضه أربعة من طيور القطا التي لا بد وأن يكون قد اصطادها في أثناء رحلته إلى بغداد ، غير آبه بالأنظمة والتعليمات الخاصة بالصيد . إنه عازم على المكوث في بغداد إلى حين التوقيع على المعاهدة .»

وفي السابع عشر من تموز كتبت : « حضر الأمريكي السيد وود Mr. Wood ، مراسل إحدى الصحف التي تصدر في مدينة شيكاغو ، لتناول طعام الغداء معي ظهر أمس . جاءنا من سوريا وقد فهمنا من سياق حديثه أن وضع الفرنسيين هناك ميؤوس منه . كما حضر مأدبة الغداء هذه أيضاً كل من السيد كورنواليس والنقيب كلايتون . وقد أخبرنا السيد وود بأن الفرنسيين يقومون بتزويد الكماليين بالسلاح بشكل منتظم ، موضحاً في أثناء ذلك تفاصيل دقيقة بإمكاننا تأييد صحتها من مصادر عديدة . إن الهدف المتوخى من تزويد الأتراك بهذه الأسلحة هو استخدامها ضد العراق . وقد أخبرناه بدورنا بأن ما نقوم به هنا في العراق يدخل في إطار إقامة دولة عربية مستقلة . وقد أضفت قائلة أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت من بين الأطراف التي حالت دون تمكننا من التخلص من الانتداب بسبب نزوعها إلى اتهامنا بمحاولة التخلص من كل صيغ السيطرة والمراقبة لغرض الاستحواذ على العراق وضمها إلينا وذلك في حال نجاحنا في التخلص من الانتداب .[٢٠]

كنت في طريقي إلى النوم ، لأخذ قسطي من الراحة استعداداً للانطلاق في اليوم التالي في رحلة للسياحة وتناول الطعام في الهواء الطلق بصحبة شلة السباحة ، عندما وصلتني رسالة من جلالة الملك يطلب فيها لقائي في الخامسة والنصف عصراً . ولذلك قررت الاعتذار عن السباحة والاكتفاء باللحاق بالشلة ومشاركتهم وجبة الطعام في الهواء الطلق . وبعد أن انتهينا من تناول الشاي سألت جلالته عن آخر ما انصرف إليه من ممارسات مؤذية منذ آخر لقاء لي معه ، فأخبرني عن لقائه الصحفي والمقال الذي كان من المزمع نشره بهذا الصدد ، مبيناً مدى خيبة أمله من رد فعل المندوب السامي الذي رفض الاستجابة إلى مبادرة اعتقد هو (أي فيصل) بأنها مفيدة ومجدية . وهنا طلبت منه أن يخبرني عن فحوى

(٢٠) ألم يشكل الاستحواذ على العراق وضمه إلى الإدارة البريطانية في الهند بالدرجة الأولى هدفاً رئيسياً من أهداف السلطات البريطانية منذ وصولها أرض العراق في عام ١٩١٥؟ ألم يكن هذا هو الهدف الذي أراد تحقيقه الجنرال مود وما سعى إليه ولسون جاهداً ؟ ألم يكن هذا التوجه أحد أسباب اندلاع ثورة العشرين؟ وهل كان الأمريكيون على هذه الدرجة من السذاجة ، لاسيما رجال الصحافة منهم ، لينصتوا لمثل هذا الطرح من غير تعليق ؟ - المترجم

المقال المذكور لأنني لم أكن قد قرأته . وعندما أخبرني بفحواه قلت في نفسي ياللهول ! إنه حقاً مقال مفيد ومجد - كان يمثل في الواقع عرضاً مناسباً وصحيحاً لعلاقة المعاهدة بالانتداب . وقد وعدني بإرسال نص المقال إلى مكتبي بعد أن تعهدت بالقيام بمحاولة للتوسط لدى المندوب السامي .

وانطلاقاً مما أبديته من تعاطف فيما يتعلق بالمقال ، واستعداد للتوسط لدى السير برسي ، وجدت الفرصة ملائمة لإخباره بتفاصيل كل ما تشهده منطقة الفرات من أحداث ونشاطات والتوسل إليه من أجل قيامه على الفور بالعمل على نقل الموظفين الإداريين (العراقيين) العاملين في المنطقة المذكورة ، كما أخبرته بما يبذله المتطرفون من جهود ، وما يلجؤون إليه من أساليب مزعجة ومضجرة ، بهدف دفع وزارة الداخلية إلى منحهم الموافقة على تشكيل حزب لن يتوانى عن اللجوء إلى كل السبل الممكنة من أجل رفض المعاهدة . إثر ذلك بدت على وجه الملك أكثر سيماء الجد صرامة ، ومط قامته إلى أقصى طولها - كاليسروع في قصة ألس[٢١] - ليسألني عن رأيي حول إذا كان ينبغي له الموافقة على تشكيل هذا الحزب . قلت له : حسن ، إن كنت على أتم استعداد لتكون متجبراً . . . .

تناولت طعام الغداء ثم انطلقت في رحلة نهرية وسط التوهج الأخير لغروب ساحر لألتحق بشلتي المكونة من كورنواليس ، والنقيب كلايتون ، والعقيد ماكنيس Colonel Mac-Niece ، وآل ديفدسون الذي كانوا قد بدؤوا بتناول طعام العشاء على حافة أحد بساتين التين . جلسنا بعد ذلك في الظلمة إلى ما بعد العاشرة ليلاً نتجاذب أطراف الحديث حول مختلف الأمور بينما راحت النجوم تظهر أمامنا الواحدة تلو الأخرى . ولا تحسب لوهلة ، أيها العزيز ، أننا ننظر إلى هذه النجوم باعتبارها جزءاً من مكونات عنان السماء اللامتناهية ، إنها بالنسبة لنا لآلئ وحلى تزين سماء العراق .

العاشرة مساءً : سمعت لتوي أن الوزراء قد قرروا قبول المعاهدة في جلستهم التي عقدت عصر هذا اليوم .»

وفي العشرين من تموز قالت : «أقمت مساء الأمس دعوة عشاء على شرف العلماء بحضور كل من السيد كوك وعبد المجيد بك الشاوي بصفتهما ممثلين عن العالم الدنيوي .

---

(٢١) هي قصة «مغامرات أليس في بلاد العجائب» The Adventures of Alice in Wonderland للكاتب الإنجليزي لويس كارول Lewis Carroll وهي من قصص الأطفال ، والتي يشكل اليسروع احد أبطالها - المترجم

وكانوا جميعاً في غاية اللطف والانشراح . وفي الوقت الذي أشعر بالفخر والسرور بعلاقات الصداقة التي تربطني بالملك والوزراء ، فإنني عندما أدعو العلماء لتناول العشاء على مائدتي أجد نفسي عاجزة تماماً عن كل حل وربط !

أمرني الملك اليوم بالمثول في حضرته لتناول الشاي . بدا في أفضل حال - حكيماً وذا حصافة سياسية . وكان قد استلم رسالة مبهجة من ابن سعود جواباً على رسالة كان قد بعثها للسلطان لا تقل أدباً وكياسة وبهجة . بما أنه كان المبادر إلى هذه المراسلة ، فهو جدير بكل تقدير واحترام . كما أنه عازم على نشر نص الرسالتين ، الأمر الذي سوف يسهم في إزالة العديد من المخاوف . أشعر بفرحة عامرة عندما أراه يقوم بمثل هذه المبادرات . إنه أكثر الأشخاص فتنة وجاذبية ، وهو جانب لاشك فيه بالمرة .»

وفي رسالتها المؤرخة في الثلاثين من تموز كتبت جيرتروود تقول : «لا تزال المعاهدة في وضعها السابق . لقد قام السير برسي بكتابة رسالة جديرة بالثناء ، وجهها إلى الوطن ، وأهاب فيها بتشرشل بضرورة ممارسة المرونة والاستجابة للرغبات العراقية . وفي حال رفض تشرشل الاستجابة إلى ذلك سيحدث ما لا يحمد عقباه .

كان تصرف الملك يبعث على الضجر هذا الأسبوع ، فالدعاية المضادة للانتداب التي تدور في منطقة الحلة بموافقته الضمنية كادت تضعنا في مواجهة مع منطقة الفرات الأوسط بأكملها . ومع ذلك ، عندما قام السيد كورنواليس والمسؤولون في وزارة الداخلية باتخاذ الخطوات اللازمة لإلقاء القبض على المجرم الذي قتل أحد الشيوخ الموالين للبريطانيين لأسباب سياسية بحتة ، اتهمه الملك (أي اتهم كورنواليس) بحضور المندوب السامي بأنه يقف في أغلب الأحيان إلى جانب أعدائه ! وإزاء ذلك أبدى السير برسي دهشته وقال متسائلاً كيف يمكن لملك دستوري التدخل في تفاصيل جوانب إدارية كالقبض على المجرمين؟(٢٢) إزاء هذا التساؤل أُفحم الملك ، وأُسقط في يده ، فأجاب بغضب نتيجة شعوره بالإهانة بأنه سيترك الديوان ويذهب إلى قصره . إلا أنه لم يفعل ذلك ، بل بقي في الديوان

---

(٢٢) واضح من كلام الآنسة بيل إنها تؤيد ما طرحه السير برسي من تساؤل ، والحق يقال إن السير برسي كان مصيباً في تساؤله هذا إذ لا يجوز لملك ، أو أي رئيس دولة ، التدخل في مثل هذه الجوانب الإجرائية ، إلا أن الآنسة بيل تنسى ، أو لعلها تتناسى أنها في مناسبة سابقة طلبت من الملك القيام بنقل موظفين إداريين من منطقة الفرات (الأوسط) ، كما أوحت له بشكل غير مباشر بالتدخل لمنع المتطرفين من الحصول على موافقة لتشكيل حزب ، فهل تعتبر مثل هذه الأمور من بين الجوانب التي يتدخل فيها ملك دستوري ؟ - المترجم

وراح يواصل استقبال الأوغاد ومثيري المشاكل وهو سلوك أدى ما أثاره من رد فعل تلقائي إلى امتلاء مكتبي بالشيوخ المؤيدين للانتداب ، مثل علي السليمان وغيره ، الذين راحوا يحلفون الأيمان المغلظة بأن الملك يسعى إلى خرابهم . كما أنه يتدخل في تعيينات رجال الشرطة إلى درجة كادت تدفع بكبار الضباط ، بريطانيين وعرب على حد سواء ، إلى الاستقالة ، وقد انضم هؤلاء الأخيرون إلى المجموعة التي كانت في مكتبي .

إن نوري سعيد كان ، على ما يبدو ، وراء الشأن الأخير هذا ، الأمر الذي دفعني إلى دعوته لتناول العشاء معي ومطالبته بتوضيح لما جرى . وفيما يتعلق بهذه النقطة بالذات فإنه نجح في تبرئة ساحته . ثم رحت أكلمه بعد ذلك عن سلوك الملك ، وكيف أنه يسهم في تعقيد الوضع بشكل عام ، وعن إحساسي الأكيد بأنه في حال واصل نهجه هذا ، وعدم التزامه بتوجه منصف وثابت ، فإنه لن يحظى بخدمة أي ضابط بريطاني . وبين نوري من جانبه أنه على أتم استعداد لمغادرة العراق غداً في حال ظننت أن ذلك يشكل اجراءً نافعاً ، كما أوضح مؤكداً أنه يدرك تماماً أن العراق لا يمكنه أن يكون دولة بغياب مساعدتنا ، وفي حال لم يكن هو بالذات جديراً (بهذه المنة) ، فإن ابنه أو حفيده . سيشهدان ثمار العمل المنجز ، وهو أمل يدفعه إلى الشعور بالقناعة والرضى .

من بين كل الناس (العراقيين) هنا - إبتداءً من الملك ونزولاً إلى أقل الأفراد شأناً - لا يوجد من أحب حقاً بقدر محبتي لنوري . إنه مجرد ابن لرجل بسيط كان يعمل وكيلاً قضائياً في بغداد ،(٢٣) فكيف تمكن من اكتساب مثل هذه البصيرة المدهشة؟ إنه يستطيع فهم الأمور وإدراكها بمجرد نصف كلمة - لقد تمكن من فهم وجهة نظرنا ، وأحاسيسنا فيما يتعلق بالحقيقة والشرف ، ليضعها بعد ذلك نصب عينيه هدفاً قد يستحيل تحقيقه في الشرق ، ومع ذلك فقد شاء أن يختاره مثلاً نهائياً أعلى . وعلى الرغم من أن المرء منا يدرك جيداً أن نوري بعيد كل البعد عن الإيفاء بالمُثل والمعايير التي يؤمن نوري بأننا ننطلق منها . ، إلا أن المرء هذا لايسعه سوى الشعور بالخزي والعار إزاء إدراكه مقدار إخفاقنا نحن في الإيفاء . بما يؤمن نوري بأنها مُثلنا ومعاييرنا . إن ثقته المطلقة باستقامتنا وحكمتنا المتأصلتين تدفعني دوماً إلى الاحمرار خجلاً .

---

(٢٣) أفادني السيد قيس جعفر العسكري ، نجل المرحوم جعفر باشا العسكري ، وابن أخت المرحوم نوري باشا السعيد ، أن جده كان يعمل وكيلاً يأخذ على عاتقه القيام بمتابعة الأعمال والمعاملات القضائية بالنيابة عن أصحابها وذلك في مختلف الدوائر الرسمية المختصة في بغداد - المترجم

وفي الليلة التالية استضفت كلاً من مفتش الشرطة العام ، السيد إسماعيل حقي صفاء ، والسيد كووك ، ووزير الداخلية السيد عبد المحسن بك السعدون ، وهو رجل جدير بالتقدير والاحترام ، لتناول طعام العشاء على مائدتي . إن السيد إسماعيل رجل مستقيم ، إلا أنه يعاني من حالة توتر عصبي مستمرة انطلاقاً من إحساسه بوجود محاولات متواصلة لتشويه سمعته أمام الملك . وقد حاولنا التخفيف عنه ، والتأكيد له بأننا نقف إلى جانبه ونسعى إلى درء أي خطر عنه . وفي الليلة التالية تناولت طعام العشاء بصحبة كورنواليس وتداولنا في الأمر . وفي ساعة مبكرة من صباح هذا اليوم زارني في مكتبي وزير الداخلية ، عبد المحسن بك السعدون بصحبة ناجي السويدي وقد أخبرتهما بالنهج الذي ينبغي لهما اعتماده . إن ناجي مكار ومراوغ ، إلا أنه ذكي . وبفضل القدرة الإلهية ، نأمل في إمكانية تقويمه . وما أن انصرفا حتى دخل علي فخري الجميل لنقضي معاً ساعة من الدردشة حول مختلف المواضيع . بعد ذلك تناولت طعام الغداء بصحبة النقيب كلايتون والسيد حسين أفنان وتم لنا تطارح الأفكار وتبادل الآراء . وعندما انصرفا شعرت بالإرهاق الشديد ، وهو أمر طبيعي على ما أظن بفعل حرارة الجو وتناول القضايا السياسية . إن مثل هذه الحوارات ، التي يتعين على المرء من خلالها بذل كل ما يملك من جهد وطاقة ، هي مرهقة حقاً ، لا سيما في مثل هذا الجو الحار .»

بعد ذلك تواصل جيرتروود كتابة رسالتها هذه لتصف من خلالها خروجها إلى السباحة في النهر مع شلتها المعهودة ، إلا أن المناسبة لم تكن اعتيادية هذه المرة بفضل مشاركة الملك فيها . وبهذا الصدد فإنها تقول :

«شاركنا الملك السباحة أيضاً ، ولكن لا يمكن اعتباره سباحاً يشار إليه بالبنان ! وكان موقع تغيير ملابسي تحت إحدى أشجار التين حيث استطعت تناول حبات من التين الناضج وأنا أعمل على تجفيف شعري المبتل . وقد قدم الملك لنا وجبة طعام فاخرة – فقد امتد أمامنا سماط رصفت فوقه عشر سمكات تم «سكفها» (شويها) بفعل نار وقودها من كرب النخيل وسعفه ، وهو صنف لذيذ للغاية ، هذا بالإضافة إلى عدد من الأطباق السورية . إنني عموماً لا أهوى الطعام في أيام الصيف الحارة ، إلا أن وجبات أيام الآحاد في الهواء الطلق هي الوحيدة التي أتمتع بتناولها . ومثل قدماء اليونانيين ، فقد جلسنا فوق بُسط ووسائد فرشت لنا ، وتناولنا طعامنا تحت ضوء القمر ، وبعد أن انتهينا من الأكل واصلنا جلوسنا في هذا الجو الشاعري تحت أشجار الأثل . ولا أدري ما انشغل الآخرون به من حديث ، إلا أن الملك راح يسرد لي تاريخ أسرته ، ثم رحنا نناقش أموراً تتعلق بمن يليق بهم التزوج من بناته ، كما

ناقشنا قضية تعليم ابنه . لم يبد الحديث هذا في بادئ الأمر شيئاً عجيباً بالنسبة لي لاسيما في محيط أضفى عليه البدر الساطع والنهر الهادئ جواً مضافاً من الألفة ، ولكن عند التأمل فيه أجد أنه لا يخلو من غرابة : أي أن أقوم بتنظيم الشؤون العائلية لأحد أحفاد الرسول والذي شاءت الظروف أن يكون ملكاً على العراق كذلك . آمل مخلصة أن يتواصل تعلقه بي ، وأن لا تخمد جذوته ، إذ أن من شأن ذلك أن يجعل التعامل مع الأمور أكثر سهولة . كما آمل أيضاً أن تتواصل محبته لكورنواليس إذ على عاتقنا ، أنا وكورنواليس ، تقع في النتيجة مهمة هدايته وإرشاده ، ومن خلاله صياغة مقدرات العالم العربي ، إن لم أكن على خطأ من هذا الأمر .

سوف تتميز الحلقة التالية من تأريخ العرب بالغضب العارم الذي سيثيره بالتأكيد إقرار الانتداب (البريطاني) على فلسطين من قبل عصبة الأمم ، وأجد نفسي في هذا المجال متعاطفة كل التعاطف مع الفلسطينيين . إن فيصل قد اعتاد في حديثه أن يقسم على حد قوله «بالله وبرأسك . .!» رأسي أنا - هذا الرأس الذي لا ينصرف سوى إلى إهانة ذاته وإذلالها . إنني أتخلى عن عصبة الأمم لأنها منظمة نصب واحتيال ليس إلا . فقد عمدت إلى تسفيه حجتها نهائياً وعلى نحو حاسم عبر إقرارها الانتدابين على سوريا وفلسطين خلافاً لأي من مبادئ الانتداب التي كانت هي بالذات قد وضعتها . أود التوقف هنا لأن كيل المزيد من هذا الشجب يجعلني أحتدم غضباً ، وهذا ما أريد تفاديه قبل خلودي إلى النوم . إنه حال يرهق الأعصاب ويؤذيها . ومع ذلك أود أن أذكر بأنني قد استلمت مؤخراً مذكرة رائعة ، ولكنها سرية للغاية ، تبين بوضوح أن المهاجرين الصهاينة يعملون من أجل الخروج بتنظيم شيوعي بحت - وهو ما تنفر منه نفس كل فلسطيني ومسلم . كل ذلك ، ونحن ندعي بأننا نؤسس حكومة تنسجم مع رغبات الشعب . يالنا من كذبة ، وغدة ، وأشرار . والآن ، دعني أذهب إلى فراشي .

أقسم بشرفي بأن العرب لديهم روح الصدق التي نفتقر نحن إليها .»[٢٤]

---

(٢٤) ..إنه كلام يغني عن أي تعليق - فهو اعتراف واضح ، والاعتراف سيد الأدلة - المترجم

١٩٢٢

تتواصل رداءة الجو الذي وصفته جيرتروود بأنه «فظيع إلى حد لا يصدق . وعلى الرغم من أن درجة الحرارة لم تتجاوز ١١٠ درجة فهرنهايت ، إلا أن الطقس كان ثقيلاً وخانقاً بشكل يفوق كل تصور .» ولطالما انصرفت جيرتروود إلى التساؤل عن سبب اضطرارها إلى النهوض صباحاً بدلاً من «الاستلقاء ومن ثم الموت» ، إذ أنها كانت تجد نفسها في نهاية اليوم في «أقصى درجات التعب والإرهاق» . وفي رسالتها المؤرخة في الخامس عشر من شهر آب كتبت حول رداءة الطقس وضحاياه قائلة : «لم يقتصر الأمر علي شخصياً لأن الكل يعانون من نفس الشيء - فالسيد كورنواليس يصاب بالحمى بمعدل مرة كل يومين ، أما السيدة دروير Mrs Drower(١) فقد نُقلت إلى المستشفى ، بينما سقطت الليدي كوكس طريحة الفراش بسبب حمى ذبابة الرمل sandfly fever .

صادف يوم الجمعة ، الرابع من شهر آب ، أول أيام عيد الفطر . ولابد من الاعتراف بأنني أتمتع بالقيام بالزيارات الخاصة بأيام الأعياد هذه لا سيما وأنها تجعلني أدرك تماماً ما أتمتع به من منزلة في الأوساط الإسلامية ، إذ لا أعتقد أن هناك امرأة غيري تعمد إلى التردد على بيوت الشخصيات والأعيان لتقديم التهاني لهم في الأعياد .»

وبعد يومين من التأريخ الأخير ، أي يوم الأحد المصادف السادس من شهر آب ، انطلقت جيرتروود بصحبة الملك في نزهة على شاطئ النهر حيث أخبرها أثناء تمشيهما معاً عن «آماله ومخاوفه» . وفي اليوم التالي ، أي الاثنين ، كانت هناك «مفاجأة صاعقة» على حد تعبير جيرتروود ، وقد كتبت إلى أبيها تقول : « الموضوع سري للغاية . أخبرني السير

---

(١) عالمة آثارية مرموقة ، وأديبة وكاتبة معروفة ، اهتمت بالصابئة واليزيديين وتغلغلت في علومهم الغامضة ، وهي زوجة السيد إدوارد دروير المستشار القانوني لرئاسة الوزراء ، وصديقة حميمة للآنسة بيل . وإنني شخصياً أذكرها جيداً لأنها زارت دارنا في بغداد بصحبة الليدي كورنواليس لتناول الشاي في أكثر من مناسبة ، كما كنت أراها أحياناً في نادي العلوية وكان ذلك في النصف الثاني من الأربعينات - المترجم

برسي بأن تشرشل قد رفض الموافقة على طرحه الرامي إلى الوصول إلى حل وسط فيما يتعلق بقضية الانتداب ، واقترح عليه بدلاً من ذلك المجيء إلى إنجلترا بصحبة فيصل على الفور . اعتراني شعور رهيب بالخوف . من الواضح أن الأمور لا تبشر بخير . إن حكومة جلالة الملك تقف موقفاً صلباً فيما يتعلق بالانتداب إذ أن من شأن أي موقف آخر أن يقوض أركان انتدابنا الجائر على فلسطين ، وانتداب فرنسا على سوريا الذي يعتبر أكثر جوراً وإثماً من الأول .

أبرق المندوب السامي إلى حكومة جلالة الملك رسالة يعلمهم فيها أن لا جدوى من مجيء الملك فيصل إلى إنجلترا ، ويوصي في الحين ذاته بقيام الجانب البريطاني بنشر مضمون المعاهدة والإعلان عن اتفاق الطرفين حول أحكامها مع بيان أن نقطة الخلاف الوحيدة بينهما هي تلك المتعلقة بالانتداب ، وهو جانب يجب على الناخبين العراقيين إقراره ، فإذا ما رفضوا القبول به يتعين علينا (البريطانيين) الجلاء عن العراق غداً . ويشعر الملك بارتياح إزاء هذا الحل المقترح الذي من شأنه أن يسهل مهمته ، إذ أنه (فيصل) سيُعلم أبناء الشعب بأنه قد أفلح في الحصول على أفضل ما يمكن من الشروط التي يتعين عليهم القبول بها ، وفي حال رفضوا ذلك سيضطرون إلى القبول بالأمر الواقع : الفوضى . والسؤال هو هل ترضى حكومتنا بهذه التوصية؟ هذا ما نود معرفته . ولكن كيف يمكننا معرفة أي شيء عندما نكون قد خرجنا إلى البرية لصيد القطا حيث يتعذر علينا استلام أية برقية أو مرسال مهما كان لهما من أهمية؟

أود القول بالمناسبة أن في أثناء كتابتي هذه الرسالة لا توجد في العراق حكومة - ففي الأسبوع المنصرم دعت الحكومة الملك إلى منح ثقته فيها ، وهو ما يمثل الطبيعة الغريبة لإجراءاتنا السياسية هنا . وانطلاقاً من عدم ثقة الملك بالحكومة فإنه أجاب دعوة المجلس برد ملتبس لا يوحي بموقف واضح ومحدد الأمر الذي أدى إلى استقالة أعضاء الوزارة باستثناء النقيب ووزير الأوقاف . إلا أننا قد اعتدنا تهاوي الوزارات وتداعي كياناتها ، وبذلك تجدنا لا نعير الأمر أية أهمية . إلا أن هناك ثمة حقيقة لا مجال للشك فيها وهي أن النقيب لن يتخلى عن منصب رئاسة الوزراء إلا عندما يُنقل إلى مثواه الأخير ، وهو حل لا يخلو من فائدة إذا ما أدركنا أن المعاهدة لابد لها أن تحمل ختمه وتوقيعه !

وقد أصبح ابنه السيد محمود رئيساً لحزب معتدل بفضل الجهود التي انصرفت إلى حثه على القيام بذلك . ويعتبر الشيخ علي السليمان القوة المحركة لهذا الإجراء . كما قام المتطرفون بدورهم أيضاً بتشكيل حزب لهم ، إلا أن حزبهم هذا يخفق في تحقيق نجاح ملحوظ على ما

أفهم .[٢] وقد قام الشيخ علي السليمان بإحضار كبار شيوخ القبائل ودفعهم إلى الدخول في حزب السيد محمود . وقد تجمعوا في مكتبي يوم أمس ، حتى غاص المكتب بهم ، ليبينوا لي أنهم على استعداد تام لتجنيد كل البلاد للعمل لصالح التلاقات الانتدابية مع بريطانيا العظمى . إن هذا الفوران التلقائي الذي تشهده الألوية في العراق لصالحنا لأمر يثير الدهشة ، ومع ذلك لابد أن ندرك أن هناك حزباً معارضاً قادراً على أن يتسبب بأضرار مؤكدة ، بل وربما باندلاع ثورة ، ما لم نعمد إلى إقناع الملك بضرورة ضبط أعضائه .

---

(٢) أجاز قانون الجمعيات الذي صدر في ١٩٢٢/٦/٢٥ تأسيس الأحزاب مع وضع عقوبة صارمة على كل تجمع لم يصدر به أي ترخيص رسمي . ويمكن القول أن هناك أربعة أسباب دعت بالحكومة إلى إصدار هذا القانون أولها اعتقادها بوجه عام بأن مؤيديها من بين أبناء الشعب يفوقون معارضيها عدداً ولكنهم لم يكونوا منظمين ، وثانيها خوفها من أن تأخذ التجمعات السياسية ذات الصيغ التي شهدهما صيف عام ١٩٢٠ أي من خلال نشاطات المواليد النبوية والتعازي الحسينية ، وثالثها ما أبداه وزير المالية السيد ساسون أفندي حسقيل من حكمة عندما أوضح أن منع تأسيس الأحزاب العلنية لابد أن يدفع بالناس إلى تشكيل التنظيمات السرية ، وهو رأي لقي استحساناً من قبل أعضاء مجلس الوزراء والسلطات البريطانية على حد سواء برغم تحفظ الملك الذي كان لا يرغب في انشغال الناس في تشكيل الأحزاب مخافة أن يؤدي ذلك إلى ما حدث في سوريا في عام ١٩٢٠ ، أما رابعها فهو إصرار العناصر الوطنية على ضرورة إنشاء حزب سياسي ينضوون تحت لوائه .

وفي آب من عام ١٩٢٢ تشكلت ثلاثة أحزاب : حزب النهضة العراقية والحزب الوطني العراقي وهما حزبان معارضان ، والحزب الحر العراقي وهو حزب مؤيد للحكومة . تأسس حزب النهضة في الكاظمية بفضل جهود السادة أمين الجرجفجي ، وأحمد الظاهر ، وعبد الرسول كبة ، وآصف قاسم آغا ، وعبد الرزاق الأزري ، ومهدي البير ، ومحمد حسن كبة ، وكان الحزب هذا مدعوماً من قبل السيد محمد الصدر ، ، وتأسس الحزب الوطني في بغداد من قبل السادة محمد جعفر أبو التمن ، وأحمد الشيخ داود ، وحمدي الباجه جي ، ومولود مخلص ، وعبد الغفور البدري ، ومحمد مهدي البصير ، وبهجت زينل ، وكان مدعوماً من قبل السيد مهدي الخالصي ، وتأسس الحزب الحر العراقي في بغداد بمباركة النقيب ، وتشجيع الآنسة بيل ، وكان مؤسسوه السادة محمود النقيب ، وداود النقيب ، وفخري آل جميل ، وعبد المجيد الشاوي ، وحسن غصيبة ، وجميل صدقي الزهاوي .

وعلى العكس مما تبينه الآنسة بيل ، فإن الحزبين المعارضين شهدا إقبالاً كبيراً ، بينما كان عدد المنتمين إلى الحزب الحر لا يكاد يذكر الأمر الذي دفع بالحكومة إلى الإيعاز إلى رؤساء الوحدات الإدارية في الألوية (المحافظات) بالعمل على كسب التأييد له - المترجم

إننا نخوض غمار تجربة في غاية الصعوبة . فبينما نؤكد للملك ، وأصدقائنا الوطنيين ، على حسن نوايانا ، يبرز أمامنا الانتداب على فلسطين الذي جاء بصيغة سيئة لم نتوقعها حتى في أشد أحلامنا غرابة . وإزاء ذلك ، كيف يمكننا أن نضمن عدم لجوء حكومتنا الكذابة ، الوغدة إلى حيلة مماثلة تقوم من خلالها بتوقيع معاهدة مع الملك من جانب ، بينما تطرح أمام عصبة الأمم من جانب آخر انتداباً يتعارض تماماً مع المعاهدة ؟ وفي هذا المجال يُصار إلى خذلنا . ففي فلسطين انطلقنا في طريق لا يمكنه أن يؤدي إلا إلى الثورة ، وتوجيه الندم والشجب إلى عصبة الأمم ، ولعنها إلى الأبد لقيامها بإقرار الانتداب على كل من سوريا وفلسطين . ترى هل بإمكاننا أن ننجح في دفع أهل الحل والربط (في بريطانيا) إلى إدراك أن الشعور القومي الشرقي ، كما يمثله كل من فيصل ومفتي القدس ، ليس بظاهرة يمكن العبث بها ؟»

وفي السادس عشر من آب كتبت تقول : «يعود الشيوخ إلى مواطنهم لتنظيم مقرات لفروع الحزب وفروعه الثانوية وذلك في مراكز الألوية والأرياف . سأقوم بتسفير علي السليمان جواً إلى الرمادي . وقد وافق رجال سلاح الجو الملكي الأشاوس على تسفيره بطائرة خاصة ، ليباركهم الرب ، بعد أن أخبرتهم أن من شأن مثل هذا التعامل مع الشيخ المذكور إنما يعزز من مكانته الأمر الذي ينسجم مع مصالحنا .

وفي أثناء ذلك فإن تصرفاتنا تكاد تعرضنا للمخاطر ، ففي الوقت الذي يقوم المتطرفون ببذل قصارى جهودهم لإثارة الفرات الأوسط ، نجلس نحن بانتظار جواب حكومة جلالة الملك الذي إذا ما جاء إيجابياً فإنه سيمكن الملك فيصل من الإعلان عن رأيه بصراحة أمام الشعب ، وحسم الأمر بفضل برهان قاطع . إن جلالته يقسم الأيمان المغلظة بأنه لن يتوانى لحظة عن التوقيع على المعاهدة في حال قام المستر تشرشل باعتماد المشروع الذي اقترحه السير برسي .»

وفي رسالتها المؤرخة في الثامن عشر من آب تقول : «وصلت برقية مشفرة من الوطن تتضمن بلا شك الرد الذي سيعتمد عليه مصيرنا على ما أعتقد . إلهي ! أود التفكير بشيء آخر ! لايسعني أن أتصور تمكننا من تفادي وقوع انفجار مرتقب - إنه طارئ محتمل الوقوع جداً . وإذا ما حصل ذلك ستتدهور أحوال العراق وكل شيء آخر قبل انقضاء صيف آخر على وجودي هنا ! ما كنت أسمح لنفسي قول ذلك لولا إدراكي أن غيابي عن مسرح الأحداث في العراق سيملأ قلوب أصدقائي شيوخ القبائل بالفزع . أبتاه - إني أحبك كثيراً جداً ، برغم إدراكي بأنك لن تصدق ذلك بسهولة بسبب رفضي المتواصل للعودة إلى الوطن

والاستقرار تحت سقف دارك . ولكنني سأضطر إلى العودة قريباً لأشتري شعراً مستعاراً ، إذ أن شعري الذي منت به الطبيعة عليَّ يكاد يختفي بفعل حرارة الجو .»

وفي اليوم ذاته وجهت جيرتروود رسالة قصيرة إلى زوجة أبيها ، الليدي بيل ، قالت فيها :

« يتهيأ الأتراك حالياً لقتالنا ، وبذل كل الجهود من أجل تدمير مملكة العراق . وقد قام الأشد عنفاً من بين المجتهدين المناوئين لبريطانيا بإصدار فتوى تدعو المسلمين الصادقين إلى التبرع للهلال الأحمر ، أي صندوق المجهود الحربي التركي .(٣) وفيما يتعلق بهذا الموضوع ، كان نوري باشا يستشيط غضباً وسخطاً يوم أمس لا سيما إزاء عدم قدرته ، على حد قوله ، على التعبير عن احتجاجه باسم الإسلام .

إن نوري باشا كائن نادر ، حتى بالنسبة لهذا الجنس البشري المدهش ، إذ لا يوجد ثمة ما لا يمكنك مداولته ومناقشته معه من جوانب ، تماماً مثلما تفعل مع أي فرد منا ، لا لتوافق وجهات النظر بيننا وبينه بل لما يجده المرء لديه من فهم وإدراك تامين فيما يتعلق بكل أوجه التباين التي يتعين تحقيق التوفيق بينها وتكييفها . وعلى العكس من هذا الرأي الذي نشترك فيه أنا والعقيد جويس والنقيب كلايتون ، يرى الجميع في نوري شيطاناً يهوى إثارة المشاكل .

خدمات البريد الجوي متوقفة اليوم بسبب الغارة التي شنها (الإخوان) الوهابيون على

(٣) تشير الأنسة بيل على ما أعتقد إلى الاجتماع الذي تم مساء يوم ١٩٢٢/٨/١١ في دار المجتهد الأكبر السيد أبي الحسن الأصفهاني في مدينة النجف الأشرف والذي ضم كلاً من عبد الواحد الحاج سكر ، ومحسن أبو طبيخ ، وعبادي الحسين ، وعلوان الياسري ، وشعلان أبو الجون ، وكاطع العوادي بحضور متصرف لواء كربلاء عبد العزيز بك القصاب ، وكان الاجتماع بصدد عدم تنفيذ وزارة الداخلية للمطالب التي استهدفت تحقيق نقل المستشارين الإنجليز الموجودين في الألوية لتجبرهم وتعسفهم . وقد نفت وزارة الداخلية لاحقاً ما بينه السيد محسن أبو طبيخ في هذا الاجتماع بصدد موافقة المستر كورنواليس على نقل المستشارين المذكورين . وقد تم في هذا الاجتماع إصدار فتوى من قبل الأصفهاني ،بيد أنها لم تكن تتعلق بالموضوع الذي ذكرته الأنسة بل ، بل جاءت استجابة لطلب المتصرف والتي حرمت التجمعات في داخل البلدة أثناء الزيارة تفادياً لما قد يحصل من احتكاك بين الشرطة والزوار مما يؤدي إلى سفك الدماء ، وقد أثمرت الفتوى ، إذ لم يحصل في النجف بعد ذلك أي تجمع يخل بالأمن – المترجم

قرية تقع على مسافة اثني عشر ميلاً جنوب عمان[٤] ، وغرب خط السكة الحديدية ، وأسفرت عن مقتل خمسة وثلاثين شخصاً . إن الحادثة ليست بأكثر من غزوة عشائرية ، وقد تم رد المغيرين على أعقابهم ، إلا أنها ثمرة بذور النزاع التي زرعها فلبي نتيجة زيارته للجوف . لقد احتج ابن سعود على ما أسماه تصرفات (فلبي) المريبة مع «أمرائي» ، على حد تعبيره ، ويقصد بذلك أمراء منطقة الجوف (الذين يعتبرهم تابعين له) .»

في السابع والعشرين من شهر آب كتبت : «عشنا عشرة أيام مزعجة وخطرة . وقد كتب السير برسي إلى ابن سعود لينذره بأن الحدود الدولية لا يمكن ترسيمها عن طريق الغزوات التي تقوم بها جماعات تستهدف السلب والنهب . ونحن من جانبنا نشعر بأنه (ابن سعود) على حق فيما يتعلق بالقسم الأكبر مما يطالب به ، ولكن عليه الإعلان عن شكواه بطرق مختلفة .

أخبر نوري باشا الملك أنه قد فقد ثقة الإنجليز ، وأنه يتجه إلى الدمار بشكل مباشر . إلا أن جلالته واصل سيره غير آبه بأي شيء ، فقد طلب من النقيب تقديم استقالته ، ثم أخبره بعد ذلك بأنه (أي الملك) ينوي تكليفه بتشكيل الوزارة الجديدة شريطة قيامه (أي النقيب) بتحديد سياسته إزاء جوانب مثل : ١- العجز في الميزانية البالغ مائة لـــــك[٥] ٢- النقص في عدد قوات الجيش العربي ، ٣- الطريقة التي سيتم من خلالها إدارة الانتخابات المرتقبة . وقد قام النقيب بدوره ، وعلى نحو لائق ، بإعطاء إجابات عامة ملتمساً منحه مهلة للتداول مع زملائه ، بعد اختيارهم ، من أجل تزويد جلالته بالتفاصيل الدقيقة حول الجوانب آنفة الذكر . وإزاء ذلك أجاب الملك ، الذي لا يتمنى عودة النقيب إلى رئاسة الحكومة ، أن

---

(٤) هو الهجوم الذي وجهه «الإخوان» على قرية أم العمد في المملكة الأردنية الهاشمية (إمارة شرق الأردن آنذاك) والذي جاء على غرار الهجمات التي وجهت ضد العراق قبل ذلك . للمزيد من المعلومات حول الموضوع أقترح على القارئ الكريم مراجعة المجلد الأول من كتاب معالي الدكتور معن باشا أبو نوار «تاريخ المملكة الأردنية الهاشمية» ، وكتاب «مذكرات فلبي» Arabian Days . إن انصراف جيرتروود إلى اتهام فلبي بتسبب الغزوة لا يخرج عن حدود المنطق إذا ما أخذنا بعين الاعتبار سيرة هذا الرجل وما عرف عنه من توجه مناهض للهاشميين - المترجم

(٥) اللك (Lakh في الهند والباكستان) يساوي مئة ألف ، والمقصود هنا مئة لك روبية أي ما يساوي ١٠٠ x ١٠٠,٠٠٠ = ١٠,٠٠٠,٠٠٠ (عشرة ملايين) روبية ، هي بحدود ٣٣١,٠٠٠ دينار تقريباً - المترجم

الجواب هذا لا يفي بالغرض وبأنه (أي الملك) يصر على برنامج محدد . إنه يلعب دور الطفل المشاكس . الذي لا يجدي معه أي إقناع . وفي أثناء ذلك راح المتطرفون يراقبون سياقات الأحداث بعيون واعية . وهكذا ، فإن الوزارة التي سعوا جاهدين لإسقاطها قد سقطت أخيراً . أما الحزب المعتدل الذي قد تم تشكيله مؤخراً برئاسة الابن الأكبر للنقيب فلا يكاد يمكنه التواصل بعد سقوط الأب . قاتل الله الانتداب ، والمعاهدة والإنجليز كلهم ! هذا ما كان يدور في المقاهي من حديث ، وهو ما كان ينقل بحذافيره إلى الملك الذي راح بدوره يزداد قناعة بضرورة عدم لجوئه إلى ما من شأنه معارضة هذا التيار .

«لقد حل اليوم الثالث والعشرون من آب ، أي الذكرى الأولى لتتويج الملك . وقُبيل حفل الاستقبال الذي أُقيم بالمناسبة ، قام جلالته بتسليم علمين لفوجين جديدين تم تشكيلهما مؤخراً ، ليتجه بعد ذلك إلى منصة التحية لاستعراض القوات التي راحت تمر من أمامه في باحة القصر الملكي ، والتي بدت مشرفة وجديرة بالثناء بعد مرور عام فقط على تشكيلها . ثم ذهبت إلى دار الاعتماد نهراً استعداداً للتوجه إلى مكان الاستقبال الذي انطلقنا إليه بسيارتين . وعند وصولنا إلى القشلة وجدنا ساحتها تغص بجموع الناس ، مع وجود مجموعة من الأشخاص من ذوي الأردية البيضاء الذين كانوا يخطبون بالمجتمعين على ما يبدو . وقد اضطر رجال الشرطة إلى دفع الناس ليفسحوا المجال لمرور سيارة المندوب السامي . وأثناء صعودنا الدرجات المؤدية إلى المدخل انطلق صوت يهتف بشيء لم يسمعه المندوب السامي بوضوح ، كما لم أتمكن أنا من فهمه ، أعقبه عاصفة مدوية من التصفيق الحاد . وكنا في حيرة من الأمر عندما دخلنا إلى قاعة الاستقبال . بدا الملك منفعلاً بعض الشيء ، إلا أن الحديث سرعان ما أخذ منحى طبيعياً . وعندما خرجنا بعد ربع ساعة من الزمن كانت الباحة خالية .

وما أن وصلنا إلى المكتب حتى أمرني السير برسي بإجراء ما يلزم من اتصالات بهدف الوقوف على تفاصيل ما حدث ، وما هي إلا ساعة حتى بات بحوزتي كل ما نريد معرفته من المعلومات . كانت المظاهرة من تدبير الحزبين المتطرفين ، وكان الهتاف الذي أثار عاصفة التصفيق المدوية هو «يسقط الانتداب» .

في اليوم التالي وجه السير برسي مذكرة إلى السكرتير الخاص لجلالة الملك وأشار من خلالها إلى مشهد يوم أمس ، وطالب بتوضيح الأمر والاعتذار . وقد تم نشر كتابه ، وجواب البلاط الملكي الذي تضمن الاعتذار المطلوب ، في جريدة الأوقات البغدادية Baghdad Times . وقد قامت جيرتروود بقص المقطع الذي نُشر فيه الاعتذار وأرفقته طي

رسالتها أعلاه .(٦)

(٦) تميل الآنسة بيل على ما يتضح إلى تجاهل التفاصيل الخاصة بالنشاطات المشروعة للعناصر الوطنية ، وهي تفاصيل أود إعطاء القارئ الكريم موجزاً عنها من باب توضيح الحقائق .

في الوقت الذي كان الملك يتعاطف مع توجهات من شاءت الآنسة بيل تسميتهم بالعناصر المتطرفة ، وتطلعاتهم ، كان المندوب السامي يشعر بضيق شديد من لهجة صحفهم ، ويستنكر ما كانوا يعمدون إليه من أساليب في الطعن بالحكومة ، بينما كانت العناصر المذكورة ترى في بقاء الوزارة في الحكم ملهاة للقضية الوطنية . وقد انتهزت هذه العناصر حلول الذكرى الأولى لعيد التتويج لتوحيد مساعيها لكي تُمكن البلاد من الحصول على حقوقها . وفي إطار هذا المسعى ، تم لها انتخاب لجنة مركزية من أربعة أشخاص مثل فيها السيدان محمد جعفر أبو التمن وبهجت زينل الحزب الوطني العراقي ، بينما مثل السيدان محمد حسن كبة وأصف قاسم حزب النهضة العراقية . وقد أعدت هذه اللجنة بياناً مفصلاً تقرر رفعه إلى المقام الملكي السامي في يوم الاحتفال بذكرى التتويج ، وقد خلصوا فيه إلى ما يلي :

١- وضع حد للتدخل البريطاني في الشؤون الإدارية للبلاد .

٢- تشكيل وزارة قوامها عناصر مشهود لها بالكفاية والإخلاص .

٣- الامتناع عن عقد أية معاهدة ، أو الدخول في أية مفاوضات حولها ، قبل قيام مجلس تأسيسي يتم انتخاب أعضائه بطريقة ديمقراطية .

وفي يوم الاحتفال بذكرى عيد التتويج (١٩٢٢/٨/٢٣) نظم الحزبان المذكوران مظاهرة ضخمة قُدر عدد المشاركين فيها بحدود عشرة آلاف شخص ، فامتلأت ساحة القشلة بهم ، وراحوا يهتفون بسقوط الانتداب والاستعمار . وقد ألقى السيد محمد مهدي البصير كلمة حماسية باسم الحزب الوطني وألقى السيد محمد حسن كبة كلمة باسم حزب النهضة العراقية . وقد تزامن وصول السير برسي كوكس مع خطبة البصير ، وعندما بدأ المندوب السامي بارتقاء الدرجات المؤدية إلى قاعة الاستقبال هتف رجل من بين المتظاهرين بسقوط الانتداب وسقوط بريطانيا . كان هذا الرجل يدعى حسون أبو الجبن ، وكان صاحب محل بقالة في سوق السراي ، ومعروفاً بحماسه الشديد للمظاهرات الوطنية .

اعتبر كوكس الحادثة إهانة موجهة إلى شخصه ودولته ، ولم يظن على ما يبدو بأنها جاءت عن طريق الصدفة بل أعتبرها عملاً مدبراً من قبل أُمناء الملك ورئيسهم السيد فهمي المدرس . وفي مقال عن السيد فهمي المدرس بقلم الأستاذ خيري العمري (مجلة أقلام - عدد كانون الأول ، ١٩٦٤) يقول الكاتب أن هناك أدلة تشير إلى أن المدرس كان يؤيد المعارضة سراً ، وكان الإنجليز على بينة من أمره ، وبذلك انتهز كوكس هذه الفرصة للتخلص منه . وجدير بالذكر أن فهمي المدرس كان يرى من جانبه أن رستم حيدر ، سكرتير جلالة الملك ، هو الذي كان وراء المناورة ، والله أعلم - المترجم

وفي ليلة الرابع والعشرين من آب كتبت الآنسة بيل قائلة : «ارتفعت حرارته (أي حرارة الملك) ، وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي اجتمع خمسة أطباء ، بريطانيان وثلاثة عرب ، للتداول في ما إذا كان إجراء عملية جراحية مستعجلة أمراً ضرورياً ، وفي الثامنة تقرر بأن الأمر يستوجب ذلك ، وقد تم أجراؤها بنجاح تام في الحادية عشرة . وقبل إجرائها ، كان للسير برسي والسيد كورنواليس لقاء مع جلالة الملك على مدى ساعة من الزمن (إنه خبر في غاية السرية) بينا له من خلالها أن الوضع السياسي في البلاد قد بات من الخطر بما يجعل اللجوء إلى اتخاذ إجراءات قمعية أمراً ضرورياً للغاية ، وبذلك راحا يلتمسان منه منحهما الموافقة على اتخاذ الإجراءات المطلوبة . وإزاء هذا الطلب أجابهما بأنه لن يكون طرفاً في إجراءات كان على ثقة تامة من أنها تؤدي إلى زج البلاد في أتون تمرد لا يمكن قمعه ، وبأنه لن يتمكن من القيام بأية خطوة (فيما يتعلق بالعناصر الوطنية) إلا بعد موافقة حكومة جلالة الملك على اعتماد الصيغ المقترحة من قبل كل من جلالته (فيصل) والسير برسي بخصوص المعاهدة . وإزاء ذلك أجاب السير برسي أن هذا الإجراء قد يستغرق فترة لا تقل عن أربعة عشر يوماً بسبب وجوب عرضه على مجلس الوزراء البريطاني الذي لن يجتمع قبل الأسبوع الأول من شهر أيلول ، وهي فترة لا يمكننا الصمود إلى نهايتها إذا ما سمحنا للمتطرفين بالمضي قدماً على طريق إثارة المشاكل .

إلا أن جهودهما باءت بالفشل . وقد عاد السير برسي وهو يشعر بالحزن إزاء إخفاقه في إقناع الملك في التعاون معه على اتخاذ ما يلزم من إجراءات ضرورية ، ومع ذلك فقد قرر القيام باتخاذ ما يلزم من غير موافقة الملك . ولم أعد على علم بما تقرر اتخاذه من إجراءات بالضبط إلا بعد وصولي إلى مكتبي في صباح اليوم التالي عندما علق السير برسي قائلاً أن رجال الشرطة منهمكون في إلقاء القبض على سبعة من كبار مثيري الفتن والقلاقل في بغداد ، وأن الصحيفتين المتطرفتين قد تم إغلاقهما ، كما تم حل الحزبين المتطرفين بشكل مفاجئ ومن دون مراعاة للإجراءات المعتمدة اعتيادياً في مثل هذه الممارسات .[٧]

---

(٧)برغم كل ما تتميز به الآنسة بيل من موضوعية في إطار تفكيرها الاستعماري المشوب بلمسات لبرالية واضحة ، إلا أنها تجنح أحياناً إلى تفادي ذكر تفاصيل قد تعطي في حال ذكرها لوناً مغايراً للصورة المراد طرحها . وهذا ما ينطبق تماماً على ذكر التفاصيل الدقيقة المتصلة بالحوار الذي دار بين جلالة المغفور له الملك فيصل الأول وكل من السير برسي و المستر كورنواليس قبيل إجراء عملية استئصال الزائدة الدودية للملك ، وما ترتب على هذا الحوار لاحقاً من إجراءات تعسفية من لدن ممثل دولة عظمى كانت قد ألزمت الملك ==

قضينا صباح اليوم بشيء من القلق وعدم الارتياح . لقد تمكن رجال الشرطة من إلقاء القبض على ثلاثة من المتطرفين ، شاء حسن الطالع أن يكونوا الأخطر من بين السبعة المطلوبين ، أما الآخرون فقد استطاعوا الهرب متنكرين بزي النساء . وعندما تركت المكتب في الساعة الواحدة من بعد الظهر ، كانت الشائعات تشير إلى أن أصدقاء السيد محمد جعفر أبو التمن كانوا يتهيؤون للقيام بمظاهرة - إنه الشخص الأخطر من بين المتطرفين كافة ، وقد تم اعتقاله . هذا وقد عمدنا إلى وضع قوات عسكرية وعجلات مدرعة عند بوابات

== فيصل بضرورة اعتماد نظام حكم يقوم أولاً وأخراً على أسس ديمقراطية كشرط أساسي لاعتلائه عرش البلاد . والديمقراطية كما يفهم الجميع منهج يبتعد كل البعد عن أية وسيلة تعسفية بصرف النظر عن مسبباتها .

كان السير برسي عازماً على اتخاذ الخطوات الكفيلة بقمع كل نشاطات العناصر الوطنية التي شاءت الآنسة بيل تسميتها بالمتطرفة . وقد شكل مرض الملك المفاجئ بالفعل فرصة ذهبية لم يستطع السير برسي مقاومة إغرائها في مضمار تنفيذ مأربه . وقبيل إجراء العملية كان لكوكس وكورنواليس لقاء مع الملك اتصلت به روايتان تتشابهان من حيث المضمون العام ولا تختلفان إلا بتفاصيل ثانوية لا أهمية لها . وكان مصدر الأولى جلالة الملك نفسه ، وهي ما رواه أمين الريحاني في كتابه «فيصل الأول» ، وكان مصدر الثانية كورنواليس وهي ما رواه الكاتب البريطاني فيليب غريفس Philip Graves في كتابه «سيرة حياة السير برسي كوكس» The life of Sir Percy Cox . وخلاصة الرواية هي أن كوكس وكورنواليس قاما بمقابلة الملك بعد الاستئذان من أطبائه ، وشرحا له خطورة الوضع في البلاد وما يتطلبه أمنها واستقرارها من إجراءات حاسمة تنطلق أولاً وأخراً من ضرورة توقف جلالته عن تأييد العناصر المتطرفة ، وبذلك طالباه بإصدار أمره بإلقاء القبض على سبعة من قادة المتطرفين ، وهو أمر رفضه الملك رفضاً قاطعاً مبيناً احتمال موته أثناء إجراء العملية وبذلك تأبى نفسه أن يكون العمل هذا آخر ما يقوم به قبل لقاء وجه ربه الكريم ، إلى جانب ما يترتب عليه بالتأكيد من هيجان شعبي عارم . وبذلك انصرف كوكس وكورنواليس بخفي حنين وفوت الملك عليهما فرصة منحهما الموافقة على توقيف زعماء المعارضة وشل الحركة الوطنية ، وهو موقف وطني وأصيل جدير بالثناء ، وكان أجدى بالآنسة بيل إيضاح هذا الجانب وإن جاء متعارضاً مع المصالح البريطانية وذلك انطلاقاً من مبدأ قول الحق بصرف النظر عن الميول والأهواء . والغريب في الأمر هو سكوت السير برسي كوكس ، وخلو تقاريره الرسمية ، عن كل ذكر لما دار مع الملك من حوار ، ولعل الريحاني قد أصاب في تعليقه على هذا السياق بالقول أن « الكريم من ستر إهانته» الأمر الذي يفسر بشكل منطقي غياب أي ذكر لهذا السياق في تقارير المندوب السامي- المترجم .

المدن ، إلا أنها كانت استعدادات لا حاجة لها . إن الشيء الذي كنا دائماً نتنبأ للملك بحدوثه قد حدث فعلاً . لقد انهار المتطرفون . وثمة بلاغ جدير بالثناء تم نشره في تلك الليلة باللغتين العربية والإنجليزية . إنه إجراء يعكس صورة السير برسي كوكس بالشكل الأفضل ، وهو إنجاز لا يمكن لأحد أن يضاهيه في تحقيقه . لقد كان له وقع آني - وهو ما كنا دائماً على بينة تامة منه ، وقد قام كورنواليس بدوره باستدعاء ما يقرب من ثلاثين شخصاً من بين الذوات وأصحاب المقامات الاجتماعية الرفيعة وقرأ عليهم نص البلاغ آنف الذكر ، وقد أعربوا جميعاً عن سرورهم إزاء ما تم اتخاذه من إجراء ، ولم يكن نوري وجعفر ، هذان الوطنيان الغيوران ، أقلهم فرحة .

لقد تمكن السير برسي من إنقاذ الموقف ، ومنح الملك منفذاً يمكنه الانطلاق من خلاله ، وذلك عندما يكون قادراً على الانطلاق ، وعندما يحين ذلك الوقت - إذ أن في الإمكان إطالة فترة نقاهته إذا ما وجد لذلك ضرورة - نكون قد استلمنا جواباً واضحاً من الوطن . وفي نفس الوقت راح المعتدلون يرفعون رؤوسهم إلى أعلى ، فصفوف حزب السيد محمود تتعزز نتيجة مشاركة أعضاء جدد ، وما أن تتضح لأبناء مراكز الألوية والمناطق الريفية صورة ما حدث في بغداد حتى يجد المتطرفون ضرورة ملحة لقيامهم ببناء سفينة نوح لهم يتمكنون بواسطتها الهروب من الطوفان السياسي .

إن ناجي السويدي رجل كفؤ على الرغم من كونه مراوغاً ، وقد عمد إلى طرح «خطة متميزة» تستهدف الحصول على تشكيلة واسعة من التواقيع من قبل أبناء مراكز الألوية والمناطق الريفية لصالح الدعم البريطاني للدولة العربية (العراقية) مع ترك تسوية موضوع الانتداب بيد كل من بريطانيا وعصبة الأمم .

ولهذه المرة فقط سلكت الأقدار إزاءنا سلوك رجل مهذب (جنتلمان) - لما كان الملك عاجزاً عن استجماع ما يكفيه من الشجاعة لاتخاذ موقف صريح ، شكل مرضه مناسبة ميمونة لا تضاهى . إلا أن ما يتوجب الاعتراف به هو أن نصيب الأقدار من الثناء لا يمكنه إلا أن يكون قليلاً نسبياً قياسا بما يجب أن يعود منه إلى السير برسي الذي لم يخطأ لحد الآن في اتخاذ القرار ، أي قرار ، ولا بتنفيذه . وإذا ما قدر للدول العربية (في يوم ما) أن تجمع شتاتها لتشكل دولة (موحدة) فعلى هذه الدولة أن تتجه إلى السير برسي كوكس بالشكر والثناء ، لا إلى غيره من الأطراف . ومن جانب آخر ، إنه لأمر يدفعني إلى الضحك ، يا أبتاه ، كلما تصورت كيف سيتم لكم قراءة ما تكتبه الصحف عن خبر مرض الملك .»

وفي الحادي والثلاثين من شهر آب كتبت تقول : «لم تكن قد مضت مدة طويلة على

وصولي إلى المكتب صباح يوم الاثنين عندما أُعلن عن حضور ياسين باشا لزيارتي . وكنت قد سمعت من الرائد بيتس تفاصيل نضاله في الناصرية حيث تم تعيينه متصرفاً لهذا اللواء منذ ستة أسابيع ، وما حققه من فهم تدريجي للمشكلة العشائرية ، و إدراكه التام بتعذر تحقيق تسوية مناسبة لها بما ينسجم مع آراء الملك ورجال السياسة في بغداد . وقد شعرت بامتنان شديد لقيامه بزيارتي مباشرة بعد وصوله إلى بغداد . ورداً على سؤالي له ما إذا كان قد تعلم الدرس ، أجابني بأنه قد تعلم ما يمكن لأي مرء أن يتعلمه في أربعين يوماً . وإزاء هذا الجواب نط قلبي فرحاً - فقليل من أبناء العرب هم الذين لا يعتقدون بأنهم يعرفون كل شيء خارج حدود ما تلقنهم التجارب من دروس وعبر . ثم راح ياسين يعبر عما ينتابه من قلق حول مصير البلاد . لقد تم له الاطلاع على ترجمة لأحكام المعاهدة ، وهو النص الذي كان قد تم تداوله في بغداد ، ويرى نتيجة ذلك أن ما تميزت به نصوصها من تسامح وكرم لأمر ما كان لأي عراقي توقعه ، وقد أبدى تعجبه عن عدم قبول الملك بها ، وأضاف قائلاً أن الذنب هو ذنبنا لإخفاقنا في السيطرة عليه وتركه ينقاد لأناس يقومون بتوجيهه ، ونحن من ورائه ، إلى الهاوية .

وإزاء إثارتي بهذا الشكل أخبرته بأن كل جهودنا - أنا والمستر كورنواليس والنقيب كلايتون - التي انصرفت إلى إقناعه بالحيلة والمنطق تارة ، وبالتخاصم معه تارة أخرى ، قد باءت بالفشل . ثم تساءلت عما عسانا أن نفعل حيال موافقته على القيام باعتماد توجه معين ، وذلك بعد أن يكون قد وصل إلى اتفاق حوله مع كل من السير برسي والمستر كورنواليس ، ومن ثم اللجوء إلى توجه مغاير تماماً بمجرد انصرافهما عنه؟ أجابني ياسين بأنه كان على بينة من هذا الجانب وأضاف أن أي شخص يأتي من السوق لمقابلة الملك بإمكانه أن يقنعه بتغيير موقفه . ثم أوضح مبيناً بصراحة : «قد يكون هو الملك ، إلا أن العراق يأتي بالدرجة الأولى !

إنني مؤمنة بأن ياسين هو الرجل الذي جاء به القدر . إنه أكثر ذكاءً وفاعلية من أي عربي آخر قُدر لي معرفته . ولعله لا يملك ما لدى علي السليمان من متانة الخلق ، إلا أنه أوسع معرفة وأكثر إطلاعاً من الأخير هذا . إن الملك يدرك ما لياسين من قوة ، ويخشاها ، إلا أنه يؤمن ، انطلاقاً من غروره المفرط ، أن بإمكانه استعباد ياسين ، وإخضاعه لمشيئته ، من أجل استخدامه لتنفيذ مآربه . وسوف يتمكن ياسين ، على ما أعتقد ، من أن يحظى برعاية الملك عبر التظاهر بالخضوع ، ومتى ما تم له ضمان موقعه والسيطرة على الأمور سيحكم قبضته على الملك ويجبره على الرضوخ لمشيئته وتطبيق ما يرغب اعتماده من توجه .

وسيتلوى الملك مثل ثعبان في محاولة منه للتخلص من نير استعباد ياسين ، ومن المحتمل جداً أن يتحدد مصير العراق آنئذ في حال رجحت كفة ياسين وقُدر أن تكون له اليد العليا . وإذا ما تم له ذلك سيعيد تاريخ بلاد ما بين النهرين سياقاته السابقة ، إذ سيصبح ياسين سيد القصر الحاكم ، إن صح هذا التعبير ، ولن يكون الملك أكثر من رئيس صوري للدولة . وإنه لمن دواعي أسفي أن أجد نفسي مجبرة على الاعتراف بأن فيصل لا يصلح لغير هذا الوضع ، فهو شخص بجمع بين الغرور والضعف والتخوف في آن واحد ، وإن ما يؤمن به من مثل عليا لن يتم الإيفاء بها .

تناولت طعام العشاء بصحبة ياسين وكورواليس في تلك الأمسية . وقد لا تظن ، يا أبي العزيز ، أن ما دار بيننا من حديث بعد العشاء في الشرفة المطلة على نهر دجلة يتسم بأية أهمية ، ولكن دعني أؤكد لك بأننا كنا نحاول تسوية مشاكل العالم التي لم يكن أقلها شأناً العلاقة التي تربط الشرق بالغرب والتي تعتمد عليها نسبة عالية من خير العالم ورفاهيته .

في الحين ذاته تم للملك استعادة عافيته بسرعة فائقة - ولربما أسرع مما كان ينبغي لها .

تفيد كل التقارير الواردة من الألوية وتشكيلاتها الإدارية بأن الإجراء الذي اتخذه السير برسي قد قوبل باستحسان كبير . وقد تم اتخاذ إجراءات صارمة في كل من الديوانية والشامية لغرض توطيد الأمن والاستقرار ، وقد نجحت الغارات الجوية التي تم تنفيذها في إخضاع الأكثر تطرفاً من بين شيوخ العشائر . ولعل النصر الأكبر الذي حققه السير برسي كان ذلك المتصل بإجراءاته التي اتخذها بحق السيد محمد الصدر والشيخ محمد مهدي الخالصي اللذين يعتبران أخطر علماء الكاظمية . وقد أرسل إليهما خبراً مفاده أنه حريص جداً على المحافظة على ما لكبار رجال الدين من حرمة ومكانة سامية ، وانطلاقاً من ذلك ، وتفادياً لضرورة لجوئه إلى نفيهم بالقوة ، فإنه يشير عليهم بضرورة السفر إلى بلاد فارس (بسبب كونهما من التبعية الفارسية) . وقد رحلا في ليلة التاسع والعشرين من شهر آب .

لقد عشنا لحظات مضحكة للغاية فيما يتصل بعمليات إلقاء القبض على المتطرفين . لقد كان المحرضون على ثقة تامة من دعم الملك ووقوفه خلف ممارساتهم الأمر الذي دفعهم إلى اتخاذ مواقف تتميز بالشجاعة والصلابة . ففي صباح السادس والعشرين (من آب) راجع كل من السيدين حمدي الباجه جي وجعفر أبو التمن مديرية التحريات الجنائية للإعلان عن احتجاجهما ضد ما تم اعتماده من إجراءات ، وقد قوبلا بحماس واهتمام شديدين ليسلما بعد ذلك إلى الشرطة . وكان من شأن الفقرة التي وردت في إعلان المندوب السامي ، والتي نصت على أن أربعة آخرين كانوا مطلوبين للعدالة ، أن تثير الرعب في نفوس ما يقرب

من أربعين من الجناة الذين سارعوا إلى الاختفاء كالأرانب . إنهم يظهرون من مخابئهم تدريجياً وسط شجب إخوانهم المواطنين واستهزائهم منهم .»

وفي الثامن من أيلول كتبت تقول : «إن النجاح الباهر الذي حققه «انقلاب» السير برسي في مجال توطيد أركان الاستقرار الداخلي لم يكد يأتي بأكله حتى اتخذ الخطر الخارجي أبعاداً جديدة وهائلة . فبفضل تدبير من لدن الكماليين ، قامت قوات عشائرية كردية بشن هجوم أجبرنا على إخلاء منطقة رانيا من لواء السليمانية . إنني لا أعتبر هذا التراجع خسارة كبيرة إذ أن المنطقة المذكورة لم تكن أكثر من بؤرة مشاكل لا تقوم في أفضل الظروف بسد ما يترتب على إدارتها وحكمها من نفقات ، إلا أن التراجع أمام قوات عشائرية متمردة خطر في كل الظروف والأوقات ليس إلا . ثم تلا ذلك انسحاب أفرادنا من مدينة السليمانية الأمر الذي أضاع جهود أربع سنوات من العمل المتميز والدؤوب ، وقد جاء ذلك نتيجة حملة دعائية مسعورة من لدن الكماليين الذين وجدوا في المناطق الجبلية الوعرة الواقعة على الحدود مرتعاً خصباً لنشاطاتهم . وما السبب في كل ذلك ؟ السبب هو أننا ، ومنذ الهدنة مع تركيا ، أهملنا النظر في القضية التركية . إن كل من يعرف تركيا من بين أفرادنا العاملين هنا يدرك جيداً أن معاهدة سفريس Treaty of Sevres كانت إجراءً تعسفياً ، وتدبيراً لا يمكن تطبيق أحكامه ، ومع ذلك لم يكن لأي منا صوت مسموع يمكن من خلاله شرح واقع الحال لذوي الحل والربط من قادتنا . وأخيراً ، وليس آخراً ، فإن الأسلحة والذخائر التي تم للفرنسيين توفيرها للكماليين قد لعبت دوراً حاسماً في تحقيق نتائج ناجحة عجزت عن تحقيقها المعرفة والأساليب المنطقية . إن الفرنسيين لا يبدون لي أكثر من أمة قوامها أعداد من الأوغاد والمجانين بنسب لا يمكن تقديرها .

إن الوضع على حدودنا الشرقية مستقر حتى الآن على خلاف ما هو متوقع . ولقد أصر الرائد نوئيل Major Noel ، الضابط السياسي المسؤول عن منطقة حلبجة الواقعة في أقصى جنوب لواء السليمانية ، على البقاء في موقع عمله انطلاقاً من إيمانه بإمكانية إبقاء عشائر المنطقة في حالة هدوء ، فضلاً عن اعتقاده بسهولة مبارحته المنطقة متى شاء بمجرد امتطائه صهوة جواده والانطلاق بعيداً عنها . إنه إنسان غير اعتيادي - إن احتمال قيامه بتأسيس جمهورية في السليمانية تحت زعامته يعتبر أمراً في حدود الممكن !

وعودة إلى الملك : ذهبت لزيارته قبل أسبوع فوجدته يعاني من وهن ، إلا أن سروره بلقائي كان مؤثراً جداً . ولم يكن قد تمت إفادته بتفاصيل ما حدث منذ أن أُجريت له العملية ، كما أنه لم يعمد من جانبه إلى الاستفسار عما جرى . وبقيتُ معه حتى الساعة

السادسة ، أي حتى موعد زيارة الأطباء الذين بدا ظهورهم أشبه بمشهد من أوبرا كوميدية ؛ كان على رأس المجموعة الدكتور سندرسن والنقيب الجراح أبراهام وهما من بين خيرة الأطباء الماهرين ، وإليهما يعود الفضل في بقاء الملك حياً . ودخل بعد الطبيبين البريطانيين طبيبان عربيان غير كفؤين تماماً ، وهما يتقدمان حشداً من الشهود الذين يبقى أمر وجودهم جانباً لا يمكن تعليله ، وكانوا حضوراً عندما أجريت العملية - لقد دُعي أطباء بغداد كلهم على ما يبدو ![٨]

بعد هذه المناسبة المذكورة أصبحت أزوره عصر كل يوم . وفي اليوم الثالث من إجراء العملية أخبره كورنواليس بتفاصيل ما قام به كوكس من إجراء ، وقد حدثني (الملك) بدوره عن الأمر بمزاج من لقي الإجراء قبولاً تاماً عنده . وفي اليوم الخامس طلب مني السر برسي إعلام جلالته بتفاصيل الوضع التركي في منطقة الأناضول في ضوء آخر ما نقلته برقيات المستر تشرشل الموجهة إلينا من أخبار . لقد أقلقته هذه الأخبار إلى حد كبير ، وكما بين جلالته بحق فإنه يعتبر الكماليين ألد أعدائه ، وقد عبر عن شكوكه إزاء تمكننا من منع تقدمهم نحو الموصل .

لم أزره اليوم ، بل أمضيت العصر مع عائلة دايفدسون وذلك بمناسبة قرب مبارحة السيدة دايفدسون إلى الوطن - ستغادرنا في غضون الأسبوع القادم ، وسأفتقدها كثيراً . إنها ذاهبة لتلد طفلها الأول بعد سبعة أعوام من الزواج . والسيدة دايفدسون لا تقل أسفاً عني لإضطرارها إلى الرحيل ، وقد عبرت عن ذلك لاحقاً بقولها :

---

(٨) سامحك الله يا آنسة بيل ! متى كان مظهر الفرد انعكاساً حقيقياً لجوهره ؟ إن الطبيبين اللذين وصفتهما الآنسة بيل بعدم الكفاية كانا على حد علمي كل من الدكتور أمين معلوف والجراح العراقي المعروف صائب شوكت . إنني لا أعرف الكثير عن الأول إلا أن الدكتور صائب شوكت كان من بين الرعيل الأول من الأطباء الذين عادوا إلى العراق في بداية القرن العشرين ، وكان من خيرة الجراحين ، والذي تتلمذ على يده الكثير من الجراحين العراقيين والعرب المشهورين ، وإن كفايته ومهارته الطبيتين غنيتان عن التعريف . وفي الوقت الذي ادعى سندرسن (الذي أصبح فيما بعد سندرسن باشا بعد ترفيعه إلى رتبة لواء) أنه هو الذي شخص المرض ، وأن أمين معلوف شخص الحالة بأنها لم تكن أكثر من أمر طارئ وبسيط توقع زواله بسرعة ، بينما يقول الدكتور صائب أن سندرسن شخص الحالة بأنها ملاريا ! وجدير بالذكر أن الدكتور هاري سندرسن لم يكن أكثر من طبيب عام ، أي أنه لم يكن ذا اختصاص ، كما أن دوره في هذه العملية اقتصر على التخدير ! - المترجم

«كم كرهت مغادرة بغداد ، وبشكل خاص فراق جيرتروود التي ارتبطت بها بصداقة متينة ، لن أتوقف أبداً عن الاعتزاز بها دوماً ، واعتبارها من بين أثمن جوانب حياتي .»

وفي العاشر من شهر أيلول كتبت قائلة : «تناول المستر إدموندز Mr.Edmonds طعام الغداء معي ، وكان يشغل منصب الضابط السياسي في رانية ، وهو شخص كفؤ ولطيف للغاية . ويرى إدموندز أن الإجراء الصحيح هو إعادة الشيخ محمود (أي الشيخ محمود الحفيد البرزنجي) إلى المنطقة ، وفي حال طلب الشيخ محمود حمايتنا يصار إلى تعيين ضابط سياسي معه للعمل بصفة ضابط ارتباط يتولى التنسيق مع بغداد من غير ممارسة أي عمل إداري . وإذا ما تمكنا من إدامة علاقة طيبة معه (أي مع الشيخ محمود) ، ودعم استقلال الجزء الذي يسيطر عليه من كردستان ، سنكون قد أقمنا منطقة عازلة بين العراق وتركيا . وقد تتساءل أبتاه كيف يمكن لرجل مثل الشيخ محمود ، باعتباره محتالاً شريراً (كذا)[٩] ، أن يفرض هيمنته على المنطقة ، والجواب على ذلك لا يكمن في مجرد كونه آغاً كردياً فحسب ، شأنه بذلك شأن ما يمارسه أي آغا من نفوذ مذهل على أفراد عشيرته ، بل يكمن كذلك في واقع كونه شخصية دينية مقدسة .»

وكتبت في الرابع عشر من أيلول قائلة : «غادرت السيدة دايفدسون بغداد ليلة أمس مما أثار الحزن في نفوسنا جميعاً . رباه ! ما أشد أسفي على فراقها !»

وفيما يتعلق بلقاء هام كان قد تم قبل بضعة أيام ، وجمع كلاً من السير برسي والمستر كورنواليس بجلالة الملك ، أفادت جيرتروود بأنه قد تم بشكل أفضل مما كانت تتوقع . وبهذا الصدد نجدها تقول : «أقر جلالته كل ما قام السير برسي باتخاذه من إجراءات ، ووعد بتكليف النقيب بتشكيل وزارة جديدة ، إلا أنه غضب عندما أخبره (السير برسي) بضرورة عدم تدخله بالتفاصيل الإدارية ، لا سيما ما يتعلق منها بالتعيينات ، ورفض رفضاً قاطعاً أن

(٩) هذا تجني صارخ لا مبرر له بالمرة على قائد وزعيم ديني ، وتوجه يقف بعيداً عن متطلبات الذوق السليم . كان المرحوم الشيخ محمود بن الشيخ سعيد الحفيد البرزنجي من بين زعماء الطرق الصوفية من الشيوخ وبذلك كان يتمتع باحترام على نطاق واسع جداً ، وهو سليل عائلة كردية عريقة أنجبت قادة لأتباع الطريقة القادرية (نسبة إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني) في السليمانية ، كما كان الأكبر من بين ملاك الأراضي ، والزعيم العشائري الأول ، لمناطق كردستان الجنوبية . وقد عُرف الشيخ محمود بلقب الشيخ الثائر وذلك لمقاومته كل صيغة من صيغ الحكم كلما سنحت له الفرصة للقيام بذلك . ويعود هذا التجني من قبل الآنسة بيل أساساً إلى تطلعات الشيخ محمود وطموحاته القومية التي كانت تتعارض مع ثوابت سياسية معينة - المترجم .

يتم اختيار رئيس ديوانه الملكي ، وكبير أمنائه ، وتعيينهما من قبل مجلس الوزراء القائم .

وصل الشيخ محمود إلى بغداد ، ويقول الرائد نوئيل عنه أنه بدا مشوش الفكر ومرتبكاً ، وغير ميال إلى الاضطلاع عبء مسؤولية السليمانية ، بل بدا تواقاً إلى العودة إلى حياة الهدوء والراحة التي عاشها خلال فترة اعتقاله في الكويت .»

وفي الرابع والعشرين من أيلول كتبت تقول : « شكل وصول الأمير زيد بن الحسين ، الأخ (غير الشقيق) الأصغر لجلالة الملك ، إلى بغداد مناسبة تميزت بالإثارة والبهجة . فعلى مدى فترة الستة أشهر الأخيرة ، راح هذا الأمير يحاول جاهداً إقناع والده الملك الحسين بالسماح له بالسفر ، إلا أن الملك حسين كان يصر على بقائه في مكة .

وكانت هناك حالة إثارة أخرى تسببها موقف ياسين باشا الهاشمي - وهي مناسبة كانت أقل بهجة من سابقتها ، أي مناسبة وصول الأمير زيد . كان قد تم التوصل إلى قرار يتعلق بتعين الهاشمي وزيراً للداخلية شريطة أن يكون على استعداد لدعم المعاهدة . وكانت جيرترورود قد أخذت تلتقيه كثيراً ، وكان هو بدوره قد أعرب لها وللعديد من زملائه عن موقفه المؤيد للدعم البريطاني للعراق . وفي حال تم إزالة الغموض عن جانب أو أكثر من الجوانب غير الواضحة ، يبرز ياسين باعتباره الرجل الأفضل للقيام بهذه المهمة . إلا أن ثمة أمر قد تم اكتشافه فيما يتعلق به ، وهو قيامه قبل ستة أسابيع ، وعندما كان يشغل منصب متصرف لواء الناصرية ، بتوجيه رسالة إلى السيد رشيد أبو التمن تضمنت الحاشية التالية : أرجو تفضلكم بتقديم تحياتي واحترامي إلى السيد جعفر جله بي وإعلامه بأنني بانتظار أوامره . نأمل إن شاء الله تعالى أن تتكلل بالنجاح جهودنا الرامية إلى طرد الظالمين .» وقد قام رشيد أبو التمن بتسليم هذه الرسالة إلى مفتش الأمن العام . وبذلك بات لزاماً على ياسين توضيح موقفه بشكل مرض ، وخلاف ذلك يتم صرف النظر عن تعيينه في المنصب المذكور . وقد تم لياسين فعلاً توضيح موقفه أمام الملك بالقول أن ما كتبه لم يكن أكثر من عبارات مجاملة ليس إلا ، وبذلك فهو لم يقصد استعداده لتلقي الأوامر من جعفر أبو التمن أو من غيره . إننا لا نبالي عندما يقال لنا أننا ظالمون أوغاد ، بل على العكس من ذلك إذ لربما يتعين علينا الإجابة على ذلك بالقول : بحق الإله جوبتر إننا فعلاً كذلك ، أو كما عبرت عنه بالعربية «لعلنا كذلك ! الله أعلم !» أما أن يقال لنا من جانب «إنكم أمل خلاص بلدي» ، وهو ما تقصد ياسين الإعلان عنه أمامنا ، ليعود فيكتب من جانب آخر «نأمل إن شاء الله تعالى أن تتكلل بالنجاح جهودنا الرامية إلى طرد الظالمين» فأمر لا يمكننا أن نغفره ، أو نتغاضى عنه . أما الملك فإنه يميل إلى التغاضي عنه باعتباره يمثل عبارة مجاملة ليس إلا ،

ويقول في هذا الخصوص : «أعلم جيداً أنكم تفكرون في هذا الاتجاه ، إلا أنه ليس اتجاهنا . ولابد لكم أن تدركوا أننا قد استُعبدنا على مدى ستة قرون من الزمن ، ولابد للعبد من أن يحمي نفسه بالحيلة والدهاء . إنه يُضطر إلى إرضاء كل الأطراف ، حتى أنا أقوم بذلك ! إننا لم نتمتع بقرون من الحرية التي من شأنها أن تعلم المرء منا كيف يكون حراً .» جاء كلام الملك بمثابة مناشدة للرحمة ، بيد أن ما قاله صحيح جداً ، وقد عبر عنه بكل وضوح وبساطة . «ومع ذلك يبقى أمر الاستفادة من ياسين مشكوكاً فيه بسبب انصرافه إلى الأعراب عن رأي آخر مفاده أن المعاهدة لا يمكن التوقيع عليها بصيغتها الحالية التي تمكن الحكومة البريطانية من إعاقة مسيرة الحكومة العربية . وهنا تعود جيرتروود لتواصل كتابة رسالتها بالقول : «وكنت قد تمكنت من تكييف نفسي وفق هذا الإطار الفكري ، وبذلك أجبت الملك بما مفاده أن جلالته سيتمكن يوماً ما من استخدام ياسين ، وهو أمر أرى أن تحقيقه مؤكدٌ - فهو الرجل المطلوب ، ولكنه رجل ولد في آسيا لا في أوربا ، واعتقد بأنه سيتمكن أخيراً من نيل العلى .»

وفي الثامن والعشرين من أيلول كتبت تقول : « الأتراك ، قاتلهم الله ، يعدون العدة للقيام بهجوم آخر ينوون توجيهه هذه المرة ضد مدينة عقرة ، شمال أربيل . ليست لديهم قوة ، إلا أنهم يلوحون قبضة يدهم مهددين العشائر الكردية ، ولأننا قد آثرنا حتى الآن وضع قبضة يدنا في جيبنا ، فإنهم (العشائر) يظنون أن الأتراك هم الطرف الوحيد الذي يملك قبضة ! ولهذا السبب أضعنا السليمانية . إننا عمدنا إلى اتخاذ الإجراءات ، إلا أننا لم نقم بذلك إلا بعد فوات الأوان - بل وبعد مرور ثمان وأربعين ساعة على فوات الأوان .

تم تشكيل مجلس الوزراء الجديد ، إلا أنه لم يبد في مستوى الطموح المطلوب . وفي تلك اللحظة ، عندما انصب جل اهتمامنا في بوتقة مقارعة الدعاية التركية ، لم يتم استوزار أي من العناصر الوطنية ، بل اكتفينا فقط بعملية تعديل في المناصب الوزارية . إن وجه الملك متجه نحو الغرب ، وأنا من جانبي كنت على استعداد تام لبذل كل ما يمكن من جهود من أجل تشكيل مجلس للوزراء ينسجم تماماً مع رغباته ، الا أن ياسين خذله مثلما خذلنا ، أما ناجي السويدي - الذي كان الملك يرغب في إستوزاره في حال أخفق في إستوزار ياسين - فشخص لا يحظى بحب النقيب . لتكن السماء في عوننا !»

وفي الثامن من شهر تشرين الأول كتبت تقول : «زارني النقيب كلايتون يوم الأحد المنصرم بعد غياب دام فترة أسبوعين . قضينا قرابة ساعتين من الزمن في حديث متواصل . وفي المساء ذهبنا بصحبة المستر دايفدسون لتناول طعام العشاء مع المستر كورنواليس - أي

اجتماعنا الاعتيادي في أيام الآحاد . كان أمراً رائعاً أن نعود إلى الاجتماع معاً لأننا أصدقاء حميمون ، وإن هذه الاجتماعات تدخل البهجة إلى نفوسنا باعتبارها المناسبات التي يذكر كورنواليس بتبجح أنها تضم «أصحاب العقول الأفضل في العراق!»

وكان ذلك في نفس اليوم الذي تولى فيه اللواء الطيار السير جون سالموند Air Vice Marshal Sir John Salmond مهام منصبه . وفي اليوم التالي عُقد مؤتمر هام تم للسير جون ، والسير برسي ، والمعنيين بالأمر كافة مناقشة الوضع العام . وقد أخبرني المستر كونواليس لاحقاً بأن المؤتمر أوفى بالغرض الذي تم من أجله انعقاده . وقد أعرب السير جون عن استعداده التام لتقديم ما يمكنه من دعم ومساعدة .

في ساعة مبكرة من يوم الثلاثاء رافق كل من كورنواليس وجيرتروود الملك وأخاه الأمير زيد إلى بعقوبة حيث أمضوا اليوم كله في مزرعة السيد فخري الجميل تلبية لدعوة كان قد وجهها لهم . وحول هذه المزرعة كتبت جيرتروود قائلة : «إنها من الجمال ما يعجز القلم عن وصفه ، وقد احتوت على مالا يصدقه العقل من أنواع الكروم ، وغياض النخيل ، وأشجار الرمان والبرتقال التي كانت تنوء بحمل ثمارها وتنظر من عليائها إلى التيار الخريفي لنهر ديالى وهو ينساب بضعف من بين جرفين عاليين .

أما المناسبة المثيرة التالية فتمثلت بعودة الرائد نوئيل من السليمانية ، والذي أعلن فيها أن زمام الأمور قد فلت هناك . فالشيخ محمود يريد تنصيب نفسه ملكاً على كردستان موحدة ، سواء رغب أهلها فيه ملكاً أم لم يرغبوا . ونحن ندرك يقيناً أن القسم الأكبر من بين المأمول بهم أن يغدوا أفراد رعيته لا يرغبون فيه بالمرة أساساً .

يوم أمس حضر الرائد نوئيل إلى داري حيث استضفته ، لتناول طعام الغذاء ، ثم عاد بعد ذلك إلى السليمانية ليلاً . وقد وصف لي وضعاً تتعرض فيه حياته للخطر في كل ساعة قال بأنه يمثل «تجربة تثير الاهتمام» ، وراح يتحرك في الغرفة جيئة وذهاباً وهو يصف لي مشاهد لا تصدق ؛ السكان كلهم يخرجون مفعومين بحماسهم الوطني لاستقبال الشيخ محمود ، وليعمدوا بعد ذلك إلى تحميل الرائد نوئيل عريضة موجهة إلى سيادة المندوب السامي يطلبون منه القيام بتوفير كل وسائل الحماية الممكنة لهم مع تحمل كل ما يترتب على ذلك من نفقات ، أي أنهم يرغبون التمتع بهذه بالحماية على حسابنا الخاص ! إلا أن الرائد نوئيل قد عاد إلى كردستان حاملاً نسخة من مسودة المعاهدة المزمع عقدها مع العراق ليخبرهم بأن هذا ما يمكننا منحه ولا خيار لهم سوى القبول به أو رفضه . إنهم سيصابون بخيبة أمل على ما أخشى .

إن الرائد نوئيل رجل كريم وعطوف، وله خدام محليون يتفانون في خدمته ويوافونه بكل ما يدور في الأسواق والمقاهي من كلام وشائعات، وعن طريقهم يقوم ببث ما يريد من المواطنين تصديقه من أخبار. فقد طرق سمعه، على سبيل المثال، أن مدينة السليمانية تهنئ نفسها على وجود شخص «إنجليزي» في وسطها وذلك لسبب بسيط جداً هو أنه في حال ساءت الأوضاع وقرر البريطانيون قصف المدينة بالإمكان الاحتفاظ بهذا «الإنجليزي بهدف إجبار السلطات البريطانية على افتدائه. وإزاء ذلك قام ببث معلومة مفادها أنه قد عقد صفقة مع حكومة جلالة ملك بريطانيا مفادها أنه في حال تعرض إلى ظروف صعبة لا يصار إلى أخذ ما قد تؤول إليه حالته بعين الاعتبار، وفي حال وفاته يتم دفع مبلغ عشرة آلاف باون استرليني؟ ١٠,٠٠٠ إلى أقربائه. ونتيجة ذلك نبذ أهل السليمانية فكرة اتخاذه درعاً بشرياً ضد القصف الجوي.

وفي الثاني عشر من شهر تشرين الأول كتبت تقول: «خرجت من الدار لأقضي حاجة لي في الأسواق قبل موعد الشاي وإذا بالمندوب السامي يمر من أمامي بسيارته مرتدياً كامل بزته الرسمية ومتجهاً إلى دار السيد عبد الرحمن النقيب. وإزاء ذلك لم يسعني سوى الاستنتاج أن الساعة الخامسة تمثل ساعة الصفر، وهذا ما كان ينبغي لها أن تكون. إلا أن السير برسي وجد النقيب معصوب الرأس نتيجة معاناته من ألم في إحدى أذنيه الأمر الذي لم يترك مجالاً لاستخدام الحبر والورق والأقلام، وبذلك دار حديث عام بين الرجلين تناول موضوع الأمطار والظروف الجيدة وكأن المعاهدة كانت أمراً لم يسمع عنه أحد. وأخيراً تساءل السير برسي مخاطباً النقيب: وماذا عن أمر المعاهدة؟ بدت على وجه النقيب نظرة تنم عن عدم فهم بما طرحه المندوب السامي نسخة من تساؤل. ثم التفت السير برسي إلى السيد حسين أفنان (الذي كان قد جاء بصحبته) قائلاً: «هل جلبتها معك؟» وإزاء هذا السؤال قدم السيد أفنان إلى المندوب السامي نسخة من المعاهدة بنصيها العربي والإنجليزي. وهنا صاح النقيب بدهشة: «رباه ما هذه؟ لا يمكنني التوقيع على هذه الوثيقة لأنني لا أعلم ما تحتويه» وهنا قال السير برسي مشيراً إلى الوثيقتين: «هذا هو النص الإنجليزي المعتمد للمعاهدة الذي يتعين التوقيع عليها، وهذا (مشيراً إلى الوثيقة الأخرى) النص العربي (المُترجم) لها.» وهنا قال النقيب: «لابد أن يكون السيد حسين إذاً مسؤولاً عنها (أي المعاهدة بصيغتها الإنجليزية) فأنا لا أفهم ما تتضمنه من نصوص» أجاب السير برسي بهدوء تام ما مفاده أن سكرتيره لا يمكنه أن يكون مسؤولاً عن المعاهدة، وهنا بدأ السيد حسين بترجمة بضع جمل من النص الإنجليزي. وإزاء ذلك رضخ النقيب للأمر الواقع وقام بالتوقيع

على كلا النصين . إنه لا يزال مريضاً . وإذا ما قضى نحبه - هذا الشيخ المسكين - فإن رحيله لن يخلو من سلوى برغم ما قد ينطوي عليه من سوء الطالع .»

وفي الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول كتبت تقول : «إنني مهتمة جداً بأخبار حملة الانتخابات العامة (في بريطانيا) . إنك تدرك جيداً لماذا لا نرغب[١٠] في فوز أسكويت لأننا لن نحصل منه على أية مساعدة أو تعاطف بالمرة . وبصفتي لبرالية[١١] ، من جانب آخر ، فإنني لا أرغب في فوز المحافظين الذي من المحتمل جداً أن يتسبب بحدوث كارثة اقتصادية وهكذا ، وبفضل عملية إسقاط بسيطة ، أجد نفسي راغبة في نجاح لويد جورج واستمراره في الحكم شريطة أن لا يكون رئيساً لحكومة ائتلافية . فعلى الرغم من اختلافي الحاد مع سياسته المعتمدة إزاء تركيا ، يعود الفضل له بالأساس في الحيلولة دون تمكن الكماليين من اجتياح إسطنبول وطهران (كذا) الأمر الذي لو قدر له أن يحدث لأضحى كارثة عظمى لا يمكن التكهن بما قد يترتب عليها من عواقب وخيمة . أما فرنسا فلم يكن لديها استعداد لمنع وقوع هذه الكارثة . ومما لاشك فيه أن مبادرة لويد جورج بهذا الصدد لم تكن أكثر من توجه زائف أو حركة مسرحية a theatrical gesture على حد تعبيرها وإن الجنرال هارنجتون General Harrington قد قام في الواقع بإنقاذ الموقف ، إلا أن ذلك ما كان ليحدث لولا الجهود المستميتة التي بذلها لويد جورج في هذا المجال . وأود القول بالمناسبة أنني لا أصدق ما يرويه دومنول حول ما حصل الفرنسيون عليه من تأكيدات بصدد إعادة الموصل إلى الأتراك ، إذ أن ما لدينا من معطيات تشكل برهاناً قاطعاً يشير إلى خلاف ذلك . وأثناء الشهر الماضي ، أي منذ قدوم اللواء الطيار السير جون سالموند ، أوشكنا على طرد كل العناصر التركية من المناطق الحدودية الكردية بفعل العمليات الجوية ذات الطابع التأديبي الصارم ، الأمر الذي أوضح لنا جميعاً ، من الملك نزولاً إلى أقل المراتب أهمية ، وبشكل لا يقبل للشك مدى اعتماد بغداد على الموصل . فمن غير الموصل تعتبر المعاهدة عديمة القيمة . ومن جانب آخر فإن السماح بدخول الأتراك (أي تسهيل عودة الموصل إليهم) يعني فتح الباب على مصراعيه أمام مذبحة واسعة النطاق يذهب ضحيتها المجتمع المسيحي الكبير بما في ذلك الإبادة النهائية للآثوريين الذين كانوا قد أُعيدوا إلى وطنهم مؤخراً ، الأمر

(١٠) أي البريطانيين العاملين في العراق - المترجم

(١١) الحزب اللبرالي (أو الحزب الحر) كان المنافس الأكبر لحزب المحافظين قبل ظهور حزب العمال على مسرح الأحداث في الربع الأول من القرن العشرين - المترجم

الذي يجلب لنا الخزي والعار . وقد أكد لنا عصمت باشا (أنونو)[١٢] شخصياً أن الكماليين لا يطالبون بأية أرض عراقية ، وهو تأكيد ينبغي لنا العمل على دفعهم (الأتراك) إلى الإيفاء به . إن معلوماتي بهذا الخصوص هي أفضل بكثير ، على ما أظن ، من معلومات دومنول . ومن خلال مأدبة غداء جمعتني بنوري باشا والنقيب كلايتون تحت سقف داري ، تمكنت من بلورة مقترح يرمي إلى السماح للعراق بإيفاد ممثل عنه إلى مؤتمر السلام . وقد صفق الملك طرباً لهذا المقترح الذي وضُع بصيغة طلب رسمي وأُرسل إلى لندن .»

وفي الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول كتبت تقول : «وصلتنا أخبار التعيينات الوزارية البريطانية ، وقد فرحت كثيراً بخبر تعيين دوق ديفونشاير The Duke of Devonshire وزيراً لنا ، وقد وجهت له رسالة أهنئه بالتعيين وأعبر له عن شعوري نحوه . إنني على ثقة من أنه سيحترم التزاماتنا . وفجأة أدركت بشكل قاطع كم كرهت العمل بإمرة ونستون تشرشل . ولابد لي من الاعتراف بأن ونستون رجل ذكي ، وإنه لم يخذلنا ، إلا أنني لست متأكدة من أنه لن يخذلنا . وقد يكون أعضاء الوزارة الجديدة أفراداً لا يتمتعون بدرجة عالية من الذكاء ، إلا أنهم ليسوا أوغاداً ، محتالين ، وهو جانب مهم للغاية على ما أعتقد .

يوم أمس بدأت هنا عملية تسجيل الناخبين الأوليين . وقد تم بموافقة الملك توجيه أوامر من قبل وزارة الداخلية إلى المستشارين في مراكز الألوية بضرورة التأكيد على المتصرفين أهمية ضمان تعيين مرشحين من ذوي التوجهات الصحيحة . إن جلالة الملك ممتعض جداً من خمول العناصر المعتدلة وبذلك فهو يخطط لتأسيس حزب جديد يضم المعتدلين ، والوطنيين المعتدلين الذين يأمل قيامهم بدعم المعاهدة بشكل علني ومن غير أية تحفظات .»

وفي الأول من تشرين الثاني كتبت : «بدأت العمل بصفتي مديراً لدائرة الآثار[١٣] . وقد وصل إلى بغداد يوم الأحد المنصرم السيد ليونارد وولي Mr. Leonard Woolley الذي

(١٢) رفيق مصطفى كمال في السلاح وخليفته في حكم تركيا ، أي أنه كان ثاني رئيس للجمهورية التركية (١٩٣٨ - ١٩٥٠) . ولقبه (أنونو) جاء نسبة إلى قرية في الأناضول تم له فيها دحر القوات اليونانية الغازية بعد معركة طاحنة (١٩٢١) - المترجم

(١٣) لابد من القول أن السلطات البريطانية لم تهمل ما يملكه العراق من ثروة آثارية هائلة بل أولتها ما تستحق من اهتمام . وكان لجيرتروود بيل إسهام متواضع في النشاط الآثاري الذي تولاه الألمان في مناطق أثرية في العراق قبل الحرب العالمية الأولى والاحتلال البريطاني للعراق . أما بعد تشكيل الحكم الوطني ، وتحديداً في عام ١٩٢٢ ، فقد لعبت الآنسة بيل دوراً بارزاً في هذا المضمار ، وقد شهدت المناطق الأثرية في العراق عمليات تنقيب تولتها مؤسسات علمية أمريكية وبريطانية في كل من أور وكيش وتركلان (قرب كركوك) . وقد==

تعرفت عليه أثناء الفترة التي كنت فيها أمارس أعمال التنقيب الآثاري في كركميش[(١٤)] . إنه رجل صغير البنية ، مُضجر ، إلا أنه منقب رائع وآثاري على هواي تماماً - أي أنه يعمد إلى مساندتي وشد أزري في مجال إدارتي للدائرة ورسم سياستها . وقد جاء إلى العراق بصفته رئيساً لحملة مشتركة نظمها كل من المتحف البريطاني وجامعة بنسلفانيا (الأمريكية) ، وستقوم بأعمال التنقيب في أور .[(١٥)]

إلى جانب ذلك فإنني منهمكة في أمور أخرى . ففي مساء السبت ، وبعد تناول طعام العشاء مع جلالة الملك وكورنواليس كان لنا حديث طويل قمت من خلاله بدور المعارضة . يشعر الملك بغيرة من النقيب والحزب المعتدل الذي كان قد تأسس تحت رعايته ، وهو (الملك) يتوق إلى تنحية النقيب من منصبه بأية وسيلة ، والحط من قيمة الحزب بسبب فتور أعضائه وخمولهم . وهي حقيقة لاشك فيها أبداً ، الأمر الذي أثار سخطه لا سيما إزاء عدم فاعليتهم في مضمار دعم المعاهدة والتوجه إلى أبناء الشعب من أجل شرح ما تنطوي عليه من مزايا . إن جلالته يرغب في وجود حزب آخر قوامه عناصر متطرفة يظن بأنه قادر على فرض سيطرته عليها (لكن العكس هو الواقع) . ومن خلال حديثه معي يحاول عكس صورة وردية لما يراود مخيلته من أحلام ، مبيناً في الحين ذاته عزمه على جذب الأفراد الأكثر نشاطاً من بين المعتدلين إلى التنظيم الجديد الذي يرغب جاداً في بروزه إلى حيز الوجود ، وهو إنجاز يمكن تحقيقه إذا ما قمت أنا من جانبي بإقناع هذه العناصر بالاستجابة إلى رغبة الملك . إلا أنني أُدرك تماماً أن حزب الملك (وهو الاسم الذي قُدر لهذا التنظيم أن يعرف به حتى قبل بروزه إلى حيز الوجود) إذا ما تم تأسيسه من قبل عناصر عربية شابة لا تحظى بثقة البلاد ، فإنه لن يجتذب رجلاً واحداً من صنف الشيخ علي السليمان ، كما أنني أرفض من جانبي إقناع مثل هؤلاء الرجال على الانضمام إلى هذا التنظيم . وبذلك ، فإننا في الوقت

== تم إصدار قانون ينظم الشؤون المتعلقة بثروات العراق الآثارية تولت إعداد مسودته الأصل الآنسة بيل التي أنيطت بها إدارة الشؤون الآثارية وذلك تلبيةً لرغبة الملك وعينت مديراً فخرياً لدائرة الآثار واستمرت في ذلك لحين وفاتها في عام ١٩٢٦ ليخلفها في هذه المهمة المستر كووك مستشار دائرة الأوقاف . وفي عام ١٩٢٤ شهد متحف بغداد (الذي أصبح فيما بعد يعرف باسم المتحف العراقي) مولده في غرفة واحدة . وفي عام ١٩٢٩ تأسست المدرسة البريطانية للآثار في العراق تخليداً لذكرى الآنسة جيرتروود بيل - المترجم

(١٤) موقع مدينة كركميش الأثرية المطل على نهر الفرات في جنوب تركيا عند الحدود السورية التركية وشمال مدينة جرابلس السورية - المترجم

(١٥) مدينة أور السومرية التي تقع آثارها شمال غرب مدينة البصرة في جنوب العراق - المترجم

الذي نقف في أمس الحاجة إلى التضامن ، ووحدة الصف ، للخروج بدعم مؤزر للمعاهدة ، نجد أن الشعب منقسم على نفسه بين مؤيد لحزب الملك من جانب ، ومؤيد لحزب النقيب من جانب آخر . وفي إطار سعي الوطنيين باتجاه كبح جماح المعتدلين ، وكبت أي نشاط لديهم ، فإنهم على استعداد للقيام مرحلياً بالتظاهر بتنبني موقف أكثر تأييداً للبريطانيين وللمعاهدة . إن الخطة السليمة هي تلك التي يتم من خلالها تحقيق تضامن بين اليسار المعتدل واليمين الناشط ، إلا أن هذا الأجراء لا يلقى قبولاً من لدن الملك الذي يعتبر أن العناصر المعتدلة موالية للنقيب . ولهذه الأسباب عمدت إلى مجابهة مشروع الملك بشيء من البرود ، وهو موقف أثار غضب كورنواليس الذي انهال عليّ لاحقاً باللوم لانصرافي إلى إخماد حماس الملك الذي استهدف الانطلاق بحملة دعائية مؤيدة للمعاهدة . إلا أنني لا أزال مصرة على صواب موقفي ، ولن ألتزم ، أو أُلزم أحداً ، بموقف مغاير إلا بعد أن أكون قد تمكنت من سبر أغوار فكر الملك ومعرفة نواياه بشكل أوسع . وفي النهاية أخبر الملك المستر كورنواليس بجدوى تأجيل العمل على تنفيذ هذه الخطة في الوقت الحاضر . إلا أنني واثقة من أن السبب الذي دفعه إلى تأجيل تنفيذ الخطة إنما يعود إلى عدم قدرته – إذا ما أمكنني قول ذلك – على تحقيق أية نتيجة مجدية طالما وقفت أنا موقف المعارض منها وذلك بسبب ما لدي من نفوذ في أوساط العناصر المعتدلة التي لن تحرك ساكناً من غير مشورتي . أما فيما يتعلق بقدرتي على تحريكهم للقيام بنشاط أكبر ، فليس لي سوى القول أن غداً لناظره قريب . وقد كان لي لقاء آخر مع توفيق بك الخالدي الذي يعتبر من بين الأكفاء من المعتدلين ، إلا أن الملك لا يكنّ له أي شعور بالود ، وهو جانب يدركه توفيق بك تماماً . وأستطيع القول أنني قد أقنعته من جانب آخر ، بوجود حاجة ماسة للعمل . وقد شاء حسن الطالع أن يعمد السيد محمود النقيب رئيس الحزب ، إلى الاختفاء عن الأضواء . إنه رجل لا نفع فيه أبداً .

تناولت طعام العشاء مساء الأحد مع كورنواليس والنقيب كلايتون والمستر دايفدسون ، حيث قمنا بمناقشة كل هذه الأمور . وقد أتفق كورنواليس معي حول جدوى قيام الملك بنبذ تنفيذ خطته في حال أخفق في تشكيل حزب ائتلافي .

يعتبر عبد المحسن بك السعدون ، وزير الداخلية ، من بين الشخصيات الأحب إلى نفسي ، وهو أحد الذين يؤيدون الملك بقوة . إنه لم ينضم حتى الآن إلى عضوية الحزب المعتدل ، ولكنه متزن ورابط الجأش دائماً ، فضلاً عن شجاعته كما أنه لا يتوانى عن الأعلان عن معارضته في حال أختلف مع الملك في رأي ما أو آخر ، وهو ما يحدث في كثير

من الأحيان . وإدراكاً منه بإخفاق الحزب المعتدل في تحقيق أية نتيجة خلال فترة الشهرين الماضيين ، فإنه يستحسن فكرة تشكيل حزب معارض بهدف الخروج بنتائج أفضل .

وجه الملك إلى المندوب السامي كتاباً جديراً بالثناء يتناول القضية التركية . ومن جانب آخر حصلنا على الموافقة بإرسال موفد (عراقي) إلى مؤتمر السلام ! ياله من أمر رائع ، أليس كذلك يا أبتاه؟ سيتم إيفاد جعفر على ما أتوقع .»

ويتواصل «عرض» أوبرا الشيخ محمود الكوميدية في السليمانية ، إلا أن هناك مؤشرات تدل على قرب انتهائها . فقد تم له مؤخراً تعيين مجلس للوزراء يضم تسعة أعضاء ، وقائداً عاماً للقوات المسلحة ، ومفتشاً عاماً لكردستان . إلا أن حقيبة العدلية لا تزال شاغرة على ما ألاحظ! لقد استنفدوا كل ما تركنا لهم في الخزينة من موارد مالية ، ولم يخطر بمخيلة أي منهم على ما يبدو التوجه إلى القيام بإجراء محرج (!) كجبي الضرائب !»

وفي الثاني من تشرين الثاني كتبت تقول : «سيقوم وفد من السليمانية بزيارة بغداد لغرض مناقشة القضية الكردية مع كل من جلالة الملك وسيادة المندوب السامي ومن المتوقع وصولهم يوم غد .»

تضم رسالة جيرتروود الأخيرة هذه ، الموجهة إلى أبيها ، عدة فقرات تتعلق بشؤون عائلية بحتة ، إلا أنها تنتهي بالملاحظة التالية : «أرجوك أن تخبر والدتي الحبيبة أن فلبي ليس عدواً . وعلى الرغم من قدراته الرائعة إلا أنه يعاني من اعتداد بالرأي يعتبر مفرطاً في آن واحد وعضالاً الأمر الذي يدفعه أحياناً إلى الانحراف عن الطريق المستقيم والرؤية السوية ويجعل التعامل معه أمراً صعباً للغاية . إنني شخصياً أكنّ له كل الحب والمودة .»

***

إن ما انتاب جيرتروود من تعب وإرهاق غداة انطلاقها للتمتع بإجازة بدأت في اليوم التالي (أي في الثالث من شهر تشرين الثاني) لا يكاد يعتبر أمراً يبعث على الدهشة في غمرة فترة كانت تزخر بأحداث مثيرة ومتسارعة . إلا أن رحلتها في السيارة « عبر صحراء تمتد بروعة لا حدود لها» إلى الحضر – الموقع الأثري الذي سبق لها زيارته في عام ١٩١١ أثناء رحلتها التي جابت من خلالها مناطق عديدة في بلاد العرب على ظهور الجمال – سرعان ما أنعشها وجدد نشاطها ذلك لأنها تمكنت في هذا المكان ، وعلى مدى سويعات معدودات ، أن تحقق لنفسها «عودة سريعة إلى عالم الآثار والتأريخ الذي أجد فيه راحة لا تضاهيها راحة» ، على حد تعبيرها ، وأن تنهمك في إعطاء رفاقها الرائد موري ، والرائد ولسون ، والنقيب كلايتون صورة لما شهده هذا الصرح الآثاري من أمجاد ، وما ينطوي عليه

من أسرار .

ومن الحضر اتجهوا إلى الموصل حيث قضوا بضعة أيام عادوا من بعدها إلى بغداد ليواجهوا تبلور أزمة سياسية جديدة ترتبت على قيام السيد عبد الرحمن النقيب أخيراً بالاستقالة(١٦) .

---

(١٦) عندما أصدر وزير الداخلية ، عبد المحسن بك السعدون ، في الوزارة النقيبية الثالثة أمره إلى المتصرفين في ١٩٢٢/١٠/٢٠ بالشروع في إجراء الانتخابات للمجلس التأسيسي ، فإن هذه الإجراءات جوبهت بمعارضة شديدة لم يسبق لها مثيل . وقد وقف على رأس حركة المعارضة هذه المجتهدون في كل من الكاظمية والنجف ، وهي حركة تمثلت بوادرها بصيغة استفتاء وجه في ١٩٢٢/١١/٥ إلى المجتهدين مفاده بيان صحة ما كان صدر عنهم من أوامر تقضي بتحريم الاشتراك في الانتخابات بكل صيغها من قبل أبناء الشعب . وقد جاء رد المجتهدين الثلاثة الكبار ، أي كل من السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني ، والسيد محمد حسين الغروي النائيني ، والسيد محمد مهدي الكاظمي الخالصي ، بصيغة حواشي ذيلت الاستفتاء المذكور ، وانصرفت إلى تأييد تحريم الانتخابات والاشتراك فيها . ولم يكتف الشيخ مهدي الخالصي بفتواه بل راح يجاهر في ذم الملك وموقفه من عهوده السابقة التي كان قد قطعها على نفسه ، ومن المعاهدة . وجدير بالذكر أن الخالصي كان يتمتع بتأييد القسم الأكبر من علماء الكاظمية مما يدل بوضوح على قوة المعارضة . وإزاء هذه المعارضة القوية ، والمنشورات التي راح قسم منها يهاجم رئيس الوزراء شخصياً ، تضايق النقيب . وبرغم شدة تمسكه بالبقاء في الحكم فإنه شعر بالحرج والمضايقة وهو ما تزامن ، على ما يبدو ، مع شعور الإنجليز بأن دوره قد انتهى بقدر تعلق الأمر بخدمة مصالحهم ، وبأن الوقت قد حان ليحل محله رجل أصغر سناً وأشد حزماً وأكثر تمتعاً بتأييد أبناء الشعب بوجه عام . ومن جانب آخر ، لم يحظ النقيب بتأييد الملك فيصل الذي كان دائماً يرغب في استبداله بأحد المقربين منه مثل جعفر باشا العسكري . إلا أن الإنجليز - كما يتضح من ملاحظات جيرترود بيل فيما يتعلق بالعسكري - كانوا يعتبرونه شخصاً ضعيفاً وليس أهلاً لمعالجة المواقف المتأزمة . وبذلك فإنهم راحوا يبحثون عن الشخص المناسب . وقد ظنوا في بادئ الأمر بأنهم قد وجدوا ضالتهم في شخص ياسين باشا الهاشمي ، إلا أنهم سرعان ما اكتشفوا خطأهم كما يتضح مما أوردته الآنسة بل في المقطع الذي يلي رسالتها المؤرخة ي الرابع من أيلول من عام ١٩٢٢ من ملاحظات تتعلق بالهاشمي . وقد وجدوا ضالتهم أخيراً في رجل جمع بين الصراحة ، ونبذ كل صيغ المناورات والرياء ، وقوة الشخصية ، وصلابة الرأي وثبات الموقف . كان رجلاً لا تأخذه في الحق لومة لائم ، إضافة إلى كونه مسؤولاً لا يتوانى في الوقوف بوجه الملك إذا ما اقتضى الأمر ذلك . كا هذا الرجل عبد المحسن بك السعدون رحمه الله . كان السعدون يدرك جيداً أن مفهوم الوطنية في العراق كان لا يزال هشاً ، وأن العراق مزيج من قوميات وأعراق متباينة تفتقر إلى تجانس بعضها مع البعض الآخر ، وأنه محاط بجيران لم يكونوا يكنون له شعوراً بالمودة ، وبذلك فإن مصلحته كانت تقتضي وجود الإنجليز الذين إذا ما تركوه فإنه بالتأكيد سيصبح لقمة سائغة للطامعين المحيطين به . ولم يخش السعدون من المجاهرة برأيه هذا على العكس من بقية زملائه من الساسة العراقيين . ولهذه الأسباب كلها اعتُبر السعدون الرجل المناسب في الوقت المناسب - المترجم .

١٩٢٢

تشكلت حكومة جديدة تولى عبدالمحسن بك السعدون رئاستها وتولى ياسين باشا الهاشمي حقيبة الأشغال والمواصلات فيها .[١]

وفي الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني كتبت جيرتروود تقول : «عقد جلالة الملك ومجلس الوزراء الجديد النية على اعتماد نهج متشدد مناهض للأتراك ومؤيد للمعاهدة ، وهو نهج ضروري إزاء قيام المجتهدين الشيعة بإصدار فتاوى تحرم على الناس المشاركة في الانتخابات . ومن أجل مقاومة هذا الأجراء أمر الملك الشيخ علي السليمان بدعوة شيوخ العشائر إلى مؤتمر يعقد في بغداد . إنها خطوة ممتازة ، وأنا أتطلع باهتمام بالغ إلى ما سيترتب عليها من نتائج .

كان لي حديث ممتع مع جلالة الملك يوم أمس ، فقد لمست ما لديه من تصميم جاد على المضي قدماً في تذليل الصعاب ، ورغبة جامحة في اتخاذ كل ما يلزم للقيام بذلك ، وهو جانب يشعر أن وزراءه يشاركونه فيه .»

وفي الرابع والعشرين من تشرين الثاني كتبت تقول : «ويحنا ! يالها من حالة غريبة ؛ لقد هرب الخليفة إلى إنجلترا ، بينما تعيش أنقرة حالة صراع حول من سيخلفه في الحكم !»

وفي السابع من شهر كانون الأول كتبت تقول : « السير برسي يتلكأ في العودة من منطقة الخليج ، إلا أن تلكؤه لم يخل من فائدة – فقد أثمرت مساعيه في مجال التصديق على المعاهدة المبرمة بين العراق ونجد والتي كان ابن سعود يرفض التصديق عليها قبل ذلك .»

وفي رسالتها المؤرخة في السادس عشر من شهركانون الأول كتبت إلى أبيها قائلة : «أحسنت والدتي في إرسال المقالات الرهيبة التي كتبها السير برسيفال فيلبس

---

(١) من المعروف أن المرحوم عبد المحسن بك السعدون عند تكليفه بتشكيل الحكومة كان راغباً في إسناد حقيبة الأشغال والمواصلات إلى السيد عبد المحسن شلاش إلا أن الأخير اعتذر ، ومن المحتمل جداً أن اعتذاره كان بسبب خوفه من نقمة المجتهدين والرأي العام في الأوساط الشيعية عليه ، لا سيما في ضوء مواقف القادة الشيعة المناهضة للمعاهدة والوجود البريطاني في العراق . ونتيجة اعتذار السيد عبد المحسن شلال ، قام السعدون بإسناد المنصب إلى ياسين باشا الهاشمي – المترجم

Sir Perceval Philips . إننا غاضبون منه . كان قد أخبرنا أثناء زيارته بأنه لم يكن يمثل أية صحيفة معينة ، وإذا به مراسل خاص لجريدة الديلي ميل !Daily Mail لقد قمنا بفتح كل المجالات أمامه ، ومنحه الفرص كافة ، من أجل أن يتمكن من مشاهدة وسماع كل شيء ، إلا أنه شاء بعد ذلك تحريف كل ما سمعه وشاهده . ولم تجر معي أي من الحوارات التي استشهد بها ، ومن جملة تلك التي ينسبها إلى الرائد بورديلون Major Bourdillon فإن الأخير لا يذكر منها إلا حواراً واحداً فقط ، وحتى هذا فإنه جاء محرفاً لينسجم مع مضمون الإطار العام لما أراد طرحه على القراء . ولعله من حسن طالعي أن يدرك السير برسي أنني لست من الصنف الذي يمكن أن يكون مصدراً لمعلومات تافهة كهذه . وأذكر جيداً قيامه بذكر جوانب تافهة عندما استضفته في داري ، وهي جوانب ظننت أنني كنت قد أفلحت في دحضها ، وبالتالي وضع حد نهائي لها . إن ما كتبه ليس بأكثر من حدث يستطيع الصحافي أن يتخذ منه موضوعاً للكلام ، ولعله يستهوي القراء بدرجة أكبر إذا ما كانت المرأة مصدراً له .»

***

١٩٢٣

كان السير هنري دوبس Sir Henry Dobbs قد وصل إلى بغداد في الثامن والعشرين من شهر كانون الأول من عام ١٩٢٢ ، وعند وصوله كانت جيرتروود قد انطلقت بصحبة كورنواليس ودايفدسون والرائد موري في رحلة صيد إلى منطقة الفرات الأوسط ، وإلى الشامية بالذات .(٢) والسير هنري دوبس آنف الذكر هو الشخص الذي أعقب السير برسي كوكس لاحقاً في تولي مهام المندوب السامي في العراق .(٣) وتشير أول رسالة للآنسة بيل

(٢) يجد القارئ الكريم في كتاب «رسائل جيرتروود بيل» (تحرير اللادي بيل/١٩٢٧) وصفاً شاعرياً مسهباً لهذه الرحلة التي تصور فيها الآنسة بيل مناطق الفرات الأوسط التي زارتها وسماء هذه المناطق التي وجدت أنها تعج بأسراب لا حصر لها من الطيور البرية ، كما تصف ما شعرت به من متعة بالغة وهي تراقب سقوط بعض هذه الطيور برصاص رفاقها القناصة - المترجم

(٣) جاء السير هنري دوبي في هذه المناسبة ليشغل منصب المندوب السامي وكالة أثناء غياب السير برسي كوكس عن العراق في مهمة كان قد استدعي إلى لندن بخصوصها . ويعود سفر السير برسي إلى بروز الحاجة للمداولة معه في ضوء ما حدث للسياسة البريطانية من تحول تجاه العراق في أعقاب استقالة حكومة لويد ==

في العام ١٩٢٣ إلى مأدبة عشاء أقامتها في دارها على شرف السير هنري والتي تم له فيها لقاء كل من كورنواليس ودايفدسون للمرة الأولى .

وفي الخامس من شهر كانون الثاني كتبت تقول : «كانت دعوة العشاء ممتعة للغاية ، وقد حضرها أيضاً المستر إيدموندز Mr.C. J.Edmonds الذي كان قد وصل مؤخراً من كركوك . وقد دار حديث مثمر حول الوضع في كردستان . فعلى امتداد الحدود الشرقية بات الأكراد على يقين أن لا فائدة ترجى من الأتراك ، وكان الأخيرون قد صرحوا في الواقع أن استقلال الأكراد يمثل جانباً لا يدخل في حساباتهم أبداً الأمر الذي أدى إلى رجحان كفة الجماعة الموالية للبريطانيين من بين أتباع الشيخ محمود ، وإلى إجبار الأخير هذا إلى الرضوخ إلى الأمر الواقع . وكنت قد استلمت منه برقية تهنئة بمناسبة أعياد الميلاد ذُيلت بتوقيع «محمود ملك كردستان .» وكان الملك فيصل قد أعلمه بأن الحكومة العراقية لن تقف حائلاً دون إقامة نظام حكم ذاتي للأكراد داخل حدود المملكة العراقية شريطة أن لا يعني ذلك ضمناً أي فصل سياسي أو اقتصادي للمناطق الكردية . وبذلك فإن الصورة الصعبة للوضع الكردي تأخذ صيغة أكثر تفاؤلاً . إنه وضع جديد جداً ، وفي حال توقفت المحادثات في لوزان ، وهو أمر يبدو محتملاً ، فمن المؤكد أن نجابه بهجوم من الشمال حيث يقوم الأتراك حالياً بتركيز قواتهم مما يفرض علينا حشد كل ما يمكننا من طاقات وقوات لمواجهة هذه الحالة .

وكان السير برسي قد أقام مأدبة عشاء رسمية بتاريخ ١٩٢٢/١٢/٢٢ دعا إليها جلالة الملك وأعضاء الحكومة . كانت المرة الأولى التي يدعو فيها السير برسي الحكومة إلى مأدبة رسمية ، وكنت قد بينت له حول الموضوع موضحة أن من شأن مثل هذه الدعوة أن تجد لها صدى حسناً في نفوس أعضاء الحكومة . وقد اقتصر حضور الجانب البريطاني في هذه المناسبة (باستثناء السير برسي) على قائد القوة الجوية الملكية (البريطانية) في العراق ، والمستر كورنواليس ، وعليّ شخصياً . وقد شعرت بأن الوزراء قد استمتعوا بهذه المناسبة ، وإنني على ثقة بأن هذا كان حال الوزير الذي كان يجلس إلى جانبي . إنه واحد من كبار رجال الشيعة الذي لم يسبق له على حد علمي تناول طعام العشاء في أي بيت أوربي . كان تصرفه في غاية اللياقة والذوق ، وقد لاحظت بشكل خاص تلذذه بتناول طبق حلوى

== جورج في ١٩٢٢/١١/٢٣ ، وتردد الحكومة الجديدة في التصديق على المعاهدة مع العراق بسبب قيام حملة قوية تعارض إنفاق مبالغ طائلة في العراق ، بل أن بعض النواب طالبوا الحكومة بالانسحاب من العراق لهذا السبب مما دعا الحكومة البريطانية الجديدة إلى استدعاء كوكس للتشاور معه - المترجم

الأجاص «Plum Pudding»[٤] .

وفي السادس عشر من شهر كانون الثاني : «يسافر السير برسي جواً إلى الوطن لمساعدة الحكومة الجديدة على التوصل إلى قرار حول السياسة التي تنوي انتهاجها إزاء العراق . وحتى في حال رفضوا تحمل عبء المسؤولية ، يتعين عليهم أن يدركوا جيداً أن نبذ الأمر برمته هو من الصعوبة بما يتعذر تصوره .

لقد غدا العالم مجنوناً على ما يبدو إلى الدرجة التي أفقدتني كل اهتمام بما يدور من أحداث . إن المجانين لا يثيرون اهتمام أحد ، وأنا بدوري أقرأ بفتور وعدم اهتمام واضحين تفاصيل ما تعيشه إيرلندا من فوضى ، ومشاعر السخط الألمانية إزاء احتلال منطقة الـرور (Ruhr من قبل الحلفاء) ، والادعاءات التي يطرحها الأتراك في لوزان ، وكل الأعمال المجنونة الأخرى التي تملأ تفاصيلها صفحات البرقيات والجرائد اليومية .

حظيت بعدد من الزائرين الرسميين كان أولهم ياسين باشا الهاشمي ، وزيري باعتباري مديراً فخرياً لدائرة الآثار .[٥] إنه الأصعب من بين من يصعب التكهن بما يملكون من

(٤) من المحتمل جداً أن السيد آنف الذكر هو عبد الحسين الجلبي ذلك لأنه كان الوزير الشيعي الوحيد في وزارة عبد المحسن السعدون الأولى - المترجم

(٥) قد يتعجب القارئ الكريم من أمر ارتباط دائرة الآثار بوزارة الأشغال والمواصلات بدلاً من ارتباطها بوزارة أكثر ملائمة مع طبيعة عملها كوزارة المعارف مثلاً (إذ أن وزارات كالإعلام والثقافة والسياحة لم تكن مألوفة في تلك الفترة) وللأستاذ ساطع الحصري قصة طريفة يرويها بهذا الصدد . يقول أن الآنسة بيل جاءت إلى وزارة المعارف ، عندما كان يشغل منصب معاون الوزير وعرضت على الوزارة مشروع قانون يتعلق بالحفريات الأثرية مبينة أنه قد وُضع طبقاً لأحكام معاهدة سيفر الموقعة بين الحلفاء وتركيا (والتي تشمل العراق بطبيعة الحال باعتبار أنه كان جزءاً من الإمبراطورية العثمانية) وطلبت منا إرساله إلى رئاسة الوزراء بالسرعة الممكنة بسبب قرب الابتداء بالتنقيبات في المناطق الأثرية ووصول خبراء الآثار وعلى رأسهم العالم ليونارد وولي . وإثر قراءة متمعنة لما ورد في مسودة القانون وذلك في ضوء الأحكام ذات العلاقة في معاهدة سيفر ، وقانون الآثار العثماني ، تبين بوضوح أن القانون الذي تقترحه الآنسة بيل يعطي للحفارين من القطع الأثرية العراقية أكثر مما تفرضه المعاهدة المذكورة . وجدير بالذكر أن قانون الآثار العثماني ، الذي فرضت المعاهدة آنفة الذكر إلغاءه ، كان ينص على أن المكتشفات تبقى ملكاً للحكومة ويُعطى الحفارون صوراً وقوالب منها فقط . وقد تم لتركيا سن قانون جديد يعطي للحفار نسبة من المكتشفات الأثرية ، تحددها دائرة الآثار المعنية ، وفي حال تعذر ذلك لأسباب علمية وعملية يعطى الحفارون تعويضات مناسبة عن بعض منها . أما مشروع الآنسة بيل فإنه ==

قدرات ، كما أنه مخادع وشديد المكر ، وعلى الرغم من توجهه المناهض لكل أجنبي فإنه يكن لنا احتراماً غريباً ، ويتوق دائماً إلى مجاراتنا والتوافق معنا . وعندما دخل إلى مكتبي وجدني أحاول زرع بعض الزهور في أصصها فسارع إلى مساعدتي بكل لطف وأريحية ، إلا أن تواصل نشاطنا هذا انقطع بدخول صالح بك الذي جاء ليستشيرني في أمر قبوله منصب أمين العاصمة الذي كان قد عُرض عليه . والطريف في الأمر هو أنني شخصياً كنت وراء فكرة تعيينه هذه : فبعد أن عرضت الفكرة على كورنواليس وضمنت موافقته قمت بطرح الموضوع على جلالة الملك ووزير الداخلية بكياسة ودبلوماسية جعلتهما يشعران بالنتيجة كما لو أن الأمر كان من بنات أفكارهما . وعندما طرح صالح بك الأمر عليّ تظاهرت بالدهشة والفرح في آن واحد مبينة له أن قبوله بهذا التعيين هو أمر يحتمه واجبه الوطني . وفي ظهر اليوم ذاته استضفت كلاً من رئيس الوزراء (السعدون) وناجي السويدي وعبد اللطيف المنديل في داري حيث تناولوا طعام الغداء على مائدتي . وعندما دخل رئيس الوزراء أعلن بأنه مصاب برشح فأجبته بأن براندي الكرز cherry brandyd يُعتبر الدواء الأفضل للقضاء على الرشح ، ومن حسن الحظ أنني كنت أحتفظ بزجاجة من هذا المشروب الذي شارك الثلاثة في تناول جرعات سخية منه برغم أن ناجي بك وعبد اللطيف باشا لم يكونوا

== يجعل حصة الحفار نصف ما يتم اكتشافه في كل الأحوال . وقد باءت بالفشل كل محاولات الوزارة للتوصل إلى حل وسط بين أحكام القانون العثماني الجديد من جانب ومشروع القانون الذي تقدمت به الآنسة بيل من جانب آخر ، مع مراعاة المتطلبات التي تفرضها أحكام معاهدة سيفر . وإزاء ذلك رفضت الوزارة الاستجابة إلى طلب الآنسة بيل حول الاكتفاء بإرسال مسودة القانون إلى رئاسة الوزراء لتتولى هي لاحقاً إقناع رئيس الوزراء وأعضاء المجلس بإصدار القانون المقترح .

ولتفادي الدخول في مناقشات وإجراءات لا طائل لها ، وجهت الآنسة بيل مذكرة إلى رئيس الوزراء (بأية صفة لا أدري) بينت من خلالها أن ارتباط دائرة الآثار بوزارة المعارف كان خطأً بالأساس ، واقترحت نتيجة ذلك ربطها بوزارة النافعة (الأشغال والمواصلات) على غرار ما هو معمول به في مصر ، انطلاقاً من واقع أن النشاطات المتعلقة بالحفر والتنقيب في مجال عالم الآثار لها ارتباط مباشر بجوانب هندسية . وإثر موافقة مجلس الوزراء على الاستجابة إلى طلب الآنسة بيل ، لم تر الأخيرة هذه أي موجب للإسراع بسن القانون المطلوب الذي لم يصدر إلا في عام ١٩٢٤ ، وجاء صدوره «بناءً على ما عرضه وزير الأشغال والمواصلات ووافق عليه مجلس الوزراء . . .» . ولم تعد دائرة الآثار إلى وزارة المعارف إلا في عام ١٩٢٦ ، إلا أن أحكام القانون بقيت نافذة حتى عام ١٩٣٦ حين صدر قانون جديد رعى حقوق البلاد في آثارها القديمة - المترجم

يشكوان من أي رشح بالمرة ! وأثناء تناولنا طعام الغداء أخبرني ضيوفي أن المجلس يفكر بإجراء تعديل وزاري يتم بموجبه تولي ناجي بك وزارة العدلية وتولي رئيس الوزراء مهام وزير الداخلية . وقد طلبوا مني مفاتحة المندوب السامي بالأمر بهدف الاستئناس برأيه وتهيئته لتقبل الموضوع الذي استجبت له على الفور ووعدتهم بأنني سوف أقوم بما يلزم من جانبي . إنني أيد هذا التعديل انطلاقاً من إيماني بأن عبد المحسن بك السعدون يعتبر وزير داخلية أفضل من ناجي بك السويدي بسبب كونه أقل عرضة للتأثر بالضغوط السياسية . وقد وافق السير برسي على الفكرة وتم بالفعل إجراء التعديل المذكور . وفي عصر اليوم ذاته زارني السير هنري دوبس وكذلك الرائد جفريس Major Jeffries الذي جاء من الديوانية . وقد تناولت طعام العشاء بعد ذلك بصحبة الرائد جفريس وكورنواليس ، وشعرت في نهاية اليوم بأنني قد استنفذت مؤقتاً كل ما يمكن طرحه ومناقشته من أمور تتعلق بماضي البلد وحاضره ومستقبله .»

***

وفي رسالتها المؤرخة في الثلاثين من كانون الثاني ، تتساءل الآنسة جيرتروود قائلة : «ترى هل سيتم غزونا ؟ وإذا ما تم غزونا فهل سنُترك لحالنا ، وهل سيسُمح لنا بالعمل وفق ما نشاء وما نراه ضرورياً ؟ وكنا بتاريخ الحادي والعشرين من هذا الشهر قد استلمنا أخباراً تفيد بوصول أربعة أفواج تركية بكامل عدتها وتعدادها إلى منطقة جزيرة ابن عمر الواقعة على مقربة من حدودنا . إن الزيادة في حجم القوات التركية كان أمراً متوقعاً على مدى البضعة أشهر الماضية ، كما أن خطط الدفاع الخاصة بنا ، إذا ما أمكن تسميتها بذلك ، جاهزة . وقد حضرت يوم الثلاثاء الماضي عرضاً لقوات بريطانية كانت في طريقها إلى الموصل . كان عرضاً مشجعاً لقوات رائعة نوعاً لا كماً ، ليت تعدادها كان أربعة أمثال ما هو عليه . لقد أرسلنا كل ما لدينا منها . ويتولى الجيش العراقي مسؤولية المحافظة على خطوط الاتصال وتأمين وجود قوات درك غير نظامية ترابط في المناطق الواقعة بين نهري دجلة والفرات ، وتعمل بإمرة ضباط عرب وذلك من باب إسناد سلاح الخيالة الذي قد تم تكليفه بواجبات في ذلك الاتجاه . ولا خوف علينا في حال أخفق الأتراك في إرسال فيلق أو أكثر من فيالقهم العسكرية ، خلاف ذلك فسنكون في وضع لا يحسد عليه . ومع ذلك ، وعلى الرغم من تبجح عصمت باشا ، لا يوجد ثمة ما يشير إلى رغبة تركيا في المبادرة إلى القيام بهجوم

ضدنا . إنهم يريدون إجبار العشائر المحلية على القيام بعمليات حربية أولاً ، إلا أن العشائر لا تبدي بدورها أية رغبة في ذلك برغم ما تتعرض له من ضغوط بهذا الصدد . هذا هو الوضع في الوقت الراهن . وإذا ما كان الأتراك يلجؤون إلى المخادعة نكون نحن قد نهجنا نهجهم ، أما في حال كانوا جادين في مساعيهم فسنكون نحن الخاسرين .

انطلق الأمير زيد إلى الموصل في اليوم الثامن والعشرين من الشهر هذا ، وسيلتحق به النقيب كلايتون الذي سيترك بغداد متجهاً إلى الموصل مساء اليوم . إنني على ثقة من أن وجودهما معاً سيؤدي إلى نتائج مرضية ، فالأمير زيد لا يفتقر إلى العزم والتنفيذ ، كما لا يفتقر كلايتون بدوره إلى الحكمة والتعقل .(٦)

أمرني جلالة الملك اليوم بالمثول في حضرته وتناول الشاي معه . كان تواقاً لمعرفة ما إذا كنا على استعداد للدفاع عن البلد ، أو ترك الأمر له . وقد أخبرني باستعداده للقبول بفكرة إجراء استفتاء شريطة أن تشمل الممارسة الأراضي العربية التي يسيطر الأتراك عليها مثل نصيبين وماردين ، وشريطة انسحاب كل القوات المسلحة من هذه المناطق وإناطة مهمة الأشراف على سير الاستفتاء فيها بدولة عظمى محايدة . ومن جانب آخر ، طلب منا القيام بدورنا بنبذ الانتداب من أجل تعزيز موقفه . وفي حال تم رفض هذا الاقتراح ، أو / وتقرر انسحاب بريطانيا بسبب ما تواجهه من مخاطر في الموصل ، مما يعني ترك العرب للقيام بمهمة الدفاع عن أنفسهم ، فإنه سيتوجه إلى المناطق الحدودية المعنية والوقوف هناك مدافعاً حتى الرمق الأخير .

خيم على مكتبي جو محموم شهد تدفق أشخاص يحملون أخباراً تكشف عن رسائل تم استلامها من الأتراك ، أو عملائهم ، وتتحدث عن مراسلات متبادلة بين المجتهدين والكماليين والبلاشفة تتعلق بإصدار فتاوى وإجراءات مماثلة يقع أمر التعامل معها ومعالجتها

---

(٦) بقدر تعلق الأمر بإيفاد المغفور له صاحب السمو الملكي الأمير زيد بن الحسين المعظم إلى الموصل في هذه المناسبة ، أخبرني نجله ، صاحب السمو الملكي الأمير رعد بن زيد ، أن الغرض من الإيفاد كان يستهدف تحقيق تهدئة الوضع العام في الموصل ، وطمأنة الأهالي ، فيما يتعلق بدأب الحكومة العراقية ، والسلطات البريطانية ، على اتخاذ كل ما يلزم من إجراءات واتصالات بصدد السعي لضمان بقاء الموصل داخل حدود المملكة العراقية . كما كُلف سمو الأمير زيد أيضاً بالبدء بتطبيق الخطوات الأولية التي من شأنها إرساء قواعد الآلية اللازمة لتحقيق الهدف المنشود ، أي الحفاظ على الموصل باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من أرض العراق . ولهذا السبب بالذات غدا سمو الأمير زيد يعرف باسم «أمير الموصل» - المترجم .

ضمن اختصاص دائرة التحريات الجنائية . ويقوم الشيخ علي السليمان ، الذي كان قد استُدعى للقدوم إلى بغداد من قبل الملك ، بقضاء الكثير من وقته في مكتبي مؤكداً لي أن لا إجراء يتم اللجوء إليه من غير موافقتنا المسبقة عليه . ومن جانب آخر ، فقد أُضيف إلى ما نواجه من مصاعب تعرض الرائد جفريس في الديوانية إلى حادث إطلاق نار أثناء ملاحقته مجموعة تقوم بأعمال النهب والسلب . إنه يخضع الآن لمعالجة سريرية في المستشفى بعد أن فقد اثنين من أصابع إحدى قدميه . لقد وقع هذا الحادث في وقت لا يسعنا من خلاله تحمل ما قد يترتب على غياب رجل بكفاءة الرائد جفريس وحرصه على أداء الواجب من عواقب وخيمة . ولقد تقاطر عدد من شيوخ العشائر من منطقة عمل الرائد جويس إلى بغداد بهدف زيارته في المستشفى والاطمئنان على صحته ، كما أنهم يقضون الكثير من وقتهم في مكتبي .

العقيد ولسون ، الذي أصبح الآن السير أرنولد ولسون ، موجود في بغداد حالياً ، وقد وصل بصحبة زوجته التي تمكنت من كسب احترامي وإعجابي بفضل رقتها ومظهرها المتميز ، إلى جانب تحفظها الخجول الذي ينطوي على جاذبية لا حدود لها . وقد قمت بدعوتهما لتناول طعام الغداء على مائدتي ظهر الجمعة المقبلة . لا أجد ما يستحق ذكره أكثر من ذلك .»

في الأول من شباط كتبت تقول : «طرق سمعي أن زيداً قوبل باستقبال رائع في الموصل . ومن المحتمل جداً أن يكون للتهديد التركي دور مميز في بلورة كيان دولتنا . هناك حديث يدور حول احتمال وصول وفد من الموصل يؤكد للملك على واقع مفاده أن الموصل لن تنفصل عن العراق . وقد عقد مجلس الوزراء جلسة استثنائية بهذا الصدد وأرسلت برقية إلى عصبة الأمم تعلن عن احتجاج العراق (على فكرة فصل الموصل من أراضيه) واستعداده للقتال من أجل الموصل إذا ما اقتضت الضرورة ذلك .»

وفي رسالتها المؤرخة في الثالث عشر من شباط تقول : «تتواصل حالة عدم الاستقرار التي نشهدها منذ فترة . وفي الحين ذاته يحقق الأمير زيد نتائج طيبة من خلال وجوده في الموصل ، بينما تصلنا برقيات مرسلة من مختلف مراكز البلديات والجهات الأخرى تتضمن شجباً غاضباً للمطالب التركية .

إنني معجبة بالسير هنري دوبس ، وكيل المندوب السامي ، وفضلاً عن ذلك فإننا منسجمان في العمل . إنه يؤيد فكرة قيام العرب بالركض قبل تمكنهم من السير ، وهي فكرة تنطلق من توجه صحيح ، إلا أنها لم تتغلغل حتى الآن إلى كل أرجاء مكتبنا . إننا

نبالغ بالتدخل في التفاصيل الصغيرة التي لا أهمية كبيرة لها ، ومع ذلك فهي تزعج العرب وتثير حفيظتهم . ويتميز السير هنري باعتماد طريقة عمل هادئة ورائقة تنصرف إلى استخراج الآراء من خلال الحوار والنقاش قبل اللجوء إلى العمل الورقي والخروج بمذكرات رسمية . وفي كثير من الأحيان يحقق الحوار حلاً وسطاً يرضي كل الأطراف المعنية .»

أما في رسالتها المؤرخة في الخامس عشر من شباط فإنها تقول : «ذهبت لتناول الشاي على مائدة جلالة الملك فوجدته متضايقاً من أبيه الذي يقيم علاقة بالكماليين على ما أعتقد ، وقد وقع على ما يبدو في الفخ الذي نصبه له عصمت باشا ، فهو لا ينفك عن الإعلان عن غضبه لوجود ابنه الأمير زيد في الموصل ، وبذلك فإنه يمطره بوابل من البرقيات يأمره من خلالها بالعودة (إلى الحجاز) وعدم «محاربة الأتراك» . إنه (أي الأمير زيد) ليس في حرب ضد الأتراك ولا ضد غيرهم ، إنما يقتصر دوره على محاولة شحذ الهمم وتحقيق وحدة الصف بين الناس . ومما لاشك فيه أن الأتراك يدركون جيداً أن التوجه العام يزداد صلابة ضدهم ، وهو موقف نافع للغاية . أما فيما يتعلق بعودة زيد إلى مكة فإنها جناية ليس إلا ، إذ أنه سيوضع رهن إشارة والده ولن يُسمح له بالقيام بأية حركة خارج القصر إلا بموافقة والده ، وهذا هو ديدن الملك حسين مع أبنائه .

تنتاب فيصل حالياً إحدى حالات العند والتصلب في المواقف ، وهو موقف آمل أن لا يتراجع عنه . فقد أرسل في طلب زيد بحجة الطلب منه تقديم تقرير حول ما حققه نشاطه من نتائج ، ومن ثم منحه فرصة بيان موقفه من أمر العودة إلى الحجاز ، أو البقاء في العراق وإغضاب أبيه نتيجة ذلك . إن زيداً ، على ما أعتقد ، يفضل الموت على العودة ! إلا أنهما يخشيان والدهما ، أما القرار النهائي فأمر لا يمكن التكهن به في ضوء ما دأبا عليه من امتثال لأوامره .»

وفي الأول من آذار كتبت تقول : «إذا ما عمدنا إلى ترك زيد ليتصرف كما يشاء فإنه سيتمكن ، على ما أعتقد ، من التوصل إلى تسوية مجدية مع الأكراد في الشمال ، وهي تسوية قد نخفق في تحقيق فهم دقيق لها ، إلا أنهم سيجدونها واضحة ومرضية . ولعل مشكلتنا تكمن في إصرارنا على وجوب قيامهم بالتوصل إلى تسوية بطريقتنا الخاصة ، ووفق ما نراه نحن صحيحاً ، وهو جانب لا يروق لهم . ولو أن ضواحي الموصل والمناطق المحيطة بها ، وأربيل ، كانت تحت سيطرتنا ، لما ترددت في دفع زيد إلى تولي معالجة شؤون السليمانية . إن الشيخ محمود يعد العدة لشن هجوم عشائري على كركوك ، إلا أنه من حسن الحظ يواجه معارضة من قبل بعض أقربائه والعشائر المؤتلفة معه . ولقد وجه إليه إنذار ينتهي مفعوله

اليوم ، فإذا ما امتنع عن تسليم مقاليد السلطة إلى الأعيان المحليين ، ورفض الخروج من السليمانية كما أُمر ، فسنضطر إلى القيام بقصفه جواً . إن الحرب الجوية لا تعرف الرحمة ، ولكن ما الحيلة إزاء قلة عدد قواتنا البرية؟»

وفي اليوم التالي انطلقت جيرتروود بصحبة الرائد ولسون في زيارة إلى أُور لغرض تقديم المساعدة في قسمة ما تم استخراجه من آثار بين المنقبين من جانب والحكومة العراقية من جانب آخر ، وذلك لقرب انتهاء أعمال الحفريات لذلك الموسم . بعد ذلك توجها إلى الحلة حيث حلا ضيفين على عائلة لونغرك Longrigg ، وكان الهدف من زيارة الحلة هو التوجه إلى بابل من أجل تقرير مصير المكتشفات الأثرية التي كان قد تم استخراجها من قبل البعثة الألمانية (قبل اندلاع الحرب) . وتقول جيرتروود بهذا الصدد : «إنها (المكتشفات) ملك العراق شرعاً . وقد قررنا مفاتحة المتحف ا لبريطاني بهدف إعارة خدمات خبير الآثار السيد سميث Mr.Smith ، الموجود حالياً في العراق مع البعثة البريطانية التي تقوم بالتنقيب في أُور ، بهدف تصنيف المكتشفات آنفة الذكر وترتيبها على أن نقوم بمنح قسم منها للمتحف المذكور لقاء خدمات السيد سميث .»

وتنتهي رسالة جيرتروود هذه بحاشية جاء فيها ما يلي : «وصل فتوح الأسبوع الماضي إلى بغداد قادماً من حلب بحثاً عن عمل في بغداد على ما أعتقد . يقول أن مناطق سوريا الشمالية تشهد حالة ركود اقتصادي خانقة ، وأن الجميع تواقون إلى عودة الأتراك من أجل خلاصهم من الفرنسيين .»

وفيما يتعلق بمقالة صحفية نشرتها جريدة الديلي إكسبريس Daily Express تشيد بنشاط الآنسة بيل ، وتمجد بدورها ، تقول جيرتروود في رسالة موجهة إلى ابيها بتاريخ الحادي عشر من آذار : «إن ما ورد في هذه المقالة هو صيغة أخرى من صيغ الهجوم ليس إلا ، كما أنها صيغة دنيئة . وأجد نفسي عاجزة عن القول أن ما ورد فيها ليس صحيحاً إذ أن من شأن ذلك أن يعمل على تضخيم الأمور . إنها تعود عليّ بالكثير من الضرر ، وهو جانب لا يقبل الشك فيه مطلقاً . ولو كنت في مكان السير هنري لما رضيت بوجود شخص يعمل بإمرتي ويقوم بكل هذه الأعمال والواجبات . إنني أعلم جيداً بأن السير هنري مدرك بمدى غضبي من هذا المقال . ولابد لي من القول أنني لست بأكثر من موظف يقوم بتنفيذ ما يوجه إليه من أوامر .

كنت خلال الأسبوع هذا منهمكة بشكل عام بكل ما له علاقة بعلم الآثار والأخصائيين العاملين في هذا المجال . وقد وصلنا عضوان آخران من بين أعضاء المجموعة

العاملة في أُور وهما كل من السيد نيوتن Newton والسيد لورنس Lawrence (الأخ الأصغر للعقيد لورنس المعروف بـ لورنس العرب .) وقد قمت باتخاذ ما يلزم لتمكينهما من زيارة الحضر . وقد وصل يوم الخميس السيد وولي قادماً إلى بغداد من أُوُر فكان لنا لقاء مثمر للغاية . وقد تمكنت من إستحصال موافقة وزارة الدفاع على القيام بتنظيم عرض للمكتشفات التي جئنا أنا والرائد ولسون بها من أوُر . ثم قمت بعد ذلك بإشراك كل من السيد عبد القادر انباجه جي والسيدة دروير في تنظيم هذا المعرض وربط بطاقات مكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية بكل واحدة من المكتشفات للدلالة عليها ، ومن ثم وضعها على طاولة العرض . وقد قمت بدعوة جلالة الملك ، والوزراء ، وأعيان البلد لمشاهدة هذا المعرض .»

وفي الثاني عشر من آذار كتبت تقول : «عدت لتوي من زيارة قمت بها إلى قصر الملك حيث تناولنا الشاي وتجاذبنا أطراف الحديث . تبدو الأمور على أحسن ما يرام : الأتراك ينشدون السلام على ما يبدو ، والشيخ محمود قد تم إخراجه من السليمانية ، والمشكلة الآن تتمحور حول إيجاد بديل له . لقد طرح الملك وأعضاء الحكومة مقترحات في هذا الصدد وخططاً يرغبون في تنفيذها . إن إتاحة الفرصة أمامهم لوضع مقترحات وخططهم في حيز التنفيذ لن تسبب في كل الأحوال بنتائج أسوأ من تلك التي كانت تصيب إجراءاتنا (البريطانية) الخاصة . وقد قمت بدوري بإقناع السلطات البريطانية بالسماح للحكومة بتنفيذ ما ترغب من خطط ، وهو ما يجعلني في غاية السعادة .

هذا كل ما تم لي تحقيقه من إنجازات وما قمت به من نشاطات باستثناء دعوة العشاء التي أقامها محفل بغداد (الماسوني) والتي حضرتها وخرجت بقناعة مفادها أن الماسونية بشكل عام هراء ليس إلا ، فحب الشعوذة والتهريج ، واعتماد الشعارات البراقة ، جوانب متأصلة في بني البشر ، وهي أمور طالما استهوتهم واستحوذت على اهتمامهم . إلا أن ما لا يمكنني قبوله ، أو الإيمان به ، هو وجود أسرار لا يمكن لأحد سبر أغوارها وفك طلاسمها ، فالجوانب المهمة في الحياة صنفان المعلومة منها وغير المعلومة فقط .»

وفي السادس عشر من آذار تقول الآنسة بيل : « تشهد كيش ، التي تقع على بضعة أميال شرق مدينة الحلة ، نشاطات حفر وتنقيب تقوم بها جامعة أوكسفورد . إلا أن الجامعة المذكورة لم ترسل إلا شخصاً واحداً هو السيد ماكاي Mr. Mackay . إن فريقاً قوامه رجل واحد لا يمكنه القيام بتنقيب موقع أثري شهير بأية درجة من النجاح . ولقد قمت بدوري بتوجيه احتجاج إلى اللجنة الآثارية المشتركة (في بريطانيا) يتعلق بهذا الأمر . وفي أثناء

ذلك طلبت من السيد ماكاي القيام باستخدام رئيس عمل بريطاني لغرض مساعدته في أعمال التنقيب ، إلا أن ذلك لن يأتي بفائدة تذكر بسبب قيام الممارسة كلها على أسس ضعيفة .

يتمحور حديث المجتمع البغدادي حول وصول والي بوشتيكو ، الحاكم شبه المستقل لمنطقة المرتفعات الفارسية التي تقع شرق لواء العمارة ، الذي جاء وبصحبته رهط كبير من الأفراد بضمنهم عشر من زوجاته وذلك بالإضافة إلى بناته ، وتسعة من أبنائه ، ومجموعة من الأتباع قوامها أربعون امرأة ومائة واثنان وسبعون رجلاً . وكان من المفترض أن يكون الجمع هذا أكثر عدداً مما هو عليه لولا أن تم إقناع الوالي بالسماح لمئتين وخمسين فرداً منهم بالعودة إلى ديارهم بعد وصولهم إلى مدينة شهربان حيث استقل القطار . لقد أرهقت هذه الزيارة قدرات المملكة على تهيئة ما ينبغي من وسائل النقل ، أما كيف سيتم تأمين وصول جناب الوالي وحاشيته الكبيرة إلى كربلاء في هذا الموسم المطير فأمر لا يسعني تصوره بالمرة .»

وفي التاسع والعشرين من آذار كتبت ما يلي : «أكتب رسالتي هذه وأنا طريحة الفراش ، إثر وكعة صحية ألمت بي ، ومع ذلك فإنني أستعد ، وبسرعة ، لمغادرته . فالوكعة ليست أكثر من رشح مصاحب بالتهاب الحنجرة ، إلا أنه أفقدني صوتي لمدة يومين . وكنت قد أصبت بهذا الرشح أثناء تناولي طعام العشاء على مائدة جلالة الملك مساء يوم الثالث والعشرين من هذا الشهر . وفي تلك الليلة جرف تيار نهر دجلة جسر مود ، وفي يوم السبت انفجرت السدود على الجانب الأيمن من النهر عند موقع يبعد عن بغداد مسافة سبعة عشر ميلاً إلى الشمال لتغطي المياه أراضي بلغت مساحتها ثلاثمائة كيلو متر مربع . وقد دفعني حب الاستطلاع إلى مغامرة غبية قمت من خلالها بالانطلاق على ظهر حصاني لمشاهدة الأراضي التي غمرتها المياه . وعند وصولي إلى المنطقة المقصودة وجدت بضعة ضباط عرب بحاجة إلى ساع ، فبادرت إلى القيام بمهمة إيصال ما أرادوا إرساله من خبر ، وبعد ذلك التقيت جلالة الملك فتوقفت فترة طويلة لأتبادل الحديث معه الأمر الذي عرضني لبرودة الجو . بعد ذلك كان علي استضافة مجموعة من الأصدقاء لتناول طعام العشاء . وعندما استفقت صباح اليوم التالي وجدت أنني كنت قد فقدت صوتي .

عاد السير هنري صباح الاثنين جواً من رحلة قام بها إلى مدينة أربيل . وأثناء بقائي طريحة الفراش ، كان دايفدسون وكورنواليس وعدد كبير من أصدقائي العرب يزورونني بانتظام للاطمئنان على صحتي ، كما قام جلالة الملك بتكليف رئيس ديوانه بزيارتي وتفقد

أحوالي ، أما ياسين باشا فقد زارني شخصياً . ولابد لك أن تدرك ، أبتاه ، أن الملك وأعضاء مجلس الوزراء ما كانوا ليكلفوا أنفسهم عناء الاهتمام بي بهذا القدر لو أن الرشح هذا كان أصابني وأنا موجودة في لندن .»

وفي العاشر من شهر نيسان كتبت تقول : «انطلقت بصحبة الرائد ولسون وزوجته يوم الأحد الماضي في رحلة لزيارة بعض التلال الأثرية و قد اكتسبت نتيجة ذلك كماً لا بأس به من المعلومات المتعلقة بما حوته هذه التلال من أوانٍ خزفية أثرية . ويجرني الحديث عن دنيا الآثار إلى التعبير عن أسفي لوفاة اللورد كارنارفون Lord Carnarvon وعن غضبي في الحين ذاته إزاء مواقف أولئك البعض من الناس الذين يقولون أن وفاته جاءت نتيجة لعنة!(٧) و نتيجة ذلك لا أجد غرابة في انصراف الكثيرين من الحمير (كذا) في إنجلترا إلى الإيمان بأن موته جاء نتيجة لعنة ليس إلا .

إن صديقاً دمشقياً عزيزاً عليّ ، فضلاً عن كونه شخصاً أكنّ له كل مودة واحترام ، يقوم بفتح خط سيارات مباشر عبر الصحراء يربط دمشق الشام ببغداد في رحلة يستغرق قطع المسافة فيها بين المدينتين يومين . إنها لمبادرة كريمة برغم ما تنطوي عليه من مخاطر محتملة . لقد وصل إلى بغداد في الأسبوع الماضي مستصحباً معه مجموعة كاملة من المسافرين .

تغمرنا موجهة عارمة من المناسبات التوديعية التي تقام على شرف السير برسي(٨) الذي يحس بدوره أنه هو الآخر مغمور بفيض اهتمامنا . نحمد الله على قرب حلول شهر رمضان الذي سيسهل علينا في الأسبوع المقبل الأمر سيضع حداً للنشاطات الاحتفالية العربية .»

وفي الثاني عشر من شهر نيسان ، وفي إطار الاتصالات القائمة بين الملك وكبار رجال الدين الشيعة ، تقول الآنسة بيل : «في الحين ذاته يقوم الملك ببذل جهود تنصرف إلى التقرب من كبار رجال الدين الشيعة ، وهو توجه يتعارض مع ما أبداه أصدقاؤه المقربون ، ورئيس الوزراء ، من نصح بهذا الصدد . لقد لعب رجال هؤلاء دوراً لا يمكن للملك التعامل

---

(٧) كان عالم الآثار اللورد كارنارفون قد حدد موقع قبر توت عنخ آمون في عام ١٩٢٢ ، وقد توفى بعيد فتح القبر في شباط من عام ١٩٢٣ - المترجم

(٨) كان السير برسي قد عاد إلى بغداد في الحادي والثلاثين من شهر آذار من عام ١٩٢٣ من زيارة عمل كان قام بها إلى بريطانيا وهو يحمل ملحقاً للمعاهدة باسم بروتوكول يتضمن موافقة الحكومة البريطانية على تخفيض مدة المعاهدة من عشرين عاماً إلى أربعة أعوام - المترجم .

معه باي شكل من الأشكال ، وقد تم صباح اليوم نشر فتوى في مسجد الكاظمية تحرم حماية العراق ضد الأتراك . وقد تم جلب نسخة من هذه الفتوى إلى مكتبي صباح اليوم . ما الذي ينبغي للحكومة العراقية القيام به؟ ذلك هو السؤال . يرى كونواليس ضرورة ترحيل المجتهدين الذين وقعوا على الفتوى سالفة الذكر إلى بلاد فارس باعتبارهم من التابعية الفارسية أساساً . إنه قرار خطير للغاية . حبذا لو أن الملك ينأى بنفسه عن التدخل في الأمور ! إن قرب حلول شهر رمضان ، وما تثيره هذه المناسبة من أوجه الإثارة الدينية ، قد يجعل من الأيام القليلة المقبلة حبلى بالمخاطر .

لعل حالة الطقس السائدة تتسبب في توتر أعصاب الإنسان ، إلا أن مما لا شك فيه هو أن الطقس محمل بما هو أكثر سوءاً من الغبار .

أقام الملك ليلة أمس مأدبة عشاء هائلة على شرف السير برسي . وكنت أعاني من بداية حمى ألمت بي وجعلتني لا أدرك بالضبط ما إذا كنت أقف على قدمي أم رأسي ! وبالإضافة إلى ارتعادي برداً بفعل الحمى ، كان الطقس في الواقع بارداً ، فقد أقيمت المأدبة في الصالة الكبرى المطلة على حديقة القصر ، وكانت كل الأبواب مشرعة . لم يسبق لي قضاء أمسية أطول وأكثر معاناة . إلا أنني ، والحمد للرب ، أصبحت بحالة جيدة .

وأخيراً تم لنا طرد الأتراك من حدودنا الشرقية ، وآمل أن نسمح للعرب والأكراد بالتوصل إلى اعتماد الترتيبات الملائمة بينهما ، وإذا ما تم ذلك فسوف يحق لي القول بأن بعض الفضل في ذلك إنما يعود لي شخصياً . إن مجلس الوزراء سيقر المعاهدة التي سيكون أمدها أربع سنوات ، وبذلك فإن انصرافنا إلى فرض ترتيبات (في كردستان) يتطلب تنفيذها وجود قوات لنا بشكل دائم إنما يعتبر إجراءً غير منطقي ، ناهيك عن غياب الأسس التي يمكن الانطلاق منها للتفاهم مع الرؤساء الأكراد المعروفين بعدم الانضباط .»

***

بعد خدمة بلغ أمدها بحدود أربعين عاماً (في هذا الجزء من العالم) ، غادر السير برسي بغداد في بداية شهر أيار . إنه جانب لم يخفق في إرباك الآنسة بيل ، وتغلب العواطف عليها ، لا سيما وأنها كانت هي الأخرى تستعد للتوجه إلى الوطن بعد قضاء ثلاثة صيفيات متتالية في العراق . وبهذا الصدد نجدها تقول في رسالتها المؤرخة في التاسع من أيار : « لا ينبغي لي في الواقع التوجه إلى الوطن ، فالانتخابات على الأبواب ، والناس هنا بحاجة ماسة للمساعدة والتوجيه . إنني على ثقة من عودتي في وقت مبكر من شهر آب المقبل ، إذ لا يمكنني أبداً البقاء فترة أطول !» .

الفصل الخامس والعشرون

١٩٢٣

على نحو ما توقعت الآنسة بيل ، فإنها عادت إلى العراق قبل نهاية شهر آب . وفي الرابع والعشرين منه ، كتبت إلى اللادي بيل رسالة من ميناء مارسيليا تقول فيها : « وداعاً أيتها الأعز . عندما يقوم المرء منا برحلات الإياب والذهاب ، لا تبدو بغداد ولندن بعيدتين إحداهما عن الأخرى . وأنا لا أجد ما يستبقيني في لندن مدة طويلة ، إلا أنني عندما أكون بعيدة عن الوطن تنتابني رغبة في العودة إلى مسقط رأسي في راونتون حيث أشعر بأن وجودي بين أفراد عائلتي هو أكثر بهجة من أي شيء آخر .»

ومما لا شك فيه أن من شأن قراءة متمعنة لرسائل الآنسة بيل التي كتبتها بعد عودتها إلى بغداد من بريطانيا لا تخفق في إثارة شعور خفي لدى القارئ بأنها في الواقع قد عادت إلى وطنها .

***

في الحادي عشر من أيلول كتبت : « أثابر مع ولسون على العمل من أجل الانتهاء من وضع قانون الآثار الذي ننشد وضعه لاحقاً في حيز التنفيذ ، وإننا نقوم بنشاطنا هذا في ضوء توجيهات من لدن السيد دروير . وقد حاول وزيري ، ياسين باشا ، الإسراع في استصدار قانون عمد هو شخصياً إلى صياغته وذلك أثناء غيابي - وهي خدعة خبيثة - إلا أن حسن الحظ شاء أن تنطوي مسودة هذا القانون على عدد من الجوانب السخيفة ، وغير المنطقية ، الأمر الذي سهل مهمة الطعن فيها ، وبيان عدم ملاءمتها للتطبيق .

استضفت نوري باشا على الغداء . إنه من بين أفضل أصدقائي هنا ، وإن لم يكن مثالاً للفضيلة والاستقامة في إطار العمل السياسي ، وهو جانب يجد نفسه على بينة تامة منه . أما كثرة ميله إلى معاقرة الخمر ومعاشرة النساء فأمر لا يسعه إلا أن يكون مدركاً له على ما أفترض . ومع ذلك فإنني أحبه لأنه من النوع الذي لا يصعب عليك دفعه إلى فهم وجهه نظرك واحترامها حتى في حال عدم استجابته لما تريده منه .»

وفي السابع عشر من أيلول كتبت قائلة : «عاد زيد لتوه من الموصل . إنه يكره إضاعة الوقت في أمور لا طائل منها . ومن جانب آخر فإن احتمال قيام أبيه بالموافقة على إيفاده إلى

أكسفورد [1] أمر مشكوك فيه ، كما أن فيصل من جانبه لا يجرؤ على إيفاده من غير موافقة أبيه المسبقة . إنه أمر يحزنني إلى أبعد الحدود . إن زيد يشعر بالملل في بغداد ، ويكره كل صيغ الدسائس والمكائد التي تهيمن على أجواء القصر الملكي . وعلى الرغم من انصرافه إلى ممارسة ركوب الخيل صباح كل يوم ، ولعب البولو ، والذهاب إلى الصيد فإنه مع ذلك يظن إن هذه الممارسات ليست أكثر من مضيعة للوقت . إنه أفضل إخوانه ، وإنه لأمر مؤلم أن يُترك لينضمر ويذبل عوده في الوقت الذي يحاول جاهداً من أجل تفادي هذا المصير .»

وفي الثامن عشر من أيلول كتبت جيرتروود «أمل أن يصار إلى إعادة تعيين جعفر وزيراً للدفاع ، فهو مخلص لكل من مليكه ولنا ، كما أن بإمكانه تقدير ما للأمور من أهمية نسبية بشكل يفوق قدرة القسم الأكبر منهم (أي من العراقيين) على ذلك . إنه الرجل الذي يمكن للملك أن يعول عليه في تنفيذ أوامره بشكل كامل ودقيق ، وهي أوامر لا يمكن لجعفر أن يشكك في حكمتها ، أو يتردد في تنفيذها ، بأي حال من الأحوال ، ومهما بلغت من حماقة ، ولذلك لا يعتبر شخصاً يمكن الاعتماد عليه في المجلس . ويكاد يكون كلهم (أي الوزراء) أشخاصاً لا يمكن الاعتماد عليهم اللهم إلا بإستثناء شخص أو إثنين ، يعتبر ساسون أحدهما ، ممن يمكنهم الوقوف مع رئيس الوزراء ضد الملك ، على الرغم من أن رئيس الوزراء يكاد يكون في كل الأحوال الشخص الوحيد الذي يقوم باعتماد التوجه الصحيح والشجاع .

ولا بد أن أئتمنك على خبر في غاية السرية مفاده أن صاحب الجلالة الملك حاول جاهداً أن يعكس الصورة الخاصة بقضية المجتهدين لتبدو وكأنها تأتت نتيجة إجراءات قمنا بها نحن (البريطانيين) وأعضاء حكومته بمنأى عن موافقته . إنه يظن دائماً أن بإمكانه تحقيق المكاسب عن طريق اللعب على الحبلين . فقد كان على علم تام بأخبار إلقاء القبض على

(١) لقد أثرت هذا الموضوع مع صاحب السمو الملكي الأمير رعد بن زيد المعظم صديقي العزيز وزميل دراستي الابتدائية فأكد لي مشكوراً أن سمو والده ، الأمير زيد بن الحسين ، رحمه الله واسكنه فسيح جناته ، تم له بالفعل الالتحاق بكلية باليول Balliol College جامعة أوكسفورد للدراسة حيث أعد سموه منهجاً دراسياً خاصاً تم التركيز فيه على الجوانب الخاصة بالزراعة وتقنياتها - المترجم .

العلماء وترحيلهم إلى بلاد فارس[٢]، وكان يخبر السير هنري بتفاصيل ما كان يقوم به من نشاط إلا أنه لم يخبر رئيس وزرائه بذلك حتى الوقت الذي وصل فيه بعض الأقل شأناً من بين العلماء إلى الحدود العراقية طالبين الإذن بالدخول إلى العراق، وعلى الرغم من معارضة رئيس الوزراء إلا أنه (الملك) تمكن من دفع الوزراء إلى الموافقة على إصدار قرار يسمح للعلماء بالدخول إلى العراق .

كان الترحيب الذي حظيت به من لدن شيوخ العشائر إثر عودتي من بريطانيا مؤثراً للغاية، وكان البعض منهم قد جاء من مناطق بعيدة مثل الديوانية لمجرد تحيتي والترحيب بمقدمي . إن مقدار ابتهاجهم بعودتي هو جانب واضح لا مجال للشك فيه، أما إزاء ما يولوني من ثقة كبيرة فلا يسعني سوى الشعور بالخجل . إنهم يثقون بنا أكثر من ثقتهم بأبناء جلدتهم ويظنون بأننا (البريطانيين في العراق) قادرون على ممارسة كل ما تملك بريطانيا من سلطات وصلاحيات تتعلق بالعراق . أما الملك فلديه تصور كامل عن إمكاناتنا وما نستطيع ممارسته من صلاحيات، وهو ليس بالشيء الكثير . إنهم (الحكومة العراقية) يقومون حالياً بمناقشة أحكام الاتفاقية العسكرية التي تشكل جزءاً من المعاهدة . لقد قرأت الوثيقة هذه

---

(٢) إن عدم انصراف الآنسة بيل إلى ذكر التفاصيل المتعلقة بنفي الشيخ مهدي الخالصي وأبنائه إنما يعود إلى وجودها في بريطانيا أثناء قيام السلطات العراقية بعمليات إلقاء القبض على المجتهدين التسعة الآخرين من بعدهم (وهم أبو الحسن الأصفهاني، وحسين الناييني، وجواد الجواهري، وعلي الشهرستاني وعبد الحسين الشيرازي، وأحمد الخرساني، ومهدي الخرساني، وحسين الطبطبائي، وعبد الحسين الطبطبائي الذين كانوا من التابعية الإيرانية .) كما أن قولها بأن المعنيين تم ترحيلهم إلى بلاد فارس، على حد قولها، لا يعكس تفاصيل عملية النفي بصورة دقيقة، فقد تم نفي الشيخ مهدي الخالصي ومن معه، أي كل من ولديه علي وحسن وقريبيه الشيخ علي تقي والشيخ سلمان الصفواني، إلى مكة حيث أدوا فريضة الحج . بعد ذلك توجه الشيخ الخالصي إلى ميناء بندر بوشهر تلبية لدعوة من الحكومة الإيرانية التي كانت قد احتجت على نفيه . ولم يكتب للشيخ الخالصي رحمه الله العودة إلى وطنه العراق بل توفاه الله في خرسان في شهر نيسان من عام ١٩٢٥ ودفن بجوار الإمام الثامن، علي بن موسى الرضى عليهما السلام . أما المجتهدون التسعة فقد تم ترحيلهم إلى إيران لأنهم كانوا من التابعية الإيرانيين ، علماً بأنهم كانوا قد صمموا على ترك العراق أساساً وذلك احتجاجاً على عملية نفي الخالصي ، فجاء تصميمهم هذا متفقاً مع توجه الحكومة . ويتعين القول أن عمليتي النفي والإبعاد أنفتي الذكر شكلتا ضرورة حتمية بالنسبة للملك والحكومة والسلطات البريطانية بسبب مواقف العلماء المناوئة لمسألة انتخاب المجلس التأسيسي وإقرار المعاهدة - المترجم

التي تتضمن على وجه الحصر أحكاماً إلزامية تمت صياغتها بعبارات صارمة تتعلق بما لا يجوز للعراق القيام به ، دونما ذكر لما نلتزم نحن بدورنا بالقيام به اللهم إلا باستثناء قيامنا بتقليص حجم قواتنا العسكرية بسرعة كلما دعت الضرورة ذلك . ليس هذا بأمر يسهل طرحه أمام المجلس التأسيسي . إن ما يتبادر إلى ذهني من نقد يتعلق بهذه الأحكام سيتبادر من غير أدنى شك إلى أذهان أعضاء المجلس المذكور . وإذ أدرك جيداً عجزنا عن تغيير جوهر هذه الأحكام ، فلأنني أرى من جانب آخر أن صياغة الأحكام كان ينبغي لها أن تكون أكثر ملاءمة وأقل تشدداً ، وهو جانب لا تدركه حكومة جلالة الملك على ما يبدو . ومن قبيل ذلك ، تصر حكومة جلالة الملك على وجوب قيامنا (أي قيام العراق) بشراء خطوط سككنا الحديدية القديمة من مواردنا المالية المتوافرة حالياً ، وهو طلب يصعب تنفيذه . إن الخطوط المذكورة كان قد تم مدها لأغراض عسكرية بحتة في ظروف الحرب ، وبذلك فإن اعتبارها جزءاً من مصاريف الحرب لا يمكنه أن يكون جانباً غير معقول .»

إن رسالة الآنسة جيرتروود بيل المؤرخة في الخامس والعشرين من شهر أيلول تتعلق بشكل عام بسلسلة حفلات للشاي التي كان عدد كبير منها قد أُقيم تكريماً للسير هنري دوبس بمناسبة تسلمه منصب المندوب السامي في العراق ، إلا أنها (أي الرسالة) لا تخلو من جوانب ذات أهمية خاصة ، فهي تقول : «إن جعفر في غاية الانشراح بفعل هالة المجد التي أضفتها عليه تجاربه وممارساته في إنجلترا .

وصلت إلى بغداد قطع الأثاث التي كان قد تم طلب شرائها من محلات وارنج وجيلو Waring anf Gillow لأغراض القصر الملكي . ويعاني الرائد ولسون من تصرفات ناظر الخاصة الملكية ، صفوت باشا العوا ، الذي يعمد على ما يبدو إلى نقض أوامر الملك الأمر الذي وضع ولسون المسكين في حيرة من أمره . ومن جانب آخر يعاني ولسون من تصرفات زوجة صفوت باشا التي تحاول هي الأخرى الانفراد برأيها كقيامها باختيار ستائر في غاية الرداءة والبشاعة لشبابيك صالة الاستقبال الكبرى . ولذلك سارعت إلى وضع الأمور في نصابها الصحيح الأمر الذي مكن ولسون من العمل وفق ما يراه ملائماً . آمل أن يستمر الوضع على هذه الصورة ، ومع ذلك لا يمكن ضمان سير الأمور وفق ما هو مطلوب !»

وفي رسالتها المؤرخة في الأول من شهر تشرين الأول ، تتناول الآنسة بيل موضوعاً في غاية الحساسية هي تقول : «كان لي حديث مع نوري حول المسألة الآثورية في ضوء موجة الاحتجاج العارمة التي أثارها عرب الموصل حول عودة بعض الآثوريين الذين سلكوا طريقهم عن طريق القسطنطسنية (اسطنبول) إلى سوريا . إنهم أصلاً من المنطقة الجبلية التي تدار

حالياً من قبل العراق على الرغم من أنها تقع خارج الحدود التي عينتها معاهدة سيفر . إنها المنطقة التي نرغب استعادتها من تركيا لسببين أساسيين أولهما إنها تشكل حصناً طبيعياً رائعاً ، وثانيهما إن الشرف يلزمنا بالعمل للحيلولة دون عودة الآثوريين للعيش تحت الحكم التركي . ويعلن الآثوريون بدورهم أنهم يفضلون الهجرة بقضهم وقضيضهم بدلاً من تعرضهم للبطش والهلاك على يد الأتراك . وفي الوقت الراهن هناك شعور بالحقد والمرارة قائم بين العرب والآثوريين مرده أساساً على ما أظن إلى (تصرفات) القوات المجندة الآثورية (المعروفة باسم الليفي) . إن استحداث قوة مجندة تعمل بإمرة ضباط بريطانيين كان من بين أخطاء السير برسي القديمة . وقد اسهم الضباط البريطانيون بدورهم في تعميق جذور الشعور بالحقد (بين العرب والآثوريين) من خلال تواصل تنبيه الآثوريين بأنهم جنود بريطانيون أفاضل لا عرب أقذار (كذا) وهو جانب أحاول دائماً أن ألفت انتباه السير هنري إليه . إن الآثوريين لا خيار لديهم سوى التوصل إلى تفاهم مع العرب وهو ما سيتحقق بالنتيجة في حال كف الضباط البريطانيون عن التدخل(٣) .

---

(٣) عمد البريطانيون في شمال العراق إلى إسكان جماعة يدعي أبناؤها بأنهم سليلو الآشوريين ، من سكان العراق القدامى ، وهو ادعاء لا أساس واقعي له على ما يبدو . وعلى الرغم من أنهم يشكلون مجموعة مسيحية (نسطورية) قديمة تتكلم السريانية ، إلا أن أصولهم وانتماءهم العرقي لا يمكن تحديدهما بأية درجة من الدقة ، وهذا ما يبينه بوضوح ستيفن همسلي لونجريك في كتابه العلمي ذائع الصيت «العراق ١٩٠٠ – ١٩٥٠» . إلا أن الرأي البريطاني الرسمي ينصرف إلى اعتبار الآثوريين من بقايا الآشوريين سكان العراق القدماء الأمر الذي يفسر تعاطف السلطات البريطانية معهم . وعلى الرغم من تواجد قسم منهم في قرى العراق الواقعة في المناطق الحدودية الشمالية ، إلا أن القسم الأكبر منهم كان يسكن في القرى التركية . وجاء نزوحهم إلى العراق بأعداد كبيرة بسبب اضطهاد الأتراك لهم . وقد شاءت السلطات البريطانية بعد احتلال العراق أن تجند فريقاً منهم لتجعل منه قوة منظمة تعمل بإمرة ضباط بريطانيين الأمر الذي يفسر سبب تسميتهم بـ«الليفي» Levies ، أي المجندين . وكانت السلطات البريطانية تستعين بأفراد هذه المجموعة في ضرب الحركات التحررية التي قامت في شتى مناطق العراق مما تسبب بإيجاد ضغائن كبيرة بينهم وبين أهل البلاد الأصليين . ومما زاد من حدة الحقد عليهم لجوء السلطات البريطانية إلى إسكان هذه الفئة في محافظة الموصل بأعداد متنامية ومنحهم امتيازات معينة إلى الحد الذي دفع بهم إلى التصرف باستعلاء وهو ما أدى إلى حادثة يوم ١٩٢٣/٨/١٥ في سوق العتمة في الموصل التي كادت تؤدي إلى كارثة لولا تدارك الموقف من قبل الشرطة . ومع ذلك فإن الحادثة تسببت باثنتي عشرة إصابة بين قتيل وجريح . وقد ازداد قلق أهل ==

يزداد عملي في المكتب متعة ، فقد أُنيطت بي الآن ، وبشكل كامل ، المسؤولية المتعلقة بشؤون العشائر ، وهذا يعني أن كل ما له علاقة بأبن سعود ، والغزوات التي يتم شنها في الجنوب ، وكذلك النزاعات التي تقوم بين القبائل عبر الحدود الفرنسية (كذا)(٤) ، وهي أمور يتم طرحها من قبلي على أنظار المندوب السامي مع تقديم التوصيات والمقترحات المناسبة بشأنها ، إلى جانب إعداد مسودات المراسلات مع الجنرال ويغاند General Weygand . إنه عمل ممتع حقاً انطلاقاً من واقع أن معرفتي بشؤون العشائر وتفاصيلها تشكل جانباً لا يضاهيني فيه أحد من منتسبي مكتبنا ، وأنا بدوري آمل مخلصة أن يلمس كين كورنواليس تحسناً ملحوظاً في طريقة تعاملنا مع الوثائق التي تُرسل إلينا من قبل وزارة الداخلية .

«نقوم أنا والرائد ولسون بتصميم شعار لجلالة الملك . ولقد طلبت من إدارة المتحف البريطاني تزويدي بتفاصيل السياقات التاريخية المتعلقة بعلم شعارات النبالة الشرقية(٥) ولابد لي من الاعتراف بأن هناك مجال واسع لتحقيق المتعة والإنجازات في أطر النشاطات الخاصة بنشأة الدول الفتية وتطورها التدريجي .»

وفي الثالث عشر من شهر تشرين الأول كتبت قائلة : « زرت في عصر أحد الأيام

== الموصل من تزايد تسلل التياريين (وهو الاسم الذي كانت الجماعة هذه تعرف به محلياً) . إلى الحد الذي دفع بالملك فيصل إلى التوجه إلى الموصل للنظر في الوضع عن كثب ، وقد توصل أخيراً إلى نتيجة مفادها وجوب ترحيلهم من الموصل ، إثر ذلك أصدرت الحكومة العراقية ، بعد تدارس الوضع مع المندوب السامي ، قراراً يقضي بعدم السماح لأي شخص من دخول العراق ما لم يستحصل على موافقة الحكومة العراقية مسبقاً إلا أن الحكومة لم تعاقب متسببي حادثة الموصل بل اكتفت بنقل التياريين إلى كركوك . ومع ذلك استمرت الاحتجاجات مما أدى بالنتيجة إلى الفاجعة التي وقعت في كركوك في ١٩٢٤/٥/٤ إبان حكم الوزارة العسكرية الأولى وتسببت بمقتل عدد لا يستهان به من الناس . والعجيب في الأمر أن الآنسة بيل لا تذكر تفاصيل هذه الأحداث في رسائلها . وكان من شأن ردود الأفعال الفاترة للحكومات العراقية إزاء مثل هذه التجاوزات من قبل قوات الليفي آنفة الذكر ، وعدم التفات السلطات البريطانية إلى الحد من تجاوزات هذه الفئة بشكل حاد ، أن يؤدي إلى التمرد الآثوري عام ١٩٣٣ ، وما ترتب عليه من إجراءات دامية - المترجم

(٤) المقصود هنا المناطق الواقعة عبر الحدود السورية والتي تخضع للسيطرة الفرنسية - المترجم

(٥) أي كل ما له علاقة بابتكار شعارات النبالة ، بما في ذلك صُنعها ومنحها ، وتحقيق الأنساب وتدوينها -المترجم

المستشفى المدني(٦) لأجد أمامي في إحدى شرفاتها شيخاً عربياً طويل القامة ، حسن الملبس ولكنه ناحل ، راح يترنح في مشيته ويتمايل وقد أخبرتني إحدى الممرضات الفرنسيات بأن الشيخ هذا كان مرسلاً إلى المستشفى من قبل جلالة الملك ، ولذلك ذهبت للتعرف عليه والاطمئنان على وضعه الصحي العام . دحجني بنظرة انطلقت من عينيين غائرتين وقال لي : «أنا عودة أبو تايه» . لعله كان الأشهر صيتاً من بين القادة في يومه ، وموطنه قريب من خط الحج الحديدي .(٧) وكنت قد حليت ضيفة على مضاربه في عام ١٩١٣ ، وأنا في طريقي إلى حائل ، إلا أنني لم ألتقه لأنه كان في إحدى غزواته . لقد لعب دوراً بارزاً في الثورة العربية تميز بالنبل والشجاعة . وبعد أن عرفته بنفسي انطلقنا نتجاذب أطراف الحديث . لقد أبهجني هذا اللقاء إلى أبعد الحدود . إنه عليل جداً على ما يبدو . أخشى بأنه مصاب بداء السرطان .

كان السير هنري خارج بغداد لجزء من الأسبوع الماضي ، فقد ذهب إلى خانقين للقاء السير برسي لورين Sir Percy Loraine وللقيام بجولة تفتيشية لحقول النفط هناك . وقد أخبر السير برسي أنف الذكر المندوب السامي خبراً مثيراً للاهتمام : مفاده إخفاق الحكومة الفارسية في الحصول على قرض من الولايات المتحدة برغم أنها طرقت أبواب كل البنوك هناك . آمل أن يكون ذلك درساً لن ينسوه . لقد بدأ الإيرانيون يقولون أن الدولة العظمى الوحيدة التي تمد يدها لمساعدة الحكومات الشرقية هي بريطانيا العظمى ، كما بدأ الأتراك بدورهم يغنون ذات الموال . ومن هناك فإنني أتنبأ تحقيق تحول رائع على مدى السنوات البضع القادمة إذا ما قدر لنا انتهاج خط عقلاني يتم وفقه تمشية علاقاتنا الآسيوية بوجه عام بذات الطريقة المعتمدة هنا (في العراق) .»

وفي السابع عشر من تشرين الأول كتبت تقول : «استلمت عريضة (استدعاء) تزخر بعبارات السخط والنقمة الموجهة ضد الشيخ عودة أبو تايه من قبل عدد من تجار بغداد ادعوا فيها بأنه قد سلبهم عشرات الألوف من الروبيات قبل فترة من الزمن - إنني أذكر المناسبة -

---

(٦) المستشفى المدني = كانت قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى تعرف بمستشفى المجيدية نسبة إلى السلطان العثماني عبد المجيد ، ثم عرفت بالمستشفى المدني إبان فترة الاحتلال . أما في العهد الملكي فقد عرفت باسم المستشفى الملكي وبقي اسمها هذا حتى ثورة الرابع عشر من تموز من عام ١٩٥٨ . وبعد هذا التأريخ أصبحت تعرف بالمستشفى الجمهوري . أما اليوم فهي مجمع طبي كبير يعرف باسم مدينة الطب - المترجم(٧) المقصود هنا طبعاً هو سكة حديد الحجاز - المترجم

كما يقولون إنهم قد علموا بأنه يتسكع حالياً في أنحاء بغداد ، ولذلك فإنهم يأملون باحتمال قيامنا باستحصالها منه . إنه بالتأكيد لا يتسكع في أنحاء بغداد ، فقد أجريت له مؤخراً عملية جراحية كبرى . أفهم أنه سيتماثل للشفاء ، وهو إنجاز قد لا يأتي تحقيقه لخير البشرية جمعاء ، إلا أنه سيحفظ شخصية شاءت لها الأقدار أن تجمع بدرجة عالية بين الطرافة والغرابة . وإنني أشك من جانب آخر ما إذا كان المستدعون سيتمكنون من استرجاع أي مبلغ منه في حال تم له استعادة كامل عافيته .»

ثم كتبت في الثلاثين من تشرين الأول ما يلي : « يقضي السير هنري ، على ما يبدو ، أوقاتاً ممتعة في الموصل . لقد وقف (أمام الموصليين) وقفة رجل ليقول لهم أننا (البريطانيين) لا ننظر إلى المعاهدات باعتبارها مجرد قصاصات ورق(٨) ، وعليه لا داعي لأي شعور بالقلق حول نتيجة المفاوضات الحدودية . إن من شأن هذا الوقف أن يؤدي إلى نتائج إيجابية . ومن جانب آخر ، فقد اكتشف الملك أن أقرب الوطنيين إليه كانوا يراسلون الأتراك ، وهو جانب طالما كنا نخبره عنه ، الأمر الذي دفع بجلالته إلى إسقاطهم من حساباته . إنهم (العراقيون) يكتشفون بشكل تدريجي أن العناصر المناوئة للبريطانيين هي عناصر مؤيدة للأتراك وهو اكتشاف جعلهم على بينة من واقع الأمور بدرجة غير قليلة .»

وفي الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول تطرقت الآنسة بيل إلى ذكر الأزمة الوزارية التي عاشها العراق في تلك الفترة بالذات قائلة : « أثار جلالة الملك اليوم أزمة وزارية كعهده دائماً من وقت إلى آخر ، ولابد من القول أن مجلس الوزراء هذا هو أفضل ما يمكن لجلالته أن يحظى به ، وأن ما يعمد جلالته إلى توجيهه ضده هذا المجلس من انتقادات ، وما يعلن من مظالم ، تعتبر بشكل رئيسي غير معقولة . إنه (أي جلالته) سيتناول طعام العشاء على مائدتي مساء اليوم ، إلا أنني لا أتوقع أن يكون مزاجه رائعاً بسبب الحوار الذي يدور في هذه اللحظة ، على ما أعتقد ، بينه وبين كورنواليس ، وسيكون الأخير هذا من بين المدعوين .»

وعن دعوة العشاء سالفةالذكر كتبت الآنسة بيل في الأول من شهر تشرين الثاني

---

(٨)تنطوي هذه الملاحظة على إشارة خفية لا تخلو من تعريض تتعلق بالعبارة الشهيرة التي نطق بها قيصر ألمانيا فلهيلم الثاني عشية اجتياح القوات الألمانية بلجيكا المحايدة ، فإزاء القرار الألماني القاضي بغزو بلجيكا سؤل القيصر عن موقف ألمانيا حيال حياد بلجيكا ، الذي كانت ألمانيا بالذات إحدى الدول التي سبق لها إقراره بمعاهدة ، فأجاب قائلاً إن التعهد بحياد بلجيكا هو مجرد قصاصة ورق ليس إلا ! - المترجم

قائلة : «كانت دعوة العشاء التي أقمتها ليلة أمس ناجحة للغاية . كانت الأزمة الوزارية قد انتهت ، وقام الجميع بسحب كل ما خرجوا به من أقوال ، وبأفضل الصيغ ، أما الملك فقد علت وجهه ابتسامة وضاءة ، وقد قضى في الواقع ليلة ممتعة جداً . تصور يا أبتاه : أزمة كبيرة يليها عشاء معي ! بعد العشاء اشتركنا في لعبة «الشمندفر» Chemain de fer . ويؤسفني القول أن الملك لم يربح ، إلا أنه لم يخسر كثيراً .

بدأ موسم الأمطار ، وقد شهد اليومان الماضيان أجواءً هطلت الأمطار فيها بصورة زخات . إنه وقت مبكر لهطول الأمطار بيد أنه لا يخلو من متعة . أما القبائل الصحراوية فستنطلق إلى البوادي طلباً للعشب والكلأ ، إنها تلتزم بالهدوء والسكينة .»

أما في رسالتها المؤرخة في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني ، والموجهة إلى أبيها ، فإنها تتناول الحديث عن الشؤون البريطانية وما لها من تداعيات تتعلق بالوضع في العراق . وتقول بهذا الصدد : «أخبار حل البرلمان تثير فينا شعوراً باليأس . ترى هل هناك ما يعتبر أكثر حماقة من الابتداء مرة أخرى بذلك الخلاف المنهك للقوى؟ إنك على ما أعتقد ستقف لتؤيد كلاً من لويد جورج و ونستون تشرتشل أليس كذلك؟ وفي حال تم فوز بولدوين Sir Stanley Baldwin وجماعته مرة أخرى فإنهم سيجدون أن جهودهم الرامية إلى القيام بأي إجراءات وقائية ستثبت محاولات مستحيلة ، وإن عدم ثقتي بالمجموعة الأخرى سيدفعني إلى التصويت ضدهم جميعاً ، ومن خلال الفوضى التي ستترتب على ذلك سيتمكن حزب العمال من الفوز في الانتخابات . ياله من وضع سيؤدي لا محالة إلى عواقب وخيمة[٩] .

أخشى أن هذا الاضطراب لن يخفق في أن يجد له صدى هنا ، لا سيما في خضم الأزمة الوزارية التي يشهدها العراق . لقد قرر الملك أخيراً دفع وزرائه إلى الاستقالة . وعلى الرغم من رأينا بأن جلالته على خطأ ، إلا أننا لابد أن نعترف بوجود إخفاقات لدى الجانبين . فالوزراء يرون أن الملك يحاول التدخل في شؤونهم – وهو أمر واقع – إلا أنهم

(٩) تتحدث جيرتروود عن الخلاف الذي نشأ بين حزبي المحافظين والأحرار ، أي بين ركني الائتلاف الوزاري البريطاني الذي كان قائماً إبان الحرب العالمية الأولى ، وهو الخلاف الذي دفع بزعيم حزب المحافظين ستانلي بولدوين إلى إنهاء الائتلاف آنف الذكر . وكان من شأن ذلك أن يفتح المجال أمام فوز حزب العمال للمرة الأولى في تاريخ بريطانيا ، إلا أن تجربة حزب العمال الأولى في الحكم لم تتجاوز العام الواحد إذ سرعان ما عاد المحافظون بقيادة بولدوين إلى الحكم – المترجم .

بدورهم أنهم كانوا من الغباء بحيث وضعوا أنفسهم في مأزق عبر رفضهم تزويد جلالته بمعلومات يحق له قانوناً طلبها والاطلاع عليها . سوف أكون في غاية السعادة عندما سيصبح للبلاد دستور يمنع الملك من القيام بتغيير الحكومات متى شاء ، وأنا بدوري أرفض مد يد العون له في هذا الصدد . واعلم يا أبتاه أنني أستطيع دائماً إقناع ساسون أفندي بالقيام بما أشاء . إلا أنني لن أدفعه هذه المرة بالذات إلى القيام بأي إجراء . إنني في الواقع أشعر بالغضب .

حضرت يوم الاثنين مباراة في لعبة البولو قام بها الجيش العراقي ورعاها الملك . وقد جلست معه في سيارته أثناء المباراة وحاولت عبثاً إقناعه بعدم اللجوء إلى تغيير الحكومة .

وبحلول الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني ، كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق في تشكيل وزارة جديدة برئاسة جعفر باشا العسكري مع بقاء نوري باشا وزيراً للدفاع(١٠) . آمل أن يصبح عبد المحسن بك السعدون رئيساً للمجلس التأسيسي ، ولقد تم لي التدخل في الوقت المناسب من أجل تغيير توجه انصرف إلى اختيار شخص مشاكس من أبناء الشيعة كنت منذ عام ١٩١٨ على بينة تامة من تحركاته وتوجهاته التي لم أجدها

---

(١٠) إن ما حققه السعدون من نجاح في نفي الشيخ الخالصي ، واتخاذ ما يلزم باتجاه تسفير المجتهدين ، كان من شأنه أن يرفع من أسهمه لدى البريطانيين باعتباره الرجل الذي يمكنهم الاعتماد عليه في تنفيذ سياساتهم من جهة ، ومقاومة مناورات الملك فيصل عند اللزوم من جهة أخرى . وقد وجد جلالة الملك في مثل هذا الموقف خطراً لابد من القضاء عليه . ومما زاد الطين بلة إعجاب المندوب السير هنري دوبس بالسعدون . وبذلك راح جلالته يتحين الفرص لإسقاط وزارة السعدون ، وراح أعوانه يبثون الإشاعات السيئة ضدها . وقد حانت فرصة الملك عند ما وجد أن الوزارة قد أخفقت في معالجة الضائقة الاقتصادية التي كانت تهيمن على البلاد ، برغم لجوئها إلى زيادة عبء الضرائب على أبناء الشعب . وقد طلب الملك من الوزارة تقديم ما يمكن من الإيضاحات حول إخفاقها في اتخاذ ما يلزم وهو ما أشارت إليه الآنسة بيل واعتبرته حقاً مشروعاً للملك بصرف النظر عن إيمانها بأنه كان يتحين الفرص للإيقاع بالحكومة . وقد اضطر السعدون إلى تقديم استقالته في ١٩٢٣/١١/١٥ . أما الوزارة العسكرية الأولى التي تلت وزارة عبد المحسن بك السعدون الأولى فقد تشكلت في ١٩٢٣/١١/٢٦ . وتقول الآنسة بيل بهذا الخصوص أن نوري باشا بقي وزيراً للدفاع والواقع أنه تعين في هذه الوزارة وزيراً للدفاع بالأصالة بينما كان في أثناء حكومة السعدون وزيراً للدفاع بالوكالة - المترجم

ملائمة وصالحة .

إن وجودي (في العراق) كما يبدو لي هو مسيرة طويلة تميزت بالمرح والبهجة[١١] . كما أن العمل ممتع هو الآخر أيضاً : بإمكانك إدراك هذا الواقع لو أتيحت لك فرصة الاطلاع على الكتب والمذكرات الخطيرة التي أقوم بتوجيهها إلى المندوب السامي (الفرنسي) في سوريا وإلى شخصيات كبيرة أخرى ! إن أداء الفرنسيين في سوريا رديء جداً فمشاعر الكره والغضب ضدهم في تنام متواصل ، وهكذا حالنا في فلسطين كذلك . . .»

وفي التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني كتبت تقول : «عاد النقيب كلايتون يوم السبت ، كما عاد لايونيل سمث أيضاً . وقد أمضيت يوم الأحد بأكمله في مساعدة كورنواليس بمناسبة انتقاله إلى دار جديدة . لابد من القول أن تأثيث الدور وترتيبها عملية ممتعة جداً ، وقد نجحنا في جعل دار كورنواليس الجديدة مسكناً جميلاً .

تسير الأمور بخير على نحو لا يمكن تصديقه ، فقد مثل في حضرة الملك قبل بضعة أيام وفد كبير ضم كبار الأعيان من أبناء الشيعة من كل من بغداد والكاظمية ، وقد أخبروا جلالته أن المجتمع الشيعي قد أدرك ما كان عليه أبناؤه من خطأ في التوجهات ، وبذلك فإنهم سينصرفون إلى دعم المعاهدة والارتباط البريطاني في السراء والضراء .

وثمة أمر يثير الاهتمام : لقد تم للقوة الجوية الملكية (البريطانية) اعتراض سبيل رسائل في غاية الأهمية موجهة من قبل المجتهدين (الموجودين) في بلاد فارس إلى عملائهم هنا يخبرونهم فيها أن جلالة الملك كان قد قطع على نفسه وعداً يقضي بالتخلص من حكومة عبد المحسن بك السعدون ، وتشكيل حكومة شيعية برئاسة رئيس وزراء شيعي ، وإعادة المجتهدين إلى العراق ورفض المعاهدة . وعلى الرغم من أنهم لم يثقوا بوعود جلالته ، إلا أنهم أرفقوا طي رسائلهم صيغة فتوى ، موقعة ومختومة حسب الأصول ، تم من خلالها رفع الحظر عن الانتخابات في حال قام الملك بتنفيذ ما قطع على نفسه من وعود . وكان من المتوقع أن يتم عرض هذه الفتوى على الملك على أن يتم نشرها بعد أن يكون قد بر بوعوده . إن الجانب

---

(١١) لا غرابة أبداً في هذا القول إذا ما أدركنا أن حياتها في العراق ، إلى جانب ما كانت تقوم به من واجبات على الصعيد الرسمي ، كانت عبارة عن سلسلة متواصلة من دعوات الغداء والشاي والعشاء تتخللها رحلات للصيد في مختلف أنحاء المناطق الوسطى و الجنوبية من العراق ، وممارسة ركوب الخيل ، ولعب البولو ، وحضور اللقاءات الخاصة بسباق الخيل والحفلات الليلية الكبيرة . ألم تكن حياة رائعة؟ - المترجم .

الذي نعجز عن فهمه هو ما دفع بالمجتهدين إلى ائتمان البريد العادي على إرسال مثل هذه الوثائق الخطيرة ؟ وقد توصلنا إلى قرار مفاده قيام المندوب السامي بمقابلة جلالة الملك وعرض هذه الوثائق على أنظاره مع التأكيد على أن جلالته قد تمادى في سياسته الرامية إلى مواصلة الاتصال بالمجتهدين ومجاملتهم - وهو جانب كان جلالته قد أعلم المندوب السامي به - الأمر الذي أعطى المجتهدين سلاحاً ماضياً بإمكانهم استخدامه ضده شخصياً . إلا أن جلالته تلقى الخبر بمرح واستخفاف قائلاً إن المجتهدين قد بالغوا في تصوير وعوده ، وأنه عازم على تركهم يقاسون ما جنته يداهم من حماقة ، وقطع كل اتصال بهم .»

وفي رسالتها المؤرخة في الحادي عشر من شهر كانون الأول تذكر جيرتروود قائلة : « إن يتمثل آخر نجاح تم لنا تحقيقه إنما يتمثل بعمليات (حربية) تم شنها جواً ضد العشائر المتواجدة على مقربة من سامراء ، والتي طالما تميزت بدوام تمردها . وإثر تعرضها للقصف الجوي أعلنت استسلامها وخضوعها . وقد توجه كورنواليس جواً يوم أمس بصحبة وزيره (السيد علي جودت الأيوبي) وعقدا مع العشائر المذكورة مجلساً تم من خلاله إعلام الشخصيات البارزة فيها ما يتوجب عليهم القيام به ، وأن السلطات المختصة قد قررت العفو عنهم .

انطلقت فجر يوم الاثنين في رحلة بالقطار بصحبة جلالة الملك والمندوب السامي ووفد رفيع المستوى لحضور حفل افتتاح فرع الخط الحديدي المؤدي إلى كربلاء . وقد أُقيم الاحتفال تحت رعاية جلالته .»

وفي الثالث عشر من شهر كانون الأول كتبت تقول : «عاد كورنواليس من سامراء ليخبرني عن استعراض للعضلات تم له تدبيره بهدف زرع الخوف في قلوب الشيوخ المتمردين . فبعد أن تجمعوا بحضرة الوزير حلقت خمس عشرة طائرة من نوع سنايبس Snipes فوق السراي على ارتفاع واطئ ، وبأزيز مؤثر ، لم يخفق في تحقيق الهدف المتوخى من الممارسة وهو إقناع الشيوخ أن الوقت قد حان لاستكانتهم .

وجهت رسالة إلى سكوت ، وجارفن ، وجيفري دوسون Scott, Garvin and Geoffrey Dawson أخبرهم من خلالها عن مقال بقلمي سينشر في العدد القادم من دورية «المائدة المستديرة» ، لا يحمل توقيع كاتبه ، مع التأكيد على وجوب عدم الإشارة بأي شكل من الأشكال إلى شخص من قام بكتابته . وقد طلبت منهم القيام بما يلزم بهدف استقطاب الانتباه إليه برغم ما يعكس من صورة وردية ، فقد انتظم أبناء الشيعة وراحوا يسيرون على الطريق الصحيح ، واستحق الجيش العربي (العراقي) كل الإشادة والتقدير من قبل العسكريين البريطانيين ، والوزارة الجديدة لا تقل كفاية وصلابة عن سابقتها ، بينما تمضي

تركيا بانحدار متزايد نحو الهوة الأمر الذي لن يجعلها ، على حد تعبير الجنرال برنيت ستوارت General Burnett Dtuart ، مصدر قلق بالنسبة لنا ، أي سوف يكون باستطاعتنا أن نأمل بإمكانية تحقيق تسوية لقضية الموصل ، ولربما القيام أيضاً بضم جزء من المناطق التركية إلى العراق يخصص للآثوريين . وقد سبق لي إيضاح جانب مفاده أن الطريقة المشرفة الوحيدة ، أو بالأحرى الطريقة العملية الوحيدة ، للتخفيف من وطأة المسؤولية الملقاة على عاتق بريطانيا في هذا الجزء من العالم إنما تتمثل بترسيم وتسوية الحدود مع كل من تركيا وسوريا ، وإدخال العراق عضواً في عصبة الأمم عند انتهاء الانتداب بصورة أوتوماتيكية . إن العراق سيتوق إلى الدخول في حلف معنا ، ولديه مستشارون بريطانيون يعملون في أجهزته لمدة خمس عشرة سنة ويستلمون رواتبهم ومخصصاتهم منه ، وسيسره تخصيص قاعدة جوية لنا في حال طلبنا منه ذلك . إن ما يحتاجه العراق هو وجود المستشارين ، والقدرة على الالتفات إلى العالم وإعلامه بأنه يتمتع بصداقة بريطانيا العظمى ودعمها .

ترى هل بإمكانك ، يا أبتاه ، أن تدلي بمثل هذه الحقائق إلى صحيفة يوركشايربوست Yorkshire Post ، أو أية صحيفة محلية شريفة غيرها من بين الصحف التي يمكنك التعامل معها ولابد من القول بهذا الصدد أن هناك مجالات صحفية قليلة يمكنك الاعتماد عليها بعد أن هبط القسم الأعظم منها إلى أوطى المستويات ، وإن ما يدفع المرء منا إلى الشعور بالخيبة هو مدى ما عليه الرأي العام من ضلال مبين .»

وفي الثاني والعشرين من شهر كانون الأول كتبت تقول : «نتيجة إصراري المتواصل ، قامت الليدي دوبس بإقامة دعوة شاي للسيدات العربيات . وقد قمت بدعوة زوجات الوزراء فكانت مناسبة ناجحة . وعندما انصرفت المدعوات شكرتني الليدي دوبس على جهودي وأعربت عن رغبتها في الاستئناس بآرائي مضيفة في الحين ذاته أن زوجها ، السير هنري ، يشيد بدوري ويعبر عن ذلك قائلاً « لا أدري ما عساي أن افعل في غياب جيرتروود ! إنها امرأة في غاية الفطنة والذكاء !» لقد أدهشني هذا الكلام بحق ، فعلى الرغم من أننا منسجمان في العمل ، إلا أنني لم أكن واعية بمثل هذه المشاعر من لدنه .»

ومرة أخرى يتم الاحتفال بعطلة عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة من خلال رحلة صيد إلى بابل تواصلت على مدى ستة أيام ، وجمعت جيرتروود والأمير زيد و كورنواليس ونايجل دايفدسون . وعن هذه المناسبة كتبت جيرتروود في رسالتها المؤرخة في الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول قائلة : «لم يسبق لأحد ، على ما أتصور ، قضاء مثل هذه الرحلة الممتعة في العراق!»

ثم تواصل رسالتها هذه قائلة : «وجدت السير هنري مستاءً بعض الشيء نتيجة اضطراره البقاء في بغداد أثناء عطلة العيد بسبب واجبات اجتماعية معينة . ولم يحدث ما يجدر ذكره أثناء هذه العطلة اللهم إلا باستثناء توصله إلى قناعة مفادها وجوب قصف مواقع الشيخ محمود في لواء السليمانية بسبب استمرار تواطئه مع الأتراك . نتيجة ذلك قام قائد القوة الجوية الملكية (البريطانية) شخصياً ، وفي يوم عيد الميلاد ، بغارة جوية نفذها تحت غطاء كثيف من السرية . وقد تم له الطيران فوق السليمانية ، وعلى ارتفاع مائة وخمسين قدماً فوق سطح الأرض ، وعندما استمكن من دار الشيخ محمود ألقى عليه عدداً لا يحصى من القنابل ، ثم قفل راجعاً مهنئاً نفسه أثناء ذلك بأنه قد قضى على هذا الخصم . وفي اليوم التالي وردت برقية من الشيخ محمود ذاته تفيد بأنه في أتم صحة وعافية ، ومتسائلاً عن السبب الذي دفعنا إلى قصف السليمانية . هذا كل ما نعرفه في الوقت الحاضر !»

١٩٢٤

أمضت الآنسة بيل أول أيام العام الجديد في استقبال الزائرين الذين راحوا يتوافدون على دارها بين العاشرة صباحاً والخامسة مساءً . وفي مساء تلك الليلة حضرت مأدبة عشاء أقامتها دار الاعتماد ، وفي اليوم التالي تناولت الشاي مع جلالة الملك ، وهي المناسبة التي ذكرتها في رسالتها المؤرخة في الثالث من شهر كانون الثاني حيث قالت : «حضر هذه المناسبة كل شيوخ العراق أيضاً ، وكان الشيخ عجيل الياور قد عاد لتوه من الكويت التي كان قد توجه إليها بصحبة صبيح بك نشأت (وزير الأشغال والمواصلات) لحضور المؤتمر[١] الذي عقد هناك والذي لم يخرج بأية نتائج ، وهو ما توقعناه . فالملك حسين لم يقم بإرسال مندوب

---

(١) نتيجة إخفاق معاهدة المحمرة (١٩٢٢/٥/٥) وبروتوكولي العقير الأول والثاني (١٩٢٢/١١/٢) في تسوية الخلاف القائم بين العراق ونجد (المملكة العربية السعودية فيما بعد) اقترح المندوب السامي السير هنري دوبس عقد مؤتمر في الكويت يحضره ممثلون عن كل من العراق وشرق الأردن والحجاز ونجد وتناط رئاسته بالعقيد نوكس Colonel S.B.Knox المعتمد السياسي البريطاني الأقدم لمنطقة الخليج العربي . وقد كُرس عقد المؤتمر هذا للبحث في القضايا العالقة التي تهم الدول آنفة الذكر والتي أهمها ترسيم الحدود بين نجد والأردن وتسوية الخلافات القائمة بينهما ، وإيجاد الحلول للقضايا الحدودية بين نجد والحجاز ، وتسوية المسائل القائمة بين العراق ونجد والتي من بينها مسألة وجود نجديين من قبيلة شمر لاجئين في العراق . وبعد أن عقد المؤتمر أولى جلساته في السابع عشر من شهر كانون الأول من عام ١٩٢٣ طلب جلالة السلطان عبد العزيز آل سعود أن تتم المفاوضات بين مندوبيه ومندوبي كل من الدول المشاركة على انفراد دونما تدخل من وفد آخر وهو إجراء احترازي استهدف قطع دابر أية محاولة من لدن الحكومات الهاشمية الثلاث لتوحيد جهودها ضده . وقد أجيب إلى طلبه . وإثر دخول الوفدان العراقي والنجدي في مفاوضات فإنهما توصلا إلى إقرار مسودة معاهدة تقضي على أسباب الخلاف بينهما . وكاد ينتهي الأمر على خير ، إلا أن الوفد العراقي اشترط أن لا يكون الاتفاق بينهما ملزماً في غياب تحقيق اتفاق بين الجانبين النجدي والحجازي الأمر الذي أثار احتجاج الجانب النجدي الذي اعتبر ذلك دليلاً على وجود اتفاق مسبق بين العراق والحجاز . وكان من شأن ذلك أن يؤدي إلى تأجيل استئناف الجلسات مرتين . وقبل حلول الموعد الثاني المحدد لاستئناف المفاوضات (١٩٢٤/٣/٢٥) شن النجديون غارة جديدة على القبائل العراقية وذلك بتاريخ ١٩٢٤/٣/١٤ الأمر الذي كان من شأنه أن يشكل سبباً لفشل مؤتمر الكويت - المترجم

عنه ، وكان التمثيل الأردني ضعيفاً ، أما الوفد العراقي فكان أداؤه متفوقاً إذ تمكن من طرح قضاياه بصورة معقولة واقترح إحالة كل ما ينشأ من نزاعات إلى كل من المندوب السامي والمقيم البريطاني (الأقدم) في الخليج الفارسي (كذا) ، أي إلى الحكومة البريطانية . إلا أن وفد ابن سعود رفض تحمل مسؤولية الموافقة (على مسودة المعاهدة) بحجة ضرورة التشاور معه .

حمدت الله على عودة صبيح بك الذي نحن بأمس الحاجة إلى وجوده في مجلس الوزراء إذ أنني أرغب في أن يتم إصدار قانون الآثار الخاص بي (كذا) . وقد أخبرنا صبيح بك أن ابن سعود يعيش وضعاً حرجاً ؛ فهو يعاني من ضائقة مالية نتيجة عامين متتاليين من الجفاف والقحط ، ومن الإخفاق في تحقيق التماسك بين قبائله . فضلاً عن ذلك فهو عليل . وقد وجه إلى ممثليه أوامر صارمة تقضي بضرورة تفادي إغاظة البريطانيين وإزعاجهم . ويرى صبيح بك أن بإمكاننا دفعه إلى القبول بأي شروط نراها معقولة .»

وفي التاسع من شهر كانون الثاني كتبت تقول : «أُخطط لقضاء يومين في رحلة متعة إلى الصحراء . تنتابني رغبة عارمة في الشعور بأنني إنسان بدائي يتمتع باستقلالية مطلقة بدلاً من بقائي مجرد سكرتيرة في مكتب المندوب السامي . إلا أن ما يثير تساؤلي بهذا الصدد كيف يمكنني أن أتحمل واقعي كإنسان متحضر ومحترم بعد طبيعة الحياة التي عشتها؟

يؤسفني وصول حزب العمال إلى الحكم . سوف يكتشفون أن حكم امبراطورية مترامية الأطراف ليس بأمر سهل ، وإن ممارسة الحكم تتطلب في كل الأحوال التوصل إلى التسويات والحلول الوسط ، ولا يمكن لأحد أبداً التواصل في فرض إرادته ، وتحقيق ما يرغب من أهداف باستثناء الحكام الدكتاتوريين والطغاة الذين يفترض إقصاؤهم من المعادلة أساساً . فهل هو (رمزي ماكدونالد) ديكتاتور؟ وعندما أنظر في الأمر أجد أن اليسار المتطرف لا يطرح على ما يبدو إلا شخصاً مثل لينين الأمر الذي يعكس مدى عجزهم عن تحقيق مُثلهم وغاياتهم العليا ، وهو ما يتعين عليهم أن يتعلموا كيفية إحرازه .»

وفي الثاني عشر من شهر كانون الثاني كتبت تقول : «كان صباح الخميس مرهقاً إلى حد اللهاث بسبب انهماكنا في استكمال جوانب النقص في مفردات البريد المتجه إلى الوطن بما في ذلك التقرير الهام الذي أعده السير هنري دوبس حول الوضع الراهن في العراق ، الموجه أصلاً إلى وزيرنا ، صاحب السيادة دوق ديفونشاير the Duke of Devonshire ، وإن كان المقصود به هو «صاحب السماجة» his gracelessness (كذا) سدني ويب Sidney

Webb[٢] . وإذا ما قُدر لسدني ويب أن يصبح وزيرنا فيؤسفني القول أنني طالما نظرت إليه باعتباره رجلاً مداهناً لا وزن له ولا أهمية ، وكان تعاملي معه ينطلق من هذا الاعتبار بالذات .»

***

في الثالث عشر من شهر كانون الثاني انطلقت جيرتروود من بغداد بصحبة الرائد ولسون في رحلة قصيرة إلى المناطق الأثرية وذلك في إطار محاولتها الهرب من العالم المتحضر . وفي كيش رحب بهما عالم الآثار الأستاذ لانجدون Professor Langdon والسيد ماكاي ، إلا أن وصولهما إلى كيش سبق وصول أمتعتهما الأمر الذي دفعها إلى كتابة ما يلي : «كانت ممتلكاتي الوحيدة تشمل قطعة من الصابون ، وفرشاة شعر استعرتها من الأستاذ لانجدون ، وبجاما تفضل بها محسن مجهول الهوية . وقبل موعد العشاء قضينا وقتاً

---

(٢) سامحك الله يا آنسة بيل على هذا التجاوز والتجني . وإذ أعمد إلى إعطاء القارئ الكريم نبذة موجزة عن حياة المصلح الاجتماعي الكبير سدني ويب (١٨٥٩ - ١٩٤٧) فإنني أرغب في أن أحكمه في أمر هذا التجاوز . إنه المؤرخ والمصلح الاجتماعي والاقتصادي البريطاني الشهير الذي عمل بعد تخرجه من جامعة لندن موظفاً حكومياً ومحامياً في المحاكم البريطانية العليا ، وأسهم في تأسيس الجمعية الفابانية (The Fabian Society وهي تنظيم تأسس في عام ١٨٨٤ من أجل الدعوة إلى وضع الأسس الصحيحة للاشتراكية الديمقراطية عن طريق تحقيق الإصلاحات المشروعة بشكل تدريجي كما أسهم في تأسيس كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية The London School of Economics and Political Sciences في عام ١٨٩٥ ، والتي تعتبر من بين المعاهد الجامعية الأشهر إن لم تكن الأشهر بينها في مجال اختصاصها ، حيث حاضر في موضوع الإدارة العامة ، وبعد ذلك دخل إلى البرلمان وأصبح نائباً ثم وزيراً في حكومتين عماليتين . وسدني هو زوج السيدة بياترس التي لا تقل شهرة عنه في مضمار نشاطها في حقل الإصلاح الاجتماعي . ولسدني ويب مؤلفات علمية شهيرة منها «تأريخ الحركة النقابية» The History of Trade Unionism (بالإشتراك مع زوجته بياتريس ، ١٨٩٤) و «الحكومة المحلية» (1926 - 1906) Local Government و«اضمحلال الحضارة الرأسمالية» (1922) The Decay of Capitalist Civilization ، و«الشيوعية السوفيتية» Soviet Communism(1935) ، هذا بالإضافة إلى العديد من المقالات والرسائل والكتيبات . فكيف يمكن لشخص من هذا الصنف ، ومن له مثل هذه الإنجازات العلمية ، أن يكون «صاحب سماجة» ، على حد تعبير الآنسة بيل ، لمجرد أنه يجاهر بمبادئ غير التي تؤمن بها ، ولأنه مواقفه ومواقفها على طرفي نقيض؟ - المترجم

بمتعاً ونحن نتفحص ما تم للبعثة اكتشافه من قطع آثارية هنا ، أما بعد العشاء فرحنا نتناقش في جوانب عديدة تتعلق بالمواقع الأثرية البابلية .»

ومن كيش عمدت جيرتروود ، كسابق عهدها دائماً ، إلى الأنطلاق بمفردها . وحول هذه الرحلة كتبت تقول :

«عند وصولي قرية الخضر توجهت إلى بيت مدير الناحية الذي قام بتزويدي بحصان ودليل لاتطلق بعد ذلك إلى مدينة الوركاء عاصمة الجزء الجنوبي من مملكة بابل . سرنا سيراً حثيثاً لمدة ساعتين وصلنا بعدها إلى التل الأثري حيث وجدنا مجموعة من سكان القرية المجاورة انهمك أفرادها في الحفر . وببضع آنات فقط ، تمكنت من شراء عدد من الأسطوانات والأختام والفخاريات لمتحف بغداد .»

وبعد رحلة في القطار استغرقت نصف ساعة من الزمن استقبلت جيرتروود من قبل الشيخ ناصر الذي وفر لها هو الآخر بدوره حصاناً ، كما كلف شرطياً للقيام بمرافقتها بصفته دليلاً . وحول هذه الرحلة تقول الآنسة بيل : « في رحلتي إلى سنكرة(٣) ركبت حصاناً أُسرج ببردعة عربية ، ورحت أهمزه من أجل حثه على الإسراع في السير إلى الحد الذي جعله يتعثر في حركته مما أثار انتباه مرافقي الشرطي الذي علق قائلاً ما مفاده أن الخاتون لم تعتد ركوب الأفراس على ما يبدو ! وعند وصولي إلى سنكرة وجدتها جديرة بكل ما يعانيه قاصدها من إرهاق ، وبكل ما يتسببه وصوله إليها من عناء ومعاناة . وفي طريق العودة امتطيت حصان مرافقي الشرطي الذي كان قد أُسرج بسرج انجليزي قديم مما مكنني من جعله يمضي بخطى ثابتة ، وبسرعة فائقة ، الأمر الذي أُذهل كل من شاهدني من العرب .»

وفي أوُر حيث تم لها زيارة موقع تل العبيد الأثري ، ذاقت جيرتروود حلاوة أكبر رحلاتها الأثرية إثارة ، وقد عكست مشاعرها بشكل دقيق وببلاغة رائعة من خلال تقرير تم لها كتابته حول الموضوع في وقت لاحق .

وتقول جيرتروود أنها في اليوم الثاني من وجودها في أُور التقت «متصرف لواء الناصرية والمفتش الإداري البريطاني ، النقيب كيتيلويل Captain Kettlewell ، اللذين جاءا لاستقبالها . وكان المتصرف أنف الذكر ، المدعو جميل المدفعي ، قد اعتُبر مسؤولاً عن مقتل عدد من الضباط البريطانيين في تل عفر ، قرب الموصل ، وذلك في عام ١٩٢٠ ، إلا أن الأدلة

(٣) سنكرة = موقع أثري قرب الفرات يضم أطلال لارسا إحدى المدن السومرية التي ازدهرت وذاع صيتها في الألف الثاني قبل الميلاد - المترجم .

ضده لم تكن أكثر من إشاعات لا أساس ثابت لها . وقد قمت بإقناع السير برسي قبل رحيله من العراق بالسماح لجميل بك هذا بالعودة إلى العراق . وقد عاد في شهر تموز عندما كنت أقضي إجازتي في بريطانيا . وعند عودته لم يكن يملك شروى نقير الأمر الذي دفعه إلى الانضواء تحت لواء الحزب المتطرف في عدائه للوجود البريطاني . وعند عودتي إلى العراق من إجازتي ، لم يحاول لقائي . إنه بطبيعة الحال لا يعلم ، ولا أخاله سيعلم ، بالدور الذي لعبته في مضمار ما شهده مسار حياته من تحول . كما أنه لم يحاول أيضاً لقاء السير هنري دوبس . إلا أنه التقى كورنواليس على ما يبدو وترك في نفسه أثراً طيباً . وقد تم قبل شهر تعيينه متصرفاً (محافظاً) للمنتفق حيث يقوم بأداء واجبه بالشكل المطلوب . وبعد مناقشة الكيفية التي يمكن بموجبها وضع حد للتنقيب غير المشروع في موقع سنكرة ، تم لي الدخول معه في حديث ودي وصريح وعدني في نهايته بأنه سيقوم بزيارتي كلما جاء إلى بغداد ، كما حملني تحياته واحترامه إلى السير هنري دوبس . ويمكنني القول بوجه عام ، إن تجربتي الأخيرة هذه (أي رحلتها إلى المناطق الأثرية سالفة الذكر) لم تقل روعة ، على ما أظن ، عن زيارتي لموقع تل العبيد الأثري .»

***

وفي الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني كتبت من بغداد قائلة : « أودعت كل ما ابتعته من مقتنيات أثرية في متحف بغداد . كما أن الرائد ايدموندز Major Edmonds ، المفتش الاداري في كركوك ، وهو رجل في غاية اللطف والكياسة ، جلب لي مجموعة من الأعمال الفخارية التي تعود إلى فترات مبكرة من التاريخ ، وهي قطع جمعها من التلال الأثرية الواقعة على مقربة من مدينة كركوك . كما استضفت عالم الآثار لايونيل سمث لتناول طعام العشاء معي ، و قد راح يشكو من وزيره الذي وجد فيه شخصاً يصعب العمل والتعامل معه ، إلا أنني سارعت إلى تهدئة خاطره بحديث حول ما حل بالجنس البشري قبل ستة آلاف عام . ولابد من القول في الواقع أن المرء منا إذا ما رأى هذه القطع الأثرية الطاعنة في القدم فأنه سرعان ما ينسى مشاكله على ما يبدو ، على الرغم من كل ما لها من أهمية . إلا أن الإحساس بذلك لا يتم على ما أظن ، إلا إذا كنت إنساناً تعاني ما أعانيه شخصياً من حزن عميق .» يا له من تصريح مُبطن ، اللهم إلا في حال أدرك المرء منا واقع أن بقاءها عازبة قد أفقدها الأحوج إلى نفسها من الأشياء .

وفي الثلاثين من شهر كانون الثاني كتبت تقول : «وأخيراً استكملت الحكومة البريطانية ملء كل حقائبها ، وأظنها الأفضل من بين الحكومات التي تعاقبت على إدارة الدولة لسنين مضت . ويعتبر ما ضمته من (أبناء) الأشراف والخاصة إلى حد بعيد نقطة الضعف فيها ، إلا أن ما يسرني كثيراً هو انضمام اللورد هالداين Lord Haldane إليها ، وقد وجهت له رسالة تهنئة بالمناسبة . وحول هذا التعيين بالذات علق السير هنري بطريقته المعهودة التي تجمع بين السخرية والتشاؤم قائلاً ما مفاده أن اللورد هالداين لا يخفق أبداً في تسلق الشجرة المناسبة ! ويسرني كذلك دخول تشارلس (السير تشارلس تريفيليان Sir Charless Trevelyan (زوج أخت جيرتروود) ، والسيد توماس Thomas الذي أصبح الوزير المختص بشؤوننا . دعهم ينصرفون إلى القيام بمهامهم ومسؤولياتهم ، فهناك الكثير مما يمكنهم إنجازه في كل من أوربا وآسيا .

قرأت مؤخراً المجلد الثاني من عمل ونستون الموسوم «أزمة العالم» The World Crisis . ١٩١٥ ولا زلت أعاني مما تركه في نفسي من انطباع مؤثر . إنه عمل رائع ! لقد تمكن تشرتشل من الوصول إلى ذرى المأساة التي يروي تفاصيلها ، ولا ادري ما إذا كان باستطاعة أحد قول أكثر مما قاله تشرتشل !

ذهبت يوم الجمعة لتناول الشاي مع الملك ، وتمكنت من استقطاب انتباهه سريع الزوال لمدة ساعة من الزمن أخبرته في خلالها كل ما شاهدته أثناء جولتي التفقدية .

ومن خلال عملي هذا الأسبوع يمكنني القول بصدق أنني استحقيت بجدارة نصيبي من الراتب . فقد استضفت على مائدة الشاي يوم الثلاثاء عشرين سيدة من مجموع أربعين كنت قد دعوتهم ، إلا أن تساقط الأمطار وكثرة الأوحال في الشوارع حالا دون تمكنهن من الحضور دفعة واحدة ، وهو جانب لم يثر في شعوراً بالحزن بالمرة ! وبعد الشاي ، قمت بالتحدث إليهن عن تأريخ العراق القديم ، وعمليات التنقيب التي نقوم بها حديثاً . وقد أنصت البعض منهن بينما بقي البعض الآخر في صمم – من الواضح إنهن لم يعتدن الانتباه لما يقال .»

وفي السادس من شهر شباط كتبت تقول : « أثناء ذهابي لمقابلة وزير الداخلية في أحد الأيام ، التقيت في غرفة الانتظار سيداً ما أن شاهدته حتى ألقيت بنفسي عليه ورحت أعانقه وأنا أصيح : « بابكر آغا ! يالها من فرصة سعيدة ! كان يضع على رأسه أكبر عمامة كردية ، وقد أحاط عينه اليسرى بمنديل أبيض . كان الأشهر من بين شيوخ العشائر الكردية المتواجدة في المناطق الحدودية ، وقد وقف إلى جانبنا وجانب الشيخ محمود في كل الظروف

دونما استثناء . ولإخفاقه في معرفة من أكون ، فإنه تعجب من دفء هذا اللقاء والترحيب اللذين عبرت عنهما بلغة فارسية وجدت صعوبة بالغة في التحدث بها ، إلا أنه قابل ترحيبي بأدب جم وكياسة بالغة . وبعد خروجي من لقاء الوزير ، وجدته قد عرف من أكون الأمر الذي دفع به إلى الخروج بمشاعر فاقت ما عكست إزاءه منها . وبطبيعة الحال كانت هذه المناسبة أول زيارة له لبغداد بسبب عدم اعتياد شيوخ تلك المنطقة على زيارة العاصمة أبان الحكم العثماني ، وإذا ما كانوا يضطرون إلى القيام بها آنذاك فإن عودتهم منها لم تكن مضمونة بأي شكل من الأشكال . ولقد أبى أن يبدي أي شعور بالدهشة أو الإعجاب نتيجة هذه الزيارة إلى بغداد التي بدت له على حد تعبيره مكاناً موحلاً ، والتي توجد في المرتفعات الكردية أماكن أفضل منها بكثير . وماذا عن دور السينما ؟ إنها من دون شك أماكن تبهج عامة الناس . ومع ذلك فقد طرق سمعي أنه كاد يسقط من فوق كرسيه في المقصورة التي كان يجلس فيها وذلك من شدة الضحك أثناء مشاهدته عرضاً سينمائياً لمشاهد تصور نشالين انهمكوا في نشل جيوب المارة . وقد جاء بصحبته حاج كردي يدعى الشيخ عارف صارغالو كان على درجة كبيرة من الورع والطهارة ما منعه تماماً من تناول أي طعام أو شراب في هذه الديار الغريبة خشية أن لا يكون الطعام والشراب بمستوى النظافة المطلوب . وكاد يموت المسكين جوعاً . وكان قد ذهب لمشاهدة سباق الخيل ، وأثناء وجوده هناك حان وقت صلاة العصر إلا أن وجوده حيث كان لم يمنعه من أداء الفريضة فوق مدرج السباق . إن هذا الطراز من الناس هم الذين أحب في الحقيقة .

استلمت رسالة طويلة من السيد جون فلبي . وكان من شأن قراءة لما بين السطور ، واستذكار الجوانب الرئيسية من شخصية فلبي ، أن يفضيا بي إلى قناعة مفادها أنه قد استنفذ صبر ثاني مندوب سامي ، وقدر له العمل معه . وبقدر تعلق الأمر بأولهما ، أي السير برسي كوكس ، لم يكن لدي أي شك أبداً بموقف فلبي الخاطئ . أما فيما يتعلق بالمندوب السامي الثاني ، أي السير هربرت صموئيل ، فلم أكن على بينة من تفاصيل ما دار بينهما من أمور ، بيد أنني واثقة من حقيقة ثابتة لا مجال للشك فيها وهي أن المرء منا لا يمكنه معارضة رئيسه المباشر باستمرار ، وهو ما دأب عليه فلبي . فبالدرجة الأولى راح يلح على ضرورة عدم تدخل المندوب السامي في فلسطين في شؤون إمارة شرق الأردن ، أي بمعنى أكثر دقة عدم التدخل في شؤون فلبي ! وعندما لمس تدهور الأحوال في الإمارة ، راح يطالب باستعادة الصلاحيات التي كان قد عمد إلى نبذها عن قصد . بعد ذلك ، ، وجد السير هربرت صموئيل على ما افترض ضرورة في إجراء تحول شامل في التوجهات

والسياسات المعتمدة ، إلا أنه أدرك في الحين ذاته استحالة تنفيذ ذلك بوجود فلبي . وهكذا تم الاستغناء عنه .وكما قلت في مناسبة سابقة فإنني أشعر بالأسف لما حل بفلبي ، فهو رجل يتمتع بإمكانيات رائعة قلباً وفكراً ، إلا أن ما يؤسف له هو كونه شخصاً يصعب التعامل معه . وقد أخبرني فلبي بالمناسبة أن جلالة الملك حسين ينوي زيارة بغداد .»

وفي الثالث عشر من شهر شباط كتبت جيرترود رسالة إلى أبيها تخبره فيها عن دعوة غداء كانت قد أقامتها في دارها ، وحضرها عدد من الوزراء والوزراء السابقين بالإضافة إلى السيد نايجل دايفدسون . قالت : « أخبر ساسون أفندي السيد نايجل دايفدسون بأن الملك يبالغ في تدخله في شؤون الوزراء ، وقد أعطى أمثلة توضيحية لهذا التدخل . ومن بين المواضيع التي جاء ذكرها في هذه المناسبة ذلك المتعلق بعودة المجتهدين من إيران ، والذي أثار جدلاً حاداً بين المدعوين ، مما دفعني إلى إعلام السير هنري بفحواه . ومع ذلك فإنهم عائدون . لقد اتفق السير هنري على عودتهم شريطة أن يتم ذلك بعد الانتهاء من الانتخابات ، وقيام كل منهم بتقديم تعهد خطي يلتزم بموجبه بعدم التدخل في الشؤون السياسية ، وما إلى غير ذلك من الأمور التي تسهم في إثارة المشاكل . لا أعتقد بأن مثل هذه التعهدات والشروط سيتم الالتزام بها . وعلى الرغم من أن المندوب السامي طلب مني الحضور إلى مكتبه ، وقام بشرح وجهة نظره حول الموضوع ، إلا أنني لا أزال غير مقتنعة بجدوى دعوتهم . ومع ذلك فقد احترمت قراره ، وأعلنت عن استعدادي لتنفيذ كل ما يأمر به ، وذلك على خلاف ما يعمد إليه فلبي في مواقف مماثلة . وقد راهنت المندوب السامي على خمسة روبيات مؤكدة له أن المجتهدين سيكونون هنا في غضون فترة لا تزيد على ستة أسابيع . آمل مخلصة أن أكون على خطأ !

كيف يمكن منع الملك من التدخل في الإدارة ؟ تلك هي المشكلة . شهد اليوم بروز مشكلة كبيرة تأتت من جراء قيام الملك بإلغاء قرار أصدرته المحاكم ، الأمر الذي يعني بوضوح لا لبس فيه قيام السلطة التنفيذية بالهيمنة على السلطة القضائية . وإزاء ذلك وقف السير هنري موقفاً صلباً طالباً من الملك سحب قراره . وأنا من جانبي لم أطلع بعد على تفاصيل الحوار الذي دار بين الملك وكورنواليس صباح هذا اليوم . ولقد ألقيت على عاتق كونواليس المسكين مهمة نقل موقف المندوب السامي ووجهة نظره حول الموضوع إلى الملك . وثم التقيت الملك عصر اليوم في مباراة للبولو ولكنني لم أجده منزعجاً ، بل العكس من ذلك تماماً فقد اعتلت وجهه ابتسامة وضاءة . كان يلعب دور الملك العربي بالشكل الأفضل وقد أحاط به عدد من شيوخ نجد الذين كانوا قد التجؤوا إليه هرباً من ابن سعود .

قضيت ظهر يوم السبت مع لايونيل سميث في جولة أخذتنا إلى المنطقة الجنوبية من الكاظمية حيث موقع مدينة المنصور ، الزوراء ، أي بغداد الأولى . وبفضل كتاب عالم الآثار الألماني الشهير هرزفيلد Herzfrld تمكنت من تحديد موقع مدينة المنصورة . وعلى الرغم من أننالم نستطع مشاهدة ما يستحق ذكره فوق الأرض ، إلا أننا عثرنا على كم كبير من الآنية الفخارية العباسية . وفي مكان معين لم نشاهد سوى الآنية ، ومن المؤكد جداً أنه كان موقعاً لمعمل كان يختص بصنع الآنية ، فقد عثرنا على أسافين خزفية ثلاثية الأرجل تستخدم لفصل الآنية بعضها عن البعض الآخر أثناء تعريضها لأشعة الشمس لكي تجف . وفي صباح الأحد تجولت على ظهر جوادي في المنطقة لمدة ثلاث ساعات من أجل تكوين فكرة أفضل عن وضع الأرض واتجاهها .»

وفي اليوم ذاته ، أي في الثالث عشر من شهر شباط ، كتبت رسالة إلى زوجة أبيها قائلة : «أجل يا أماه! الحقيقة التي لا يرقى أي شك إليها هي أن بيئة التعاطف والمودة والحنان - أي بيئة الحب - هي الجانب الأهم ، وبغيابها يؤول كل شيء إلى الخراب .

لابد لي أن أخبرك عن أمر مؤثر للغاية . فقد أرسل لي السير برسي صورة شخصية له وضعها في إطار من الفضة وذيل أسفلها بالعبارة التالية : «إلى الأفضل من بين الرفاق» . ألا تعتبر العبارة هذه تجسيداً لأفضل ما يمكن للمرء التعبير عنه من شعور؟ إنها بالنسبة لي مصدر فرح واعتزاز بالغين . إنني أفتقده - فقد عملنا معاً على مدى ست سنوات من الزمن عشنا في خلالها أوقاتاً في غاية الصعوبة . كانت رغبته في مداولة الأمور قد تحولت تدريجياً لتصبح عادة متأصلة . إلا أن الحال يختلف مع السير هنري الذي لا يعمد إلى مداولة الأمور معي في كل الأوقات ، ولا يوجد ما يدفعه إلى القيام بذلك . إنه يعمد في أغلب الأحيان إلى القيام بالإجراء ومن ثم يُعلمني به . ومع ذلك فهو لطيف ومجامل في كل ما له علاقة بعملي ، كما أنه رئيس جيد وموضع ثقة كل من يكون على تماس به . فضلاً عن ذلك ، فإن زوجته الليدي دوبس لا تقل لطفاً ومجاملة ، وقد تميز وجودها بأهمية بالغة .»

بوصول الليدي دوبس إلى بغداد ، توقفت جيرتروود عن تناول طعام الغداء في دار الاعتماد كسابق عهدها وذلك انطلاقاً من رغبتها في تفادي ما يحتمل أن يعتبر تطفلاً من جانبها . إلا أن رسالة الليدي دوبس الموجهة إليها سرعان ما غيرت الوضع (وأثبتت لجيرترورد خطأ تصورها) :

دار الاعتماد - بغداد - في السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني ، ١٩٢٣ .

عزيزتي الآنسة بيل ، أُصبت بخيبة أمل كبيرة بسبب غيابك عن حضور غداء اليوم -

كان مكانك خالياً . أرجو منك مواصلة الحضور على غرار ما اعتدت سابقاً . سوف أشعر بحزن كبير في حال رفضك القيام بذلك . لقد أضحى لقاؤك كل يوم من بين الجوانب التي أتطلع بشوق إليها منذ مبارحتي إنجلترا . أرجو منك الحضور ، فمكانك محفوظ في كل الأوقات . المخلصة – إزمي دوبس .

وفي العشرين من شهر شباط كتبت إلى أبيها قائلة : «أشعر بقلق عظيم إزاء ممارسات الأتراك في المناطق الواقعة على حدودنا الشمالية ، فهم يحشدون قواتهم مرة أخرى ويخرج جنرالاتهم بتصريحات رنانة تعبر عن نيتهم الوصول إلى الموصل في خلال شهر آذار من هذا العام . إنني أستقي تفاصيل معلوماتي من الشيخ عجيل الياور الموجود حالياً مع وحدات الهجانة العاملة في الصحراء غربي الموصل . إن الجانب الأمر المقلق هو ما يتعلق بوضع الفرنسيين غير المستقر على حدودنا الغربية . إنهم أنفسهم لا يدركون مدى خطورة موقفهم ، ولا مقدار ما هم عليه من عدم استقرار . أما معرفتي بتفاصيل الوضع الفرنسي فإن فضله يعود إلى الرائد دتشبورن Major Ditchburn الذي قد عاد لتوه من مؤتمر عقد مع السلطات الفرنسية في منطقة دير الزور . إن معرفته بعشائر المنطقة وأعرافها وعاداتها جيدة بوجه عام ، وكذلك الحال بالنسبة لتمكنه من اللغة العربية (الأمر الذي يعني أن معلوماته تنطلق من أسس جيدة) . فاعلم يا أبتاه ، أن انصرافي إلى ذكر مثل هذه المعلومات إنما ينطلق من واقع ما لها من أهمية في مجال دراسة الوضع النفسي للشعب . فالفرنسيون لا يحسنون التكلم بالعربية ، كما أن وقوف كبار مسؤوليهم بمنأى تام عن أي اتصال مباشر بكبار الشيوخ والأعيان إنما يمثل أحد مبادئهم المعتمدة ، ويتم اتصالهم بالذوات المحليين آنفي الذكر إما بواسطة مرؤوسيهم أو من خلال مترجمين ، وهو ما يشكل ممارسة حمقاء تخلو من أية قيمة تذكر إذ أن الاتصال يتم في كل الظروف من خلال عناصر ثانوية ، وهي ممارسة تعود إلى عدم قدرة كبار المسؤولين الفرنسيين التحدث مع العناصر الوطنية بالعربية . إن كبير شيوخ العشائر في المنطقة المعنية هو مشرف الدندل[٤] وهو محتال من الباب الأول تمكن حتى فترة قريبة من جعل الفرنسيين ملك يمينه وذلك بفضل جهود المترجم الذي كان عميلاً أجيراً له . ولم يكتف مشرف الدندل بمراسلة المسؤولين العراقيين بهدف السماح له بالإقامة في

---

(٤) مشرف الدندل هو أحد رؤساء عشيرة العقيدات وأخو محمد الدندل الذي قتل في هجوم على بلدة البو كمال أثناء أحداث دير الزور التي سبقت اندلاع ثورة العشرين في العراق . كما لعب مشرف الدندل هو الآخر دوراً في الأحداث آنفة الذكر .

الأراضي العراقية ، وهو ما انصرف إلى القيام به مؤخراً ، بل قام في الواقع بعبور النهر (الفرات) والبدء بعملية التوطن والاستقرار في الأراضي العراقية ، ولكنه قوبل بمعارضة القائمقام المسؤول الذي سرعان ما أجبره على العودة . وقد عمد الرائد دتشبورن إلى عرض الوثائق التي تثبت محاولات مشرف الدندل للاستقرار في العراق على أنظار المسؤول الفرنسي ، المقدم أندريه Colonel Andrae ، وهو أمر تم بتوصية مني . إلا أن النتيجة التي تمخضت عن هذا الإجراء فاقت كل التوقعات ! فقد اعترف المقدم أندريه بأنه طالما شك في نوايانا ، ونوايا الحكومة العراقية ، التي ظن بأنها تريد مد خط الحدود العراقية ليضم الأراضي الممتدة إلى الرقة شمال دير الزور ، وترغيب شيوخ المنطقة بالانضمام إلى العراق . إلا أنه (المقدم أندريه) قد أدرك أخيراً أننا صادقون في توجهاتنا . ويعلق الرائد دتشبورن قائلاً ما مفاده أنه يدرك جيداً أن شكوى الشيخ مشرف الدندل تتعلق بألاعيب السلطات الفرنسية التي على الرغم من اعترافها به باعتباره كبير شيوخ المنطقة فإنها تعمد في الحين ذاته إلى القيام باعتراف مماثل بمنافسة ابن حفل وهي حقيقة اعترف بها المقدم أندريه بخجل موضحاً أن بأن ذلك يمثل التوجه الفرنسي إزاء الشيوخ . رباه ! خذ بيدي وأعني على تحمل مثل هذا التوجه الغبي بكل ما يقتضيه التحمل من صبر وأناة . إن الموقف المعنوي القائم على الصدق والاستقامة يمثل المزية الوحيدة التي تمكننا من التفوق على العشائر التي تتمتع بكل المزايا الأخرى .

فضلاً عن ذلك ، فإننا على بينة تامة ، وكذلك الحال بالنسبة للفرنسيين ، من حقيقة أن مشرف الدندل على اتصال بالأتراك . وانطلاقاً من واقع معرفتي الوثيقة بهؤلاء الناس – وهي معرفة تمتد إلى عام ١٩٠٧ ، وتأتي نتيجة مراقبة دقيقة بدأتها منذ العام ١٩١٦ ، واستهدفت قيامي بملاحظة كل إيماءة ، وإشارة ، وحركة رمزية تصدر عنهم – فإنني على بينة تامة ، وهو جانب لا يعلمه الفرنسيون على ما أفترض ، من أن الرجل الذي يلي مشرف الدندل في الأهمية ، والذي يتمتع بنفوذ في المنطقة الواقعة شمال شرقي مجال نفوذ الأخير هذا ، وهو مسلط باشا شيخ الجبور ، وهو أحد أقوى المناصرين للأتراك ، والذي تمتد منطقة نفوذه على جانبي خط تقدم الأتراك من نصيبين . وإلى الشمال من مسلط باشا ، وعلى امتداد خط بغداد الحديدي ، تقع منطقة تواجد الأكراد المليّون التي شكلت قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى نقطة ارتكاز للأتراك في شمال بلاد ما بين النهرين (العراق) ، كما أن أكرادها قاتلوا إلى جانب الأتراك طوال سني الحرب . أما جيرانهم فهم الجيجان (الشيشان) في منطقة راس العين (شمال شرق منطقة الجزيرة في سوريا) وهم من الأقوام القوقازية التي لجأت إلى

المنطقة ، والتي عرفت بتفانيها في تأييد الأتراك . و يعلم الجميع في غرب الفرات ، أن حاجم المهيد شيخ الفدعان ، من أفخاذ عنزة ، على اتصال وثيق بالأتراك . وهكذا الصورة أمامك ، فإذا ما قام مشرف الدندل بإشعال عود ثقاب على حدودنا فسيمتد لهيب للنار ليصل إلى نصيبين شمالاً وإلى حلب غرباً . وسيخرج الفرنسيون . ولن يُضطر الأتراك إلى إرسال قوات نظامية ، فالقوات غير النظامية ستفي بالغرض . ونتيجة قيام العشائر بالانتفاضة وشق عصا الطاعة سيكون الأتراك بريئين من أي تحرك عسكري . أجل ! سيخرج الفرنسيون . ترى من سيأبه بذلك ؟ إنها العاقبة التي يستحقون ! ولكن قيام الأتراك بملء الفراغ الحاصل يعني حالة موجعة ، لا بل أسوأ من ذلك بكثير . وقد رفض السير هنري في البداية الإصغاء ، إلا أنني قمت بدعم رسالة الشيخ عجيل الياور بمذكرة تتعلق بالمنطقة الفرنسية ، وتضم معلومات دقيقة وشافية تم الحصول عليها من مصادر محلية الأمر الذي حال دون تمكن السير هنري من إهمال الأمر .»

وفي السابع والعشرين من شهر شباط تقول الآنسة جيرتروود في رسالتها الموجهة إلى أبيها : « لابد أنك قد قرأت في الصحف عن قيام الملك فيصل بإرسال وفد إلى عمان لتحية جلالة الملك حسين كان نوري باشا سعيد وصفوت باشا العوا من أبرز أعضائه . وقد قضى نوري باشا زهاء الساعة في مكتبي ليوافيني بالأخبار ، وصل أعضاء الوفد إلى دمشق وتم نقلهم عبر المدينة في سيارات صالون مقفلة(٥) إلا أن أبناء الشعب في الأسواق سرعان ما لمحوا البزات العسكرية العربية في داخل السيارات الأمر الذي دفعهم إلى الوقوف والهتاف بملء أفواههم «مرحباً ! مرحباً ! أنقذونا !» وعندما استضافتهم السلطات الفرنسية في الفندق المخصص لهم ، فإنها عمدت إلى وضع شرطي عند باب كل غرفة من الغرف التي نزلوا فيها ، كما منعتهم من الخروج إلا بصحبة ضابط فرنسي . إن التفاصيل التي رواها نوري صحيحة بدليل تأييدها بشكل مستقل من قبل القنصل البريطاني في دمشق . وبالنظر لكون صفوت باشا العوا دمشقياً ، فإنه شعر بالحرج والخجل وهو يسير في شوارع مدينته مصحوباً بشرطي . أما نوري ، وكعهده دائماً ، فإنه انطلق بعدم اكتراث في جولة زار من خلالها أصدقاءه ، وكان بصحبته ضابط فرنسي . وما أن خرجا من باب الفندق ، حتى أخبره الضابط الفرنسي بأن

---

(٥) لابد للقارئ الكريم أن يدرك أن القسم الأكبر من السيارات في سني العشرينات كانت مفتوحة وبذلك فإن نقل الوفد العراقي بسيارات مقفلة يعني أن السلطات الفرنسية تكتمت على هوية الركاب تفادياً لإثارة أية بلبلة بين المواطنين في دمشق - المترجم

الوضع في سوريا رديء للغاية ، وإنهم (الفرنسيين) لا يعرفون كيف يتعاملون مع الناس ، وإن الوضع الاقتصادي في أسوأ حال ، فما الذي يتعين على الفرنسيين القيام به؟» وإزاء هذا التساؤل أجاب نوري قائلاً : « لماذا لا تلجؤون إلى اعتماد أسلوب آخر في الإدارة - أسلوب يشبه ما هو معتمد في العراق؟» عند ذلك قال الضابط الفرنسي متسائلاً : «ما هذا الكلام؟ وهل تظن أن إدارتنا سيئة؟» أجابه نوري بلطف قائلاً : «ألم تخبرني بأن الوضع في سوريا رديء جداً؟»

إن الأشخاص الذي خصهم نوري بالزيارة كانوا في عام ١٩٢٠ مناوئين للملك فيصل . إلا أنهم اعترفوا ، وبحضور الضابط الفرنسي ، بأنهم يأكلون أجسادهم وبأنهم سيكونون في عداد الأموات حتماً في العام المقبل إذا ما استمر الوضع على هذه الحال . وأثناء رحلة العودة إلى الفندق أخبر نوري حارسه الضابط قائلاً : « لقد أخطأتم في طرد فيصل !» أجاب الضابط على الفور : «أجل أخطأنا ! ولكن ما الذي ينبغي لنا القيام به الآن؟»

بعد ذلك توجه الوفد إلى عمان ومنها إلى فلسطين حيث عبر العرب هناك عن رغبتهم في تشكيل حكومة عربية . بعد ذلك استقلوا سيارة نقلتهم من حيفا إلى بيروت حيث وجدوا رجال الشرطة الفرنسية بانتظارهم بغية مرافقتهم إلى الفندق الذي خصص لإقامتهم . وفي بيروت عبر نوري باشا عن رغبته في زيارة الجنرال ويغاند General Way-gand الذي دعاه لتناول الشاي معه . وما أن رأى ويغاند نوري حتى انفجر قائلاً : « أنتم رجال في العراق ! أما السوريون فلا شغل شاغل لديهم سوى معارضتنا .» وإزاء ذلك أجابه نوري باشا قائلاً : « لا تظن أن العراقيين شعباً يسهل حكمه ، فالسوريون خراف إذا ما قورنوا بالعراقيين ! إن الخطأ يكمن في نظام الحكم المعتمد .» وإزاء هذا التصريح تساءل ويغاند قائلاً : « ما الذي ينبغي لنا عمله؟ لا توجد تجارة ! بل لا يوجد أي شيء ! إننا ننفق الملايين ولكن من غير مردود ! وهنا علق نوري قائلاً : « من المؤسف إنكم قمتم بطرد فيصل !» وهنا أجاب ويغاند قائلاً : « أتظن أنني لا أدرك ذلك ؟ كان خطأً فادحاً ! بيد أنني غير مسؤول عنه ، فقد حدث قبل وقتي . ما رأيك عن علي؟» إن الفرنسيين ينظرون بشكل جاد في أمر تولية علي أميراً على سوريا .

وثمة شيء أريد قوله يا أبتاه ! قد يعمد المرء منا إلى التجاوز على تعاليم الرب بدون قصاص - في هذا العالم على أقل تقدير ، إذ أنه من غير المحتمل أن يكون هناك عالم آخر - إلا أن المرء هذا لا يمكنه أبداً التجاوز على القوانين الاقتصادية وينجو مما يترتب على ذلك من معاناة في نفس اللحظة ، وهذا ما يفعله الفرنسيون . إن سوريا (بالنسبة لهم) مجرد ممر

للتجارة الخاصة بمنطقة آسيا الغربية ليس إلا ، وأنهم والأتراك قد عمدوا إلى إغلاق كل الأبواب . تذكر يا أبتاه ما أقوله لك الآن ان القضية العربية تسير بسرعة ، وفي غضون ساعة أو اثنتين ستشهد تطورات مثيرة للاهتمام . فاشكر الرب ، واشكرني أنا شخصياً ، على قيامنا هنا (في العراق) باختيار الطريق الصحيح وهو جانب قُدر أن يكون لي إسهام ملحوظ فيه .»

تتحدث الآنسة بيل في رسالتها المؤرخة في الثاني عشر من شهر آذار عن قيام الأتراك بإلغاء مؤسسة الخلافة ثم تذكر خبر المناداة بالملك حسين خليفة ، وبهذا الصدد تقول : «ثمة عطل قد أصاب الخط البرقي في الخليج إذ لم نستلم أية رسائل برقية على مدى الأربعة أيام المنصرمة . وفي صباح الجمعة استلمنا برقية من هيربرت صموئيل (المندوب السامي البريطاني في فلسطين) جاء فيها أن الأمير عبد الله قد أخبره بأن والده ، الملك حسين قد تم المناداة به خليفة ، وبعد ظهر اليوم ذاته كان السير هنري دوبس قد توجه إلى منطقة الفحامة (شمال بغداد) الأمر الذي جعله خارج مدى الاتصالات الهاتفية . وفي يوم السبت استلمت مكالمة هاتفية من القصر الملكي تخبرني بأن جلالة الملك قد استلم برقية من أخويه ومن شخصيتين فلسطينيتين تعلمه بأن والده قد نودي به خليفة . وبأنه يطلب من السير هنري إعلامه بتفاصيل ما حدث فعلاً . وقبيل مبارحتي المكتب للذهاب لتناول طعام الغداء وردت برقيات تفيد بأن الأتراك (ألغوا كل شيء أي أنهم قد ألغوا مؤسسة الخلافة) وبذلك سارعت إلى الاتصال بالقصر الملكي هاتفياً لأعلمهم بالخبر . بعد الغداء ذهبت إلى نادي البولو العربي ، وفي طريقي التقيت صدفة السيد محي الدين ، الابن الثاني للسيد عبد الرحمن النقيب ، فأخبرته بأن الأتراك قد ألغوا مؤسسة الخلافة وعزلوا الخليفة (أي السلطان العثماني) . إن السيد محي الدين ليس بشخص سريع الفهم ، فضلاً عن ذلك فإنه لم يرغب في التورط بموضوع قد يؤخذ مستمسكاً ضده ، وعليه أجابني بهدوء قائلاً : «إن قصة الخلافة طويلة يا صاحبة السعادة ، ولابد لي في يوم ما التشرف بإعلامكم بتفاصيلها .» وإزاء ذلك قلت له : « حسناً ! إلا أن الخلافة الآن لم يعد لها وجود ، فقد ألغاها الأتراك ، وهو أمر لا سابقة له منذ زمن الرسول ، أليس كذلك؟» وعند هذه النقطة بدا السيد محي الدين كمن تعرض لصدمة كهربائية ، وبذلك أشرت عليه بضرورة الإسراع بنقل الخبر إلى والده النقيب .

وصلت بيتي في الخامسة والنصف مساءً فوجدت رسولاً من البلاط الملكي كان بانتظاري ليخبرني بأنني مدعوة للحضور إلى القصر الملكي فوراً ، فأسرعت إلى ركوب سيارة أقلتني إلى القصر حيث وجدت الملك هادئاً . وعلى الرغم من عمق تأثره ، إلا أن تصرفاته

اتسمت بالتعقل . وعندما رآني قال لي أن الواجب يفرض على كل مسلم القيام بمبايعة خليفة جديد ، وأنه لا يرغب في فرض أبيه ، أو أي شخص آخر ، على الشعب العراقي إلا أنه أعرب عن نيته الرامية إلى جمع رجال الدين والأعيان للاستئناس بآرائهم مبيناً في الحين ذاته أن ذلك لن يتم إلا بعد أن يحصل على ضمان من المندوب السامي حول إمكانية قيامه بذلك . وإزاء ذلك أخبرته بأنني سأقوم بتوجيه رسالة بهذا الصدد إلى المندوب السامي صباح الغد . وكان اليوم التالي يوم أحد ، وكانت الأمطار تنهمر بلا هوادة ، إلا أنني كنت قد عقدت النية على الذهاب إلى المكتب ، ورحت أخوض في الوحل وصولاً إلى المكتب الذي بلغته في التاسعة صباحاً . وجدت نفسي وحيدة في المكتب : كان نايجل في الكنيسة ، والسيد تشانج بيرس Mr. Channing Pearce مريضاً ، ولم يكن أي من كتاب الشفر قد وصل . وهكذا كان المكتب خالياً إلا مني شخصياً وكومة من البرقيات . كتبت الرسالة المطلوبة إلى السير هنري ، ثم استدعيت الكتاب الذين كانوا قد حضروا في الساعة العاشرة إلا ربعاً ، وقمنا معاً بالاطلاع على البرقيات التي وجدنا الكثير منها مرسل من لندن إلا أننا لم نجد واحدة تذكر أي شيء له علاقة بالخلافة . بعد ذلك استضفت مأدبة غداء لعدد من المدعوين كان نوري وجعفر أول من وصل منهم . كانا متلهفين تماماً . وكان نوري يؤيد فكرة دعوة الخليفة المعزول إلى بغداد ومن ثم إرساله إلى الموصل بأمل أن يقوم الجيش التركي بالفرار والانضواء تحت لوائه ، أما جعفر ، المسلم الصادق ، فقد قال أن هناك خليفة واحد بقدر تعلق الأمر به شخصياً (أي جعفر) وهو الملك حسين القريشي ، وذلك وفقاً لأحكام القرآن .

وفي يوم الاثنين كنت على اتصال متواصل مع القصر الملكي ، وكان هناك عدد من البرقيات الهامة من كركوك ، والمتعلقة بغارات جوية محتملة . وبالنظر لعدم تمكن وزارة الداخلية من الاتصال مباشرة بمقر قيادة الجيش فقد تعين عليها القيام بذلك من خلالنا . وقد قمت بمهمة الاتصال شخصياً فوجدت فيها متعة لا تضاهى .

لابد أن أخبرك بأنني تناولت طعام العشاء يوم الثلاثاء المنصرم على مائدة دار الاعتماد ، وكان ضيف الشرف العقيد سوندرز Colonel Saunders الملحق العسكري في سفارتنا في طهران ، وقد روى لنا حكايات مثيرة للاهتمام . فبعد اعتراف بريطانيا بالحكومة السوفيتية ، قام السيد شومياتسكي Mr. Shumiatski ، الوزير المفوض السوفياتي في طهران ، ومنتسبو مفوضيته كلهم ، بزيارة سفيرنا هناك السير برسسي لورين الذي قام بدوره في اليوم التالي برد الزيارة مستصحباً معه العقيد سوندرز . وقد وجد الزائران الوزير المفوض السوفيتي يجلس في

غرفة كان كل شيء فيها من السقف إلى منضدة الكتابة والمحبرة قرمزي اللون . وكان هو يرتدي بدلة سوداء وقد لف شريطاً قرمزياً اللون حول كم سترته الأيسر حداداً على لينين . يالها من صورة ! إنه مجرم سابق ! وأخبرنا العقيد سوندرز كذلك بأن المجتهدين (الذين تم تسفيرهم من العراق إلى إيران) قد ضاقوا ذرعاً ببلاد فارس مثلما ضاقت بلاد فارس ذرعاً بهم هي الأخرى . وأثناء عودتنا في السيارة معاً تحدثنا عن الأتراك وما يقومون به من نشاطات ، وقد بينت أن ما قاموا به (أي إلغاء مؤسسة الخلافة) كان إجراءً صحيحاً ، وبصرف النظر عن الخطوات التي سيقدر لهم اتخاذها فإن مؤسسة الخلافة قد ولت إلى غير عودة . وقد أيد سوندرز رأيي هذا مضيفاً أن في بلاد فارس هناك شعور مماثل لما في تركيا يتمثل بالسأم من المؤسسة الدينية ، والتوجه نحو التخلص من سلطة العلماء والمجتهدين .»

وفي الثامن عشر من آذار كتبت تقول : «تم ذكر أسم الملك حسين للمرة الأولى في خطبة الجمعة باعتباره خليفة للمسلمين ، والغريب في الأمر أن أبناء الشيعة يؤيدون أبناء السنة في هذا التوجه مبينين أن قبولهم بالحسين خليفة إنما يستند إلى واقع كونه من صلب الرسول حقاً . إن من شأن هذا الواقع أن يؤدي إلى تضييق شق الخلاف القائم بين أبناء السنة والشيعة هنا في العراق .

يتوافد النواب لزيارتي - فقد زارني عدد منهم وبدوا فرحين ، وممتنين ، ليباركهم الرب .

سيلقي السيد وولي مساء اليوم محاضرة تتعلق بمواضيع آثارية وذلك في مناسبة ترعاها المدير الفخري لدائرة الآثار التي لم تقرر حتى الآن ما الذي ينبغي لها قوله في هذا المجال ! سوف أنطلق صباح الغد بصحبة السيد ولسون متوجهة إلى كيش حيث سيتم توزيع المكتشفات .»

وفي حاشية لهذه الرسالة كتبت ما يلي : «عدت لتوي من محاضرة السيد وولي . كانت مناسبة ناجحة للغاية أبدع وولي من خلالها في طرح المواضيع ومعالجتها . وقد جلست خلف جلالة الملك وقمت بمهمة الترجمة . ونتيجة قيامي بتقديم السيد وولي للحضور ، وما قمت به من ترجمة وكلام ، شعرت بإرهاق شديد .»

وفي السادس والعشرين من شهر آذار كتبت إلى أبيها قائلة : «أكتب لك في منتصف الليل لعدم قدرتي على النوم . حضرت مساء الاثنين دعوة عشاء أقيمت في القصر الملكي ، وبدا الملك من خلالها متألقاً . لقد انهمك مع النواب في الأعمال والإجراءات التمهيدية (التي سبقت افتتاح المجلس التأسيسي) وقام بها خير قيام . وفي هذه المناسبة (أي دعوة العشاء) أقسم النواب على البقاء مخلصين له وللعراق . هذا وستجري مراسيم افتتاح المجلس

التأسيسي في العاشرة من صباح يوم غد (١٩٢٤/٣/٢٧) ، وقد أمضينا يوماً في صخب وضجيج حول موضوع رئاسة المجلس ، ففي حال لن يتم انتخاب عبد المحسن بك السعدون رئيساً فإن الأمور لن تبشر بخير . وينصرف جعفر إلى تعديل رأيه بمعدل مرة كل ربع ساعة والتأثير على الملك . وقد عمدت إلى الطلب من كل عضو بضرورة التصويت لمحسن بك ، تاركة بقية الإجراءات لتقدير الآلهة . إن عملي هذا أشبه بعمل من يحاول تثبيت تسعة دبابيس بشكل قائم فهو ما أن يكاد ينتهي من تثبيت الأخير منها من طرف واحد حتى ينهار القسم الأول من الطرف الآخر .»

وفي اليوم التالي ، أي في السابع والعشرين من شهر آذار ، يوم افتتاح المجلس التأسيسي ، كتبت تقول : « انتهى كل شيء في الساعة الحادية عشرة صباحاً . ذهبت لحضور الجلسة الافتتاحية بصحبة السيد لايونيل سمث . كانت بغداد تلبس حلة جميلة من الزينة ، وكان الجو العام معبئاً بالإثارة ، بينما اصطف تلاميذ المدارس من أعضاء الفرق الكشفية على جانبي الطريق المؤدية إلى المجلس الذي اختيرت مستشفى النساء المسنات موقعاً له . وقد قام الملك بلباسه العربي بإلقاء كلمة رائعة ، برغم ما بدا عليه من قلق . ثم قام الأعضاء بعد ذلك بانتخاب عبد المحسن بك رئيساً – كان الجو متوتراً ! إلا أن المناسبة لم تخل من جوانب فكاهية ؛ فقد عمد عدد من الشيوخ الجالسين أمامنا إلى رفع بطاقات تصويتهم إلى الأعلى وتوجيهها نحونا أثناء اصطفافهم تمهيداً لإلقائها في صندوق الانتخاب ليبينوا لنا أنهم قد انتخبوا السعدون بعد ذلك دخل أعضاء المجلس في خلاف بعضهم مع البعض الآخر قبل أن يعلن تأجيل الجلسة ! .»

في الأول من نيسان كتبت قائلة : « توجهت إلى القصر عصر يوم الجمعة لتسجيل اسمي في سجل المهنئين . وقد وجدت النواب المنتخبين يتناولون الشاي في حدائق القصر ، وقد التمسوا مني مشاركتهم ، إلا أنني تملصت من ذلك (مدركة أن استجابتها قد تعني ضرورة البقاء معهم فترة طويلة) واكتفيت بتسجيل اسمي والانصراف . وفي يوم السبت حضرت جلسة المجلس بصحبة برنارد بورديلون . وقد تم إقرار الانظمة الخاصة بعقد الجلسات والسير بها بهدوء تام ، وهو إجراء أعقبه انتخاب نائبي الرئيس فكان أولهما السيد داود الحيدري ، أحد أصدقائي العراقيين المقربين ، أما الثاني فكان ياسين ! كان أعضاء مجلس الوزراء يفتقرون إلى خطة عمل منظمة ، فهم لم يحسنوا بعد فن تشكيل الكتل والعمل من خلالها لقد نجح ياسين في الفوز نتيجة انقسام في التصويت .

ذهبت صباح يوم الأحد إلى المتحف حيث قام البروفسور لانجدون بقراءة كل النقوش

الآشورية المثبتة على الألواح والرقوم والأحجار، ورحت أنا أدون كل ما يقول.

كان الاثنين يوماً هائلاً، فقد قمت بعمل مضن على مدى عشر ساعات امتدت من الثامنة والنصف صباحاً حتى السادسة مساء باستثناء نصف ساعة توقفت في خلالها عن العمل لتناول طعام الغداء. وعندما عدت من فترة الغداء جائني كورنواليس ليخبرني عن مشكلة تتعلق بغزوة أخرى قام بها الإخوان، وهي حدث يرفض السير هنري أن يصدق وقوعه برغم لجوء سيل من اللاجئين من أبناء العشائر إلينا. وقد ناقشنا الأمر أنا وكورنواليس واتفقنا على الصيغة التي تقرر قيامي بموجبها إعادة طرح تفاصيل القضية على أنظار السير هنري في اليوم التالي. ولشدة ما أصابني من إرهاق، أويت إلى فراشي وخلدت إلى نوم عميق بعد ساعة من تناولي طعام العشاء. لم أفق إلا في الرابعة من صباح اليوم التالي حيث عمدت إلى كتابة الجزء الأكبر من هذه الرسالة ثم قمت بعد ذلك بترتيب الزهور حتى الوقت الذي حان لي فيه تناول وجبة الفطور وارتداء ملابس الخروج استعداداً للذهاب إلى المكتب. وما أن وصلت إلى المكتب حتى اكتشفت أن برنارد بورديلون قد ذهب لمشاهدة عرض عسكري الأمر الذي سهل من مهمة إقناع السير هنري بأن ثمة شيئاً قد حدث فعلاً. بعد قليل وصل الشيخ فهد بن هذال إلى المكتب ليعلن لنا استعداده على وضع كل أبناء قبيلته تحت تصرفنا من أجل شن حملة على الإخوان.

استضفت شخصاً يدعى رايان Rayan على الشاي. إنه مراسل خاص لصحيفة شيكاغو تربيون Chicago Tribune الأمريكية. آمل أن لا يكون «حيه من تحت تبن» على حد تعبير المثل المصري! لقد بدا في الواقع فطناً ومتعاطفاً (مع موقفنا)، وعلى مدى ساعة ونصف من الزمن عمدت إلى التعبير عن آرائي ومواقفي فيما يتعلق بالعراق وذلك بعد أن أكدت عليه ضرورة التزامه بعدم ذكر اسمي في المقال الصحفي الذي ينوي نشره في الجريدة آنفة الذكر. وقد أبدى استعداده للاستجابة إلى طلبي، وهذا ما دفعني إلى التحدث إليه بصراحة، ومع ذلك لا يعرف المرء منا ما يمكن لرجال الصحافة اللجوء إليه من ممارسات!»

وحول الأمور المتعلقة بنشاط الإخوان، كتبت جيرتروود في الثاني من شهر نيسان قائلة: «أتصل بي كورنواليس هاتفياً صباح اليوم ليخبرني بأن فهد بك بن هذال قد وصلته أخبار من قبل أفضل جواسيسه تفيد بأن الإخوان عازمون على شن غارة ضده (أي ضد فهد بك). وقد عمد إلى إرسال الجاسوس هذا إلينا. وفي غضون لحظات وصل الشيخ شخصياً ليحدثني عن الأمر الذي دونت كل التفاصيل المتعلقة به وضمنتها في مذكرة رفعتها إلى السير هنري معززة بملاحظاتي وآرائي حول الحدث. إثر ذلك تم عقد مؤتمر طارئ ضم كلاً من

الفريق الطيار السير جون سالموند ، قائد القوة الجوية الملكية البريطانية في العراق ، وخليفته اللواء الطيار هجنز Higgins ، وفهد بك ، وكورنواليس . وقد تم الاتفاق على قيام رجال قبيلة فهد بك بالتقدم إلى المناطق القريبة من الفرات حيث سيتم تعزيزهم باثني عشرة سيارة مدرعة .

لابد أن أخبرك بأن جلالة الملك قد توصل إلى معرفة السر الخاص بإدارة المجالس التمثيلية (النيابية) . إنها ممارسة في غاية البساطة ، فما عليك سوى أن تستدعي الأشخاص البارزين من بين النواب لتخبرهم بأن أمراً أو إجراءً معينين سيتم طرحهما في يوم غد ، أو اليوم الذي يليه على سبيل المثال ، وبأنك ترغب في قيامهم قبل الموعد المحدد للطرح برفع عريضة (استدعاء) يعربون من خلالها عن رغبتهم في إقرار الأمر أو الإجراء سالفي الذكر . بعد ذلك يعلن رئيس المجلس أثناء دعوة الأعضاء للتصويت على الأمر أن موافقة الأغلبية قد حصلت من خلال عرائض تم رفعها إليه بهذا الصدد . وهكذا يتم إقرار الأمر . وعليه ، فإن الحاج ناجي - الذي يتبوأ الآن موقعاً رسمياً - جاء اليوم ليخبرني بأن الشيوخ قد اجتمعوا في ساعة مبكرة من صباح اليوم ووقعوا على استدعاء يطالبون من خلاله بالموافقة على إقرار المعاهدة . وقد أعلمني جلالة الملك أن اثنين وستين عضواً قد وقعوا على هذه العريضة ، علماً أن واحداً وخمسين صوتاً يشكل الأغلبية المطلوبة . إن الطريقة هذه ملائمة جداً للظروف السائدة هنا ، بيد أنها قد لا تقابل باستحسان في لندن !(٦) .

«ومن بين الأحداث التي شهدتها الأيام القليلة الماضية عدد من النشاطات كان أولها قيام الملك بجرف أول كتلة من التراب إيذاناً ببدء العمل في شق قناة النجف ، ثم تلى ذلك عدد من حفلات الوداع التي أقيمت بمناسبة انتهاء عمل كل من السير جون سالموند والسيد

---

(٦) لعل القارئ الكريم يذكر في مجال سابق من هذا العمل كيف شكت الآنسة جيرتروود بيل من تدخل الملك في شؤون الحكومة وقالت ما مفاده أن هذا التوجه يتعارض مع الممارسات الديمقراطية ، أما الآن فهي تشير بارتياح واضح إلى توصل الملك إلى معرفة كيفية «إدارة المجالس النيابية» الأمر الذي يتناقض بداهة مع الممارسات الديمقراطية . ومما يثير العجب في هذا الصدد هو إصرار بريطانيا عشية تشكيل الحكم الوطني في العراق على تثبيت الأسس التي تم بموجبها المناداة بسمو الأمير فيصل بن الحسين ملكاً على العراق والتي تلخصت بضرورة أن تكون حكومة سموه دستورية نيابية ، ديمقراطية ومقيدة بالقانون . إلا أن سياق الأحداث أثبت بشكل قاطع لا يقبل الجدل أن تطبيق هذه الأسس كان مقبولاً ومباركاً طالما وقف بمنأى عن التعارض مع المصالح البريطانية ، وفي حال تعارضه معها لا مانع من العمل على ثني هذه الأسس هنا ولويها هناك==

ولسون ، ثم أعقب ذلك حلول شهر رمضان بكل ما ينطوي عليه من سكينة وهدوء مباركين .»

وفي الخامس عشر من شهر نيسان قالت في رسالتها الموجهة إلى أبيها : «لا يكاد يكون من بين من يديرون شؤون البلاد هنا ، والذين تتراوح أعمارهم بين الأربعين والخمسين عاماً ، من يمكن اعتباره مسلماً مؤمناً وملتزماً بتعاليم الدين (الإسلامي) وشعائره ، اللهم إلا باستثناء جعفر ، أما فيما يتعلق بالخلافة فإنها مؤسسة قد لفظت أنفاسها الأخيرة وباتت في عداد الأموات ! وكلما زاد عدد من يتم بيعتهم زادت المؤسسة موتاً !»

ثم تواصل الآنسة بيل كتابة رسالتها هذه لتذكر نشوب نزاع بين أعضاء المجلس التأسيسي حول أمر تافه . وتقول بهذا الصدد : « في صباح اليوم التالي زارني في المكتب رئيس الوزراء ونوري باشا وهما يحتدمان غضباً . كانا عازمين على حل المجلس والدعوة إلى انتخابات عامة جديدة ، والقبول بالمعاهدة عن طريق الاستفتاء العام ، إلى جانب القيام بأمور أخرى لا أذكر تفاصيلها بالضبط . وبعد أن قمت بتهدئة روعهما عمدت إلى دعوة نايجل دايفدسون الذي يعتبر من بين أفضل من يمكنهم تهدئة الخواطر وتلطيف الأجواء . بعد ذلك اقترحت عليهما الذهاب لزيارة كورنواليس ومناقشة الأمر معه وقد استجابا لهذا الاقتراح وانصرفا راضيين . بعد ذلك كان لي لقاءان عاصفان مع شخصين كانا من بين الذين أيدوا

== لتنسجم مع هذه المصالح . ويثير هذا التناقض بين الأهداف والأماني المعلنة من جانب ، وبين السياسات المطبقة التي يفرضها واقع المصالح والمطامع من جانب آخر ، سؤالاً مفاده هل أن البريطانيين حقاً أمة ديمقراطية بالصميم ؟ كيف يمكن للإنسان أن يكون ديمقراطياً في عقر داره وسلطوياً مهيمناً في موقع آخر؟ أليست الديمقراطية مفهوماً ، وشأن كل المفاهيم ألا يأتي نتيجة لأعمال الفكر بكل ما تنطوي عليه من تجريد وتعميم؟ إن المطلع على السياق التاريخي البريطاني يدرك جيداً كيف ولدت الممارسات الديمقراطية في بريطانيا ، وكيف نمت وترعرعت ، منذ عهد الماجنا كارتا ، مروراً بالتطورات الديمقراطية التي شهدها القرن التاسع عشر ، والوضع الذي نعرفه اليوم ، كما يدرك أنها لم تأتِ من حب وإيمان عميقين بمبدأ الديمقراطية بل نتيجة تنافس وصراع استهدفاه تحقيق الوصول إلى سدة الحكم . إن الموضوع جدير بأن يولى كل اهتمام من قبل الباحثين من أبناء أمة العرب والمسلمين – المترجم

القرار الذي كان ياسين قد تقدم به احتجاجاً على موقف الحكومة(٧) كان أحدهما عبد المجيد بك الشاوي الذي تمكن تماماً من التلطيف من حدة غضبي من خلاله إعلانه عن ندمه لدوره في هذا الشأن . أما الشخص الثاني فكان رؤوف الجادرجي الذي أعتبره شخصاً دنيئاً ، وقد قمت بتعنيفه . وما أن حل المساء حتى أدركت مدى ما أصابني من إرهاق وإعياء ، وبأنني قد تحملت كل ما بقدرتي تحمله ليوم واحد .

وفي يوم الأحد ، وبعد أن انتهينا من تناول وجبة الغداء ، ولبسنا أفضل ما لدينا من الثياب انطلقنا أنا وكين (كورنواليس) ، إلى ميدان سباق الخيل حيث وجدنا جلالة الملك الذي بدا لنا كمن أعياه الملل ، وقد تساءلت في نفسي ما إذا كان هناك ما هو أكثر إثارة للملل من سباق الخيل . وما هي إلا لحظات حتى وصلت إزمي (أي الليدي دوبس) بصحبة شخص ثقيل الظل يدعى النقيب فكتور كازاليت Captain V. Cazalet الذي كان قد عاد لتوه من بلاد فارس ، وقد عمدت إلى دعوته مع اللادي دوبس بيروي ليحكي للملك قصة رضا خان المثيرة . وقد قمت بترجمة تفاصيل ما رواه من أحداث . وبعد أن راقبنا ثلاثة أشواط ترك الملك ميدان السباق وأعقبناه أنا وكين .

وعند ذهابي إلى المكتب صباح الخميس علمت أن بيرنارد بوردليون قد سقط طريح الفراش نتيجة إصابته بالتايفوئيد . ولما كان السير هنري يقوم بزيارة إلى الموصل ، وجدت أنني كنت المسؤول الأول والأخير في المكتب مع كل ما ترتب على ذلك من مسؤولية تتعلق

---

(٧) بعد افتتاح المجلس التأسيسي تقرر النظر في المعاهدة قبل النظر في إجراءات سن الدستور . وعلى الرغم من عدم دستورية هذا القرار ، تم الاتفاق بين الملك والبريطانيين على منح المعاهدة أولوية نظراً لاهميتها . وكان البريطانيون متفائلين وذلك انطلاقاً من توهمهم بأن المجلس سيقر المعاهدة بسرعة وبأقل معارضة ، إلا أنهم سرعان ما خاب ظنهم . وقد ظهرت أول بوادر المعارضة بعد أقل من أسبوع من افتتاح المجلس ، وهي التي عبر عنها السيد ناجي السويدي الذي أوضح ضرورة إعلان المعاهدة على الشعب ليكون له القرار النهائي فيها وهو جانب كان ينذر بخطر الرفض . وفي اجتماع عقد في سينما رويال في ٤٢٩١/٤/٧١ (أي المناسبة التي كان ليجيرتروود بيل تعليق قاس حولها كما سنرى في بداية الفصل القادم من هذا العمل) حيث تم انتقاد المعاهدة والتظلم من أحكامها ، نهض ياسين باشا الهاشمي ليتكلم بالنيابة عن أعضاء المجلس التأسيسي داعياً إلى الإكثار من عقد مثل هذه الاجتماعات انطلاقاً ، على حد قوله ، من واقع «أننا أقسمنا على الصدق والإخلاص لمملكتنا وللكنا مهما كانت القيود والتهديدات ----- .» وقد قوبلت كلمته هذه بالاستحسان والقبول الشديدين – المترجم .

بالعراق من أقصاه إلى أقصاه .»

وفي الحادي والعشرين من شهر نيسان كتبت تقول : «عاد االمندوب السامي من الموصل ، وما أن وصل إلى المكتب حتى استدعاني لمقابلته . لقد أفاده كونواليس بأخبار انقسام في صفوف شيوخ القبائل نتيجة انصراف القسم الأكبر منهم إلى مساومة الملك مهددين بعدم التصويت لصالح المعاهدة إلا في حال تعهده بضمان حصولهم على امتيازات قبلية في إطار أحكام القانون الأساسي . وعبثاً حاول الملك إقناعهم بأن في حال عدم إقرار المعاهدة لن يكون هناك قانون أساسي بالدرجة الأولى ، ولا حكومة عراقية . وعليه جلسنا نناقش الأمر ونحاول كتابة صيغة برقية ترسل إلى لندن . وكان جعفر والملك يمارسان ضغوطاً علينا بهدف ضرورة قيام حكومة صاحب الجلالة البريطانية بمنح العراق ضمانين أكيدين يتعلق أولهما بقيامنا بالتعهد بالدفاع عن الموصل في حال تعرضت لهجوم تركي ، ويتعلق ثانيهما بإنهاء الانتداب على العراق بانتهاء فترة نفاذ المعاهدة ، أي أربع سنوات ، بصرف النظر عما إذا قُبل العراق عضواً في عصبة الأمم أم لم يُقبل . وقد قام السير هنري بتوجيه برقية شديدة اللهجة يؤكد على ضرورة الاستجابة إلى هذين المطلبين ، ويهيب بحكومة جلالة الملك التوجه إلى عصبة الأمم بقوة وصراحة وإعلامها أن في حال رفض العراق إقرار المعاهدة ، ينبغي علينا (أي نحن البريطانيين) الانسحاب منه . هذا إذا ما كانت حكومة صاحب الجلالة البريطانية بالفعل راغبة في القيام بذلك ، أما في حال عدم رغبتها في ذلك ، وفي حال أرادت البقاء في العراق بأي ثمن - وهو خيار لا يمكن تصوره في كل الأحوال - يتعين علينا أنذاك أن نكون على استعداد لمنح الحكومة العراقية شروطاً أفضل من تلك الواردة في أحكام الاتفاقيات الثانوية .»

١٩٢٤

بسبب الأحداث التي كان العراق يشهدها في هذه الفترة بالذات، قررت جيرتروود، وبالرغم عن نفسها، البقاء في بغداد أثناء عطلة عيد الفصح. فبعد انصرافها من المكتب في يوم الخميس، انطلقت بالسيارة إلى الكاظمية في نزهة لبضع ساعات. ثم تواصل بعد ذلك كتابة رسالتها المؤرخة في الحادي والعشرين من شهر نيسان قائلة: «أثناء غيابي (عن المكتب) كانت بغداد تشهد أحداثاً خطيرة. فقد قامت مجموعة من المحامين الأوغاد، ممن لا يزاولون مهنتهم، بدعوة أعضاء المجلس التأسيسي إلى حفل. وقد عمد اثنان من هؤلاء الحمير الشباب إلى إلقاء كلمتين حماسيتين مناهضتين للبريطانيين، وللمعاهدة بشكل خاص، مؤكدين من خلالهما أن المعاهدة تنطوي في الواقع على جوانب لم تتضمنها أساساً مثل عدم إمكانية توقيف أي بريطاني في حال تجاوزه على القانون. وإزاء ذلك راح الحضور يضربون على صدورهم، وهو ما يجدر بهم فعله. بعد ذلك نهض ياسين ليشكر المحامين على ضيافتهم موضحاً في الحين ذاته أن من الأجدى بهم أن لا ينسوا أن بريطانيا هي صديقة العراق الوحيدة. إلا أن مثل هذا القول لا يعود على الهاشمي بالنفع، فهو الذي قام بتنظيم الحفل في البداية، ويريد الآن التخفيف من حدة الهيجان انطلاقاً من رغبته في إرضاء الجانبين.

وفي صباح اليوم التالي - أي يوم الجمعة العظيمة - كان المندوب السامي يتحرق شوقاً للحصول على أخبار تتعلق بالحفل آنف الذكر الأمر الذي دفعني إلى الحصول عليها من الشرطة. ثم اتصل كين (كورنواليس) ليخبرنا أن الشيوخ الأخيار - الذين هبط مجموعهم إلى ستة شيوخ فقط - قد جاءوا لزيارته معلنين عن استعدادهم للتوقيع على بيان يثبت قبولهم بالمعاهدة وذلك بالرغم من موقف الشيوخ الأشرار. وقد أضاف كورنواليس بشيء من التعب والإرهاق قائلاً ما مفاده أن علينا البدء بالعمل مجدداً من أجل بناء حزب مشيخي يشكل الشيوخ الستة آنفو الذكر نواته.

وفي يوم الأحد ذهبت إلى المتحف للقيام ببعض المهام، ثم توجهت بعد ذلك إلى زيارة جعفر باشا في مكتبه لمجرد إشعاره بتضامننا معه، ودعمنا له، وبأننا سنصل معاً بالنتيجة إلى بر الأمان بالرغم من كل ما يعترض طريقنا من مشاكل وصعاب. إن جعفر ونوري يتصرفان بطريقة رائعة.

وبينما كنت أنعم بالقيلولة اتصل بي كونواليس هاتفياً ليخبرني بأن أحد المحامين الأوغاد ورفيقاً له لم تُعرف هويته حاولا اغتيال عداي الصكب[١] (كذا) وسلمان البراك، وهما أفضل اثنين من بين الشيوخ وقد وقع الحادث، وذلك عندما كانا يهمان الدخول إلى منزليهما. وعلى الرغم من أن إصابتهما كانت بالغة، إلا أنها لم تكن مميتة. وقد انطلق كين للاجتماع بجلالة الملك وأعضاء الحكومة في البلاط الملكي. ولابد من القول بهذا الصدد أن من بين الجوانب التي تتميز بها سياستنا في العراق ذلك المتعلق بخلاف العراقيين بعضهم مع البعض الآخر - فعندما يختلفون فيما بينهم ينصرفون إلى توجيه نيران أسلحتهم بعضهم ضد البعض الآخر لا ضدنا نحن. إلا أن هذا لا يعني أبداً بأنني لا أفضل أن تصوب النيران ضدي بدلاً من أن تصوب ضد عداي!

لقد تقرر إلقاء القبض على ما يقرب من اثنين وعشرين محامياً[٢] أي كل المعنيين بالحفل سالف الذكر - وإغلاق الصحيفتين المتطرفتين. إن المتطرفين قد قاموا في الواقع بتسليم أنفسهم إلى الحكومة التي بات لديها الفرصة الآن للانقضاض على مناوئيها واكتساح صفوفهم. لقد بدؤوا يدركون أخيراً حقيقة ما اعتدت مواجهتهم به من طروح منذ العام ١٩٢٠، أي أن الموالين لنا موالون لهم، لأن الولاء طبيعتهم بالأساس، وأن الذين يناصبوننا العداء ويريدون الغدر بنا لن يتوانوا أبداً عن مناصبتهم العداء والغدر بهم.

وفي خضم هذه الأحداث فإن عودة المجتهدين إلى العراق كادت تمر من غير أن تثير

(١) إن المعني هو الشيخ عداي الجريان وليس كما ورد أعلاه، وقد أصيب بذراعه نتيجة الحادث، أما سلمان البراك فقد أصيب في ساقه - المترجم

(٢) بعد هذا الحادث سارعت الشرطة إلى إلقاء القبض على مجموعة من المحامين كان من بينهم كل من السادة داود السعدي، وشفيق نوري السعيد ورشيد رشدي، وعلي محمود الشيخ علي، وعوني النقشلي، وأنور النقشلي، وسامي النقشلي، وعبد الرزاق الحسني، وعبد الهادي الظاهر، وتوفيق الفكيكي، وصادق حبة، ونصرت الفارسي، وفخري الطبقجلي، وعبد الرحمن خضر، وطالب مشتاق، ومحي الدين أبو الخطاب. أما الجريدتان اللتان تم أغلاقهما فكانتا جريدتي «الأستقلال» و «الشعب». وعلى الرغم من أن المتهمين تم عرضهم على كل من الشيخ عداي الجريان وسلمان البراك، لم يتم تشخيص أي منهم بأية درجة من الدقة. وقد شاع في حينه أن الفاعلين الحقيقيين كانا كل من شاكر القره غولي وعبد الله سرية اللذين سبق اتهامهما أيضاً بقتل وزير الداخلية الأسبق توفيق بك الخالدي قبل هذه الحادثة بما يقرب من شهرين أو أكثر من ذلك بقليل - المترجم

انتباه أحد أو اهتمامه ، ومع ذلك فإنهم قد عادوا باستثناء الأسوأ من بينهم الذي أصر الملك على عدم عودته . إنهم يحتجبون عن الأنظار على ما يبدو وذلك التزاماً بالوعد الذي قطعوه على أنفسهم قبيل السماح لهم بالعودة . وقد توجهوا إلى مدينة كربلاء فور عودتهم إلى العراق .»

كانت المصاعب ، الكبيرة منها والصغيرة على حد سواء ، لا تزال تلوح من بعيد مهددة عندما بدأت الآنسة جيرتروود بيل كتابة رسالتها المؤرخة في التاسع والعشرين من شهر نيسان ، وبعد أن كان الملك قد استدعاها طالباً مساعدتها ، وهي الرسالة التي تقول فيها : «تكمن المشكلة في الرأي الذي كان المندوب السامي قد عبر عنه أمام مجموعة من المحامين سيئي النية ، وهو رأي إما أُخفق في فهمه تماماً ، أو أُول تأويلاً خاطئاً ، وكان من شأنه أن يجعل الملك في حيرة من أمره . ومن المحتمل جداً أن الرأي هذا قد أسيء فهمه ، فالسير هنري لا يحسن التكلم بالعربية بأية درجة من الدقة ، ومع ذلك فهو يرفض السماح لأي مترجم بنقل أفكاره إلى من يخاطب ، فهو يتعثر في حديثه لفترة طويلة ، ويتخبط في اختيار الكلمات بشكل يثير السخط والغضب ، ويخفق تماماً في إعطاء المقابل أية فكرة عما يريد التعبير عنه . لقد أخفقت في فهم ما أراد قوله ، كما أخفق كورنواليس هو الآخر أيضاً في فهم الأمر ، ولا أفترض أن أي من المخاطبين العرب قد فهم شيئاً .

وتنتهي رسالة الآنسة بيل هذه في الثلاثين من شهر نيسان بالملاحظة التالية : «زارني كورنواليس في المكتب ليخبرني بأن الوزراء قد أعلنوا بأنهم لن يكونوا مسؤولين عن إدارة المملكة في حال تم رفض المعاهدة ، وإن الأجواء تشهد تحسناً متواصلاً .»

وفي رسالتها المؤرخة في الرابع عشر من شهر آيار تعود جيرتروود مرة ثانية إلى ذكر حالة التوتر التي كان يعيشها العراق بقدر تعلق الأمر بالمعاهدة ، والجهود الرامية إلى تحقيقها . وبهذا الصدد فإنها تقول : «لانزال نعاني من حالة اليأس والقنوط التي بدأت أسأمها . إنهم (المسؤولون العراقيون) يقفون على شفا ما يرغبون في تحقيقه دون أن يجرؤوا على القيام به ، أي إقرار المعاهدة . إنها حقاً لأوقات ترهق النفوس وتنهك القوى .»

وفي العشرين من شهر آيار تعود مرة ثانية إلى ذكر ذات الموضوع قائلة : «لم نخط خطوة واحدة إلى الأمام ، اللهم إلا باستثناء قيام اللجنة التي تم تشكيلها لغرض النظر في المعاهدة برفع تقريرها إلى المجلس اليوم . وتوصي اللجنة بتقريرها آنف الذكر إجراء العديد من التعديلات على نص المعاهدة مدعية بثقة بأن حكومة جلالة الملك ستقبل بهذه التعديلات ، على الرغم من أن الحكومة المذكورة قد سبق لها مراراً وتكراراً رفض النظر في

أي تعديل . إلى جانب ما توصي اللجنة به من تعديلات ، فإنها لا توصي في الحين ذاته برفض المعاهدة بنصها الأصل ، أي بنصها غير المعدل . وقد عمدت هيئة المجلس إلى إرجاء اجتماعاتها لغرض تدارس التقرير ، إلا أنها ستواجه على ما أتوقع صحوة عنيفة تبدد أوهامها بعد أن طرق سمعنا أن حكومة جلالة الملك على وشك القيام بإصدار إنذار نهائي موجه إلى الحكومة العراقية ينتهي في الحادي عشر من شهر حزيران . وبهذا الصدد لا يتوقع السير هنري قيام أعضاء المجلس بالإعلان عن رفضهم للمعاهدة ، أو موافقتهم عليها ، بل سيكتفون بإدارة ظهورهم لها كما يفعل الكلب الاسبانيولي عندما يُغلب على أمره ، أي يقوم برفع قائمتيه الخلفيتين إلى الأعلى ويهزهما في الهواء . إن المقارنة هذه تثلج صدورنا .

وفي الحين ذاته توقفت تماماً عن الشعور بالقلق ، ورحت أخبر زواري بأنني اشتقت إلى العودة إلى وطني ، والعيش في بيت العائلة ، والتمتع بوجود سيارة مخصصة لخدمتي بدلاً من ما أواجهه من مصاعب لمجرد الحصول على شاحنة صغيرة من نوع فورد Ford تنقلني إلى داري . إلا أن جلدي هذا يتضاءل أمام عزم وتصميم صناديد شديدي البأس أمثال الحاج ناجي الذي لا هم له سوى بذل كل الجهود الممكنة من أجل تحقيق إقرار المعاهدة . لابد لي من التوجه لزيارته .»

وفي رسالتها المؤرخة في الحادي والعشرين من آيار تتحدث جيرتروود عن صديقها العزيز الحاج ناجي قائلة : «ذهبت لزيارة هذا العزيز فوجدته يعاني من حالة قلق مكبوت ، فهو على ثقة من أنه سيكون هدفهم (أي هدف المتطرفين) التالي ، وهو أمر يكاد يجمع الكل عليه ، إن بُعد بيته وتحركاته المنتظمة تجعل من أمر التعرض له ممارسة سهلة . وعلى الرغم من محاولتي تهدئته والتخفيف من حدة قلقه ، إلا أنني عدت إلى البيت مشغولة البال وسارعت إلى كين كورنواليس التمس منه تزويد الحاج ناجي بحماية من لدن الشرطة ، وخلاف ذلك سأجد نفسي مضطرة إلى الانتقال إلى داره للعيش معه لفترة من الزمن ، وعدم السماح له بالمجيء من الكرادة إلى بغداد إلا بصحبتي ، إذ ليس من المحتمل أبداً أن يحاولوا اغتياله ، أو النيل منه بشكل ما أو آخر ، في حال ما كنت شخصياً بصحبته .»

في أثناء الاجتماع الأخير للمجلس التأسيسي كان ياسين باشا الهاشمي أول المحتجين على تأجيل الجلسات . ومن خلال تقرير رفعته الآنسة بيل إلى المندوب السامي ، السير هنري دوبس ، ذكرت أنهم (البريطانيين) من المحتمل جداً أن يشهدوا حدثاً لا يخلو من غرابة ، ألا وهو تحقيق إقرار المعاهدة على يد ياسين الهاشمي . وبهذا الصدد ، فإنها تصف ياسين باشا قائلة : « على الرغم من كونه شخصاً صموتاً وكتوماً ، يصعب سبر أغواره ، إلا

أنني أستلطفه ، فبالإضافة إلى ما يتمتع به من سحر وجاذبية فإنه يوحي للمقابل بالقوة . ولقد ذهبت قبل أسبوعين لزيارته في داره بهدف تقديم التهاني بمناسبة عيد الفطر ، فرحب بي ترحيباً حاراً لم أعهده في أي من البيوت التي اعتدت زيارتها ، وأصر على أن يعرفني على زوجته وبناته الصغيرات الثلاث . إن حياته العائلية رائعة . إنني لا أكاد أظن بأن هناك من يجدر بي قول ذلك بحقه فعلاً .»

وفي التاسع والعشرين من شهر آيار كتبت إلى أبيها قائلة : «شخصي ومكتوم ! قام السير هنري لتوه بإطلاعي على نصوص البرقيات المتبادلة بينه وبين حكومة جلالة الملك حول ما سينبغي لنا القيام به في حال رفض المجلس التأسيسي إقرار المعاهدة . إن كل ما يمكنني قوله لك - بسرية تامة طبعاً - هو أن ما طرحه (المندوب السامي) من تعديلات تتعلق بمقترحات حكومة صاحب الجلالة لا يتميز بالحكمة فحسب بل يعتبر موقفاً واعداً . وإذا ما تم اعتماد هذه التعديلات فأننا بالتأكيد سنجتاز العاصفة بسلام ، وسيحظى الإجراء الخاص بإقرار المعاهدة بموافقة نسبة ٩٩٪ من مجموع أبناء البلد ومباركتهم .»

ومن خلال رسالة طويلة مؤرخة في الرابع من شهر حزيران ، تصف الانسة بيل الأحداث التي شهدتها الأيام التالية عندما تجمهر حشد من المتظاهرين المعارضين للمعاهدة حول النواب وأجبروهم على رفع الجلسة بشكل فاضح ومشين للغاية . وكاد يكون رجال الشرطة عاجزين عن اتخاذ أي إجراء ، الأمر الذي تطلب استدعاء وحدة من الخيالة العسكرية لمعالجة الموقف . وتكررت هذه الممارسة لاحقاً ولكن بدرجة أقل عنفاً بفضل تنظيم أفضل من قبل قوات الشرطة ، الأمر الذي جعل من اللقاءات اللاحقة مناسبات غير مجدية بالمرة ، ودفع جيرتروود بيل وكورنواليس إلى الخروج بقناعة مفادها ، على حد تعبير الآنسة بيل : «أن أي جهد بشري عاجز تماماً عن تحقيق إقرار المعاهدة من قبل المجلس القائم حالياً .»

وتواصل الآنسة بيل كتابة الرسالة سالفة الذكر قائلة : «إنني وكورنواليس مقتنعان تماماً بأننا (البريطانيين) قد ارتكبنا خطأً كبيراً ؛ فإنه لمن غير المجدي ، على ما نرى ، أن نطلب من شعب يجهل تماماً فن السياسة ، ويفتقر إلى الحنكة في ممارسة السير في دروبها والتعامل معها ، اتخاذ قرار مصيري يتعلق بمستقبلهم وذلك من خلال محتليه . فعناصر الجهل ، والأطماع الشخصية ، والتناحر الأعمى تلعب دورها لتزيد الموقف غموضاً وإبهاماً مما يحول تماماً دون تمكن الشخصيات الرئيسة في الدراما الإنسانية من رؤية طريقها بأية درجة من الوضوح .

جاء لزيارتي صباح هذا اليوم الشيخ عجيل - هذا الرئيس العشائري الهادئ ، الكبير

وقال لي : «خاتون ! أود أن أقول لك أن لا وجود لأية قوة على وجه الأرض يمكنها دفع هذا المجلس إلى التصديق على المعاهدة . إنك ياخاتون لا تعلمين ما الذي يدور في هذه المدينة من نشاط ؛ فثمة بائع جوال من بين أهل السوق ، يقف أمام باب منزلي ليلاً ونهاراً . إنه ليس إنساناً بالغاً بل صبي رث الثياب ، وما أن يراني خارجاً أو داخلاً حتى يهرع إلي ويهم بتقبيل يدي أو عباءتي أو طرف ثيابي ، ويذرف الدموع ويقول لي متوسلاً : أيها الشيخ ! أيها الأب الكريم ! ارفض هذه المعاهدة ! لا تبيعنا إلى الإنجليز ! إنه لا يعلم ما تحتويه المعاهدة ! إنه مأجور ، طُلب منه الوقوف أمام داري وقول ما أوعز إليه قوله فقط . هذا ما قاله لي الشيخ عجيل . وأنا بدوري أود أن أضيف قائلة إن الصبي هذا قد حفظ درسه جيداً بفضل تكرار ترديده ، لا بل أنه بات يؤمن بما يقول من كثرة هذا الترديد . وأخلص عجيل إلى القول بما مفاده أنه إذا ما كان قد أوعز لشخص واحد بالوقوف أمام داره ، فهناك نواب يقف أمام دورهم ثلاثة أو أربعة أشخاص من هذا النوع !»

ثم تواصل جيرتروود كتابة رسالتها سالفة الذكر لتخلص إلى النتيجة التالية : « وفي نهاية المطاف ، أجد أنني على ثقة تامة بأنهم قد نجحوا في إظهارنا بهذه الصورة من الحماقة . لقد بالغنا في تقدير أهميتهم ، وهو خطأ لابد لنا من الاعتراف به ، بيد أن ما لم نبالغ في تقدير أهميته هو الاعتماد الأساسي لهذا البلد علينا ، وعلى استقامتنا ونزاهة أهدافنا .»(٣)

(٣) يبين المرحوم الأستاذ الدكتور علي الوردي في الجزء السادس من عمله العلمي القيم «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» أن المعارضة قد اعتمدت صيغة جديدة في أطر نشاطاتها الرامية إلى رفض المعاهدة . ففي عهد المعارضة السابقة كان المجتهدون يكتفون بإصدار الفتاوي لتحريم أمر من الأمور السياسية ، أي أنهم كانوا يلجؤون إلى الدين في هذا المضمار . أما المعارضة الجديدة فقد تبنت أساليب مستمدة من ممارسات دنيوية ، فقد لجأت إلى الإرهاب تارة - كما شهدنا عندما تعرض كل من الشيخ عداي الجريان والشيخ سلمان البراك إلى محاولة اغتيال - وإلى النخوة العشائرية تارة أخرى . فقد أخذت المعارضة تلجأ إلى استخدام النساء والصبيان للتأثير على النواب . وهناك حادثة يرويها المرحوم عبد الهادي الظاهر مفادها أن عبد الغفور البدري كان يكلف نساء أعرابيات من ذوات الشخصية القوية والقدرة على التعبير المؤثر بالذهاب إلى بيوت الشيوخ من النواب ليصرخن في وجوههم على الطريقة العشائرية قائلات : «على بختك أبو فلان (أي بعرضك يا أبو فلان) تبيعونا للصوجر (أي هل تبيعوننا إلى الإنجليز - والصوجر هي تحريف لعبارة soldier أي جندي وتعني البريطاني ، وهي عبارة أشبه بما كان الهنود يلقبون الرجل الإنجليزي به أي عبارة صاحب) ألف وسفة عليكم (أي وا أسفاه لموقفكم) . وكثيراً ما كانت هذه الطريقة تؤثر في نفوس الشيوخ لأنها كانت تعمل على مس أوتار قلوبهم البدوية الأصيلة - المترجم

وفي اليوم التالي ، قامت الآنسة بيل بتوجيه ملاحظتين قصيرتين إلى أبيها أضافتهما إلى ذات الرسالة المذكورة أعلاه واللتين جاء فيهما ما يلي : «أعلن ناجي بك السويدي ليلة أمس عن نيته بإلقاء كلمة أخرى نهار اليوم يهيب من خلالها بضرورة رفض الصيغة غير المعدلة للمعاهدة ليعقب ذلك بطرح اقتراح يستهدف حجب الثقة عن الحكومة ، وانصراف المجلس التأسيسي بعد ذلك إلى تشكيل حكومة جديدة يتم اختيار رموزها من بين أعضائه . وغني عن القول ، أن المجلس لا يمتلك الصلاحية على إقالة الحكومات وتشكيلها ، إلا أن الأجواء تزخر مؤخراً بإشاعات وأقاويل تدور حول هذا الأمر . وكان من المزمع قيام الشيوخ المعارضين بعقد اجتماع يوم أمس بهدف تدارس حجم القوات العشائرية التي يتطلب الموقف الراهن حشدها ، وحجم ما ينبغي لكل شيخ منهم الإسهام به من قوة . وهكذا فإننا نواجه موقفاً صعباً ، وقد تركت السير هنري ليتدبر ما يتعين علينا اتخاذه من خطوات إزاء هذا الوضع .

ومن بين الجوانب لم تسهم في التخفيف من حدة توتر الموقف هو النهج الذي اعتمدته حكومة جلالة الملك ، والذي عبر عنه نص البرقية الموجهة إلى المندوب السامي والتي توعز إليه بالسماح للمجلس بمواصلة نهجه في رفض المعاهدة .»

وفي الحادي عشر من شهر حزيران كتبت تقول : «لم يحدث في يوم السبت ما من شأنه أن يثير الاهتمام . وفي صباح الأحد جاءني علي السليمان طلباً للمشورة . وقد أخبرته بدوري بأنني لا زلت أرى بضرورة مواصلتهم القيام بمحاولات تستهدف إقرار المعاهدة ، وفي حال أخفقوا في تحقيق ذلك بإمكانهم الانصراف إلى تطبيق الإجراء الذي طرحه النواب الأكراد ، وذلك من باب تفادي رفض إقرار المعاهدة ، والذي يقضي بالتصويت على تأجيل النظر فيها إلى حين تسوية قضية الموصل . إن من شأن ذلك بطبيعة الحال أن يفضي إلى حل المجلس التأسيسي الأمر الذي يعني قيام المندوب السامي نتيجة ذلك بممارسة درجة أكبر من السيطرة . إلا أنني لم أخبر الشيخ علي السليمان بهذا الجانب من الأمر !

وفي منتصف النهار زارني الشيخ عجيل الياور وقال لي : خاتون ! إن ما أرغب تحقيقه دائماً هو النجاح في كل مسعى أقوم به . وبغياب أية فرصة من شأنها تحقيق إقرار المعاهدة ، فإنني عازم على التصويت من أجل إرجاء النظر فيها . وإزاء ذلك قلت له أن هذا هو الفيصل بين موقفنا وموقفهم ، فهم يسيرون مع القطيع بينما نقوم نحن بالنظر في المشكلة ذاتها لنتوصل إثر ذلك إلى إقرار ما ينبغي اتخاذه من خطوات لننطلق بعد ذلك إلى وضع قرارنا في موضع التنفيذ . أيد عجيل ما ذهبت إليه وأضاف قائلاً ما مفاده أن المجلس قد أضاع

رشده تماماً ، وأنه لن يوافق على إقرار المعاهدة حتى في حال وافقت الحكومة البريطانية على التعديلات المقترحة .

كان يوم أمس (آخر أيام الفترة الزمنية المحددة) يوماً محموماً . عقد المجلس جلسته في الساعة التاسعة ، إلا أن الاجتماع الرسمي لم يبدأ حتى الحادية عشرة والنصف لينهض أحد النواب مقترحاً توقف الاجتماع لمد نصف ساعة من الزمن . وهكذا حل منتصف النهار دون تحقق أي شيء . أما في الواحدة والنصف فقد أُعلن تأجيل الجلسة إلى اليوم التالي ! وقد سارعت إلى نقل هذه الأخبار إلى كورنواليس الذي صاح بيأس قائلاً : رباه ! ثم أخبرت المندوب السامي الذي تملكه الغضب نتيجة سماعه الخبر . وأثناء ذلك استلمنا مكالمة من البلاط الملكي تطلب منا منحهم مهلة يوم واحد ! إلا أن المندوب السامي رفض الاستجابة إلى هذا الطلب ، وقرر التوجه إلى الملك والطلب منه بالقيام بحل المجلس عند منتصف الليلة في حال فشلت جهود دعوته إلى الاجتماع عصراً . إلا أنه قرر في كل الأحوال التوجه إلى القصر الملكي في الرابعة عصراً بغية إعلام الملك بما وصل إليه من قرار .

وقد اخبرنا النقيب هولت Captain Holt ، الذي كان قد أوفد لمراقبة سير الاجتماع ، أن رئيس المجلس كان غارقاً بالنظر في سيل من مختلف أنواع القرارات . فقد وقف ياسين يعارض الاقتراح الذي طرحه النواب الأكراد ، بينما قرر المجلس التصويت عليه عندما طلب جعفر من الرئيس تأجيل الأجتماع بسبب ما أسماه أموراً خطيرة لها علاقة بالدولة ، وذلك إثر اتصال قام به مع الملك وأخبره بموجبه بأن الأمور لم تكن سائرة بشكل مرض . وبطبيعة الحال وافق المجلس على التأجيل - فهو الشيء الوحيد الذي يرغب أعضاؤه في القيام به .

وإزاء ذلك ازداد السير هنري غضباً . إنه عمل مدبر ؛ كان الملك يحاول تنفيذ خدعة جديدة ، وهو تصرف غير منصف ، مما أثار حفيظة السير هنري وجعله يرغي ويزبد . إلا أنه استجاب لطلبي وقرر تأجيل أي إجراء إلى ما بعد الانتهاء من وجبة الغداء . وبعد أن تناول قدحاً من البيرة المثلجة هدأ روعه ، وتمالك أعصابه .

توجهت إلى زيارة كورنواليس بعد الغداء لأخبره بتفاصيل ما حدث ليسارع إلى الذهاب إلى القصر الملكي . وفي غضون ذلك طرق سمعنا أن الملك قد استدعى رئيس المجلس وأمره بدعوة المجلس إلى الانعقاد في الرابعة من عصر ذات اليوم . بعد ذلك ذهبت إلى البيت ، وبسبب ما شعرته من إرهاق رحت أغط في نوم عميق استفقت منه في السادسة مساءً لأتساءل بحيرة ، وفكر مشوش تماماً ، ما إذا كان الوقت ليلاً أم نهاراً ، وعن سبب استلقائي فوق الأريكة وأنا بكامل قيافتي ! ثم تذكرت كل شيء ، فسارعت إلى

الهاتف وكلمت أمين سر المجلس متسائلة ما إذا كان المجلس مجتمعاً . كلا ! لم يكتمل النصاب ! ثم علمت بعد ذلك أن النصاب كان بإمكانه أن يكتمل لعقد الجلسة ، إلا أن ياسين الهاشمي كان يقنع النواب بالبقاء في الردهات وعدم التوجه إلى قاعة الاجتماع لعقد الجلسة .

ثم جاء كورنواليس ليخبرني بتفاصيل ما حدث . كان قد ذهب إلى القصر لمقابلة الملك حيث التقى السير هنري في الرابعة . وقد قام الأخير بإبلاغ جلالة الملك بضرورة قيام مجلس الوزراء بإصدار قانون في السابعة من صباح اليوم التالي يتم بموجبه تخويل الملك بحل البرلمان ، وهو إجراء لابد لجلالته من اتخاذه ، وهو إجراء سنكون نحن على أتم أستعداد لدعمه . بدا الملك ممتناً لهذا الموقف ، وأعلن موافقته على كل ما أبلغه به المندوب السامي . وقد بين كورنواليس بأنه لن يعلق آمالاً كبيرة على تحقق أي انفراج لا سيما في ضوء عدم اكتمال النصاب عصر ذلك اليوم .

بعد العشاء اتصلت بأمين سر المجلس الذي أخبرني بدوره بأن محسن بك السعدون قد دعا المجلس إلى الاجتماع في العاشرة من مساء اليوم ذاته ، وبأنه يقوم بالتعاون مع جعفر باشا على بذل كل الجهود الممكنة لدفع النواب إلى الاجتماع ، وقد اتفقت معه على وجوب قيامه بعد الساعة العاشرة بإعلامي بتطور الأمور . إلا أنني لم أستلم أي خبر . وبعد العاشرة والنصف بقليل زارني كورنواليس فأخبرته بأنني على استعداد للاتصال هاتفياً بأمين السر مرة أخرى للاستفسار منه عن الوضع ، إلا أنني لم أجد الإجراء هذا مجدياً في الوقت الذي بات واضحاً أن النصاب لم يكتمل ، وأن المجلس قد أضجره الإلحاح . إثر ذلك جلسنا أنا وكين نتأمل المستقبل لوهلة . وبعد انصرافه جلست أفكر في الأمر . لقد انتهى كل شيء! ياله من عمل أحمق . وما هي إلا لحظات حتى رن جرس الهاتف وإذا به كورنواليس! صاح قائلاً بشيء من الانفعال : أتدرين ما حدث ؟ لقد تم التصديق على المعاهدة !! لابد لك أن تفهم ، يا أبي العزيز ، واقع أنني لم أكد أصدق ما سمعت ! وبعد حديثي مع كورنواليس ، رن جرس الهاتف مرة أخرى وإذا به النقيب هولت الذي أفادني بنفس الخبر نقلاً عن السير هنري ذاته(٤) .

---

(٤) في محضر الحديث عن المعاهدة ، لابد من التطرق إلى الموقف المحرج للملك الذي كان في الواقع بين نارين : كان يميل إلى المعاهدة من جانب بسبب انصرافها إلى تحديد أسس العلاقة التي تربط العراق ببريطانيا وفق الاتفاق الذي تم بينه وبين وزير المستعمرات في شباط من عام ١٩٢١ ، وكان يعارضها من جانب آخر==

بعد ذلك ، استسلمت إلى النوم مشوشة الفكر ، و بحيرة من الأمر كله . وفي اليوم التالي سمعت تفاصيل الرواية بأكملها من نوري باشا ؛ عندما اجتمع المجلس عصر يوم أمس حاول أحد الشيوخ الخبثاء إقناع النواب بعدم الحضور بينما وقف ياسين وسط قاعة الاجتماع ليحول دون حصول النصاب القانوني الأمر الذي ترتب عليه تأجيل الاجتماع إلى العاشرة مساءً . وفي غضون ذلك شهدت أرجاء المدينة جهوداً محمومة استهدفت البحث عن النواب . وقد انطلق مدير الشرطة (شقيق جعفر)(٥) بصحبة أحد مرافقي جلالة الملك ، في مهمة انصرفت إلى جمع النواب بالسيارات ونقلهم إلى مقر الاجتماع - أجل ! جمعهم بصرف النظر عن مواقفهم ، أي الموالين منهم والمعارضين وغير الموالين على حد سواء . ولم يعمد الوزراء إلى الجلوس في أماكنهم المخصصة لهم في المجلس ، بل انتشروا بين أفراد المجموعة المؤيدة للمعاهدة من باب تشجيعهم ودعم موقفهم . وقد قام عبد المحسن السعدون باللجوء إلى كل ما من شأنه أن يحول دون تحقيق التصديق (إن ما يريده السعدون هو العودة إلى الانتداب) . وكان قد اتفق مسبقاً على قيامه بطرح قرار الحكومة أولاً ، ولكن عندما حان الوقت للقيام بذلك فإنه عمد إلى طرح قرار ياسين الذي يطالب فيه بإجراء التعديلات على نصوص المعاهدة قبل إقرارها . وعند ذلك انتصب نوري واقفاً مبيناً بوضوح أن التصديق على

== لأنها تضمنت شروطاً قاسية تحول دون تمكن العراق من بلوغ أهدافه الوطنية بالسرعة الممكنة ، الأمر الذي يجعل من فرضها في بداية حكمه أمراً يحول بدوره دون جمع قلوب العراقيين حول عرشه ، ذلك لأن المعاهدة كانت في الواقع ذات الانتداب الذي عارضه العراقيون معارضة شديدة . وكان من شأن هذا الوضع أن يدفع بالملك فيصل إلى السعي نحو جعل هذه المعاهدة خطوة تتبعها خطوات لاحقة وذلك من باب إزالة ما تثيره من مرارة . وقد قام فعلاً بتشجيع المعارضة على مناهضة المعاهدة كيما تفهم الحكومة البريطانية بأن قبول المعاهدة من غير معارضة دليل على قبولها من قبل العراقيين . ومن أجل النظر في الموضوع بكل أبعاده أقترح على القارئ الكريم الرجوع إلى المصادر التالية :

١- فيليب ايرلاند ، «العراق» - لندن - ١٩٣٧

٢- هاري سندرس ، «عشرة آلاف ليلة وليلة» - لندن - ١٩٧٣

٣- عبد الرزاق الحسني ، «تاريخ الوزارات العراقية» - المجلد الأول - بيروت ١٩٧٨

٤- الأستاذ الدكتور محمد مظفر الأدهمي ، «المجلس التأسيسي العراقي» - رسالة جامعية .

٥- سامي عبد الحافظ القيسي ، «ياسين الهاشمي ودوره» - رسالة جامعية - المترجم

(٥) إنه تحسين العسكري الذي كان يشغل منصب مدير الشرطة العام - المترجم

قرار ياسين يعني رفض المعاهدة ليس إلا . وكاد يتوقف قلبه عن النبض قلقاً أثناء عملية عد الأصوات . ثم أعلنت النتيجة وهُزم ياسين بأغلبية عشرين صوتاً – فقد أيد قراره أربعة وعشرون نائباً وعارضه أربعة وأربعون آخرون ، أو ما يقرب من هذا العدد . كما كان قد أتفق أيضاً على أن يقف النواب من كلا المجموعتين معاً ويبقون وقوفاً أثناء تدوين أسمائهم . ومرة أخرى نقض عبد المحسن الاتفاق ؛ فقد طلب من كل نائب الإعلان عن صوته جهاراً الأمر الذي أجبر كلاً منهم على الوقوف أمام عيون الحضور والمراقبين الموجودين في الشرفات المخصصة للمستمعين والتي عجت بالمحامين وغيرهم من المشاغبين «ملاعين الوالدين» (على حد تعبير نوري باشا) الذين راحت نيران نظراتهم الحادة تثقب ظهور النواب . إن الذين صوتوا ضد قرار ياسين قد صوتوا في الواقع لصالحنا ، ومع ذلك كانت الممارسة محض محنة ومعاناة شديدة ليس إلا . وفي الجولة الثانية من التصويت فزنا بأغلبية أحد عشر صوتاً فقط ، إذ أن ثمانية من أصل الأربعين الذين كانوا قد صوتوا لصالحنا في الجولة الأولى أعلنوا بأن لا رأي لديهم (أي انهم امتنعوا عن التصويت) وكان الحاج ناجي من بينهم !! إنني لعلى ثقة تامة بأن شعور هذا الصديق الحبيب كان أشبه بشعور القديس بطرس(٦) .»

بيد أن ما توقعته جيرتروود من سياقات لاحقة لم يأت منسجماً مع واقع الأحداث . ترى هل كان بإمكان أحد أن يخرج آنذاك بتوقع صحيح؟ وفيما يتعلق بموقف ياسين ومؤيديه قالت جيرتروود : «إن ياسين وجماعته سيتوارون عن الأنظار لوهلة على ما أتصور .»

ثم تواصل كتابة رسالتها الأخيرة هذه لتقول : «لقد أعلن كل المساكين الذين صوتوا

---

(٦) التشبيه مستوحى من العهد الجديد (لوقا ٣٤/٢٢ – ٦٢) : قال بطرس : «يارب إني مستعد أن أمضي معك حتى إلى السجن أو إلى الموت» . فقال «أقول لك يابطرس لا يصيح الديك اليوم قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفني .» ولما أخذوا المسيح عليه السلام إلى بيت رئيس الكهنة تبعه بطرس من بعيد ، ولما أضرموا النار وسط الدار وجلسوا معاً جلس بطرس بينهم . فرأته جارية تجلس عند النار فتفرست فيه وقالت وهذا كان معه فأنكره قائلاً لست أعرفه يا امرأة . وبعد قليل رآه آخر وقال وأنت منهم فقال بطرس يا إنسان لست أنا . ولما مضى نحو ساعة واحدة أكد آخر قائلاً بالحق أن هذا أيضاً كان معه لأنه جليلي أيضاً فقال بطرس يا إنسان لست أعرف ما تقول . وفي الحال بينما هو يتكلم صاح الديك . فالتفت الرب ونظر إلى بطرس فتذكر بطرس كلام الرب كيف قال له إنك قبل أن يصيح الديك تنكر ثلاث مرات . فخرج بطرس إلى الخارج وبكى بكاءً مراً .» ومثلما اعترى الخوف بطرس ، فإنه اعترى الحاج ناجي كذلك ، على حد تعبير الآنسة بيل ، وأجبره على اتخاذ ما اتخذه من موقف – المترجم

لصالح التصديق على الاتفاقية بأنهم لا يجرؤون على الذهاب إلى بيوتهم خشية وقوعهم ضحية عمليات الاغتيال . وبذلك تعين تكليف شرطي أو شرطين لمرافقة كل منهم إلى داره . وقد عمد نوري إلى اصطحاب الشيخ مظهر بن الحاج صكب بسيارته الخاصة ونقله إلى الدار . وفي أثناء رحلة السيارة أخرج نوري قنبلة (يدوية) كان يحتفظ بها في جيبه على ما بدا وقال يخاطب الشيخ : انظر إن من شأن هذا السلاح قتل مائتي شخص مرة واحدة . وكان من شأن هذه المبادرة أن تخفف من روع الشيخ وتدخل الطمأنينة إلى نفسه . ولو قدر لي أن أكون في موقف هذا الشيخ المسكين لتولد لدي شعور مغاير تماماً وأنا أركب سيارة ترتج وتتهزهز ذات اليمين وذات الشمال»

ثم تنتهي رسالتها بالملاحظة التالية : «بعد وصولهم إلى بيوتهم تحت حماية الشرطة ، أفاق النواب من نومهم في اليوم التالي ليجدوا أنفسهم أبطالاً . ويقول نوري بهذا الصدد أنه لم يسبق له أن يشهد هذا العدد الكبير من الناس الذين زاروه ليخبروه بأنه كان أسداً هصوراً .»

١٩٢٤

كان العديد من أصدقاء الآنسة بيل وزملائها قد ذهبوا لقضاء إجازاتهم السنوية بما فيهم عائلة ولسون، وعائلة بوردليون، وكورنواليس. وبعد فترة قصيرة ذهب السير هنري هو الآخر لقضاء إجازته السنوية، وبذلك تولى نايجل دايفدسون مهام المندوب السامي وكالة، وانتقل للسكن في دار الاعتماد.

وبعد أن تم أخيراً التصديق على المعاهدة في منتصف ليلة اليوم الأخير المحدد للمفاوضات حولها؛ انتهت بدورها عملية المساومات التي كانت تستهدف تحقيق أفضل الشروط، كما تم إقرار قانون الدستور بالإجماع، ومن غير أي تعديل جوهري على نصوصه، وهو التشريع الذي يؤول بموجبه تاج نظام الحكم الملكي الدستوري إلى فيصل وذريته. ويعكس هذا الإجماع صورة رائعة لمجلس ضم عناصر وطنية متطرفة، وممثلين أكراد، ومعارضين شيعة لا يمكن تحقيق التوفيق والوئام بينهم.

وفي السابع عشر من شهر حزيران كتبت جيرتروود قائلة: « ألم يكن التصديق على المعاهدة بمثابة نعمة إلهية؟ لا زلت تحت وطأة ذلك الإحساس بالراحة، بكل ما يشوبه من حيرة، إلا أنه يبدو أكثر حقيقة كل يوم. ولقد كان لهذا الإنجاز أثره البالغ على كورنواليس الذي كُتب له أن ينطلق للتمتع بإجازته وسط هالة من المجد، فقد عمل بجد وإخلاص مداخلات متناهين في سبيل تحقيق هذا الهدف. فلو قُدر أن يكون الفشل نصيبه، لشكل ذلك نتيجة ما كان بمقدوري تحمل وطأتها، ولا وطأة ما كان يمكن أن يترتب عليها من تبعات. فضلاً عن ذلك، أشعر بانسجام تام في العمل مع نايجل دايفدسون الذي يعاملني برقة ومودة، وهكذا الحال مع السير هنري أيضاً.

الحر لا يطاق! ومن المتوقع أن يزداد الطقس حرارة - ياله من وضع مثبط للعزائم! إلا أنني وجدت سبيلاً للخلاص منه، وهو القيام بممارسة تمارين رياضية لمدة ربع ساعة من الزمن مباشرة بعد الاستفاقة من النوم. إنها ممارسة يعود الفضل فيها إلى العزيز كين (كورنواليس) وبذلك يتضمن برنامجي الصباحي النهوض في الخامسة والنصف وممارسة التمارين الرياضية لمدة خمس عشرة دقيقة، تليها فترة عشرين دقيقة تتضمن الانطلاق إلى الحديقة لقطف الأزهار وترتيبها في داخل البيت، ثم فترة خمس وعشرين دقيقة أخرى لتغيير ملابسي والتهيؤ للمغادرة، تعقبها خمس عشرة دقيقة لمراجعة حسابات الدار. وفي

الساعة السابعة تماماً أدخل مكتبي لأباشر عملي اليومي .»

وفي رسالتها المؤرخة في الثامن عشر من شهر حزيران تشير جيرتروود مرة أخرى إلى المعاهدة لتقول : «هناك فقرة حمقاء لا معنى لها بالمرة تم إضافتها إلى المعاهدة بطلب من نواب الموصل ، والتي مفادها أن المعاهدة تعتبر لاغية وباطلة في حال إخفاقنا في حماية حقوق العراق في الموصل . كان من المحتمل جداً أن تعترض حكومة جلالة الملك على هذه الإضافة التي كان قد أُرسل نصها برقياً إلى لندن . وكان السير هنري يتحرق شوقاً إلى معرفة رد فعل الحكومة هناك إزاءها . إلا أننا لم نستلم أي جواب مباشر . وقد لا تصدقني يا أبتاه عندما أقول لك إن الجواب لم يردنا إلا بتاريخ السابع عشر من الشهر ! ولقد عشنا خلال الفترة وضعاً غير مريح بالمرة ، لاسيما بعد أن بدأت الصحافة المحلية تثير الشكوك حول موافقة حكومة جلالة الملك على التصديق على المعاهدة . وإزاء ذلك راح النواب الذين أيدوا التصديق على المعاهدة يتوافدون على مكتبي وهم يشعرون بقلق شديد (بسبب هذا التأخير) . وإزاء ذلك ، لم يكن لدي من سبيل سوى التذرع بأوهى الأعذار كحلول فترة عيد الفصح مما حال دون تمكن حكومة جلالة الملك من النظر في الأمر . وعندما وصل الجواب أخيراً فإنه لم يكن أكثر من تلميح عابر يفيد بأن حكومة جلالة الملك قد وافقت على القرار ، إلا أن الغريب في الأمر هو أن الجواب لم يتضمن عبارة شكر واحدة ، أو حتى تهنئة ، موجهتين إلى السير هنري الذي كان قد اضطر إلى اتخاذ قرارات خطيرة كان من شأنها أن تسفر عن نتائج مفرحة ، وأن تعود بالخير على الحكومة سالفة الذكر . إنه مستاء جداً من هذا التصرف .

أتوقع أن يُضطر جعفر إلى توزير ياسين في حال وافق الأخير على الاشتراك في الحكومة . إن ياسين قوة ينبغي أخذها بعين الاعتبار . وعلى الرغم من أن هذه القوة تقوم أساساً على دعم العناصر المتطرفة له ، إلا أن وجود ياسين داخل صفوف الحكومة يعتبر أقل خطورة من بقائه خارجها . وكان قد عقد النية على دعم المعاهدة ، وعلى مدى أسبوع من زمن كرس جهوده بهذا الاتجاه . إلا أن إدراكه بعدم قدرته على الحفاظ على وحدة صف حزبه في حال تواصله على هذا النهج أجبره على تغيير موقفه ، ومعارضة المعاهدة على الرغم من قناعته التامة بأن التوجه هذا لن يؤدي إلى غير الكارثة . ولابد لك أن تدرك واقع أنهم (الساسة العراقيين) لا يؤمنون بوجوب رحيلنا عن البلاد الأمر الذي لا يجعل من أمر رفض المعاهدة جانباً ينذر بالخطر .»

في رسالتها المؤرخة في الثاني من شهر تموز ، تتحدث الآنسة بيل عن زيارة قامت بها

إلى بيت صديقها الحاج ناجي قائلة : «امتطيت صهوة حصاني وتوجهت لزيارة الحاج ناجي الذي بدا محرجاً بشكل يثير العطف وذلك بسبب ما اعتراه من خوف وحيرة الأمر الذي دفع به إلى الامتناع عن التصويت لصالح إقرار المعاهدة . وقد بين لي بخجل شديد أن ثلة من رجال الشرطة جرته من فراشه رغم أنفه ، واقتادته في سيارة الأمر الذي جعله يتساءل ما إذا كان يُقتاد إلى المشنقة . وإزاء هذا الحال ، ما كان مني سوى التخفيف عنه ، وتطمينه ، واعدة إياه بزيارة أخرى أتناول فيها طعام العشاء فوق سطح داره عندما يصبح القمر بدراً .»

وفي التاسع من تموز كتبت قائلة : «كان لي حديث طويل مع الملك يوم السبت المنصرم دار معظمه حول فلسطين وشرق الأردن حيث استعرضنا وضع الأمير عبد الله والفوضى التي تشهدها فلسطين . إن المسلمين (في فلسطين)قد سئموا المعارضة التي لم يجدوها مجدية ، وهم يتساءلون ما إذا كان بإمكان فيصل أن يلعب دور الوسيط (من أجل حل مشكلتهم) في حال طلبوا منه القيام بذلك . إنه بالتأكيد على استعداد للقيام بذلك . وقد تجد حكومة جلالة الملك تدخله في الموضوع مبادرة ملائمة . ويرى فيصل احتمال تنصيب أخيه زيد أميراً (على فلسطين) والتوصل مع الصهاينة إلى حل وسط[1] . وقد أشرت عليه بضرورة التريث وانتظار ما ستشهده الساحة من تطورات .

كانت حكومة جعفر في النزع الأخير ، الأمر الذي دفع بالسير هنري إلى اتخاذ ما يلزم من أجل ضمان ولادة حكومة جديدة تخلفها . إن ياسين باشا هو المرشح الجديد لتبوّئ هذا المنصب ، فهو أفضل الموجودين على الساحة هنا من الناحية الفكرية . ومع ذلك فإنني أنظر إلى تبوئه منصب الرئاسة بارتياب شديد ، إلا أن عزائي يكمن في حكمة السير هنري الذي يرى الأمور ويقيمها بشكل أفضل مني بكثير . إنه يرى في مجيء ياسين الخيار الأفضل .»

وفي رسالتها المؤرخة في السادس عشر من تموز تقول : « كان نوري باشا في رحلة خارج العراق زار من خلالها فلسطين ومصر . وقد أخبرني بما لمسه من تدهور كبير في الجوانب الإدارية بسبب رحيل عدد كبير من المسؤولين البريطانيين . لقد عم الفساد كل مكان . أما الفرنسيون فإنهم يتباهون ويتفاخرون بإصدار دستور جديد لسوريا المتحدة . إنه محض دجل وكلام فارغ ليس إلا ؛ فقد وحدوا دمشق وحلب ، ووضعوا الساحل السوري بأكمله ، بما في ذلك بيروت ولبنان ، تحت الإدارة الفرنسية المباشرة ليتمكنوا في كل الأحوال من بسط

(١) لا يشير أي من المصادر المتوافرة لدي إلى وجود مثل هذا التوجه ، كما أن صاحب السمو الملكي الأمير رعد بن زيد ليس على علم بالأمر ، وهو ما أكده لي في لقاء خاص مع سموه - المترجم

سيطرتهم على الدولة العربية التي يفترض أن تحكم ذاتها . إلا أنها لن تحكم ذاتها ، ولا يوجد من بإمكانه أن ينخدع بمثل هذا الادعاء ولو للحظة واحدة .»

وفي رسالتها المؤرخة في الثالث والعشرين من تموز تتحدث جيرتروود عن صحة الملك فيصل قائلة : « إن صحة الملك ليست على ما يرام ، وينصحه الأطباء بضرورة السفر لبضعة أسابيع . وفي حال سافر الملك سيعم الركود والجمود أجواء عملنا هنا ، إلا أن ذلك لن يخلو من فائدة إذا ما أدركنا أنه يواصل اتصالاته بغير اللائقين من الأشخاص . وبغياب كورنواليس في إجازة لا يوجد من يراقب نشاطاته وتحركاته . سوف أشعر بالراحة عند رحيله ، ولكني سأواصل زياراتي له حتى يحين ذلك الموعد . إن توعك صحته يعطي المرء مبرراً لزيارته .»

وفي الثلاثين من تموز كتبت تقول : «الأمور على ما يرام في السليمانية . لقد غدا الشيخ محمود أخيراً عاجزاً عن مواصلة التمرد ، وقد تمكنت قوات الخيالة العراقية من دخول مدينة السليمانية من غير مقاومة ، إلا أنه لا يزال يتمتع بدعم من لدن قوة قوامها مائتان من أفراد الدرك الذين يرابطون معه في ملجئه في المناطق الجبلية . ويعمد هؤلاء الأكراد إلى التسلل ليلاً إلى المدينة ، الأمر الذي أنهك أفراد قوات الخيالة العراقية لاضطرارهم إلى القيام بأعمال الدوريات ليلاً ونهاراً من غير انقطاع . ومع ذلك فإن تصرف أفراد هذه القوات كان مثالياً . ومن المتوقع أن يسلك الشيخ محمود طريقه إلى تركيا ، ولعله سيفلح في مسعاه هذا ، إذ أن من الصعب جداً تعقب رجل وإلقاء القبض عليه وسط هذه المنطقة الجبلية التي تتميز بمسالكها الوعرة . ويعتبر هروبه هذا من وجهة نظرنا الحل الأمثل ، اللهم إلا باستثناء موته . أنك في واقع الحال لا تعرف ما الذي ينبغي عليك اتخاذه من إجراءات إزاء رجل كالشيخ محمود ، فما أن تتمكن من إلقاء القبض عليه حتى تجد نفسك إزاء سيل عارم من الاستدعاءات التي تناشدك بالإفراج عنه ، وتأتي هذه الاستدعاءات حتى من أفراد لا يكنون له أي شعور بالود ، ولكنهم يقومون بذلك تحسباً لما قد يجابهون من مصائب وأعمال انتقامية على يده بعد أن يتم الإفراج عنه»

***

تتناول الآنسة بيل في رسالتها المؤرخة في الخامس من شهر آب موضوعي حل المجلس التأسيسي وتشكيل الحكومة الهاشمية (نسبة إلى ياسين الهاشمي) الأولى . «كان الأسبوع

المنصرم حافلاً بالأحداث ، فبعد أن أقر المجلس التأسيسي قانون الانتخاب الجديد تم حله . ومن جانب آخر تشكلت الحكومة الجديدة برئاسة ياسين باشا الهاشمي الذي تولى كذلك حقيبة الدفاع وكالة[٢] الأمر الذي يمثل نقطة الضعف في هذه الحكومة . لقد أُخفق في التوصل إلى اتفاق حول من بإمكانه تولي منصب وزير الدفاع . لقد واجهت رغبة الملك في قيام نوري باشا بتولي هذا المنصب رفضاً من قبل الآخرين ، الأمر الذي اضطر الملك إلى القبول بحل وسط تم بموجبه استحداث منصب نائب القائد العام للقوات المسلحة وإناطة مسؤوليته بنوري باشا . وقد استهدف من هذا الإجراء منع ياسين باشا من الاتصال المباشر بالجيش ، الأمر الذي يعني أن التعامل مع كل ما له علاقة بالجيش يتم من خلال نوري باشا . قد يبدو الإجراء هذا سليماً من الناحية النظرية ، أما الناحية العملية فأمر مختلف تماماً . بإمكاني تصور كيف سيحاول المعنيون تجاوز نوري باشا والوصول إلى الوزير شخصياً وذلك فيما يتعلق بما يرغبون من أعمال .

زارني في مكتبي صباح يوم الاثنين كل من ياسين باشا وساسون أفندي . وأثناء مصافحته لي ، قال ياسين أن حكومته تطلب مساعدتي بشكل خاص . وإزاء ذلك أجبته قائلة إن كل حكومة يعينها الملك ، ويوافق عليها المندوب السامي ، لها كل الحق في طلب مساعدتي . وعند انصرافهما من مكتبي أكد ياسين مرة أخرى على طلبه بجد وصدق . وقد قمت بدوري بتوجيه رسالة له مؤكدة بأنه سيلقى مني كل عون ودعم ، ولكنني تفاديت في الحين ذاته إضافة عبارة ومراقبة دقيقة كذلك !

إن جريدة الاستقلال ، التي كان جعفر قد أغلقها أثناء فترة الاضطرابات التي واكبت مناقشة المعاهدة ، قد حققت وثبة إلى عالم الوجود يوم أمس لتنشر مقالاً حماسياً هاجمت من خلاله حكومة جعفر باشا باعتبارها حكومة طاغية . وجدير بالذكر أن كلاً من صاحب

---

(٢) تجدر الإشارة هنا إلى أن توقع الآنسة بيل (يرجى الرجوع إلى رسالتها المؤرخة في ١٩٥٤/٧/٩) بسقوط وزارة العسكري لم يتحقق بالضبط في حينه ، فقد ظلت الوزارة قائمة حتى أتم المجلس التاسيسي المهام الثلاث التي كان قد دعي أساساً للبت فيها ، أي تصديق المعاهدة ، وسن الدستور ، وسن قانون الانتخاب . وفي الثاني من آب انفض المجلس ، وقدم العسكري استقالته التي قبلها الملك الذي قام بدوره باستدعاء ياسين باشا لتشكيل الوزارة الجديدة . إنها الوزارة التي ضمت كلاً من عبد المحسن السعدون وزيراً للداخلية وساسون حسقيل وزيراً للمالية ، ورشيد عالي الكيلاني وزيراً للعدلية ، ومزاحم الأمين الباجه جي وزيراً للأشغال والمواصلات ، وإبراهيم الحيدري وزيراً للأوقاف ، والشيخ محمد رضا الشبيبي وزيراً للمعارف– المترجم

الجريدة ، وكاتب المقال الافتتاحي فيها ، هما الآن من بين صنائع ياسين ، ومن المؤكد جداً أن كل ما تنشره هذه الجريدة يحظى بموافقة ياسين على أقل تقدير ، إن لم يكن في الواقع بوحي منه .»

وفي السادس من شهر آب كتبت تقول : « أتوجه إلى الرب بالشكر على قيامي بالانتهاء من تقريري السنوي الموجه إلى عصبة الأمم ، أو بالأحرى تقرير المندوب السامي الذي أقوم أنا بإعداده . إنني في الواقع أقوم بإعداد الجزء الخاص بالمندوب السامي ، فضلاً عن التقرير الخاص بوزارة الداخلية التي لا تقل معرفتي بتفاصيل أعمالها ونشاطاتها عن أي مسؤول آخر فيها . إن مقدار ما أعرف من معلومات لا يخفق في الواقع أبداً في إثارة دهشتي .

هل لك أن تدرك (يا أبتاه) أنني قد تحولت إلى شخص يعيش في عزلة تامة نتيجة الأشهر التي كدت أعيش من خلالها بمفردي تماماً ، إلا أنني أتناول طعام الغداء مع نايجل في دار الاعتماد ، وهو جانب يروق لكلينا إذ أنه يتيح الفرصة لنا لمناقشة أخبار اليوم .»

وفي العشرين من شهر آب كتبت تقول : «تناولت مساء يوم الاثنين طعام العشاء على مائدة جلالة الملك التي ضمت أفراد العائلة بما فيهم الأمير زيد . وكان سندباد[٣] قد جاء للسلام على جلالته الذي طلب منه البقاء لتناول العشاء ، معنا فكانت مناسبة سعيدة لأنني أحبه كثيراً لما يتميز به من طيبة القلب وحلاوة المعشر . وقد تناول حديث الملك معي أوضاع إمارة شرق الأردن والأمير عبد الله بن الحسين ، وقرار حكومة جلالة الملك بممارسة السيطرة على الجوانب المالية للإمارة .

أطلعني نايجل دايفدسون اليوم على مقال نشرته جريدة ويستمنستر the Westminister Gazette بعددها الصادر في ١٩٢٤/٧/٢٨ مستندة فيه على معلومات وردتها من «مسؤول رفيع» على حد تعبيرها ، والذي هو قلبي على ما أعتقد . لقد تناول المقال قصة السيد طالب النقيب ، واتهمنا بفرض فيصل على العراق ، وترهيب المجلس التأسيسي عبر قيامنا بمنع النواب المعارضين من حضور جلساته عن طريق تطويق مبنى المجلس بقوات ضمت عناصر

(٣) هو الدكتور هاري سندرسن ، طبيب الملك الخاص (والذي أصبح بعد ذلك سندرسن باشا بعد ترفيعه إلى رتبة لواء في الجيش البريطاني) . ولقد لقبته الآنسة جيرتروود بعبارة سندباد لأن الأحرف الأربعة الأولى من اسمه الأصل Sind تتماثل مع نظيراتها في اسم سندباد والتي هي الأخرى Sind أيضاً = Sinderson - Sindbad - المترجم.

من الجيش والشرطة ، وإجبار الأعضاء على إقرار ما أردنا منهم إقراره . وقد طلبت من نايجل دايفدسون الموافقة على قيامي بمخاطبة صديقي السيد الفريد سبيندر Mr. Alfred Spender ، الذي تربطه علاقة وثيقة بالجريدة آنفة الذكر ، وذلك عبر رسالة مكتومة أشرح فيها حقيقة التفاصيل المتعلقة بما طرحه المقال من جوانب . ويرى نايجل دايفدسون أنني قد أحسنت في عرض وقائع الموضوع كما ينبغي . كان التعبير عن آرائنا أمراً يريح البال ويثلج الصدر .

يعيش الملك لحظات إثارة مشوبة بالقلق إثر موافقة والده الملك حسين على السماح للأمير غازي ، الابن الوحيد للملك فيصل ، بالتوجه إلى العراق بعد أن كان قد أبقاه في مكة طيلة هذه الفترة . ولقد وصل الصبي - البالغ الثانية عشرة من عمره - إلى عمان ، وسيقوم جلالته بإيفاد عبد المحسن بك السعدون إلى عمان لاصطحاب الأمير الشاب إلى بغداد .»

وفي الثالث من شهر أيلول كتبت إلى أبيها تعتذر عن رداءة رسالتها السابقة ، وهو جانب من المحتمل أن يعود إلى ما عانته من إرهاق بسبب شدة حرارة الجو ، وتشير المصادر إلى أن صيف عام ١٩٢٤ كان حاراً بشكل لا يطاق . وبهذا الصدد تقول : «كنت في وضع سيئ عندما كتبت رسالتي الأخيرة ، إلا أن سرعتي في استعادة عافيتي ونشاطي أثارت عجب الدكتور سندرسون . ولابد من القول أن ما شهده الطقس من تحسن كان له دوره الفاعل في استعادة نشاطي . وفي هذا الصدد ، آمل أن نكون قد عشنا الجانب الأسوأ من الطقس الحار وانتهينا منه . كان صيفاً مرهقاً وشاقاً إلى أبعد الحدود ، ولقد تواصل دوامي في المكتب بشكل منتظم على مدى الثلاثة أيام المنصرمة ، وقد تمكنت من القيام بكل واجباتي خلال فترة الساعات الست الممتدة بين السابعة صباحاً والواحدة والنصف ظهراً من غير الشعور بالإرهاق .

لا يوجد ما يجدر بي ذكره باستثناء المكائد والمؤامرات البغيضة ، والتي لا أرغب في كتابة تفاصيلها بالأساس ، فالعقيد سليتر يتعمد عرقلة مساق السياسة التي يتعين على نايجل دايفدسون تنفيذها . كما أن الملك بدوره غاضب جداً . إنه يتجاوب معنا بشكل جيد ، ومع ذلك يجد نفسه إزاء معارضة شديدة في كل المجالات وذلك من قبل الحكومة ، وهي معارضة يغذيها العقيد سليتر ويعمد إلى التأكيد على تواصلها . إنني متعاطفة مع نايجل الذي يعاني من مضايقات سليتر ، إلا أنه يتعامل معها بهدوء وحكمة ومسؤولية . إنه في غاية الرقة والكياسة معي ، ويحاول ، على ما أرى ، أن يجعلني موضع أسراره ، إذ لا يمكنه التحدث مع غيري في أمور كهذه .

أما الجوانب الأخرى التي تثير الاهتمام فهي كما يلي :

أولا - وافقت كلية باليول (في جامعة أوكسفورد) على السماح للأمير زيد بالدراسة فيها وفق منهج خاص يقوم بإعداده عميد الكلية . آمل أن يتم تحقيق ذلك ، ولكنني أخشى من إصرار والده ، الملك حسين على رفض السماح له بالذهاب لأسباب أُخفق تماماً في إدراكها . وفي حال أصر الملك حسين على موقفه ، لن يجرؤ زيد على معارضته .

ثانياً - تصر وزارة المستعمرات على وجوب قيامنا بإرسال تقرير سنوي تقويمي إلى عصبة الأمم بدلاً من التقارير التي تغطي السنوات المالية . وهكذا يتعين علي بذل المزيد من الجهد والعمل لتغطية جوانب ونشاطات تتعلق بتسعة أشهر أخرى بعد أن ظننت بأنني قد انتهيت من إعداد ما يلزم من تقارير . فضلاً عن ذلك ، ينبغي لهذه التقارير أن تظهر بطريقة روتينية ، لكي تحاكي التقارير التي يتم إعدادها في فلسطين ، باستثناء الحديث عن الصهيونية بطبيعة الحال . وعندما اطلعت على النقاط التي يستعرضها آخر تقرير (من فلسطين) وجدت أنها تشمل جوانب قليلة الأهمية كالزيادة المطردة التي تشهدها زراعة التبغ . ترى ما أهمية هذه الجوانب إذا ما قورنت بما لدينا من أمور مثل المجتهدين ، المجلس التأسيسي ، تضارب الولاءات ، وصراع الأعراق والعقائد؟ هل لدى فلسطين جوانب كتلك التي ذكرت؟ وبقدر تعلق الأمر بزراعة التبغ يؤسفني القول أن تحركات الشيخ محمود ومكائده قد أدت إلى هبوط في إنتاج التبغ . وفي معرض كلامي عن التقارير ، لابد لي من القول أن لعصبة الأمم اهتماماً كبيراً على ما يبدو في مجال الأمراض الزهرية ! علينا الالتزام بالحذر الشديد في مجال قيامنا بإعداد تقارير تتعلق بهذا المجال!

لا أستطيع وصف ما يتمتع به الدكتور سندرسن من رقة ومشاعر إنسانية نبيلة ، فهو بالنسبة لي أحد ملائكة الرحمة .كان يأتي لزيارتي ، والاطمئنان على صحتي ، بمعدل مرتين في اليوم الواحد أثناء فترة مرضي .(لم أكن أعاني من مرض شديد بشكل . خاص ، إلا أن توعك صحتي قد تزامن مع موجة الحر الشديد .) وكان يرفض تقاضي أي أجر على زياراته لي . لا أعلم ما ينبغي له عمله إزاء هذا اللطف المتناهي . فهل لك ، يا أبتاه ، أن تختار له هدية مناسبة عند عودتك إلى إنجلترا كعلبة للعدد الطبية ، على سبيل المثال ، أو شيء من هذا القبيل؟ إنني بالتأكيد قد أخبرتك عن فرح الحاج ناجي بأدوات البستنة التي كنت قد أرسلتها له . إن امتنانه لك قد دفعه إلى إرسال عباءة لكل من الوالدة ، وإيلسا ومول . ألا تعتقد بأنه صديق حبيب ، ورجل كريم؟»

إن هذا المرض الذي دأبت جيرتروود على الاستخفاف به لم يكن في الواقع سوى

انهيار تام في صحتها ، صاحبته مضاعفات تسببتها حرارة الجو المهلكة . وأثناء زيارة قام بها نايجل دايفدسون لتفقد أحوالها ، أخبرته وهي على فراش المرض بأنها تعاني من كآبة خيمت عليها مثل سحابة سوداء ، وطلبت منه الصلاة من أجلها ! ويرى دايفدسون أن أحزانها الشخصية ، وما تعانيه من وحدة قاتلة ، إلى جانب شعورها العميق بالإحباط ، قد أسهمت كلها في منعها من الشعور بالسعادة الحقيقية . إنها حالة شاءت الأقدار أن تلازم الآنسة بيل إلى آخر يوم في حياتها .

وبحلول العاشر من شهر أيلول أصبحت على أي حال بوضع يسمح لها بالكتابة إلى ذويها بأسلوب يعكس المرح والارتياح ، فهي تقول : «يسعدني أن أخبركم بأنني قد تعافيت ، وبأنني أشعر بصحة جيدة مرة أخرى ، وبأن الطقس قد تحسن كثيراً بعد أن أصبح أقل حرارة عما كان عليه قبل . وفي غضون ذلك شهد العالم العربي حركة شقلبة أخرى ، ولن تمضي فترة طويلة ، على ما أتوقع ، على تمكن الوهابيين من دخول مكة (المكرمة) وإجبار الخليفة حسين على تركها .»

ومن خلال رسالتها المؤرخة في السابع عشر من أيلول ، تتحدث الآنسة جيرتروود بيل عن قلق الملك فيصل إزاء ما يشهده الحجاز من أحداث قائلة : « إن الملك في أشد حالات القلق حول ما يجري في الحجاز . إنه والأمير زيد متفقان على أن حكومة الحجاز مسؤولة عن بعض ما تشهده المملكة من أحداث ، ولكن باعتبارهما فردين مسلمين لا يسعهما سوى الوقوف بوجه وقوع المدينة المقدسة تحت سيطرة الوهابيين . وفي غضون ذلك اعتمدت حكومة جلالة الملك (الحكومة البريطانية) سياسة لا تتميز بالحكمة اختارت بموجبها الوقوف بمنأى عما يدور في الحجاز من صراع بحجة التريث إلى حين تبلور الموقف العام لمسلمي الهند إزاء الأمر . إن ما تعرض له مسلمو الهند من وضع أثناء أدائهم مناسك الحج مؤخراً لم يكن مرضياً بالمرة . فبالإضافة إلى ما فرضته عليهم السلطات المختصة من رسوم باهظة ، فإنها أخفقت في تأمين فتح الطريق أمامهم للوصول إلى مكة (المكرمة) وإن الذين حاولوا الوصول إليها تعرضوا للنهب على يد العناصر البدوية»

ومن جانب آخر ، شهدت حدود العراق الشمالية مشاكل مرة أخرى ، وهذا ما تذكره رسالة جيرتروود المؤرخة في الرابع والعشرين من شهر أيلول والتي تقول فيها : «إننا في وضع غير مريح بالمرة بسبب عدم معرفتنا بالضبط ما إذا كنا في حالة حرب أم سلام ! فهناك ما يقرب من ثلاثة آلاف جندي من القوات التركية النظامية داخل مناطقنا الحدودية ، وهي دائبة على قتل وتشريد عناصرنا الآثورية التي وجدت نفسها مرة أخرى مجبرة على الهروب ،

وطلب اللجوء . فهناك ما يقرب من سبعة آلاف شخص منهم مشتتين في مختلف أرجاء المنطقة الجبلية بعد أن قُتل عدد كبير منهم على ما أتصور . وفي غضون ذلك لا تحرك حكومة صاحب الجلالة ساكناً ، علماً بأن المفاوضات حول مسألة الحدود تجري بهدوء في مدينة جنيف .

لقد تقرر أخيراً سفر الأمير زيد إلى أوكسفورد ، ومن المتوقع وصوله إلى لندن في الثامن من شهر تشرين الأول . وإذا ما كنت في لندن عند وصوله إليها ، أرجوا منك ، يا أبتاه ، زيارته . إنه سيشعر بسعادة كبيرة لهذه الزيارة . إنه إنسان عزيز ورائع ، بسيط ومعقول ، ويتمتع بخلق عال وأدب جم . ترى هل بإمكانك استضافته في راونتون أثناء عطلة أعياد الميلاد ورأس السنة؟ إنني على ثقة بأن موريس سيستلطفه كثيراً ، ويعجب به .»

وفي الثلاثين من شهر أيلول كتبت عن الأحداث التي يشهدها شمال العراق قائلة : «لا تزال رحى حربنا تدور في الشمال ، إلا أن الأتراك يركزون اهتمامهم على الآثوريين الذين على الرغم من تراجعهم في بادئ الأمر إلا أنهم يتمسكون الآن بمواقعهم بصمود . ومع ذلك فقد تم حرق كل القرى الواقعة في أقصى الشمال مما أدى إلى نزوح ستة آلاف لاجئ إلى مدينة العمادية . إنه لأمر مريع للغاية أن نضطر مرة أخرى إلى القيام بأعمال الإغاثة ، وإعادة التوطين ، لا سيما بعد أن كان قد تم لهم (الآثوريين) بناء قراهم والبدء بمزاولة تفاصيل حياتهم اليومية !

يتركنا نايجل في الثاني عشر من هذا الشهر إلى غير عودة . كان ملاكي الرحيم طوال فترة هذا الصيف . كما سيسافر السيد تشانج بيرس Mr.Channing Pearce في إجازة . وبالنظر لتواصل غياب برنارد بورديلون حتى منتصف شهر تشرين الثاني ، لا يوجد في المكتب سوى السير هنري وسكرتيره الخاص ، وأنا ، والسيد ستورجس Mr. Sturges ، وسكرتيرا الشؤون القنصلية والمالية . إنه لأمر مزعج أن يتزامن هذا الوضع مع زيارة بعض أعضاء عائلتي مما سيحول دون تفرغي لهم تفرغاً تاماً .»(٤)

وفي السابع من شهر تشرين الأول كتبت إلى والدها ، الذي لم يكن قد مر وقت طويل على عودته من رحلة كان قد قام بها إلى سيلان ، قائلة : « أمضيت وقتاً سعيداً مع الملك في

(٤) كانت جيرتروود بانتظار زيارة أختها غير الشقيقة ، إلسا ، وزوجها اللواء البحري السير هربرت رتشموند ، وابنتهما ماري ، إلى بغداد ، كما كانت تتوقع وصول السير جورج ترفليان ، أكبر أبناء أختها غير الشقيقة الثانية ، مولي ، الذي كان في طريقه لاستلام مهام عمله في جزيرة سيلان (سيرلانكا) - المترجم .

مزرعته التي وصلتها في الخامسة والنصف صباحاً بعد قضاء ليلة هانئة في القطار . وعند وصولي علمت بأن جلالته قد ذهب للصيد ، فسارعت إلى اللحاق به لننطلق بعد ذلك في تعقب أسراب الحجلان حتى الساعة التاسعة حيث توقفنا بسبب اشتداد الحر . كان الحر شديداً في الفترة بين الساعة الثانية عشرة والثالثة بعد الظهر الأمر الذي دفعني إلى طلب الراحة في الخيمة التي أعدت لي ، حيث عمدت إلى خلع ما لا يتجاوز حدود الحشمة من ملابسي ، وفتح جانبي الخيمة ، ومن ثم الاستلقاء فوق السرير ومطالعة رواية بندينس Pendennis[٥] . وبعد تناول الشاي ، انطلقنا في رحلة في السيارة ، ومن ثم على ظهور الخيل ، لتفقد الأجزاء الجنوبية الشرقية من الضيعة . وكانت القوات الروسية قد دمرت كل قرى المنطقة في عام ١٩١٧ ، الأمر الذي كاد يجعل من الضيعة أرضاً يباباً منذ ذلك التاريخ ، ومع ذلك تبقى المنطقة جميلة لا سيما بفضل وفرة المياه فيها . وتداعب مخيلة جلالته أحلام تتمحور حول زراعة القطن والقنب في هذه الضيعة التي تقع على بعد ما يقرب من عشرين ميلاً من مدينة خانقين ، وتطل على المرتفعات الفارسية . ثم تناولنا طعام العشاء تحت أنوار النجوم ، وفي أثناء ذلك أخبرني الملك عما يعانيه من شعور بالوحدة ، وعن دوام تطلعه إلى زيارة ضيعته هذه باعتبارها ملاذاً تأخذه بعيداً عن أجواء البلاط والقصر الملكيين التي تبعث على الملل ، والتي هي كل ما يمكن للعاصمة بغداد أن تقدمه له . ولولا التحاقي به ، وتسليته ، لعانى من عناء الوحدة ، ولما وجد من كان بإمكانه أن يفضي إليه بمكنونات قلبه ، ويطلعه على ما يدور في رأسه من خطط وأحلام . وإزاء ذلك شعرت بسعادة غامرة لتمكني من المجيء . لقد استمتعت بدوري بهذه الزيارة إلى أقصى الحدود ، لأنني شعرت ، تماماً كما شعر فيصل ، مثل سجين تمكن من الفرار من سجنه ، فبعد قضاء صيف طويل في بغداد كان من دواعي سروري أن أتمكن من الانطلاق إلى الريف ، والتقاء البعض من أهله ، ومشاهدة أسراب الطيور ومناظر الجبال الساحرة ، والأهم من ذلك كله التفكير في جوانب لا علاقة للسياسة بها أبداً . وبحدود العاشرة ليلاً ، تركت المزرعة لأجد القطار بانتظاري في المحطة .

كان الحدث الكبير الذي شهده يوم الأحد هو وصول سمو الأمير غازي ، الابن الوحيد للملك . كان صغير الحجم ، له استطالة وجه أبيه ، وما تميز به من حساسية ، إلى جانب

---

(٥) اسم الرواية تاريخ بندنيس للكاتب الروائي البريطاني الشهير وليام ماكبيس ثاكري W.M.Thackery مؤلف رواية عالم الزُها - Vanity Fair المترجم .

سلوك أخاذ ، ووقار مشوب بالحياء يشع جاذبية وفتنة . وقد خرجت المدينة بأسرها لاستقباله ، والترحيب بمقدمه ، وقد جاء ذلك بشكل فاق بكثير ما كان قد حظي به أبوه من ترحيب عند وصوله إلى بغداد للمرة الأولى .

وفي اليوم التالي زرت القصر الملكي لتقديم المساعدة في اختيار الملابس اللائقة للأمير غازي . وقد قررنا استدعاء خياط إنجليزي من بومباي ، وطلبنا منه جلب كل ما بحوزته من مجلات الأزياء . وقد تم لنا اختيار الأنواع المناسبة من البدلات والقمصان من بين النماذج التي جلبها معه الخياط الإنجليزي الذي بدا أشبه بإحدى شخصيات ثاكري . وعندما جاء الأمير لكي يأخذ الخياط قياس جسمه ، عكس وجهه مزيجاً من الحياء والرضا .

يشعر الملك فيصل بارتياح لتنازل والده عن العرش ، ويأمل أن يحظى أخوه الملك علي بتأييد العالم الإسلامي ورضاه . وآمل بهذا الصدد أن لا يضطر الملك حسين إلى اللجوء إلى العراق ، إذ في حال تم ذلك فإنه من المحتمل جداً أن يصبح مركز استقطاب لكل التوجهات والحركات المناهضة لبريطانيا .»

وفي الثامن من شهر تشرين الأول ، كتبت إلى أبيها حول الأمير غازي قائلة : « سيثير الأمير الشاب الكثير من الاهتمام على ما أعتقد . إن بلاط الملك ليس بالمكان اللائق له ، إذ أنه سيكون هناك محاطاً بغير اللائقين ، وغير المرغوب فيهم ، من الأشخاص ، وإنني أرغب مخلصة في أن يكون لي يد في اختيار أفراد حاشيته . أما في الوقت الحاضر فلا يسعني سوى المراوحة بانتظار عودة كين (كورنواليس) ، إلا أن عودة سندباد وزوجته (من إجازتهما) اليوم من شأنها أن تمدني ببعض العون في هذا المضمار ، إذ يمكن لسندباد ، باعتباره طبيب الملك الخاص ، أن يكون ذا رأي يعتد به فيما يتعلق بنشأة الأمير الشاب الذي كان قد عانى من إهمال في جو أسري يمارس فيه العبيد والنساء غير المتعلمات فيه نفوذاً محسوساً . إنه لا يكاد يحسن القراءة والكتابة في العربية ، إلا أنه ذكي ، كما أن سن الثانية عشرة لا يعتبر وقتاً متأخراً في مضمار اكتساب العلم والمعرفة . وأتوقع قرب وصول نساء العائلة إلى بغداد في أعقاب ما شهدته مكة من أحداث . ومن جانب آخر ، فإن وجود غازي سيكون له أهميته الكبيرة بالنسبة للملك . وإنه لمنظر يثير البهجة في النفس أن يرى المرء منا اجتماع الابن بابيه ، وقد شعرت بفرحة غامرة جداً قبل بضعة أيام أثناء جلوسي في حديقة القصر أنا أشهد الأب وابنه يتوجهان يداً بيد لأداء صلاة المغرب بعد سماعهما الأذان .»

وفي الخامس عشر من شهر تشرين الأول كتبت تقول : «إنني منغمسة في قراءة تفاصيل التأريخ البابلي في أوقات فراغي ، وهي تفاصيل تضمها المجلدات الخاصة بالتاريخ

القديم والتي تصدرها جامعة كيمبردج The Cambridge Ancient History والتي تعتبر عملاً أكاديمياً رائعاً بكل المعايير . ومن جانب آخر ، فإنني أنوي إضافة لمحة تاريخية موجزة لدليل العراق الذي أنا بصدد القيام بإعداده . ولعل ما يثير الدهشة هو أن مقدار المعلومات التي قُدر لنا اكتشافها عن هذا البلد إنما يفوق بكثير ما تمكنا من معرفته قبل عشر سنوات ، كما أن من شأن أعمال التنقيب الآثاري أن تأتي بمزيد من الاكتشافات والمفاجآت المذهلة . لقد انتهيت من الجزء الخاص بالموصل من الدليل المذكور ، ولكنني قبل أن أضع الجزء هذا في صيغته النهائية أنوي السفر إلى الموصل للتثبت من نقاط معينة ومحاولة اكتشاف ما يمكنني إضافته من معلومات جديدة .

هناك الكثير من الصخب والضجيج حول مكة (المكرمة) . ونتيجة ذلك انتابت الملك يوم الاثنين نوبة هيستيريا عنيفة ، أما في يوم الثلاثاء فإنه تنازل رسمياً عن العرش لصالح ابنه الأمير غازي - إلا أن التنازل قُدم إلى السير هنري فقط . وعندما سأل المندوب السامي جلالته عن المكان الذي ينوي التوجه إليه (بعد التنازل) لم يستطع الملك الإجابة . إن عائلة جلالته تجوب مياه البحر الأحمر ، على ما يبدو ، مثل مجموعة من الهولنديين الطائريـــن Flying Dutchmen[٦] . إلا أن المندوب السامي أشار على جلالته بالتريث ومراقبة تطورات الأحداث قبل التوصل إلى قرار نهائي ، في الأمر الذي دفع بجلالته إلى سحب وثيقة التنازل لمدة أربعة أيام !! وأذكر في هذه المناسبة أن كورنواليس قام في عام ١٩٢٢ بالاحتفاظ بوثيقة تنازل الملك في درج مكتبه لمدة شهر من الزمن .

وفيما يتعلق بحربنا الدائرة هنا ، فإنك لا تقل عني علماً بتفاصيلها وملابساتها ، إن لم تكن في الواقع أكثر علماً بها مني . لقد سمعنا مؤخراً أن الأتراك قد أحالوا تعريف عبارة «الوضع الراهن» status quo إلى عصبة الأمم ، وهو إجراء يصب في صالح الجميع . إنني لا أظنهم يرغبون في القتال ، فلديهم مشاكل مع أكرادهم ، ولقد تمرد القسم الأكبر من منتسبي إحدى أفواجهم في اللحظة التي دخل الفوج فيها منطقة الآثوريين ، وإن ضباط هذا التشكيل يتواجدون في الموصل الآن . إن الحركة القومية (الكردية) تحقق تقدماً ، وعلى الرغم من إيماني بأنها محض هراء ليس إلا ، لكنها قد تسهم في إحراج الأتراك إلى درجة كبيرة جداً . وإننا من جانبنا نميل إلى الاعتقاد بأن الهجمات التي يتم شنها ضد الآثوريين لربما

(٦) التشبيه مستوحى من أسطورة الهولندي الطائر ، أي البحار الخرافي الذي حُكم عليه بمواصلة الإبحار حتى يوم القيامة - المترجم .

تعود في واقعها إلى رغبة الحكومة التركية في تحويل أنظار الأكراد إلى قنوات أخرى . وإذا ما كان الأمر كذلك ، فإن المساعي التركية لم تتمكن على ما يبدو من تحقيق النجاح .»

ومن خلال رسالتها المؤرخة في الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول ، تعود الآنسة بيل مرة أخرى إلى ذكر وضعها الصحي ، فتقول : « أصابني رشح قوي مصاحب بحمى مما جعلني في حالة بائسة ، إلا أنني أحظى برعاية ممتازة من لدن سندباد وزوجته . والحدث الوحيد الذي يجدر ذكره أثناء الفترة التي قضيتها وأنا طريحة الفراش هو حوار طويل أجريته مع السير جون كادمان Sir John Cadman الذي أعتبره رجلاً ألمعياً ، رائعاً . إن وجوده في المنطقة يعزى إلى محاولة قيامه بإعادة تنظيم شركة النفط الأنجلو فارسية (والتي عرفت فيما بعد باسم شركة النفط الأنجلو إيرانية) ، وإنه على ما أرى سيقوم بمهمته خير قيام .

إن مشكلة مكة (المكرمة) تعتبر مضايقة مرعبة . لقد تقرر استضافة الملك حسين في البصرة شريطة التزامه بعدم القيام بالنشاطات السياسية أو التدخل فيها . وهناك اعتقاد سائد بين الجميع ، بما فيهم الملك فيصل ، مفاده أننا (أي البريطانيين) الذين حرضنا الوهابيين على الهجوم وذلك انتقاماً من الحسين لرفضه المعاهدة . كما أن هناك العديد من المؤامرات التي تحاك بهدف إثارة أبناء الشيعة ضد الوهابيين وضدنا . إلا أن هذه الجهود قد قوبلت بردود أفعال باهتة ، فكلما زاد إيمانهم بأن مجرد كلمة واحدة منا كفيلة في الواقع بأن تعمل على تحريك الجحافل الوهابية ، قلت حدة اندفاعهم نحو المخاطرة بالقيام بأي عمل ضدنا . وبهذا الصدد لا يجب علينا أن ننسى بأن الوهابيين كانوا قد تمكنوا من حصار مدينة النجف ، والدخول إلى كربلاء ونهبها ، قبل ما يقرب من مائة عام مضت . لا أحد في الواقع يهتم بهذه المؤامرات . وثمة احتمال يجدر ذكره بهذا الصدد ، وهو أن العالم الإسلامي لن يرغب في وقوع بيت الله الحرام والمدينة المنورة تحت سيطرة الوهابيين .»

أما رسالة الآنسة بيل المؤرخة في التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول ، والموجهة إلى أبيها ، فهي الأخرى كُتبت عندما كانت جيرتروود طريحة الفراش نتيجة إصابتها بالتهاب القصبات الهوائية ، وهي الرسالة التي تتحدث فيها عن الشأن الحجازي . تقول جيرتروود : « لابد لي أن أخبرك بأن (الملك) علي قام أخيراً بإرسال برقية إلى فلبي يطلب منه التوجه إلى الحجاز في محاولة تستهدف التوصل إلى اتفاق مع ابن سعود . وقد أعقب قيام فلبي بتلبية نداء الملك على سيل من برقيات الاحتجاج التي وجهتها له وزارة الخارجية انطلاقاً من واقع عدم تمتعه بالصفة القانونية التي تجيز له التدخل في الأمر . إنه يصل إلى جدة اليوم ليجد أن علي قد أُجبر على التراجع إليها بصحبة قوة صغيرة من رجاله . لست

أدري بالضبط ما النتيجة التي ستترتب على هذه الحالة الفوضوية .

وفي أثناء ذلك تعتزم روزيتا فوربس Rosita Forbs المجيء إلى العراق عن طريق سوريا بهدف الانطلاق إلى الخليج (العربي) والالتقاء بالسيد فلبي ليتوجها معاً لمقابلة ابن سعود . ومرة أخرى تجد وزارة الخارجية (البريطانية) نفسها تعيش حالة من القلق والاضطراب ، وهي تحاول جاهدة منع روزيتا فوربس من الذهاب إلى ابن سعود . أمل أن لا تنتهي هذه الأزمة ببقائها في هذه المنطقة بشكل دائم ذلك لأنها من النوع الذي يهوى التدخل فيما لا يعنيه . لقد ذهب ابن سعود إلى مدينة مكة (المكرمة) ، أي إلى مكان لا تكاد تتمكن روزيتا من الوصول إليه . وبديهي إن السيد فلبي وروزيتا فوربس يشكلان عبئاً إضافياً لا ضرورة له بالمرة .

ليس لدي الكثير مما يمكنني الكتابة بشأنه ، لأنني لم أُقابل إلا عدداً محدوداً من الأشخاص . ولعل خيبة الأمل تكمن في عدم قدرتي على استضافة ابن أختي ، جورج تريفليان ، والقيام بما يتطلبه الواجب ، وذلك بسبب حالتي الصحية التي تحول دون تمكني من النهوض بالأعباء الاجتماعية ، وذلك تنفيذاً دقيقاً لأوامر سندباد التي قضت بضرورة التزامي بالراحة التامة . وإزاء هذا الحال اضطر جورج إلى اللجوء إلى دار الاعتماد حيث تمت استضافته . وكان يأتي لزيارتي مساء كل يوم بعد وجبة الشاي . وكانت مولي قد كتبت لي بشأن زيارة جورج لذي أجده شخصاً ساحراً للغاية .»

وفي رسالتها التالية ، والمؤرخة في الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني ذكرت الآنسة بيل أنها قد تعافت تماماً ، وأن «كين كورنواليس والتيد كلايتون قد عادا (إلى بغداد بعد انقضاء إجازتهما) وهو جانب يثلج الصدر . ولابد لي من الاعتراف بأنني أحب ما يتمتع به كين كورنواليس من استقامة بينة ، تكاد تكون أحياناً عدوانية في حدتها ، وأحترمها كما أعتز جداً ، وبشكل يعجز لساني عن التعبير عنه ، بما يكنه لي من شعور بالمودة ، وما يوليني إياه من ثقة ، تصلان إلى أبعد الحدود .»

أما في رسالتها المؤرخة في العاشر من شهر كانون الأول ، فإنها تكرر مرة أخرى الحديث عن صحتها قائلة : « أرجو أن لا تقلق على صحتي . يقول سندباد أن لدي قابلية مذهلة على الشفاء من الأمراض بشكل مفاجئ ، وإلى الحد الذي يجد نفسه فيه مضطراً إلى اتهامي بممارسة السحر والشعوذة بهدف الشفاء !

انطلقت عصر يوم الأحد بصحبة كين كورنواليس في رحلة صيد اصطحبنا فيها كلبينا - إن كلبي ابن كلبته ! كانت عصرية رائعة لا سيما بعد أن تمكن كين من اصطياد عدد لا

بأس به من الطيور . أما في المساء فقد استضفت على العشاء كلاً من سندباد وزوجته ، وكورنواليس ، وإيلتيد كلايتون ، والسيد إيدموندز . كنا في أقصى درجات الحماقة والمرح ، ويتميز سندباد بقدرته على الجمع بين كليهما في آن واحد !

يعقد السير هنري اليوم مؤتمراً يجمع فيه الوزراء إلى جانب كبار المسؤولين في شركة النفط التركية . أتمنى له التوفيق في مساعيه . ولقد أخفق المؤتمرون حتى وقت الغداء في التوصل إلى اتفاق حول النقاط الواحد والعشرين المدرجة على جدول أعمال المؤتمر ! وكان السير هنري قد بعث ببرقية رائعة إلى حكومة جلالة الملك (في لندن) تتعلق بالوضع الاقتصادي . وإذا ما قدر لهذه البرقية أن تخفق في لفت انتباههم ، لا أدري ما الذي بإمكانه أن يحقق ذلك .

الأمور السياسية لا تسير سيراً حسناً ، وهو جانب أرجو أن يبقى سراً بيننا . فهناك مؤامرات وتدابير رهيبة تدور حول النفط يسهم فيها الجميع على ما يبدو . أما الملك فإنه في أشد حالات الغضب من الوهابيين . ومن جانب آخر ، لابد لعشائرنا في هذا الوقت من السنة أن تقتاد مواشيها إلى الصحراء ، إلا أنها غير واثقة من أن هذه الممارسة هي ليست في الواقع محفوفة بالمخاطر . ويعتبر الإجراء الأسوأ في هذا الصدد ، والذي نعتقد أن الملك يحاول اللجوء إليه (على الرغم من إنكاره الأمر بشدة) هو دفع العشائر إلى مهاجمة الوهابيين ، إذ أن من شأن ذلك أن يدفع بالوهابيين إلى القيام بعمليات انتقامية الأمر الذي يفضي إلى عواقب وخيمة تحول الصحراء من منطقة رعي وكسب للرزق إلى ساحة حرب دامية . لقد قام ابن سعود بلعب أوراقه بكل مهارة وحكمة ، ومع ذلك لا أظن بأن العالم الإسلامي سيتحمل على المدى البعيد وجود الوهابيين في مكة (المكرمة) . أما كيفية إخراجهم منها فمسالة مختلفة تماماً ! ولا يزال السيد فلبي موجوداً في جدة حيث سينضم إليه السيد طالب النقيب على ما أعتقد . وأود بهذا الصدد أن أشكر العناية الإلهية على رحيل روزيتا فوربس .»

وفي رسالتها المؤرخة في السابع عشر من شهر كانون الأول تذكر جيرتروود وصول الملكة حزيمة إلى العراق قائلة : «وصلت إلى بغداد يوم أمس الملكة وبقية أفراد الأسرة . لم تتح لي فرصة التقائهم بعد ، إلا أنني قمت بمهاتفتهم والترحيب بهم من باب تأدية الواجب . إن الملك متبرم جداً من وصولهم على ما أظن . وبما أن غيابه سيستغرق أسبوعاً آخراً ، فإن اللحظة المؤلمة لا تزال مرتقبة .

يؤسفنا جداً أن يخلف ساريل Sarrail في سوريا الجنرال ويغاند General Wegand الذي سقط ضحية مؤامرة سياسية دنيئة . إنه متألم جداً لما أصابه حسبما طرق سمعنا من

أخبار . لن يكون لنا بعد ذلك من بإمكاننا التعامل معه بلطف وكياسة .»

أما آخر رسالة لآنسة بيل للعام ١٩٢٤ فهي تلك المؤرخة في يوم الأربعاء المصادف الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول ، والتي تستهلها بعبارة : « إنه (أي ذلك اليوم) أحد أسوأ الأيام الذي قدر لي قضاؤه . لقد أمضينا وقتاً رهيباً للغاية ، ولم نذهب إلى أي مكان ، ولعل ذلك كان التوجه الأفضل . وفي يوم الجمعة الماضي كان الطقس ممطراً وشديد البرد مما أدى إلى التجمد وتساقط الثلوج بشكل كثيف للمرة الأولى منذ عام ١٩١١ ، وهو نفس اليوم الذي حاول فيه الملك وكورنواليس التوجه وسط الثلج والوحل من كركوك إلى آخر موضع وصل إليه الخط الحديدي (بغداد - كركوك) . وبعد عدة ليال من التجمد أخذت الأمطار تهطل بغزارة منذ يوم أمس مما سيعيق حركتنا تماماً ويمنعنا من الخروج في أول يوم من أيام السنة الجديدة . وفي يوم الجمعة ذاته (أي ١٩٢٤/٢١/٢٦) شاركني العزيز ولسون طعام الغداء ، أما في يوم الأحد (١٩٢٤/١٢/٢٨) فقد تناولت طعام العشاء مع كل من كين والتيد على مائدة آل سنداباد . وكنت في ذلك اليوم أشبه بسفينة تائهة ، إذ كانت خادمتي ماري تستضيف بعض أصدقائها على العشاء الأمر الذي أجبر آل سنداباد على استضافتنا في دارهم . وفي الحادية والنصف مساءً انسللت إلى داخل البيت ، ودخلت إلى غرفتي خلسة من خلال باب الحمام . لقد امتدت حفلة ماري ، التي تواصل نشاطها على أنغام الجرامافون ، حتى الساعة الثانية صباحاً !

استدعاني الملك يوم الاثنين لمناقشة الترتيبات التي ينبغي اعتمادها في إطار كل ما يتعلق بالملكة من شؤون . وقد سرني قيام جلالته استشارتي إذ أن هناك عدداً معيناً من المطبات ، والمآزق التي ليس من السهل إدراكها ، والتي ينبغي تداركها والتصرف كما ينبغي إزاءها . وفيما يتعلق بشؤون القصر الملكي ، فقد قام جلالته بتنفيذ ما اقترحته عليه من اختيار زوجة مرافقه الأقدم ، علي جودت بك الأيوبي ، لتولي رئاسة شؤون التشريفات الخاصة بجلالة الملكة . إن السيدة (نازك) جودت سليلة أسرة جركسية مرموقة استوطنت بغداد منذ فترة ، وحازت على محبة الناس واحترامهم . كما تقرر قيام الآنسة فيرلي Miss Fairley ، مربية الأمير غازي ، بمهمة تعليم الأميرات اللغة الإنجليزية ، وممارسة لعبة التنس ، والتصرف وفق معايير السلوك (الملكي) الأوربي .

وهكذا ، تجدني منهمكة مرة أخرى في تنظيم شؤون القصر الملكي . ويشيد كل من كين كونواليس وبيرنارد بورديلون بما أنجزته في هذا الصدد ، وهو ما يثلج صدري .!»

١٩٢٥

اكتشفت جيرتروود أن جلالة الملكة حزيمة ، زوجة الملك فيصل ، كانت في الواقع امرأة خجولة ، وحساسة وذات جاذبية ، إلى جانب ما حباها الله تعالى به من لطف وكرم أخلاق منقطعي النظير . ولم تكن كريمتاها (اللتان كانتا أكبر سناً من الأمير غازي) أقل لطفاً وكرماً وجاذبية . أما الأميرة الأصغر سناً فكانت لا تكاد تدخل ضمن إطار الصورة العامة للعائلة المالكة بسبب كونها مقعدة منذ الولادة .(١)

وعلى مدى أسبوع من الزمن ، انهمكت جيرتروود في تدبير كل التفاصيل المتعلقة بحفلات الاستقبال الأولى التي كانت تقيمها الملكة ، وكان من شأن ما يترتب على هذه المناسبات من محن ، وجوانب تعمل بوجه عام على إزعاج من يتولى شؤون تنظيمها ، أن تشكل مصدر قلق ومعاناة لجيرتروود . أما بعد ذلك ، فإنها صبت جل اهتمامها على رعاية الأمير غازي .

وفي رسالتها المؤرخة في السابع من شهر كانون الثاني ، والموجهة إلى أبيها ، كتبت تقول : « أتوقع أن يكون زيد معكم . هناك مشكلة تتعلق بما يمكنه أن يختار من مهنة . فالملك يطلب منه التهيؤ ليكون إما ضابطاً في الجيش أو سياسياً ، إلا أن زيد يرفض رفضاً قاطعاً أن يكون ضابطاً معلناً أن بلاده كفايتها من الحرب . ألم تشهد ذلك حقاً ؟ كما أنه من جانب أخر يكره السياسة التي يعتبر أنها والتآمر يشكلان وجهين لعملة واحدة ، وأنها ليست بأكثر من أداة يستخدمها الأنانيون والوصوليون لنيل مآربهم . إنه ينشد الاستقرار ، وتعلم فنون الزراعة .»

أما رسالتها المؤرخة في الخامس عشر من شهر كانون الثاني فتنطوي على نبرة تذمر وملل واضحين إذ تقول : « كان من شأن ما تميزت به حفلة الاستقبال التي أقامتها الملكة من فتور أن يزيد من برودة جو مكتبي القارصة ، الأمر الذي شكل حالة لا تطاق . ونتيجة لذلك قررت الانقطاع عن العالم والبقاء في بيتي مدة أربعة أيام متواصلة بلغت في السأم والملل

---

(١) بنات المغفور له جلالة الملك فيصل الأول المعظم هن المغفور لهن صاحبات السمو الملكي المعظمات الأميرة راجحة ، والأميرة عزة ، والأميرة رفيعة ، وكانت الأخيرة هي الأميرة المقعدة والتي كاد ذكرها يكون معدوماً - المترجم

خلالها أقصى الحدود ، إلا أنني شعرت بالراحة بعدها . ولابد من الاعتراف بأن هناك الكثير مما يتعين على المرء القيام به ، الأمر الذي يحول دون شعوره بالانزعاج والضيق . وقد توجهت يوم أمس إلى القصر الملكي لتنظيم الحفلة التالية التي كانت الملكة قد قررت إقامتها يوم غد . وإنني على ثقة تامة بأنني أقوم بتهيئة نساء القصر الملكي لكي يتمكن من الاعتماد على أنفسهن ، وبعد قيامي بتنظيم مناسبتين أخريين أستطيع تركهن وأنا على ثقة تامة من قدرتهن على تدبير أمورهن بأنفسهن . أما الأمر التالي الذي يتطلب اهتمامي وعنايتي فيتعلق بالملابس . ولقد قمت بهذا الصدد (وكإجراء ابتدائي) بالكتابة إلى ابنة العم سلفيا Sylviaأطلب منها شراء بعض الملابس لغرض تمشية أمورهن في الفترة الراهنة (أي إلى حين التوصل إلى تدبير نهائي لهذا الأمر .)»

ومن خلال رسائل لاحقة ، تعمد جيرتروود إلى ذكر الكثير عن اللجنة التي استحدثتها عصبة الأمم لأغراض رسم الحدود بين تركيا ومنطقة الموصل التابعة للعراق . وتعتبر الملاحظات التالية ، التي تفضل السير نايجل دايفدسون مشكوراً بجعلها في متناول يدينا ، وسيلة تعين القارئ على تحقيق فهم أفضل لما تذكره الآنسة بيل في رسائلها بهذا الخصوص :

تمثل الحدود القائمة حالياً في الواقع ذلك الخط (الوهمي) الذي تمكنت القوات البريطانية المتقدمة من دفع فلول الأتراك المنسحبة إلى الوقوف وراءه عندما تم الاتفاق على إعلان الهدنة ، الأمر الذي جعل كل المناطق الواقعة جنوب هذا الخط تخضع في بادئ الأمر إلى إدارة قيادة جيش الحلفاء الذي يحتل أراضي تابعة للعدو ، ومن بعد ذلك إلى إدارة الحكومة (العراقية) المؤقتة التي تم تشكيلها وفق نظام الانتداب والمعاهدة . وعلى الرغم من أن الخط المذكور كان غير واضح ، إلا أنه مثل الخط الحدودي الاستراتيجي الحيوي بالنسبة للعراق بسبب امتداده عبر سلسلة جبلية يكاد يكون اجتيازها مستحيلاً لما تتميز به من وعورة . وإذ وافق الأتراك على التخلي عن المناطق العربية التابعة للامبراطورية العثمانية ، فإنهم من جانب آخر طالبوا بالسيادة على منطقة الموصل كلها امتداداً إلى سلسلة التلال الواطئة التي تعتبر ذات فائدة كخط حدودي استراتيجي . وبذلك كان من الضروري جداً لدولة العراق الفتية أن تضمن الحصول على الحدود الاستراتيجية لخط الهدنة وذلك لأسباب عديدة هي : ١-في حال غياب الخط الاستراتيجي ، يغدو سهل بلاد ما بين النهرين من الشمال إلى البصرة والخليج الفارسي عرضة للغزو من قبل قوات تركية متفوقة عدة وعدداً . ٢- تصبح حقول النفط التي يصعب حساب قيمتها بيد الأتراك الأمر الذي يسهم في

خراب اقتصاد العراق . ٣- يغدو الدفاع عن المصالح النفطية الأنجلو-فارسية غير ممكن بغياب قاعدة دفاع في العراق . ٤- يخسر الشعب الآثوري المسيحي الشجاع وطنه إلى الأبد ، إذ لا يمكنه (في مثل هذه الحال) العودة إلى الخضوع لاستبداد الأتراك وبطشهم .

تتناول رسائل الآنسة بيل موضوع المفاوضات أثناء زيارة اللجنة المختصة للعراق . وكان الكونت تيليكي Count Teleki ، الرجل الألمعي ذو الشخصية الساحرة ، صديقاً للبريطانيين ، بيد أنه كان منحازاً ، وبشكل متعصب ، ضد مطالب العراق الهادفة إلى الحصول على خط حدودي استراتيجي ، وهو جانب يعود بالأساس إلى ما ترتب على معاهدات السلام من أمر حرمان بلاده ، هنغاريا ، وعلى نحو لم يخل من قسوة ، من حدودها الاستراتيجية في سلسلة جبال كارباثيا the Carpathians .(٢)

وقد تحقق للعراق بالنتيجة الحصول على ولاية الموصل وخط حدودي استراتيجي في المناطق الجبلية ؛ فضلاً عن حصوله على حقول نفط كركوك . ولقد قُدر لهذه الترتيبات أن تحقق تنازلاً للأتراك ، لم ينطلق سوى من مصالح ذاتية ، وذلك عبر ترسيم الخط الحدودي الفاصل على نحو استثنى موطن الآثوريين .

وتواصل رسالة الآنسة بيل المؤرخة في الخامس عشر من شهر كانون الأول ذكر موضوع الحدود وترسيمها قائلة : « تصل لجنة ترسيم الحدود يوم غد . وإلى جانب أعضاء اللجنة الثلاثة والمخمن التركي ، تستصحب اللجنة ثلاثة «خبراء» أتراك . وكان من شأن استصحاب هذه المجموعة الأخيرة أن يفضي إلى إثارة الكثير من القلاقل ، إذ يتوقع أن يثبت الثلاثة سالفي الذكر خبراء في تدبير المكائد ، والممارسات التي تستهدف التخويف والإكراه بالتهديد ، وذلك بالإضافة إلى الواجبات المناطة بهم أساساً .

إننا نعيش ظروف أزمة حكومية تتمحور حول شيء تافه ، على ما أظن . آمل أن لا تسقط الحكومة يوم وصول لجنة الحدود !

نتيجة قراءة تقرير السير هربرت صموئيل (المندوب السلمي في فلسطين) المرفوع إلى

---

(٢) سلسلة جبلية تقع وسط أوربا وتمتد من شمال جمهورية تشيكيا إلى أواسط جمهورية رومانيا . ويبلغ ارتفاع أعلى قمة فيها ، وهي المعروفة باسم جيرلاجوفكا Gerlachovka ، ٨٧٣٧ قدماً فوق سطح البحر . وتشير كتب التاريخ العثماني وغيرها إلى ما شهدته هذه السلسلة الجبلية والمناطق المجاورة لها من معارك دامية أثناء تقدم القوات العثمانية الغازية لاحتلال دول البلقان ، وهنغاريا بعد ذلك ، إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين - المترجم

عصبة الأمم ، سرني أن أجد أن من بين العطل الرسمية الفلسطينية تلك التي يُحتفل فيها بيوم نزول (النبي) نوح من سفينته ! وبهذا الصدد نفكر نحن هنا في العراق بإضافة يوم نجاة (النبي) يونس من الحوت إلى أيام عطلنا الرسمية !!»

وفي رسالتها المؤرخة في الحادي والعشرين من شهر كانون الثاني تقول : «إن لجنة ترسيم الحدود ترهقنا إلى حد الموت . فقد وصل أعضاؤها يوم الجمعة . وما أن تم لي الاطلاع على أسمائهم وأسماء المشاركين معهم ، حتى تعرفت على اسمي أثنين ممن يسميهم الأتراك «خبراء» : إنهما من بين مجرمينا المطلوبين للمثول أمام العدالة ، واللذين كانا قد فرا إلى تركيا هرباً مما كان سيترتب عليهما من عقاب نتيجة اكتشاف تورطهما بالتخطيط لتنفيذ تمرد . إن إشراكهما في هذه اللجنة يمثل لعبة خبيثة من جانب الأتراك ليس إلا .

وفي يوم السبت أخبرني السير هنري بما تبلور في ذهنه من انطباع حول اللجنة المذكورة ونشاطها ، فهو يعلم أن أنقره قد بالغت في الترحاب بأعضاء اللجنة وكسب ودهم الأمر الذي يجعلهم ميالين إلى تبني وجهة النظر التركية . وبذلك أمرني بالتوجه فوراً إلى البلاط الملكي وطلب مقابلة جلالة الملك وتقديم النصح له بصدد النقاط التي يجب أن تتضمنها كلمته الموجهة إلى أعضاء اللجنة . وقد أصغى جلالته بانتباه واهتمام بالغين لما أخبرته به ، ثم قام بعد ذلك بإرسالي إلى الصالة الكبرى للأشراف على تفاصيل الاستعدادات الخاصة بحفل الاستقبال المزمع إقامته للاحتفاء بأعضاء اللجنة . وبهذا الصدد التمست من جلالته حضور الأمير غازي حفل الاستقبال لما قد ينطوي عليه هذا الحضور من لمسة عاطفية . وقد لبى جلالته التماسي .

وفي يوم الأحد ، دعوت السنيور رودولو Signior Roddolo ، أمين سر لجنة الحدود ، لتناول طعام الغداء معي وقد تحدثنا على مدى ساعتين من الزمن تم له من خلالهما البوح لي بجوانب هامة سارعت إلى لفت انتباه السير هنري إليها من خلال إيجاز رفعته له وأرسلته مع البريد اليومي إلى داره . بعد ذلك انطلقت بصحبة كين كورنواليس في رحلة صيد إلى البساتين الواقعة شمال بغداد تم لنا من خلالها أيضاً تدارس الموضوع . وفي المساء دعوت كلاً من كين وإيلتيد لتناول طعام العشاء على مائدتي والتعرف على أعضاء اللجنة الثلاثة . ويمكن القول أن الهنغاري ، الكونت تيليكي ، هو الروح المحركة للمجموعة ومكمن الخطر فيها في ذات الحين . ولقد حاولت مجموعتنا - أي أنا وكين وإيلتيد - تفادي طرح قضايا تتعلق بالشأن العراقي ، بل تمحور حديثنا حول علم الآثار والجغرافيا وأمور عامة أخرى . أما بعد العشاء فقد عمد السيد دي فيرسن M. de Wirsen ، السويدي الجنسية ورئيس

اللجنة ، والعقيد باولس Colonel Paulis ، وهو بلجيكي ، بطرح أسئلة مباشرة وصريحة سرنا جداً الإجابة عليها . أما الكونت تيليكي فقد فتر اهتمامه تماماً في مواصلة الكلام بعد أن تحول مجرى الحديث وراح يدور حول العراق ، وبذلك لم يطرح سؤالاً واحداً ، ولم يعلق على أي من الجوانب التي تم ذكرها ، بل بدا غير راغب في معرفة أي شيء بالأساس .(٣)

البغداديون ثابتون في موقفهم - وزراء ، وموظفون مسؤولون ، وأعيان ووجهاء على حد سواء - إنهم يصرون على ضرورة تحقيق وحدة العراق . وعمد أعضاء مختلف الأحزاب إلى تناسي خلافاتهم بعد أن شعروا بأنهم في وضع حرج يتعذر فيه التراجع عن المواقف الثابتة بأي حال من الأحوال ، ويتطلب منهم الدخول في معركة مصيرية حاسمة ، وهو موقف من شأنه أن يعود عليهم بالخير والفائدة . كما تتبنى الصحافة المحلية هي الأخرى موقفاً متميزاً . وأنا بدوري أقوم بتزويد أعضاء اللجنة بتراجم لكل ما تنشره الصحف وما تعكسه من آراء .

قمت يوم أمس مع السيد كووك باصطحاب أعضاء اللجنة في جولة حول المدينة لمشاهدة بعض المباني القديمة فيها . بعد ذلك دعوت الكونت بورتاليس Count Pourtales إلى تناول الشاي في داري . إنه أمين السر الآخر (للجنة) ، وهو سويسري الجنسية وذو شخصية ساحرة وتوجهات صادقة وسليمة ، وفوق ذلك كله فهو ينشد معرفة الأمور على حقيقتها . إن بغداد قد تمكنت ، على ما أعتقد ، من جعلهم يتوقفون لوهلة (لمراجعة أنفسهم وإعادة تقييم الأمور .) لم يخطر ببالهم أنهم سيجدون حكومة عربية قائمة تقوم بواجباتها بشكل كامل ، كما أنهم عبروا عن إعجابهم بما شاهدوه بأم عينهم . ومع ذلك تبقى الموصل هي العنصر الحاسم ، فإذا ما استطاعت الوقوف والتعبير عن نفسها كما فعلت بغداد ، فإننا

---

(٣) إلى جانب أعضاء اللجنة ، كان هناك أربعة أمناء سر (سكرتاريون) هم : الكونت بورتاليس السويسري الجنسية ، والسنيور رودولو ، الإيطالي الجنسية ، والمسيو كادير الفرنسي ، والمسيو ريد ، السويسري الجنسية أيضاً . ثم الحق بهم المستشرق الهولندي كرانور بوصفه مترجماً . وكان مع اللجنة أيضاً الخبير التركي جواد باشا ، المفتش العام للجيش التركي في الجزيرة ، ومرافقه بدري بك ، كما كان معها كل من ناظم بك النفطجي الكركوكلي (أحد أبناء كركوك) وفتاح بك (أحد أبناء السليمانية) وهو قريب الشيخ محمود ، وأخو زوجته ، الأمر الذي أثار اشتراكه في اللجنة اعتراض الحكومة العراقية ، والرئيس الأول كامل بك (أحد أبناء الموصل .) وبهذا الصدد فإن ما قالته الآنسة بيل من أن الثلاثة الأخيرين هو «خبراء أتراك» هو كلام غير دقيق إذ أنهم عراقيون أصلاً - المترجم .

سنكون على خير ما يرام . وفي كل الأحوال ، لقد أدركت اللجنة تماماً أن الأمر (قضية الموصل) يشكل نضالاً من أجل الحياة من جانب العراق ، وليس مجرد جهد من قبل الحكومة البريطانية يستهدف توسيع رقعة المناطق التي تفرض سيطرتها عليها . وتحوم شكوكنا ، وشكوك العرب ، حول نوايا تيليكي . إننا ندرك أن هنغاريا تتطلع إلى القيام بالكثير من أعمال التنمية والتطوير في تركيا ، كما ندرك أيضاً أنه قد وضع نصب عينيه تفادي جرح مشاعر الأتراك والإساءة إليهم بأي شكل من الأشكال . إنه رجل كفؤ وذو دهاء ، كما أنه الرجل المناسب لمثل هذه المهام . أما مخمن اللجنة ، وهو رجل تركي كبير السن يدعى جواد باشا ، فشخص مسالم ، لا ينشد الأذى .

يقيم القصر الملكي حفل عشاء كبيراً مساء اليوم - إنها دعوة للرجال فقط ، إلا أنني سأحضر المناسبة باعتباري من بين مسؤولي مكتب المندوب السامي . وكنت قضيت عدة ساعات مع مرافق جلالة الملك لتحديد أماكن جلوس المدعوين . ومن جانب آخر ، دعيت من قبل رئيس الوزراء للاستماع إلى ما يقوله لأعضاء لجنة الحدود . وقد جاء كل ذلك بالإضافة إلى أعمالي وواجباتي اليومية .»

وجاء في حاشية الرسالة أعلاه ما يلي : « بلغ عدد المدعوين الذين جلسوا حول مائدة العشاء ثمانية وخمسين شخصاً ! وقد حضر العراقيون كافة من غير طربوش ، فكانت المرة الأولى التي أرى فيها هذا العدد الكبير من العراقيين الذين ظهروا حاسري الرأس . إنها بادرة احتجاج على غطاء الرأس التركي !»

وفي رسالتها المؤرخة في الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني ، تواصل الآنسة بيل الحديث عن لجنة الحدود الدولية قائلة : «إذا ما قدر أن يفضي نشاط لجنة الحدود الدولية إلى أية نتائج إيجابية فإن الفضل في ذلك يعود بشكل رئيسي إلى دبلوماسية السير هنري دوبس ، ولباقته في التعامل مع أعضاء اللجنة ، إلى جانب ما أحاطهم به ، هو وزوجته إيزمي ، من مظاهر الاحترام والتقدير ، وتقف الكلمات عاجزة عن التعبير عن إعجابي بهما .

وكانت مأدبة العشاء الرسمية التي أقامها رئيس الوزراء من بين نشاطات الضيافة التي أقيمت على شرف اللجنة ، وقد حضر المأدبة هذه بحدود خمسين شخصاً . ومرة أخرى كان وجودي في هذه المناسبة الرجالية يعود إلى كوني من بين كبار موظفي دار الاعتماد ، وبذلك عمدت إلى تحديد الزيّ الخاص بي ، فلم أرتد فستان السهرة الرسمي المعهود بل فستاناً خاصاً بفترة ما بعد الظهر ، مخملياً ، أسود اللون ، مع الأوسمة . وقد جلست بين الكونت

تيليكي وكورنواليس . وفي أثناء ذلك ، أخبرني تيليكي بالتفاصيل التامة حول القرار الذي تم اتخاذه في باريس بخصوص هنغاريا ، وقد جاء سرده لهذه التفاصيل مطابقاً لما سمعته بهذا الصدد من السيد أرثر غرينفيل Mr. Arthur Grenfell . ويمكن اعتبار القرار هذا الإجراء الأكثر غباءً وإجحافاً من بين تلك التي تم التوصل إلى اعتمادها من قبل مؤتمر السلام ، ومع ذلك ، لم يفلح ما أبديته من رأي حول القرار المذكور في كسب أي تعاطف من لدن تيليكي . وفي أثناء ذلك أخبرني كورنواليس أن لدى جواد باشا كتاباً مجحفاً صدر مؤخراً لكاتب أمريكي يدعى باول Powel تحت عنوان «الصراع من أجل السيطرة في المناطق الإسلامية من آسيا» The struggle for Power in Muslim Asia . أن الفصل المخصص للعراق هو محض أكاذيب وتشويه للحقائق ليس إلا . بعد ذلك التفت إلى تيليكي وأفدته بموجز عن الكتاب بهدف دحض ما جاء به مؤلفه باول من معلومات ، أعقبته بعد ذلك بالتفاصيل الحقيقية المتعلقة بتبني حكومة جلالة الملك البريطانية لقضية ترشيح الملك فيصل لتبوئ عرش العراق – وهي تفاصيل لربما لا يعلم مفرداتها الحقيقية بأية درجة من الدقة سوى السير برسي كوكس وأنا شخصياً . وعندما انتهيت من ذلك ، سألني الكونت تيليكي قائلاً : من الذي أيد ترشيح فيصل هنا ؟ قلت له الرجال الذين قاتلوا إلى جانبه في الحجاز وأبناء الشيعة في العراق . وقد شكل الجزء الأخير من تصريحي هذا (المتعلق بأبناء الشيعة) عاملاً حاسماً في هذا الصدد ، إذ أن اللجنة كانت تحاول عكس صورة مفادها أن فيصل السني قد تم فرضه من قبلنا على أبناء الشيعة في العراق . بعد ذلك انتقلنا في الحديث من السياسة إلى الجوانب المتعلقة ببدايات الحضارة . إنه موضوع ثبت أن تيليكي حجة فيه ، وكان من شأن ما طرحه من أفكار ، وعكسه من معلومات ، أن يثير اهتمامي الشديد . ومع ذلك ، فإنني على يقين تام من أنه سيحاول بذل أقصى جهوده من أجل دفع اللجنة إلى الخروج بتوصيات تُرضي الأتراك .»

فضلاً عن ذلك ، فإن رسالة الآنسة بيل المؤرخة في الرابع من شهر شباط تنصرف هي الأخرى إلى الحديث عن اللجنة . تقول : «لا نزال منشغلين باللجنة ونشاطها . ومنذ وصولها إلى الموصل جوبهت بمظاهرات سلمية تنادي بعروبة الموصل وعراقيتها . وكان من شأن هذه المظاهرات أن تضايق أعضاء اللجنة ، وتزيد من شكوكهم . وقد رفضوا استخدام المترجمين الذين كنا قد قمنا نحن والجهات العراقية المسؤولة بتجنيدهم لخدمة اللجنة وتسهيل مهمتها ، الأمر الذي دفعهم إلى استقدام أستاذ (مستشرق) هولندي ثبت أنه شخص يفتقر إلى اللطف فضلاً عن انحيازه الواضح للأتراك . وقد كان له لقاء مع جلالة الملك الذي

أخبرني لاحقاً بأن الهولندي هذا لا يتقن العربية بالمرة ، وأن فهمه لها محدود جداً . وثالثة الأثافي هي أنه لا يحسن الكردية بالمرة .

تردني أخبار جيدة عن زيد من أشخاص كانوا قد التقوه وأفادوا بأنه سعيد في جامعة أوكسفورد ، وإنه سيُمنح ، على ما أعتقد ، توجيهاً وبرنامجاً دراسياً خاصين يتضمنان بعض الجوانب المتعلقة بالزراعة .»

وفي الحادي عشر من شهر شباط كتبت الآنسة بيل تقول : «تسير الشؤون العامة بشكل أفضل . وفي يوم السبت ذهب السير هنري جواً إلى الموصل حيث حطت طائرته هناك وسط عاصفة ثلجية كادت تودي بحياته . وبعد نجاته ، انصرف إلى التعامل مع أعضاء لجنة الحدود بكياسة ومهارة ، ودفعهم إلى الاعتراف بعدم وجود أدنى شك بتعلق بعروبة الموصل . وتقوم اللجنة في الوقت الحاضر بجولة حول المناطق الحدودية حيث تنتشر أمامهم لجان الدفاع الوطني ، وبذلك لا أظن أن الكثير من أرض العراق سيؤول إلى الأتراك . ولابد من الاعتراف بأن الفضل والشكر في كل ذلك يعود إلى جهود السير هنري .»

وفي رسالتها المؤرخة في الخامس والعشرين من شهر شباط تقول : «على الرغم من انقضاء تسعة أعوام على عملي بصفة موظف حكومي ، لا يزال بطؤ الإجراءات والروتين الحكوميين يدفعاني إلى الشعور بالإحباط وخيبة الأمل ، فنحن في نفس الوضع الذي كنا عليه قبل أسبوع ، بل وأسبوعين ، وذلك في مضمار مجابهة القضايا الاقتصادية (والسعي إلى إيجاد ما تتطلبه من إجراءات وحلول .)

وتواصل لجنة الحدود تحرياتها في الشمال . ويمكن القول بشكل عام أن نشاطها يسفر عن نتائج مرضية . وبالنظر لمرض الكونت تيليكي ، فقد تم نقله جواً إلى بغداد حيث اضطر إلى ملازمة الفراش . إنه يستحق ما أصابه من مرض !

ذهبت يوم أمس إلى القصر الملكي لأصطحب الملك في نزهة ننطلق فيها سيراً على الأقدام ، وهي ممارسة تعود على صحته بالفائدة . وعند وصولي وجدت الأميرتين (راجحة وعزة) يحضران درساً في الموسيقى ، بينما كان الأمير غازي يحضر درساً في فن الخط . وكان الأمير الصغير قد انتهى لتوه من تحميض فلم فوتوغرافي بواسطة صندوق خاص لتحميض الأفلام الفوتوغرافية كنت قد أهديته إياه . وقد بدا في أقصى درجات السرور لنجاحه في عملية التحميض غير أبه بالمرة بما تسببته حركة يديه أثناء التقاطه صورة لأختيه من ضرر كان من شأنه تشويه شكلهما ليبديا وكأنهما قد تعرضتا لهزة أرضية . إنه طفل محبوب ، ذو أدب جم وشخصية فتانة . إنه يهتم اهتماماً خاصاً في التحدث معي بالإنجليزية . وبهذا

الصدد أرفق طياً أول رسالة له كتبها بهذه اللغة .»

كانت رسالة الآنسة بيل المؤرخة في الرابع من شهرى آذار مختصرة بسبب شعورها بالإرهاق التام في أعقاب سفرة استغرقت زهاء العشرين ساعة . تقول : « لابد لهذه الرسالة أن تكون مختصرة فقد وصلت من أور في الساعة السادسة صباحاً ، بعد سفرة في القطار استغرقت بحدود عشرين ساعة لم أنم خلالها لحظة واحدة ! بعد ذلك نمت طوال عصر هذا اليوم ، وعليَّ الآن الإسراع في تغيير ملابسي من أجل حضور حفلة راقصة تقام في دار الاعتماد .

وكنت قد ذهبت (إلى أور) لتوزيع المكتشفات التي تم العثور عليها نتيجة عمليات الحفر التي شهدها الموسم . وقد التقيت هناك كلاً من السيد ولسون وقرينته ، وقد عدنا معاً إلى بغداد . كانت هناك مكتشفات ثمينة جداً ، وكان من غير الممكن قسمة عدد معين منها ، إلا أنني والسيد ولسون كنا منصفين على ما آمل ، وكان هذا رأي السيد ليونارد وولي ، أيضاً ، على الرغم من قيامه في وقت لاحق بالإعلان عن حزنه (لعدم حصوله ما أعتقد أنه كان بحق نصيبه من المكتشفات !!!) وبين رحلتي الذهاب والإياب في القطار ، تمكنت من أن أحظى بنوم هانئ لليلة واحدة في أور - بدا العالم آمناً وهادئاً في الصحراء .

ذهبت لجنة الحدود - باستثناء الكونت تيليكي - إلى مدينة السليمانية حيث جوبهت بقرار إجماعي لصالح العراق . ولم يشترك الشيخ محمود في هذا الحدث ، إذ أنه كان قد فر إلى ما وراء الحدود الفارسية .»

وفي الثامن عشر من شهر آذار كتبت تقول : « تغادرنا إيزمي غداً . إن رحيلها خسارة كبيرة لا لزوجها السير هنري فحسب بل لي شخصياً وللكثير من الأصدقاء والزملاء الآخرين . لقد اعتاد ثلاثتنا (أنا وإيزمي والسير هنري) الخروج في رحلات نزه إلى البساتين المحيطة ببغداد ، أو الانطلاق معاً في جولات سيراً على الأقدام . إنهما (السير هنري وزوجته) مولعان أحدهما بالآخر إلى درجة كبيرة الأمر الذي يجعل من رفقتهما مصدر غبطة وسعادة .

وصل السيد هلتون يونغ Mr. Hilton Young ، وقد تمكن من كسب مودة الجميع وتقديرهم على ما أفهم . إنه مكلف بابتكار وسيلة من شأنها أن تحقق ترصيد ميزانيتنا لبضع سنوات قادمة . ومع كل ذلك ، لابد من القول أن السودان قد أخفق باستمرار ، وعلى مدى سبع وعشرين سنة ، في ترصيد ميزانيته !!»

تذكر رسالة الآنسة بيل المؤرخة في الخامس والعشرين من شهر آذار وصول عدد من

الوزراء البريطانيين Secretaries of State[٤] في زيارة للعراق . وتقول بهذا الصدد : «يصل الوزراء (البريطانيون) يوم غد ، وآمل أن لا يكونوا أقل لطفاً ودماثة خلق عن السيد هلتون يونغ . وقد قمت أنا وكين (كورنواليس) عصر يوم الأحد برافقة السيد يونغ في رحلة تمكنه من مراقبة الطيور ذلك لأنه من بين كبار المهتمين بهواية مراقبة الطيور ودراسة أطوار حياتها .

ويسود الأجواء هنا شعور بالقلق ، ونحن بدورنا نشعر بأن وجود هذه الشخصيات الكبيرة لابد أن يتمخض عن قرار محدد من شأنه أن يحقق تسوية للأوضاع وتصحيحاً لها ، إلى جانب معالجة مسائل حيوية أخرى . وفي كل الأحوال ، يعتبر وجودهم جانباً إجابياً إذ بإمكانهم مشاهدة الأمور على أرض الواقع بدلاً من الاكتفاء بوضع الفرضيات عن بعد .»

كما تذكر رسالة الآنسة بيل المؤرخة في الثلاثين من شهر آذار مزيداً من الأخبار حول زيارة الوزراء البريطانيين . وبهذا الصدد فإنها تقول : «هناك العديد من الوزراء وكذلك العديد من حفلات التكريم التي تقام على شرفهم . إن السير جون شوكبورغ Sir John Shuck bourgh شخص لطيف المعشر ، وقد كان لي حديث ممتع معه ، كما أن السيد ليوبولد إيمري Mr.Leopold Aimery هو الآخر لطيف جداً . إلا أن الجماعة لم تتمكن على ما يبدو من تسوية ما يجدر ذكره من القضايا ، ولكنهم بشكل عام مرتاحون بعضهم من البعض الآخر . وبما أنني أتناول طعام الغذاء في دار الاعتماد ، فإنني التقيتهم في أغلب الأحيان . وفي يوم

(٤) تعني عبارة Secretariy of State باللغة الإنجليزية وزيراً . إن المسؤولين البريطانيين الذين تتحدث عنهم الآنسة بيل بهذا الصدد وباستثناء السير صموئيل هور Sir Samuel Hoare ، وزير الطيران ، والمستر ليوبولد إيمري Leopold Amery ، وزير المستعمرات ، لم يكن الآخرون في الواقع وزراء بل كانوا بدرجة مساعد وكيل وزارة : كان جون إيفلين شوكبورغ Sir John Shuckburgh موظفاً بهذه الدرجة ويشغل منصب مدير دائرة الشرق الأوسط التي كان قد استحدثها تشرشل في وزارة المستعمرات ، وكان هيوبرت ونتروب يونغ Hu-bert Winthrop Young مساعده ، وكان الأخير هذا قد عمل بصفة الضابط المسؤول عن أمور النقل والتموين الخاصة بقوات الشريف فيصل بن الحسين إبان الحرب العالمية الثانية ، أما السيد ليوبولد إيمري Leopold Am-ery فكان قبل اختياره وزيراً للمستعمرات يشغل منصب مساعد أمين سر (سكرتير) حكومة الحرب البريطانية ، أي نفس درجة السير مارك سايكس ، وكان قد ساعد في حينه في إعداد وعد بلفور ، إلا أن الأهم من ذلك يكمن في واقع كونه من بين المجموعة التي كانت ترى ما مفاده أن الحرب العالمية الأولى قد وضعت حداً لأية هيمنة بريطانية في أوربا ، لاسيما بعد أن أنهكتها هذه الحرب ، وأن الفرصة لإعادة الروح إلى بريطانيا كانت تكمن في قدرتها على توسيع نطاق نفوذها في كل من أفريقيا والشرق الأوسط - المترجم .

السبت قمنا أنا والسيد كووك باصطحابهم في زيارة إلى الكاظمية حيث تناولنا الشاي بعد ذلك في بيت رئيس البلدية . ويمكن القول بأنهم سياح ممتازون ، فضلاً عن كونهم أشخاصاً يقدرون ما يتم تقديمه لهم من خدمات ، وما يبذل في سبيل ضيافتهم من جهود .»

وفي رسالتها المؤرخة في الفاتح من شهر نيسان تقول الآنسة بيل : «أقام جلالة الملك حفلة ليلية مساء السبت ، إلا أنها لم تكن دعوة رسمية بسبب شهر رمضان . وقد حضر كل المدعوين بما فيهم سيدات مسيحيات ويهوديات لم يسبق لي التقاؤهن في مناسبات سابقة . ولعل مظهر وزير المعارف كان من أبرز سمات هذه الحفلة . أنه رجل محبوب ولطيف من أبناء الشيعة ، وذو منزلة اجتماعية متميزة ، وقد اعتاد لباسه التقليدي بالجبة والعمامة البيضاء أن يضفي على مظهره مزيداً من الحشمة والاحترام ، إلا أنه ظهر في هذه المناسبة حاسر الرأس وبالملابس الأوربية فبدا أشبه بعتريس مشاكس !(٥) بيد إنه الرقي بأبهى مظاهره !!

لدى السيد إيمري - إذا ما سُمح لي وصفه على هذا النحو - أكثر من نصيبه من الإمكانات العقلية ، فمعلوماته موسوعية بفضل قدرته على اكتسابها بسرعة فائقة والاحتفاظ بها كاملة ، إلا أنني لست واثقة من قدرته على استخدامها على نحو من شأنه تحقيق أكبر قدر من المنفعة ، وعلى الرغم من رغبته الصادقة في تحقيق ما يعتبر الأفضل إلا أنه يخفق في تحديد ما هو الأفضل أساساً !»

وفي رسالتها المؤرخة في الثامن من شهر نيسان تواصل الآنسة بيل الحديث عن الوزراء البريطانيين قائلة : «يمكن القول بوجه عام أن زيارة الوزراء قد خرجت ببعض النتائج المثمرة على ما أتصور . فقد تم لهم تعديل نصوص المقترحات الأصلية التي تم طرحها فيما يتعلق بالجيش ، وهي أمور لم يعتقد أحد بأنها جوانب عملية . ومن جانب آخر ، كان طرح أولى هذه المقترحات قد أرعب الملك وأعضاء الحكومة في بادئ الأمر إلى الحد الذي جعلهم مستعدين وممتنين للقبول بأي تعديل بشأنها .»(٦)

---

(٥) كان وزير المعارف في حكومة ياسين باشا الهاشمي الأولى هو المرحوم الشيخ محمد رضا الشبيبي . وبديهي أنه الشخص المقصود هنا - المترجم

(٦) أتاحت زيارة هؤلاء المسؤولين البريطانيين للملك والشخصيات العراقية البارزة فرصة فريدة لعرض مشاكل العراق المختلفة والتعبير عما كان يساور قلوب العراقيين من مخاوف تتعلق بمصير البلاد ، وبذلك حلت المقابلات واللقاءات الشخصية المباشرة محل المراسلات فكان لها أطيب الأثر . وكانت للمداولات التي جرت بصورة خاصة بين جلالة الملك وفخامة رئيس الوزراء من جانب والمستر إيمري من جانب آخر قيمة كبيرة ==

وعندما كتبت جيرتروود رسالتها المؤرخة في الخامس عشر من شهر نيسان ، والتي وجهتها إلى أبيها وزوجته ، كان الوزراء البريطانيون قد ذهبوا إلى البصرة وعادوا منها . وبهذا الصدد تقول : «قابلت المستر إيمري في المتحف ، ثم انطلقنا من هناك معاً في السيارة إلى دار الاعتماد . كان انطباعه بشكل عام إيجابياً . أخبرني بأن العلاقة المتميزة التي تربط بين الضباط البريطانيين والعراقيين قد تركت في نفسه أثراً طيباً ، وبأن الطابع العربي للعراق لم يكن مجرد مظهر خارجي بل حقيقة ملموسة - أي أن العرب يمارسون عملية الحكم في الواقع وإن المستشارين (البريطانيين) يقومون بدور إبداء المشورة والنصح ، وبأن مقدار ما تم إنجازه كان جديراً بالثناء ، وبأن أمن البلد ونظامه لأمر يبعث على الرضا والسرور في آن واحد .»

ويتواصل ذكر الوزراء البريطانيين ونشاطهم كذلك في رسالتها المؤرخة في السادس عشر من شهر نيسان والتي تقول فيها : «رحل الوزراء يوم الثلاثاء . ولا أظن بان السير صموئيل هور Sir samuel Hoare قد حقق أية فائدة تذكر ، فهو رجل ضيق الأفق ومتصلب في آرائه ومواقفه ، أما المستر إيمري والسير جون شوكبورغ فكانا متعاطفين(مع كل ما شهداه من إنجاز وتقدم) وقد تركا خلفهما انطباعاً جيداً . ولعل ما تميز به المستر إيمري بشكل خاص هو انصرافه إلى التحدث بالتركية التي لم يكن قد مارس التخاطب بها منذ عام ١٨٩٨ ، أما في الموصل فقد ألقى كلمة باللغة العربية ، بعد أن تم له حفظها عن ظهر قلب ، أذهلت مستمعيه ، وأدخلت الفرحة في قلوبهم . لقد اعتبروها بادرة طيبة من قبله وإن أخفقوا تماماً في فهم أي مقطع منها .»

وعندما كتبت الآنسة بيل رسالتها المؤرخة في الثاني والعشرين من شهر نيسان ، الموجهة إلى أبيها الذي كان في ذلك الحين يزور كولومبو (عاصمة جزيرة سيلان ، المعروفة اليوم باسم سيريلانكا) لم تكن أوجه معينة من الوضع العام على ما يرام . فقد كتبت تقول : «هناك تحشد عسكري تركي كبير أُعلن ظاهرياً بأنه موجه لقمع التمرد الكردي -

---

== لأنها تناولت بشكل خاص الامتيازات والواجبات التي يختص بها جلالة الملك بموجب الدستور العراقي الذي كان قد تم نشره حديثاً . وكان الهم الشاغل للزائرين هو التوصل إلى أفضل السبل التي من شأنها تحسين وضع الجيش العراقي وتدريبه . وانطلاقاً من ذلك عقدت عدة لقاءات في بغداد للنظر في هذا الأمر . وقبل مغادرة الزائرين تم وضع خطة قبلتها الحكومة العراقية وتم بموجبها تمكين الجيش العراقي من القيام بالقسط الأوفر من مسؤوليات حفظ الأمن الداخلي والسيطرة على الحدود خلال فترة قصيرة جداً - المترجم

الذي كان قد انهار على ما يبدو - إلا أنه من المحتمل جداً أن يكون موجهاً ضدنا ، وضد العراق ، بهدف إرهابنا عندما يتم لعصبة الأمم الإعلان عن قرارها (فيما يتعلق بقضية الموصل على ما أفترض) . ويصاحب هذا التحشّد حملة دعائية مركزة في هذا البلد لم تخفق في ترك بصماتها عليه ، إلى جانب استغلالها من قبل عناصر شريرة وحاقدة . وكانت زيارة لجنة الحدود بحد ذاتها دافعاً للتمرد والخروج على القانون ، فعندما يقوم عدد من السادة المهذبين من أبناء البلدان الأوربية (تقصد أعضاء لجنة الحدود) باستمزاج رأيك بدرجة كبيرة من الجدية والاحترام ، بهدف معرفة ما إذا كنت راغباً في نظام الحكم الذي تعيش في ظله أم تفضل نظاماً بديلاً ، فمن الطبيعي بالدرجة الأولى أن تتصور أن رأيك يتمتع بقيمة كبيرة ، وقد تتوقع الحصول على منافع معينة لقاء تأييدك لهذا النظام . أما بالدرجة الثانية ، فإن من شأن مثل هذه الممارسة أن تدفع بك إلى التساؤل و التفكير ملياً ما إذا كنت حقاً ترغب في نظام الحكم هذا الذي تعيش في ظله ، وتطيع قوانينه وتعليماته .»

وفي التاسع والعشرين من شهر نيسان كتبت تقول : «رحل السيد هلتون يونغ عائداً (إلى بريطانيا) بعد أن قدم تقريراً جديراً بكل تقدير ، وبهذا الصدد فإنني آمل مخلصة أن تعمد كلا الحكومتين المعنيتين إلى تطبيق ما أسداه من نصائح وطرحه من مقترحات .

لا يزال السير هنري دوبس يواصل جولته ، ولا يزال الشيخ محمود من جانب يواصل إثارة المشاكل ، كما لا يزال الوزراء يواصلون التناحر بعضهم مع البعض الآخر ، وبذلك لا أرى أن بإمكان الوزارة مواصلة الصمود لفترة أطول . إنها ، والحق يقال ، وزارة جيدة ، آمل مخلصة أن يكتب لأعضائها تحقيق الانسجام فيما بينهم لاسيما بعد أن تمكنت من الاستمرار في الحكم تسعة أشهر ، وهي فترة قياسية في حياة الوزارات هنا .»

وتتحدث رسالة الآنسة بيل المؤرخة في الخامس من شهر آيار عن عودة السير هنري دوبس والوضع العام السائد قائلة : « لقد عاد السير هنري إلى مقر عمله ، وعندما تناولت معه طعام الغداء يوم الاثنين حدثني عن العديد من المواضيع . قال لي إن الأمور على حدودنا الشمالية لا تبشر بخير ؛ فالأتراك لا يزالون يحاولون إثارة المشاكل ، وحشودهم العسكرية تخيف الناس بشكل عام .»

وفي رسالتها المؤرخة في الثالث عشر من شهر آيار تبدي الآنسة بيل تذمرها من الطقس وتتحدث عن زيارة قامت بها إلى دار الحاج ناجي . تقول : « أمضينا أسبوعاً كان الطقس فيه سيئاً للغاية - لم يكن طقساً حاراً بشكل خاص ، بل تميز بسماء غائمة ، وريح جنوبية مشبعة بالرطوبة ، والكثير من الغبار . إنه طقس لا يخفق أبداً في مضايقة البشر وتعكير

مزاجهم . إلا أن الوضع تغير بشكل مفاجئ ، فقد شهدت ليلة السبت طقساً معتدلاً ، ونسائم عليلة لبضع ساعات ، قررت استغلالها بالتوجه بصحبة كين ولايونيل وإيلتيد إلى بساتين الكرادة ، وتناول طعام العشاء فوق سطح دار صديقي العزيز الحاج ناجي . وبعد وجبة العشاء جلسنا تحت ضوء القمر على مصاطب وضعت فوقها الوسائد ، ورحنا نتجاذب أطراف الحديث . وأثناء ذلك سأل كين الحاج ناجي عن نشاطاته الاعتيادية في المساء ، فأجاب الأخير قائلاً بأنه ينتهي اعتيادياً من تناول طعام العشاء في الثامنة مساءً ، يستقبل بعدها ضيوفه الذين يأتون للتسامر معه حتى العاشرة . وهنا سأل كين مازحاً : إنك تعقد اجتماعات سياسية إذاً ! وإزاء ذلك أجاب الحاج ناجي بازدراء : اجتماعات سياسية ! حاش الله ! إننا نتحدث عن الغلل وما قد نزرعه في اليوم التالي ، وما نحصده في اليوم الذي يليه ، كما نتحدث عن الأمطار والجراد والأسعار ، ولكننا لا نتحدث في السياسة أبداً ، أبداً ! .

شهد القصر الملكي ثورة غضب قامت جلالة الملكة من خلالها بطرد زوجة صفوت باشا العوا من القصر ، وأخبرتها بأنها (أي جلالتها) لا ترغب في حضورها القصر بعد ذلك . وقد سافرت السيدة المذكورة إلى سوريا ، ولا نعلم ما إذا كان السفر هذا سيضع حداً للمشكلة!»(٧)

وفي العشرين من شهر آيار كتبت إلى والدها تقول : « إن الخبر الأهم لهذا الأسبوع هو أن مجلس عصبة الأمم لن يستلم تقرير لجنة الحدود الدولية حتى دورة الخريف ، وهو أمر مزعج للغاية . وإزاء ذلك خرج السير هنري بملاحظة فلسفية مفادها أننا قد انتظرنا تبلور الأمر هذا على مدى السنوات الثلاث الماضية وبذلك لا ضير في الانتظار لمدة ثلاثة أشهر أخرى . إلا أنني لا أستطيع مغالبة مخاوفي من احتمال أن يدفع التأخير باللجنة إلى التحول من الواقع إلى الخيال .

ومرة أخرى تم إنعاش الوزارة ، ودعمها (لتواصل مسيرة العمل) بفضل جهود جلالة

---

(٧) بعد مجيئه إلى العراق ، كان جلالة المغفور له الملك فيصل يسكن في بيت مستأجر وهو البيت المعروف باسم قصر شعشوع المطل على نهر دجلة . وقد خصص البيت المجاور له لسكنى صفوت باشا العوا وعائلته وذلك بالنظر للعلاقة الطويلة التي كانت تربطه بجلالته ، ولكونه قد أصبح ناظراً للخزينة الملكية . إلا أن تصرفات معينة كالتطرف في التقتير والتدخل في أمور شخصية بحتة ، إلى جانب القيل والقال ، قد أسهمت على ما يبدو في خلق صورة تتنافى مع الالتزام بالحد الأدنى من اللياقة الذي يتطلبه القرب من العائلة المالكة الأمر الذي أدى إلى ما آلت إليه الأمور من نتيجة - المترجم

الملك والمندوب السامي وكورنواليس ، ومع ذلك لا يضع الوزراء حداً لخلافاتهم . وسنكون شاكرين للعناية الإلهية إذا ما قدر لها التواصل حتى انعقاد دورة البرلمان التالية .»

على الرغم من أن المطلع على رسائل الآنسة بيل قد لا يكاد يمكنه اكتشاف واقع أنها كانت بحاجة ماسة إلى الراحة والاستجمام ، إلا أن استنتاج ذلك لا يمكنه إلا أن يكون أمراً بديهياً . إنها كانت تخطط لقضاء إجازة في إنجلترا خلال فصل الصيف ، وهو الموضوع الذي تنتهي من عنده رسالتها الأخيرة (أي تلك المؤرخة في العشرين من شهر أيار) قائلة : «إذا ما قُدر لي المجيء إلى الوطن في شهري آب وأيلول ، لن أكون على استعداد للقيام بجولة زيارات للأهل والأصدقاء ، بل أود قضاء الإجازة بهدوء في راونتون . فهل لك ، يا أماه ، أن تتولي بكياستك المعروفة ، ودبلوماسيتك المشهودة ، وضع حد لأي مقترحات قد تطرح خلافاً لما أبديته من رغبة؟ إنك ترين أحلاماً غريبة ، أليس كذلك ؟ كم أرغب في أن أحلم ، إذ أن من شأن الأحلام أن تزيد من متعة الليالي .»

وفي رسالتها المؤرخة في الثالث من شهر حزيران ، تتحدث الآنسة جيرتروود عن الملك والعائلة المالكة قائلة : «يعاني جلالة الملك من سوء الهضم بسبب همومه العائلية على ما أظن . وقد أخبرني بالأمر عندما ذهبت لتناول الشاي معه عصر اليوم . ومن جانب آخر أسعدني خبر مفاده أن صفوت باشا وعائلته سيختارون سكناً في المدينة بعد أن عاشوا داخل منطقة القصور منذ قدومهم من سوريا . وهنا يكمن أساس المشكلة على ما أظن ، إلى جانب احتمال أن تكون جلالة الملكة سيدة ليس من السهل التعامل معها وإرضاؤها . فمن الصعب جداً على سيدة شرقية نمت وترعرعت في مكة أن تُزدرع في محيط يكاد يكون أوربياً ، وأن يتوقع منها التأقلم بسرعة ، وهو واقع يمثل جانب المشكلة الخاص بجلالة الملكة .»

وفي رسالتها المؤرخة في العاشر من حزيران تقول الآنسة بيل : « إن دوري الرئيسي هنا في الوقت الحاضر يتمحور على ما يبدو حول ترتيب شؤون الملك الشخصية وتصحيحها . إن جلالته يرفض بشكل قطعي فكرة السفر إلا بعد تسوية مشكلة الحدود ، إلا أنه عمد إلى الهروب إلى مزرعته حيث تم له بناء عدد من السقائف وتجهيزها بمراوح سقفية مما جعله يشعر بالراحة والمتعة ، الأمر الذي بات جلالته من خلاله في وضع نفسي أفضل .

إننا نعيش في غمرة الانتخابات (البرلمانية) التي تعكس نتائجها حتى الآن ما يبشر بالخير بعد أن أخفق متطرفون معينون في تحقيق النجاح ، الأمر الذي يُعتبر إشارة تدفع إلى التفاؤل . لا أظن أن المجلس سيتمكن من عقد جلساته قبل حلول فصل الخريف ، علماً أن ليس هناك ما يدعو إلى اجتماعهم أساساً إلا بعد أن تكون الحكومتان (البريطانية والعراقية)

قد اتخذنا قراراً . بشأن تقرير هلتون يونغ .[8]

(٨) يمكن القول أن وزارة ياسين باشا الهاشمي الأولى كانت تمثل (حكومة المواهب) إن صح هذا التعبير ، ولكن نظراً لعدم وجود برامج بديلة تحظى بدعم من لدن الأحزاب في تلك الفترة المبكرة من حياة العراق السياسية ، فإن تواصل بقاء حكومة الهاشمي ، أو سقوطها ، شأنها بذلك شان الحكومات الأخرى التي سبقتها ، كان يعتمد على ما تستطيع تحقيقه من إجماع في داخل صفوفها ، وعلى دعم البلاط الملكي أو إخفاقها في تحقيق كليهما . وقد انهمكت الوزارة طيلة فترة بقائها في الحكم في السياسات المتعلقة بقضية الموصل من جانب ، وفي المعاناة مما يترتب على خزينة خالية الوفاض من شعور بالإحباط . وتعتبر الفاقة بلية تشترك في المعاناة منها كل أنظمة الحكم الفتية من غير استثناء . ومما زاد من حدة الفاقة إبان فترة حكم وزارة الهاشمي الأولى ، وفي عام ١٩٢٥ بالذات ، ما أصاب الحاصلات الزراعية من أضرار جسيمة نتيجة لظهور مختلف الآفات الطبيعية الأمر الذي أدى إلى ارتفاع أسعار الحبوب المعاشية ارتفاعاً مرعباً . ومن جانب آخر ، توقفت جباية الأموال الحكومية . وأرادت الحكومة التخفيف من حدة الأزمة فقررت إلغاء رسوم الواردات الجمركية على الحبوب المعاشية المستوردة من الخارج . وشطبت بعض الديون المستحقة ، ومنحت قروضاً إلى المحتاجين من بين مزارعي المنطقة الشمالية ، وعمدت إلى تخفيض رواتب معينة لاسيما الباهظة منها بقياس تلك الأيام . وقد شاء جلالة المغفور له الملك فيصل الأول أن يشاطر ما كان يعانيه شعبه من ضيق اقتصادي فأمر بتخفيض راتبه الملكي البالغ ٧٨٠,٠٠٠ روبية في العام ، أي ما يعادل -/١٠٤٠٠ دينار بحساب اليوم ، إلا أن البادرة لم تلق استجابة من ياسين باشا ووزرائه انطلاقاً من كثرة التكاليف الملكية المطلوبة . وقد اقترحت الحكومة البريطانية في حينه إرسال بعثة مالية لتدارس الوضع المالي والمشاريع التي ينبغي للعراق القيام بها . وبعد مداولة الأمر مع الحكومة العراقية ، تم إرسال بعثة تضم الرائد البحري هلتون يونغ والسيد فيرون استهدفت التوصل إلى الوسائل الكفيلة بتحقيق توازن ميزانية العراق في دور المعاهدة وبعدها ، مع الأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الأمن والدفاع والإدارة والإعمار ، وأحكام الاتفاقية المالية ، وحصة العراق من الديون العثمانية المفوضة وفق معاهدة الصلح (معاهدة لوزان) مع رفع تقرير مفصل عن كل ذلك إلى حكومة جلالة ملك بريطانيا . وقد اقترحت اللجنة حلولاً عملية ومعقولة كفرض الضرائب على الأشغال والمهن الحرة وعلى البضائع المستوردة وزيادة الرسوم الجمركية على الأقمشة والسكر والشاي والتبغ . ومن جانب آخر فإنها أوصت بقيام الحكومة البريطانية بشطب قسم كبير من الديون التي ترتبت على الحكومة العراقية نتيجة تحويل بعض المرافق التي كانت قد أُنشئت لمصلحة الجيش البريطاني إلى الحكومة العراقية . إلا أن التقرير بكل ما تضمنه من جوانب إيجابية ومفيدة بقي حبراً على ورق إذ لم يأبه به أحد ، شأنه بذلك شأن معظم التقارير التي قدر للعراق الحصول عليها من قبل الاختصاصيين ، وأنفقت الحكومة عليها مبالغ طائلة . ومع كل ذلك يمكن القول أن الحكومة العراقية تمكنت من الوفاء بكل ما ترتب عليها من ديون ، وإن تم ذلك على حساب بقائها خالية الوفاض لسنوات عديدة - المترجم .

وفي رسالتها المؤرخة في السابع عشر من شهر حزيران جاء ما يلي : «تناولت طعام العشاء أنا و كين في دار إيلتيد الذي استضاف نوري باشا كذلك . وعندما نجتمع نحن الثلاثة ، أنا وكين وإيلتيد ، مع أحد المقربين منا من أبناء العرب ، نشعر حقاً بمدى ارتباطنا العميق بمقدرات هذا البلد . إننا لا نشعر بارتياح إزاء الجوانب المتعلقة بالجيش العراقي . فإلى جانب كل ما يتعلق بتأسيسه وتطويره ، فإن هذا الجيش ليس كما ينبغي له أن يكون ، وإن أحد أسباب زيارة السيد إيمري إلى العراق كان لغرض إعادة النظر في الخطة الخاصة بتدريبه وإعداده . وأخشى أن الضباط البريطانيين العاملين في كوادر الجيش العراقي العليا قد فقدوا الحياة ، إن صح هذا التعبير ، وهو جانب أساسي .»

وفي الرابع والعشرين من شهر حزيران كتبت تقول : «إننا لا نزال نعيش أزمة من الناحية السياسية . فقد قررت الحكومة أخيراً تقديم استقالتها ، وقد كُلف ياسين باشا بتشكيل حكومة جديدة إلا أنه أخفق في هذه المهمة على الرغم محاولاته الحثيثة على مدى يومين متتاليين . وبذلك تم تكليف عبد المحسن بك السعدون بالقيام بتشكيل الحكومة الجديدة . ولن يجد عبد المحسن بك بدوره المهمة سهلة بالمرة ، ولكنني أتمنى له كل التوفيق . إنه رجل نبيل وجدير بالتكريم ، كما إنه يناضل في سبيل إرساء دعائم الاستقرار .»

كانت الحكومة الجديدة قد تم تشكيلها برئاسة عبد المحسن بك السعدون قبيل توجه الآنسة جيرتروود إلى إنجلترا . وقد أعربت عن فرحتها بهذا الحدث ، وبتبوئ عبد المحسن بك السعدون منصب الرئاسة ، في رسالتها المؤرخة في الفاتح من تموز والتي قالت فيها : «إنني فرحة باختيار السعدون رئيساً ، وبنجاحه في تشكيل الحكومة الجديدة التي أعتقد بأنها ستكون حكومة قوية . أما جلالة الملك فمنهمك في تشكيل مجلس الأعيان ، وهي ممارسة مقلقة ومزعجة في آن واحد . وكان قد عثر صباح هذا اليوم على رجل كنا قد أصدرنا حكم الإعدام بحقه في عام ١٩١٨ لاشتراكه في قتل النقيب مارشال (الضابط السياسي) في النجف ! ولقد فهمت لاحقاً بأن اسم هذا الشخص بالذات سيشطب (من قائمة المرشحين لدخول مجلس الأعيان) . ويمكن القول بوجه عام أن قائمة المرشحين لا بأس بها .

لقد عشنا أسبوعاً مروعاً تميز بالعواصف والغبار الشديد الأمر الذي أرهقني ، وقد جاء ذلك بالإضافة إلى عناء الاستعدادات التي تسبق السفر .»

كانت هذه آخر رسالة كتبتها الآنسة بيل قبيل سفرها من بغداد .

١٩٢٥

وصلت الآنسة جيرتروود بيل إلى لندن في السابع عشر من شهر تموز وكانت «في حالة إعياء عصبي حاد ، كما بدت مرهقة لا فكرياً فقط بل بدنياً كذلك» على حد تعبير الليدي بيل في كتاب «رسائل جيرتروود بيل .» وقد اتفق طبيباها ، وهما كل من الدكتور السير توماس باركنسون Sir Thomas Parkinson ، والدكتور توماس بودي Thomas Body على أنها كانت بحاجة إلى قدر كبير من العناية والرعاية ، ولا ينبغي عودتها للعيش في ظروف بغداد المناخية . أما بالنسبة إلى الآنسة جيرتروود فكان أمر العودة إلى بغداد هو غاية ما تتمناه ، وذلك على الرغم من اضطرارها إلى الاعتراف بقولها «ولعلها تكون العودة الأخيرة .» وانطلاقاً من هذا الشعور بالخوف ، فإنها طلبت من صديقتها السيدة جانيت كورتني Mrs. Janet Courtney ، التي اجتمعت بها بعد يوم أو يومين من وصولها ، أن تقترح عليها مجال عمل يمكنها دخوله في إنجلترا . وكان برأي السيدة كورتني أن بإمكان الآنسة بيل دخول البرلمان ، إلا أن الفكرة لم ترق لها أبداً بسبب «ما أكنه من كره لهذا النوع من النشاط السياسي ، وهو كره لا يسعني قهره» وذلك على حد تعبيرها في الرسالة التي كتبتها إلى السيدة كورتني بهذا الخصوص ، والتي أنهتها بعبارة شكر قالت فيها : «وإنني إذ أعبر عن رأيي هذا ، لا يسعني سوى التقدم بشكرك شكراً جزيلاً على طرحك هذه الفكرة على الرغم من موقفي إزاءها .»

وفي الحين ذاته ، ومن خلال رسالة وجهتها إلى زوجة أبيها من بيت العائلة في لندن حيث كانت برفقة أبيها ، قالت الآنسة بيل : «كم أسعدني سماع صوتك عبر أسلاك الهاتف . إنني أتطلع بشوق إلى المجيء إلى راونتون ، والتمتع براحة تامة في أحضان عائلتي الكريمة .»

وبعد فترة راحة قضتها جيرتروود في ربوع مقاطعة يوركشاير ، والتمتع ببهجة حدائق دار العائلة التي كانت أساساً قد أسهمت في تنظيمها ورعايتها ، بدأت تتماثل إلى الشفاء بصورة تدريجية . بعد ذلك ذهبت إلى اسكوتلندا حيث حلت ضيفة على السيد لايونيل دوجديلس Lionel Dugdales في منتجع كاربراك Carbrac ، الواقع في منطقة هنتلي Huntly ، وهو الموقع الذي قالت عنه أنه «مكان بهيج حيث تنتعش فيه الزهور البرية ، وحيث هواؤه العليل أشبه بروعة النبيذ . أشعر بان هذه الإجازة قد عادت عليّ بفائدة كبيرة ،

لا سيما نتيجة ما لمسته من حب ورعاية من لدن السيدة فايوليت Violet (زوجة لايونيل دوجديلس) باركها الرب ورعاها .»

وهكذا مضت أسابيع إجازتها القصيرة بسرعة ، وفي نهاية شهر أيلول وجدت نفسها مرة أخرى في بيت العائلة في لندن . وحول أيامها الأخيرة في إنجلترا ، كتبت جيرتروود إلى زوجة أبيها ، التي بقيت في مسكن العائلة في يوركشاير ، قائلة : «والدتي العزيزة - قبل أن أذهب إلى الفراش ، لابد لي أن أخبرك كيف قضيت يومي الذي بدأ في التاسعة صباحاً بذلك الحضور الجميل لحبيبتي بولين ترافيلين Pauline Travelyan (ابنة أختها مولي) التي جاءتني بعد أن كنت قد انتهيت من تناول طعام الفطور . وفي العاشرة والربع زارتني الحبيبة ملي (صديقة جيرتروود العتيدة السيدة ملدريد لوثير) Mildred Lowther واصطحبتني إلى كل المكاتب التي يتعين علي مراجعتها من أجل شراء تذاكر السفر وتثبيت الحجوزات اللازمة . عدت بعد ذلك في تمام الواحدة لأنطلق فوراً للقاء العزيزة إيزمي دوبس التي دعتني لتناول طعام الغداء في مطعم فندق غروفنر The Grosvenor Hotel كانت لطيفة جداً كعهدها دائماً . وأثناء توديعي لها بعد الغداء قالت لي : « لابد إنك عادة ، شأنك بذلك شأن المخدرات أو ما شابه ذلك من الأمور التي لا يمكن الإنسان نبذها متى ما بدأ الإنسان تعاطيها والاعتياد عليها .» وفي الرابعة والنصف زارتني العمة مايسي Aunt Maisie (أي الليدي شفيلد Lady Saeffield شقيقة والدها) . وكنت على وشك الخروج من البيت عندما زارني السير برسي كوكس الذي قضيت معه نصف ساعة من الزمن فكانت مناسبة في غاية الروعة . وأثناء وجود السير برسي جاءني الحبيب دومنول الذي قضيت معه ما يقرب من ربع ساعة من الزمن بعد ذهاب السير برسي ، ولم يمض إلا بعد مجيء السيد مونتاجيو بيل Mr. Montague Bell (من دائرة شؤون الشرق الأدنى) الذي لم أستطع منحه أكثر من عشرين دقيقة من وقتي ، إذ أصبح الوقت متأخراً وكان علي الإشراف على ما كانت تقوم به ماري من نشاط يتمحور حول تجهيز حقائب السفر . وفي الساعة الثامنة انطلقت لتلبية دعوة العشاء التي أقامها المستر إيمري (وزير المستعمرات) والتي دعي إليها جلالة الملك فيصل ومرافقه العسكري والسيدة مادج تالبوت Mrs Madge Talbot . كانت مناسبة ناجحة بدا المستر إيمري فيها مُشجعاً للغاية ، كما بدا جلالة الملك فيصل في غاية الانشراح . وأنا الآن في طريقي إلى الفراش ، ولكنني لن أخلد إلى النوم قبل أن أقدم لك جزيل شكري وامتناني على مجموعة الكتب التي قمت مشكورة بإرسالها لي لقراءتها أثناء رحلة العودة إلى بغداد . أماه ! إني أحبك أكثر مما تتمكن العبارات من وصفه ، والتعبير عنه .»

وكانت آخر رسالة كتبتها جيرتروود من بريطانيا في هذه المناسبة هي تلك التي وجهتها إلى أبيها ، الذي كان قد بقي في راونتون أثناء وجودها في لندن ، والتي تقول فيها : « أبتي الحبيب - كانت رسائلك ذات فائدة عظيمة ، وإذا قدر لك أن تعمل على تعيين السيد أوكونر Mr. O'Connar (من قسم الاستعلامات في إدارة السكك الحديدية البريطانية - المنطقة الجنوبية) رئيساً لوزراء بريطانيا فإن ذلك لن يفيه حقه باعتباره موظفاً كفؤاً ورجل علاقات عامة رائعاً فقد تمكن من ضمان حصولي على حجز مؤكد في كل القطارات المزدحمة ، كما سيقوم بإرسال سيارة في التاسعة وخمس وأربعين دقيقة من صباح الغد لتنقلني من البيت إلى محطة القطار . لقد سبق لي إخبار الوالدة بكل تفاصيل نشاطي يوم أمس ، وكل ما أود قوله لك هو أنني سأبقى دائماً وأبداً ابنتك المحبة .»

***

في أثناء رحلة العودة إلى بغداد ، حظيت جيرتروود برفقة إحدى بنات أعمامها المفضلات ، وهي السيدة حرم النائب (المتوفى) أنطوني هينلي The Hon.Anthony Henley ، وقد قُدر لهذه الرفقة أن تكون لصالح السيدة هنلي أيضاً ،إذ كانت أول مناسبة لها للسفر بحراً بمفردها بعد وفاة زوجها قبل بضعة أشهر ، وبذلك كانت بحاجة ماسة إلى رفيق سفر .

وفي الرابع عشر من شهر تشرين الأول كتبت الآنسة جيرتروود من بغداد قائلة : «إن العودة (إلى بغداد) شيء رائع ، وعلى مدى أول يومين من عودتي لم أتمكن من القيام بأي عمل بالمرة بسبب السيل المتواصل من الأصدقاء والمعارف الذين توافدوا لزيارتي والسلام عليّ .»

«أثناء توقفي في بيروت في رحلة العودة ، جاءني المفوض دينتز Commandant Dentz الذي لم تكن زيارته لي مجرد بادرة مجاملة ، بل لأنه كان يود إيصال رسالة إلى السير هنري عن طريقي . ولقد قام بالكشف عن نواياه من غير مواربة قائلاً إن سوريا تعاني من وضع محفوف بالمخاطر ، فعصابات اللصوص منتشرة في كل مكان ، وثورة الدروز لا تزال قائمة ، ولا يمكن إخماد جذوتها (فالفرنسيون يسيطرون على ما يقرب من ثلث منطقة جبال الدروز ، إلا أنها سيطرة غير محكمة بسبب افتقار المنطقة إلى الموارد المائية الأمر الذي يحول دون التمكن من وضع قوات فيها بشكل متواصل . كما أن ساريل Sarrail قد فقد سيطرته على البلاد ، وهكذا فإن الفوضى تعم أرجاءها . ثم ألمح إلى قضية الموصل مبيناً أن أهميتها

للفرنسيين لا تقل عن أهميتها لنا ، وفي حال خسرنا الموصل فمن المحتمل جداً عدم تمكنهم من الاحتفاظ بحلب – وكنت أود أن أضيف قائلة أنهم لن يتمكنوا من الاحتفاظ بأي جزء من سوريا – وقد طلب مني القيام بإبلاغ السير هنري رسالة في غاية الأهمية مفادها ضرورة أن يعمد كلانا (الفرنسيون والبريطانيون) إلى تفادي كل ما من شأنه أن يعكس أية صيغة لتصدع العلاقات القائمة بين السلطتين الأوربيتين . ولابد لي من القول أنني أؤيد هذا التوجه تأييداً تاماً في إطار وقوف أوربا ضد تركيا . إلا أنني كتمت هذا الشعور من جانبي ، ووعدته في الحين ذاته بأنني سأبلغ رسالته إلى السير هنري ، مؤكدة له بأنني ، وبقدر ما يمكنني ممارسته من قدرات وصلاحيات متواضعة ، لن أتوانى عن تشجيع إدامة علاقة التفاهم والصداقة والوئام . إننا (أنا والمفوض دينتز) نظيران ذلك لأنه يقوم بإعداد رسائل ساريل الموجهة لنا وأقوم أنا بدوري بإعداد رسائل السير هنري الموجهة إلى ساريل .»

وفي الحادي و العشرين من شهر تشرين الأول كتبت إلى زوجة أبيها قائلة : « والدتي العزيزة – لابد لي من شكرك على رسالتيك المؤرختين في اليومين الأول والسادس من شهر تشرين الأول . كم سرني أن أدرك ترحيبك بي كلما زرت مكتبتك (في راونتون) ، على الرغم مما أكون قد تسببته من انقطاع في سلسلة أفكارك . أشعر وكأنني لم أعرفك حق المعرفة قبل هذه الزيارة (الأخيرة) . ولعل ما زاد من اقتراب أحدنا من الآخر هو أننا عشنا ظروف الأزمة التي عانتها العائلة (أي الظروف الاقتصادية غير المؤاتية والأسباب المالية التي كانت تدفع بالسير هيو وزوجته إلى ترك راونتون) وما عكسته أنت شخصياً من شجاعة وسداد رأي لم يخفقا في استقطاب إعجابي بك ، وتقديري الكبير لموقفك . ومهما كان من أمر هذه الظروف ، فإنني على يقين تام بأن حبي لك قد بات أضعاف ما كان عليه في السابق ، وبذلك لا يسعني سوى القول بأنني سعيدة جداً لتمكني من أن أكون بينكم خلال الصيف المنصرم ، ولإحساسي بأن كلينا يشعر أن التجربة التي قدر لنا أن نعيشها معاً كانت رائعة .

أرى أن الاحتمالات المستقبلية هنا تبشر بخير . ولعل ما يدهشني هو هذا الهدوء التام الذي يتم من خلاله التعامل مع التأخير الذي تشهده قضية الموصل . ويسود البلد جو مختلف (عن الأجواء التي اعتدنا أن نعيشها في السابق) الأمر الذي دفعني إلى التفكير بأن عودتي لم تكن لها أية ضرورة إذ كان من المحتمل جداً أن تسير الأمور سيراً حسناً من غير وجودي .»

شاءت الأقدار أن يعكر المرض صفو الفترة التي قضتها سيلفيا هينلي في بغداد ، ويفسد

فرحة وجودها مع جيرتروود ، على الرغم من أن المناسبات المعدودة التي قدر لها فيها الخروج ، وقضاء أوقات طيبة ، كانت ممتعة للغاية . وتعطينا جيرتروود صورة حية عن حضور سلفيا إلى ساحة سباق الخيل من خلال رسالتها المؤرخة في الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول والتي تقول فيها إنها «بدت ساحرة بفستانها الموسلين ذي اللونين الأسود والأبيض . ولقد تمكنت من خلق جو من الإثارة حيثما ظهرت في المجتمع البغدادي . إلا أن سوء الطالع كان قد كتب علينا على ما يبدو - فما أن شفت سيلفيا من لفحة البرد التي أصابتها حتى اضطرت إلى ملازمة البيت بسبب ما أُصيبت به عينها من التهاب حاد . وعلى الرغم من صبرها على هذه المضايقات المحزنة ، لم يكن بمقدورها مغالبة شعورها بالملل نتيجة اضطرارها إلى ملازمة الدار . أما أنا من جانبي ، فقد انهمكت في العمل بشكل مرهق جداً . وفي صباح يوم الأحد تناولت فطوري في الفراش ، وحاولت التظاهر بأنني لم أكن سكرتيرة شرقية مجهدة ومرهقة . بعد ذلك قمت بكتابة مذكرتين قيمتين تناولتا العادات والأعراف العشائرية - فأثناء غيابنا أنا وكين (عن العراق) أخطأ المسؤولون (البريطانيون) على ما يبدو في التعامل مع العناصر البدوية ، ورفعوا إلى السير هنري (توصيات حول الإجراءات التي ينبغي اتخاذها ضد هذه العناصر) تعكس بوضوح لمن يعرف الصحراء وطبائع سكانها مدى حماقتها وابتعادها عن واقع الحال . وقد صُعقنا أنا وكين إزاء ما حدث ، إلا أن كين لم يشأ توبيخ العاملين بإمرته ، وإبراز مقدار جهلهم ، مباشرة بعد عودته إلى مقر عمله . وعليه اتفقنا (أنا وكين) على ضرورة إفادة المندوب السامي بحقائق الأمور بهدف تصحيح الوضع . وقد قام السير هنري نتيجة ذلك بالموافقة على ما جاء في كلا المذكرتين اللتين رفعتهما له ، وعمد إلى إرسالهما إلى وزارة الداخلية طي توجيهات تفيد بضرورة تعديل السياسة التي تم اعتمادها (وفق ما توصي به كلا المذكرتين .)»

وفي رسالتها المؤرخة في الثالث من شهر تشرين الثاني تتطرق جيرتروود مجدداً إلى مرض قريبتها سيلفيا قائلة : «لا زال الشعور بالحزن يخيم على أجواء بيتي ، إذ تتواصل معاناة سيلفيا من جراء ما أصاب عينها من التهاب حاد . وبعد عودتي من المكتب ، قضيت الوقت في الحديث معها ، وتسليتها عن طريق قراءة نصوص أدبية معينة لها ، الأمر الذي شغلني تماماً في ذلك اليوم عن القيام بأي شيء آخر .»

وفي الحادي عشر من شهر تشرين الثاني كتبت الآنسة بيل تقول : « زارني في المكتب صباح يوم الخميس أستاذ جامعي أمريكي الجنسية اسمه رايت Wright بصحبة زوجته . إنه أستاذ القانون في جامعة شيكاغو ، وقد كشف لي عن رغبته في القيام بدراسة النظام

الانتدابي بشكل عام ، و في إطار علاقته بالقانون الدولي بشكل خاص . وإزاء طرحه هذا أجبته قائلة أنه لم يختر المكان الصحيح للقيام بدراسته المذكورة ، إذ إننا قد استبدلنا الانتداب بمعاهدة . أجابني الأستاذ رأيت قائلاً إنه لم يفهم ما نقصد بذلك (أي استبدال الانتداب بمعاهدة) - وبديهي أنه ظن أن توجهنا هذا لم يكن أكثر من كلام فارغ . وبما أن مشاغلي لذلك اليوم لم تكن كثيرة ، قررت تجنيد ساعة من وقتي بهدف شرح أبعاد الموضوع له . وقد بدا لي رجلاً يستحق منا بذل الوقت والجهد لوضعه في الإطار الصحيح للأمور ، وعليه فقد رتبت له لقاءً مع كين وأفراد آخرين لهذا الغرض . وفي صباح يوم الأحد اصطحبته وزوجته في زيارة للمتحف - الذي أخذ يبدو مجالاً رائعاً (بلغة ما بدأ يحتويه من آثار) ، والذي أتمنى مخلصة أن يتم اختيار مكان أفضل له ! لقد انتهت مهمة السيد ولسون ورحل عن العراق ، وقد انطلقت يوم الجمعة مع مجموعتنا لوداعه . إنني أفتقده كثيراً .»

وفي رسالتها المؤرخة في الثامن عشر من شهر تشرين الثاني تعود الآنسة بيل مرة أخرى إلى ذكر سيلفيا فتقول : «إنني أزداد قناعة يوماً بعد يوم بأن الشرق ليس بمكان مناسب للعزيزة سيلفيا . ويوصي الأطباء بضرورة الإسراع في رحيلها عن العراق حال تماثلها إلى الشفاء . لم أجرؤ على إخبارها بذلك ، كما لم أجرؤ من ناحية أخرى على دعوتها لمصاحبتي إلى الموصل . إن ما يثير في نفسي شعوراً بالحزن والأسى هو أن تثبت زيارتها إلى بغداد «ممارسة فاشلة» ، على حد تعبيرها . أما من ناحيتي أنا فيمكنني القول بشيء من الأنانية أن مجيئها كان مصدر سعادة كبيرة بالنسبة لي ، فقد كان من شأن وجودها معي أن يريحني ويسعدني إلى أبعد الحدود ، فقد ثبت لي أنها رفيقة رائعة وجليسة ممتعة ، وقد أمضينا معاً أوقاتاً سعيدة ، لا سيما في الفترات التي لم يحل المرض دون ذلك . وعندما أفكر بمقدار ما كان يحتمل أن يحققه وجودنا معاً من نجاح ، لا يسعني مغالبة رغبتي في البكاء .

ولا بد لي من كلمة تتعلق بجلالة الملك فيصل (الذي كان قد عاد لتوه إلى بغداد قبل بضعة أيام .) لقد كان له حوار مذهل مع وزارة الخارجية الفرنسية Quai d'Orrsay عندما زار باريس ، وتصرف بتحفظ واحتشام وحكمة مما أثار الإعجاب والتقدير . لا أعني بكلامي هذا أنهم يعرضون عليه تاج سوريا ، ولكنهم باستثناء ذلك أعلنوا له عن نبذهم لكل محاولاتهم ومخططاتهم السابقة[1] . وأنا من جانبي أرى أنهم غير قادرين على القيام بشيء ، وإن

(١) أي المخططات والمحاولات التي استهدفت بالأساس زعزعة أركان نظامه تمهيداً للإطاحة بحكمه والتخلص منه - المترجم .

الفشل حليفهم في كل ما بنصرفون إلى تحقيقه من أهداف . أما وحدة البلدان العربية فأمر سيتحقق لا محال .

أُرفق لك طي رسالتي هذه (نسخة من) مذكرتي «السرية للغاية» التي كنت قد رفعتها إلى المندوب السامي . إنه لا يتفق مع ما توصلت إليه من استنتاج ، وهو ما يذكره في الكتاب الموجه أصلاً إلى المستر إيمري ، والذي سيتم إرسال مذكرتي هذه طيه . وقد دار بيني وبين المندوب السامي حوار ممتع حول الأمر صباح اليوم ، وقد أخبرته عن شعوري بالفرحة إزاء كتابه الموجه إلى السيد إيمري لاعتقادي أن ما طرحه فيه من حجج ، وبينه من مبررات سيتهاوى لا محالة أمام ما سيجابهه من صيغ النقد والتحليل . إننا على ما أرى مقبلون على أوقات صعبة وإن تكن جوانب لا تخلو من متعة وإثارة . وكان تقريري قد كتب في الثالث من شهر تشرين الثاني ، أي قبل قيام الفرنسيين بطرح مبادرات الصداقة والتفاهم أمام فيصل . لقد كان من شأن هذه الخطوة (من جانب الفرنسيين) أن توضح إنني لم اكن قد استقللت وضعهم ، أو استخففت به . لقد كان للملك فيصل حوارات طويلة مع بيرتيلوت Berthelotودي كاي M.de Caix ورؤساء دوائر آخرين في وزارة الخارجية الفرنسية . وكان بيرتيلوت شخصياً الرجل الذي حاول الاستهزاء بفيصل وإهانته في عام ١٩١٩ . هل لك يا أبتاه ، أن تتصور مدى مرارة وصعوبة اضطراره (بيرتيلوت) بعد هذه السنين إلى الالتفات إلى الملك فيصل وطلب العون والمشورة من جلالته؟ وهل لك أن تتصور حراجة موقف المسيو دي كاي وهو يعترف لجلالته بأننا (البريطانيين) قد نجحنا في تفسير وتطبيق التزاماتنا الانتدابية ، بينما أساء الفرنسيون تفسيرها وتطبيقها ؟ ياللحياة ! ياللزمن !»

تتحدث رسالة الآنسة جيرتروود المؤرخة في الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني عن دعوة عشاء أقامتها في دارها واستضافت فيها جلالة الملك وأخاه الأمير زيد ، ولايونيل سميث ، والنقيب هولت . وبهذا الصدد تقول أن الملك كان في مزاج رائع مما أضفى جواً من المرح كان له أثره البارز على المدعوين كافة ، لا سيما النقيب هولت .

في الأيام الأولى من شهر كانون الأول بات من الضروري جداً تأمين وصول سيلفيا هينلي إلى إنجلترا في أقرب وقت ممكن . وفي خضم الانهماك بهذا الهم – وكأن المآسي تأبى أن تحل على الناس بشكل منفرد – وردت إلى جيرتروود أخبار عن إصابة هيوغو ، أخيها غير الشقيق ، بمرض التايفوئيد أثناء رحلة عودته من جنوب أفريقيا إلى الوطن بصحبة زوجته وأطفاله .

ويشكل مرض أخيها ، والاستعدادات الخاصة بسفر سيلفيا هينلي ، محور رسالة الآنسة

بيل المؤرخة في التاسع من شهر كانون الأول ، والموجهة إلى زوجة أبيها ، والتي تقول فيها : «أشاركك ما تعانينه من هم يتعلق بالعزيز هيوغو ، وأكاد أرتعد خوفاً من البريد القادم ، إيماناً مني بأنك لن تلجئي إلى الرسائل البرقية في حال وجود أخبار لا تسر ، لا سيما بسبب انشغالي التام بحالة سيلفيا الصحية .»

وفي اليوم نفسه أيضاً ، أي في التاسع من شهر كانون الأول ، كتبت إلى والدها تقول : «اصطحبت سلفيا إلى المطار يوم الخميس ، وبعد أن ودعتها قفلت عائدة إلى البيت حيث عمدت إلى حزم ملابسي وحاجياتي في حقيبة ، وتناولت وجبة عشاء مبكرة ، لأنطلق بعد ذلك إلى محطة القطار والتوجه إلى خانقين للقاء جلالة الملك . وقد رافقني كين أيضاً . وعند وصولنا في السادسة صباحاً ،كان باستقبالنا حشد من مرافقي جلالته وأعوانهم الذين سارعوا إلى نقلنا إلى بيت جلالته الريفي . كان بيتاً جميلاً ومريحاً للغاية على الرغم من صغر حجمه . إنه البيت الذي أشرفت أنا بالتعاون مع إيلسي Elsie سندرسن على تأثيثه ، وهو نشاط وجدنا فيه متعة كبيرة . بعد تناول الفطور انطلقت مع زيد وكين في رحلة للصيد في أحراش ديالي استغرقت زهاء الأربع ساعات . كان الطقس حاراً(نسبياً) ولكنه لذيذ ، وقد اصطدنا ما يكفي من الدراج والفر لإرضاء غرورنا . وفي اليوم التالي لم أستيقظ قبل الثامنة صباحاً ، ولم أظهر لتناول وجبة الفطور إلا في التاسعة . وكان جلالته قد تناول فطوره ، ولكنه جلس بجانبي أثناء تناول وجبتي . بعد ذلك رحنا نتجاذب أطراف الحديث إلى حين وصول السيد توماس Mr. Thomas ، وهو خبير زراعي مستخدم في الوقت الحاضر من قبل شركة مزارع القطن في ديالي . وعلى مدى ساعة من الزمن تكلمنا عن زراعة القطن ثم انطلقنا بعد ذلك بالسيارة إلى الحقول الخاصة به . وكان طعام الغداء يتعقبنا في سيارة كانت تسير خلفنا . كانت تجربة ممتعة للغاية . وكان قطن الملك من النوع الممتاز ، وقد شهدنا عملية القطف . بعد ذلك تجولنا في الحقول ، وبدا جلالة الملك في غاية الرضا والارتياح .»

وعندما حل يوم الاثنين ، كانت الآنسة بيل تجلس في مكتبها (في بغداد) عندما وافتها أنباء قالت أنها «أخبار خطيرة تتعلق بنشاطات تركية على الحدود . وبعد أن عمدت إلى جدولتها ، أخذتها إلى بيرنارد الذي وجدته في حالة قلق شديد إزاء أخبار أكثر خطورة - وفي غاية السرية - تم استلامها من الوطن (بريطانيا) . وبعد المداولة حولها أشرت على بيرنارد بضرورة إعلام كورنواليس بها برقياً ، وحثه على ضرورة التوجه إلى الموصل على الفور لغرض مراقبة ما يدور هناك من أحداث وإعلامنا ، إذ كان الأخير هذا قد انطلق فجر اليوم ذاته في رحلة إلى مدينة العمارة . وقد سارع برنارد فوراً إلى تنفيذ ما أشرته عليه من إجراء ،

كما قمت أنا بدوري أثناء النهار باقتراح فكرتين أخريين عمد برنارد كذلك إلى تنفيذهما . وبعد أن انتهيت من كتابة تقريري نصف الشهري ، انطلقت مع لايونيل سميث لتفحص مبنى جديد أضيف إلى المتحف . بعد ذلك زارتني إيلسا لتستشيرني حول ما راودها من أفكار تتعلق بتأثيث بيت الملك . وقد عمدنا معاً إلى اختيار قطع أثاث عديدة ، والأمر بشرائها . لقد قررنا فرش البيت بشكل جيد وإن يكن بسيطاً .

وفي يوم الثلاثاء ، قام القنصل الإيطالي في بغداد السيد سبيرانزا M.Speranza بتعريفي برجل صحافة إيطالي بارز هو السيد سيبولا M.Cipola . وقد جرى بيننا حوار ممتع حاول السيد سيبولا من خلاله جري إلى الحديث عن سوريا ، ولكنني أبيت الخروج بأي تعليق . ثم سألني عما نقوم بعمله في العراق ، فاستجبت لتساؤله بشكل جيد . وأخيراً جرنا الحديث إلى قضية الموصل الذي علق حولها قائلاً ما مفاده أن في حال نحا قرار عصبة الأمم منحاً خاطئاً ، فإن ذلك سيشكل جريمة بحق الإنسانية ، وضربة قاتلة للمنظمة الدولية ذاتها . بعد ذلك أخرجت خريطة ، وأشرت فيها إلى الموقع الذي تتجمع فيه الحشود التركية على حدودنا - إنه موقع يدخل ضمن المناطق (الخاضعة لحكم السلطات) الفرنسية . وهنا يكمن الخطر . إن الفرنسيين عاجزون عن اتخاذ ما يلزم لردع الأتراك ، أما نحن فلا يجوز لنا القيام بذلك . وقبل مغادرته ، سال السيد سيبولا ما إذا كان بإمكانه تصويري بغية نشره في جريدته . وإزاء ذلك أخبرته أن الطريقة الأمثل للإعراب عن امتنانه (لهذا اللقاء وما تم تبادله من معلومات) هو تفادي تصويري ، وذكر أي خبر عني ، الأمر الذي أجبره على نبذ الفكرة .

في نهاية المطاف ذهب بيرنارد إلى الموصل اليوم بمفرده . أظنه أخطأ في عدم اصطحاب كورنواليس معه ، إلا أنني لم أتدخل في الأمر . وفي كل الأحوال ، تقرر ذهابي ليلة الأحد إلى الموصل حيث كان يتوقع وصولي إليها على مدى الخمسة أسابيع الأخيرة لغرض افتتاح متحف هناك . ويرى كل من بيرنارد واللواء قائد القوة الجوية الملكية (البريطانية في العراق) أن من شأن ذهابي إلى الموصل في هذه الفترة أن يكون له اثر إيجابي يعمل على تهدئة نفوس الناس ، وأنا من جانبي أفضل أن أكون هناك بدلاً من البقاء هنا وسط مشاعر القلق ، والمخاوف .»

تتحدث رسالة الآنسة جيرتروود المؤرخة في الثاني عشر من شهر كانون الأول ، والموجهة إلى أبيها ، عن مزرعة الملك في خانقين ، وتقول بهذا الصدد : «أرسلت لك قصاصة من جريدة حول مقال عمدت إلى نشره في صحيفة الأوقات البغدادية The Baghdad Times حول ضيعة الملك . وكان المصور السينمائي الذي كنت أرسلته إلى موقع الضيعة قد

حقق نجاحاً منقطع النظير . ترى هل سبق لي إخبارك عن المصور السينمائي آنف الذكر؟ لقد قام بتصوير كل الضيعة بما في ذلك مشاهد تصور الملك وهو منهمك في قطف القطن ، والجرارات أثناء عملها ، الخ . وسنقوم بعرض الفلم قريباً في بغداد . ولقد كان لي حديث طويل مع جلالته يوم أمس تناول الترتيبات الخاصة ببيته وعائلته ، وسوريا ، وكل شيء آخر . ولقد دعا جلالته كل مني شخصياً وكين وإيلتيد للسفر إلى ضيعته خلال عطلة أعياد الميلاد ، وأنا من جانبي أحاول تزويد دار جلالته في الضيعة بما يحتاجه من الكراسي ذات الذراعين ، توخياً لتحقيق وجود ما يمكن للمرء الجلوس عليه براحة !

غادر زيد بغداد يوم الخميس متوجهاً إلى جامعة أوكسفورد على متن إحدى طائرات البريد . وقد حضر إلى المطار جمع رسمي من المودعين كان السيد طالب النقيب من بين أبرز وجوهه ! لقد مضى على وجوده في بغداد بضعة أيام ، إلا أنه تجنب اللقاء بي . وكنت أثناء مراسم الوداع هذه قد شاهدت مجموعة من الشخصيات الذين قمت بتحيتهم بتلويحة من يدي ، ولكنني فوجئت عندما رد علي أحدهم بتلويحة حارة ؛ دققت النظر فيه وإذا به طالب الذي بدا واضحاً أنه يريد التوجه نحوي للسلام علي . ولكنني سارعت إلى الإمساك برئيس الوزراء وطلبت منه القيام بثني طالب عن عزمه لأنني كنت قد قررت أن أعرض عنه ، وقد قام رئيس الوزراء -الذي أضحكه الأمر - بنقل الرسالة إلى طالب الذي سرعان ما توارى إلى الخلف .

وكان طالب قد قابل جلالة الملك الذي عبر له عن رأي مفاده أن من الأفضل له العيش خارج المملكة . وقد سر الملك عند سماعه أخبار مجابهتي مع طالب .

وقبل صعوده إلى الطائرة ، أسرع زيد نحوي راجياً مني تولي رعاية أخيه قائلاً ما مفاده أن الملك وحيد وأن وجودي على مقربة منه يعني الكثير بالنسبة له . كان كلام زيد مؤثراً للغاية ، وقد وعدته بالقيام بكل ما أستطيعه من أجل رعاية جلالته والسهر على راحته . إنه (جلالة الملك) أكثر رجال العالم شعوراً بالوحدة على ما أظن . ولا يوجد من بإمكانه التخفيف من وطأة هذه الوحدة وحدتها باستثنائي أنا شخصياً و كورنواليس .

إنني مشغولة للغاية هذه الأيام ، وبذلك سيكون سفري إلى الموصل بمثابة فترة انقطاع عن العمل من شأنها أن تهيئ لي راحة مؤقتة لن أخفق في التمتع بها .»

وفي الثالث عشر من شهر كانون الأول كتبت تقول : «جئت إلى المكتب خصيصاً لأتفقد بريدي لأنني سأنطلق إلى الموصل بعد ساعة من الزمن ، ولذلك لم أقم بشيء ، اللهم إلا باستثناء تصفح الأخبار الخاصة بالعزيز هيوغو . وبهذا الصدد أشكر الرب على وجود أخبار تبشر بخير بالرغم من أن الأسباب التي تدعو إلى الشعور بالقلق لا تزال قائمة .

إنني في غاية القلق والاضطراب ! سوف أعود إلى بغداد قبل موعد وصول البريد التالي .»

قضت الآنسة جيرتروود في الموصل ثلاثة أيام من النشاطات الآثارية المثمرة ، فضلاً عن قيامها بافتتاح متحف الآثار ، وتصوير عدد من الأضرحة والمساجد الإسلامية التي «لم يسبق لأحد رؤيتها من قبل» على حد تعبيرها . وعلى الرغم من هذا الإنجاز ، وعلى تعبيرها كذلك ، « فإنني لم أكد أقترب من حافة كل ما كان يجب علي القيام به» .

لم تتضمن رسالتا الآنسة بيل المعنونتان إلى كل من أبيها وزوجته بتأريخ الثالث والعشرين من شهر كانون الأول على معلومات (تتعلق بنشاطاتها في العراق) أكثر مما ورد ذكره أعلاه . وكان من شأن رسائل أبيها وزوجته في الحين ذاته ، وعدم وصول البرقية التي كانت جيرتروود تتوقع وصولها بفارغ الصبر ، أن تدفع بها إلى الاستنتاج بأن أخاها هيوغو كان قد فارق الحياة . وهذا ما يفسر النبرات الحزينة ، ومشاعر الأسى ، التي انطوت عليها الرسالتان آنفتا الذكر اللتان تزخران في الحين ذاته بعبارات المواساة والتعاطف والتشجيع الموجهة إلى أبويها . كما أنها شخصياً قضت أسبوعاً من الشعور بالحزن العميق والبؤس الذي لم يخفف من وطأته سوى حجم ما توجب عليها القيام به من أعمال ، والنهوض به من أعباء ، وما عكسه أصدقاؤها من المشاعر الطيبة ، وما انصرفوا إلى تقديمه من تعاز ومواساة .

وعلى الرغم من الزكام الحاد الذي كان قد أصابها في أثناء عطلة أعياد الميلاد ورأس السنة الجديدة ، ولعدم قدرتها على البقاء وحيدة في الدار بانتظار ما يصلها من الرسائل «المحزنة» على حد تعبيرها ، انطلقت جيرتروود إلى ضيعة الملك . وما هي إلا بضع ساعات بعد وصولها إلى الضيعة حتى انهارت قواها تحت وقع حالة شديدة من مرض ذات الجنب ، واحتقان الرئتين الحاد ، فكادت تكون قاب قوسين أو أدنى من الإصابة بالتهاب رئوي حاد . وبعد أن استُدعي عدد من الأطباء من بغداد ، تم نقلها بالقطار إلى بغداد ، وبسيارة الإسعاف من محطة القطار إلى المستشفى مباشرة . وأثناء وجودها في المستشفى ، لم تستلم الرسائل التي كانت ترتعد خوفاً من احتمال وصولها ، بل جاءها كورنواليس ببرقية تنبئها بأن أخاها هيغو كان على قيد الحياة ، وموجود في دار العائلة ، وبأنه يتماثل إلى الشفاء .

ومن المستشفى ، كتبت جيرتروود رسالتها المؤرخة في الثلاثين من شهر كانون الأول ، والتي وجهتها إلى أبيها قائلة : «لقد كنتم بحق أشبه بنبات «المندراجورا»(٢) - وهو أقل ما

---

(٢) Mandrake أو = Mandragora نبات عشبي ، سام يستخدم في الصيدلية ويفترض تميزه بخواص سحرية - المترجم

يثير الغضب من الألقاب أو النعوت التي يمكنني وصفكم بها . لا أدري كيف خطر ببالي احتمال قيامكم على أقل تقدير بتوجيه برقية لي لكي أطمئن على صحة أخي ، وأدرك أنه قد وصل إلى أرض الوطن حياً يرزق ! وبغياب مثل هذا الإشعار ، ترى ما النتيجة التي كان يفترض بي التوصل إليها فيما يتعلق بمصيره؟ ومع ذلك لابد من شكر العناية الإلهية التي شاءت بحكمتها أن تجعل ما استنتجته خطأ ، وأن تدفعني إلى غفران هفوتكم هذا عن طيب قلب .

لقد رفضت أن أُغرق بسيل من الزوار ، وإنني أتماثل إلى الشفاء بسرعة . وقد تم تخصيص ممرضة لرعايتي أثناء الليل ، إلا أنني أشعر بثقة بأنني لن أحتاجها بعد الليلة .

إن مصدر المضايقة الحقيقي يكمن في ضرورة توجيه كل جهد يمكن بذله نحو تجاوز القضية الصعبة التي تتعلق بالتوقيع على المعاهدة الجديدة ، وختمها في آن واحد . إن برنارد طريح الفراش في جانب من النهر ، وأنا طريحة الفراش أيضاً ولكن في الجانب الآخر منه![3] إنني أدرك جيداً ضرورة وجودي في المكتب . إن حكومة جلالة الملك (البريطانية) تعتمد سياسة الاقتصاد في النفقات ، بل البخل والتقتير ، غير مدركة على ما يبدو حقيقة إن الملك فيصل وحكومته ، مهما كانوا ميالين وراغبين (في مراعاة ما تطلبه بريطانيا) – وهو واقع ما هم عليه من حال فعلاً – فإنهم بحاجة إلى شيء من المساعدة يمكنهم بموجبها ضمان تحقيق التوقيع على المعاهدة لمدة خمسة وعشرين عاماً . ولا بد لنا أن نذكر بهذا الصدد ما واجهوه من صعوبة قبل ثمانية عشر شهراً فيما يتعلق بالتوقيع على المعاهدة لمدة أربعة سنوات . إنهم بحاجة إلى شيء من المرونة (من لدن الحكومة البريطانية) لحفظ ماء الوجه . إنه شيء يمكن للحكومة أن تعرضه على البرلمان وهي واثقة من إمكانية تحقيق النجاح فيه . لقد توصلت أنا وكورنواليس إلى الخروج بخطة معينة يوم أمس ، وقد انطلق الأخير لمناقشتها مع كل من جلالة الملك وبيرنارد . إلا أن ما بذلته من جهد لا يصل إلى مستوى الأداء الممكن تحقيقه وأنا أقف على قدمي متمتعة بكامل الصحة والعافية . ياللعنة ! إنني أشعر مثل قصبة مكسورة ، لا حول لي ولا قوة ! إلا أن هذا هو حكم الأقدار ، فما عليَّ سوى الاستلقاء فوق فراشي والاكتفاء بالإعجاب بالطريقة التي يعتمدها كورنواليس بمهارة وحنكة في مجال فهم المؤسسات العربية ، والعمل على هدايتها .»

---

(٣) المقصود هنا أن برنارد يسكن في دار الاعتماد الكائنة في جانب الكرخ من بغداد ، أي موقع السفارة البريطانية في بغداد حالياً ، بينما ترقد هي في المستشفى الكائنة في جانب الرصافة – المترجم

١٩٢٦

بدأت السنة الجديدة بإشارة بالغة الانشراح ، فقد خرجت الآنسة جيرتروود من المستشفى . وفي السادس من شهر كانون الثاني كتبت إلى والديها قائلة : «كانت برقيتكم مصدر راحة كبيرة لي ، وكنت قد بدأت الكتابة إلى هيوغو لأخبره عن عظيم فرحتي ببقائه على قيد الحياة ! ولعل ما عشته من يأس على مدى أسبوع من الزمن كاد يكون أمراً مستأهلاً . ترى هل سيستغرق تماثله إلى الشفاء وقتاً طويلاً ؟ أما عن الرحلة من جنوب أفريقيا فليس لي سوى القول أنها تجربة رديئة لا يصح ذكرها - إنها كانت أكثر وبالاً على المسكينة فرانسيس Frances (زوجة هيوغو) ذلك لأن هيوغو كان فاقد الوعي خلال القسم الأكبر منها . وإنه لمن دواعي سروري الآن أن أتصوركم جميعاً وأنتم في حال أفضل في أعقاب ما سببه القلق لكم من توتر وانفعال على مدى فترة طويلة من الزمن .»

وقد قضت جيرتروود فترة نقاءها في مطالعة أدبيات تتعلق بعلم الآثار ، وفي كتابة مقال لـ«موسوعة العراق» Iraq Encyclopaedia . بعد ذلك بدأت بكتابة التقرير السنوي الموجه إلى عصبة الأمم . وقد تعمدت إطالة فترة غيابها عن المكتب بهدف قصم ظهره .

وفي الثالث عشر من شهر كانون الثاني كتبت تقول : «لقد وافقت الحكومة العراقية على المعاهدة الجديدة[1] التي لا أظنها ستواجه بأية صعوبة معينة من قبل برلماننا (البريطاني) . لقد قام السيد إيمري ، بحكمته المعهودة ، بالموافقة على التعديلات اللفظية الطفيفة التي طالب الملك بها بإلحاح ، فهي جملة وتفصيلاً جوانب من شأنها التخفيف عن كاهل دافع الضرائب البريطاني ، ونظيره العراقي على حد سواء .

لا أعتقد أن الأتراك جادون في الدخول في حرب ، فكلما تأخروا أسبوعاً إضافياً قل احتمال تمكنهم من استجماع شجاعتهم لشنها . وتفيد الأخبار الواردة من أسطنبول بأنهم يواجهون تفجر صيغ جديدة للمشاكل في شمال شرق الأناضول . وقد يكون الأمر(أي القرار

(١) في حال رغب القارئ الكريم الاطلاع على التفاصيل المتعلقة بالمعاهدتين الأولى والثانية المبرمتين بين الحكومتين العراقية والبريطانية ، وتداعياتهما . أقترح عليه الرجوع إلى كتابي «تاريخ الوزارات العراقية» و «العراق في ظل المعاهدات» للأستاذ السيد عبد الرزاق الحسني ، إذ لا يمكن تغطية جوانب هذا الموضوع الطويل بكل تفاصيله في إطار هذا العمل - المترجم

القاضي بوجوب ظهور المواطنين الأتراك ، رجالاً ونساءً ، بالزي العربي) في غاية السخف على ما يبدو ، إلا أن الناس يرفضون ارتداء القبعات استجابة للأوامر الصادرة بهذا الصدد من قبل السلطات . ومهما يكن من أمر ذلك ، فإن القبعات لا يمكن الحصول عليها في الوقت الحاضر . وتتردد في الموصل روايات تثير الضحك لغرابتها وذلك بخصوص ما تشهده القرى الحدودية (التركية) ، التي تتواجد فيها أعداد كبيرة من الجنود ، من جهود مضنية يبذلها الأهالي هناك من أجل حصولهم على غطاء رأس يمكن أن يعتبر بمثابة قبعة . لقد راحوا يرتدون السلال ، أو أجزاء من حصر ، أو أي شيء لا يبدو مثل طربوش أو عمامة ، فوق رؤوس تتفجر ثورة وغضباً . لقد بالغ مصطفى كمال في فرض إرادته بسرعة تجاوزت هي الأخرى حدود المعقول ، وهو يواجه اليوم تصفية الحساب . إلا أنه شخصياً يقف ضد شن الحرب ، وبذلك نأمل أن لا يضطر إلى الاستسلام إلى التيار الناجم عن حالة الفوضى والجنون التي تهدد كيانه . إن مشاكله ليست متعددة فحسب ، بل ومتنوعة كذلك .»

ثم تعود الآنسة جيرتروود إلى ذكر سوريا مرة أخرى قائلة : «لم يعمد دي جوفينيل De Jouvenel إلى اتخاذ أي إجراء إلا وأخفق في القيام به بشكل صحيح : فشروط العفو الذي أصدره لا يمكن القبول بها ، والطريقة التي اعتمدها لانتخاب المجلس التأسيسي قد حيرت المعنيين بها كافة لافتقارها إلى كل مقومات النظام والترتيب ، وخيب آمال دمشق ، ولعل الأسوأ من بين كل ما أخفق في القيام به من إجراءات هو فشله ، وفشل جنرالاته ، في إخماد التمرد . وكما تعلمنا من تجربتنا في عام ١٩٢٠ (أي فيما يتعلق بأحداث ثورة العشرين في العراق) يتعين عليك – حتى في حال كنت على خطأ – أن تعيد فرض النظام والأمن قبل الشروع في سن الدساتير . لاشك في أن نوايا دي جوفينيل حسنة ، إلا أنه يجهل طبيعة الشرق بشكل عام ، وطبيعة سوريا بشكل خاص . وبعبارة موجزة فهو ليس برسي كوكس ، إلا أنه يحاول فرض حل تطلب من السير برسي تسعة أشهر لإيجاده ، وسنتين من التعامل الحكيم ، والتعاطف من أجل وضعه في حيز التنفيذ . إن رأيي حول المأزق السوري ثابت ، ولا أزال أعتقد بأن الفرنسيين سيجدون أنفسهم بالنتيجة مجبرين على الاعتراف بعجزهم .

لا داعي لشعوركم بالخوف من معاهدتنا التي يمتد أمدها إلى خمس وعشرين سنة ، فإذا ما قدر لنا المضي قدماً بنفس السرعة التي شهدتها مسيرتنا على مدى السنتين الأخيرتين ، سيصبح العراق عضواً في عصبة الأمم قبل مضي خمسة أعوام ، أو سنة في أقصى حد ، وستكون مسؤوليتنا المباشرة قد انتهت . ولعل انصراف هذا البلد إلى تحقيق استقراره يكاد

يكون أمراً يصعب تصديقه . وفي أعقاب تسوية مشكلة الحدود ، يفترض أن نتمكن من مضاعفة سرعة مسيرتنا .

إن الأمور كلها مثيرة للاهتمام إلى درجة كبيرة . إن النشاط الآثاري ، ومتحفي بشكل خاص ، يحتلان موقعاً تتنامى أهميته يوماً بعد يوم متنامياً . آمل أن أتمكن في هذا العام من إيواء المتحف ، وترتيب أموره ، في مكان لائق . إن تكوين الأشياء ، ورعايتها من بداياتها ، ممارسة تنطوي على متعة كبيرة . ومما لاشك فيه أن الباري (عز وجل) قد شعر بمتعة كبيرة في أثناء تلك الأيام الستة .»

وفي العشرين من شهر كانون الثاني كتبت تقول : «كان أسبوعاً شعرنا من خلاله بالرضا والارتياح لا سيما في أعقاب القبول الذي حظيت به المعاهدة من لدن برلماننا . وكان الملك في غاية الانشراح ، وهو شعور يستحقه بجدارة وذلك لأنه قام شخصياً بمقابلة كل عضو من أعضاء مجلس النواب وشرح له ما قد يترتب على التأخير في قبول المعاهدة من تبعات . ومن جانب آخر ، كان مؤيدو الحكومة من القوة مما أزال كل احتمال في عدم القبول بالمعاهدة . ومع ذلك فإن الفضل يعود إلى كل من جلالة الملك وفخامة رئيس الوزراء . ولابد لك أن تلاحظ أن العراق هو الدولة الشرقية الوحيدة التي تتكاتف مع بريطانيا العظمى ، ويعود سبب ذلك إلى محاولتنا خلق دولة عربية مستقلة .

إننا مغمورون بعض الشيء بسيل من رجال الصحافة الذين توافدوا إلى العراق بهدف كتابة تقاريرهم الصحفية حول أوضاعه ونشاطاته . آمل أن لا يلجأ أي منهم إلى اعتباري جزءاً من نصوصهم ، وذلك ديدن الصحافيين عندما ينفذ ما لديهم من مواد .»

وفي رسالتها المؤرخة في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني تعود الآنسة بيل إلى ذكر أخيها هيوغو قائلة : «كل رسالة استلمها تجعلني أدرك بشكل أكثر أن هيوغو كان في الواقع قاب قوسين أو أدنى من هلاك مؤكد ، وبذلك لم أكن بعيدة عن الواقع عندما ظننت أنه كان قد فارق الحياة .

ذهبت يوم أمس لمقابلة جلالة الملك ، وأخيه جلالة الملك السابق علي . وقد وجدت الأخير شخصاً ذا جاذبية ، وشكلاً بشرياً يثير العطف في النفس . وإني أميل إلى الاعتقاد بأنه إنسان خلق ليمارس التأمل ، والتبصر لا الدخول إلى عالم السياسة وخوض غمار الحروب . وبعد قيامي بعملية حساب خاطفة خاطبته بعبارة «صاحب الجلالة» ، وسرعان ما اكتشفت أنني كنت مصيبة في سلوكي . أما كورنواليس فقد نهج سلوكاً يفتقر إلى الكياسة عندما سأل فيصل ما إذا كان عليه أن يلقب أخاه علي بصاحب الجلالة ، الأمر الذي دفع

بفيصل إلى النأي بنفسه ، ماطاً جسمه بسخط صامت . وإزاء ذلك قال كين متذرعاً بحجة واهية مفادها أنه شخصياً (أي كورنواليس) قد تخلى عن لقب عقيد (الذي كان له الحق التام في استخدامه في حال شاء ذلك) إلا أن ذلك لم يرض الملك .»

وفي الفاتح من شهر شباط كتبت تقول : «سأذهب غداً إلى أور بصحبة لايونيل ، وسنزور كيش في طريق عودتنا . وإذا ما قُدر لنا أن نحظى بطقس جميل ، فستكون المناسبة مبهجة للغاية . وقد جلبنا معنا كتاب «الكوميديا الإلهية» لدانتي لقراءة مقاطعنا المفضلة منه ، وهو ما قد يبدو تزمتاً من جانبنا ، ولكن لا ضير فيه على ما أظن . كما سأجلب معي بعض ما يتعين عليّ إنجازه من العمل الورقي ، وشيئاً من المعجنات لتناولها في القطار .

أجل - تشكل روسيا مشكلة هائلة ، ولدي شكوك في إمكانية النجاح في دفع أفراد طبقة الفلاحين الصامتة إلى تبني خطٍ مستقلٍ خاصٍ بهم . لقد خضعوا لاستبداد آل رومانوف بصمت مطبق ، وهم يعانون الآن جبروت مجموعة الشيوعيين المجنونة ، الذين هم في الواقع نتاج العهد البائد . وهناك أمل ، على ما أظن ، في إقناع من هم في أعلى هرم السلطة على إدراك المنافع التي يمكن أن تترتب على توجههم إلى تغيير سياستهم تجاهنا . وهناك ما يشير إلى وجود مثل هذا التوجه . وفي الحين ذاته نرى بوضوح ، كلما تم لنا اتصال بالنشاطات الروسية الرسمية ، أنهم لا يقلون عدوانية(في نهجهم معنا) عما كانوا عليه في السابق (أي في أيام حكم القياصرة .)

كم أتمنى لو تمكنت فرنسا من تنظيم أمورها . إن الانتخابات التدريجية التي ينظمها جوفينيل تدريجياً في ظل سيطرة فرنسية مشددة لا تقل مهزلة عن العفو العام الذي كان أعلنه . لقد أخفق في إقناع أي مواطن سوري بالقبول بتبوئ منصب الرئاسة (رئاسة الجمهورية) الأمر الذي أجبره ، على فرض حكم فرنسي مباشر . إنهم (الفرنسيين) يتحدثون عن شن حملة ضد جبل الدروز في غضون فصل الربيع المقبل ، أما الدروز فعازمون على القتال حتى الرمق الأخير . إنهم (الدروز) ينوون اعتماد مختلف صيغ المقاومة بدلاً من الخضوع للحكم الفرنسي . ويقولون لنا أننا في حال قمنا بضمان تنفيذ الوعود الفرنسية ، أو قامت بها عصبة الأمم ، فإنهم سيرضون بها . وأنا من جانبي سوف أندم كثيراً في حال قمت بضمان أي وعد فرنسي لأي طرف كان . إن السوريين يرفضون الفرنسيين رفضاً قاطعاً ، وهذا ما عبروا عنه دائماً وهو ما سيواصلون التعبير عنه أبداً . إنهم على حق تام . إنهم بطبيعة الحال يرغبون في أن يشكلوا دولة عربية مستقلة ، بينما لا يريد الفرنسيون ذلك بل يريدونهم أن يكونوا تقليداً رديئاً للأقاليم الخاضعة للحكم الفرنسي .»

إن التعاطف الحنون الذي كانت الآنسة بيل قد عبرت لوالديها عنه قبل بضعة أسابيع فقط قد غدا الآن جانباً استدعته الضرورة ؛ فبعد تعرضه لنكسة ، توفي هيوغو في الثاني من شهر شباط ، وكان خبر الوفاة بانتظار جيرتروود عندما عادت من أور في التاسع من شهر شباط . وفي الرسالة التي وجهتها إلى أبيها وزوجته في اليوم التالي (أي في ١٩٢٦/٢/١٠) قالت : «أكتب لكما بقلب كئيب . إنه لأمر مريع أن أدرك ما كتب عليكما معاناته من قلق وكمد ، وما تعيشاه من حزن أليم الآن ، ولا يسعني أن أجد الكلمات التي يمكنها التعبير عن مشاعري ، بل أشعر بأنني قد عشت التجربة مرتين . وعلى الرغم من نضاله الطويل والمرير ضد المرض ، يسرني القول أنه قد تمكن من لقائكم ، ونعم براحة العودة إليكم ، قبل رحيله . كما أنني أحزن للمسكينة فرانسيس (زوجته) . وإنني لا زلت حتى الآن غير مدركة تماماً بأبعاد هذه الكارثة التي جاءت صدمة مفاجئة .

إن كل صور الأسبوع الذي قضيته بعيداً عن بغداد تبدو مشوشة في ذهني الآن . لقد أمضيت مع لايونيل ثلاثة أيام في أور . وقد توقفنا يوماً في الحلة بأمل الانطلاق إلى كيش ، إلا أن هطول الأمطار بغزارة أجبرنا على القبول بقضاء يوم مثمر في بابل لتفحص القطع التي ينبغي نقلها من البيت الألماني . إن لايونيل من بين الأقل اهتماماً بالجوانب التنظيمية للسفر . فهو لا يلتفت إلى الترتيبات الخاصة بتناول وجبات الفطور ، على سبيل المثال ، وإلى غير ذلك من الأمور الأخرى . وقد اعترف بأنه يشعر براحة واطمئنان عندما يرافقني في السفر ، لأنه يجد أن الفطور والوجبات الأخرى جاهزة عندما يحين وقتها .

والدتي الحبيبة - أُدرك جيداً ما كنت عليه من وضع نفسي مؤلم عندما قمت بشجاعة فائقة بتوجيه رسالتك المؤرخة في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني الماضي لي . أما الآن ، فأنا بدوري أشعر بالقلق عليكما ، والانشغال بكما - أنت وأبي .»

وفي السادس عشر من شهر شباط كتبت إلى والدتها قائلة : «أمي الحبيبة - أشكرك كثيراً على رسالتك الرائعة التي لم أُضطر إلى الانتظار طويلاً لاستلامها بعد ورود البرقية . إن فكري منشغل بذكرى العزيز هيوغو ، ولعل عزائي يكمن في واقع أنه تمتع بحياة كاملة ؛ زواجه الذي لم تشبه شائبة ، ونعمة أطفاله وبهجتهم ، وأخيراً لقاؤكم مرة أخرى ، وفي حال لم يكن بدأ من وفاته ، فلعل حدوثها بهذا الشكل كان النتيجة الأفضل . وأنا أتساءل أحياناً ؛ ترى هل يحتمل أن نشعر بسعادة أكبر في حال أدركنا إننا جميعاً سنلتقي مرة أخرى؟ إنني لم أتمكن من بلوغ هذا السمو الفكري عندما فقدت أعز من كان لدي . الروح بلا جسد أمر غريب غرابة الجسد بلا روح . فالمرء يشعر بما يتوارى خلفه من ذهن رائع . والمرء

لا يعرف غير الإيماءات الصغيرة . والابتسامة العذبة ، وصورة العقل . ولا نفع يجدي من التساؤل ، أو التفكير ، لماذا لا يستطيع المرء أن يؤمن بما لا يمكن الإيمان به . حسبه إنه لا يقدر . والقادرون من أمثال فرانسيس هم في حال يُغبطون من أجلها ، فهي تعطيك إحساساً بأنها مخلوقة محبوبة .

ألا يمتعض المرء من الموت المفاجئ لمن يصنعون السعادة ، في الوقت الذي يوجد كثيرون ممن لا يجلبون السعادة أبداً لا لأنفسهم ولا لغيرهم؟ إن رحيل هيوغو يكسر حلقة لا يمكن إصلاحها .

لايونيل وإيلتيد في غاية اللطف والرقة ، وهما يتناوبان على زيارتي كل يوم تقريباً ، أما كين فهو في إجازة . يمكن للمرء أحياناً أن يأخذ أكثر من قسطه من العزلة ، كما لا يمكنه في أحيان أخرى أخذ ما يكفيه منها ، وبذلك تجداني ممتنة . ثم أن هناك كم هائل من العمل ، وهو عزاء كبير .»

***

إن جزءاً كبيراً من عمل جيرتروود في هذه الفترة مرتبط بالمتحف الذي أرادت له مبنى جديد ، وبسرعة ، لكي تتمكن من الانتقال إليه قبل حلول موسم الحر .

وفي الرابع والعشرين من شهر شباط كتبت تقول : «إنني منهمكة بالخطط والتصاميم . وفي حال استطعت الحصول على المبنى الذي أريد ، فقد أتمكن من فتح دائرة جيولوجية بمعاونة الجيولوجيين الذين يقومون حالياً بالتنقيب عن النفط لصالح شركة النفط التركية . ومن جانب آخر ، فإن كورنواليس ، باعتباره خبيراً بعلم الحشرات ، يتطلع بلهفة إلى تكوين مجموعة كبيرة من الفراشات والعُثث بحلول فصل الصيف . وعلى الرغم من وجود الكثير من الفراشات في العراق ، إلا أننا غير واثقين من وجود العُثث .»

في نهاية شهر شباط ، أي في غضون بضعة أيام فقط ، تمكنت جيرتروود من الحصول على المبنى الذي تمنت لمتحفها . وقد افتقدت وجود السيد ولسون الذي كان قد عودها على مد يد العون لها متى ما أرادت ذلك . وفي رسالة موجهة له ، تقول الآنسة بيل : « أُريد إقناع السيد ليونارد وولي بتخصيص أسبوع من وقته في نهاية موسم التنقيب لغرض تعليمنا القواعد الأساسية لتنظيم المتاحف ، وترتيب معروضاتها . وفي هذا المجال بالذات أجد أن هناك حاجة ماسة لك ولخدماتك .» بعد ذلك تتطرق جيرتروود في ذات الرسالة إلى موضوع صحتها العامة قائلة : «اتضح بأنني لم أُصب بالتهاب القصبات الهوائية ، وهو أمر يعود إلى

متانة معدتي ! وقد كتب عليّ قضاء عطلة أعياد الميلاد وأنا طريحة الفراش على مدى فترة حظيت من خلالها على رعاية من لدن جلالة الملك فيصل ، ومن لدن كورنواليس ، وإيلتيد كذلك خارج الفترات التي كانا يقضيانها في الصيد . إلا أن وضعي كان قد ساء في اليوم التالي الأمر الذي تطلب قيامهم باستدعاء طبيب وممرضة . لا داعي لذكر هذه التفاصيل لأهلي الذين لم أخبرهم بها بالأساس .» وتنهي الآنسة بيل رسالتها بحاشية جاء فيها ما يلي : «وثمة أمر آخر أود قوله لك : لا أستطيع تحمل فكرة ترك بغداد والرحيل عنها ، وبذلك أحاول صرفها عن ذهني ما استطعت إلى ذلك سبيلاً . أشعر بالبؤس كلما راودت مخيلتي فكرة الرحيل هذه .»

وفي رسالة وجهتها إلى والدها بتأريخ الثالث من شهر آذار كتبت تقول : « إن الوضع في سوريا يزداد سوءاً يوماً بعد يوم . أفهم بأنهم (الفرنسيين) قد أوفدوا الداهية دي كاي De Caixلحضور اجتماع دول الانتداب ، إلا أننا لا نعلم ما ذا يدور في هذا الاجتماع . ويتوافد إلى العراق الكثير من المعممين الأتراك تفادياً لاضطرارهم إلى ارتداء القبعات على رؤوسهم . وبهذا الصدد ، لست متأكدة تماماً ما إذا كان مجيء هذه العناصر هو لصالحنا ، فلدينا ما يكفينا من ذوي العمائم الذين لا يعتبرون من بين العناصر التقدمية الناشطة .»

وبعد بضعة أيام قامت الآنسة بيل برحلتها الثالثة إلى أُور لتوزيع المكتشفات ، وقد تم لها الحصول على مجموعة من القطع الأثرية الثمينة لمتحفها بما فيها تمثال صغير ، ولكنه كامل تماماً ، للآلهة بان Ban . وقد شعرت بهذا الخصوص بأنها لربما قد تخلت عن قطع ما كان ينبغي لها التخلي عنها ، إلا أنها اضطرت إلى ذلك بسبب إصرار السيد وولي الأمر الذي أجبرها على التخلي عنها باعتبار أنها (أي جيرتروود) قد «حظيت على كم لا بأس به من المكتشفات بفضل جهودهم» على حد تعبيرها !!!

وتتحدث رسالتها المؤرخة في الحادي والثلاثين من شهر آذار عن النشاطات الآثارية أيضاً . تقول : «ذهبت يوم الخميس الماضي إلى كيش بصحبة لايونيل وأستاذ أمريكي . إنني أبالغ في مجاملة الأساتذة الأمريكيين بأمل دفعهم إلى القول بأننا متسلمي (منح) واعدون ، لا سيما عندما نأخذ بعين الاعتبار احتمال حصول متحفنا على منحة مالية تقدر بمليوني باوند أسترليني . وصلنا إلى كيش في التاسعة والنصف صباحاً وقد امتدت فترة توزيع المكتشفات حتى الظهر . لم تكن المكتشفات كثيرة ، بيد أنها كانت ثمينة – فالجرار المطلية عريقة في القدم إلا أنها مليئة بالملح الذي ما أن يجف حتى يزيل اللون تماماً . وقد اخترت ستاً منها شريطة تمكني بعد ذلك من إرسالها إلى أوكسفورد لمعالجتها . كما ضمت المجموعة

أيضاً عدداً من الأختام ، وتمثالاً فقد رأسه وقدميه لرجل من أصول سامية ، وهو تمثال يعود تاريخه إلى العام ٢٨٠٠ قبل الميلاد . وقد كُتب اسم الرجل هذا على ظهر التمثال . وقد تمكنت من الحصول عليه نتيجة القرعة ، وذلك عن طريق قذف قطعة نقد إلى الهواء . وقد أعرب الأستاذ الأمريكي عن إعجابه الشديد بالطريقة المنصفة لتقاسم المكتشفات . إنه ينتمي إلى جامعة ييل Yaleالأمريكية التي آمل أن يتمكن هذا الأستاذ من حثها وتشجيعها للتقدم بطلب الموافقة على القيام بالحفريات في تل الوركاء ، وهو تل كبير لا يسعني أن أُوكل عمليات التنقيب فيه إلا إلى مؤسسة كبيرة وغنية .»

تلبية لدعوة من لدن النقيب كلايتون ، قضت جيرتروود عطلة يوم الجمعة العظيمة في قراغان ، حيث انطلقت في الصباح في جولة على ظهر الحصان الذي خصص لها ، وانطلقت بعد الظهر في نزهة سيراً على الأقدام ، بصحبة كلبها الصغير ، وجابت خلالها ، على حد تعبيرها ، «التلال المزدانة بالزهور ، والمنحدرات والأنهر المغطاة بطبقة قرمزية من شقائق النعمان ، والمروج بكل ما فيها من زهور أرجوانية ، وخزامى برية ، وسوسن أزرق ، ولوف أسود ، وزنبق أصفر - كل هذه ، وغيرها من الأشياء المألوفة ، جعلت العالم يبدو أشبه بقطعة متلامعة من المينا .»

وفي اليوم التالي رُبطت الحافلة المخصصة لها(٢) بقطار ما بعد الظهر المتجه إلى خانقين

---

(٢) كان لدى المديرية العامة لسكك حديد الحكومة العراقية Directorate - General of the Iraqi state Rail-ways (هكذا كان اسمها حتى ثورة عام ١٩٥٨) حافلات أو عربات مقطورة خاصة تسمى الواحدة منها «صالون خاص» ، وكانت بمثابة بيوت متنقلة ومؤثثة تأثيثاً تاماً وفاخراً . وكانت الواحدة منها تحتوي على مجال كبير للجلوس خصص جزء منه ليكون بمثابة غرفة طعام ، كما تحتوي على غرفة منام تضم أربعة أسرة ثبت كل اثنين منها على طرف من الغرفة بحيث يكون أحدهما مثبت في الأعلى والآخر في الأسفل ، كما هو الحال في مقصورات بعض السفن التجارية المخصصة لنقل الركاب ، كما يوجد فيها غرفة حمام كامل ، ومطبخ مضاف إليه مجال مخصص لراحة من يكلف بخدمة ركاب العربة ، ونومه أثناء السفر ، وكان الأخير هذا من مستخدمي السكك الحديدية . وكانت هذه العربات تخصص لسفر كبار المسؤولين وعوائلهم ، كما كان بإمكان أي مواطن استئجارها إن شاء ذلك بعد استكمال إجراءات الحجز ودفع السعر المقرر لها والذي كان على على ما أذكر جيداً حتى سني الخمسينات بحدود عشرة دنانير عراقية تدفع بالإضافة إلى أثمان تذاكر السفر للفرد الواحد . ويذكر كاتب السطور سفره على هذه العربات في العديد من المناسبات وعلى مختلف الخطوط - المترجم

حيث ذهبت ، كما تذكر في رسالتها المؤرخة في السادس من شهر نيسان ، «لقضاء ساعتين في بيت الملك الريفي لغرض تحديد الأعمال التي لم يتم إنجازها ، و التي وجدت أنها كانت عديدة . ولم أصل إلى بغداد إلا صباح يوم الأحد ، وقد تزامن وصولي مع هبوب عاصفة رملية .»

وبعد العاصفة الرملية جاء الفيضان . لقد غرقت أجزاء من بغداد بضمنها قصر الملك مما اضطر جلالته إلى إخلائه . ومع أن بيت الآنسة بيل نجا من مياه الفيضان ، إلا أنه بقي مهدداً لفترة من الزمن ، وكان من المتوقع أن يبلغ منسوب الماء فيه ستة أقدام (لو قدر له التعرض لمياه الفيضان نتيجة حدوث أي تصدع أو كسر في السدود) . وتصف الآنسة بيل حالة الفيضان في هذه الرسالة المؤرخة في الرابع عشر من نيسان والتي تقول فيها : «كان من الصعب التفكير بأي شيء آخر (باستثناء كيفية معالجة هذه الحالة الطارئة) وكنت في معظم الأيام أجوب أنحاء بغداد برفقة كين ، إما بالسيارة أو على ظهر الخيل ، حيث كنا نذهب لتفقد أحوال السدود ، ومراقبة العمل فيها . ويُعتقد أن الثغرة في السدة قد حدثت بفعل إهمال أحد موظفي البلاط الملكي الذي كان قد أغفل على ما يبدو غلق بوابة إحدى القنوات .(٣)

---

(٣) كان شهر نيسان يعرف في العراق بشهر الفيضانات ، وكانت هذه الفيضانات تهدد مناطق عديدة ، بما فيها بغداد ، كل عام ، حتى تم الانتهاء من بناء منظومة السدود التي تولاها في حينه مجلس الإعمار ووزارة الإعمار التي حلت محله . ومن ا لطريف أن هناك مثلاً شعبياً كان مألوفاً في بغداد ، ويعود إلى فترة الحكم العثماني ، وهو : «بغداد غريق وإسطنبول حريق .»

وفيما يتعلق بالفيضان سالف الذكر وتداعياته ، وما ترتب عليه من إجراءات ، يجدر بنا ذكر ما يلي : في أوائل نيسان من عام ١٩٢٦ طغى نهر الفرات مما تسبب في تعطيل السير بين المدن والقرى القائمة على جانبيه ، وأُتلفت المساحات المزروعة بمختلف الحبوب المعاشية .

وفي التاسع من نيسان فاضت مياه نهر دجلة كذلك ، وكان فيضاناً قيل أن بغداد لم تشهد مثله منذ زمن بعيد . ونتيجة حدوث كسور في بعض السدود التي تقي العاصمة من الغرق ، غمرت المياه مساحات كبيرة من الأراضي والبيوت والبساتين المحيطة بها . وكان البلاط الملكي من جملة القصور التي اكتسحتها مياه الفيضان ، مما اضطر الحكومة إلى نقل العائلة المالكة إلى دار السيد مناحيم دانيال ، وهو أحد كبار وجهاء بغداد ، وواحد من أبناء الطائفة اليهودية فيها ، وقد غرقت أثاث القصر الملكي ، كما نفقت المواشي والأبقار الملكية أيضاً .

==

وفي الحادي والعشرين من شهر نيسان وجهت الآنسة بيل رسالة إلى وزوجة أبيها قائلة : «والدتي الحبيبة - استلمت رسالة من أبي بدت أكثر فرحاً[٤] فأمل أن تكون سفرته إلى إيطاليا قد جاءت بنتائج إيجابية ، إلا أن العالم الذي سيعود إليه لن يكون عالماً سهلاً ، خالياً من المصاعب ، لا سيما في أعقاب المشاكل التي شهدتها صناعة الفحم الحجري في بريطانيا ، وغيرها من المشاكل . لم ندرك تماماً أن نهاية الحرب قد أفضت إلى بداية سلسلة طويلة من المشاكل المعقدة .»

وفي الثامن والعشرين من شهر نيسان كتبت إلى أبيها ، الذي كان لا يزال في إيطاليا ، قائلة : «إن رحلتك إلى بيروجيا Perugia وعودتك منها عن طريق سيينا Siena تبدو رائعة . وعلى حد تعبيرك ، فإن ثلاثمائة عام ، أو ما يقرب من ذلك ، من الفن الإيطالي تمثل أحد أكثر الأمور إثارة في العالم ، ولعل ما هو أكثر إثارة للدهشة هو أن الإيطاليين قد نسوا على ما

== وقد تكاتف أهل بغداد ، مسؤولين حكوميين وأهليين وكشافة على حد سواء ، من أجل درء هذا الخطر .

واتضح نتيجة التحريات أن السيد توفيق المفتي ، مدير المزرعة الملكية ، وكان سوري الجنسية أصلاً ، أراد سقي مزرعة الأقطان الملكية ، ففتح بوابة نهر في الجانب الأيسر من دجلة بجوار البلاط الملكي . ولعله أغفل إغلاقها في الوقت المناسب ، فتدفقت المياه بشكل لم يستطيع المسؤول المذكور معالجته مما أدى إلى الكارثة المذكورة .

وقد أمر متصرف لواء بغداد في حينه ، السيد ناجي بك شوكت ، بتوقيف توفيق المفتي من غير استشارة الملك ، مما أزعج جلالته فأمر بدوره بفصل المتصرف . إلا أن رئيس الوزراء ، عبد المحسن بك السعدون ، عارض أمر الفصل ونقل السيد ناجي شوكت إلى متصرفية لواء الموصل وذلك بعد ثلاثة أشهر من صدور أمر الفصل .

وقد اشتركت الحكومة مع الشعب في إجراء اكتتاب عام لمساعدة المنكوبين تم من خلاله جمع مبالغ لا بأس بها وزعت على المتضررين .

أما السيد توفيق المفتي فقد بقي موقوفاً فترة طويلة . وقد رفضت المحكمة المختصة محاولات البلاط في الإفراج عنه بكفالة ، بل ألزمت المتهم بدفع كفالة نقدية مقدارها خمسون ألف روبية (بحدود ٧٠٠ دينار) وكان مبلغاً باهظاً جداً في حينه ، في حال أراد إطلاق سراحه بكفالة ، ولعجزه عن تدبير مثل هذا المبلغ استمر توقيفه . ولم يطلق سراه إلا بعد مرور فترة طويلة من الزمن نسي من خلالها الناس هول الكارثة . ثم برئت ساحته - المترجم

(٤) كان أبوها قد بعث لها رسالة في السادس عشر من شهر أذار عبر فيها عن أسفه إلى اضطرار العائلة ترك بيتها التأريخي العتيد والانتقال إلى آخر أكثر تواضعاً بسبب سوء الأحوال الاقتصادية - المترجم

يبدو حقيقة هذا الإنجاز بشكل كامل .

إن ما بينته حول تنظيم المتاحف بحسب التسلسل الزمني إنما يضرب على الوتر الحساس ، إن صح هذا التعبير ، إذ أنني سأنطلق في تنظيم متحفي على هذا الأساس ، وبقدر ما هو ممكن . وكنت قد تمنيت أن أبدأ بتنظيم القاعة البابلية يوم الأحد ، إلا أن اضطراري إلى الذهاب إلى أُور قد يحول دون تمكني من تحقيق ما أُريد . كما أن جلالة الملك قد سافر إلى البصرة لغرض افتتاح المجرى المائي الجديد (في شط العرب) الذي يسمح بمرور السفن ، وقد أعرب لي عن رغبته في زيارة أُور في طريق عودته . وبما أنه ليس على علم واسع بالجوانب المتعلقة بالتنقيبات الآثارية ، يتعين وجود من بإمكانه شرح بعض الجوانب الهامة له . ولعدم توافر من بإمكانه القيام بهذه المهمة باستثنائي أنا ، فقد رأى بيرنارد بورديلون ، مع شديد أسفي ، وجوب توجهي إلى الموقع للقيام بما هو مطلوب . أن رحلة القطار التي تستغرق زهاء ثماني عشرة ساعة لا تخفق في مضايقتي ! إننا نتوقع وصول السير هنري يوم غد . كم أتمنى أن تكون إيزمي الحبيبة برفقته .

أشعر بقلق شديد حيال التسوية التي تم التوصل إليها في إطار عالم صناعة الفحم الحجري (في بريطانيا) ، وأنني لعلى ثقة بأن لديك شعوراً مماثلاً . وتقول الوالدة إن المضربين لن يتوانوا عن إثارة المشاكل وهو وضع لا يبشر بخير . ياله من عالم مرعب هذا الذي نعيشه ، أليس كذلك ؟ إن الوضع هادئ في هذه البقعة من الأرض ، إلا أن المرء لا يسعه مع ذلك سوى الشعور بأنه وضع مُهدد .

يشعر الروس بقلق شديد تجاه ما حققه رضا شاه من نجاح في بلاد فارس ، وهو نجاح يعزوه إلينا بالأساس ، إلا أنه أبعد ما يكون عن الحقيقة إذ أنه نجاح يعود إلى جهوده شخصياً . ولابد من القول أن مصلحتنا تقتضي تمتع بلاد فارس بالرخاء والتنظيم الجيد ، إلا أن هذا ليس من مصلحة روسيا . إن السياسة السوفيتية تجاه بلاد فارس لا تختلف (في جوهرها) عن السياسة المعتمدة من قبل النظام الامبراطوري السابق . فالمكائد والمؤامرات السوفيتية في كل من بلاد فارس والعراق موجهة ضدنا (نحن البريطانيين) ، إلا أنها سياسة لم تؤت أُكلها على ما أرى .»

إن أيام الآنسة جيرتروود بيل خلال هذه الفترة كانت مقسمة ، على ما يبدو ، بين عمل مكتبي روتيني بوجه عام ، والمهام المتعلقة بنشاطات التنظيم والفهرسة الخاصة بالمتحف ، مع تلبية الاحتياجات التي فرضتها عملية تأسيسه ، وذلك إلى جانب متطلبات الضيافة ، وضرورة حضور مختلف المناسبات ، التي طالما قيدت نشاطاتها المتنوعة . فعلى مدى عشر

سنوات من الزمن ، استنفدت قواها العقلية والبدنية في مجال الإسهام في تكوين المملكة (العراقية) وتنظيم شؤونها - وهي مهمة كان من شأن دراسة جيرتروود (الجامعية) وتجاربها العملية أن تؤهلها للقيام بها على الوجه الأتم ، وبشكل كاد يكون فريداً من نوعه . أما الآن فلم يبق لديها سوى المتحف . فبعد أن أصبح للملك كيان ثابت ، وبات للحكومة قاعدة صلبة ، كان لابد لعملها على المستويات العليا للسياسة والإدارة أن ينحسر مده . كما إنها شخصياً كانت قد عبرت عن رغبتها ، على حد تعبيرها ، في أن «تنسل إلى الخلف لتنعم بهدوء العمل في دنيا الآثار والتأريخ .» بيد أن الانسلال إلى الخلف قلما يحقق الرضا ، وعلى الرغم من انصراف أملها وهدفها الكبيرين دوماً إلى تحقيق قدرة العراقيين على إدارة شؤون بلدهم بذاتهم ، فإنها ، وبفعل كل ما جُبلت عليه النفس البشرية من أوجه المفارقة والتناقض ، شعرت بالألم والأسف عندما بدأت أهمية وجودها تتضاءل في هذا المجال . إنها في الواقع لم تكن تشعر بمجرد الأسف ، بل أكثر من ذلك - كان قلبها يتحطم نتيجة إدراكها أنها ستضطر قريباً إلى الرحيل عن بغداد . كان عملها في العراق خلواً من أية مصلحة ذاتية ، وكان بإمكانها أن تشعر بسعادة أكبر في حال تم تفادي ذكر اسمها كلياً في أطر النشاطات الخاصة بالعراق . كما إنها لم تعمل من أجل مجد بريطانيا إلا بالقدر الذي تتطلبه حقيقة أن شرف أية دولة يمثل مجدها . إن كل ما انصرفت إلى القيام به إنما تم من أجل العرب ، الذين حظوا بحبها لهم ، وفهمها بواقعهم وطبيعتهم ، على نحو لم يلمسوه إلا من القلة القليلة من الناس . لقد قُدر لمشاكلهم ، الغريبة منها والجماعية على حد سواء ، أن تملأ عليها حياتها ، أما وقد باتوا الآن أقل احتياجاً لها فصدمة عنيفة كادت تفوق قدرتها على التحمل .

كانت جيرتروود قد عادت إلى بغداد في الخريف المنصرم ضد مشورة أطبائها . وكان لابد لقرارها بقضاء فصل الصيف فيها أن يشكل مصدر قلق كبير لأفراد أسرتها ، لا سيما في ضوء مرضها الذي أعقب عودتها ، وهو مرض لم تشف منه تماماً على الرغم من أن رسائلها تخلو من أي ذكر له . ومن جانب آخر ، لا تشير هذه الرسائل كذلك إلى ما هو أكثر من مجرد شعور اعتيادي بالأسف على اضطرارها إلى ترك وطن ثان ، وعمل مثمر ومثير للاهتمام بشكل يستحوذ على الذهن تماماً لما ينطوي عليه من متعة . إلا أن العديد من أصدقائها في بغداد كانوا على بينة من حقيقة الوضع الذي كانت فيه ، كما كانوا على بينة أيضاً من واقع أن وضعها الصحي كان من شأنه أن يجعل من عملها في متحفها العزيز إلى قلبها ، وتحت وطأة موسم الحر القادم ، ممارسة محفوفة بالخطر . وبذلك فإنهم كانوا بدورهم

أيضاً يشعرون بشيء من القلق نحوها .

وفي رسالتها المؤرخة في السادس والعشرين من شهر آيار ، والموجهة إلى زوجة أبيها ، تقول الآنسة بيل : « آمل أن لا تظنوا بأنني على خطأ عندما أعرب عن عدم تمكني من الرحيل عن بغداد تاركة قطعي الأثرية « My antiquities» غير مرتبة وغير مصونة . وإنني أقوم بمراسلة أبي حول هذا الموضوع . وسأرى لاحقاً كيف ستتبلور الأمور ، إلا أن السفر إلى الوطن ، ومن ثم العودة منه (إلى بغداد) لاستكمال ما ينبغي استكماله من مهام ، لأمر مكلف للغاية الأمر الذي يجعلني ميالة إلى العمل على إنهاء مهامي كافة ومن ثم الرحيل . إن موقفي هذا لا يعني بأي حال من الأحوال بأنني لا أريد لقاءكما ، أنت وأبي ، ولكنني أدرك تماماً أنكما تفهمان عدم قدرتي على ترك كل ما تم لي القيام به حتى الآن لأجد نفسي بعد ذلك من غير ارتباط . لا يمكنني أن أرى بوضوح أين سأتجه في المستقبل ، ولكنني أدرك بطبيعة الحال أنني لا أتمكن من البقاء هنا إلى الأبد . إنني بدأت الشعور بهذا الوضع عندما بدأ بيرنارد بورديلون العمل هنا ، وكذلك السير هنري ، فوجودي في المكتب لم يعد ضرورياً . إنني أرغب في البقاء للعمل في مديرية الآثار شريطة أن يتيح لي العمل فرصة العودة إلى الوطن في كل عام ، ولكنني لا أرى أي مبرر منطقي يدفعني إلى التوجه إلى الحكومة العراقية لغرض تعييني في وظيفة دائمة . إن من يشغل منصب مدير الآثار يتعين عليه أن يحسن قراءة اللغة المسمارية ، كما ينبغي له أن يكون من بين من تم لهم اكتساب الخبرة والتدريب الكافيين في عمل المتاحف . إن جل ما يمكنني القيام به هو المساعدة في مجال التغلب على الصعوبات التي قد تعترض ما ينبغي القيام به وإنجازه من أعمال ، لا غير ! ويفترض في أن أكون نافعة في حال تمكن أندريه Andrae من المجيء إلى بابل . و على الرغم من كل ذلك ، أشعر أني ممزقة بينكم وبين وضعي هنا .

كم تمنينا أنا ولايونيل أن تكون معنا عندما كنا نشرب الشاي معاً ، ونناقش البرنامج الجامعي الذي يعمل لايونيل على إعداده . إن السير هنري يلح في طلب تأسيس فرع لدراسة الفنون الجميلة . وتتمحور فكرة لايونيل حول الجمع بين اللغات والآداب مع التاريخ والاقتصاد السياسي ، الخ . وفي إطار دراسة المواضيع التاريخية المتخصصة ، اقترحت بدوري ضرورة شمول تاريخي بابل وآشور . كم أرغب في إلقاء المحاضرات في هذه المواضيع ، بيد أنني أدرك أن تنفيذ المشروع يتطلب وقتاً طويلاً . ومع ذلك ، فلدى السير هنري طاقة كبيرة على تحريك الأمور ، وإعطائها ما تحتاج من نشاط وحيوية ، وهي طاقة طالما وجدت نفسي أقف مذهولة إزاءها . وأقوم في الوقت الحاضر بمطالعة مذكرتين له ، جديرتين بالاحترام ،

تتمحور أولاهما حول الجامعات والدراسة فيها بشكل عام ، وتتعلق الثانية باعتماد الطرق الملائمة لتأجير الأراضي الأميرية .»

أما في رسالتها المؤرخة في التاسع من شهر حزيران ، والتي وجهتها إلى أبيها ، فإنها تتحدث عن قرب عقد المعاهدة مع تركيا قائلة : « يلوح أمامنا بشكل أكبر من أي شيء آخر قرب انعقاد المعاهدة مع تركيا ، الأمر الذي يمنح الفرد شعوراً كبيراً بالراحة . أما الملك فإن وجهه يفيض بالبشر والسرور . ألا يعتبر هذا التحول التام في موقفهم (الأتراك) أمراً رائعاً؟ ونحن من جانبنا لا نكاد نصدق أن الخطر قد زال . سيجلب لنا نوري باشا نص المعاهدة يوم السبت ، إلا أننا على علم تام بتفاصيلها ، بطبيعة الحال ، إذ أن كل نقطة من نقاطها شكلت موضوعاً لسلسلة من البرقيات المتبادلة . ويشعر الجميع أن العراق يدفع ثمناً بخساً ، إذا ما أدركنا ضرورة قيامه بدفع ثمن «في كل الأحوال» وهو أمر مفروغ منه على ما أفترض وذلك من باب حفظ ماء الوجه بالنسبة للأتراك .

يتمتع برنارد بورديلون حالياً بإجازة ، الأمر الذي يعني زيادة حجم الواجبات الملقاة على عاتقي . وعلى الرغم من ذلك لا زلت أتمكن من تجنيد ما يقرب من ساعة ونصف من وقتي لمتابعة الأمور والواجبات الخاصة بالمتحف وذلك في أثناء الساعات الأولى من الدوام ، على الرغم من اضطراري أحياناً إلى جلب بعض الأعمال الورقية إلى الدار ، واستكمال ما تتطلبه من عمل .

وصل إيلتيد من الموصل لقضاء بضعة أيام في بغداد ، مما يشكل مصدر سعادة كبيرة بالنسبة لي . قضيت طيلة صباح يوم الأحد مع الرائد الطيار هارنيت Squadron-Leader Harnett[٤] في المتحف . وبعد الشاي انطلقت مع كورنواليس إلى الكرادة حيث تمكنا من اصطياد أربع فراشات رائعات من ذوات الذنب المفروق ، والتي لم نكن قد شهدنا مثيلاً لها قبل هذه المناسبة الأمر الذي أبهجنا كثيراً .»

يتصدر افتتاح أولى قاعات المتحف العراقي رسالة الآنسة بيل المؤرخة في السادس عشر من شهر حزيران . وبهذا الصدد تقول : « شهد يوم الاثنين مراسم افتتاح أولى قاعات المتحف من قبل صاحب الجلالة . أما اليوم فقد فتحت أبواب المتحف للزائرين ، وعندما وصلت إلى المتحف في الثامنة والنصف صباحاً رأيت عدداً من البغدادين – تراوح عددهم بين خمسة

---

(٤) كان الرائد الطيار هارنيت من بين الذين كانوا يقدمون خدمات طوعية مجدية إلى الآنسة جيرتروود في مجال عملها في المتحف – المترجم

عشر وعشرين زائراً - يتجولون في أطراف القاعة بصحبة القيّم عليها ، وهو من أبناء العرب .

يتعين علي ، على ما أتوقع ، تكريس أوقات معينة لزيارة قريبات جلالة الملك اللواتي وصلن إلى بغداد قادمات من عمان بصحبة أعداد لا تحصى من الخدم والحشم - أي جدة جلالته ، وعدد غير معلوم بالضبط من العمات والخالات ، وزوجة الملك علي وأطفالها الثلاثة . لا أدري كيف سيتم إيواؤهم وأين؟ إن ما أعلمه على الأقل بهذا الصدد هو أن معيشتهم وإقامتهم ستكون على حساب جلالته . إنه يقوم بإعالة كل أفراد العائلة ، على ما يبدو ، باستثناء والده ، وأخيه سمو الأمير عبد الله .

إن الأخبار السورية شنيعة ومرعبة للغاية - فالفرنسيون يرتكبون جرائم وحشية لا تغتفر . لقد تم التعتيم على أخبار القصف الثاني لمدينة دمشق على ما أفهم ، إلا أن هذا العمل المنكر قد تسبب بدمار ربع المدينة ، ولقد تأثرت جداً نتيجة سماع هذه الأنباء المروعة ، وبشكل خاص بتفاصيل القصة التالية . كان هناك وطني غيور من بين كبار ملاكي الأراضي الأغنياء في سوريا ، وكان له علاقة بالاعتداء الذي تعرض له الجنرال غورو General Gouraud في عام ١٩٢٢ ، على ما أظن ، وقد فر من سوريا إثر ذلك ملتجئاً إلى عمان أولاً ومن ثم إلى مكة . وبعد تنازل جلالة الملك الحسين عن عرش مملكة الحجاز ، جاء هذا الشخص إلى بغداد ملتجئاً إلى الملك فيصل الذي أحسن وفادته وأسكنه في مزرعته في منطقة خانقين ، ليبتعد عن الحدود السورية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . لم يعلق الفرنسيون على هذا الإجراء ، كما أن المندوب السامي (البريطاني) قرر تجاهل الأمر ، وتجنب ما قد يثيره من مشاكل . وأنا التقيت الرجل هذا مراراً واحترمته تماماً مثلما قد يحترم أي منا شخصية فذة مثل غاريبالدي Garibaldi(٥) . كان وطنياً غيوراً . وتفادياً لإطالة التفاصيل عليك ، فإن الشخص هذا انسل عبر الحدود عائداً إلى سوريا حيث بدأ يقود مجموعات مسلحة من أبناء الدروز . وقد تمكن الفرنسيون أخيراً من إلقاء القبض عليه وعلى أخيه وإعدامهما ، وهو إجراء لهم كل الحق في اتخاذه ، على ما أفترض إلا أنهم لم يكتفوا بالإعدام بل نقلوا الجثتين إلى دمشق ، وبعد تجريدهما من الملابس وضعوا كلاً من الجثتين على ظهر حمار وراحوا يلفون بهما أرجاء الشام ليكونوا عبرة لمن اعتبر على حد تفكيرهم . إلا

---

(٥) القائد العسكري الإيطالي ، وأحد الشخصيات الثلاث الذين أسهموا في تحقيق الوحدة الإيطالية ، أي غاريبالدي القائد ، ومازيني ، ملهم الحركة والأب الروحي لها ، وكافور ، السياسي والوزير الأول لمملكة ساردينيا في حينه - المترجم

أن من شأن هذا العمل المنكر أن يحول أكثر الناس هدوءاً إلى وطنيين متطرفين . وأنا أسمع الكثير من هذه القصص إلا أنني لا أعرف من هم الضحايا . ترى كيف يمكن للسوريين أن يغفروا هذه الجرائم للفرنسيين؟»

وفي التاريخ ذاته (أي ١٩٢٦/٦/١٦) ، كتبت جيرتروود رسالة إلى صديقها السيد ولسون قائلة : «لا تبشر آفاقي المستقبلية بخير أبداً . فاضطراب عمال الفحم الحجري (في بريطانيا) قد أضر بمصالح العائلة إلى حد كبير . لا أدري ما الذي سيكون عليه حالنا (الحديث عن عائلتها) هذا العام . وأنا من جانبي منهمكة بالمهام الخاصة بالمتحف مما يحول دون تمكني من التوجه إلى إنجلترا ، ومشاركة أهلي هذا الظرف العصيب . لا يمكنني ترك شؤون المتحف على ما هي عليه حالياً من فوضى ، وعليه يحتمل بقائي هنا طيلة فترة الصيف ، وعندما أعود إلى الوطن ستكون عودة لا رجوع بعدها إلى العراق . ويمكنني القول أنني ، وباستثناء عملي في المتحف ، لا أستمتع بحياتي هنا . يتولد لدى المرء إحساس حاد بقربه من نهاية الأشياء ، وهو إحساس يشوبه شيء من الغموض فيما يتعلق بما سيتجه إليه من نشاط بعد ذلك . كما أن الحياة رتيبة ومملة خارج إطار عملي آنف الذكر . وأجد نفسي أحياناً عاجزة تماماً عن إيجاد سبيل يمكنني من أن أشغل نفسي . لقد عاد إيلتيد إلى الموصل ، ويحتمل أن يتم استدعاؤه من قبل وزارة الحربية . ويأتي لايونيل في أغلب الأحيان لتناول الشاي معي ونتجاذب أطراف الحديث . كما أذهب إلى الكرادة من حين إلى آخر بصحبة كين الذي يأتي لزيارتي في أغلب الأحيان قبل موعد العشاء . ولكن العيش هنا يُشعر المرء بالوحدة في هذه الأيام .»

***

كانت الاضطرابات في إنجلترا ، والجوانب الصعبة التي تواجه العمل التجاري فيها ، قد أجبرت السير هيو بيل ، والد جيرتروود ، على إجراء تخفيضات شديدة في المصروفات ، وهي جوانب كان لها أثرها البارز على الآنسة بيل نفسها . ومن الواضح جداً إنها كانت ترغب في تقديم خدمات مجانية للحكومة العراقية في مجال النشاط الآثاري ، وتواصل العيش في بغداد ، مع احتمال قيامها بزيارات طويلة إلى بيتي العائلة في كل من مقاطعة يوركشاير ، وفي لندن ، وذلك أثناء فصل الصيف . إلا أن الظروف المذكورة قد حالت دون تمكنها من الاستقالة من منصب السكرتيرة الشرقية ، وما يترتب على ذلك من انقطاع راتبها

ومخصصات السكن التي كانت تشكل القسم الأكبر من بدل الإيجار الذي كان يتوجب عليها دفعه لقاء سكنها في دارها المستأجرة . ومع ارتفاع شدة الحرارة في أيام الصيف القائظة ، لتصل إلى ما يقرب من مائة وعشرين درجة فهرنهايت ، راحت تواصل العمل في المتحف خلال الوقت الفائض لديها بهدف تحقيق سير أعماله وفق أسس منظمة . ولابد أن نذكر أن عمليات التنقيب عن الآثار كانت بالأساس قد بدأت قبل أربعة أعوام استجابة إلى طلبها الملح بهذا الاتجاه ، وكانت قد تعهدت بإعطاء المكتشفات والقطع الآثارية كل الحماية والرعاية ، وبذلك لم يكن بوسعها أبداً أن تترك القطع الثمينة التي تم استكشافها ملقاة هنا وهناك بحالة من الفوضى في المبنى الجديد للمتحف ، والذي كان قد تم نقل هذه القطع إليه بشيء من العجلة .

وقد أخبرت أهلها في بريطانيا بأنها قد تشهد تحقق ما يكفي من النظام في المتحف في غضون شهرين من الزمن تستطيع بعدها التمتع بإجازة . ولكن لم يكن بمقدورها التمتع بإجازة يتجاوز أمدها خمسة أشهر ، الأمر الذي يعني اضطرارها إلى العودة إلى بغداد لاستكمال عملها ، وبذلك لم تجد مبرراً كافياً لتكبد مصاريف باهظة ، وهو ما يترتب على سفرها إلى إنجلترا ومن ثم العودة منها . إلا أنها بطبيعة الحال لم تكشف لأهلها عن حقيقة المخاوف التي كانت تساورها وذلك حول احتمال قيام الأطباء بعدم السماح لها بالرجوع إلى العراق في حال ذهبت إلى إنجلترا .

ووسط تعارض المتطلبات التي تفرضها الواجبات ، وتلك التي تفرضها الرغبات ، والتي راحت تتجاذبها ، بفعل رهبتها من النظر إلى المستقبل ، انصرفت جهودها إلى العمل في متحفها الحبيب ، وهي تشعر بامتنان شديد لما كان يقدمها لها الرائد الطيار هارنيت والسيد كووك من عون ودعم ، ولكنها كانت تفتقد دائماً خبرة السيد ولسون ، واطلاعه الواسع في هذا المجال . وكانت تشعر بالوحدة أيضاً ؛ لقد سافر كل أصدقائها المقربين ، بما فيهم الملك ، في إجازاتهم . وكانت تحضر حفلات وداعهم ، حفلة تلو الأخرى ، وتخرج إلى محطة قطار «غربي بغداد»[٦] لوداعهم . وتذكر صديقتها إلسي سندرسن ، زوجة الطبيب هاري سندرسن ، كيف راحت الدموع تنهمر من عينيها عندما رأت منظر جيرتروود وهي تقف

(٦) كان في بغداد في ذلك الوقت محطتان لقاطرات السكك الحديدية : محطة «غرب بغداد» التي كانت القطارات تنطلق منها إلى البصرة والموصل ، ومحطة «شرق بغداد» التي كانت تنطلق منها القطارات إلى كركوك مع وجود خط فرعي يصل إلى جلولاء وخانقين - المترجم .

وحيدة على رصيف المحطة وقد بدت هزيلة ، وصغيرة الحجم ، أشبه بورقة نبات يمكن لمجرد نفس أن يعصف بها بعيداً .

ومن حسن الحظ أن تشهد الآنسة بيل في بداية شهر تموز زيارة خاطفة لاثنين من أصدقائها ، وهو ما دونته في رسالتها المؤرخة في السابع من الشهر المذكور الموجهة إلى أبيها ، والتي قالت فيها : «زارنا السيد بيرسي لورين في طريق عودته إلى الوطن . إنه يشعر بالحزن بسبب رحيله عن بلاد فارس حيث تم له تحقيق نجاح باهر في مجال عمله . إلا أن رحيله عن بلاد فارس ، على ما أظن ، قد جاء في لحظة ميمونة . لقد راهن على رضا شاه - كان الأخير هذا في الواقع الشخص الوحيد الذي يمكن المراهنة عليه أساساً . إلا أن الأخبار من بلاد فارس تثير القلق . فقد يكون رضا شاه الرجل المناسب ، أو لعله لا يكون . وفي حال لم يكن الشخص المناسب فإن البلاد ستصبح في وضع أسوأ . وفي كل الأحوال ستكون الأوضاع صعبة .

أقام السير هنري مأدبة عشاء ممتعة على شرف السير برسي جلب خلالها فرقة رقص روسية قامت بتأدية عروض جميلة . وقد جلسنا لمشاهدتها في بهو الحفلات الكبيرة ونحن نشعر بأننا متحضرون! إنني أحب التقاء السيير برسي بسبب كونه صديقاً مخلصاً .

زارنا إيلتيد يوم أمس قادماً من الموصل . إنه ينوي الإقامة لبضعة أيام ، وهو أمر يسرني إلى أبعد الحدود . إنه يعتبر إضافة مرحباً بها لمجموعتنا ، لا سيما عند ذهابنا لممارسة السباحة .»

***

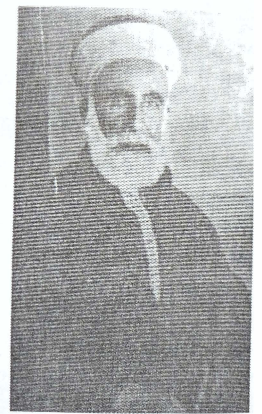
كانت الرسالة أعلاه ، وأخرى موجهة إلى زوجة أبيها ، آخر رسالتين قدر للآنسة بيل كتابتها قبل رحيلها عن هذا العالم . ففي مساء يوم الأحد التالي ذهبت كعادتها للسباحة . وقبل ذهابها إلى الفراش طلبت من خادمتها ، ماري ، إيقاظها في السادسة من صباح اليوم التالي . وكانت ماري ، شأنها بذلك شأن العديدين من أصدقاء الآنسة بيل والمقربين منها ، تشعر بالقلق على سيدتها . وبعد أن أوت جيرتروود إلى فراشها ، انسلت ماري بهدوء إلى غرفة سيدتها للتأكد من أن كل شيء كان على ما يرام . كانت جيرتروود تغط في نوم عميق ، لكنه كان نوماً اندمج بآخر لم يكن من الممكن إيقاظها منه عندما انجلت الليلة الشرقية الساخنة .



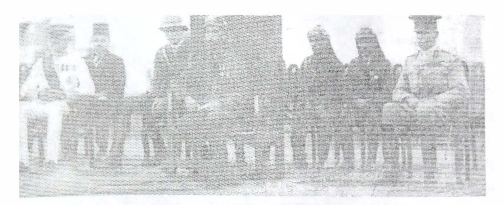
المغفور له الملك عبدالعزيز آل سعود والسير برسي كوكس المندوب السامي البريطاني في العراق



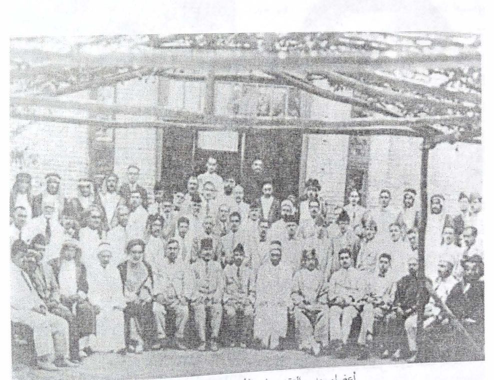
المغفور له الملك فيصل الأول ملك العراق



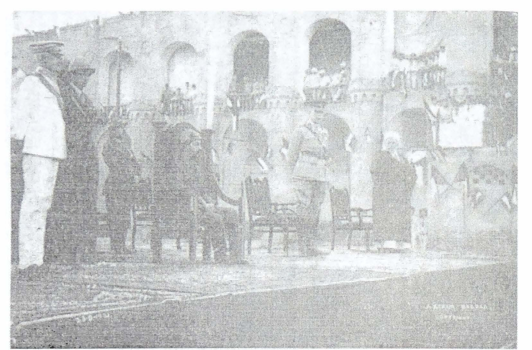
المغفور له الحسين الأول سليل الدوحة الهاشمية ووالد الملك فيصل الأول ملك العراق



حفلة تتويج المغفور له الملك فيصل الأول ملكاً على العراق . ويظهر إلى يمينه كل من السير برسي كوكس وكنيهان كورنواليس ، وإلى خلفه المرافق توفيق الدملوجي ، وإلى يساره الجنرال هالداين والسيد محمود النقيب الذي حضر الحفل بالنيابة عن والده المغفور له السيد عبدالرحمن النقيب



أعضاء حزب التقدم وفي الأمام عبدالمحسن السعدون



المغفور لهما الملك فيصل الأول ملك العراق ومرافقه الأقدم نوري باشا السعيد في القاهرة في عام 1921



المغفور له الملك فيصل الأول ملك العراق في مناسبة افتتاح المتحف العراقي ويظهر إلى يمين جلالته السير هنري دوبس المندوب السامي البريطاني في العراق



مؤتمر القاهرة وتظهر فيه الآنسة جيرتروود بيل مع السير ونستون تشرتشل وبرسي كوكس وجعفر باشا العسكري
وساسون حسقيل والجنرال هالداين



جيرتروود بيل ورفاقها في بغداد في عام 1924 ويجلس إلى يمينها كل من السيد ساسون حسقيل وزير المالية والـ
كنهان كورنواليس مستشار وزارة الداخلية الذي أصبح فيما بعد سفير بريطانيا لدى العراق



المغفور له الشريف فيصل بن الحسين (الثاني الى اليمين) أثناء زيارته إلى شيوخ الدليم قبل اندلاع العربية الكبرى



عبدالكريم بك السعدون وطالب باشا النقيب ،
اسطنبول 1905


المغفور له السيد عبدالرحمن النقيب ، نقيب أشراف بغداد ورئيس أول حكومة عراقية مؤقتة شكلت قبل تشكيل الحكم الوطني في العراق


المغفور له الأمير زيد بن الحسين


السير أرنولد ولسون



المغفور لهما الملك فيصل الأول ملك العراق ومرافقه الأقدم نوري باشا السعيد في القاهرة في عام 1921



المغفور له نوري باشا السعيد





المغفور له عبدالمحسن بك السعدون

لعلّ اهمّ ما تتميّز به رسائل الآنسة بيل ، انّها صور حيّة لشخوص عامّة ، واحداث في طور التكوين ، تحمل في طيّها انطباعات وآراء صريحة ومخلصة وصادقة ، وبعيدة كلّ البعد عن صيغ التكلّف . انها قد تفتقر ، في بعض اوجهها ، الى الموضوعيّة احياناً ، بل قد تتجاوز حدود اللياقة في احيان اخرى ، بيد انّها اصيلة ولاذعة تنبض بالحياة ، وتنطوي على الفراسة وعلى درجة عالية من جماليّات الوصف وروح النكتة ، والاهمّ من ذلك كله انّها تعكس صورة لامرأة احبّت العراق وعشقت اجواءه وطبيعته ، بكلّ ما لهذه الاجواء والطبيعة من اوجه التناقض ، وشعرت بأنّها كانت جزءاً لا يتجزّأ منه ، وأرادت - بطرقتها الخاصّة ، وفي اطار ما تربّت عليه من مفاهيم ، وما انصرفت الى اعتماده من معايير - أن تسهم اسهاماً فاعلاً في اعادة بنائه لينهض مرّة اخرى صرحاً حضاريّاً جديراً بأن يكون مركز اشعاع وسليلاً لأعراق حضارات الارض ، ومن اكثرها أثراً على السياق التاريخيّ لبني البشر .

نمير عبّاس مظفّر

19. 2. 25

My dear miss Bell,
How are you?
I am sending
Hamid and Sesse in
the motor-car for the
. Thank you
very much.

Ghazi

منشورات 2002
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ١١-٥٤٦٠
العنوان البرقي : موكيالي
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨